

السُّبُوحُ الْمَعْرِي

في الأدب العربي

تأليف

عبد الله كنون

٣-١

التَّبَوُّغُ الْمَغْرِبِيُّ
في الأدب العربي

التَّبْوِغُ الْمَغْرِبِي

في الأدب العربي

تأليف

عبد الله كَنُون

المجلد الأول

مقدمة الطبعة الثانية

هَذَا الْكِتَابُ

لما ألفتُ هذا الكتاب ، لم أكن أهدفُ به الى تمييز أدب المغرب بميزةٍ ليست في الأدب العربي العام ، ولا الى تخصيصه ببحث مستقل يجعله في نظر المغاربة أو غيرهم كتاباً خاصاً بأدب قطر من أقطار العروبة على حدّته ، وإنما كان مقصودي الأهم من تأليفه ، هو بيان اللبنة التي وضعها المغرب في صرح الأدب العربي الذي تعاونت على بنائه أقطارُ العروبة كلّها ، وذكر الأدباء المغاربة الذين لم يُقَصِّروا عن إخوانهم من المشاركة ومغاربة بقيّة أقطار المغرب العربي في العمل على ازدهار الأدبيات العربية على العموم .

وذلك لأنني رأيت منذ نشأتي الأولى إهمالَ هذا الجزء من بلاد العروبة في كتب الأدب وكتب تاريخ الأدب ، حتى لقد تذكرتونس والجزائر ، وبالحرقى القيروان وتلمسان فضلاً عن قرطبة واشبيلية ، ولا تذكرُ فاس ومرّا كش مجال من الأحوال . وظننتُ أولاً أن ليس لبلادي في هذا المجال مشاركة ، وإنما حسبها ميادينُ البطولة والجهاد والفتح ، ولذلك لا يسمُ المؤرخين وكتّاب التراجم الا أن ينوهوا بشخصيات يوسف بن تاشفين ، وعبد المؤمن بن علي ، ويعقوب المنصور ، وأبي الحسن المريني ، وأضرابهم من أبطال المعارك وأرباب الحكم والسلطان ، ويثنوا على أعمالهم ومساعدتهم في خدمة الاسلام ، وتوطيد دولته ؛ في حين أنهم لا يُعَيرون اهتماماً لرجال العلم والأدب ، ولا يُعرِّجون على ما كان لهذا الوطن العزيز من صولة في عالم الفكر وميدان العرفان .

ثم لما بحثتُ ونقبتُ ، وجدتُ كنوزاً عظيمة من أدبٍ لا يقصُر في مادّته عن أدب أيّ قطر من الأقطار العربية الأخرى ، وشخصياتٍ علميّة وأدبيّة لها في مجال

الانتاج والتفكير مقامٌ رفيع . ولكنّ الأهمّـال قد عفّـى على ذلك كله ، وعدمّ الاهتمام بجمعه في كتاب ، والتنبّيه عليه في خطاب أدبّي الى وأدبه ، فاحتاج الى من يبعثه من مرقدّه .

وقد شمرّت عن ساعد جدّي ، وأنا يافع لم يَبْقُلْ بعدُ عارضي ، فتتبعت جميع ما وصلت اليه يدي من آثار أدبية مغربيّة ، وأخبار عن أدباء المغرب وعلمائه ، ثمّما وقفت عليه في الكتب والأوراق والمحافظ ، أو تلقّفته من أفواه المشائخ والأدباء والأقران ، وجمعت ذلك كلّهُ في كتاب النبوغ ودفعت به الى المطبعة منذ بضع وعشرين سنة ، لعلّي أرفع الضيم عن بلادي ، وأثبت مركزها في حظيرة العلم والأدب ، على ما هو عليه مركزها في السياسة والحرب أو أعظم .

ولقد وفّقت الى ما أردت أو بعض مما أردت ، على ضعف وسائل المادية والأدبية في ذلك الحين ، فكان للكتاب صدّى بعيد في الداخل والخارج ، نبّه الزملاء والناشئين بعدُ الى العناية بهذه الناحية من تاريخهم ، وأثار اهتمام الباحثين والمُعنيّين بهذه الشؤون في الشرق والغرب ، حتى قال فيه أمير البيان المرحوم الأمير شبيب أرسلان « ان من لم يقرأه فليس على طائل من تاريخ المغرب العلمي والأدبي والسياسي » وصار العلامة الأستاذ كارل بروكلمان ، الحجة في تاريخ الأدب العربي يعتمدّه في ملحقات كتابه العظيم ، عن تاريخ هذا الأدب . ولا يمكنني في هذه العجالة أن أستوعب أسماء جميع الأدباء والكتّاب الذين تناوّلوه بالنقد والتقرير في مختلف الصحف والمجلات منذ صدوره الى الان . ولكنني أشير الى إقرار العالم الايطالي الشهير جيوفاني بيانكي في مقال له بمجلة الشرق الحديث^١ عن الكتاب « بإبرازه للمساهمة التي أبدّاها المغرب في الآداب العربية ، تلك المساهمة التي أهملت حتى اليوم ، ولم تُقدّر كما كان ينبغي » وهذه هي الغاية التي من أجلها الفت النبوغ . وكذلك أشير الى ما جاء في مقال عنه للدكتور محسن جمال الدين ، نُشِرَ بمجلة الأديب البيروتية منذ عهد قريب^٢ وهو قوله : « ان فضيلة هذا الكتاب في أنه يختص بدراسة

١ - انظر ترجمته في مجلة العالم العربي (عدد اول سنة ثانية) بقلم المستشرق « اميليو بوسي » ، وكان الكاتب اطلع على الترجمة الاسبانية للكتاب .

٢ - عدد سبتمبر ١٩٥٨

أدب بلاد المغرب الأقصى وتاريخه ويستخرج النصوص من خزائنها النادرة ، ذات المخطوطات النفيسة ، ويعرض لنا نماذجها الحسنة . ودراسة شخصياتها المعتبرة-، وهو بعيد عن ابتذال القول وضعف الرأي ... والذي يدرس منا كتاب « النبوغ المغربي » فستُدْهِشُهُ هذه الوفرة الزاخرة من أسماء الرجال والمؤلفات والنصوص ، ويتأكد بعدها أن أغلب أصحاب حِرْفَةِ الأدب عندنا أو حَمَلَةِ العلم في جامعاتنا ، لم يسمعوا بها أو يقتنوا من آثارها ، أو يحفظوا بعض أشعارها ونثرها ، وما عمل المؤلف المفضل ، والصدیق الكريم الا صِيْحَةً داويةً ، ودعوةً حارةً ، وغرساً مُثْمِراً لجِذْلِهِ الحاضر ، ولأجيالنا القادمة في الوطن العربي كافةً ، وفي عالم الحضارة العالمية الواسعة . وهذا وصفٌ للمجهود الطائل الذي بذلته في تأليف النبوغ ، بقلم استاذ جامعي يعرف قيمة البحوث المبتكرة التي لم تُنْسَجْ على منوال سابق .

وكان المرحوم الاستاذ سعيد حُجِّي يُعلنُ عنه في جريدة المغرب عند صدوره بهذه العبارات « حادث خطير في تاريخ المغرب ، ظهورُ كتاب النبوغ المغربي في الأدب العربي ، أول كتاب من نوعه ، وأوفاهُ في موضوعه » ، وألقى بأحد نوادي سلا محاضرةً عنه بعنوان (خطوة عظيمة في تاريخ الفكر المغربي) نشرها في العدد الثامن وما بعده من الملحق الثقافي لجريدة المغرب .

ثم كانت موافقةً عجيبةً أن أُعلنَ في مصر عن جائزة للدولة قدرها خمسمائة (٥٠٠) جنيه ، خُصِّصَتْ لمن يؤلف عن الأدب العربي في القطر المصري ، من الفتح الاسلامي الى العصر الحاضر .. فكتب الأستاذ حُجِّي مُعلِّقاً على هذا النبأ بالملحق المذكور ما يلي : « من حُسن الصُّدَف أن تهتم وزارة معارف مصر بوضع جوائز عن الأدب المصري في الماضي ، في نفس الأسبوع الذي يصدر فيه كتاب مغربي عن الأدب المغربي في ذلك الماضي ، فيكون المغرب أسبق الى تلك المفخرة من كل الأمم الناطقة بالضاد ولكن يجب أن تتساءل ماذا ينال مؤلفنا من تقدير ادارة العلوم والمعارف ، وما يستحقُّه من تشجيع من جمهور المثقفين ؟ فنحن 'نهيب' بتلك الادارة الى الاهتمام بهذا المؤلف الحافل ، ونرجو أن تشتري منه بضع مئات من النسخ تقديرًا لمجهودات مؤلفه الثمينة ، وتشجيعاً لمثل هذه المباحث القيمة . » وقد كان الجوابُ على هذا النداء النبيل هو صدورُ قرار عسكري بمنع رواج الكتاب ، ومُعاقبةٍ من تَضَبَّطَ عنده نسخة منه . ونصُّ ما كتبتُه جريدة السعادة ،

لسان حال حكومة الحماية ، بعددها رقم ٤٥٩٢ في هذا الصدد تحت عنوان بلاغ عسكري (أصدر سعادة الجنرال خليفة سعادة القائد الأعلى للجنود بالنيابة أمراً يقضي بمنع الكتاب الملعون بالنبوغ المغربي في الأدب العربي الصادر باللغة العربية في تطوان من الدخول الى المنطقة الفرنسية بالمغرب الأقصى ، وكذلك بيعه وعرضه وتوزيعه ، ومن خالف ذلك يُعاقب بمقتضى القوانين المقررة .. »

واذا كان لهذا القرار دلالة فهي تأكيدُه لكون الكتاب عملاً وطنياً فوق كونه عملاً أدبياً ولذلك استحق أن يحظى من الاستعمار الفرنسي الغاشم بهذا الجزء الظالم .. وكان أن تارت تائراً الصحف الوطنية بتطوان ضد هذا التدخل العسكري الاستبدادي في شؤون الفكر والثقافة ، فكتبت كل من جريدة « الحرية » وجريدة « الوحدة المغربية » مقالات نارية تنتقد فيها القرار المذكور وتندد بالحرية الفرنسية المزعومة ، مما جعل الصحافة الاستعمارية تُصاب بالسُّعار ، فتصُب جام غضبها على الوطنية المغربية عموماً ، وتخصني بحملات عدائية انتهزها الأذئاب والمنافقون ، فلم يقصروا في الأذى والضرر .

ومن الانصاف أن أقول ان هذا كان في الجنوب أو المنطقة السلطانية إذ ذاك . وأما في الشمال أو المنطقة الخليفية ، فقد تلقى الكتاب بقبول حسن من لدن السلطة ، واقتنت منه ادارة المعارف كميةً من النسخ ، وزعتها على المكتبات والمعاهد في المنطقة . ثم لما ترجم إلى الاسبانية بمعرفة الاستاذين خير ونيمة كريبو أورد ونييز ومحمد تاج الدين بوزيد ، قابلته المحافل الأدبية في أسبانيا بمزيد من التقريظ والتقدير ، وبلغ الأمر أن وصلتني رسالة من وزارة الخارجية الاسبانية بتاريخ ١٨ نوفمبر ١٩٣٩ تلمني بأن وزارة المعارف العمومية لهذه البلاد ، قد منحتني درجة دكتوراه شرف للآداب من جامعة مدريد بمناسبة صدور كتابي النبوغ المغربي في ترجمته الاسبانية ، وتدعوني الى زيارة اسبانيا في رحلة تستغرق شهراً على نفقة الحكومة . وجاءت هذه التحية الكريمة في الوقت المناسب ، فمحت من نفسي آثار المعاملة السيئة التي عومل بها الكتاب من السلطات الفرنسية وعملائها ، ورددت الجواب بالشكر وعرفان الجميل ولكنني أجلت السفر الى أن يشاء الله تجنباً للقييل والقال .

هذه قصة كتاب النبوغ المغربي باختصار ، من لدن التفكير في وضعه وجمعه ،

الى ما بعد طبعه ومنعه . والآن وقد مرت على ظهور طبعته الأولى هذه المدة الطويلة ، وكثر الطلب عليه من مختلف الجهات وخصوصاً بعد استقلال المغرب ، وتوجُّه الأنظار الى هذه البلاد التي كانت محاطةً بستار حديدي من نظام الحماية ، يمنع الاتصال بينها وبين شقيقاتها العربيات ، والأوطان الإسلامية الأخرى ، وسائر العالم الحر ، فان الحاجة أصبحت جدًّا ماسَّةً إلى إعادة طبعه ، وتقديمه وثيقةً وسنداً الى جميع هؤلاء الذين يهمهم الوقوف على تاريخ المغرب الفكري وماضيه الحضاري . ولكن بعد مراجعته طبعاً وتجديد النظر في محتوياته من مادة وفكرة وترتيب ، ضرورةً أن المعلومات التي كانت لدينا زمن تأليفه هي غير المعلومات الآن ، والتفكير وسائل العمل ، قد تطورت بتطور الزمن ، فلم يكن بُدَّ من ادخال تعديل جوهري عليه يتلخص فيما يلي :

أولاً -- اضافة المواد الجديدة التي وقفنا عليها بعد ، سواء فيما يرجع الى تراجم الأشخاص أو الآثار الأدبية ، أو الدراسات الموضوعية التي تناولناها في مختلف العصور ، فقد ظهرت في عالم الطباعة كتب مهمة لها اتصال وثيق بموضوعنا كمجموعي رسائل موحدية ، ورسائل سعدي ، ورابع البيان المغرب لابن عذاري ، ومغرب ابن سعيد ، والغصون اليانعة ، ورايات المبرزين له ، واطَّلعنا على الحماسة المغربية للجرأوي ، ونثير الجمان لابن الأحمر والمدارك للقاضي عياض ، ورحلة ابن رُشيد ، وغير ذلك من المخطوطات النادرة التي تحتوي على موادَّ أساسية في الموضوع كان من الضروري أن تُضاف الى أماكنها وتُكتمل عناصر البحث .

ثانياً -- تصحيح بعض الأغلط التي وقعت لنا في كتابة بعض التراجم ، ونسبة بعض الآثار الأدبية والعلمية لغير مَنْ هي له ، والحكم في بعض المسائل بما ظهر لنا خلافه وما الى ذلك . ويُقوِّي الداعي الى هذا التصحيح أننا رأينا الذين كتبوا في موضوع الأدب المغربي يقلّدوننا في تلك الأغلط ، سواء الذي صرَّح منهم باعتبار النبوغ من مراجعته ، والذي لم يُصرَّح بذلك ، وهو أمر مؤسف يدلُّ على ضعف الهَمِّ ، وكلال العزائم ، في الذين تصدّوا حتى الآن لهذا البحث ، على الرغم من تيسير صعباته ، وتذليل عقابه . ولذلك كان لزاماً علينا أن نبسّادر بتصحيح كل غلط من هذا القبيل ولو للمحافظة على هذه الثقة (العمياء) التي وضعها فينا الزملاء الكرام .

ثالثاً - تحرير بعض الفصول من التأثير السياسي ، والعاطفي الذي كَتَبَتْ به ، نتيجة لما كان المغرب يمرُّ فيه من ظروف سياسية ، وأحوال اجتماعية مُعَارِكة لمطامحه العليا ، وآماله الكبرى ، في الوحدة والاستقلال ، والتطور داخل إطار العروبة والاسلام .. ومن أخطر ذلك السياسة البربرية التي انتهجها الاستعمار الفرنسي للفرقة بين عناصر المواطنين المغاربة ، وتأليب بعضهم على بعض أخذاً بمبدأ فرق تسد .. فكان الكتاب كلما سنحت الفرصة ، يحمل على هذه السياسة حملة شعواء ، ويوجّه القارئ المغربي في الاتجاه السليم المجاني لهذه العنصرية المقيمة ، والذي هو الحق والصواب ، فالآن لما شالت نعمة الاستعمار ، وفشلت سياسته في هذا الصدد ، لم يبقَ موجبٌ لذلك التوجيه ، أو على الأقل للسهجة الشديدة التي كَتَبَ بها ذلك التوجيه .

رابعاً - تحوير في التصميم الذي وُضِعَ عليه الكتاب ، فنحن لقلّة المعلومات التي كانت عندنا عن العصر المرابطي أو لضعف استعدادنا في استخراج هذه المعلومات من تضايف الكتب والمراجع العامة ، كنا أدمجنا هذا العصر في العصر الموحد . والآن وقد توفّرت لدينا معلومات قيمة عن المرابطين وعهدهم ، فصلنا عصرهم عن عصر الموحدين ، وخصّصناه بدراسات مهمة عن الاتجاه السياسي ، والحركة العلمية ، والحياة الأدبية ، وميزناه بخصائصه التي ينفرد بها عن العصر الموحد . وبالطبع فقد خلّصنا هذا العصر أيضاً من الاشتباكات التي كانت تجمع بينه وبين العصر المرابطي ، لما كانا مُتداخلين ؛ وبذلك نكون قد أعدّنا كتابة العصر الموحد من جديد ، كما أنسأ كتبنا العصر المرابطي كله ابتداءً .

ويُضَافُ الى هذا التحوير تقسيم الكتاب الى ثلاثة أجزاء ، فالجزء الأول للدِّراسَات ، والثاني للمُنْتَخَبَاتِ النَّثْرِيَّةِ ، والثالث للمُنْتَخَبَاتِ الشَّعْرِيَّةِ ، وقد كان قبلُ مُقسِّماً الى جزئين فقط يجمع الجزء الثاني بين دَفْئِيَّتِهِ المُنْتَخَبَاتِ الشَّعْرِيَّةِ والنَّثْرِيَّةِ معاً .

والى هذا فقد أضفنا زيادات كثيرة الى غالب الفصول ، وخاصة فيما يتعلق بنهضة الفنون ومشاركة المرأة في مختلف مجالات النشاط الفكري للشعب . وبعض الكلمات في هذا الصدد ، وهي 'جهدٌ مقل' ، تفوق ما كَتَبَ بشأنه في بعض التواريخ العامة الأدب العربي جملةً .

ولا حاجة بي إلى القول إنَّ روح البحث المجرّد التي سيطرت على الكتاب في طبعته الأولى هي التي تتقمّصه في طبعته الثانية ، وأنّ التثبّت والتحرّي وعدم إلقاء الكلام على عواهنه ، هي الموازينُ القِسطُ التي تحكّمت في كل جملة من جملته ، إن لم أبالغ فأقول في كل كلمة من كلماته . ومع ذلك فما أبرّئه من نقص ، ولا أحاشيه من خطأ ، لعلمي بأنّ الكمال لله . وأنّ العصمة لا تكون إلاّ لِنبيّ . واللهُ المسؤول أن يكسّوه حلل القبول ، وأن يجعله سادّاً للفراغ الذي يشعر به الجميع في هذا الباب « ولولا فضلُ الله عليكم ورحمته ما زكى منكم من أحدٍ أبداً ولكنّ الله يُزكّي من يشاء ، والله سميعٌ عليم » .

طنجة في ربيع الثاني ١٣٨٠

وأكتوبر ١٩٦٠

عبدالله كنون الحسني

عرض و تحليل

عرض وتحليل

بقلم المحرم الأبي شيكيب أرسلان

كتب أمير البيان الأمير شيكيب أرسلان رحمه الله بحثاً مستوفى عن كتاب النبوغ المغربي حين صدوره في صورة عرض وتحليل . ونحن نثبت هنا القسمين المنشورين منه بجريدة « الوحدة المغربية » الغراء الصادرة بمدينة تطوان في عددها ٢٢٤ و ٢٣٤ المؤرخين في ٤ صفر و ٢٩ ربيع الثاني ١٣٦١ ، ونقدمها بين يدي الكتاب تنويحاً له وتحلية :

١

قرأتُ الجزء الأول من هذا الكتاب الممتع الذي أخرجهُ للناس فذّاً في بابهِ السيد الشريف ، والعلامة الغطريف الأستاذ عبد الله كنون من مفاخر القطر المغربي في دورنا الحالي . وقد كنتُ أعهد نفسي من بين المشاركة ، الرجل الذي اطلع أكثر من غيره في تاريخ المغرب وأهله ، وأنعم النظر فيما يتعلق بثقافته وسياسته وسائر شؤونه ؛ ولكنني رأيتُ نفسي بعد أن طالعت هذا الكتاب الصغيرَ حَجْمُهُ ، الكبير قدره كأني لم أعلم عن المغرب قليلاً ولا كثيراً ، وكدتُ أقول إن مَنْ لم يطلع على هذا الكتاب لا يحقُّ له أن يدَّعي في تاريخ المغرب الأدبي علماً ، ولا أن يُصدر على حركاته الفكرية حكماً . وكما قيل في كتاب « نفح الطيب » للعلامة المغربي أنه كتاب نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، وكلام وزيرها لسان الدين بن الخطيب ، الذي من لم يقرأه فليس بأديب ، يمكن أن يقال إن من لم يقرأ كتاب « النبوغ المغربي في الأدب العربي » فليس على طائل من تاريخ المغرب العلمي والأدبي والسياسي ؛ بل هذا الكتاب في موضوعه أجدر بالاطلاق الشامل من كتاب « نفح الطيب » في موضوعه ؛ وذلك بأن نفح الطيب على جلالة قدره حشر بين دفتيه غثاً وسميناً ، وعالياً ونازلاً ، وأطال حيث ينبغي الاختصار ، وأوجز حيث النفوس تشتاق إلى

الاطالة والاكتثار . وأيضاً فقد يكون الأديب أديباً ولم يقرأ « نفح الطيب » ، فأما « النبوغ المغربي في الأدب العربي » فهو خلاصة منخولة ، وزُبْدَةٌ ممخوضة ، استخلصها صاحبها من مئات الكتب المصنفة ، وألوف من الأحاديث التي لَقِفَهَا من أفواه العلماء الذين أخذ عنهم ، وقلماً رأيتُ مؤلفاً جمع المعنى الكثير في اللفظ القليل ، وجاء في ضمن ٢٥٠ صفحة بالعريض الطويل في درجة هذا التأليف الذي هو ثمرة تحقيق وتدقيق ، ودرس عميق لم يخرج الى قراء العربية أحسن منه في بابه .

أشار العلامة مصنف « النبوغ العربي » في مقدمة كتابه الى جمعه فيه بين العلم والأدب والتاريخ والسياسة ، والى تصويره الحياة الفكرية في المغرب ، من لدن قدوم الفاتح الأول الى يوم الناس هذا ، ولعمري إن من قرأ هذا الوعد الذي جزم به المؤلف اعتقد في البدء أنه بالغ فيه جداً ، وحمل نفسه إدّاً ، وزعم الإحاطة بموضوع تعجيز عنه الجملة ، ولا تقي به الكتب الجمة ، وادّعى فتح مغالِق تنوء مفاتيحها بالعُصْبَة . إلا أنه عندما يبدأ القارئ بالمطالعة ، يجد المؤلف قد وعد فأنجز ، وقرب الأقصى بلفظ مُوجز ، وكان فعله محققاً لقوله ، وقد مزج في كتابه بين الحركات الفكرية والحركات السياسية مزجاً عجيباً ، حقق فيه الصلة الطبيعية التي لا تكاد تنفك في كل دور من أدوار الأمم بين العلم والسياسة ، بحيث لا يرقى الواحد منها إلا رقي الآخر برقيته كاللازم والملزوم . وهو وإن لم يكن توخى ذكر الفتوحات والمغازي ، ولا حاول استقصاء مآثر السيف في جانب مآثر القلم ، فقد ضمن في تضاعيف كلامه على تطور الحركات العقلية في المغرب من كدُن الفتح العربي الى الآن ، لمحة دالة يفهم منها القارئ تطور السياسة وتعاقب الدول المختلفة التي سادت المغرب من ذلك اليوم الى الآن ، فلا يسير المطالع لهذا الكتاب إلا على ضوء من أول الكتاب إلى آخره ، ولا يكاد يُشكّل عليه فيه مسألة ، ولا يستعجم موضوع ، ولا يفتقر . مقام الى مقال . وهو كمع هذا كله من الكتب المختصرة ، فكأنما أراد به صاحبه لا مثلاً للتاريخ فحسب ، بل مثلاً للبلاغة .

ومن أول ما شغل المؤلف به ذهن القارئ قضية خفاء الأدب المغربي على المشاركة ، وإنكار كثير من هؤلاء لكثير من مزايا إخوانهم المغاربة . وهو غير ملوم في الاحتفال بهذه القضية ، وفي كونه نصّاً عليها في أول كتابه ، لأن للمغاربة حقاً

في المطالبة بكانهم في الأدب العربي الذي هم من جملة حكمة ألويته ، بل من نخبة
عُمّار أنديته ، ولكن الأمر على حد ما قال الشاعر :

والنَّجْمُ تَسْتَصْغَرُ الْأَبْصَارُ رُؤْيَتَهُ والذَّنبُ لِلطَّرْفِ لَا لِلنَّجْمِ فِي الصَّغْرِ
فالمشاركة الذين يعزُّو إليهم إخوانهم المغاربة جهل مقامهم في الادب ليس منهم
واحدٌ يلزُّ في جملة العلماء المحققين ، وإنما هم من صغار المتأدبة الذين علموا شيئاً وغابت عنهم
أشياء . ولم تكن قبل اليوم علاقات العالم بعضها ببعض كما هي في هذا العصر ، الذي جعلت
فيه الاختراعات العلمية ومظاهر أسرار الكهربائية ، القاصي قريباً والمجهول معلوماً
والبلدان النائية بلداً يكاد يكون واحداً ، والأسفار المشتطة سفراً قاصداً . وقد كان
المغرب من قبل في زاويةٍ من الأرض ليس وراءها إلى الغرب سوى بحر الظلمات . نعم
لم يزل المغرب كما كان من الجهة الجغرافية ، ولكنه أصبح اليوم قريباً بالباخرة والطائرة ،
والسلكي واللاسلكي والهاتف والراديو ؛ فصار الشرقيُّ يعرفُ عن المغرب وأهله
في اليوم الواحد ما لم يكن يعرفه في السنة بطولها . فالان إذا جهل الشرقي أحوال
المغرب وعميت عليه مآثره ، يكون جديراً باللوم ، وحقيقاً بالرثاء لقصور معارفه .
فأما عمّا مضى فلا يتوجه اللوم وأسبابُ الاتصال قليلة ، ووسائل التعارف محدودة .

ولا تنسَ الانحطاط الذي طرأ على العالم الاسلامي شرقيته وغربيته ، فانه في مقدمة
أسباب جهل بعض أجزائه بأحوال البعض الآخر . ولا تنسَ أيضاً تكالب الاستعمار
الأوربي ، وكون أهم شروطه الفصل والقطع والضرب بالأسداد بين البلاد المستعمرة
وأخواتها ، والأمم المستضعفة ومن تمت إليهم بصلة دين أو نسب أو لغة . فهذا كله
جعل أمور المغرب مجهولةً عند غير المحققين من أهل الشرق . ولو كان الاستقلال
السياسي موفوراً للعالم الاسلامي ، لما وقع من التجاهل والتناكر هذا الذي وقع أخيراً
وجعل الأخ لا يعرف شيئاً عن أحوال أخيه ؛ فقد عهدنا عندما كان الاسلامُ اسلاماً ،
وكانت الرجال رجالاً أن الحركات الفكرية إذا شاعت في المشرق شاعت في المغرب ،
وإذا نبغ شاعر أو كاتب في أحدهما تناقل الناسُ أقواله للآخر ، وإذا كتب الإمام
الغزالي كتاباً في أقصى الشرق تدارسهُ الفقهاء في أقصى الغرب ، وعمل به الموحدون
والغزالي بعدُ في الحياة . وإذا ألفت سعدُ الدين التفتازاني كتاباً في خراسان أو ما
يليهما تكلم عليه ابنُ خلدون في فاس أو تونس في عرض كلامه على ملكة المشاركة في
العلوم العقلية ، والتفتازاني لا يزال حياً . وإذا ألفت ابن هشام كتاباً في النحو وهو

في مصر ، ولم تكن المطبعة قد عرفت يومئذٍ ، لم تمضِ أشهرٌ حتى امتلأت أسواق الورّاقين في مدن المغرب بنسخ هذا الكتاب وابن هشام يومئذٍ حيٌّ ؛ وجعله مثل ابن خلدون موضوعاً في مقدمته لذكر ملكة المتأخرين في علوم العربية ، وهلمّ جرّاً . فالرقيّ الفكريّ متّصلٌ بالاستقلال السياسي اتصال النتيجة بالمقدمة . ولقد 'فقدت في الأدوار الأخيرة من العالم الاسلامي أسباب' الاتصال بما طرأ من التفكير ، ومصير بلاد الاسلام طرائقٌ قدّداً ، تليها دولٌ مختلفة ، أكثرها خارج عن الاسلام ، بل أكثرها عدوٌ للاسلام كاشحٌ يعمل لمحوه من الدنيا . ومن المعلوم أنه لا يعمل للاسلام غير دول الاسلام نفسها ، فلا عجب بعد هذا أن يجهل بعضنا مكان بعض وأثر بعض ؛ بل العجب أن تعلم اليدُ اليمنى باليد اليسرى ونحن على ما نحن عليه من تفكك الأجزاء وتقطع الأوصال ، والسياسة كما قلنا هي والأدب شريكا عتّان ، وفرساً رهان .

وقد أصاب الأستاذ صاحب « النبوغ المغربي » في عدم إطلاقه القول على المشاركة أنهم جاهلون بأقدار المغرب ، فانه قيّد ذلك بقوله « انكار كثير من المشاركة لكثير من مزايا المغاربة » وفي هذا القيد قد أخرج محرّر هذه السطور من هذه الجملة الحاسرة ، فاني على ما بي من قصورٍ وتقصير ، وعيوبٍ تضيق فيها المعاذير ، أقدرُ أن أدّعي بحقٍّ سبقَ غيري من جميع العالم العربي الى معرفة مزايا المغرب وأهله ، وإيجاب عدم التفرقة بحال من الأحوال بين مغرب ومشرق ، أقول هذا من باب التحدث بنعمة الله .

٢

عالج السيد عبد الله كنون في صدر كتابه هذا حادثين جليلين هما من أهم حوادث الفتح الاسلامي في العالم ، وهما إسلام البربر ، هذه الأمة العظيمة التي لولا دخولها في الاسلام لكانت بلاد شمالي افريقيا كلها أقطاراً معادية للاسلام ، مساوئة للعروبة بخلاف ما هي عليه الآن من الاعتصام بهما وتكوينهما جزءاً لا ينفك من أجزاء العالم الاسلامي ولا يقل شأناً فيه عن مصر والشام وجزيرة العرب والأناضول وفارس وهلمّ جرّاً ؛ بل حصناً منيعاً تتكسر على جوانبه هجمات الأمم التي لا تطيق وجود الاسلام في الأرض . وكذلك حادث استعراب البربر الذين أصبحوا بتأثير الدين

الحنيف واللسان العربي الشريف كتلة واحدة هم والعرب ، يعادون من عاداهم ويوالون من والاهم ، ويكونون دائماً واحداً على من سواهم ، وإن وجدت في الأحياء بين الفريقين منازعات ومشاجرات فلا تكون إلا من قبيل تنازع قبائل العرب أنفسهم بعضها مع بعض ، أو من باب المنازعات العائلية التي لا تمنع أصحابها من الاتحاد على الأجنبي وتناسي جميع الأحقاد بإزاء الخطر العام ، وهذا على حدّ المثل العامي القائل ... (أنا وأخي على ابن عمي ، وأنا وابن عمي على الغريب .) والله در القائل ..

وَذَوِي ضَبَابٍ مُضْمِرِينَ عَدَاوَةً قَرَحَى الْقُلُوبَ مُعَاوِدِي الْأَكْنَادِ
نَاسِيَتُهُمْ بَغْضَاءَهُمْ وَتَرَكَتُهُمْ وَهُمْوَ إِذَا ذُكِرَ الصَّدِيقُ أَعَادِي
كَيْتَمَا أَعَدُّهُمْوَ لِأُبْعَدَ مِنْهُمْوَ وَلَقَدْ يُجَاءُ إِلَى ذَوِي الْأَحْقَادِ

بل البربر في المواقف العامة هم أقرب إلى العرب من العرب بعضهم إلى بعض . ولئن كان التاريخ قد روى بين العرب والبربر مخاصمات شعبية عامة كما جرى في الأندلس مثلاً بعد فتحها بقليل وأوجب نكوصاً كانت عواقبه السيئة فيما بعد . فقد ندر وقوع هذه الحوادث ذات الشّكل العام بين الأمتين وغلب عليهما الشعور بالوحدة الاسلامية حتى صارتا مصداق قوله تعالى : « ان هذه أمتكم أمة واحدة » وأنا ربكم فاعبدون .

ولا ننسى ما قام به البربر في التاريخ الاسلامي من جلائل الأعمال في الذب عن حوض هذه الملة ، سواء على أيدي المرابطين أو الموحدين أو بني مرين أو غيرهم ، مما يجعلهم في مقدمة صفوف المجاهدين الذين تتباهى بآثارهم أمة محمد ، وعلى كل حال يمكننا أن نقول بحسن اعتداء البربر وتأخيرهم مع إخوانهم العرب حملة القرآن الأولين . امتدت جزيرة العرب من شرقي البحر الأحمر الضيق إلى شرقي الأوقيانس الاطلنطيقى الواسع ، فصارت هذه الأقطار كلها سلسلة عربية إسلامية غير منفصلة ولا متعصبة . وهذا قد وفّاه حقّه الاستاذ كنون ، وأوضح أسباب انتشار الاسلام من أول الفتح بين الأمة البربرية ، وذكر من

هذه الأسباب التي أوجبت إقبال البربر على هذا الدين زرافاتٍ ووحداناً ، ونبذهم ما عداه ، ما لا يقدرُ العدوُّ الألدُّ والخصمُ الأعندُ أن يُكابِرَ فيه أو يتعامى عنه ، وذكر الخلفاء الذين في أيامهم ازداد انتشار الاسلام بين البربر مثل عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه ، الذي أرسل اليهم طائفةً من الفقهاء يعلمونهم القرآن وأصول الدين . ولا عجب وهو الخليفة العادل الورع المقرون اسمه باسم عمر بن الخطاب رضي الله عن الاثنين ، حتى قيل في عدلها عدلُ العُمَريين ، وسارت الأمثال في ورع الثاني كما سارت في ورع الأول ، وروى المؤرخون أنه لما كثرت اسلام القبُط في مصر وارتفعت الجزية عن أسلم منهم ، شكوا عاملُ مصر الى عمر بن عبد العزيز نُقصان الجباية عما كانت عليه ، وذلك بسبب 'فَشُو' الاسلام في القبُط ، فأجابه بتلك الكلمة الشهيرة... ويحك إنَّ محمدًا لم يحىء جابياً ، وإنما جاء هادياً . اذن كان جديراً بهذا الخليفة الورع أن يهتم بالاستقصاء في اسلام البربر ، والإمعان في تأديبهم بآداب القرآن حتى غرسَ فيهم هذه النَّجاة المعروفة ، وأوقدَ في قلوبهم هذه الحميَّة الاسلامية التي لم تفارقهم من ذلك اليوم . وذكر مآثر موسى بن نُصَير رحمه الله في هذا الباب حتى لم يمض الا قليل فظهر الطابعُ العربي على البربر ، ونبغَ فيهم العلماء والخطباء بالعربية الفصحى ، وحسبكُ شاهداً طارق بن زياد الذي خطب قبل الموقعة التي هُزمَ فيها لِذَرِيق ملك الأندلس ، تلك الخطبة الطنَّانة التي لو حاول مثلها قُسُّ بن ساعدة ، أو سَحْبَان وائل ، لم يأت بأفصح ولا بأبلغ منها ، ولقد كنتُ أفكر ملياً في أمر هذه الخطبة وأقول في نفسي .. هنا لغزٌ من ألغاز التاريخ لا ينحلُّ معناه بالسهولة فقد اتفقت الروايات على كون طارق بن زياد بربرياً 'قحاً' ، وكذلك اتفقت الروايات أيضاً على كونه هو لا غيره صاحب الخطبة الرنانة المعدودة من انموذجات الخطب العربية فكيف يمكن التلفيق بين هذين الأمرين المتناقضين، وأنسى لطارق البربري مثل هذه العربية ، وكنتُ أفكر في أن طارقاً قد يكون أحسن تعلم العربية كما أحسن ذلك كثيرٌ من أبناء جيله ، وكما تعلَّمت العربية رجالُ فارس حتى بُزوا في العربية أقرانهم من أنفس العرب ، ولكني لم اكن مستريح البال من جهة إتقان طارق للعربي الفصيح وبلوغه فيه هذه الدرجة العليا، وكان يحزُّ في صدري أن تلك الخطبة كانت بلاغتها في المعنى، وإنما وضعها رواة العرب في هذا القالب الفصيح الذي سحر الألباب ، ومازلتُ

متردداً في هذا حتى جاءني ثَلَجُ اليقين على يد الأستاذ عبدالله كنون الذي جزم بأن هذه الخطبة النادرة انما كانت من جملة ثمرات انطباع البربر بالطابع العربي البحت^١.

ثم أشار الأستاذ الى مشار الخلاف لأوّل الفتح بين العرب والبربر ، فلم تأخذه العصبية للعرب الذين هو منهم ، بل من أشرف بيوتاتهم ، سبيل المؤرخ الصادق الذي لا يحابي في الحق ، بل سبيل المسلم العامل بمقتضى شريعته ، الحافظ قوله تعالى : « إنما المؤمنون إخوة » الرّأوي حديث رسوله صلى الله عليه وسلم وهو : « ليس مِنّا من دَعَا الى عَصِيَّة . » فذكر أن مشار النزاع بين الأمتين كان استبداد العرب بوجوه المنافع ، واستثثارهم بمناصب الدولة من أيام الامام ادريس رضي الله عنه ، فكان هذا الأمر سبباً للتنافس بين الفريقين في المغرب ، وأنا أقول ان هذا الأمر نفسه قد كان سبباً لتنافسهما في الأندلس منذ أوائل الفتح ، حتى إن فريقاً من البربر بلغ منهم السُّخْط أن تركوا الجهاد في الطرّف الشمالي من بلاد الجلالقة حيث كان منهم العدد الأغلب من المجاهدين ، فأصبحت تلك الثغور عورة ، ورجع الأسبان فاستولوا عليها ، وكان بذلك مبدأ المقاومة الاسبانية ونموّ شوكتها ، ولم تزل مع الزمن تنمو

١ - يستشكل بعض الباحثين صدور خطبة طارق بن زياد منه وهو بربري مُفَحّ ، يستبعد أن تكون له هذه العارضة القوية في اللغة القربية ، حتى يأتي بتلك الخطبة البليغة . وهو استشكل في غير محله ، (أولاً) لأن طارق بن زياد ان كان أصله بربرياً فقد نشأ في حجر العروبة والاسلام ، بالشرق ولم يكن هو الذي أسلم أولاً بل والده ، بدليل اسمه زياد فانه ليس من أسماء البربر ، ولا شك أنه كان من مُسلّة الفتح المغربي الأول ، وأنه انتقل الى المشرق حيث تولاه موسى بن نصير ونشأ ولده في هذا الوسط العربي الذي كوّن ثقافته . (ثانياً) لأن نبوغ غير العرب في اللغة العربية منذ اعتناقهم الاسلام أمر غير بدّع حتى يستغرب من طارق ، وهو قد نشأ في بيت اسلامي عربي . فعندنا سلمان الفارسي الذي قضى شطر حياته في بلاد عجمية فلما أسلم بعد ذلك تفتّق لسانه بالعربية الى أن قال فيها الشعر ، وبيته المضروب به المثل في الاعتزاز بالاسلام واعتباره هو نسه الذي يفخر به ، اذ افتخروا بقيس أو بتميم ، لا يخفى على أحد.

ونقل ببربري آخر ، غير طارق وهو عكرمة مولى ابن عباس الذي قال فيه الشعبي : ما بقي أحد أعلم بكتاب الله من عكرمة ، ومقامه في العلم والرواية لا يُجْهَل ، (ثالثاً) لأنه ليس في الخطبة من صناعة البيان ما يمنع نسبتها لطارق ، وبلاغتها في نظرنا انما ترتكز أولاً وبالذات على معانيها ، والمعاني ليست وفقاً على عربي ولا عجمي . نعم يمكن أن يكون وقع في هذه الخطبة بعض تصرف من الرواة بزيادة أو نقص ، ونحن قد صححنا فيها بالفعل احدى العبارات التي لم تكن واضحة الدلالة على معناها ولكن هذا لا ينفي أصل الخطبة ولا يصح أن يكون حجة للتشكك في نصها الكامل . هذا رأينا ولكل وجهة ، والأمير شكيب رحمه الله لشدة المودة التي كان يخصنا بها جعلنا حجة في صحة نسبة الخطبة لطارق ولسنا هناك .

وتزداد حتى آلت الى ما آلت اليه ، بما لا حاجة الى ذكره ، ولو كان قوُمننا العرب عملوا يومئذ بقاعدة المساواة الاسلامية ولم يجابوا أنفسهم على اخوانهم الجدد ، ولم يجعلوا في الاسلام عالياً ونازلاً لما كان وقع ذلك الحرق الذي انتهى في الاندلس بذهاب المللك ووقوع المللك ، ونجمت عنه في افريقيا نفسها أضرارٌ جسيمة لا شك فيها .

وقد ذكر صاحب النبوغ المغربي هذه الحقائق في عرض كلامه على تاريخ الحركة الفكرية في ذلك القطر العظيم ، وذلك لما تقدم لنا من اتصال الحركة الفكرية بالحركة السياسية والحركة الاجتماعية الى الحد الذي لا يمكن معه ذكر احدهما من دون ذكر الاخرى ، ونبته الأفكار الى نكتة هي من الأهمية بكان ، وهي السؤال لماذا لم يكن في المغرب الاندماج تاماً كما وقع في الشام والعراق والاندلس حيث قد لقت العروبة بجرانها وعمت السهل والوعر ، ولم يبقَ ثمرة الاقطار عربية لا تفترق عن جزيرة العرب في شيء ؟ فاورد على الفرق الواقع أسباباً معقولة سنخوض فيها بفصل تال .

أول تقریظ

أول تقریظ

كان أول تقریظ للنبوغ المغربي هو ما كتبه صديقنا العلامة الأديب السيد الحاج محمد بن اليميني الناصري حين اطلع عليه وهو يطبع بتطوان . فنحن اعتزازاً بصداقة هذا الأخ الكريم واعتداداً برأيه الجليل في الكتاب نسجل تقریظه هنا في المقدمة وفاء وذكرى . ونصه :

كل من درس تاريخ الادب العربي في المغرب الاقصى على وجه العموم فانه لا بد ان يخرج بنتيجة طيبة تقضي بان منبت المغاربة منبت طيب يخرج نباته باذن ربه بل يشهد لأهله الأباة الأحرار بالنبوغ الفطري ، والتفوق الفكري ، والذكاء النادر ، والذهن الحاضر .

ومن كابر في ذلك فليستعرض امامه ما تدفقت به يراعة صديقنا الاستاذ الاكبر ، الذي أعظم التاريخ عمله وأكبر ، المرشد المذهب ، والناصح المشذب ، ذي الاعمال الجليلة والخلق السني ، ابي محمد سيدي عبدالله الكنوني الحسني ، لا زال يرتفع في 'بجبوحة العيش الهني' ، في هذه الصفحات البيض التي بيض بها وجه وطنه ، واستخدم في استخراج دفائنها فائق مواهبه وفطنه ، فسد بها في الادب العربي اكبر ثلثه ، وسجل بها في سجل الخلود نبله وعلمه ، بيض الله وجهه يوم تبيض وجوه وأتاه في نفسه وشعبه ما يؤمله ويرجوه ، على اكمل الوجوه .

ايها الصديق العزيز :

لقد فقت بهذا العمل الجليل شيوذك واقرانك حتى برزت في الميدان ، على الشيوخ والكهول والشبان ، فكنت لهم في هذا البحر الخضم اعظم ريتان ، اذ مثلت النهضة المغربية فكرياً وأديباً وسياسياً في الإبتان ، فاستحققت ان 'يرفع ذكرك' ، ويخلق بأفكارنا فكرك ، فنقول :

يَا بَنِي الضَّادِ تَحَلَّوْا بالنبوغ المغربي
فَهُوَ وَاللَّهُ مِثَالُ للشفوف العربي
مَثَلْتُهُ صَفَحَاتٍ من مُحِيطِ أَدَبِي
يَتَجَلَّى فِيهِ ذَوْقُ للفتى الحرِّ الأبي
مَوْقِظِ الشَّعْبِ بِشَعْرِ مُشْعِرِ كُلِّ غَبِي
وَبَذْثُ كَنْثِيرٍ من صَحَاحِ الجَوْهَرِي
بَذْ أَعْلَامَ عُلُومٍ فَضُلُوا كُلَّ سَرِي
إِذْ أَتَى بِالْعَمَلِ الْفَذِّ الْجَلِيلِ الْعَبْقَرِي
وَتَحَرَّى صَوْبَ صِدْقٍ فِيهِ بِالْحُرِّ حَرِي
فَلْيَعِشْ حُرّاً طَلِيقاً فِي سَمَاءِ الْفِكْرِ السَّنِي
رَأْفَلاً فِي خَيْرِ عَيْشٍ كَامِلِ الْقَصْدِ هَنِي

وكتبه عن عجل صبيحة ٢١ صفر الخير عام ١٣٥٧ هـ. وهو على جناح السفر عبد
ربه تعالى محمد بن اليمني الناصري الرباطي عفا الله عنه .

مقدمة الطبعة الأولى

بسم الله الرحمن الرحيم
وصلّى الله على سيدنا محمد وآله وسلم

فاتحة الكتاب

هذا كتابٌ جمعنا فيه بين العلم والادب والتاريخ والسياسة وزمينا بذلك الى تصوير الحياة الفكرية لوطننا المغرب وتطورها في العصور المختلفة من لدن قدوم الفاتح الاول الى قريب من وقتنا هذا ؛ فالحركة العلمية وما طرأ عليها من نشاط وفتور ، في جميع العصور ، مبسّطة فيه أحسن البسط . والسياسة واتجاهاتها التي كانت تتخذها بحسب طبيعة كل دولة مفصّلة فيه تفصيلاً مستوفى . وهكذا التاريخ بقسميه السياسي والأدبي ؛ ومنه التراجم . وقد احتوى جملةً وافرةً من تراجم الملوك والوزراء والقواد والفاحين والعلماء والأدباء والفقهاء والمتصوفة وغيرهم .

والأدب لا نقول الا أنه الروح المتغلغلة فيه والحلّة التي يبدو فيها للناس بل نقول اننا ما تعرّضنا لغيره من الابحاث الاخرى الا لنربط حلقات البحث الموصل الى اكتناه حقيقة ماضينا الادبي وتحليلته على منصّة العروس ليشاهده من كان يجادل فيه ومن ثمّ كان اسم هذا الكتاب (النبوغ المغربي في الادب العربي) .

وقد كثر عتب الادباء في المغرب على اخوانهم في المشرق لتجاهلهم إياهم ، وانكار كثير منهم لكثير من مزاياهم ، ولكن أعظم اللوم في هذا مردود على اولئك الذين ضيّعوا أنفسهم وأهملوا ماضيهم وحاضرهم حتى اوقعوا الغير في الجهل بهم والتقوّل عليهم ، وهو معذور وحسبه انه لم يقصّر تقصيرهم بل سعى فأخفق ولا عيب على من بلغ جهده . ونحن نعتقد اننا بتقديم هذا الاثر الضئيل الى الدوائر العلمية سنزيل كثيراً من التوهّم والتظنن في تاريخ المغرب الادبي وسنرفع حجاب الخفاء عن جانب مهم من الحياة الفكرية لاهل هذا القطر . وسوف ينقضي تجنّي اخواننا من بحاث الشرق

على آثارنا وتحاملهم على آدابنا لان ذلك لم يكن منهم عن عمد وسوء قصد وانما هو ارتباء واجتهاد .

أما عن ترتيب الكتاب فاننا جعلناه على جزأين وخصصنا الجزء الاول للبحث والاستنتاج والثاني للآثار الادبية . ثم الجزء الأول خمسة عصور : عصر الفتوح ، ونعني بها الفتوح الاولى وفتح مولاي ادريس . وعصر الموحدين وفيه الكلام على المرابطين . وعصر المرينيين وفيه الكلام على الوطاسيين . وعصر السعديين . وعصر العلويين . والجزء الثاني قسمان : قسم المنشور وقسم المنظوم . وانما اخّرنا الآثار الادبية الى الجزء الثاني ولم نذكر ادبيات كل عصر معه رغبة في عدم توقف المطالع وتلبيه عن مواصلة البحث وتكوين فكرة عامة عن جميع العصور مع ما في ضم تلك الآثار بعضها الى بعض من تأليف مجموعة ادبية نفيسة تكون وحدها دليلاً ناطقاً على ما للوطن العزيز من ماض ادبي حافل . هذا على كثرة ما اغفلناه منها (لأن قريشاً قصرت بهم النفقة) ولولا ذلك لخرجت هذه المجموعة مضاعفة عما هي عليه .

وفضيلة هذا الكتاب في أنه ليس لقطر من أقطار العروبة اليوم نظيره ، اذ أن جميع كتب الادب وتاريخه عامة تنتظم البلاد العربية جمعاء - ما عدا المغرب بالطبع . وعمل مثل هذا لا يخفى على العارف ما يقتضيه من جهود جبّارة ومشاق عظيمة واذا تذكرت - مع ذلك - ان مصادر هذا البحث الجليل ، هي أقل من القليل ، ومع قلتها فان كثيراً منها محفوظ في الخزائن الخاصة التي لا طمع في الوصول اليها بمجان او مال ، فانه يكون أسبق منا الى طلب الخارج والتاس المعاذر فيما عسى أن يكون وقع لنا من التقصير والزلل والخطأ والوهم ولا سيما مع الشريعة في اخراجه للناس لشدة الحاجة اليه وكثرة الطلب عليه وكان يلزم ان يبقى سنين طويلة تحت التهذيب والتنقيح .

وهناك نقطة سوف لا يُماري أحد من قراء هذا الكتاب في أنه امتاز بها عن كثير مما تخرجها مطابعنا في هذه الايام وهي أنه ليس فيه حرف واحد كُتب

انتصاراً للنفس او تعريضاً باحد تملُّقاً لشخص أياً كان ، ولست أبالي بعد هذه ما يوجد فيه من عيب او يوصف به من نقصان .

ولا اضع القلم من يدي قبل ان اتوجه بكلمة شكر وثناء الى الاخ العالم المؤرخ الواعية السيد عبد السلام ابن سودة الذي أمدني بكثير من الفوائد والمعلومات ، وسوَّغني من الخزانة السوديّة القيّمة كل ما لم يكن في اختها الكنونية من الاصول والمستندات . وإني احمد الله على أن لم يجعل عليّ لأحد - غيره - منّة في هذا الامر ، وأغنانني عن « مَدْرَةِ » الخزانين الذين هم مُصيبة العلم في هذا القطر ، حتى المكتبة العامة بالرباط على مساس الحاجة الى كثير مما فيها لم يقدّر لي أن ارجع اليها في شيء للحجز بيني وبين السفر في غالب المدة التي كنت أشتغل فيها بهذا الكتاب .

ولا أنجسُ بقية الخلاء ، حظوظهم من الشكر والثناء ، كالاديب السيد محمد العربي الزكاري الذي نقل الكتاب بخطه الجميل من مبيّضته والاستاذ الكبير الحاج محمد بنونة الذي اعتنى بتصحيح 'جلته' ، على كثرة شغله وكتب اسمه بالقلم الكوفي الجميل ، والعلامة السيد محمد داود الذي صحح بعض الملازم ايضاً ولم يزل مهتماً بأمره منذ الايام التي كان يصدر فيها السلام حتى لقد همّ بطبعه على نفقته وتقديمه هدية لمشتركي مجلته لو لم يضطرّ الى توقيفها بعد . والشريفين المرحوم السيد عبد السلام القصري والسيد محي الدين الريسوني والسيد محمد العرفاوي والسيد عبدالله بناني والسيد عبد السلام الطنجي والسيد محمد العربي ابن جلون ، كل واحد على ما بذل من جهدٍ او مال في سبيل اخراج هذا الكتاب والحرص على اتمام طبعه منذ اكثر من ثلاث سنين حين قدّم إلى المطبعة - فالله تعالى يجازيهم جميعاً عن العلم والأدب خيراً .

واني لأسجّل لهم هذا الذكر الحسن هنا قياماً بالواجب الذي يحتّمه الاخلاص والمروءة والدين ، فمنا شكر الله من لم يشكّر الناس . نسأله تعالى أن يلهمنا رشدنا ويقينا شرّ أنفسنا وينفعنا بما علّمنا ويزيدنا علماً وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم .

عصر الفتوح

الفاتحون المحققون

لم يتم فتح المغرب كله الا في زمن يزيد بن معاوية سنة ٦٢ هـ ، على يد 'عقبة بن نافع' ، ذلك البطل العظيم الذي غامر بنفسه ، وأقحمها المخاطر في سبيل نشر الدعوة الاسلامية وبثها بهذه الأصقاع . ففي الحقيقة إن هذا الفتح الأول لبلاد المغرب ، وما كان سابقاً عنه ، إنما هو مقدمة وتمهيد له .

وأول ما 'فتح' من البلاد طنجة ، ثم و'ليلى' ، وهما اذ ذاك حاضرتا المغرب ، ثم استرسلت الفتوح بعد في سائر القبائل المغربية ، التي كانت تنقطع الاطماع دونها لتحصنها ومناعتها وشدة بأسها ، والتي طالما حاولت إيقاف جيش الفتح الاسلامي عند حده ؛ فقاتلها 'عقبة' قتالاً ذريعاً واستنزها على 'حكمه' . ثم تقدم إلى 'السوس' ؛ ففتح تارودانت عاصمته ، ومضى لا يلوي على شيء ، حتى وقف بساحل المحيط الأطلسي ، حيث رفع يده الى السماء وقال : « اللهم اشهد أني بذلت المجهود ، ولولا هذا البحر لمضيت في البلاد أقاتل من كفر بك ، حتى لا يُعبد احد من دونك . » فانتشر الاسلام بالمغرب من أقصاه الى أقصاه ، وبدأ يُصارع الوثنية المستحكمة فيه . ولولا قتل 'عقبة' بتهوذة من مدن الزّآب ، بعد ذلك بسنتين لما بقي لها معه ظهور البتة في المدة القريبة . ولكن وقوع ذلك الحادث المؤلم في مثل تلك الظروف الحرجة ، كان ضربة لازب على عدم نجاح الآمال المتعلقة باستقرار الحالة ، بعد الفتح ، واستتباب الأمن والراحة المتيسر في ظلها كل عسير ، والممكن معها تذليل جميع الصعوبات القائمة بأعمال الفاتح الكبير .

اضطرب الحبل بعد موت 'عقبة بن نافع' ، وانتقضت الامور بافريقية الشمالية ، وعمت الفوضى وغلبت الفتن . وجرت بعد ذلك حوادث كثيرة لا شأن لنا بها ؛

١ - هي المدينة الرومانية الأثرية المسماة «فلو بيليس» Volubilis الواقعة بمقربة من زرهون ، وكانت عند قدوم الامام ادريس ما تزال عامرة .

فكان من النتائج المتحتمة الوقوع أن توقفت دواليب الحركة الإسلامية ، وضعفت العوامل والأسباب الباعثة ، والمُشوّقة الى الدخول في الإسلام ، حتى ارتدّ عنه مَنْ كان أسلم حديثاً ، ولم تُخالطْ بشاشته قلبه .

وفي زمن الوليد بن عبد الملك سنة ٨٧ هـ ، قدّم موسى بن نصير والياً على افريقية . فقبض على زمام السلطة بيدٍ من حديد ، وضبط الشؤون واستصلح الأحوال ، فأصبحت البلاد ترحّ في بحبوحه الأمن والنظام ، وتتمتع بسكينة وطمانينة لا عهد لها بهما من قبل . فكان هذا هو الفتح الثاني الحقيقي ، وقد قاتل المرتدين عن الاسلام ، وبذل قصّره في حملهم على الرجوع إليه ، والتمسك بحبله المتين . وكان يشتري العبدَ يظن انه يقبل الاسلام من بعد أن يُجرب فطنته ويُحصّ عقله ، ثم يُضيّ عتقه ويتولاه .

وهكذا شيّد صرح الاسلام في « افريقية » والمغرب ، وأقام دعائمه على السياسة الحكيمة والسيرة العادلة ، فلم يبق يُخشى عليه الانتقاض بعد هذه الجهود العظيمة ، والمتاعب الجسيمة .

وفعلًا فقد استمرّ الحال على ذلك سنين عديدة ، انصرف العزم فيها الى تعمير الخراب وتجديد المنذر . وفي اثنائها فتحت الأندلس بجيوش المغاربة المسلمين الصادقي الإيمان . وكان يُظن أنه لما يَرُجِعُ السيف الى غمده ، ينصرف العزم الى ترقية مستوى البلاد العلمي والأدبي ، بعد رقيّها عمراناً واقتصاداً وسياسة . ولكنّ خطراً جديداً أصبح يهدد هذا القطر المغربي القليل الحظ . فلم يُتح له ان يجاري الاقطار الإسلامية الاخرى في النهضة والتجدّد ، والأخذ بأسباب الحضارة والتمدين ، بعد أن ظنّ أنه اجتاز دور الإنشاء والتكوين . ذلك هو خطر الخوارج^٢ النازحين إليه من الشرق ، المضطهدين من حكوماته ، حيث إنهم لم يجدوا مجالاً فسيحاً لترويج بدعتهم وبثّ دعايتهم في أمنٍ وأمان مثل المغرب . وقد قاسى منهم الأمرين ، وذاق

١ - يُطلق مؤرخونا إفريقية على المغرب الأدنى والأوسط ونحن نقبهم في ذلك احیاناً .

٢ - دخل الدعاة الخوارج الى المغرب من العراق في أوائل المائة الثانية ، فبثوا دعوتهم بين المغاربة وتلقاها عنهم رؤوس القبائل ، ففشت في دماهم . وكانت خوارج المغرب إباضية ومُصفرية ، وهما فرقتان معروفتان من فرق الخوارج .

بسببهم من المحن والأهوال صنوفاً وألواناً ، حيثُ لعبوا دوراً خطيراً في حوادثه السياسية وأثاروا فتناً وحروباً ، كان كلٌّ من العرب والمغاربة في غنى عنها . غير أن هذه الحال لم تدُم ؛ فقد شاء الله أن تنجلي ، وينجلي معها كلُّ ضير وضرر على مستقبل البلاد .

فبينما الإيمان متذبذب ، والشعور الديني آخذٌ بالضعف لبُعد العهد بالهداة المرشدين السَّاري اليهم نور النبوة ، أمثال عُقبة ، وموسى . وفيما الأقوال والخلافات المذهبية رائجةٌ ، ونزغات الملحدِّين ووساوس اهل الضَّلالات متسرِّبة الى نفوس هذا الشعب الفطريِّ السَّاذج ، إذ أتى ادريسُ بن عبد الله ، فاراً بنفسه من الرشيد الذي اضطهد شيعته الخارجين عليه ، وشتَّتْهم شذراً مذرّاً . فكان دخولُ هذا الفرع الزكي الى المغرب فاتحة عصرٍ جديد ، طالما تأقت له النفوس واشترأبت اليه الأعناق .

وما وَطىءَ ثرى البلاد المغربية ، حتى وفدت عليه القبائل معلنةً بمبايعته ، داخلَةً في طاعته . فبدأ أعماله بتأسيس الدولة الادريسية سنة ١٧٢ هـ بمعونه إسحاق ابن عبد الحميد الأوربي والي مدينة ويلي ، وسعي مولاه راشد . وهي أول دولة عربية مستقلة في المغرب . وبعد أن توطَّد له الملك ، جهَّز الجيوش واستنفر المقاتلة ، وخرج غازياً يضربُ في بلاد المغرب طولاً وعرضاً ، حتى دوَّخه جميعه ، وقضى على حركات الخوارج وسكَّن فتنَهم المندلعة اللّهيبة ؛ فلم تقم لهم بعدها قاعة . ثم تقدّم الى تلمسان ففتحها سنة ١٧٣ هـ ودخلها ، فنظر في أحوالها . وبني بها مسجداً . ثم عاد الى ويلي ، وقد استقام له امر المغرب ، وتمَّ له اقتطاعه من جسم الخلافة العباسية ، وإزالة كل سلطة دينية او سياسية ، كانت لها عليه . وكان هذا هو ثالث الفتوح الاسلامية المهمة .

كيف انتشر الإسلام في المغرب

هكذا كان تطور الحركة الاسلامية وسيرها بالمغرب مدّة قرن كامل . وهكذا كان حرص ولاية العرب شديداً على إشادة معالم الاسلام بهذا القطر ، وتثبيت أركانه وإقامة دعائمه . حتى ارتكز فيه ارتكازاً قوياً ، وتمكن من نفوس سكّانه أيما تمكن .

فأصبح وكأننا آوَى الى وطن وسكن هما أعرفُ به منه بهما . فكيف تمّ ذلك ؟ وما هي العوامل والاسباب التي سنّت الوصول الى هذه الغاية ؟

١/ إن المغاربة الذين كانوا قد اعتادوا حياة الفوضى ، وألفُوا التمرد والعصيان ، بعد ان تمكن منهم العرب وكسروا شوكتهم ، أصبحوا مقتنعين بعدم إجداء المقاومة عنهم وذهاب كل مجهوداتهم في الدفاع سدّي ، لما رأوه من شدّة مراس العرب للحروب وطول مغالبتهم لأعدائهم . فلم يسعهم ، والحالة هذه ، الا الإذعان لسطوتهم وتسليم مقاليد الامور اليهم . فساسوهم بالحكمة والانصاف ، وأخذوهم بالعدل والمساواة ، حتى أووّا الى ظل الطاعة ، واخلدوا الى السكينة والهدوء .

هناك تذوّقوا طعم السّلم لأول مرة ، وانصرفوا الى ادارة شؤونهم وتدبير مصالحهم . وبدأوا يشعرون بهناء الحياة ، ويجدون لذاتها .

ثم نظروا فيما تخلّف بأيديهم من عادات الوثنية ، وبقايا الديانات الأخرى المحرّفة . فلم يجدوا في ذلك شفاء غلّتْهم ونقع أوامهم ؛ فأخذوا يتطاولون بأعناقهم الى الدين الجديد الذي جاء به الفاتحون الأقوياء ورأوه موفّياً بأغراض الحياة ومآربها ، ضامناً لمصالح البشر في المعاش والمعاد . فكان منه إليه خير داعية ومرشد ، أثار أمامهم السبل ، وأبان لهم معالم الرّشد . وسرعان ما استسلموا الى جانبه ، وادخلهم في حظيرته . وكان اكثرُ ظاهراته تأثيراً عليهم ثلاثا .

أ - يُسرّ شريعته ، وسماحته غير المحدودة . فكلُّ تعاليمه هيّن سهل ، يمكن الإحاطة به والقيام عليه في غير تعب ولا عناء . والإسلام كما لا يخفى ، دين الفِطرة الخالي من التكاليف الشاقة التي تجعله عبئاً ثقيلاً على كواهل معتنقيه . اذ ليس فيه الا ما ينطبق على النظر والمصلحة العامة .

ب - 'حسن' معاملته لكل من يدينُ به ويحتمي بحماه ، فما هو إلاّ أن يتعلّق بسبب من أسبابه ، حتى يُصبح عضواً عاملاً في جماعته الكبيرة ، لا يميزه عن بقية اعضائها ممّيز ، ولا يفصل بينه وبينهم فاصل . واعتبر ذلك في ابن الكاهنة المغربية و

المشهورة في التاريخ بطول مقاومتها للإسلام ؛ ومحاربتها للآتين به ، حتى ماتت ' ،
فانه ما لبث ان ولى على قومه بعد إسلامه ، ولاته حسن بن النعمان عامل
عبد الملك بن مروان على إفريقية ، الذي قاسى من أمته الأمرين .

ج - رفق الولاة المسلمين وعدلهم ، وتشربهم بروح الديمقراطية الحق التي جاء بها
الاسلام ، مع ما كانوا عليه من الأخلاق الفاضلة والسجايا الكاملة . حتى لقد أكبر
هؤلاء المغاربة ديناً أنجب مثل أولئك الرجال الأفذاذ ، وكوّن مثل تلك الشخصيات
الكبيرة التي يندُر وجودها في التاريخ .

على أن المغاربة لم يُعادوا الإسلام في أول الامر . ولم يُقاوموه تلك المقاومة العنيفة ،
إلاّ لجهلهم بحقيقته ، وعدم إحاطة علمهم بحجاسنه ومزاياه . وقد فطن لذلك الولاة
العرب بعد حين ؛ فرتّبوا لهم الفقهاء والقراء يلقّنونهم العربية ويُبصّرونهم بالدين .
فلما اكتنّهم كنهه ، وعرفوا حقيقته ، وتمرّسوا بتعاليمه السامية وآدابه العالية ،
أصبحوا من أكبر دُعائه وأحمى أنصاره . فجاهدوا في سبيله الجهاد الأكبر ، وبذلوا
النفس والنفيس لإبلاغ دعوته الى أقاصي البلاد . فهم الذين فتحوا الأندلس وسهّلوا
طريقها للعرب ، وما زالوا بعد ذلك حاميتها وذادتها الى آخر العهد بها . وهم الذين
اقتحموا مجاهل إفريقية ، وحملوا الهداية الإسلامية والثقافة العربية إلى السّوادين كما
هو معلوم .

استِعْرابُ المغاربة

نتيجة طبيعية أن يستعرب المغاربة بعد إسلامهم ، ويتعلموا لغة التنزيل الذي هو
دستور الإسلام وأقننومه ، والمصدر الأول لجميع أحكامه وتعاليمه . فانما بالعربية
تفهم اصوله وفروعه ، وتُقرّر شرائعه وأحكامه . على انه اذا كانت الاسلام ، دين

١ - هي الكاهنة داهية التي تزعمت قومها جراوة ، وفاتلت المسلمين في جبال أوراس فهزمتهم ، وكان
عليهم حسان بن النعمان ولم يلبث أن جاءه المدد من الشرق ؛ فكرر عليها وأوقع بها وبجميعها
سنة ٧٤ هـ .

الفطرة والخلق القويم ، مستعداً بذاته للانتشار ؛ فكذلك هذه الفصحى ، لغة البيان والشعر ، تمتلك برقيتها القلوب ، وتستلبي العقول . وأحرر بالشعب الذي دخلاه معاً ، فرحب بها واحسن اقتبالهما ، أن يشهد التطور العتيد ، والفتح الجديد في مزاجه وعقليته وحياته العامة .

ولقد سارت العربية في المغرب أول الامر بسير الإسلام ، مترسمة خطاه متباعدة آثاره . حتى إنها لو كانت بقيت من ذلك الوقت تنمو وتثمر ، لكانت الآداب العربية قد أتت أكلتها من ذلك الوقت أيضاً ؛ ولكن عوائق كثيرة حالت دون سيرها المطرد ، وتقدمها المستمر . فتأخرت بذلك النهضة الادبية في المغرب ، وتقدمت في الأندلس ، التي فتحت بعده ، حيث لم تجد في طريقها شيئاً من تلك العراقيل .

وأول ما بدأ نشاط هذه الحركة ، في أيام حسّان بن النعمان الغساني ، أحد ولاة إفريقية من قبل عبد الملك بن مروان . فانه كان من الممهدين السبيل لتقدم الثقافة العربية واستقرار الحضارة الاسلامية بالمغرب . فدوّن الدواوين ، ورسم اللغة العربية ، أي جعلها لغة الدولة الرسمية ، فأوجب بذلك تعلّمها على السكان ، المسلمين وغير المسلمين . ثم بعد ذلك ، أنزل عمر بن عبد العزيز بإفريقية والمغرب عشرة من الفقهاء يعلمون الناس القرآن ويفقهونهم في الدين . كذلك فعل موسى بن نصير ؛ فرتّب عدداً من الفقهاء والقراء للغرض نفسه . وهذه كلها محاولات كان لها نتيجتها الطيبة ، وأثرها الم محمود في سرعة استعراب المغاربة ، وطبعهم بالطابع العربي الصميم . كما شوهد ذلك يوم فتح الأندلس ، حيث خطب طارق بن زياد وهو مولى مغربي لموسى بن نصير ، خطبته المشهورة في جيشه الذي أناف على اثني عشر الف جندي ، فيهم ثلاثمائة فقط على أكثر تقدير من العرب ، ففهمها الجيش كله ، وأثرت فيه تأثيرها البليغ المشهود في اندفاعه الى حومة الوغى ، وتهافته على الموت بإيمان وحماس . فكيف يفسر هذا بغير سرعة انتشار العربية ، كالسرعة التي انتشر بها الاسلام ؟

أما الأمر هكذا ، فما الذي قضى عليها بعد ذلك ، وأوقف سيرها لأمد بعيد جداً ؟ هنا مضلة الأفهام ، ومزلة الأقلام . والذي يظهر لنا أنها تلك الفتن والحروب التي نشبت بين العرب والمغاربة فيما بعد . والتي كان مشارها التعصب الأعمى والعنصرية المقيتة . ومما لا شك فيه ، ان بعض الحُصُون والمعازل المنيعَة التي لم يكن

وصلها الإسلام أو وصلها ولم يتمركز فيها ؛ لم يكن للعربية أن تهاجمها أو تتمكن فيها . فالبربرية ، ولو أنها انهزمت أمامها ، لم تجد خيراً من أن تحتفظ بالرّمق الباقي منها في ذلك البعض من الحصون والمعازل . وهناك حقيقة ، في شَعَفِ جِبَالِ الأطلس ، كان مُتَرَبِّعُها ومقيلها ، حيث بقيت تتنازع البقاء . فأنا نجد من يأخذ بضَبْعِها من مُتَعَصِّبَةِ المغاربة ومتحمسيهم ، أو ممن لاناقة له ولا جمال في هذا الامر ، وإنما همّ بذرُ الشقاق والخلاف بين العنصرين المتمازجين والجنسين المتحدّين ، فتنهض وتستوي ؛ وأنا تبقى مهملة منبوذة ، لا يؤبّه لها ولا يحفل بها ، وذلك غالب أمرها . بل فيما عدا عصر الفتوح الذي نحن فيه ، وفيما بعده بقليل ، لم يبق لها بجانب العربية ظهور ولا صولة مطلقاً . وخصوصاً بعد قيام الدول العربية البحت من بني مرين والسعديين والعلويين ، كما ستجد تفاصيل ذلك في تضاعيف هذا الكتاب .

الصِّراعُ بَيْنَ الْعَرَبِ وَالْمَغَارِبَةِ

إذا عدنا لذكر الصِّراع القائم بين العرب والمغاربة ؛ فلسنا نقصد صراعاً دينياً من نوع ما سبق ، فنكون نقضنا حكمنا بأن المغاربة لم ينتقضوا على الاسلام أولاً ، إلاّ لأنهم جهلوه فعادوه ، وإنما نقصد هذا الصراع السياسي الطويل الذي ثارت عوامله بين العنصرين المتنافسين فيما بعد ، بسبب تداول الحكم وتنازع السلطة .

ولعل مَثارَ النزاع أولاً إنما كان لأجل استبداد العرب بوجوه المنافع ، واختصاصهم بالمناصب العالية في الدولة ، فبدأت المطالبة بالمساواة في الحقوق . ثم استفحل الداء فبدأ المغاربة يشعرون بالخطر يهدّدهم ، وأنهم ان لم يتلافوا الحال ، ربّما أفضى الأمر الى محو وجودهم السياسي . فهاجت حميتُهم وثارَت عصبيتُهم ، وهبّوا مندفعين كالسيل الجارف يُريدون في البدء نيل حقوقهم المضمومة ، وتثبيت مركزهم المتضعع . ثم لما استحلوا الظفر واستمرءوا طعم الظهور ، لم يبقوا قانعين بما حصلوا عليه . فتعلّقت آمالهم بالملك والإمارة ، وساروا في سبيلهم متحمسين .

ونستشهد التاريخ في إثبات هذا الرأي ؛ فنجد أن أول ما وقع هذا الاستبداد في دولة الإمام إدريس ، حيث يتحدث المؤرخون أنه في سنة ١٨٩ هـ وفدت عليه وفود العرب من بلاد إفريقية والأندلس ، في نحو خمسمائة فارس من القيسية والأزد ومندحج وبني محصب والصدف وغيرهم . فسُرَّ بوفادتهم وأجزل صلاتهم وقرَّبهم ، ورفع منازلهم وجعلهم بطانته دون المغاربة . فاعتزَّ بهم لانه كان فريداً بين هؤلاء ، ليس معه عرب ، فاستوزر عمير بن مصعب الأزدي ، واستقضى منهم عامراً بن محمد بن سعيد القيسي قيس عيلان الخ كما في القرطاس . ولكننا نلاحظ انه لم يظهر أثر سيء هذه السياسة الاستثنائية كما يحسُن أن تسمى ؛ في ذلك الحين على عهد الإمام إدريس . ولعل ذلك يرجع لما كان له ولهم من عظيم المنزلة عندهم ، وصدق المحبة فيه . فلم يكونوا ينظرون إلى أعماله بعين الشك والريبة ، كما نظروا إلى أعمال أولاده من بعده . ولأن الأمر في أوائله قلماً يُنتبه إليه ، فلا يظهر ما يكون نتيجة له أو أثراً عنه . وكل ما نريد أن نقوله ، هو ان هذا السلوك كان مبدءاً الاستبداد على المغاربة ومنشأ الخلاف على العرب ؛ وان لم يظهر أثر ذلك إلا بعد أن تدهورت سياسة الإدارة واختلَّت إدارتهم ، فقويت الهمم وشدَّت العزائم على مقاومتهم والسعي في مناوأتهم .

فظهر على مسرح التاريخ موسى بن أبي العافية فجداً في أثر الدولة الفتية يُصلي رجالها نيراناً مُستعيرة ، ويشنُّ عليهم كل غارة شعواء ، حتى قوَّض أركانها المتينة وهدَّ بُنيانها الشامخ وكاد يستأصلهم ، لولا أن أخذت الناس الشفقة عليهم ، فمنعوه منهم ، فأقلع عنهم خزيان حقيراً . وما كاد يستريح ويأخذ في تدبير شؤونه حتى انبرى له بنو عبيد فساقوه بعصاهم . ومن هنا تعلم أن المغاربة لم يكونوا يُريدون الانفراد بالسلطة أول الأمر ، وإنما كانوا مغلوبين على أمرهم ومضروباً على أيديهم ؛ فأرادوا الدفاع عن أنفسهم ونيل حقوقهم المضمومة ؛ وإلاَّ فإن أبا عبد الله الشيعي كان يدعوهم إلى بيعة الفاطميين العلويين . وهل كانوا بالمغرب إلاَّ داخلين في دعوة بمائلة ومبايعين للأدارسة العلويين ؟ فلا يخلو هؤلاء الخارجون معه إمّا ان يكونوا مغرورين أو مُنتهزين الفرصة للحصول على مطامعهم في ظل الدولة الجديدة على حد قول الشاعر :

إذا لم يكن للمرء في دولة امرئ نصيبٌ ولا حظٌ تمتى زوالها

وما ذاك عن بُغْض لها غيرَ أَنَّهُ يَرْجِي سواها فهو يَهْوَى انتقَالَها

وكان ظهور الدولة الفاطمية على مسرح السياسة المغربية سبباً لقيام نزاع كبير بينها وبين الأمويين أصحاب الاندلس ؛ على المغرب . فما كانت 'تطفأ' لظى الحرب بينهم إلاّ وتشعل من جديد . وقد لقي المغرب من جرّاء ذلك عَنَتاً شديداً . ثم قامت دولة مَغراوّة وبني يَفْرَن فكانت دولةً مغربيةً محضةً ، وان لم يرَ المغربُ على عهدهما إلاّ الحروب الطاحنة والفتن الداخلية الماحقة ؛ فكان عهداً مظالمًا توقفت فيه جميع الحركات الناشئة من علميّة وأدبية ، وانقرض العُمران ، وكادت الفوضى تقضي على هذه البلاد ؛ لو لم يتداركها الله بعبد الله بن ياسين مؤسس دولة المرابطين .

الوسط الفكريّ في هذا العصر

رأينا كيف تأخر فتح المغرب الى ما بعد مُنتصف المائة الأولى للهجرة ، وأنه لم يقرّ قرارُهُ بعد الفتح الأول ، ولا سكنت نائثرته . بل سرعان ما قتل الفاتح في إحدى جولاته بمدن إفريقية ، وعادت البلاد كلها الى عهد الفوضى والاضطراب ، مما دعا الى تجريد حملة ثانية على هذا الإقليم بقيادة موسى بن نصير ، رأيت منه الصّدع ورتقت الفتق ، وشغلت المغاربة الى حين بالعبور الى الاندلس والقتال في تلك البلاد التي كانت الى الامس القريب تستبعضهم وتتحكم فيهم .

وفيا بين هذين الفتحين كان كثير من المغاربة لم يفهموا حقيقة الدعوة الاسلامية ولم ينظروا الى العرب الا كما كانوا ينظرون الى الرومان والروم وغيرهم ، ممن وغل عليهم ودوّخَ أقطارهم من قبل قصد الاستغلال والاستئثار . ولقد قالت الكاهنة داهية لقومها : « انما تطلب العرب من المغرب مُدنه وما فيها من الذهب والفضة ، ونحن انما نريد المزارع والمراعي ، فالرأي ان تحترّب هذه المدن والحصون ونقطع أطماع العرب عنها » . وبالطبع فان من يكون هذا رأيه في القوم لا يقبل ما أتوا به من شرع ودين ، ولا يتأثر بما يحملونه من علم وعرفان .

ونقلَ عن ابن أبي زيد القيرواني أنه قال : ارتدت البربر اثنتي عشرة مرة ،

من طرابلس إلى طنجة ، ولا شك أن هذا الكلام إن أريد به الردّة الحقيقية ، فانما يتنزّل على أقوام من البربر لا على جميعهم ، وإن أريد به الثورة والعصيان وشقّ العصا على الدولة ، فهو صحيح في جملة . على أن الخلفاء والولاة الذين تتابعوا على حكم المغرب لما تنبّهوا إلى وجوب تعليم المغاربة وتلقينهم مبادئ الدين الحنيف ، فرتبوا لهم الأئمة والفقهاء يعلمونهم ويرشدونهم ، أمنوا بعد ذلك من انتقاضهم وعرفوا السبيل إلى تفهيمهم حقيقة ما جاءوا به . ومن يومئذ لم تعد ثورات المغرب والحروب التي نشبت بعد ، إلا تمرّداً على الولاة الظالمين أو فتنة يوقدّها ذوو الأغراض من الخوارج وأصحاب المطامع السياسيّة ، ويستغلّثون فيها المغاربة البرءاء أسوأ استغلال .

وفي الحقيقة إنّ جناية الخوارج على المغرب لا تعادلها جناية ، فانها تسببت في انقسامه على نفسه ، وتسليط بعضه على بعض ، مما أدّى إلى بقائه زهاء ثلاثة قرون طعنة ليران الحروب وميداناً لتجريب الحظوظ ، وهو في كل ذلك إنما يزداد سوء حالة من ناحية انتشار الجهل وعدم الاستفادة ، مما أتى به الفاتحون العرب ، حملة الهداية الاسلاميّة ومنوِّرو الشعوب .

وثمة عامل آخر ، إلى جانب انعدام الاستقرار واضطراب الأمن ، كان له اسوء الاثر في عدم استفادة المغاربة مبكراً من علوم العرب وآدابها وبطء نهضتهم وظهور المثقفين فيهم ؛ ذلك هو أن المغرب لبعده عن مواطن العرب الأصليّة أو التي توطنوها بعد الفتح الاسلامي ، لم يتخذ العرب مقراً لهم ومسكناً ؛ وانما كانوا يحلبون في إفريقيا وعاصمتها القيروان ، التي كانوا هم المنشئين لها والمصّرين ، أو يجتازونه إلى الاندلس ، حيث يجدون أنفسهم في بلاد شبه مستقلة عن قاعدة الخلافة وطائفة السلطان . ولذلك ما لبث الجناحان المغربيان الشرقي والغربي ، أن نهضا وحلّقا ، فتكوّنت في إفريقيا الأغلبية ، وفي الاندلس الاموية ، حركات فكريّة وأوساط علمية وأدبية راقية ، بخلاف المغرب الذي لم يكن يستقرّ فيه إلا أفراد قلائل من الولاة العرب ، أو بعض الجنود من جفافة الأعراب الذين ليسوا في قبيل ولا دبير من شؤون الفكر وحياة العلم والأدب . وهم مع ذلك قليل وقليل جداً ؛ حتى إنّ جيش طارق بن زياد الذي فتح الأندلس لم يكن فيه إلا ثلاثمائة عربي أو ثلاثة عشر على الخلاف في ذلك ، وهو اثنا عشر ألفاً . . . وقد علمت أن إدريس الثاني استقبل في سنة ١٨٩ هـ وفود العرب من بلاد إفريقيا والاندلس وهم نحو الخمسمائة فارس فقرّبهم واستأنس بهم

لأنه كان فريداً بين المغاربة ليس معه عرب ... وما هو خطر خمسمائة فردٍ في قطر يُعَدُّ سكانه بالملايين؟ فلا جرم إذا بقي المغرب على جهله وتأخُّره ولم يُسرِع إلى التطور والتعريب والنقل عن اساتذته الجُدد كما نقل عنهم أشقَّاءُه وخيرانه .

على أننا إن صوَّرنَا الحياة الفكرية في هذا العصر بهذه الصورة القائمة ، فلا نمرُّ بدون أن نُشيرَ إلى ذلك البصيص من النور الذي كان يومضُ خلالها أحياناً ، منبعثاً من مصدر الإشعاع بفاس ، أعني جامع القرويين ... فمن المعلوم أن هذا المسجد الذي يعدُّ أقدم جامعةٍ علميةٍ في العالم الإسلامي ، قد أُسس في هذا العصر ، وبالضبط في سنة ٢٤٥ هـ . وكانت التي بنَّته سيِّدةٌ فاضلةٌ من مهاجرة القيروان ، تُسمَّى أم البنين الفهرية .

ولما كانت المساجد في المجتمع الإسلامي تؤدي مهمَّتين : مهمة دينية ، ومهمة ثقافية . إذ تلقى في أروقتها دروسٌ في مختلف العلوم والفنون ، فإننا نعتقد أن جامع القرويين منذ إنشائه كان مركزاً للدراسات الدينية والأدبية ، التي لم تنقطع منه أبداً ، وأن تأسيسه كان مبدأ الارتكاز للحياة الفكرية في المغرب ، بالرغم من وجود مساجد أخرى سابقةٍ له في فاس وغيرها . ولا أدلَّ على ذلك من أن كبار علماء المغرب الذين عرفناهم ، إنما نبغوا بعد التاريخ الذي شُيِّد فيه ذلك المسجد العامر .

على أن مراكز ثقافية أخرى كانت تقوم في كلِّ من سبتة وطنجة والبصرة وأصيلا . وهي باستثناء سبتة قد عرض لحركتها فتورٌ أو اضمحلت بالمرَّة أثناء هذا العصر نفسه ، وإن تخرَّج منها أعلام لهم مكانتهم في تاريخ الحركة الفكرية بالمغرب . إذاً فقد كانت هناك دروس ، وكانت هناك هيئة علمية ، وإن كنا لا نعرف من خبر هذه الهيئة وأثر تلك الدروس إلاَّ الشيء القليل .

ولعل أهمَّ ما نسجَّله عن الحياة الفكرية في هذا العصر ، التي قلنا أن تأسيس

١ - مدينة البصرة أُسست في عهد الادارسة بالقرب من مدينة القصر الكبير ، وكانت داخلة في ولاية القاسم بن ادريس لما قسم أخوه محمد المغرب بين أخوته . وازدهر عمراتها ثم خربت على يد أبي الفتوح ابن زيري الصنهاجي في العصر نفسه .

جامع القرويين كان مبدأ الارتكاز لها في المغرب ، هو ظهور المذهب المالكي في الفقه ، وسيطرته على المذهب الكوفي الذي كانت له الصّولة في المغرب ، وبالتالي قضاؤه على المذاهب الأخرى التي كانت منتشرة في جهات مختلفة من هذا القطر ؛ كالمذهب الخارجي الذي كانت تعتنقه إمارة بني مدرار في سجلماسة ، والبرغواطي الذي كان باض وفرّخ في تلمسان والاعتزالي الذي كان منتشراً هنا وهناك ، كالشيعي الذي يُقال إنّ قرنه طلع مع نشوء الدولة الإدريسية . وعلى كل حال فإن مذهب مالك لم يتوطّد أمره في هذا العصر كمذهب فقهيّ فقط ، ولكن كعقيدة أيضاً فإن التلازم بين طريقتيه في الفقه والاعتقاد ، وهي اتباع السنّة ونبذ الرأي والتأويل ، ممّا لا يخفى .

وقد كان الفضل في اتجاه المغرب هذا الاتجاه لرجال من أبنائه البررة ، أرادوا إشباع همّهم من العلم ، فتحملوا عن ديارهم ومساقط رؤوسهم ، وضربوا في طول البلاد الإسلامية وعرضها طلباً للمزيد من المعرفة ورغبة في سعة الرواية ، ثم عادوا إلى وطنهم يتفجّرون علماً ويلتهبون إخلاصاً .

فأخذ عنهم من لم يستطع الرحلة من مواطنهم ، وقاموا جميعاً بتأسيس قواعد العلم ومعاهد الدّين في مختلف أنحاء البلاد . وهؤلاء أمثال أبي هرّون البصري ، الذي كان أول من أدخل كتاب ابن الموّاز إلى الاندلس ، وأحمد بن الفتح المليبي ، ودرّاس بن اسمعيل ، وجبرالله بن القاسم الفاسي ، وأبي جيدة بن أحمد ، وأبي محمد الأصيلي ، وابن أبي غافر ، وعيسى بن علاء السبّتيين ، وعيسى بن سعادة الفاسي الذي تنازعه الفقهاء والمحدثون لما توفي بمصر ، كلهم يدّعيه ويقول أنا أحقّ بالصلاة عليه ، وابن سمحون الطنجي بالحاء المهملة ، ومحمد بن يحيى الصديني وأولاده ، وابن الزّويّزي الذي كان يضرب به المثل في صحة الفُتيا ، يقولون : لا أفعله ولو أفتاك

١ - هذه النسبة إلى قبيلة برغواطة بالراء . ويقول ابن هشام اللخمي في كتاب لحن العامة وابن دحية في كتاب المطرب نقلاً عن كتاب تثقيف اللسان : إنّها باللام ، فالنسبة إليها بلغواطي . ولصاحب القرطاس رأي آخر في ذلك ينظر فيه عند الكلام على قتال ابن ياسين للبرغواطيين . ونحن قد اثبتنا هذه الكلمة على ما هو مشهور فيها . وانظر لمعرفة المذهب البرغواطي كتاب القرطاس في الموضع المشار له ، والبيان المغرب في ص ٢٢٦ ج ل .

به ابن الزُّوزي ، والقاضي ابن محسود ، والحسن ابن عليّ الفاسي ، وأحمد بن العجوز وولده عبد الرّحيم وأحفاده ، وخلف بن مسعود الرُّعيني المعروف بابن أُمَيّة ، وابن أبي مسلم الصّدي ، وأحمد بن قاسم السّبّتي ، وسليمان بن أحمد الطنجي الاسّاذ في القراءات ، وعثمان بن مالك فقيه فاس وزعيم الفقهاء في وقته . كتب عنه تعليقاً على المدوّنة هو من أقدم ما كتب المغاربة عليها ، وأبي بكر بن زوبع السّبّتي وابن حمود الطنجي ، له شعر في مناسك الحجّ ، وعلي الهوّاري الفاسي ، والحسن القرشي من أهل فاس ، له كتاب سماه التّصنيف ، وحمزة بن يوسف الحرّار منها ، وابن التّبتّان كذلك وابن يربوع السّبّتي ، وابن أبي الرّبيع المكناسي ، وعلي ابن هرون الطنجي ، وأيوب بن محمد فقيه المصامدة في وقته ، وأبي القاسم بن محرز ، وسليمان بن عذراء فقيه المرباطين ، وتونارت بن تيدي من فقهاء المصامدة أيضاً ، ولتاد بن بلين اللّتمتوني ، الذي كان المثل يضرب بفتواه في الصحراء ، وعثمان بن سعيد البصري ، وكان يتفقه على طريقة أهل العراق وسعيد بن خلف الله البصري أيضاً ، له جزءٌ في مسائل من سؤالات أبي هرون البصري وصاحبه عبد الله بن يعيش لأحمد بن ميسّر الاسكندراني ، وقاسم بن محمد المعروف بابن المأموني ، له كتاب المناسك وموسى بن ياسين ، له كتب حسان ، في الحساب والفرائض ، وغيرهم ممن يطول تتبعهم .

ونترجمُ منهم هنا ، درّاس بن اسمعيل ، وأبا جيدة بن أحمد ، وأبا محمد الأصيلي وابن العجوز ، وأبا عمران الفاسي ، وإن كان الأصيلي استوطن الأندلس بعد رجوعه من رحلته ، والفاسي أقام بالقيروان ردحاً طويلاً من حياته . إلّا أنّنا نذكرهما كعلمين من أعلام هذا العصر البارزين .

درّاس بن اسمعيل

هو أبو ميمونة درّاس بن اسمعيل الفاسي ، كان كاسمه ، كثير الدرس . سمع من شيوخ فاس ، ورحل إلى المشرق ، فحجّ وجال في الأندلس وإفريقية ، ولقي جماعة من العلماء . روى الحديث وقرأ الفقه ، وسمع بإفريقية من أبي بكر بن اللّباد وغيره وبالأندلس من شيوخها . ولقي عليّ بن أبي مطر بالاسكندرية ، وسمع منه كتاب ابن

المواز ، وحدث به بالقيروان ، سمعه منه أبو محمد بن أبي زيد وأبو الحسن القابسي وغيرهما . ودخل أيضاً الأندلس مجاهداً وتردد بها في الثغر ؛ فسمع منه أبو الفرج عبدوس بن خلف ، وخلف بن أبي جعفر وغير واحد ... وهو ممن أدخل مذهب مالك إلى المغرب ، وكان الغالب على أهله مذهب الكوفيين . وكان رحمه الله فقيهاً محدثاً حافظاً ، من أهل الفضل والدين . ولما وصل إلى القيروان اطلع الناس من حفظه على أمر عظيم ، حتى كان يقال ليس في وقته احفظ منه . وكان نزوله بها عند ابن أبي زيد . وله بفاس مسجد يُعرف به بحبي مَصمودة ، ويقال إن قبلته أقوم قبله بفاس ، وبه كان يُدرس الفقه بعد رجوعه من المشرق . توفي ببغده سنة ٣٥٧ هـ ودفن بخارج باب الفتوح منها ، حيث بُنيت عليه قبة جميلة . ويحكى أن أبا محمد بن أبي زيد القيرواني قدم فاساً لزيارته ، فوجده قد توفي في ذلك اليوم فحضر جنازته وأقام بقبوره ثلاثة أيام . وكان ذلك سبب زيارة القبور بفاس عدد تلك الايام الى الآن . ولما اراد الرّحيل الى بلده أنشد :

قَفْ بِالْمَقَابِرِ لِلتَّوْدِيْعِ يَا حَادِرَ فَإِنَّ فِي جَوْفِهَا قَلْبِي وَأَكْبَادِي

أَبُو جِيْدَه

هو أبو جيدة بن أحمد اليزنسي من أهل فاس ، ومن كبار أهل العلم والفقه والصّلاح بها . له رحلة إلى المشرق ، لما رجع منها خرج أهل فاس كلّهم للقائه ، الرجال والنساء ، فكان هؤلاء في ناحية وأولئك في ناحية ، وذلك كلّه فرحاً به وإجلالاً له . واشتهر بفتواه في حكم أرض المغرب ، التي أنقذ بها البلاد والعباد من سطوة الجبابرة . وذلك أن عامل المنصور بن أبي عامر لما تغلب على فاس قال لهم : أخبروني عن أرضكم أصلح هي أم عنوة ؟ فقالوا لا جواب عندنا حتى يأتي الفقيه ، يعنون أبا جيدة ... وكان يعمل في بُستان له خارج المدينة . فلما جاء سألّه ، فقال : ليست بصّالح ولا عنوة ، وإنما أسلم عليها أهلها فبقيت لهم . فقال العامل : خلّصكم الفقيه . وهذه الفتوى هي مضمون كلمة الرئيس الأميركي مُنرو « أميركا للأميركيين » فقد سبقه إليها أبو جيدة بعدة قرون ...

وكان أبو جيدة راسخ القدم في فقه مالك والشافعي معاً ، وله تأليف في الوثائق على طريقة الشافعية . وتوفي رحمه الله سنة ٣٦٥ هـ ودفن خارج باب المسافرين ، أحد أبواب فاس ، حيث يوجد قبره في جامع هناك . وقد ترك الناس تسميتها القديمة وسموها باب سيدي بو جيدة اعترافاً بفضلته وتخليداً لذكراه .

الأصيلي

هو أبو محمد عبد الله بن إبراهيم بن محمد الأصيلي الإمام المحدث الفقيه راوية البخاري . والأصيلي نسبة إلى أصيلا المغرب ، كما جزم به ابن الطيّب الشرقي محشي القاموس ، وأيده مرتضى في التاج . وقال : يدلُّ له عدُّه في الغرباء الطائرين على الأندلس . قال أبو الوليد بن الفرّاضي : « ومن الغرباء في هذا الباب عبد الله بن إبراهيم بن محمد الأصيلي من أصيلا ، يُكنّى أبا محمد . سمعته يقول : « قدمت قرطبة سنة ٣٤٢ فسمعت بها من أحمد بن مطرف وأحمد بن سعيد ، وكانت رحلتي إلى المشرق في محرم سنة ٣٥١ ودخلت بغداد فسمعت بها من أبي بكر الشافعي وأبي بكر الأبهري » وقال في الديباج : « وحجّ فلقي بمكة سنة ٥٣ أبا زيد المرزوي ، وسمع منه البخاري ، وأبا بكر الأجرى ، وبالمدينة قاضيها أبا مروان المالكي . وحدث عن الدّار قطني ، واضطرب في المشرق نحو ثلاثة عشر عاماً ، وسمع ببغداد عرضته الثانية في البخاري من أبي زيد ، وسمعه أيضاً من أبي أحمد الجرجاني وهما شيخاه في البخاري وعليهما يعتمد » ثم انصرف إلى الأندلس فقرأ عليه الناس كتاب البخاري وانتهت إليه الرئاسة بها ، فوَلَّى قضاء سرّقسطة وقام بالشورى مدةً في قرطبة وغيرها . وصنّف كتاب الآثار والدلائل في خلاف مالك وأبي حنيفة والشافعي ، وكان من حفّاظ مذهب مالك . ومن أعلم الناس بالحديث وأبصرهم بعِلّله ورجاله ، وتوفي يوم الخميس ١٩ ذي الحجة ٣٧٢ .

ابن العجوز

عبدُ الرحيم بن أحمد الكتامي المعروف بابن العجوز يكنّى أبا عبد الرحمن من أهل سبتة . كانت له ولأبيه في قومه كتامة ، وفي المغرب رئاسةٌ بالعلم ، واليه كانت الرحلة في

المغرب في وقته ، وعليه كانت تدور الفتيا . وله عَقِبٌ نجباء في العلم ، عبد العزيز وعبد الرحمن وعبد الملك . رَحَلَ عبد الرحيم الى الاندلس وافريقية ولازم ابا محمد بن أبي زيد واختصَّ به وسمع منه كتاب النوادر والمختصر وغيرهما ، وسمع من درَّاس ابن اسمعيل وأبي محمد الأصيلي ووهب بن ميسرة الحجازي . وكانت رحلته في نحو الثمانين وثلاثمائة . اخذ عنه الناس بسبته علماً كثيراً وتفقهوا عليه وسمعوا منه . وكان من حفاظ المذهب العالمين به . روى عنه أبو القاسم بن المأموني وغيره من فقهاء سبته وفاس وتوفي سنة ٤١٣ .

أَبُو عِمْرَانَ الْفَاسِي

موسى بن عيسى بن أبي حاج الغفجومي نسبة إلى غفجوم ، فخذ من قبيلة زناتة . كان بيته بفاس بيتاً معروفاً مشهوراً ، يعرفون ببني حاج ، وله عَقِبٌ ، وكان فيهم نباهة . واليه ينسب درب أبي حاج بالطالعة من المدينة المذكورة . استوطن القيروان وحصلت له بها رئاسة العلم ، وتفقهه بأبي الحسن القابسي ، ورحل الى قرطبة فتفقه بها عند الأصيلي وسمع من أبي عثمان وعبد الوارث واحمد بن قاسم وغيرهم . ورحل الى المشرق وحجَّ ودخل العراق ؛ فسمع من الفتح بن أبي الفوارس وأبي الحسن المستملي . ودرس الأصول على القاضي أبي بكر الباقلاني ، ولقي جماعة وسمع من أبي ذرٍّ . قال حاتم بن محمد : كان ابو عمران من أحفظ الناس واعلمهم ، جمع حفظ المذهب المالكي إلى حديث النبي صلى الله عليه وسلم ومعرفة معانيه . وكان يقرأ القراءان بالسبع ويجوِّده ، مع معرفته بالرجال وجرحهم وتعديلهم . أخذ عنه الناس من اقطار الاندلس والمغرب واستجازه من لم يلقيه . وألَّف كتاب التعاليق على المدونة وخرَّج عوالي حديثه في نحو مائة ورقة . قال حاتم بن محمد : ولم ألق احداً أوسع علماً منه ولا أكثر رواية . وذكر أن الباقلاني كان يعجبه حفظه ويقول : لو اجتمعت في مدرستي أنت وعبد الوهاب^١ - وكان اذ ذاك بالموصل - لاجتمع عندي علمُ مالك ، انت تحفظه وهو ينظره . وفي كتاب بيوتات فاس لابن الأحمر ان الطغاة من اهل فاس العاملين عليها

١ القاضي عبد الوهاب بن نصر البغدادي ، من اعلام مذهب مالك (٣٦٢ - ٤٢٢) انظر ترجمته في الديباج لابن فرحون - مثلاً - ص ١٥٩ .

لَمَعْرَاوَة أخرجوه منها لأمره بالمعروف ونهيه عن المنكر ، وهو يفيد أنه استقرَّ بفاس بعد رجوعه من رحلته ، ثم خرج منها مضطراً .

وتوفي في سنة ٤٣٠ هـ وهو ابن ٦٥ سنة .

. . .

هذا في الناحية العلمية ، وفي الناحية الأدبية ، يمكن أن نشير إلى هذه الظاهرة العجيبة التي تتمثل في استعراب جميع قبائل الشمال المغربي ، ما عدا الريف بحيث تَسُوِسِيَتْ فيها البربرية تماماً . ويقال إنَّ الفضل في ذلك يرجع للأدارسة الذين آوَوْا إليها بعد خروجهم من فاس وأسَّسوا بها دولتهم الثانية على يد القاسم كَثُثُون منهم ، تلك الدولة التي كانت قَصَبَتُهَا في قلعة حجر النسر بجبل سَمَاتَة^١ . ولا يبعد ذلك على النظر ، فان اكتناف هذه القبائل بمدينة سبتة وطنجة وأصيلا والبصرة ، وكلها كانت مراكز حركة أدبية نشيطة ، مما يقوّي بواعث هذا الاستعراب . ولعل أقوى الأدلة على صحة هذا القول ، هو انتشار السلالة الأدرسية في هذه القبائل انتشاراً لا يوجد له نظير في ناحية أخرى من نواحي المغرب . وهو دليل باقٍ إلى الآن ، يحملنا على القول إن تأثير الأدارسة في استعراب البربر وتطورهم الفكري أكثر مما نظن .

فاذا ذهبنا نقيس عملهم في هذا الباب بعمل أمراء 'نكفور'^٢ أبناء صالح بن منصور ، وقد تأسست هذه الإمارة في الريف قبل قيام الدولة الأدرسية وبقيت

١ - وقع في وهْلِنَا لأول مرة مررنا بهذا الموقع الحصين المسمى إلى الآن بجحر النسر في قبيلة سَمَاتَة أنه المكان الذي أقام فيه الأدارسة دولتهم الثانية ولم نجد من نعتد عليه في ذلك ونعتضد به ، سوى الأوهام وكلام العوام . حتى وقفنا على ما يثبت ذلك عند النسابة ابن رحون في كتابه شذور الذهب ، فانه جزم به في مواضع من الكتاب المذكور وقال أنه يُعرَفُ أيضاً بجحر الشرفاء وبنادر القسار لِقَرَار الادارسة فيه عند تغلب الدول عليهم وإن كان وقع له في انجد النقول أنه في قبيلة بني زجل حول شفشاون . والاول اثبت ومثله عند النقيب الريسوني في كتاب فتح العليم الخبير . وعليه فما في دائرة المعارف الاسلامية من أن هذا الموقع غير معروف ، فيه قصور .

٢ - مدينة النكفور بالريف أسسها ادريس بن صالح بن منصور سنة ١٣٢ هـ . وخرها يوسف ابن تاشفين سنة ٤٧٣ هـ .

إلى ما بعد انقراضها ، نجد أنه لا نسبة بينهما في ذلك ؛ وهذا الريف ما يزال يرطن بالبربرية لحد الآن .

وباستثناء هذه الظاهرة التي نسجلها بكل ارتياح ، نرى أن الغموض يساور الناحية الأدبية في هذا العصر أكثر من الناحية العلمية . فإذا استطعنا أن نعدّ أفراداً من العلماء ونترجم لهم ولو على سبيل الاجمال ، فإننا لا نستطيع ذلك بالنسبة إلى الأدباء . وغاية ما يمكننا أن نفعله هو أن نذكر أسماء بعض هؤلاء الأدباء الذين ورد ذكرهم عرضاً في الكتب وفي المنازعات السياسية او المذهبية بسبب بيت او بيتين من الشعر الذي يرويه لنا هذا المؤلف أو ذاك ؛ على أنه مما قيل في الموضوع .

ولعل من ألمع هذه الأسماء وأشهرها في هذا المعنى اسم ادريس الثاني ثم ولده القاسم ، وعُبَيْد الله بن يحيى بن ادريس ، والحسن الحِجَّام ، وابراهيم المؤبِّل وعبدالله الكفيف الطنجي وسعيد بن هشام المصمودي وابراهيم بن محمد الأصيلي ، وابراهيم ابن أيوب النُّكُوري . وسوف نورد لبعضهم في الجزأين الثاني والثالث بعض الآثار .

عصر المزابطين

سِيَّاسَةُ الدَّوْلَةِ

في ذاك الجوَّ السياسي المضطرب الذي خضع له المغرب مدى ثلاثة قرون أو تزيد ، ومن صميم الشعب المغربي الذي سَمَّ حياة الفوضى والقلق ، قام الرجلُ الذي رسم لهذه البلاد خطَّة العمل ، وقاد أهلها إلى قرارة المجد ومستوى العظمة ، فعرفوا واجبهم من يومئذ وما تخلفوا عنه قط . وكان الرجل تلميذاً غير مباشر للشيخ أبي عمران الفاسي السابق الذكر ، والذي نفته السلطة الغاشمة من بلده فاس لأمره بالمعروف ونهيه عن المنكر . فنحن إذاً بأزاء خريج لتلك المدرسة الإصلاحية التي لم يتح لها أن تقوم بدورها في أرض الوطن فأدَّتته من بعيد على أحسن الوجوه .

ويتعلق الأمر بأحد زعماء قبيلة صنهاجة العظيمة وهو يحيى بن ابراهيم الكدالي ، فانه لما حجَّ ومرَّ في طريق عودته بالقيروان ، اجتمع بأبي عمران هذا وتحدث إليه عن سوء الحالة الاجتماعية بالمغرب وما عليه القبائل من الجهل باصول الدين وفروع الشريعة . فبعث معه بكتاب إلى تلميذه واجتاج بن زلو اللمطي وكان فقيهاً صالحاً وإقامته بمدينة نفيس بالجنوب المغربي ، يأمره فيه ان يبعث معه من تلاميذه من يصلح للدعوة والارشاد ، ويصبرُ على لأواء الصحراء . ولحسن الحظ فقد وقع اختياره على تلميذ من الحذاق الأذكياء الفقهاء النبلاء أهل الدين والفضل والتقوى والورع والأدب والسياسة والمشاركة في العلوم ، كما وصفه ابن أبي زرع ، هو عبدالله بن ياسين الجزولي ؛ فخرج مع يحيى بن ابراهيم حتى وصل بلاد كدالة من قبائل صنهاجة ، وهم وملتونة إخوةٌ يجتمعون في أب واحد . وكانوا يسكنون آخر بلاد الإسلام ، ويحاربون السودان ، ويلبهم من جهة المغرب البحر المحيط .

١ - هكذا حدد مواطنهم الاولى صاحب القرطاس ، وتلك عبارته . ويعني بآخر بلاد الاسلام الصحراء الكبرى فقد كانت غاية ما انتهت اليه الدعوة الاسلامية اذ ذاك ثم بلغت بفضل جهود المرابطين الى ما وراء التخوم الصحراوية من افريقية السودان .

دخل عبدالله بن ياسين بلاد صنهاجة بقصد تعليمهم القرآن وتفقيهم في الدين فوجد القوم على جهل مُطبق لا يفرّقون بين حلال وحرام ، ليس معهم من الاسلام الا الشهادات ويتزوجون اكثر من أربع نسوة ، فجعل يقرئهم القرآن ويبين لهم شرائع الاسلام ويأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ، فثقلت وطأته عليهم ونفرت منه قلوبهم ، وحدث أن مات حاميه والذاب عنه الزعيم يحيى بن ابراهيم فتوفرت الأسباب على منابذته والاعراض عنه ، فخرج مع من ثبت منهم على دعوته الى رباط ناء في اقاصي الصحراء حيث أقاموا يعبدون الله ويطبقون تعاليم دينه .. وقيل إن يحيى بن ابراهيم كان ممن خرج معه الى هذا الرباط بعد ان تنكّر له قومه ونبذوا طاعته ولم يمت إلا بعد ذلك . وأياً كان فانهم ما لبثوا هنالك الا قليلا حتى تسامع بهم الناس فكثرت عليهم الوارد ونزع اليه التوّابون ممن جفوه قبل . وبلغ عدد من اجتمع عليه من أشرف صنهاجة نحو ألف رجل ، فسمّاهم هو أو سمّاهم الناس « المرابطين » من أجل مُلازمتهم لذلك الرّباط .

ولم يزل عبد الله بن ياسين مُقيماً برباطه على الحالة التي وصفناها حتى قويت جموعه وكثرت وفوده ، فتدبّرهم الى جهاد من خالفهم من قومهم وقال لهم : « يا معشر المرابطين ! إنكم جمعٌ كثير ، وانتم وجوه قبائلكم ، ورؤساء عشائركم ، وقد أصلحكم الله تعالى وهداكم الى صراطه المستقيم فوجب عليكم أن تشكروا نعمته عليكم ، وتأمروا بالمعروف وتنهوا عن المنكر وتجاهدوا في الله حق جهاده . فقالوا له : ايها الشيخ المبارك ؛ مُرنا بما شئتَ تجددنا سامعين ، ولو أمرتنا بقتل آبائنا لفعلنا . فقال لهم : « اخرجوا على بركة الله وأنذروا قومكم وخوفوهم عقاب الله وابلغوهم حجّته ؛ فان تابوا ورجعوا الى الحق وأقلعوا عما هم عليه فخلّثوا سبيلهم ؛ وإن أبوا من ذلك وتمادوا في غيهم ولجّوا في طغيانهم استعنّا بالله تعالى عليهم وجاهدناهم حتّى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين » .

وقد كان هذا هو 'دستور الدولة المرابطية الذي سارت عليه منذ قيامها ، وقانونها الأساسي الذي لم تحدّ عنه قط . إنها قامت لاصلاح الفساد وتطهير المجتمع من عوامل الشر ونشر الفضائل الدينية وتطبيق الشريعة الاسلامية كما جاء بها صاحب الرسالة صلى الله عليه وسلم . وهي كما عملت وفق هذه المسطرة في قبائل المغرب التي أفسدها الدّعاة والخوارج من أصحاب البدع والنزعات الضالّة ، حتى أنقذ الله بها هذا القطر

من الهاوية التي كان قد تردّى فيها ، فانها قد سارت على نفس المسطرة لمّا أصبحت مدعوةً إلى القطر الأندلسي الذي أفسده تحلُّل ملوك الطوائف من كل الالتزامات الدينية والسياسية وانغماس أهل في الملاحى والمذات .

ولقد عمل المرابطون مع عبدالله بن ياسين على تثبيت دعائم الاسلام في بلاد صنهاجة أولاً ثم في بقية البلاد كسجلماسة ودرعة وسوس ، إذ كانت على ما كان عليه أهل صنهاجة من الجهل والزيف والفساد . وكان عبد الله يرتب العمال في كل البلاد التي يحلُّ بها ويأمر باقامة العدل واطهار السنّة وأخذ الزكاة والعشر من القبائل وإسقاط ما سوى ذلك من المغارم التي طالما كانت السبب في تمردهم وانحرافهم عن الجادة . وقاتل في مدينة تارودانت قوماً من الرّوافض يقول لهم البجليّة ، منسوبين إلى عبد الله البجلي الرافضي ، كان قدّم إلى سوس حين قدم عبّيد الله الشيعي الى افريقية ، فأشاع هنالك مذهبه فورثوه بعده جيلاً عن جيل ، لا يرون الحقّ إلا ما في أيديهم ، فطهر تلك الناحية من بدعتهم وردّهم الى السنّة . كما قاتل برغواطة ببلاد تامسنا السّاحلية المعروفة اليوم بالشاوية ، وكانوا أهل نخلة فاسدة وزيف عن الدين .

وفي أثناء المعركة التي انتهت باستئصال شافيتهم ، توفي رحمه الله شهيداً مبروراً ، وقد قضى في تربية المرابطين وإعدادهم للمهمة العظمى التي قاموا بها مدة حكمهم للمغرب ؛ إحدى وعشرين سنة ، لأنّ دخوله للصحراء مع يحيى بن إبراهيم كان سنة ٤٣٠ واستشهاده كان سنة ٤٥١ ، وهي مدة لا تعدّ شيئاً إذا قسناها بالنتائج التي حصلت فيها . فقد طهر المغرب من الظلم والفساد ، وتوحّدت أقاليمه بعد طول الفرقة ، وقطّع دابر الخلف المذهبي والسياسي الذي كان سبباً في كثير من الحروب الداخلية العنيفة ، وتمحّضت جهود المغاربة من يومئذ لبناء مستقبل بلادهم وإحلالها المحلّ اللائق بها بين بقية بلاد الاسلام والعروبة .

وكان يلي أمر المرابطين حين وفاة ابن ياسين الأمير ابو بكر بن عمر اللمتوني الذي لم يلبث أن سلم سلطاته لابن عمه يوسف بن تاشفين وانقطع هو الى الجهاد في بلاد السودان مع الاشراف على شؤون الصحراء .

وكان يوسف ذا همّة عالية وحزم وعزم ؛ فلما أسند اليه الأمر عزّم على تصفية ملك المغرب وانتزاع ما بقي منه بيد مغرارة وبني يفرن . وهكذا استولى على

فاس ونقل كرسيّ المملكة منها الى مراكش التي بناها سنة ٤٥٤ . ثم طمح الى تملك المغرب الأوسط فلم ينشب أن أخذ عاصمته تلمسان من يد مغراوة ، ثم افتتح مدينة قنّس ووهران وجبل وانشريس وجميع أعمال شلف الى الجزائر . وفي سنة ٤٧٥ كان قد صفاه أمر المغربين معاً . ثم ان مُستخلفه الامير ابا بكر بن عمر كان قد مضى الى الصحراء يجاهد في سبيل الله حتى بلغ حدود السودان ونهر النيجر ، ولما توفي سنة ٤٨٠ دخلت هذه البلاد كلها في طاعة يوسف ، فعظم بذلك أمره وذاع صيته في البلاد . ومن ثمّ توجهت اليه انظار أهل الأندلس وتعلّقت به آمالهم في النجدة والانقاذ .

وكانت بلاد الأندلس منذ سقوط الدولة الأموية ، تخضع لملوك الطوائف الذين تنازعوا النفوذ فيما بينهم ، واستبدوا بولاياتها المختلفة . ولم يكن عندهم غناء في دفاع العدو المغير ، لتفرّق كلمتهم وانهماكهم في اللهو والمجون ، على حين أن عدوهم أخذ لهم بالمرصاد ، يستخلص منهم الجزية لقاء الكفّ عن قتالهم ، ولا يفتأ يتنقّص بلادهم من اطرافها مهدداً لهم بالاكتماسح الشامل عند اول فرصة . وذهاباً مع الغاية في التهديد قام الفنّس السادس ملك قشتالة برحلة جاس فيها خلال ديار ملوك الطوائف حتى وصل الى ساحل المحيط من شاطئ مدينة طريف وأقحم بفرسه في اليمّ وقال هنا يجب ان انتهي بجنودي . وقد هلع المسلمون لذلك اشدّ الهلع وايقنوا بالخطر الداهم ان لم يتداركهم الله بلطفه ، وليأسهم من ملوكهم فانهم لم يكونوا ينتظرون الغوث إلا من الخارج وقد فكّر أهل قرطبة في الاستنجد بعرب افريقية ، فقال لهم قاضيهم أبو بكر بن أدهم : « أخاف إذا وصلوا اليّنا ان يخربوا بلادنا كما فعلوا بافريقية ويتركوا الفرنج ويبدأوا بنا . والمرابطون أصلح منهم واقرب اليّنا » . وشعر ملوك الطوائف بانحراف رعاياهم عنهم وسوء رأيهم فيهم وتشوفهم الى المرابطين ، فلم يسعهم تحت ضغط الرأي العام الا استصراخ يوسف بن تاشفين والاحتفاء به من العدو المشترك . وهكذا عبر المعتمد بن عباد ملك اشبيلية الى العدو ، فلقي يوسف وابلغه رغبة أهل الاندلس في الجواز اليهم ونصرتهم على عدوهم ؛ فما كان منه إلا أن لبّى دعوتهم واستنفر الجيوش والمقاتلة الى الجهاد . وعبر البحر الى الاندلس ؛ فلقيه أهلها وملوكها وعلى رأسهم المعتمد بن عباد والمتوكل بن الافطس وغيرهما . ونازل الفنّس السادس وجيشه العظيم بسهل الزلاقة من ناحية بطليوس فانتصر عليه وهزمه شراً هزيمة حيث لاذ بالفرار في ثلثة من الجند مستتراً تحت جناح الظلام .

وكانت هذه الواقعة الحاسمة في يوم الجمعة ١٥ رجب ٤٧٩ هـ وتعرف بالزلاقة ، وبها تنفس الاندلسيون الصعداء وامنوا على انفسهم ودينهم . ولما انتهت المعركة اجتمع ملوك الطوائف ، واقبلوا على يوسف يهنئونه بالفتح المبين ، وحيّوه بإمرة الاسلام فصار يدعى امير المسلمين من ذلك اليوم ، وهو أول من تلقب به من ملوك الاسلام فيما نعلم ، ولم يجروا هو ولا أولاده من بعده ان يتلقبوا بأمر المؤمنين تأديباً مع خليفة بغداد ، وان كانوا قد بلغوا في قوة النفوذ والسلطان ما لم يكن للخليفة منه قليل ولا كثير .

ورحل يوسف الى المغرب بعد ما ترك قطعة من جيشه تحت تصرف ملوك الاندلس لحماية الثغور ودفاع العدو ، ولكن هؤلاء سرعان ما راجعوا حياتهم العابثة ، وعادوا الى التناحر فيما بينهم وضيّعوا الجند وعرضوا بلادهم للفقد من جديد . فجاء الصريخ الى يوسف من فقهاء الاندلس واعيانها وعامتها فاسرع اليهم ، وكان العدو قد أخذ في الانقضاض على بلاد الاسلام ، فأوقفه عند حده ، وقضى على ملوك الطوائف وضم بلاد الاندلس الى المملكة المغربية ، وبذلك أنقذها من الاضمحلال ومن المصير الذي لقيته بعد نحو اربعة قرون .

وتوّج يوسف حياته الحافلة بتاج الصديق والاخلاص فأعلن انصواءه تحت لواء الخلافة الاسلامية وكتب للخليفة العباسي أحمد المستظهر بالله يُبَايِعُهُ وَيُطْلَبُ مِنْهُ تَقْلِيداً عَلَى مَا بِيَدِهِ مِنْ أَعْمَالِ الْأَقَالِمِ فَأَجَابَهُ لَذَلِكَ وَخَاطَبَهُ بِأَمِيرِ الْمُسْلِمِينَ ، وناصر الدين . وكان رسوله الى الخليفة الفقيه عبد الله بن محمد بن العربي المعافري الاشبيلي وولده القاضي أبا بكر بن العربي الإمام المشهور . وبعد ورود التقليد عليه من الخليفة ضرب السكّة باسمه ونقش على الدينار « لا إله إلا الله محمد رسول الله » وتحت ذلك أمير المسلمين يوسف بن تاشفين . وكتب على الدائرة « وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ » وكتب على الصفحة الأخرى « عبد الله أحمد أمير المؤمنين العباسي » وعلى الدائرة تاريخ ضربه وموضع سكّته . وطار ليوسف بهذه السياسة الحكيمة والسيرة النيرة ذكرٌ جميل في أقطار المشرق والمغرب ، حتى خاطبه أقطاب الفكر في العالم الإسلامي حينئذ ، من أمثال الإمام الغزالي والقاضي أبي بكر الطرطوشي . ويُقال إن الغزالي كان عقد النية على زيارته فتوفي يوسف قبل أن يتهيأ له ذلك .

وقد ردَّ يوسف بسياسته هذه المغرب إلى أحضان الجامعة الإسلامية بعد أن كان الولاة قبله قد اقتطعوه من جسمها .. وتلك 'ا' شك 'خطئة' مستمدة من تعاليم عبد الله بن ياسين التي كان يُلقِيها إلى تلاميذه المخلصين ومنهم يوسف بن تاشفين الذي قام عليها أصدق قيام . ولو كان ملوك الاسلام يحملون مثل هذا الشعور الذي كان بحمله يوسف ، ويسرون بهذه السيرة التي سار عليها لما تفككت 'عرى' المملكة الاسلامية ، ولما صار المسلمون بعد ذلك خولاً للأجانب تتداولهم أيدي الاستعمار في الشرق والغرب ؛ فهم لا يُنقذهم من سيطرة الأغيار إلا هذه السياسة الرشيدة التي هي سياسة الجامعة الاسلامية .

يوسف والمُعْتَد

من الثابت تاريخياً أن يوسف بن تاشفين لم يعد إلى الأندلس بعد معركة الزلاقة ويستخلص هذا القطر من أيدي ملوك الطوائف إلا بعد أن كتب إليه العلماء والخاصة والعامّة يناشدونه الله ورابطة الاسلام أن يبادر لإنقاذهم من سيطرة ملوك السوء الذين انصرفوا بعد رجوعه للمغرب ، إلى لهوهم ومجونهم وأغفلوا نصائحه في نبذ التحالف والتدابير ، وأهلوا أمر الجند وضنوا عليه بالمؤونة ، فاصبحت البلاد من جديد معرضةً لمخيلات اعدائهم اليقظين المنتهزين للفرص . وحضه علماء المغرب وساسته وقواده وزعماء الرأي فيه على تلبية طلب هؤلاء ، فتردد في الأمر وبقي يقدم رجلاً ويؤخر أخرى . ثم كتب إلى علماء المشرق وعلى رأسهم يومئذ حجة الاسلام الغزالي فأفتوه بوجوب المسارعة إلى ذلك ، وإلا فيكون مؤاخذاً أمام الله والناس والتاريخ .

فلما رأى إجماع الأمة ، علماءها وساستها ورجال الحرب فيها على رأي واحد ، عزم متوكلاً على الله وسار إلى الأندلس أما أهلها فتلحقوه بالفرح والسرور ، وأما هؤلاء الملوك المعبر عنهم بملوك الطوائف : فمنهم من القى القياد ولم يدفعه الهوس إلى التهور في القتال غير المجدي ؛ ومنهم من تعنت واستحدث من الضعف قوة لم يكن يستحدثها في محاربة من كان يؤدي إليهم الخراج من ملوك النصرانية ، فكاشف جيش المرابطين بالعداء وناشبه القتال . وكان من بين هؤلاء المتوكل بن الألفطس صاحب بطليوس الذي جنّب إلى مصرعه فانتهى حديثه من يومئذ ، والمعتمد بن عباد

الشاعر الغزّال الرّقيقُ الذي أوصى يوسف رجاله بالعناية به فأبقوا عليه ، ولكنه ملأ الدنيا بكاء وعويلا ...!

وهل تدري ما فعل به بعد ؟ لقد كانت معاملته له بحيث لو لم يتفق المؤرخون على روايتها لقلت إنها من المستحيل على ملك بربري متوحش ، كما يطيّبُ لكثير من كتابنا وأدبائنا المهذّبين أن يصفوه . لقد عامله بمالٍ لم يُعامل به أوروبّا الحديثة نابليون العظيم^١ وشتان بين نابليون والمعتمد ! لقد أرسله الى طنجة عروس المغرب ، فلبث فيها ثم في مكناس شهوراً الى أن فرغ الفاتح من أعماله وتقرّر مصيره في أغمات . لا تقل وما أغمات ؟ واين تجيء أغمات من اشبيلية ؟ فلم تكن أغمات إحدى القرى المهجورة في بلاد الصحراء والجزر المنقطعة في ظلمات المحيط ، فهي كانت عاصمة الدولة قبل بناء مراكش ، ويقول المؤرخون عنها انها مدينة كبيرة في ذيل جبل كثير الاشجار والثمار والأعشاب والنباتات . ونهرها يشقها وعلى النهر أرحية كثيرة تدور صيفاً ، وفي الشتاء يجمدُ النهر ويمرّ عليه الناس والدواب . وأهلها ذوو يسار وأموال ، ولهم على أبوابهم علامات تدلّ على مقادير أموالهم . زاد ياقوت : وليس بالمغرب فيما زعموا بلدٌ أجمع لأصناف الخيرات ولا أكثر ناحية ولا أوفر حظاً ولا خصباً منها .

وفي كلتا المدينتين طنجة وأغمات لم يكن بمنزلة المحبوسين السياسيين التي نعرفها في هذا العصر ، بل كان مطلق الحرية ليس عليه أدنى حجر ، ولا على من يريد زيارته والوصول اليه . وقد اجتمع به شعراء طنجة وأدباؤها وطارحوه أحاديث الشعر والأدب كما وفد عليه جلّ أدباء الأندلس وهو في أغمات ، وكانوا يقضون معه الأوقات الطويلة . وكذلك غيرهم من كل من يمت له بصلة أو يُدلي إليه بسبب ، وحسبك انه استدعى ذات مرة طبيب يوسف الخاص لمعالجة بعض حريمه فلبى هذا طلبه ، ولو علم كراهية يوسف لذلك لما أقدم عليه .

فليت شعري ماذا يُنكر أصحابنا من هذه المعاملة التي هي في منتهى التسامح

١ - المقارنة هنا في قوة السلطان وعظم الشخصية لا غير والمقصود إظهار نبل يوسف على تقدم زمنه بالنسبة الى اوربا الحديثة .

مع رجلٍ أقلّ ما يُقال فيه أنه أعطي مُلكاً فلم يُحسِن سياستَه ، وقد أنكر شعبُه تصرُّفاته ، وعرض الفردوس العربي للفقد في مُنتصف القرن الخامس الهجري بعبثِه واستهتاره ، ثم حملَ السِّلَاح على حماة البلاد الذين أنقذوها من السقوط في يد العدو على حين انهم لم يفرغوا بعدُ من لمّ شعشعها ورأب صدعها ؟!

إننا مهما تملّكنا الأريحيّة الأدبيّة وأخذ منا الجمال الفنيّ واستحوذ علينا الخيال الشعري ، لا يبلغ بنا ذلك إلى حد إهمال شخصيّتنا والتهاون في حفظ كيّاننا ، فنفضّل قول بيتٍ من الشعر على إنقاذ مملكةٍ من أزهى ممالك العرب والاسلام وأوسعها وأغناها وأعظمها حضارةً وعمراناً ورقياً ..!

ليس يبلغ بنا استهواء المظاهر الحضارية الخلاّبة ، والبذخ والترف ، ومجالس اللهو والطرب ، وعزف القيّان وغناء النّدمان ، وتطيين البساتين بالمسك والعنبر^١ وتشديد القصور وزخرفة الدّور الى الاستكانة للذل والصغار وأداء الجزية التي يوجب الاسلام والشرف أخذها لا إعطاءها . ففي الحقيقة إن عمل يوسف جليل ، وجليل^٢ جداً ، وفوق ما يظنه الظان^٣ ويقدره أولئك الكتّاب والأدباء الخياليون . والاسلام والمدنيّة والعلم كلها مدينة ليوسف بن تاشفين وممنونة^٤ له بانقاذ الأندلس وبقائها في يد العرب مدة أربعة قرون أخرى . ومن المحقق أنه لو لم يسارع يوسف الى إنقاذ الاندلس في ذلك الحين لما وجد ابن رشد ولا ابن طفيل ولا ابناء زهر ولا ابن العربي ولا ابن الخطيب ولا ، ولا ، ممّن انجبتهم تلك الجزيرة من رجال العلم والفلسفة في حياتها الثانية التي كان يوسف سبباً فيها ، فضلاً عن غيرهم من رجال الدين والأدب الذين ازدهرت على أيديهم تلك الحضارة العديمة النظير . وهذا مما لا يشك فيه أحد ، وانما ألمعنا اليه هنا وان لم يكن من موضوعنا لننبّه على غلط أولئك الذين اندفعوا في تغليب اهوائهم وتحكيم عواطفهم ورموا المجاهد العظيم يوسف بن تاشفين بما أملاه عليهم تعصبهم للمعتمد بن عباد من صفات ذميمة وألصقوه به من تهمة باطلة ، ولو كانوا حقاً ذوي غيرة على دولة الأدب والشعر ، لو جثّوا حملاتهم العنيفة الى من كان يعمل على هدم كيّانها وتعفية أثرها في ذلك القطر العزيز بالتمهيد لاستيلاء العدو عليه

١ - هذه إشارة الى يوم الطين في قصة المعتمد المشهورة مع حظيته الرميكية . وانظر عنها نفع

الطبيب ج ٢ ص ٤٨٤ .

واجلاء العرب عنه كما صار في نهاية القرن التاسع الهجري فذهبت إريح العروبة والاسلام منه الى الآن ، والله الأمر من قبل ومن بعد .

ويحلون لنا ان نختم هذا الفصل بكلمة في الموضوع للسلامة الناصري صاحب الاستقصا فانه قد شعر أيضا بهذه الحملة المدبرة ضد امير المسلمين فكتب قائلاً :
واعلم انه قد يوجد هنا لبعض المؤرخين حطاً من رتبة امير المسلمين وغض عليه : إما في كونه بربرياً من أهل الصحراء بعيداً عن مناحي الملك والأدب ورقة الحاشية ؛ وإما في كونه تحامل على ملوك الأندلس حتى فعل بهم ما فعل وذلك حيث عاين 'حسن' بلادهم ورفاهية عيشهم .. واعلم ان هذا الكلام جدير بالرد ، وأصله من بعض أدباء الأندلس الذين كانوا ينادمون ملوكهم ويستظلمون بظلمتهم ويغدون ويروحون في نعمتهم ، فحين فعل امير المسلمين بسادتهم ورؤسائهم ما فعل ، أخذهم من ذلك ما يأخذ النفوس البشرية من الذب عن الصديق والمحاماة عن القريب حتى باللسان ، وإلا فقد كان امير المسلمين رحمه الله من الدين والورع على ما قد علمت ، ومن ركوب الجادة وتحري طريق الحق على الوصف الذي سمعت ، وهذا ابن خلدون إمام الفن ومتحري الصدق قد نقل ان ملوك الأندلس كانوا يظلمون رعاياهم بضرب المكوس وغيرها ، ثم وصلوا أيديهم بالطاغية وبذلوا له الاموال في مظاهرتة إياهم على امير المسلمين ؛ ثم لم يقدم على قتالهم واستنزاهم عن سرير ملكهم حتى تعددت لديه فتاوى الأئمة الاعلام من اهل المشرق والمغرب بذلك . قافهم هذا واعرفه ، والله تعالى يقابل الجميع بالعفو والصفح الجميل بمنته وكرمه .

احياء الفكر في هذا العصر

لقد آن للبحث العلمي أن ينصف دولة المرابطين ويقول فيها كلمة عادلة لا تتأثر بعصبية بلدانية ولا بجمية دينية . فقد رأينا كيف كان التشيع للأندلس سبباً في تشويه شخصية يوسف بن تاشفين من بعض الكتاب والأدباء حتى أدّى الحال الى تجاهل عمله العظيم في إنقاذ ذلك القطر العزيز من المصير المؤسف الذي صار إليه فيما بعد . ونجد بعض المؤرخين المسيحيين من أمثال المستشرق الهولندي رينهييرت

دوزي^١ يصبثون جامَ غضبهم على المرابطين ودولتهم ، ويجعلون مبدأ اضمحلال الأندلس من تاريخ استيلاء الدولة المرابطية عليها ، ناسين أو متناسين أن اضمحلال الأندلس سياسياً إنما كان السبب الأول فيه تكالب النصارى على المسلمين وإذكاء نار الحرب عليهم بلا هوادة ، منذ اليوم الذي وطئت فيه أقدامهم أرض شبه الجزيرة . وقد شعر الأندلسيون انفسهم بالخطر الذي كان يتهددهم قبل عبور المرابطين اليهم ، وعبر شاعرهم عن ذلك أصدق تعبير في هذه الأبيات البليغة التي قالها عند سقوط مدينة طليطلة في يد عدوهم وهي :

شُدُّوا رَوَاحِلَكُمْ يَا أَهْلَ أُنْدَلُسَ فَمَا الْمَقَامُ بِهَا إِلَّا مِنَ الْغَلَطِ
الْثُوبُ يُنْسَلُ مِنْ أَطْرَافِهِ وَأَرَى ثُوبَ الْجَزِيرَةِ مَنَسُولًا مِنَ الْوَسَطِ
مَنْ جَاوَرَ الشَّرَّ لَا يَأْمَنُ بَوَائِقَهُ كَيْفَ الْحَيَاةُ مَعَ الْحَيَاتِ فِي سَفَطِ؟

فمن الحق ان يقال إن المرابطين هم الذين مدثوا حياة الأندلس السياسية وأبقوها في قبضة الاسلام زهاء أربعة قرون اخرى ، وهذا هو ما يغيظ المستشرق دوزي ومن سلك سبيله في التحامل على الدولة المرابطية .

أما اضمحلال الأندلس معنوياً فليس هناك من ينكر ان الازدهار الذي عرفته في أيام المرابطين ، ثم الموحدّين بعدهم ، يكاد يفوق ما كان لها منه في أيام الخلفاء وملوك الطوائف وخاصة في ميدان العلوم والآداب . إن معظم أعلام الفلسفة والطب الأندلسيين ، هم ممن عاشوا في هذا العصر أو نبغوا بعده بقليل . فابو بكر بن بآجة المعروف بابن الصائغ الفيلسوف والطبيب والموسيقار هو ممن أظلمت دولة المرابطين وخدم رجالها بعلمه وفنّه . وابو الوليد بن رشد وابو بكر بن طفيل وابناء زهرهم

١ - مستشرق هولاندي (١٨٢٠ - ١٨٨٣) له كتابات عديدة عن تاريخ اسبانيا الأدبي والسياسي . وهو في الحقيقة أول من فتح ميدان البحث عن الأندلس الاسلامية في وجه المستشرقين ، ونشر كتباً عربية قيمة تتعلق بهذا الموضوع . إلا أنه كان شديد التعصب وحلّ حلات شموء على المرابطين الذين قاموا بحرب الانقاذ للأندلس في القرن الخامس الهجري والافارقة عموماً ، فترسبت أفكاره الى كثير من الباحثين بعده اوروبيين وشرقيين . وما يزال الكثير من الكتاب في هذا الباب يقومون تحت تأثيره .

من نبغوا في أعقاب هذا العصر وانتشرت معارفهم في العصر الموحدّي الذي يليه . فالرُّشدية إذن ، هذا المذهب الفلسفي الذي هو طابع الحياة الفكرية الأندلسية ، إنما ظهرت في هذا العصر الذي يزعمُ صاحبُنَا انه عصر اضمحلال الأندلس . وقلّ مثل ذلك أيضاً في الميمونية ، وهي فلسفة موسى بن ميمون التي نسجت على منوال الرُّشدية في التوفيق بين العقل والدين بالنسبة لليهودية . واعلام الفقه والتصوف مثل ابن رشد الكبير وأبي بكر بن العربي وابن عربي الحامّي وابن سبّعين هم كذلك من رجال هذا العصر أو عصر الموحدين . وكبار اللغويين والنحاة والمفسرين والمقرئين فضلاً عن مؤرّخي الآداب ، والشعراء والكتاب ، الذين أنجبتهم الأندلس في حياتها الثانية بعد خضوعها لدولة المرابطين ، هم ممن لا يأتي عليهم العدّ ، ولا يتسع المقام حتى لذكر المشاهير منهم . فهل هذا هو اضمحلال المتحدّث عنه ؟

نعم لقد اضمحلت قرطبة فذهبت تلك العمارة التي كانت بها على عهد الخلفاء ، وخربت مدينة الزّهراء التي انشأها عبد الرحمن الناصر فامّحت معها معالم حضارة باهرة ، ولكنّ ذلك كان قبل دخول المرابطين الى الأندلس ، فمسؤوليته لا تقع عليهم .

ويعزو المستشرق الكبير تدهور الحياة الفكرية في الأندلس على عهد المرابطين والموحدين الى تعصّب الولاة واضطهادهم للعلماء ، وهو ان كان يعني حادثة احراق كتاب الإحياء للغزالي التي جرّت على عهد المرابطين وما بدر من المنصور الموحدّي من إساءة الى الفيلسوف ابن رشد ، فليت شعري كيف غفل عن اضطهاد ابن مسرّة واحراق كتب خليل بن عبد الملك المعروف بخليل الغفلة في عهد المروانية ، وإحراق كتب الفلسفة والتعاليم اليونانية التي كانت في مكتبة الحكم من قبل المنصور بن أبي عامر ، واضطهاد ابن حزم ، وإحراق كتبه في دولة ابن عبّاد . ولماذا لم يعتبر ذلك نكسةً للفكر وبدء اضمحلال الأندلس المعنوي ؟

إن مثل هذه الأقوال التي هي أشبه بحديث خرافة منها بحديث العلماء : إن دلّت على شيء ، فإنما تدل على نزعة خاصة أبعد ما تكون عن روح البحث والتحقيق ، والواجب على المؤرخ الذي يحترم نفسه أن يترفع عن سفاسف الأقوال ، ولا سيما إذا كانت لا تستند الى دليل من نقل أو نظر .

لقد كان أساس دعوة المرابطين العلم ، وعليه قامت دولتهم . وإنّ رحلة يحيى

ابن ابراهيم الكدالي التي تمخّضت عن دخول عبد الله بن ياسين الى الصحراء لأعظم دليل على ذلك . وكانت نزعة عبد الله الى علم الفقه والدين أقوى منها إلى أي علم آخر ، بالطبع لأنه كان عالماً دينياً ، فغلب هذا الميل على الدولة ، ومن ثم كان تقديمها للفقهاء واختصاصها لهم دون مَنْ عداهم من أرباب المعارف المتنوعة ، برغم ما صار إليها من جيوش العلماء والفلاسفة من جرّاء فتح الاندلس وضمها الى الايالة المغربية . ولم يكن هؤلاء يطعمون في القرب من الدولة قرب حظوة على ما يقول المؤرخون ؛ إلا أن يتلبس أحدهم بلباس الفقهاء وعلماء الدين كما فعل مالك بن وهيب ؛ فرقي الى منصب وزير لعلي بن يوسف^١ . ولكن هذا لا يعني أن اضطهاداً فكرياً كان ينال غير هذا الصنف من العلماء او ان حقوقهم كانت مضیعة ، فان غاية الامر أن وظائف الدولة كانت من نصيب رجال الشريعة ، وفيما عدا ذلك فان كل العلماء كانوا قائمين بنشاطهم الفكري لا يعترض سبيلهم معترض . وأي خير في أن تجعل مقاليد الحكم بيد الفقهاء وهم أحق الناس بها وأولى : إذ كانوا حملة الشريعة التي هي قانون البلاد ودستورها المقدّس ؟

ثم إن اصطناع الدولة لنوع خاص من العلوم كثيراً ما كان ظاهرة ملحوظة في غير ما دولة من دول الشرق والغرب ، فلم يعب عليها بل اعتبر من أسباب نهضة ذلك العلم ، وخيراً وبركة على رجاله والمشتغلين به . على ان اهتمام المرابطين بعلوم الدين كان يزينه وصف شريف وخلق نبيل هو تشبّعه بالروح السلفي المتسامح ؛ الخالص من شوائب التنطع والتعمق ، وعدم مجاراته للخلافات المذهبية والبسّع والأهواء التي كانت حينئذ تنخر جسم الوحدة الاسلامية بالشرق . فالعقائد أبسط ما يكون ، وقواعد الاسلام وشعب الايمان كما بينت في حديث جبريل ، والزهد والتقشف هما شعار الدولة وطابعها الخاص . واعتبر أنت بأمير المسلمين علي بن يوسف وما كان عليه من متانة الخلق وقوة الايمان وصدق اليقين والانقطاع إلى العبادة ، قبل أن تنظر إلى أبيه العاهل الكبير وهو يعمل مع الخدمة في بناء جامع مراكش ويحمل الطوب والخجر بيده وعلى كاهله إلى البنايين . ويزيد المؤرخون انه كان

١ - تولى امير المسلمين علي بن يوسف عرش المغرب بعد وفاة أبيه في سنة ٥٠٠ هـ وله من العمر ٢٣

سنة وتوفي سنة ٥٣٧ هـ .

صائماً في تلك المدة كلها .. فلم يكن تدثّن المرابطين خدعة ونفاقاً ، كما لم يكن مذهباً خاصاً ونحلة متميزة ، بضطهدون الناس من أجل الدفاع عنها وعدم مخالفتها .

وهنا تبرز قضية إحراق كتاب الإحياء للإمام الغزالي في أيام علي بن يوسف ، فإنّ هذا الكتاب لما وصل الى المغرب ، ونعني به هنا ما يشمل الأندلس والمغربين الأقصى والأوسط ، نظر فيه رجال الفقه والدين فأروه محشوّاً بما لا عهد لهم به من آراء المتكلمين ومذاهب الصوفيّة . وقد تداولته الأيدي من خاصة الناس وعامتهم ؛ فقرّروا مجافاته لظاهر الشريعة وساذج العقيدة وحذروا الناس من مطالعته والنظر فيه ، فما كان من رجال الدولة إلا ان أمروا بجمعه وإحراقه ، ولم يعتبروا موالاة الغزالي لدولتهم ولا نظروا الى المودة التي كانت بين يوسف وبينه ، والمكاتبات التي جرت بينهما والثناء الذي كان يُثنيه الغزالي على يوسف ، حتى لقد همّ بزيارته وقصد البحر ليركب اليه فبلغه موته فرجع . وهذا إن دلّ على شيء ، فانما يدلّ على أن الدولة حقيقةً كانت خاضعة لرأي الفقهاء لا تورّد ولا تُصدر إلا عن نظرهم ، ويدلّ هذا بالتالي على ان القانون كانت له السيطرة على الجميع وأن رجال الدولة كانوا هم أول من يحترمه . وذلك في نظرنا غاية المدح والتقريظ للمرابطين الذين لم يثبت في تاريخهم أنهم أراقوا محتجماً دم في غير ساحة الحرب ، ومن ثمّ فانهم لم يحكموا بالقتل قط على خارج ولا مخالف ، ولو قتلوا أحداً لكان المعتمد أحقّ بالقتل لما ألّس عليهم من الخصوم وبارزهم به من العداوة .. أما غيره من ملوك الطوائف الذين استسلموا فانما نقلوهم الى مراکش وأطلقوا سراحهم ، بل لقد ثار عليهم ثوار بعد ضمّ الاندلس الى المغرب . وكان مع هؤلاء الثوار شخصيات أدبية معروفة ، فتلّكت في الذروة والغارب من الثورة^١ ، كما كانت هناك شخصيات أخرى تتولى مناصب سامية ولا تزال تشنّع عليهم وتطعن فيهم ، فطالما غضّوا النظر عن هذه ولم يعاقبوا تلك الا بعقوبات طفيفة قد لا تتجاوز الحرمان السياسي من الحقوق المدنية كما نُعبّر اليوم ، ومن يدرينا أن ذلك من تأثير خضوعهم لأحكام الشرع وعملهم بقول فقهاء الاسلام ؛ دين العدالة والتسامح ؟ .

١ - نشير الى ثورة الرئيس ابن الحاج علي أمير المسلمين علي بن يوسف وانضمام الكاتب ابن أبي الخصال اليه ويأتي في الفصل التالي مزيد بيان لذلك .. والى ابن الطلاع الفقيه القرطبي الذي كان كثير العصبيّة لبني عباد متجاهراً بها فاخر عن الفتيا والشورى لذلك .

وإلى ذلك فإن مما ينبغي أن يُعلن أن قضية الإحياء إنما أثارها وتولى كبرها أبو عبد الله بن أحمد بن قاضي قرطبة ، وكذلك قضية إزعاج أبي العباس بن العريف من المريّة الى مراکش إنما كانت بسعي فقهاء بلده .

ولا ننكر أن بعض فقهاء المغرب تواطأوا مع فقهاء الأندلس على رأيهم في الإحياء ، ولكننا نجد أبا الفضل بن النّحويّ من علماء المغرب الأوسط ، يعارض فتيا ابن حديد وينتصر للغزالي . وكان قد انتسخ كتاب الإحياء وجعله ثلاثين جزءاً . فاذا دخل شهر رمضان قرأ في كل يوم منه جزءاً ، وكان يقول : وددت اني لم انظر في عمري سوى هذا الكتاب . وكذلك أبو الحسن البرّجسي من فقهاء المريّة عارض في هذه الفتيا ، وأوجب في نسخ الإحياء لما أحرقها ابن حديد تأديب محرقها وتضمينه قيمتها لأنها مال مسلم . وقيل له أكتب بما قلتَه خطّ يدك ؟ فقال سُبْحَنَ الله ! « كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون » . ثم كتب السؤال في النازلة وكتب فتياه بعقبه . ودفع الى أبي بكر بن عمر بن أحمد بن الفصيح وأبي القاسم بن ورد وغيرهما من فقهاء المريّة ومشائخها ؛ فكتب كل واحد منهم فيه بخطه ؛ « وبه يقول فلان » مسلمين لعلمه وزهده . فغاص ذلك ابن حديد لما بلغه وكسر من حدّته . وكتب الى قاضي المريّة حينئذ أبي عبد الملك مروان بن عبد الملك بعزله عن الخطّة التي له ؛ فأخبر بزهده وانقباضه عن الدنيا . وكان عليّ بن حيرزهم من فقهاء فاس قد وافق أولاً على تلك الفتيا التي تدين كتاب الإحياء ، ثم بدا له فرجع عنها ..

وهكذا نرى أن هذه الفتنة أندلسيّة في الأصل ، وأن رجال الدولة إنما أخذوا فيها برأي الأغليّة من رجال الفقه ، والرّسميّين منهم بالخصوص ، كابن حديد الذي كان قاضياً بعاصمة الأندلس ، وهم مع ذلك لم يستقصوا ولم يتتبّعوا من خالف من أهل العلم الأمر العالي الصادر في هذا الصّد تسامحاً منهم وتغاضياً . ولعلّهم كانوا يكبحون من جراح المتحمّسين للقضيّة ، ولولا ذلك لرُبّما سطا ابن حديد بفقهاء المريّة الذين وافقوا أبا الحسن البرّجسي على فتياه ، إذ بعيد أن يخلو بعضهم من خطّة إفتاء أو شهادة أو تدريس أو خطابة أو إمامة ...

هذا ونحن نُشرك الأندلس في الحديث عن المغرب لأن يوسف بن تاشفين بتوحيده للبلدين وحدّ تاريخهما وجعلهما وطناً واحداً يتبادل سكانه المصالح والمنافع ، وقد

انتفت بينهم الفوارق السياسية وزالت الحواجز الاصطلاحية ، فسكن بعضهم إلى بعض ، وتقاربوا واتصلوا لا كما كان تقاربهم واتصالهم من قبل ، بل بصفة مجدبة ومؤثرة في جميع مناحي الحياة .. فالمغرب يبذل حمايته للأندلس ويدافع عنها العدو المغير ، والأندلس تبذل ثقافتها ومعارفها للمغرب ، فرجالها في خدمة الدولة ، وكتّابها وشعراؤها يزينون بلاط مراكش . وقد فعل الاحتكاك بالأندلسيين الأفاعيل في تقدّم الحياة الفكرية بالمغرب ونهضة العلوم والآداب . وكما كانت الأندلس مهاجرة من لم تساعد الحمال من أبناء المغرب في العصر السابق ، صار المغرب مهاجرة الأندلسيين في هذا العصر ، وأصبحت مراكش حاضرة المغرب يومئذٍ وكرسي مملكته ؛ مهوى أفئدة المثقفين ومطمح أنظار المتأدين ، وفي هذا الصدد يقول عبد الواحد المراكشي في كتابه المعجب : « وانقطع الى أمير المسلمين يوسف بن تاشفين من الجزيرة من أهل كل علم فحولته حتى أشبهت حضرته حضرة بني العباس في صدر دولتهم ، واجتمع له ولابنه من بعده من أعيان الكتاب وفرسان البلاغة ما لم يتفق اجتماعه في عصر من الأعصار » .

ولعل في هذا ما يدفع القول بأن غير الفقهاء لم يكن لهم قبول في هذه الدولة ، فالأمر على ما يظهر إنما يتعلق بالنفوذ والسيطرة ، وتلك هي سيادة القانون التي يمثلها الفقهاء كما قدّمنا . على أن غالب أهل العلم والأدب في العصور المتقدمة كانوا ممن درسوا الفقه وشاركوا في معرفة أصوله وفروعه . ولقب فقيه كثيراً ما كان يُطلق على العالم بأي علم كان ولو لم تكن له ممارسة للفقه ، فربما عنى المؤرخون الذين يتحدثون عن تقريب الدولة للفقهاء واختصاصها لهم أنها قربت أهل العلم واختصتهم بالرعاية من دون الزعماء وأهل العصبية القبلية كما كان الشأن في الدول التي قبلها بل والتي بعدها وقد قال ابن خلدون في المقدمة : إنما كان القضاء في الأمر القديم لأهل العصبية من قبيل الدولة ومن إليها كما هي الوزارة لعهدنا بالمغرب .

ومهما يكن من أمر فإن علم الفقه على مذهب الإمام مالك الذي سجلنا توطده في العصر السابق قد واصل تقدمه في هذا العصر ، وعقدت المجالس الحافلة في كل من

سبته وفاس ومراكش للمناظرة عليه ، وامتزجت دراسة الفقه بعلم الأصول ، وظهر الاشتغال بعلم الكلام على طريقة أهل النظر والتأويل ، ولم يكن قبل ذلك مما يشغل به أحد ، وعني كثيرون بعلم القراءات . هذا العلم الذي لم ينقطع الاشتغال به في المغرب في مختلف العصور ، وهو من فروع علم التفسير . ونشط الاشتغال بعلم الحديث والرواية فكثرت الرحلات لسماعه والأخذ عن رجاله رغبة في علو الاسناد والضبط والاتقان . وكان علم التصوف مما له الشفوف في هذا العصر ، ونظرة واحدة في كتاب التبشؤف لابن الزياد تظهر القارئ على كثرة من كان يأخذ بطريق القوم من رجال المغرب في هذا العصر . ولكن مما يلاحظ أن تصوفهم إنما كان رياضة ومجاهدة ولم يكن هذا التصوف الفلسفي الذي أنكره الفقهاء على الغزالي فأحرقوا كتابه ، وعلى ابن العريف وابن برجان والميورقي فحملوا أمير المسلمين علي بن يوسف على إشخاصهم إلى مراكش ، ثم ندم على ما فرط منه في حقهم بعد ذلك . ولم تكن العلوم الفلسفية والرياضية والطب قليلة الحظ من العناية بها والاقبال عليها ؛ فقد رأينا كبير فلاسفة العصر أبا بكر بن باجة يحظى برعاية أحد أمراء المرابطين ، ويسكن مدينة فاس . ولا شك أنه قد أخذت عنه علوم حجة في العاصمة العلمية . وكان أبو العلاء بن زهر الطبيب من حظي عند علي بن يوسف ، وهو الذي أمر بجمع مجرّباته بعد موته ؛ فجمعت بمراكش وبسائر بلاد المغرب والأندلس وانتسخت في جمادى الآخرة سنة ٥٢٦ . وكان الفيلسوف مالك بن وهيب وزيراً له . كما سبقت الإشارة إلى ذلك ، ولما أظهر المهدي بن تومرت دعوته بمراكش وأحضر بين يدي أمير المسلمين ، كان ابن وهيب هذا هو الذي تولى مناظرته ، لأنه كان قد تثقف بفنون العلم والمنطق والكلام في الشرق ، فلم يقدر على مصاولته غير ابن وهيب . وقبل ضمّ الأندلس إلى المغرب كان بسبته ابن مرّانة ، وهو من اعلم الناس بالحساب والفرائض والهندسة والفقه وله تلامذة وتآليف ، ومن تلامذته ابن العربي الفرضي الحاسب ، وهو من أهل بلده . وكان المعتمد بن عباد يقول : أشتهي أن يكون عندي من أهل سبته ثلاثة نفر : ابن غازي الخطيب ، وابن عطاء الكاتب ، وابن مرّانة الفرضي ، ذكره ياقوت في معجم البلدان . ونظن أن غير سبته من بقية مدن المغرب العلمية كانت مثلها في احتوائها على رجال من ذوي المعارف العامة ، وإنما الآفة في ضياع أخبارها والاهمال الذي يني به هذا الصنف من العلماء خاصة .

وظهر في هذا العصر أيضاً الاشتغال بالعلوم الأدبية واللسانية من نحوٍ ولغةٍ

وشعرٍ وكتابةٍ وكما نبغ في كل العلوم التي ذكرنا أفراداً عديدون ، كذلك نبغ في الأدب والشعر أفرادٌ نجدهم تراجمهم لأول مرة إلى جانب تراجم نظرائهم من الأندلسيين وغيرهم في المجموعات الأدبية المعروفة : كقلائد العقيان وذخيرة ابن بسّام وغيرهما . وشارك الأمراء المرابطون والرؤساء منهم في طلب العلم والتحصيل ، فنجد مثلاً أبا الحسين بن سراج وهو من أعلم الناس بالنحو وأشعار العرب وحكاياتها ولغاتها وأخبارها يجتمع إليه للسمع منه نحو الحسين بن رؤساء المثلثمين مع مهرة الكتّاب كأبي عبد الله بن أبي الخصال وتلك الطبقة . ونجد مثل ابن أيوب الفهري راوية الحديث المسلسل في الأخذ باليد^١ يأخذه عنه جم غفير من الناس فينافسهم في ذلك الأمير سير بن علي بن يوسف ، والرئيس المنصور بن محمد ابن الحاج اللمتوني . وكان المنصور هذا من رجال العلم والفضل ، سمع بمروية من أبي علي الصديقي ، وله سماع كثير من شيوخ جلة وفي بلاد شتى كأبي محمد بن عتّاب وأبي بحر الأسدي بقرطبة ، وطارق بن يعيش ببلمسية وغيرهم . وكان ملوكي الأدوات سامي المهمة تزيه النفس راغباً في العلم منافساً في الدواوين العتيقة والأصول النفيسة . جمع من ذلك ما أعجز أهل زمانه . قالوا : وهو فخرٌ لصنهاجة ليس لهم مثله ممن دخل الاندلس . ومثله زاوي بن مناد المعروف بابن تقسوط في كثرة السماع والأخذ عن أبي علي الصديقي وغيره ، وكان ديناً فاضلاً معنياً بالعلم وكتب بخطه على دقته علماً كثيراً . وكذلك الأمير إبراهيم بن يوسف بن تاشفين المعروف بابن تعيشت^٢ والي مرسية ، سمع من أبي علي الصديقي وكان له منه دولة^٣ خاصة في منزله ، وله أيادٍ جمّة في رعاية العلم والأدب فضلاً عن نجدته وشجاعته . « وبالجملة فهو من بيت جهادٍ واجتهاد » كما قال ابن الأثير في معجم أصحاب أبي علي . ثم زاد قائلاً : « وفي دولة أخيه علي نفقت العلوم والآداب وكثر النباه وخصوصاً الكتاب » . وحكى أبو بكر بن الصيرفي في

١ - هو حديث رواه المذكور في حالة أخذ رجال سنده كل منهم بيد الآخر قائلاً : أخذ بيدي فلان وقال : حتى يصل إلى الصحابي الذي رواه عن النبي (ص) وهو البراء بن عازب (رض) قال : دخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم فرحّب بي وأخذ بيدي ثم قال لي براء : أتدري لأي شيء أخذت بيدك؟ قال قلت خيراً يا نبي الله . قال لا يلقى مسلم مسلماً فيشّ به ويرحب به ويأخذ بيده إلا تناثر الذنوب بينها كما يتناثر ورق الشجر اليابس .

٢ - هو اسم أمه عُرفَ به . ٣ - يعني درساً خاصاً .

تاريخه أن علياً هذا استجاز أبا عبد الله أحمد بن محمد الخولاني جميع رواياته لعلو اسناده فاجاز له . وأبوه أبو يعقوب مع نشأته في الصحراء كان لا يُضي أمراً إلا بمشورة الفقهاء ، وفي هذا النص مِصداق لما قدمناه عن المراكشي من نشاط الحياة الفكرية في هذا العصر ، زيادةً على ما تضمنه من كون أمير المسلمين نفسه كان يهتم بالحديث والرواية ، حتى إنه ليستجيز العلماء ذوي السند العالي . وكان الأمير ميمون ابن ياسين أيضاً ممن عُني بالرواية وسماع العلم . وله رحلة حج فيها وسمع بمكة من أبي عبد الله الطنبري صحيح مسلم سنة ٤٩٧ ، وسمع بها أيضاً من أبي مكتوم بن أبي ذرّ الهروي صحيح البخاري في أصل أبيه أبي ذرّ وابتاعه منه بمال جزيل فأوصله إلى المغرب .

ولما ذكر الحافظ السلفي أبا مكتوم هذا في كتابه الوجيز قال : « كان ميمون بن ياسين من أمراء المرابطين رغب في السماع منه بمكة واستقدمه من سِراة بني شِبابة ، وبها كان سكناه وسكنى أبيه أبي ذرّ من قبله . فاشترى منه صحيح البخاري أصل أبيه الذي سمع فيه على أبي إسحق المستملي وغيره بجملة كبيرة وسمعه عليه في عدة أشهر قبل وصول الحجيج » . ثم قفل ميمون هذا وحدث بالأندلس ، فسمع الناس منه بأشبيلية وغيرها . ومن حدث عنه أبو إسحق بن حَبِيش وأبو القاسم بن بشكوال وأبو إسحق بن فرقد وأبو بكر بن خير وغيرهم . فهل بعد هذا غاية في التعلق بالعلم وتشجيعه من رجال الدولة المرابطية ؟

واشتهر بالأدب وقول الشعر منهم الأمير أبو بكر بن إبراهيم المسوفي الصنهاجي المعروف بابن تافلويت صهر علي بن يوسف ، وكان والياً على تلمسان وعلى سرقسطة ويأتي بعض شعره في قسم المنتخبات .

ولم يقتصر هذا الولوع بالعلم والنَّبوغ في الأدب على الرجال منهم بل ان النساء شاركن أيضاً بنصيبهن في ذلك . ومن احتفظ التاريخ بأسمائهن من نوابغ المرابطيات الأميرة تيممة بنت يوسف بن تاشفين أخت عليّ ، وتكنى أمّ طلحة . سكنت فاساً وكانت كاملة الحسن راجحة العقل مشهورة بالأدب والكرم . وحكايتها مع كاتبها تأتي في الجزء الثاني . ومنهن زينب بنت إبراهيم بن تافلويت أخت أبي بكر المذكور آنفاً ، كانت زوجاً للأمير أبي الطاهر تميم بن يوسف بن تاشفين وكانت من أهل الخير

والتصاون والنوافل والصدقات وأعمال البرّ ، تحفظ جملة وافرة من الشعر ومدحها الشعراء وأثنوا عليها كثيراً . ومثلها أختها حوّا .

وإن ننس لا ننس جامع ابن يوسف وهو براكش مثل القرويين بفاس ، فهو من منشآت هذا العصر . ومنذ بناءه علي بن يوسف لم يزل المركز الثاني للدراسات العلمية والأدبية بالمغرب . على ان القرويين لم تفتأ تحاط بالعناية الكاملة من الزيادة فيها كلما ضاقت أرجاؤها ، وتجديد معالمها التي يتسوّر إليها الدثور . وقد نقض بناءها في أيام علي بن يوسف وعمل على توسعتها من جميع الجهات فبلغت بلاطاتها من الصحن الى القبلة عشر بلاطات^١ . واحتفل في عمل القبّة التي بأعلى المحراب وما يحاذيها من وسط البلاطين المتصلين بها فصنع ذلك بالجصّ المقربص الفاخر الصنعة ، ونقشت واجهة المحراب بالنقوش المذهبة الجميلة ، ورُكّب في شمسياته أنواع الزجاج الملون البديع ، إلى غير ذلك من فنون الزخرفة وضروب الزينة . وكان كل ما أنفق في ذلك من تبرعات المحسنين ، إذ لم يزل هذا المسجد العظيم منذ تأسيسه من الشعب واليه ، وذلك هو سرّ عظمته الخالدة . لكن الذي يلفت الأنظار من اهتمام الدولة بالقرويين وتعزيز مركزها كمعهد دراسي عالٍ هو بناء المدارس التي تُتخذ لايواء الطلبة وتدرّس بعض العلوم التي يكون المسجد غير مناسب لتدريسها بسبب ما تقتضيه من إجراء بعض التجربات واستعمال بعض الآلات . وقد بدأ ذلك في هذا العصر إذ ثبت أنه كانت هناك بفاس مدرسة من بناء يوسف بن تاشفين تُعرف بمدرسة الصّابرين ومن الجائز أن يكون هناك غيرها . والغريب هو أن يتوافق المغرب والمشرق في وقت إنشاء المدارس ، لأنّ هذا التاريخ هو الذي أنشأ فيه الوزير نظام الملك مدرسته العلمية ببغداد وهي أول مدرسة في الشرق كذلك .

ويطول بنا تتبع الجزئيات التي تدل على اهتمام الأمراء المرابطين بنهضة العلم والأدب مع أنها تفارق قليلة خلصت من الإهمال الذي أصاب تاريخ هذه الدولة ونجدها مبثوثة هنا وهناك . ولو وصل إلينا تاريخ ابن الصّيرفي الذي سبق نقل ابن الأثير عنه لكان فيه شفاءً للنفس من هذه الناحية ؛ وكان ابن الصيرفي هذا واسمه ابو

١ - بلاطات المسجد في إطلاق المقاربة هي رواقاته .

بكر بن محمد الأنصاري الغرناطي أحد الشعراء المجوّدين له تاريخٌ مفيدٌ قصّرَه على الدولة الممتونية وكان من شعرائها وخذّام أمرائها وتوفي سنة ٥٥٧ أي بعد انقراض هذه الدولة بقليل ، فلا شك ان تاريخه يكون أوثق مصدر عن المرابطين ودولتهم .

ونرى أننا أطلنا بتسمية الأمراء المرابطين الذين كانت لهم شهرةٌ بالعلم والأدب في حين أننا لم نُسَمِّ أحداً غيرهم ممن اشتهروا بالتفوّق في علم من العلوم المتقدمة الذكر عدا الافرادَ الثلاثةَ من أهل سبتة الذين ذكروا عرضاً أثناء الحديث عن العلوم الحِكْمِيَّة . ولو أردنا تسمية جميع من نبغ في باب من أبواب المعرفة من أهل هذا العصر لطال بنا الكلام لأنهم كثيرون جداً ولكننا نقتصر على الشخصيات البارزة منهم تجنباً للاطالة .

فمن الفقهاء عبد الملك المصمودي قاضي الجماعة بمراكش ، وإبراهيم بن جعفر اللّسّواتي الفقيه المشاور المعروف بابن الفاسي ، وعبدالله بن سعيد الوجدي قاضي بلنسية ، ومنصور بن مسلم بن عبدون الزّرّهوني المعروف بابن أبي فوناس الفقيه الحافظ المشاور ، وعبدالله بن محمد بن إبراهيم السّلخمي النّشكوري قاضي الجماعة بمراكش ، وعبدالله بن احمد بن خلثوف الأزدي السبتي المعروف بابن شبثونة أحد حفاظ المذهب المناظرين عليه ، وعبد المنعم بن عبدالله بن علّوش الخزومي الطنجي من ولي القضاء بغير موضع من الأندلس ، وأبو عبدالله بن محمد الأموي السبتي قاضيها ومفتيها الفقيه الفرضي المفسّر ، وإبراهيم بن أحمد البصري من قضاة سبتة أيضاً .

ومن رجال الحديث والرواية بكار بن برهون بن الغرديس ، من بيت شهير بفاس ، ونزل هو سجلماسة ، وكان قد حجّ قديماً وسمع البخاري من أبي ذرّ الهروي . وقد رحل إليه أبو القاسم بن ورّد الذي قيل فيه إنه لم يكن بالأندلس مثله ، فلقبه بسجلماسة وسمع منه الصحيح . ومنهم القاضي أبو عبدالله محمد بن عيسى التميمي وولده عبدالله . وإبراهيم بن أحمد بن خلف السّلمي ، عُرف بابن فرتون من لقي أبوي علي الصدي والغساني وابن الغرديس وتلك الطبقة . تاهيك بكبير محدثي المغرب القاضي عياض الذي يُعدُّ بحق مفخرةً لهذه البلاد . وهو وإن كان ممن أدرك عصر الموحدين إلا أن نبوغه وظهوره كانا في هذا العصر .

وسمّم أفراداً أفذاذاً من بيوتات علمية شاركت في الفقه ورواية الحديث وغيرهما من

العلوم كبنى العجوز السبتيين الذين اشتهر أوائلهم في العصر السابق ، وقد ترجمنا بواسطة عقدهم عبد الرحيم ، وبنى سمجون الطنجيين ، وبنى ملنجوم الفاسيين .

ومن اهل القراآت والتفسير أبو بكر محمد بن علي المعافري السبتي ، 'عرف بـابن الجوزي ، وهو خال القاضي عياض له تصنيف حسن في التفسير لم يكمل وآخر في التوحيد . وكان متفهما في العلوم ومن اهل البلاغة والشعر . ومن شعره ما نسب لأبي الفرج بن الجوزي غلطاً لاشتباه اسميهما ، ومنهم المقرئ ابو عبدالله القيسي المكناسي ، وأحمد بن الخطيئة التميمي الفاسي كان رأساً في علم القراآت وأقرأ الجهم الغفير من الناس .

وأما التصوف فقد أشرنا إلى كثرة من تعاطاه ، وأحسن من كان يمثلها من الوجهة العلمية والعملية أبو علي بن حرزهم .

وكان القاضي أبو القاسم بن محمد المعافري السبتي ممن جمع بين علوم الفقه والحديث والأصول والكلام ورحل الى المشرق ودرس العلمين الأخيرين كثيراً . وكذلك يوسف بن الكلبي الضرير كان ممن اشتغل بعلم الكلام على مذهب الأشعرية ونظائر أهل السنة وسكن سبتة ودرس بها وبغيرها من مدن المغرب . وأبو محمد عبد الغالب السامي المتكلم أيضاً هو ممن سكن سبتة ونشر بها علمه . وهؤلاء الثلاثة كلهم من شيوخ القاضي عياض وهم الطليعة الأولى التي نشرت علم الكلام بالمغرب على مذهب الأشاعرة . إلا أن المغربي الأصل منهم هو الأول .

وبالإضافة إلى ابن مرانة السبتي الذي ذكرنا نبوغه في علم العدد والهندسة ، نذكر القاضي أبا الحسن بن زنباع الطنجي ممن نبغ في الطب والعلاج ، وكان إلى ذلك من أعلام الأدب البارزين .

وفي علم النحو واللغة والأدب اشتهر ابو علي الحسن بن طريف السبتي ومروان ابن سمجون الطنجي فضلاً عن الأدباء والشعراء الذين نبغوا في هذا العصر مثل ابن زنباع المذكور آنفاً ويحيى بن الزيتوني وعبد العزيز السوسي وابن القابلة السبتي . وسعيد بن حنيف ، وابن عطاء الكاتب ، وابن غازي الخطيب . وسنترجم خاصة الخاصة ممن سميئناهم من الشخصيات العلمية والأدبية قريباً .

رعاية المرابطين للأدب وأهله

لم يكن المرابطون أقلَّ برًّا بالأدب وأهله منهم بالعلم والعلماء . وليس أدلَّ على نفي ما يتهمهم به خصومهم في 'مجاافة الأدب وعدم الاهتمام به' ، من هذه الرعاية الكريمة التي أولاها أمراؤهم لعليّة الأدباء ، من كتاب وشعراء ، منذ اليوم الذي توطّدت فيه دعائمُ ملكهم . ولقد كانت عنايتهم بأدباء الأندلس على الخصوص فائقة الحد ، حتى لم يبق منهم أديب مرموق لم يُنَظَّ به عملٌ في بلاط أمير المسلمين بمراكش أو في ديوان أحد الأمراء بالأقاليم .

وأول من نذكر منهم الكاتب عبد الرحمن بن أسباط الذي كان في خدمة يوسف ابن تاشفين قبل دخول هذا إلى الأندلس . وهو الذي استشاره يوسف في الأمر عند ورود كتاب المعتمد عليه فقال له : إن أرض الأندلس ضيقة ، إنما يعمرُ المسلمون منها الثُّمُنُ وسبعة أثمان يعمرُها النصارى ، ومن دخلها كان تحت حكم صاحبها . وهذا الرجل الذي استدعاك ليس بينك وبينه صداقة قديمة فربما إذا جُزت إليه وقضي الغرض أمسكك بها ، فاكتب إليه انه لا يمكنك الجواز إلا أن يعطيك الجزيرة الخضراء ؛ فتجعل فيها أثقالك وجندك ويكون الأمر حينئذ بيدك متى شئتَ الصدور عنها صدرت ؛ فعملٍ بأشارته ولم يعبرُ الى الأندلس حتى سلّم اليه المعتمد الجزيرة الخضراء فشحنها بالعتاد والرجال .

واستكتب يوسف بعد ذلك أبا بكر بن القصيرة وكان من وزراء المعتمد وكتّابه . وهو الذي أجاب عن كتاب الأذفونش^١ الى يوسف عند عبوره الى الأندلس . وكان الأذفونش يحاول أن يصرف يوسف عما عزم عليه من نصرة عرب الأندلس فأغلظ له في القول ووصف ما معه من القوة والعدد وبالغ في ذلك . ولهذا احتفل ابن القصيرة في جوابه أيّما احتفال ، وكان كاتباً مُفليحاً ، فلما قرىءَ الجواب على يوسف قال هذا كتاب طويل ، وأحضر كتاب الأذفونش وكتب على ظهره : « الذي يكون ستراه »

١ - ذكر في الاستقصاء ١٢٤ ج ل ان كلمة الاذفونش لقب للوك الأسبان وما تراها إلا تعريباً لاسم الفونش .

وقيل انه كتب : « الجوابُ ما ترى لا ما تسمع » وأرسله اليه . فلما وقف عليه الأذفونش ارتاع له وعلم أنه بُليَ برجل له دهاءٌ وحزم يفعل ولا يقول . ويظهر من بعض عبارات الفتح في القلائد ان الكاتب المذكور تعرّض لبعض شذائد الدهر قبل أن يُسعده الحظُّ بالالتحاق بخدمة أمير المسلمين .

وكتب ليوسف كذلك الوزير محمد بن عبد الغفور ، وهو الذي كتب مرسوم ولاية العهد لولده عليّ . وكتب له أيضاً أديبُ الأندلس عبد المجيد بن عبدون باستدعاء منه له ، وكان قد التحق بخدمة الأمير سير بن أبي بكر اللمتوني . وهو صاحب الرائية المشهورة في رثاء بني الأفطس ملوك بطليوس .. ومن حسن أدبه وقوة عارضته أنه بكى فيها مخدوميه السابقين وأفاض في ذكر محاسنهم ولم يُعرّض فيها بالمرابطين ولا أشار لهم بكلمة سوء وإنما أنحى باللوم على الدهر وتفنّن في ذكر غدره بالكرام بما أحزن القلوب وأقضى الجنوب . وقيل إنه إنما كتب لعلي بن يوسف . وعلى كل فان عنايتهم به ظاهرةٌ واستدعاءهم له مؤكّد وقد قابل هو هذه العناية بمثلها إذ كان رجلاً لبقاً يقدر الأشياء بقدرها ويفهم ماجريات الأحوال فرثى أولياء نعمته الأولين ولم يبخس مخدوميه الجدد حقهم ولا أنكر عارفهم .

لا كما وقع للوزير أبي محمد بن أبي الحِصَال وكان من أنبه الكتاب عند علي بن يوسف وأكبرهم مكانةً لديه ، غير أنه على ما يظهر لم يكن مخلصاً في خدمته لهم . ولمّا انهزم جيش بلنسية أمام ابن رُذمير كلفه أمير المسلمين أن يكتب اليهم رسالة توبيخ ، فأبدأ وأعاد في تبكيتهم والإزراء عليهم ، وكأنه اهتبلها فرصةً لظهار مكنون حقه على المرابطين جملةً ، فكان من فصول تلك الرسالة قوله : « أي بني اللثيمة ، وأعيار الهزيمة ، إلامَ يُزيّفكم الناقد ، ويردكم الفارس الواحد ؟ »

أَلَا هَلْ اتَّاهَا عَلَى نَأْيِهَا بِمَا فَضَحَتْ قَوْمَهَا غَامِدُ
تَمَنِّيْتُمْ مَا تَنِي فَارِسِ فَرَدَّكُمْ فَارِسٌ وَاحِدُ

١ - هو الفونس الأول ملك أراغون ، وانظر عن حروبه مع المرابطين كتاب القراطس أثناء ترجمة علي بن يوسف .

فَلَيْتَ لَكُمْ بَارْتِبَاطَ الْخِيُولِ ضَانًا لَهَا حَالِبٌ قَاعِدُ

وَمَنْ لِرُعَاةِ الْإِبِلِ ، بِالْجِدِّ الْمَقْبَلِ ، فَلَوْلَا مَنْ لَدَيْنَا مِنْ ذَوَيْكُمْ ، وَضُرَاعَتُهُمْ الْيَنَا فَيْكُمْ ، أَلْأَحْقَنَاكُمْ بِصَحْرَائِكُمْ ، وَطَهَّرْنَا الْجَزِيرَةَ مِنْ رَحْضَائِكُمْ ، بَعْدَ أَنْ نَوَسَعَكُمْ عِقَابًا ، وَنَحْدُ أَنْ لَا تَلُوْثُوا عَلَى وَجْهِ نَقَابَا .. » إِلَى آخِرِهَا وَهِيَ طَوِيلَةٌ . فَكَانَتْ هَذِهِ الرِّسَالَةُ سَبَبًا فِي تَأْخِيرِهِ عَنِ الْكِتَابَةِ . وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ يُوْسُفَ لِأَخِيهِ أَبِي مَرْوَانَ ، وَكَانَ مَتَخَطِّطًا أَيْضًا فِي كِتَابَتِهِ : لَقَدْ كُنَّا فِي شَكٍّ مِنْ بُغْضِ أَبِي مُحَمَّدٍ لِلْمُرَابِطِينَ وَالْآنَ قَدْ صَحَّ عِنْدَنَا .

وَكَانَ أَبُو مُحَمَّدٍ هَذَا قَدْ أَوَى إِلَى ظِلِّ الْمَنْصُورِ بْنِ مُحَمَّدٍ بْنِ الْحَاجِّ الْمَتُونِيِّ أَمِيرِ قَرْطَبَةِ لَمَّا ثَارَ عَلَى عَلِيِّ بْنِ يُوْسُفَ « وَمَعَ ذَلِكَ فَلَمَّا وَقَعَ الرِّضَا عَلَى ابْنِ الْحَاجِّ وَوُلِّيَ مَا وَلِيَ مِنْ أَعْمَالِ الْمَغْرِبِ عَادَ ابْنُ أَبِي الْخِصَالِ إِلَى مَكَانَتِهِ مِنْهُ ، حَتَّى تُوْفِيَ هَذَا الْأَمِيرُ بِالشَّغْرِ الشَّرْقِيِّ مِنَ الْأَنْدَلُسِ وَبَقِيَ هُوَ بَيْتُهُ مُتَزَوِّيًا لَمْ يَنْلِهِ مِنَ الْمُرَابِطِينَ سَوْءٌ إِلَى أَنْ اغْتِيلَ فِي فَتْنَةِ ابْنِ حَمْدِينَ سَنَةَ ٥٤٠ .. فَهَلْ بَعْدَ هَذَا غَايَةٌ فِي الْبِرِّ وَالتَّسَامُحِ ؟ وَلَوْ صَدَرَ بَعْضُ مَا ذَكَرَ مِنْ أَبِي مُحَمَّدٍ فِي عَهْدِ مَلُوكِ الطَّوَائِفِ لَكَانَ ذَلِكَ كَافِيًا فِي الْإِطَاحَةِ بِرَأْسِهِ . وَاعْتَبِرْ أَنْتَ بِقَضِيَّةِ ابْنِ عَمَّارٍ مَعَ الْمُعْتَمَدِ مَعَ مَا كَانَ بَيْنَهُمَا مِنْ عَظِيمِ الْمُوَدَّةِ وَقَدِيمِ الْمُنَاقَاةِ ، وَمِنْهَا يَتَبَيَّنُ لَكَ نَبْلُ الْمَعَامَلَةِ الَّتِي قَابَلَ بِهَا أَمِيرُ الْمُسْلِمِينَ إِسَاءَةَ ابْنِ أَبِي الْخِصَالِ ، إِذْ لَمْ يَزِدْ عَلَى أَنْ أَعْفَاهُ مِنْ كِتَابَتِهِ » . هَذَا عَلَى حِينِ أَنْ أَخَاهُ أَبَا مَرْوَانَ بَقِيَ مُتَمَيِّزًا عِنْدَهُ وَمِنْ خِدْمَةِ دَوْلَتِهِ بِالصَّدَارَةِ .

وَلَا نَدْعُ هَذِهِ الْحَادِثَةَ تَمَرُّدًا إِنْ نَقِيمُهَا حُجَّةً عَلَى مَنْ يَتَّبِعُ الْمُرَابِطِينَ بِعَدَمِ الذَّوْقِ الْأَدَبِيِّ وَكُثَافَةِ الْإِحْسَاسِ الْفَنِيِّ ، وَلِذَلِكَ كَسِفَ الْأَدَبُ فِي عَهْدِهِمْ وَاضْمَحَلَّ اِضْمَحْلَالًا مُؤَسَفًا ، بَلْ لَا نَعْدُمُ مَنْ يَجْرَدُهُمْ حَتَّى مِنْ مَعْرِفَةِ اللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ ؛ فَكَيْفَ فَطَنَ عَلِيُّ بْنُ يُوْسُفَ لِمُغَامَزِ ابْنِ أَبِي الْخِصَالِ وَتَوْرِيَاتِهِ الَّتِي ظَنَّ أَنَّهَا تَخْفَى عَلَى مَخْدُومِهِ ، إِنْ لَمْ يَكُنْ ثَقَفًا لَقَفًا وَعَلَى جَانِبٍ مِنَ الْعِلْمِ يَدْرِكُ بِهِ سَوْءَ النِّيَّةِ الَّتِي أَمْلَتْ عَلَى كَاتِبِهِ رِسَالَتَهُ تِلْكَ ؟

وَمَا بَالُنَا لَا نَقُولُ مِثْلَ هَذَا أَيْضًا فِي يُوْسُفَ نَفْسِهِ ، وَقَدْ قَرَأَ عَلَيْهِ الْكَاتِبُ الْقَدِيرُ أَبُو بَكْرٍ بْنُ الْقَصِيرَةِ جَوَابَهُ لِلْإِذْفَنَشِ ، فَقَالَ هَذَا جَوَابٌ طَوِيلٌ ، وَأَمْلَى عَلَيْهِ كَلِمَتَهُ الَّتِي ذَهَبَتْ مِثْلًا أَوْ كَتَبَهَا بِنَفْسِهِ وَهِيَ قَوْلُهُ : « الْجَوَابُ مَا تَرَى لَا مَا تَسْمَعُ » ! .. فَهَلْ

صاحب هذه الملاحظة وذلك الجواب يكون لا يعرف العربية ؟ وهل موقف يوسف هذا إلا مثل موقف أبي مسلم الخراساني من رسالة عبد الحميد الكاتب التي بعثها اليه عن نخدومه مروان الحمار آخر خلفاء بني أمية ، وكانت من الطول بحيث تقع في مجلد ، فلما وصلت الى أبي مسلم أحرقها ولم ينظر فيها . وكذلك قدّر يوسف في رسالة ابن القصيرة أنها لا يكون لها التأثير المطلوب في نفس الأذفنش بسبب طولها وربما أهملها لنفس السبب فعوّضها بعبارته البليغة التي أقضت مضجعه !

وقالوا إن شعراء الأندلس مثلوا امام يوسف بعد انتصاره في موقعة الزلاقة وأنشدوه مدائحهم فيه ، وان المعتمد بن عباد قال له : ايعلم امير المسلمين ما قالوه ؟ فقال : لا ؛ ولكنهم يطلبون الخير . فليت شعري لماذا احتاج هنا إلى من يترجم له ولم يحتج اليه في فهم رسالة ابن القصيرة وانتقادها ؟ وهلا عدّوا جواب أمير المسلمين على فرض صحة الحكاية من باب ما يسمى عند البديعيين بأسلوب الحكيم ، فما غرض الشعراء بمدحه إلا طلب خيره ؟!..

أما ما نرويه نحن في هذه القصة ، فهو انه كان يحثو التراب بيده وهم يلقون قصائدهم ، فقال قائل : إنه يعرض لهم بقول النبي (ص) ؛ « احثوا في وجه المدّاحين التراب » !

ولا ننسَ في هذا الباب ما يروى عنه من أنه لما جال في بلاد الاندلس وتطوّف على أقطارها شبّهها بعُقاب رأسه طليطلة ومنقاره قلعة رباح وصدره جيتان ومخالبه غرناطة وجناحه الايمن بلاد الغرب وجناحه الايسر بلاد الشرق . قال في الحلال الموشية . « وبالنظر الى كيفية وضعها وتمثيلها في الصفرة يبدو بيان هذا التشبيه الذي هو راجع الى سياسة أمرها واعتبار أحوالها » فهل صاحب هذا التشبيه البديع لا يفهم مثل قول ابن زيدون ؟

حَالَتْ لِفَقْدِكُمْ أَيَاْمُنَا فَعَدَّتْ سُودَاً وَكَانَتْ بِكُمْ بِيضاً لَيَالِينَا

الذي يُقال ان المعتمد كتب به اليه ، فلما قرىءَ عليه قال : لعله يطلب منـا جوارى سوداً وبيضاً !.. فيا للصبيانيات تروى للتنقيص من ذوي الأخطار !.

نعم لقد أهدى يوسف للمعتمد جارية نروي خبرها في الجزء الثاني ، وهذا الخبر وحده كافٍ في الدلالة على ما كان ليوسف من عناية بالأدب وأهله والفن وأربابه ، حتى الجوارى المغنيات المؤدّيات !.. ولا غرو فتلاميذُ مدرسة ابن ياسين أقلُّ ما يتوفّر فيهم المعرفة باللغة العربية . على ان النبغاء في العلم والفقه من اللمتونين قد ظهروا قبل دخول ابن ياسين إلى الصحراء ، وقد تقدم ذكر بعضهم في العصر السابق .

ومن كتب لعلي بن يوسف من أدباء الأندلس باستدعاء منه الوزير ابو القاسم بن الجند المعروف بابن الأحذب ، وأبو بكر بن محمد المعروف بابن القبطرنة .. ونصنا على الاستدعاء وأنه من أمير المسلمين نفسه لظهار كامل العناية التي لقيها هؤلاء الأدباء من رئيس الدولة وما كان لهذا الرئيس من عظيم الالتفات الى ذوي الكفايات الادبية من رجال الأندلس .

ومن قول أحد شعرائهم فيه مشيراً الى تقديم والده على أخيه تميم وهو أصغر منه :

لَئِنْ كَانَ فِي الْأَسْنَانِ يُحْسَبُ ثَانِيًا عَلِيٌّ وَفِي الْعُلِيَاءِ يُحْسَبُ أَوَّلًا
كَذَلِكَ الْأَيْدِي سِوَاهُ بَنَانِهَا وَتَخْتَصُّ مِنْهُمْ الْخَنَاصِرُ بِالْحُلَى

أما من التحق بخدمة بقية الامراء المرابطين من أدباء الأندلس ولقوا منهم كل برّ ورعاية فكثير ، منهم الفيلسوف الأديب ابو بكر بن باجة الذي كتب للأمير أبي بكر إبراهيم المعروف بابن تافكسويت وحظيَ عنده حُظوةً كبيرة ، وله فيه مدائح كثيرة . ولما توفي رثاه بعدة مراتٍ تعبيراً عن وفائه له ، لما كان يحده عنده من مزيد الرعاية وحكايته معه لما سمع موشحةً له في مدحه فحلف لا يمشي ابن باجة لداره إلا على الذهب تأتي في الجزء الثاني . ومدح هذا الامير أيضاً الشاعر ابن سارة الشنتريني . وهذه الاشعار كلها مذكورة في قلائد العقيان .

ومنهم الفتح بن خاقان الكاتب البليغ صاحب كتابي القلائد والمطمع المعروفين ،

وقد ألف كتابه القلائد باسم الأمير ابراهيم بن يوسف بن تاشفين ، وأشاداً في مقدمته بحاسنه وبفضله في إحياء رسم الادب بعد دروسه . وكان هذا الأمير مُمدّحاً مقصوداً من كبار الأدباء الأندلسيين لكرمه وشجاعته وأريحيته الأدبية . فمن مدحه الشاعر المجيد أبو اسحق بن خفاجة على قلة رغبته في صحبة الملوك ومدحه لهم . والوزير ابو بكر بن رحيم وابو الفضل بن محمد بن الأعلسم الشنتمري وابو عامر بن عقيد وابو الحسين بن نسيْفون وغيرهم ، ومدائحهم له ثابتة في القلائد والمُعرب لابن سعيد ، ما يمنعنا من ايرادها إلا خشية 'التطويل' .

وكان الأمير عبدالله بن مَزْدَلِيّ مثل الأمير ابراهيم في قصد الأدباء إياه ومدحهم له ، ومن مدحه القاضي ابو محمد بن عطية صاحب 'التفسير' ، والوزير أبو جعفر بن مسعدة ، وكان كاتباً له ، والوزير ابو عامر بن أرقم ، له فيه قصيدة بارعة . ولهذا الوزير مقامة أدبية في اسم الأمير تيم بن يوسف الذي كان هو أيضاً مألّف أهل الأدب ومُعقِد آمالهم .

ويطول بنا الأمر لو أردنا أن نتتبّع كل مَنْ آوى الى ظلّ المرابطين من رجال الأدب فشمّلوه برعايتهم وأحاطوا بعنايتهم ، وكان في ذلك تشجيعٌ للحركة الأدبية وضمانٌ لازدهارها الذي ظهر أثره في المؤلّفات العديدة الموضوعة في هذا العصر ، وناهيك بقلائد الفتح بن خاقان وذخيرة ابن بسّام ، ولا يقتصر البرُّ بالأدب وأهله في هذا العصر على المرابطين من ملوكٍ وأمراء ، بل إن غيرهم من الولاة كانوا كذلك يُشجّعون الأدب ويُظهرون مزيد العناية بأهله ، والناس كما يقال على دين ملوكهم . فهذا الرئيس أبو الحسن بن عشرة من أهل سَلا كان من أهل العلم والنباهة جواداً مُمدّحاً ، قصده الشعراء والأدباء من كل جهة وناحية ، وخصوصاً من الأندلس ، وكان يلي قضاء بلده . ودخل الأندلس غازياً في سنة ثمان وثلاثين وأربعمائة ، أعني قبل قيام دولة المرابطين ، فامتدحه جماعة من أدبائها . ورحل إلى الشرق لأداء فريضة الحج فامتدح بالمهدية ومصر وغيرهما . وتوفي سنة ٥٠٢ ببلده سَلا بعد أن أورث بنيه سُودداً ضخماً وشرفاً جمّاً .

ومثله أبو مروان بن سمّجون الطنجي رأس هذا البيت ، الذي يُعتبر مفخرةً لطنجة ، بما أنجب من علماء وأدباء عديدين . وكان هو نفسه من رجال العلم والأدب

شاعراً بليغاً وخطيباً فصيحاً . وله جاهٌ عظيم عند أمير المسلمين يوسف بن تاشفين حتى إنه ليُعَدُّ نائبَه في شمال المغرب والقُطر الأندلسي باجمعه . وفصده الشعراء ومدحوه بابلغ القول مما يأتي بعضه في المنتخبات .

على أننا لا ننتهي من هذا الحديث حتى نسجّل أن هذه الرعاية التي كان يحظى بها الأدباء الأندلسيون من الأمراء المرابطين ، وكانت داعيةً لمداخلتهم لهم واختلاطهم بهم ؛ قد أثّرت في الأدب الأندلسي تأثيراً محسوساً فظهر بظهور القوة والجزالة واختفت منه عناصر الضعف والفسولة التي كانت سائدة عليه أيام ملوك الطوائف . وانتحى الشعراء في شعرهم مناحي الجدِّ والتوقُّر بدل ما كانوا منغمسين فيه من البطالة ، والمجون ، وذلك نتيجة لتشبعهم بروح الحفاظ الذي كان يسيطر على رجال الدولة وارتقاع معنويات أهل الاندلس عموماً بما آتاهم الله من نصر على عدوهم بعدما كانوا أصبحوا طعمة سائغة له . وقد سجل دوزي بغيظ هذه الظاهرة الجديدة التي طرأت على الأدب الأندلسي من جرّاء توجيه الأمراء المرابطين له ، واعتبرها تدهوراً في حقه ، في حين أننا نعتبرها انتعاشاً وبعثاً للأدب العربي الأصيل . وإلى القارئ مثلاً على ذلك هذه القصيدة التي يقولها الوزير ابن أرقم مدحاً للأمير عبد الله ابن مزدي :

سَرَيْتَ وَاللَّيْلُ مِنْ مَسْرَاكِ فِي وَهْلٍ	مُـبِرّاً الْعَزْمُ مِنْ أَثْنٍ وَمِنْ كَسَلٍ
وَسِرْتَ فِي جَحْفَلٍ يَهْدِي فَوَارِسَهُ	سَنَاكَ تَحْتَ الدُّجَى وَالْعَارِضِ الْهَطَلِ
وَالْبَدْرُ مُحْتَجِبٌ لَمْ تَذَرِ أَنْجَمُهُ	أَغَابَ عَنْ سَرَرٍ أَمْ غَابَ عَنْ خَجَلِ
هُوتُ أَعَادِيكَ مِنْ سَارٍ يُورِقُهُ	رَكَضُ الْجَوَادِ وَحُلُ اللَّامَةِ الْفُضْلِ
إِذِ الْمُلُوكُ نِيَامٌ فِي مَضَاجِعِهِمْ	مُسْتَحْسِنُونَ بِهَاءِ الْحَلِيِّ وَالْحُمَلِ
لِلَّهِ صَوْمُكَ بَرّاً يَوْمَ فِطْرِهِمْ	وَمَا تَوَخَّيْتَ مِنْ وَجْهِ وَمِنْ عَمَلِ
نَحَرْتَ فِيهِ الْكُمَاةَ الصَّيْدَ مُحْتَسِباً	وَحَسْبُ غَيْرِكَ نَحْرُ الشَّامِ وَالْإِبِلِ

إِذَا صَرِيرُ الْمَدَارَى هَزَّهم طَرَبًا أَهْلَاكَ مِنْهُ صَرِيرُ الْبَيْضِ وَالْأَسْلِ
 وَإِنْ ثَنَّتْهُمْ عَنِ الْإِقْدَامِ عَاذِلَةٌ مَضِيَتْ قُدُمًا وَلَمْ تَأْذَنْ إِلَى الْعَذَلِ
 كَمْ ضَمَّ ذَا الْعَيْدِ مِنْ لَاهٍ بِهِ غَزَلٍ وَأَنْتِ تُنْشِدُ أَهْلَ اللَّهِ وَالْغَزَلِ
 فِي الْخَيْلِ وَالْخَافِقَاتِ الْبَيْضِ لِي شُغْلٍ لَيْسَ الصَّبَابَةُ وَالصَّهْبَاءُ مِنْ شُغْلِي
 ظَلَلْتَ يَوْمَكَ لَمْ تَنْقَعْ بِهِ ظُمًا وَظَلَّ رُحْكَ فِي عَلٍّ وَفِي نَهْلِ
 وَكَلَّمَا رَامَتْ الرُّومُ الْفِرَارَ أَتَتْ مِنْ كُلِّ أَوْبٍ وَضَمَّتْهَا يَدُ الْأَجْلِ
 فَصَارَ مُقْبِلُهُمْ نَهْبًا وَمُدْبِرُهُمْ وَعَادَ غَانِمُهُمْ مِنْ جُمْلَةِ النَّفْلِ
 فَكَمْ فَكَكَتَ مِنَ الْأَغْلَالِ عَنْ عُقُقٍ وَكَمْ سَدَدْتَ بِهَذَا الْفَتْحِ مِنْ خَلَلِ
 أَنْتِ الْأَمِيرُ الَّذِي لِلْمَجْدِ هِمَّتُهُ وَلِلْمَالِكِ يَحْمِيهَا وَلِلدُّوْلِ
 وَلِلْمَوَاهِبِ أَوْ لِلْخَطِّ أَنْمَلُهُ مَا لَمْ تَحِنْ إِلَى الْخَطِيئَةِ الذُّبْلِ...

ونسجل هنا قوله او للخط التي تصحفت في القلائد بالخط ، وإنما هي الخط يعني الكتابة فكأنه يقول في أنامله : انها للسيف والقلم والكرم ...

تراجم بعض شخصيات من هذا العصر

والآن نقدم تراجم بعض شخصيات هذا العصر الذين برزوا في احد ابواب المعرفة التي قدمنا الكلام عليها ، متممين بذلك وصف النشاط العلمي والأدبي الذي وجد في المغرب على عهد المرابطين ، فنضع الصورة في إطارها ونحيط بالموضوع من جوانبه كلها .

عبدالله بن سعيد الوجدي

يكنى أبا محمد ونسبته الى مدينة وجدة عاصمة المغرب الشرقي . ولي قضاء بلنسية لأول فتحها في الدولة اللعونية واسترجاعها من الروم في رجب سنة ٤٩٥ وعلى يديه وتحت نظره تم بناء المحراب بالمسجد الجامع منها في سنة ثمان وتسعين . وفي جانبها كان اسمه مخطوطاً الى أن ملكها الروم ثانية في آخر صفر سنة ٦٣٦ قاله ابن الأبار . وكان من جلّة الفقهاء الحفاظ لمسائل الرأي القائمين عليها . وكان يناظر عليه ويجمع في ذلك إليه . وبه تفقه ابو حفص بن واجب وغيره . وقد حدث عنه ابو العرب عبد الوهاب بن محمد التّجسيي وابو عبدالله بن خليل القيسي نزيل مراكش وتوفي ببلنسية قبل سنة ٥١٠ .

ابراهيم بن جعفر اللواتي

هو الفقيه المشاور ابو اسحق ، المعروف بابن الفاسي ، من أهل سبتة . أخذ عن شيوخ بلده . ولزم الفقيه ابا الاصمغين سهل وكتب له في قضائه بطنجة وغرناطة وسمع منه جميع كتبه وحدث بها عنه ، وكان بصيراً بالشروط والوثائق ؛ بل لم يكن في عصره من هو أقوم عليها منه ، عارفاً بالاحكام متفنتاً في معارف شتى . شاوره القضاة بالمغرب والأندلس ، ودرس الفقه زماناً . وأخذ عنه من الاكابر القاضي عياض

وأمثاله . وكان عاقلاً مهيباً كثيرَ الوَقار لا يتكلم أحد في مجلسه إلا بمسألة علم أو كلام فيه نفع . وألف مختصر ابن أبي زمنين فنحاه فيه أحسنَ منجى . وكانت وفاته في ٨ جمادى الأولى من عام ٥١٣ .

أبو عبد الله التيمي

الفقيه القاضي أبو عبد الله محمد بن عيسى بن حسين التيمي ، مولده بفاس سنة ٤٢٩ وانتقل به أبوه الى سبتة وهو شاب ؛ فطلب العلم على أبي عبد الله المسييلي وغيره . ورحل الى الأندلس ثلاث رحل ، إحداها في شببيته الى اشبيلية ؛ فقرأ بها الأدب على أبي بكر بن القصيرة ، والثانية الى المرية سنة ٤٨٠ فأخذ عن ابن المرابط وأجازه الدلائي ، والثالثة سنة ٨٨ الى قرطبة فسمع من ابن الطلائع وأبي مروان بن سراج وغيرهما . واتسع في الأخذ وتقليد الشورى وتولى القضاء بسبتة وبفاس ، وكان عارفاً بالفقه والحديث حافظاً ضابطاً كثير الكتب مكيح الخط والإنشاء والمحاضرة ، من أعقل أهل زمانه وأفضلهم وأسمتهم ، تامَّ الفضل ، كامل المروءة عند الخاصة والعامة ، عظيم القدر ، وهو شيخ القاضي عياض الذي صدر به فهرسته ، لازمه للمناظرة عليه في المدونة والموطأ وسماع المصنفات وأجازه جميع رواياته . قال : وكان من أحسن القضاة سيرةً وأتزهيم ، وأجرأهم على الطريقة القوية ، فضى فقيراً حميداً واحتفل الناس بجنائزته . وولع العامة بنعشه مسحاً بالأكف ولمساً بأطراف الثياب تبرُّكاً به رحمة الله عليه . توفي في ٢١ جمادى الأولى سنة ٥٠٥ وله ولد اسمه عبد الله من أهل العلم بالحديث والرواية والاتقان .

القاضي عياض

هو أبو الفضل عياض بن موسى بن عياض اليحصبي السبتي . كان إمام وقته في الحديث وعلومه ، عالماً بالتفسير وجميع علومه فقيهاً أصولياً عالماً بالنحو واللغة وكلام العرب وأيامهم وأنسابهم ، كاتباً شاعراً مجيداً ، ريثان من علم الأدب ، خطيباً بليغاً ، صبوراً حليماً جميلَ العشرة جواداً سمحاً كثير الصدقة دؤوباً على العمل صلباً في الحق . هكذا وصفه ابن فرحون في الديباج .

دخل الأندلس ورجل الى الجزائر الشرقية منها طالباً للعلم وأكثر الأخذ فنافت شيوخه على المائة ، فيهم القاضي أبو بكر ابن العربي وأبو الوليد ابن رشد الجد وابن عتّاب وابن حمدين والمازري وأبو علي الصّدّي وغيرهم . وفي قلائد العقيان كتاب توصية به من أمير المسلمين إلى ابن حمدين لمّا قصد له للأخذ عنه . وهذه من المناقب التي تُروى للمرابطين في الاعتناء بالعلم والاهتمام بنشره .

قال ابن بشكوال : وجمع من علوم الحديث كثيراً وله عناية كبيرة به واهتمام يجمعه وتقنيده ، وهو من أهل التفنن في العلم واليقظة والفهم .

وبعد عودته من الأندلس أجلسه أهل سبتة للمناظرة عليه في المدونة وهو ابن ثلاثين سنة أو يُذِنَفُ عليها . ثم أجلس للشورى ثم ولي قضاء بلده مدة طويلة حمّدت سيرته فيها . ثم نُقِلَ الى قضاء غرناطة ، قال ابن الخطيب : وبني الزيادة الغربية في الجامع الأعظم وبني في جبل المينا الرّاتبه الشهيرة .

ولما ظهر أمرُ الموحدّين بادر الى الدخول في طاعتهم ، ثم انحرف عنهم لما اضطربت أحوالهم بثورة ابن هود ؛ فنقلوه الى مراکش 'مُشرّداً' به عن بلده ، وبها توفي سنة ٥٤٤ ومولده بسبتة في شعبان ٤٩٦ .

وللقاضي عياض التصانيف البديعة منها إكمال المعلم في شرح مسلم كمّل به مُعَلِّم شيخه المازري . ومنها كتاب الشفا في التعريف بحقوق المصطفى ، أبدع فيه كلّ الإبداع وسلّم له أكفأؤه براعته فيه ، ولم يُنازعه أحدٌ في الانفراد به ولا انكروا عليه مزية السبق اليه ، بل تشوفوا للظفر به وأنصفوا في الاستفادة منه وحمله عنه الناس فطارت نسخه شرقاً وغرباً . وهو في الحقيقة كتاب فريد ، دحض به مزاعم الملاحدة ومطاعنهم على المقام النبوي الشريف ، وأتى في ذلك بالعجب العُجاب بما لا ينكره إلا أعمى القلب مطموس البصيرة . ومنها مشارق الانوار في تفسير غريب الحديث المختص بالصّحاح الثلاثة : وهي الموطأ والبخاري ومسلم ، وضبط الالفاظ والتنبيه على مواضع الأوهام والتصحيقات وضبط أسماء الرجال . وهو كتاب لو كتب بالذهب لكان قليلاً في حقه . ومما قيل فيه شعراً :

مَشارِقُ انوارٍ تَبَدَّتْ بِسَبْتَةٍ ومن عَجَبِ كَوْنِ المَشارِقِ بالغرب

فأجيب هذا القائل :

وما شرفَ الاوطانَ إلا رجاؤها والأفلا فضلُ لشربٍ على تَرَبِّ

ومنها كتاب التنبيهات المستنبطة على الكتب المدونة ، جمع فيه غرائب من ضبط الألفاظ وتحديد المسائل ، وكتاب ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك وهو المشتهر بالمدارك . وغير ذلك مما نشيرُ إليه بعد .

وله رسائل أدبية وديوانُ خطب ومقاطيع شعرية سنلّمُ بها في المنتخبات .

وكان ابو الفضل بمنزلة من الجدّ في تعظيم الشريعة والذبّ عن حرمها ، بحيث أن الفتح بن خاقان الكاتب المشهور صاحب قلائد العقيان ، دخل عليه يوماً وهو بحكمته ؛ فاشتم منه رائحة الخمر ورأى عليه آثار نشوتها ، فغضب عليه وجرّده من ثيابه وحدهُ الحدّ الشرعي ولم تأخذه في الله لومة لائم . وخرج الفتح من غده ثائراً حنقاً وهمّ ان يحذف ذكره من قلائده ؛ ف قيل له ان ذلك يكون أدعى لاشتهار القضية وظهورها فعدل عن ذلك . ولكن القاضي الأديب بعد أن خرج الفتح من عنده أتبعه بصلّة سنّية إبقاءً على ودّه واسترضاءً لحاظره وضرباً للمثل في ان التمسك بقواعد الاسلام وحفظ حدوده لا يتنافى الارحية الأدبية ولا يذهب بظرف الأديب ورقة حاشيته . رحمه الله .

عيسى الملجوم

ابو موسى عيسى بن يوسف بن عيسى بن علي الأزدي ، عرف بابن الملجوم ، لقبُ جرى على أحد أجداده في شببته لحبسة كانت في لسانه . وبنو الملجوم من بيوتات المجد القديمة بفاس ، وقد رفع ابن القاضي في الجدوة نسبهم الى المهلب بن أبي صفرة . ونبغ منهم عدّة أفراد في الفقه والحديث والأدب ، ورأسوا بالعلم وتولوا القضاء وأدركوا شرفاً كبيراً . وكان عيسى هذا عارفاً بالفقه ذا كراً للمسائل ، متقدماً في علم الفرائض ، محدثاً حافظاً راوية . سمع ببليده من أبيه قاضي الجماعة أبي الحجاج ، وأبي الفضل ابن النحوي وأبي الحجاج الكلبي الضرير ؛ وبأغمت

من أبي محمد اللخمي سبط أبي عمر بن عبد البرّ . ودخل الأندلس فلقي بقرطبة أبا عبد الله بن الطلائع وأبا بكر حازم بن محمد وأبا علي الغساني وأبا الحسين بن سراج وأبا محمد بن عتّاب . ثم دخل الأندلس ثانية فلقي بأشبيلية أبا عبد الله بن شبرين وكتب إليه أبو عبد الله الخولاني وأبو علي الصّدّقي وغيرهما . وتولى القضاء بفاس وبمكناس ، وكان من أهل الجلالة والأصالة ، راوية جماعةً للدواوين العتيقة . والدفاتر النفيسة . وابتاع من أبي علي الغساني أصله من سنن أبي داود الذي سمع فيه على أبي عمر بن عبد البرّ ، وهو أصل أبي عمر ، كان قد صار إلى أبي علي بخمسة آلاف دينار بعد أن نسخ منه أبو علي بخطه وقابله وأتقنه . وناهيك بهذه المهمة العالية وهذا الشغف بالعلم . ولعله أراد أن يسدي إحساناً في صورة معاملة ، إلى شيخه الذي يأبى من رؤية المنّة عليه لأحد ، شأن أمثاله من علماء السلف رحمهم الله . حدث عنه أبو محمد بن فليح وابنُه أبو القاسم عبدُ الرحيم وقال : ولد يوم الاثنين مُستهلّ ذي القعدة ٤٧٦ وتوفي في رجب عام ٥٤٣ .

أحمد بن الحطّية

الشيخ أبو العباس أحمد بن عبد الله بن أحمد بن هشام بن الحطّية اللخمي الفاسي ، كان رأساً في القراءات السبع ومن أهل العلم والصلاح . ولد بفاس سنة ٤٧٨ وانتقل إلى مصر فقرأ على ابن الفحّام . وقرأ عليه شجاع بن محمد بن سيّدهم وروى عنه الحافظ أبو الطاهر السلفي . وعُرض عليه القضاء بمصر أيام العبّيديين ؛ فاشتراط أن لا يقضي بمذهب الدولة فأبوا وتوفي آخر المحرم سنة ٥٦٠ .

علي بن حرزهم

أو ابن حرازيم كما هو الجاري على الألسنة فيه وفي كثيرين غيره ممن هم على اسمه . وصوّب الساحلي الأول في كتابه بُغية السالك وهو الذي في كتب الأقدمين .

هو أبو الحسن علي بن إسماعيل بن محمد بن عبد الله بن حرزهم ، يعتلي نسبه إلى عثمان بن عفان (رض) . ولد ونشأ بفاس وكان من كبار فقهاءها ومدرّسيها العبّاد

الزهّاد . قال الساحلي : كان عالماً فقيهاً محدثاً حافظاً مدرّساً زاهداً في الدنيا ، سالكا في طريق القوم من أهل التحقيق ، 'مشاركاً في علوم الشريعة لكنه أميل' الى التصوّف . أحكم كتاب الإحياء للغزالي وضبط مسائله فكان يستحسنه ويشني عليه . درّس بفاس وأخذ عنه ناس الطريق كالشيخ أبي مدين الأنصاري وأبي عبدالله التّاودي . ودخل مراکش فدرّس بها العلم وتاب على يده خلق كثير وزهّد أميرها في الدنيا .

نعم فقد كان في أول الأمر من حمل على كتاب الإحياء واستنكر ما فيه ، ثم غلبت عليه نزعة التصوّف فرجع عن رأيه فيه كما سبق الإلماع الى ذلك . ونظر ، كما يقول ابن قسّنفند في كتابه أنس الفقير ، فيما كان يُنكره منه ، فوجده موافقاً للكتاب والسنة .

ولما قدم الشيخ أبو مدين إلى فاس دخل لجامع القرويين وسأل عن مجالس العلماء فسار إليها مجلساً بعد مجلس ، قال : وأنا لا يثبت في قلبي شيء مما سمعته من المدرّسين الى ان جئت الى شيخ كلّها تكلم بكلام ثبت في قلبي وحفظته . فلما فرغ دنوت منه وقلت له حضرت مجالس كثيرة فلم أثبت على ما يقال وأنت كلّ ما سمعته منك حفظته ، فقال لي : هم يتكلمون بأطراف السننهم فلا يجاوز كلامهم الآذان وأنا قصدت الله بكلامي فيخرج من القلب فلازمته . وكان هذا الشيخ هو علي بن حرزهم ، توفي رحمه الله سنة ٥٥٩ .

أبو القاسم المعافري

هو الفقيه الأصولي المتكلم أبو القاسم عبد الرحمن بن محمد المعافري من أهل سبتة . له رحلة سمع فيها بالأندلس من القاضي أبي الوليد الباجي وببلاد إفريقية ومصر والحجاز من جماعة كابن فضال بمصر وابن الصباح بتونس ولقي بمكة الفقيه عبدالحق

١ - هو أبو محمد عبد الحق بن محمد بن هارون السهمي القرشي ، فقيه حنبلية . تفقه بشيوخ القرويين وحج ، فلقب القاضي عبد الوهاب وإبا ذر الهروي ، وله في مذهب مالك تأليف جلية . توفي سنة ٤٦٦ .

والإمام أبا المعالي الجويني وابن صاحب الخمس بصقلية وغيرهم . ودرس هناك الأصول والكلام ودرّس ذلك ببلده سبعة مدة حياته . قال القاضي عياض : وعليه أخذ ذلك جماعة من شيوخنا وأصحابنا ، ورحل اليه الناس في درس ذلك عليه . ولي قضاء ببلده سبعة والخطابة بمسجدها كما تولى قضاء الجزيرة الخضراء . وتوفي آخر محرم سنة ٥٠٢ .

الحسن بن طريف النحوي

الشيخ الصالح أبو علي الحسن بن علي بن طريف ، من أهل سبّنة ويعرف بالتّاهرتي شيخ ببلده في النحو ، له سماع من الفقيه حجّاج بن الماموني وأبي عبد الله ابن سعدون وأبي الأصبع بن سهل وأبي محمد أبي قحافة . وأخذ عن أبي تمام القطيني وغيره بالأندلس ودرّس النحو عمره بسبّنة . وأخذ عنه جماعة منهم القاضي عياض وغيره . وتوفي في ١٩ ذي الحجة ٥٠١ .

مروان بن سمّجون

أبو عبد الملك مروان بن عبد الملك بن إبراهيم بن سمّجون اللّواتي الطنجي ، زعيم المغرب وشيخه وذو الجاه العريض والقول المسموع فيه . هكذا عرفه القاضي عياض في فهرسته ثم قال : كان من أهل العلم والفقه والأدب ، وله سماع عال من المصريين كابن نفيس وابن منير وأبي محمد بن الوليد ونظّمهم ، وقرأ القرآن على المقرئين بها وجالس الفقيه عبدالحق بصقلية ، وسمع من أبي علي المعروف بابن مديكو فقيه سجلماسة بها ، عن أبي محمد بن أبي زيد ، وحصل علماً جماً ، وكان يقول - كما عند صاحب معجم البلدان - لم أدخل إلى الشرق حتى حفظت أربعة وثلاثين ألف بيت من أشعار الجاهلية ، وكان ذا شهامة وجزالة وفصاحة . أخذ نفسه بالإعراب في كلامه مع الخاصة والعامة ، فلا يكاد يؤخذ عليه لحن . وولي الصلاة والخطبة والفتيا بسبّنة ، ثم انتقل إلى طنجة صدر الدولة المرابطية ، فولي صلاتها وخطبتها وفتياها ، ثم تقلد أحكامها وانصرفت إليه جميع أمور الأندلس والمغرب ، وفوض إليه أمير المسلمين يوسف في كبار مهامه . وكان مهيباً صلباً . وله شعر وخطب فصيحة قوية العارضة كثيرة الغريب .

مولده سنة ٤٢١ هـ ووفاته في ٢٠ رجب ٤٩١ هـ وهو من بيت بني سمجون اللواتيين الطنجيين الذين ظهر منهم في هذا العصر والعصر الذي يليه كثير من أهل العلم والفضل . ورحل بعضهم الى الاندلس واستقر فيها ، فظهر منهم بها أيضاً علماء .

ابو الحسن بن زنباع

هو القاضي الأديب ابو الحسن بن زنباع ويقال فيه أيضاً ابن بيتاع الصنهاجي ، من أهل طنجة ، نسبه إليها القلقشندي في صبح الأعشى . وقال : ترجم له في قلائد العقيان واثني عليه وانشد له أبياتاً منها :

وقد تحمي الدروعُ من العوالي ولا تحمي من الحديقِ الدروعُ

ويؤخذ من تحلية الفتح له بالفقيه القاضي وصفته بالمشاركة في العلوم والآداب والفصاحة والبيان ، والطب أيضاً ، أنه شخصية علمية فذة ؛ وأن الأدب هو أقل بضاعة كان يتميز بها فصار اليوم أكثر ما نذكره به . وشعره مع ذلك طبقة عالية من حيث البلاغة والانسجام والإجادة في مختلف الأغراض ، فهو مفخرة لقبيله وحجة على المنكرين براعة المغاربة في الأدب وخاصة في هذا العصر . وسنثبت آثاره في محلها من قسم المنتخبات .

بجى بن الزيتوني

هو أحد الأدباء الذين نبغوا في هذا العصر ، من أهل فاس . كان أديباً أريحيّاً خفيف الروح رقيق الحاشية متظرفاً حسن المذهب ، له شعر بديع وتصرف مطبوع . ذكره ابن بسام في الذخيرة وقال : كان حاضر الجواب ذكي الشهاب ، ثم اورد واقعة حال جرت بينه وبين أبي الوليد بن زيدون بمجلس المعتمد ، قصد فيها اديب الأندلس أن ينال من المترجم ولكن هذا أفحمه ، وسنوردها مع بعض شعره في محلها .

ابن القابلة السبتي

ابو محمد عبدالله بن هرون المعروف بابن القابلة السبتي . ذكره بن دحية في كتابه المطرب من أشعار أهل المغرب وقال إنه من شعراء سبته المطبوعين . وهو ممن ترجمهم ابنُ بسّام في الذخيرة وأوردهم ابنُ سعيد المغربي في كتابينه رايات المبرزين وعنوان المرقصات المطربات من شعراء المائة الخامسة . ولا نعلم من أحواله شيئاً غير ما تدلُّ عليه كنيته من مكانة اجتماعية متواضعة . على ان ابنَ دحية لم يذكره بكنيته وإنما نسبته الى أبيه ، وهو الوحيد الذي ذكر اسم أبيه فيما وقفنا عليه .

وتمَّ شاعرٌ آخر يُعرفُ بابن القابلة أيضاً وهو محمد بن يحيى الشلّطيسي من رجال المغرب لابن سعيد وله قرابةٌ أدباء يعرفون بهذه الكنية المذكورون في الصلّة وِرْصلة الصلّة .

ولمترجم شعر جميل نُورده في المنتخبات .

تسمية بعض الكتب المؤلفة في هذا العصر

وبعد فهذه جريدة بأسماء الكتب التي أُلِّفت في هذا العصر ، من العلماء الذين ذكرناهم ، على حسب ما وقفنا عليه . وبالضرورة فهي لا تُحيط بجميع مؤلفات عهد المرابطين ، وإنما تعطي أمثلة منها :

في الفقه :

- مختصر كتاب ابن أبي زمنين لابراهيم بن جعفر .
- الإعلام بحدود قواعد الإسلام للقاضي عياض .
- نظم البرهان على صحة جزم الأذان له .
- مسألة الأهل المشروط بينهم التزاور له .
- أجوبة القرطبيين له .
- الأجوبة المحبّرة على الأسئلة المتخيّرة له .

- المقاصد الحسان فيما يلزم الانسان له .
- النوازل القضائية له .
- التنبيهات المستنبطة على الكتب المدونة له .

في الحديث والتفسير

- تفسير لأبي بكر بن الجوزي السبتي .
- إكمال المعلم شرح صحيح مسلم للقاضي عياض .
- الشفاء في التعريف بحقوق المصطفى له .
- الإلماع في ضبط الرواية وتقييد الساع له .
- بغية الرائد لما تضمنه حديث أمّ زرع من الفوائد له .
- مشارك الأنوار في غريب الحديث والآثار له .

في التوحيد

- تصنيف لأبي بكر بن الجوزي السبتي .

في التاريخ

- ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعيان مذهب مالك للقاضي عياض .
- الغنمية له في شيوخه وهي فهرسته .
- معجم شيوخ أبي علي الصدي له .
- الفنون الستة في تاريخ سبتة له .

في الأدب

- ديوان خطب مروان بن سمجون .
- غنمية الكاتب وبغية الطالب في الصدور والترسل للقاضي عياض .
- سرّ السراة في أدب القضاة له .
- ديوان خطب له .

عصر الموحدين

الْإِقْتِلَابُ

لم تكن دولة المرابطين أعظم استقراراً ولا أكثر اطمئناناً منها حينما ظهر المهدي ابن تومرت على مسرح التاريخ وضرب ضربته القوية التي قوّضت أركان ذلك البنيان الشامخ وأتت عليه من الأساس . على أن من يستقرى الأحوال بتعمق ، يجد أن بذور الثورة كانت تنمو هنا وهناك ، والقوم في غفلة عما يجري حولهم . ولعل ابن تومرت لم يرحل إلى المشرق إلا وهو يحمل في رأسه فكرة الثورة على الواقع المغربي ، وخاصة في ميدان الاجتماع وما يرجع لنزعة الدولة العقديّة والمذهبية . ولعله رأى بعيني رأسه ، وهو يتجول في ميدان المغرب والأندلس ، 'نسخ الإحياء' تضرع فيها النار ، والناس بين موافق ومخالف ، فتأقت نفسه لتحقيق الحق في هذا الموقف الغريب ، إذ ليس من الجائز أن يكون الإسلام في المشرق غيره في المغرب .

ومن هنا يحى اتصال زعيم الانقلاب الموحدي بحجة الإسلام الغزالي في رحلته ، وقراءته عليه ، وسؤال هذا له عن المصير الذي لقيه كتابه في المغرب ، وعن أحوال المرابطين ثم دعاؤه عليهم . - فيما يروي المؤرخون - بتعزيق ملئهم ، ذلك الدعاء الذي يُعتبر في الحقيقة دعوة إلى الثورة عليهم . ومما لا شك فيه أن المهدي رشّح نفسه لهذه المهمة ، من يومئذ . وما يمنعه من ذلك ؟ وهذا الإمام الغزالي الذي أيد سياسة المرابطين أيام العاهل الكبير يوسف بن تاشفين ، عاد فسحب تأييده لها أيام ولده علي .

وكان المهدي رجلاً من سوس ، ومن قبيلة كهرغة بالذات ، إحدى قبائل المصامدة واسمه محمد ، وإنما اشتهر بالمهدي بعد إعلانه لدعوته ، وهو ينتسب في آل البيت عليهم السلام وخرج طالباً للعلم سنة ٥٠١ هـ فدخل الأندلس ورحل إلى المشرق ؛ فحجّ ولقي الأئمة وحصل على علم غزير ، وكان ذا فصاحة ولسن وحجة قوية ، إلى ورع ونسك وغيرها شديدة على الدين ، مما جعل منه داعية من الطراز الأول ، فلم يلبث أن نزل إلى الميدان مصلحاً دينياً يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، ويدعو إلى التوحيد على طريقة

الأشاعرة ، من تأويل المتشابهات وعدم اقرارها على ظاهرها فراراً من الوقوع في التجسيم . وكان أكثر ما يحفز همته للعمل ما يراه من انتشار البغي والفساد مع سكوت علماء الدين على ذلك . ولقد بدأ في طريق عودته الى المغرب من رحلته التي دامت زهاء عشر سنوات ، يصطدم بالعامّة وأولي الأمر ، إذ كان كلما رأى مُنكراً تقدم بتغييره ، فيريق الخمر ويكسر آلات اللهو والطرب ويغلظ على أهل المجون ، كما فعل في الاسكندرية والمهدية وتونس وقسنطينة وبجاية وتلمسان وغيرها . وما كان ينجيه من طائلة العقاب الا ما يلوح عليه من سمة الخير ، ومساندة الرأي العام له إذ كان المجتمع الاسلامي ما يزال يؤثر الطهارة ويتمسك بقانون الأخلاق .

ويظهر من سيرته هذه أن الرجل كان مخلصاً في دعوته أشدّ الإخلاص ، وأنه لم يكن يهمة مُملك ولا دنيا إلا بلوغ قصده في محاربة الفساد وتجديد الدين . ولولا ذلك لما عرّض نفسه للخطر مراراً في غير موطنه ، حيث لا يرجو مُلكاً ولا يجد من قومه أعوانا يشدّون أزره ويحمون ظهره . ولقد أشخص بين يدي أمير المسلمين بمراكش عند ما جهر بدعوته وكثر انتقاده للحكام فلم ير فيه غير داعية ديني مخلص ، وتأثر بكلامه ثم أمر بتخليته على الرغم من إلحاح أهل مجلسه عليه في البطش به وتحذير مستشاريه له مما سيؤول اليه أمره .

والذي نريد ان نقوله هو ان الرجل كان صاحب فكرة إصلاحية عمل لتنفيذها بالوسائل المألوفة قبل أن يكون طالب مُملك يرتكب كل محذور للحصول عليه . وبذلك تعلم انه فوق ما تقول عليه ورمي به من التلبيس والشعوذة وعضائه الأمور . وهذا هو رأي ابن خلدون الناقد البصير . فاستمع الى ما يقوله في هذا الصدد عند تعرضه لتصحيح كثير من أغلاط المؤرخين في مقدمته الحافلة :

« ويلحق بهذه المقالات الفاسدة والمذاهب الفاشلة ، ما يتناقله ضعفة الرأي من فقهاء المغرب ، من القدح في الإمام المهدي صاحب دولة الموحدين ونسبته الى الشعوذة والتلبيس ، فيما اتاه من القيام بالتوحيد الحق والنعي على أهل البغي قبله ، وتكذيبهم لجميع مدعياته في ذلك ، حتى فيما يزعم الموحدون أتباعه من انتسابه في أهل البيت . وإنما حمل الفقهاء على تكذيبه ما كمن في نفوسهم من حسده على شأنه ، فإنهم لما رأوا من نفوسهم مناهضته في العلم والفُتيا والدين بزعمهم ، ثم امتاز عنهم بأنه متبوع الرأي ،

مسموع القول ، موطأ العقيب ، نقيموا ذلك عليه وعضوا منه بالقدح في مذاهبه والتكذيب لمدعياته . وأيضاً فانهم كانوا يأنسون من ملوك لمتونة أعدائه ، تجلّة وكرامة لم تكن لهم من غيرهم ، لما كانوا عليه من السذاجة وانتحال الديانة ؛ فكان لجملة العلم بدولتهم مكان من الوجاهة والانتصاب للشورى ، كل في بلده وعلى قدره في قومه ، فأصبحوا بذلك شيعة لهم وحرباً لعدوهم ، ونقيموا على المهدي ما جاء به من خلافهم والتثريب عليهم والمناصبه لهم ، تشيئاً للمتونة وتعصباً لدولتهم . ومكان الرجل غير مكانهم وحاله غير معتقداتهم . وما ظننك برجل نقيم على أهل الدولة ما نقيم من أحوالهم وخالف اجتهاده فقهاءهم ، ونادى في قومه ودعا الى جهادهم بنفسه ، فاقتلع الدولة من أصولها وجعل عاليها سافلها ، أعظم ما كانت قوة وأشدّ شوكة وأعزّ انصاراً وحامية . وتساقطت في ذلك من أتباعه نفوس لا يحصيها إلا خالقها ، قد بايعوه على الموت ووقوه بأنفسهم الهلكة . وتقرّبوا الى الله تعالى بإتلاف مهبهم في إظهار تلك الدعوة والتعصب لتلك الكلمة ، حتى علت على الكلم ودالت بالعدوتين من الدول ؛ وهو بحالة من التقشف والحصر والصبر على المكاره والتقليل من الدنيا ، حتى الولد الذي ربما تجنّح اليه النفوس وتخدع عن تنبيهه . فليت شعري ما الذي قصد بذلك ان لم يكن وجه الله ، وهو لم يحصل له حظ من الدنيا في عاجله ؟ ومع هذا فلو كان قصده غير صالح لما تمّ أمره وانفسحت دعوته « سنة الله التي قد خلت في عباده » .

وكما أنه لم يقم لطلب الملك على ما علمت ، فانه لم يقم لطلب ثأر له عند دولة المرابطين ، لأنها لم تؤذ به بشيء ولم تمدّ اليه يداً بسوء . وكون تنازع الزعامة بين المصامدة الذين ينتسب اليهم وشنهجة التي ينتمي لها المرابطون ، هو الباعث له على القيام كما قيل بذلك ، ضعيف جداً ؛ وخصوصاً مع ما علّم من ديانتهم وتقواه وعدم تمسكه بأسباب العصبية التي نهى عنها الاسلام . على انه لم يثبت أن هناك تنازعاً كان قائماً بين المصامدة وشنهجة عند ظهور المهدي بن تومرت . والثابت هو ان دعوته كانت تحتضن مختلف القبائل لأنها قامت تحت شعار التوحيد ، كما كانت دعوة عبدالله بن ياسين تنتظم شنهجة وغيرها ولذلك سمى أتباعه بالمرابطين . فالأمر في الحالين معاً يتعلق بدعوة دينية أكثر مما يتعلق بعصبية قبلية . نعم لقد كانت أنصار المهدي في غالب الأمر من المصامدة ، وذلك لانه آوى إليهم وأقام فيهم مدة يدعو الى فكرته وينشرها بينهم بكل قواه ، بعدما يش من استجابة العلماء له في نبذ التقليد وطرح الجهود ،

والقيام بتغيير المنكر الذي كان يجري على مرأى منهم ومسمع . وبدل ان يدوا إليه يد المعونة ويعزّزوا موقفه ، قاوموه وجرّضوا أمير المسلمين عليه ؛ فلم يسعه الا النجاة بنفسه واللجوء الى قومه ينشد عندهم الحماية والنصرة . ولقد لجأ منهم الى مأمن حقاً ، حيث انتصب لنشر العلم وبث أفكاره ومبادئه في غير خوف ولا رقابة . وكان أكثر ما يدعو الى الأخذ بمذهب الأشاعرة في الاعتقاد ، وخاصة في تأويل المتشابه من الآي والأحاديث ، الذي كان المغاربة لا ينجحون اليه أخذاً بمذهب السلف في ترك التأويل وإقرار المتشابهات كما جاءت ؛ مشدداً النكير عليهم في ذلك وربما رماهم بالتجسيم . ولذلك سمى أتباعه بالموحدين تعريضاً بخصومه من رجال الدولة والفقهاء وعامة أهل المغرب الذين كانوا كلهم على مذهب السلف في العقيدة . وكان من رأيه القول بعصمة الإمام ، على رأي الإمامية من الشيعة . وألف في ذلك كتابه الذي افتتحه بقوله (أعز ما يطلبه) فصار هذا الافتتاحُ علماً على ذلك الكتاب ، ولم تحفظ عنه فلتة في البديعة سوى هذه على ما يقول ابن خلدون . ويظهر لنا انه مزج بين المهدوية والإمامية^(١) ، ولذلك كان أتباعه يعتقدون فيه الامرين معاً . وقد لبث الخطباء مدى طويلاً في ايام الموحدين يذكرونه بوصف الامام المعصوم المهدي المعلوم من فوق منابر المغرب كافة . وعلى كل حال فانه عكف على التعليم وتربية من استجاب له من قومه في جبال سوس ، فكنت تراه طوال يومه يعقد المجالس الخاصة والعامة يلقي فيها الى الناس مذاهبه وآراءه ، متخذاً في ذلك الأساليب الموصلة الى المقصود بسرعة ؛ فتارة يملئ بالبربرية وتارة بالعربية ، وكذلك فعل في تأليف الكتب مثل المرشدة ، وهي عقيدة خالية من البدعة ، مما يدل على انه لم يكن يعلن بآرائه السياسية للعموم أو أن تأليفه لها سابق عن إعلانه بمذهبه هذا الجامع بين المهدوية والإمامية . ومهما يكن من أمر ، فان هذا التطور السياسي إنما طرأ على دعوته بعد خروجه من مراكش ولجؤه الى سوس . يدلنا على ذلك إجماع المؤرخين على عدم ذكرهم لشيء من آرائه السياسية فيما كان يصدر عنه من أقوال قبل ذلك ، وفي مناظراته للعلماء بمراكش بين يدي علي بن يوسف على الخصوص . وكما تنتشر النار في الهشيم كانت هذه الآراء مع مذهبه في التوحيد تنتشر في القبائل ، وفي كل يوم يرتفع صيته ويؤمّه الناس من كل جهة ، فيعرف كيف يستميلهم إليه ويدخلهم في

دعوته ، حتى أصبح سلطاناً مطاعاً في جميع القبائل ، والمغرب إذ ذاك وفي كل وقت هو القبائل . وقد تأوّل الجميع عليه ما كان يحدثهم به عن المهدي والامام المعصوم ، فصاروا لا يدعونه إلا بأحد اللقبين .

وكانت هذه الأخبار تصل إلى مراکش فتثير حفيظة الدولة عليه . وكلما اشتدت صولته كلما أوجست الحيفة منه ، فتعضّ أصابع الندم على إفلاته من يدها . وصممت العزم على مناوشته بالقتال ومبادئه بالمحاربة ، فأرسلت إليه أوّل طليعة في سنة ٥١٥ وهو بجبل تينمّثل من بلاد سوس فهزمها .

ولا حاجة بنا إلى القول إن المهدي ثابر في محاربة القوم ومناجزتهم القتال . وكانت الحرب بينهم سجّالاً . غير أنه لم يفرح بالانتصار على خصومه في موقف مشهود . ومع ذلك فإنه كان قويّ العزم صحيح العقيد في جهادهم واثقاً بالنصر عليهم وغلبتهم والإدالة منهم ، كما وعد بذلك أصحابه وهو يجود بنفسه . وكان حرّياً أن يشهد الدولة المرابطية تحرّجاً من فوق عرشها العالي ويتمهّد بنيانها الشامخ ، لولا أن المنية عاجلته فتوفّي وهو في زهرة العمر ٥٢٤ وخلفه رفيقه عبد المؤمن بن علي الكوميّ الفقي الجلد الصبور ، الذي كان لقي المهدي في ملاّة قرية ببجاية ، وهو في طريقه إلى المشرق بقصد طلب العلم . فعدّل عن رحلته وصحب المهدي مكثفياً بالدراسة عليه ، وهذا أحلته منه محلاً خاصاً وأشركه في أمره وكاشفه بخبيثة نفسه ، وكان هو وارثه وخليفته من بعده بعهد منه ؛ فواصل عمله في محاربة المرابطين بدون انقطاع ، وجمع همة الموحدين على هذه الغاية ، فلم يضع السيف من يده حتى دخلت دولة المرابطين في خبر كان .

وكانت هذه الدولة قد شاخت قبل الأوان وتمكّن منها الضعف أيّما تمكّن ؛ فانهار كل ما بناه لها ذلك العاهل العظيم يوسف بن تاشفين من آثار المجد الرفيع ، وأركان العز المنيع . وذلك أن ولده علياً برغم صلاحه كان ضعيفاً مستضعفاً ؛ فغلب على أمره واستقلّ الولاة بالأقاليم وعاد العتو والفساد في القبائل كما كان ، وبرزت المرأة إلى ميدان السياسة فلعبت دورها الذي طالما زلزل العروش وقلب الممالك . وهذا كاف في صرف النظر عن هذه الدولة وتوجيهه إلى من يحيط وحدة الأمة بسياج الحكمة والتدبير ويحقق أملها في مواصلة النهوض والتقدم . لذلك فإن العقلاء

من أهل المغرب وعامة أهل الأندلس ساعدوا حركة العصيان وناصروها في السر والاعلان . والقبائل قد شاهدنا ما كان من رياضة المهدي لهم وتخريجهم في مدرسته ؛ فلم يكونوا محتاجين الى تجديد عهد ولا تثبيت طاعة ، فسُرعان ما دانت البلاد لعبد المؤمن الذي قوَّض دعائم الدولة المرابطية ودوَّخ المغرب من أدناه الى أقصاه . وسُرعان ما استقرَّت الأحوال واستتبَّ الأمن وعادت الأمور الى نصابها ؛ فقامت دولة الموحدين بمراكش شاحخة البُنيان رفيعة الأركان . وتمَّ الانقلاب الموحيدي العظيم في مدة لم تكن تكفي في بادئ النظر لتجهيزه فأحرى تنفيذه . والله في خلقه شؤون .

توحيد المغرب العربي

لَسَيْنَ كان المهدي بن تومرت هو صاحب دعوة الموحدين والقائمُ على دولة المرابطين والمهتدُ للانقلاب والواضعُ لخطط الثورة التي اتَّسَّبت بالحرف ، فان عبد المؤمن هو رجلُ الدولة الذي اضطلع بتنفيذ جميع برامج الثورة والاستيلاء على مملكة المرابطين وتحقيق وحدة الشمال الافريقي ، مع الحرص على تطبيق مبادئ الدعوة الموحدية في الحقلين الديني والاجتماعي بأمانة واخلاص . ولقد صدق المهدي حين قيل له إن الموحدين قد هلكوا ، وذلك في وقعة البحيرة التي جرت بينه وبين المرابطين واستأصلتُ معظم أصحابه ، فقال : ما فعل عبد المؤمن ؟ قيل : هو على جواده قد احسن البلاء . قال ما بقي عبد المؤمن فلم يهلك أحد ...

نعم لقد كان عبد المؤمن بالنسبة لدعوة الموحدين كيوسف بن تاشفين بالنسبة لدعوة المرابطين ، هو الذي ابلغها كلها وقرطس أهدافها ونهض بأعبائها المادية والمعنوية نهوضاً تاماً ، فلم يُخلف ظنَّ إمامه حين اختاره لصحبته ومعاونته على مهمته منذ لقيه أول امره ، ولا حين قال فيه هذه الكلمة ورشَّحه لخلافته من بعده . وهكذا لما بوسع له من طرف الموحدين خرج مُغيِراً على بلاد تادلة ودرعة وغمارة فاستولى عليها وتسابق الناس الى الدخول في دعوته أفواجا ، وانتقضت القبائل على المرابطين ؛ مما يدل على أن التعفُّن السياسي كان بالغاً فيها مداه . ثم صرَّف عزمه لفتح بلاد المغرب

فخرج من تينمل سنة ٥٣٤ في غارةٍ طويلةٍ دامت سبعَ سنين ، فلم يرجع منها حتى فتح
المغربين الاقصى والاوسط . وهلك عليُّ بنُ يوسف وابنه تاشفين الذي ولّتي بعده في
تلك الاثناء وألقت إليه فاس وتلمسان ومراكش بالمقاليد أواخر سنة ٥٤١ فخلصت
له مملكةُ المرابطين في المغرب بأجمعها .

ثم بدأ يهتمُّ بأمر الأندلس ، فما عَثم أن قدم عليه وفدُها وهو بمراكش للبيعة سنة
٥٤٢ وأرسل إليها جيشاً بقصد تهديدها ومدافعة العدو الذي اغتتم فرصة الانقلاب
الموحدي فأغار على أطراف البلاد .

وطمح الى الاستيلاء على بقية الشمال الافريقي . وكانت دولة بني زيري الصنهاجيين
المعروفين ببني حمّاد ، تسيطرُ على القسم الشرقي منه بما فيه من ولايات جزائرية
وتونسية ، إلا أنها قد ضعف أمرُها وتطاول عليها الثوار من عرب هلال . وعدا
النورمانيتون وهم إفرنج صقلية على السواحل فأخذوا صفاقس وسوسة والمهدية ،
ولقي السكان منهم هولاً عظيماً ، فتوجّه عبد المؤمن الى هذه الناحية سنة ٥٤٦ ومهد
أمرها باستيلائه على بجاية وقلعة حمّاد وقسنطينة . ورجع الى المغرب ، ثم عاد إليها
سنة ٥٥٤ بجيش جرّار ؛ فدخل تونس وضرب الحصار على المهدية ، وهي من أمتع
ما يكون ، يحيط بها البحر من ثلاث جهات ، فتركها محاصرةً برّاً وبحراً . ومضى
يفتح طرابلس وصفاقس وسوسة ، وجبال نفوسة وسائر بلاد افريقية الى برقة . ثم
سقطت المهدية في يده أواخر السنة بعد هزيمة الأسطول الذي أتى لنجدها .

ورجع عبد المؤمن الى المغرب وقد ضبط أمر هذه البلاد وأصلح شأنها ولم يسترح
إلا قليلاً . ثم عبر البحر الى الأندلس سنة ٥٥٦ ونزل بجبل طارق وكان قد أمر ببنايته
وتحصينه ، وكان يسميه جبل الفتح ؛ فأقام به شهرين وأشرف منه على أحوال
الأندلس ، ووفد عليه قوادها وأشاخها ؛ فأمر بغزو غرب الأندلس فغزى وكانت
الظفرُ فيه للمسلمين . ثم عاد الى المغرب وأخذ في الاستعداد للجهاد ؛ فأمر بإنشاء
الأساطيل ونظر في استجلاب الخيل والاستكثار من أنواع السلاح والعدد . وحين
كان على أتم أهبة وافاه الأجل المحتوم في جمادى الثانية سنة ٥٥٨ برباط سلا . وكان
أعظم أعماله بعد إرساء قواعد الدولة الجديدة هو توحيد أقطار الشمال الافريقي ، أو
ما يسمى اليوم بالمغرب العربي وتكوينه منه دولةً قوية زرعت الرعب في قلوب الأعداء ؛

فحقق بذلك أعظم أمل لا يزال يُخالج نفوس الساسة والمهتمين بمستقبل هذه البلاد ، خصوصاً في العصر الحاضر ، الذي أصبح شعاره قول الشاعر « وإنا العزة للكائر » .

ولما تولى ولده يوسف سار على أثره في الحزم والتدبير وحياطة مملكته الشاسعة الأطراف ، وكان له بالاندلس اهتمام خاص . جاز إليها جوازه الأول سنة ٥٦٧ فاستولى على شريقيتها ، وكان لم يدخل قبل في طاعتهم وحقق أمل والده في غزو أرض العدو فكانت له فيها وقائع منصوره . وأقام بالاندلس يغزو ويعمر البلاد ويشيد الآثار مدة خمس سنين ، ثم رجع إلى المغرب وخرج إلى إفريقية سنة ٥٧٥ فتعهد نواحيها بالإصلاح والتنظيم ، وعاد إلى مراکش بعد أن قضى سنتين في رحلته هذه . ثم جاز إلى الأندلس جوازه الثاني سنة ٥٧٩ حيث أصيب في ساحة الشرف على أبواب مدينة شنترين وتوفي في ربيع الثاني سنة ٥٨٠ وبويع هناك لولده يعقوب المنصور الذي بلغت الدولة في أيامه إلى منتهى القوة والعظمة . وكان عهده العهد الذهبي للمغرب سواء من ناحية استبحار العمران وازدهار الحضارة أو من ناحية استقرار النظام وانتشار العدالة ؛ فكانت المرأة تخرج من بلاد نول فتنتهى إلى برقة وحدها ، لا ترى من يعرض لها ولا من يمسها بسوء . وكان الدينار يقع من الرجل في الشارع العمومي فيبقى ملقى لا يرفعه أحد عدة أيام إلى أن يأخذه صاحبه . ويمكث القاضي الشهر وأكثر لا يجد من يحكم عليه لتناصف الناس وارتفاع مستواهم الخلقي . وكان المنصور ينظر بنفسه في المظالم ، حتى إنه لينظر في قضية الدرهم والدرهمين وينصف من نفسه ويمثّل لحكم القضاة . وبقدر ما كان له من جولات مظفرة في تثبيت السلطة بأقطار إفريقية ، كان لا يغفل عن القطر الأندلسي والسهر على حركة الجهاد فيه ، حتى يفلّ من غرب العدو المستأسد على أهله . أما في إفريقية فإن أهم عمل قام به لضمان استتباب الأمن هناك هو تدبيره لأمر العرب من بني هلال الذين طالما أقلقوا راحة السكان منذ أن سرّحهم الفاطميون للتشويش على ملوك بني زيري ، فلم يرَ أصلح لهم من نقلهم إلى المغرب حيث أعمارهم ناحيتي الحوز والغرب ، فانقطعوا عن الصحراء التي كانوا يعتصمون بها من السلطة بعد ما يعيشون في الأرض فساداً . وبذلك انحسرت مادّتهم وأفادوا في تعريب الناحيتين المذكورتين وما اتصل بهما من مواطن البربر .

وأما في الأندلس فإنه منذ ولي لم يفتر عن مواصلة الجهاد بنفسه وبواسطة كبار

قواد جيشه ، إلا أن المعركة الكبرى التي خاضها ضد الفونس الثامن ملك قشتالة^١ كانت أجل أعماله الجهادية . وتسمى غزوة الأرك باسم الحصن الذي دارت حوله . وكانت يوم الخميس ٩ شعبان سنة ٥٩١ وشارك فيها جيش الأندلس والعرب والموحدين وسائر قبائل المغرب فضلا عن المتطوعة والعبيد ؛ فهزم العدو هزيمة شنعاء وقتل من رجاله عدد كبير . وأما الأسرى والغنائم فشيء يفوت العد والاحصاء . وكانت هذه الواقعة أخت الزلافة في خضد شوكة النصاري والتمكين للإسلام في أرض الأندلس إلى أمد بعيد .

وقد اشتهر ان السلطان صلاح الدين الأيوبي استنجد ببيعقوب المنصور في حربه مع الصليبيين على بيت المقدس ، ورجاه أن يبعث بأساطيله ليحول بينه وبين أساطيلهم المتدفقة على بلاد الشام فلم يجبه ، وأن ذلك فيما يروي المؤرخون لكون صلاح الدين لم يخاطبه في رسالته بأمر المؤمنين . وهذا تعليل بارد لا نراه يتفق مع أخلاق المنصور وعلو همته وبعده نظره ، وإنما الحقيقة أن صلاح الدين كان سرّح موله قراقوش لبلاد المغرب سنة ٥٦٨ ففتح طرابلس وما والاها من البلدان ووضع يده في يد العرب وابن غانية^٢ وشغّب كثيراً على المنصور مما سبب له متاعب جمّة في بلاد افريقية ، لولاها لكان له في بلاد الأندلس فتوحات عظيمة لا تُقدّر بقيمة . فهذا هو السبب الحقيقي في إغراض المنصور عن نجدة صلاح الدين الذي ضربه من الخلف وأراد ان يغرّر به لاتمام الضربة والا فاعمال المنصور في الجهاد واعلاء كلمة الاسلام لا تقل عن أعمال صلاح الدين .

ويقال إنه بعد ان صرف رسوله جهّز من أساطيله لهذا الغرض ١٨٠ قطعة ومنع

١ - A. G. Palencia : His. de La Espana musulmana. p. 108. —

وقد اضطربت كلمة المؤرخين العرب فبعضهم يجعله الفونس الثالث وبعضهم يجعله التاسع وكلاهما لا يصح .

٢ - بنو غانية هم بقية من المرابطين كانوا يَلون جزائر شرق الأندلس المعروفة اليوم بالبليار . وكثيراً ما شوشوا على الموحدين بهجومهم على مدن الساحل الافريقي المواجه للجزائر المذكورة . وكان أولهم محمد بن علي بن يحيى المَسوفي ، عُرف بغانية أمّه ، وآخرهم يحيى بن إسحق بن محمد المذكور والقائم منهم على المنصور هو علي أخو يحيى .

النصارى من سواحل الشام . ويؤيد هذا ما كان له من الصيت عند أهل الشام ، حتى إنهم أقاموا له مشهداً بالقرب من دمشق على ما عند ابن خلكان .

وتوفي المنصور سنة ٥٩٥ وخلفه ولده محمد الناصر وكان كأبيه همةً ونجدةً وشجاعة . وفي أوائل أيامه واجه ثورة ابن غانية بافريقية فقتل عليها وقتل ابن غانية وأراح البلاد من فتنته وعيته . وبعث بأسطول من مرسى الجزائر إلى جزائر شرق الأندلس المعروفة بالبليّار ؛ فاقتحمها وكانت هي معقل بني غانية ، استقلّوا بها منذ اضمحلال دولة المرابطين . وباستيلاء الناصر عليها انهار آخر حصن للمرابطين كانوا يُروّعون به أمن السكان في شرق الأندلس وافريقية ويهددون منه سلامة الدولة الموحّدية . ومع أن هذا العمل الذي افتتح به الناصر مدّة حكمه يدل على توفيقه وحسن سياسته ، فإن الحظّ خانة في الواقعة التي جرت بينه وبين القوات المتحدة للممالك النصرانية بالأندلس في صفر سنة ٦٠٩ وتسمى بالعقاب^١ وكانت من الوقائع الفاصلة التي عجّلت بسقوط الأندلس وأدالت بها للنصرانية من دولة الاسلام ، ثم كانت هي مبدأ سقوط الدولة الموحّدية وإن دامت بعدها أكثر من نصف قرن .

ان هذا الاستعراض السريع لما بذله رجال الدولة الموحّدية من جهود جبارة في سبيل إقرار الوحدة المغربية والدفاع عن تراث الاسلام في اسبانيا لمّا ينبىء عن عقيدة راسخة وإيمان قوي بالمهمة السامية التي كان على المسؤولين في الدولة الجديدة ان يضطلعوا بها . فما كانت دعوة المهدي إلا دعوة توحيد وتجديد للمفاهيم الإسلامية التي تبعث روح القوة والعزم في نفوس المسلمين فينهضون للعمل يجد لحماية بيضتهم وحفظ كياناتهم المادي والمعنوي . وتحت تأثير هذه الدعوة اندفع الموحّدون لمقاومة القوات المسيحية الحليفة من ممالك قشتالة وليون ونبارة وأراغون التي تدفقت على بلاد الأندلس معززة بعطف البابا وبالفرسان الصليبيين الذين جاءوا من مختلف بلاد أوروبا يريدون سحق المسلمين . كذلك كانت مملكة النورمان الناشئة في صقلية أوائل القرن السادس الهجري قد اقتحمت مدُن الشاطئ الأفريقي

واستولت على ثغر المهديّة أعظم حصن في هذا الشاطئ . فلولا قيام الدولة الموحدية التي استطاعت ان توحد الصفوف وتجمع الكلمة وتكوّن من أقطار افريقية الشمالية هذه القوة العتيدة التي حاربت في آن واحد في كلتا الجبهتين الاندلسية والافريقية لعصفت القوات النصرانية ببعض تلك البلاد أو بها جميعاً في ذلك الحين .

وقد ظهر من سياق الاحداث التي قارنت قيام هذه الدولة أن ملوك الموحدين قطعوا تلك الصلة التي تقرّ بتبعية المملكة المغربية لدولة الخلافة العباسية كما كانت عليه الأمر في دولة المرابطين . ومن ثمّ فإنهم لم يحجموا عن اتخاذ لقب أمير المؤمنين وانتحال وصف الخليفة نفسه ، ولعل ما شجّعهم على ذلك هو حكمهم للاندلس وافريقية الشمالية جميعاً ، وكان بنو أميّة بمجرد توطد ملكهم في الأندلس قد ادّعوا الخلافة وتلقّبوا بأمير المؤمنين ، فضلاً عن ضعف أمر الخلافة العباسية في هذا العهد ، ولا سيما وقد مات العاضد لدين الله آخر خلفاء الفاطميين الذين كان قيامهم من المغرب ، فأقام صلاح الدين الأيوبي منافس يعقوب المنصور دعوة بني العباس في مصر ، وقبله في سنة ٥٤٩ هـ أي عند استتباب الأمر لعبد المؤمن ، كان الخليفة العباسي المقتفي لأمر الله كتب عهداً لنور الدين محمود ابن زنكي مخدوم صلاح الدين وولاه مصر وأمره بالمسير اليها . وكان قد تملك دمشق في ذلك العام ، فلم يمنعه من قصد مصر إلاّ شغله بحرب الفرنج . والمقصود أن هذه العوامل مجتمعة كانت تشجع ملوك الموحدين على الاتصاف بالخلفاء وأمراء المؤمنين مع ما عليهم من انتسابهم في قبس عيّلان بن مضر ، ويكون دعوتهم كما أرادها المهدي أول مرة تستهدف إصلاح أحوال المسلمين عامة ، بدليل قيامه بالنكير للأوضاع الفاسدة في مصر بل حتى في مكة على ما يروى في ترجمته ، فما بالهم لا يرون أنفسهم أحقّ بها واهلها ؟ ..

واذا كان هذا من أهم الفوارق بين دولة الموحدين ودولة المرابطين التي لم تنقذ في حبل الادعاء قط ، فإن السيطرة التامة على كامل التراب المغربي من بلاد نول الى أرض برقة هو مما تميّزت به الدولة الموحدية في الميدان الحربي وجعلها في الوقت نفسه

دولة بحرية قوية ذات اسطول عظيم يضمن لها السيادة المطلقة على غرب البحر الابيض المتوسط ومضيق جبل طارق ، بحيث لم تكثف بحماية الشاطئ الافريقي بل منعت تدفّق القوات الصليبية القادمة من الغرب على سواحل الشام ، هذا الى ما جنته البلاد من ثمار الدعوة الموحدية ، اذ كانت دعوة إصلاحية تقدّمية ، في الميدان الثقافي والديني مما نتناوله بالبحث في الفصول الآتية .

الدولة والثقافة العربية

ما هزّ عطفه بين البيض والأسل مثل الخليفة عبد المؤمن بن علي بهذا المطلع المطرب وحده ، وهذا البيت البليغ المفرد ، مدح محمد بن أبي العباس السّمّعيّ عبد المؤمن بن علي الذي استعاده منه واستعاده ، وأمره بان يقتصر عليه ، وأجازه فيما يقول العباد الإصبهانيّ في كتاب الحرّيدة بالف دينار قائلاً له : لقد قلت في هذا كل شيء .

نعم ، لقد قال فيه كل شيء . أليس قد مدحه بالشجاعة والتفوق فيها ، حتى نفى عن غيره أن يكون هازّاً عطفه مثله ، في الوغى المرتفعة بين السيوف اللامعة ؟ وانظر أنت الى رشاقة هذا التعبير وما فيه من الحسن والجمال ، أليس يدعو الى الاعجاب بحسن خلق عبد المؤمن قبل الاعجاب بحسن خلقه وبرشاقة قدّه واعتدال مشيته قبل شجاعة قلبه وثبات جأشه ؟ وفوق هذا وذاك أليس قد دعاه بالخليفة ؟ وهذه هي الأمنية الحلوة التي طالما تمنّاها ملوك الاسلام وحلموا بها في منامهم ، حتى المضروب على أيديهم منهم ، فيعدّون الشرف الصميم والفخر العظيم والغاية التي لا قبلها ولا بعدها أن يُنعتوا بالخليفة ، فيكونوا ظلّ الله في أرضه ووارثي سرّ النبوة وواضعي أيديهم على رقاب ملايين البشر . لذلك فعبد المؤمن الناقد البصير يحقّ له ان يُشير على السمعاني بالاختصار من القصيدة على مطلعها هذا لأنه كما قال قد جمع كل شيء يمكن ان يقوله شاعر في ملك ذي صولة وبأس مثل عبد المؤمن . وهو من جهة

أخرى خشي أن يدرس البيتُ وَيُضِيعَ في تضاعيف القصيدة فأبقاؤه على حاله من الفردية أدعى الى حفظه وسيره وتخليده في الناس .

وبعد ، فهذا مثال واحد من امثلة تنشيط عبد المؤمن للادب والاخذ بضبعه واكرام أهله وإحلالهم منه المحل اللائق بهم ، وإدراج الصلات الطائفة عليهم ؛ ففي كل رحلة ، وفي كل احتفال عيدٍ وغيره ، وفي جميع المظاهر العادية وخلافها والمقابلات الرسمية والمواقف العامة ، كان يجلس الى الشعراء ، وما أكثرهم في دولته ؛ فمن اندلسيين الى مغاربة الى أفارقة ومنهم الى مصري وشامي وعراقي وغيرهم ، يحاورهم ويساجلهم فينترون عليه من عقود مدائحهم كل نفيس غال ، فيحسن الاستماع اليهم ويسرُّ من ثنائهم عليه وينتقد هذا ويقرُّظ ذاك ، وفي الاخير يحيز الكل ويفيض عليهم من سيب عطائه وبحر نواله .

وهنا يحسن أن أورد للقارىء ما ذكره صاحب المعجب في وصف احتفاله ببيعة أهل الأندلس له على ظهر «جبل الفتح» كما كان يسمى هو جبل طارق ملخصاً قال : « ونزل الجبل المعروف بجبل طارق وسماه هو جبل الفتح فأقام به أشهراً وابتنى قصوراً عظيمة ، والمدينة الباقية الى اليوم ووفد عليه وجوه أهل الأندلس للبيعة كأهل مالقة وقرطبة وورنطة وقرطبة واشبيلية وماوا الى هذه البلاد ، وكان يومٌ عظيم اجتمع فيه من وجوه البلاد ورؤسائها وأعيانها وملوكها من العدو والأندلس ما لم يجتمع للملك قبله ، واستدعى الشعراء وكان على بابهِ طائفة أكثرهم مجيدون ، فكان أول من أنشده ابو عبدالله محمد بن حبوس من أهل فاس قصيدة اجاد فيها ما أراد :

بلغَ الزمانُ يَهْدِيكُمْ مَا أَمَّلَا وتعلَّمت أيامُه ان تَعْدِلَا
وبِحَسْبِهِ أَنْ كَانَ شَيْئاً قَابِلَا وَجَدَ الْهَدَايَةَ صُورَةً فَتَشْكِلَا

وانشده ابنُ الشريف المعروف بالطليق المرواني :

مَا لِلْعِدَا جُنَّةٌ أَوْ قِي مِنَ الْهَرَبِ ؟

فقال عبدُ المؤمن الى أين ؟ الى أين ؟ رافعاً بها صوته فقال الشاعر :

أَيْنَ الْمَفْرُوحِ وَخَيْلُ اللَّهِ فِي الطَّلَبِ ؟!

وَأَيْنَ يَذْهَبُ مَنْ فِي رَأْسِ شَاهِقَةٍ وَقَدْ رَمَتْهُ سَمَاءُ اللَّهِ بِالشُّبِّ
حَدَّثَ عَنِ الرُّومِ فِي أَقْطَارِ أَنْدَلُسٍ وَالْبَحْرِ قَدْ مَلَأَ الْعِبْرَيْنِ بِالْعَرَبِ

فلما أتم القصيدة قال عبد المؤمن بثمل هذا تمدح الخلفاء ! وأنشد ابنُ سيّد
الاشبيلي الملقب باللص :

غَمَضْتُ عَنِ الشَّمْسِ وَاسْتَقْصِرْتُ مَدَى زُحَلٍ

وَانْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ الرَّأْسِيِّ عَلَى جَبَلٍ

أَنْنِي اسْتَقَرَّ بِهِ ؟ أَنْنِي اسْتَقَلَّ بِهِ ؟

أَنْنِي رَأَى شَخْصَهُ الْعَالِي فَلَمْ يَزُلْ

فقال له عبد المؤمن لقد أثقلتنا يا رجل ! فأمر به فأجلس . وأنشد محمد بنُ غالب
البلنسي المعروف بالرُّصافي :

لَوْ جِئْتَ نَارَ الْهُدَى مِنْ جَانِبِ الطُّورِ قَبَسْتَ مَا شِئْتَ مِنْ عِلْمٍ وَمِنْ نَوْرِ

الخ » هذا وغيره يفيدك بالخبر اليقين عن عناية الموحدين بالأدب ويبدلك على
نشاط الحركة الأدبية ونفاق سوقها في هذا العصر الزاهر ، حتى عمّت البدو والحضر
والعرب والبربر ؛ فأخصبت الأفكار وتفتحت العقول واتت الآداب والفنون أكلها
الشهي وثمرها الجني . أما الفضل في ذلك كله فانه يرجع الى عبد المؤمن وحده الذي عرف
من أين تؤكل الكتف ، فاستغل جميع عناصر الحياة التي كانت متوفرة في عهد الملوك
المرابطين قبله ولم يترك من وسائل التشجيع وأسباب التنشيط شيئاً الاّ فعله ،
واستحدث في ذلك أساليب خاصة به ، وكيفيات لم يتبع فيها أحداً . ولعلّ

ذلك راجع لما تلقَّفه عن استاذِه ومربيهِ المهدي بن تومرت من أنواع المعارف وفنون الآداب ، ولما تطور فيه من الأطوار ، ولعبه من الأدوار ، وما جرَّبه بنفسه من تصاريِف الدهر وتقلبات الزمان ، فليس يُنكر انه استفاد من ذلك كله وأنه في مدرسة الحياة هذه ، درس علوم الاجتماع والنفس باجمعها . غير أننا إن اعتبرناه هو منشئ الحركة وموجدُها وصاحب الفضل الكبير فيها ؛ فلا ننسى ما بذله خلفاؤه الصالحون ، كيوسف ابنه ويعقوب المنصور ومحمد الناصر وغيرهم من أعقابِه وأحفاده ، والأمراء الموحدين الآخرين الذين كانوا مقيمين بالأندلس وإفريقية ؛ فإن هؤلاء أيضاً فضلاً كبيراً في قيام الحركة الأدبية واستمرار تقدُّمها إلى الأمام . إنما نحن في سائر تلك البلاد لا يهمنا إلا المغرب . إذ هو موضوع كتابنا هذا وقد وقفناك على مبدأ الأمر فيه فلنوقفك على منتهاه .

كان عبد المؤمن رجلاً ثَقُفًا حاذقًا متحققًا بكثير من فنون العلم والأدب ، قد تلقَّف عن المهدي بن تومرت ما أتى به من المشرق ، وزادته الأيام حنكةً وتدريباً على الأمور ، فجعلت منه ذلك العبقرى الفذ ، الذي يندُر أن يجود الزمانُ بمثله إلا في الفئنة النادرة . ولقد استخدم مواهبه كلها في تثبيت مركز الدولة وتقرير مستقبلها الحفيل بالعظام ، حتى شاد لها ذلك العز المكين والفخر المبين ، الذي بقي ذكره مخلداً في بطون التواريخ . وكان هماماً بكل معاني الكلمة لا يستعظم مطلباً ولا يستبعد غايةً ، ملوكياً ، كما يقول المراكشي ؛ كأنه ورث الملك عن آبائه واجداده ، فلم يقصُر نظره على أمر خاص من أمور سياسة الدولة ، ولم يوجه عنايته إلى ناحية واحدة من النواحي العديدة التي يتطلبها إصلاح المجتمع ، بل كان يُقبل بكلتيه على كل أمر جليلٍ أو حقير ، صغيرٍ أو كبير فيرتقُ الفتوق ، ويرأب الصدوع ، ويتقن عملية المزج والتلقيح بين العناصر المختلفة ، والأجناس المتباينة ، ولقد خصَّ الأندلس قبل المغرب برعايته وحمايته ، وعرفَ ما لأهلها من فضل ويدٍ في تقدُّم المعارف العامة ، واستخلص منهم صَفوة الصَّفوة ، واختصَّ بعلمائهم ، وقرَّبهم من مجلسه ، وجعلهم بطانته وأهل مشورته ، فأفاد ذلك المغرب والمغاربة كثيراً .

ولا نريدُ أن نطيل بالكلام على ما عمِله أعقاب عبد المؤمن في هذا الصدد ، فما جئنا بنموذج مما عمله هو ، إلا ليكون نموذجاً عاماً عن جميع أعمال أعقابِه ، خصوصاً وقد تتسَّعوا خطاه ، وترسَّموا آثاره في ذلك ، ومن لم يزد منهم على ما عمله هو في البِرِّ

بالعلماء والعلم ، لم يُقَصِّر عنه أصلاً ، غير ان تأثير هذه السياسة التعليمية لم يبلغ من القوة في زمنه ، بحيث تظهر نتائجه لكل انسان ، ما بلغ في زمن يوسف ابنه ، ويعقوب حفيده ، ومن بعدهما ، اذ قد ازهر غرس عبد المؤمن وأثر ، بتعهد ابنائه له بالسقي والري ، فتفتحت الأفكار ، وتنورت العقول ، واتسعت المدارك ، وبلغ الشعب المغربي إلى درجة عالية من الثقافة العلمية ، حتى لقد استجلى المنصور ذلك ، واصبح مضطراً الى عدم الاستمرار في مغالطة الشعب الناهض ببعض التعاليم والشعائر ، التي أتت بها دولتهم ، وكانت الغاية منها سياسة محضة كالمهدوية وعصمة الامام ؛ فتقدم بالغائها الى الشعب الذي قابلها بمزيد الحماس ، لما كان باقياً على سذاجته ، ونبذها نبذ النواة ، لما حصص الحق وتبين الصبح لذي عينين . على أن الغريب في أمر هذه الدولة التي رأينا ما بذلته من جهود في خدمة الثقافة الاسلامية العربية ، ونقل الشعب المغربي من حضيض الجهل والجمود الى أوج المدنية والعرفان ، هو اعتناؤها الزائد باللغة البربرية ، وعدم نسيانها لها ، حتى بعد استقامة أمرها ونجاح مطلبها ، فلقد بلغ من محافظتها عليها ، وتكريمها لأهلها ان حظرت الوظائف الدينية على من لا يحسن التعبير بها ، بل عزلت الخطباء ، وخطيب القرويين نفسه من الذين ليسوا ببربر أو ليسوا ممن يتكلمون البربرية ، ثم ولت مكانهم من يضطلع بالمهمة المزدوجة ، وينطق اللغتين معاً .

والحق أن هذا تصرف غريب ، وفي منتهى الغرابة ، يجعلنا نقف امامه حائرين مشدوهين ، لا نعرف سبيلا الى التوفيق بينه وبين ما قدمناه من سهر الدولة على تعميم نشر العلم والثقافة العربية .

أما المؤرخون ، فلم يذكروا لنا السبب الحامل على هذه السياسة الرجعية التي

١ - أشار صاحب القرطاس الى هذا الإجراء في موضعين من كتابه ، أثناء كلامه على بناء القرويين حيث قال : « فلما دخل الموحدون المدينة يعني فاسا ، بدلت أحوال بأحوال ، ورجال برجال ، وبدل الخطباء والائمة بجميع البلاد ، فكان لا يؤم الا من يحفظ التوحيد بلسان البربر » . واثناء الكلام على خطباء القرويين حيث ذكر انهم لما دخلوا فاسا عزلوا خطيب القرويين أبا محمد مهدي ابن عيسى ، وقدموا مكانه الفقيه أبا الحن بن عطية « لأجل حفظه اللسان البربري لأنهم كانوا لا يقدمون للخطابة والامامة الا من يحفظ التوحيد باللسان البربري » ولم يشر الى هذا الأمر في اثناء كلامه على الدولة الموحدية .

سلكتها الدولة بإزاء رجال الدين العرب ولا كيف كان تأثيرها في نفوس هؤلاء ، وفي نفوس الجماهير الشعبية ، وخاصة في كبريات المدن كفاس ومراكش وسبتة وطنجة ، وإلى أي مدى بلغ انتشارها وكان نجاحها ؟

وأما نحن فنستطيع أن نقول في قليل من التردد والحذر ، إنه ربما كانت هذه السياسة من تقليد الموحدين الأعمى لابن تومرت ، واقتدائهم به في إلقائه دروسه بالعربية والبربرية ، وكتابتة تأليفه باللغتين ؛ فإن يكن ذلك كما قلنا ، فإنه من الأغلاط الفادحة ، والاختاء الفاحشة . وعجيبٌ صدوره من عبد المؤمن العارف بمقتضيات الأحوال ، ومناسبات الأمور إذ أن الظروف الزمانية والمكانية التي اضطرت المهيدي إلى ذلك ، هي غير الظروف التي قامت فيها دولة عبد المؤمن وتمركزت .

فابن تومرت كان مفتقراً إلى حماية البربر له ، ومضطراً إلى مصانعتهم لمساعدته في القيام بنشر دعوته ، وهو مع ذلك قد بثّ العربية في تلك الأوساط البربرية البحت ، وارتكب أعجب الأساليب في تلقينها لمن يجهلونّها .

ولم يستعمل البربرية إلا بقدر الحاجة إليها . أما عبد المؤمن فقد كان على الضد من ذلك كله ، إذ كان طورُ التأسيس وتأليف البربر قد انتهى بالنسبة إليه ، وأصبح هو وحده صاحب النفوذ المطلق في البلاد ، بعد أن قضى على المرابطين ، وأنشأ الدولة الموحدية باسم الدين . فلم لم يُرسم لغة القرآن ، ويستغني بها عن غيرها ؟ ولم هذا التعصب للبربرية الذي أدّى إلى تنحية رجال الدين عن وظائفهم ، وإحلال آخرين ربما كانوا أقلّ منهم علماً وإخلاصاً في محلهم ؟ لا نرى ما يُسوِّغُ لعبد المؤمن هذا التصرف الغريب ، اللهم إلا أن يكون باعثه عليه أحد أمرين كلاهما يرجح الآخر :

١ - فإما أن يكون مراده تحديّ العرب بذلك ، ليتوسل إلى إبعادهم عن

١ - من ذلك فإيا حكى المؤرخون ، أن طائفة من المصامدة عسر عليهم حفظ الفاتحة لشدة عجزهم فعدّ كلمات أم القرآن ، ولقب بكل كلمة منها رجلاً منهم ، وصفهم صفّاً ، وقال لأولهم : اسمك الحمد لله ، ولثاني رب العالمين وهكذا حتى تمت كلمات الفاتحة ، ثم قال لهم : لا يقبل الله منك صلاة حتى تجمعوا هذه الأسماء على نسقها في كل ركعة ، فسهل عليهم الأمر ، وحفظوا أم القرآن .

مواقف الزعامة الدينية ، ومواطن قيادة الفكر العام خوفاً من انتقادهم عليه في يوم ما ، ونبذهم طاعته بالعراء كما حدث بالفعل في أيامه الأولى ، فقد ثاروا ضده مرتين ، مرة في سلا بقيادة ابن هود ، ومرة في سبتة بقيادة القاضي عياض . ولا نرتاب في أن ثورة ابن هود كانت سياسية محضة ، لاتباعه خطة المهدي حذو القذّة بالقذّة ، أملاً في النجاح الذي حصل للمهدي ، وقد ساعده الحظ في أول الأمر ، وكتب له النصر في جميع المواقع حتى كاد يتغلب على جميع مملكة عبد المؤمن الشاسعة .

ويقول ابن ابي زرع : انه لم يبقَ بيد عبد المؤمن الا مراكش فقط ، الا ان صاحب الحُملل الموشية قال : ان فاساً بقيت معه كذلك . ثم دارت عليه الدائرة ، وتمكن عبد المؤمن من إخماد ثورته ورجع الأمر الى نصابه .

وأما ثورة القاضي عياض ، فقد كانت مزيجاً بين دينية وسياسية ، ولكنها دينية اكثر منها سياسية ، إذ ان أهل سبتة ، قاوموا الموحدين أولاً نزوعاً منهم عن الخضوع لسلطة بدعية تعتقد في الامام ، والعصمة ، ما يُنكره أهل السنة الذين كان عياض من زعمائهم ، فهذه وجهة نظر عياض ومن كان معه من العلماء السنيين أيضاً ولكن لما سقطت كل البلاد المغربية في حوزة الموحدين ، لم يبق لهم الا التسليم طوعاً أو كرهاً ، وهو الذي كان ، ثم لما حدثت ثورة ابن هود ، اغتتم القوم الفرصة ، فأعادوا الكرة استينافاً لتأييد رأيهم الاول ، وتحدياً لسلطة الموحدين التي رأوا منها انحرافاً ظاهراً عنهم ، ولربما اشتموا منها رائحة الغدر بهم ، وقد اضطروا أخيراً الى التسليم ايضاً ، وتشتت شمل القائمين بالثورة ، وتربص ببعضهم حتى توفي حتف أنفه .

٢ - وإما ان يكون أراد استرضاء البربر بذلك ، واستبقاءهم على حالهم الاول ، إذ كان قد تقرر عندهم أنهم اهل التوحيد الحق ، والاسلام الصحيح ، وغيرهم مبتدعة ومقلدون ، لا يصح الاقتداء بهم كما لا يصح ان يقفوا مواقف العظ والارشاد لئلا يضلوا العامة ، وينحرفوا بهم عن مذهب الدولة ، فهو قد اتخذهم تكأة يستند اليها في اقامة سلطانه ببيت المذهب المهدي الإمامي في الناس .

ومعلوم ان ليس من يقرّره للعامة ، ويبينه لهم الا البربر الذين تلقوه عن صاحبه مباشرة إذ كانت أكثرية الرعية وجلّ أهل العلم ، ان لم نقل كلهم في البلاد سنيين ، لا يرضون بالدخول في ذلك المذهب ، فأحرى ان يقوموا بالدعاية له .

هذا أو ذاك هو ما يكون الحامل لعبء المؤمن على سلوك هذه السياسة الرجعية كما حجب الينا أن نسميها ، ولئن كنّا لا نعرف متى توقف العمل بها ، فإننا نعرف أن حظها في النجاح كان قليلاً جداً ، إذ لم يكن لها تأثيرٌ ما في ناحية من نواحي النهضة الأدبية المستجدة في ذلك العهد ، إما لحصرها في دائرة مخصوصة ، وهي الدعاية الدينية كما علمت ؛ وإما لأن الموحدين أنفسهم كانوا لا يساعدون تقدمها في السرّ ، وإن ساعدوها في العلانية ، فلذلك لا خوف على العربية ما دامت دائرة انتشار البربرية محصورة ، لم تشمل من المرافق العامة ، والمصالح المشتركة سوى ما ذكر ؛ زد على ذلك أن الأغلبية التي لا تغالب عربية ، فهي لا تتأثر بهذه الشرذمة البقليلة من الدعاة البربريين ، كما أن أهل الكفاءة والاستعداد الذين احتلوا المناصب الرفيعة والمرتب العالية في الدولة بالرغم عنها ، وبحكم مساس الحاجة الى مؤهلاتهم العلمية ومواهبهم العقلية ، كلهم عربٌ مغاربة وأندلسيون ، فلا خوف على ما كان أولئك القادة حاميته وذادته . وهكذا لم يلبثوا أن صبغوا الدولة بالصبغة العربية ، وطبعوها بطابعهم الصميم .

الحركة العلمية

بُذِرَت بذور النهضة العلمية الكبرى التي نمت وترعرعت على عهد الموحدين في أيام المرابطين . وكانت الغاية المتوخاة من حركة عبد الله بن ياسين هي نشر الدين والتمكين لتعاليمه السمحة من النفوس ؛ فاستتبع ذلك رفع راية العلم والعرفان ، ضرورة أن الدين الاسلامي والمعرفة متلازمان . ولما قام المهدي بن تومرت بحركته كان يرمي الى غاية أبعد من غاية سلفه وهي تجديد الدين . وهذه مهمة تقتضي من التوسع في العلم أكثر مما يقتضيه نشر الدين ، فلذلك كانت العلوم على اختلافها من عقلية ونقلية ألزم للدعوة الموحدية من أختها المرابطية بطبيعة الحال .

وبكل اعتبار فان الأساس الذي وقع عليه البناء في هذا العهد هو من وضع المرابطين . فقد كانت تلك الحماسة الدينية وما صاحبها من الإقبال على طلب العلم ولو الديني فقط ؛ مما دفع بالناس الى حبّ البحث والاطلاع ، وأدّى الى الاحتكاك بالأندلسيين والنقل عنهم ... وكما أن العرب في العصر الأول أيام حكم الأمويين بقوا على السذاجة البدوية والفطرة الإسلامية ولم يُعنوا عناية كبرى بغير شؤون السياسة والدين ، وكانوا يتهيئون بعامل التطور للدخول في غمار المدنية العباسية ويستعدّون لها بمختلف العدد والوسائل ؛ فكذلك المغاربة في العصر السابق كانوا يتهيئون لهذا العصر ويستعدّون لاقتطاف أزهاره ، واجتلاء أنواره . فما إن اقبلت تباشيره وأناخت ركائبه حتى أخذ كل شيء اتجاهه وجرت الأمور في مجاريها الطبيعية ، حثيثة السير ثابتة الخطى نحو التقدم والكمال .

ولنعتبر ذلك في الحركة العلمية التي تعيننا الآن ، فهذا علم الفقه على مذهب مالك قد واصل تفرّعه وانتشاره كما كان قبل أو أكثر . ونتيجة للتفاعل مع الدعوة الجديدة فقد مال أهله الى الترجيح والتأويل ونبذوا التعصّب لأئمتهم ومشائخهم ، وجعلوا البحث والنظر رائداهم في معرفة الحقائق وتقرير الأحكام ؛ فرجعوا بذلك الى أصوله ومصادره الأولى من الكتاب والسنة وما اليهما ، حيث وجدوا من الدولة العتيدة ميلا

اليها وتعزّيداً لأهلها . لكن من غير ان تحملهم على ذلك حملاً وتُزِمهم به قسراً ، حتى اشتطّ يعقوب المنصور ثالث خلفاء الموحدين وتصلّب في تنفيذ خطّة ابن تومرت ومحاربة علم الفروع قصد الإجهاز عليه . فأحرق كتب المذهب وعوّضها بالصّحاح العشرة والمنتخب الذي اختاره منها . ويقول المراكشي في هذا الصدد : « وفي ايامه انقطع علم الفروع وخافه الفقهاء وأمر باحراق كتب المذهب بعد ان 'يجرّد' ما فيها من حديث الرسول صلى الله عليه وسلم والقرآن ، ففعل ذلك . فأحرق منها جملة في سائر البلاد كمدوّنة سحنون وكتاب ابن يونس ونوادر ابن أبي زيد ومختصره وكتاب التهذيب للبرادعي وواضحة ابن حبيب وما جانس هذه الكتب ونحنا نحوها . لقد شاهدت منها وأنا يومئذ بمدينة فاس يُؤتى منها بالأحمال فتوضع ويُطلق فيها النار . وتقدّم الى الناس في ترك الاشتغال بعلم الرأى والخوض في شيء منه وتوعّد على ذلك بالعقوبة الشديدة ، وأمر جماعة ممن كان عنده من العلماء المحدثين يجمع أحاديث من المصنفات العشرة ؛ الصّحاحين والترمذي والموطأ وسنن أبي داود وسنن النسائي وسنن البزار ومسنّد ابن أبي شيبة وسنن الدارقطني وسنن البيهقي ؛ في الصلاة وما يتعلق بها على نحو الأحاديث التي جمعها محمد بن تومرت في الطهارة . فأجابوه الى ذلك وجمعوا ما أمرهم بجمعه ؛ فكان يمليه بنفسه على الناس ويأخذهم بحفظه . وانتشر هذا المجموع في جميع المغرب وحفظه الناس من العامة والخاصة ، فكان يجعل لمن حفظه الجعل السنّي من الكسا والأموال . وكان قصده في الجملة نحو مذهب مالك وإزالته من المغرب مرة واحدة وحمل الناس على الظاهر من القرآن والحديث . وهذا المقصد بعينه كان مقصد أبيه وجدّه ، إلا أنّهما لم يظهره واطهره يعقوب هذا . يشهد لذلك عندي ما أخبرني به غير واحد ممن لقي الحافظ أبا بكر بن الجدّة أنه أخبرهم قال : « لما دخلتُ على أمير المؤمنين أبي يعقوب أول دخلة دخلتها عليه ، وجدت بين يديه كتاب ابن يونس فقال لي يا أبا بكر أنا أنظر في هذه الآراء المتشعبة التي أحدثت في دين الله . رأييت يا أبا بكر ؟ المسألة فيها أربعة أقوال أو خمسة أقوال أو أكثر من هذا ؛ فأبي هذه الأقوال هو الحق وأبها يجب أن يأخذ به المقلد ؟ فافتتحت أبين له ما أشكل عليه من ذلك فقال لي وقطع كلامي : يا أبا بكر ليس إلا هذا ؛ وأشار الى المصحف ، أو هذا ، وأشار الى كتاب سنن أبي داود ، وكان عن يمينه ، أو السيف ! فظهر في أيام يعقوب هذا ما خفي في أيام أبيه وجدّه . وانتهى أمرهم معه الى ان قال يوماً بحضرة كافة الموحدين يسمعونهم وقد بلغه

حسداهم للطلبة على موضعهم منه وتقريبه إياهم ، وخلوته بهم دونهم ، يا معشر الموحدين انتم قبائل فمن نابه منكم أمرٌ فزع الى قبيلته ، وهؤلاء - يعني الطلبة - لا قبيل لهم إلا أنا ، فمهما ناههم أمر فانا ملجأهم ، والي فزعهم والي ينتسبون . فعظم منذ ذلك اليوم أمرهم وبالع الموحدون في برهم واکرامهم فمن هنا تعلم ان الحالة بقيت كما كانت في أيام المرابطين مدة حكم عبد المؤمن وابنه يوسف الى أيام المنصور . أما أن هذا كان مقصد أبيه وجده ، فهو مما لا شك فيه ، بل إنه كان مقصد ابن تومرت بالأصالة وقد عمل عليه ودعا إليه في دروسه وكتبه ، إلا انه لم يكن صارما في ذلك مثل المنصور .

وعلى ما يبدو في فعل المنصور هذا من تضيق خناق الحرية الفكرية وتقييد إرادة أهل العلم فانه أفاد الحركة العلمية من الوجهة العامة فائدة جلّی : حيث جعل الناس يقللون من الإكباب على النظر في علم الفروع المجرد ، وينصرفون الى دراسة الفقه في أصله العظیمين أعني الكتاب والسنة . فظهر الاشتغال بعلم التفسير وعكف الناس على تفهم كلام الله عز وجل ودراسته دراسة علمية صحيحة ، ونبغ المفسرون العديدون مثل عبد الجليل القصري والحرّالي والمزدغي . كما انتشر علم الحديث رواية ودراية واقبل الناس على الأخذ عن رجاله والتأليف في فنونه المختلفة . وكان الأخوان ابو الخطاب وأبو عمرو ابنا دحية السبتيان وابن القطان الفاسي ومحمد بن قاسم التميمي من ألمع محدثي هذا العصر .

الفقه والتصوف :

وبما ان النظر الفقهي قد تطور فان التصوف لم يبق يعد منكرأ كذي قبل ، ولم يبق للفقهاء على أهله تلك الصولة . فظهر جماعة من الصوفية الكبار أصحاب النزعات الفلسفية وانبثت مذاهبهم المختلفة في الناس . ولا نقصد الأندلسيين منهم كابن عربي الحاتمي وابن سبعين والششتري وغيرهم ؛ فان في الصوفية المغاربة من كانوا ذوي آراء وأنظار غريبة فلسفية واجتماعية ورياضية ، كأبي الحسن المسفر وأبي العباس السبتي وأبي محمد صالح الآسفي . والجدير بالذكر هو أن النهضة الموحدية أثرت على العقول في الأندلس والمغرب تأثيراً متشابهاً فأصبح الفكر الاسلامي في كلا

القطرين محرراً من القيود التي كانت تجعله يشور لاقل بادرة من الخروج عن دائرة المسلمات والقواعد والرسوم المتعارفة . فشتان بين عهد المرابطين الذي كان فقهاؤه في كل من الأندلس والمغرب 'يحرّمون' الإحياء وغيرها من كتب الغزالي ويحكمون بإحراقها ؛ وبين هذا العهد الذي ينبغ فيه مثل 'ابن عربي الحاتمي وينشر كتابه الفتوحات المكيّة وغيره فلا يحرك الفقهاء ساكناً في سبيل الإنكار عليه ، مع عظم الفرق بين محتويات الإحياء ومحتويات الفتوحات مما لا تُقره المذاهب الفقهية بأجمعها وربما (ورُبّ للتكثير) يتعارض مع جوهر العقيدة الإسلامية في كثير من المسائل .

علم الكلام :

وكذا الكلام أخذ حظه الكامل من الانتشار فقد كان ابن تومرت يُلزم أصحابه بدراسته إلزاماً . وكان الموحدون على العموم يعتبرون من لم يعرف العقائد على سبيل التفصيل وعلى طريقة الأشعري بالأخص يعتبرونه كافراً ليس معه من الإسلام إلا الاسم . ومن ثمّ سموا أنفسهم بالموحدين ونبذوا المرابطين خصومهم بالمجسمين . وألّف المهدي لأصحابه عقائد مختصرة باللسانين العربي والبربري كما سبق القول ، فتأثر الناس بخطاه وصنّفوا في هذا العلم الكتب العديدة . وكان من أطولهم يداً وأحسنهم عارفةً في هذا السبيل عند العامة الشيخ أبو عمرو عثمان بن عبد الله بن عيسى السّلاحيّ . وهو الذي على يده وقع تحوّل أهل فاس من المذهب السلفي في العقيدة إلى المذهب الأشعري تبعاً للتيار العام الذي اكتسح المغرب بأجمعه في هذا الامر نتيجة لدعوة ابن تومرت . ولكن قد شيب صفو هذا العلم في أوائل أيام الموحدين بما أضافوه إليه من تعاليم شيعية بدعية جرياً وراء ما كان يذهب إليه داعيتهم المهدي بن تومرت من ذلك المذهب . فقد كان الاعتقاد بالامام وعصمته شائعاً في ذلك الوقت وكانت الخطب على منابر المغرب والأندلس وأفريقية التي تنيف على ألفي منبر لا بد أن تشتمل على الدعاء « للامام المعصوم المهدي المعلوم » حتى تقدّم بمنع ذلك يعقوب المنصور على ما ألمعنا إليه سابقاً فكانت حسنة من حسناته وكفارة عن جميع ما يؤخذ عليه بشأن العلم والعلماء . وعلى كل حال فإن علم التوحيد أو علم الكلام - كما سمي قديماً - انما انتشر في هذا العصر . وما كان قبله انما هو من قبيل المحاولات الأولى . ومثله علم أصول

الفقه، فقد تبوأ من بين العلوم في هذا العصر مكاناً عالياً ووجد من القرائح المغربية مجالاً خصباً لنموه وازدهاره .

وهذا ان العلمان هما مما نقله المغرب عن المشرق مباشرةً وقد نبهنا في عصر المرابطين على الطليعة الأولى من رجالهما الذين أدخلوها الى المغرب . ثم جاء المهدي بن تومرت وقد أخذهما عن أئمتها الراسخين من أهل المشرق فبشهما وحفز الهمم لطلبهما وكان انتشارهما سبباً في تقريب 'شقة الخلاف ما بين الفقهاء والمتكلمين والمتصوفة' ، لما يحملان عليه من النظر في الأدلة وعدم المسارعة الى الانكار قبل معرفة مدرك الخصم ، وبذلك زال النزاع الشديد الذي كان قائماً بين هذه الطوائف من العلماء . والذي كان يبعث بعض الفقهاء من أهل هذا العصر على أن يقول مثل هذه المقالة المنقولة من كتاب الحلال والحرام لراشد الفاسي . قال فيه : « سمعت من أبي محمد عبدالله بن موسى الفشتالي أن التائب إذا اقتصر على ما عند علماء الشريعة أولى وأسلم له ، بل لا يجوز اليوم اتخاذ شيخ لسلوك طريق المتصوفة أصلاً ؛ لانهم يخوضون في فروعها ويهلون شروط صحتها ، وهو باب التوبة ، إذ لا يصح بناء فرع قبل تأسيس أصله . وسمعت يقول : لو وجدت تأليف القشيري لجمعتها والقيمتها في البحر . قال وكذلك كتب الغزالي . وسمعت يقول . إني لأتمنى على الله أن أكون يوم الحشر مع أبي محمد بن أبي زيد لا مع القشيري والغزالي بل مع أبي محمد يشكر فذلك أكثر أمناً لي على نفسي » ...

على ان الغريب في الأمر هو أن هذه الكتب التي كانت تعدم وتحرق لا تلبث ان 'تحبس وتروج ايضاً وهذه الإحياء ألم 'بحرقها علي بن يوسف ؟ فكيف عادت الى الظهور ؟ إذ لا شك انها المعنوية في كلام الشيخ الفشتالي . وإذا قيل إن كتب الغزالي قد انتشرت من جديد بسبب قيام دولة الموحدين التي يُعتبر مؤسسها خريج المدرسة الغزالية وناشر تعاليمها في المغرب ، فكيف يقال في كتب الفقه المالكي التي أحرقها المنصور وقد قيل ان عبد المؤمن نفسه أمر بإحراقها لما استتب له الأمر ؟ .. والجواب انه في هذا العصر كان 'جل' الاعتماد على الحفظ والاستظهار . فبعد حرق هذه الكتب لم يصعب على الناس ان يجدوا من يستظهرها بلفظها وتكتب عنه . وهذا الشيخ أبو محمد عبدالله بن محمد بن عيسى التادلي الفاسي الفقيه الحافظ المحصل المتوفي سنة ٦٢٣ يذكر المؤرخون في ترجمته أن المدونة كتبت من حفظه بعد أن أحرقها الموحدون أي في

نفس الوقت تقريباً . ومما لا شك فيه ان غيره كثيرون ممن كُتبت الكتب الأخرى المحروقة من لفظهم وحفظهم .

والذي نريد أن نسجله هنا هو أن المذهب المالكي لم ينهزم مطلقاً أمام الدعوة الى الاجتهاد التي كان الموحدون يتزعمونها ، ولا أمام المذهب الظاهري الذي نشط نشاطاً كبيراً في هذا العصر . وذلك برغم الحملة المنظّمة من رجال الدولة للقضاء عليه . فيها أنت ترى كتبه الأمّهات يُعاد كتبها بفور إحراقها . وسترى في تسمية تأليف فقهاء العصر ما وُضع حول هذه الكتب من دراسات وما عُمل لها من شروح . وأنا لنعدّ من فقهاء المذهب المالكي الذين نبغوا في هذا العصر العشرات قبل أن نعدّ ظاهرياً واحداً أو فقيهاً متحرّراً يميل الى الاجتهاد . ناهيك بأبي محمد يشكر الجراوي الذي سبق ذكره في كلام الشيخ الفشتالي ، فانه من فقهاء العصر وممن كتب على المدونة ، وأبي محمد صالح الفاسي الذي بقي مثلاً مضروباً عند فقهاء المذهب للعدل المبرز ، وأبي القاسم الجزيري صاحب المقصد المحمود في تلخيص العقود وهو الكتاب الذي اعتمده الناس في كتابة الوثائق ولم يقدموا عليه غيره ، وأبي الحسن المتسوي الفقيه الحافظ صاحب الشرح العظيم على الرسالة بالنقل لأقوال الأئمة الذين تدور عليهم الفتوى . الى غير هؤلاء ممن يطول الأمر بتعدادهم . بل أنا لنسجل ما قام به أحد فقهاء المالكية من ردّ فعلٍ على حركة انتشار المذهب الظاهري ممثّلٍ في التهجّم على ابن حزم إمام الظاهرية بالأندلس والمغرب ، ممّا أدّى الى عقد مجلس علمي بمراكش للنظر في القضية . وهذا الفقيه هو ابو زكريا الزواوي أحد أفراد هذا العصر علماً وصلاً . وكان مقيماً ببجاية . واليك ما كتبه الغُبَريني عن هذه الواقعة في كتابه عنوان الدراية . قال :

« ولما كان من أمر الفقيه أبي زكريا الزواوي في شأن ابن حزم ما قد اشتهر ، وتعصّب له ناس ورفعوا القضية للخليفة بمراكش اقتضى نظر الفقيه أبي زكريا رضي الله عنه أن يتوجّه عنه الفقيه ابو محمد عبدالكريم الحسني المراكشي . فتوجه وحمل تأليف الفقيه أبي زكريا ورده على ابن حزم المسمى حجة الأيام وقدوة الأنام . ولما وصل حضرة مراكش استجضره أمير المؤمنين بين يديه بحضور الفقهاء وعرض تأليف الفقيه عليهم وكان الفقيه ابو محمد عبد الكريم هو النائب في الحديث فأحسن وأجاد وأطلع أمير المؤمنين ومن حضر من الفقهاء على كلام الفقيه رضي الله عنه مما دلهم على فضله

ودينه وعلمه ، فكان من قول الخليفة « يترك هذا الرجل على اختياره فان شاء لعن وان شاء سكت » . وانقلب ابو محمد عبد الكريم وهو المبرور ، وسعيه المشكور ، رضي الله عنه وأرضاه .

وهذه الحادثة إن مثلت المعركة التي كانت قائمة بين المالكية وخصوصهم ، فانها تدل على فشل الجهود التي بذلت لصرفهم عن مذهبهم وعلى ازدهار هذا المذهب في حين كان خصومه يعملون على ذبوله .

وعلى كل حال فان مما لا ريب فيه ان الفقه المالكي قد استفاد من هذه المعركة ، غير الانتصار على الخصم ، التلقيح بمادة الحياة الأصلية بالنسبة الى كل المذاهب الاسلامية ؛ وهي الرجوع الى الكتاب والسنة فلم يبق ذلك الفقه الساذج الذي يقارن أقوال أئمة المذهب بعضها ببعض ، ويرجعها في النهاية الى رواية ابن القاسم عن الامام مالك ، بل صار يعتمد على الأدلة وينظر في الخلاف العالي . وبذلك أخذ خير ما في الدعوة المعارضة له وأحرز كيانه .

وكذا وقع في انتشار مذهب الأشعري العقدي بعيداً عما شيب به من تعاليم شيعية غالية على ما كانت المهدي يدعو اليه . فان الامام السلاجي الذي تجند لنشر العقيدة الأشعرية كان من أبعد الناس عن تلك الشبه وأكثرهم تمسكاً بالسنة . فلما أخذ الناس عنه العقيدة المذكورة لم يكن فيها شيء من تلك الشوائب وحمى الله المغرب وأهله من الغلو والانحراف في العقيدة والمذهب .

هذا وقد قلنا إن الموحدين كانوا يدعون الى الاجتهاد ونحن نعني ما نقول خلافاً لما شاع من أنهم كانوا على مذهب الظاهرية . فان احداً من مؤرخيهم لم ينقل ذلك عنهم ، وليس يكفي أن يظهر المنصور إعجابه بابن حزم لنحكم بأنه وقومه على مذ ^١ كيف والذي ثبت من عمله أنه جمع من كتب السنة أحاديث في العبادات

^١ المتري في النفع أن المنصور مرّ بأوقية من أرض شلب فوقف على قبر الحافظ أبي محمد بن حزم وقال : عجيباً لهذا الموضع يخرج منه مثل هذا العالم ! ثم قال : كل العلماء عيال على ابن حزم .

كان يميلها على الناس ويجعل لمن حفظها الجعل السني على مامر ؟ فالأمر يتعلق بالدعوة الى العمل بالسنة أكثر من الانتماء الى مذهب معين . ويقول التاج ابن حمويه السرخسي الذي رحل الى المغرب في أيام المنصور واتصل به اتصالاً وثيقاً حسبما اثبتته المقرري في نفح الطيب عنه : « والذي علمت من حاله أنه كان يجيد حفظ القرآن ويحفظ متون الأحاديث ويتقنها ويتكلم في الفقه كلاماً بليغاً . وكان فقهاء الوقت يرجعون اليه في الفتاوي . وله فتاوي مجموعة حسبما أدبى اليه اجتهاده . وكان الفقهاء ينسبونه الى مذهب الظاهر وقد صنف كتاباً جمع فيه متون أحاديث صحاح تتعلق بالعبادات سماه الترغيب » فليتنبه الى قول السرخسي (وله فتاوي مجموعة حسبما أدى اليه اجتهاده) وما تفيد هذه العبارة من ميله الى الاجتهاد . والى قوله (وكان الفقهاء ينسبونه الى مذهب الظاهر) وما تعطيه هذه الجملة من انهم يتجنون عليه بذلك . وقد رأيت ان الفقيه الزواوي كان يحرم بلعن ابن حزم ، وأن أمره عرض على الخليفة بمراكش فأقره على رأيه . وذلك مما يدل على أن الموحدين لم يكونوا ظاهرية والما قبلوا لعن امامهم وكبير علماء مذهبهم .

والحجة الكبيرة في أن القوم لم يكونوا على مذهب أهل الظاهر هي مجموعة كتب المهدي بن تومرت هذه التي نشرها المستشرق المجري جولدزهيير وتشتمل على كتاب أعز ما يطلب والعقيدة المرشدة وكتاب الطهارة الذي يقال ان المنصور جمع كتاباً في الصلاة على منواله ، الى غير ذلك من تعاليق المهدي وكلها ليس فيه ذكر للظاهرية ولا لعلم من أعلامها . بل ان في تعاليقه الأصولية ما يعارضها وهو أثبات القياس ومدحه مما لا ينجح إليه أهل الظاهر كما هو معلوم . واذا كان هذا إمام الموحدين ومهديهم الذي أسس دولتهم ومهد مذهبهم لا يرى رأي الظاهرية ولا يبدي نحوها . أدنى ميل فلا شك أن خلفاء كانوا كذلك . وانما كان الفقهاء ينسبونهم اليها تشنيعاً عليهم كما يقال اليوم في كل من كان سلفي العقيدة : إنه وهابي ، تنكيتاً عليه وتنفيراً من مذهبه . ونظن أن ميل المهدي واتباعه الى الاجتهاد جاءهم من الشيعة الذين

١ - مما يشهد لما قلناه ، هذه الأبيات التي يقولها ابن عربي الحافمي تبرياً من الظاهرية ، وهو أيضاً من رمي بها :

نسبوني الى ابن حزم واني	لست ممن يقول قال ابن حزم
بل ولا غيره فان كلامي	قال نص الكتاب ذلك حكمي
أو يقول الرسول أو أجمع	الخلق على ما أقول ذلك علمي

أخذوا بعض آرائهم ومزجوا بها مذهبهم . والشيعية كما لا يخفى يقولون بالاجتهاد ولا يدعون انقطاعه .. وهذا هو السبب الذي نفسّر به انصراف الفقهاء المغاربة عن دعوة الموحدين الى الاجتهاد ، حيث انها كانت مشوبة بما لا يقبلونه من تعاليم شيعية تقدمت الاشارة اليها .

العلوم الأدبية :

هذا ملخص الخبر عن حركة العلوم الدينية في هذا العصر . ونقول الآن كلمتنا في العلوم الأدبية متوخّين الإيجاز ما أمكن . ولا بد من النص أولاً على أن المراد بالعلوم الأدبية ما يشمل النحو واللغة والعروض والبيان والتاريخ والسّير . وقد رأينا بعض ما كان لهذه العلوم من الرواج في العصر السابق على قدر ما تعطيه المصادر الضئيلة بمثل هذه المعلومات . أما في هذا العصر فقد اتسعت دائرة انتشارها وتخلّفت لدينا بعض الآثار التي تدل على أن هناك نهضة حقيقية كانت تتدرّج بهذه العلوم في مدارج التطور والتقدم ، تماماً كما وقع في العلوم الدينية وغيرها . ففي خصوص علم النحو ظهر النشأة الذين كان لهم مقام كبير ، والسّقوا الكتب التي ما تزال تعرف بعلو قدرهم وتنبيء عن رسوخ قدمهم في هذا العلم ، كأبي موسى الجزولي صاحب الكراسة الشهيرة في النحو ، وتسمى أيضاً المقدمة الجزولية ، وبعضهم يسميها القانون والاعتماد . وكابن معطر صاحب الألفية النحوية التي عمل ابن مالك ألفيتها على مثالها ، بل إن التفوق في هذا العلم أدّى الى وجود مدارس نحوية هنا وهناك ، تفرّدت بأراء خاصة في بعض مسائل الإعراب وغيره . فهذه مدرسة فاس التي سيختلف أهلها مع مدرسة تلمسان في مسألة صرف أبي هريرة . وهذه مدرسة سبتة التي تخالف الجمهور في ضمّ النكرة المقصودة إذا نُوتت اضطراباً . وهذه مدرسة طنجة التي توجه أسئلة نحوية الى مدرسة اشبيلية . واخيراً هذه مدرسة المغرب بعامة التي لا تسمّي لولا شرطاً ولا لو إلا إذا كانت بمعنى إن ، أي حين تكون مجرّدة من الامتناع ؛ وذلك في الغايات نحو قوله عليه السلام - احفظوا عني ولو آية . أشار له العلامة ابن غازي .. وإن عبّر هذا عن شيء فانما يعبر عن الدراسات القيمة التي كان المغاربة يقومون عليها ويوجهون جهودهم اليها في هذا العلم . ومثل النحو اللغة

والعروض والبيان ، فقد كانت لها سوقٌ رائجةٌ^١ وكان اللغويون المعنيُّون بحفظ متن اللغة كاللغويين الباحثين في مسائلها يأتون بالطريف المعجب في تسمية الأشياء وتحقيق معاني الألفاظ . فهذا المحدث أبو الخطاب بن دحية السبتي يقول الغبريني عنه في عنوان الدراية : « إنه كان من أحفظ أهل زمانه باللغة حتى صار حوشيُّ اللغة عنده مستعملاً غالباً عليه . ولا يحفظ الانسان من اللغة حوشيَّها إلا وذلك أضعاف أضعاف محفوظه من مستعملها » . وروى أن والي بجاية جهَّز قطعاً بحريَّة بعث فيها بعض الغزاة الى المغرب فأخذ خديم لأبي الخطاب في جملة هؤلاء الغزاة أثناء إقامته ببجاية . فكتب الى الوالي رسالةً مغلقةً من كثرة ما استعمل فيها من الغريب ، فلم يفهم الوالي معناها حتى استحضر كتب اللغة ؛ الصَّحاح وغيره . ولم تتضح له حتى سافرت المراكب . قال الغبريني :

« وهذا أقلّ عوارض الخروج عن العادة وعدم سلوك السبيل الجادة » وإن كان ذلك الوالي لمزيد اعتنائه بالشيخ أبرد^٢ برد^٣ خديمه . فصُرف اليه بعد أن وصل الى وهران . وهذه الرسالة الغريبة سنوردها في المنتخبات . وكذلك أخوه أبو عمرو بن دحية السبتي كان مثله في الحفظ للغة والذكر لغريبها ، فضلاً عن كونه من رجال الحديث كأخيه . وروى ابن رُشيد في رحلته عنه بواسطة^٤ ، أنه دخل الى أشبيلية قادماً من بلنسية فجاء الى جامع العبدس بها قال : فجاءني رجل فسألني من أين جئت ؟ قلت رحلت من بلنسية في طلب علو الرواية في الحديث فقال : هل تذكر شيئاً في اللغة ؟ فقلت هي بضاعتي . فقال ما اسم البصل في لغة العرب ؟ فقلت الدَوْفَص . فقال : وما شاهده ؟ فقلت له قال الحجاج لطاهيه : اطبخ لنا عُرْبِيَّةً^٥ وأكثِر دَوْفَصها . قال فولسى عني ثم أقبل ومعه مملوك بيده سبنيَّة^٦ بشياب وقرطاس فيه مائة دينار فدفعها إليّ وقال استعِن بهذا على طلب العلم . وقال انا ابن زُهر ألفت كتاباً في الطب ذكرت فيه جميع الأعشاب (بجميع الأسماء وعجزت عن اسم آخر للبصل بالعربية) فالآن قد تم الكتاب^٧ ثم قال هذا قليل في حق مسألة من العلم .

١ - أي طعاماً مصنوعاً من العربرب ، والعربرب هو حب السمَّاق نوع من الشجر حامض الطعم .

٢ - أي منديل فيه كوة . وانظر تفسير سبنيّة في بحث عاميتنا والمعجبة في كتابنا « خل وبقل » .

٣ - ما بين الهالين محو من مخطوطة الرحلة المنقول عنها وهي المودعة بمكتبة الاسكوريال . وما اثبتناه هو الأقرب للعين المراد .

وقد نشطت المباحث اللغوية في هذا العصر نشاطاً كبيراً ويكفي للدلالة على ذلك ان نشير الى ما كتبه الامام ابو القاسم السَّهيلي المالقي نزيل مراكش ودفينها من التحقيقات البالغة الأهمية في هذا الصدد ، وخاصة في كتابه الروض الأنف الشهير . والى ما كتبه العلامة ابن هشام اللخمي الاشبيلي مولداً السبتي داراً من التعليقات والشروح في النحو واللغة وتقويم اللسان ، وأهمها كتابه في لحن العامة الذي ردّ به على الزبيدي وعلى ابن مكي في الموضوع فصَحَّح ما وهما فيه ، وتعرض للحن عامة زمنه ، مما يدل على تضلُّعه واتساع مادّته . وبالجملة فهو كتابٌ مفيدٌ جداً في الاطلاع على تطوُّر الدراسات اللغوية في المغرب والأندلس معاً .

ونشأت في هذا العصر فكرة نظم المسائل اللغوية تسهيلاً على الطلاب اذ كانت النظم أكثر ضبطاً وأيسر حفظاً . ومن ذلك أرجوزة العلامة ابن المناصف المسماة بالمشقة في الحلى والشّيات . وقد نظمها بمراكش في جمادى الأولى عام ٦٢٠ فحُملت عنه وُسِّعت عليه كثيراً : ومنه نظم العلامة ابن مُعطٍ لجمهرة ابن دُرَيْد ونظمه لصَحاح الجوهرى وهي محاولةٌ جريئةٌ كما لا يخفى .

ولا نذكر هنا النحويين واللغويين كأبي عليّ الشَّلَوَّين وابن خروف وابن عُصفور وابن مضا وابن مالك وغيرهم ممَّن أظلمهم عصر الموحدين ، إلا على سبيل التذكير بما كان لعلوم العربية نحواً ولغةً من عظيم الازدهار في هذا العصر ، ولا سيما وأكثر هؤلاء ممَّن زار المغرب وأقام فيه فأخذ عنه الطلاب ونشر معارفه بكل مكان .

وبخصوص علم العروض من العلوم الأدبية نذكر أنه في هذا العصر نبغ العلامة ضياءُ الدين الخزرجي السَّبَّتي صاحب القصيدة الشهيرة بالخزرجية في هذا الفن والتي يسميها المشاركة بالرَّأْمَة . وهي بقدر ما تدل على معرفته بالعروض تدل على رسوخ قدمه في الأدب حيث استطاع أن يُضمِّن أغراض هذا العلم في قصيدة لا تتجاوز مائة بيت بما استخدم في ذلك من الرُّموز والإشارات حتى عُدها شرحاً فيما بعد من المأثرات . وكذلك العلامة ابن أبي الجيش الانصاري صاحب العروض المعروف باسمه فإنه من نوابغ هذا العصر . وليس هو صاحب الخزرجية ولا هذه هي عروضه كما يخلط بينهما بعض الكتاب . ولابن مُعطٍ أيضاً نظمٌ في العروض ذكر في ترجمته . هذا الى ما وضعه الأندلسيون من تأليف عديدة أخذت عنهم بالمغرب والأندلس وكان لها رواج

يستتبع بالطبع رواج فنّها . ولا تُغفل في هذا الباب ما اخترع من الأعاريض والأوزان الشعرية الجديدة كالموشّحات والأزجال . فان هذه وان كانت قد اخترعت في الأندلس ولقيت من أمراء العهد المرابطي كأبي بكر بن تافلويت كلّ تشجيع إلاّ أنها انما بلغت أوج الكمال في هذا العصر . . ففيا يخص التوشيح نرى جماعة من فرسانه ينقطعون الى أمراء الموحدين الذين كانوا يُعرفون بالسّادة يمتدحونهم بموشّحاتهم التي كانت تقع منهم أحسن موقع . ونجد سابق هذه الحلبة الوزير أبا بكر بن زهر قد اختص بالخليفة يعقوب المنصور وحظيَ عنده حظوةً لا مزيد عليها . فمما لا ريب فيه ان اصطناع رجال الدولة من الموحدين لأهل هذا الفن ، هو اصطناعٌ للفنّ نفسه يتمّ عمّا وراءه من إعجاب وتقدير ، لا سيما وقد كان نظر الأدباء المحافظين في التوشيح ليس بذاك ، كما يشعر به كلام المزاكشي في المعجب الذي امتنع عن رواية شيء من موشحات ابن زهر « لأنّ العادة لم تجرّ بإيراد الموشحات في الكتب » تماماً كما ينظر بعضهم اليوم الى هذا الشعر الحرّ . فتقريب الموحدين للموشّحين واحتفالهم بهذا الفنّ من القول ؛ فيه تشجيعٌ لهم وتنشيطٌ ، إذ الناس على دين ملوكهم كما يقولون . وانظر الى هذه الجزئية التي رويت عن السيد أبي عمران موسى بن محمد بن يوسف بن عبد المؤمن والي إشبيلية ؛ فقد أنشد له من شعره قوله يخاطب الأديب أبا الحسن بن حريق يستحثّه على نظم الشعر في عروض الحَبّ :

خُذْ فِي الْأَشْعَارِ عَلَى الْحَبِّ فَقُصُورُكَ عَنْهُ مِنَ الْعَجَبِ
هَذَا وَبَنُو الْأَدَابِ قَضَوْا بِعُلُوِّ مَحَلِّكَ فِي الرُّتَبِ

فإن منها يظهر ان هؤلاء الامراء كانوا يوجهون الأدباء ويقترحون عليهم ما يقولون وكيف ينظمون ومثل هذه الجزئية رويت عن المنصور نفسه .

واذا كنا ذكرنا أبا بكر بن زهر وهو أندلسي لنقول إن التوشيح ازدهر على يده ؛ فان الوشاح المغربي الذي يعد فريد عصره هو القاضي ابو حفص بن عمر الأديب الشهير ؛ له موشحات مشهورة يغنى بها في الأقطار كما قال ابن سعيّد المغربي في الغصون اليبانة ، وإن كان لم يصلنا منها شيء ، مع الأسف ، وما قيل في التوشيح يقال في الزجل ويزاد أنهم في فاس اخترعوا وزناً جديداً منه سموه عروض البلد

ونوعوه الى انواع ، كل نوع منها له اسم . وذلك هو ما يتحدث عنه ابن خلدون في المقدمة ، بعد كلامه على الزجال ابن قزمان وطريقة أهل الأندلس في نظم الزجل فيقول : « ثم استحدث أهل الامصار بالمغرب فنثا آخر من الشعر في أعاريض مزدوجة كالמושح فنظموا فيه بلغتهم الحضرية وسموه عروض البلد وكان أول من استحدثه منهم رجلٌ من أهل الأندلس نزل بفاس يعرف بابن عمير ، نظم قطعة على طريقة الموشح ولم يخرج فيها عن الإعراب إلا قليلاً ؛ فاستحسنه أهل فاس وولعوا به وتركوا الإعراب الذي ليس من شأنهم ، وكثر شيوعه بينهم ، واستفحل فيه كثير منهم ونوعوه أصنافاً الى المزدوج والكازي والملعبة والغزل ، واختلفت أسماؤها باختلاف ازدواجها وملاحظاتهم فيها . »

فهذه مدرسة جديدة للزجل نشأت بالمغرب وعملت على تطوره شكلاً ومضموناً؛ من حيث وضعت له اسماً جديداً هو عروض البلد ونوعته الى أصناف تندرج تحت هذا الاسم العام ، وان كان لكل صنف منها اسمٌ خاص بحسب الغرض الذي يتناوله . وقد سمى ابن خلدون بعد ذلك بعض زعماء هذه المدرسة ؛ فذكر منهم ابن شجاع التازي والكفيف الزرهوني . والنماذج التي أعطاها من ازجالهم هذه ، ترينا كيف تطور موضوع الزجل فاصبح يستوعب أهم الأغراض الشعرية كالحماسة والحرب والمدح والوصف والرصايا والحكم ، بعد ان كان قاصراً أو يكاد على الحب والخمر ، والطبيعة والزهر . ولقد اطردها هذا التطور في الشعر الملحون ، وهذا هو ما يسمى به الزجل اليوم ، في المغرب . فصار يتضمن من الملاحم والقصص والتمثيل ما بقي يعوز الشعر المعرب في العالم العربي كله الى فجر النهضة الحديثة .

ويجب ان نشير الى أن تسمية الناس له بالشعر الملحون هي من قبيل الوصف الكاشف ، لأنه أدب الطبقة العامية ، نظمته هي أو نظمها لها أفراد يحسنون الإعراب . ولكنهم تركوه قصد الإبلاغ ، لا لكونه ليس من شأنهم كما مرّ عن ابن خلدون آنفاً . ويدلّ على ذلك قول الصّفي الحلي في كتابه العاقل الحالي الموضوع في الزجل^١ وقد

١ - النص الوارد هنا ذكره الدكتور عبد العزيز الأهواني في كتابه « الزجل الأندلسي » نقلاً عن مصورة العاقل الحالي الموجودة بمكتبة جامعة القاهرة .

تعرض لذكر الزجال المغربي المعروف بابن غرلة ونصه : « وقد كان ابن غرلة الشاعر المغربي وهو من اكابر اشياخهم ، ينظم الموشح والمزمن فيلحن في الموشح ويعرب في الزجل تقصداً واستهتاراً ، ويقول : إن القصد من الجميع عذوبة اللفظ وسهولة السبك . وكان الوزير ابن مناء الملك يعيب عليه ذلك ، ولهذا لم يثبت شيئاً من موشحاته المزممة في دار الطراز . فانظر كيف كان يلحن ويعرب تقصداً واستهتاراً ، واللحن هو المعتاد في الازجال اذا نظمها الخاصة من الأدباء يتركون إعرابها مجارة للعمامة ؛ بل إنهم كثيراً ما يتركون الإعراب حتى في الموشحات تسهيلاً لها وتقليحاً . فعمل ابن غرلة ليس بدعاً في هذا الشأن ، ولكن لمزاجين خلدون لأهل فاس بكونهم ليس من شأنهم الإعراب هو الذي ليس له محل من الإعراب .

وابن غرلة هذا هو من زجالي عصرنا الذي نتكلم عليه ، وكان عاشقاً لأخت الخليفة عبد المؤمن التي تسمى ربيعة فيما يقول الحلبي ، ونظن أنها ابنة الخليفة لأخته ، ومن موشحاته الموشحة الطنانة الموسومة بالعروس التي نظمها في عشيقته وقتله الخليفة بسببها لتوهمه من مطلعها وما يليه الاجتماع بها . والواقعة مشهورة على زعم الحلبي . قال : « وكان حسن الصورة جليل القدر ذا عشيرة . وكانت هي أيضاً جليلة القدر جميلة الخلق فصيحة اللسان تنظم الازجال الرائعة الفائقة .

هذا وسنثبت بعض ما أشرنا اليه من الموشحات والأزجال في باب خاص في قسم المنتخبات .

بقي كلامنا في التاريخ والسيرة من العلوم الأدبية . والذي نقوله عنها إنما لم يكونا أقل حظاً ولا أنجس نصيباً من غيرها في الرواج والانتشار ؛ ففي هذا العصر وضع أول تاريخ نعرفه عن المغرب حاملاً هكذا اسم المغرب ، الأمر الذي سيصبح تقليداً متبعاً في الكتب التي توضع بعد في تاريخ هذه البلاد . وهذا التاريخ هو كتاب المعجب في تلخيص أخبار المغرب لعبد الواحد المراكشي . ولئن كانت كتب أخرى في التاريخ والتراجم قد وضعت قبله ، مثل أخبار البصرة ، وأخبار سجلماسة ، وأخبار نكور لمحمد بن يوسف الوراق ، وتاريخ الدولة المتونية لابن الصيرفي ، وكتاب المدارك في التعريف بأعلام مذهب مالك ، وتاريخ سبتة ، للقاضي عياض وغير ذلك . فإن واحداً من هذه ليس كتاباً جامعاً لتاريخ المغرب بصفته بلاداً ذات وحدة

وكيان مثل كتاب المعجب ، فضلاً عن انها لم تصلنا وعن كونها بأقلام غير مغربية اذا استثنينا كتاب المدارك . ومما يُسجّل بغاية الاعجاب للعلماء المغاربة من هذا العصر ، هذا النوع من التأليف في السيرة النبوية الذي يُعدُّ حدثاً بديعاً فيها ؛ وهو المتعلق بمولد الرسول صلى الله عليه وسلم . فقد كان العزفيون رؤساء سبتة^١ قد أحدثوا فيها الاحتفال بالمولد الشريف ، ولم يكن ذلك معروفاً في المغرب ولا في غالب الاقطار الاسلامية . وألّف كبيرهم العلامة ابو العباس أحمد بن محمد كتاب الدر المنظم في مولد النبي المعظم ، الذي اكمله ولده الرئيس أبو القاسم فجاء في مجلد كبير . وفي مقدمة هذا الكتاب يشير أبو العباس الى سبب إحداثهم لذلك ويقارن بين احتفال النصارى بعيد الميلاد المسيحي ومشاركة المسلمين لهم في ذلك وإهمالهم لمولد نبيهم (ص) . وهو مع إقراره بأن هذا العمل بدعة^٢ لم يكن على عهد السلف الصالح رضوان الله عليهم ؛ فإنه يجعله من البدع المستحسنة استناداً لقول عمر (رض) في الاجتماع على تراويح رمضان بعمت البدعة هذه ويخرجه على حديث أنس (رض) كان لأهل الجاهلية يومان في كل سنة يلعبون فيهما . فلما قدم النبي (ص) المدينة قال: كان لكم يومان تلعبون فيهما قد أبدلكم الله بهما خيراً : يوم الفطر ويوم النحر . وذلك لأنه أراد بهذا العمل أيضاً صرف المسلمين ولا سيما الصبيان عن الاحتفال بالأعياد المعظمة في الأديان الاخرى ، حتى لا ينشأوا على تعظيم تلك الأديان ، الذي ربما أدّى بهم الى الكفر ، والعياذ بالله . والكتاب على كل حال مهم في بابه . وليس هو الوحيد الذي وضعه علماءنا في الموضوع ، فإن لأبي الخطّاب بن دحية السبتي أيضاً كتاب التنوير في مولد السراج المنير ، ألّفه للملك المعظم أبي سعيد التشركاني صاحب إربل لما قدم عليه فوجده يحتفل بالمولد الشريف كما يفعل أهل بلده سبتة . ويتفق في ذلك أموالاً عظيمة ، فوضع له الكتاب المذكور وقرأه في أثناء الاحتفال ، فأعطاه ألف دينار جائزة عليه ، وأخذه عنه فسمعه منه الناس بعد ذلك . وممن سمعه منه المؤرخ ابن خلكان كما يذكر ذلك في كتابه وفيات الأعيان . على أن الكتّاب في التاريخ والسير غير ما ذكرنا كثيرة^٣ وأخصّها كتاب النبراس في تاريخ بني العباس لأبي الخطّاب بن دحية ، وتاريخ

١ - بيت العزفيين كان من يوقات سبتة النبيلة وكان لهم بها رئاسة علمية وسياسية ابتدأت من هذا العصر واستمرت الى عصر المرينيين . ويأتي ذكرهم بمناسبة .

الموحدين للبيدق والذليل على صلة ابن بشكوال لابن فرتون وكتب ابن عبد الكريم التميمي وغيرهما مما يأتي مستوفى في تسمية الكتب المؤلفة في هذا العصر على العموم . ولكن ما لا بد أن ننبه عليه هنا ، ونحن نؤرخ الحركة الأدبية في المغرب ، هو المؤلفات الخاصة بالأدب وتاريخه . ولقد كاد كتاب المعجيب أن يكون تاريخ أدب أكثر منه تاريخ سياسة . والسبب في ذلك أن المراكشي ألّفه في المشرق ليطلع أهله على ما خفي عنهم من شؤون أهل المغرب السياسية والأدبية . وهكذا أيضاً ألف أبو الخطّاب بن دحية ، المطرب ، من أشعار أهل المغرب ، وهو إن يكن كسلفه مليئاً بأدب الأندلس ليس فيه من آثار أهل المغرب الا القليل ، فكفانا أنسها معاً أثران مغربيان ينمّان عن أدب صاحبيهما وعبقريّتهما .

وإن ننسَ لا ننسَ كتاب صفوة الأدب ، وديوان العرب ، الذي ألّفه الشاعر أبو العباس الجراوي على وضع كتاب الحماسة لأبي تمام وضمّنه مختارات من الشعر العربي في مختلف أبوابه ، ولم يغفل أن يضمّ إليه من شعر الأندلسيين والأفارقة ما جعله يمتاز عن حماسة أبي تمام . ويُعرف بالحماسة المغربية . وقد وصلنا مختصره الذي اطلعنا منه على غزارة حفظ مؤلفه وحسن صنيعه . وبالجملة فإن نهضة علوم الأدب في هذا العصر كانت شاملة . وما يمنعنا من تتبع مظاهرها إلا " خشية " التطويل ، ويأتي مزيد بيان لها في الكلام على الحياة الأدبية .

* * *

العلوم الحكمية :

وأما العلوم الحكمية فإنها انتشرت انتشاراً كبيراً لم تبلغه في أي عصر آخر ، حتى لقد كان هذا عصرها الذهبي في المغرب ، وكان الموحدون ، والحق يقال ، أشبه الدول الإسلامية بالعباسيين في الأخذ بضبع هذه العلوم وتنشيط رجالها . لكن أربى عليهم في ذلك كإرباء المأمون على سائر العبّاسيين يوسف بن عبد المؤمن ؛ فهو مأمون هذه الدولة الذي ناصر علوم الفلسفة ووالي أهلها . وكان هو نفسه متحققاً بكثير من أجزائها مشاركاً في جملة من فنونها . ويقول المراكشي إنه استظهر من الكتاب الطبي الملكي أكثره مما يتعلق بالعلم خاصة دون العمل . ثم تخطى ذلك الى ما هو

أشرف منه من أنواع الفلسفة . وكان ممن صحبه من العلماء المتفتنين أبو بكر محمد بن 'طفيل أحد فلاسفة الاسلام. له تصانيف في أنواع الفلسفة من الطبيعيات والإلهيات. وكان يأخذ الجامكية مع عدة أصناف من الخدمة من الأطباء والمهندسين والكتّاب والشعراء والرثامة والأجناد ؛ الى غير هؤلاء من الطوائف . قال المراكشي : « وكان أمير المؤمنين أبو يعقوب شديد الشغف به والحب له . بلغني أنه كان يُقيم في القصر عنده أياماً ليلاً ونهاراً لا يظهر . ثم قال : « ولم يزل أبو بكر هذا يجلب اليه العلماء من جميع الأقطار ويُنبّه عليهم ويحضه على إكرامهم والتنويه بهم ، وهو الذي نبّهه على أبي الوليد بن رشد ، فمن حينئذ عرفوه ونبّه قدره عندهم . أخبرني تلميذه الفقيه الاستاذ أبو بكر بن داود بن يحيى القُرطبي قال ، سمعت الحكيم أبا الوليد يقول غير مرّة : لمّا دخلت على أمير المؤمنين أبي يعقوب وجدته هو وأبو بكر بن 'طفيل ليس معها غيرهما . فأخذ أبو بكر يُثني عليّ ويذكر بيتي وسلفي ويضمُّ بفضلَه الى ذلك أشياء لا يبلغها قدري . فكان أول ما فاتحني به أمير المؤمنين بعد أن سألتني عن اسمي واسم أبي ونسي أن قال : ما رأيهم في السماء ، يعني الفلاسفة ، أقديمة هي أم حادثة ، فأدركني الحياء والخوف فأخذت أتعلّل وأنكر اشتغالي بالفلسفة ، ولم أكن أدري ما قرّر معه ابن 'طفيل ، ففهم أمير المؤمنين مني الرّوع والحياء ؛ فالتفت الى ابن 'طفيل وجعل يتكلم على المسألة التي سألتني عنها ويذكر ما قاله ارسطوطاليس وأفلاطون وجميع الفلاسفة . ويورد مع ذلك احتجاج أهل الاسلام عليهم ، فرأيت منه غزارة حفظ لم أظنّها في أحد من المشتغلين بهذا الشأن المتفرغين له ، ولم يزل يبسطني حتى تسكّمت ؛ فعرف ما عندي من ذلك ، فلما انصرفت أمر لي بمال وخيلة سنيّة ومركب . قال وأخبرني تلميذه المتقدم الذكر عنه ، قال : استبدعاني أبو بكر بن 'طفيل يوماً فقال لي : سمعت أمير المؤمنين يشتكي من قلقٍ عبارة أرسطوطاليس أو عبارة المترجمين عنه ، ويذكر غموض أغراضه ويقول : لو وقع لهذه الكتب من يُلخصها ويقرّب أغراضها بعد أن يفهمها جيداً لقرب مأخذها على الناس ، فان كان فيك فضلٌ قوة لذلك فافعل . واني لأرجو ان تفني به لما اعلمه من جودة ذهنك وصفاء قريحتك وقوة نزوعك الى الصناعة ، وما يمنعني من ذلك إلا ما تعلمه من كبرة سنّي واشتغالي بالخدمة (كان وزيراً ليوסף) وصرّف عنايتي الى ما هو أهمُّ عندي منه . قال أبو الوليد : فكان هذا الذي حملني على تلخيص ما لخصته من كتب الحكيم ارسطوطاليس . »

هذا ما عمله يوسف بن عبد المؤمن في سبيل تقدم هذه العلوم بملكته . وهاك ما عمله ولده يعقوب المنصور ممثلاً في عنايته الفائقة بفدّ من أفذاذ هذه الطبقة . فحكى المؤرخون أن الطبيب أبا بكر بن زهر كان ملازماً له ومختصاً به وكان يقيم عنده المدد الطويلة ولا يرخص له في السفر الى رؤية أهله وصلة الرحم بذويه وقرّباه، حتى قال يوماً يتشوّق الى ولده صغير :

وَلِيّ وَاحِدٌ مِثْلُ فَرْخِ الْقَطَا صَغِيرٌ تَخَلَّفْتُ قَلْبِي لَدَيْهِ
وَأُفْرِدْتُ عَنْهُ فَيَا وَحْشَتِي لِذَاكَ الشُّخَيْصِ وَذَاكَ الْوُجَيْهِ
تَشَوَّقَنِي وَتَشَوَّقْتُهُ فَيَبْكِي عَلَيَّ وَأَبْكِي عَلَيْهِ
وَقَدْ تَعَبَ الشَّوْقُ مَا بَيْنُنَا فَمَنْهُ إِلَيَّ وَمَنِي إِلَيْهِ

فسمعها المنصور فأرسل المهندسين الى اشبيلية وأمرهم ان يحتاطوا علماء بيوت ابن زهر وحارته ثم يبنوا مثلها بحضرة مراکش ففعلوا ما أمرهم في أقرب مدة ، وفرسها بمثل فرشه وجعل فيها مثل آلاته ؛ ثم أمر بنقل عيال ابن زهر وأولاده وحشمه وأسبابه الى تلك الدار ، ثم احتال عليه حتى جاء الى ذلك الموضع فرآه أشبه شيء ببيته وحارته ، فاحتار لذلك وظنّ أنه نائم وأن ذلك أحلام ، فقبل له ادخل البيت الذي يشبه بيتك فدخله فإذا ولده الذي تشوّق اليه يلعب في البيت ، فحصل له من السروز ما لا مزيد عليه ولا يُعبّر عنه . فهل سمع بمثل هذا الامر في إكرام العلم والعلماء وهل بقيت بعد هذا غاية في ذلك السبيل ؟

ولا تقصر المهمة الموحدية عن أختها العباسية زيادة على ذلك في التنقيب عن الكتب النادرة وطلب المؤلفات الغريبة من سائر الجهات حتى لقد جمع يوسف بن عبد المؤمن الألوف المؤلفة منها ، وكانت مكتبته تضاهي مكتبة الحكم المستنصر بالله الأموي . وقد اورد في المعجب هذه الحكاية التي تدل على ما كان يبذله في هذا السهيل من الترضيات الكبيرة . قال : « أخبرني أبو محمد عبد الملك الشذوني أحد المتحققين بعلمي الطب واحكام النجوم قال : كنت في شببتي استعير كتب هذه

الصناعة ، يعني صنعة الأحكام ، من رجل كان عندنا بمدينة اشبيلية اسمه يوسف يكنى ابا الحجاج يعرف بالمراني بتخفيف الراء ، كانت عنده منها جملة كبيرة وقعت الى ابيه في أيام الفتنة بالاندلس ، فكان يعيرني إياها في غرائر ؛ احمل غرارة وأجيء بغرارة من كثرتها عنده ، فأخبرني في بعض الأيام انه عدم تلك الكتب ، يحملتها . فسألته عن السبب الموجب لذلك فأسرَّ إليَّ أن خبرها أنهي الى امير المؤمنين فأرسل الى داري ، وأنا في الديوان لا علم عندي بذلك . وكان الذي أرسل كافور الخصي مع جماعة من العبيد الخاصة وأمره ان لا يروِّع أحداً من أهل الدار وان لا يأخذ سوى الكتب وتوعده والذين معه أشدَّ الوعيد إن نقص أهل البيت إبرة فما فوقها . فأخبرت بذلك وأنا في الديوان فظننته يريد استصفاء أمواله فركبت وما معي عقلي ، حتى أتيت منزلي فاذا الخصي كافور الحاجب واقف على الباب والكتب تخرج اليه . فلما رأيته وتبين ذعري قال : لا بأس عليك وأخبرني أن أمير المؤمنين يسلم عليّ وأنه ذكرني بخير ولم يزل يبسطني حتى زال ما في نفسي ، ثم قال لي : أهل بيتك هل راعهم احدٌ أو نقصهم شيء من متاعهم ؟ فسألتهم فقالوا : لم يرعنا أحد ولم ينقصنا شيء . جاء ابو المسك حتى استأذن علينا ثلاث مرّات فاخلى لنا له الطريق ودخل هو بنفسه الى خزانة الكتب فأمر باخراجها . فلما سمعت هذا القول منهم زال ما كان في نفسي من الروع . وولوه بعد أخذهم هذه الكتب منه ولاية ضخمة ما كان يحدث بها نفسه .

وكان لخزانة الكتب عندهم ولاية خاصة لا يولاها إلا آمن ، ومن ، لأن أمرها عظيم لديهم . ومن ولي النظر فيها أيام يوسف بن عبد المؤمن ، القاضي أبو محمد بن الصقر ، وكان من أحسن العلماء نظراً في كثير من الفنون . فقام عليها أتم قيام ، واستنسخ لها كثيراً من المجلدات الضخام ، وكان كلما بالغ في النصيحة والخدمة كلما بالغوا له في العطايا والهبات .

فهذا وغيره مما اغفلنا ، فضلاً عما جهلناه ، يعطيك صورة واضحة لما كانت عليه هذه العلوم من الرواج والانتشار في عصر الموحدين الذين لم يألوا جهداً في البر برجالها والاحسان اليهم . ولا تنس المنة التي طوقوا بها عنق العالم المتمدين بانتشالهم الفيلسوف ابن رشد من وهدة الخمول ، وإحلاله في المحل اللائق به . فقد علمت أنهم الحاملون له على تلخيص فلسفة الأقدمين كما روى المراكشي عنه . وإن كانت بدت من

يعقوب المنصور في حقه نزوة فإن ذلك لا يقدر في موقف الدولة كلها إزاء رجال العلم . على أنه نفسه تدارك ما فات وعاد فاصلح ما أفسده . خصوصاً وقد كان سبب امتحانه له سياسياً محضاً كما فصل ذلك المؤرخون . فإنه في شرح كتاب الحيوان لارسطو طاليس لما ذكر الزرافة وصفها فقال : « وقد رأيتها عند ملك البربر بمراكش ، فلما بلغ ذلك يعقوب حقدتها عليه . ثم إن أعداء ابن رشد رجدوها فرصة مناسبة فأغروا المنصور عليه ، واتخذوا اشتغاله بالفلسفة ذريعة الى ذلك ، فرفعوا اليه رقاعاً فيها ما يقتضي الكفر والمروق والغرطقة ، مثل ما كان في إحداها حاكياً عن الفلاسفة اليونان ، « فقد ظهر أن الزهرة أحد الآلهة » في اشباه لذلك . فاستدعاه المنصور وأوقفه عليها وقال هذا خطك ؟ فأنكر . فأمر باخراجه من عنده وطرده ، ولعنه الحاضرون . ثم ندم بعد ذلك على ما صدر منه وارسل يستدعيه ، فجاء واعتذر إليه واكرمه وبقي عنده حتى مات بمراكش رحمه الله . وقد كان له مندوحة عن وصف ولي نعمته بملك البربر ، وهو في الحقيقة ليس ملك البربر فقط ، ولكن لسان عثرات .

وفي أيام المنصور هذا استبحر العمران بالمغرب وزهت الحضارة وتقدم فن المعمار بتقدم حركة البناء ، إذ بنى المنصور مدينة رباط الفتح الفيحاء ، وقصبة مراكش وجامعه الفخم بها ومنار الكتبية العظيم بمراكش أيضاً ومنار حسان الضخم بالرباط ومنار الخيرالدة باشبيلية الذي هو من أعاجيب الدنيا . وانشأ في جامع مراكش المقصورة والمنبر « الأتوماتكيين » وكنا موضوعين على حركات هندسية بحيث يبرزان لدخوله دفعة واحدة ويغيبان لخروجه كذلك . كانت هذه المقصورة كبيرة تسع أكثر من ألف رجل ، كما عند صاحب الحلل . والذي صنعها هو الحاج يعيش المهندس الذي بنى جبل الفتح لعبد المؤمن وقد أعياى الأدباء وصفها حتى قال ابن حجر فيها قطعته الخالدة :

طَوْرًا تَكُونُ بَيْنَ حَوَاطِهِ مُحِيطَةً فَكَأَنَّهَا سُورٌ مِنَ الْأَسْوَارِ
وَتَكُونُ طَوْرًا عَنْهُمْ مَحْبُوءَةً فَكَأَنَّهَا سُرٌّ مِنَ الْأَسْرَارِ
وَكَأَنَّمَا عَلِمَتْ مَقَادِيرَ الْوَرَى فَتَصَرَّفَتْ لَهُمْ عَلَى مَقْدَارِ

فاذا أَحَسَّتْ بِالْأَمِيرِ يَزُورُهَا فِي قَوْمِهِ قَامَتْ إِلَى الزُّوَارِ
يَبْدُو فَيَبْدُو ثُمَّ تَخْفَى بَعْدَهُ كَتَكُوْنِ الْهَالَاتِ لِلْأَقْمَارِ

فطرب المنصور لسماعها ولم يرض بما قيل في مقصورته غيرها .

كذلك بنى عدّة مساجد ومدارس في كل من افريقية والأندلس والمغرب ومنها المسجد الأعظم بمدينة سّلا ومدرسته الباقية الى الآن شاهدة بان هذا المسجد يضاهي القرريين في الضخامة والجفوة كان من معاهد العلم المقصودة حتى احتيج الى بناء مدرسة حوله . ويعدّ بناء المدارس في هذا العهد من مظاهر التقدم العلمي ، وقد أصبح تقليداً متبعاً حتى من أفراد الشعب . ونشير هنا بالخصوص الى مدرسة الشيخ أبي الحسن الشّاري من أعلام هذا العصر التي أنشأها في مدينة سبتة وكان لها صيت بعيد .

وفي مراكش كان يوجد مجمعٌ علمي يسمى بيت الطلبة ، وهو يذكرنا ببيت الحكمة الذي كان في بغداد على عهد المأمون . وكان مألفاً لأهل العلم من أصليين وطارئين . وإذا علمنا أنه كانت هناك وظيفة يسمى صاحبها رئيس الطلبة ، فغير بعيد أن يكون هو عميد هذا البيت . وكان الموحدون يطلقون اسم الطلبة على أهل العلم عامة وأهل الحديث خاصة ولا يولون هذه الوظيفة إلا العلماء الراسخين أمثال المحدث ابن القطان والقاضي ابن المالقي . وفي هذا البيت استقبل أبو عمر بن عات ، وألقيت عليه أحاديث من صحيح مسلم محوّلّة المتن والأسانيد فأعادها الى أصلها . فإن لم يكن بيت الطلبة هذا مدرسةً للحديث كالتى أنشأها نور الدين محمود بن زنكي في دمشق ، فهو في أقلّ تقدير مجمعٌ علمي كما قلنا ، تفردت به مراكش الموحديّة عن سائر عواصم المغرب وافريقية والأندلس .

ومما حلّى به المنصور جيد أعماله التمدينية ورصّع تاج الحضارة المراكشية المستشفى العظيم الذي يقول صاحب المّعجب فيه : « ما أظن في الدنيا مثله » . وناهيك بها شهادة من رجل جاب الأقطار واخترق الأمصار . وهاك صفته نقلاً عنه :

« وبني بمدينة مراكش مارستاناً ما أظن أن في الدنيا مثله ، وذلك أنه تخيّر

ساحةً فسيحة بأعدل موضع في البلد ، وأمر البنائين باتقانه على أحسن الوجوه فأتقنوا فيه من النقوش البديعة والزخارف المحكمة ما زاد على الاقتراح ، وأمر أن يُغرس فيه مع ذلك من جميع الأشجار والمشمومات والمأكولات ، وأجرى فيها مياهاً كثيرة تدور على جميع البيوت ، زيادةً على أربع برك في وسطه ، إحداها رخام أبيض . ثم أمر له من القُرُش النفيسة من أنواع الصّوف والكتان والحرير والأديم وغيره بما يزيد على الوصف ويأتي فوق النعت ، وأجرى له ثلاثين ديناراً في كل يوم برسم الطعام وما يُنفق عليه خاصةً ، خارجاً عما جلب إليه من الأدوية وأقام فيه من الصّيادلة لعمل الأشربة والأدهان والأكحال ، وأعدّ فيه للمرضى ثياب ليل ونهار للنوم من جهاز الصيف والشتاء ، فاذا نقه المريض فان كان فقيراً أمر له عند خروجه بمال يعيش به ريثما يستقلّ ، وإن كان غنياً دفع إليه ماله وتركه وسببه ، ولم يقصره على الفقراء دون الأغنياء بل كلُّ من مرض بمراكش من غريبٍ حَمِلَ إليه وعولج إلى أن يستريح أو يموت . وكان في كل جمعة بعد صلاته يركبُ ويدخله يعود المرضى ويسأل عن أهل بيت ، بيتٍ يقول : كيف حالكم وكيف القومة عليكم إلى غير ذلك من السؤال ، لم يزل مستمرّاً على هذا إلى أن مات رحمه الله .

وفي هذه القطعة دليل على تقدّم علم النّسبات والفلاحة فضلاً عن الطب والكيمياء ، وبستان المسرّة أعظم دليل على ذلك . وهو بستانٌ أحدثه عبد المؤمن بضاحية مراكش ، طوله فيما يقول ابن عذارى وصاحبُ الحُلل ثلاثة أميال وعرضه قريبٌ من ذلك . وكان فيه كلُّ فاكهة تُشتهى وجلب إليه الماء من أغصان زيادةً على ما استنبط له من العيون الكثيرة . وأنشأ فيه صهريجاً واسعاً كالبخيرة كان يمرّ فيه الجنود وشيوخ الموحدين على العَوم والتجذيف كما في الحُلل . وهذا الصّهريج هو المعروف بالمنارة الكائن في أكدال مراكش . قال ابن إليّس : وما خرجت أنا من مراكش في سنة ثلاثٍ وأربعين وخمسمائة إلا وهذا البستان الذي غرسه عبد المؤمن يبلغ مبيع زيتونه وفواكه ثلاثين ألف دينار مؤمنيةً على رخص الفاكهة بمراكش . قال النّاصري : « ودعاه ابن عذارى ببستان المسرّة وقال انه بظاهر جنان الصّالحة . ولشهرة هذا البستان وموقعه من الناس لهجت به صبيانهم وسجعوا به فيقولون :

يا جرادة مالحة ، أين كنت سارحة ، في جنان الصّالحة ... في أسجاع غير هذه

تجربي على السنة الصبيان . وما زال هذا النشيد الشعبي مرويّاً عند الصغار حتى الآن .

ثم بعد هذا لا نخال القول بتقدم الصنائع النفيسة والفنون الجميلة كالنقش والتزويق وعمل الفسيفساء والمقربص إلا خبراً بعلوم . فقد رأيت ما كان بها من الاهتبال ، وعليها من الإقبال ، حتى أنهم لم يخلوا منها المستشفى الذي أنشئ لغير من يهمهم أمرها من المرضى . ولكن الغاية في هذا الباب هو ما عمله عبد المؤمن في تحلية المصحف العثماني الإمام . وقد كتب في ذلك وزيره ابن طفيل رسالةً بديعةً نرى أنفسنا مضطرين إلى نقل ما يتعلق منها بهذا الغرض . قال بعد أن استهلها ببيان كيفية وصوله إلى عبد المؤمن بطريق الهدية من أهل قرطبة بعد أن تعلق به نفسه جداً التعلق ، لكنه أبى أن يسلبهم تلك الذخيرة الثمينة ويوحش أنفسهم بفقدته حتى جادوا به بمحض اختيارهم طيبةً به أنفسهم :

« ثم إنهم أدام الله سبحانه تأييدهم ، ووصل سعودهم ، لما أرادوا من المبالغة في تعظيم المصحف المذكور واستخدام البواطن والظواهر فيما يجب له من التوقير والتعزير ، شرعوا في انتخاب كسوته ، وأخذوا في اختيار حليته ، وتأنقوا في استعمال أحفظته ، وبالغوا في استجادة أصواته ، فحشروا له الصنائع المتقنين ممن كان بحضرتهم العلية ، وسائر بلادهم القريبة والقريبة . فاجتمع لذلك 'حذاق' كل صناعة ومهرة كل طائفة من المهندسين والصوّاعين والنظّامين والحلّائين والنقّاشين والمرصّعين والنجارين والزوّاقين والرسميين والمجسّدين وعرفاء البنّائين ولم يبق من يوصف ببراعة ، وينسب إلى الحذاق في صناعة ، إلا أحضر للعمل فيه ، والاشتغال بمعنى من معانيه ، فاشتغل أهل الحيل الهندسية بعمل أمثلة مخترعة ، وأشكال مبتدعة ، وضمّنوها من غرائب الحركات ، وخفيّ إمداد الأسباب للمسببات ، ما بلغوا فيه منتهى طاقتهم ، واستفروا فيه جهد قوتهم . والهمة العلية أدام الله سموها تترقى فوق معارجهم ، وتتخلص كالشهاب الثاقب وراء مواجهم ، وتنيف على ما ظنوه الغاية القصوى من لطيف مدارجهم ؛ فسلّكوا من عمل هذه الأمثلة كل شعب ، ورأبوا من منتشرها كل شعب وأشرفوا عند تحقيقها ، وابرّاز دقيقها ، على كل صعب ، فكانت منهم وقفة كادت لها النفوس تياس عن مطلبها ، والخواطر تكرر راجعة عن خفي مذهبها ، حتى اطلع الله خليفته في خلقه ، وأمينه المرتضى لأقامة حقه ، على وجه انقادت فيه تلك الحركات

بعد اجتياصها ، وتخلصت أشكالها عن الاعتراض على أحسن وجوه خلاصها ، ألقوا ذلك أيدهم الله بنصره ، وأمدّهم بمعونته ويُسره ، الى المهندسين والصُّناع فقبلوه أحسن القبول ، وتصوَّروه بأذهانهم قرأوه على مطابقة المأمول . فوقفهم حسنُ تنبيه ما جهلوه على طور غريب من موجبات التعظيم ، وعلموا أن الفضل لله يؤتية من يشاء والله ذو الفضل العظيم ، وسيأتي بعد هذا إشارة الى تفصيل تلك الحركات المستغربة ، والاشكال المؤنقة المعجبة ، مما صنع للمصحف العظيم ، من الأصونة الغريبة ، والأحفظة العجيبة ، أنه كُسيَّ كله بصوان واحد من الذهب والفضة ذي صنائع غريبة ، من ظاهره وباطنه ، لا يشبه بعضها بعضاً ، قد أجري فيه من الوان الزجاج الرومي ما لم يُعهد له في العصر الاول مثالٌ ولا عمَر قبله يشبهه خاطر ولا بال ، وله مفاصل تجتمع اليها أجزاءه وتلتئم ، وتتناسق عجائبه وتنظم ، قد أميلت للتحريك أعطافها ، وأحكم إنشائها على البغية وانعطافها ، ونظَّم على صغيفته وجوانبه من فاخر الياقوت ونفيس الدُر وعظيم الزُّمُرْد ما لم تزل الملوك السالفة ، والقرون الخالفة ، تتنافس في أفراده ، وتتوارثه على مرور الزمن وترداده ، وتظنُّ العزَّ الأقعس ، والملئكَ الأنفس ، في ادِّخاره وإعدادة ، وتسمي الواحد منها بعد الواحد بالاسم العَلَمَ لشذوذه في صنعه واتحاده ، فانتظم عليه منها ما شاكلة زهر الكواكب في تلالئه واتِّقاده ، وأشبهه الروض المزخرف غبَّ سماءٍ أفلعت عن إمداده ، وأتى هذا الصَّوان الموصوف رائق المنظر ، آخذاً بمجامع القلب والبصر ، مستولياً بصورته الغريبة على جميع الصور ، يدهش العقول بهاءً ، ويحير الألباب رواءً ، ويكاد يُغشي الناظر تألُّقاً وضياءً ؛ فحين تمَّت خصاله ، واستركبت أوصاله ، وحان ارتبأطه بالمصحف العظيم واتَّصاله ، رأوا أدام الله تأييدهم ، وأعلى كلمتهم ، بما رزقهم الله تعالى من ملاحظة الجهات ، والإشراف على جميع الشَّئيات ، ان يُتَلَطَّف في وجهه يكون به هذا الصَّوان المذكور طوراً متصلاً وطوراً منفصلاً ، ويتأتَّى به للمصحف الشريف العظيم أن يُبرز تارة للخصوص متبذلاً وتارة للعموم متجملاً ، إذ معارج الناس في الاستبصار تختلف ، وكلُّ له مقام اليه ينتهي وعنده يقف ، فعُمل فيه على شاكلة هذا المقصد . وتُلفظ في تتميم هذا الغرض المعتمد ، وكُسيَّ المصحف العزيز بصوان لطيف من السُّنْدُس الأخضر ، ذي حلية عظيمة خفيفة تلازمه في المغيب والمحضر ، ورُتِّب ترقيباً يتأتَّى معه ان يُكسى بالصَّوان الأكبر ، فيلتئم به التثاماً يُغطِّي على العين من هذا الأثر . وكُمِّل ذلك كله على أجمل الصفات وأحسنها ،

وأبداع المذاهب وأتقنها ، وُصنع له محملٌ غريب الصنعة ، بديع الشكل والصبغة ، ذو مفاصل ينبوع عن دقتها الادراك ، ويشهد بها الارتباط بين المفصلين ويصح الاشتراك ، مغطى كله بضروب من الترصيع ، وفنون من النقش البديع ، في قطع الأبنوس والخشب الرفيع ، لم تعمل قط في زمن من الأزمان ، ولا انتهت قط الى أيسره ثواقب الأذهان . مدار بصنعة قد أجريت في صفائح الذهب ، وامتدت امتداد ذوائب الشهب ، وُصنع لذلك المحمل كرسى يحمله عند الانتقال ، ويشاركه في أكثر الأحوال ، مرصع مثل ترصيعه الغريب ، ومشاكل له في جودة التقسيم وحسن الترتيب ، وُصنع لذلك كله تابوتٌ يحتوي عليه احتواء المشكاة على أنوارها ، والصدور على محفوظ أكارها ، مكعب الشكل ، سام في الطول ، حسن الجملة والتفصيل ، بالغ ما شاء من التتميم في أوصاله والتكميل ، جار مجرى المحمل في التزيين والتجميل ، وله في أحد غواربه باب رُكبت عليه دفتان قد أحكم إرتاجها ، ويُسر بعد الإبهام انفراجها ، ولانفتاح هذا الباب وخروج الكرسي من تلقائه ، وتركيب المحمل عليه ، ما دبّرت الحركات الهندسية ، وتلقّيت التنبهات القدسية ، وانتظمت المعجائب المعنوية والحسية ، والتأمت الذخائر النفيسة والنفسيّة ، وذلك ان بأسفل هاتين الدفتين فيصلا فيه موضع قد أعد له مفتاح لطيف يُدخل فيه . فاذا دخل ذلك المفتاح فيه وأديرت به اليد انفتح الباب بانعطاف زائدة الدفتين الى داخل الدفتين من تلقائهما ، وخرج الكرسي من ذاته بما عليه الى أقصى غايته . وفي خلال خروج الكرسي يتحرك عليه المحمل حركة منتظمة مقترنة بحركة يأتي بها من مؤخر الكرسي زحفاً الى مقدّمه . فاذا كمل الكرسي بالخروج وكمل المحمل بالتقدم عليه ، انغلق الباب ب رجوع الدفتين الى موضعها من تلقائهما دون أن يمسهما أحد ، وترتيب هذه الحركات الأربع على حركات المفتاح فقط دون تكلف شيء آخر . فاذا أدير المفتاح الى خلف الجهة التي أدير اليها أولاً ، انفتح أولاً الباب وأخذ الكرسي في الدخول والمحمل في التأخر عن مقدم الكرسي الى مؤخره ؛ فاذا عاد كل الى مكانه انسد الباب بالدفتين ايضاً من تلقائه . كل ذلك يترتب على حركات المفتاح كالذي كان في حال خروجه . وصحة هذه الحركات اللطيفة على أسباب ومسببات غائبة عن الحس في باطن الكرسي ، وهي مما يدق وصفها ويصعب ذكرها ، أظهرتها بركات هذا الأمر السعيد ، وتنبيهات سيدنا ومولانا الخليفة أدام الله تعالى أمرهم ، وأعز نصرهم . »

هذا ما أردنا نقله من رسالة ابن طفيل وهي على طولها ممتعة ومفيدة في معرفة مدى ما وصلت اليه هذه الصنائع الدقيقة من الرقي والكمال . ودون هذا فان صنائع أخرى جلية كانت في غاية من التقدم والاتقان كصناعة الأسلحة بجميع أنواعها والآلات الحربية والسفن ، وكان لهذه دوراً كبيراً في مختلف الموانئ . وفيها صنع الاسطول المغربي العظيم الذي كان يصول ويحول في عرض البحر . واقرأ إن شئت في نفح الطيب ما للشعراء في وصفه من القصائد الطنانة التي تستشعر منها روح الفخار وتتعرف عظمة الأجداد .

وفي هذه الاثناء كان الشريف الادريسي في صقلية يتقربى البلاد بجرأ وبراً لأجل أن يؤلف كتابه (نزهة المشتاق في اختراق الآفاق) ، فيخلف لنا ذلك المستند الجغرافي الذي ما برح مرجعاً مهماً للمستكشفين وأرباب الرحلات ووضعته الخرائط والمصورات .

واذا كانت مظاهر الحضارة لشعب من الشعوب تتمثل في شتى نواحي حياته الاجتماعية كما تتمثل في النهضة العلمية والصناعية فان من أخص هذه النواحي ما يتصل بخفض العيش وترف البيت ، وأجلى ما يتمثل فيه ذلك المطبخ . ومن ثم قال بعض الحكماء : « أرني مطبخ أية أمة أحدثك عن حضارتها » . والواقع ان المطبخ المغربي في هذا العصر بلغ الغاية من التفنن في إعداد أنواع المطاعم والمشارب واتقانها بما لا نعرف له مثيلاً الآن . وقد أفدنا هذا من كتاب في الموضوع لمؤلف معاصراً تحدث إلينا عن أكثر من خمسمائة لون من ألوان الطعام والشراب والحلوى والمربى وما الى ذلك مما كان يعمل للخلفاء الموحدين والأمراء منهم ورجال دولتهم على العموم . ومنهم ما يحمل اسم بعضهم لكونه كان يعجبه كثيراً أو لكونه من اقتراحه . ومنها ما يعرف باسمه العام ، ومنها ما يعرف بصفته . وبعض هذه الاسماء لا يزال عندنا مستعملاً . والمهم هو أن من هذه الأطعمة ما ينسبه بعض الناس اليوم الى الأتراك ويعتقدون أنه مما أخذ عنهم أثناء حكمهم للقطر الجزائري بموجب المداخلة

١ - هو مخطوط مجهول المؤلف ، كتب الاستاذ وريسي المشرق الاسباني المعروف بحثاً عنه في مجلة معهد الدراسات الاسلامية بمدريد ، المجلد الخامس الصادر في سنة ١٩٥٧ .

والاتصال ، مع أنه مما كان موجوداً في عصر الموحدين هذا ، قبل ظهور الاتراك ووصولهم الى المغرب بكثير .

ولعل قائل يقول وما نصيب المرأة في هذه النهضة الشاملة الكاملة ، وهي التي إذا عدمت مشاركتها في عمل ما يعتبر غير كامل ولا شامل . والجواب أن المرأة المغربية كانت دائماً عنصراً فعالاً في تطور البلاد وتقدمها وازدهارها . وقد ذكرنا عملها العظيم في العصر الأول الذي يتمثل في تأسيس كلية القرويين ومشاركتها في الأعمال السياسية والأدبية في العصر المرابطي . ولا يشذ هذا العصر عن سالفه في أخذ المرأة بأسباب النهوض ، بل إنه يعطينا أمثلة رائعة لمساهماتها في ضروب النشاط الفكري باطلاق من علمي وأدبي . فمن الاسماء اللامعة التي عرفت بصفتها العلمية السيدة زينب ابنة الخليفة يوسف بن عبد المؤمن . كانت عالمة فاضلة أخذت علم الكلام عن أبي عبدالله بن ابراهيم ، وهي زوج ابن عمها السيد أبي زيد بن أبي حفص بن عبد المؤمن . ومن نساء الشعب السيدة خيرونه التي ألف الامام السلاحي عقيدته البرهانية من أجلها . ولا شك ان لها يداً في نشر التوحيد على مذهب الأشعري بين نساء أهل فاس إسوة باستاذها الذي ألمعنا الى عمله في هذا الصدد . ومنهن في علم الرواية والحديث الشّيخة أمّ المجد مريم بنت أبي الحسن الشاربيّ صاحب المدرسة بسبّعة . ومنهن في علم الفقه السيدة محلة المراكشية التي كانت من حفاظ المدونة ، ومنهن في التصوّف والعلوم الدنيوية السيدة منية بنت ميمون الدُّكتالي وسواها كثيرات . وهذا الصنف من السيدات هو الذي يتسامح كتّاب الطبقات بذكره في مؤلفاتهم ؛ فلذلك نقف على العدد العديد منهن ، في حين ان الأصناف الأخرى إنما تذكر اسماءهن عرضاً في تضاعيف الكتب . ولعلّ الاتصال الذي كان مسموحاً به في العُرف لهؤلاء السيدات بصفتهم من الصالحات القاتنات له دخلٌ في ذلك . واما في العلوم الأدبية والكتابة والشعر فقد سبقت الإشارة الى السيدة رُميلة من بيت الخلافة الموحدية ، وما كان لها من فصاحة وبلاغة في النظم . ومن نساء الشعب النابغات في ذلك السيدة الشريفة أمة العزيز بنت أبي محمد بن الحسن ابن أبي الجسّام الحسيني السبتي . ذكرها ابن دحية في المطرب وقال انها أخت جده لأمه . ومنهن السيدة حفصة بنت القاضي أبي حفص بن عمر . وقد ذكرها الشاعر

أبو العباس الجراوي في شعره وذكر نبوغها على طريقته في الهجاء والتعريض، فأجاب عنها والدُّها ولم تتنزّل هي لجوابه ترفعاً وتضاوفاً. ومنهنّ السيدة ام النساء بنت عبد المؤمن التاجر الفاسي، ذكرها ابن عربي الحاتمي في كتاب المحاضرات وقال إنها تجيد الشعر وقد أنشدت للسيد أبي علي صاحب فاس عند ولايته عليها قصيدة تقول في مَطْلَعِها :

جاء البشيرُ بوعدٍ كان يُنتظرُ فأصبح الحقُّ ما في صفوه كَدَرُ
من خير هادٍ غدا بالهدى يأمرنا وفي أوامره التّسديدُ والنّظرُ
وفيهما تصفه بالشجاعة :

ليثُ إذا اقتحم الأبطالُ حوَمَها يُفني الكتابَ لا يُبقي ولا يذرُ
ويضيق المقام عن استيفاء الكلام على جميع مظاهر النهضة العلمية الكبرى في هذا العصر فلنكتف بهذا القدر فان فيه غنية لذوي الألباب .



الهَيْئَةُ الْعِلْمِيَّةُ وَآثَرُهَا

نرى من تتمة البحث السابق ، أن نُذيلَه بكلمات مختصرة جداً في حياة بعض الأفراد الذين كانوا قِوام الحركة العلمية في هذا العصر ، فنُحيي ذكرياتهم ، ونتعرّف أحوالهم ولو بصفة إجمالية ، ونُضيف الى ذلك جريدةً بأسماء الكتب المؤلفة فيه ، في مختلف العلوم والفنون ، فنُحيط علماً بالمجهودات الطائفة التي بذلها أسلافنا رحمهم الله في خدمة العلم ، ونتصوّر الحركة العلمية الموحدة على حقيقتها، حتى لا نبقى متشوّقين بعد ذلك إلى زيادة بيان .

أَبُو الْقَاسِمِ الْجَزِيرِي

عليّ بن يحيى بن القاسم الصنّهاجي ، يكنى أبا القاسم وأبا الحسن ، أصله من بلاد الريف ونزل الجزيرة الخضراء فنُسب إليها . كان فقيهاً متمكناً يشتغل بالتدريس وعقد الشروط ، ثم ولي قضاء الجزيرة ، وكان متواضعاً كثير الأوراد صاحب علم وعمل . وله في الشروط مختصر مفيد جداً سُمّي بالمقصد المحمود في تلخيص العقود ، كثر استعمال الناس له لجودته ودلالته على معرفته ، قاله ابن الأبار . وهو من مصادر تحفة الحكم لابن عاصم ، كما صرّح بذلك في خطبتها . وتوفي في الجزيرة في شهر ربيع الأول سنة ٥٨٥ وهو ابن ٦٠ سنة .

أَبُو مُحَمَّدٍ مَدَّ صَالِح

فقيه فاس وصالحها ، أبو محمد صالح بن جنثون الهسكوري المضروب مثلاً بين الفقهاء للعدل المبرّز . وهو الفائق في العدالة بمعنى الشهادة ؛ لجمعه بين المعرفة والنزاهة . ولذلك يختصُّ بأحكام عن بقيّة العدول أي الشهود ، وأول من ضربه

مثلاً لذلك ابنُ عرفة الفقيه المشهور . أخذ المترجم عن الشيخ أبي محمد يَشْكُر فقيه فاس قبله وأخذ عنه الفقيه أبو الفضل راشدُ الوليدي صاحب كتاب «الحلال والحرام» والشيخ أبو إبراهيم الأعرج صاحب «الطُّرُر على المدوَّنة» وله تقييد على الرسالة كُتِب من إملائه في درسه لها . وتوفي سنة ٦٥٣ وهو غير أبي محمد صالح صاحب الطريقة الصوفية التي جعلت من أهم أغراضها الحج الى بيت الله الحرام . نعم إنشأها كانا متعاصرين ، والأول فاسي ، والثاني آسفي .

عبد الجليل القصري

أبو محمد عبد الجليل بن موسى بن عبد الجليل الأوسني الأنصاري من أهل القصر الكبير ، وبالنسبة اليه شهر ، روى عن ابن حُنين أخذ عنه الموطأ بفاس ولازم أبا الحسن بن غالب بالقصر الكبير ، وحدث بكتاب اليقين من تأليفه ، كما روى عن غيرهما . وألّف كتاب تفسير القرآن وشُعَب الإيمان وشرح الأسماء الحسنى والأسئلة والأجوبة ، وفسّر مُشكل الكتاب والسُنّة في سِفر ومط وغير ذلك . وتأليفه كلها جليلة مفيدة في بابها لم يُسبَقَ إليها ، وكلامه في طريق التصوُّف سهل محرّر مضبوط بظواهر الكتاب والسنة ، قاله ابن الزُّبَيْر ، وكانت له مشاركة في علوم شتى ، وتصرّف في الأدب واللغة والنحو وغير ذلك ، ورزق من علاء الصيت وجميل الذكر ما لم يُرزقه كثير من الناس ، وتوفي رحمه الله بسبّعة سنة ٦٠٨ .

المزدغي

هو أبو الحجاج يوسف بن عمران المزدغي الفاسي ، أحد الفقهاء الأعلام . أخذ بفاس عن أبي ذرّ الحُشَني وأبي محمد بن ريدان ، ولقي بتمسان الفقيه أبا عبد الله بن عبد الرحمن التَّجِيبِي ؛ فأخذ عنه وأجاز له . ورحل الى الأندلس فقرأ بقرطبة وإشبيلية على جُلّة أسيّاخها ، وكان عالماً بالنحو واللغة والبديع ، ذاكرةً للتاريخ والآداب ، ينصُّ كتاب زهر الآداب وكتاب الأمالي ومقامات الحريري وكتب السيّر نصاً

واقترصر على إقراء الحديث والتفسير فكان إماماً فيها ، وله تفسير جليل وصل به الى سورة تبارك المملك وهو من أبدع التفاسير . وله تأليف مفيدة في فنون شتى ، منها كتاب الفرق بين الأغنياء المعنئيين والفقراء المضطرين ، وما يجب في ذلك على الولاة الأمرين وعلى جميع المسلمين ، وهو فيا يجب للفقراء في أموال الأغنياء ، وكتاب في الوباء وضعه على حديث « إذا نزل الوباء النخ » . وعقيدة وشرح الأحكام ، وأرجوزة في علم الأصول مفيدة قريبة المرام أولها :

الحمد لله العليّ الأعلى رب العوالي والعُلا والسُفلى
ومليك الدنيا ويوم الدين ومُبدع الخلق بلا مُعين
أحمدُه حمداً يوازي فضله فليس شيء في الوجود مثله

ولد سنة ٥٧٧ وتوفي سنة ٦٥٥ .

مُحمَّد بن قاسم التَّبَّي

من أهل فاس يكنى أبا عبد الله ، سمع من ابن حنين وغيره ، ورحل الى المشرق رحلة خافلة ، أقام فيها خمسة عشر عاماً ، ولقي نحواً من مائة شيخ أكثر من الرواية عنهم وتوسّع في السماع منهم ، وأجاز له بعضهم . ومن أعلامهم أبو طاهر السلفي وأبو عبد الله الحضرمي وأبو محمد بن برّي وأبو القاسم البوصيري وسواهم . وجمع في ذلك فهرسة كبيرة سماها بالنجوم المشرقة في ذكر من أخذت عنه من كل ثبت وثيقة ، واختصر منها جزءا اقتصر فيه على مسموعه من أكثرهم دون استيفاء أسمائهم ، ومن مصنفاته أدب المريد ورسالة الحنين الى الأوطان ، واللمعة في ذكر أزواج النبي صلى الله عليه وسلم وأولاده السبعة والإنابة في ذكر طريق أهل الاستجابة ، والمستفاد من مناقب العباد والزهاد بمدينة فاس وما يليها من البلاد وغير ذلك . وكان من رجال الحديث والمعرفة بتراجم الرجال ، ومن أهل التصوُّف والصلاح ، وحدث بالمشرق والمغرب . ومن أخذ عنه ابن الكردبوس وابن عربي وتوفي ببلده في حدود سنة ٦٠٤ .

ابن القطان

هو المحدث الحافظ النظار أبو الحسن علي بن محمد بن عبد الملك بن يحيى بن ابراهيم الكتامي الحميري الفاسي المعروف بابن القطان . سمع أبا عبد الله بن الفخار فأكثر عنه وأبا الحسن بن النقرات وأبا جعفر بن يحيى الخطيب وأبا ذر الحسني وجماعة . وكان من أبصر الناس بصناعة الحديث وأحفظهم لأسماء رجاله ، وأشدهم عناية بالرواية مع تفنن ومعرفة ودراية ، جمع برنامجاً مفيداً في شيوخه ، نقل منه ابن الأبار في التكملة ، ورأس طلبة العلم بمراكش ، ونال دنيا عريضة بخدمة السلطان . وله تأليف منها كتاب النزاع في القياس ، في إبطال القياس ، وكتاب الوهم والإيهام الواقعين في كتاب الأحكام لعبد الحق الاشبيلي ، ومختصر النظر في أحكام النظر ، ومقالة في المكاييل والأوزان . وتوفي بسجلماسة وهو قاضيه في شهر ربيع الأول سنة ٦٢٨ .

عثمان السلاجي

هو الشيخ المتكلم النظار أبو عمرو عثمان بن عبد الله بن عيسى ، ويقال عسلوج القيسي الفاسي ، عُرف بالسلاجي نسبة الى جبل سليلجُو بقرب مدينة فاس ، كان راسخ القدم في علم الاعتقاد على مذهب الامام الأشعري ، وكان المغرب في أيام طلبه لا يزال يعتنق مذهب السلف في العقيدة ، وصادف ظهور الموحدين ودعوتهم الى المذهب الأشعري فتكبد المشاق في طلب هذا العلم . ثم جاهد جهاد الأبطال في سبيل نشره وتعميمه بين الناس ومن ثم قيل إنه هو الذي أنقذ أهل فاس من التجسيم أي من اتباع مذهب السلف الذي كان الموحدون يسمّون أتباعه مجسمين ، نكايه بأعدائهم المرابطين الذين كانوا على هذا المذهب . وقد أراد رجال الدولة الجديدة تقريبه وإلحاقه بحاشيتهم فعزف عن ذلك ، وانقطع الى بث العلم ، مخلصاً النية في ذلك لله عز وجل ، مجنباً نفسه التورط فيما كانوا يدعون اليه من البدعة ، وينتحلونه من مذاهبها . أخذ عن محمد بن عيسى التادلي وأبي الحسن بن حرزهم

ومحمد بن الرّمّامة وغيرهم من شيوخ فاس ، وأتقن علم العقائد على ابن الاشيلي وألّف عقيدته البرهانية لامرأة صالحة كانت بفاس تسمى خيرونه وهي في صفحات وتوفي بفاس سنة ٥٧٤ هـ .

ابن الكتّاني

هو العلامة المتكلم ، الأصولي الأديب ابو عبدالله محمد بن عبد الكريم الفندلاوي الفارسي يعرف بابن الكتّاني . قال ابن الابار : كان إماماً في علم الكلام وأصول الفقه ، مدرّساً لذلك حياته كلها ، وكان له حظ من الأدب ، وله رجزٌ في أصول الفقه ، أخذ عنه وسمع منه . وروى عنه جماعة منهم أبو محمد النّاميسي وأبو الحسن الشاري ، وقال : أخذت عنه جملة وافرة من إرشاد أبي المعالي وتلخيصه تفهّماً ، وسمعت عليه رجزه . وله أيضاً كتاب تفسير الأكيال والأوزان نقل عنه بعض شراح الرسالة . وهو من أخذ عن الامام السلاجي ، وتوفي في ذي الحجة سنة ٥٩٦ هـ .

أبو العباس السّبي

أحمد بن جعفر الخزرجي أحد كبار المتصوفة ومشاهيرهم الآخذ بمذهب غريب في الدين ، مولده في سبتة بلده سنة ٥٢٤ واستوطن مراكش وبها توفي سنة ٦٠١ .

كان مذهبه ألا يترك لنفسه ناصاً من المال إلا قدر ما يقوته وعياله في يومه ، وباقيه يتصدق به . وكان يرى أن أهل الجمال من النساء الفقيرات تجب الصدقة عليهن مخافة فسادهن ، وأن القبيحات لا يتصدق عليهن حتى يستغني الملاح ، وكان يرى أن الرجل اذا اعتلّ في جسده عضوٌ يتصدق بديّته ويبرأ . فهو أول اشتراكي وضع للاشتراكية مبادئ وقوانين كما ترى . وحدث أبو القاسم عبد الرحمن ابن إبراهيم الخزرجي قال : بعثني أبو الوليد بن رشد من قرطبة وقال لي : إذا رأيت أبا العباس السّبي بمراكش فانظر مذهبه واعلمي به . قال فجلستُ مع السّبي كثيراً

الى أن حصلت مذهبه فأعلمته به ، فقال لي أبو الوليد : هذا رجل مذهبه أن الوجود
ينفعل بالوجود . وكان فصيح اللسان قادراً على الكلام ، لا يناظره أحد إلا أفجمه ،
حق كأن مواقع الحجج من الكتاب والسنة موضوعة على طرف لسانه . وكان مع
ذلك حليماً صبوراً عطوفاً يحسن الى من يؤذيه ، ويحلم عن يسفه عليه ، برأ
باليتامى والمساكين ، رحيماً بهم ، يجلس حيث أمكنه الجلوس من الأسواق
والطرق ، ويحض الناس على الصدقة ويأتي بما جاء في فضلها من الآيات والآثار
فتنهال عليه من كل جانب فيفرقها على المساكين وينصرف .

وكان ناسكاً متعبداً ورده القرآن يتلوه آناء الليل وأطراف النهار . وقد
اتخذ أنيساً وسميراً واستخرج منه من دقائق العلوم ولطائف الإشارات في المجاهدة
ورياضة النفس شيئاً عجيباً . وبالجملة فهو رجل من أعاجيب الدنيا ، وترجمته
أوسع من هذا .

عبد السلام بن مشيش

هو الشيخ العارف الكامل أبو محمد عبد السلام بن مشيش بن أبي بكر بن علي بن
حرمة بن عيسى بن سلام بن المزوار بن حيدرة بن محمد بن ادريس بن ادريس بن عبد الله
الكامل ابن الحسن المثني بن الحسن السبط بن علي بن أبي طالب ، كعبة العلم المنيف ،
ونبغة النسب الشريف . بيند أنه لم يعتمد غير العمل الصالح ، وسلوك المنهج الواضح ،
قائلاً في صلاته المشهورة الآتية : اللهم ألحقني بنسبه ، وحققني بحسبه . وقد سأله
رجل أن يوظف عليه وظائف وأوراداً يعمل بها فقال : أرسول أنا ؟ الفرائض
مشهورة ، والمحرمات معلومة ، فكن للفرائض حافظاً ، وللمعاصي رافضاً ، واحفظ
نفسك من ارادة الدنيا وحب النساء وحب الجاه وإيثار الشهوات ، واقنع من ذلك
بما قسم الله لك ، إذا خرج لك مخرج الرضى فكن لله شاكراً ، وإذا خرج لك مخرج
السخط فكن عليه صابراً . ورفض الدنيا قطب تدور عليه الخيرات ، وأصل جامع
لأنواع الكرامات ، وحصون ذلك كله أربعة : الورع وحسن النية وإخلاص العمل
ومحبة العلم . ولا تتم له هذه الجملة إلا بصحبة أخ صالح ، أو شيخ ناصح . وكلامه

رحمه الله كله من هذا القبيل ، ويكفيك أنه بمثل هذه الدروس الجامعة تخرج عليه الشيخ أبو الحسن الشاذلي مؤسس الطريقة الشاذلية المنتشرة في العالم الاسلامي ، فهو أحد أقطاب التصوف الذين عليهم المدار . توفي رحمه الله شهيداً حوالي ٦٢٥ قتلته بجبل العلم قومٌ بعثهم لقتله ابن أبي الطواجين الكتامي الساحر المتنبئ . فدفن بقنّة الجبل المذكور .

أَبُو مُوسَى الْجَزُولِي

عيسى بن عبد العزيز بن يلبخت بن عيسى بن يوماريلى اليزدكي الجزولي المراكشي . كان إماماً في النحو ، كثير الاطلاع على دقائقه وغريبه وشاذه ، وصنّف فيه المقدمة التي سماها بالقانون فأتى فيها بالعجب العجّاب . وهي في غاية الایجاز مع الاشتغال على شيء كثير من النحو ، ولم يُسبق الى مثلها ، واعتنى بها جماعة من الفضلاء فشرحوها ، ومنهم من وضع لها أمثلة . ومع هذا كله فلا تُفهم حقيقتها ، وأكثرُ النحاة ممن لم يكن أخذوها عن موفق يعترفون بقصور أفهامهم عن إدراك مراده منها . فانها كلُّها رموز وإشارات ، هذا ما يقوله ابن خلكان عنها ، قال : ولقد سمعت من بعض أئمة العربية المشار اليه في وقته : « أنا ما أعرف هذه المقدمة وما يلزم من كوني ما أعرفها أن لا أعرف النحو » . وفي هذا الكلام مبالغة لعل الحامل عليها هو هذه الصياغة المنطقية التي صيغت بها المقدمة من الحدود والتعاريف والقضايا الكلية التي تنطبق على الأحكام الجزئية مع خلوّها من الأمثلة والشواهد التي توضح المعنى المراد ، فجاءت بذلك مركّزة تركيزاً يجمع زبدة النحو ومهماته في ألفاظ قليلة ، ومن ثمّ قال فيها مجد الدين بن ظهير الإريلي منوهاً بهذه الظاهرة التي كانت سبب التحامل عليها من هؤلاء :

مُقدِّمة في النحو ذاتُ نتيجةٍ تناهتُ فأغنتُ عن مقدِّمةٍ أخرى
حَبَّانا بها بحرٌ من العلم زاخِرٌ ولا عَجَبٌ للبحر أن يقذِفَ الدُّرا

وتُسمّى المقدمة ايضاً بالكراسة والقانون والاعتاد .

سافر ابو موسى الى المشرق فحجّ ولازم ابن برّي بمصر ، ثم عاد فتصدّر للاقراء ببجاية والمريّة ، وأخذ عنه جماعة منهم الشلوّيين وابن معطٍ . وكان قارئاً حافظاً جيّد التفهيم حسن العبارة . ولي خطابة مراکش وله أمال في النحو ، ومختصر الفسر لابن جِنّي في شرح ديوان المتنبي ، وشرح اصول ابن السراج وغير ذلك . وتوفي سنة ٦٠٧ بمراكش رحمه الله .

ابن معطٍ

هو الإمام زين الدين أبو زكريا يحيى بن معط بن عبد النور الزواوي القبيلة المغربي الأصل والنشأة الجزولي البلد . اشتغل بالعربية على أبي موسى المتقدم فتممّ فيها وكان مُبرّزاً في علم الأدب ، قادراً على النظم للعلوم . ورحل الى بلاد مصر فلقى المشايخ ، وباحث العلماء وناظرهم . ثم انتقل الى دمشق وسكن بها طويلاً ، وولاه الملك المعظم النظر في مصالح المساجد وفي ذلك الوقت نظم الفيتة في النحو التي عمل ابن مالك على مثالها الفيتة المشهورة . ولما توفي الملك المعظم نقله الملك الكامل الى مصر ؛ فتصدر بالجامع العتيق لإقراء الأدب . وله غير الألفية نظم في العروض ونظم جمهرة ابن دريد في اللغة . وشرع في نظم كتاب الصحاح للجوهري فمات قبل اكماله . كانت ولادته سنة ٥٦٤ وتوفي سنة ٦٢٨ رحمه الله .

إبنا دحيّه

هما الشيخان المحدثان الحافظان اللغويان الأديبان أبو عمرو عثمان وأبو الخطاب عمر ابنا الحسن بن علي بن محمد الجليل بالتصغير ، وبه كانا يُعرفان أولاً ؛ فيقال لكل منهما ابن الجليل ، ثم عرفا بعد بابني دحية لانتسابهما الى دحية الكلبي الصحابي الجليل ، وأصلهما من مدينة سبته . كانا علمين شهيرين في حفظ الحديث والمعرفة بعلم اللغة وأيام العرب وأشعارها ، والنحو والتاريخ وغير ذلك ، أخذوا ببلاد المغرب وافريقية والأندلس عن مشايخها المعروفين ، وانفرد ابو الخطاب بالتجول في بلاد المشرق؛ فدخل

الشام والعراق وخُراسان وما والاها، وأكثر من السماع وأخذ عنه الناس كذلك. ومرّ في طريقه الى خراسان بمدينة إربل ؛ فوجد ملكها مُظفّر الدين التركماني مولعاً بعمل المولد النبوي فألف له كتاب « التنوير في مولد السراج المنير ». واستقر هو وأخوه بمصر ، وكان لصاحبها الملك الكامل بن أيوب عناية كبيرة بهما ، وبني لأبي الخطاب دارَ الحديث الكامليّة بالقاهرة ثم سلمها لأخيه أبي عمرو ، وكانا يميلان الى النظر والاجتهاد وربما 'نسبا الى الظاهرية' ، ولأبي الخطاب تأليف مفيدة مضت الاشارة الى بعضها ويأتي ذكرها جميعاً في نهاية هذا الفصل ، وتوفي أبو الخطاب في سنة ٦٣٣ وأخوه أبو عمرو بعده بسنة .

عبد الواحد المراكشي

هو عبد الواحد بن علي التميمي ، مؤرخ دولة الموحّدين . ولد بمراكش سنة ٥٨١ وأخذ بفاس والأندلس عن جماعة من العلماء ، وعُني بالأدب واللغة فكان طوداً راسخاً في فنونها . وله قلم بارع في الانشاء ، وطبع سائل في الشعر . وكان حُلُوّ النادرة ، عذب الفكاهة ، لطيف المحضر ، رقيق الحاشية . خدم الأمير إبراهيم بن يعقوب المنصور أيام ولايته على اشبيلية فنال عنده حظوة كبيرة ، وامتدحه بقصائد فذّة كان 'يجزل له عليها العطايا والهبات' .

ثم سافر الى مصر سنة ٦١٣ وفيها ألف كتابه المعجب في تلخيص أخبار المغرب جمع فيه بين تاريخ الأندلس والمغرب السياسي والأدبي من لدن فتح الأندلس الى سنة ٦٢١ أي الى مدة خلافة يوسف بن محمد الناصر الموحدي ، يستعرض أهمّ حوادث السياسة وأحسن صور الحضارة في كل عصر ، ثم لا يلبث أن يسرقه طبعه ، فيستطرد مواضع أدبية لها قيمتها في معرفة الحياة الفكرية في ذلك العصر ، وذلك كله بأسلوب رصين متزن ، لا تشوبه ركافة ولا تشويش ، مع تحري الصدق وتوخي الانصاف كما قال : « ولم أثبت في هذه الأوراق المحتوية على دولة المصامدة وغيرها إلا ما حققته نقلا من كتاب ، أو سماعاً من ثقة عدل ، أو مشاهدة بنفسي ؛ هذا بعد ان تحرّيتُ الصدق وتوخيت الانصاف في ذلك كله ، وجهدتُ ألا انقص

أحدًا ذرّة مما له ، ولا أزيده خرّذلة مما لا يستحقه » ولذلك فان هذا الكتاب يعدّ من أوثق المصادر في تاريخ هذا العصر .

ابنُ فَرْتُون

أبو العباس أحمد بن يوسف السّلميّ الفاسيّ المعروف بابن فرتون . هو أحدُ أعلام الرواية والتاريخ ، أخذ ببلده فاس عن أبي ذرّ الحشني ، وأبي القاسم عبد الرحيم ابن الملجوم ، وابن عمه عبد الرحمن ، وأبي محمد بن حوط الله ، وأبي القاسم بن زانيق وعدد غيرهم . وانتقل من بلده الى سبتة فأخذ بها عن عالم كثير من أهلها ومن الواردين عليها ، ودخل الأندلس فأخذ بالجزيرة الخضراء وبالقلة عن أهلها . ولما كان بحصن بليش من شرقي مالقة ، عرض له ما أوجب رجوعه الى سبتة فبقي بها ولم يخرج عنها الى حين وفاته ، واجتمع له سماع جمّ ، وكتب بخطه كثيراً وقيد واعتنى غاية الاعتناء حتى كان آخر المكثرين . وكان ذا كراً للرجال والتواريخ ، ول كثير من متون الأحاديث وقسط صالح من الجرح والتعديل وطبقات الناس ، وألف برنامجاً ضمنه ما رواه ، وألف الاستدراك على كتاب السهيلي المسمى بالتعريف والإعلام ، كما ألف كتابه الذيل على صلة ابن بشكوال ؛ فكان أول من فتح باب التذييل عليها الذي تبعه فيه ابن الزبير وهو تلميذه بكتاب صلة الصلة ، وابن عبد الملك المراكشي بكتاب الذيل والتكملة ، وابن الأبار بكتاب التكملة الخ . وكان كتاب ابن فرتون مادّة لجميعهم ، وعاش ابن فرتون زاهداً ورعاً ، ما اعتزّ بغير دينه ، ولا تصدّى لأحد من أهل الدنيا ولا تعرّض لحطة ولا غيرها . وتوفي في ٢٦ شعبان سنة ٦٦٦ .

لادريسي

هو العلامة الجغرافي الشهير ، أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله بن ادريس ، كان جده ادريس من ملوك الحموديين بالأندلس ، ومات سنة ٤٤٤ قبل اخراج الحموديين

من مالقة وإضافة مملكتهم الى غرناطة . أما هو فولد بسبته بلده ، ولعل سلفه كانوا انتقلوا اليها بعد سقوط دولتهم . خرج الادريسي سائحاً في شمال افريقيا وآسيا الصغرى والأندلس ، ثم استدعاه روجار الثاني ملك صقلية فقدم عنده ففرح به واكرم نزوله . وفي صقلية ألف كتابه « نزهة المشتاق في معرفة الآفاق » وصنع كرة سماوية ودائرة أرضية كلاهما من الفضة واستعمل في ذلك ثلث الفضة التي أعطاه له الملك ، ولما أتم العمل فيها زاده الملك مائة ألف درهم وشيئاً كثيراً من التخف . وألف أيضاً « روض الأنس ونزهة النفس » برسم غليوم الأول ولد روجار ، وهو أطول من نزهة المشتاق . وذكر أبو الفداء هذا الكتاب ولكنه سماه كتاب الممالك ، وله أيضاً كتاب « الأدوية المفردة » وذكره ابن سعيد ، وانتفع منه ابن البيطار . وقد نقلت قطع من كتاب نزهة المشتاق الى لغات أوربا . وتوفي الادريسي حوالي ٥٦٩ رحمه الله .

أبو الحسن المسفر

هو الشيخ الحكيم أبو الحسن علي بن خليل المسفر السبتي ، عرف بلقب المسفر الذي يعني أنه من أهل صناعة تفسير الكتب . وربما كان من آل المسفر الأشراف الحسينيين المعروفين بفاس . ذكره ابن عربي الحاتمي في كتاب « محاضرات الأبرار » وقال فيه : كان هذا الشيخ جليل القدر حكيماً ، عارفاً غامضاً في الناس ، محمود الذكر . رأيت بسبته ، له تصانيف ، منها : منهاج العابدين الذي يعزى لأبي حامد الغزالي وليس له ، وإنما هو من مصنفات هذا الشيخ ، وكذلك كتاب النفخ والتسوية الذي يعزى الى أبي حامد أيضاً وتسميه العامة « المضمون الصغير » ، ولهذا الشيخ أيضاً القصيدة المشهورة : « قل لإخوان رأوني ميتاً ... » وتأتي في المنتخبات . ولا شك أن هذا الشيخ كان من فلاسفة العصر النازعين الى التصوف ، سالكاً في ذلك مسلك أبي حامد الغزالي وكتبه المذكورة تدل على ذلك ، إلا أنه لم يتحامل على الفلسفة والفلسفة تحامل أبي حامد ، وقد لقيه الشيخ محي الدين بن عربي وتذاكر معه وهو في سن الشيخوخة ، فهو على ما يظهر لم يجاوز المائة السادسة .

ابن الياسمين

ابو محمد عبد الله بن محمد بن حجّاج ، من أهل مدينة فاس ، وأصله من بني حجّاج أهل قلعة فندلاوة . رياضي برع في عدة علوم كالمنطق والهندسة والتنجيم والهيئة ، وخاصة الحساب والعدد ؛ فكان لا يدرك شأوه فيهما ، ولا ينازع في الاختصاص بمعرفة دقائقها وغوامض مسائلها . وله أيضاً القدم الراسخ في علوم الأدب والباع الطويل في نظم الشعر ، أخذ علم العدد عن أبي عبد الله بن قاسم ، وكان من خدّام يعقوب المنصور ثم ولده الناصر من بعده ، فحصلت له رئاسة كبيرة وبلغ منزلة نفسها عليه أعداؤه ، له أرجوزة في الجبر قرئت عليه وسمعت منه بأشبيلية سنة ٥٨٧ وله غيرها ، توفي ذبيحاً بمراكش سنة ٦٠١ رحمه الله .

الحسن المراكشي

هو العالم الرياضي الشهير ، أبو علي الحسن بن علي المراكشي مؤلف كتاب (المبادي والغايات في علم الميقات) الذي يقول فيه صاحب كشف الظنون أنه أعظم ما صُنّف في هذا الفن ، وذكر أنه رتبه على أربعة فنون : ١ - في الحسابيات وهو يشتمل على سبعة وثمانين فصلاً ، ٢ - في وضع الآلات وهو يشتمل على سبعة أقسام ، ٣ - في العمل بالآلات وهو يشتمل على خمسة عشر باباً ، ٤ - في مطارحات يحصل بها الدّربة والقوة على الاستنباط ، وهو يشتمل على أربعة أبواب ، في كل باب منها مسائل على طريق الجبر والمقابلة . وعلى هذا الكتاب قامت شهرة المراكشي بين علماء الغرب ، واعتبروه من أعظم فلكيّيّ العرب . وقد نقل العلامة سيديو زبدته الى اللغة الفرنسية ، وكذلك نقل البارون كارادفو فصلاً منه يتعلق بالأسطرلاب . والمراكشي كتب أخرى في مباحث رياضية عامة ، وكان يعيش في النصف الأول من المائة السابعة .

يوسف بن سمعون

أبو الحجاج بن يحيى بن إسحاق الطبيب الرياضي المعروف بابن سمعون ، وهو جده العاشر أو التاسع عرّف به ابن القفطي في أخبار الحكماء فقال : هذا كان طبيباً إسرائيلياً من أهل فاس ، وكان أبوه بها يُعاني بعض الحرف السُّوقِيَّة ، وقرأ هو الحكمة ببلده فساد فيها ، وعانى العلوم الرياضية وأجادها وكانت حاضرةً على ذهنه عند المحاضرة . وقد ارتحل الى مصر ، واجتمع بموسى بن ميمون القرطبي رئيس اليهود بمصر ، وقرأ عليه شيئاً وأقام عنده مدة ، واجتمع هو وإياه على إصلاح هيئة ابن أفلح الأندلسي وتحريرها . ثم خرج من مصر الى الشام ونزل حلب ، أقام بها مدة وسافر منها تاجراً الى العراق ودخل الهند وأثرى حاله . ثم ترك السفر وأخذ في التجارة ، وقصده الناس للاستفادة منه ، فأقرأ جماعة من المقيمين والواردين ، وخدم في أطباء الخاص في الدولة الظاهرية بحلب ، وكان ذكياً حاد الخاطر ، وانعقدت بينه وبين ابن القفطي مودة تحدث عنها هذا في كتابه . توفي سنة ٦٢٣ .

* * *

أهم آثار الأدباء والعلماء في هذا العصر

وهذه جريدة بأهم آثار العلماء والأدباء في هذا العصر مما وقفنا على تسميته من كتب ورسائل ودواوين شعرية منسوبة لأصحابها ، مع الإشارة الى وفيات من لم نترجم لهم اختصاراً .

كتب التفسير والحديث وتوابعها :

تفسير القرآن لابن عبد الجليل القصري ، شُعَبُ الْإِيمَان له ، تنبيه الأنام في مُشْكِـلِ الْحَدِيث له ، شرح أسماء الله الحسنى له ، الناسخ والمنسوخ لأبي الحسن الحصار المتوفى سنة ٦١١ . المدارك في وصل مقطوع حديث مالك له ، مفتاح اللبّ المقفل لفهم الكتّاب المنزل لابي الحسن الحرّالى المراكشي المتوفى سنة ٦٣٧ ، تفسير القرآن

للمزدغي ، شرح حديث إذا نزل الوباء بأرض له ، كتاب الاستدراك والالتزام لكتاب السهيلي المسمى بالتعريف والأعلام بما أُهيمَ في الكتاب العزيز من الأسماء والأعلام لابن فرتون . كتاب النزاع في ابطال القياس لابن القطان الفاسي ، كتاب الوهم والايهام الواقعين في كتاب الأحكام لعبد الحق الاشبيلي له ، كتاب مختصر النظر في أحكام النظر له . تعقب كتاب الوهم والايهام لابن القطان لابن المواق المتوفى سنة ٦٤٢ ، شرح مقدمة صحيح مسلم له ، شرح الموطأ له ، اختصار الموطأ للمهدي بن تومرت ، اختصار مسلم له ، كتاب أحكام الطهارة من الحديث له ، كتاب تحريم الخمر من الحديث له ، كتاب الجهاد له ، كتاب الغلول له ، الآيات البينات في ذكر ما في اعضاء رسول الله ﷺ من المعجزات لأبي الخطاب بن دحية ، نهاية السؤل في خصائص الرسول له ، أنوار المشرقين في تنقيح الصحيحين المشرقين له ، شرح أحاديث الشهاب للقضاعي له ، العلم المشهور في فضائل الأيام والشهور له ، مُصنّف في رجال الحديث له.

كتب الفقه والتصوف :

وهج الجهر في تحريم الخمر لأبي الخطاب بن دحية ، منهاج التحصيل فيما للائمة على المدونة من التأويل لأبي الحسن الرّجراحي ، الطّشّر على المدونة لأبي ابراهيم الأعرج المتوفى سنة ٥٨٣ ، حاشية على المدونة لأبي محمد يشكر المتوفى سنة ٥٩٨ ، حاشية أخرى عليها لراشد الفاسي المتوفى سنة ٦٧٥ كتاب الحلال والحرام له ، مجموعة الفتاوي له ، شرح الرسالة بالنقل لأبي الحسن المتيوي المتوفى سنة ٦٦٩ ، تقييد على الرسالة لأبي محمد صالح ، مقالة في المكايل والأوزان لأبن القطان الفاسي . أنوار الافهام في شرح كتاب الأحكام للمزدغي ، كتاب الفرق بين الأغنياء المعنيين والفقراء المضطرين له ، كتاب الوافي في الفرائض لأبي الحسن الحرّالي المراكشي ، كتاب المقصد المحمود في تلخيص العقود لأبي القاسم الجزيري ، كتاب اليقين لأبي الحسن ابن غالب ، منهاج العابدين لأبي الحسن المسفر ، كتاب الإنابة الى طريق أهل الاستجابة لمحمد بن قاسم التميمي ، الايضاح في طريق أهل الصلاح له ، كشف أحوال المفتون عن الدنيا والدين له ، بستان العابدين له ، أدب المريد له ، أنوار السرائر وهي الرائية المشهورة في التصوف لأبي العباس الشريشي السلوي المتوفى سنة ٦٤١ ، الحزب الكبير لأبي الحسن الشاذلي المتوفى سنة ٦٥٦ ، حزب البحر له .

كتب الكلام والأصول :

كتاب اعزّ ما يطلب للمهدي بن تومرت ، العقيدة المرشدة له ، التنزيهات له ،
التسبيحان له ، الامامة له ، تعاليتي في الاصول له ، العقيدة البرهانية للسلاجي ،
عقيدة المزدغي ، أرجوزة في الأصول له . أرجوزة في الكلام لأبي الحسن الحصار ،
شرحها له ، أرجوزة في الاصول له ، البيان في تنقيح البرهان له . رجز في أصول الفقه
لابن البكتاني ، كتاب الايمان التام بمحمد عليه السلام لأبي الحسن الحرّالي المراكشي ،
عصمة الأنبياء لأبي الخطّاب بن دحية .

كتب التراجم والسير

برنامج عبد الرحيم بن الملجوم المتوفى سنة ٦٠٣ ، فهرست أبي الصبر ايوب
المتوفى سنة ٦٠٤ برنامج أبي العباس العزفي المتوفى سنة ٦٤٩ ، كتاب الدرّ المنظم في
مولد النبي المعظم له ، فهرس أبي الحسن الشاري المتوفى سنة ٦٤٩ برنامج ابن القطان
الفاسي . اختصار المدارك لابن حمّادة السبتي ، برنامج ابن فرتون ، الذيل على صلة
ابن بشكوال له ، شيوخ الدّار قطني لابن المواق . النجوم المشرقة فيمن أخذت عنه
من كل ثبت وثقة لمحمد بن قاسم التميمي ، مختصره له ، اللعنة في ذكر أزواج
النبي صلى الله عليه وسلم وأولاده السبعة له ، المستفاد في مناقب العباد والزهاد بمدينة
فاس وما والاها من البلاد له ، التنوير في مولد السراج المنير لأبي الخطّاب بن دحية ،
سلسلة الذهب في نسب سيد العجم والعرب له ، المستوفي من أسماء المصطفى له ،
الابتهاج في المعراج له ، التحقيق في مناقب أبي بكر الصديق له ، التشوُّف الى رجال
التصوف لابن الزيات المتوفى سنة ٦٢٨ .

كتب التاريخ والجغرافة

المعجب في تلخيص أخبار المغرب لعبد الواحد المراكشي ، كتاب أبي بكر بن
علي الصنهاجي المعروف بالبيدق ، النبراس في تاريخ خلفاء بني العباس لأبي الخطّاب
ابن دحية ، تاريخ الأمم في أنساب العرب والعجم له ، أعلامُ النصر المبين في
المفاضلة بين أهل صفين له ، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق للشريف الادريسي ،
روض الأنس وبهجة النفس له ، أنس المهج وروض الفرج مختصر مما قبله له .

كتب الأدب والدواوين الشعرية

مختصر الأغاني للأمير سليمان الموحّد ، ديوان شعر له ، صفوة الأدب وديوان العرب وهي الحماسة المغربية ، لأبي العباس الجراوي ، ديوان عتيق الفصيح المتوفى سنة ٥٩٥ ، ديوان ابن حبوس ، المطرب من أشعار اهل المغرب لأبي الخطاب بن دحية ، مجموعة خطب بليغة له ، مرج البحرين في فوائد المشرقين والمغربين له ، كتاب الأنساب والشعر لابن رقيّة المتوفى سنة ٦٠٥ ، البرهان في ذكر حنين النفوس الى الأحبة والأوطان لمحمد بن قاسم التميمي ، شرح مقامات الحريري لابن الزيات .

كتب النحو واللغة

المقدمة لأبي موسى الجزولي ، شرحها له ، الأماي له ، شرح أصول ابن السراج له ، مختصر الفسّر لابن جثنّي في شرح ديوان المتنبي له ، الألفية لابن معط ، نظم في العروض له ، نظم جمهرة ابن دريد له ، نظم الصحاح له ، شرح الجزولية لأبي العباس الشريشي السلوي ، شرح المفصل له ، شرح الجمل للزجاجي لأبي القاسم بن الزيات المتوفى سنة ٦٦٥ الصارم الهندي في الرد على الكندي في مسألة من علم العربية لأبي الخطاب ابن دحية .

كتب حكمة ورياضية :

المعقولات الأوّل لأبي الحسن الحرّالي المراكشي ، السر المكتوم في مخاطبة النجوم له ، تفهيم معاني الحروف له ، كتاب الأدوية المفردة للشريف الادريسي ، جامع المبادي والغايات في علم الميقات للحسن المراكشي ، كتاب في القطوع المخروطية له ، اصلاح هيئة ابن افلح ليوسف ابن سمعون ، ارجوزة الجبر لابن الياسمين ، تلقيح الافكار في العمل بحروف الغبار له . النفخ والتسوية لأبي الحسن المسفر .

هذا 'قلّ من كُتِبَ مما لم نطّلع عليه من المؤلفات الموضوعة في هذا العصر للعلماء المغاربة فقط ، دع ما كان يؤلفه برسم الخزانة السلطانية غير المغاربة من علماء الأندلس وافريقية ، وقد رأيت ان كل ما ألفه ابن رشد من الكتب الحكيمة كان بطلب يوسف ابن عبد المؤمن . فالمكتبة المغربية في هذا العصر ، كانت من أغنى المكاتب بالمؤلفات

النادرة ، وزادها غنى ما كان يضعه المؤلفون كل يوم من الكتب المفيدة في مختلف العلوم ، فكانت ثروتها لا تزيد على مرّ الايام الا كثرة ، وما يمنحها من ذلك والناس في ذلك العصر لم يكونوا يبيعون كتب أسلافهم لأوربا بأجنس ثمن ، بل كانوا يستخلصونها منها بأعلى قيمة ، وينافس عامتهم في ذلك خاصتهم ، وقد سمعت ما عمله الملك الموحي يوسف بن عبد المؤمن في هذا الصدد ، فاسمع ما عمله احد افراد العلماء وهو القاضي عيسى بن أبي حجاج بن الملجوم ، وبنو الملجوم من بيوتات فاس القديمة ؛ فانه ابتاع من أبي علي الغساني أصله من سنن أبي داود ، الذي سمع فيه على أبي عمر بن عبد البر ، وهو أصل أبي عمر ، وكان صار الى أبي علي ؛ بخمسة آلاف دينار بعد ان نسخ منه بخطه وقابله وأتقنه .

وكان الامام المجتهد فخرُ بيتِه أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن يوسف بن الملجوم المعروف بابن رقيّة ، جماعةً للدواوين العتيقة والدفاتر النفيسة ؛ فاجتمع لديه ما لم يجتمع عند أحد من أهل المغرب ، وكانت خزانته وحيدة في المغرب ، بيعتُ خزانةُها بعد وفاته بستة الاف دينار .

فحيا الله تلك الهمم ، ما كان أعلقها بالمعالي وأطرقها لأبواب الفخار !

الحياة الأدبية

نما الأدب المغربي في عهد المرابطين وترعرع ، ولكنه لم يقوَ قوَّة الأدب الأندلسي ويُسيطر على الميدان .

على أنه مع ذلك لم يكن ضعيف المادَّة ولا مُنحسر الموجهة ، بل كان ذا روح معنويَّة قوية تمثِّل الواقع المغربي في أجلى مظاهره ، ذلك الواقع الذي لم يفتأ أن أثر في الأدب الأندلسي نفسه فانتشله من هوَّة الضعف والابتذال التي كان وقع فيها على ما أُلْمعنا اليه فيما مضى . فلما قام الموحِّدون ، وقامت معهم تلك النهضة العلميَّة الأدبية ، التي سبق توصيفُها ، تحوَّل مجرى السَّفينة الأدبيَّة الى المغرب ، وسيطر عليها الأدباء المغاربة يُزجونها بمعرفة وحِذق ، وتعينُهم على ذلك ربحٌ رُخاء من لطف تدبير الموحدين وحسن سياستهم .

وقد سبق ذكر ما كان لهم من العطف على الأدب والتشجيع لأهله ، حتى لقد كان واحدهم يُثيب على البيت والبيتين يُمدِّح بها بالألف والألفين ، بل كان الآخر يبلِّغه عن شاعره وقوعه فيه وتعريضه بأصله فيقول أعاقبه بالحلم عنه ، وهي نفسُ الهفوة التي أخذوها على الفيلسوف أبي الوليد بن رشد ، فلم يتساحوا مع العلماء ، وتساحوا مع الشعراء ، مما يدل على أن ضلعتهم مع الأدب كان كبيراً .

وقد رأيت مقام الشعراء من عبد المؤمن في جبل طارق ، وكيف كانت أول من أنشده في ذلك المقام شاعرٌ فاسي ، وكان هو يُعَقِّبُ على قصائد الشعراء بالنقد أو التقريظ ، ثم أعيد هذا الموقف ، ولكن بأعظم من ذلك مع حفيده يعقوب المنصور لما رجع من غزاة الأرك المشهورة بالأندلس ، فورد عليه وفودُ المهنيين والشعراء من كل ناحية ، فكان كل واحد منهم يُنشد من قصيدته بيتاً أو بيتين لكثرتهم ويترك رُقعته أمامه ، فما استتموا الإنشاد حتى حالت رِقاع القصائد بينه وبين الناس ، وهذا إن ثبت على حقيقته ، كان أعظم شاهد على ما بلغته الحياة الأدبية في هذا العصر من النُمو والازدهار .

ولكن منشأ النبوغ لم يكن هذا الذي ألمعنا اليه من رعاية الموحدين للأدب وتنشيطهم لأهله فقط ، وإنما هو متولد من جملة أسباب أخرى ، منها النفّس على الأندلسيين الذين كانوا قد طلّعوا في سماء الأدب بدوراً ساطعة ، ونجوماً لامعة ، وكانوا يغلبون أهل البلاد من المغاربة عند المفاخرة ويُطاولونهم حين المناظرة ، وتعد المناظرة التي وقعت بمجلس والي سبتة الأمير أبي يحيى بن أبي زكرياء في هذا الصدد بين أبي الوليد الشّقْندي ، وأبي يحيى بن المعلم الطنجي من أحسن الأمثلة على ذلك ، وقد أمر الأمير كلاً من الأديب الأندلسي والأديب المغربي بكتابة رسالة في تفضيل قطره ، غير أن رسالة المغربي لم تحفظ . ومن هذا يُعلم أن الخصومة بين أدباء العدوتين ، كانت لا تنقطع ، والأندلسيون بالطبع كانوا يحجّثون جيرانهم بما يعدّون من نبغائهم الكثيرين . وهذا وحده كافٍ للمحجّوج في الانقطاع الى الطلب والعكوف على التحصيل . ومنها الطّمّاح الى الخدمة في دواوين الحكومة وشغل المناصب العالية التي كان أعلاها يومئذ منصب الوزير ، وهو في الحقيقة رئيس الكتاب ، ونرى من أبناء مراكش البرّرة من وضع هذه الغاية نصب عينيه ، وجهداً في الوصول اليها فما لبث أن حصلها بحزمه وعزمه ، وذلك هو الوزير أبو جعفر بن عطية . على أن ما يرجّح بهذه الأسباب كلها هو عموم الحاجة الى التشقيف والتهديب ، وقد شعر الناس بهذه الحاجة منذ قيام عبد الله بن ياسين بحركته الإصلاحية ، ثم زاد شعورهم بها من حين الانقلاب الذي قام به المهدي بن تومرت . فنتج عن ذلك كلّ أن تقدمت الحركة العلمية الى الامام ، واتجهت النهضة الأدبية اتجاهاً جديداً يرضي الجماعة الذين كانوا لا يفتنون يناظرون خصومهم من أهل الأندلس في موجبات الفخار .

وعلى ذلك فلم تكن الآداب المغربية صورة طبق الأصل للآداب الأندلسية ، كما يظنه البعض بل كانت قائمة بنفسها ، تعبر عن شعور أهلها ولا تتأثر بالأندلس إلا كما تتأثر بالشام والعراق . فهذا ميمون الخطابي لا تجد بن تقارنه في متانة أسلوبه وبلاغة معناه ، وعنايته بالحكم الفلسفية إلا المتني . وهذا أبو العباس الجراوي لا تشبهه إلا بأبي تمام في اهتمامه باللفظ قبل المعنى ، ثم اغرابه في بعض الاحيان حتى تختلف فيه الظنون ، ولم يقصّر وجه الشبه بينهما على هذا الحد فيظهر أن شاعرنا كان يتتبع آثار أبي تمام في كل شيء ، حتى ألف حماسته فانتشرت بالمغرب وأغنت عن حماسة أبي تمام .

أما الأدب الأندلسي فنجد أثره واضحاً كما نبه عليه المراكشي في ابن حبوس الفاسي

الذي كان يتشبه بابن هانيء ، متنبى المغرب ، في القصد الى الألفاظ الرائعة والقعاقع المهولة ، وإيثار التقعير ، كما نراه من جهة الرقة والانطباع ممثلاً في الوزير ابن عطية الذي يشبه الوزير ابن عمار في كثير من أحواله .

والخلاصة أن الأدب المغربي هو غير الأندلسي ، وأنه لم يتأثر به الا نسبياً ، لأن الأدباء المغاربة من غير شك كانوا يتعمدون مخالفة طريقة زملائهم الأندلسيين في الشعر والنثر ، قصد مقابلة التحدي بمثله . فان الأندلسيين كانوا يكثرّون على المغاربة من تعداد محاسن أدبائهم ، وابتكارات شعرائهم ، التي بدّوا بها غيرهم ، كما ترى ذلك في رسالة الشقندي التي مرّت الإشارة إليها . ولم يكن لدى من أخذوا أنفسهم بالتأدب لكم الأفواه الصاخبة ، بتعجيزهم ، إلا أن يقرعوا الحجة بالحجة ، ويعارضوا الدليل بالدليل . وهذا غير السرق والتقليد . زيادة على أن هؤلاء ، لم يكونوا قد استغرقوا في الحضارة والمدنية ، وانغمسوا في الرفاهية والبلهنية كما كان ذلك حال الأندلسيين ؛ فكانت تغلب عليهم رقة الطبع ودقة التصوير . بل كانوا لا يزالون أقوياء النفوس ، أقوياء الطبع ، كما كان الشأن في شعراء المشرق الذين نظرنا بهم وهم عرب أقياح ، تنقلوا في البادية ، واعتادوا على خشونتها فغلبت عليهم متانة الأسلوب وجزالة اللفظ .

وبناء على هذا ، فاننا نستطيع أن نقول إن الأدب المغربي منذ نشأ الى أن ترعرع ، كانت له في الغالب طريقة غير طريقة الأدب الأندلسي ، ولا نستشهد على ذلك غير أديب بارع من أدباء الأندلس ، بل خاتمة أدبائها ، وهو الوزير أبو عبد الله بن زمرك الذي تحدّث عن هذا الأدب الى علم من أعلام الفكر الأندلسي وهو الإمام الشاطبي ، بعد رحلة قام بها الى المملكة المغربية . وهناك ما قاله الشاطبي في كتابه (الانشادات والافادات) حسياً رواه المقرئ في النفح : « أفادني صاحبنا الفقيه الكاتب أبو عبد الله بن زمرك إثر إيباه الى وطنه من رحلة العدوة في علم البيان فوائد أذكر منها الآن ثلاثاً ، (الفقه في اللغة) وهو النظر في مواقع الألفاظ ، وأين استعملتها العرب ، ومن مثل هذا الوجه - قسّرَمَ وعَامَ - اذا ابشهى ، لكن لا يستعمل قَرَمَ إلا مع اللحم ، ولا يستعمل عام الا مع اللبن فتقول عمت الى اللبن ، وكذلك قولهم اصفر فاقع ، وأحمر قاني ، ولا يقال بالعكس وهذا كبير ، (والثانية) تحري الألفاظ البعيدة عن طرقي الغرابة والابتذال ، فلا يستدلُّ

بالحوشي من اللغات ، ولا المبتذل في ألسن العامة ، (والثالثة) اجتناب كل صيغة تخرج الذهن عن أصل المعنى او تشوش عليه ، إذ المقصود الوصول الى بيان المعنى الى أقصاه ، والاتيان بما يحصله سريعاً ويمكنه في الذهن ، وتحري كل صيغة تمكن المعنى وتحرض السامع على الاستماع ، (وأخبرني) ان كتّاب المغرب يحافظون في شعرهم وكتابتهم على طريقة العرب ، ويذمون ما عداها من طريقة المولدين ، وأنها خارجة عن الفصاحة ، وهذه المعاني الثلاثة لا توجد إلا فيها .

وهذا الكلام إن كان قيل في أدباء العصر المريني فهو بأن يصدق على أدباء هذا العصر أولى؛ لأن هذه الصفات التي ذكرها ابن زمرك تتحقق فيهم أكثر من غيرهم ضرورة أن الثقافة الأدبية ، بل الثقافة على العموم كانت في هذا العصر أوسع وأمتن منها في العصر المريني ، وان الروح المعنوية التي تنعكس في أقوال الأدباء ، وانتاج الكتّاب لم تبلغ في عصر من عصور المغرب ، ما بلغت في هذا العصر من القوة والظهور . ولا يبعد أن يكون ابن زمرك في كلمته تلك قصّد الحكم على الأدب المغربي بعامّة مما يشمل العصر الموحيدي والعصر المريني ، سيما وقد بقيت تلك الصفات هي سمة الأدب المغربي الى العصر الأخير ، وأعني به العصر العلوي ، حين جاء العلامة الشيخ محمد بيرم التونسي صاحب كتاب « صفوة الاعتبار » فأكد قول ابن زمرك بما لا يخرج عن مضمونه في اللفظ ولا في المعنى .

والخلاصة ، إن تحرّي الفصاحة والصدق وطرح التصنع والابتذال كانت وما زالت من أهم ميزات الأدباء المغاربة ، وهم لذلك أقرب ما يكون من طريقة العرب وشعراء العصور الأولى من عصور الأدب العربي .

ويلوح لنا اننا بلغنا الغاية في تصوير الحياة الأدبية الموحدية على ما وصل اليه علمنا منها ، فلنصنع لهذه الصورة إطاراً من تراجم الأدباء المذكورين فيها يزيد على حسننا حسناً .

أَبُو جَعْفَرِ بْنِ عَطِيَّةَ

هو الكاتب الوزير ، أبو جعفر أحمد بن عطية القضاعي المراكشي ، من فتيانها العصاميين الذين تبوأوا ذرى المجد بمحض جدّهم واجتهادهم .

كتب أولاً عن ملوك لمتونة ، ولما أدبرت أيامهم حضر في بعض الفتوحات الموحدية مع أحد قواد عبد المؤمن ؛ فكتب عنه الى عبد المؤمن رسالةً بديعةً يخبره فيها بالفتح ، ويصف كيفية الواقعة ؛ فأعجب بها عبد المؤمن وسأل عن منشئها ، فأخبر أنه أبو جعفر ، فطلبه للكتابة عنده . ثم ترقى به الحال فصار وزيراً . قال في نفع الطيب : « وكانت وزارته زينةً للوقت ، وكمالاً للدولة . » واشتمل عليه عبد المؤمن فبلغ منه منزلةً كثر حسّاده عليها ، فكادوا له حتى أوقع به سنة ٥٥٢ كما في القرطاس أو ٥٣ كما في المعجب .

ويُعد أبو جعفر من أكبر الأدباء الذين لهم التصرّف التام في الشعر والنثر ، وآثاره كلها تتكافأ بلاغةً وانسجاماً . ولقد شهد له عبد المؤمن بعد وفاته بعلو كعبه في الأدب ، فانه امتحن الشعراء بهجوه ، فلما أسمعوه ما قالوا أعرض عنهم وقال : ذهب ابن عطية وذهب الأدب معه .

ابنُ حَبُوسَ

هو أبو عبدالله محمد بن حبوس ، الفاسي الشاعر النابه المجيد ، قال المراكشي في المعجب : كانت طريقته في الشعر على نحو طريقة محمد بن هانيء الاندلسي في قصد الألفاظ الرائعة ، والقعاقع الموهلة وإيثار التعيير ، وكان في دولة لمتونة مقدماً في الشعراء حتى نقلت اليهم عنه حماقات ، فهرب الى الأندلس وجرى له بها أمورٌ غريبة ، وكان حظياً عند عبد المؤمن وابنه يوسف ، ونال في أيامها ثروة .

وقال ابن الأبار : كان عالماً محققاً ، وشاعراً مفلحاً ، تقدم في ذلك أهل زمانه ، ويوقف على جودة شعره من ديوانه ، توفي سنة ٥٧٠ ومولده ببلده سنة ٥٠٠ .

سُلَيْمَانُ الْمُوَحِّدِي

هو صاحب السيف والقلم ، الأمير أبو الربيع سليمان بن عبد الله بن عبد المؤمن الكومي الموحدي . كان من الكتاب البلغاء والشعراء المجيدين ، وهو أديب بني عبد المؤمن ونابعتهم الفذ ؛ درج في بيت الرياسة والملك ، ولم يمنعه ذلك من الاشتغال بالأدب والاكباب على التحصيل ، فنشأ متأديباً أريجياً يتعشق المجد ، ويصبو الى العلى ، وما لبث أن قُدِّم الى ولاية بجاية من قِبَل ابن عمه الخليفة يعقوب المنصور . ولما ثار بها عليُّ بنُ غانية ، نُقل الى ولاية سجلماسة ، وكان في كلتا ولايته كعبة القصاد من أدباء البلاد ، يأتونه عاقدى الآمال على إلفافه وبرّه ، فيصدرون عنه ، وكلهم السنة مدح وثناء عليه .

ومن تحدث الينا عنه من أدباء الشرق التاج ابن حَمْوِيه السرخسي قال : اجتمعت بالسيد أبي الربيع حين قدم الى مراکش بعد وفاة الخليفة يعقوب المنصور لمبايعة ولده محمد الناصر ، وكان في تلك المدة يلي مدينة سجلماسة وأعمالها فرأيتُه شيخاً بهيَّ المنظر ، حسن الخُبَر ، فصيح اللسان باللغتين العربية والبربرية .

وقال صاحب المغرب في حقه : لم يكن في بني عبد المؤمن مثله في هذا الشأن الذي نحن بصددده وكان قد تقدم على مملكتي سجلماسة وبجاية ، وكان كاتباً شاعراً أديباً ماهراً ، وشعره مدوّن وله ألغاز . له ديوان شعر جمعه كاتبه محمد بن عبد ربه المالقي ، وله أيضاً مختصر الاغاني . وتوفي حوالي سنة ٦٠٠ .

أَبُو حَفْصِ عَمْرٍ

هو القاضي الأديب ، أبو حفص بن عمر بن عبد الله بن محمد بن عبد الله بن عمر السلمي من أهل أغمات ، بها ولد وسكن مدينة فاس . روى عن جده لأمه أبي محمد عبد الله ابن علي اللخمي . أجاز له في صغره وعن أبي مروان بن مَسْرَّة وأبي عبد الله بن الرماة ، وأخذ عن أبي بكر بن طاهر كتابَ سيبويه تفهّماً . وكان من أهل

المعرفة والفقه ، أديباً شاعراً مجيداً ، غلب عليه الأدب حتى عُرف به وُشهر ، مبع جودة الخط وبراعة الأدوات .

وولي قضاء تلمسان وفاس واشبيلية ، وكان في غاية الظرف ، إذا أقبل 'شمّت رائحة الطيب منه على بُعد وكان منزله كأنه الجنة ، مما جعل اعداءه ينالون منه عند السلطان ، ويقولون انه غير حافظ للناموس الشرعي ، بكثرة تغزّله واشتهار مقطعاته وانهماكه في العشق ، فنقل بسبب ذلك من قضاء فاس الى قضاء اشبيلية ، ولم ينله أدنى مكروه لتعلم بديانته وعفته . وله في المنصور أمداح رائعة ، وله موشحات مشهورة ، كان يغنى بها في الأقطار ، كما يقول ابن سعيد المغربي ، وشعره كله بديع ، ينمُّ عن رقّة طبع وسلامة ذوق ، وإغراق في الحضارة والمتاع . توفي سنة ٦٠٤ باشبيلية .

أبو العباس الجراوي

هو أبو العباس أحمد بن عبد السلام الجراوي من أهل تادلا ، وسكن مدينة مراکش ، الشاعر الحنّيد الهجاء المقذع ، من أبرز الشخصيات الأدبية في دولة الموحدين . خدم بشعره الخليفة عبد المؤمن وابنه يوسف وحفيده يعقوب المنصور ، وكان له مع يوسف بالخصوص شأن غير شأنه مع الآخرين ؛ فكان يُعدّ شاعر دولته الخاص ، وكان لا يبرح مجلسه ، ووقعت له معه نوادر غريبة ، تدل على رفيع مكانته منه ، قال ابن خلكان : « وكان هذا الأديب نهاية في حفظ الأشعار القديمة والحديثة ، وتقدم في هذا الشأن ، وجالس به عبد المؤمن ، ثم ولده يوسف ، ثم ولده يعقوب ... وكانت له نوادر نادرة مستظرفة عند أهل الأدب . » وكان بذيّ اللسان فاحش الهجاء ، هجأ قومه وبلده ، وكثيراً من الناس فهو حُطيئة عصره غير مدافع ، ثم قال ابن خلكان : « وجمع كتاباً يحتوي على فنون الشعر على وضع الحماسة لأبي تمام الطائي وسماه (صفوة الادب وديوان العرب) وهو كثير الوجود بأيدي الناس ، وهو عند أهل المغرب كالحماسة عند أهل المشرق ... وله كل شعر مليح ، وكانت شيخاً مسناً جاوز الثمانين سنة ، وتوفي في آخر أيام يعقوب المنصور ، بل بعده سنة ٦٠٩ باشبيلية .

الخطابي

هو ميمون بن علي بن عبد الخالق الخطابي ، نسبة الى قبيلة من صنهاجة ، من أهل مدينة فاس ، ويعرف بابن خبّازة نسبة الى خاله الشاعر المشهور بابن خبّازة ، قاله ابن القاضي .

هذا كان شاعراً فحلاً نهاية في متانة الشعر وروعته وجماله ، كأنما ينحت الكلام من صخر ، ويفرغه في قالب الإجادة والاحسان ، ثم يخرج منه وقد تحوّل الى صور شعرية بليغة النظم والتركيب ، سامية المغازي والمقاصد . وأعانه على ذلك فقهه باللغة وروايته الواسعة للشعر مع تفننه في أساليب البلاغة ، ومعرفة بآخذ الكلام ، فلا يقرأ القارئ بعض قصائده الطنانة إلا وهو يحسب أنه يقرأ للمتنبي ونظرائه من كبار الشعراء . وقال ابن القاضي : « كان سريع البديهة ناظماً ناثراً ، مع الاجادة والتفنن في أساليب الكلام معرفة وإتقاناً في هزله وجدّه على اختلاف اللغات . » ولا يعرف له ديوان مجموع على كثرة شعره : إما لانه لم يدوّن أشعاره ، وإما لأن يد التلاشي لعبت به كما لعبت بكثير من آثار غيره من الأدباء والعلماء . وعلى كل فليس الشاعر بالديوان ولا بكثرة روايته والناقلين عنه ، وإلا فكم من دواوين مقدسة في زوايا الخزائن ليس لأصحابها عافاهم الله في الشاعرية من حظ ولا نصيب .

وهكذا يقال في كل من مضى ويأتي من الشعراء الكبار الذين لم نذكر أن لهم ديواناً مجموعاً . ولي الخطابي حبة الطعام بالعاصمة المراكشية . وتوفي بالرباط سنة ٦٣٧ .

ابن عبدون المكناسي

أبو عبدالله محمد بن عبدون بن قاسم الخزرجي المكناسي ، شاعر مطبوع ، من اكبر أدباء المغرب في هذا العصر .

كان رقيق الحاشية ، شديد التطرّف ، غزلاً رقيقاً بديعاً ، يجيد الوصف ، وله

فيه مذهب حسن ، وعلى أسلوبه رونق ، وفي معانيه عذوبة ولطف وخفّة ، بل إن جملة شعره وجدانٌ تفيض به روحه ، وينفجر به قلبه ، فلذلك تجده شديد التأثير في النفس ، حسن الموقع منها .

توفي سنة ٣٥٨ على ما عند ابن القاضي ، وفي الذخيرة السنيّة ما نصه : « وفي سنة ٦٥٩ توفي بكناسة الفقيه الاستاذ المقرئ الكاتب البارع ، أبو عبدالله محمد ابن عبدون بن قاسم الخزرجي ، أديب وقته ، وشاعر عصره ، في العشر الأول لذي القعدة منها . » وهو غير ابن عبدون الأندلسي ؛ فان ذلك اسمه عبد المجيد .

عصر المرينيين

الوجهة السياسية

دامت دولة الموحدين الى آخر أيام الناصر ولد المنصور ، وهي مثال القوة والعظمة ، وجلال الشأن ، ورفع السلطان ، ثم أخنى عليها الذي أخنى على لبّد ، وجرت فيها سُنّة الكون ، فتداعت أركانها ، وتقوّضت دعائمها ، وسرعان ما سقطت من حالق العزّ الى حضيض الهوان .

كان فاتحة ما أصابها من الكوارث ، وقعة العقاب المشؤومة ، التي تألبت عليها فيها دول النصرانية بخدافيرها ، ودحرتها اندحاراً شائناً ، بسبب ضعف القيادة وعدم اجتماع كلمة الرؤساء والمحاربين من جرّاء غرور الناصر وخيانة الأندلسيين له . فهو قد اغترّ بكثرة ما حشده من الأجناد ، وجعه من الأعداد فلم يأبه لمقاتلة الأندلس الذين كانوا أعرف من غيرهم بشغور العدو ، وأبصر بمواطن الضعف من بلاده . وهم حيث لم يستشعر وجودهم ، ولا عرف فضلهم ، عزموا على عدم مناصحته ، وبذل المعونة له ؛ وهكذا وقعت الكرة على المسلمين وبقيت هذه الواقعة عبرةً للمعتبرين .

ثم فشت بعد ذلك جملة امراض في جسم الدولة ، ومات الناصر مكبوتاً مغموماً ، فانتشربموته غُقد رجالات الموحدين ، وظهرت خيانة رؤسائهم في إقامة ولده المستنصر مقامه ، وكان دون بلوغ ليتمكنوا من الاستبداد به ، والضغط على إرادته ، كذلك ظهرت طماعية الولاة الذين اطلقوا ايديهم في أموال الرعية وأمتعتها ، ونبغ دعاة الفتنة في كل صقع وقبيل ، وسلك المفسدون الى الشر كل سبيل . أما الأندلس فلا تسلم عما نزل بها من الويلات والحن ، إذ انقسمت على نفسها ، وتغلب الأشقياء فيها على الأطراف ، وانبرى العدو اليها ثانياً يسوم أهلها الخسف والعذاب . وأما إفريقية فقد ابتدأت تستعد للانفصال تحت رئاسة الموحدين الذين كان عبد المؤمن أقطعهم فيها الإقطاعات ، وسوّغ لهم بها الجبايات فشاءوا الآن أن يجازوه جزاء سِنِمّار ، يحدد نعمته ، وتفريق وحدة مملكته .

وبالاختصار فقد كثرت الفتوق في جسم الدولة ، وتعددت الاضطرابات هنا

وهناك ، فأعوز رجل حديد الإرادة مثل عبد المؤمن وأين نحن من عبد المؤمن وأين عبد المؤمن منا ؟ وانت خبيرٌ بمصائر الدول حين تصلُ الى هذا الحد من الاختلال وسوء الادارة ، ولا تجدُ من يأخذ بضبعها ، ويضطلع بتدبير شؤونها ، فلا أسترسل في الحديث عن ذلك التدهور الفظيع ، والسقوط السريع .

إنما الذي يستوقف النظر ، ويسترعي الفكر ، هو سرعة انقراض هذه الدولة واستيلاء الضعف عليها أعزّ وأقوى ما كانت ، فما هي إلا غدوةٌ الى الأندلس أو روضة ، حتى 'قضي' كلُّ شيء ، ودخلت دولة الموحدين فجأة في دور الاضمحلال والعدم ، فأدبل منها بنو مَرين الذين عاجلوا فأجهزوا عليها قبلما تتمكن من رَأب صدوعها وعلاج أدوائها .

وفي الواقع إنها لفُرصة نادرة اهتبلها هؤلاء البدو النازحون الى المغرب من الصحراء ، قصد الامتياز والتربع بمراعيه الخصبة ، على عادتهم في كل سنة ، حينما تجذب أراضيهم ، وتصحُّ نباتاتهم . فما ان دخلوا المغرب هذا العام ، حتى وجدوا المعالم قد تبدلت ، والمشاهد قد تغيرت ، وخلت الأوطان من السكان وبقيت الحقول والمسارح هملًا من غير راع ، ولا متعهد ، فنمت وربت . وكأنما كانت تعرف ما سيؤول إليه أمر هؤلاء الغرباء ، فأوتهم الى ظلها ، وبسطت لهم أكنافها فنزلوها وتقرَّروها ، وطاب لهم بها المقيـل ، فسمع بهم بقيّة إخوانهم ، فنسلوا إليهم من كل حدب ، وأقاموا معهم مغتبطين بما يصادفونه من الحصب والرخاء والعيش الرغد . على هذه الصفة كان دخولهم أولاً الى المغرب ، ولما استقرَّ بهم المقام ، ولم يجدوا من يقف في وجههم ويصدُّ عاديتهم عن البلاد ، شجعوا وأقدموا على شنّ الغارات والإجلاب بخيلهم ورجلهم على الحواضر والبوادي . ومن هذا الوقت نشأت عندهم فكرة الاستيلاء والتغلب على المغرب ، فاقبلوا يعملون على تنفيذها وتحقيقها . وكذا الحوادث التاريخية الكبرى تبدأ عادة بسيطة ثم لا تزال تنمو وتستفحل حتى يعظم قدرها ويحلّ خطرُها .

ولم تكن هذه القبائل ؛ بنو مَرين وزناتة عموماً ، في بلادها فوضى لا نظام لها ولا قانون ، بل كانت خاضعة لأحكام الشرع الشريف في معاملاتها وأحوالها الشخصية ، وكانت تقيم على رأسها زعيماً كسائر القبائل ، يسمى بالأمير تحقيقاً

لاستقلالها الذاتي . وفي حين دخولها للمغرب ، كان هذا الأمير هو عبد الحق المريني رأس هذه الدولة ، وأبو الأملاك منها ، وكان رجلاً فاضلاً دينياً متورعاً ، له نفوذ وجاهٌ في قبائل زناتة كلها ، فظل يجاذب الموحدين حبل الملك زمنياً ، ثم قضى وخلفه أولاده أبو سعيد عثمان وأبو معروف محمد وأبو بكر ، فاستمر التنافس بينهم وبين ملوك الموحدين الذين ما كان أكثر عددهم وأقل مدتهم على العادة في هذه الفترة التي يعقبها السقوط . ثم لما آذنت شمسهم بالزوال ، وظلمهم بالانقلاب أوقع بهم بنو مرين في معركة تعرف بيوم المشعلة ، وقعة فاصلة لم يرفعوا بعدها رأساً ولا أبدوا حراكاً ، وجاءت نوبة يعقوب بن عبد الحق رابع الإخوة المذكورين فلم يكن من الصعب عليه ان يستأصل شأفتهم ويبحث جذورهم في سنة ٦٧٤ ، وكذلك خلص له الملك بالمغرب ، فأعلن نفسه سلطاناً وتلقب بالمنصور .

تقلص ظل الموحدين من المغرب ، واستتب الأمر لبني مرين ، فلم يبق من ينازعهم في شيء ، لذلك نرى أن مجال العمل المفيد قد أصبح فسيحاً أمام السلطان الجديد، إنما هو لم يترك بعد ميدان الحرب والسياسة فتقدم الى افريقية يريد استلحاقها، كما كانت في أيام الموحدين ، وهيئات ذلك فقد فات القوات ، ودخلت تلك البلاد في ملك بني عبد الواد ، وبني حفص القائمين بها ، ولم يبق محل للعملية التي أجراها عبد المؤمن لتحقيق الوحدة المغربية ، وضم أطراف البلاد الافريقية ، فتملك قد اكتنفها من الظروف المؤاتية ما لم يكن منه هنا قليل ولا كثير ، لذلك كان الاقدام على الحرب في هذه الحال مجازفة ، قلما تأتي بنتيجة غير الشر المستطير ، فالذي ينبغي عمله حينئذ هو الاتحاد والتعاون على تشييد صروح العدل والنظام وإصلاح أحوال البلاد ، وتبادل المصالح المشتركة .

وأما الحرب وخصوصاً بين شعبين إسلاميين متجاورين ، فانما تسبب من الضرر والبلاء ما يعسر مع طول المدة تداركه وتلافيه .

غير أن أولئك القوم لم يكونوا يحسبون هذا الحساب ، ولا يقيمون. لهذه الاعتبارات وزناً. فلذلك لا نعجب من تسابقهم الى تحقيق هذه الغاية ، وهي الاستيلاء على بلاد إفريقية مهما كلفهم ذلك من الجهد والعناء ، ومهما كان فيه من إزهاق الأرواح البريئة ، وتقاتل المسلمين بعضهم مع بعض . ثم منهم من كان مرابطاً دائماً على معاقل

تلك البلاد ، لا يرفع عنها الحصار أبداً ، ومنهم من كان عُكوفه على الحرب فيها ، سبباً في نبوغ الثوار عليه ، واختلال شؤون مملكته ، ومع ذلك لم ينقطع طمعهم فيها ، ولم تنثن عزيمتهم عنها حتى جاء أبو الحسن ، فخر هذه الدولة وأحد عظماء سلاطين المغرب ، فلم يلبث أن فتحت له أبوابها على المصاريع ، ودخل إليها حتى وصل الى تونس ، وضم المغرب كله بعضه الى بعض ، وأخذ في تنظيمه وإصلاحه على طريقة تكفل له النجاح والتقدم . لكن أجلاف العربان من بني سليم ، وبقايا بني هلال إخوانهم^١ الذين كانوا يعيشون في الأرض فساداً ، ويأخذون الاتاوات من الناس ظملاً وعدواناً لما رأوا شدة شكيمة على أهل البغي والعناد وجدته في سد أبواب المطامع ، وحسم أصول الفساد ثاروا به وقطعوا عليه خط الرجعة ، فوقع في الشراك وعمي خبره على شعبه .

وجاء الطاعون الجارف فأخلى البلاد ، وافقت العباد ، فأرجف الناس بموت السلطان ، واختلت الأمور وكاد اليأس يستولي على النفوس ، فوثب ولده أبو عنان وبايع نفسه ، وانتصب على عرش والده المحصور في تونس . فلما سمع والده بذلك ركب البحر وقفل راجعاً في أسطوله الذي كان يُنِيف على الخمائة قطعة ، ولكن الحظ السيئ كتب على أسطول المغرب العظيم أن يتحطم في البحر ، فتضمحل حينذاك القوة البحرية لهذا القطر الذي طالما جال بها وصال ، فذهبت مع أمواج الخضم جميع القواد والأبطال ؛ لكن الخسارة كل الخسارة في العلماء الذين كانت السلطان لا يستغني عنهم ، ويستصحبهم في حضره وسفره . وقد كان معه منهم في هذه الوجهة جم غفير فذهبوا ضحية سياسته الهوجاء ، وهو نفسه إنما نجا على لوح من ألواح بعض السفن المتكسرة ، بقي يتخبط فوقه حتى رماه الموج في أحد شواطئ مملكته ، وكانت هذه النكبة مما ينقطع لها نياط القلب ، ولا يرقأ لها دمع العين .

ولما رجع أبو الحسن ، كان ولده قد ثبت مركزه ، وأمر أمره فلم يشأ أن ينزل له عن العرش فتقاتلا ، وإنه لمن المؤسف ان يقع هذا بين الولد والوالد ، وثبت على عهد الوالد رجال من صحت نياتهم ، وخلصت ضمائرهم ؛ لكن الوالد المسكين

١ - كان المنصور الموحي نقل عرب بني هلال من افريقية الى المغرب واوطنهم فيه ، وقد بقيت منهم هناك بقاياهم الذين عاودوا سيرتهم الأولى مع إخوانهم بني سليم .

كانت أيامه في انصراف، فلم ينشَب ان تُوفِّيَ رحمه الله. وقد كان بنى فأحسن البناء ، إنما لم يُتِمَّ الله مراده ، وقام الولد الشاب وتتبع خطوات أبيه ، فتمسك بفتوحاته في تلك البلاد ، ونظر في أحوالها بعين الحكمة والسداد ، لكن ما لبث الأمر بعده ان رجع الى مبدئه، وعاد لتونس استقلالها وللجزائر سلطتها وبقي المغرب قائماً بنفسه في أخريات أيام هذه الدولة .

هذه كانت سياسة المرينيين في إفريقية ، وهي كما رأيتها لا تدل على مهارة وحسن تدبير ، بل غاية ما فيها ، وتسبب عنها فعلاً تفريق كلمة المسلمين الموحدة ، وبذرُ العداوة بين قلوبهم النقية ، زيادة على إضعاف قوتهم المادية والمعنوية ، مما يسهل طريق استيلاء العدو عليهم وتمكثته منهم .

ونحن إذا وقفنا محققين بجانب يوسف بن تاشفين ، ودافعنا عن سياسته الناجحة في ضم الأندلس الى المغرب ، ورمينا في وجوه خصومه بكل ما تقوّلوه عليه ، لا يمكننا هنا أن نقف مبطلين بجانب المرينيين وندافع عنهم ونعتذر لهم ، لأنه شتان بين عمل يوسف ، وعمل المرينيين ، ولئن جنى المغرب ، وجنت الأندلس من حركة يوسف ما جنياه من الثمار الصالحة ، والنتائج الحسنة ، فلم يحزن المغرب ولا إفريقية من سياسة المرينيين فيها إلا الخسائر المتوالية في المال والرجال . وبالتالي تضعف المركز الدولي الذي كان لهما في العالم وهذا أمر ليس من صالح كلا الطرفين في شيء ، بل ليس من صالح الشرق ولا الاسلام ولا العرب . على أن العقل لا يجوزُ بسرعة إمكان تغلب الدولة المرينية على هؤلاء ، وهم مثلها دولة ناشئة شديدة الشكيمة ، قويّة المراس ، فلم يبقَ إلا أنهم أخطأوا سبيل المصلحة وهو الاتحاد معهم على ردّ عادية العدو بالبلاد الأندلسية ، حتى ، لا يزيد طغيانه على أهلها، ويعلم أن من وراء اتحاد ملوك النصرانية اتحاد ملوك الاسلام ، فيقتل من غلوائه ، ولا يشتط في عدوانه ولو كتب ذلك لكان المسلمون متوطنين باندلسهم الى الآن ، لا ينغص عيشهم فيها شيء .

ثم بعد ان تبينا هذه الناحية من سياسة بني مرين ، نصرف النظر الى ناحية اخرى من سياستهم ، وهي موقفهم بازاء الاندلس ، فمنها يظهر لك مزيد اعتنائهم بإفريقية ، بل ربما يلتبس عليك الأمر في التوفيق بين سياستهم الأولى في إفريقية ، سياسة الفتح والغزو ، وسيرتهم الثانية في الأندلس المبينة لتلك تمام المبينة ، وذلك أنهم في

الاندلس كانوا قد اتخذوا رُبُطاً وجنوداً لمناوشة الأسبان في القتال ، ودفاعهم عن بلاد المسلمين . وكان أول جيش ذهب منهم إليها ، في أيام يعقوب المتقدم الذكر ، وهو نفسه جاز إلى الأندلس أربع مرات . لا تسأل عن أعماله الحربية فيها ، ومواقفه المشرفة ؛ فكانوا يستولون فيها على الحصون والمسدن العديدة ، لكنهم لم يكونوا يتمسكون بها أبداً ، إنما كانوا يرفقونها هديةً الى أمراء بني نصر ، أصحاب الأندلس .

وانك لتعجب من هذه السباحة ، وهذا الإيثار ، مما لا علة له إلا حُسْنُ نياتهم في الجهاد فقط ، كما كانوا يصرحون هم أنفسهم بذلك . ولا تقل ان ذلك نتيجة العجز ، وعدم القدرة على اقتحام الأندلس وضمها الى المغرب ، فان من يجوزُ على حرب دولتين قَتِيَّتَيْنِ من الدول المغربية الصميعة بافريقية ، لا يتيسبُ حرب بني الأحمر ؛ خصوصاً وقد كانوا في حرب مع المخالفين عليهم من بني جلدتهم ، أو مع الأسبانيين ، ولا تقل أيضاً أن البحر كان هو الحاجز بينهما والمانع من تنفيذ هذه الفكرة ، ولو طافت برؤوس السلاطين من بني مرين ، لأنا نعلم أن أسطول المغرب في ذلك الحين كان من الأساطيل التي تُضربُ بها الأمثال ، وقد ذكرنا ان جملة قِطْعِهِ التي كانت مع أبي الحسن في وقعة افريقية خمسمائة قِطْعة ؛ فلا يجوز أن يُقال إن البحر هو الذي كان حائلاً عن إقدامهم على شن الغارة على الجزيرة الأندلسية وانتزاعها من أيدي مالكيها ، والمتصرفين فيها . وإذا لم يكن هذا ولا ذاك هو السبب الحقيقي في انصرافهم عنها الى افريقية ، فليكن هذا السبب الذي نذكره ، وهو الذي تُؤَيِّده وقائع الأحوال وشواهد العيان ، فالمرينيون خلفُ الموحدين كانوا يعرفون ما نزل بسلفهم من الضعف والانحلال بسبب ذلك القطر الأندلسي ، ومحافظتهم عليه ، ولئن قيل إنه كان سبب عزمهم ومجدهم فقد يُقال أيضاً انه كان سبب تعسهم ونحسهم ، فمن المحقق انه لولا واقعة العقاب لم يتمكن المرينيون ان يستولوا على المغرب ، ويُقلِّصوا ظلَّ نفوذ الموحدين عنه . فهذه العبرةُ التاريخية هي التي كانت تثنيهم عن المغامرة في أخذ الأندلس وانتزاعها من أيدي بني نصر ، ولو فعلوا لنجحوا في ذلك من أول وهلة ؛ لكنهم كانوا ينظرون الى العاقبة فيتخوفون منها . ولنفرض أنهم أخذوها ، أليس ما يلزمها من التحصين الدائم ، والدفاع المستمر مُتِهْكَاً لقواهم ، كاسراً لشوكتهم يوماً ما ، كما سبق ففعل المرابطون وبني مؤمن ؟ نعم . فنظرهم هذا شديد ، وأسدُّ منه نظرهم الى توحيد افريقية ، لو كان ممكناً إذ ذاك . ولذلك فقد انصرفوا عن الأندلس انصرافَ المختار

لا اليائس، ثم أقبلوا على إفريقية فلم يُغنِ حذرٌ من قدر، وكانت هي السبب في ضعفهم والخلال قوتهم، كما لو ذهبوا إلى الأندلس فيما كانوا يُقدِّرون. وقولنا انصرفوا عن الأندلس ليس على إطلاقه فقد قدّمنا انهم كانوا يُقيمون فيها الرُّبط والمقاتلين، بل لقد كان ملوكهم كثيراً ما يعبرون إليها فيقيمون فريضة الجهاد خالصةً نياتهم في ذلك، نقيّةً ضمائرهم. ولقد قاموا بأكثر مما يجب عليهم من ذلك، ولا قوا من العدو الذي كان يُراوِغهم، ويعبث بالعهود التي يعقدونها معه، أذىً كثيراً، وكان يتعرض لسخطهم فيُنزِلون به أشدَّ أنواع النقمة، وأقسى ألوان العقاب وهم في ذلك محقون ومنصفون، وكلُّ من علم بُعد الشُّقة، وتحقّق صعوبة ركوب ثبج البحر في ذلك العصر لأنقاذ المستصرخين، وحماية الضعفة من أهل الأندلس، عذر هؤلاء المغيرين إذا أتوا حنقين غضابي، فاقتصوا منه على قدر فعله، وجازوه بما يستحق، فانه كان يتركهم حتى يعودوا إلى مواطنهم بعد أن يكونوا عقدوا معه الهدنة التي يكون هو الطالب لها، فينقضُّ على جوارحه من المسلمين، ويفعل فيهم الأفاعيل، فما إن يصل إلى فاس وتأتي النجدة حتى ينفذ الوعيد ويسبق السيف العذل. وهكذا كان احترام الأوربيين للعهود الدوليّة في القرون الوسطى - ولا يزال - مُعلّقاً بمصالحهم الآنيّة وبما تليّه إمكانيّاتهم وظروفهم الحربية فقط لا غير.

ولكن دعنا من هذا، ولننظر في موقف ملوك بني نصر الأندلسيين بإزاء الدولة المرينية لتتعرف بعد ذلك على من تقع مسؤولية ضياع الأندلس، فقد رأينا من قبل موقف الأندلسيين المزدول، موقف الفضيحة والعار، والخيانة والخذلان، في وقعة العقاب المشؤومة، حتى تسبّبوا في تصدّع أركان تلك الدولة الشاحخة وأدخلوا الضعف على الأمة المغربية التي لم تكن تعرفه من قبل. وفي أيام المرينيين، نجد أن هؤلاء الذين سمّوا أنفسهم ملوكاً، بينما يستنجدون بأسود العرّين من بني مَرين، فيخفُّ هؤلاء لمساعدتهم وإنقاذهم بدافع الرّغبة في الجهاد والذب عن بيضة الإسلام، إذ يتحالفون مع الأعداء عليهم؛ فلا يكاد جنود المغرب يركبون البحر، حتى يجدوا العدو في أساطيل أولئك المستصرخين كما نأ لهم، معترضاً كالشجى في حلق الزُّقاق، فتنشَبُ الحرب، ويشتدّ ضرامها. فأما حين يُكتب النصر للمسلمين وهو الغالب، فإن الناكثين يعتذرون ويقدمون أنفسهم للخدمة، ولا يعدّون من وسائل النفاق، وأساليب الخداع، ما يسترضون به السلطان؛ وأما في حال غلبة العدو، فإنهم يُولّونه أيضاً الأدبار خشية تقويته

عليهم فيرجعون لبني مرين أيضاً، لأنهم ليس لهم عضدٌ ولا ناصرٌ غيرهم. ولقد حدث مرة أن أرسل السلطان رأس أحد القواد الأسبان ممن أوقع بالمسلمين وقائعَ فظيعة ، أرسله الى مَلِكِ بني نصر ليُظهره الى المسلمين فيحمدون الله الذي أمكن من عدوهم اللدود. لكن ملك بني نصر طيَّبَه وجعله في صندوقٍ مُحَكَّى وأرسل به الى ملك الأسبان يتملِّقُه ، فانظر الى التخاذل كيف يكون، والى السقوط من حالق العزِّ الى خضيض الهون ... ولا يظن القارىء أنهم كانوا يخافون منهم على بلادهم ، فقد قدَّمنا أن فكرة الاستيلاء على الأندلس لم تدر قط بخلد ملوك المرينيين ، والا فهم لو أرادوها لم تُعجزهم بحال ، وقد قدَّمنا أنهم لما كانوا يستولون على حصن أو بلد ، سرعاناً ما يُسلمونه اليهم قاصدين بذلك إزالة النشْرة من أنفسهم ، وتقوية الروابط معهم ، ولم يكونوا يُبْقون بأيديهم إلا جبل طارق والجزيرة الخضراء، وجزيرة طريف ، وهذه إنما يبقونها لربط خيط المواصلات بين العدوتين ، وإنزال المقاتلة وادخار المؤونة مما مصلحته عائدة على الأندلس ، لكن أولئك القوم لم يكونوا يراعون هذا الجميل ، وإنما ينظرونه بعين عوراء وأخرى مغمضة .

وماذا حدث بعد ذلك ؟ حدث ان الدولة المغربية لم تبقَ على شيء من القوة بسبب ما استنفذت من مجهودها هذه الحروب الطاحنة ، ثم قامت قيامة بني مرين ؛ بالتهالك على السلطة ، وتنازع الإمارة فانتهى الأمر بسقوطهم ، وانتصاب دولة بني وطاس ، وهم فرعٌ من بني مرين ؛ إلا أنهم ليس فيهم غناؤهم فضعفت الأمة ومرج أمرها ، واشتغلت بمشاكلها الداخلية، وحروبها الأهلية . فكأنما بدلت الأرض غير الأرض ، والناس غير الناس . وفي هذه الأثناء كانت النداءات على العادة تتوالى من أهل الأندلس على المغرب وهو لا يستجيب لنداء ، لانه كما علمت منتحراً مضرَّجاً بالدماء ، نعم كان يتسرَّبُ إليهم آونة بعد أخرى ، فوجٌ من متطوعة المقاتلين ومتحمسة المجاهدين ؛ ولكن كان جهده أن يُبلغ الأخبار ، ويبسط الأعذار ، والعدو إذ ذاك لَمْ شَعثه ، آخذاً أهْبته قوي متَّحد ، مُنِيخٌ بكلِّه على المسلمين ، يُذيقُهم العذاب المِهين ، حتى حصلت الكارثة ، ونفذ سهم القضاء ولا حول ولا قوة الا بالله .

قلنا إنَّه لما سقطت دولة المرينيين خلفتها دولة الوطاسيين ، إلا أن هذه لم يصحبها توفيقٌ فكانت ذنباً طويلاً للدولة المرينية ، يحري عليها ما يحري على أعقاب الدول ، من مُصاحبة الفشل ، ومُعانة العِثار ، وقد بقيت كذلك حتى أخلت المكان للدولة السعدية التي سنتكلم عليها بعد هذه .

في دائرة العروبة والاسلام الصحيح

يقول كثير من المؤرخين ونسابة المغرب : إن بني مرين فخذ من زناتة ، يمتشون في عداد قبيلتهم هذه الى قيس عيلان ، فهم عرب خلص ، لا شك في ذلك ، وقال شاعرهم عبد العزيز المكنوزي في نظم السلوك :

فجاورت زناتة البرابرا فصيروا كلامهم كما ترى
ما بدّل الدهر سوى أقوالهم ولم يُبدّل مُنتهى أحوالهم
بل فعلهم أرّبى على فعل العرب في الحال والإيثار ثم في الأدب
فانظر كلام العرب قد تبدّلا وحالهم عن حاله تحوّلا
لا يعرفون اليوم ما الكلام وما لهم نطق ولا إفهام
وان تبادت بهم الأحوال لم تبق في الدهر لهم أقوال
كذاك كانت قبلهم مرين كلامهم كالدرّ إذ يبين
فأخذوا سواهم خيلا فبدّلوا كلامهم تبديلا

وهذا ظاهر على القول بعروبة البربر ، والخلاف في ذلك شهير ، فلا نطيل به هنا . وسواء صح ذلك أم لم يصح ، فالواقع أن بني مرين كانوا يعملون للنهضة والتجديد في دائرة العروبة ، لا يخرجون عنها أصلا ، فخدموا العربية خدمة مبادقة ، ورفعوا لها منارا عاليا ، وكفى أنثنا لم نعد نسمع بعد توليتهم الحكم بشيء من التمييز الذي كان للبربر في دولة بني مؤمن ؛ بل كان هذا آخر العهد بحياة الفرقة والعنصرية المقيتة . فعلا شعار العروبة كل الشعارات ، ضمت الضاد جميع المغاربة في شق المصالح

والمرافق ، الأمر الذي كان يجب أن يتم منذ جلوس أول عربي صميم تولّد من بربريّة صميّة على عرش المغرب ، وهو ادريس الثاني بن كنزة بنت إسحاق بن عبد الحميد الأوربي ، بل منذ أن قاد طارق بن زياد وهو البربري الصريح جيش المغرب الذي فتح الأندلس ؛ فركّز فيها راية العروبة فلم تزل فيها عالية خفاقة إلى آخر العهد بها .

وهكذا أيضاً كان عمل المرينيين في الناحية الدينية سليماً من أيّ نزعة ، خالصاً من كل بدعة . فاذا كان المذهب الأشعري في العقائد قد تقرر في العصر السابق ، وصار هو الغالب على اكثرية المغاربة ، فقد علمت انه تقرر بعيداً عن تأثير الدولة ، وخالياً مما كانت تضيفه اليه من آراء شاذة مأخوذة عن المعتزلة وغلالة الشيعة . على انه قد عمّ العالم الاسلامي ، وأصبح هو والمذهب الماتريدي المذهبين العقديّين الرسميين السائدين في سائر مملكة الاسلام . وفي الفقه ساد المذهب المالكي نهائياً لكفاح اتباعه المستميت في العصر السابق ، ولناصر الدولة الجديدة له . على ان الحرية المذهبيّة لم تقيّد قط في المغرب . فبقي أفراد عديدون في هذا العصر وفي العصور التي بعده يميلون الى المذهب السلفي في العقائد ، وآخرون يأخذون بمذهب أهل الحديث في أحكام العبادات . أما الذين يُدرّسون الحديث على انه مادة الفقه وأصله المتفرّع عنه فكثيرون . وفي بعض الأحيان كانت الدولة نفسها تناصر المذهب السلفي ، وتشجّع العلماء على النظر والاجتهاد ، كما حصل في أيام السلطان سيدي محمد بن عبد الله في العصر العلوي . وعلى كل حال فان مذهب أهل السنة سواء في الاعتقاد أو الفقه قد توطّد منذ هذا العصر في المغرب . ولم يقم بعد الموحدون دولة تنزع نزعة مخالفة لما عليه الجمهور وسواد المسلمين . ولقد أعاد السلاطين من بني مرين الى اذهان الناس ما كان من أبهّة الخلافة الأموية بالأندلس في قصورهم ومصانعهم ورؤسائهم وجنودهم ؛ فكان خروج السلطان لصلاة الجمعة والعيدين ، وللمناسبات الأخرى يقع في مشهد عظيم ، وموكب فخيم . وكانت هذه المظاهر الشائقة كثيراً ما تغري كبار الدوات العلمية والأدبية في الأندلس والمغربين الأدنى والأوسط ، فيفارقون بلادهم غير آسفين عليها ، ويؤمّون الحضرة الفاسيّة حيث يتمتعون في كنف الدولة المرينية بأسنى ما كان يتمتع به رجالات الدول السالفة كالعباسيين والأمويين مما سمعوا به ولم يروّه .

١ - نسبة الى مؤسسه اي منصور الماتريدي امام أهل السنة فيا وراء النهر ، والماتريدي اولأشعرية متفقون في اصول العقائد وليس بينها خلاف إلا في أمور ثانوية .

وكفى بابن خلدون وابن الخطيب وابن الأحمر وابن رضوان وابن مرزوق وابن جُزَيّ والمقري وكثيرين غيرهم من العظماء الذين تفيئوا ظلّ هذه الحضرة المرينية ، وتقلّبوا في نعمتها لما إنها كانت في عصرها حامية بيضة الاسلام ، وموئل العروبة ، دليلاً على ما نقول .

ولقد سار أولئك السلاطين في إقامة مراسم الخلافة على سننٍ لا حجب فكانوا يعقدون المجالس للمناظرة والمحاضرة ، ويطارحون الأدباء ، ويحاورون الشعراء . أما العلماء فلا تسل عن شدة تقربهم لهم واختصاصهم بهم حتى ان جمهوراً منهم ذهب ضحية هذا التقريب والاختصاص في وجهة أبي الحسن الإفريقية كما سبق القول . وقد قيل إن عدد من غرق من العلماء في أسطول هذا السلطان اربعمئة عالم ، فما بالك بمن لم يركب الأسطول ونجا ؟ فما ظنك بمن لم يصحبته في تلك الوجهة ؟ وهذا يعني أن العلماء كانوا متوافرين بحيث بلغ عدد الذين يصحبون السلطان - ولا يكونون عادة - إلا من جهابذة أهل العلم - ذلك الرقم المرتفع جداً . وهذا يعني أن الدولة كانت في خدمة العلم ، بحيث انصرفت الهمم الى طلبه ، واشتد التنافس في تحصيله ، فكثرت العلماء نتيجةً لذلك ، وفعلاً فان ما عمله المرينيون في هذا الصدد يجعلهم حريتين بلقب دولة العلم الذي يُظْلِقُهُ عليهم بعض المؤرخين ، ولقد بذّوا بآثرهم العلمية جميع من تقدّم أو تأخر من ملوك المغرب . فمدارسهم الفنية العديدة لم يستطع أحد أن يأتي بمثلها الى الآن . وخزائن الكتب كذلك لا تزال تنطق بفضلهم على الحركة العلمية في هذه البلاد منذ أسسوها ، ولا سيما خزانة القرويين التي أنشأها السلطان أبو عنان وأودعها كما يقول الجزبائي في زهرة الآس « الكثير من الكتب المحتوية على أنواع من علوم الأبدان والأديان ، واللسان والأذهان ، وغير ذلك من العلوم على اختلافها ، وتنوع ضروبها وأجناسها ، ووقفها ابتغاء الزلفى ورجاء ثواب الله الأوفى ، وعيّن لها قتيماً لضبطها ومناولة ما فيها ، وتوصيلها لمن له رغبة . وأجرى له على ذلك جناية مؤبّدة تكرمه وعناية وذلك في جمادى الأولى سنة ٧٥٠ . » وأسّس أبو عنان كذلك بالقرويين خزانة مصاحف ، احتفل في بنائها وتشييدها بما لم يسبق اليه ، وأعدّ فيها جملةً كبيرة من المصاحف الحسنة الخطوط ، وكلّف بها من يتولى أمرها على أحسن الشروط . وقبل أبي عنان عقد السلطان يعقوب المنصور صلحاً مشروطاً مع (شانجه) ملك اسبانيا ، كان مما شرطه عليه فيه ان

يُوجّه إليه كتب العلم التي بقيت ببلاده للمسلمين ؛ فوجّه إليه منها ثلاثة عشر حملاً فيها كثيرٌ من المصاحف وكتب التفسير والحديث والفقه واللغة ، فأرسلها المنصور إلى فاس وحبّسها على طلبة العلم . ولقد جاوزت عنايتهم بهذا الشأن بلاد المغرب إلى الخارج . فهذا السلطان أبو الحسن يوقف على المساجد الثلاثة المقدّسة ثلاثة مصاحف كتبها بخطّه ، وجمع لها القراء والخطّاطين والنقاشين ، وأخرجها في حلّة فريدة من الفن المغربي البديع ، وأرسلها وقفاً كما قلنا إلى مسجد مكة ، ومسجد المدينة ، وبيت المقدس ، وأوقف عليها من الضياع والرّباع ما يقوم بكفاية القائمين عليها والقارئین فيها . وكانت المساجد والمشاهد والمنشآت التي خدموا بها الدين كثيرة أيضاً ، ناهيك بأن أبا عنان منهم هو أول من نصب صواري الصوامع ، ونشر فيها الأعلام في أوقات الصلاة نهاراً والشرج ليلاً ، يستدلّ بذلك من بعد ومن لم يسمع النداء وجعل علم يوم الجمعة أزرق للاستذكار . وفي ذلك اعتناء بأمور الأوقات ، وما يتعلق بها من وجوب الصلوات وما يترتب عليها من وجوه الحقوق في العبادات والعبادات وفيه قيل :

نُورٌ به علمُ الإيمان مرتفعٌ للمُتّدين به للحق إرشاد
يأتون من كل صوب نحوه فلمهم كدّيه للرّشد إصدار وإيراد

وفي الحقيقة إن كل واحد منهم كان مثالا للملك العربي المسلم العامل لعزّ قومه ودينه ، فلا يفتأ يحدّ ويجتهد في إشادة مجدهما وتخليد مآثرهما ، وبقدّر حرصهم على الوحدة المغربية الذي قدّمنا الكلام عنه وقلنا إنهم أخطأوا الطريق إليه ، كان حرصهم على الوحدة الإسلامية عموماً ، فأنت قد رأيت مقدار تفانيهم في الدفاع عن معقل المدنيّة الإسلامية ، والحضارة العربيّة في بلاد الأندلس ، ومبلغ نصّحهم لملوكها ، حتى إنهم كانوا معهم مثل الأجراء يعملون لهم ، لكن بدون أجر ، بل هم كانوا يدفعون اليهم المبالغ الطائلة من الأموال والسلاح والعتاد . كذلك كانوا على اتصال دائم بملوك الاسلام في مصر والشرق ؛ فكم كاتبوهم وهادوهم وعقدوا

أواصر المودّة والائتلاف معهم ، وأوفدوا اليهم الوفود والسفراء من خيرة رجال المغرب الاداريين ، وذوي العلم والأدب وأهل البيت المالك ، كل ذلك يدلّثنا على ما كان لهم من صدق النية ، وإخلاص الطوية ، في خدمة الدين والوطن ، وتعزيز الروابط الجنسية والمالية بينهم وبين الدول العربية والاسلامية المعاصرة .

فلا جرم بعد هذا ان نقول إن كل أعمالهم ومآتيهم للنهضة والتجدّد ، كانت في دائرة العروبة والاسلام الصحيح ، لا تزيع عنها قيد فتر ، وإنهم خدموا العربية والدين خدمة صادقة ، ورفعوا لها مناراً عالياً ، وما بعد العيان بيان .

الحركة العلمية

إن تأثير الانقلاب المريني على الحالة الفكرية ، لم يكن ذلك التأثير القوي الذي تبدل معه معالم الأمور وتتغير مجاري الأحوال ؛ لذلك فإن الحركة العلمية قد بقيت في نشاطها وتقدمها ، كما كانت على عهد الموحدين . وإن كان قد اعترأها في فترة الانقلاب بطبيعة الحال شبه انقطاع أو فتور ، فإنها بعد أن انتصبت الدولة المرينية وتشيدت أركانها قد عادت فاسترجعت ما كان لها قبل من القوة والظهور .

نعم لقد استأنفت الحركة العلمية سيرها إلى الأمام في ظل الدولة المرينية التي ما فتئت ترعاها وتُشجّعها بمد يد الإعانة إلى رجالها وتنشيطهم حتى ينصرفوا لخدمتها ، بل إن رجال الدولة أنفسهم كانوا يُقدّمون لها أجلّ الخدمات مما لا يقوم به إلا أجلّ العلماء . إذ كان الواحد منهم يُكبّ في نشأته على الدراسة والتحصيل ولا يمنعه ما هو مأخوذ به من قيود الملك وأدوات الرياسة ، أن يدأب على النظر في فنون العلم والمعرفة ، حتى يصير من رجالها المعدودين . فقد كان السلطان أبو سعيد عثمان بن يعقوب المنصور من أهل العلم ، وكان أخوه الأمير أبو مالك ممن لهم اليد الطولى في الأدب ، وعارضة قوية في قرص الشعر ، وكان السلطان أبو الحسن بن أبي سعيد من كبار العلماء . ففي حياة والده كان معدوداً في أطباء الخاص ، وفي مدة توكيله الحكم أكثر من مجالسة العلماء والأدباء ، ومذاكرتهم ومحدثتهم ، وكان شديد الإلف لهم ، لا يصبر على مفارقتهم ، وكلّ جنس لجنسه إلف . وكذلك أخوه الأمير أبو علي كان محباً للعلم ، مولعاً بأهله ، منتحلاً لفنونه ، وله بصيرة بالبلاغة واللسان ومملكة في نظم الشعر ، وهو الذي تنافس مع أخيه أبي الحسن على الكاتب عبد المهيمن الحضرمي في حياة والدهما حتى كادا يقتتلان عليه فألحقه والدهما بمعيته . وكان السلطان أبو عنان ابن أبي الحسن فقيهاً يَنَاطِرُ العلماء الجِلَّةَ ، عارفاً بالمنطق وأصول الدين ، وله حظٌ صالح من علمي العربية والحساب ، وكان حافظاً للقرآن عارفاً بناسخه ومنسوخه ، حافظاً للحديث عارفاً برجاله ، فصيح القلم ، كاتباً بليغاً ، حسن التوقيع ، شاعراً مجيداً . له مُقطّعات شِعْريّة حسنة تورّد في محلها . ومثل ذلك يقال في السلطان أبي العباس

أحمد بن أبي سالم بن أبي الحسن وولده أبي فارس عبد العزيز . فلا غرو أن تنشط الحركة العلمية في هذا العصر ، وهي تحظى برعاية ملوك من هذا القبيل ، يُمثلون النشاط الفكري في جميع ميادينهم . ولنفصل الكلام في كل بابٍ بابٍ ، كما فعلنا في عصر الموحدين .

ولعل القارئ لا يزال يذكر أننا قسمنا العلوم هناك الى ثلاثة أقسام ، فالعلوم الشرعية تليها العلوم الأدبية ثم العلوم الكونية : أما العلوم الشرعية ، وهي الفقه والحديث والتفسير وتوابعها فقد نُحْيِي فيها منحى التبسط والتفريع . وإن يكن شيء من ذلك قد وقع في العصر قبله ؛ إلا أنه في هذا العصر قد زاد الأمر زيادة ظاهرة ، وبلغ التوسع في ذلك منتهاه . يدلنا على ذلك كثرة الفقهاء الذين نبغوا في هذا العصر ، والتأليف العظيمة التي وُضعت في فروع الفقه . ونحسب أن ذلك كان نتيجة الضغط على رجال هذه العلوم في عصر الموحدين والتحرش بهم وإن الضغط يعقبه الانفجار كما تعلم ؛ فكان هذا هو ردُّ الفعل على تلك الحركة الاستفزازية المنافية لاستقلال الناس في أذواقهم ومشاربهم ، وحرّيتهم في أعمالهم ومآثرهم . وإذا صحَّ اعتبار هذا السبب هو الباعث على نشاط هذه العلوم من جديد ورواجها هذا الرواج كله ؛ فلا يصحُّ اعتباره سبب ما طرأ عليها من التضخم والنماء ، إلا من طريق غير مباشر ، وهو ما أشرنا إليه من كثرة المشتغلين بها ، فكثرت البحث والتعمُّق في البحث ، فكثرت الاستنباط والتفريع في الاستنباط ، فكثرت مسائل هذه العلوم كثرة لا مزيد عليها . أضف الى ذلك أن الطلبة في هذا العصر ، كانوا لا يستنكفون من الطلب ولو بعد بلوغ المرتبة العليا في التحصيل . فقد كانت هناك طبقة منهم لا يمكن أن يقاس بها أكابر علمائنا الآن ، لا تفتقر عن الطلب ، وهي بعد من كبار العلماء . واعتبر بما حُكي عن الكانوني ، وكان من أئمة الفقه ، الذين لا يُشَقُّ لهم غبار ، أنه كان يدرّس المدونة بالقرويين ، ويأتي عليها بأبحاثٍ وتعليقٍ وشروحٍ مستجادة ، فكان يجلس إليه أكثر من مائة معمم ، وهم حُفَظ المدونة إذ ذاك . وهذا حافزٌ قويٌّ لما ذكرنا كان من نتيجته أن اتسَّعت دائرة هذه العلوم اتساعاً عظيماً .

ودون هذه العوامل المختلفة ، التي أدَّت الى نشاط علم الفروع ، ذلك النشاط العظيم ، فإن هناك عاملاً آخر لا يقلُّ عنها شأنًا في هذا الصدد ، وهو ما كان لطلبة

العلم المذكور في هذا العصر من سموّ المنزلة عند الخاصة والعامة ، بسبب وقوفهم مع الحق ، وسيرهم على الجادة ؛ فكان أن عظمت سلطتهم على النفوس وقوي 'نفوذهم في رجال الدولة . فالفتوى والقضاء ، ومناصبُ الشرع كلها كانت مستقلة عن التدخل الحكومي أو التعرّض لها من الرؤساء ، وكلمة القاضي كانت نافذة في أكبر كبير ، كأصغر صغير . وحسبك أنه لما وقع الشجار بين القاضي أبي الحسن الصغّير ، والوزير ابن يعقوب الوطّاسي ، بسبب تعقّب هذا الأخير لحكم القاضي ، لم يكن من السلطان إلا أن سخط على وزيره وعزله شرّاً عزل .

وهذه المكانة التي كانت لرجال الدين عند الشعب ، هي التي جعلت العلامة عبد العزيز الورياغلي يثور بأخر سلاطين بني مرين ، ويقلب الدولة المرينية رأساً على عقب ، لما سوّل للسلطان أن يوّلي على فاس رجلاً يهودياً يسوم أهلها سوء العذاب . أرأيت إلى أي حدّ بلغ نفوذ الفقهاء في الأمة ، فلم لا ينصرفون لخدمة علمهم الذي به رقوا هذه الدرجة من المحبوبة .

ونقول إن هذه النهضة المباركة التي نهضها علم الفروع بسبب الإقبال الشديد على طلبه ، قد أفادت العلم من حيث هو ، وأفادت الأسلوب العلمي أكثر ، حيث قد أدخلت عليه تحسيناً مشهوداً في آثار علماء هذا العصر الممتازة بكثرة الجمع والتحصيل ، وحسن التصرف والتعليل ، وفي دروسهم التي كانت كأنها بچارٌ تزخر بالفوائد ، وترمي بالفرائد ، فهذا أبو محمد عبدالله الورياجلي أحد صدور الفقهاء ، ومن كانت إليه الرّحلة في عصره لأنه كاد يتفرد بمرتبة الاجتهاد ، وكان يعرف المذاهب الأربعة معرفة جيدة ، فكان يُدرّسها ويُرجّح مذهب مالك ، وكانوا يقيسونه في علمه بالمأزري ولا يعدون به طبقته ، وأجوبته تدل على غزارة معرفته إذ لا يذكر فيها إلا الخلاف العالي . قالوا : وكان من عادته أنه يشتغل بالتدريس في فصل الشتاء والربيع ؛ وفي الصيف والخريف يرابط بالثغور . وهذا ابن الصبّاغ أملي على حديث « يا أبا عمير ، ما فعل النّغير » أربعاً فائدة كلها مما استخرجه بفكره الثاقب من هذا الحديث الشريف .

والغاية في هذا الباب ما روي عن أبي القاسم عبد العزيز بن أبي عمران موسى العبدوسي أحد أفراد بيت العبدوسي الذين ظلوا رجالاً ونساء حاملين راية الفقه والحديث بفاس

والمغرب زمانا طويلا . وقد رحل أبو القاسم هذا الى تونس ، ودرّس بها فقصى التونسيون العَجَب من وعيه للعلوم وكثرة حفظه . وكثير من علمائهم أوقفوا دروسهم وحضروا عنده رغبة في الأخذ عنه ، واتصال السند به . وكان الناس يستبقون الى المسجد ويأخذون مجالسهم فيه قبل صلاة الصبح ، وتغص بهم رحاب المسجد فيجلسون خارجه حتى يكون من بخارجه أكثر ممن بداخله . وكان هو يُسمِعُ الكل بصوته الجهر . ولما رأوا تفرّده باتقان علوم الشريعة من فقه وحديث وتفسير ، قالوا إنه لا يحسن غيرها ، فاقترحوا عليه أن يقدم لهم درساً في العربية فدرّسها أيضاً وبهرهم ما شاهدوه مما هو فوق الطاقة ، فأجمعوا حينئذ على إمامته وتفوّقه في العلوم ، وأنه لا يضاهيه في جمعيه وتحصيله أحد من المعاصرين سواء بأفريقيا والمغرب .

وبعد ، فاسمع ما يقوله علماءها عنه نقلاً عن أحمد بابا : « قال القاضي أبو عبدالله ابن الأزرقي ، كتب إليّ أبو عبدالله الزلديوي المفتي بتونس ، يعرفني بحاله من الحفظ مما يقضى منه العجب ، أنه ورد علينا في أخريات عام سبعة عشر وثمانمائة ، الفقيه العالم الحافظ أبو القاسم بن الشيخ الإمام أبي عمران موسى العبدوسي بكتاب في يده من قبل الامام أبي عبدالله بن مرزوق يقول لنا فيه ، يردّ عليكم حافظ المغرب الآن ؛ فقلنا هذا من قبيل مبالغات الإخوان في التوصية باخوانهم . فلما اجتمعنا به وأقام عندنا أزيد من عام رأينا منه العجب العجيب من حفظ لا تنوّهه يكون لأحد . ولقد كان عندنا بتونس الشيخ أبو القاسم البُرزلي ، سلم له معاصروه في حفظ الفقه وأشياخ المدوّنة والناس دونه في ذلك ، وببجاية الشيخ أبو القاسم المشدالي كذلك . وحضرنا مجالسهم ، فما رأينا ولا سمعنا بمثل العبدوسي في حفظه وعلمه ، وعلمنا صدق ابن مرزوق فيما وصفه به ، وكان كما قال الشاعر :

فلما التقينا صدق الخبر الخبر

بل صغّر الخبر الخبر . ثم قال في وصف درسه : « وكذلك فعلت أنا ، تركت مجلس تدريسي وحضرت عنده لأخذ شيئاً من طريقه ، فرأيت شيئاً لا يدرك الا بعناية ربانية ، موقوفٌ ذلك على من رزقه الله الحفظ ينفق منه كيف يشاء . لازمناه

حضرًا وسفرًا ، وعلمنا طريقه تفكيرًا ونظرًا ، ولا يقدر على طريقته إلا من رُزِقَ فطنة كاملة الاستواء ممدّةً من جميع القوى الروحية والبدنية .

أما إذا أقرأ المدونة فاستمع لما يوحى : يبتدىء في المسألة من كبار أصحاب مالك ، ثم ينزل طبقة طبقة حتى يصل الى علماء الأقطار من المصريين والافريقيين والمغاربة والاندلسيين وأئمة الاسلام وأهل الوثائق والاحكام حتى يكلّ السامع وينقطع عن تحصيله الطامع . وكذا إذا انتقل الى الثانية وما بعدها ، هذا بعض طريقته في المدونة . وأما إذا ارتقى الكرسي ، يعني كرسي التفسير ، فترى امرأ معجزاً ينتفع به من قدر له نفعه من الخاصة والعامة . يبتدىء بأذكار وأدعية مرتبة ، يكرّرها كل صباح ومساء يحفظها الناس ويأتونها من كل فجٍّ عميق . وبعد ذلك يقرأ القاريء آية فلا يتكلم بشيء منها الا قليلا ، ثم يفتتح فيما يناسبها من الأحاديث النبوية ، وأخبار السلف وحكايات الصوفية وسير النبي وأصحابه والتابعين . ثم بعدها يرجع الى الآية ، وربما أخذ في نقل الأحاديث فيقول الحديث الأول كذا والثاني كذا والثالث كذا الى المائة فأزيد ، ثم كذلك في المائة الثانية ، والشك في الثالثة .

ثم قال : « وكذلك فعل في إقرائه للعربية ، فبدأ بأصحاب سيبويه ، ثم نزل الى السيرافي وشراح الكتاب وطبقات النحويين حتى ملّ الحاضرون وكلوا . وما زال كذلك حتى ذهبوا ولم يُراجع في ذلك ، وقد كان قصدهم اختباره وامتحانه » اهـ . بتصرف يسير للايضاح . واذ قد تبينت هذه الظاهرة التي كانت غالبية على علم الفروع في هذا العصر ، فانا نقول انها طريقة منهجية إصلاحية ، اختص علماء المغرب دون غيرهم بالعمل عليها ، والدعوة اليها إذ في هذا الوقت ، بدأ العمل بتلك المختصرات العقيمة ، وسرى هذا الداء الوبيل ، داء الاختصار ، الى العلوم الاسلامية عامة ، فقلل فائدتها ؛ فكان علماؤنا يُشدّدون النكير على ذلك ، ويصدّون الطلبة عن قراءة الكتب التي نحى بها أصحابها هذا المنحى . ويروى عن القبّاب أنه كان يقول إن ابن بشير وابن شاس وابن الحاجب أفسدوا الفقه . ولما حجّ اجتمع بابن عرفة في تونس فأطلعه ابن عرفة على مختصره الفقهي ، وقد شرع في تأليفه ، فقال له القبّاب ما صنعت شيئا ، فقال ولم ؟ فقال إنه لا يفهمه المبتدي ، ولا يحتاج اليه المنتهي . فتغير وجه ابن عرفة حينئذ . قالوا وكانت هذا هو السبب الحامل له على بسط العبارة في

أواخر مختصره . ومثل القَبَّاب في ذلك اليزناسني الفقيه الكبير ، فإنه كان صاحب ابن شاس ، واستشاره هذا في وضع مختصره الجواهر ، فأشار عليه ألا يفعل ؛ فلم يعمل ابن شاس بإشارته . وقد ألمعنا الى الاثر السيء الذي أثمرته هذه المختصرات في العلوم الإسلامية بالخصوص ، وراجع الفصل التاسع والعشرين من المقالة السادسة من مقدمة ابن خلدون لتعرف تأثيرها في العلوم مطلقاً ، فلا ريب إذا عددنا ما اتبَّعه علماءنا المغاربة في هذا العصر طريقة إصلاحية منهجية .

هذا وقد تناولنا الكلام على العلوم الإسلامية جملة ، واعطينا عليها من العبدوسي مثلاً مشتركاً . وان ظهر اننا نخصُّ الفقه بمزيد العناية ، لأنه في الواقع كانت أكثرها انتشاراً . ولو ذهبنا نعدُّ رجاله البارزين الذين ما زالت الفتوى والأحكام منذ هذا العهد الى الآن تدور على أقوالهم واجتهاداتهم لضاق المجال عن استيفائهم ؛ ولكن ذلك كله لا يغطي على ما كان لغير الفقه من الظهور ، وخاصة علم الحديث رواية ودراية ، وعلم التفسير وتوابعه . فبالإضافة الى مثال العبدوسي نذكر المحدث والرجالة الشهير ابن رشيد الفهرري الذي جال في أقطار إفريقية ومصر والشام والحجاز ولقي من اعلام الرواية الجَمَّ الغفير ، وأكثر من هذا الشأن ، وتوسع في الأخذ وذهب في ذلك الى ابعد غاية . وكان له تحقق بعلوم الحديث وضبط أسانيده ، وتمييز رجاله ، ومعرفة انقطاعه واتصاله ، وألف فيه التآليف المفيدة ، وحسبك برحلته الفريدة التي سماها (ملء العيبة فيما جمع بطول الغيبة ، في الوجهتين الكريمتين الى مكة وطيبة) المشحونة بالمسائل الحديثة والأسانيد العديدة ، التي روى بها أمهات كتب هذا الفن ، والأجزاء المختلفة المؤلفة فيه دليلاً على رسوخ قدمه ، وكونه من الحفاظ الذين يقلُّ لهم النظر مع كمال الثقة ، وشهرة العدالة ، والتمسك بالسنة والعمل بالحديث ، وإن خالف ما عليه الناس مما يعزز ما قلناه في الفصل السابق من أن الحرية المذهبية لم تُقيَّد قط في المغرب ، وإن صار المذهب الرسمي فيه هو المذهب المالكي وكذلك العقيدة السلفية لم تقطع منه برغم سيادة المذهب الأشعري .

وهذا ابن حجر يقول عن صاحبنا ابن رشيد في الدرر الكامنة : « وكان على مذهب أهل الحديث في الصفات يُمرُّها ولا يتأول ، كان يسكتُ لدعاء الاستفتاح ويُسرُّ البسطة . . . » ومن كبار محدثي هذا العصر الرئيس عبدُ المهين الحَضْرَمي الذي جمع الى البراعة في الأدب والعربية

التفوّق في علم الحديث حتى حلاه ابن خلدون بإمام المحدثين ، وله مشيخة حافلة تحتوي على ألف شيخ ، مع أنه لم تكن له رحلة ، ومن ثم قال فيه المقرئ الكبير : « جمع فأوعى واستوعب أكثر المشاهير وما سعى ، فهو المقيم الظاعن ، الضارب القاطن . » ومنهم أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن الكرسوطي الفاسي ، كان إلى تضلعه بالفقه ، محدثاً ضابطاً عارفاً برجال السند ومراتب الحديث ، يستظهر كثيراً من كتبه المطولات ، وألف فيه تأليف حسنة .

ومنهم الامام الحافظ ، التاريخي أبو عبد الله محمد بن عبد الملك الأوسي الأنصاري المراكشي صاحب الذيل والتكملة ، على تاريخ ابن القرضي لعلماء الاندلس وصلة ابن بشكوال له ، ومقامه في الحفظ للحديث والأخذ عن المشايخ مما لا يخفى . ومنهم الراوية النقادة أبو عبد الله محمد بن محمد بن علي العبدري الحاحي الرحالة الشهير ، وسعة روايته وقوة عارضته مما يعرف بالوقوف على رحلته ، ومنهم الشيخ المحدث الكبير أبو زكرياء يحيى بن أحمد السراج الفاسي . كان أيضاً رحالة ، مكثراً من الرواية ، مقتنيا للكتب ، ضابطاً لها . له سماع عظيم وفهرسة جامعة في مجلدين . إلى غير هؤلاء ممن يطول ذكرهم .

أما المفسرون فمنهم ابنُ العابد الفاسي الذي اختصر تفسير الكشاف للزخشري وجردّه من مسائل الاعتزال .

وابنُ البناء العددي الذي له موضوعات كثيرة في التفسير وحاشية على الكشاف ، وأبو القاسم السلوي وله تفسير جليل ، وأبو علي الشوشاوي وله كتاب الفوائد الجميلة على الآيات الجلية ، ضمنه من علوم القرآن فنوناً عديدة وجعله عشرين قسماً ، كل قسم منها يحتوي على مسائل مختلفة ؛ فهو من المحاولات الطيبة لجمع علوم القرآن ، على غرار ما فعل البدرُ الزركشي في كتابه البرهان ثم السيوطي في الإتيقان .

ثم فيما بقي من العلوم الشرعية مثل التصوف والكلام ، لا نرى أنهما كانا منتهزين بكثرة لما علم من ان السذاجة التي تخيم مع الفقه حين تدول الدولة له ، لا تجامع التصوف ، وأنت قد رأيت الحرب التي قامت بين الفقه والتصوف في العصر المرابطي ، إلا أن النتيجة هنا لم تكن كالنتيجة فيما سبق ، فلم يقضِ الفقه على التصوف ، ولكنه أخضعه لسلطانه . وقد يقال إن العصر بالنسبة للتصوف كان

عصر تمحيص بسبب هيمنة الفقهاء عليه ، وما أحسن التصوُّف يسير في ظلال الفقه . إذ يكون هو لبُّ الشريعة المكنون ، وسرُّها المصون ، وقد كان من أقطابه في هذا العصر ابنُ عبَّاد الرُّبدي الذي قضى أكثر حياته في فاس ، وابن الحاج الفاسي ، وأحمد زروق . وكتبهم فيه لا تزال من خير المصادر للتصوُّف الموزون بميزان الشرع .

ومهما تجوَّزنا في الكلام ، وعممنا في الأحكام ، لا يمكننا أن نهمل الإشارة الى علم أصول الفقه وعلم القراءات ، وما نالهما في هذا العصر ايضاً من العناية الخاصة ، والأول من توابع الفقه والثاني من توابع التفسير ؛ فالأصول كثر دارسوه ، وظهرت طبقة ممن كادوا يختصون به فوضعت فيه التآليف المهمة ، وطبعته بطابع الفقه المالكي مما لم يتهياً لغيرهم من قبل .

والقراءة ونعني بها ما يشمل التجويد والرسم والقراءات المأثورة والغريبة وتوجيهاتها ، ما من أحد من صدور فقهاء هذا العصر الا وكان له إلمام بها كلاً أو بعضاً ، وقد وضعت فيها التآليف ايضاً ، إلا أنها على كل حال لم تبلغ في هذا ما بلغته من الذيوع في العصر بعد هذا .

هذا ما يرجع الى العلوم الدينية ، والنشاط الذي طرأ عليها في هذا العصر ، والجهود العظيمة التي بذلت في خدمتها حتى بلغت في الجملة الى المستوى اللائق بها . فلننتقل الآن الى علوم الأدب لننظر كيف كان سيرها في هذا العصر ايضاً . ونقول : انها جارت سنة النشوء والارتقاء فبلغت الى قمة المجد والكمال ، وكان هذا عصرها الذهبي في المغرب ، والنابعون فيها في هذا العصر كانوا أساتذة من بعدهم ، بل طبقت شهرتهم العالم العربي ، وما تزال ذكراهم فيه حيّة الى الآن . فأما النحو واللغة ، فانها لم ينالا قط من التقدم ما نالا في هذا العصر ، وذلك لأن الدولة عربية الصبغة تقدر مجهود العاملين على رفع شؤون العروبة ، وليس لها التفات الى غير ذلك مما توحى به العنصرية المتخلفة كما سبق القول ، فلا عجب وقد اتحدت وجهة العمل أن ينبغ في هذين العلمين وفي سائر العلوم العربية رجال عظام ممن يفتخر بهم المغرب ، ولا يقلون أبداً عن نظرائهم في بقية العالم العربي . فمن هؤلاء النوابغ ابن أجروم ، وابن المجراد وابن هانئ ، وابن المرحّل ، وابو القاسم الشريف ، والمكودي ،

وسواهم ، ناهيك منهم جميعاً بابن أجرثوم ، ذلك الرجل الذي استطاع أن يخلد اسمه أبداً الدهر بوريقات لا تتجاوز عدد أصابع اليد الواحدة ، لا تحتوي على تفكير عميق ، ولا على فلسفة جديدة ، وإنما هي قواعد أولية من علم النحو ، مقررة لدى الجميع . فما السرُّ في هذا الخلود الذي أتيح لهذا الرجل ، حتى لقد فتح لنفسه مجاًلاً بين جدران مدارس القرن العشرين ، وحتى أطلق الناس اسمه على النحو كأنما هو واضعُه ؟ فقالوا الأجرثومية ، وأرادوا النحو ، ممّا لم ينله سيبويه نفسه ؟ ذلك السر هو النبوغ النادر الذي أوحى إليه بمقدمته على هذا الوضع العجيب . فبينما النحو قد خضع لقوانين المنطق وأصبح دراسة عقلية عقيمة ، إذ طلع ابن أجرثوم بمقدمته التي يعرض بها أصول هذا العلم في سداجة تشبه عقل الطفل ، وترتيب يتوافق وآخر ما قرّرتَه البيداغوجية الحديثة في أساليب التعليم . فلا جرّم إن علا اسمه على الأسماء وتمجّدت ذكراه بين الخالدين . ولقد كان للتقدّم الذي نالته هذه العلوم في هذا العصر تأثيرٌ كبيرٌ في تقويم السنة العامة ، وتذوّقهم لأسرار اللغة العربية . أما الخاصة فقد كان 'جلُّ كلامهم إن لم نقل كله ، مستقيماً يجري على الضوابط اللغوية .

وهذا الوزير عبد المهيمن الحضرمي يقولون في ترجمته إنَّ كلامه كان كلُّه معرباً ، وكذلك ابن عبد المنعم الصنهاجي السبتي من كبار اللغويين والنحاة في هذا العصر ، لم يستظهر أحدهُ في زمانه من اللغة ما استظهره كما قال ابن الخطيب عنه في الإحاطة : « وكان يعرب أبدأً كلامه » وألف ابن هانئ اللخميُّ كتاباً فيما تلحن فيه العامة ، فجعل اللحن خاصاً بالعامة ، واستطاع أن يعدُّ هذا اللحن لما كان قليلاً ، وممدح كثيرٌ من الشعراء كثيراً من زعماء القبائل المغربية ، فكانوا يثيبونهم الثواب الجزيل بسبب تذوّقهم لجمال هذه الأمداح . وحسبك بأمداح ابن الخطيب في رئيس جبل درن أبي ثابت الهنتاني . وربما يكون حديث (اللطافة) الذي اثبتناه في قسم المنشور من هذا الكتاب أدلّ من كل ما تقدّم على تغلغل انتشار العربية وآدابها في الأمة ، وشدة الاقبال عليها من سائر الطبقات .

وكان العلامة ابن هانئ اللخمي الى إمامته في العربية وتأليفه فيها ، متضلّعاً في الأدب بارع الكتابة وأنشعر ، وألف كتاب الغرّة الطالعة في شعراء المائة السابعة ، الذي يعتبر كتاب ابن الخطيب المسمّى بالكتيبة الكامنة في شعراء المائة الثامنة

كالتذليل عليه ، ومثله أبو القاسم الشريف الذي يعرف بالشريف الغرناطي وهو سبقي ، وإنما قيل له الغرناطي لإقامته زماناً بغرناطة ، وتوليه قضاءها وهو من المؤلفين في العربية والأدب وشرحه لمقصورة حازم مما طبقت شهرته الآفاق . ومن أعماله الأدبية المرموقة شرحه للقصيدة الخزرجية المعروفة بالرامزة في علم العروض ، مفتضاً خاتمها بعد أن استعصت على كثير من رامها قبله ، ولذلك سمّاه رياضة الأبي من قصيدة الخزرجي ، وهو مما يدل على حصافة عقله وقوة فهمه ، بله دلالة على تمكنه من علم العروض ورسوخه فيه . . . ومالك بن المرحّل فضلاً عن كونه شاعر العصر بل شاعر المغرب هو أيضاً ممن ألفت في اللغة والأدب كتباً عدة منظومةً ومنشورةً ، منها نظم غريب القرآن لابن عَزِيز ، ونظم اختصار إصلاح المنطق لابن العربي ونظم فصيح ثعلب مع شرحه ، ونظم الثلث الأول من أدب الكتاب لابن قُتَيْبَة ، بعد ترتيبه ، وترتيب الأمثال لأبي عبيد ، وأرجوزة في العروض ، واختراع وزنٍ من أوزان الشعر هو مجزوءُ الدُوَيْبِيت المركَّب من فَعِلُنْ مُفَاعَلَسُنْ فَعُولُنْ ، ومثلها بجذف فَعِلُنْ للجزء كما ذكره العلامة محمد بن عبد الحميد بن كيران في رسالة له في مبادئ العروض ، إلى غير هذا مما يطول تتبعه من حركة انتشار علوم العربية وازدهارها .

ومن دون العربية ، فإن التاريخ قد نال عناية عظيمة من أبناء هذا العصر ، ومن نوابغه فيه المؤرخ العظيم صاحب الفضل على مؤرخي المغرب جملة ، ابن أبي زرع ، وما أدراك ما ابن أبي زرع ، صاحب القِرطاس وزهر البستان وغيرها ، ومنهم ابن عذارى المراكشي صاحب البيان المغرب الشهير ، وأبو الحسن الجزنائي صاحب زهرة الآس في تاريخ بناء مدينة فاس ، وأبو إسحاق التَّاورُقي صاحب تاريخ أبي سعيد عثمان الأصغر ، وفيه كان ابنُ خلدون ولسان الدين ابن الخطيب وابن الأحمر وغيرهم ممن أوى إلى كنف المرينيين واستظلَّ بظلمهم . والتاريخ الخلدوني نفسه مؤلف باسم أبي عنان وبُزْسم خزانته ، كما أن فيه أيضاً كان صاحبُ الحُلل الموشية في الأخبار المراكشية ، وصاحب الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية . ومن كتّاب التراجم ، ابن عبد الملك المراكشي صاحب الذيل والتكملة وناهيك به . وأبي عبد الله الزَّرْعِي الجَدْمِيّوِي السبقي التاريخي الحافظ ، له تاريخ في نحو من أربعين سفرًا مُرتَّب على حروف المعجم في أخبار العلماء والأدباء والتعريف بهم ، وفي ضمن ذلك من بليغ النظم والنثر والحكايات والفوائد والنوادر ما لا يوصف ذكره في بُلغة الأمانة .

وعلى ذكر المؤرخين ، لا ننسى الرحّالين وبينهم وبين المؤرخين ارتباط كبير . ففي هذا العصر كان ابن بطوطة ذلك الرجل العصامي الذي بقي متجولاً في أطراف الكرة الأرضية أكثر من عشرين سنة وعاد الى بلاده متوجّاً بإكليل الغار . وفيه كان ابن رُشيد صاحب رحلة ملء العيّبة ، والعبدري صاحب الرحلة الشهيرة وغيرهم .

وبالجملة فجميع الفنون الأدبية قد ازدهرت في هذا العصر أيّما ازدهار ، ولا خصوصية بذلك لما ذكرنا ؛ فان غيره مثله ، وما طوينا ما طوينا إلا لاندراجة تحت المذكور ، ولقصدا الى الاختصار . وفي جدول الكتب المؤلفة في هذا العصر بلاغ للمستزيد .

* * *

العلوم الكونية :

وأما العلوم الكونية ، فقد تفهم أن نهضة الفقه قضت عليها وعاقبت انتشارها لما علم من تخاصم أهلها وتطاول من أدليل منهما على من دال بحكم قاعدة من عزّ بَزَّ . ولكن ذلك كان قبل نبوغ ابن رشد الذي حمل راية الفقه باليمين ، وراية الفلسفة بالشمال ، فكان إماماً فيها معترفاً بتقدمه من الجانبين كليهما ، نعم هي وإن لم يقف انتشارها فلم يعُثم كما كان في العصر السابق ، أو قل إن وجهة الناس لم تبقى مصروفة الى كل مباحثها وأصولها وفروعها كما كانت من قبل ، بل وقع الاقتصار على ما كانت حاجة الأمة ماسة اليه ومتعلقة به من فروع العلوم الرياضية والطب والكيمياء وما الى ذلك ؛ فان هذه كانت تستفرغ مجهود الباحثين من عماء هذا العصر الذين توفروا على دراستها وتحقيقها ، حتى بلغوا في ذلك شأواً بعيداً . على اننا نرى أن الذي كان يُعوز هذه العلوم لتطفر طفرة أخرى مثل ما حصل لها أيام الموحدين ، هو تأييد الدولة ، وقيام ملكٍ يحب للفلسفة ، كيوسف بن عبد المؤمن ، يقرّب أهلها ويرفع من قدرهم فيرتفع شأنها ويطرّد نحوها ، والا فقد كان هناك رجال ممن شاركوا في جميع فروع التعاليم ، ومنها الفلسفة ، ينتصبون للتعليم ويأخذ الناس عنهم معارفهم المتنوعة ، ومنهم بسبّته ابو عبدالله محمد بن هلال إمام التعاليم وشارح النجسطي في الهيئة ، أخذ عنه ابن النجار التلمساني ، وكان مبرزاً في سائر التعاليم . ومنهم بفاس خاؤف المغيلي اليهودي ، اختفى عنده العلامة الأبلّي لما أكرهه صاحب تلمسان على العمل ؛ ففرّ الى فاس ولازم شيخ التعاليم المذكور ، فأخذ عنه فنونها

ومهر فيها ، ثم لحق بمرّاكش فنزل على ابن البناء ولازمه فتضلع عنه في علم المعقول والتعاليم والحكمة ، ورجع الى فاس فانشال عليه طلبه العلم ، وانتشر علمه بكل مكات .

إنما الذي لا مرية فيه أن معظم النشاط العلمي في هذا العصر كان منصرفاً الى الرياضيات من حساب وجبر وهندسة وفلك ، والنابعون فيها كانوا أكثر من غيرهم ، وكان على رأسهم الإمام ابو العباس بن البناء العددي ذلك الفلكي المشهور ، والحاسب المعروف الذي بذل أهل عصره ومن بعدهم بكثرة تحقيقه وطول باعه في العلوم الرياضية والاسلامية جمعاء ؛ فحسب الآتين بعده ، أن يقتصروا على كتبه وما خلفه من تراث علمي طائل . فكان حاسباً عددياً لا ينافسه في هذا أحد كما أقر له بذلك فطاحل أهل العلم من معاصريه ، وكان فلكياً بارعاً أتى بتحقيقات عديدة خالف بها كثيراً مما تقار عليه أهل الفن قبله . ولا ريب فانه كان مفكراً جباراً لا يؤمن إلا بما يهديه اليه فكره بعد البحث الدقيق ، والاستنتاج الصحيح . وقد خلف أكثر من مائة كتاب كلها مثال التحرير والاتقان ، وشهد ابن خلدون لكتبه الحسابية بالجودة ، وبها كانت الدراسة في عصر ابن خلدون .

وكان هنالك أيضاً الجاديري الفلكي البارع ، صاحب الروضة التي شرحت بشروح عديدة ، وكانت بها الدراسة في المعهد القروي . وهذا الفاضل ، له أيضاً عدة أبحاث خالف بها المتقدمين من أهل هذا الفن .

وحبذا لو ان أهل الإخصاء من ابناء جلدتنا تجردوا لبحث آثار أسلافهم هذه ، والمقارنة بينها وبين آثار المحدثين من علماء الغرب ، إذن لوجدوا كثيراً من النظريات التي يفخر هؤلاء بالاهتداء اليها أول . وهي من نتيجة جهود أولئك الاسلاف .

وكان هناك السطّي صاحب جداول الحوفي في الفرائض التي دل بها على حسن نظره في الحساب والرياضيات . وأبو زيد اللجائي ، وكان له باع طويل في الهندسة والحساب والهيئة ، وله آلة فلكية تذكر في ترجمته ، وغير هؤلاء كثير ممن نبغ في هذه العلوم وألف فيها التأليف المفيدة .

وفي خصوص الطب نبغ أبو الحسن عليّ بن الشيخ الطبيب بن أبي الحسن علي العنسي المراكشي ، وربما كان ولداً أو حفيداً للرياضي الكبير الحسن المراكشي الذي سبق ذكره في العصر الموحدى لأنه اختلف في اسمه : فمنهم من ذكره باسم الحسن ومنهم من ذكره باسم أبي الحسن ؛ فيكون هو جدّ هذا . وله نظمٌ من مجزوء الرجز في الألكحة وصفاتها وما يطلب أو يتجنب فيها ، والأمراض السريّة وعلاجها وطبائع النساء وما يحمد أو يذمّ منهن ، وضعه برسم خزانة السلطان أبي الحسن المريني . وربما كان مشاركاً في غير الطب من العلوم الكونيّة ، ولكننا لم نقف له إلا على هذا الأثر . وفي الطب والكيمياء القديمة والعلوم العقلية من الفلسفة والتعاليم نبغ أبو العباس أحمد بن شعيب الجزنائي الشاعر الكاتب . قال ابن خلدون : « نظمه السلطان أبو سعيد المريني في جملة الكتاب ، وأجرى عليه رزق الاطباء لتقدمه فيه ، فكان كاتبه وطبيبه ، وكذا مع السلطان أبي الحسن بعده . »

وترجم في كتاب بلغة الأمنية ومقصّد اللبيب فيمن كان بسببة من مدرّس وأستاذ وطبيب سبعة أطباء فيهم امرأة قائلاً : وقد كان بسببة في هذه الطبقة جماعة من الأطباء والشجّارين - لعله يريد العشّابين - سوى من ذكرناه ، لم يبلغوا في العلم والمكانة مبلغ هؤلاء تركت ذكرهم .. فاذا كان هذا عدد الأطباء العلماء في بلدة واحدة هي سببة ، فماذا يكون عددهم في بقية المدن وخاصة العواصم كفاس ومراكش ، لا شك أن هذه الطبقة من العلماء الطبيعيّين والرياضيّين والفلاسفة ، ضاعت تراجم الكثير منهم ، وضاعت بالتالي أعمالهم العلميّة من كتب ونظريّات وتجارب . ومعالم الحضارة المغربيّة الباقية عن هذا العصر وغيره من العصور تنطق بأنها حضارة مبنية على أسس علميّة وفنّيّة متينة . ولئن كان ملوك بني مرين قد قصرُوا في حماية علم الفلسفة ومدّ اليد الى علماء الطبيعيات كما فعل ملوك الموحّدين ؛ فإنهم ناصروا الفنون الجميلة ، وأخذوا بضبعها بما كان لهم من ذوق فنّيّ جميل حتى نهضت نهضتها الكبرى ، ولا سيّما فنّ العمارة والنقش والزخرفة وما إليها من الصناعات التي بلغت في هذا العصر أوج الكمال . وقد بقيت شواهد ذلك ماثلة للعيان في مباني الملوك المرينيّين من مثل مدرسة العطّارين والصفّارين والبوعنانيّة والأندلس بفاس ، ومدرسة فاس الجديدة ومدارس مكناس وسلا ومراكش وغير المدارس من المساجد والزوايا والرُبُط والقناطر وسقايات الماء في هذه المدن وغيرها

— وحكاية السلطان أبي الحسن في بناء المدرسة الجديدة بمكناس معروفة^١ ، وهي أنه لما رُفع اليه ما أُصرف في بنائها استغلى ذلك ، فلما وقف عليها وأعجبته أخذ حسابها وغرقه في صهر يحها وأنشد :

لا بَاسَ بِالْغَالِي إِذَا قِيلَ حَسَنٌ لَيْسَ لَمَّا تَسْتَحْسِنُ الْعَيْنُ ثَمَنُ

وتلك غاية في تخليد المآثر ليس بعدها غاية ، وقد بلغ ما أنفقه على المدرسة التي بناها بغربي جامع الأندلس من حضرة فاس وهو حينئذ ولي عهد والده أبي سعيد ما يزيد على مائة ألف دينار ، وهي ما هي في ذلك الوقت . ومدرسة العطارين التي هي من بناء والده أبي سعيد ، والمدرسة البوعنانية التي بناها ولدُه أبو عنان هما بالخصوص قطعان خالدتان تقومان حجة على عظم النهضة الفنية في هذا العصر ، وعلى ما كان لبني مرين من يدٍ بيضاء في هذا الصدد .

وإن ننسَ لا ننسَ هنا الساعة العجيبة المنصوبة على باب المدرسة البوعنانية ، فإنها كانت تُعدُّ آية في دقة الصنع وحسن الوضع ، وآثارها لا تزال ماثلة هنالك ، وقد يكون من المفيد هنا أن ننقل لك ما ذكره ابن بطوطة في معرض مدح أبي عنان ، وقد ذكر اعتناؤه بجبل طارق ونص كلامه : « وبلغ من اهتمامه أيده الله بأمر الجبل ، أن أمر ببناء شكل يشبه شكل الجبل المذكور يُمثَّل فيه شكل أسواره وأبراجه وحُصونه وأبوابه ودار صنعته — التي أنشأها والده أبو الحسن — ومساجده ومخازن عدده وأهرية زروعه وصورة الجبل وما اتصل به من التربة الحمراء ؛ فصنع ذلك بالمشور السعيدا — بفاس — وكان شكلاً عجيباً أتقنه الصناع إتقاناً لا يعرف قدره إلا من شاهد الجبل ، وشاهد هذا المثال . وما ذلك إلا لتشوقه الى استطلاع أحواله واهتمامه بتحسينه وإعداده . » فهذا وحده كاف في الدلالة على الرقي الذي بلغته هذه الفنون في العصر المريني . ولكن مزية هذا العصر ليست في هذا الرقي ، بل في أن علماء كلهم مغاربة لا يمتثلون بسبب الى بلاد غير المغرب ، وقد كان علماء العصر السابق أعني فلاسفة جلهم ان لم نقل كلهم

١ — يطلق المشور في اصطلاح المغاربة على البلاط الملكي ، وانظر بحثنا المعنون بعاميتنا والمعجمة في كتاب كل وبقل .

من الأندلسيين فنَضِجَتْ في هذا العصر العقول ، وتفتَّحت الأفكار ، وظهر النبوغ المغربي بأجلى مظاهره في جميع ميادين العلوم ، ولم يبق الشعب المغربي عالةً في نهضته العلمية على سواء ، بل ان أبناءه أصبحوا قدوة غيرهم في الدراسات العلمية المختلفة ، وقبلة أنظار طلاب المعرفة من جميع الجهات .

المرأة المغربية :

ونختم الكلام في هذا الفصل بالإشارة الى مساهمة المرأة المغربية في بناء صرح النهضة العلمية في هذا العصر ، كما فعلت في غيره من العصور ، تلك المساهمة الفعالة التي وإن أغفل الكلام عليها في كثير من المصادر التاريخية ، فإنها تأبى إلا أن تُعلن عن نفسها من وراء وراء . ولنعطي على ذلك مثالا في حقل العلوم الدينية السيدة أم هانئ بنت محمد العبدوسي الفقيهة الصالحة أخت الإمام الحافظ عبدالله العبدوسي . قال الشيخ زروق في كنشاته : كانت فقيهة ذات علم وصلاح ، طعنت في السن الى قرب المائة ، وتوفيت سنة ٨٦٠ ، زاد ابن غازي وهي آخر فقهاءهم . ومثلها أختها فاطمة ، وكذلك السيدة أم البنين الفقيهة الصالحة جدّة الشيخ زروق ، والسيدة رحمة بنت الجنّان والدة الشيخ ابن غازي ، والسيدتان عائشة وأمة الله بنتا الحافظ ابن رشيد الذي استجاز لهما المشايخ ، وست العرب بنت عبد المهيمن الحضرمي التي أجاز لها ابن رشيد .

وفي الميدان الأدبي نذكر الأدبية أم الحسن بنت أحمد الطنجالي نزيله لوشة ، وقد ترجمها لسان الدين ابن الخطيب في كتابه التاج المحلّى فقال : ثالثة حمدونة وولادة ، وفاضلة جمعت الأدب والمجادة ، وتقلّدت الحاسن قبل القلادة ، وأولدت أبكار الأفكار قبل سن الولادة . نشأت في بيت أبيها ، لا يدخر عنها تديبا ولا تنبيها ، حتى نبض إدراكها ، وظهر في المعارف حراكها ، ودرّسها الطبّ ففهمت أغراضه ، وعلمت أسبابه وأعراضه ... ولما قدم أبوها من المغرب ، وتكلم بخبرها المغرب ، توجّه بعض الصُّدُور الى اختبارها ومطالعة أخبارها ، فاستنبل أغراضها واستحسنها ، واستطرف لسنها ، وسألها عن الخط وهو أكسد بضاعة جلبت ، وأشحّ درّة حلبت ، فأنشدته من نظمها شعرا في الموضوع . وكذلك الأدبية

صفية العزفية من بيت العزفين ولاة سبتة المعروفين ، وقد مدحتها الاستاذة الأدبية
الشاعرة السيدة سارة بنت أحمد الحلبي بقصيدة مطلعها :

إذا ما ذكرتُ الشرقَ طِرتُ له شوقاً . تقول فيها :

ولكن بمن أضحت وحيدة عصرها نسيتُ من الأشواق ما جليُّ أو دَقَّا
ومن مثلُ ذاتِ العلم والحلم والنهى . لقد سار سيرَ الشمس مُعجزها الأرقى
لقد سار سيرَ الشمس فخرٌ صفية ونور ، إكباراً لها ، الغرب ، والشرقاً

وصبحُ جارية أحمد بن شعيب الجزائى الفيلسوف الكاتب الشاعر ، كانت تنظمُ
الشعر ، ولما ماتت حزن عليها أشدَّ الحزن ، ورثاها بمراثٍ مؤثرة تُذكر
في المنتخبات .

أما في الميدان العلمي فسنتُرجم للطبيبة عائشة بنت الجيَّار مُكتفين بها ، ونحن
على يقين من أن هناك كثيراتٍ من السيدات الفاضلات اللائي كنَّ يشاركن في غير
ما ذكر من ضروب المعارف ، ولكن أخبارهنَّ لم تُحفظ بسبب الإهمال الذي مُني
به تاريخنا الأدبي سواء بالنسبة للنساء والرجال ، والله ولي التوفيق .

الهيئة العلمية وأثرها

من العسير جداً أن نحاول تقديم بعض الشخصيات البارزة من أعضاء الهيئة العلمية في هذا العصر الى القارىء كما فعلنا في العصر قبله . فلئن أمكن ذلك هناك ، فلانحصار التبريز في أشخاص معينين ؛ أما هنا فالشخصيات كثيرة ، وكل مبرز في فنّه ، وخصوصاً رجال الفقه والدين فإن هؤلاء لا يكادون يحصون ، وفضلاً عن كثرتهم ، فانهم متكافئون في الرتبة ، فماذا نفعل ؟ هل نطوي ذكر هذا الصنف من العلماء ونضرب عنه صفحاً ونأخذ بقاعدة منع الجميع أَرْضَى للجميع ، أم نذكر بعضاً ونترك بعضاً ، وإن غمطنا حقّ هذا البعض المتروك ؟

لا نظن أن القارىء يوافق على طي ذكر الجميع ، ولعلّه يكون أكثر شوقاً الى معرفة بعض المعلومات عن بعض علماء هذا العصر كما في العصر السابق ، فلنذكر بعض أفراد منهم على أنهم نموذج ومثال فقط ، لا على أنهم اللبّ والخيرة ممّن لم نذكرهم ، وفي ظنّنا أننا بذلك نخرج من الورطة ونخلص من التبعة .

أبو الحسن الصغير

علي بن عبد الحق الزرويلي الشهير بأبي الحسن الصغير بصيغة التصغير ، فقيه كبير من الصدور الحفاظ ، كان مجلسه من أعظم المجالس بفاس ، يحضره الجُمُ الغفير من خيرة الطلبة وعلية الفقهاء ، ويقصده الناس من أقاصي البلاد . ولي قضاء تازة على عهد السلطان أبي يعقوب يوسف ، ثم ولي قضاء فاس في أيام حفيده أبي الربيع سليمان . وعضده السلطان فانطلقت يده على أهل الجاه ، وأقام الحق على الكبير والصغير ، والقوي والضعيف ، من غير مداراة في ذلك ولا محاباة . وقامت بسببه فتنة بين السلطان المذكور ووزيره عبد الرحمن بن يعقوب الوطاسي حيث ان أبا الحسن كان قد اقام حدّ الشرب على أحد سفراء ابن الأحمر ، فاحتاج هذا السفير ،

وقصد الوزير المذكور ، وشكا اليه القاضي . وحجته أن هذا مما لا يُعامل به سفراء الدول ، فكاد الوزير أن يوقع بالقاضي لولا أن حال السلطان بينه وبينه . وحمل ذلك الوزير على شق عصا الطاعة ، والائثار على خلع السلطان ، غير أن كيدَه رجع في نحره .

أخذ أبو الحسن عن راشد الفاسي ، وعنه الجُمُّ الغفير . ودخل الأندلس سفيراً فتهافت الأكابر للأخذ عنه ، وطلب منه التدريس في غرناطة ففعل ، وُبِهت الناس من حفظه . وله كتبٌ منها مجموعة الدر الثمير في النوازل والأحكام ، وتقييدٌ على المدونة في عدة مجلدات . وكان في أيام طلبه قيّد على الرسالة تقييداً نبيلاً ، ثم قُمِدَت عنه بمجلسه عليها وعلى التهذيب تقييدٌ كثيرةٌ متداولة بأيدي الفقهاء ، فلذلك ما اختلفت نسخها وكانت وفاته سنة ٧١٩ هـ .

القباب

هو الفقيه الامام الحافظ ، أبو العباس أحمد بن قاسم بن عبد الرحمن الجذامي الفاسي شهر بالقباب ، كان أحد صدور الفقهاء في عصره من حفّاظ مذهب مالك ، وأئمة الدين والورع . درّس العلم طول حياته ، وأفق وألف التأليف القيّمة ، وولي القضاء بجبل طارق ، ودخل غرناطة سفيراً . وحجّ فلقِيَ الأفاضل من أهل العلم والصلاح ، وفي وجهته هذه ، اجتمع بابن عرفة في تونس ، وأطلعه هذا على مختصره ، فأبدى عليه ملاحظته السابقة الذكر ، وكان بينه وبين الامام العقباني التماسي مناظرات جمعها العقباني في تأليف سماه « لباب اللباب في مناظرة القباب » وهي منقولة في المعيار . وللمترجم فتاوى مجموعة أول ما نقل في المعيار منها ، وله أيضاً اختصار أحكام النظر لابن القطان ، أسقط منه الدلائل والاحتجاج ، وله شرح قواعد الاسلام لعياض في غاية الاتقان ، وشرح بيوع ابن جماعة مفيدٌ جداً ، أخذ عن السطّي وابن فرحون والقاضي الفشتالي وغيرهم ؛ وأخذ عنه الامام الشاطبي وابن الخطيب القُسْنَطِينِي وجماعة . وكانت وفاته سنة ٧٧٩ هـ .

ابن عبد الملك المراكشي

أبو عبد الله محمد بن عبد الملك الأنصاري ، ثم الأوسي من أهل مراكش ، العلامة الحافظ التاريخي النقّاد . وُلد سنة ٦٣٤ وتوفي سنة ٧٠٣ ، روى عن أبي الحسن الرُّعيني وصحبه كثيراً ، وأبي عبد الله محمد بن علي بن محمد بن هشام ، وأبي الوليد بن عُفَيْر وغيره ، وأجاز له أبو جعفر بن الزُّبَيْر صاحبُ صلة الصَّلّة ، وكان رحمه الله نبيل الأغراض ، عارفاً بالتاريخ والأسانيد ، نقّاداً لها ، حسن التهديّ جيّد التصرف ، أديباً بارعاً ذا معرفة باللغة العربية والعروض ومشاركة حسنة في الفقه . ألّف كتاباً جمع فيه بين كتابي ابن القطّان الفاسي وابن المواق المراكشي على كتاب الأحكام لعبد الحق مع زيادات نبيلة من قبله . وأما كتابه الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة ، فإنه العمل العلمي الضخم الذي اشتهر به ، وقد استوفى فيه تراجم عدّة ممن لم يذكره ابن الفرّخي وابن بشكّوال في كتابيهما . وترجم لمن أتى بعدهما من الأعلام تراجم حافلة مستوعبة لآثار المترجمين وأخبارهم ومروياتهم وشيوخهم مع النّقد للروايات والنظر في تلك الآثار ، مما يدلّ على اطلاع واسع ، واستحضار نادر وهو في تسع مجلّدات ، يوجد أكثرها مفروقاً في مكتبات العالم . وقد وليّ ابن عبد الملك قضاء مراكش مدةً ثم أُخّر عنه . وكانت وفاته بتلمسان .

ابن رَشِيد

أبو عبد الله محمد بن عمر بن رَشِيد الفِهري السَّبّتي ، رحالة شهير ، ومن الأئمة الحفّاظ الوعاة والخطباء المصاقع . مولده بسبّنة سنة ٦٥٧ ، وبها نشأ وتوفي بفاس في محرم فاتح عام ٧٢١ ودفن بمطرح الجلّة من القيّاب .

كان محدّثاً مسنداً متضلّعاً بالنحو واللغة والعروض ، ربّان من الأدب ، حافظاً للأخبار والتواريخ والسير مشاركاً في الأصلين ، عارفاً بالقراءات السَّبّعيّة ، خطيباً مبدها كثير الترحال والتجوال في البلاد .

دخل الأندلس في سنة ٦٩٢ فقدّم للخطابة و... بمسجد غرناطة الأعظم، وأقام بها مدةً . ثم قفل راجعاً الى فاس ، فنال بها أيضاً مراتب عالية تليق بقدره . ورحل الى المشرق مرتين ، فتجول وأكثر الأخذ عن المشائخ ، ثم عاد والتف رحلته (ملء العيبة فيما جمع بطول الغيبة في الوجهتين الكریمتین الى مكة وطيبة) واستقرّ بفاس حتى توفي . وله غير الرحلة كتب أخرى تأتي تسميتها ، وله خطب ومقطعات وأخبار أدبية يأتي بعضها في محله .

ابن الحاج الفاسي

أبو عبد الله محمد بن محمد العبدري الفاسي المعروف بابن الحاج ، أحد جهابذة المتصوفين وأعلام السنّة الراسخين سمع ببلده من جلّة الشيوخ . وقدم مصر فصحب الشيخ أبا محمد بن أبي جرة ، وسمع بها وحدث . وكان عارفاً بمذهب الإمام مالك ، ومن أهل الزهد والخير والصلاح ، واثّرت فيه صحبة أهل القلوب ، فنصّف كتابه المدخل إلى تنمية الأعمال بتحسين النيات والتنبية على كثير من البدع المحدثّة والعوائد المنتحلة . وهو كتاب حفيّل جمع فيه علماً غزيراً والاهتمام بالوقوف عليه متعين . توفي رحمه الله سنة ٧٣٧ هـ .

الشيخ زروق

أبو العباس أحمد بن أحمد بن محمد بن عيسى البرنسي الفاسي ؛ شهر بزروق ، الامام الأشهر ، والعارف الأنور . ولد عام ٨٤٦ وتوفي والداه قبل سابع ولادته ، فكفلته جدّته الفقيهة أمّ البنين ، واشتغل بالصناعة فتعلم السكّافة ، ثم طلب العلم في السادس عشر من عمره فدرس على مشاهير أهل بلده ، ورحل الى المشرق فأخذ به عن جماعة من الأعيان ؛ ثم رجع وقد تزلّج بعلم الشريعة ، واتقنها غاية الاتقان ، ولا سيما التصوف ، فقد انفرد بمعرفته ويجودة التأليف فيه لتحريره له على أصول

الشرعية تحرير الجوهر وتصفيته تصفية الكبريت الأحمر ، فلذلك ما دعي (بمحتسب الأولياء والعلماء) .

له كتب عديدة يميل فيها الى الاختصار والتحقيق منها ، وهو أشهرها قواعد التصوف ومنها عدة المريد ، ومنها النصيحة الكافية ، وغيرها وهي تزيد على العشرين سنأتي على ذكرها بعد . وتوفي بطرابلس الغرب عام ٨٩٩ هـ .

ابن الشَّاطِ

أبو القاسم قاسم بن عبدالله بن محمد بن الشاط الأنصاري السبتي ، والشاط اسم لجدّه ، وكان طرأاً فجرى عليه . كان نسيج وحده في أصالة النظر ونفوذ الفكر وجودة القريحة وتسديد الفهم الى حسن الشائل وعلو الهمة والمكوف على العلم والاقتصار على الآداب السنية والتحلي بالوقار والسكينة ، أقرأ بسبته الأصول والفرائض وكان مقدماً فيهما موصوفاً بامامتهما . وكان موقور لحظ من الفقه حسن المشاركة في العربية كاتباً مرسلأ ريان من الأدب وله نظر في العقلیات .

قرأ على الاستاذ ابن ابي الربيع وعلى الحافظ أبي يعقوب المحاسبي وغيرها وأجاز له أبو القاسم بن البراء ، وأبو محمد بن أبي الدنيا وأبو انعباس بن الغمار وأبو جعفر الطباع وأبو بكر بن فارس وغيرهم وأخذ عنه الجيلة من أهل الأندلس كالاستاذ أبي زكرياء بن هذيل وأبي الحسن بن الحباب والقاضي أبي بكر بن شبرين وغيرهم . وله تأليف منها أنوار البروق في تعقب مسائل القواعد والفروق ، وغنية الرائض في علم أسرائض وغيرهما . وكان مجلسه مألفاً للصدور من الطلبة والنبلاء من الناس . مولده في عام ٦٤٣ بمدينة سبتة وتوفي بها عام ٧٢٣ هـ .

ابن غَزَازِي

هو أبو عبدالله محمد بن أحمد بن علي بن غازي المكناسي ، ثم الفاسي ، شيخ الجماعة بها . نشأ بمكناس كما نشأ بها أسلافه ، ثم ارتحل الى فاس في طلب العلم ، فاقام بها مدة ،

ولقي من مشايخها عدةً ضمّنهم ثبتته الذي سماه بالتعلل برسوم الأسناد بعد انتقال أهل المنزل والنّاد . ثم عاد الى مكناس فأقام بها بين أهله وعشيرته زمناً ، ثم انتقل نهائياً الى فاس ، فاستوطنها وبقي بها حتى توفي سنة ٩١٧ هـ .

كان رحمه الله استاذاً ماهراً في القراءات ووجوهاً ، مُبرّزاً في علوم العربية والفقه والتفسير والحديث وعلم الرجال والسير والتاريخ والأدب ، درس على القوّري وغيره . وأخذ عنه الجماهير إذ قد تفرد برئاسة الهيئة العلمية في عصره ، ولم ينازعه أحد في ذلك . له شفاء الغليل في حل مقفل خليل ، بيّن فيه هفوات بهرام والمواضع المشكّلة من مختصر الشيخ خليل المالكي ، أجاد فيه ما شاء ، وهو من أحسن الموضوعات عليه وله تكميل التقييد وتحليل التعقيد ، كتّل به تقييد أبي الحسن الصغيّر على المدوّنة ، وحل مُشكل كلام ابن عرفة في مختصره في ثلاثة أسفار . وله غير ذلك مما يذكر في محله .

ابن بُرّي

أبو الحسن علي بن محمد بن علي بن محمد بن الحسن التّازي الشهير بابن بُرّي ، أحد المهرة في العلوم العربية والقراءات ، وكان كاتباً بليغاً لغوياً عريضاً متفنناً في كثير من العلوم وله خطٌ بارع ونظمٌ جيّد . وهو صاحبُ الدُّرر اللوامع في قراءة نافع وغيرها من الكتب النحوية والعروضية . وتوفي سنة ٧٣١ هـ .

الخَرَّاز

أبو عبد الله محمد بن محمد بن إبراهيم الأموي المعروف بالخرّاز ، كان إمامَ القُرّاء بفاس وهو صاحب مؤرّد الظّمّان في علم الرسم . وكان يُعلّم الصّبيان وذلك سرّاً نجاح أسلافنا ، إذ كانوا يُسندون الأمور الى أهلها فلا يظلمونها . وتوفي رحمه الله سنة ٨١٨ هـ .

أَبْنُ أَجْرُومَ

أبو عبدالله محمد بن محمد بن داود الصنهاجي الفاسي ، عرف بابن آجرُوم النحوي المقرئ الشهير . مولده عام ٦٧٢ ووفاته عام ٧٢٣ بفاس . وأخذ عن أبي حَيَّان وعنه محمد بن علي الغساني وله من غير المقدمة شرح حرز الأمازي في القراءات ونظم في قراءة نافع سماه البارع .

المَكْثُودِي

أبو زيد عبد الرحمن بن علي بن صالح المكثودي الفاسي ، إمام النحاة في عصره . ونسبته الى بني مكثود إحدى قبائل هواراة الذين مستقرهم فيما بين فاس وتازة . كان بيتهم من بيوتات فاس العريقة في العلم والجاه وكان لهم زقاق يُعرف بهم . وكان أبو زيد هذا من مفاخرهم ، إماماً في النحو واللغة والعروض وسائر فنون الأدب ، درس كتاب سيديويه بمدرسة العطارين وهو آخر من درسه بفاس وبعده صار العمل على الفية ابن مالك التي وضع هو عليها شرحه المشهور . ومن كتبه غير شرح الألفية شرح الأجرومية ، وشرح المقصور والممدود لابن مالك والبسط والتعريف في علم التصريف ونظم المعرب من الألفاظ والمقصورة في مدح النبي ﷺ ، نحو ثلاثمائة بيت . وقد نكتت فيها على حازم وابن دريد ، وتأتي في القسم المنظوم . توفي رحمه الله عام ٨٠٧ هـ .

ابْنُ هَانِي

أبو عبدالله محمد بن هانيء اللخمي السبتي ، من كبار علماء العربية ، ومؤلفي الأدب في هذا العصر ، قال ابن الخطيب في حقه : « علمٌ تشير له الأكف ويعمل »

الى لقاءه الحافر والخفّ ، رفع للعربية ببلده رايةً لا تتأخر ، ومرج منها 'لجّة' تزخر ، فانفسح مجال درسه ، وأثمرت أدواح غرسه ، فركض ما شاء ، وبرح ودونّ وشرح ، الى شمائل يملك الظرفُ زمامها ودعابةٍ راشّت الخلاوة سهامها .

له كتب مهمة جداً منها شرح التسهيل لابن مالك ، تنافس الناس فيه ، وكتاب الغرّة الطالعة في شعراء المائة السابعة ، وكتاب إنشاد الضّوّال وإرشاد السّؤال في لحن العامة ، وهو مفيد ، وكتاب قوت المقيم ودونّ ترسيل أبي المطرّف بن عميرة وضمّه في سفرين . وله لطائف أدبية تأتي في محلها . وقد استشهد في حصار جبل طارق في ذي القعدة عام ٧٣٣ ورثيَ بقصائد منها قصيدة أبي بكر بن شبرين التي يقول فيها :

قد كان ما قال البريد فأصبرُ فحزُنكَ لا يُفيد
أودى أبنُ هانيء الرضى فاعتادني للشكلِ عيد

أبو القاسم الشريف

أبو القاسم محمد بن أحمد الشريف الحسني السبتي ، القاضي الفاضل ، نخبّة الأدباء في وقته ، كان متبحراً في العلوم الأدبية من تاريخ وأخبار ونحو وبيان وعروض ، متقدماً في الفقه والأحكام ، مع توقّد الذهن وأصالة الإدراك . وليّ الكتابة والخطابة والقضاء عن ملوك بني الأحمر في الأندلس ، وطار صيته ونبه ذكره ، وقد أخذ عن أبيه وعن ابن هانيء وابن رُشيد وغيرهم ، وعنه ابن الخطيب وسواه ، وله تصانيف بارعة منها رفع الحجب المستورة عن محاسن المقصورة ، وهو شرح لمقصورة حازم ، ورياضة الأبيّ وهو شرح على الخزرجية في العروض . وكان أوّل من فكّ ختامها بعد أن أعجزت نبهاء الوقت وشرح تسهيل ابن مالك وديوان شعر ، وسنّبت طرفاً من أدبه في المنتخبات .

مولده بسبّنة في ربيع الأول عام ٦٩٧ وتوفي قاضياً بغرناطة في شعبان عام ٧٦٠هـ.

ولكثرة مقامه بغرناطة يُطلق عليه بعضهم الشريف الغرناطي وليس بغرناطي كما علمت .

ابن أبي زرع

أبو الحسن علي بن محمد بن أحمد بن 'عمر بن أبي زرع الفاسي المؤرخ الشّقة ، صاحب أجمع تاريخ للمغرب من لدن قيام الدولة الإدريسية الى وقته ، وهو العصر المريني .. وقد اختلف في اسمه ونسبه اختلاف كبير ؛ ولكن الراجح هو ما ذكرنا . ولا نعرف عن حياته إلا القليل ، لأنه ضنّ على قراء تاريخه بالمشحة ولو خاطفة من التعريف بنفسه .. وذكر الحلبي في الدرّ النفيس أنه كان عدلاً يحترف التوثيق بسباط العدول بفاس ، وذلك مما يدل على تثبته ونزاهته فيما نقل من الأخبار عن تاريخ الدول السابقة والدولة التي عاصرها وهي دولة المرينيين . وعلى كل حال فإن كتابه المعروف بالقرطاس واسمه الكامل (الأنيس المطرب برّوض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس) هو أهم مصدر لتاريخنا الوطني منذ انفصال المغرب عن دولة الخلافة العباسية الى هذا العصر ، وقد اعتمده ابن خلدون وذكره ابن الخطيب في الإحاطة وأثنى عليه كثير من العلماء . وله غير القرطاس تاريخ مطوّل يُسمّيه أزهار البستان في أخبار الزمان يُعتبر في حكم الضائع الآن . وكانت وفاته رحمه الله بعد سنة ٧٢٦ .

ابن بطوطه

أبو عبدالله محمد بن عبدالله بن محمد بن إبراهيم اللّواتي الطنجي ، الرحالة الشهير ولد ونشأ ببلده طنجة . ولما بلغ الثانية والعشرين من عمره أوحى إليه نفسه الكبيرة بالترحال والتشجّوال ؛ فامتطى صهوة الاغتراب من وطنه وأخذ يذرع الأرض طولاً وعرضاً . وكان خروجه من طنجة سنة ٧٢٥ فجال في المغرب وافريقية وطرابلس وبرقة ومصر والشام والعراق واليمن وسواحل افريقية الشرقية وجزائر

بحر فارس ، ودخل الأناضول وجال فيها وقدم بلاد القرم وساح في جنوبيّ روسيا ودخل الى بلاد البلغار والقُسطنطينيّة . ثم جال في البلاد الواقعة شرقيّ بحر الخزر ودخل خوارزم وُبخارى وخراسان وقيندهار ووادي السند وأقام بدِهلي حاضرة الهند ونصب على القضاء فيها . ثم ساح في الأقطار الصينيّة والتتية ودخل سيلان وسومطرة وجاوه وباكين قاعدة الصين وابتلي هناك بالأسر وتلّص بعد خطب طويل ، فانقلب راجعاً الى المغرب . وكان قد بارح بلاده منذ ٢٤ عاماً . وما لبث أن وصل الى طنجة حتى عاد الى الرحلة فدخل اسبانيا وتطوف فيها . ثم عاد وقصد السلطان أبا عنان المريني بفاس فحظي عنده وأفاض عليه من عطائه ما أنساه تجشّم الأسفار واقتحام الأخطار . وذهب رسولاً منه الى بلاد السودان ، ثم عاد الى فاس وبها ألقى عصا التسيار وألف رحلته (تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار) . ومات سنة ٧٧٧ أو ٧٩ هـ .

ابن البناء العدديّ

أبو العباس أحمد بن محمد بن عثمان الأزدي المراكشي ، العلامة الفلكي والحاسب المشهور ، كان أبوه بنّاءً وطلب هو العلم فبلغ فيه الغاية القصوى . وُلد بمراكش سنة ٦٥٤ وطلب العلم بها ثم بفاس فاتقن العربيّة وآدابها ، وحصل علوم الشريعة وبرع في العلوم الفلسفية ولا سيّما الرياضيّة ، فكان لا يُدرك شأوه فيها ولا يُبلغ مداه . وعلى الأخصّ الهيئة والعدد منها فان إليه انتهى علمهما بالمغرب ، وعنده اجتمع ما تفرّق منها بأيدي قدماء الرياضيين من إسلاميين وغيرهم ، ولا يُعرف فيمن أتى بعده من تحقّق تحقّقه بمعرفة أسرار الفلك وحركات النجوم ، وبالعدد والضمّ والتفريق فيه ، وإنما غاية العلماء بعده في ذلك تفهّم كتبه وتناولها بالشرح والتفسير ، مثلما فعل ابن هيندور وغيره ، فانه شرح تلخيص ابن البناء الحسابي ورفع الحجاب له أيضاً .

وتلخيص ابن البناء هذا هو الذي قال عنه ابن خلدون أثناء الكلام على الحساب من العلوم العددية « أنه ضابط لقوانين أعماله مفيد » ورفع الحجاب قال عنه : « هو كتاب جليل القدر أدركنا المشيخة تعظّمه وهو جدير بذلك » . ولابن البناء كتب كثيرة تأتي على ذكرها بعد هذا . وكانت وفاته ببلده سنة ٧٢١ هـ .

ابن البقال

محمد بن محمد بن علي بن البقال أبو عبد الله العلامة الأصولي المعقولي الفيلسوف ، من أهل تازة ، عرّف به بلديته الأستاذ أبو الحسن بن برّني فقال : كان من العلماء المحققين المحصلين المشاركين ، أخذ أولاً بتازة علم الفرائض والعدد على أبي عبد الله العباس بن مَهدي والنحو والكلام على أبي عبد الله التّرجالي واستوطن فاساً ودأب على القراءة واستفرغ وسعته في المعقول سنين عديدة ، حتى حصلّ التعاليم وأتقنها ثم أخذ أخيراً في التفسير والفقهِ الحِلالي وكان له حظٌ وافرٌ من اللغة والأدب والبيان والعروض والشعر والكتابة . وكان آخر عمره كثير التلاوة للقرآن ، محافظاً على صلاة الجماعة ، وله وردٌ من الليل . وبالجملة ما رأي في وقته من حصل من علوم الفلاسفة مثل ما حصله مع الديانة والوقوف مع الشريعة . وأخذ في آخر عمره في تدريس الفقه ، فكان آيةً . وتوفي بفاس سنة ٧٢٥ وُدْفِنَ أثر صلاة الجمعة داخل باب الفتوح ، وقد قارب الخمسين . قال في نيل الابتهاج : وله أجوبة حسنة في التفسير والأصول أجاب بها أبا زيد بن العشّاب .

اللجائي

أبو زيد عبد الرحمن بن أبي الربيع اللجائي الفاسي ، العالم الرياضي الكبير . كان متحققاً بأجزاء من علم الهندسة والهيئة والحساب . نشأ في حجر والده أبي الربيع . وكان من فقهاء فاس ، ومن أخذ عن القرافي . وهو الذي أدخل مختصر ابن الحاجب الفقهية إلى فاس ، فكان يأخذه بطريقته من قراءة الفقه ، ولكنه رأى ذات يوم في النوم كأنه صعد إلى السماء وأخذ يُقلّب نجومها واحداً بعد واحدٍ فقَصَّ رؤياه على أبيه ، فقال له أقصد ابن البناء وأخذ عنه علومه ، قال ابن قنفذ : « كان اللجائي آيةً في فنونه ، ومن بعض أعماله أنه اخترع أسطُرلاباً ملصوقاً في جدار والماء يُديرُ شبكته على الصفيحة ، فيأتي الناظرُ فينظر إلى ارتفاع

الشمس كم هو وكم مضى من النهار ، وكذلك ينظر ارتفاع الكوكب بالليل وهو من الأعمال الغريبة ، وقد وقفت عليه زمان قراءتي بين يديه » . وتوفي سنة ٧٧٣ هـ .

عائشة بنت الحيار

هي الطبيبة البارعة عائشة بنت الشيخ السكاتب الوجيه أبي عبد الله بن الحيار المحتسب بسببة ، قرأت الطب على صهرها الشيخ الشهير أبي عبد الله الشريسي ونبغت فيه . قال في بُلغة الأمنية : أدركتها رحمة الله عليها وقد بلغت من السن نحو سبعين سنة . وكانت امرأة عاقلة عالية الهمة ، نزيهة النفس ، معروفة القدر لمكان بيتها . لها تقدم بالطبع وجزالة في الكلام ، عارفة بالطب والعقاقير ، وما يرجع الى ذلك ، بصيرة بالماء وعلامته وتأثر لها بطريقتها صيت شيدته الأمراء ، فطالما كانوا يحيزونها بالهدايا والتشحف وغيرها ، لأجل ما خبروه من حُرْفَتِها ، وكانت لها رابع تستغلها . ولم تزل سيدة محفوظة المنصب الى أن توفيت بعد أن عهدت بتوقيف رابعها في سبيل البر وسبيل الخيرات رحمها الله ونفعها .

اسماء الكتب المؤلفة في هذا العصر

وهاك الآن جدولاً باسماء الكتب المؤلفة في هذا العصر مما وقفنا عليه فقط ، لأننا لا ندعي إحصاءها جميعاً . كيف وأصحاب الكتب انفسهم لا يجوز ان يدعي أحد الاحاطة بمعرفتهم ، فما بالك بكتبهم ؟ وقد سرنا في ذلك على الترتيب الذي توخيناه في العصر السابق .

كتب الحديث والتفسير وتوايعها :

ترجمان التراجم في بيان وجه مناسبة تراجم البخاري لابن رشيد ، السنن الأبين في السنن الممنوعين له ، المحاكمة بين مسلم والبخاري له ، تعليق على البخاري لأحمد

زرُّوق ، جزءٌ في علم الحديث له . التعلُّل برسوم الاسناد بعد انتقال أهل المنزل والنتاد لابن غازي ، نظم الطرق العشر له ، اختصار فتح الباري لابن هلال المتوفى سنة ٩٠٣ ، شرح أحاديث الشهاب لابن منصور المغربي السجلماسي من أهل هذا العصر ، الروض الأنيق في شرح الموطأ له ، حلُّ أغراض البخاري المبهمة في الجمع بين الحديث والترجمة له ، شرح الشفا للزموري من أهل القرن التاسع ، شرح الشفا لابن السكاك المتوفى سنة ٨١٨ ، شرح الموطأ للزناقي المتوفى سنة ٧٠٢ مشيخة عبد المهيمن الحضرمي المتوفى سنة ٧٤٩ برنامج مشيخة أبي محمد بن أبي مسلم الأنصاري القصري المتوفى سنة ٧٧٣ ، شرح ابن برّي له . تجريد الصّحاح الثلاثة : البخاري ومسلم والترمذي ؛ لأبي عبد الله الكرسموطي الفاسي المولود سنة ٦٩٠ ، حاشية على صحيح مسلم لابن الشاطي . أربعون حديثاً في الجهاد لأبي القاسم التّجيجي السبتي المتوفى سنة ٧٣٠ ، اختصار الكشف لابن العابد الفاسي المتوفى سنة ٧٦٢ ، تفسير الباء في البسملة لابن البّناء العددي ، تفسير الاسم فيها له ، تفسير سورة الكوثر له ، تفسير سورة العصر له ، حاشية على الكشف له ، الدليل في مرسوم خطّ التنزيل له ، الممتشابه اللّفظ في القرآن له ، كتاب تسمية الحروف وخاصية وجودها في أوائل السور له . تفسير القرآن لأبي القاسم السلوي من أهل القرن التاسع ، شرح مسلم له ، مورد الظمآن في رسم القرآن للخراز ، عمدة البيان في الرسم أيضاً له ، شرح الحصريّة في القراءات له ، شرح ابن برّي له ، شرح العقيدة في القراءات له . الدرر اللوامع لابن برّي ، التحفة في القراءات لميمون الفخّار المتوفى سنة ٧١٦ الدرّة له ، المورد له ، شرح مورد الظمآن للشوشاوي المتوفى سنة ٩٠٠ الفوائد الجميلة على الآيات الجليلة له ، الأجوبة في التفسير لابن البقال المتوفى سنة ٧٢٥ ، النافع في أصل حرف نافع للجناديري المتوفى سنة ٨١٨ على ما في الجذوة ، شرح ضبط القيسي له ، شرح ابن برّي له ، فهرست له ، نظم التّيسير في القراءات لابن المرحّل ، شرح حرز الأماني في القراءات لابن آجرؤم ، البارع في قراءة نافع له ، الشافي في اختصار التيسير والكافي لأبي القاسم بن عمران الحضرمي السبتي المتوفى سنة ٧٥٠ .

كتب الفقه والتصوف وتوابعها :

شرح مختصر خليل ثمان مجلدات للقوري المتوفى سنة ٨٧٢ ، المنهل المورود شرح

المقصد الحمود للجنّان من أهل القرن الثامن ، شرح وثائق الغرناطي له ، القواعد الخمس لأبي سعيد الرُّعَيْنِي الفاسي المتوفى سنة ٧٧٩ المقدمات له ، شرحها له ، الجامع المفيد له ، تنبيه الغافل وتعليم الجاهل له ، اختصار مقدمة ابن رُشد له ، الروضة البهيّة في البسملة والتّصلية له ، المِهاد في الجِهاد له ، الأسئلة والأجوبة له . المسائل الفقهيّة المنوطة بالأحكام الشرعيّة لابن منصور المغراوي السجلماسي . الغُرر في تكميل الطُّرر . طرر أبي ابراهيم الأعرج للكرسوطي الفاسي ، الدرر في اختصار الطرر له ، تقييدان على الرسالة كبير وصغير له ، تلخيص التهذيب لابن بَشِير له ، تقييد على مختصر الطُّلَيْطَلِي له ، تقييد على المدونة لابن أبي كَيْحَمِي التُّسُولِي المتوفى سنة ٧٤٩ ، شرح الرسالة له ، شرح التهذيب له ، الأجوبة له ، كتاب المناسك لابن هلال ، الفتاوى له ، تقييد على المدونة لعبد النّور العِمْراني ، الفتاوى له ، تحرير المقالة في نظائر الرسالة لابن غازي ، المسائل الحِسان له ، شفاء الغليل له ، تكميل التقييد له ، إرشاد اللبيب الى مقاصد الحبيب له ، الكلّيات الفقهيّة له ، الجامع المستوفى بمجداول الحوفي في الفرائض . رسالة الإخوان من أهل الفقه وحملة القرآن لابن ميمون الإدريسي المتوفى سنة ٩١٧ ، مراسيم الطريقة في علم الحقيقة لابن البناء العددي ، شرحه له ، عواطف المعارف له ، عمل الفرائض له ، الفصول في الفرائض له ، مقالة في الاقرار والانكار له ، مقالة في المدبّر له ، رسالة في إحصاء أسماء الله الحسنى له . الدرّ النّثير لأبي الحسن الصّغير ، تقييد على المدونة له ، تقييد على الرسالة له ، تقييد على التهذيب له ، نظم في الفرائض لعبد العزيز اللّسمطي ، نظم في تصوّف له . نهاية الرائض في الفرائض للجدّ ميوي من أهل القرن السابع ، كفاية المرئاض في تعاليل الفرائض له ، مفتاح الغوامض في أصول الفرائض له ، نصح ملوك الاسلام في تعريفهم بحقوق أهل البيت لابن السكّاك ، تعليق على تقييد أبي الحسن الصغير للتازغدري المتوفى سنة ٨٣٢ ، الوثائق للقاضي الفشتالي المتوفى سنة ٧٧٩ ، الجمع بين كتابي ابن القطان الفاسي وابن المواق على أحكام عبد الحق الاشبيلي لابن عبد الملك المراكشي ، المفيد في الفقه لابراهيم الفجيجي المتوفى حوالي سنة ٩٠٠ ، تقييد على المدونة لأبي عمران العبدوسي المتوفى سنة ٧٧٦ ، تقييد على الرسالة له ، تقييد على التهذيب له ، شرح المدونة للزّناقي ، شرح الرسالة له ، تقييد على المدونة لأبي موسى الجنّاتي المتوفى سنة ٨٣٠ ، حلّة الأعيان في شرح عمدة البيان وهي مختصر للوغليسي في فرائض

الأعيان للشوشاوي الفتاوى له ، تعليق على المدونة للسطحي المتوفى سنة ٧٥٠ ، تعليق على مختصر ابن شاس له ، شرح الحوقية له ، اختصار أحكام ابن القطان للقيتاب المتوفى سنة ٧٧٩ ، شرح قواعد القاضي عياض له ، شرح بيوع ابن جماعة له . تحفة الحكم للزرقشاق المتوفى سنة ٩١٢ ، المنهج المنتخب على قواعد المذهب له ، معتمد الناجب في إيضاح مبهات ابن الحاجب لأنقشاب من أهل القرن الثامن ، شرح الرسالة له . المجالس في الفقه للقاضي المكناسي المتوفى سنة ٩١٧ ، التنبيه والإعلام فيما قضى به القضاة وافق به المفتون من الأوهام له . تقييد على الرسالة 'نسخ متعددة لعبد الرحمن الجزولي المتوفى سنة ٧٤١ ، 'غنمية' الرأئض في علم الفرائض لابن الشاطي ، دلائل الخيرات لأبي سليمان الجزولي المتوفى سنة ٧٨٠ ، 'حزب' سبحان الدائم له ، كتاب في التصوف له . المباحث الأصلية ، نظم في التصوف لابن البناء السرقسطي الفاسي ، المدخل لابن الحاج الفاسي ، النصيحة الكافية لأحمد زروق ، إعانة المتوجه المسكين على طريق الفتح والتتمكين له ، النصيح 'الأنفع' له ، 'عدة المرديد' له ، قواعد التصوف له ، الأصول في الفصول له ، 'تحفة المرديد' له ، الروضة له ، 'مزيل' اللبس عن أسرار القواعد الخمس له ، شرح الرسالة الكبير له ، شرح الرسالة الصغير له ، شرح الإرشاد له ، شرح القُرطبيّة له ، شرح الغافقيّة له ، شرح المباحث الأصلية له ، شرح الحِكَم العطائية أربع وعشرون نسخة له ، منهاج حزب البحر له ، شرح الحزب الكبير له ، شرح 'مشكلات الحزب الكبير' له ، شرح حقائق المقرري له ، شرح 'قطع الششتري' له ، شرح الأسماء الحسنی له ، شرح 'مرآصد ابن عقبة' له .

كتب الكلام والمنطق والأصول :

شرح العقيدة القدسية لأحمد زروق ، الاقتضاب والتبیین في علم أصول الدين لابن البناء العددي ، رسالة في الفرق بين الخوارق الثلاث المعجزة والكرامة والسحر له ، 'منتهى السؤل من علم الأصول' له ، تنبيه الفهوم على مدارك العلوم في الأصول له ، شرح تنقيح القراني له . شرح تنقيح القراني للشوشاوي ، الأجوبة في التفسير والأصول لابن البَقَّال ، أنوار البُروق في تعقُب القواعد والفرق لابن الشاطي . اختصار حدُود الشيرازي للرُعيني الفاسي . نظم في الكلام لعبد العزيز اللمطي ، نظم في المنطق له ، نظم في الجدال له ، نظم في الأصول له .

كتب التراجم والتاريخ والجغرافة :

الغرّة الطالعة في شعراء المانه السابعة لابن هانيء ، الذيل والتكملة لابن عبد الملك المراكشي ، البيان المغرب لابن عبد ربي المرابطي . الذخيرة السنية في أخبار الدولة المرينية ، القرطاس لابن سراج ، أزهار البستان في أخبار الزمان له ، المغرب في صلحاء المشرق والمغرب للرعي الفاسي ، الرحلة له ، نظم مراحل الحجاز له ، نظم رجاله الحلية لابن جابر المكناسي ، الرّوض ، هتون في أخبار مكناسة الزيتون لابن غازي . زهرة الآس في بناء فاس لأبي الحسن الجزنائي من أهل القرن الثامن ، تاريخ أبي سعيد الأصغر للتاورثي مات أول القرن التاسع . الإشادة في ذكر المشتهرين من المتأخرين بالإجادة لأبي القاسم العزّي المتوفى سنة ٧١٧ ، ملء العيبة لابن رشيد . تحفة النشطار لابن بطوطة ، رحلة العبد العبدري الحاحي . تاريخ عبد الله الزرعي الجذميوي السبتي في ٤٠ سفرأ ، كتاب الكوكب القناد فيمن حل بسبته من العلماء والصلحاء والعباد للحضرمي ، بلوغ الأمنية ومقصود اللبيب فيمن كان بسبته من مدرّس وأستاذ وطبيب له ، فرغ منه يوم الخميس ٢١ شعبان ٨٢٤ .

كتب الأدب والدواوين الشعرية :

ديوان ترسيل أبي المطرف ابن أميرة ابن هانيء ، رفيع الخجب المنورة عن محاسن المقصورة لأبي القاسم الشريف ، رياضة الأبي في شرح قصيدة الخزرجي له ، غريب المنقول وهو ديوان شعري له . إحكام التأسيس في أحكام التجديس لابن توكّيد ، إيراد المريع رائد التأسيس والترصيع له ، وحصل القوائد بالخواتم في ذكر أسماء الشعراء ، جزء في العروض له ، المقصورة المتكثودي ، أرجوزة العروض لملك من المرحّل ، نظم الثلث الأول من أدب الكتاب له ، العشرريات الزائدة له ، الوسيلة الكبرى المرجو نفعها في الدنيا والأخرى له ، نظم في البيان لعبد العزيز المصلي . المنفرجة التنزية لابن يحيى التنزي المتوفى سنة ٨٢٠ ، مرض المريع في صناعة البديع لابن البناء العددي ، عيوب الشعر له ، قانون في معرفة الشعر له ، قانون في الفرق بين الحكمة والشعر له ، نزهة الناظر لابن جابر . تسميط البرودة له ، القصيدة الصيدية لآبراهيم الفيجيجي وهي قصيدة تشتت على .. ون من الوصف والحاسة وتدبير الصيد وغير ذلك مما

يتعلق بهذه الرياضة الجميلة . شرح المقامات الحريرية للزناقي ، النُصْحُ التام للخاص والعام . قصيدة في المواعظ والحكم لأبراهيم التنازي المتوفى سنة ٨٦٦ .

كتب النحو واللغة :

شرح التتسهيل لأبي القاسم الشريف ، شرح كتاب سيبويه لابن رُشيد ، نظم فصيح ثعلب لابن المرحّل ، شرحه له ، نظم غريب القرآن له ، نظم اختصار اصلاح المنطق له ، الرمي بالخصي والضرب بالعصا له ، ردّ به على ابن أبي الربيع النحوي ، الأجرومية لابن آجروم ، الكليات النحوية لابن البناء العددي ، شرح الألفية للمكثودي ، شرح الأجرومية له ، البسط والتعريف في علم التصريف له ، نظم المُعرَّب من الألفاظ ، شرح المقصور والممدود له ، تحفة الناظر في غريب الحديث للرُّعَيْنِي الفاسي ، شرح غريب الشَّهاب لابن منصور المَغْرَاوي السجلماسي ، شرح غريب البخاري له ، شرح غريب الموطأ له . المذكر والمؤنث للجاديري ، شرح الألفية لابن غازي ، شرح الآجرومية لأبي عبدالله الشريف من أهل القرن الثامن ، شرح شواهد الشريف شارح الآجرومية للدَّقْثُون المتوفى سنة ٩٢١ ، نظم الآجرومية لميمون الفخار ، لامية الجمل للمَجْرَاد المتوفى سنة ٧٧٨ ، شرح جمل الزَّجَّاجي لأبي عبدالله الغافقي السبتي المتوفى سنة ٧٣٠ ، شرحه أيضا لأبي محمد بن مسلم الأنصاري القصري . ألفية في النحو لعبد العزيز اللمطي .

كتب في مختلف العلوم الكونية

علم الجدوّل لابن البناء العددي ، شرحه له ، التلخيص في الحساب له ، رفع الحجاب في الحساب له ، مقدمة على أقليدس له ، المُسْتَطِيل في بيان أحكام النجوم له ، المدخل الى علوم النجوم له ، جزء في العمل بالرُّومي له ، مِنْهاج الطالب في تعديل الكواكب له ، علم الأسطرلاب له ، العمل بالشكاريّة والدرقالية له ، رسالة في ذكر الجهات وبيان القبلة له ، جزء في الأنواء وصوّر الكواكب له ، كتاب الفلاحة له ، قانون معرفة الأوقات بالحساب له ، قانون في معرفة فصول السنة له ، قانون في ترحيل الشمس له ، طبائع الحروف له ، صناعة الأوفّاق له ، مقالة في العزائم والرقى له ، مقالة في عمل الطلسمات له ، مقالة في الزّجر

والفأل والكهانة له ، مقالة في خط الرَّمْل له ، اليَسَّارة في تقديم السيَّارة له ، رسالة في كُثْرِيَّة الأرض له ، رسالة في تحقيق رؤية الأهلَّة له ، الردُّ على من قال إن وقت العصر يُعلَّم بوقوع 'قرص' الشمس على 'بَصَر' القائم مُقابلاً له ، نظم أبي مَقرَع في علم الهيئة . الدَّوْحَة المشتبكة في ضوابطِ دار السكَّة لأبي الحسن بن يوسف الحكيم المديوني ، شرح تلخيص ابن البناء العددي لابن هَيْدُور المتوفى سنة ٨١٦ ، شرح رفع الحجاب له ، روضة الأزهار في علم الليل والنهار للجاديري ، اقتطافُ الأنوار في اختصار روضة الأزهار له ، كتاب في العمل بالاسطرلاب والصَفِيحَة الشكاريَّة والرُّبُع بالحساب والجداول له ، تنبيه الأنام على ما يحدث في أيام العام له ، شرح نظم أبي مَقرَع له ، 'مُنِيَّة' الحَسَّاب في علم الحساب لابن غازي ، شرحها له . السَّمَلِيَّة ، رَجَزِيَّة في الحساب لإبراهيم السملالي من أهل القرن التاسع ، نظم 'المَرْقَبَة العُلْيَا في تعبير الرؤيا لابن جابر ، كنوز الأسرار ولواقح الأفكار لأنقشَاب ، رَجَزٌ في علم الأوفاق لعمر بن عبد العزيز الجزنائي ، توفي في أوائل القرن التاسع . موسوعة منظومة تحتوي على نيف وعشرين علماً لعبد العزيز اللمطي .

الحياة الأدبية

قدّمنا أن هذا العصر كان هو العصر الذهبي للعلوم الأدبية في المغرب . وعليه فيكون هو أزهى عصور الانتاج الأدبي فيه ، لأن هذا الانتاج يتبع غالباً تلك العلوم رقيّاً والمحطاطاً . خصوصاً عندما يكون الاعتماد على الدراسة والتلقين ، لا على السليقة والطبيع .

وفوق ذلك ، فإن الوسط الأدبي في المغرب ، لم يبلغ من الرقي في عصر من العصور ما بلغ في هذا العصر ، فقد اشترك في تكوينه جميع الطبقات من الملوك فمن دونهم الى السوقة . أما الملوك فقد علمت أن أكثر سلاطين بني مرين كانوا من أهل العلم والمعرفة والمشاركة في فنون الأدب ، وبالطبع فإن وزراءهم وحجّابهم وقوادهم فضلاً عن كتّابهم وقضائهم كانوا كذلك ؛ إذ يستحيل أن يقرب بساط الملوك ، إذا كانوا ملوكاً بمعنى الكلمة ، غير أهل الكفاآت النادرة من أرباب المعارف المتنوعة ، وكذلك كنت لا تجد في منصب من مناصب الدولة الا رجلاً كفوءاً لا يؤتى من قصور ، ولا يُعاب من تقصير ، حتى آذو البيوتات الذين كانوا يتوارثون الرياسة في هذا العصر كبني العزفي وعبد المهيم وأبي مدين والمكثودي والقبائلي ، لم يكونوا على ما عهد في أمثالهم من الاعتماد بالأحساب والانتكال على الأنساب وإنما كانوا كما قيل :

إِنَّا وَإِنْ أَحْسَابُنَا كَرُمْتُ لَسْنَا عَلَى الْأَحْسَابِ نَتَّكِلُ

بنينا كما كانت أوائلنا تبني ونفعل مثل ما فعلوا

من شأنهم أن أثرت فيهم نهضة علوم اللسان وما مكنت لهم من تدوُّق أسرار اللغة وبهم أغراض الأدب ، حتى لمن كان منهم في طبقة صاحب حديث « اللطافة » الآي

ولا يخفى أن في هذا العصر استفحل ذلك الشعر العامي الذي يتحدث عنه ابن خلدون في المقدمة ، وهو من نظم عوام المغاربة ؛ فيكون من الدلائل القاطعة على تمام استعراهم ، وبالتالي على رقي الوسط الأدبي عندهم ، لأنهم ما نقلوا الشعر من رطانتهم الى العربية حتى كان قد تغلغل الروح العربي فيهم الى حد بعيد جداً . ولا عبرة بما في ذلك الشعر من ألفاظ ركيكة وتراكيب ضعيفة ، وإنما العبرة بكونه نظماً على الأسلوب العربي وبألفاظ عربية في الجملة ، يصدر من عوام المغرب الذين لم يتقنوا علماً ولا أدباً .

والعجب ممن خفي عليه هذا الأمر ، فراح ينمي على المغرب حظاً من اللغة والأدب ، ويستشهد بذلك الشعر الذي هو من قول عوام أهل . ولقد كان خليقاً أن يستشهد به على قوة انتشار اللغة العربية وآدابها في المجتمع المغربي الذي يقول عامته مثل ذلك الشعر ؛ ولكنه لقصوره لم يعرف أن للمغرب شعراء كأعظم شعراء بلاده ان لم يكونوا أعظم منهم . وابن خلدون لم يجعل هؤلاء العوام هم شعراء المغرب ، وإنما أتى بهم دليلاً على ضعف الملكة الشعرية عند أهل الأمصار ، وخصوصاً الأعجام منهم . ولو زاووا الصناعة بالتعليم ، وهو يُغرق على عادته في هذه النظرية فيتناسى ما لأهل هذه الأمصار من اليد الطولى على العربية وآدابها خصوصاً في عصره ، وقد كان مُحاطاً بكثير من نبغائهم الذين لا يقصرون عن غيرهم في فن ولا أدب ؛ فجاء مؤلفا كتاب المطرب في أدب الأندلس والمغرب ، فقها عنه أن أولئك العوام هم شعراء المغرب ، فانكرا العلم والأدب على المغاربة ، فظلموا المغرب والتاريخ الأدبي أشد الظلم ، وكانا كمن يسمع أرجال عوام المصريين فيحكم على مصر بالعقم الأدبي ناسياً الشوقيات وغيرها من الآيات البينات^١ .

وبعد فما نريد أن نقوله هو أن هذا الوسط الأدبي الطافح بعناصر الحياة ،

١ - ان مثل هذا اللفظ كثيراً ما يقع فيه كتاب الشرق ، وما نبهنا على هذا الكتاب بخصوصه الا لأنه من أحدث ما أطلعنا عليه في هذا الباب . وعلى كل حال فاللوم لا يتوجه عليهم بقدر ما يتوجه علينا نحن الذين أهملنا أنفسنا حتى صرنا كما قال القائل :

خرجنا من الدنيا ونحن من أهلها فلنا من الأموات فيها ولا أحيا

كان هو مَهْدَ هذه الحركة الأدبية الذي فيه نشأت ، ومنه درَجَتْ ، فما ظنُّكَ بما تكون عليه من قوَّة المادَّة والرُّوح ؟

نعم ، وقد كان هذا الوسط يُغربي كثيراً من ذوي الشخصيات الأدبية الكبيرة في إفريقية والأندلس فيؤمِّثون الحضرة الفاسية ، ويستوطنونها ناسين بما يلقونَه فيها من التجلُّة والإكرام ، أوطانهم الأصلية ومعاهد شبابهم الأولى ، وعلى رأس هؤلاء ابنُ خلدون وابن الخطيب وابن جزْرى وغيرُهم ممَّن سبقت الإشارةُ إلى بعضهم . وقد كان انتقالُهم إلى المغرب في هذا العصر طَوْعاً ومن تِلْقَاءِ أنفسهم ، بل اختياراً وإِشاراً له على أوطانهم لا كما كان في العصر السابق كرهاً واضطراراً ، لأنَّ عاصمة الدولة ومقرَّ السُلطة المركزيَّة كان في مراكش ، فلا مَعْنَى لِذوي المصالح وأرباب الكِفايات من اللُّجوء إليها ولا كذلك في هذا العصر ، فانَّ قيام دولة بني نصر في غرناطة ، والدولة الحفصية في تونس ، ودولة بني عبد الواد في تلمسان كان حريّاً أن يصرفَ وجهَ النُخبَةِ من أبناء هذه البلاد عن المغرب ، مع أن الأمر كان كما قلنا بالعكس ، فما ذلك إلا دليل على أن الجوّ الأدبي في المغرب هو الذي كان يستميلُهم إليه .

والحاصلُ أن في هذا العصر بلغَ الأدبُ المغربي كماله ، فتخلَّص من سائر التأثيرات الأجنبية عن النفس المغربية ، وشقَّ لنفسه طريقاً نحوَ الغاية المقصودة ، وهي سدُّ حاجة تلك النفس الظامِئَةِ إلى حياة أدبية حُرَّة تتمثَّل فيها عواطفها ومشاعِرُها وسجاياها ومزاياها مُصَوَّرةً بصورة طَبَقِ الأصل لا رِياء فيها ولا تصنُّع ولا ادِّعاء ولا تقليد ؛ فبلغ تلك الغاية وأوفى عليها بمزِيد التفتُّن والإبداع ، ولا سِماً في الشعر الذي حمَل الطابع المغربي وحنده منذ هذا العصر ، فتَجِدُ الحقيقة فيه تسبِقُ الخيال ، والطَّبَعُ يغلبُ الصَّنُوع والقَصْد إلى الوُضوح أكثرَ من التعمُّق ، والرقَّة والجَزالة والسهولة في غير ضَعْفٍ ولا غرابة ولا فُسولة ولا نَنَس وصفَ الشاعر ابن زمرك لطريقة أدباء المغرب بأنَّها عربيَّة ، وهو الذي نقلناه في الكلام على الحياة الأدبية في العصر السابق ، ويكفي أن في هذا العصر نبغَ ذلك الشاعر الذي يحقُّ أن يقال عنه ، إنه شاعرُ المغرب الأكبر ، ونعني به مالك بن المرحَّل الذي طبَّقت شهرته العالم العربي على رغم ما مُنيَ به أدباءُ المغرب من خمول الذكر ، والذي لم يسع ابن خلدون إلا أن يعترفَ بشاعريَّته

على ما عُلِمَ من تحفّظه الشديد ؛ ولكن يا أسفي لضَياع شعر هذا النابغة
الفدّة وغيره من شعراء هذا العهد ، الذين نعتقد أنه لو وصلت إلينا جميع آثارهم
كلّها بقي من يُنغِضُ رأساً عند ذكر أدب المغرب ، لا من أمثال صاحب رسالة
المفاخرة بين العُدوّ وتَيّن ، ولا من أمثال صاحبَي كتاب المطرب .

ونذكر الآن مُختَصراً تراجم النابيين من أدباء هذا العصر ، لأن الاتّساع
في ذلك والاحاطة بجميعهم مما يضيق عنه صدرُ هذا الموضوع .

مالك بن المرحّل

هو أبو الحكم مالك بن المرحّل السبتي ، أعظم شعراء المغرب شهرةً على
الاطلاق ، ولد سنة ٦٠٤ ونشأ بسبته خامل الذكر خفي المنزلة فأنهضه أدبه
وشعره ، وعوضاه من الخمول الظهور ؛ فكان في عصره شاعر المغرب غير
مدافع ، وأطبع شعرائه أسلوباً وأرشفهم لفظاً ، وأبلغهم معنى . استعان على ذلك
بالمقاصد اللسانية لغةً وبياناً ، ونحواً وعروضاً وقافيةً وحفظاً للجيد من الشعر ،
وابتذالاً بمعرفة معانيه وتراكيبه ؛ فانه كان في ذلك نافذة الذهن ، شديد
الادراك ، قويّ العارضة ، سريع البديهة . وكان قد تلا القرآن بالسبع ،
وذلك مما زاده بصراً بأسرار العربية .

كان ابن المرحّل يتعاطى صناعة التوثيق ببلده سبته ، واستنقضي مرةً
ببعض الجهات ، وكان مداحاً ليعقوب المنصور المريني ومختصاً به ، وعلى تعميده ،
وتقدّمه في السن لم يضعف في رواية العلم والشعر والملح والفوائد ، بل كان
إنما يزداد سعة درع وانفساح باع في ذلك ، ومن شعره لما بلغ الثمانين سنة :

يا أيّها الشيخ الذي عمّره . قد زادَ عشرًا بعد سبعينا
سكّرت من أكّواسِ خمر الصبّا فحدّك الدهرُ ثمانينا

وله تآليفٌ سبقَ ذكرها ، وأخبارُهُ وأشعاره تأتي في المنتخبات ، وتوفي
بفاس سنة ٦٩٩ هـ .

الملزوزي

هو أبو فارس عبدُ العزيز الملزوزي ، شاعرُ الدولة المرينية وبلبلُها الصداح ،
يأتي بعد ابنِ المرحل في قوة العارضة وتدفقِ الطبع والتفنن والابداع في
ضروب القول . وكان المنصورُ شديدَ التقريب له فرافقه في جميع حركاته ،
ما كان منها بالآندلس أو غيرها ، وصدر منه في وصف تلك الوقائع الحربية قصائد
فخمة ، منها تلك التي قالها بعد عودة المنصور من غزواته الكبرى بالآندلس سنة
٦٨٤ وهي ملحمةٌ فريدةٌ في الأدب المغربي تناهز أبياتها المائتين والخمسين
بيتاً ، هنأه فيها بالنصر على العدو وعددَ أياديهِ على الرعية ، ونوّه بالأبطال من
قبائل زنّاتة ، فجازاه المنصور عليها بعشرة آلاف دينار ، وأعطى لمنشديها بين
يديهِ وهو الاستاذ أبو زيد الغرابي ألف دينار ، وسنّشيتها في محلها من هذا
الكتاب . وللملزوزي أرجوزةٌ بارعة سمّاها نظم السلوك في أخبار من نزل
المغرب من الملوك . وقد استشهدنا بأبيات منها فيما تقدم .

أبو العباس العزفي

هو أبو العباس أحمد بن الرئيس أبي طالب اللّخمي من بيت العزفي الذي
تداول رئاسة سبتة من لندن أواخر دولة الموحدين ، كان شاعراً غزلاً رقيقاً الحاشية ،
شفافاً الديباجة ، بديعاً التشبيه ، حسن المّقابلة ، وهو فاضلٌ أهل بيته في هذا
الباب ، على أنه ما فيهم الا فاضلٌ ابنُ فاضلٍ ، ذكره أخوه الحافظ أبو القاسم في
كتابه (الإشادة في المشتهرين من المتأخرين بالإجادة) فقال في حقه : « هو أخي ،
الذي بإخائه أزهى وأنتخي ، وكبير المعتمد باجلالي وتوقيري ، ولولا خوفاً من
أن يلزمني ما لزمَ مَدحَ نفسه ، لأطنبتُ في وصف ما له من المحاسن التي فاق بها

أبناءَ جَنْسِهِ ، مع أنها لم تزلْ على مَنْصَةِ البَيانِ مَجْلُوءَةٌ ، وبِالسِّنَةِ الإِبْداعِ مَتْلُوءَةٌ » دخلَ غرناطةَ سنة ٧٠٥ قَلَقِيَّ بِهَا كُلَّ تَجَلَّةٍ وإِكْرامٍ ، وبقيَ بِهَا إلى أن توفى في ٢٨ ذي الحِجَّة عام ٧٠٧ هـ .

أبو العباس الجزنائي

هو أبو العباس أحمد بن شُعَيْبِ الجزنائي الفاسي ، شاعر كاتب متضلّع في فنون الأدب ، حافظ للجيد من الشعر ذكّر أنه كان يحفظ عشرين ألفَ بيتٍ للمُحدّثين . وكان له بصرٌ نافذٌ في نقد الشعر ، وشعره مما سبّقَ به الفُحول وكتابتُه حسنة وخطُّه جيّد . وكان كاتباً في ديوان الإنشاء عند أبي الحسن المريني ، وتسمرى جاريةً روميّةً اسمُها صُبُح من أجمل الجوّاري وأحسِنهنّ ، ولقنتها حظاً من العربية ، فنظمت الشعر ؛ وكان شديد الغرام بها فهلكت فلم يُطِقْ عليها صبراً ، وقال فيها أشعاراً رائعة هي مثال البلاغة والانسجام .

وكان من أهل المعرفة بصناعة الطب ، والنظر في التعاليم ، وتهتّك في علم الكيمياء ، وخلعَ فيها العذار وله فيها موضوعات كثيرة . توفي بتونس في جملة خُدومه أبي الحسن يوم عيد الأضحى سنة ٧٤٩ هـ .

أبو عبد الله المكودي

هو أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن المكودي الفاسي ، شاعر مُبدِع من أهل الظرف والأدب والانطباع ، بيتُه فيما علمتَ من بيوتات فاس العريقة في المجد والحسب . نبغَ بالشعر فبرّزَ فيه ، واشتغل بالكتابة في الديوان السلطاني زماناً ؛ إلا أنه شاعراً أكثرُ منه كاتباً . وهو من الشعراء الذين يُعَنَوْنَ بتصوير العواصف

النفسية الدّقيقة ، والتعبير عن الإحساسات القلبيّة العميقة ، فيكون لشعرهم أثرٌ جميل في النفوس ، ووقّع حسن في القلوب . وكانت قد غلب عليه الشرابُ واللّهو ، فررّى به ذلك ، وخطّ من قدره ، فلم يلحظْ بالعين التي كان يجب أن يلحظَ بها ، ولم يرتفعْ ذكره ما بين الأدباء والشعراء المعاصرين . ولقد دخل غرناطة فيما 'يحدثُنا به ابنُ الخطيب' ، فلم يؤبّه له ، ولم 'يحتفلْ به' ، وهكذا الاسترسالُ في مجاهل الهوى يخلُ بالشرف ، ويقدَحُ في المروءة وتوفي سنة ٧٥٣هـ .

ابنُ عبدالمنان

أبو العباس أحمد بن يحيى بن أحمد بن عبد المنان الأنصاري الخزرجي من أهل مكناس ، كاتبُ الدولة المرينية الشاعر الأديب ، الوصّافُ المعجب . كتب أولاً لأبي عنان وله فيه أمداح بارعة ، ثم للسعيد أبي بكر وأبي سالم إبراهيم ، وأبي عمر تاشفين ، وأبي زيتان محمد ، وأبي فارس عبد العزيز ، وأبي زيتان الثاني ، وأبي العباس أحمد المستنصر ، وصفه الأميرُ اسفيل بن الأحمر في نثر الجمان فقال : « به تشرفَ المصر وتظرفَ العصر ، وحيطَ الصقّع ، وخيطَ الرّقع ، فتباهى الكلام بإقدامه ، وحطّ رأس التطوُّع بين أقدامه ، إن وصفَ بيّن ، وإن حلّى زين » . وهي أوصافٌ تنبئُ عما كان له من الكفاية والاعتدار في الميدانين السياسي والأدبي ، وشعره 'منوعُ الأغراض' ، ينتقلُ فيه من فنٍّ إلى فن بغاية السّهولة ، ولذلك يطولُ نفسه ، ويأتي بالسّابقات الجياد . وهو لطيفُ التصوير ، بليغُ التعبير ، وصفَ الساعة العجيبة التي ركبها أبو عنان في مواجهة مدرسته بفاس فأحسن الوصف ، وكذلك وصفَ قتل الأسد بين يدي مخدمه المذكور ، بقصره من المدينة البيضاء فاس الجديد ، ودخول المحتال في الأكرة المعدّة للتحرش بالأسد والشبكة المعدّة لصيد الأسود في الفلاة وغير ذلك ؛ فأجاد في الجميع إجادةً بالغة . وسنوردُ هذه الآثار البديعة في المنتخبات ، وتوفي ابنُ عبد المنان سنة ٧٩٢ .

ابن جابر المكناسي

هو أبو عبد الله محمد بن جابر الغسّاني المكناسي ، شاعرٌ مُجيد عالمٌ بالقراءات وتوجيهيها ، مُتصَرِّفٌ في فنون العربية والأدب ، أكثرُ شعره الوصفُ والنظم التعليمي . ويمتازُ بالسلاسة والعذوبة وقوّة التخيّل . كان له شهرةٌ مُطبّقة في أيام حياته ، وكان في مكناس كعبةَ القُصّاد من الأدباء والطلبة وغيرهم يجدون لديه ما تصبّو إليه أنفسهم من مُذاكرة الأدب ، ومُدارسة اللغة ، وكان حُلّو النّادِرة ، بديعَ الحكاية ، فكيهَ المحضّر ، لا يكادُ جليسه يسلو عنه . له 'نزّهة' الناظر لابن جابر ، في وصفِ بلده مكناس وله غيرُها . وتوفي سنة ٨٢٧ هـ .

وهو غيرُ ابنِ جابر صاحب البديعة فان ذلك أندلسي .

عصر السعديين

سِيَّاسَةُ الدَّوْلَةِ

هذه ثانيّة دولة عربيّة صريحة قامت في المغرب بعد الأدارسة ، بل ثانيّة دولة عُلويّة بقطع النظر عمّا أُرْجِفَ به خصوصُها من الطعن في نسبِها . وهي لم تستند في قيامها الى مهدويّة ولا الى عصبيّة ، وإنما من أول الأمر كان نهوضُها لتحقيق أُمْنِيّة وطنيّة ، هي تنظيمُ القوّات الجهاديّة وقيادتها لِطَرْدِ الأجانب المحتلّين لشواطئ البلاد وذلك بطلب من المجاهدين أنفسهم ، فأشبهت في هذا الأمر الدولة الإدريسيّة من حيث كونها مطلوبة لا طالبة ، وكون نهضتها سياسيّة من أول الأمر لم تُنمّوّه بشيء من الدعاوى الكاذبة ؛ وكون القائمين بنصرتها والمنضوين تحت لوائها هم البربر الذين قاموا بنصرة الأدارسة من قبل ، وانضّوا تحت لوائهم . والعجيب هو أنهم نصروهم على دولة بني وطاس البربريّة ، فلم ينظروا إلى ما تقتضيه عصبيّة النسب واللغة والقوميّة من الاحتفاء لهم والدفاع عن سلطانهم أن يزول ، وفي زواله فشل أمرهم وذهب ريجهم ؛ لكنها كانت زاغت عن الصراط المستقيم واشتغلت بالتهالك على طلب السلطة ، وظنّت الملك هو هذه المواكب التي يظهرون فيها بمظاهر الفخفخة والاختيال ، من غير نظر في مصالح الرعيّة ولا اهتمام بتحصين البلاد من هجمات العدو . فسرعان ما اختلّت الأمور ، وتعرّضت الأمة لشقاء الاحتلال وتحكّم الأجنبي فيها فكشّرت إغارة البرتغاليين على الشواطئ واحتلّوا منها ما احتلّوا وأخذوا يُعدّون العُدّة لضمّ أطراف المغرب بعضها الى بعض ، وتمثيل مأساة عام ١٩١٢ في ١٥١٢ ، فكيف لا يتّحد البربر والعرب على رفع هذا العار عنهم وتلافي الخطر المحيِّق بهم ؟ وبعد فهل تريد دليلاً أقوى من هذا على صحّة إسلام البربر وصدق إيمانهم وتغلغل الروح الديني والتعاليم المحمديّة في نفوسهم ، حيث غلبوا الرابطة الدينيّة على العصبيّة الجنسيّة والأخوّة الاسلاميّة على النعرة القوميّة ، فدلّوا بذلك على اتحادهم مع العرب وائتلافهم بهم اتحاد الروح مع الجسم وائتلاف اليمين بالشمال ؟ اللهم إن من يزعم غير ذلك ، ويكابر في هذه الحقيقة المموسة فانما غرضه السّعاية وبث سموم البغضاء بين ذوي القربات الوشيعة والأرحام المُشتبكة .

دبت عوامل الانحلال في جسم الدولة الوطاسية وأخذ الضعف منها مأخذاً عظيماً فقضرت سلطتها على حواضر المغرب ، ولم يبق لها نفوذ فيما عداها من البلاد النائية ، والقبائل العاتية . وقد استنفذ مجهودها واستفرغ قوتها ما كان قائماً بين أفرادها من التنازع على نيل السلطة والاستبداد بصولجان الملك ، ثم ما كانت تُعانيه من قتال العدو المحتل بالثغور ، وخصوصاً القريبة من عاصمة الدولة فاس ؛ فلم يكن لديها قوة كافية لتمكّنها من القيام بدور حاسم في السواحل السوسية البعيدة حيث طغى سيل المستعمرين البرتغاليين ، لمّا عرفوا أنهم بمنجى من طلب رجال الدولة وتعقب آثارهم ، ولذلك أخذوا في بناء المعاقيل والحصون والتهيؤ والاستعداد لليوم الذي له ما بعده ؛ فضاقت المسلمون بهم ذرعاً وغصوا بمكانهم من تلك البلاد التي هي حلق الشؤس وفم عاصمة الجنوب .

ورأت قبائل المصامدة المباركة ذلك فساءها أن يكون عبيدُها بالأمس أسيادها اليوم ، وأن تبلغ القiche بأولئك البُلته الأغرار إلى أن يتحدّوها في بلادها ، ويجرّوا على أخصي أسود الشرى في عرينها ؛ فتقدّموا إليهم بنفوس أبيّة وأنوف حمية . لكنهم لما كانوا يعرفون أن يد الله مع الجماعة ، وأن القوة في الاتحاد ، أخذوا يبحثون عن ذلك الشخص الذي يكوّنه قيادهم ؛ فسرّعوا ما أرشدوا إليه فكان هو الشريف أبو عبدالله محمد القائم بأمر الله وكان مقيماً بدرعة ، فبعثوا إليه فقَدِم عليهم . واجتمع فقهاء المصامدة وشيوخ القبائل ، وبايعوه فكان هو واضع الحجر الأساسي في بناء هذه الدولة الشامخ ، ولقد ساعده الحظ وكُتِبَ له الظفر فأجلى الأعداء عن أرض الوطن وزحزح قدّمهم التي كانت قد رسخت فيها ، فتيّمن المسلمون بطلّعه وتفاءلوا بطائره .

وكان له ولدان أرّضا أفريق النجابة والبراعة ، واقتعدا أسنمة النجدة والشجاعة فدعى الناس إلى بيعة أكبرهما وهو أبو العباس أحمد الأعرج الذي دخل مراكش سنة ٩٣٠ وحارب الوطاسيين وجاذبهم حبل السلطة في المغرب زماناً ، حتى تدخل الناس في الصلح بينهما فانبرم عقده على أن يكون للأشراف السعديين من تادلة إلى السوس ، وللوطاسيين من تادلة إلى المغرب الأوسط . وكان الساعي في عقد هذا الصلح جماعة من العلماء والشرفاء والأعيان . ثم شالت نعمة السلطان أبي العباس الأعرج ونهض أخوه أبو عبدالله محمد الشيخ المهدي ، وكان شهماً ذكياً عالي

الهمة ، رفيع القدر ، عالماً مُتَفَنِّناً ، أديباً أريحياً سياسياً مُحَنِّكاً ؛ فذلل الصَّعَابَ وسنَّى العِقَابَ ، وتغلَّبَ بطولِ أمله وحُسنِ مُصابِرَتِهِ للأُمُورِ على جميع المَشَاقِّ ، وكان يقول : « ينبغي للملك أن يكون طويل الأمل ، فان طُويلَ الأمل لا يَحْسُنُ الا منه ، لأن الرعيَّة تصلح به » فهتد البلاد وأخضع العباد ودخل فاس سنة ٩٥٠ وأجلى منها آخرَ ملوك بني وطاس . ثم قضى عليه بعد ذلك وعلى دولته فصفا له 'ملك' المغرب من أقصاه الى أقصاه ؛ ففقد قواعده وشادَ مَبَانِيه ، وأحْيى مَراسِمَ السُلْطَنَةِ الدارسة ، ومعالَمَهَا الطامسة ، وكانت سيرته وسياسته كلها مثالَ الحِزْمِ والضبط ودليل الحِكْمَةِ والاعتدار .

ثم تلاه ابنه عبدُ الله الغالب فاقتفى أثره في حُسنِ السَّيرة ، وكان محبوباً من الشعب بجميع طبقاته . ونشِطَت الحركةُ الاقتصادية في زمانه ، وكثُر البُنْيَان ، واستَبَحَرَ العُمُرَان ، وكانت أيامه كلُّها أيامَ دَعَةٍ وأَمْنٍ ورَخَاءٍ وعافية ، ولما توفى قام على العرش ولده محمد ، وكان للغالب أخوان تغرباً بالجزائر مُدَّةً تَوَلَّيْتِهِ المُلْكُ خوفاً على أنفسهما منه ، وهما الغازي أبو مروان عبد الملك المُعْتَصِم بالله ، وأبو العباس احمد المنصور الذهبي . فحين سمعا بوفاة أخيهما واستيلاء ابنه على الملك ، وانتزاعه تراث أبيهما من أيديهما ، لم يرضيا بالدَّنيَّة ، ووثبا وثبة الأسد الهَـصُور ؛ فلم يهدأ لهما بال حتى دَبَّرَا بينهما خُطَّةَ الدِّفاع عن حقهما المُغتصب ؛ فسافر الغازي أبو مروان الى القُسْطَنْطِينِيَّةِ العُظْمَى ومَثُلَ بين يدي السلطان سليم الثاني وطلب إليه أن يَمُدَّهُ بجيشٍ يدخلُ معه المغرب فينتزع الملك من ابن أخيه ، فلم يُجِبْهُ الى طلبه لاشتغاله بأمر تونس التي كان الاسبان يُهاجمونها في ذلك الحين . فبقي هناك حتى جهز السلطان حملة سِنان باشا التي انتزعت تونس من أيدي الأسبان فصَحَّبَهَا أبو مروان وأبلى فيها بلاء حسناً ، ثم كان هو أول من أبلغَ بِشارة الفتح الى السلطان فجازاه على ذلك بأن أمر كتيبةً من الجيش التركي الجزائري يبلغ عددها أربعة آلاف رجل ، فدخلت معه الى المغرب بعد أن اشترطت عليه أن يُعطيها عشرة آلاف عن كل مرحلة .

وما إن شارَفَ فاس حتى خرج اليه ابن أخيه ، لكنَّ جيشَ هذا انضمَّ الى عمه . وكان الغازي يُكَاتِبُ القواد والوزراء أيامَ مُقامِهِ بالجزائر ويَعِدُّهُمْ وَيُنْصِيهِمْ . فلما جاء كانوا كلُّهم على هواه ، فانقادوا اليه ، وهكذا رجعَ الملك الى نَصَابِيهِ

فاستقلَّ به أبو مروان ناهضاً بأعبائه ، مضطرباً بشؤونه ، وكانت تلك المدة التي قضاها مُشرِّداً عن بلاده ووطنه قد عملت عملها في تنشئته وتدريبه على السعي المحمود والعمل النافع . كما أن تجولاته ومشاهداته قد اكتسبته خبرة واسعة بجميع الشؤون ، ودربةً سياسية نادرة ، فأدخل عدة إصلاحات مهمة على الإدارة والسياسة ، أهمها ما كان مختصاً بتنظيم الحربية ، حيث اقتبس سائراً من نظم الجنودية العثمانية . وسار بالجنود المغربي في سبيلها حتى بلغ النهاية ، فلم تحل واقعة وادي المخازن حتى كان لديه جيشٌ منظمٌ مُدرَّب على أصول الحربية الفنية يندُر وجود مثله في ذلك الحين عند الممالك المعادية كالاسبان والبرتغال ، وهما إذ ذاك من أعظم شعوب أوروبا قوةً وأمضاهم شوكةً .

وقد شاهدنا نتيجة هذا الإصلاح العملي للجيش في قهره أكثر من مائة ألف جندي أراد ملك البرتغال أن يستذل بهم المغرب ويخضعه لحكمه ؛ فسأفأله ، وخاب أمله ، وكان كالباحث عن حتفه بظليفه ، والجاذع مارناً أنفه بكفئه ؛ إذ وقع مُتردياً في هاوية البوار ، وباء هو وجيوشه الكثيفة بالدمار ، وذلك في واقعة وادي المخازن الشهيرة التي جرت يوم الاثنين منسليخ جمادى الأولى سنة ٩٨٦ .

نعم شاهدنا هذه النتيجة السارة ، وإن لم يكتب لبطلها العظيم أن يشاهدها مع الأسف حيث أنه توفى أثناء المعركة محموماً . لكننا نؤمن أنه ما أغض عينيه حتى أغضها عن يقين ثابت ، واعتقادٍ راسخ بالنصر والغلبة ، حيث عرف أنه قد بنى وأحسن البناء فاطمأن قلبه ، وهدأ روعه ، وصعدت روجه الى الملأ الأعلى تشرف من برزخها على ميدان القتال ، وتبارك المجاهدين وتستقبل أرواح الشهداء في عليين .

ولما انكشفت الموقعة عن اندحار العدو وانكساره ، نظر الناس فوجدوا سلطانهم قد توفى ، فما كان بأسرع منهم الى بيعته أخيه وخليفته ورقيقه في غربته السلطان أبي العباس أحمد المنصور الذهبي . وإنه ليومٌ عظيم وعيد فخم حيث خرج الناس من الموقعة وهم سُكَّارى بنشوة النصر . وزاد فرحهم انتصاب هذا الملك الهام على عرش آبائه الكرام لما كانوا يعرفونه من نجدته وشجاعته ،

وجُوده وحِلْمه وأخلاقه العَالِيَّة التي لَا يُمْكِنُ تَعْدَادُهَا هُنَا ، فَنَاهِيكَ بِهِ مِنْ يَوْمٍ اجْتَمَعَتْ فِيهِ أَسْبَابُ الْفَرْحِ ، وَغَابَتْ عَنْهُ مُوْجِبَاتُ التَّرَحُّ .

وماذَا أَحْدَثْتُكَ بَعْدُ عَنْ سِيرَةِ هَذَا السُّلْطَانِ وَمَا بَلَغَهُ الْمَغْرِبُ فِي أَيَّامِهِ السَّعِيدَةِ مِنَ الْقُوَّةِ وَالْعِظْمَةِ وَالْحِضَارَةِ وَالرِّقِيِّ وَالرَّفَاقَةِ وَالْعُمُرَانِ ؟ لَقَدْ كَانَ الْمَنْصُورُ بِحَقِّ وَاسِطَةِ عَقْدِ الْمُلُوكِ السَّعِدِيِّينَ ، وَقَدْ رَأَيْتَ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ فِيهِمْ إِلَّا فَاضِلُ ابْنِ فَاضِلٍ ، وَمَنْ يُنْشِدُ مَعَ الْقَائِلِ :

إِذَا سَيِّدٌ مِنَّا خَلَا قَامَ سَيِّدٌ قَوُولُ لِمَا قَالَ الْكِرَامُ فَعُولُ

فَالْمَنْصُورُ كَانَ عَالِمًا إِلَى دَرَجَةِ الْاجْتِهَادِ ، وَإِلَى أَنْ جَزَمَ عُلَمَاءُ عَصْرِهِ بِأَنَّهُ الْمَجْدِدُ فِي الْقَرْنِ الْعَاشِرِ . وَكَانَ أَدِيبًا شَاعِرًا كَاتِبًا سَانِقَ فُحُولِ الصَّنَاعَتَيْنِ مِنْ أَدْبَاءِ دَوْلَتِهِ ، وَكَانَ سِيَاسِيًّا مُحَنِّكًَا وَقَائِدًا شَجَاعًا وَإِدَارِيًّا مُنَظَّمًا وَمُصْلِحًا جَمَاعِيًّا كَبِيرًا . وَبِالْجُمْلَةِ فَلَقَدْ اجْتَمَعَتْ فِيهِ أَوْصَافُ الزَّعَامَةِ وَأَشْرَاطُ الْإِمَامَةِ ، حَتَّى لَقَدْ كَانَ دِمَاجُ الْأَمَةِ الْمَفَكِّرِ وَقَلْبُهَا النَّابِضِ وَيَدَاهَا الْعَامِلَةِ .

يَكْفِيكَ أَنْ تَنْظُرَ إِلَى مَشَارِعِهِ الْعِظَامِ وَمَآ تَبِهَ الْجِسَامِ ؛ فَمِنْ فَتْحِ السُّودَانِ وَتَوَاتٍ وَتِيكَرَارِينِ ، حَتَّى أَصْبَحَتْ الصَّحَرَاءُ الْأَفْرِيْقِيَّةُ كُلُّهَا فِي قَبْضَةِ يَدِهِ وَتَحْتَ تَصَرُّفِهِ ؛ فَاتَّسَعَتْ دَائِرَةُ نَفُوذِهِ إِلَى مَا لَمْ يَبْلُغْهُ قَبْلَهُ فِي هَذِهِ الْجِهَةِ سُلْطَانٌ وَاکْتَسَتْ الْمَغْرِبُ بِذَلِكَ جَلَالَهَ قَدْرٌ وَرَفَعَهُ شَأْنٌ ، وَجَعَلَ يَتَقَلَّبُ فِي النِّعَمِ كَيْفَ شَاءَ ؛ إِذْ لَا يَخْفَى أَنَّ هَذِهِ الْبِلَادَ الشَّاسِعَةَ كَانَتْ تَحْتَوِي عَلَى مَنَابِعِ الثَّرْوَةِ الطَّائِلَةِ ، وَكَثُورِ الْغِنَى الْوَافِرِ ؛ فَقَدْ كَانَ الذَّهَبُ يُجَنَّبُ إِلَيْهِ مِنْهَا بِالْأَحْمَالِ ، وَكَانَ فِي دَارِ سَكَّةِ الْمَنْصُورِ أَرْبَعُ عَشْرَةَ مِائَةً مِطْرَاقَةً كُلُّ يَوْمٍ تَضْرِبُ الدِّينَارَ الْوَهَّاجَ ، وَهَذَا غَيْرَ الْمَصْوَغَاتِ وَالْحُلِيِّ ، وَلِذَلِكَ سُمِّيَ الْمَنْصُورُ الذَّهَبِيَّ - إِلَى إِحْيَائِهِ سُنَّةَ الْمَشُورَةِ وَجَعَلَهُ الْحُكُومَةَ شَرْعِيَّةً أَشْبَهَ شَيْءٍ بِالْحُكُومَاتِ الدَّسْتُورِيَّةِ النِّيَابِيَّةِ ، وَذَلِكَ بِفَتْحِهِ لِلدِّيَّانِ الشُّورِيِّ الَّذِي كَانَ يَعْقِدُ مَجَالِسَهُ كُلَّ يَوْمٍ أَرْبَعَاءَ مِنَ الْأُسْبُوعِ ، وَيَحْضُرُهُ وَجُوهُ الْأَمَةِ وَسُرَاتُهَا فَيَتَفَاوَضُونَ فِي شُؤْنِ الْمَمْلَكَةِ وَتَقْدِيرِ سِيَاسَتِهَا ، فَلَا يَقْطَعُ فِي أَمْرِ بَدُونٍ أَنْ يَعْرِفَ رَأْيَ الْأَمَةِ فِيهِ - إِلَى بِنَائِهِ لِلْقُصُورِ التَّارِيخِيَّةِ الْعَظِيمَةِ كَالْبَدِيعِ ، وَغَيْرِ الْقُصُورِ مِنَ الْحُصُونِ وَالْجُسُورِ - إِلَى إِعَادَتِهِ تَنْظِيمَ الْجُنْدِ مِنْ جَدِيدٍ

مُوفَقًا بين النظام المُستَعْجِل الذي جَنَحَ له أخوه المَعْتَصِم ، وكرهه الناسُ وقوفًا مع العوائد ، والنظام العربي الذي كان قبله ؛ فجاء في غاية ما يكون من النظام والترتيب . وسيأتي وصفه في قصائد شعرائه في قسم المنظوم - الى تنشيطه للصنائع الوطنية بأنواعها وإدخال ما لم يكن معروفًا منها قبل ، وتعظيمه للفلاحة الذي أتى بأحسن النتائج ، حتى في أنواع المزروعات التي لم يسبق للبلاد بها عهد ، كقصب السكر الذي نجحت زراعته نجاحاً كبيراً ، مما أدّى الى إنشائه لمعاصر السكر العديدة في بلاد سُوس ومراكش والغرب ، حتى كُثِرَت هذه المادّة الضرورية بالمغرب ولم يبقَ لها ثمن ، فكانت أكثرَ صادراته الى أوروبا وغيرها . وكان يُبادلُ الايطاليين بها الرُّخام - الى غير ذلك مما يطول تتبعه .

ولا يمكننا أن نأتي في هذه النشبة على وصف ضخامة ملك أبي العباس المنصور وحسن سيرته ، وإنما حسبنا أننا أشرنا الى مُلَمَعٍ من ذلك . ويقال بالجملة إن أيامه كانت عُمرَةً في جبين التاريخ المغربي ، وإنّ الدولة السعدية لو لم تُنْجِبْ إلا إِيَّاه لكفأها فخراً . على أن الدهر الخؤون لم يلبث أن أعلن حربه عليها بعد وفاة المنصور فتردّت من ذلك العلو الشاهق الى الحضيض الأسفل .

ومن السُّخف أن يُحاول الانسان الكلام على حياة هذه الدولة بعد وفاة المنصور وإن امتدّت الى حين . وكذلك نحن ننتهي هنا ، وفي اعتقادنا أننا أعطينا القارئ صورةً مُصَغَّرَةً من سياسة هذه الدولة وسيرتها في رعيّتها التي أولتها قيادتها وسلّمت لها أمرها عن رضَى وطيب خاطر منها ؛ فلم تُخَيَّبْ فيها ظنّها ، وأتت بما يتناسب مع طيب عُصْرِها وشرف أصلها ، إلا ما كان من أفراد قليلين لا يُمكن أن يُؤخَذَ الأبرياء بذنبهم ، وهم فوق ذلك سُبَّانٌ أغرار لم يصدّروا في شيء من أعمالهم عن خُبث نية أو سوء قصد .

الحركة العلمية

لو صحَّ ناموسُ النُشوءِ والارتقاء وكان كلُّ شيءٍ في هذا الوجودِ مُطرِّداً مُستَمِراً يتَّصِلُ أوَّلُه بآخره ، وترتبطُ أطرافُه ببعضُها ببعض ، لكان للمعارِف اليوم في بلاد المغرب شأنٌ غيرُ هذا الشأن ؛ إذ قد رأيت ما كانت عليه من التقدم والانتشار في عصر المرينيين ، فما ظنُّك لو بقيتْ سائرة نحو غايتها القصوى من التكمُّل والنماء منذ ذلك العهد الى الآن ؟

ولا نقصدُ أنها في هذا العصر تقصُر عمَّا كانت عليه في العصر السابق أو تقلُّ عنه شأنًا ، وإنما نتأسَّفُ للوقوف الذي اعتراها في تلك الفترة التي كانت الدولة الوطنية مُسيطرَةً فيها على المغرب والتي لم تُدق البلاد فيها طعمُ السلم والراحة ، حتى كاد اليأسُ يستولي على النفوس ، لولا أن تدارك الله هذه الأمة بضمِّ شملِها واجتماع كلمتها على يد زعيم هذه الأسرة السعدية المباركة كما سبق القول .

وحينئذ بعد استقرار الأحوال ورجوع الأمن الى نصابه ، عاد لكلِّ شيءٍ رونقه وبهجته ، وأقبل كلُّ على شأنه . ورجالُ العلم أيضاً أخذوا في إحياء ما اندثر وجمع ما تبعثر من سالف ذلك المجد العلمي والتاريخ الأدبي ؛ فلم تَنشَب حركة العلوم والآداب أن عاودها النشاط والانتعاش ، وخصوصاً بعد ما أنست من الملوك السعديين وعلى رأسهم المنصور الذهبي ذلك التعزيد الذي سبقت الإشارةُ إليه .

بيد أنها إن كانت نهضت من جديد فإنها لم تَعُدْ ما يقعد بها عن استئناف السير الى الامام ، نتيجةً للرُّكود العام الذي أصاب الحياة الفكرية ، فمُنذُ هذا العهد في سائر بلاد الاسلام ؛ فقد أصبح العلماء وأكثرُهم نشاطاً وأعظمهم اجتهاداً هو من يقف عند الغاية التي وصل اليها من قبله في هذا العلم أو ذاك ومن يجترُّ المقررات التي وقع الفراغ منها قبله . فان أظهر براعةً وأبدى تفوقاً ففي هذه

الظاهرة التي عمت فأعمت ، وهي ظاهرة الاختصار والتعمق فيه التي أشرنا في العصر السابق الى مضارها الجسيمة ، حتى أفضى الأمر الى أن أصبحت العلوم في حالة من الغموض والإبهام تصدّ عنها كثيراً من الطلاب . وهذا الأمر إن لم يكن أخيراً كثيراً ، فقد عاقبها عن التقدم والانتشار طوأل المدة التي بقيت فيها قيد الإنشاء والاعادة .

العلوم الشرعية :

ويقال بالجملة ان العلوم الشرعية كالفقه والحديث والتفسير قد كانت منتشرة بكثرة على نسبة ترتيبها هذا ، الذي ذكرناه ؛ وإنما الذي ظهرت عليه آثار التحول هو الفقه ، فالغالب ان كتبه التي كانت مستعملة في العصر المريني قد اطرحت الآن ولم يبق منها الا القليل ، وأخذت كتب آخر مختصرة عوضاً عنها وظهر نشاط كثير وتنافس في شرح هذه المختصرات والتعليق عليها .

وإن ننس لا ندس ما جدّ في هذا العصر من كثرة الإقبال على علوم القراءة وشدة العناية بها ، حتى لقد تخصّص بها علماء كثيرون لا يزالون غيرها من العلوم ، كما شارك فيها سائر العلماء ، بل كان وصف العالمية لا يكمل الا بها . ويمكننا أن نقول إن هذا كان عصرها الذهبي في افريقية كلها ، الذي بلغت فيه الى أوج الكمال . وحسبك دليلاً أن وقف القرآن الذي وقع الاجماع عليه وجرى العمل به في المغرب منذ ذلك الوقت الى الآن ، إنما وُضِعَ في هذا العصر وكان واضعته هو الاستاذ الصهاقي .

أما الكلام فقد قامت له ايضاً دولته ، إذ وجد ما حفز الهيم للاشتغال به ، وهو تلك المناظرة العنيفة التي قامت بين الشيخين الخروبي والديسيثني أولاً ، وبين هذا الثاني والشيخ الهبطي ثانياً ، في مسألة الأهلية ، هل الحق سبحانه وتعالى مما يدخل في النفي بلا ، وهل تنتفي بها ألوهية الصم وغيره مما عُبِدَ من دونه باطلاً أم لا ؟ وقد استمرت هذه المناظرة زماناً طويلاً وثار بسببها شر كبير بين العلماء حتى تدخل السلطان نفسه فيها ولم يُجِدْ ذلك شيئاً . وبقيت المسألة على حالها الى أن تأدّت الى العصر العلوي ، فلم تعد من يروّجها من الطلبة . ثم تصدّى لها

أبو علي . اليوسي فلم يترك مقالاً لقائل على عادته ، وقطعتُ جَهِيْزَةً قولَ كلِّ خطيب .

ولم تكن هذه المناظرة هي الوحيدة من نوعها فقد قامت بين اليَسيثي ايضاً ، والشيخ عبد الوهاب الزقاق مناظرة أخرى في مسألة 'خلف الوعد من الله تعالى ، فقال الزقاق ان ذلك يَصِحُّ منه ، وخالفه اليسيثي . وألّف كلُّ منهما في المسألة 'منتصراً لرأيه ، مما يدل على زيادة اعتنائهم بهذا العلم وكثرة اشتغالهم به .

وأما المتصوّف فقد كان طغى عليه سيلُ التدليس والتلبيس ، فقيّض الله له مثل ابن خجو والهبطي ، فهذباه ونقّحاه . وكان الشيخ أبو العباس الصّومعي ، حامِلَ رايته عالماً وعملاً ، وممن لم يستغلِّ مقامه وجاهه ولا استغله أحدٌ على كثرة هذا الصَّنَف في المتصوّفة بهذا العصر .

هذا ما يرجعُ الى علوم الشريعة . وأما علوم الأدب فالنحو بالخصوص مما ظهر عليه أثرُ التحوُّلِ جليّاً واضحاً ، فاقْتَصَرَ 'طلابُـه على اثنين أو ثلاثة من الكتب المختصرة أو المنظومة لا يُحَاوِزونها الى غيرها أبداً ، وقد نشط العلماء في شرح هذه الكتب والتعليق عليها نشاطاً لا مزيدَ فوقه .

وأما علوم البلاغة فانها كانت نافقةً جداً ، إلا أن أثرها في الألفاظ كان أقوى منه في المعاني ، وعلى الأخص عند بعض الأدباء الذين 'شغِفُوا بالبديع فأكثروا منه الى حدِّ الإغراب . وقد كان على رأسهم المنصور الذهبي الذي هو في ملوك المغرب كابن المَعْتَزِّ في ملوك المشرق إلا أن هذا لم تُدرِكه 'حرفة' الأدب كما أدركت سَلَفَه .

وأما علم التاريخ فهو الوحيد من علوم الأدب الذي ازدهر في هذا العصر ازدهاراً كبيراً إذ رَزَقَ رجالاً أكفاءً انصرفوا لخدمته ووجهوا اهتمامهم اليه ، وبالخصوص تاريخ السعديين الذي لولا هذه العناية لظلَّ محجوباً عن الباحثين ، كتاريخ الوطاسيين قبله ، 'محاطاً بالغموض الذي 'يُحوِّجُ المؤرِّخ الى الرّجْم بالظنون وافتراض الفروض ولعل هذا الاهتمام كان منشأه 'تعصُّدُ الأشراف السعديين للمؤرخين وعلى الأخص المنصور الذي اجتمع في بلاطه عدد كبير منهم كالعلامة المقرري صاحب نفح الطيب وأزهار الرياض وغيرهما وأبي العباس بن القاضي وعبد العزيز الفشتالي ومحمد بن علي

الذَّسَبَ ومحمد بن عيسى الكاتب وغيرهم . ناهيك بفدائيه لابن القاضي المذكور
لما وقع في أسر الافرنج بألوف الدنانير الذهب .

العلوم الكونية :

وهذا في العلوم الأدبية . وأما العلوم الكونية فما كان مما تقتضيه في الجملة ،
طبيعة العمران البشري وخلقة الاجتماع الإسلامي فانه كان منتشرأ بكثرة ، وذلك
كالهندسة والهيئة والطب وما إليها . وما عدا ذلك فلم نقف له على خبر .

أما الطب فقد كان للدولة مزيدُ اعتناء بأهله واهتمام بشأنه ، وحسبك ما أسداه
المنصور لطبيبه الخاص أبي عبد الله محمد الطبيب ، وما خلع عليه هو وزجال دولته ،
لما استقلَّ من مرضه الخوف وتداركه الله على يد الطبيب المذكور عام ٩٨٧ وكان
هناك أطباء كثيرون منهم أبو القاسم الوزير صاحبُ كتاب المفردات المشهور وأحمد
المريد وابنُ سعيد المرغيني وغيرهم . ومما يدل على ارتقاء شأن الطب في هذا العصر
ما وصفه المنصور من أنواع الوقاية والعلاج في كتابه الذي بعثه الى ولده براكش عند
ظهور الوباء ونصُّ المراد منه : « والى هذا أسعدكم الله أولُ ما تبادرون به قبل كل
شيء هو خروجكم إذا لاح لكم شيء من علامات الوباء ولو أقلُّ القليل حتى
بشخص واحد ، ثم لا تغفلوا عن استعمال الترياق أسعدكم الله ،
فالزموه وإذا استشعرتُم بسلامة بجماعةٍ وتخوفتموها فاستعملوا الوصف
من الوزن المعروف منه ولا تهملوا استعماله . وأما ولدنا حفظه الله لكان
الشبيهة فحيث يمنعه الحال من المداومة على الترياق فها هي الشربة النافعة لذلك قد
تركناها كثيرة هنا لكم عند التونسي فيكون يستعملها هو والأبناء الصغار المحفوظون
بالله ، حتى إذا أحسَّ ببرؤد المعيدة من أجلها تعطوه الترياق فيعود اليها . والبراءة
التي ترد عليكم من سوس أو من عند الحماكم أو من عند ولد خالكم أو من عند غيرهما
لا تقرأ ولا تدخل داراً بل تعطى لكاتبكم هو الذي يتولى قراءتها ويعرفكم
مضمونها . ولأجل أن الكاتب يدخل عليكم ويلايس مقامكم فلا يفتحها إلا بعد
إدخالها في خلٍ ثقيف وتُنشر فتبیس وحينئذ يقرأها ويعرفكم بمضمونها إذ
ليس يأتيكم من سوس ما يستوجب الكتان » .

ومما في هذه الرسالة مما يتعلق بالبيطرة وهي طب الحيوان قوله : « وأوصيكم

أعزَّكم الله أن تتفقّدوا فرسَنّا الأحمر الصغير ولا تتركوهم يُعطونه القَصِيل لئلاَّ
يكثُر لَحْمُهُ ويزادَ أَلْمُهُ ، بل انظر من يركبُه كل يوم ، بل لا يُنزع السَرَجُ
بالكلّية عن ظهره بياضَ النهار كله وأعطوه لصاحب روض المَسَرَّة يركبُه في
ذهابه وإيابه للمَسَرَّة أو لداره وأوصوه أن لا يركبه غيرُه . »

وأما الهيئة فقد كان لها فضل انتشار أيضاً ، لمِكانِ الحاجة اليها في معرفة
أوقات الصلاة والامساك والافطار في الصوم وغير ذلك ، وقد أُلِّفَتْ فيها وحدها
ومع الحساب كتب عديدة . ومن علمائها المشهورين : البُوعَقِيلِي والمرغِيثِي
وغيرهما .

وفي غير ما ذكر نقول أنهم ذكروا في ترجمة المنصور كدليل على نبوغه وعبقريته
أنه قرأ كتابَ أَقْلِيدَس الهندسي وفكَّ جداوله بنفسه من غير استعانة على ذلك
بأحد لفقد « من يُحسِنُ ذلك الشأن في عصره » . وهذا لا يتوافق مع ما عُرِفَ عن
هذا العصر من استبحار العمران وكثرة البنيان وشيوع فنون الزخرفة من النقش
والتزييق وغير ذلك مما لولاه لما أمكن بناءُ قصر البديع العديم النظير وغيره من
الحصون المنيعة والقناطر الرفيعة التي تحتاج في وضع تصميماتها وبنائها الى جهود
الجبايرة ، وعقول الجهابذة من رجال الفن والهندسة المعمارية .

وفعلا فأننا نرى أنه كان هناك رجالٌ ممن يُحسِنون « ذلك الشأن » أو على
الأقل ممن شارك فيه نظرياً مثل ابن القاضي الذي أَلَفَ كتاب المدخل الى الهندسة ،
وأبي القاسم الغُول الذي أَلَفَ كتاب كيفية قَسَمِ المياه على قواديس الديار . ولا بد
ان يكون هناك آخرون لم نعرفهم وعنهم اخذ هذان وغيرهما ، فبإضافة هؤلاء الى
الرجال العمليين الذين كانوا موجودين بكثرة يتّضح ما في قولهم لفقد من يحسن ذلك
الشأن في عصره ، من المبالغة . إنما الواقع أن الاشتغال بهذه العلوم كان نِسْبِيّاً
وبمقدارٍ مع طغيان الاقبال على العمل دون النظر ، والأول وإن كان هو الأجدى
والأنفع إلا أن الثاني له خَطَرُهُ ومَزِيَّتُهُ في حفظ الذمّاء العلمي وصون
التراث الفني .

ولا نظنُّ الكلام على الآثار الفنية الرائعة التي تخلّفت عن هذا العهد وأخصّها قصر
البديع بمراكش وما توحى به من رسوخِ قَدَمِ الصانع المغربي في فنون المِعمار وعمل

المُقرَّبَات والزَّليج والنقش على الجِصِّ والخشب والتلوين والتذهيب وما إلى ذلك - إلا من الكلام المُعاد ، لا سيما وهذه مقابرُ السعديين بمراكش ما زالت ماثلةً البَيان تغني مشاهدتها عن كل بيان . أما قصرُ البديع فقد نُقِصَ مع الأسف الشديد ، ولم تبقَ إلا أوصافه المِعْجَبَةُ المَطْرِبَةُ مُسَجَّلَةٌ في الأشعار البليغة التي قيلت فيه ، و كُتِبَ على جدرانِه ، ويتضمن قسمُ المنظوم من هذا الكتاب جملةً صالحةً منها . . لكن الذي ينبغي تسجيلُه في الكلام على الحياة الفنيَّة في هذا العصر هو النهضة الموسيقيَّة التي تتمثَّل في المحافظة على الطرب الأندلسي بجميع ألحانه ونغماته . وقِطْعُه وأدواته ، ثم تجديده وتكميله بما هو منه بسبيل كإضافة بعض الآلات وتوليد بعض الطُّبُوع ، ومن ذلك طبع الإستهلال الذي استنبطه الحاج علي البَطْلَة ، من أهل فاس ، على عهد السلطان عبد الله الغالب بن محمد الشيخ الملهدي وهو خارجٌ عن شجرة النشْغَات الأصول والطُّبُوع المتفرَّعة عنها ، التي وضعها الموسيقيون لذلك . ولكنَّ الغالب عليه أن يكون فرعاً من الدَّيْل كما في كتاب الحايك الموسيقار المشهور . وإلى هذا فإن ضروباً من الزَّينة في اللباس والفراش والأثاث على العموم قد ابتكرت في هذا العصر ، مما يدل على ذوق فني رفيع . ونذكر على سبيل المثال من ذلك المنصوريَّة التي يُقال إن المنصور الذهبي أول من لبسها ، وكذلك الحائطي ، ويُطلق على السُّتُور المزخرفة التي تُزيَّن بها جدرانُ البيوت وقاعاتُ الجلوس . وللشعراء فيه أوصاف جميلة . ومن الجدير بالذكر أن المرأة كان لها يدٌ طويلة في هذا الصدد ، فقد سجَّل المؤرِّخون أن العريفة بنت خُجَّو - وأسرة خُجَّو أسرةٌ معروفة بالعلم والفضل - هي التي هدَّبت حواشي مُلْك السعديين وخاصةً في داخل قصورهم وحالاتهم في الطعام واللباس وعاداتهم مع النساء وما إلى ذلك ، إذ كان قيامهم أولاً من البادية ، فلم يكونوا يَتَقَيَّدون بأداب الحضارة وسيَر أهلها . . وعلى ذكر المرأة لا ينبغي أن ننهي الكلام في هذا الفصل حتى نُشيرَ إلى ظاهرةٍ حريَّةٍ بالتسجيل في ميدان النشاط النسوي المغربي ألا وهي مساهمة المرأة في الحكم والسياسة وأخيراً أيتام بني وطَّاس وأولَّ عهد السعديين ، إذ شاهد الناس لأول مرةٍ على دَسْت الحكم في مدينة تطوان السيِّدة عائشة بنت علي بن راشد ، وهي سيِّدةٌ من بيت شريف ؛ فإن والدها السيِّد علي بن راشد كان شخصيَّةً لامعةً في الجهاد ، وتراءَس بناحية عُمارَة واختطَّ مدينة شفشاون بقصد تحصين تلك الناحية من نصارى سبتة . وكانت ابنته هذه التي اشتهرت بالحُرَّة ذات ذكاء ودهاء ومعرفةٍ وسياسة ، تزوجت

بالسيد المنظري الصغير حاكم مدينة تطوان وحفيد القائد أبي الحسن المنظري الكبير
 مجدد بنائها وحاكمها الأول . فلما توفي زوجها تولت هي حكم المدينة وضبطتها
 أحسن ضبط ، ثم تزوجها السلطان أحمد الوطاسي وبنى بها في تطوان في شهر
 ربيع الأول سنة ٩٤٨ . ونجحت في السفارة السيدة سحابة الرحمانية والدة
 عبد الملك المعتصم بطل معركة وادي المخازن ؛ فانها كانت أول من أبلغ بشارة فتح
 تونس الى السلطان العثماني بالقسطنطينية وطلبت منه كمكافأة لها على ذلك مساعدة
 ابنها بجيش الجزائر على استعادة ملك والده ، فأجاب طلبها ، الأمر الذي لم ينجح
 فيه عبد الملك نفسه من قبل . وفي الميدان الحربي أثبتت السيدة مريم أخت عبد الملك
 هذا كفاءتها في قيادة ثلاثة آلاف جندي من الرماة تركهم أخوها بمعيتها في قصبة
 مراکش فامتعت بها على ابن أخيها محمد أثناء انتزاع ملك والدهما منه . ولم يكن
 نبوغ المرأة المغربية في هذا العصر قاصراً على الناحية السياسية والحربية ، فقد
 اشتهرت في ميدان العمل الاجتماعي السيدة مسعودة الوزكيتية والدة المنصور الذهبي ،
 ومن منشأتها الخالدة بمراكش المسجد الجامع بباب دكالة منها وجسر وادي أم
 الربيع وغير ذلك من أعمال البر والإحسان الكثيرة . واشتهرت بالعلم والتقوى
 والصلاح السيدة عائشة بنت أحمد بن عبد الله بن عمران والدة ابن عسكر المؤرخ
 السياسي المعروف . وكان لها في المجتمع المغربي مقام محترم جداً . على أن النساء من
 هذه الطبقة كثيرات في هذا العصر فلا نطيل بذكرهن .

الهيئة العلمية وأثرها

نذكر هنا على جاري العادة ملخص تراجم المشاهير من علماء هذا العصر ،
ونتبعها ببيان أسماء الكتب التي ألقت فيه في مختلف ضروب المعرفة ، تنميماً
للفائدة وإحاطة بالموضوع من جميع جوانبه .

سُقَيْن

هو أبو محمد سُقَيْنُ السُّقْيَانِي العاصمي القَصْرِي أحد مشاهير رجال الحديث
بالمغرب ، روى عن الشيخ زُرْثُوق وابن غَزَازِي وأبي الفَرَج الطَّنْجِي وأبي مَهْدِي
الموسَاوي وغيرهم . ورحل إلى المشرق سنة ٩٠٩ هـ فحجَّ وسمعَ بِمصرَ من أصحاب ابن
حَجَرٍ كَالْقَلْبَشَنْدِي وغيره ، فحصلت له روايةٌ واسعة لم يحصلها غيره ممن كان في
وقته ، ثم آبَ إلى السُّودَان ودخل كَنُو وغيرها فعضَّه أهلُها واكبثوا على الأخذ
عنه . وبقيَ يتجولُ مدةً ، ثم رجعَ لِفَاسَ سنة ٩٢٤ هـ فتولى الخطابة بجامع الأندلس
والفتوى وأقبل على قراءة الحديث ، حتى توفي سنة ٩٥٦ هـ وكان قد خرج لضريح مولاي
بو سَلْهَام فجلس ذاتَ يوم على شاطئ البحر يقرأ دلائلَ الحِجرات فخرجت فيه
إحدى سفن الأفرنج ، فقاتل حتى قُتِلَ شهيداً مبروراً رحمه الله .

وقد قيَّد بخطه كثيراً من فوائد الحديث وجمع كثيراً من الكتب ، وكان مُشاركاً
في الطب أقرأه أَلْفِيَّة ابن سينا وعنه أخذها الناسُ .

القَصَّار

هو أبو عبد الله محمد بن قاسم القَيْنسي الفاسي عُرفَ بالقَصَّار الفقيه الحديث
النسابة ، ولد بفاس سنة ٩٣٨ هـ وأخذ بها عن مشائخٍ عدة . وبرَّز في الحديث فصار

إماماً فيه 'مقدّم' ما على غيره 'تضرب' أكبادُ الإبل للأخذ عنه والسمع منه . وكان نسبةً واعية ، عارفاً بتشعب الأنساب ومحل افتراقها واجتماعها حافظاً ثقةً عدلاً ضابطاً شديد الاتباع للسنة ، ظاهر الخشية والورع على قدم السلف الصالح . ولي الفتوى على عهد أبي العباس المنصور والخطابة والإمامة بمسجد القرويين . وسعى الحسنة في تأخيرهِ عن هذه الوظائف عند خليفة السلطان على فاس؛ فكتب السلطان من مراكش بتجديد عهد الولاية له قائلاً إننا لا نبدله بمن هو مثله فضلاً عما هو دونه .

وولي أيضاً نظارة أحباس الضعفاء والمساكين ، وكان لا يولاهما إلا ذور الدين المتين من العلماء العارفين بقسمة الأرزاق العادلين فيها مثل يحيى السراج الذي كان ناظرها قبل القصار .

وبقي القصار حاملاً راية العلم بفاس والمغرب ، ناهضاً بأعباء ما كلف به من الوظائف ، حتى اخترمته المنية في رمضان ١٠١٢ ؛ فانتقل الى الدار الآخرة بعد ان جدّد معالم الدين الدارسة ، وأحيى مراسم العلم الطامسة . وطار له صيت عظيم في بلاد المشرق والمغرب ، فحدث الشيخ عبد الواحد بن عاشر أنه لقي بمصر في رحلته الحجازية الشيخ عبد الله الدنوشري فسأله عن أشياخه فذكر منهم القصار فقال الدنوشري يمدحه :

قد حاك شقائق العلوم أيمّةً وكسّوا بها بالفضل من هو عار
رقت حواشيها وراق طرازها لكنّها تحتاج للقصار

وقد ضاع بفقده علم كثير ، لأنه لم يؤلف كتاباً قط ، ولم يختلف بعده أثراً يذكر ما عدا فهرسته وانهضه الكثيرة ومهوّداته التي بيعت وزنا بالأرطال .

أحمد الفاسي

هو أبو العباس أحمد بن يوسف الفهري الفاسي الحافظ الثقة ، ولد سنة ٩٤١ بالقصر الكبير وطلب الحديث بفاس فبرز فيه حتى كان يحفظ أحاديث الصحيحين

جميعها ، ويستحضر ما اتفقا عليه وما انفرد به أحدهما عن الآخر ، وما خالف في مثن أو سند ، تصحح نسخها من لفظه . وضم إلى ذلك المعرفة البليغة بالرجال والعِلل وكل ما هو من وظيفة المحدث . وبوصف ديانتها الكاملة أيضاً صح أن يُطلق عليه الحافظ الضابط الثقة .

وله تأليف منها شرح العُمدة لعبد الغني المقدسي في الأحكام ، وحاشية على شرح الصغرى للسنوسي في الكلام ، ورسالة في حكم الذكر جَهرةً وأخرى في حكم السماع ، وأخرى في وزن الأعمال وتكفير النيات وأخرى في أولاد المشركين ، وغير هذا وكانت وفاته عام ١٠٢١ هـ

السراج

هو أبو زكرياء يحيى بن محمد السراج الحِميري الفاسي ، حفيد يحيى السراج المحدث الكبير المتوفى في العصر السابق . كان هذا فقيهاً مقدماً فيه ، ولي الفتوى بفاس والامامة والخطابة بمسجد القرويين ، وولي أيضاً نظارة أحباس الضعفاء والمساكين ، فقام بها خير قيام ، وكان يُدرّس المدونة بمدرسة العطارين ويستحضر ما قيد عليها ، وله حاشية على مختصر خليل وفتاوى تشهد بمزيد فضله ، ولد بفاس سنة ٩٢١ وتوفي سنة ١٠٠٨ هـ .

ابن عاشر

هو أبو مالك عبد الواحد بن احمد بن علي بن عاشر الأنصاري الفاسي ، أحد القراء والفقهاء المشاهير ، ولد بفاس سنة ٩٩٠ وقرأ على الجليّة من علماء عصره ، وكان أستاذاً عارفاً بالقراءات وتوجيهها بالضبط والرسم وجميع ما هو من وظيفة المقرئ . فقيهاً مشاركاً في الأصلين والحديث والتفسير والتصوف والنحو والعروض والبيان والمنطق والطب والهيئة والحساب . على قدم السلف في الزهد

والورع والقيام بوظائف الدين حتى الغزو والرباط في سبيل الله، نزيهاً متواضعاً شديد الإنصاف يأخذ العلم عمن هو دونه ، ويتولى جميع أموره بنفسه .

له النظم المعروف بالمرشد الملعين على الضروري من علوم الدين ، جمع فيه بين العقائد والفقهيات والتصوف وهو من الكتب التعليمية النافعة . قال ابن الطيب القادري : « وسمعنا أنه ابتداء نظمته حين أحرم بالحج فنظم أفعال الحج مرتبةً بقوله :

وإن تُرِدْ تَرْتِيبَ حُجِّكَ اسْمَعَا بَيَانَهُ وَالذَّهْنَ مِنْكَ اسْتَجْمِعَا

ثم لما انفصل عن حجته كمل ما يتعلق بالقواعد الخمس من الضروري الذي لا يسعُ المكلف جهله » وله شرح مَوْرِدِ الظُّمَّانِ للخراز في الرسم ، ونظم في العمل بالرُّبُعِ المحيَّب وغير ذلك ، وتوفي رحمه الله عام ١٠٤٠ هـ .

مِيَّارُهُ

هو أبو عبدالله بن أحمد مِيَّارَةُ الفاسي من أعلام الفقه في هذا العصر ومشاهير المؤلفين فيه ، ولد ببُلْدِهِ فاس سنة ٩٩٩ واشتغل بطلب العلم ؛ فمهر وظهر وبرز في علم الفقه ، فكان راسخ القدم في الأحكام مستحضراً للنقول ذا كراً للنوازل ، عمدةً في ذلك . وما تزال كتبه من أهمِّ المراجع الفقهية وكتب الدراسة المختارة في هذا الباب . له شرح المرشد المعين على الضروري من علوم الدين كبير وصغير ، وشرح تحفة الحكماء وشرح لامية الزقاق ، وتكميل المنهج وشرحه ، كمل به المنهج المنتخب في قواعد المذهب للزقاق واختصر شرح الخطاب على مختصر خليل في ثلاثة مجلدات وسماه زُبْدَةَ الأوطاب في اختصار الخطاب وله أيضاً نصيحة المغترين في الرد على ذوي التفرقة بين المسلمين ، وهو تزييفٌ للنظرية العنصرية التي نبغ دعايتها في هذا العصر خاصةً بمدينة فاس . وأخذ عن ابن عاشر وأبي العباس المقرري وعبد الرحمن العارف وأبي الحسن البطيوي وغيرهم . وكانت وفاته سنة ١٠٧٢ هـ .

الصُّمَّاتِي

هو أبو عبد الله محمد بن أبي جُمُعَة الصُّمَّاتِي الهَبْنَطِي ، الأستاذ المقرئ ، صاحب تقييد وقف القرآن الذي جرى عليه عملُ أهل المغرب عموماً من كَلْدُن زمن واضعه الى الآن . توفي بفاس سنة ٩٣٠ هـ .

اليسيثي

هو أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عبد الرحمن الِيسِيثِي الفاسي ، الفقيه المتكلم النظار ، ولد سنة ٨٩٧ ونشأ حريصاً على طلب العلم مجتهداً فيه . أخذ بفاس عن مشاهير أعلامها ، ورحل الى المشرق سنة ٩٣٠ فأخذ عن أهل تلمسان وقسنطينة وتونس ومصر ومكة ، فاتسعت دائرة معارفه ، وكثر تحصيله . ثم رجع الى فاس فتولى بها الفتوى ، ودرّس الفقه والأصول والنحو والبيان والحديث والتفسير وكان زاهداً ورعاً متفانياً في النصح والارشاد ، وألف تأليف محرّرة ، منها رسالة في تصحيح قبلة فاس وأخرى في طهارة بَوَلِ المريض غير المتغير وأخرى في مسألة خُلْفِ الوعيد من الله تعالى وأخرى في مسألة الهيلة وأخرى في حقوق الملك والرعية وغير ذلك . وتوفي سنة ٩٥٩ هـ .

المنجور

هو أبو العباس أحمد بن علي بن عبد الله المنجور الفاسي ، علامة داهية متفنن . انفرد في عصره برياسة الفقه والأصول والكلام والمنطق والنحو والبيان والعروض والتاريخ ، وكان موسيقياً بارعاً ، وكان أحد الأبطال في لعب الشطرنج والنرد .

خدم العلم مدّة حياته فبرز في صناعة التدريس والتأليف وبذّ أقارانه بسلامة

الذوق وصفاء الذهن وصحة الفهم ، حتى كان يقال عنه إن فهمه لا يقبل الخطأ . وصار في الأخير رئيس الهيئة العلمية بالمغرب غير مُدافع . وكان أبو العباس المنصور يُحِلُّه ويكرمه ويحضه على التأليف كثيراً ، ويُعطيه العطايا السنوية ، فحدثنا الإفرائيُّ عنه أنه كان يقول : ما عهدنا بذل المئين إلا في أيام الأشراف السعديين ، وما عهدنا بذل الألوف إلا في أيام المنصور .

له في الكلام شرح مقاصد ابن زكري ، وفي الفقه شرح المنهج المنتخب للزقاق ، وفي النحو شرح الألفية وضعه بأمر المنصور وغير ذلك . ولد سنة ٩٢٦ وتوفي سنة ٩٩٥ هـ .

الهبطي

هو أبو محمد عبد الله بن محمد الهبطي الطنجي ، العالم العامل الناصح الخالص . قال في الدوحة : « كان رضي الله عنه آيةً من آيات الله تعالى في أرضه وعباده ، قائماً على قدم الجدِّ في الزهد واتباع السنة ، والانزواء عن الدنيا وتعليم العلم والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . لا يترك أحداً من أهله وبنيه وأصحابه يخرج عن التقشف وينقطع في الدنيا ولم يُرَ أحدٌ من الرجال والنساء بزاويته إلا أن يكون تالياً لكتاب الله أو ذاكراً لأسمائه ومتعلماً لمعرفة إلى أن لقي الله تعالى على ذلك . »

قال : « وكتبتُ من خط الشيخ أبي الحسن الأغزاوي المعروف بالحاج ، قال أبو زيد عبد الرحمن بن شريح أن الله تبارك وتعالى يبعثُ لهذه الأمة عند رأس كل مائة من يُجدِّدُ لها دينها الحديث ، ولا يبعد أن يكون منهم الشيخ سيدي أبو محمد الهبطي رضي الله عنه . » قال : « وقد قال هذا القول كثيرٌ من الأعلام ، وكان الشيخ أبو القاسم بن علي بن خجُّو يقول هو غزاليُّ هذا الزمن . ولقد منَّ الله به علينا وعلى المسلمين . » وناهيك بها شهادة من مثل ابن خجُّو . ثم قال :

« وكان أحرص الناس على تعليم الله ، ويأمرُ من يلقي بتعليم الأهل والأولاد والعبيد والخدم والإماء عملاً بقوله ﷺ « لأن يهدي الله على يدك رجلاً واحداً خيرٌ

ملك من حمر النعم . وكان كثيراً ما يحض على فهم مدلول الشهادة بل اتخذ ذلك هجيراً ، لما رأى من استيلاء الجهل على الخلق ، وألف في علم الهللة أجزاء كثيرة أكبرها جرماً وأكثرها فائدة كتاب الإشادة بمعرفة مدلول كلمة الشهادة ، وكانت سيرته الذكر والذكرى وبذل النصيحة لكافة الورى . »

وله أيضاً ألفية عامرة الأبيات بالنصح والارشاد ودمر البدع الشائعة في الوقت وما عليه متصوفة الزمان من المنكرات والمحظورات ، ونظم في العدة معروف وغير ذلك . وتوفي عام ٩٦٣ هـ .

ابن خجو

هو أبو القاسم بن علي بن محمد بن خجو الخلو في الحسائي ، الفقيه شيخ السنة وأحد العلماء الناصحين . درس بفاس على مشاهير العصر كالعلامة ابن غازي والشيخ زروق وأضراهما ، وكان صوفياً فاضلاً متورعاً سالكاً نهج الحق شديد الشكيمة على أهل البدع ، أمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر ، باذلاً في نصرة السنة غاية مجهوده لا يبالي من خالفه ، منصفاً عديم المثال في جدّه واجتهاده وعلمه وعمله .

له كتب غاية في التحرير والاتقان ، وكلها تدور على محور الإصلاح الديني والارشاد التعليمي والنصح الممحوض ، منها كتاب الغنيمة وكتاب ضياء النهار وكتاب النصائح وشرح نظم الهبطي في العدة وشرح نظم بيوع ابن جماعة للسنوسي وغير ذلك . وفي شرحه لنظم البيوع ذكر جملة من البدع الشائعة في عصره فاستغرق ما ينيف عن الأربعين صفحة في عدّها واستنكارها .

وكان السلطان محمد الشيخ السعدي ، لما صفا له ملك المغرب ودخل فاس بعث الى سائر أهل الفقه والعلم أن يحضروا عنده ، فكان من جملة من حضر أبو القاسم فأعجب به السلطان كثيراً وأجلّه وأكرمه ، ورغب اليه في الإقامة بفاس فاجاب طلبه وقال فيه : (ما رأيت أفضل منه علماً وصلاً) . وتوفي سنة ٩٥٦ هـ .

أحمد الصومي

أبو العباس أحمد بن أبي القاسم بن سالم بن عبد العزيز بن شعيب الشعي الهروي الزمّراني دفين الصومعة من بلاد تادلة ، الشيخ الصوفي الراسخ القدم في طريق القوم علماً وعملاً ، وصفه الحافظ أبو العباس المقرري وكان قد لقيه براكش فقال : « هو نفع الله بعلمه آية من آيات الله في المجاهدة لا يكاد يفتر عن ذلك أصلاً . استغرق نهاره . وليله في انواع الطاعات من صلاة وذكر وقراءة قرآن وإقراء علوم الحقيقة . شاهدته وكثير من تأليفه تقرأ بين يديه ، وشاهدته من كثرة حفظه لحكايات الصالحين عجباً ، يذكر بكل محل ما يناسبه ، وله ولوع باقتناء الكتب ، حتى لقد ترك يوم موته ما يقرب من ألف وثمانين مجلداً . وقد قصده الناس لزيارته من البلاد الشاسعة ورأيتُه يوم الجمعة بجامع الكتبيين والناس يزدحمون على تقبيل يده وطلب الدعاء منه ، حتى لا يخلص منهم إلا بعد جهد جهيد ، وكانت له زاوية بالصومعة يُطعم بها الطعام ، ثم سكن مراکش وترك بعض بنيهِ بالزاوية مُقتفياً سُنَّته » له مؤلفات عديدة أكثرها في التصوف كشرح الحِكَم في أربعة أسفار ومختصره ومختصر مُختصره ، وشرح المباحث الأصلية ، وشرح منازل السائرين للشيخ الامام الهروي ، وغير ذلك . قال المقرري لما استجزته رحمه الله أخرج لي ستين مجلداً كلُّها من تصنيفه . وتوفي ببلده الصومعة في سنة ١٠١٣ .

ابن القاضي

هو أبو العباس أحمد بن القاضي المكناسي ، نسبة إلى قبيلة مكناسة لا إلى مدينة مكناس ، الفاسي ولد عام ٩٦٠ وراوَل قراءة العلوم ببلده ، ثم رحل إلى المشرق فدرّس به على المشاهير ، ثم انقلب راجعاً إلى فاس فأُسره بعض قرصان الافرنج وفداه أبو العباس المنصور بمال جزيل .

وكان مُتضلِّعاً من علوم الفقه والحديث والعربية والتاريخ . وهو الغالب عليه ، بله الحساب والفرائض ، واستقضي بسلا رداً من الزمان ثم آب الى فاس فأكبَّ على التدريس ، وكان مشغولاً بنشر العلم وبثه فلم يزل كذلك حتى توفي عام ١٠٢٥ وخلف عدَّة كتب نفيسة خدَّم بها التاريخ المغربي خدمة تذكر أبداً الدهر فتشكر ، وهي المنتقى المقصور على محاسن أبي العباس المنصور ، وجذوة الاقتباس فيمن كان من الاعلام بفاس ودُرَّة الحجال في أسماء الرجال فيل به تاريخ ابن خلكان وغير هذه مما يأتي ذكره .

القُدومي

هو أبو العباس أحمد بن قاسم الغسَّاني الشهير بالقُدومي ، إمام العربية وشيخ الإقراء في عصره . كان عارفاً بالنحو معرفة تامة ، وعليه المدارُ فيه ، متحققاً بالقراءات وتوجيهها وبالضبط والرسم وجميع ما هو من وظيفة المقرئ ، وألف حاشية على شرح الألفية للمرادي وهي نفيسة للغاية . وكانت وفاته سنة ٩٩٢ هـ .

الزبَّاتي

هو أبو علي الحسن بن يوسف الزبَّاتي النحوي المقرئ ، ولد عام ٩٦٤ وطلب العلم بفاس فنبغ في علوم العربية والقراءات من نحو وتصريف ورسم القرآن وضبطه ، أخذ عن القُدومي وغيره وألف شرح الجمل للمجراد وحاشية شرح الضبط للتنسي وغير ذلك . وتوفي سنة ١٠٢٣ هـ .

البُعْثيلي

هو أبو زيد عبد الرحمن البُعْثيلي الجزولي ، العالم الفلكيُّ البارِع له تعقبات على المنجمين تدل على تضلُّعه بالفن وهو الذي أحدث الساعة الرخاميَّة بالجامع

الأعظم بتارُودانت . وله شرح روضة الأزهار وشرح اليسارة وغير ذلك . وتوفي سنة ١٠٠٦ قال أبو عبدالله ابن المبارك الأفاوي : « لم أتأسف على موت فقيهد تأسفي عليه ، لانقراض علوم الهيئة بموته ، ولم يخلف مثله فيها . »

أبو القاسم الوزير

هو أبو القاسم بن محمد بن ابراهيم الغسَّاني الفاسي المعروف بالوزير ، أحد مَهرة الأطباء في هذا العصر ، خَدم في أطباء الخاصّ عند أبي العباس المنصور وألّف كتباً منها شرح نظم ابن عزرون في الحمّيات ، وحديقة الأزهار في شرح ماهية العُشب والأزهار المعروف بمفردات الوزير وغير ذلك . ولد عام ٩٦٠ وكان حيّاً عام ٩٩٤ هـ .

الغول الفشتالي

هو أبو القاسم المعروف بالغول الفشتالي ، الفقيه القاضي المتطبب المشارك في كثير من التعاليم ، له رسالة في الطوّاعين ، ونظم جيد في الطب ، ورسالة في كيفية قسم المياه لقواديس الديار وغير ذلك . وتوفي عام ١٠٥٩ .

* * *

اسماءُ الكتب المؤلفة في هذا العصر

وإليك الآن بيانَ الكُتب المؤلفة في هذا العصر ، مُضافاً إليها ما ذكرناه في هذه التراجم لتتألف من الجميع قائمةُ المجموعة النفيسة التي ضُمّت من جديد الى المكتبة المغربية :

كتب الحديث والتفسير وتوابعها :

الثُّبَاب في تفسير الكتاب للحاج الشُّطَيْبِي المتوفى سنة ٩٦٠ ، حاشية على تفسير الزخشمري وغيره للمنصور الذهبي . الفتح النبيل في أسماء العَدَدِ في التنزيل لابن القاضي ، الدُّرُّ الأزهَر في مُناسَباتِ الآيات والسُّوَر لعبد الله بن طاهر الشريف المتوفى سنة ١٠٤٥ ، نظمُ اصطِلَاح الحديث له ، حاشية على تفسير الجلائن لعبد الرحمن العارف المتوفى سنة ١٠٤٦ ، تفسير الفاتحة له ، حاشية على البخاري له ، نظمُ 'نخبة الفكر' لابن حجر في الاصطلاح للعربي الفاسي المتوفى سنة ١٠٥٢ ، تفسير القرآن لعلي بن عبد الواحد الأنصاري السَّجَّامِسي المتوفى سنة ١٠٥٤ ، نظمُ اصطلاح الحديث له ، شرح ابن بَرِّي له ، إتقان الصَّنعة في قراءة السَّبعة لأحمد بن شعيب المتوفى سنة ١٠١٥ ، حاشية على شرح الضَّبْط للزِّيَّاتي ، شرح الخِرَّاز لابن عاشر .

كتب الفقه والتصوف وتوابعها :

شرح العُمدة في الأحكام ، لعبد الغني المَقْدِسي ، لأحمد الفاسي ، شرح الرأئية للشَّريشي في التصوف له ، رسالة في حكم الذكر جهره له ، رسالة في حكم السَّماع له ، رسالة في وزن الأعمال وتكفير النيات له ، رسالة في أولاد المشرِّكين له . شرح الرسالة المسمَّى بالإيضاح لأحمد بن علي الشُّتوكي المتوفى سنة ٩٦٥ ، المرشد المعين على الضروري من علوم الدين لابن عاشر ، حاشية على شرح التَّتَائِي الصغير على المختصر له ، 'زُبْدَةُ' الأوطاب في اختصار الخطَّاب لميارة ، شرح 'تحفة ابن عاصم' في الأحكام له ، شرح 'تحفة الزَّقَّاق' فيها له ، شرح المرشد المعين نسختان كبير وصغير له ، تنبيه المغترين على حرمة التَّفَرُّق بين المسلمين له ، حاشية على مختصر خليل للأبَّار المتوفى سنة ١٠٧١ ، الفتاوى له ، شرح 'تحفة ابن عاصم' لعلي بن عبد الواحد ، نظم أصول الفقه له ، حاشية على المختصر لعبد الرحمن العارف ، حاشية على المَحَلِّي في الأصول له ، حاشية على المختصر للسَّراج ، الفتاوى له ، حاشية على خليل للجنَّان المتوفى سنة ١٠٥٠ ، حاشية على خليل لأبي محمد التَّمَجْرُوتِي المتوفى سنة ٩٨٠ ، الرُّوض اليناع في فوائد النكاح وآداب المجامع له ، نيلُ الأمل فيما به جرى العمل لابن القاضي . تنبيه الصَّغير من الوِلْدان في الردِّ على زاعِم الفتوى آجَلِيَّات للكلَّالي المتوفى سنة ١٠٤٧ ، المسألة الإمليسيَّة في الأنكحة الإغريسيَّة له ، نظم أحكام العِدَّة

للّهبطي ، ألفية في النصائح الدينية له . شرح نظم العدة لابن خجّو ، شرح نظم بيوع ابن جماعة له ، كتاب الغنيمة له ، كتاب ضياء النهار له ، كتاب النصائح له ، كتاب اللائق لمعلم الوثائق لأحمد بن عرضون المتوفى سنة ٩٩٣ ، مقنع المحتاج في آداب الأزواج له ، اختصاره له ، كتاب في آداب الصحبة له ، نظم في أحكام الزكاة للعربي الفاسي ، شرح الرسالة لحسن بن داود الرّسموكي ، شرح التلقين له ، مدارج الراغب في شرح مختصر ابن الحاجب له ، شرح نظم بيوع ابن جماعة له ، كشف قناع الالتباس عن البِدَع الشائعة بفاس للعقيلي المتوفى سنة ١٠٧٦ ، سلاح أهل الإيمان في محاربة الشيطان للعُثماني المتوفى سنة ١٠٢٧ ، بداية السلوك الى بساط ملك الملوك له ، شرحه له ، تنبيه الغافل على مرتبة العامل له ، الانتباه في صدق عبودية العبد لمولاه له ، نظم الشهداء له . وصلة الزلفى في التقرب بآل المصطفى للشيخ أحمد وعلي المتوفى سنة ١٠٤٧ ، بذل المناصحة في فعل المصافحة . فلك السعادة في فضل الجهاد والشهادة للهادي السجلماسي المتوفى سنة ١٠٥٦ ، تصحيح البداية وتحقيق النهاية للصومعي المتوفى سنة ١٠١٣ ، الدرر في فضائل الأدعية له ، لباب اللثباب في معاملة الملك الوهاب ثلاث نسخ له ، بداية المرید نسختان له ، مصباح السالكين له ، مفتاح السعادة له ، نور المصباح له ، نتائج الأفكار له ، نصيحة الراغب له ، وسيلة الصديق له ، الزهرة العالية له ، شمس المواسم له ، حزب الوسيلة له ، حزب الفتح له ، شرح منازل السائرين له ، شرح الحكم العطائية ثلاث نسخ له ، شرح حزب البحر له ، شرح الشريشية له ، شرح المباحث الأصلية للحاج الشطيطي ، شرح المشيشية للتجيب المتوفى سنة ١٠٣٠ ، شرح المباحث الأصلية له ، شرح الشريشية له ، شرح المشيشية للزياتي .

كتب المنطق والكلام

الإشادة بمعرفة مدلول الشهادة للهبطي ، مرآة المعتمد في مقاصد المعتقدين للعربي الفاسي ، الطالع المشرق من أفق المنطق له ، تلقيح الأذهان بتنقيح البرهان له ، العقيدة الكبرى لعبد الله بن طاهر الشريف ، العقيدة الصغرى له ، شرح مقاصد ابن زكري في التوحيد للمنجور ، حاشية على شرح كبرى السنوسي في التوحيد له ، شرح المقاصد لعبد الواحد الفلالي المتوفى سنة ١٠٠٣ ، شرح الكبرى

للحَفْصِي المتوفى سنة ١٠٣٧ ، شرح صغرى السنوسي في التوحيد له ، نظم في المنطق له ، حاشية على الصغرى لأحمد بن علي الشريف العلمي المتوفى سنة ١٠٢٧ حاشية على الصغرى للزياتي ، شرح صغرى الصغرى للسنوسي في التوحيد للسكّيتاني المتوفى سنة ١٠٦٢ ، حاشية على شرح الصغرى له ، حاشية على شرح الصغرى لعبد الرحمن العارف ، حاشية على مختصر السنوسي في المنطق لعلي الياصلوتي المتوفى سنة ١٠٣٩ .

كتب النحو والتصريف والبيان وما إليها

حاشية على مُطَوَّل السعد في علوم البلاغة لعلي الياصلوتي ، مراقبي المجد في آيات السعد للمنجور ، شرح ألفية ابن مالك له ، حاشية على شرح المرادي للألفية لعبد الواحد الفلالي ، إعراب أوائل الأحزاب لداود بن محمد السملالي ، نظم في تصريف الأفعال لحسن بن داود الرّسموكي ، حاشية على شرح المرادي للقُدّومي ، حاشية على شرح المكودي للألفية لمَجْبَر المتوفى سنة ٩٨٥ ، شرح لامية ابن مالك للمكلاقي المتوفى سنة ١٠٤١ ، شرح جمل المجرّاد للزياتي ، حاشية على شرح المكلاقي له ، حاشية على شرح الألفية للمكودي له ، حاشية على شرح الشريف على الأجرومية له ، شرح النصف الأول من توضيح ابن هشام له ، شرح الجمل للرّسموكي المتوفى سنة ١٠٤٩ ، حاشية على المكودي له ، شرح الأجرومية لعلي بن عبد الواحد ، نظم في التصريف له ، شرح الألفية لقاسم ابن القاضي المتوفى سنة ١٠٢٢ ، شرح تصريف المكودي له ، حاشية على شرح الشريف له ، نظم الأجرومية للعربي الفاسي ، شرح نظم الضّرير المراكشي في البيان لإبراهيم ابن محمد التّمَنّارتي .

كتب التراجم والتاريخ والرحلات :

كتاب الجُمان في تاريخ الزّمان للحاج الشّطّيبي ، دُوحة الناشر لمحاسن من كان بالمغرب من أهل القرن العاشر لابن عسكر المتوفى سنة ٩٨٦ ، مناهل الصّفا في تاريخ دولة الشّرفا لعبد العزيز الفشتالي ، الممدود والمقصود من سنا أبي العباس المنصور لمحمد بن عيسى المتوفى سنة ٩٩٠ ، نظم وفيات ابن قسّغند لمحمد بن علي الفشتالي ، ذيل نظم الوفيات للمكلاقي ، المنتقى المقصور على مآثر أبي العباس

المنصور لابن القاضي ، 'درة الحجال في أسماء الرجال له ، جذوة الاقتباس فيمن حل من الأعلام بفاس له ، 'غنية الرأئض في طبقات أهل الحساب والفرائض له ، 'درة السلوك فيمن حوى الملك من الملوك له ، لقط الفرائد من حقائق الفوائد له ، الإلبام ببعض من لقيته من علماء الاسلام لعبد الواحد الفلالي ، الفوائد الجمة في إسناده علوم الأمة لعبد الرحمن التمنارقي المتوفى سنة ١٠٧٠ ، التعريف برجال البخاري لعلي بن عبد الواحد ، نظم السيرة له ، المعزى في أخبار أبي يعزى للصومعي ، مرآة المحاسن للعربي بن الفاسي وهي ترجمة والده ، أنوار الزمان بقدم مولانا زيدان لقاسم ابن القاضي ، النفحة المسكية في الرحلة التركية لأبي الحسن التمجروقي المتوفى سنة ١٠٠٣ .

كتب الأدب والشعر :

شرح لامية العجم للماغوسي ، مقدمة لديوان المتنبي مع ترتيبه على حروف الهجاء له ، مدد جيش التوشيح لعبد العزيز الفشتالي ، مقدمة لديوان المتنبي له ، شرح مقصورة المكثودي له ، شرحها أيضاً لعبد الواحد الفلالي ، ديوان خطب لعلي بن عبد الواحد ، ديوان شعر لعبد الرحمن التمنارقي ، ديوان شعر لعبدالله ابن طاهر الشريف ، شرح ديوان المتنبي للنايعة الهوزالي .

كتب الطب والهيئة والحساب وما الى ذلك :

حديقة الأزهار في شرح ماهية العشب والأزهار لأبي القاسم الوزير ، نظم ابن عزرون في الحميات له ، أرجوزة في الطب للغول الفشتالي ، رسالة في الطواعين له ، رسالة كيفية قسمة المياه لقواديس الديار له ، نظم في الطب لعلي بن عبد الواحد ، نظم العمل بالربع المجيب لابن عاشر ، تصحيح قبلة فاس لليسيثي ، شرح روضة الأزهار للبغقيلي ، شرح اليسارة له ، البرق الواض في الحساب والفرائض لقاسم ابن القاضي ، شرح سلك الآلي في المخمس الخالي له ، محاذي على قصيدة ابن ليون في التكبيس له ، محاذي على الروضة له ، شرح جداول الحوفي لابن القاضي ، شرح الروضة لأحمد معنيوب ، المقنع لابن سعيد المرغيشي المتوفى سنة ١٠٨٩ ، شرحان عليه كبير وصغير له ، اليواقيت في الحساب والفرائض

والمواقيت للعقيلي ، شرح المنية له ، شرح الروضة له ، المقرّب في الربع المجيب
لاحمد بن حميدة المطرفي المتوفى سنة ١٠٠١ ، شرح الروضة له ، كتاب في الكيمياء
للحاج الشطّبي ، كتاب في السياسة للمنصور الذهبي .

الحياة الأدبية

كانت الحركة الأدبية في عهد بني وطّاس قد وقفت وقوفاً كلياً إذ لم تجد
مضطرباً في ذلك الجو المضطرب بأعاصير الفتن والحروب . فلما قامت الدولة
السعدية واستتب الأمن والراحة بدأ الأمل يتجدد في نهضة الأدب وانتعاش روحه
من جديد ، لا سيما وقد ظهر من تنشيط الملوك السعديين له وأخذهم بضبعه ما
قوى ذلك الأمل ، وبالفعل فما جاءت أيام المنصور الذهبي حتى عاد لدولة الأدب
سالف مجدها وسابق عزّها ، فصيرنا نرى أفواج الشعراء تموج في بلاط ذلك
السلطان وبلغاء الكتاب يغص بهم ديوانه ، وعُدنا نشهد مُساجلة السلطان
لأهل مجلسه ومطارحته أيّام اللطائف الأدبية .

وانك لتعدّ من نوابغ أدباء هذا العصر الذين زانوا طلعتّه ، وطرّزوا حلّته ،
ولا تعدّهم لأنهم كثير . لكن قيّدومهم على الإطلاق وزعيمهم باتفاق هو فخر
الدولة السعدية وذخرها إمام النظم والنثر ، عبد العزيز الفشتالي الذي كان المنصور
يقول في شأنه : « نفتخر به على ملوك الأرض ، ونباري لسان الدين بن الخطيب . »
وفي الحقيقة إنه من حسنات هذا العصر ، ومن أفضل أدباء المغرب الذين برّزوا في
الصناعتين ، وكان متولياً في دولة المنصور رئاسة ديوان الإنشاء ، فكان الكل
يعترف برياسته ويقرّ بفضله .

وهناك أديب فشتالي آخر هو الوزير ابن علي . وكان كاتباً شاعراً ايضاً . ومن
الأدباء ايضاً النابغة الهوزالي الذي كان يُعتبر بحقّ شاعر الدولة ، وهو متنبّي
التزعة ، فخم الألفاظ ، جزل المعاني ؛ إلا أن آثاره ضاعت ولم يصل إلينا منها
غير النزر اليسير .

أما غير هؤلاء فهم ممن يُمثلون المدرسة الأندلسية في رقّة الشعر وسلاسته وانطباعه ، وناهيك بأبي الحسن الشامي والقاضي الشاطبي والوزير الشيعي من ثالث شعري جميل .

وهناك طائفة من الشعراء كانت تبرزُ الجِدَّ بالهزل ، وتنفخُ في الفنّ روحَ الفكاهة ، مستقيلةً بهذا المذهب ، تجيئُ فيه وتذهب ، وكان المنصورُ يُعجبه ذلك منها ويثيبها عليه كثيراً ، وقد انفرد عصرُه بهذا اللون من الأدب أو كادَ إلاّ أنه لم يتمكن من القوة والظهور ، لأن وفاة المنصور قضت عليه في مهده . ومن أفراد هذه الطائفة ابن عمرو الشاوي ورابحُ بن عبد الصمد ، وأبو اسحاق الزرّويّلي ، ولسنا في حاجة إلى ذكر العلماء والقضاة والرؤساء الذين كانوا يتعاطون الأدب ويطلعون بين آونة وأخرى على الجمهور بنتائج أفكارهم ، خصوصاً في الأعياد والمواسم والحفلات العديدة التي كان المنصور يُقيمها لغير مناسبة ، ولها ، فان هؤلاء أكثرُ من أن يُخصّوا . بله الأدباء غير المغاربة ممّن أووا إلى حرّم المنصور ، وتفسيّوا ظلّه من شاسع البلدان ، ونازح الأقطار ، إذ كان يرفع أقدارهم وينزلهم منازلهم . وفي مقدمة هؤلاء أبو العباس المقرّي صاحبُ نفع الطيب .

ولقد انتظم في مجلسه يوماً وفدٌ عمّدت ثلاثة أشخاص مكّي ومدني ومقدسي ؛ فقام المكّي وقال يا أمير المؤمنين إن المساجد الثلاثة التي تشدُّ إليها الرّحال قد شدَّ أهلها اليك الرّحلة وأنشد :

إِنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَحْمَدُ بَحْرُ النَّدى وَفَضْلُهُ لَا يُجَدُّ
فَطَيْبَةُ وَمَكَّةُ أَهْلُهَا وَالْمَسْجِدُ الْأَقْصَى بَذاكَ تَشْهَدُ

ثم قال : نصرّك الله إنه لم يتفق مثلُ هذا لملك قصّدت إياثه ، قال المقرّي وهو راوي الحكاية ، فتبسّم لذلك أيده الله وأجزل لهم في العطاء وإجراء النفقة عليهم كما هو دأبه بكل وافدٍ عليه من أي بلد كان .

على أن المنصور نفسه حريّ بأن يُعدّ في شعراء هذا العصر ، فهو من ملوك

المغرب كابن المَعْتَز في ملوك المشرق كما تقدم ، وقد كان كَلِيفاً مِثْلَهُ بالبديع من جناس وتوريئة وتفريع ؛ وفيما ثَبَتَ من آثاره بقسم المنتخبات دلائلُ ناطقةٌ بطول باعه وقوة عارضته . ومِثْلُهُ ولدُهُ زِيدَانُ وابْنَا أخويه محمد المَتَوَكِّلُ بن عبد الله الغالب ، والأمير محمد بن عبد القادر بن محمد الشيخ المَهْدِي في البراعة الأدبية ونظم الشعر البليغ ، وسَنُورِدُ لكل منهم بعض الآثار في محلِّها ، وإذا كان لنا أن نستخلص من هذا الواقع التاريخي بعض الحقائق فهي أن الحياة الأدبية تتأثر بالحياة السياسية إلى أبعد حدٍّ ؛ ذلك أنَّه لما تدهورت سياسة البلاد في آخر عصر المرينيين وعلى عهد الوطاسيين كان الأدب يُعاني حالةً من الرُّكُود كادَ لا يبقى له معها وجود ، ثم لما أذنَ الله بانبعاثِ القوَّات الشعبيَّة وزحفِها لتداركِ الحالة تحت قيادة الأشراف السعديين دبَّت الحياة في النفوس ، وانتعشت الأحوال فهبَّ الأدب من مَرَقَدِهِ ، وكان تشجيعُ رجال الدولة لأهله مُعِيناً على نمُوِّه وازدهاره .

وقد أعطيناك هذه الصورة المُصَغَّرَةَ عن الحياة الأدبية في هذا العصر ، ولعلَّكَ تتشوفُ إلى تراجُم بعض الأدباء سالفِي الذِكر ، فدونك ما يقتضيه المقام ، من ذلك .

عَبْدُ الْعَزِيزِ الْفَشْتَالِي

هو الوزير صاحبُ القلمِ الأعلى ، أبو فارس عبد العزيز بن محمد الفشتالي الفاسي ، وُلِدَ سنة ٩٥٢ ودرس بفاس على العلامة المنجور ، وأبي العباس الزمُّوري والقاضي المَحِيدِي وعبد الواحد الشريف وغيرهم ، وبرع في فنون الأدب والتاريخ والسياسة ؛ فَعَلَتْ رُبَّتُهُ عند المنصور وزهت به دولته ، حتى قال المنصور عنه كلمته السابقة . وقال صاحبُ سُلَاقَةِ العصر في حقه : « كاتب المنصور ، ورَّيبُ تلك الدولة المُشِيدَةِ القُصُور ، وخادِمُ سَنَاهَا الممدُود والمقصُور . المعترفُ لسانُ البراعة عن حصر مناقبه بالقُصُور . فاضلُ زَهَتْ به الأقلامُ والأعلام ، وأقرَّتْ بفضلِه العلماءُ الأعلام وخضعتُ لأدبه سِماسرةُ الكلام . وأضياءتُ بأنوارِ بلاغتهِ حنادِسُ الظلام . فهو إذا نَشَرَ أَفْحَمَ الوَرَقَاءَ ذاتِ السَّجْع ، وإذا نظمَ أَخْجَلَتْ أَفكارُهُ دَراريَ السَّما ذاتِ الرَّجْع ؛ فجاء بما شاء وكيفما شاء ، من محاسن الأشعار والإنشاء . » الخ ، أما

منزلته في الكتابة فانه طبقته عصره غير مدافع ، وأما في الشعر فانه متميز السبك محكم الرصف ، ناصع الألفاظ حسن التصرف في جميع فنون الشعر ، لا سيما الوصف الذي أجاده وتقدم فيه بشاهد قصائده العديدة التي قالها في قصر البديع الذي بناه المنصور بمراكش فنقشت على جدرانها وسقوفها ، وطُرزت بها قرشها وأروقته مما يأتي طرف منه في قسم المنظوم ، وله تصانيف منها مباحل الصفا في تاريخ دولة الشرفاء ، أي السعديين ، مشتمل على تاريخ هذه الدولة منذ نشأتها الى وقته ، وعلى نبذة من محاسن المنصور في عدة مجلدات . ومنها مدد الجيش ، ذيل به جيش التوشيح لابن الخطيب ، قال في النفح : (استمله بقوله « الحمد لله الذي أمد جيش محمد بعثرته ») وأتى فيه بكثير من مؤشرات أهل العصر من المغاربة وضمنه من كلام أمير المؤمنين المنصور ما زاده حسناً ورونقاً ، ومنها مقدمة في ترتيب ديوان المتنبي على أحروف المعجم ، ومنها شرح مقصورة المكودي ، وبالجملة فهو من مفاخر هذه الدولة كما قال المنصور عنه ، وكانت وفاته سنة ١٠٣٢ .

النايفة الهوزالي

أبو عبدالله محمد بن علي الهوزالي شاعر الدولة الرسمي ، كان شديد الاتصال بالمنصور والقرب منه يقوم عنده في الاحتفالات الرسمية والمواسم والأعياد يُنشدُه ويُعجب هو بشعره كثيراً ، ويصله ويخلف عليه .

وكان قوي المراس على المعاني الشعرية فختم الألفاظ نابه المعاني ، جيند النظم رائع الأسلوب ، متضلعا من اللغة والأدب ، بصيراً بمواقع الكلم ، متصرفاً في ضروب المدح أحسن التصرف ، ووصفه الشيخ عبد الواحد الشريف فقال : « الفقيه المتفطن ذو الفهم القويم والادراك المستقيم ، قائد العويصات يتوابعها ومستنزل عصم القوافي من صياصياها ، شعله الذكاء الذي يزرى سناه بنور ذكاء » وقد علمت أنه كان يلقب بالنايفة ولا ندرني ما اذا كان مرادهم بذلك الموصف أو التشبيه ، وله شرح على ديوان المتنبي ، وكان يلي قضاء المدينة المحمدية أعني تارودانت . وتوفي بمراكش في شعبان سنة ١٠١٢ .

ابن عيسى

هو أبو عبدالله محمد بن أحمد بن عيسى الصنهاجي ، كاتب سر المنصور ، وأحد أعيان أدباء دولته ، له تطلع بعلوم العربية ومعرفة كبيرة بالتواريخ وأيام الناس وسير الملوك ، وقلمه في الكتابة بارع ، وعارضته في الترسل قوية وله شعر قليل ، وألف كتاب الممدود والمقصود من سنا أبي العباس المنصور ، قال المقرئ : وهذه التسمية وخدما مطربة . توفي في سجن كندومه بفاس سنة ٩٩٠ .

ابن علي الفشتالي

أبو عبدالله محمد بن علي بن ابراهيم الفشتالي ، أحد وزراء المنصور ، ومن صدور الأدباء في عصره ، كان كاتباً مجوداً ماهراً في الصناعة ، شاعراً بارعاً متقناً في ضروب النظم . قال صاحب الرئحانة في حقه : « وزير مولاي أحمد ، أديب فاس ورئحانة فضلائها الاكياس . تقدم فيها متقلداً قلادة إنشائها ، فائقاً برسائله على سائر أدباؤها ، وله ماء شعر تشربته أفواه الأسماع ، ورياض منشور تغرد حماماً قوافيه بمطرب الأسجاع » .

من مآثره الأدبية اللامية التي نظم فيها ما تضمنه تأليف ابن قنفذ في وفيات الأعيان من زمن البعثة الى تمام المائة الثامنة ، وزاد عليه الى تمام الف سنة رامزاً الى التواريخ بنقط الحروف الایحديّة على ما شاع عند أدباء العصور المتأخرة ، وقد ذيل على هذه القصيدة الأديب المكلاقي وأشار الى وفاة المترجم بقوله :

« شكى » الدر فقد ناظم وبكى له بكاء محب بان عن مترحل

وذلك في سنة ١٠٢١ .

أبو الحسن الشامي

هو أبو الحسن علي بن أحمد الخزرجي الشامي ، به شهرَ قومه لأنَّ من الشام كان قدومُ سلفهم ، وهم من بُيوتات فاس ، وكان لهم مع أبي العباس المنصور مُصاهرة ، وكان أبو الحسن هذا أحد شعراء دولته والمُقرَّبين منه ، وهو شاعر مِفَنّ كَلِفَ بادخال البذيع والمُحَسِّنات اللفظية في شعره ؛ لكن حيث لا يظهر عليها أثرُ التكلُّف والصنعة ، يُحكِّمُ الوصفَ ويُجَيِّده وأبدعُ من وصفه غنَزَلَهُ الذي يستثيرُ عاطفةَ الحب من مكامنها في القلوب .

له لطائف أدبية نظماً ونثراً سنأتي على ذكرها في محلها ، ومن وصفه عند ابن معصوم : « أديب له في الأدب مذهب ، طرازه بحسن البلاغة مُذهب ، وشعره ألطفُ من دَلِّ الحبيب ، وأسحرُ من مُقلّة الشادِن الرّبيب ؛ يتصور فيه ولا يتكلّف ، ويتقدم ولا يتخلّف ؛ فهو اذا تغزّل أهدى نَفَحَاتِ نَجْد ، واذا تذكّر أوردى لَفَحَاتِ شوق ووجد ، على أن عليه من الجزالة ديباجة ، تفوقُ عبقرى الوَشي وديباجة ، ولا يَشِينُهُ من الكلام حوشيه ولا يُلِمُّ بساحة أنسيه وحشيه » . توفي سنة ١٠٣٢ .

ابن عمرو الشاوي

أبو عبدالله محمد بن عمرو بن أبي القاسم الشاوي . قال الشيخ عبد الواحد الشريف في وصفه : « الفقيه الأديب الكاتب الذي ارتفع صيته في مقامات الأخلاق وسماً ، وغدا بين النُظراء في عُذوبة الشائل علماً . وحصلَ من الأدب اليانع على حظٍ وافر ونصيب ، ورمى الى غرض الإجادة في منازعه بالسهم المُصيب ، وتدرّع من حسن الخلقُ جَبّة لا تُلقيها رياحُ الانزعاج والغضب ؛ فنَسَلَت القلوبُ الى محبته من كلِّ حدب ، فلأن ، ابقاه الله تُضربُ به في لين العريكة الأمثال ، وتتهاداه لفضائله وفواضله الملوك والأقيال ، وأناله من الخيز الجزيل كلَّ مَنال . »

ويظهر من هذا ، ومن بعض نواذره مع المنصور أنه كان ظريفاً خفيف الروح
'حلوا الحديث' ، فلم 'تعد' به طوره حين 'عددتاه' في شعراء الفسكاهة ، بل إن 'منزعه'
هذا في شعره شديد الوضوح ، بحيث لا يحتاج الى من 'ينبسه' عليه ، وهو مع ذلك
فصيح' العبارة لطيف الاشارة ، لا يتكلف ولا يتعمق ، فيكاد يكون كلامه 'مرآة'
تتمثل فيها سهولة 'خلق'ه التي يتحدث عنها الشيخ عبد الواحد الشريف . وقد
اثبتنا في المنتخبات نبذة من آثاره كغيره من أدباء هذا العصر ..

عصر العلويين

الدولة الشريفة

انتشر عقد الدولة السعدية وتقلص ظلها من المغرب ، إثر اشتداد النزاع وشبوب الحرب بين أولاد المنصور الذهبي في طلب العرش والفوز بصولجان الملك . وكان قد أمر الدلائيين أهل الزاوية التي أسسها الشيخ أبو بكر الدلائي ؛ فاشتهرت بإيواء الطلبة ونشر العلم وإحياء رسوم الدين زيادةً على بذل الطعام للصادر والوارد واعانة المحتاجين واغاثة الملهوفين ؛ فاغتنم رئيسها في هذه الاثناء الشيخ محمد الحاج الدلائي حفيد الشيخ أبي بكر المذكور ، فرصة ضعف نفوذ الدولة وشغلها عن حكم البلاد فلف لفه ، وزحف الى مكناس وفاس فتملكهما ، ولم يلبث أن أسس الدولة الدلائية التي قاومها المولى محمد بن الشريف رأس الملوك العلويين . ولكنه لم ينل منها مالا إذ حصل الصلح بينه وبين الرئيس الدلائي ، على أن ما حاذى الصحراء الى جبل بني عيَّاش فهو للمولى محمد بن الشريف ؛ وما دون تلك الى ناحية الغرب فهو لأهل الدلاء .

ثم لما توفي المولى محمد بن الشريف وتولَّى أخوه مولاي رشيد لم يرضَ بهذه القسمة الجائرة ، فتقدم واستولى على جل بلاد المغرب ، ثم حارب الدلائيين فظهر عليهم وقتبَّعهم حتى كاد يُفنيهم . وقصد زاويتهم فأوقع بها الواقعة الحاسمة ، وشرَّد بأهلها فصفا له ملك المغرب ، ولم يبق له منازع فيه وذلك سنة ١٠٧٩ .

ولما توفي تولى أخوه السلطان المظفر أبو النصر إسماعيل بن الشريف ثالث سلاطين هذه الدولة وأعظمهم شهرة وأجلهم قدراً ، كان عاملاً لأخيه على بلاد المغرب ، ومتوطناً بمدينة مكناس التي صارت عاصمته من بعد . فلما تمَّت مبايعة الناس له ، نهض لتمهيد البلاد وإخضاع من كان خارجاً عن الطاعة من أهل السوس وقبائل

١ - لا يعرف بالضبط موقع هذه الزاوية الآن وإنما المحقق أنها كانت تقع بناحية وادي أم الربيع قريباً من تادلة . ولعلنا لا نخطئ إذا عيَّنا لها بلاد تامسنا المعروفة اليوم بالشاوية ، ومن ثمَّ شهر بعض الدلائيين بنسب المناوي .

البربر ؛ فاستنزلهم جميعاً من صياصيهم ، ولما طلبوا منه الأمان أجابهم الى ذلك ليتفرغ الى منازلة الأجانب المحتلّين بشواطئ المغرب ، والمستولين على أهم ثغوره منذ اضطراب أحوال الدولة السعدية .

فسار الى المهديّة واستخلصها من يد الاسبان ، ثم أرسل جيشاً كثيفاً لحصار العرائش وأصيلا ، وكانتا بيدهم ايضاً فطردهم عنهما . وفي ذلك الوقت ورد الخبر بإخراج الانكليز من طنجة ، فتمّ بذلك سرور المواطنين وعظم فرحهم ، وأقاموا الاحتفالات في كل مكان ، وقد كانوا من فرط البثّ والحزن على أخذ العرائش في أيام الفتنة قد لبسوا الأحذية السود ؛ فبقيت في أرجلهم حتى افتتحها مولاي اسماعيل ، فانتزعوها حينئذ ولبسوا هذه النعال الصفّر .

ثم وجّه المولى اسماعيل عزمه الى فتح ثغري سبتة ومليلة وشدّد عليها الحصار مدة طويلة ، وانصرف الى الصحراء فدخل بلاد السودان ، واستولى عليها فامتدت حكومته اليها جنوباً ، وشرقاً الى بسكرة من بلاد المغرب الأوسط ، وبذلك اتسعت مملكته ، وعظم صيته ، وهابه ملوك أوربا فمن دونهم .

وكان مولاي اسماعيل قد عنيّ بجمع عبيد المغرب ، واتخذ العصبية منهم ، فأعدّ عسكرياً قوياً شديداً من جنس السّواد بلغ في حياته الى مائة وخمسين ألفاً مفرقة في القلاع التي بناها بجميع أنحاء المغرب للحراسة وتأمين السبيل ، وبني بازاء كل قلعة منها فندقاً لإيواء التجار وعابري السبيل ، فجاء هذا العمل دليلاً على مزيد حزمه وحسن تدبيره ، إذ أمّن بذلك انتفاض القبائل على حكومته ، ووطّد دعائم السلم الذي هو أساس الحضارة وأصل التمدن .

وهكذا ساد الأمن وعمّ العدل ، ففاضت الخيرات ، وكثرت النعم مع الرخاء المفرط ، فلا قيمة للقمح ولا للماشية ، والعُمّال تجي الأموال ، والرعية تدفع بلا كلفة . وأقام السلطان مولاي اسماعيل مشتغلاً بتجديد عاصمته مكناسة الزيتون ، وكان لا ينبغي بها بديلاً ، فلا تسلّ عما شيّده فيها من الآثار الهائلة والمصانع الضخمة مما يكيل لسان البليغ عن وصفه ، ولا يتصوره على حقيقته إلا من وقف عليه .

هذا قلّ من كثر مما عمّله مولاي اسماعيل لصالح المغرب ، الى أن رفع رأسه

عالياً ما بين البلاد . وما أن انتقل الى رحمة الله حتى قام خلفاؤه فتسفوا بتنازعهم ذلك البنيان الشامخ نسفاً ، وبدلوا أمن البلاد خوفاً وقوتها ضعفاً ، فكادت تصير الى ما كانت عليه قبل من الفوضى والاختلال ، لولا أن تداركها الله بولاية المولى محمد ابن عبد الله فخر هذه الدولة ، وباعث مجد المغرب من بين الانقراض . وقد اجتمع الناس عليه بعد وفاة أبيه مولاي عبد الله بن اسمعيل ؛ فبايعوه لما كان ظهر منه أيام ولايته على مراكش ، في عهد أبيه ، من حسن السياسة وكال النجدة وجودة الرأي ، فلم يلبث أن ضرب على أيدي أهل الفساد ، وساح في أنحاء البلاد متفقداً لأمورها ، مستصلحاً لأحوالها ، فاجتمعت على محبته القلوب ، وأخلصت له الضمائر .

ثم أخذ يُجدد ما درَس أو كاد من آثار عظمة المغرب ، فحصن العواصم والشغور ، وشيّد بها الأبراج والمعاقيل المنيعه ، وشحنها بالمدافع والعساكر القوية ، واستكثر من إنشاء السفن الحربية وتدريب البحارة على العمل فيها بتلك المناورات التي كان يُقيمها من حين لآخر في عرض بحر الزقاق وسواحل المحيط .

وبنى مدينة الصويرة ، واعتني بها غاية الاعتناء ، فكان بناؤها من حسن سياسته إذ أبطل بها حصن أكدير ومرساه الذي كان الثوار يتداوكونه ويُسرّحون منه شحن السلع افتياتاً على الدولة ، فانقطع بالصويرة أملهم في ذلك ، لا سيما وقد جاء مرساهها غايةً في حسن البناء .

ونظر المولى محمد بن عبد الله في علاقاته مع الدول نظرة توفيق وسداد ، فعقد عدة معاهدات مع ملوك أوروبا وغيرها كلها في صالح بلاد المغرب . أما الدولة العثمانية فقد كان من أعظم أنصارها وأصدق محبيها ، تقدّم فخطب ودّها في أيام السلطان مصطفى الثالث ، إذا أرسل اليه رسولين ، ومعها هدية فاخرة فيها خيل عتاق وسروج محلات بالذهب وسيوف مرصعة ، فقوبلت هديته بالسرور ، وأرسل اليه السلطان المذكور مركباً مُثقلًا بالمدافع والقنابل والبارود وكثير من أدوات الحرب .

ثم لما وقعت الحرب بين روسيا والدولة العثمانية مدّة السلطان عبد الحميد الأول الذي تولّى بعد السلطان مصطفى الثالث ، بادر المولى محمد بن عبد الله فأرسل الى والي الجزائر أربع سفن حربية مُثقلّة بالهدايا وآلات الحرب ، ورغب اليه أن

يرسلها الى القسطنطينية ؛ فأساء ذلك الوالي الوساطة وردّ عليه ردّاً قبيحاً ، فلم يمنعه ذلك من المضيّ في سبيل التقرب من الدولة العثمانية ونصرتها ؛ فبعث الى السلطان سفيراً بهدايا نفيسة ، وعرض عليه استعدادّه لكل ما يطلب منه من المعونة ، وبُيِّنَ له أسفه من تقاطع ملوك المسلمين لا سيّما في ذلك الحين . وأعجب من ذلك أنه طرد سفير الروسي الذي كان بطنجة وقتئذٍ لما بلغه خبر الحرب المذكورة ، فكان حادثاً دبلوماسياً خطيراً .

والغاية في هذا الباب أنه كان مرةً في سفر فوافق يوم عيد الأضحى في الطريق قال الكندوسوس : « فخطب السلطان بنفسه ودعا للعثماني » وهذا من انصاف الملوك الذي هو ملك الانصاف . ومن دلائل حرصه على تمتين الرابطة الدينية بينه وبين ملوك الاسلام أنه زوج ابنته للشريف سرور أمير مكنة فجهّزها بمائة ألف دينار وزفّها اليه في موكب عظيم وأرسل برقيقتها من الهدايا والتحف الى أمير طرابلس ومصر والشام شيئاً كثيراً . فهذا الاهتمام من المولى محمد بن عبدالله بتمكين أواصر المحبة بينه وبين ملوك الاسلام ، هو من أعظم فضائله في نظرنا ، ولو لم يكن له منقبة إلا هو لكفى . فان من المعلوم ان ملوك الاسلام لو جرّوا على هذه السنّة الحمودة وراعوا هذا الواجب الأكيد لما وجد العدو أبد الدهر سبيلاً الى استعبادهم والتحكّم فيهم .

ولما توفي المولى محمد بن عبدالله اضطربت الأمور أيضاً ولم يَلِ بعده خير من مولاي سليمان الذي كان مثلاً مجسّماً للعدل والديموقراطية الاسلامية إلا أنه كغيره ، لم يكن موثقاً في سياسة الدولة وتثبيت السلم .

أمّا مسك الحتام ولبنينة التّمام فهو السلطان المرحوم مولاي الحسن الذي تولى بعد وفاة أبيه المولى محمد بن عبد الرحمن سنة ١٢٩٠ ، وقد كانت العتو والفساد ضاربين أطناهما في قبائل المغرب جميعاً ؛ فتمكن بحكمته وحسن سياسته من تأليف تلك القبائل وإعادة الى حظيرة الطاعة ، واجتهد في اصلاح البلاد والسير بها في طريق الرقي المادي والأدبي ، خصوصاً فيما تشدّ إليه حاجة الدولة لحفظ استقلالها وضمان سلامتها ؛ فأرسل فوجاً من الطلبة الى أوروبا بقصد التخرج في فنونها الصناعية ، وأسّس معملًا كبيراً للسلاح بفاس ، واقتنى مراكب بحاريّة كان يصحّ جعلها نواة

لعمارة بحريّة مهمّة ، وكان في علاقته مع دول الغرب دائم التيقّظ والحذر لم يُسلِس قيادَه لواحدة منهم على ما كُنَّ يُبدينَه من التودُّد الزائد .

وكان لا يفتُر من الجَوسِ خلال المملكة ، وفي هذه الفكرة السديدة من توطيد الأمن وغيره ما لا يخفى . وكان لعامة الشعب تعلق كبير به ، وحبٌّ زائد على حبهم لأنفسهم وذلك دليل على شفقتِه وغيَرته على الدين والوطن ، وكان عازماً على رَبطِ أنحاء مملكته بخطوط السكة الحديدية وإنشاء التلغراف وغير ذلك ؛ إلا أن البَنيّة عاجلَتَه قبل أن يحقق أَمَلَ رَعيته فيه فَبُوفِي مأسوفاً عليه سنة ١٣١١ وكانت رحمه الله قد بنى فأحسن البناء ولكنَّ لسانَ الحال يُنشد :

أَرَى أَلْفَ بَانٍ لَا يَقُومُ بِهَادِمٍ فَكَيْفَ يَبَانِ خَلْفَهُ أَلْفُ هَادِمٍ ؟

١ - إلى هنا انتهينا بالتاريخ السياسي للدولة الشريفة في العُلمة الأولى ، ولم نرد عليه شيئاً الآن ، لأنَّ في الحقيقة نهاية عهد الاستقلال وإبداء عهد التنازل والحماية أيَّ العصر الجديد ، ونحن أَرَادَ من القراء والدارسين أن يَدْرُسُوا في التاريخ الحديث ما كان عليه الحال في المغرب في

الحركة العلمية

فَسَّرت الحركة العلمية في المغرب بعد وفاة المنصور الذهبي 'فتوراً كبيراً' ، لا سيما عند ما أراد السلطان المأمون بن المنصور الملقب 'بالشيخ من العلماء' أن يوافقوا على احتلال العدو لمدينة العرائش فلم يرتضوا ذلك ، وخرج الكثير منهم فارّين بدينهم الى البوادي ؛ فكان لذلك من التأثير السيء على الأوساط العلمية في المدن المغربية وخصوصاً فاس ما لا يخفى .

ولكن من الألفاظ الخفية أن ظهرت الزاوية الدلائية في ذلك الحين ، وكأنما بعثها الله لحفظ تراث العلوم والآداب الذي كاد أن يضيع ، فقامت عليه خير قيام . وما هي إلا مدة قليلة حتى صارت مركزاً مهماً لنشر الثقافة العربية بين قبائل المغرب ، ومأرزاً حصيناً للعلوم الإسلامية بالبلاد ، وقد تخرّج فيها عددٌ لا يحصى من العلماء الفطاحل ، والأدباء الأماثل ، يكفي أن نذكر منهم علامة المغرب في هذا العصر أبا علي اليوسفي . والواقع أنه لو لم يقضَ عليها مولاي رشيد ذلك القضاء المبرم لكان للمعارف اليوم بالمغرب ، وخصوصاً القبائل ، شأنٌ غير هذا الشأن . ولكن ما يشفع لمولاي رشيد هو أنه بعد تخريب الزاوية ، نقل أهل العلم من رجالها 'مكرمين' الى فاس ، حيث عكفوا على التعليم والتذكير من غير خوف ولا نكير . وكان كثيراً ما يتعهدهم ببرّه وألطفه ، بل إن منهم من كان من جلسائه وخواصّ أهل حضرته وهو العلامة أبو عبد الله المرابط من أفاضل أهل بيته في النحو واللغة .

ولا مفهوم لهؤلاء ، فإن ذلك كان شأنه مع أهل العلم قاطبةً ، وفيما يحدثنا المؤرخون أن مجلسه كان لا يخلو منهم ومن رجال الدين وأهل الخير والصلاح ، وهو لا يزال يُسني لهم العطيات ويغدق عليهم الصّلات .

ومن مآثره العلمية الباقية بفاس مدرسة الشراطين 'المحكّمة' البناء الجميلة الشكل الأنيقة 'الوضع' ، وقد أسسها لدراسة العلم وسكنى طلابه ، وجعلها ثلاث طبقات تشتمل على مائتي بيت واثنين وثلاثين بيتاً وقبة للصلاة .

وهو الذي أحدث 'نزّهة الطلبة الربيعية' التي يُقيمونها سنوياً على ضفاف وادي الجواهر بمدينة فاس ويمثلون فيها أدواراً هزلية ترويحاً للنفس من عناء لدرس ، وتشارك فيها السلطة ويحضرها الأهالي وتدوم مدة أسبوع وربما حضرها السلطان نفسه اعتناءً بأمر الطلبة . وكانت همة المولى اسمعيل مصروفة في الغالب الى تقوية الدولة والتشيد والعمارة والبناء ، ولكن ولده ووليّ عهده كان - المولى محمد العالم أقام سوقاً نافقة للعلم والأدب ، وجمع عليه من أهل الفضل والنباهة كلّ عالم نحرير وأديب شهير ، وفي أيام خلافته عن والده بإقليم سوس ، قصدته الوفود من تلك النواحي النائية الضاربة في جنوب المغرب وصحرائه ولا سيما إقليم شنجيط ، وكان هذا الاقليم يتمخض عن حركة أدبية قوية ، فمدحه شعراؤه بما طال العهد بمثله من الشعر الفحل ، واطلع الناس بسبب ذلك على ما كان يجنوب المغرب من نهضة علمية مباركة ، وخاصة في علوم اللغة والآداب . وفي الحقيقة ان مولاي محمد العالم كان شخصية أدبية فذة ، وله آثار شعرية ونثرية فريدة ، ولولا خلافه على أبيه الذي أودى بحياته لكان أسدى الى المغرب أيادي بيضاء من حيث البعث والتجديد في ميدان المعارف والفنون .

وعلى هذا السّنن جرى المولى محمد بن عبد الله الذي كان دائم الاستصلاح للحالة العلمية والاستنهاض لهمم العلماء ، كي يحاروا الزمن في تطوّرهِ ، ويلبّسوا لحاله لبوسها ؛ بل كان قد مضى الى أبعد من هذه الغاية فأراد أن يمثّل دور يعقوب المنصور الموحي في القضاء على علم الفروع ، وعلم الكلام معاً ، والعناية بنشر كتب السنة وتعويضها من كتب الفقه .

وبالفعل فقد بعث بأوامره في هذا الصدد الى كافة علماء المغرب ، وألزمهم باتّباعها والتدقيق في تنفيذها ، الا انه لم يشتط في ذلك اشتطاط يعقوب المنصور فلم يحرق الكتب التي أمر بنبذها ، ولم يحرم النظر في كتب الخلاف عموماً ، وانما أمر بالرجوع الى الأمّهات التي منها الاستمداد ؛ وعليها الاعتماد مع عدم الاقتصار عليها والإعراض عن كتاب الله وسنة رسوله اللذين هما المرجع الأول والأخير لأحكام الشريعة .

وألف بنفسه عدّة كتب زاج فيها بين الأصول والفروع والنصوص الفقهية والحديثية ، منها كتاب مسانيد الاثّة والفتوحات الإلهية ، وذلك لينهج للعلماء

طريقَ العمل سواء في التدريس أو التأليف ، وكان يَصِفُ نفسه في أوائل كُتُبِهِ ؛ فيقول المالكي مذهباً الحنبلي اعتقاداً مؤكداً عدم أخذه بطريقة الأشاعرة في العقائد ، وكانت هي الطريقة المعتمدة في المغرب منذ العصر الموحيدي ، وفي الأوامر التي كان يُصدرُها بشأن تنظيم الدراسة في القرويين كثيراً ما أشار إلى الاقتصار في علم الكلام على عقيدة ابن أبي زيد القيرواني التي ضمَّنها رسالته المعروفة ، وهي عقيدة سلفية خالية من التأويل الذي يجنحُ إليه الأشاعرة كما نبَّهنا على ذلك مراراً .

ولنُشَبِّهَ هنا نصَّ المنشور الذي أصدره بهذا المعنى سنة ١٢٠٣ لتتمثَّل في ذهن القارئ صورةٌ جليَّة عن حالة التعليم في أوائل هذا العصر التي لا تختلف عما وجدناها عليه في زماننا هذا ، وما كانت تتطلَّبُه من الإصلاح الذي أدخل عليها المولى محمد بن عبدالله كثيراً منه قبل النهضة الحديثة بنحو المائة والخمسين سنة ، ولفظه بعد الافتتاح : « ليعلم الواقف على هذه الفصول ، أننا أمرنا باتباعها والاقتصار عليها ولا يتعدها إلى ما سواها :

الفصل الأول : في أحكام القضاة ، فان القاضي الذي ظهر في أحكامه جور وزور وما يقرب من ذلك من الفتاوى الواهية مثل كَوْنِها من كتب الأجهورية^١ ولم يبلغ سَنَدُها إلى كتب الأقدمين فان الفقهاء يجتمعون عليه ويعرِّلون^٢ه عن خطة القضاء ولا يحكم على أحد أبداً .

الفصل الثاني : في أئمة المساجد ، فكل إمام لم يرضه أهل الفضل والدين من أهل حَوْصَتِهِ^٢ يعزِّلون^٢ه في الحين ويأتون بغيره ممن يَرْضُون إمامته .

الفصل الثالث : في المدرسين في مساجد فاس ، فإننا نأمرهم أن لا يدرسوا الا كتاب الله تعالى بتفسيره وكتاب دلائل الخيرات في الصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومن كُتِبَ الحديث المسانيد والكتب المُستخرجة منها والبخاري ومسلماً من الكتب الصحاح ، ومن كتب الفقه المدونة والبيان والتحصيل ،

١ المراد بها شروح المختصر الخليلي للشيخ علي الأجهوري وتلامذته الخرشى والشبرحي ، والزرزاني فقد حذروا الفقهاء من الاعتماد عليها لكثرة أغلاطها الا ما سلمه عشوها .

٢ أي أهل حيه الذي يسكنه .

ومقدمة ابن رشد والجواهر لابن شاس والنوادر والرسالة لابن أبي زيد وغير تلك من كتب الأقدمين، ومن أراد تدريس مختصر خليل فانما يدرسه بشرح بهرام الكبير والمواق والحطّاب والشيخ علي الأجهوري والحرشي الكبير لا غير . فهذه الشروح الخمسة بها يُدرس خليل مقصودا عليها ، وفيها كفاية ، وما عداها من الشراح كلّها يُنبذ ولا يدرس به ، ومن ترك الشراح المذكورين ، واشتغل بالزرقاني وأمثاله من شراح خليل يكون كمن أهرق الماء واتبع السراب . وكذلك قراءة سيرة المصطفى صلى الله عليه وسلم كالكلاعي وابن سيّد الناس اليعمري ، وكذا كتب النحو كالتهليل والألفية وغيرهما من كتب هذا الفن ، والبيان بالإيضاح والمطوّل ، وكتب التصريف ، وديوان الشعراء الستة ، ومقامات الحريري ، والقاموس ولسان العرب وأمثالهما مما يُعين على فهم كلام العرب لأنها وسيلة الى فهم كتاب الله وحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ونasihك بها نتيجة . ومن أراد علم الكلام فعقيدة ابن أبي زيد رضي الله عنه كافية شافية يستغني بها جميع المسلمين . وكذلك الفقهاء الذين يقرأون الأسطرلاب وعلم الحساب فيأخذون حظّهم من الأحباس لما في تلك من المنفعة العظيمة والفائدة الكبيرة لأوقات الصلاة والميراث ، وعلى هذا يكون العمل إن شاء الله .

ومن أراد أن يخوض في علم الكلام والمنطق وعلوم الفلاسفة وكتب غلاة الصوفية وكتب القصص فليتعاظ ذلك في داره مع أصحابه الذين لا يدرون بأنهم لا يدرون ، ومن تعاظى ما ذكرنا في المساجد ونالته عقوبة فلا يلومنّ الا نفسه ، وهؤلاء الطلبة الذين يتعاظون العلوم التي نهينا عن قراءتها ما مُرادهم بتعاطيها الا الظهور والرياء والسّمة ، وأن يضلّوا طلبة البادية فانهم يأتون من بلدهم بنية خالصة في التفقه في الدين وحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فحين يسمعونهم يدرسون هذه العلوم التي نهينا عنها يظنون أنهم يُحصّلون على فائدة بها فيتركون مجالس التفقه في الدين واستماع حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم واصلاح ألسنتهم بالعربية فيكون ذلك سبباً في ضلّالهم . اهـ باختصار وتصرف يسير

وبالتأمل في فصول هذا المنشور يظهر ما كان للمولى محمد بن عبد الله من النية الحسنة في إصلاح حالة التعليم مما لو استمرّ العمل به الى الآن لكان له نتائج طيبة ، لكن أبطله من بعده ولده مولاي سلمان لاختلاف وجهة نظره عما كان برا

والدُّهُ ، فرجع ما كان الى ما كان . ثم عاد المولى عبدُ الرحمن بنُ هشام فجَدَّدَهُ في الجملة بمنشور آخر وان لم يكن له مفعول في صرف العلماء عن طريقتهم وكتبهم المفضلة ، وعلى كل حال فقد كان لهذا المنشور تأثيرٌ ظاهر في إحياء علوم التفسير والحديث ، وإذكاء الرغبة فيهما لا سيما وقد كان للمولى سليمان غبطة كبيرة في التفسير مما كان باعثاً على مزيد الاعتناء به . وفي أيامه نبغ المفسر الكبير الشيخ الطيب بن كيران . كما نبغ في الحديث الحافظ أبو العلاء العراقي ، وتأثر الفقه أيضاً بروح المنشور فانتعش بعد الانتكاس ، وسرت فيه نسمةُ الحياة فلم يبق قاصراً على نصوص الفقهاء المجردة ، وأقوال الخلافيين غير المسندة ، وذلك بفضل انتشار كتب السلف والاطلاع على آثار الأقدمين مع حُسْنِ النظر في الكتاب والسنة . والفقهاء النابغون في هذا العصر لا يأخذهم الحصرُ ، إنما نحن نشير لمن كانت لهم يدٌ ظاهرة في تجديد رسوم الفقه ، ولا يزال تأثيرهم على العقول قوياً ظاهراً حتى وقتنا هذا كأبي علي بن رَحَّال والبنَّاني والرُّهُوني .

وهؤلاء هم ممن ثبتت لهم المشاركة في باقي علوم الشريعة أيضاً ، فلا يُفهم من كلامنا أنهم كانوا قاصرين على الفقه ، ولا حاجة الى القول انهم كانوا متضلعين في العلوم الآلية أيضاً ، إنما لا بد من القول إن هناك آخرين كانوا في هذه العلوم مَقْطُوعِي الْقَرْنِ ، ومن تلقى رايتهما باليمين وهؤلاء كأحمد بن مبارك اللمطي وأبي العباس الهلالي وأبي حفص الفاسي ؛ وفي اللغة والنحو بالخصوص نبغ أفراد كثيرون لا يقصرون عن نبغاء العصور المتقدمة في هذين العلمين ناهيك بابن الطيّب الشرقي وابن بُونة وابن زكري .

أما فيما عدا ما ذكر من العلوم الأدبية ، فإن التاريخ والجغرافية لم يكن حظُّهما من الانتشار بأقلَّ من أي علم آخر ؛ فالكتب التي ألفت في تاريخ الدولة الشريفة وتراجم علماء هذا العصر تعدُّ بالعشرات وكذا الرَّحَلات وكتبُ الأنساب . وإذا ذهبنا نَعُدُّ مَنْ كَتَبَ في هذا الموضوع طال بنا المجال فلنقتصر على تسمية بعض الأفراد كالإفراني وابن الطيب القادري والزَّيَّاني والكنسوس .

بقي الكلام في العلوم العقلية ونقول انها كالسابق ، كانت منتشرة بمقدار وبعض الرياضيات كالحساب والهيئة كان الاعتناء بها أكثر ، وألفت فيها كتب عديدة .

والطب ايضاً لم يَعدَم من كان مَعْنياً به ، وَمَنْ أَلْف فيه من رجال هذا العصر ، وقد كان من المبرِّزين في العلوم العقلية والكونية على العموم أبو زيد الفاسي وابن سُلَيْمان الرُّوداني وأحمد بن مبارك اللطفي وبرع في الطب بالخصوص عبد الوهاب أَدْرَاق وعبد القادر ابن شقرون وعبد الله بن عزُّوز المراكشي .

ولا ننسى أنه في هذا العصر وقَعَ تسجيلُ الموسيقى الأندلسية باعتناء المتفنِّين البارِع محمد بن الحُسَيْن الحائِك الذي ساءه ما آل اليه حالُ هذه الموسيقى من الضياع ، فعمل على انقاذها بوضع كنَاشِته الشهيرة باسمه ، الحاوية لجميع الأغاني التي تتكوَّن منها النوباتُ أي القِطْعُ الموسيقية الإحدى عشرة التي بقيت من الطرب الأندلسي ، وهي رمل الماية ، الاصبهان ، الماية ، أرصد الذَّيْل ، الاستهلال ، الرصد ، غريبة الحُسَيْن ، الحِجاز الكبير ، الحِجاز المشرقي ، عراق العَجَم ، العُشَاق . ثم نظَّمها بحسب تلك النوبات وأشار في ملاحظات هامة الى بعض الفروق والاختلافات بين تلك الأغاني وكيفية استعمالها ، فحفظ بهذا العمل الهيكل العام لهذه الموسيقى وكان ذلك هو التسجيل الأول لهذا الفن الأندلسي الرفيع .

وما دُمنا أشرنا الى الفن وبعض مظاهر نشاطه ، فلنذكر أنه في هذا العصر ايضاً وقع تفنُّن كبير في تحسين الخط المغربي وما يرجع اليه من الزُخرفة الكتابية وجدولة الكتب الملوَّنة والتنمُّق في وضع التراجم المذهَّبة . وتقرَّرت الأصول الفنية لأنواع الخطوط حتى وُضعت لها الأسماء الأعلام التي تميَّز بعضها عن بعض كالمبسوط الذي تُكتب به المصاحف القرآنية ، والمُجوهر الذي يُستعمل في كتابة المراسيم السلطانية ونسخ كتب الحديث الشريف وما الى ذلك والمُسند الذي تُنسخ به الكتب العلمية وغيرُها . وقد امتازت بجودة الخط وجماله بعضُ المدن كفاس ومكناس وسلا وبعض القبائل كالأخماس التي عُرف أهلُها بحُسن الخط ، وكتبوا المؤلفات العديدة التي بقيت شاهداً على ما كان لهذه القبيلة من ماضٍ علميٍّ زاهر . ويلحقُ بالخط المغربي الأرقامُ الحسابيةُ المعروفة بالغُباري وبحرف الغُبَار وهي التي تسميها الكتب الأفرنجية الأرقام العربية (*Les chiffres arabes*) ولا تُستعمل الا في بلاد المغرب من الوطن العربي على أنها منتشرة في جميع أقطار العالم .. ويُقال إن أول من أدخلها الى أوربا هو البابا سِلِغِسْتِر الثاني وكان ممن أخذ العلم ببلاد الأندلس والمغرب . ومع العلم بأنها عربية قطعاً لا ندرى أول من استعمالها ولعلها من اختراع

عرب المغرب ، ولعل الغُبَارِي الذي تَحْمِلُ اسمَه هو مُخْتَرَعُهَا ، وأقدمُ نصٍّ رأيناه ذكرها بهذا الاسم كتاب لابن الياسمين تقدم ذكره في العصر الموحّدي . ونحن انما أشرنا إليها هنا على سبيل جمع النّظائر ، فهي والخطُّ المغربي مما تتشخّصُ به الثقافة العربية في هذه البلاد ، وللقول بأن هناك أرقاما أخرى كانت تُستعمل عند الموثّقين خاصة في قَسَم التّرِكَات وحساب المُخَارَجات ؛ وربما استعملت في المحاسبات العادية وترقيم صفحات الكتب ، ويقال لها القلمُ الفاسي . ولئن لم نجزم بأنَّ حرف الغُبَار من اختراع أهل المغرب فلا نشكّ في أن القلم الفاسي من ابتكار المغاربة وأهل فاس بالخصوص وهو لذلك يُشَبِّهُ الخطَّ المغربي في أشكاله الهندسية ويُسَايرُهُ في جمال الوضع وحسن الهندام . ويقال إنه مأخوذ من القلم الرُّومِي القديم ، ذكره الشيخُ أحمدُ سُكَيْرَج في تَأْلِيفٍ له في صفة أشكال القلم الفاسي . على أن القلم الرومي نفسه يُشَبِّهُ في بعض أشكاله الخطَّ المغربي ، فأمرُهُ مُشْكِل . ونظنُّ أنه دخله أيضاً تحويرٌ ليحصل الانسجامُ بينه وبين الكتابة العربية للعلم بأن الأرقام الرومانية كانت من الكثافة بحيث تركها أهلها لحرف الغُبَار .

والذين أَلْفَوْا في القلم الرومي ممن اطلعنا عليهم كالعلامة أبي عبد الله محمد ابن أحمد الصباغ لم يذكروا شيئاً عن كيفية اقتباسه وإنما كان وكندهم أن يطبقوه على العمليات الحسابية المعروفة والمعدودات المغربية من الرُّطْل والأوقية والمِثْقَال وما إلى ذلك .

والخلاصة أننا بازاء ثلاثة أنواع من الأرقام : (الغُبَارِي) وهو الشائع المأخوذ به في عموم الأعمال ومن جميع الطبقات (والفاسي) وكان خاصاً ببعض الأعمال وبعض الطبقات (والرُّومِي) وقد انقرض قديماً وخلفه الفاسي . والموضوع بحاجة الى دراسة فنيّة من بعض فوائدها الوقوف على ما كان لأسلافنا رحمهم الله من رسوخٍ في العلوم الرياضية وابتكارٍ في أساليبها ونظرياتها .

وفي أعقاب هذا العصر وبالضبط في أيام السلطان محمد بن عبد الرحمن أُسِّسَتْ المطبعة الحجرية بفاس وجعلت تُتَخَرَّجُ كتب العلم القيّمة بخطوط ممتازة وتصحيح كامل ، وهي التي ما تزالُ لحد الآن قيدَ البصر وبهجة النظر تتنافسُ فيها الناس ، ويكفي أن يقول الشخص ان هذا الكتاب مطبوع بالمطبعة المحمدية ليُصْبِحَ عِلْقُ مَضْنَةٍ وذخيرةً من ذخائر الخزائن العلمية المعدودة .

هذه 'خلاصة' الكلام عن الحركة العلمية في هذا العصر ، وترى أن ليس بينها وبين ما كانت عليه في العصر السابق كبير 'فرق' إلا في التوسّع الذي يقتضيه طول هذا العهد ، ولذلك اختصرنا الكلام فيها على أن هذه النُبذة مع اختصارها حاوية لأهم ما تجب معرفته من ذلك ، وبقي الكلام على مساهمة المرأة في هذه الحركة وهي مساهمة 'تامة' برغم ما ينقصنا من معلومات في هذا الشأن .

وأول من نذكر من السيدات المبرزات في ميدان المعارف الإسلامية السيدة 'خناثة بنت بكّار زوج السلطان مولاي اسمعيل وأم ولده السلطان مولاي عبد الله ، كانت فقيهة عالمة ، بارعة أدبية ، خيرة دينية ، لها كتابة على الإصاغة في معرفة الصحابة ، لابن حجر ، وكان لها كلام ورأي وتدير مع السلطان ومُشاوره في بعض أمور الرعية فانها كانت له وزيرة صدق وبطانة خير كما قال الوزير 'الإسحاق' في رحلته . وكانت قد توجهت الى الحج في أيام وكدها مولاي عبد الله ، وصحبها حفيدُها سيدي محمد بن عبد الله وحاشية كبيرة من جملتها الوزير المذكور الذي كتب رحلته بهذه المناسبة ، فقوبلت بحفاوة عظيمة من أهل الحرمين الشريفين وفرقت هناك على المحتاجين وذوي البيوتات ما يزيد على مائة ألف دينار وأكرمها العلماء ومدحها الشعراء . ومن جملة ما مُدِحت به قصيدة 'للشيخ محمد بن علي بن فضل الحسيني الطبري إمام المقام الابراهيمى استهلها بقوله .

غَنَى عَلَى عُودِ السُّعُودِ هَزَارِي وَشَدَا عَلَى الْأَوْتَارِ بِالْأَوْتَارِ

ويقول في أثناءها :

فَاحَتْ بِهَا أَرْجَاءُ مَكَّةَ رَغْبَةً وَحَبَّةً مِنْ سَائِرِ الْأَخْيَارِ
وَهِيَ الْحَقِيقَةُ بِالْجَلَالَةِ فِي الْوَرَى فَجَلَالَةُ الْأَضْيَافِ لَيْسَ بَعَارِ

توفيت رحمها الله بفاس سنة ١١٥٩ . ثم نذكر السيدة زوج الشيخ سيدي المختار الكُنُني التي كانت أيضاً من العالمات الفاضلات ، وقد ختمت المختصر 'التبلي' الذي كانت تُدرّسه للنساء في اليوم الذي ختمه زوجها بجهة أخرى حيث كان يدرس .

مجلسه للرجال ، وألّف ولدُهما أبو عبد الله محمد في ترجمتها كتابَه الطَّريفة والتَّسَالِدَة في مناقب الشيخ الوالد والشيخة الوالدة .

ونبغت في نظم الشِّعر السيدة مريم الشَّقْراوية الشَّنَجِيّية ، واشتهرت به وكانت تمدح أكابر العلماء ويمدحونها حتى بكتَّتها أحدُ الشيوخ فأمسكت .

وفي مَيندان التعليم الأوّلي كان هناك معلّمات يقُمن بتعليم البنات والأولاد الصغار الكتابة والقراءة والقرآن الكريم ومبادئ العلوم الضرورية ، فلم يكن يخلو حي من أحياء المدن الكبيرة من « دار فقيهة » تُعتبَر بمثابة مدرسة أولية ، ولقد أدركنا نحن منها العشرات مما يدلُّ على ما كانت المرأة المغربية تقوم به من دور عظيم في نشر المعرفة وتثقيف النشء .

وهناك نوعٌ آخر من التعليم وهو التربية الدينية ، وكان للنساء بها اهتمام كبير ، إذ كان بعضهنَّ ينتَصِبْنَ لتلقين النساء المتقدّمات في السنَّ واجباتهن الدينية ، ويندُبْنهنَّ الى التوبة ويعلمنهنَّ بعض الأدعية والأذكار ممّا يقومُ به شيوخ التصوّف ، وقد أدركنا نحن الكثيرات من السيدات اللاتي كنَّ ينهضن بهذه المهمة الرُّوحية خيرَ نهوض ، وبذلك كان النساء على جانب عظيم من العفاف والطهارة وحُسن التبعل ، وكانت السعادة الزوجية تغمر البيت والأسرة والمجتمع بالرضى والطمأنينة والحبور ، والله عاقبةُ الأمور .

الهيئة العلمية وآثارها

لا يتسع لنا المجال للاتيان على تراجم أعيان علماء هذا العصر كلهم ، لأن عددهم كثير ، فنكتفي بأكثر عدد يمكن ذكره في هذا المختصر 'متعللين بأن بين يدينا مجالاً فسيحاً في كتاب (ذكريات مشاهير رجال المغرب) وكتاب (شخصيات مغربية) حيث نوفّيهم جميعاً حقهم ، ونكفّر عن ذنب إغفال من لم نذكره ها هنا والله سبحانه الموفق . وقد سرنا في ترتيبهم على حسب سني وفياتهم لا على ترتيب العلوم ، لأن ذلك أدعى لعدم ظن التحيز وما اليه ، فليعتفّر لنا القارئ المنصف ذلك .

ابن ناصر

أبو عبد الله محمد بن ناصر الجعفري الزينبي دفين دُرعة ، الإمام جبلُ السنة وشيخ أهل العلم والعمل في عصره . كان له مشاركة في علوم الشريعة وعلوم العربية ، وله قدمٌ راسخ في التصوف ، شديد الاتباع للسنة في سائر أحواله ، حتى في لباسه وطعامه ، سالكاً في ذلك سبيل المرجاني وابن أبي جمرة وابن الحاج صاحب المدخل . وقام بمهمة الإرشاد والتعليم فهدى الله به خلقاً لا يحصون ، وكان لا خلاصه ونصحه إذا وعظ أثر وعظه في النفوس ، وإذا تكلم انتقش ما تكلم به في قلوب سامعيه .

وقد سافر للحج مرتين فكثُر الآخذون عنه شرقاً وغرباً وهو ممدوح أبي علي اليوسي بقصيدته الدالية المشهورة . وله رسائل جامعة لوصايا ونصائح غالية من غير تكلف ولا تعمل ، وغير ذلك . وتوفي عام ١٠٨٩ رحمه الله .

عبد القادر الفاسي

أبو محمد عبد القادر بن علي بن يوسف الفهري ثم الفاسي ، به شهرٌ هو وأهل بيته ، الإمام العالم العليم ، بركة فاس وحجة المغرب في عصره ، ولد بالقصر

الكبير سنة ١٠٠٧ وبه نشأ ، ثم رحل الى فاس في طلب العلم واستقر بها وتصدّر للتدريس فعظمُ النفع به ، وكثُر الأخذ عنه ، وقد وقّع الأطباق من مشائخ عصره على تحقّقه بسائر العلوم . ولا تجد عالماً أو متعلّماً إلا وهو من تلامذته أو تلامذتهم .

وكان متمسّكاً بالسنة ، ورِعاً زاهداً ، له قدّمٌ راسخ في العبادة وقيام تامٌ على نوافل الخير . ومع سعة علمه وطول باعه في الفنون ، لم يؤلّف كثيراً وإنما ترك بعض آثار هي بالنسبة لِعَلَمِهِ الغزير كغِيض من كِيض ، ونُقطة من بحر ، وهي العقيدة والفقهية المشهورتان ، وأجوبة مسائله ، ونحو ذلك ، وتوفي سنة ١٠٩١ هـ .

الرّودانيّ

أبو عبد الله محمد بن سليمان الرّودانيّ الشّوسي ، العلامة الجامع الفيلسوف الفلكي البارِع . وُلِدَ بِنَارودانت سنة ١٠٣٧ وبها نشأ . وحين بلغ سن الرشد تأقت نفسه للتعليم فخرج وقرأ بدرعة . ثم رحل الى سجلماسة ومراكش فأتقن طرفاً من علم الحكمة والهيئة والمنطق ، إلا أنه لم يقض وطره من ذلك ؛ فرحل لفاس بقصد تكميم الدراسة ، ثم سار الى الجزائر فأخذ بها عن شيوخها وحج وجاور بالمدينة المنورة وأخذ عن علماء مصر والشام ؛ فامتلاً وطابه من المعارف ، وأصبح كما يقول المَحْبِي في الخلاصة فرد الدنيا في العلوم ، المالك للمجهول منها والمعلوم وكانت له يدٌ صَنَاعٌ في كثير من الحرف والصنائع ، كالطَّرُز العجيب والتفسير والخِرَازة والصياغة وجبر قوارير الزُّجاج المكسرة وعمل الاسطرلاب ، وابتدع آلة نافعة في علم التوقيت والهيئة لم يُسبق اليها ، وهي كرة مستديرة الشكل مُنَعَمَةٌ الصَّقْل مدهونة بالبياض المموءة بدهن الكتان يحسبها الناظر بيضة من عسجد لاشراقها مسطرة كلّها دوائر ورسوم ، قد رُكِّبَت عليها أخرى مجرّفة منقسمة نصفين ، فيها تخاريم وتجاويف لدوائر البروج وغيرها ، مستديرة كالتي تحتها مصقولة مصبوغة بلون أخضر ، فيكون لها ولما يبدؤ من التي تحتها منظر رائق وهي تغني عن كل آلة في فن التوقيت والهيئة ، مع سهولتها لكون الأشياء فيها محسوسةً والدوائر المتوهمّة مشاهدة وتخدم لسائر البلاد على اختلاف أعراضها وأطوالها . وقد ألف هو رسالة

بيّن فيها كيفية استعمالها وكيفية صنعها فراجعها إن شئت في الرحلة العياشية وبالجملة فهو أحد حكماء الاسلام وجهابذة الأعلام ، وبقدر ما كان متضلّعا في العلوم الحكيمية كان متمكنا في علوم الأدب والشريعة ، وألف كتباً مفيدة منها منظومة في علم الميقات خالف فيها كثيراً من مذاهب أهل هذا العلم وشرحها ؛ ومنها صلة السلف بموصول الخلف وهو فهرس جامع قلّ أن يكون له نظير . وتوفي بالشام عام ١٠٩٥ .

عبد الرحمن الفاسي

هو أبو زيد عبد الرحمن بن عبد القادر الفهري الفاسي العالم المشارك المتفنن ، مفتخر بيتته ونادرة وقته ، ولد سنة ١٠٤٠ ونشأ في حجر والده فحفظ القرآن في سن مبكرة جداً . ثم أكب على تعاطي العلم فلم يلبث أن صار فرداً متحققاً بسائر العلوم العقلية والنقلية التي تدرس في القرويين ؛ ففضلاً عن علوم العربية والأدب والفقه والحديث كان له مشاركة في العلوم الفلسفية والطبيعية والرياضية من حساب وجبر وهندسة وطب وكيمياء ومنطق وما إلى ذلك ، وألف في هذه العلوم كلها كتباً منظومة ومنشورة ، وضمن المنظومة منها كتابه المسمى بالأقنوم في مبادئ العلوم الذي يعدّ دائرة معارف العصر ، تكلم فيه على نحو مائة وخمسين علماً ؛ فاستوفى حدودها ، واستوعب نظرياتها بأوجز عبارة وأحسن إشارة . وله في الفقه نظم العمل الفاسي وهو مجهود قيّم تم به ما كان الامام الزقاق قد ابتدأه في لاميته ، من جمع المسائل التي جرى العمل بها في الأحكام الشرعية ، مراعاة للاعراف والظروف ، وإن لم تكن من الراجح ولا المشهور ، فأربنى عليه واتسع في ذلك بما لا غاية بعده . وفي السيرة له مفتاح الشفا ، ذيل به شفاء القاضي عياض وجودّه وأتقنه جداً . وله غير ذلك مما يذكر في موضعه . وتوفي سنة ١٠٩٦ .

أبو علي اليوسي

أبو علي الحسن بن مسعود اليوسي ، نسبه إلى أيت يوسي ، قبيلة في عداد

برُّبر مَلُوية ؛ نابغةُ علماء هذا العصر ومن أفضل المتحققين بالعلوم العقلية والنقلية على سبيل العموم . تخرج بأهل الدِّلاء وجال في المغرب ؛ فدخل سجنِلماسة ودَّرعة وسوس ومرَّاكش ودُّكالة وأخذ بها عن مشائخٍ عدَّة ذكرهم في فهرسته ؛ ثم القى عصا التسيار بالزاوية الدلائية ، فعكف فيها على نشر العلم حتى أوقع مولاي رشيد بأهلها ، فنقله الى فاس . وهنالك أقبل اليه طلببة العلم وتزاحموا على بابه ، فتصدَّر للتدريس بالقرويين فلم يتخلف عن مجلسه الا القليل من مُنافسيه .

ثم خرج الى البادية فاستوطن قَبيلته ، ودرَّس بها العلوم الدينية والأدبية ، فانتشرت عنه فنون المعارف في قبائل المغرب ، ولم يألُ جهداً في التعليم والارشاد والاصلاح والتذكير ، إذ كان على قدَم السلف الصالح في حُسن الهدي واقامة شعائر الدين حتى قال فيه عَصْرِيَّته العلامة أبو سالم العيَّاشي :

مَنْ فَاتَهُ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ يُذَرِّكُهُ فَلْيَصْحَبِ الْحَسَنَ الْيُوسِيَّ يَكْفِيهِ

وكان أبو علي أديباً عبقرياً راويةً للشعر، يستحضرُ ديوان المتنبي وأبي تمام والمعري وقصائدَ كثيرة لغيرهم ، كل ذلك على طَرَف لسانه . وهو نفسه شاعرٌ مُجيدٌ مُكثِرٌ ، الشعر عنده أسهل من النَّقَس ، بل كانت يقول : لو شئتُ أن لا أتكلَّم الا بالشعر لفعلتُ . وديوانُ شعره معروف ، وقد عملنا مُنتخباً منه . وله كتاب المحاضرات وزهر الأَكْسَم في الأمثال والحكم والقانون في ابتداء العلوم ، وكلها كتب نفيسة مفيدة وغيرها . وتوفي سنة ١١٠٢ هـ .

المسناوي

أبو عبدالله محمد بن أحمد المسناوي الدلائي الفاسي العلامة الكبير أحدُ اركان الكلية القروية ومن نفخ فيها روحَ التجديد ، وقام بنهضة علمية صحيحة ، كان راسخاً القدم في علوم العربية والفقه والحديث والتفسير والكلام ، آيةً في الحفظ والأتقان ، قد أُعطيَ الملكة العجيبة في التدريس والعارضة القويَّة في الفتوى فأصبح الحجَّة الذي لا يُنقَضُ قوله ، ولا يكون الرجوع إلا إليه ، على أنه كان يتحرَّى الجوابَ

في مسائل النكاح والطلاق توزعاً منه وخيفة التورط في أمر استحلال الفروج ، وإنما كان غالب أجوبته في مسائل الاعتقاد وأحوال المعاش والمعاد ، وانتصر لسنة القبض في الصلاة في ذلك الوقت الذي كان 'جل' الاعتماد فيه على الفرعيات المنقولة عن علماء المذهب ، من غير رجوع الى الأصول الثابتة والسنة الصحيحة ؛ فكان ذلك من أعلام تجديده وترفعه عن التقليد والأخذ بالملسّمات . أخذ عن عبد القادر الفاسي والحسن اليوسي وعبد السلام القادري وأضرابهم وأخذ عنه ابن الطيّب الشرقي وكثيرون غيره . وكان عظيم الهيبة حسن السمّة ، بادي الوّار ؛ كريم الأخلاق ، متحبيبا الى الناس بهيئة الطّلعة ، يود رائيّه أن لا يحذر منه طرفه . ألف رسالة نصره القبض والرد على من زعم عدم مشروعيّته في النفل والفرض ، وصرف الهمة الى تحقيق معنى الذمّة ، والقول الكاشف عن حكم الاستنابة في الوظائف وغير ذلك . وكانت وفاته عام ١١٣٦ .

أبو علي بن رَحّال

أبو علي الحسن بن رَحّال المَعْنَداني المكناسي ، حافظ المذهب المرجوع اليه في الفتوى والقضاء . كان له اتساع عظيم في النوازل ، وعارضة قوية في الفقه ، تولّى تدريس المدرسة المتوكلية من طالعة فاس فكان يجلسُ عند طلوع الشمس ويتمادى الى الزوال ، لا يضجّر ولا يملّ مع كثرة ما يُلقى اليه من الاسئلة والأبحاث ؛ فيُجيب لا يعجزه شيء من ذلك ، حتى 'دعي' صاعقة العلوم ، وقد ولي قضاء فاس الجديد وقضاء مكناس وبها توفي في رجب سنة ١١٤٠ هـ . له شرح عظيم على المختصر في ستة عشر مجلداً وحاشية على شرح الخرشي عليه ، وحاشية على شرح ميارة على التّحفة ، وكتب أخرى في مسائل مختلفة وهي كلّها في غاية التحرير والاتقان والجمع والتحصيل . ويحدّثنا ابن الطيّب القادري عن أخلاقه فيقول : إنه كان كثير الإنصاف ، شديد التواضع ، سليم الصدر ، كريم النفس ، بعيداً عن التصنّع ، مصيباً في كلامه ، مفضلاً جواداً ؛ وكان كثير العيال والأولاد ، لأنه مطلقاً مزواجاً ، عظيم النفقة لذلك ، رحمه الله .

الإفرائق

أبو عبد الله محمد الصغير الإفرائقي المراكشي ، العلامة المؤرخ الأديب ، صاحب المُنن على التاريخ المغربي والأدب بتأليفه المفيدة ، التي منها نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي ؛ وهو في تاريخ الدولة السعدية وصدر دولتنا العلوية ، ومنها صفوة ما انتشر من أخبار أهل القرن الحادي عشر في تراجم الأعيان ، ومنها المغرب في أخبار المغرب والمسلك السهل في شرح توشيح ابن سهل وغيرها . والحق أن كتبه سدت ثلثة في التاريخ المغربي ، لولاه لبقينا منها في حيرة شديدة ، فهو من أولئك الأفراد الذين بلغوا للاحفاد مآثر الأجداد بأمانة واجتهاد . توفي رحمه الله في حدود سنة ١١٤٠ هـ .

ابن زكري

أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن بن زكري الفاسي العلامة المحقق المشارك المدقق . كان في أول نشأته يمتحن الدبابة ، وكان يحضر مجالس العلم الليلية ؛ فيعي كل ما يسمع ؛ ثم تفقده شيخه في بعض الأيام فقال إني تأخرت في دار الدبغ فقال له لا تعد إليها ، ورغب إلى أبيه أن يحرص على تعليمه فانه أولى له ؛ فأكب على الدرس حتى أدرك ما أدرك ونبغ في العربية نبوغاً فائقاً وفي الفقه والحديث والتفسير والتصوف والأدب فلم يكن يُقَعَّق له بالشئان في كل ذلك . وألف تأليفاً محررة تشهد بطول بابه وكثرة اطلاعه ، منها شرح الفريدة للسيوطي في النحو ، جوده غاية ، وشرح البخاري ، وشرح النصيحة الزرُّوقية ، أبدأ فيه وأعاد . وله الهمة التي عارض بها همزة البوصيري في المديح وشرحها في جزئين ، وكتاب في ذم النظرية العنصرية من قبيل كتاب ميارة في الموضوع ، سماه الفوائد المتبعة في العوائد المستدعة وغير ذلك .

وكان لابن زكري ثروة طائلة فكان يواسي بها الفقراء ، ويكثر من صدقات

المعروف عند الناس ، وكان له 'جلساء' من ذوي اليسار ، فكان يحضهم على الصدقة وفعل البرّ كثيراً ، وترجمته واسعة ، وللزبّادي فيه كتاب سماه العرف الشجري في بعض فضائل ابن زكري . ومما مدح به قول العلويّ شاعر شنجيط :

وَأَنْتَ ابْنُ زَكْرِيٍّ إِمَامٌ مُحَقِّقٌ تَفَرَّدْتَ فِي الْعِلْمِ بِدُونِ شَبِيهِ
إِذَا غُصَّتْ فِي بَحْثِ خَلَصَتْ بِدُرِّهِ وَخَلَّيْتَ عَنْ سَفْسَافِهِ وَرَدِيهِ
يَمْدُكَ فِي اتِّقَانِ عِلْمٍ تَبَشُّهُ قِيَاسُ أَصُولِيٍّ وَنَصُّ فُقَيْهِ
وَقَاكَ الَّذِي أَبْدَاكَ كَالنَّجْمِ يَتَّقِي بِهِ الْغَيَّ مَنْ يَبْغِي الْهُدَى وَيَعِيهِ

توفي ابن زكري سنة ١١٤٤ هـ .

عبدالقادر بن شقرُون

هو أبو النضر عبد القادر بن العربي بن محمد بن علي بن شقرُون المكناسي ، الطبيب الماهر المتفنن . كان ذا براعة في صناعة الطب ، متصدراً للتعليم والعلاج ، أقرّ له الجميع بالتفوق في ذلك وحسن التصرف ، فلم ينازعه أحد . وهو في الأدب فاضل مجيد ، ينظم الشعر البليغ ، ويرسل ترسلًا حسناً . رحل إلى المشرق فحجّ وجال في تلك الديار متطلعاً مستفيداً ، ثم رجع واستقرّ ببلده مكناس حتى توفي . وألّف كتاب النفحة الوردية في العشبة الهندية ، وكتاب منافع الأطعمة والأشربة والعقاقير ، ونظم الرّجزيّة المعروفة بالشقرُونيّة في الأغذية والأدوية وهي مشهورة ، ونظمها سلسٌ ، وتقع في زهاء ٧٠٠ بيت ، والمهمُّ أنها تتناول الكلام على طبيعة الأغذية المغربية المعروفة ، وتصفّ العلاج بناءً على ذلك فهي من الأعمال الطّبيّة الصادرة عن دراسة وخبرة تامّتين . والمترجم لطائف أدبية نثبت بعضها في المنتخبات .

عبد الوهاب درّاق

هو الطبيب النطاسي الأديب أبو محمد عبد الوهاب بن أحمد أدراق بفتح الهمزة والذال وتشديد الراء بعدها الف ثم قاف ، وهو لقبُ أسرته الذي عُرفت به ، وكانت أسرة نبغ منها عدد من الأطباء واصلها من فاس . والمترجمُ هو أكبرهم قدراً وأشهرهم إسمًا ، انتهت إليه رئاسة الطب في زمنه ، وبلغ في الصناعة مكانة عالية وكانت الملوك تُجِلُّه وتعظمه ، وكان إلى معرفته بالطب أديباً بارعاً ونحويًا متمكّنًا وفقيرًا نظّارًا .. أخذ عن اليوسي وطبقته ، وألف في الطب العلمي والطب الشرعي تأليفَ منها أرجوزة ذيلُ بها أرجوزة ابن سينا المعروفة في الطب ، وأرجوزةٌ في حبّ الافرنج وهو الداء الزُّهري المعروف . وكتاب هزّ السّمهري على من نفى عيبَ الجذري . وله تعليقٌ على كتاب النثره للشيخ داود الأنطاكي وغير ذلك . وتوفي رحمه الله عام ١١٥٩ ومُنَّ يُذكرُ من أطباء هذه الأسرة والدُ المترجم أحمد وقريبه محمد الذي دخل طنجة في عهد احتلالها من الانكليز بقصد مُلاقاة الأطباء النصارى ورؤية الشخص الذي صوّروه لتعلّم التشريح مُعينةً .

ابن عبد السلام بناني

أبو عبد الله محمد بن عبد السلام بناني النّسفي الفاسي الفقيه العلامة المُحدّث القُدوة ، كان ذا مشاركةٍ تامّة في العلوم ، وله إقبال عظيم على التعليم ، رحل إلى المشرق وتقلّب في البلاد فحصلت له روايةٌ واسعة ، وكان مائلًا إلى التصوّف حسن الهدى حسن السّمت ، وكثُر الانتفاع به وتخرّج على يده المشائخ الكبار كابن الحسن نسيبه والشيخ التّاودي والعلاّمتين قصّارة وبردلة وغيرهم . ألف شرح الاكتفاء في ستّة أسفار فطار كلّ مطار ، واشتهر أيّ اشتهار ، وألف غيره ، ولو لم يكن له إلا هو لكفاه . وبالجملة فقد كان من الرجال الكاملين والعلماء العاملين ، وقد أفرّدت ترجمته بالتأليف . توفي رحمه الله سنة ١١٦٣ هـ .

ابن الطيّب الشرقي

أبو عبد الله محمد بن الطيّب الصّميلي الشرقي الفاسي الإمام اللّغويّ الشهير، ولد بفاس سنة ١١١٠ وأخذ عن جلّة علماء كالمسناوي والوجّاري وبنّاني المذكور قبّله وغيرهم ، وبرّع وفضل وصار إمام أهل اللغة في عصره غير مُدافع . وكان له مُشاركة في سائر العلوم ورواية واسعة . رحل الى المشرق فحجّ ودرّس بالحرم النبوي ودخل الى الرّوم من طريق الشام ، ورجع من طريق مصر وأخذ عنه في الشام ومصر خلق كثير . وله تأليف خدّم بها اللغة خدمةً جليّة ، ورفع بها لبلاده مناراً أسنى من النّجم وأعلى ، منها حاشيّة العديّة النّظير على القاموس في أربع مجلّدات التي منها كان استمداد الشيخ مرتضى صاحب تاج العروس فإنّه أحد تلامذته الذين أخذوا عنه بالمشرق ، وهو يعترف في أول شرحه أن تخريجَه في هذا العلم كان على يد مترجمنا . وله شرح نظم الفصيح لمالك ابن المرحّل ، وشرح كفاية المتحفّظ ، وشرح المزهر في علوم اللغة للسيوطي سمّاه المُسفر عن خبايا المزهر ، وله ضوؤ القابوس في زوائد الصّحاح على القاموس ، وشرح ديوان الستّة ، وحاشية على دُرّة الغوّاص للحريري وغير ذلك مما هو مذكور في غير هذا المحل . وتآليفه تنيف على الخمسين ، وكلّها مضرب الأمثال في التحرير والاتقان . وله شعر كثير ، وعلى الجملة فهو كما قال الحبيّ عنه في خلاصة الأثر فردّ من أفراد العالم فضلاً وذكاءً ونُبلاً . وكانت وفاته بالمدينة المنورة سنة ١١٧٠ ودفن عند قبر حلّيمة .

الهلالى

أبو العباس أحمد بن عبد العزيز الهلالى السّجلّاسي ، أحد الأئمّة في الفقه والحديث والبيان واللغة والمنطق والحساب والهندسة . درّس على أعلام سجلماسة وفاس وفاق جميع أقرانه في تحقيق هذه العلوم ؛ فكان لا يدرك شأوه ، ولا يُبلغ مداه فيها . وألّف كتباً جليّة كفتح القدّوس في شرح خطبة القاموس ، وإضاءة

الأدوموس من اصطلاح صاحب القاموس ، ونور البصر في شرح خطبة المختصر ،
أبدأ فيه وأعاد ، وأبان عن رؤسوخ قدمية في مقام الاجتهاد . وله الزواهر الأفقية
في شرح الجواهر المنطقية وهو على شرح المنظومة المعروفة بالقادرية في المنطق لأبي
الفضل عبد السلام القادري ؛ وشرحها هذا قل أن يكون له نظير ، استقى من بحره من
أتى بعده . وله أيضاً الياقوتة الفريدة في نظم لب واجب العقيدة وهي تسعة
أبيات ضمنها العقائد الواجبة كلها بدلائلها العقلية من غير رمز ولا لغز فجاءت
آية في البلاغة ، وله النصيحة المشهورة التي يقول في أولها :

يا أيها الانسان هب من كراك واضع من الشكر الذي قد اعتراك
إن الرحيل يا أخي قريب وكلنا مسافر غريب

وقد رحل الى المشرق مرتين وألف رحلة مفيدة . وتوفي عام ١١٧٥ هـ .

أبو العلاء العراقي

أبو العلاء ادريس بن محمد بن ادريس بن حمدون الحسيني العراقي الفاسي ، شهير
هو والسادة أهل بيته بالنسبة الى العراق لقُدوم سلفهم منه ، هذا كان حافظ المغرب
في عصره ، حصل على رياسة الحديث فلم ينازع فيها . وكان قد انصرف اليه بكلية
منذ ابتداء طلبه ، فلم ينشأ ان يبلغ فيه الغاية حفظاً ورواية ودراية ، ومهر
وبهر ودرس ورأس حتى أقر له بالفضل في تلك شيوخه فمن دونهم ؛ فكان يلقب
بسيوطي زمانه ، وقال عنه شيخه أبو حفص الفاسي إنه أحفظ من ابن حجر .
وسأله أحمد بن المبارك صاحب الإبريز وهو من شيوخه عن طريق بعض
الأحاديث ، فذكر له على البديهة ست طرق فقال له الله درك ، لقد تعب ابن
حجر ولم يخرج له الا طريقين ، وبالجملة فهو من مفاخر هذا القطر السعيد في العصر
العتيد ، له المستدرك على الجامع الكبير للسيوطي فيه نحو العشرة آلاف حديث ،
وفتح البصير في التعريف بالرجال المخرّج لهم في الجامع الكبير ، والدثور اللوامع
في الكلام على أحاديث جمع الجوامع ، وتكميل مناهل الصافي تخريج أحاديث الشفاء ،

وتخريجُ أحاديثِ الشَّهاب للقُضاعي وشرحُ علي شمائل الترمذي ، وشرح إحياء الميت للسيوطي ، وشرحُ الثُّلثُ الأخير من المشارق للضَّغاني بأمرِ مؤلوي ، وقد أكمله ولدُه عبدالله . وكان أيضاً محدثاً فاضلاً ، وله غيرُ ذلك . وفي كتبه هذه حرَّرَ الكلام على كثير من الأحاديث وبيَّن ما هو الحقُّ فيها وناقش كبارَ الحفاظ بكلام كافٍ واضح شاف . توفي رحمه الله عام ١١٨٣ هـ .

ابن الطَّيِّبِ الْقَادِرِي

أبو عبدالله محمد بن الطَّيِّب بن عبد السلام القادري الحسَنِي الفاسي العلامة المؤرخ النسَّابةُ الواعية . ولد سنة ١١٢٤ وكان طویلَ الباع ، واسعَ الاطِّلاع ، مقيِّداً للأوابد ، جماعاً للشُّوارد ، له قلمٌ بارع في الانشاء وتصرف في العلوم الشرعية والأدبية مع التقلُّل من الدنيا والزهد والورع والاطمئنان والسَّمت الحسن . من آثاره نشرُ المَثَنِي في أخبار أهل القرن الحادي عشر والثاني وهو نسختان طُبِعَت إحداها ، والمخطوطةُ أوسع من المطبوعة ، والتَّيْقَاط الدُّرَر في أخبار أهل المائتين الحادية والثانية عشر ، والإكليل والتَّسَاج في تذييل كفاية المحتاج للشيخ أحمد بابا ، والزَّهر الباسم في مناقب سيدي قاسم أي الخصاصي وغيرُها . أخذ عن ابن المبارك وابن عبد السلام بناني وابن قاسم جَسُوس وغيرهم . وتوفي في شعبان عام ١١٨٧ هـ .

التَّاوُديُّ بْنُ سُودَهِ

هو أبو عبدالله التَّاوُدي بن الطَّالِب بن سودة المُرِّي الفاسي ، الإمام العالم العلامة شيخُ مَشائِخ المغربُ جَمَلَةٌ ومُجَدِّدُ سَنَدِ التَّعْلِيمِ في القرن الثاني عشر . كان مُقَدِّماً في كل العلوم لا سيَّما التفسير والحديث والفقه والتصوف والكلام والمنطق والأصول . أخذ عن جَمَلَةٍ مَشائِخ عصره ، وأخذ عنه الجَمُّ الغفير الذي يستحيلُ عَدُّه . ولمَّا حجَّ درَّس بالحرمَين الشريفَين ومصر فتسارع النَّاسُ للأخذ عنه لما رأوه من حفظه وإتقانه ، وقد تَمَّ اللهُ عليه النعمة بطول العمر فتخلَّفَ عَمَّن كان معه في عصره ،

وحازَ رياسةَ العلم بفاس والمغرب كلَّه ، فما بقيَ أحدٌ من ينتمي الى العلم بالمغرب الا وله به صلة . وقد جمعَ مع ذلك الاجتهادَ في العبادة والسَّخاءَ وحسنَ الخُلُق والمحبَّةَ العظيمةَ لآل البيت ، والاعتناءَ بأمور الناس ، وخصوصاً الضعفاء منهم ، فتألَّات القلوب على محبته ، واجتمعت الألسن على مدحه ، وله تأليفٌ عظيمُ النفع بها ، وتنافس الناس فيها . منها حاشية على البخاري في أربعة أجزاء وحاشية على الزرقاني كذلك ، وشرح التحفة لابن عاصم ، وشرح الزقاقية ، وشرح الأربعين النووية ، وشرح جامع الشيخ خليل وغير ذلك . توفي رحمه الله سنة ١٢٠٩ هـ .

الطَّيِّبُ بْنُ كَيْرَانَ

أبو عبد الله الطيب بن عبد المجيد بن كيران الفاسي العلامة المَعْقُولِي النَظَّار المفسِّرُ الكبير . ولد سنة ١١٧٢ وأخذ عن الشيخ التاودي والمحشِّي بناني وأضرابهما ، وعنه الفقيه ابنُ عبد الرحمن والكُوْهَن وغيرُهما . وقد تفرَّد في وقته بالجمع بين علمي المعقول والمنقول ، والفروع والأصول ، وله في العربية باعٌ مديد ونظمٌ سديد . وكان يُدرِّس التفسير بالقرويين ، يستحضر أقوال المفسرين جميعاً ويقابلُ بينها ويناقشها ويردُّ الزائف منها بالدلائل القويَّة والحجج البيِّنَة . وكان يحضِّر مجلسه أعيانُ الطلبة والسُّلطانُ فمن دونه من رجال الدولة ، وبالجملة فهو من أفذاذ العلماء الذين لا يحودُ الدهر بواحد منهم إلا في الفَيَمَّة النَّادِرة . وترجمته لا تقتضي الاختصار ، فهذا الكلام لا يفي بأقل القليل من حقه ، له تفسير جليل من سورة النساء الى خم غافر ، وكتب أخرى تذيِفُ على العشرين محرَّرة جدَّ التحرير . وكانت وفاته سنة ١٢٢٧ هـ .

ابنُ بُونَة

هو العلامة النحوي الكبير ، مَفْخَرَةُ شَنْجِيْطُ أَبُو عبد الله محمد المختار بن بُونَة الْجَلْكَنِي الشَّنْجِيْطِي . كان ممَّن طلب العلم وهو كبير ، بسبب أن امرأةً ضرب

ولدها فخاصته وعيثرته بالجهل ، فأنفَ لذلك وسار من غير علم أبويه يريد العلامة المختار بن حبيب فوصل اليه وشرع أولاً في قراءة الأجروميّة عليه . ولم يزل يترقّى به الحال حتى بلغ ما بلغ من المكانة العالية في علم العربية ، وصار رُحلة وقته وإقليمه ، فكان الناس ينثالون اليه من كل وجهة وقبيل . وأخذ عنه مَنْ لا يُحصى عدداً ، وتنافست القبائل في إقامته عندها لينشُرَ فيها ما عنده من العلم وخاصةً علم النحو والكلام ، لأنها كانتا بضاعته المتوافرة . وكان الطلاب قبله لا يتجاوزون ما في ألفية ابن مالك ، وشروحيها مع عدم معرفة الخطّة التي يمكن بها للطالب أن يخزّن في ذهنه بها ما يكون قريب التناول عند الحاجة الى ذلك ، حتى نظم لهم ما تخلّف عن الألفية ممّا تضمّنّه التسهيل ، وألصق كلّ شذرة بما يُناسِبُها ، وضمّ الى ذلك طرّته المفيدة ، وأتى على كل مسألة بالشواهد من كلام العرب . وهذا النظم هو المعروف بالاحمرار لأنه مزجّه بالألفية مزجاً جيّداً وكتبه بالحرّة للفرق بينه وبين نظم ابن مالك واستدرك عليه أبواباً عدّة كالقسّم وجوابه ، والتسمية بلفظ كائناً مَنْ كان وتتميم الكلام والإلحاق ونخارج الحروف والهجاء وغير ذلك ممّا جعل عدد أبياته ضعّف عدد الألفية ، وزيادةً مع إحكام النظم وتنسيقه بحيث تحسبه من الأصل لا فرق بينه وبينه . ولأبن بؤنسة كتب أخرى غير الإحمرار ، وكان حياً في أوائل القرن الثالث .

الرّهوني

أبو عبد الله محمد بن أحمد بن محمد بن يوسف الرّهوني الوزّاني ، الإمام العلامة الحافظ المتّقين . اشتغل بقبيلته رهونة ، ولما أكمل دراسته طلب التعليم بوّزان فبقي هناك مدّة ، ثم ذهب الى فاس لمواصلة القراءة بها فتخرّج في الفقه على مشاهير رجالها . ورجع لوّزان وبها ألف حاشيته المشهورة على بناني ، مُحَشّي الزرقاني . قال في الفكر السّامي : « وهي أهمُّ كتبه ، دلّت على فضله وتمكّنه من علم الفقه ، فضل تمكّن فلقد أجادَ فيها كلّ الإجادة ، وأفاد أحسن الإفادة ، وسلك في التحقيق طريقاً صريحاً ، ومهيّجاً صحيحاً ، ينقل كلام المتقدمين الذي هو الأصل بلفظه ممّا دلّ على نشاطه في الإطلاع وثقوب حفظه ، وبسبب ذلك

فَضَحَ أَغْلَاطاً كَثِيرَةً وَقَعَتْ لِمَنْ قَبْلَهُ فِي الْإِخْتِصَارِ وَالتَّلْخِصِ ، أَفْسَدُوا بِهِمَا كَلَامَ الْمُتَقَدِّمِينَ ، وَغَيَّرُوا الْفِقْهَ عَنْ مَوَاضِعِهِ ، فَهِيَ مِمَّا ادَّخَرَهُ لِلْمَتَأَخِّرِينَ فَكَانَتْ حِجَةً عَلَى الْمُتَقَدِّمِينَ ، فَجَزَاهُ اللَّهُ خَيْرًا عَنْ عِلْمِهِ وَحُرِّيَةِ فِكْرِهِ وَوَضُوحِ طَرِيقِ نَقْدِهِ . وَأَعَانَهُ عَلَى ذَلِكَ مَا عَثَرَ عَلَيْهِ مِنَ الْكُتُبِ الْمُهِّمَةِ ، فِي الْمَذْهَبِ ، الَّتِي يَظْفَرُ بِهَا الْأَجَاهِرَةُ ، وَمَنْ نَاقَشَهُمْ كَالرَّمَاصِيِّ وَبَنَاتَانِي وَالتَّوَادِي وَأَمْثَالِهِمْ . غَيْرَ أَنَّ الْحَاشِيَةَ طَالَتْ فَجَاءَتْ فِي ثَمَانِ مُجَلَّدَاتٍ لِكُونِهَا تَجَلِبُ فِي الْمَعَارِكِ الْكُبْرَى نَصُوصَ الْمُتَقَدِّمِينَ بِالْحَرْفِ الْوَاحِدِ ؛ وَلِذَلِكَ جَاءَ شَيْخُ شَيْوْخِنَا سَيِّدِي الْحَاجُّ مُحَمَّدُ كَنْدُورٌ وَإِخْتَصَرَهَا بِحَذْفِ النُّصُوصِ وَحَلَاهَا بِفَوَائِدٍ يَأْتِي بِغَالِبِهَا أَوَّلُ الْأَبْوَابِ ، كَأَصْلِ الْبَابِ مِنَ السَّنَةِ أَوِ الْكِتَابِ أَوْ نَحْوِ هَذَا مِمَّا لَا يَخْلُو مِنْ فَائِدَةٍ وَقَرَّبَ عَلَى الْمُطَالَعِ مَا عَسَى أَنْ يَطُولَ عَلَيْهِ مِنْ اسْتِيعَابِ نَصُوصِ الرَّهَوْنِيِّ ، وَقَدْ طُبِعَ الْإِخْتِصَارُ بِهَامِشِ الْأَصْلِ ١٥ هـ . مِنْهُ بِتَصَرُّفٍ لَيْسَ بِمُنْقُولٍ . وَنَقُولُ هُنَا أَنَّهُ قَدْ سَقَطَ مِنَ الْإِخْتِصَارِ فِي النُّسخَةِ الْمَطْبُوعَةِ الشَّيْءُ الْكَثِيرُ الَّذِي لَا يُبْعِدُ أَنْ قُلْنَا أَنَّهُ قَدَرُ الْعُشْرِ أَوْ أَكْثَرُ مِنْهُ ، وَذَلِكَ كُلُّ مَا كَانَ يَلْحَقُهُ الْمُخْتَصَرُ فِي هَوَامِشِ النُّسخَةِ الْمَخْطُوطَةِ الَّتِي وَقَعَ عَلَيْهَا الطَّبْعُ . وَمَرَّ رَأْيُ كُتُبِهِ رَحِمَهُ اللَّهُ عَرَفَ أَنَّهُ كَانَ كَثِيرَ الْإِلْحَاقِ فِيهَا حَتَّى لَيْسَ أَوِي الْمُلْحَقِ الْأَصْلُ فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ . وَمِنْ كُتُبِ الرَّهَوْنِيِّ التَّحْصِينِ وَالْمُنْتَقَاةِ مِمَّنْ اعْتَقَدَ أَنَّ السَّنَةَ بِدَعَاءٍ فِي اثْبَاتِ أَنَّ السَّنَةَ السَّكُوتَ عِنْدَ تَشْيِيعِ الْجَنَائِزِ ، وَلَهُ غَيْرُ ذَلِكَ . وَتُوفِيَ رَحِمَهُ اللَّهُ سَنَةَ ١٢٣٠ هـ .

مُحَمَّدُ بْنُ الْحَاجِّ

أَبُو الْفَيْضِ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ الْحَاجِّ السُّلَمِيِّ الْمُرْدَّاسِيِّ ، الْعَلَامَةُ الْأَدِيبُ أَبُو صِيرِيٍّ عَصْرُهُ وَخَفَاجِيٌّ مِصْرِيٌّ ، وَلَدَ وَنَشَأَ بِفَاسَ وَتَلَقَّى دُرُوسَهُ الْعِلْمِيَّةَ بِالْقُرُوبِيِّ عَنِ الشَّيْخِ الطَّيِّبِ بْنِ كَيْرَانَ وَغَيْرِهِ . وَمَا عَثِمَ أَنْ صَارَ لَهُ الشَّوْءُ الَّذِي لَا يُلْحَقُ فِي الْعُلُومِ الدِّينِيَّةِ وَالْأَدَبِيَّةِ مَعًا . وَكَانَ شَاعِرًا مَجُودًا بَارِعًا ، طَلَعَ فِي أَفْقِ السُّلْطَانَةِ السُّلَيْمَانِيَّةِ بِدَرَأٍ لَا مَعَا ، وَشَهَابًا سَاطِعًا .

أَلْفَ تَأْلِيفٍ عَدِيدَةٍ مِنْهَا نَظْمُ مَقْدَمَةِ ابْنِ حَجَرَ وَشَرْحُهُ سَمَاءَ نَفْحَةِ الْمِسْلَا

الدَّارِي لِقَارِيءٍ صَحِيحِ الْبَخَارِيِّ وَحَاشِيَةٍ عَلَى تَفْسِيرِ أَبِي السَّعُودِ وَمَتَّبُوعِهِ الْبَيْضَاوِيِّ
وَأُخْرَى عَلَى مَخْتَصَرِ السَّعْدِ وَقَصِيدَةِ مَيْمِيَّةٍ فِي السَّيْرَةِ فِي نَحْوِ ٤٠٠٠ بَيْتٍ وَشَرَحَ عَلَيْهَا
فِي خَمْسَةِ أَصْفَارٍ ، وَجَمَعَ شَعْرَهُ الَّذِي مَدَحَ بِهِ السُّلْطَانُ مُوَلَايَ سُلَيْمَانَ فِي دِيْوَانِ سَمَاءِ
السُّلَيْمَانِيَّاتِ وَحَلَّاهُ بِشَرَحِ نَفِيسٍ وَلَهُ غَيْرُ ذَلِكَ .

وَكَانَ قَدْ وَرَّاهُ الْحِسْبَةَ بِفَاسٍ ثُمَّ الْمَظَالِمَ بِنَاحِيَةِ الْغَرْبِ ، فَبَالَغَ فِي الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ
وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ وَرَفَعَ الظَّلَامَاتِ عَنِ النَّاسِ ، وَكَانَ أَهْمُ الْأُمُورِ عِنْدَهُ الصَّلَاةُ ،
فَكَانَ يُقِيمُ النَّاسَ مِنْ دَكَكَيْنِهِمْ لِأَدَائِهَا . وَتَوَفَّى رَحِمَهُ اللَّهُ سَنَةَ ١٢٣٢ .

الزَّيَّانِي

هُوَ أَبُو الْقَاسِمِ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ عَلِيٍّ بْنِ إِبْرَاهِيمَ الزَّيَّانِي الْفَنَّاوِيُّ ، مِنْ صُدُورِ كُتُبِ
الدَّوْلَةِ الشَّرِيفَةِ وَوزَرَائِهَا الْمَشَاهِيرِ كَانَ لَهُ مَعْرِفَةٌ بِالتَّارِيخِ وَالْأَدَبِ وَالتَّنْجِيمِ وَغَيْرِ
ذَلِكَ . وَلَهُ قَلَمٌ حَدِيدِيٌّ وَلِسَانٌ سَلِيطٌ ، وَفِيهِ جَرَأَةٌ وَصِرَامَةٌ . لَعِبَ أَدْوَاراً مُهِمَةً فِي
السِّيَاسَةِ الْمَغْرِبِيَّةِ ، وَتَقَلَّبَتْ بِهِ الْأَحْوَالُ ، وَعَانَى كَثِيراً مِنَ الْأَهْوَالِ ، وَأَوْفَدَهُ السُّلْطَانُ
سَيِّدِي مُحَمَّدَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ سَفِيرًا إِلَى الْأَسْتَانَةِ ، فَقَامَ بِالْمِهْمَةِ خَيْرَ قِيَامٍ ، وَأَلْفَ رَحْلَتِهِ
الْمَشْهُورَةِ ؛ وَكَانَ فِي أَحَدِي الْحَادِثَاتِ قَدْ أَصِيبَ رَأْسُهُ بِضَرْبَةِ سَيْفٍ فَطَارَتْ جِجَمَتُهُ
فَجَعَلَ مَكَانَهَا طَرَفًا مِنَ الْقَرْنِ فَاحْتَفَ بِهِ اللَّحْمُ وَتَمَاسَكَ وَعَاشَ طَوِيلًا فَنَافَ
عَمْرَهُ عَلَى الْمِائَةِ ، وَقَدْ قَضَى حَيَاتِهِ الطَّوِيلَةَ فِي الْخِدْمَةِ السُّلْطَانِيَّةِ كَاتِبًا وَوزِيرًا
وَمُشِيرًا وَسَفِيرًا . وَأَلْفَ عِدَّةَ كُتُبٍ مِنْهَا التَّشْرِيحُ الْمَعْرَبُ عَنِ تَارِيخِ دَوْلِ
الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَأَلْفِيَّةُ السُّلُوكِ فِي وَفَيَاتِ الْمُلُوكِ ، وَالْحَادِي الْمَطْرَبُ فِي رَفْعِ نَسَبِ
شُرَفَاءِ الْمَغْرِبِ . وَكَانَتْ وَفَاتُهُ سَنَةَ ١٢٤٩ .

مُحَمَّدُ كَنْوْنٌ

هُوَ الْعَالِمُ السَّلَفِيُّ الْفَقِيهُ الْحَافِظُ الْمُتَقِنُ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدُ بْنُ الْمَدَنِيِّ بْنِ عَلِيٍّ بْنِ
عَبْدِ اللَّهِ كَنْوْنٌ بَفَتْحِ الْكَافِ الْمَعْقُودَةِ وَتَشْدِيدِ النُّونِ الْمَضْمُومَةِ ، اسْمُ بَرِّبَرِيٍّ مَعْنَاهُ

القمر ، كان لُقِّبَ به القاسم بن محمد بن القاسم بن ادريس الحسني فجري على عَقْبِهِ ، وهم يقطنون بقبيلة بني مَسْتَارَة ، وكان الذي انتقل منهم الى فاس هو عبدالله الجد الثاني للمترجم ، ولذلك يُزاد في نسبهِ المستاري الفاسي . وُلِدَ ونشأ بفاس ، واشتغل على كبار علماء عصره مثل الفقيه ابن عبد الرحمن ، واحمد المرينسي ، والطالب ابن الحاج ، والوليد العِراقي ، وعبد السلام بو غالب . وما لبث أن صار فرداً يشار اليه في تحقيق مقاصد العلوم ، المنظوق منها والمفهوم ، وحصل على رتبة الاجتهاد أو كاد وطار صيته في البلاد ، وعمَّ النفع به القاصي والدان ، وتفوّق على الكثير من أشياخه فضلاً عن الأقران . وصفه في الاستقصا بعالم فاس والمغرب ، وجزم كثيرون بأنه مجددُ القرن الثالث عشر ، وقال لنا غير واحد من أشياخنا إن وصف الفقيه في عصره صار علماً بالغلبة عليه ، لا ينصرف إذا أطلق إلا إليه . وقال في الفكر السامي : « هذا الشيخ من أكبر المتضلّعين في العلوم الشرعيّة الورعين المُعلّنين بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وخاتمهم في المغرب شيخ شيوخنا وشيخ شيوخ جُلِّ المغرب ، رأس علمائه في القرن الثالث عشر بلا منازع . كان فقيهاً محدثاً نحويّاً لغويّاً معقولياً مُشارِكاً محقّقاً نزيهاً قوّاً للحق ، مطبوعاً على ذلك ، غير هيّاب ولا وجيل ، مقدّماً مهيباً عاليّ الهمة ، دءوباً على نشر العلم والإرشاد والنهي عن المناكر والبُعدع التي تكاثرت في أيامه ، لا يخشى في الحق لومة لائم ، يحضّر مجلسه الولاة والأمراءُ أبناءُ الملوك وغيرهم وهو يُصرّح بانكار أحوالهم وما هم عليه ، مبينّ لهناتهم ، غير مُتشدّق ولا متصنّع ، بل تعترّيه حال ربّانية ، ولكلامه تأثير على سلطان النفوس ، رزقَ في ذلك القبول والهيبة على نحول جسمه . ووصلته بذلك إذابة وسجين ، لكن بمجرّد سجنه اعتصب الطلبة وقامت قيامة العامة فأطلق سبيله ، لذلك فهو أحق ما يُقال في حقه مجددٌ لكثرة النفع به وانتشار العلم عنه ، وعن تلامذته وقيامه بالنهي عن المناكر وقتّه .

وكان شديداً على أهل الطُّرُق ، وما لهم من البِدَع التي شوّهت جمال الدين ، والمتصوّفة أصحاب الدعاوى التي تُكذّبها الأحوال ، وما كان أحد يقدرُ على الرد عليه مع شدة إغلاظه عليهم وعلى غيرهم وسلوكه في ذلك مسلك التشديد بل التطرف في بعض المسائل ، ومع ذلك هابه علماء وقته ولم يجرؤوا على انتقاده لأنه كان يتكلم بالحال لا بالمقال ، وتحقّقوا خلوص نيته ومطابقة سرّه لعلايته « اهـ منه بلفظه . له كتب كثيرة ، منها الاختصار وتقدم الكلام عليه في ترجمة الرهوني ، وله

تعليق على الموطأ مشحون بالفوائد الحديثة ، وساذج الفقه ، وله حاشية على شرح فرائض المختصر للشيخ بنيس ، وكتاب الزجر والاقناع عن آلات اللهو والسباع ، وكتاب التسلية والسلوان لمن ابتلي بالاذاية والبهتان ، ونصيحة النذير العريان في التحذير من أهل الغيبة والنميمة والبهتان ونصيحة ذوي الهمم الأكياس فيما يتعلق بخلاطة الناس ، والدرر المكنونة في النسبة الشريفة المصونة ، والدرر المستنيرة بشرح حديث لا عدوى ولا طيرة ، والنوازل وخلاف ذلك من الكتب في مسائل فقهية خاصة ، والرسائل في مواضيع إصلاحيّة دينيّة وسياسيّة . وترجمته رحمه الله أوسع بكثير من هذا ، وقد استوفى الجانب الديني منها الشيخ مصطفى المشرقي في كتاب الدرر المكنون . ونحن لم يكن في نيّتنا أن نترجم له في هذا الكتاب ، ولكن صديقنا المرحوم فقيده الوطن السيد الحاج عبد السلام بنونه ألحّ علينا كثيراً في ترجمته لما رأى الكتاب خالياً منها قائلاً : إن مثل الفقيه كنون لا يجوز أن يخلو من ذكره كتاب يوضع بين يدي الناشئة لتذكيرها بمجدها الطارف والتليد ، وعظمة تاريخها القريب والبعيد ، فنزولاً على رأيه ذكرنا هذه الترجمة المقتضبة من أقوال الناس فيه ، وكانت وفاته رحمه الله ليلة الجمعة فاتح ذي الحجة الحرام عام ١٣٠٢

ولنكتفٍ بهذا القدر ، فإنا لو تتبعنا تراجم العلماء في هذا العصر لما وسعنا هذا الكتاب كله ، وقد أتينا على جملة من أعيانهم ومن بقي منهم نعوضُ عن تراجمهم ذكر مؤلفاتهم ، وإن كنا لا نذكر أيضاً إلا المهم من تلك المؤلفات ، إذ لو قصدنا إلى استيعابها لأوقعنا القارئ في الملل الذي لا نشك في عدم احتماله إياه ، وكفاك من القِلادة ما أحاط بالعنق .

كتب التفسير والحديث وتوابعها :

البحر المديد في تفسير القرآن المجيد لابن عجيبة المتوفى سنة ١٢٢٤ ، حاشية على الجامع الصغير له ، التفسير الكبير لابن سعيد الدّيماني ، تفسير القرآن للشيخ الطيب ابن كيران ، شرح حديث إنما بقاؤكم فيمن سلف من الأمم كما بين صلاة العصر إلى غروب الشمس له ، شرح حديث لا يدخل الجنة ولد زنى ولا ولد ولد له ، شرح ألفية العراقي في علم الحديث له ، قال في الاستناد : له تفسير القرآن لأبي الحسن الدّمناتي المتوفى سنة ١٣٠٦ ، حاشية على البخاري له ، حاشية على مسلم له ، حاشية

على النَّسَائِيَّ له ، حاشية على أبي داود له ، حاشية على التِّرْمِذِيَّ له ، حاشية على ابن ماجه له ، حاشية على تفسير أبي السُّعُود والبيضاوي لمحدون بن الحاج ، نفحة المسك الداري لقاري صحيح البخاري له ، شرح البخاري للحَضِيكِي المتوفى سنة ١١٨٩ ، شرح الشفا له ، شرح نظم نُجْبَةِ الْفِكْرِ في اصطلاح الحديث له ، حاشية على البخاري لعبد القادر الفاسي ، زاد المُجِدِّ الساري الى قراءة صحيح البخاري للتَّائُوْدِيَّ ابن سودة ، حاشية على سُنَنِ أَبِي دَاوُدَ له ، شرح المشارق للصَّغَانِيَّ له شرح الأربعين النووية له ، شرح أول ترجمة من البخاري للكُؤْهَمَن المتوفى سنة ١٢٥٤ ، شرح آخر ترجمة منه له ، إمداد ذوي الاستعداد الى معالم الرواية والاسناد له ، شرح الموطأ للحريشي المتوفى سنة ١١٤٨ ، شرح الشفا له ، شرح منظومة ابن زكري التلمساني في الاصطلاح له ، شرح الموطأ للسُّدْرَانِيَّ المتوفى سنة ١٢٥٣ ، شرح الموطأ لمحمد كنون ، الدرر المستنيرة في شرح حديث لا عدوى ولا طيرة له ، المُسْتَدْرَك على الجامع الكبير لأبي العلاء العراقي ، الدرر اللوامع في الكلام على أحاديث جمع الجوامع له ، تكميل مناهل الصفا في تخريج أحاديث الشفا له ، تخريج أحاديث الشهاب له ، شرح شمائل الترمذي له ، شرح الثلث الأخير من المشارق بأمر سلطاني له ، تكميل شرح المشارق لولده عبدالله المتوفى سنة ١٢٥٤ ، الجمع بين الكتب الخمسة والموطأ للرُّودَانِيَّ ، الأوَّلِيَّات له ، صِلَةُ الْخَلْف بِمَوْصُولِ السَّلَف له ، اقتفاء الأثر بعد ذهاب أهل الأثر لأبي سالم العيَاشِيَّ المتوفى سنة ١٠٩٠ ، اتِّخَافُ الْإِخْلَافِ بِأَسَانِيدِ الْأَجِلَاءِ له ، شرح الشمائل لابن قاسم جَسْثُوس المتوفى سنة ١١٨٢ ، شرح الشمائل لبدر الدين الحُمُومِيَّ المتوفى سنة ١٢٦٦ ، شرح الشمائل لابراهيم التادلي المتوفى سنة ١٣١١ ، شرح الحِصْنِ لمحمد بن عبد القادر الفاسي المتوفى سنة ١١١٦ ، شرح نظم النُجْبَةِ له ، حاشية على شرح الحصن للتمَّاق المتوفى سنة ١١٥١ ، شرح الأربعين النووية للعلماء الأربعة أحمد الثاودي ابن سودة المتوفى سنة ١٢٣٥ وعبد القادر بن شقرون الفاسي المتوفى سنة ١٢١٩ ومحمد بَنَيْس المتوفى سنة ١٢١٤ والشيخ الطيب ابن كيران . عشرة أحاديث لكل عالم على ترتيبهم المذكور بأمر سُلْطَانِيَّ ، شرح تيسير الوصول الى جامع الأصول للقاضي عبد الهادي العلوي المتوفى سنة ١٢٧١ ، شرح الشفا لمحمد بن عبد الرحمن الدَّلَائِيَّ المتوفى سنة ١١٤١ ، شرح الشفا لابن عبد السلام بناني ، مفتاح الشفا لأبي زيد الفاسي ، استطابة التحديث بمُصْطَلَحِ أَهْلِ الْحَدِيثِ له ، اللُّمَعَةُ في قراءة السبعة له ، شرح الفية الاصطلاح للعراقي لأحمد

أحوزي فهرسة له ، سماها قِري العَجَلَان ، حاشية على الجعبري شارح حِرْز الأمامي للمنجرة المتوفى سنة ١١٧٩ ، حاشية على شرح الخراز لابن عاشر له ، شرح الدالية في وقف حمزة وهشام على الهمزة له ، حاشية على الجعبري لابن عبد السلام الفاسي المتوفى سنة ١٢١٤ ، شرح الدالية له ، التوضيح والبيان في مَقْرَأ نافع بن عبد الرحمن للبدر اوي المتوفى سنة ١٢٥٧ ، حاشية على الجعبري له ، شرح الدالية له ، إعراب القرآن للحسن الباعمراني ، حاشية على تفسير الجلالين لعبد الرحمن الحائك المتوفى سنة ١٢٣٧ .

كتب الفقه والتصوف وتوابعها :

شرح المختصر لأبي علي بن رَحَّال ، حاشية على الخُرشي له ، حاشية علي ميسرة على التحفة له ، الارتفاق في مسائل الاستحقاق له ، كشف القناع في تضمين الصناعات له ، رفعُ الالتباس في شركة الخماس له ، شرح المختصر للمجلدي المتوفى سنة ١٠٩٤ ، أمُّ الحواشي له ، كتاب الحِسْبَة له ، اختصار المعيار له ، شرح المختصر لابن عبد الصادق الدكالي المتوفى سنة ١١٧٥ ، شرح المرشد له ، شرح المختصر لإبراهيم التادلي ، شرح الرسالة له ، شرح تحفة ابن عاصم له ، شرح الزقاقية له ، شرح فرائض المختصر له ، شرح المرشد له ، شرح خطبة المختصر للهلاي ، شرح فرائض المختصر لبَنَيْس ، حاشية على شرح المواق للمختصر لعبد الرحمن الحائك ، حاشية على شرح أبي الحسن للرسالة لعلي بركة المتوفى سنة ١١٢٠ ، الدرر الحسان فيما يخاطب به الانسان من الاسلام والايمان والاحسان له ، العلكم المبسوط في حكم بيع المضبوط لأحمد أحوزي ، فتح العلام على قواعد الاسلام له ، نوازل فقهية له ، الدرر في نظائر المختصر لعمر الكرسيفي ، رجز في قسم التركات وشرحه له ، رسالة في تحرير الصاع النبوي له ، الكوثر الشجاج في نظم مختصر المدخل لابن الحاج له ، حاشية على الخُرشي لمولاي سليمان المتوفى سنة ١٢٣٨ ، حاشية على الخُرشي للفقيه ابن عبد الرحمن المتوفى سنة ١٢٧٥ ، حاشية على الخُرشي للمهدي ابن سودة المتوفى سنة ١٢٩٤ ، حاشية على الزرقاني شارح المختصر لابن الحسن بناني المتوفى سنة ١١٩٤ ، حاشية على الزرقاني للتاوذي ابن سودة ، شرح التحفة له ، شرح الزقاقية له ، النوازل له ، حاشية الرهوني على الزرقاني وبناني ، التحصن والمنعة من اعتقاد أن السنة بدعة له ، اختصار حاشية الرهوني لمحمد كنثون ، حاشية على بنيس على الفرائض له ،

رسالة في النشؤ له ، رسالة في الشهادة والقضاء والفتوى له ، النوازل له ، شرح التحفة لأبي حفص الفاسي المتوفى سنة ١١٨٩ ، شرح الزقاقية له ، شرح الزقاقية للشدادي المتوفى سنة ١١٦٣ ، حاشية على ميثارة على التحفة له ، النوازل له ، شرح الزقاقية لابن عبد السلام بناني ، شرحها أيضاً لأبي عبد الله الورزازي المتوفى سنة ١١٦٦ ، حاشية على ميثارة على التحفة للرعناوي المتوفى سنة ١١٥٠ ، البهجة في شرح التحفة للتشولي المتوفى سنة ١٢٥٨ ، شرح الشامل له ، حاشية على شرح التاودي على الزقاقية له ، النوازل له ، رجز فيما انفرد به ابن عاصم عن خليل لابن طاهر الهواري المتوفى سنة ١٢٢٠ ، شرح فرائض الرسالة لمحمد الحامدي ، شرح الزقاقية له ، تهذئة النفوس المربكة بتحرير ما يحل وما يحرم من التركة لمحمد بن علي الششتوكي ، نظم العمل الفاسي لأبي زيد الفامي ، نظم العمل المطلق وشرحه للرباطي المتوفى سنة ١١١٤ ، شرح العمل الفاسي له ، نصرة القبض للمسنوي ، القول الكاشف عن حكم الاستنابة في الوظائف له ، صرف الهممة الى تحقيق معنى الذمة له ، النوازل له ، إزالة الدلسة في أحكام الجلسة للتماق ، النوازل له ، الوثائق الفرعونية لبناني فرعون المتوفى سنة ١١٦١ ، النوازل لبردة المتوفى سنة ١١٣٣ ، فتح المغيب في حكم اللحن في الحديث للأفراني ، شرح المرشد لبدر الدين الحمومي ، شرح الحكم العطائية له ، شرح الوظيفة الزروقية له ، شرح المشيشية له ، حاشية على ميثارة على المرشد للطالب ابن الحاج المتوفى سنة ١٢٧٣ ، شرح رائية ابن ناصر في قواعد الاسلام للتجموعي المتوفى سنة ١١١٨ ، معونة الاخوان بمعرفة أركان الإيمان والاسلام والاحسان لعبد السلام القادري المتوفى سنة ١١١٠ ، تتميم الافراح بتنعيم الأرواح له ، نظم بيوع ابن جماعة لأبي سالم العياشي ، شرحه له ، القول المحكم في عقود الأصم الأبكم له ، تحرير الكلام في أمر النبي صلى الله عليه وسلم في المنام له ، تنبيه ذوي الهمم العالية على الزهد في الدنيا الفانية له ، نظم أصول التصوف لزرروق له ، رسالة في تزاور أهل الجنة وتحشرهم للطبيب ابن كيران ، شرح كتاب العلم من الإحياء له ، شرح الحكم العطائية له ، شرح المشيشية له ، شرح النصيحة الهلالية له ، تحريك الهمم العوال الى مراتب الكمال له ، الزجر والإقاع عن آلات اللهو والسماع لمحمد كنون ، التسلية والسؤلوان لمن ابتلي بالإذابة والبهتان له ، نصيحة النذير العريان في التحذير من أهل الغيبة والنميمة والبهتان له ، نصيحة ذوي الهمم الأكياس فيما يتعلق بخلطة الناس له ، ايقاظ المفتون المغرور ممن تدم عواقبه يوم

النشور له ، رسالة في الرؤيا له ، اختصار رسالة العَجيمي في الطرق الصوفية له ، شرح النصيحة الزروقية لابن زكري ، الفوائد المتبعة في العوائد المبتدعة له ، اختصار شرح النصيحة الزروقية لأبي مدين الفاسي المتوفى سنة ١١٨١ ، الابرين لأحمد بن المبارك المتوفى سنة ١١٥٦ ، ازالة اللبس عن المسائل الخمس له ، اختصار المدخل لابن عجيبة ، شرح الحكم له ، شرح المباحث الأصلية له ، شرح الحزب الكبير لابن عبد السلام بناني ، شرح المشيشية له ، شرح الحزب الكبير لأحمد الوزير المتوفى سنة ١١٤٤ ، شرح المشيشية له ، شرح دلائل الخيرات ثلاث نسخ للمهدي الفاسي سنة ١١٠٩ تبصرة العامل وتذكره الغافل للطبيب المريني المتوفى سنة ١١٤٥ ، مُرقي الأنام الى عُرف دار السلام لعبد السلام جَشُوس المتوفى سنة ١١٢١ ، رسالة الصوفي للصوفي لا بن عزُّوز المراكشي المتوفى حوالي سنة ١٢٩٥ ، الأسئلة والأجوبة له في الفقه ، كتاب استنشاق الفرج بعد الأزمة للمدني بن جلون المتوفى سنة ١٢٩٨ ، العزيمة في سلوك الطريق المستقيمة للأزاريفي ، القمّع في تهذيب الطبع له ، ورّدة الجيوب في الصلاة على النبي المحبّوب لمحمد بن عبد العزيز الرّسْموكي ، كتاب نزّه الناظر وبهجة الغصن الناضر لأحمد بن عبد القادر التّسْتَاوتي ، المتوفى سنة ١١٢٧ ، شوارق الأنوار وطوابع الأسرار له . المزايافيا حدث من البدع بأم الزوايا لابن عبد السلام الناصري المتوفى سنة ١٢٣٩ .

كتب المنطق والكلام والأصول

القَادِرِيَّة في المنطق لعبد السلام القادري ، النّسِيم المعبق في توجيه الخلاف الوارد في المنطق له ، تنبيه المُعْرِضين عن آيات السموات والأرضين له ، الخريدة في المنطق لمحدون ابن الحاج ، الحلل في علم الجدَل لأبي زيد الفاسي ، شرح الطّالِع المُشرق في علم المنطِق له ، المُستَفاد في أصول الاعتقاد له ، رَجَزٌ في المنطق لابن طاهر الهوّاري ، اللّثالي المنثورة في مُناقشة سعيد قدّورة ، شارح السُّلّم له ، رجز في الكلام له ، شرح مختصر المنطق له ، مناهج الخلاص لليوسي ، شرح السُّلّم له ، شرح المقاصد لابن يعقوب المتوفى سنة ١١٢٨ ، حاشية على المحلّي له ، حاشية على مختصر المنطق له ، حاشية على الكُبْرى لأبي حفص الفاسي ، حاشية على مختصر المنطق لابن الحسن بنّاني ، شرح السُّلّم له ، حاشية على شرح قدّورة على السُّلّم لأحمد بن المبارك ، ردّ التشديد

في مسألة التقليد له ، حاشية على شرح قدثورة لابن منصور الشفشاوني المتوفى سنة ١٢٣٢ ، حاشية على بنثاني على السلم له ، حاشية على المحلّي له ، حاشية على قدثورة له ، حاشية على بنثاني على السلم له ، حاشية على قدثورة لأقضي المتوفى سنة ١٢٥٠ ، حاشية على بنثاني على السلم للمهدي بن سودة ، حاشية على المحلّي له ، القول المسلم على نظم السلم لبراهيم التادلي ، شرح مختصر المنطق له ، شرح الصغرى له ، شرح الجوهرة له ، شرح جمع الجوامع له ، شرح القادرية للهلاي ، الياقوتة الفريدة له ، شرح الخريدة لمحمد بن حمدون بن الحاج المتوفى سنة ١٢٧٤ ، شرح الخريدة للطيب ابن كيران ، رسالة في المقولات العشر له ، شرح توحيد الرسالة له ، شرح توحيد المرشد له ، شرح رسالة مولاي سليمان في الكسب له ، رسالة في الرد على الوهابية ، رسالة في قول الغزالي ليس في الأمكان أبدع مما كان له ، رسالة في المطالب السبعة للمدني بن جلثون ، الحكم بالعدل والانصاف فيما بين علماء سجماسة من الاختلاف لأبي سالم العياشي ، الدرّة السنية الفائقة في كشف مذاهب أهل البدع من الخوارج والروافض والمعتزلة والزنادقة للزيّاني ، معراج الوصول الى سماوات الأصول لابن زاكور ، مراقبي الشعود نظم جمع الجوامع لأبن الشبكي وشرحه لعبد الله بن ابراهيم العلوي المتوفى سنة ١٢٣٠ ، الأسئلة والأجوبة في الأصول لابن عزّوز المراكشي ، نظم الورقات لمحمد الحامدي .

كتب النحو واللغة والبيان :

شرح التسهيل للمُربط الدّلائي المتوفى سنة ١٠٨٩ ، شرح الألفية له ، شرح البسط والتعريف في علم التصريف له ، شرح كافية ابن مالك لابن الطيب الشرقي ، شرح الاقتراح له ، شرح لامية الأفعال له ، حاشية على المرادي له ، حاشية على التسهيل له ، حاشية على المغني له ، حاشية على القاموس له ، ضوء القابوس في زوائد الصحاح على القاموس له ، شرح نظم الفصيح له ، شرح كفاية المتحفظ له ، المُسفر عن خبايا المزهرة له ، حاشية على درّة الغوّاص له ، إقرار العين في إقرار الأثر بعد ذهاب العين ، جمع فيه من تصانيف اللغة شيئاً كثيراً له ، شرح شواهد الكشف له ، شرح شواهد البيضاوي له ، شرح شواهد التوضيح له ، شرح شواهد التلخيص له ، شرح الأجرومية لبراهيم التادلي ، شرح الألفية له ، شرح

فريدة السيوطي له ، شرح كافية ابن الحاجب له ، شرح القَطر له ، شرح الأزهرية له ، شرح الشذُور له ، شرح لامية الأفعال له ، شرح 'جَمَلُ الجِراد له ، رسالة المجاز وشرحها له ، شرح التلخيص للقزويني له ، حاشية على السَّعد له ، شرح الألفية لأبي نافع المتوفى سنة ١٢٦٠ ، شرح الألفية للطرباطي المتوفى سنة ١١١٤ ، شرح الفريدة لابن زكري ، شرح خطبة القاموس للهلال ، إضاءة الأدموس من اصطلاح صاحب القاموس له ، شرح لامية الأفعال لابن يعقوب ، شرح التلخيص له ، شرح خطبة السعد له ، حاشية على المكودي لأحمد بن الحاج المتوفى سنة ١٣١٠ ، حاشية على الأزهرية على الأجرومية له ، حاشية على التسهيل للروداني ، حاشية على التوضيح له ، مختصر التلخيص وشرحه له ، حاشية على المكودي للمرينسي المتوفى سنة ١٢٧٧ ، حاشية على المرادي للمنجرة ، حاشية على المكودي لابن جليثون المتوفى سنة ١١٣٦ ، حاشية على التصريح لابن منصور الشفشاوني ، حاشية على السعد له ، حاشية على المغني لأبي حفص الفاسي ، حاشية على بجراق للطالب ابن الحاج ، حاشية على التوضيح لابن الحسن بنثاني ، حاشية على المكودي للعربي بن سودة المتوفى سنة ١٢٢٩ ، حاشية على لامية الأفعال له ، حاشية على المكودي لعلي بركة ، شرح الأجرومية له ، شرح شواهد ابن هشام لمحمد بن عبد القادر الفاسي ، نظم الموضح لمحمد بن حمدون بن الحاج وشرحه له ، ابتهاج الأرواح في أصول النحو لأبي زيد الفاسي ، ذات الحلل في الجمل له ، القَطف الدَّاني في علم البيان والمعاني له ، أحكام المعروف من أحكام الظروف لعبد السلام القادري ، الجود بالموجود في المقصور والممدود لابن زاكور ، الحسام المسلول في قصر المفعول على الفاعل والفاعل على المفعول له ، رسالة في لو الشرطية للطبيب ابن كيران ، رسالة في ما أنا ضربت إلا زيداً له ، رسالة في مثلك لا يَبخل وغيرك لا يَجود له ، رسالة في الهمزة المسهلة له ، رسالة في توجيه «إنما يخشى الله من عباده العلماء» على قراءة مَنْ رفع اسم الجلالة ونصب لفظ العلماء له ، رسالة في النكرة واسم الجنس وعلمه والمعرف بلام الحقيقة ولام العهد له ، رسالة في مبحث الجامع الخيالي له ، نظم الاستعارة له ، نظم الاحمرار وطَرَّتْ له لابن بوننة ، نور الأقاح وشرحه له . فيض الفتاح في علوم البلاغة لعبد الله بن ابراهيم العلوي الشنجيطي ، نظم المغني لابن هشام لعبد العزيز الرَّسْمُوكي ، كافية النهوض في صناعة

العروض له ، حاشية على صحاح الجوهري له ، شرح الجواهر المكنون لأحمد بن محمد الفاسي ، شرح نظم المغني لمحمد الأدوزي ، شرح خطبة الألفية للكردي المتوفى سنة ١٢٦٨ ، حلية العروس في نظم اصطلاح صاحب القاموس له ، مختصر القاموس للوجاري المتوفى سنة ١١١٤ ، نزهة الجلاس في أنواع الجناس لابن طاهر الهواري ، شرح نظم الاستعارة للبوري المتوفى سنة ١٢٤٣ ، شرح نظم الاستعارة لأقصي ، حاشية على السعد للمهدي ابن سودة ، حاشية على السعد لمحمدون ابن الحاج .

كتب السير والتراجم والأنساب

العقد المنضد بجواهر مفاخر محمد للمهدي الفاسي ، كفاية المحتاج من خبر صاحب التاج له ، فخر الثرى بسيّد الورى لمحمد بن عبد الرحمن الدلائي ، زهر الحقائق في سيرة خير الخلائق له ، درة التيجان ولقطة اللؤلؤ والمرجان في أنساب شرفاء المغرب له ، شرح الاكتفاء له ، نفائس الدرر في سيرة سيّد البشر لمسعود جمشوع المتوفى سنة ١١١٩ ، الروضة ، وسطي وصغرى في السيرة له ، ذخيرة المحتاج في سيرة صاحب اللّواء والتّاج في خمسين مجلداً للمعطي ابن الصّالح الشرقاوي المتوفى سنة ١١٨٠ ، ميمية السيرة في أربعة آلاف بيت وشرحها لمحدون ابن الحاج ، الهمزية وشرحها لابن زكري ، شرح الاكتفاء لابن عبد السلام بنّاني ، شرح البردة له ، شرح سيرة ابن فارس لابن الطيب الشرقي ، شرح سيرة ابن الجزري له ، الأنيس المطرب فيمن لقيته من أدباء المغرب له ، حاشية على الاكتفاء لأحمد الوزير ، شرح همزية البوصيري له ، شرح البردة له ، شرحها أيضاً لأحمد بن محمد الفاسي ، جلاء القلب القاسي في التعريف بالمهدي الفاسي له ، شرح الهمزية لبّيس ، معجم أسماء الصحابة لعبد الرحمن العراقي ، اختصار الحلية لعبد الله العراقي المتوفى سنة ١٢٣٤ ، المقصد الأحمد في التعريف بأحمد بن عبد الله لعبد السلام القادري ، العرف العاطر فيمن بفاس من أبناء الشيخ عبد القادر له ، الإشراف على نسب الأقطاب الأربعة الأشراف ، الجيلاني وابن مشيش والشاذلي والجزولي له ، معتمد الراوي في مناقب أحمد الشاوي له ، نيل القرّبات بأهل العقبات له ،

رجاء الإجابة بالبدرين من الصحابة له ، عقد اللئال فيما له صلى الله عليه وسلم من الآل له ، مَطْلَعُ الإشرَاق في الأشراف الواردين من العراق له ، نشر المثاني في أخبار أهل القرن الحادي عشر والثاني لابن الطيب القادري ، التقاطُ الدُرَر في أخبار أهل القرن الحادي عشر له ، الإكليلُ والتاج في ذيل كِفَايَةِ المحتاج له ، الزُّهْرُ الباسم في مناقب قاسم الخصاصي له ، الاستشفاءُ من الألم في التَلَذُّذُ بذكر صاحب العلم لابن زاكور ، جُهدُ المَقِيلِ القاصر في نصرة الشيخ عبد القادر للمسنوي ، نتيجة التحقيق في بعض أهل النسب الوثيق له ، البُدرُ الضاوية في ذكر أهل الزاوية الدلائية لسليمان الحَوَّات المتوفى سنة ١٢٣١ ، الروضة المقصودة في مآثر بني سُودة له ، قُرَّةُ العُيون في الشرفاء القاطنين بالعيون له ، السر الظاهر في أولاد الشيخ عبد القادر له ، الأنيس المطرب فيمن لقيته من أدباء المغرب لابن الطيب العَلَمي ، أعيان الأعيان لمحمد بن أحمد الفاسي المتوفى سنة ١١٧٩ ، شرح درة التَّيْجَان له ، العَرَفُ الشَّحْرِي في بعض فضائل ابن زكري للزَّبادي المتوفى سنة ١١٦٣ ، التعريف بابن عباد له ، أزهار البستان في طبقات الأعيان لابن عجيبة ، صفوة ما انتشر من أخبار أهل القرن الحادي عشر للأفراني ، طَلْعَةُ المشتري في التعريف بالزمخشري له ، تَكْمَلَةُ التَّكْمَلَةِ للديباج ، لِبَابُ بن أحمد بيب الشَّنْجِيْطِي ، طبقات الحَضِيكِي لمحمد بن أحمد الحَضِيكِي ، مختصر الإصابة له ، سَنَّا المُهْتَدِي الى مفاخر الوزير اليَحْمَدِي لعلي مصباح ، روض البهار في ذكر جملة من شيوخنا الذين فضلهم أجلى من النهار للطالب ابن الحاج ، رياض الورْد فيما انتهى اليه هذا الجوهر الفَرْد له ، وهو في ترجمة والده حمدون بن الحاج ، الإشراف على بعض من بفاس من مشاهير الأشراف له ، نظم اللئال في شرفاء عَقْبَةِ ابن صَوَّال له ، الفية السلوك في وفيات الملوك للزياني ، الحادي المطرب في رفع نسب شرفاء المغرب له ، الدر النفيس في بني محمد بن نفيس للوليد العراقي المتوفى سنة ١٢٦٥ ، تحفة الاخوان ببعض مناقب شرفاء وزان للطاهري المتوفى سنة ١١٩٣ ، شذور الذهب في خير نسب للتهامي بن رحمون ذكر فيه الأشراف الادارسة عامة ، الأنجم الزاهرة في الذرية الطاهرة له ، جعله خاصاً بالأشراف العلميين ، فتح العليم

الخبير في تهذيب النسب العلمي بأمر الأمير لمحمد بن الصادق بن ريسون ألقاه
بأمر السلطان سيدي محمد بن عبدالله .

كتب التاريخ والرحلات

المغرب في أخبار المغرب للأفرائي ، نزهة الحادي في أخبار ملوك القرن
الحادي له ، الترجمان المغرب عن تاريخ دول المشرق والمغرب للزياني ، الروضة
السلمانية في الدولة الاسماعيلية وما تقدمها من الدول الإسلامية له ، البستان الظريف
في دولة أولاد مولاي علي الشريف له ، التاج والاكمل في مآثر السلطان الجليل له ،
الترجمة الكبرى في أخبار العالم برأ وبجرأ له ، رحلة الحذاق لمشاهدة البلدان
والآفاق له ، الجيش العرمم الحماسي في دولة أولاد مولانا علي السجلماسي
للكنسوس ، المغرب المبين عما تضمنه الأنيس المطرب وروضة النسرين لابن
زاكور ، نشر أزاهر البستان في الرحلة الى الجزائر وتطوان له ، الدر المنتخب
المستحسن في تاريخ دولة مولانا الحسن لأحمد بن الحاج ، ماء الموائد وهي
رحلة الحجاز لأبي سالم العياشي ، رحلة الحجاز لأحمد بن ناصر المتوفى سنة ١١٢٩ ،
رحلة الحجاز لابن الطيب الشرقي ، رحلة الحجاز لابن عبد السلام الناصري ، بلوغ المرام
بالرحلة الى بيت الله الحرام للزبادي ، رحلة الوزير في افتكاك الأسير لأبي عبدالله الوزير
المتوفى سنة ١١١٩ ، نتيجة الاجتهاد في المهادنة والجهاد وهي رحلة الى اسبانيا لأحمد
الغزال المتوفى سنة ١١٩١ ، رحلة حجازية للتجاني بن باب الشنيطي ، نزهة
الإخوان في تاريخ تطوان لعبد السلام سكيرج المتوفى سنة ١٢٥٠ ، المعارج المرقية
في الرحلة الشرقية للرافعي التطواني .

كتب الأدب ودواوين الشعر

عنوان النفاسة في شرح ديوان الحماسة لابن زاكور ، مقياس الفوائد في شرح
ما خفي من القلائد له ، الصنيع البديع في شرح الحليّة ذات البديع له ، تفريح
الكرب بشرح لامية العرب له ، النسمات البنفسجية في شرح الخزرجية له ،

أنفعُ الوسائل في أبدع الخطب وأبرع الرسائل له ، الروض الأريض في بديع التوشيح ومُنتقى القريض له ، المسلك السهل في شرح تومشيع ابن سهل الافراني ، شرح بانت سعاد لابن الحسن بناني ، المحاضرات لليوسي ، زهرُ الأكم في الأمثال والحكم له ، شرح الدالية له ، ديوان شعر له ، تحفة الأريب ونزهة اللبيب لأبي مدين الفاسي ، المحكم في الأمثال والحكم له ، ديوان خطب له ، سراج الطلاب في أدب طلب العلم المساري ، نضار الأصيل لعبدالله شطير المتوفى سنة ١٢١٤ ، ديوان شعر لمحمد بن يعقوب التطواني ، القصائد العشرة في التشويق الى البقاع المطهرة للعلمي ، مقصورة في المديح لأحمد الوزير ، ديوان خطب للرهوري ، ديوان خطب للبدرأوي ، ديوان شعر لأبي سالم العياشي ، ديوان شعر على طريقة الصوفية لابن عجيبة ، ديوان السليانيات لمحمدون ابن الحاج ، ديوان شعر للرافعي التطواني ، ديوان شعر لعبد السلام القادري ، ديوان شعر للزياني ، كتاب الأنيس المغني عن الجليس له ، الشمة مقيمة لابن الوتان ، ديوان شعر على طريقة أهل التصوف للحرّاق المتوفى سنة ١٢٦١ ، ديوان شعر للتجاني بن باب الشنقيطي ، شرح مقصورة ابن دريد للشيخ سيدي الأبييري ، ديوان شعر لعلي مصباح ، أنس السمير في نوازل الفرزدق وجريز له ، اليواقيت الأدبية بجيد الملكة الحمديّة لأحمد الغزال ، الأطروفة الهندسية والحكمة الشطرنجية الأنسية له ، نتيجة الفتح المستنبطة من سورة الفتح له ، اليواقيت الأدبية في الأمداح النبوية له .

كتب في مختلف العلوم

القانون في ابتداء العلوم لليوسي ، الأزهار الطيبة النثر في المبادي العشر للطالب بن الحاج ، الأقنوم في مبادئ العلوم لأبي زيد الفاسي ، المختار في حساب الغبار له ، قلائد العسجد في علم العدد له ، النتائج الحسية في المعالم الهندسية له ، تهيد السلاسة في علم السياسة له ، توطية الشراسة في علم الفراسة له ، مطالع الضياء في علم الكيمياء له ، القُطوف في أسرار الحروف له ، الإغراق في علم أسرار الأوفاق له ، تحفة الأثير في علم التفسير له ، عروس الصباحة في علم المساحة له ، كشف الحجاب في علم الاسطرلاب له ، الجوهر المنظوم في علم النجوم له ، الكامل في الاستغناء عن الجداول له ، المطلب في

الرُّبْع المجيَّب له ، الغرَّة في بيت الإبرة له ، النيل في خط الرَّمْل له ، الرِّقَّة في علم الحكمة له ، المناهج في استنطاق الزِّيَارج له ، الاشارة في علم الشُّطارة له ، تحفة الاخوان والأولياء في صنعة السيمياء للزياني ، كشف أسرار المحتالين الأشقياء الذين يزعمون علم الكيمياء له ، رسالة في الحساب لابراهيم التَّسَادلي رسالة في العمل بالرُّبْع المجيَّب له ، شرح المقنع له ، زينة النَّحْرِ في علم البحر له ، أغاني السَّيْقَا في علم الموسيقى له ، نظم في علم الميقات وشرحه للرُّودَاني ، ذيل ارجوزة ابن سينا لعبد الوهاب ادراّاق ، رجزٌ في حَبِّ الافرنج له ، هزّ السُّمَهري على مَنْ نفَى عَيْبَ الْجَذري له ، تعقُّبات على الشيخ داود في النزهة له ، الشُّقْرُونِيَّة في الطب لعبد القادر بن شقرون ، النفحة الوَرْدِيَّة في العُشْبَة الهندية له ، ذهاب الكُصوف في الطب لابن عزَّوز المراكشي ، الأسئلة والأجوبة في الطب له ، إئِمدُ البَصائر في معرفة أحكام المظاهر له ، كشف الرموز في العقاقير والأدوية له ، بحرُ الوقوف على أسرار الحروف له ، حلُّ المعقُود وعقد المحلول له ، السر الوافي والترتيب الكافي له ، رسالة في ابطال الكيمياء للمدَّني بن جلُّون ، شرح المقنع في التوقيت لأبي عبد الله للورَّزَازي ، أجنحة الرِّغاب في معرفة الفرائض والحساب وهو شرح للسملالية وتكملتها لأحمد الرُّسموكي ، شرح القلِّصَّادي له ، قُطْنفُ الأنوار في شرح روضة الأزهار في التوقيت لعبد الرحمن البوعقيلي ، شرح اليَسارة له ، كتاب في الحساب بالقلم الرومي لمحمد بن أحمد الصباغ .

الحياة الأدبية

لم تكن عناية الدولة الشريفة بنهضة الأدب ورقيته ، بأقل من عناية غيرها من الدول السابقة الذكر ؛ فقد بذل رجالها جهوداً تذكّر فتشكر في سبيل تقدمه وتنشيط أهله حتى قامت الحركة الأدبية على قدم وساق ، ونفقت سوقها أشدّ النفاق ، فلو أننا نظرنا الى أوّل ملك مهّد البلاد وأخضع العباد وهو مولاي رشيد لوجدناه قد أجاز بألفين وخمسمائة دينار على بيتين من الشعر مدح بها وهما :

فاض بحر النّوال في كل قطر من ندى راحتك عذباً فراثا
غرق الناس فيه فالتمس الفقر خلاصاً فلم يجده فماتا

وكذلك المولى محمد بن عبد الله أجاز ابن الوّنان لمّا مدحه بقافيته المشهورة بألف دينار ، ومولاي سليمان كان كثير العطاء ، عظيم السخاء ، ولا تسأل عمّا وصل منه الى شاعره ومخلّد مآثره الشيخ أبي الفيض حمدون ابن الحاج من الهبات والصلّات .

وبفضل هذا التشجيع نبغ كثير من الأدباء كتاباً وشعراء ممن ازدان بهم هذا العصر ، وكانوا مفخرة هذا القطر ، وقد يأتي في الرّغيل الأوّل منهم الوزير اليحمّدي وعليّ مصباح وابن زاكور وابن الطيّب العلّمي صاحب الأنيس المطرب ، وابن الوّنان ومحمد بن الطيّب سكّيرج والطيّب بن صالح الرزيني والوزير ابن ادريس العمراوي والكنسوس بله غيرهم ممن لم يصلوا الى مرتبتهم ، فإنهم كثير لا يسعنا ذكرهم في هذه الكلمة الوجيزة ، وإن كنّا سنذكرهم مع بعض مآثرهم في الجزء الثاني والثالث .

وهؤلاء المذكورون هم ممن عرفوا بالقُدرة على التعبير والتفنن في أساليب

التَّحْبِيرَ نظمًا ونثرًا مع متانة القول وإحكامه والدَّهَابَ في أغراض الكلام مذاهبَ الموهوبين من أدباء العربيَّة الكبار . فلم يُؤثِّر عليهم ما عُرف عن هذه العصور المتأخرة من ضعف المَلَكَات اللِّسَانِيَّة بسبب ضعف الحركة العلمية واتِّجَاهها ذلك الاتِّجَاهَ العَقِيم المتردّد بين الاختصار أو الشُّرح أو التَّعليق إلا فيما نَدَر ؛ بل كانت أن شَقُّوا لأنفسهم طريقًا إلى المجد وَسَط تلك الدُّرُوب المَلْتَوِيَّة ، فأبَانوا عن نبوغهم وعبقريَّتهم ، وكان الشعر في أوائل هذا العصر أَسْبَقَ إلى النهوض من النثر وخاصةً في الكتابة الدِّيوانِيَّة ، ولذلك نَعَثُر على رسائلَ رَسْمِيَّة من مُستوى إنشائي ليس بذاك ، في حين أن القصائد الشعرِيَّة التي قِيلَت في مولاي إسماعيل وابنيه مولاي محمد العالم ولا سيما من شعراء شَنْجِيْط ، كانت في مستوى عالٍ من البلاغة والانسجام ، ثم فيما بعد دولة سيدي محمد بن عبد الله ارتقَت صِنَاعَةُ الكِتَابَةِ ، ولا سِيَّما النثرُ الفني إلى المكانة التي قال فيها العلامة محمد بَيْرَم الخامس في كتابه صفوة الاعتبار : « لَعَمْرِي إنَّ صِنَاعَةَ الإنشاء في الدول العربيَّة كادت تكون الآن قاصرةً على دولة مراکش » ولا نَشْكُ أن للوزير ابن ادريس ومن أتى بعده من بُلغَاء الكُتَّاب يدًا طَوَّلِي في ذلك .

وان نفسَ لا نفسَ الزواية الدَّلَائِيَّة وما لها من يد على الحركة الأدبيَّة في هذا العصر ، فإنها التي أُنْعَشَت روحَ الأدب بعد خمودها بأثر سقوط الدولة السعدية . وقد نبغ من أهلها زيادةً على المتخرجين فيها كثيرٌ من الأدباء كالشَّرْقِي بن أبي بكر ومحمد ابن المسناوي ومحمد بن أحمد بن الشَّاذلي الدَّلَائِيَّين وغيرهم . وقد لَبِثَ الأدبُ المعاصرُ يَحْمِلُ طابَعها الخاصَ زمنًا غيرَ قصيرٍ مِمثِّلًا في أسلوب اليوسي القوي الرِّصين ، ومُتَأدِّيًا إلى ابن زاكور بطريق شيخه اليوسي ، واليوسي من أعظم المتخرجين في الزاوية المذكورة كما سبق القول .

ونتخلَّصُ الآن إلى ذكر تراجم زعماء الحركة الأدبية في هذا العصر تكميمًا للبحث واحاطةً بالموضوع من جميع جوانبه :

ابن زاكور

هو أبو عبدالله محمد بن قاسم بن محمد بن عبدالواحد بن أحمد بن زاكور الفاسي الأديب المتفن الرحالة شيخ الأدباء في عصره صاحب اليراع المرهف ، والفكر المثقف ، المحرر الذي برز على أقرانه وفاق أهل زمانه بكثرة اطلاعه وشدة اضطلاع بال فنون الأدبية ، والعلوم العربية وغيرها ، فكان كاتباً بليغاً ، وشاعراً مبدعاً ومؤلفاً مجوِّداً من أكبر مؤلفي الآداب من المغاربة . قال عنه في الأنيس المطرب :

« وحيدُ البلاغة ، وفريدُ الصِّيَاغة ، الذي أرسخَ في أرض الفصاحة أقدامه ، وأكثرَ وتوَّبه على حلِّ المَقفَلات وإقدامه ، فتصرَّف في الإنشاء ، وعطَف إنشاءه على الإخبار ، وإخباره على الإنشاء ، وقارعَ الرِّجال ، في ميادين الارتجال ، وثار في معترك الجدال ما شاء وجال ، فهو الذي باسمه في الأوانِ هُتِف ، وهو الذي يعرف في كل العلوم من أين توكلل الكتِف » الخ .

أخذ بفاس عن جماعة منهم العلامة أحمد بن الحاج الكبير ، وعبد السلام القادري ، وأبي علي اليوسي ، ورحل فأخذ بتطوان عن علامتها الشيخ علي برَّكة ، وبالجزائر عن مفتيها محمد بن سعيد قدورة وغيره .

وله مؤلفات مُرصَّعات 'مفوّقات' جزلّة' العبارة لا يشقُّ فيها أحد غُبّاره ، منها 'عنوان النفاسة في شرح ديوان الحماسة في ثلاثة أسفار' ، ومقبّاس الفوائد في شرح ما خفي من القلائد ، قلائد الفتح ابن خاقان وتفرّيج الكُرب بشرح لامية العرب ، وديوانه الذي أسماه الرّوض الأريض في بديع التوشيح ، ومنتقى القريض وقد عملنا منه مُنتخباً ونشر منذُ زمان . وغير ذلك ، وكانت وفاته بفاس سنة ١١٢٠ .

عبدالله العلوي

أبو محمد عبدالله بن محمد بن عبدالله بن الطالب العلوي نسبة الى قبيلة إدو وعلي من إقليم شنجيط ، الأديب الكبير الشاعر البليغ لسان قوميه المغرب عن مغربيّتهم وعربيّتهم العريقتين . وصفه في كتاب الوسيط فقال : « العالم التحرير المُقدّم على أهل قطره من غير تكبير ، كسلّ عن مداه كل جواد ، يعترف بذلك الحاضر والباد ، وانتشر صيته في تلك الصحارى والأقطار حتى صار كالشمس في رابعة النهار » طلب العلم حتى تضلّع منه ، وكانت له مشاركة في علم الفقه والمنطق والرياضيات ، فضلا عن علوم العربية والأدب وطمحت نفسه الى الاتصال بالأعتاب السلطانية ، وكان ذلك في اقبال الدولة العلوية ؛ فاتّصل بالسلطان مولاي اسمعيل فحظي عنده ، وكان ذلك في وقت نبوغ المولى محمد ابن مولاي اسمعيل المعروف بالعالم الذي اشتهر علمه وفضله ، فكان من خاصّته ، وكان يُكرّمه اكراماً بالغاً ، فكان يَفِدُّ عليه ثم يرجع الى بلاده . وكلما تذكر تلك الشماثل العالمة والأيادي الحاتمة تتصاغر عنده الصحراء وأهلها فيرجع الى الحضرة السلطانية ويبقى في كنف الأمير ورعايته الى ما شاء الله ، حتى حصلَ منه ما هو معلوم من الخُرُوج على والده فانقطع عنه . وله فيه وفي السلطان مولاي اسمعيل قصائد طنانة ، ويكفي أن نقول أن نفسه في شعره نفسٌ شنجيطيٌّ ؛ فإنّ تفوّقَ أهل شنجيط في علوم العربية والنبوغ الذي ظهر منهم في هذا العصر وخاصة في نظم الشعر العربي المتين ممّا لا خفاء به على أحد . وكان المترجم حيّاً في صدر القرن الثاني عشر .

ابن الطيّب العلمي

أبو عبدالله محمد بن الطيب الشريف العلمي اليُونسي ، وُلِدَ ونشأ بفاس ودَرَسَ على أعلامها ، وتخرّج في الأدب بابن زاكور ، وهو من أكبر أدباء العصر ،

وأصحاب البراعة في الصناعتين . له في الشعر طبعٌ متدفق رقيق ، وفي الكتابة أسلوبٌ راقٍ منسجم ، والفاظه فصيحة ومعانيه واضحة ، ورؤيه مرحٌ نشيط ، حتى إنه ليُعدي قارئه من فرط الحفّة والسهولة ، وكان لأهل فاس اقتتانٌ عظيم بشعره . وألف الأنيس المطرب فيمن لقته من أدباء المغرب ترجم فيه اثني عشر أديباً من أهل عصره بقلم فتحيّ شائق ونفسٍ خاقانيّ رائق ، وقد ضمّنه مع ذلك كثيراً من شعره الفائق ، فجاء ديواناً أدبيّاً مُمتعاً يدلُّ على رسوخ قدم مؤلفه في صناعة الانشاء وقرض الشعر ، وله أيضاً القصائد العشرة في التشوُّق الى البيقاع المطهرة ، وكان كثيراً ما يهتفُ بديار الحجاز ، ويتشوّقُ الى زيارة ساكنها عليه الصلاة والسلام فشَرّق عام ١١٣٤ فمات في طريقه اليها بمصر رحمه الله .

علي مصباح

أبو الحسن علي بن أحمد بن قاسم بن موسى مصباح ، به عُرفَ هو وقومه ، وهم من بني يَصْلُوت من قبيلة الأخماس . أديب ماهر كاتب شاعر ، نبغ في أيام الدولة الاسماعيلية ، واختصّ بالوزير اليحمدي ، فكان كاتبه ومساعدته ، وله فيه أمداح بليغة ضمّنها كتابه الذي ألفه فيه وسمّاه سنا المهندي الى مفاخر الوزير اليحمدي ، وهو كتاب قال عنه أكنسوس (ملأه مؤلفه آداباً غضة ، أنصع من جواهريّ الذهب والفضّة) وله أيضاً كتاب أنس السّير في وقائع الفرزدق وجري ، وديوان شعر جمعه بنفسه وأثبت بآخره مجموعة من رسائله الأدبية ، وبالجملة فهو من أعلام الأدب في هذا العصر ، وشعره مُنوع الأغراض ، رقيق الدّياجة ، عذب الألفاظ ، وقد أثبتنا بعض آثاره في المنتخبات . وكانت وفاته بعد عام ١١٥٠ .

ابن الوثنان

هو أبو العباس أحمد بن محمد بن الوثنان الملقب بالفاسي ، شاعر فحل ، صاحب قريحة سيالة ، وخاطر متدفق وفكر نقّاد ، كان والده 'مُتعلّقاً بالسلطان محمد بن عبدالله ، وكان صاحب نادر وملح ، فكنتاه السلطان المذكور أبا الشمقمق ، ثم توفي فعَمِلَ ابنه أرجوزته الشهيرة وقصد بها السلطان ؛ فتعذّر عليه الوصول إليه ، فتحيّن خروجه في بعض الأيام واعترضه في موكبه وصعد على كثر عالٍ من الأرض ونادى بأعلى صوته :

يا سيّدي سبّط النّي أبو الشمقمق أبي

فعرّفه السلطان وأمر باحضاره الى منزله فحضر وأنشد الأرجوزة المذكورة فوقعت منه الموقّع الحسن ، وأجزل صلته ورفع منزلته ، وقد عُرفت أرجوزته هذه بالشمقمقية ، واشتهرت بين أدباء المغرب اشتهاً لا مزيد عليه ، وهي تحتوي على كثير من الفنون الأدبية والأغراض الشعرية ، مثل الغزل والنسيب والوصف والحماسة والمدح والهجاء والحكم والأمثال وأيام العرب وأخبارها وعوائدها وأحوالها ، مما يدل على غزارة علمه فضلاً عن تدفق قريحته وقوة ملكته ، وهي قافية في نحو ثلاثمائة بيت ، وله نظم مسائل ابن خميس وغيره . وتوفي سنة ١١٨٧ .

ابن إدريس العمرّاي

هو أبو عبد الله محمد بن إدريس بن عبد الله العمرّاي ، من أهل فاس وأشرافها الأدارسة ، كان أديباً ماهراً له باع مديد في الإنشاء ، وملكة قوية في الشعر ، ومشاركة نبيلة في الفنون . وكان من ذوي الهمم الطامحة الى العلوّ والرياسة ؛

فاتصل بالسلطان المولى عبد الرحمن بن هشام فحظيَ عنده وترقت به الحال فتولّى الوزارة ، فكان كما قال عنه الكنسوس : « عصام الدولة وحليّة جماليها ، ومجلى محاسنها ومظهر كمالها ، فبآثاره تزيّ دولة بني مولانا هشام ، بدولة بني مروان بالشّام ، ساعدته أحكام السّعود ، وعاملته بإنجاز الموعود ، فأدرك في ظلال دولة السلطان المؤيّد مولانا عبد الرحمن من الجاه والعزّ والصولة ، ما لم يُدركه الوزير المهلكيّ مع ملوك الدّيلم ومُعزّ الدولة ؛ فضحكت له الأيام بعد عبّوس ، وأركبته أعز المراكب ، وألبسته أفخر الملبوس ، وبيتته في فاس منبّت طيّب ، وأصلته الأصيل ناشئ عن واكفٍ من الأصالة صيّب النخ » . توفي سنة ١٢٦٤ .

أَكْنَسُوسُ

هو أبو عبد الله محمد بن أحمد أكْنَسُوسُ المراكشي . العلامة المؤرّخ ، الأديب المتفنن صاحب التاريخ العامر عن الدولة الشريفة المسمّى بالجيش العرمرم الخماسي في دولة أولاد مولانا علي السجلماسي ، وكان بينه وبين الزيّاني مُناقسة حملته على انتقاصه ونقده بحقّ وغيره في مواضع من تاريخه المذكور . انفرد بالرياسة الأدبية في عصره ، فلم يُنازع فيها ، وهو خاتمة الأدباء الفُحول الذين اشتملت عليهم هذه الدولة في عهدها الأخير ، وكتابته عالية النّفس ، وشعره من النوع السّهل الممتنع . هذا مع تضلّعه في علوم الشريعة ، ورسوخ قدمه في كثير من الفنون وله غير التاريخ كتبٌ أخرى في مواضيع شتى . وكانت وفاته بمراكش سنة ١٢٩٤ .

التبوع المخرى

في الأدب العربي

تأليف
عبد الله كنون

الجزء الثاني

رسالة من المستشرق بروكلمان الى المؤلف

هالة في ٧ رجب ١٣٦١

حضرة الاستاذ العلامة الشيخ السيد عبدالله كنون الحسني ،
تحية واحتراما .

وبعد ؛ فقد قبلت كتابكم العزيز المسمى بالنبوغ المغربي في
الادب العربي الذي أكرمتوني بإرساله الي ، فابتدأت
بقراءته واستفدت منه كثيراً في تاريخ الآداب المغربية مما
فات بحشي الى الآن . وارجو ان اصرف مضمونه العزيز
لفائدتي وفائدة أصحابي المستشرقين في استدراك كتابي الأول
في تاريخ الآداب العربية ، الذي هو الان مطبوع في مدينة
ليدن . وكذلك قبلت كتابكم في شرح الشمقمقية ومقصورة
المكودي وقرأت ما كتبتم في مقدمة الكتابين في أحوال
المؤلفين . وابتهجت بظرافة المقصورة ، وثقافة الأرجوزة
المشهورة ، فان كتبكم لم يبلغ الي صيتها في هذه الازمان
المشوشة لولا ان ارسلتموها الي .

وتفضلوا يا حضرة السيد العزيز بقبول احترامي وتحياتي
العاطرة والسلام .

كارل بروكلمان

المنتخبات الأدبية
قسم المنشور

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قسم المنشور

ذكرنا في مقدمة الكتاب أننا نؤخر جميع الآثار والمنتخبات الأدبية الى الجزئين الثاني والثالث حيث نضم بعضها الى بعض ، ونؤلف منها مجموعة نفيسة حاوية لأهم ما صدر عن أدباء العصور المختلفة من بديع النظم والنثر . وها نحن أولاء نقدم للقارئ الأديب تلك الآثار والمنتخبات البديعة ، مقسمين لها على قسمين ، قسم المنشور المضمن في هذا الجزء ، وقسم المنظوم المضمن في الجزء بعده ، مبوين كل قسم أبواباً بحسب أغراضه وفنونه ، غير متعرضين بشرح أو بيان الا للغريب والغامض الذي لا يسهل فهمه على كل الناس ، وذلك رغبة في الإيجاز وعدم التشويش على المطالعين .

وقد بدأنا بقسم المنشور لأن النشر أصلُ الكلام ، ونفتِّحه بالتحميد والصلاة للتَّيْمَن ، وبعد ذلك نذكر الخطب لأنها أولُ المحفوظ من نشر العرب ، ثم المناظرات لمزيد شَبَّهها بالخطب في الأسلوب والغرض ، ثم الرسائل وهي أهمُّ أغراض النشر ، ثم المقامات وهي قصصٌ قصيرة تُكتب بأسلوب أدبي مَسْجُوع ، وتشتمل على إفادات وانشادات ، ثم المحاضرات وهي من موضوع المقامات لاشتغالها مثلها على القصة والفائدة ، ثم المقالات وهو باب جديد في الأدب العربي على اعتبار المعنى الحديث للأدب الذي يرمي إلى عدِّ جميع الأشكال الكلامية التي يستخدمها الإنسان للتعبير عن آرائه بلسانه أو قلمه ، سواء في الدرس الفني واللغوي أو البحث العلمي والفلسفي موضوعاً للأدب يجب أن يُدرَّس ويُبحث بروح أدبية محضة .

والله المستعان وعليه التكلان .

التحميدُ والصلاة

تحميد للقاضي عياض

جمع فيه بين توحيد الجلالة وتمجيد صاحب الرسالة

الحمد لله المنفرد باسمه الأسمى المختص بالملك الأعزّ الأحمى ،
الذي ليس دونه منتهى ولا وراءه مرمى ، الظاهر لا تخيلاً ولا وهماً ،
الباطن تقدساً لا عدماً وسع كل شيء رحمةً وعلماً ، وأسبغ على أوليائه
نعماً عماً ، وبعث فيهم رسولا من أنفسهم أنفسهم عرباً وعجماً ،
وأزكاهم تحديداً ومنهمى ، وأرجحهم عقلاً وحلماً وأوفرهم علماً وفهماً ،
وأقواهم يقيناً وعزماً ، وأشدّهم بهم رافةً ورثمةً ، زكاهُ روحاً وجسماً ،
وحاشاه عيباً ووصماً ، وآتاه حكمةً وحكماً ، وفتح به أعيناً عمياً
وقلوباً غلفاً وآذاناً صماً ، فأمن به وعزّره ونصره من جعل الله له في
مغنم السعادة قسماً ، وكذب به وصدف عن آياته من كتب الله عليه
الشقاء حتماً ، ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى ، صلى الله
عليه صلاة تنمو وتثمر ، وعلى آله وسلم تسليماً .

تسبيح المهدي بن نوموت

سُبْحَانَ مَنْ أَرْسَى مِهَادَ الْأَرْضِ بِالشَّامَخَاتِ^١ ، وَارْتَفَعَتْ بِقُدْرَتِهِ
السَّمَاوَاتِ ، وَدَبَّرَ الْأَزْمَانَ بِالنُّورِ وَالظُّلُمَاتِ وَتَدَكَّدَكَتِ^٢ لَجَلَالِهِ الْقَاسِيَاتِ ،
وَأَثَارَ السَّحَابِ بِالْعَاصِفَاتِ ، وَأَنْزَلَ الثَّجَاجَ^٣ مِنَ الْمُعْصِرَاتِ^٤ ، فَأَخْرَجَ بِهِ
مِنَ الْأَرْضِ الْبَرَكَاتِ وَقَسَمَ بَعْدَ ذَلِكَ الْأَقْوَاتِ .

سُبْحَانَ مَنْ قَيَّدَ الْخَلْقَ بِالْحَرَكَاتِ وَالسَّكِّنَاتِ ، وَصَوَّرَهُمْ بِتَبَايُنِ
الْهَيْئَاتِ وَسَخَّرَهُمْ بِتَسْلُطِ الْحَاجَاتِ ، وَأَظْهَرَ عَجْزَهُمْ بِتَبَدُّلِ الْحَالَاتِ ،
وَحَتَمَ جَهْلَهُمْ بِالْغَيْبِ وَالتَّكْثِيفَاتِ ، وَمَا تَبْلُغُهُ الدَّلَالَاتِ ، وَلَا تُحِيطُ
بِهِ الْإِدْرَاكَاتِ ، وَحَذَّرَهُمْ مِنْ تَجَاوُزِ الْمَحْدُودَاتِ ، وَتَعَدِّي الْمَعْقُولَاتِ ،
إِلَى الْقَوْلِ بِالتَّكْثِيفَاتِ ، وَالْقَطْعِ بِالتَّخْيِيلَاتِ ،

سُبْحَانَ مَنْ أَوْضَحَ لِعِبَادِهِ الْآيَاتِ ، وَأَظْهَرَ لَهُمُ الدَّلَالَاتِ ، عَلَى
فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ فَتَنَطَّقَتْ بِوُجُودِهِ الْجَمَادَاتِ ، وَشَهِدَتْ عَلَى عَظَمَتِهِ
الْمَخْلُوقَاتِ ، وَأَخْبَرَتْ بِكَمَالِهِ الْآيَاتُ فَقَالَتْ بِلِسَانِ الْحَالِ مُبِينَاتٍ ،
فَاقَتْ عَظَمَتَهُ الْغَايَاتِ ، لَا تَتَنَاهَى لَهُ الْمَقْدُورَاتِ ، وَلَا تَنْحَصِرُ لَهُ
الْمَعْلُومَاتِ ، جَلَّ عَنْ التَّكْثِيفَاتِ ، إِلَهٍ مَنْ فِي الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتِ .

١ - يعني الجبال ٢ - أي تفتت ٣ - أي السحب ٤ - والتجاج : المطر .

دُعَاءٌ وَمُنَاجَاةٌ لِأَيِّ الْعَبَّاسِ السَّبْتِيِّ

اللَّهُمَّ أَفْضَلْتَ فَعَمَّ إِفْضَالُكَ ، وَأَنْعَمْتَ فَتَمَّ نَوَالُكَ ، وَغَفَرْتَ
 الذُّنُوبَ فَتَكَامَلْ إِحْسَانُكَ ، وَسَتَرْتَ الْغُيُوبَ فَتَوَاصِلْ غُفْرَانُكَ ، اللَّهُمَّ
 لَكَ الْحَمْدُ عَلَى تَقْلٍ ثَقَفْتَهُ ، وَلَكَ الْحَمْدُ عَلَى فَهْمٍ وَفَقَّهْتَهُ ، وَلَكَ الْحَمْدُ
 عَلَى تَوْفِيقٍ هَدَيْتَهُ ، جَلَّ جَلَالُكَ وَتَعَالَى ، وَأَنْهَلَ جُودُكَ وَتَوَالَى ،
 وَجَرَى رِزْقُكَ حَلَالاً ، وَتَعَالَيْتَ فِي دُنُوكَ وَتَقَرَّبْتَ فِي عُلوِّكَ ، فَلَا
 يُدْرِكُكَ وَهْمٌ ، وَلَا يُحِيطُ بِكَ فَهْمٌ ، وَتَنَزَّهْتَ فِي أَحَدِيَّتِكَ عَنْ
 بِدَايَةِ ، وَتَعَاظَمْتَ فِي أُلُوْهِيَّتِكَ عَنْ نِهَايَةِ ، أَنْتَ الْوَاحِدُ لَا مِنْ عَدَدٍ ،
 وَالْبَاقِي بَعْدَ الْأَبَدِ ، لَكَ خَضَعُ مَنْ رَكَعَ كَمَا ذَلَّ لَكَ مَنْ سَجَدَ ، (قُلْ
 هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ، اللَّهُ الصَّمَدُ ، لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ)

إِلَهِي كَيْفَ يُحِيطُ بِكَ عِلْمُ خَلْقَتِهِ ، أَمْ كَيْفَ يُدْرِكُكَ بَصَرُ أَنْتَ
 شَقَقْتَهُ ، أَمْ كَيْفَ يَدُنُو مِنْكَ فِكْرُ أَنْتَ وَفَقَّهْتَهُ ، أَمْ كَيْفَ يَشْكُرُكَ
 لِسَانُ أَنْتَ أَنْطَقْتَهُ ، إِذَا تَلَمَّحَتْ الْبَصَائِرُ عَادَتْ بِنُورِ سُلْطَانِكَ كَلِيلَةَ ،
 وَإِذَا تَجَمَّعَتْ عِظَائِمُ الْجَرَائِمِ كَانَتْ فِي جَنْبِ غَفْرَانِكَ قَلِيلَةَ ، سَبَقْتَ السَّبْقَ
 فَأَنْتَ الْأَوَّلُ ، وَخَلَقْتَ الْخَلْقَ فَعَلَيْكَ الْمُعَوَّلُ ، وَعُدْتَ إِذَا جُدْتَ يَا
 خَيْرَ مَنْ تَطَوَّلَ ، عَجَباً لِقُلُوبٍ كَيْفَ اسْتَمَرَّتْ عَلَى الْإِنْسِ بِسَوَاكَ ،
 وَلَأَرْوَاحٍ كَيْفَ شَكَرَتْ مَنْ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ لَوْلَاكَ ، وَلِنَفُوسٍ
 سَكِرَتْ مِنْ شَرَابِ جَدُّوَكَ ، وَلَا كُفَّ جَمَعَتْ وَقَدْ اسْتَقَرَّضَتْهَا هَلَا

جادت بِذَآكَ ، كَيْفَ يُنَاجِيكَ فِي الصَّلَوَاتِ ، مَنْ يَعِصِيكَ فِي الْخَلَوَاتِ ،
أَمْ كَيْفَ يَدْعُوكَ لِلْمُسْتَهْمَاتِ مَنْ يَنْسَاكَ لِلشَّهَوَاتِ ،

إِلَهِي كَيْفَ خُتِمَتِ الْأَلْسُنُ بِاللَّيْلِ وَقَدْ قُلْتَ هَلْ مِنْ سَائِلٍ ،
وَكَيْفَ كَفَّتِ الْأَكْفُفُ وَسَبِيلُ الْجُودِ سَائِلٍ ، وَكَيْفَ سَهَا عَنْ خِطَابِكَ
مَنْ لَا تَعِظُهُ الْوَسَائِلُ وَكَيْفَ يَدْبِعُ مَا يَبْقَى بِمَا يَفْنَى وَإِنَّمَا هِيَ أَيَّامُ قَلَائِلٍ ،
يَا رُوحَ الْقُلُوبِ أَيْنَ طُلَّابُكَ ، يَا رَبَّ الْأَرْبَابِ أَيْنَ أَحِبَّاءُكَ ، يَا نُورَ
السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَيْنَ قَصَادُكَ يَا مُسَبِّبَ الْأَسْبَابِ أَيْنَ عِبَادُكَ ، مَنْ الَّذِي
عَامَلَكَ بِلُبِّهِ فَلَمْ يَرْتَبِحْ ، وَمَنْ الَّذِي جَاءَكَ بِكَرْبِهِ فَلَمْ يَفْرَحْ ، أَيُّ
صَدْرِ صَدَرَ عَنْ بَابِكَ الْكَرِيمِ فَلَمْ يُشْرَحْ ، مَنْ الَّذِي لَازَ بِجَنَابِكَ الْعَلِيِّ
فَاشْتَهَى أَنْ يَنْزَحَ ، وَاهَا لِقُلُوبٍ مَالَتْ إِلَى غَيْرِكَ مَا أَرَادَتْ ، وَلِنَفُوسٍ
تُحِبُّ الرَّاحَةَ هَلَّا طَلَبَتْ مِنْكَ وَاسْتَفَادَتْ ،

صلاة لعبد السلام بن مشيش

وهي المعروفة بالصلاة المشيشية

اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مَنْ مِنْهُ انْشَقَّتِ الْأَسْرَارُ وَانْفَلَقَتِ الْأَنْوَارُ ، وَفِيهِ
ارْتَقَتِ الْحَقَائِقُ ، وَتَنْزَلَتْ عُلُومُ آدَمَ فَأَعْجَزَ الْخَلَائِقُ ، وَلَهُ تَضَاءَلَتِ
الْفُهُومُ ، فَلَمْ يُدْرِكْهُ مِنْهَا سَابِقٌ وَلَا لَاحِقٌ ، فَرِيَاضُ الْمَلَائِكُوتِ بِزَهْرِ
جَمَالِهِ مُوَيْقَةٌ ، وَحِيَاضُ الْجَبَرُوتِ بِفَيْضِ أَنْوَارِهِ مُتَدَفِّقَةٌ ، وَلَا شَيْءَ
إِلَّا وَهُوَ بِهِ مَنْوُوطٌ ، أَذْ لَوْلَا الْوَاسِطَةُ لَذَهَبَ كَمَا قِيلَ الْمَوْسُوطُ ،

صلاةً تليقُ بكَ منك اليه ، كما هو أهله ، اللهم إِنَّه سرُّك الجامعُ الدالُّ عليك ، وحجابك الأعظمُ ، القائمُ لك بين يديك ، اللهم ألحقني بنسبه ، وحققني بحسبه ، وعرفني إياه معرفةً أسلم بها من موارد الجمل وأكرع بها من موارد الفضل ، واحملي على سبيله الى حضرتك ، حملاً مخفوفاً بنصرتك ، واقذف بي على الباطل فأدمغه ، وزجّ بي في بحار الاحديّة وانشلي من أوحال التوحيد وأغرقي في عين بحر الوحدة حتى لا أرى ولا أسمع ولا أجد ولا أحسّ إلّا بها واجعل الحجاب الأعظم حياةً روحي وروحاً سرّاً حقيقي وحقيقته جامع عوالمي بتحقيق الحقّ الأول ، يا أولُ يا آخرُ يا ظاهرُ يا باطن ، اسمع ندائي بما سمعت به نداء عبدك زكرياء عليه السلام ، وانصرتني بك لك ، وأيدني بك لك واجمع بيني وبينك ، وحل بيني وبين غيرك ، الله ! الله ! الله ! (إن الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد ، ربنا آتنا من لدنك رحمةً وهيئ لنا من أمرنا رشداً)

الحزب الكبير^٣ لأبي الحسن الشاذلي

ويشتملُ على أدعيةٍ وأذكار ذاتِ نفسٍ صوفيٍّ عالٍ
وتزعةٍ فلسفيّةٍ رائعةٍ

بسم الله الرحمن الرحيم ، واذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام

١ - أي اشرب . ٢ - أي ارم . ٣ - للشاذلي أحزاب أخرى فذلك يعرف هذا بالكبير والحزب عندهم طائفة من الكلام في موضوع الذكر والدعاء كاحزاب القرآن .

عليكم ، كتب ربكم على نفسه الرحمة أنه من عمل منكم سوءاً بجهالة ثم تاب من بعده وأصلح فانه غفور رحيم .. بديع السماوات والأرض أننى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة ، وخلق كل شيء وهو بكل شيء عليم ، ذلكم الله ربكم لا اله الا هو خالق كل شيء فاعبدوه وهو على كل شيء وكيل ، لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير .. الر .. كيعص .. حمسق .. رب احكم بالحق وربنا الرحمن المستعان على ما تصفون .. طه ما انزلنا عليك القرآن لتشقى إلا تذكرة لمن يخشى ، تنزيلاً ممن خلق الأرض والسماوات العلى ، الرحمن على العرش استوى ، له ما فى السماوات وما فى الأرض وما بينهما وما تحت الثرى ، وإن تجهر بالقول فانه يعلم السر وأخفى ، الله لا اله الا هو له الأسماء الحسنى ،

اللهم إنك تعلم أنى بالجهالة معزوف ، وأنت بالعلم موصوف ، وقد وسعت كل شيء من جهالتى بعلمك ، فسع ذلك برحمتك ، كما وسعته بعلمك ، واغفر لى انك على كل شيء قدير . يا الله يا مالك يا وهاب ، هب لنا من نعمك ما علمت لنا فيه رضاك ، واكسنا كسوة تقينا بها من الفتن فى جميع عطاياك ، وقدسنا بها عن كل وصف يوجب نقصا مما استأثرت به فى علمك عمن سواك ، يا الله يا عظيم يا على يا كبير ، نسألك الفقر مما سواك ، والغنى بك حتى لا نشهد الا اياك ، والطف بنا فىهما لطفا علمته يصلح لمن والاك واكسنا جلايب العصمة فى الانفاس

وَاللَّحَظَاتِ ، وَاجْعَلْنَا عَبِيداً لَكَ فِي جَمِيعِ الْحَالَاتِ ، وَعَلَّمْنَا مِنْ لَدُنْكَ
عِلْماً نَصِيرُ بِهِ كَامِلِينَ فِي الْمَحْيَا وَالْمَمَاتِ ،

اللَّهُمَّ أَنْتَ الْحَمِيدُ الرَّبُّ الْحَمِيدُ الْفَعَّالُ لِمَا تُرِيدُ ، تَعَلَّمْ فَرَحَنَا بِمَاذَا
وَلِمَاذَا وَعَلَى مَاذَا ، وَتَعَلَّمْ حُزْنَنا كَذَلِكَ ، وَقَدْ أَوْجِبْتَ كَوْنَ مَا أُرِدْتَهُ
فِينَا وَمِنَّا وَلَا نَسْأَلُكَ دَفْعَ مَا تُرِيدُ ، وَلَكِنْ نَسْأَلُكَ التَّأْيِيدَ بِرُوحٍ مِنْ
عِنْدِكَ فِيمَا تُرِيدُ كَمَا أَيْدَتِ أَنْبِيَاءَكَ وَرُسُلَكَ وَخَاصَّةً الصَّادِقِينَ مِنْ
خَلْقِكَ ، إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ، اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ
عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ، أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ ، فَهَيِّئْ لِمَنْ عَرَفَكَ ،
وَرَضِيَ بِقَضَائِكَ ، وَالْوَيْلُ لِمَنْ لَمْ يَعْرِفْكَ بَلِ الْوَيْلُ ثُمَّ الْوَيْلُ لِمَنْ أَقْرَبَ
بِوَحْدَانِيَّتِكَ وَلَمْ يَرْضَ بِأَحْكَامِكَ ، اللَّهُمَّ إِنْ الْقَوْمَ قَدْ حَكَمْتَ عَلَيْهِمْ
بِالذُّلِّ حَتَّى عَزُّوا ، وَحَكَمْتَ عَلَيْهِمْ بِالْفَقْدِ حَتَّى وَجَدُوا ، فَكُلُّ عَزٍّ
يَمْنَعُ دُونَكَ فَنَسْأَلُكَ بَدَلَهُ ذَلَالاً تَصْحَبُهُ لَطَائِفُ رَحْمَتِكَ ، وَكُلُّ وَجَدٍ
يَحْجُبُ عَنْكَ فَنَسْأَلُكَ عَوَاضَهُ فَقَدْ تَصْحَبُهُ أَنْوَارُ مَحَبَّتِكَ ، فَانْهَ ظَهَرَ
السَّعَادَةُ عَلَى مَنْ أَحْبَبْتَهُ ، وَظَهَرَ الشَّقَاوَةُ عَلَى مَنْ غَيْرُكَ مَلَكَهُ ، فَهَبْ لَنَا
مِنْ مَوَاهِبِ السَّعَادَةِ وَاعْصِمْنَا مِنْ مَوَارِدِ الْأَشْقِيَاءِ .

اللَّهُمَّ إِنَّا قَدْ عَجَزْنَا عَنْ دَفْعِ الضَّرِّ عَنْ أَنْفُسِنَا مِنْ حَيْثُ نَعْلَمُ بِمَا نَعْلَمُ ،
فَكَيْفَ لَا نَعْجُزُ عَنْ ذَلِكَ مِنْ حَيْثُ لَا نَعْلَمُ بِمَا لَا نَعْلَمُ ، وَقَدْ أَمَرْتَنَا
وَنَهَيْتَنَا وَالْمَدْحَ وَالذَّمَّ أَلْزَمْتَنَا ، فَأَخُو الصَّلَاحِ مِنْ أَصْلَحَتِهِ ، وَأَخُو الْفَسَادِ
مِنْ أَضْلَلَتِهِ ، وَالسَّعِيدُ حَقّاً مِنْ أَغْنِيَتِهِ عَنِ السُّؤَالِ مِنْكَ ، وَالشَّقِيُّ حَقّاً مِنْ
حَرَمَتِهِ مَعَ كَثْرَةِ السُّؤَالِ لَكَ ، فَأَغْنِنَا بِفَضْلِكَ عَنْ سُؤَالِنَا مِنْكَ ، وَلَا تَحْرِمْنا

من رحمتك ، مع كثرة سؤالنا لك واغفر لنا انك على كل شيء قدير ،
يا شديد البطش ، يا جبار يا قهار ، يا حكيم نعوذ بك من شر ما
خلقت ، ونعوذ بك من ظلمة ما أبدعت ، ونعوذ بك من كيد النفوس
فما قدرت وأردت ، ونعوذ بك من شر الحساد على ما أنعمت ، ونسألك
عز الدنيا والآخرة كما سألَكَ نبيك سيدنا محمد ﷺ ؛ عز الدنيا بالايان
والمعرفة ، وعز الآخرة باللقاء والمشاهدة ، انك سميع قريب مجيب .

اللهم اني أقدمُ اليك بين يدي كل نفسٍ ولمحةٍ وطرفةٍ يطرفُ بها
أهلُ السماوات وأهلُ الأرض ، وكلُّ شيءٍ هو في علمك كائن أو قد
كان أقدمُ اليك بين يدي ذلك كله (الله لا اله الا هو ، الحي القيوم ،
لا تأخذه سنةٌ ولا نومٌ ، له ما في السماوات وما في الارض ، من ذا
الذي يشفع عنده الا بإذنه ، يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ، ولا
يُحيطون بشيء من علمه الا بما شاء ، وسع كرسيه السماوات والأرض ،
ولا يؤوده حفظهما وهو العلي العظيم) أقسمتُ عليك ببسط يديك ،
وكرم وجهك ، ونور عينيك ، وكال أعينك ، أن تُعطينا خير ما
نفذت به مشيئتك ، وتعلقت به قدرتك ، وأحاط به علمك واكفينا
شر ما هو ضد ذلك ، وأكمل لنا ديننا وأتمم علينا نعمتك ، وهب
لنا حكمةَ الحكمة البالغة مع الحياة الطيبة ، والموتة الحسنة ، وتول
قبض أرواحنا بيدك ، وحل بيننا وبين غيرك ، في البرزخ وما قبله

وما بعده بُنُور ذاتِكَ ، وعُظِيم قدرتك وجميل فضلك ، انك علي كل شيء قدير .

يا الله يا علي يا عظيم يا حلِيم يا حكيم يا كريم يا سميع يا قريب يا
محيب يا ودود ، حُلْ بَيْننا وبين فتنة الدنيا والنساء والغفلة والشهوة وظلم
العباد وسوء الخلق ، واغفر لنا ذنوبنا واقض عنا تَبِعَاتِنَا واكشف
عنا السوء ونجنا من الغم ، واجعل لنا منه فرجاً ومخرجاً انك على كل
شيء قدير . يا الله يا الله يا الله ، يا لطيف يا رزاق يا قوي يا عزيز ،
لك مقاليد السماوات والارض تبسط الرزق لمن تشاء وتقدير ، فابسط
لنا من الرزق ما تُوصِّلنا به الى رحمتك ، ومن رحمتك ما تحول به
بَيْننا وبين نِقْمَتِكَ ، ومن حلمك ما يسعنا به عفوكم واختم لنا بالسعادة
التي ختمت بها لأوليائكم ، واجعل خيراً أيامنا وأسعدّها يوم لقائكم ،
وزحّزحنا في الدنيا عن نار الشهوة ، وأدخلنا بفضلك في ميادين الرحمة ،
واكسنا من نورك جلايب العِصمة ، واجعل لنا ظهيراً من عقولنا
ومُهَيِّمناً من أرواحنا ، ومُسَخِّراً من أنفسنا ، كي نسبّحك كثيراً
ونذكرك كثيراً إِنَّكَ كُنْتَ بنا بصيراً . وهب لنا مُشَاهِدَةً تصحبها
مُكَلِّمَةٌ ، وافتح أسماعنا وأبصارنا واذكرنا اذا غفلنا عنك ، بأحسن ما
تذكرنا به إذا ذكرناك ، وارحمنا اذا عصيْنَاك بأنتم ما ترحمنا به اذا
أطعناك ، واغفر لنا ذنوبنا ما تقدّم منها وما تأخر ، والطف بنا
لطفاً يحجبنا عن غيرك ولا يحجبنا عنك ، فانك بكل شيء عليم .

اللهم انا نسألك لساناً رَطْباً بذكرك ، وقلباً مُنْعَمًا بشكرك ،
وبدناً هَيِّنًا لَيِّنًا لطاعتك وأعطينا مع ذلك ما لا عين رأت ولا أذن
سمعت ولا خطر على قلب بشر ، كما اخبر به رسولك ﷺ ، حسب
ما علمته بعلمك ، وأغنينا بلا سبب ، واجعلنا سبب الغنى لأوليانك ،
وبرزخا بينهم وبين أعدائك ، انك على كل شيء قدير ، اللهم إنا
نسألك ايمانا دائما ، ونسألك قلباً خاشعاً ، ونسألك علماً نافعاً ، ونسألك
يقيناً صادقاً ، ونسألك ديناً قيماً ، ونسألك العافية من كل بليّة ،
ونسألك تمام العافية ونسألك دوام العافية ، ونسألك الشكر على العافية ،
ونسألك الغنى عن الناس ، اللهم انا نسألك التوبة الكاملة ، والمغفرة
الشاملة ، والمحبة الجامعة والخلة الصافية ، والمعرفة الواسعة ، والأنوار
الساطعة ، والشفاعة القائمة ، والحجة البالغة ، والدرجة العالية ، وفك
وثاقنا من المعصية ، ورهاننا من النعمة بمواهب المنّة ، انك على كل شيء
قدير ، اللهم انا نسألك التوبة ودوامها ، ونعوذ بك من المعصية وأسبابها ،
وذكرنا بالخوف منك قبل هجوم خطراتها ، واحملنا على النجاة منها ،
ومن التفكير في طرائقها ، وامح من قلوبنا حلاوة ما اجتنيناه منها
واستبدلها بالكراهة لها والطعم لما هو بضدّها ، وأفض علينا من بحر
كرمك وفضلك وجودك وعفوك حتى نخرج من الدنيا على السلامة من
وبالها ، واجعلنا عند الموت ناطقين بالشهادة عالّمين بها ، وارأف بنا
رأفة الجيب بحبيبه عند الشدائد ونزولها وأرحنا من هموم الدنيا
وُغْومها بالروح والريحان الى الجنة ونعيمها ،

اللهم انا نسألك توبةً سَابِقَةً مِنْكَ الينا لتكون تَوْبَتُنَا تَابِعَةً إِلَيْكَ مِنَّا ،
وَهَبْ لَنَا التَّلَقِّيَّ مِنْكَ كَتَلَقَّيْ آدَمَ مِنْكَ الْكَلِمَاتِ ، لِيَكُونَ قُدُوءَةً لَوْلَدِهِ
فِي التَّوْبَةِ وَالْأَعْمَالِ الصَّالِحَاتِ ، وَبَاعِدْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْعِنَادِ وَالْإِصْرَارِ ، وَالشَّبَهَةِ
بِإِبْلِيسَ رَأْسِ الْغَوَاةِ وَاجْعَلْ سَيِّئَاتِنَا سَيِّئَاتٍ مَنْ أَحَبَبْتَ ، وَلَا تَجْعَلْ
حَسَنَاتِنَا حَسَنَاتٍ مِنْ أَبْغَضْتَ ، فَالْإِحْسَانُ لَا يَنْفَعُ مَعَ الْبَغْضِ مِنْكَ ،
وَالْإِسَاءَةُ لَا تَضُرُّ مَعَ الْحُبِّ مِنْكَ ، وَقَدْ أَهْمَتِ الْأَمْرَ عَلَيْنَا لِنَرْجُوَ
وَنَخَافَ فَأَمِنْ خَوْفَنَا وَلَا تُخَيِّبْ رَجَاءَنَا ، وَأَعْطِنَا سُؤْلَنَا فَقَدْ أُعْطِيتُنَا
الْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَسْأَلَكَ ، وَكُتِبَتْ وَحَبِبَتْ وَزَيَّنَتْ وَكَرَّهَتْ وَأُطْلِقَتْ
الْأَلْسُنَ بِمَا بِهِ تَرَجَّمْتَ ، فَنِعْمَ الرَّبُّ أَنْتَ ، فَلَكَ الْحَمْدُ عَلَى مَا أَنْعَمْتَ فَاعْفُ
لَنَا وَلَا تَعَاقِبْنَا بِالسَّلْبِ بَعْدَ الْعَطَاءِ ، وَلَا بِكُفْرَانِ النِّعَمِ وَحِرْمَانِ الرِّضَى ،
اللَّهُمَّ رَضْنَا بِقَضَائِكَ ، وَصَبَّرْنَا عَلَى طَاعَتِكَ ، وَعَنْ مَعْصِيَتِكَ ، وَعَنْ الشَّهَوَاتِ
الْمُوجِبَاتِ لِلنَّقْصِ وَالْبُعْدِ عَنْكَ ، وَهَبْ لَنَا حَقِيقَةَ الْإِيمَانِ بِكَ ، وَالتَّوَكُّلَ
عَلَيْكَ ، حَتَّى لَا نَخَافَ غَيْرَكَ ، وَلَا نَرْجُوَ غَيْرَكَ ، وَلَا نَحْبَ غَيْرَكَ ، وَلَا
نَعْبُدَ شَيْئًا سِوَاكَ ، وَأَوْزِعْنَا شُكْرَ نِعْمَائِكَ ، وَغَطِّنَا بِرِداءِ عَافِيَتِكَ ،
وَانصُرْنَا بِالْيَقِينِ وَالتَّوَكُّلِ عَلَيْكَ ، وَأَسْفِرْ وُجُوهَنَا بِنُورِ صِفَاتِكَ ، وَاضْحِكُنَا
وَبَشِّرْنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ بَيْنَ أَوْلِيائِكَ ، وَاجْعَلْ يَدَكَ مَبْسُوطَةً عَلَيْنَا وَعَلَى أَهْلِينَا
وَأَوْلَادِنَا وَمَنْ مَعَنَا بِرَحْمَتِكَ ، وَلَا تَكِلْنَا إِلَى أَنْفُسِنَا طَرْفَةَ عَيْنٍ وَلَا أَقْلًا
مِنْ ذَلِكَ ، يَا نِعْمَ الْحَمِيدُ ، يَا مَنْ هُوَ فِي عُلوِّهِ قَرِيبٌ يَا ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ،
يَا مُحِيطًا بِاللَّيَالِي وَالْأَيَّامِ ، اشْكُو إِلَيْكَ مِنْ غَمِّ الْحِجَابِ ، وَسُوءِ الْحِسَابِ ،

وشدة العقاب وإنَّ ذلك لَوَاقِع ، ما له من دافع ، إن لم ترَحْمَنِي لا اله الا
 أنت سبحانك إِنِّي كنت من الظالمين ، ولقد شكَا اليك يعقوب فخلَّصته من
 حُزْنِه ، ورددتَ عليه ما ذهب من بصره ، وجمعتَ بينه وبين وَاَلده ، ولقد
 ناداك نوحٌ من قبلُ فنجيتَه من كَرْبه ، ولقد ناداك أيوبُ من بعدُ فكشفتَ
 ما به من ضُرِّه ، ولقد ناداك يُونسُ فنجيتَه من غَمِّه ولقد ناداك زكرياءُ
 فوهبتَ له ولداً من صُلبه ، بعد يأس أهله وكِبَرِ سِنِّه ، ولقد علِمتَ ما
 نَزَلَ بابراهيمَ فَأَنقَذْتَه من نارِ عَدُوِّه ، وَأُنجيتَ لوطاً وأهله من العذاب
 النَّازِلِ بقومه ، .. فها أنا ذا عبدُك إن تُعذِّبْنِي بجميع ما علِمتَ فأنا حقيق به ،
 وان ترَحْمَنِي كما رَحِمْتَهُمْ مع عِظَمِ إِجْرَامِي فَأنتَ أولى بذلك وأحقُّ من
 أَكْرَمَ به ، فليس كرمُك مخصوصاً بمن أطاعك ، وأقبلَ عليك ، بل هو
 مَبْدُولٌ بالسَّبْقِ لِمَن شئتَ من خَلْقِكَ وان عصاك وأعرضَ عنك ، وليس
 من الكرم أن لا تُحْسِنَ الاَّ لِمَن أَحْسَنَ إِلَيْكَ ، وَأنتَ الْمُفْضَلُ الْغَنِيُّ ، بل
 من الكرم أن تُحْسِنَ الى من أساءَ اليك ، وَأنتَ الرَّحِيمُ الْعَلِيُّ ، كيف وقد
 أَمَرْتَنَا أَنْ نُحْسِنَ الى من أساءَ إلينا ، فَأنتَ أولى بذلك منا ، رَبَّنَا ظَلَمْنَا
 أَنْفُسَنَا وان لم تغفرْ لنا وترحمنا لنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ . يا الله ، يا الله ،
 يا الله ، يا رحمانُ يا رحيمُ يا حيُّ يا قَيُّومُ ، يا مَنْ هُوَ هُوَ يا هُوَ إِنْ لم
 نَكُنْ لِرَحْمَتِكَ أَهْلًا أَنْ نَنَالَهَا فَرَحْمَتُكَ أَهْلٌ أَنْ تَنَالَنا ، يا رَبَّاهُ يا مُغِيثَ
 من عَصَاهُ أَغْثُنَا يا رَبُّ يا كريمُ ، وارحَمْنَا يا برُّ يا رحيمُ ، يا مَنْ وَسِعَ
 كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ولا يَئُودُهُ حِفْظُهُما وهو العلي العظيم ، أسألك

الايانَ بحفظك ، ايماننا يَسْكُنُ به قلبي من همِّ الرزق وخوف الخلق
واقربُ مني بقُدْرَتِكَ قُرْباً تَحَقُّ به عني كل حجاب محقته عن ابراهيم
خليلك ، فم يحتج جبريل رسولك ، ولا لسؤاله منك ، وحجبتك بذلك عن نار
عدوه ، وكيف لا يُحجَبُ عن مضرّة الأعداء من غيبته عن منفعة الأحياء ،
كلّا إني أسألك أن تغيبني بقربك مني حتى لا أرى ولا أحسّ بقرب شيء
ولا يبعده عني ، انك على كل شيء قدير ، افحسبتم أنما خلقناكم عبثاً
وأنكم اليئسوا لا ترجعون ، فتعالى الله الملك الحق ، لا اله الا هو ربُّ
العرش الكريم ، ومن يدع مع الله إلهاً آخر لا برهان له به فإنما
حسابه عند ربّه ، إنه لا يُفْلِحُ الكافرون ، وقل رب اغفر وارحم
وأنت خير الراحمين ، هو الحي لا اله الا هو فادعوه مُخلصين له الدين ،
الحمد لله رب العالمين .

صلاة محمد بن سليمان الجزولي

من كتابه دلائل الخيرات

أفضلُ صلوات الله ، وأحسنُ صلوات الله ، وأجلُّ صلوات الله ،
وأجملُ صلوات الله وأكملُ صلوات الله ، وأسبغُ صلوات الله ، وأتمَّ صلوات
الله ، وأظهرُ صلوات الله ، وأعظمُ صلوات الله ، وأذكى صلوات الله وأطيب
صلوات الله ، وأبركُ صلوات الله ، وأوفى صلوات الله ، وأسنى صلوات
الله ، وأعلى صلوات الله ، وأكثرُ صلوات الله ، وأجمعُ صلوات الله ، وأعمُّ

صلوات الله ، وأدومُ صلوات الله ، وأبقى صلوات الله ، وأعزَّ صلوات الله ، وأرفع صلوات الله على أفضل خلق الله ، وأحسن خلق الله ، وأجل خلق الله ، وأكرم خلق الله ، وأجل خلق الله ، وأكمل خلق الله . وأتم خلق الله ، وأعظم خلق الله عند الله ، رسول الله ، ونبي الله ، وحبيب الله ، وصفيّ الله ، ونجّي الله ، و خليل الله ، ووليّ الله ، وأمين الله ، وخيرَ الله من خلق الله ، ونُخبَة الله من برّية الله ، وصفوّة الله من أنبياء الله ، وعروّة الله ، وعِصمة الله ، ونعمة الله ، ومفتاح رحمة الله ، المختار من رُسل الله ، المنتخب من خلق الله ، الفائز بالمطلب في المرهب والمرغب المخلص فيما وُهب ، أكرم مبعوث ، أصدق قائل ، أنجح شافع ، أفضل مشفع ، الأمين فيما استودع ، الصادق فيما بلغ ، الصانع بأمر ربّه ، المضطلع بما حُمِّل ، أقرب رُسل الله الى الله وسيلة وأعظمهم غداً عند الله منزلة وفضيلة ، وأكرم أنبياء الله الكرام الصفوة على الله ، وأحبهم الى الله ، وأقربهم زُلْفَى لدى الله ، وأكرم الخلق على الله ، وأحظاهم وأرضاهم لدى الله ، وأعلى الناس قدراً ، وأعظمهم تحلاً ، وأكملهم محاسنَ وفضلاً ، وأفضل الأنبياء درجةً ، وأكملهم شريعةً ، وأشرف الأنبياء نصاباً ، وأبينهم خطاباً ، وأفضلهم مولداً ومهاجراً وعترَةً وأصحاباً وأكرم الناس أرومةً ، وأشرفهم جرثومةً ، وخيرهم نفساً ، وأطهرهم قلباً ، وأصدقهم قولاً ، وأزكاهم فعلاً ، وأثبتهم أصلاً ، وأوفاهم عهداً ، وأمكنهم مجداً ، وأكرمهم طبعاً ، وأحسنهم صنعاً ، وأطيبهم

فرعا ، وأكثرهم طاعة وسمعا ، وأعلاهم مقاما ، وأحلاهم كلاما ، وأزكاهم
 سلاما ، وأجلهم قدرا وأعظمهم فخرا ، وأسناهم نورا ، وأرفعهم في الملاء
 الأعلى ذكرا ، وأصدقهم وعدا ، وأكثرهم شكرا ، وأعلاهم أمرا ، وأجلهم
 صبرا ، وأحسنهم خيرا ، وأقربهم يسرا ، وأبعدهم مكانا ، وأعظمهم شانا
 وأثبتهم برهانا ، وأرجحهم ميزانا ، وأولهم إيمانا ، وأوضحهم بيانا ،
 وأفصحهم لسانا ، وأظهرهم سلطانا .

صلاة لبراهيم التازي

وتعرف بالصلاة التازية

اللهم صلّ صلاةً كاملةً وسلم سلاماً تاماً على محمد نبيّ تنحلّ به العقد ،
 وتنفرج به الكرب ، وتقضى به الحوائج وتنال به الرغائب وحسن
 الخواتم ، ويستسقى الغمام بوجهه وعلى آله وصحبه ،

تحمدٌ لمحمد ميارة

يذكر فيه هداية الاسلام وجهاد النبي عليه السلام

الحمد لله مُرشد هذه الأمة لما اختار لها من الايمان والاسلام
 شريعةً ومنهاجاً مُعينٍ مَنْ أراد به خيراً على فِهم قواعدهما وحفظ فروعهما
 حتى امتزجت بلحومهم ودماهم امتزاجاً ، فانتفعوا بمعرفة ضروريِّ علم
 دينهم ونفعوا من الخلق أفراداً وأزواجاً ، نحمده ونشكره على نعمه التي

لا نُحْصِيهَا وَكَيْفَ يُحْصَى الْبَحْرُ سَيَّاحاً وَالْقَطْرُ ثَجَّاجاً وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ
لذُنُوبِنَا الَّتِي ارْتَكَبْنَاهَا انْحِرَافاً وَاعْوَجَاجاً ، وَنُؤْمِنُ بِهِ وَنَتَوَكَّلُ عَلَيْهِ
اِفْتِقَاراً إِلَيْهِ وَاحْتِيَاجاً ، وَنَبْرَأُ مِنَ الْحَوْلِ وَالْقُوَّةِ إِلَيْهِ بَرَاءَةً نَجِدُ لَهَا
سُرُوراً وَابْتِهَاجاً ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا الَّتِي
صَيَّرَتْ لِحُلُونَا مُرّاً وَعَذَبَنَا أَجَاجاً ، مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ وَمَنْ يَضِلَّ
فَلَنْ تَجِدَ لِدَاءِ ضَلَالِهِ عِلَاجاً ، وَنَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ
شَهَادَةً تُمَازِجُ الرُّوحَ وَالظُّوْعَ مِزَاجاً ، وَتَكُونُ لِكُلِّ خَيْرٍ سُلْماً وَمِعْراجاً ،
وَنَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا وَنَبِيَّنَا وَمَوْلَانَا مُحَمَّدًا عَبْدَهُ وَرَسُولَهُ الَّذِي أَطْلَعَهُ اللَّهُ فِي
ظُلُمَاتِ الشَّرْكِ سِرَاجاً وَأَمَرَهُ بِمُحَارَبَةِ أَهْلِ الْكُفْرِ حَتَّى دَخَلُوا فِي دِينِ اللَّهِ
أَفْوَاجاً ، صَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمْ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ الَّذِينَ حَفِظُوا دِينَهُ وَأَذَاعُوهُ
فَصَارَ مَصْبَاحاً وَهَاجاً ، صَلَاةً وَسَلَاماً نَسْتَمْطِرُ بِهِمُ الْعَفْوَ اسْتِمْطَاراً
وَنَسْتَنْتِجُ الْغُفْرَانَ اسْتِنْتِجَاجاً .

صلاة لمحمد بن ناصر

من كتابه الغنيمَة ، (حرف الهمزة)

اللهم صل على سيدنا ومولانا محمد وعلى آل سيدنا محمد صلاة تكون
لنا معاذاً من الشيطان ومكلاً ، اللهم صل على سيدنا ومولانا محمد وعلى آل

١ - سياحا أي جاريا والقطر بالفتح المطر ، وثجّاجا بالتشديد أي مُنصباً
والوصفان منصوبان على الحال .

سيدنا محمد صلاة تغفر لنا بها ما جنيناه عمداً أو خطأ ، اللهم صل على سيدنا
ومولانا محمد وعلى آل سيدنا محمد صلاة تسدّ دنا بها في أمورنا كلها معاداً
ومبدأ ، اللهم صل على سيدنا ومولانا محمد وعلى آل سيدنا محمد صلاة تجعل
لنا بها مهيماً الى رضوانك مُوطّأ^١ . اللهم صل على سيدنا ومولانا محمد وعلى
آل سيدنا محمد صلاة تجعل لنا بها عندك قدراً وخطراً وقرباً وحباً وشرفاً
ومغباً^٢ ، اللهم صل على سيدنا ومولانا محمد وعلى آل سيدنا محمد
صلاة تجعل لنا بها في الجنة مقيلاً ومبوّأ .

صلاة للمُعطي بن الصّالح

من كتابه الذّخيرة ، يذكر فيها شرف الاسراء بالنبي ﷺ

اللهم صل وسلم على سيدنا ومولانا محمد وعلى آل سيدنا محمد سلطان
المملكة المتوّج بتاج اليُمن والبُشرى ، ومحل الخير والبركة ، المبعوث
بالرفق والهداية واليُسرى ، الذي لما أردت أن تُشرف قدره على ما فوق
العرش وتحت الثرى ، وتُظهر مزيّته على أحبائك وأصفائك دنيا وأخرى ،
أسرّيت به الى بساطك لِتُريه ما خفي عن العقول من أسرار قدرتك ،
وباهر آياتك الكبرى ، وتطلّعه على ما رمزت له به في دقائق رقائق سورة

١ - المهيح الطريق والموطأ المهد .

٢ - أي اعتباراً .

الإِشْرَاءُ ، وَتُحْفِهَ بِكَمَالِ الْقُرْبِ وَالِاصْطِفَاءِ وَتُخْبِرُهُ بِأَنَّهُ أَوَّلَى بِذَلِكَ
 الْمَقَامِ وَأُخْرَى ، وَأَنَّهُ الْإِمَامُ الْأَعْظَمُ وَالْحَبِيبُ الْأَكْرَمُ وَالصَّفِيُّ الْمُؤَيَّدُ
 بِخُطَابِ « أَفْئِمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى » وَالنَّبِيُّ الْمَشْرِفُ بِقَوْلِكَ « وَلَقَدْ رَأَى
 نَزْلَةً أُخْرَى عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا
 يَغْشَى مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى » فَصَلِّ اللَّهُمَّ
 عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ صَلَاةَ تَشْرِحَ بِهَا صُدُورُنَا لِلذِّكْرِ ، وَتَحْفَظُنَا بِهَا مِنْ نَكَبَاتِ
 الدَّهْرِ وَعَوَارِضِ الْعُسْرِ ، وَتَهَبَّ عَلَيْنَا نَوَافِحَ بَرَكَتِهَا الْمُحَمَّدِيَّةَ كُلَّ
 حِينٍ تَتَرَى ، بِفَضْلِكَ وَكَرَمِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ يَا رَبَّ الْعَالَمِينَ .

تحميد خالد العُمري

من خطبة له إثرَ عزَل أحدِ وُلاةِ الجُورِ بمدينة طنجة عام ١٢٤٣ هـ .

الحمد لله الذي كَشَفَ عَنَّا الْبَلَايَا وَدَفَعَ عَنَّا الْمَكَارِهَ وَنَفَى عَنَّا الْأَسْوَءَ ،
 وَصَرَفَ عَنَّا بَغْيَ رِثَةِ الصَّمْدَانِيَّةِ كَأْسًا كُنَّا نَتَجَرَّعُهَا وَلَا نَكَادُ نُسِيغُهَا مِنْ
 أَيْدِي أَرْبَابِ الْعَسْفِ وَالْأَهْوَاءِ ، وَمَالَ بِجَيْشِ الْيُسْرِ عَلَى جَيْشِ الْعُسْرِ فَانْجَابَتْ
 عَنَّا بِحَمْدِهِ أَحْلَاكُ الْعَنَاءِ ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَرَفَ عَنَّا الْأَذَى وَأَذْهَبَ
 رَفَقًا بِنَا مَعِشَرَ الْمَسَامِينِ عَنَّا الْحَزْنَ ، وَكَحَلَ يُمْنَاهُ جَفَوْنَا بَعْدَ مَا أُلْفَتْ
 الشَّهَادَ مِنْ أَجْلِ الْفَسَادِ بِمِرْوَدِ الْوَسَنِ ، فَاعْتَظْنَا وَنَحْنُ مَزِيدُ الْحَمْدِ مِنْ
 لِيَالِي النَّحُوسِ وَالْخَنَى ، لِيَالِي السُّعُودِ وَالْهَنَاءِ ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي كَبَتَ الْعُدُوَّ
 وَجَبَرَ الصَّدْعَ وَغَيَّرَ الشَّيْطَانَ وَقَدْ شَابَتْ مِنْ مَفْرِقِهِ النَّوَاصِي وَاللَّعَمُ ،

وردَّ عز وجل اليدَ الْعَادِيَةَ عَنَّا ، ردَّ الْغَيُور يدَ الْجَانِي عن الْحَرَم ،
 فاستوجب منَّا أن نلْهَج بالحمد والشكر له على كل حال ، وما كان من
 حال . بلسان الْعَجَل لا بلسان الْوَنَا ، نحمده تعالى ونشكره ، على ما خولنا
 من سوابغ النعم ، ونستقيله عز جنابه ونستغفره من نَوَاهِي أَقْسَتْهَا تُنتِجُ
 فَوَادِحَ النَّقَم ، حمداً واستغفاراً يحصل بهما للحامد والمستغفر مثلاً ما يحصل
 للمُفْرِدِ والقَارِنِ^١ من التَّكْرِمَةِ في مَنَى ، وَنُومِنُ به ونتوكل عليه ونبرأ
 من الحول والقوة إليه ، توكل من أَنَاب ، وبراءة من جنتُ يَدَاه من
 غُرُوس التَّكْرِيم ثَمَرُ الْمَنَى ، ونعوذ به من شرور أنفسنا التي لم يُوقَفْ لها
 على حساب ، ومن سيئات أعمالنا التي أثبتَّتْهَا أَقْلَامُ الْكِرَامِ الْكَاتِبِينَ في
 كِتَاب ، فانه جل وعلا خيرُ واقٍ يقينا من وَقَعْ مَالُهَا وَلِلْهُوَى من بِيضٍ
 وَسِهَامٍ وَقَنَّا ، مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَلَا صَارَفَ لَهُ عَنِ التَّشَبُّثِ بِأَذْيَالِ الدِّينِ ،
 وَمَنْ يُضِلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ وَلَا نَاصِرَ وَلَا مُعِين ، وما التوفيق الا من عند
 الله والله خَلَقَكُمْ وما تعملون سرّاً وعلناً .

• صلاة للمُخْتَارِ الْكُنْتِي

من كتابه نفح الطيب ، ضمنها عمود النسب الكريم

اللهم صل وسلم على أَشْبَهِ وَلَدِ إِبْرَاهِيمَ بِإِبْرَاهِيمَ ، الْمُشْرِفِ بِالطَّوَّاسِينِ

١ - المفرد هو المحرم بحج ، والقارن هو المحرم بحج وعمرة ، وكلاهما له ثواب
 جزيل ، ومنى من أماكن الحج المعروفة .

والحوَامِيمُ^١ اللهم صل وسلم على الْمُنْبَأِ من ذُرِّيَّةِ نَابِتٍ^٢ الذي شَرَفَهُ
وَذَكَرَهُ وَالتَّنْوِيَهُ به في جميع الدهور ثَابِتٍ ، اللهم صل وسلم على المختار من
صُنُضِيٍّ^٣ عَدْنَانِ الْمَحْبُوءِ بالسبع المثاني والقرآن . . الخ .

-
- ١ - الطواسين السور القراءانية المفتحة بطس والحواميم السور المفتحة بحم
والأولى أن يقال لها آل حم .
٢ - نابت هو ولد اسمعيل عليه السلام .
٣ - بكسر الضادين أي أصل .

الخطبة

خطبة لطارق بن زياد

قالها في جيشه الذي فتح به الأندلس بعد أن أحرق الأحفان التي حملتهم
إلى الجبل المسمى باسمه قطعاً لاملهم في الرجوع .

أيها الناس : أين أَلْمَفَرُّ ؟ البحر من وراءكم والعدو أمامكم وليس لكم
والله إلا الصّدق والصبر . واعلموا أنكم في هذه الجزيرة أضيع من
الأيّتام في مأدبة اللّثام . وقد استقبلكم عدوكم بجيشه ، وسدّته وأقواته
مَوْفُورة . وانتم لا وزر لكم إلا سبوفكم ، ولا أقوات لكم إلا ما تستخلصونه
من أيدي عدوكم . وإن امتدّت بكم الأيام على افتقاركم ولم سجزوا لكم
امراً ، ذهبت ريحكم وتعوّضت قلوب من رعيها منكم الجراءة
عليكم . فادفعوا عن أنفسكم خذلان هذه العاقبة من أمركم بمنّا جزرة
هذا الطّاغية ، فقد أَلْقَتْ به اليكم مدينته الحصينة . وإن انتهز
الفرصة فيه لممكن أن سمحتم لأنفسكم بالموت وإني لم أحذركم أمراً أنا
عنه بنجوة ، ولا حملتكم على حطة أرخص متاع فيها النفوس (من

غير ان) أبداً بنفسي . واعلموا انكم ان صبرتم على الأشق قليلاً
استمتعتم بالأرفه الألد طويلاً ، فلا ترغبوا بانفسكم عن نفسي فما
حظكم فيه بأوفى من حظي . وقد بلغكم ما انشأت هذه الجزيرة
من الحور الحسن ، من بنات اليونان ، الرافلات في الدر والمرجان ،
والحلل المنسوجة بالعقيقان ، المقصورات في قصور الملوك ذوي التيجان .
وقد انتخبكم الوليد بن عبد الملك امير المؤمنين من الأبطال عرباناً ،
وراضيكُم ملوك هذه الجزيرة أصهاراً وأختاناً . ثقةً منه بارئياً حكم
للطعان ، واستأحكم بمجالدة الأبطال والفرسان ، ليكون حظه منكم
ثواب الله على إعلاء كلمته وإظهار دينه بهذه الجزيرة وليكون مغنمها
خالصة لكم من دونه ومن دون المومنين سواكم . والله تعالى وليُّ
إنجادكم على ما يكون لكم ذكراً في الدارين . واعلموا اني اولُ مجيب
الى ما دعوتكم اليه وأني عند ملتقى الجمعين حاملٌ بنفسي على طاعة
القوم « لذريرق » فقاتله ان شاء الله تعالى فاحملوا معي فان هلكت بعده
فقد كفيتمكم أمره ولم يعوزكم بطل عاقل تسيدون اموركم اليه وان
هلكت قبل وصولي اليه فأخلفوني في عزيمتي هذه واحملوا بانفسكم
عليه واكتفوا لهم من فتح هذه الجزيرة بقتله فانهم بعده يُخذلون .

١ - هذه الكلمة ليست بالاصول التي وقفنا عليها وبدونها لا ينسجم الكلام وفي
رواية اخرى للخطبة ولاحملنكم بالاثبات والتأكيد، ومع ذلك يبقى في الكلام تقطيع.

خطبة إدريس الأزهر

قالها بإثر مبايعته وهو ابن إحدى عشرة سنة

الحمد لله أحمدُه واستعينُه واستغفرُه واتوكلُ عليه واعوذُ به من شر نفسي ومن شر كل ذي شر ، واشهد ان لا اله الا الله وان محمدا عبده ورسوله ارسله الى الثقلين بشيراً ونذيراً وداعياً الى الله بإذنه وسراجاً منيراً ﷺ وعلى آل بيته الطاهرين الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا - ايها الناس ! إنا قد ولينا هذا الأمر الذي يضاعف للمحسن فيه الأجر ، وللمسيء الوزر ، ونحن والحمد لله على قصد جميل فلا تمدوا الاعناق الى غيرنا ، فان ما تطلبونه من اقامة الحق انما تجدونه عندنا .

خطبة اخرى له

لما فرغ من بناء فاس وحضرت الجمعة الأولى صعد المنبر وخطب الناس ثم قال :
اللهم انك تعلم اني ما اردتُ ببناء هذه المدينة مباهاة ولا مفاخرة ، ولا سُمعة ولا مُكابرة ، وانما اردتُ ان تُعبدَ فيها ويُتلى كتابك وتقام حدودك وشرائع دينك وسنة نبيك محمد صلى الله عليه وسلم ما بقيت الدنيا . اللهم وفق سُكَّانها وقُطَّانها للخير وأعنهم عليه ، واكفهم مؤونة اعدائهم ، وأدر عليهم الرزق وأعِمِّدْ عنهم سيف الفتنَةِ والشقاق ، انك على كل شيء قدير .

خطبة لعبدالله بن ياسين
خطبها في شيوخ المرابطين وقد طعن في حروبه
مع « برغواطة »

يا مَعْشَرَ المرابطين : انكم في بلاد اعدائكم ، واني مَيِّت في يومي
هذا لا محالة ، فاياكم ان تجبُّنوا وتفشلوا فتذهب رِيحُكم ، وكونوا أُلْفَةً
وأعوانا على الحق واخواناً في ذات الله تعالى ، واياكم والمخالفة والتحاسد
على طلب الرياسة فان الله يوتي مَلِكُه من يشاء وَيَسْتَخْلِفُ في أَرْضِه من
أحبَّ من عباده ، ولقد ذهبتُ عنكم فانظروا من تُقدِّمونه منكم يقومُ
بأمركم يَقُوذُ جُيُوشكم ويعزو عدوكم ويقسِمُ بينكم فيئُشْكُم ويأخذُ
زكَّاتكم وأُعْشاركم .

خطبة للقاضي عياض
في الحص على انوش

عباد الله سامُّوا الأمور الى من يبيده أزمَّةُ مقاديرها تنجَّجُوا ،
واشتُّوا راحة قلوبكم باخلاص التوكل على الله تَرَبَّجُوا ، واعلموا أن
الحِرص لا يزيد المرء على ما قُسمَ له ، وتصاريف القدر تقطع لكل أمل
أمله ، وانما يدرك الانسان بسعيه ما كُتب له لا ما طلب ، ويبلغ بكده
ما قُسم له لا ما أُمِّل واحتسب فأجملوا رَحِمَكُم الله في انطدب السوء ،
وتوكلوا على الله حقَّ توكله تُرْزَقُوا ، وأريحوا أنفسكم من النَّصب في
طلب الدنيا والكَد ، فانه لا مانع لما أعطى الله ولا مُعْطِي لما منع ولا

ينفعُ ذَا الْجَدِّ مِنْهُ الْجَدُّ ، أَلَا وَإِنَّ التَّوَكُّلَ عَلَى اللَّهِ وَالثِّقَةَ بِهِ أَحَدُ أَبْوَابِ الْإِيمَانِ ، وَمَنْ أَفْضَلُ دَرَجَاتِ الْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ ، وَهُوَ حَقِيقَةُ الْعُبُودِيَّةِ وَالتَّوْحِيدِ ، وَمُوجِبُ الرِّضَا وَالتَّسْلِيمِ لِلرَّقِيبِ الشَّهِيدِ ، فَقَدْ جَرَى الْقَلَمُ بِمَا كَانَ وَيَكُونُ ، وَنَفَذَ قَضَاءُ اللَّهِ بِكُلِّ خَيْرٍ وَشَرٍّ وَحَرَكَةٍ وَسَكُونٍ ، وَانْقَطَعَتِ الْأَطْمَاعُ عَنْ تَأْمِيلِ غَيْرِ مَا تَقَدَّمَ مِنْ مَشِيئَاتِهِ ، (وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صَدَقًا وَعَدْلًا ، لَا مَبْدَلَ لِكَلِمَاتِهِ ،) فَفِيمَ التَّعَبِ وَالطَّلَبِ وَقَدْ سَبَقَ لَكَ فِي الْكِتَابِ مَا سَبَقَ ؟ وَعَلَامَ اللَّفِّ وَالْأَسْفِ عَلَى أَمْرٍ قَدْ فُرِغَ مِنْهُ قَبْلَ أَنْ تُخْلَقَ ، أَلَمْ يَضْمَنْ لَكَ رَبُّكَ رِزْقَكَ وَمَا وَعَدَ فِي سَمَائِهِ ، أَلَمْ يُعَلِّمَكَ أَنَّهُ لَا مُعَقَّبَ لِحُكْمِهِ وَلَا رَادَ لِقَضَائِهِ ؟ فَعَامِلُ رَبِّكَ أَيُّهَا الْعَبْدُ بِالتَّوَكُّلِ وَالتَّسْلِيمِ ، تَفُزْ بِالْعَيْشِ الْهَنِيِّ وَالشَّوَابِ الْجَسِيمِ .

عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: كنتُ خلفَ النبي ﷺ يوماً فقال: يا غلام! إني أعلمُك كلماتٍ ينفعُك الله بهنَّ ، احفظِ الله يحفظَكَ ، احفظِ الله تجدهُ تُجَاهَكَ ، إذا سألتَ فاسألِ الله ، وإذا استعنتَ فاستعنْ بالله ، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك ، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك ، جفَّتْ الْأَقْلَامُ وَطُويتِ الصُّحُفُ . إِنَّ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ وَأَبْلَغَ الْمَوَاعِظِ كَلَامُ اللَّهِ تَعَالَى (وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ) جَعَلَنِي اللَّهُ

وإيّاكم ممن توكل عليه في كل حالاته ، واتّقاء سبحانه حقّ تقاّته ، وغفر لي ولكم ولجميع المسلمين .

خطبة للنمّهدي بن تومرت

خطبها في شيوخ المصامدة عاهداً الى عبد المومن

إن الله سبحانه وله الحمد منّ عليكم ايّتها الطائفة بتأييده وخصّكم من بين اهل العصر بحقيقة توحيد حيدده ، وقيّض لكم من ألقاكم ضلّالاً لا تهتدون ، وعميّاً لا تبصرون ، لا تعرفون معروفاً ولا تنكروون منكراً ، قد فشت فيكم البدع واستهوتكم الاباطيل وزين لكم الشيطان أضاليل وتزّهات أنزّه إساني عن الشّطّق بها وأربأ بلفظي عن ذكرها فهذاكم الله به بعد الضلالة وبصركم بعد العمى ، وجمعكم بعد الفرقة وأعزكم بعد الذّلة ورفع عنكم سلطان هؤلاء المارقين وسيورثكم ارضهم وديارهم . ذلك بما كسبت ايديهم وأضمّرت قلوبهم « وما ربك بظلام للعبيد » فجدّدوا لله سبحانه خالص نيّاتكم وأرؤوه من الشكر قولاً وفعلأ ما يزكي به سعيكم ويتقبّل اعمالكم وينشر امركم ، واحذروا الفرقة واختلاف الكلمة وشتات الآراء ، وكونوا يداً واحدة على عدوكم ، فانكم ان فعلتم ذلك هابكم الناس وأسرّعوا الى طاعتكم وكثّر أتباعكم وأظهر الله الحقّ على ايديكم ، وإلّا تفعلوا شملكم الذنّ وعمّمكم الصغار واحتقرتكم العامة فتخطفتكم الخاصّة .

خطبة للقاضي أبي حفص بن عمر

يُحذَرُ فيها من مذهب الفلاسفة ويحضُّ على اتباع السنة
وهو متأثرٌ في ذلك ، ولا شكَّ ، بحملة المنصور الموحيدي على الفلسفة

إياكم والقدماء وما أحدثوا ، فإنهم عن عقولهم حدثوا . أتوا من
الافتراء بكل أعجوبة ، وقلوبهم عن الأسرار محجوبة ، الانبياء ونورهم ، لا
الأغبياء وغرورهم عنهم يتلقَّى وبهم يُدرَكُ السُّؤل ، (عالمُ الغيب فلا يُظهِرُ
على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول ،) الدين عند الله الاسلام ، والعلمُ
كتابُ الله وسنةُ محمد عليه السلام ، ما ضرَّ من وقف عندهما ، ما جهل بعدهما ،
خيرُ نبيٍّ في خير أمة (يُزَكِّيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة ،) دلَّهم من قُرب
عليه ، واختصر لهم الطريق إليه ، فما ضرَّ تلك النفوسَ الكريمة ، والقلوبَ
السليمة ، والألبابَ العظيمة ، ما زوَّيَ عنها من العلوم القديمة ، نقَّاهم من
الأوْضار والأدناس ، وقال كنتم خير أمة أخرجت للناس ، كتابهم
أعظمُ كتاب أنزل ، ونبيُّهم أكرم نبي أرسل ، السيدُ الإمام ، لبنةُ التَّمام ،
خيرُ البرية على الإطلاق بُعث ليُتمِّم مكارم الأخلاق ، أنزل الكتابُ
إليه ، (مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيئناً عليه) هو الشفاء والرحمة ،
وفيه العلم كله والحكمة ، معجزٌ في وصفه عزيز في رصفه ، لا يأتيه الباطل
من بين يديه ولا من خلفه ، (آياته باهرة قائمة ، ومعجزاته باقية دائمة ،

إذ هي للنبوة والرسالة خاتمة ، لا تنقضي عجائبه ، ولا تنتهي غرائبه ، ماذا أقول ، وقد بهر العقول ، حَسْبِي حَسْبِي (قُلْ لو كان البحرُ مداداً لكلمات ربي لَنفَذَ البحرُ قبل أن تَنفَذَ كلماتُ ربي) .

وعليكم من جميع اموركم بمزج الرأفة بالغلظة واللين بالعنف واعلموا مع هذا أنه لا يصلح امرؤ آخر هذه الأمة الا على الذي صلح عليه امرؤ أولها . وقد اخترنا لكم رجلاً منكم وجعلناه أميراً عليكم . هذا بعد ان بلوناه في جميع احواله من ليله ونهاره ومدخله ومخرجه ، واختبرنا سريرته وعلايته ، فرأيناه في ذلك كله ثبثاً في دينه متبصراً في امره واني لأرجو ان لا يخلف الظن فيه . وهذا المشار اليه هو عبدُ المؤمن فاسمعوا له واطيعوا ما دام سامعاً مطيعاً لربه فان بدّل او نكص على عقبه او ارتاب في امره ففي الموحدين اعزهم الله بركة وخير كثير ، والامر لله يُقلّده من شاء من عباده .

خطبة للنصور المريني

كان له باسبانيا غزوات عظيمة ومن بعض خطبه فيها
يحض جيشه على القتال قوله :

يا معشر المسلمين ، وعصاة المجاهدين : إن هذا يومٌ عظيم ، ومشهدٌ جسيم ، ألا وإن الجنة قد فتحت لكم ابوابها ، وزيّنت أترابها ، فخذوا في طلبها ، فإن الله اشترى من المؤمنين انفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة .

فَشَمِّرُوا عَنْ سَاعِدِ الْجِدِّ مَعَاشِرَ الْمُسْلِمِينَ ، فِي جِهَادِ الْمُشْرِكِينَ ، فَمَنْ مَاتَ مِنْكُمْ مَاتَ شَهِيدًا ، وَمَنْ عَاشَ عَاشَ غَانِمًا مَا جُورَ أَحْمِيدًا ، فَاصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَاطِبُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ .

خطبة لابن رُشيد

قام ابن رشيد للخطبة يوم الجمعة بعد فراغ المؤذن الثاني
ظنه الثالث فكثُر لغطُ الناس فقال بديهه

ايها الناس رَحِمَكُمُ اللَّهُ : إِنَّ الْوَاجِبَ لَا يُبْطِلُهُ الْمُنْذُوبُ ، وَإِنَّ الْأَذَانَ الَّذِي بَعْدَ الْأَوَّلِ غَيْرُ مَشْرُوعٍ الْوَجُوبُ ، فَتَأَهَّبُوا لَطَلَبِ الْعِلْمِ وَانْتَبِهُوا ، وَتَذَكَّرُوا قَوْلَ اللَّهِ تَعَالَى (وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا) ، وَقَدْ رَوَيْنَا عَنْهُ ﷺ أَنَّهُ قَالَ : مَنْ قَالَ لِأَخِيهِ ، وَالْإِمَامُ يُخْطَبُ ، أَنْصِتْ فَقَدْ لَغَى ، وَمَنْ لَغَى فَلَا جُمُعَةَ لَهُ ، جَعَلَنِي اللَّهُ وَإِيَّاكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَعَمِلَ ، وَعَمِلٍ فَقَبِلَ ، وَأَخْلَصَ فَتَخَلَّصَ .

خطبة وغلطية لأبي مَدَنٍ الفاسي

عباد الله : نَجَا الْمُخَنَّفُونَ فَخَفَّفُوا الْإِثْقَالَ لِتَلْحَقُوا ، وَفَازَ الْمُتَّقُونَ فَانْشَبَّتُمُ الْفُوزَ فَاتَّقُوا ، وَتَرَافَقَ السَّعْدَاءُ عَلَى الْجَادَةِ فَأَيَّاهُمْ فَرَّافِقُوا ، وَسَابَقَ الثَّجْبَاءُ إِلَى الْعِبَادَةِ فَسَارِعُوا إِلَيْهَا وَسَابِقُوا ، وَوَصَلَ الْمُشَمَّرُونَ ، فَاذَا يَنْتَظَرُ الْمُقَصَّرُونَ ، « هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا

يشعرون» أخرج الإمام أحمد في الزهد والحاكم في المستدرک والبيهقي عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال لرجل وهو يعظه اغتنم خمساً قبل خمس، شبابك قبل هرمك، وصحتك قبل سقمك، وغناك قبل فقرك، وفراغك قبل شغلِكَ، وحياتك قبل موتك. «استجيّبوا لربكم من قبل أن يأتي يوم لا مردّ له من الله ما لكم من ملجأ يومئذ وما لكم من نكير». في الحلية عن بلال بن سعيد قال: قال عبد الرحمن: يُقال لأحدنا أتُحب أن تموت؟ فيقول لا. ويقول سوف اعمل، فلا يحب أن يموت ولا يعمل، وأحب شيء إليه أن يؤخر عمل الله ولا يحب أن يؤخر عمل الدنيا. «يا أيها الناس إن وعد الله حقّ فلا تغرّ نكم الحياة الدنيا ولا يغرّ نكم بالله الغرور» ولا تتخيّلوا الإقامة في دار لا بقاء لها، وتظنّوا أن من جدّ على الجادّة كمن تباهى بالباطل ولها، كلاً! والله إن ما ولدناه فللتراب، وما جمّعناه فللذهاب، وما شيّدناه فللخراب، وما اكتسبناه ففي كتاب، وكلّ إنسان ألزمناه طائره في عنقه ونُخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً، اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً» روى الإمام مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: يقول العبد، مالي مالي! وإنما له من ماله ثلاث، ما أكل فأفنى، أو لبس فأبلى، أو تصدّق فأمضى، وما سوى ذلك فهو ذاهب وتاركة للناس. «كم ترَكُوا من جنّات وُعيون وزُرُوع ومقام كريم! كذلك وأورثناها قوماً آخرين» روى الدّيلمّي عن أنس أن رسول الله صلى الله

عليه وسلم قال : أَصْلِحُوا دُنْيَاكُمْ وَعَمَلُوا لِآخِرَتِكُمْ كَأَنَّكُمْ تَمُوتُونَ غَدًا .
« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ، وَاتَّقُوا اللَّهَ
ان الله خبير بما تعملون » جعلني الله وَايَاكم ممن قدَّم من دنياه لأخراه ،
واستجاب لربه من قبل ان يأتي يوم لا مردَّ له من الله ، وأجارني وَايَاكم
من عذابه المُهِين ، وغفر لي ولكم ولوالدينا ولجميع المسلمين .

خطبة في التذكير والترغيب

لأبي عبدالله الرُّهُونِي

أَيُّهَا النَّاسُ ، حَصَّصْ لَكُمْ الْحَقَّ فَتَبَصَّرُوا ، وَتَبَيَّنْ لَكُمْ الرُّشْدَ مِنَ
الْغَيِّ فَالْزَمُوا الطَّاعَةَ وَتَذَكَّرُوا ، وَحَمِلْتُمْ عَلَى سُلُوكِ الطَّرِيقِ الْمُسْتَقِيمِ فَاسْتَقْدُمُوا
وَلَا تَتَأَخَّرُوا وَحَذِّرُكُمْ مِنَ الْعُدُولِ عَنْهَا فَخَافُوا اللَّهَ وَاحْذَرُوا ، وَأُسَبِّغْتُ
عَلَيْكُمْ النِّعَمَ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً فَاعْرِفُوا حَقَّهَا وَاشْكُرُوا ، وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ لَا
يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا ، وَايَاكُمْ وَالتَّقْصِيرَ فِي الْعَمَلِ فَلَنْ تَسْعَدُوا مَعَ
التَّقْصِيرِ أَوْ تُعَذَّرُوا ، وَكُونُوا مِنْ قَوْمٍ أَشْرَقَتْ لَهُمْ أَنْوَارُ الْهُدَايَةِ فَأَبْصُرُوا ،
وَتَلَيَّتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُ اللَّهِ فَتَدَّبَرُوا ، وَلَا تَكُونُوا مِمَّنْ اسْتَعْبَدْتُمُ الدُّنْيَا
فَشَرِبُوا مِنْ كُؤُوسِ حُبِّهَا حَتَّى سَكِرُوا ، وَقَطَعُوا أَعْمَارَهُمْ فِي اتِّبَاعِ شَهَوَاتِهَا
فَخَابُوا وَخَسِرُوا ، وَانْهَجُوا سَبِيلَ الَّذِينَ اسْتَعَدُّوا لِمَوَاطِنِ الْقِيَامَةِ كَأَنَّهُمْ
شَاهَدُوا أَهْوَالَهَا وَحَضَرُوا ، وَرَأَوْا عَذَابَ النَّارِ فَكَفُّوا أَنْفُسَهُمْ عَنْ
السُّوءِ وَانْزَجَرُوا ، وَسَمِعُوا مَا أَعَدَّ اللَّهُ لِأَوْلِيَائِهِ فِي الْجَنَّةِ فَاجْتَهَدُوا

بالطاعة وبادرُوا ، وقد تحقَّقتم يا عبادَ الله أنه ليس بعدَ هذه الدار ، منزلٌ ولا قرار ، سوى الجنةِ أو النار ، فاختارُوا لأنفسِكُم وانظُرُوا ... في الصَّحيح عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال : ما مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا سَيُكَلِّمُهُ رَبُّهُ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ حِجَابٌ وَلَا تُرْجُمَانٌ ، فَيَنْظُرُ أَتَمِنَ مِنْهُ فَلَا يَرَى إِلَّا مَا قَدَّمَ وَيَنْظُرُ أَشْأَمَ مِنْهُ فَلَا يَرَى إِلَّا مَا قَدَّمَ ، وَيَنْظُرُ تَلْقَاءَ وَجْهِهِ ، فَلَا يَرَى إِلَّا النَّارَ تَلْقَاءَ وَجْهِهِ ؛ فَاتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ ثَمَرَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فِي كَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ ، إِنَّ أَحْسَنَ مَا أَنْتُمْ لَهُ سَامِعُونَ ، كَلَامَ مَنْ نَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ) .

خطبة للسلطان مولاي سليمان العلوي

في التحذير من بدع الموالسم والطوائف الضالَّة

أما بعدُ أيها الناس ، شرَّحَ اللهُ لقبول النصيحة صدوركم ، وأصلحَ بعنايته أموركم ، واستعملَ فيما يُرضيه آمركم ومأموركُم ، فإن الله قد استرعانا جماعتكم وأوجبَ لنا طاعتكم ، وحذَّرنَا إضاعتكم ، ولهذا نرثي لغفلتكم وعَدِمَ إحساسكم ، ونغارُ من استيلاء الشيطان بالبدع على أنواعكم وأجناسكم ، فآلَقُوا لأمر الله آذانكم ، وأيقظُوا من نوم الغفلة أجفانكم ، وطهَّروا من دَنَسِ البدع إيمانكم ، وأخلصُوا لله سرَّكم وإعلانكم ، واعلموا أن الله أوضحَ لكم طريق السنة لتسلُّكوها ، وصرَّحَ

بذم اللهو والشهوات لتمليكوها ، فامتثلوا أمره في ذلك وأطيعوه ،
واعرفوا فضله عليكم وعوه ، واركوا عنكم بدعة هذه المواسم التي أنتم
بها متلبسون ، والضلالة التي يُزَيَّنُهَا أَهْلُ الْأَهْوَاءِ وَيَلْبِسُونَ^١ ، افترقوا
أوزاعاً^٢ ، وانتزعوا الأموال انتزاعاً وأنفقوها فيما هو حرام كتاباً وسنةً
وإجماعاً ، وصاروا يترقبون للهوهم الساعات وتتزاحم على حبال الشيطان
وعصيته^٣ منهم الجماعات ، وكل ذلك حرام ممنوع ، والإنفاق فيه انفاق في
غير مشروع ، فأنشدكم الله عباد الله هل فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم
لعمه سيد الشهداء موسىماً ؟ وهل فعل سيد هذه الأمة أبو بكر لسيد
الأنبياء ﷺ موسىماً ؟ وهل تصدَّى لذلك أحد من الصحابة والتابعين
رضي الله عنهم أجمعين ؟ ثم أنشدكم الله هل زُخِرِفَتْ على عهد رسول الله
المساجد ؟ أوزوت أضرحة الصحابة والتابعين الأماجد ؟ كأنني بكم تقولون
في نحو هذه المواسم وزخرفة أضرحة الصالحين وغير ذلك من أنواع الابتداع :
حسبنا الاقتداء والاتباع ، (إنا وجدنا آباءنا على أمة وأنا على آثارهم مقتدون
(وهذه المقالة قالها الجاحدون ، وقد ردَّ الله مقالهم ، ووبَّخهم وما أقالهم ،
والعاقِلُ من اقتدى بالسلفِ المهتدين ، أهل الصلاح والدين ، (خيرُ القرون
قرني ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم .) كما في الحديث ، وبالضرورة
إنه لن يأتي آخر هذه الأمة بأهدى مما كان عليه أولها ، فقد قبض رسول

١ - أي يخلطون . ٢ - أي فرقاً وهو جمع لا مفرد له .

٣ - يعني وسائله التي يستهويهم بها .

الله ﷺ وَعَقْدُ الدِّينِ قَدْ سُجِّلَ ، وَوَعْدُ اللَّهِ بِإِكْمَالِهِ قَدْ عُجِّلَ ، (اليومَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا) قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه على منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم بحضرة الصحابة رضي الله عنهم : أيها الناس قد سُنتَ لكم السُّنَنَ وَفُرِضَتْ لَكُمْ الْفَرَائِضُ ، وَتُرِكَتُمْ عَلَى الْجَادَّةِ ، فَلَا تَمِيلُوا بِالنَّاسِ يَمِينًا وَلَا شِمَالًا ، أَلَا وَإِنَّهُ لَيْسَ فِي دِينِ اللَّهِ ، وَلَا فِيمَا شَرَعَ نَبِيُّ اللَّهِ ، أَنْ يُتَقَرَّبَ بَغْنَاءٍ وَلَا شَطُوحٍ ، فِي فَرَحٍ أَوْ قَرْحٍ ، وَالذِّكْرُ الَّذِي أَمَرَ اللَّهُ بِهِ وَحِثَّ عَلَيْهِ وَمَدَحَ الْذَاكِرِينَ بِهِ هُوَ عَلَى الْوَجْهِ الَّذِي كَانَ يَفْعَلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَلَمْ يَكُنْ عَلَى طَرِيقِ الْجَمْعِ وَرَفَعَ الْأَصْوَاتَ عَلَى لِسَانٍ وَاحِدٍ ، فَهَذِهِ سُنَّةُ السَّلَفِ ، وَطَرِيقَةُ صَالِحِي الْخَلْفِ ، فَمَنْ قَالَ بغير قولهم فَلَا يُسْتَمَعَ ، وَمَنْ سَلَكَ غير سبيلهم فَلَا يُتَّبَعَ ، (وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُؤَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا) فَمَا لَكُمْ يَا عِبَادَ اللَّهِ وَلِهَذِهِ الْبِدْعُ ؟ أَلَأَمْنًا مِنْ مَكْرِ اللَّهِ ؟ أَمْ تَلْبِيسًا عَلَى عِبَادِ اللَّهِ ؟ أَمْ مُنَابَذَةً لِمَنْ التَّوَاصَى بِيَدِيهِ ؟ أَمْ اغْتِرَارًا بِمَنْ الرِّجْوَعُ إِلَيْهِ ؟ فَتُوبُوا وَاعْتَبِرُوا ، وَغَيِّرُوا الْمَنَاسِكَ وَاسْتَغْفِرُوا ، فَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ بِذَنْبِ الْمُتَرَفِّينَ مَنْ دُونِهِمْ ، وَعَاقَبَ الْجُمْهُورَ لَمَّا أَغْضَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ عُيُونَهُمْ ، وَسَاءَتْ بِالْغَفْلَةِ عَنِ اللَّهِ عُقْبَى الْجَمِيعِ مَا بَيْنَ الْعَاصِي وَالْمُدَاهِنِ وَالْمُطِيعِ ، وَمَنْ أَرَادَ مِنْكُمْ التَّقَرُّبَ بِصَدَقَةٍ ، أَوْ وَفَّقَ لِمَعْرُوفٍ مِنْ أَطْعَامٍ أَوْ نَفَقَةٍ ، فَعَلَى مَنْ ذَكَرَ اللَّهَ فِي كِتَابِهِ ، وَوَعَدَ فِيهِمْ بِجَزِيلِ ثَوَابِهِ ، كَذَوِي

الضرورة غير الخافية ، والمرضى الذين لستم بأولى منهم بالعافية ، ولا يتقرب الى مالك التواصي ، بالبدع والمعاصي ، بل بما يتقرب به الأولياء الصالحون ، والاتقياء المفلحون ، أكل الحلال ، وقيام الليال ، ومجاهدة النفس في حفظ الأحوال ، بالأقوال والأفعال ، البطن وما حوى ، والرأس وما ونى ، وآيات تتلى ، وسلوك الطريقة المثلى ، وحج وجهاد ، ورعاية السنة في المواسم والأعياد ، ونصيحة تهدى ، وأمانة تؤدى وصلاة وصيام ، واجتناب مواقع الآثام ، (وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ، ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله) الصراط المستقيم كتاب الله ، وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم وليس الصراط المستقيم كثرة الرايات ، والاجتماع للبيات ، وحضور النساء والأحداث وتغيير الأحكام الشرعية بالبدع والإحداث ، والتصفيق والرقص ، وغير ذلك من أوصاف الرذائل والنقص ، (أفن زين له سوء عمله فرآه حسناً) في الحديث عنه صلى الله عليه وسلم : يُجاء بالرجل يوم القيامة وبين يديه راية يحملها ، وأناس يتبعونه فيسأل عنهم ويسألون عنه (إذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب) فاياكم عباد الله ثم اياكم وهذه البدع ، فانها تترك مراسم الدين خالية خاوية ، والعكوف على المناكر يُحيل رياض الشرائع ذابلة ذاوية ، ومن المنقول عن كل الملل ، والمشهور في الاواخر والأول ، أن المناكر والبدع اذا فشّت في قوم أحاط بهم سوء كسبهم ، وأظلم ما بينهم وبين ربهم ، انقطعت عنهم الرحمت

ووقعت فيهم المثلّات ، وشحّت السماء ، وغيض الماء ، واستولت الأعداء ، وانتشر الداء ، وجفّت الزروع ، ونقصت بركة الزروع ، لأن سوء الأدب مع الله يفتح أبواب الشدائد ، ويسدّ طرق الفوائد ، والأدب مع الله ثلاثة ؛ حفظ الحرمة بالاستسلام والاتباع ، ورعاية السنة من غير اخلال ولا ابتداع ، ومراقبة الله في الضيق والاتساع لا ما يفعله هؤلاء المتسمّون بالفُقراء ، وكلّ ذلك كذبٌ على الله وافتراء . عن العرباض بن سارية رضي الله عنه قال وعظنا رسولُ الله صلى الله عليه وسلم موعظةً ذرّفتُ منها العيون ووجلتُ منها القلوب فقلنا يا رسول الله كأنها موعظةٌ مودّع فاعهدُ إلينا قال أوصيكم بتقوى الله ، والسمع والطاعة ، فإنه من يعشُ بعدي فسيرى اختلافا كثيرا ، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي ، عضّوا عليها بالنواجذ ، وإياكم ومحدثات الأمور فإن كلّ محدّثة بدعة ، وكلّ بدعة ضلالة ، وها نحن عبادة الله أرشدناكم ، وحذّرناكم وأنذرناكم فمن ذهب بعدُ لهذه الموائس ، أو أحدث بدعةً في شريعة أبي القاسم ، فقد سعى في هلاك نفسه ، وجرّ الوبال عليه وعلى أبناء جنسه ، وتلّهُ الشيطانُ للجبين ، وخسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين (فليحذّر الذين يُخالفون عن أمره أن تُصيبهم فتنةٌ أو يُصيبهم عذابٌ أليم) .

خطبة وعظية للعربي الزرّهوني

على حسب أطوار الانسان وسنيه

عبادَ الله ! ان الله تبارك وتعالى ، كتب علينا الانتقالَ من هذه الدار ، وأمرنا بالنظر فيها والاعتبار ، والتزود منها لدار القرار ، وخالفَ بمقتضى حكمته بين مقادير الاعمار ، فمن مُعَجَّلٍ تُخَرِّمُهُ الْمَنِيَّةُ فِي رِيْعَانِ شَبَابِهِ ، وَغُنْفُوَانِ عُمُرِهِ وَلُبَابِهِ ، وَمِنْ مُوَجَّلٍ يُنْسَأُ لَهُ فِي أَجَلِهِ ، حَتَّى يَسْتَوْفِيَ مَا كُتِبَ لَهُ مِنْ رِزْقِهِ وَعَمَلِهِ ، فَالْعَبْدُ لَا يَدْرِي مَتَى يَأْتِيهِ حِمَامُهُ ، وَتَنْقُضِي بُوَفَاتِهِ أَيَامُهُ ، فَمَا أَحَقُّهُ وَأَوْلَادُهُ أَنْ يَعْمُرَ أَوْقَاتَهُ بِطَاعَةِ مَوْلَاهُ ، الَّذِي خَلَقَهُ وَسَوَّاهُ ، لِيَكُونَ يَوْمَ لُقْيَاهُ مِنَ الْفَائِزِينَ . فَيَا مَنْ بَلَغَ سِنَّ الْإِحْتِلَامِ ، وَحُطَّتْ عَنْهُ الْأَقْلَامُ ، وَتُعَبَّدُ بِشَرَائِعِ الْإِسْلَامِ ، خُذْ نَفْسَكَ بِالْاجْتِهَادِ فِي الطَّاعَةِ ، وَلَا تَطْلُبِ الرِّبْحَ بَغَيْرِ بِضَاعَةٍ ، وَلَا تَفْتَتِحْ عُمُرَكَ بِالتَّفْرِيطِ وَالْإِضَاعَةِ ، فَتَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ . وَيَا مَنْ بَلَغَ الْعَشْرِينَ ، لَا تَطْمَئِنَّ إِلَى مَا بَقِيَ مِنَ السِّنِينَ ، وَلَا تَغْتَرِرْ بِرَوْثِ شَبَابِكَ ، فَإِنَّكَ لَا تَدْرِي مَتَى يَقِفُ الْمَنُونُ بِبَابِكَ ، وَتُفَرِّدُ مِنْ بَيْنِ أَصْحَابِكَ وَاحِبَابِكَ ، وَيُذْهَبُ بِكَ فِي الذَّاهِبِينَ . وَيَا مَنْ بَلَغَ الثَّلَاثِينَ رَاجِعْ نَفْسَكَ عَنْ هَوَاهَا ، فَقَدْ كَمَلَ شَبَابُهَا وَاسْتَحْكَمَتْ قُوَاهَا ، فَأَنْفِقْ جَدِيدَ عُمُرِكَ فِي الطَّاعَةِ وَلَا تَرْكَنْ إِلَى سَوَاهَا ، وَهَبْ أَنَّهُ قَدْ بَقِيَ مِنْ عُمُرِكَ مِثْلُ مَا مَضَى ، فَهَلْ تَجِدُ لِمَا فَرَّطْتَ فِيهِ مِنْ صَالِحِ الْعَمَلِ عَوَاضًا ؟ فَفَكِّرْ فِي أَمْرِ نَفْسِكَ وَكُنْ لَهَا مِنَ النَّاصِحِينَ . وَيَا مَنْ بَلَغَ الْارْبَعِينَ ذَهَبَ عَنْكَ مُعْظَمُ الْإَيَّامِ ، وَشَرَعْتَ فِي النِّقْصَانِ بَعْدَ

التام ، فاخلصْ الى ربك الكتاب ، وقُلْ كما جاء في الكتاب : « ربَّ
أَوْزَعْنِي ان اشكر نعمتك التي انعمت عليَّ وعلى والديَّ وأن أعملَ
صالحاً ترضاه وأدخِلني برحمتك في عبادك الصالحين » ويا من بلغ الخمسين
ذهب اكثرُ عمرِكَ وأطيبه ، وبقي أقلُّه وأتعبه ، وبدت في رأسك طلائعُ
المَشْيِب ، واوشكت شمسُ عمرِكَ أن تَغِيب ، فهل لك ان تُقْلِعَ وتُنِيبَ ؟
وتَسْمَع وتُجِيب ؟ فما أَقْبَحَ العصيانَ بعد المَشْيِب ؛ وان كان مُستَقْبِحاً
في كل حين . ويا من بلغ الستين بلغتِ العُمَر الذي أعذر الله فيه
الى العباد ، وعزمت على السفر البعيد فأين الزَّاد ؟ فتزوَّد التقوى ان
الله يحب المتقين . ويا من بلغ السبعين لِمُقْتَرَبِ الآجال فيك دلائل ،
فاغْتَنِمْ ما بقي من ايام عمرِكَ القلائل ، قبل ان تنتقل الى دار البقاء ولم
تَحْصُلْ من صالح الاعمال على طائل ، فتَصْبِحْ من النادمين . ويا من بلغ
الثمانين عِشْتَ ما قد كفاك ، وكلَّت جوارحُك وضعُفت قُؤاك ،
وأبغضك من كان يحبك ويهواك ، وذهب عنك حُلُوُ العيش وبقي المرُ
فتأهَّبْ للرحيل ، وتهيَّأ للسفر الطويل ، واعلم انك عما قريب من الراحلين .
ويا من بلغ التسعين وقَفْتَ على ثَنِيَّةِ الوداع ، وأشرَفْتَ على اللِّحاق بمن
فقدت والاجتماع ، فانك وان كنت في الأحياء معدودٌ في الميِّتين .
ويا من بلغ المائة ، وما أظنه في هذه الفِئَةِ ، بلغتِ الغاية القُصْوَى من
السنين ، وما بعد المائة من بقاء فلا تكن من المغرورين . ويا من غدت
سَنُهُ بين هذه الحدود المحدودة ، والاعداد المحدودة ، إِعْمَلْ على شاكِلة

الرحيل ، وتزود للسفر الطويل ، واياك والتسويق والتعليل ، خشية ان
يأتيك الموت عما قليل ، فتموت وانت من المفرطين . خطب رسول الله
صلى الله عليه وسلم فقال : ايها الناس ! كأن الموت في الدنيا على غيرنا
كُتِبَ ، وكأن الحق فيها على غيرنا وجب ، وكأن ما نُشِيعُهُ من الاموات
سُفِرَ عما قليل اليها راجعون يُبَوِّئُهُمُ أَجْدَانُهُمْ ، وناكل تُرَاثُهُمْ ، كأننا
نُخْلِدُونَ بعدهم . يا أيها الناس اتقوا ربكم واخشوا يوماً لا يجزي والد
عن ولده ولا مولود هو جازٍ عن والده شيئاً ، إن وعد الله حق ، فلا
تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور » اللهم اكُتِبْنَا في ديوان من
ختمت لهم بالحسنى ، وتممت لهم الفوز بالرضوان في المقر الأسمى ،
ووفقنا اللهم لطاعتك ، وأعنا على ذكرك وحسن عبادتك ، انك جواد
كريم ، رؤوف رحيم .

المناظرات

أ- في الدين

مناظرة ابي عمران الفاسي لفقهاء القيروان

قال عبد الجليل بن ابي بكر الديباجي : جرت عندنا بالقيروان مسألة الكفار هل يعرفون الله تعالى أولا ؟ فوقع فيها اختلاف كثير وتنازع بين العلماء . وكان اكثر من يعتني بها رجل مؤذن يركب حمارة ثم يذهب من واحد الى آخر ولا يترك متكلما ولا فقيها إلا ويُنَظِّره في هذه المسألة وعظمت حتى كثر الجِدالُ بها في الاسواق .

ثم أتوا ابا عمران الفاسي فقال ما بالكم ؟ قالوا اصلحك الله انت تعلم ان العامة اذا حدث بها حادث يفرعون الى علمائهم ، وانت تعلم ما جرى في هذه المسألة . فقال ابو عمران ان انتم انصفتُم واحسنتم الاستماع اجبتكم . فقالوا نعم . فقال لا يكلمني الا واحد منكم . فقصد ذلك الواحد فقال أرأيت لو انك لقيت رجلا وقلت له هل تعرف ابا عمران الفاسي فقال لك اعرفه فقلت صفه لي فقال هو رجل يبيع البقل والخنطة والزيت في سوق ابن هشام ويسكن البصرة أكان يعرفني ؟ قال لا . ثم قال له فلو لقيت آخر وسألته عني فقال لك نعم اعرفه . فقلت صفه لي فقال هو

رجل يُدرّسُ العلمَ ويُفتي الناسَ ويسكنُ بقُربِ السَّمّاطِ أَكَانَ يعرفني؟
قال نعم . قال له والاولُ ما كان يعرفني؟ قال لا ، قال : فكذلك الكافر الذي
يقول إن للمعبود صاحبةً وولداً وإنه جسمٌ من الاجسام ، فانفصلوا عن رأيه .

مُناظرة الخُرّوبي واليسيثني والهنطي

وما عقّب به اليوسّي عليها

كتب ابو عبد الله الخُرّوبي الطرّا بلسي رسالةً الى اهل فاس يتكلم
فيها على القواعد الخمس فجاء فيها قوله اثناء الكلام على القاعدة الاولى
وهي لا اله الا الله : « ومن الادب ان لا يتناول نفيتك عند النطق بحرف
النفي الا ما ادّعاه المشركون من الآلهة سوى الله تعالى وليكن الحق جلّ
جلاله ثابتاً عندك في حالة النفي والاثبات . والى هذا اشار بعض العلماء
حيث قال : التّقيُّ لما يستحيل كونه والاثبات لما يستحيل عدّه ، فنقم
الناسُ عليه هذه العبارة لما يلزم عليها من الكذب في الخبر الالهي . وكان
اليسيثني مفتي الحضرة يومئذ فكتب عليه يقول : ان ذلك لا يصح من
أوجه ، الاول انه يخالف ما اتفق عليه الثّناة والمتكلمون من ان الاله
المراد به الجنس والحقيقة ولا يبنى مع لا إلا اذا كان كذلك فهو كلّيّ
ولا شيء مما ادّعاه المشركون بكليّ ، اذ ما يدّعونونه ويُعبدونه جزئيات
خارجية مُتَشَخّصة ، الثاني انه لو كان كذلك لكان الاستثناء منقطعاً ولا
قائل به والاصل في الاستثناء الاتصال . الثالث انه ليس فيما ادّعاه

كبيرُ ادب بل الادب ان يكون النفي شاملا لوجود كلِّ إلهٍ يُقدَّر سوى الحق سبحانه على ما قاله النحاة او للمأهية لا يَقْيِدُ على ما قاله المتكلمون كما هو معروف في بحثهم مع النحاة حيث يُقْيِدُون بالوجود . الرابع ان في كلامه تناقضاً حيث نقل عن بعض العلماء ان النفي لمن يستحيل كونه والاثبات لمن يستحيل عدمه فان من يستحيل كونه مفهومه كلي لا يُحصَر فيما ادعاه المشركون فان سُلمَ هذا الكلام لزمه التناقض . وما قاله هذا العالم هو الحق الذي لا شك فيه « وقد اعترض الهبطي كلامهما معاً فقال في بيان وجه المُواخِذَةِ على الخُرُوبِي : إنه سلَّط النفي على ما ادَّعاه المشركون ، وما ادعاه المشركون ثابتٌ موجود لا يتناوله النفي بالكلية . وقال في وجه المُواخِذَةِ على اليسيثي مخاطباً له : انكم تعقَّبتم على الخروبِي قَصَرَ النفي على ما ادعاه المشركون فقط حتى إنه لو ادخله في جنس الالاه لِيُعْمَ لكان مُسلماً عندكم . والحق أن جنس الاله المعبود بحق ، غير جنس الاله المعبود بالباطل . اذ كل واحد مُمَيَّز بِجِدَّةٍ مُحتَوٍ على أفرادهِ .

ولما قال الهبطي ما ذُكِرَ ردّاً عليه اليسيثي وشنَّ عليه الناس تشنيعاً عظيماً في قوله إن معبودات الكفار لا دخل لها في النفي ثم وصلت المسألة الى السلطان وهو محمد الشيخ السعدي فبعث الى الهبطي وعقَد بفاس مجلساً للمناظرة لكن الهبطي لم يشأ ان يدخل فيها فانفصلوا على غير طائل ولم تزل المسألة مثار نزاع شديد بين الطلبة والمؤلفين في التوحيد

حتى تادت الى العصر العلوي فتصدى لها ابو علي اليوسي وبسطها بما لا مزيد عليه من البيان في كتابه القيم « مناهج الخلاص من كلمة الإخلاص ». ونحن نقترض من كلامه جملاً نقرر بها معنى ما تقدم ، فانه قال بعد هذا الكلام : واذ قد تعرضنا لكلام هؤلاء الائمة فلا بد ان نتصفحه بعض التصفح ونشير الى ما عند كل واحد في كلامه بما لا بد من الاشارة اليه والتنبيه عليه مُعْطِياً إن شاء الله كل ذي حق حقه ، ومُعْطِياً ايضاً الحق حقه ، فان الحوَم العلماء مَسْمُومَة ، والصَّدْع بالحق سُنة معلومة . ثم قال :

أما كلام الخروبي فتوضع الاعتراض منه هو قوله ان النفي لا يتناول الا ما ادعاه المشركون من آلهة سوى الله تعالى فانه يظهر انه اراد الآلهة الخارجية عند المشركين من حجر وشجر وفلك ونحو ذلك فاعترض عليه اليسيثني بان هذه الخارجية جزئيات ومدخول لا يجب ان يكون كلياً الى آخر كلامه . واعترض عليه الهبطي بان تلك الآلهة الخارجية موجودة فلم يصح نفيها فان نفي الموجود كذب . وهذا مبني على ان المراد من قوله ما ادعاه المشركون مَصْدُوقُه الخارجي وليس هذا بواجب ان يُراد ، ولا بد ان تعلم انه من الاشياء الضرورية ان كل لفظ واقع على كلى كالانسان والفرس والشجر ونحو ذلك لا بد له من اعتبارين احدهما مَفْهُومُه وهو ما يتصور منه كالحیوان الناطق من الانسان والحيوان الصاهل من الفرس مثلاً الثاني مَصْدُوقُه وهو ما يقع عليه من الأفراد باعتبار وجود معناه فيه كزيد وعمرو وزينب وهنديد للانسان ؛ فأما

الأول وهو المفهوم فهو كلي ابدأ في نحو هذا وهو مُتَصَوِّر في الذهن سواء كان له وجود في الخارج أم لا . وأما الثاني وهو المصدوق فقد يُوجد للكلي منه واحدٌ وقد يوجد كثير وقد لا يُوجد شيء أصلاً كالشريك وبخري من زئبق .

إذا تقررَ هذا فنقول قول الخروبي ما ادعاه المشركون يحتمل ان يريد به مَصْدُوقُه الخارجي كالشجر والحجر وهذا موضع الاعتراض ويحتمل ان يريد به مَفْهُومُه وهو مفهوم الشريك الكلي او الشركاء فان المشركين على اختلاف نَحْلِهِمْ وَتَبَايُنِ مِلَلِهِمْ من وَثْنِي وَفَلَكي وَثَنَوِي وَمُثَلَّث وغير هؤلاء متفقون على امر واحد هو القَدْرُ المشترك بينهم وهو تجويز ان يكون مع الله جلَّ اسْمُه وتعالَتْ كَلِمَتُه مَنْ يُشَارِكُه في استحقاق العبادة ثم لم يقتصروا على هذا التجويز بل حَكَمُوا بوجود ذلك غير انهم اختلفوا بعد ذلك فمنهم من يُثَبِّتُ شريكاً واحداً هو فاعل الشر كالثنوي ، ومنهم من يُثَبِّت اثنتين كالتَّضَرَّاءِي المثلث . وهؤلاء غَلَاةُ المشركين القائلون بالشَّرِكَة في الالهية الحقيقية . ومنهم مَنْ لا تَنْضَبِطُ حالُه بل يثبت ما اتفق له مما قام له عليه داع الى الشَّرِكَة وباعثٌ الى العبادة كغيرهم من الوَثْنِيين والفَلَكيين ونحوهم فقد اجتمعوا على اثبات الشريك المستحقَّ العبادة في الجُمْلَة . وهذا مفهوم كلي من غير التفات الى مَصْدُوقَاتِه الخارجية في زعمهم . ولا شك ان هذا المفهوم الكلي قد ادَّعوه كُلُّهم ولا اشكال انه هو المنفي في الكلمة المشرقة فيجب ان يكون هو

المعنى في قول ما ادعاه المشركون فلا يبقى على الخروبي اعتراضٌ لا من قِبَلِ اليسيثي لان هذا كلي لا جزئي ولا من قِبَلِ الهبطي لان هذا منقًى ليس بموجود ولا يصح وجوده . ثم قال :

وقولُ المعارض إن في كلام الخروبي تناقضاً حيث اتى بكلام ذلك العالم فان من يستحيل كونه مفهومه كلي الى آخره يُقال لهذا المعارض من يستحيل كونه مفهومه كلي وله مصدوق جزئي وهو معبود الكافر بحسب وصفه المدعى باطلاً فان كونه مستحقاً لأن يُعبد مستحيل وهكذا كلام الخروبي له مفهوم كلي ومصدوق جزئي فلم غلبت في كلام هذا العالم رعاية المفهوم حتى صح كلامه وفي كلام الخروبي رعاية المصدوق حتى بطل كلامه ؟ » ثم قال :

واما كلام اليسيثي فموقعُ الاعتراض منه قوله ليس فيما ادعاه ، يعني الخروبي ، كبيرُ ادب بل الادب ان يكون النفي شاملاً لكل اله يُقدَّر سوى الحق سبحانه الخ فالظاهرُ منه انه يقول ينبغي للخروبي ان لا يقتصر بالنفي على ما ادعاه المشركون من الآلهة الباطلة بل يجعل النفي متوجّها اليها والى غيرها من كل ما يُقدَّر سوى الله تعالى ، ومبنى الاعتراض عليه أنه اراد ان يضم ما وقع عند الخروبي من الجزئيات الخارجية الى كل ما يُقدَّر ليغمّ النفي فيقع الاعتراض من جهتين . احدهما ان تلك الجزئيات الخارجية موجودة فلا يصح نفيها . الثانية ان في هذا تهاؤناً لانه قال اولاً في اعتراضه على الخروبي ان الجزئيات لا يصح

ان تكون مدخولة للأ ؛ لان مدخول لا انما يكون جنساً كلياً فكيف استباح هنا ان تدخل هي وغيرها ؟ ولا يُصَيِّرُها انضمامُ غيرها اليها كليةً بعد اذ كانت جزئية . والجواب عن اليسيثي انه ما أراد إدخال المعبودات الجزئية في النفي من حيث هي كذلك وانما مراده ان الادب هو الخروج عن هذا المسلك وترك الالتفات الى ذوات المعبودات الخارجية وذلك بان يُجعل النفي مُتَسَلِّطاً على كل إله يُقدَّرُ في الذهن مستحقاً للعبادة غير مولانا جلّ وعزّ كما صرّح به من غير التفات الى ما ادّعي في الخارج وما لم يُدّع . ثم قال :

وأما كلام الهبطي فمَوْقِعُ الاعتراض منه هو قوله إن معبودات الكفار لا دخل لها في النفي ، فان القول بذلك يقتضي انها مُسَلِّمة متروكة لم يُتعرَّض لابطالها وان الكفار لم يقع الرد عليهم فهم مُقرُّون على عبادتها واعتقاد ألوهيّتها مع ان مدلول هذه الكلمة من ابطال كل إله سوى الله تعالى واثبات الألوهية لله تعالى مما عُلِمَ من الدين ضرورة . وتحمّل كلامه عندنا وجهان . احدهما انها من حيث ذواتها اي الحجر والشجر والفلك والنار وغير ذلك لا تُنْفَى ، وهذا لا اشكال فيه ويوافق الخصوم عليه اذ لا إشكال ان الأجرام وكذا الأعراض لا دخل لها في مُستحقّ العبادة المنفي في كلمة الاخلاص . الثاني انها من حيث وصفها أي كونها آلهة باطلة لا تستحق ان تُعبد ولا ان يُتقرَّب اليها ولا بها لا تُنْفَى ايضاً . وهذا ايضاً صحيح لاشك فيه لان هذا الوصف اعني كونها آلهة باطلة لا

تضر ولا تنفع ولا تبصر ولا تسمع موجود لها قائم بها كما هو موجود في اذهان الموحدين العارفين فلم يصح تسلط النفي عليه من جهتين . احدهما انه موجود وكما لا يصح نفي النوات الموجودة كذات الصنم لا يصح نفي وصفه الموجود له ككونه معبوداً بغير حق وفتنة ومضلة ووبالا . الثانية ان المنفي في كلمة الاخلاص هو المثبت بالآلما بعدها فلو كان المنفي هو الالوهية الباطلة الموجودة في الخارج لكان ذلك هو المثبت لله تعالى عن ذلك علوا كبيرا ، ولما علم علم اليقين أن المثبت لله تعالى انما هو الالوهية الحقيقية ، علم أنها هي المنفية عن غيره لا الباطلة .

ب- في الأدب

مناظرة مالك بن المرحل

لابن ابي الربيع النحوي ، في كان ماذا

وقعت هذه اللفظة في شعر مالك بن المرحل فانكرها ابن ابي الربيع وقال : الصواب ماذا كان ، فقال مالك :

عاب قوم كان ماذا ليت شعري لم هذا
واذا عابوه جهلا دون علم كان ماذا ؟

وكثر النزاع بينهما وألف كل منهما في المسألة منتصراً لرأيه . وكان الذي ألفه مالك كتابا سماه الرمي بالحصى والضرب بالعصا وجزأه ثلاثة اجزاء . ولم نقف على شيء مما كتب ابن ابي الربيع . ودونك

فصلا مما كتبه ابنُ المرحل فيما يشهد لأُثباتِ كان ماذا من الجزء الاول
مع اختصارٍ وتصرفٍ في بعض الالفاظ لمزيد الايضاح :

ايها القائل :

كان ماذا لَيْتَهَا عَدَمُ جَنَّبُوهَا قُرْبُهَا نَدَمُ
لَيْتَنِي يَا مَالٍ ، لَمْ أَرَهَا إِنَّهَا كَالنَّارِ تَضْطَرُّمُ

يقول لك مالك : لا بد لك ان تُصَيِّحَ من تحتِ طبقٍ على طبقٍ
نيران : كان ماذا ؟ « ونادَوْا يا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ
مَأْكُثُونَ لَقَدْ جِئْنَاكُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ »

إلى كم تُقَيِّدُ في كان ماذا تَقْيِيدًا بعد تقييد ؟ لقد حَصَلَتْ
منها في امر شديد . الى كم تُعِيدُ فيها وتُبْدِي ، وتنظِّم وتنشِيء ؟ غرَّكَ
احتمالي لِقَدْ حَكَ وَمَزَّحَكَ ، وصبري على أَلَمِ جُرْحِكَ ، حتى قلت :

ما لُجْرَحٍ بِمَيِّتٍ إِيلَامٌ^١

انتهزتَ الفُرْصَةَ في اذاية صَبُور ، ودَلَّكَ حِلْمُهُ بَغْرُور ، حتى قلت :

كُلُّ حِلْمٍ أَتَى بِغَيْرِ احْتِمَالٍ حِجَّةٌ لَاجِيَةٍ إِلَيْهَا اللَّثَامُ^٢

١ - هو عجز بيت للمتنبي ، وصدره : من يهن يسهل الهوان عليه .

٢ - البيت أيضا للمتنبي وهما من قصيدة واحدة .

تالله لو نُهِيتِ الأولى لَأَنْتَهتِ الآخرة ، ولم تكن الْفَاقِرَةُ تتبعمها
الْفَاقِرَةُ ولكن أَغْضِيتُ على الْقَذَى ، وصبرتُ على الْأَذَى ، حتى قيل لو
قَدَرَ لَأَنْتَصَرَ . واتَّصل الامرُ فصار دَيْدَنًا فلا جرم ان أَتَعَقَّبَ كَلَامَكَ ،
وَأَلْفِتَ عَلَيْكَ لَأَمَكَ ، فاقول وانما أَخَاطِبُ مَنْ سَمِعَ خَطَايِي ، ونظر في
كُتَايِي :

اعلم اعزك الله ان هذا الرجل المشار اليه هو الذي اثار نارَ كان
ماذا التي احرقته حتى صاح : ليتني يا مالٍ لم ارها . البيت ، وذلك انه
سَمِعَ رجلاً يُنْشِدُ لي قصيدةً في مَحَلِّ كَرِيمٍ جمعي واياه وكان فيها :

واذا عشقتُ يكون ماذا ؟ هل له دَيْنٌ علي فيغتدي ويروحُ ؟

فقال : لَحْنُ هذا الناظم ، لا يُقالُ كان ماذا ولا يكون ماذا ولا فَعَلَ
ماذا ولا أَفْعَلُ ماذا ولا يجوزُ ما كان على هذه الطريقة ولا سَمِعَ .
فاستشهدتُ عليه ببيت الجارية وهو :

فَعَاثَبُوهُ فذَابَ شَوْقًا وماتَ عِشْقًا فكان ماذا ؟

وبقول الشاعر :

فَعُدَّكَ قَدْ مَلَكَتِ الْأَرْضَ طَرًّا ودانَ لك الْعِبَادُ فكان ماذا ؟

فقال : هذا لَحْنٌ ولا يُحْتَجُّ بِمِثْلِ هَذَا . فقلت له : ايراد العلماء
لهذا الشعر وقبولهم له حجة على جوازه . وهذا كثير . ذكر ابو علي

البغدادى في الذيل من النوادر : انبأنا الزبير حدثنا اخي هارون بسنده عن وهب بن مسلم عن ابيه قال دخلت مسجد النبي ﷺ مع نوفل بن مساحق فمررنا بسعيد بن المسيب فسلمنا عليه فرد ثم قال يا أبا سعيد من أشعر ، أصاحبنا ام صاحبكم ؟ يريد عمر بن أبي ربيعة وقيس الرقيات . فقال له ابن مساحق حين يقولان ماذا ؟ قال حين يقول صاحبنا :

خيلي ما بال المطايا كأننا نراها على الأديار بالقوم تنكص

الابيات . ويقول صاحبكم ماذا ؟ فقال له وهب : صاحبكم اشعر بالغزل وصاحبنا أكثر أفانين شعر ، فلما انقضى ما بينهما استغفر سعيد مائة مرة يعد بالخمسة .

قال المملوك : رضي الله عن سعيد بن المسيب لم يزد على ان فاوض صاحبه في مباح لم يجز في كلامه فحش ولا غيبة مسلم ثم استغفر الله مائة مرة . هكذا هكذا وإلا فلا لا .^٢

اين هذا من الذي قيد فيه ؟ وكم فيهم من فتيه سوء خبيث كثير الأذى والمضرة ، يعيب ويغتتاب من غاب عنه الفا ولا يستغفر الله مرة .

١ -- الذي بالتممة المطبوعة من الذيل والنوادر : ويقول صاحبكم ما شاء .
٢ -- هذا عجز مطلع قصيدة للمتنبي في سيف الدولة وصدرة : ذي المعالي فليعلمون من تعالى .

وحكى ابو علي قال : قَرَعَ بابُ ابن الرُّقاع فخرجت بُنْيَّةٌ له صغيرة فقالت مَنْ هاهنا فقالوا نحن الشعراء قالت وتريدون ماذا ؟ قالوا نهاجي اباك فقالت تجمَّعتم من كل أوبٍ ووجهة على واحد ، لازِلُّم قرْنٌ واحد . قال : فاستحيوا ورجعوا .

قال المملوك . وكذلك حالي الآن بسببة اجتمع كلُّ من فيها من اصحابِ هذا الرجل واهلِ بلدِه للنقد عليّ ولم يبلغوا ان يكونوا قرن واحد ، والله المستعان .

واستشهدتُ بحكاية اخرى اخرجها أيضاً في الذيل اولها لما أراد معاوية البيعة ليزيد كتب الى مروان وهو والٍ على المدينة ، وفي الحكاية : او تفعلُ كما فعل أبو بكر قال فعل ماذا ؟ وفيها او تفعلُ كما فعل عمر فقال فعل ماذا ؟ وبحكاية أخرى اخرجها ابنُ ظَفَرٍ في كتابه انباء نجباء الابناء اولها بلغني انه لما وُلِدَ لعبدالله بن جعفر ولدُه معاوية وكان لأم ولد والحكاية طويلة وفيها من كلام خالد بن يزيد بن معاوية يخاطب عبد الملك ابن مروان بلغني ان الحجاج تزوج الى عبدالله بن جعفر ابنته امَّ كلثوم فغَضِبَ عبدُ الملك وقال كان ماذا ؟ ولمَ لا يكون الحجاج كُفُوءاً لها قال خالد يا أمير المؤمنين اني لم أَرِدْ ذلك ولكِنَّكَ تعلمُ انه لم يكن بين بَيْتَيْنِ من بيوت قريش ما كان بيننا وبين آل الزبير ، يعني من العداوة ، فلما تزوجت اليهم انقلب ذلك البغض حبا . واستشهدتُ له بشواهد من هذا النوع وانما كان غرضي ان اثبت ان هذا النوع من الكلام قد قيل

وانه فصيح ولم أتعرض الى انه على الاتصال ولا على التقديم والتأخير
ولا على الانقطاع فتهاذى على الانكار . وقال : لا يحتج بأبي عليّ البغدادي
فلم يكن من اهل الصناعة ولا بابن ظفر . وانما يحتج باهل صناعة العربية .
فاستشهدت له بحكاية أخرى أخرجها العالم الجليل ابو الفرج الاصبهاني في
كتاب الاغانى حيث قال :

يَا دَارُ أَقْفَرَ رَسْمُهَا بين المحصب والحجون

وفي آخر الحكاية فكان ماذا ؟ . واستشهدتُ بحكاية أخرى أخرجها
ابنُ قُتَيْبَةَ في عيون الاخبار قال : مرّ اعرابي بمؤذن وهو يقول اشهد
ان محمدا رسول الله بنصب رسول الله فقال الاعرابي وَيَحْكُ يَفْعَلُ ماذا ؟
وبحكاية أخرى من الكتاب المذكور قال : وصعد البربوعي فخطب وقال
اما بعد فاني والله ما أدري ما أقول ولا فيمَ أقْتُمُونِي أقولُ ماذا ؟ فقال
بعضهم قُلْ في الزَّيْتِ فقال الزيتُ مُبارَكٌ فكلوا منه وادَّهِنُوا . وبحكاية
أخرى منه قدم ابنُ جامع مكة بخير كثير فقال ابنُ عَيْسَةَ : عَلامَ
يُعْطِي الملوْكُ هذا الغلامَ هذه الأموالَ ويحبُّونه هذا الحباء ؟ قالوا
يُغْنِيهِمْ قال يقول ماذا ؟ فهذان رجلان من ائمة العلماء وصناعة العربية
قد حكيا في تأليفهما المشهورين هذه الالفاظ . واستشهدتُ بحكاية أخرى
أخرجها العالم ابو بكر الزُّبَيْدِي وهو من ائمة العربية في تاريخ النحويين
واللغويين . حدّث بِسَنَدِهِ عن العجوري قال : كان نُعَلَبُ من الحفظ

قال المملوك : وَخَرَجَ هَذَا الْحَدِيثُ فِي كِتَابِ الْبُخَارِيِّ وَمُسْلِمٍ وَالنَّسَائِيِّ وَابْنِ دَاوُدَ وَابْنِ خَيْثَمَةَ . فَلَمَّا وَقَفَ عَلَى الْجُمْلَةِ أَكْبَرَهَا وَأَعْظَمَهَا وَرَأَى أَنَّ الْحَدِيثَ الْمَذْكُورَ تَمَخَّضَتْ عَنْهُ بَطُونُ الْأَمَمَاتِ الْكِبَارِ ، وَدَارَتْ عَلَيْهِ كِتَابٌ مِنْ كُتُبِ الْأَئِمَّةِ الْأَخْيَارِ ، بَيْنَ سُمْرِ الْقَنَا وَبَيْضِ الشَّفَارِ ، فَحَصَلَ فِي أَمْرٍ عَظِيمٍ ، وَوَقَعَ فِي مُقْعَدٍ مُقِيمٍ ، ثُمَّ نَظَرَ فَرَأَى أَنَّ الطَّرِيقَ

كلها تجتمع في هشام بن عروة ابن الزبير رضي الله عنه فقال هذا نقله بالمعنى وقد لحن فيه فقليل له ولم تقول ذلك ؟ قال : اني لا أراه كان يحسن ادوات النقل وكانت أمه أمةً وانفرد بنقل هذا اللفظ الذي لا يوجد في كلام العرب . فنقل الطلبة كلامه ، وأكبروا جرأته وإقدامه ، فأمرَ بالتقييد في ذلك ليوقف على كلامه فأضطرَّ الى القول بجواز ذلك وقال : أمّا أفعلُ ماذا ، إذا ورد في كلام فصيح فيجوز على ان تكون ما ذا منقطعةً من أفعلُ ويكون التقدير ماذا تريد ومشى في تقييده على ذلك . ثم تكلم في بيت الجارية فقال رأيتُ ابنَ طاهر قد قال انه على الانقطاع . فظهر من كلام هذا الرجل انه لم يكن عنده علم من الحديث ولا من بيت الجارية ولا ان ذلك جائز حتى وقف على كلام ابن طاهر في بيت الجارية بعد وقوع المنازلة ، فمن هناك تدلَّى وقال ان الحديث يجوز على الانقطاع . وانتقلنا - بحمد الله - من أن ذلك لا يجوز البتة ولا سُمِعَ الى أنه يجوز على الانقطاع . ومع هذا فلم يزل مصمماً على قوله الاول ان الحديث منقول بالمعنى وان ذلك لحن فيه فانه اورد في تقييده ان النقل بالمعنى جائز ، وهذا الذي ذكر لا يُنازع فيه انما يُنازع في انه لحن ، وقد فرَّق كلامه في هشام بن عروة رضي الله عنه في تقييده فإشار في موضع منه انه كان ابنَ أمة وان اللحن طراً عليه من قبلها فقال : روى مُسلمٌ عن ابن ابي عتيق قال تحدثتُ انا والقاسم عند عائشة وكان القاسم رجلاً لحناً وكان لأمٍّ ولدٍ فقالت له عائشة : ما لك لا تتحدث كما يتحرك ابنُ اخي

هذا؟ ثم قالت : أما إني قد علمتُ من أين أُتيتَ هذا أدبته أمه وانت أدبتك أمك . قلت : فهذه اشارة الى ان هشاما كان كذلك الى ما صرح به في مجالسه ، وهذا الذي نُقِلَ عن ابن ابي عتيق رضي الله عنه لم يَعْنِ به اللحن الذي هو فساد الاعراب وانما عَنَى به اخراج الحروف من غير مخارجها ونحو ذلك . كما حكى ان اعرابيا قال لعمر رضي الله عنه أُظَحِّيْ بَضْبِي ؟ فقال له عمر انما يقال ايضحى بظي فقال له الاعرابي كذلك نقول او هي لغتنا . وايضا فان القاسم كان صغيرا وعائشة هي ام المؤمنين وانما قصدت بقولها التعليم والتأديب وليس له ان يقول في هشام بن عروة كما قال ابن ابي عتيق في القاسم ولا ان ينزل نفسه منزلته في هذا القول .

قلت : وأشار في موضع آخر الى انه كان قليل المعرفة باللسان قال : ومما يستحق الراوي ان تكون عنده جملة صالحة من اللسان حتى لا يتوَحَّش من شيء سمع منه واذا رأى منكرا نفر منه ولا بد ان يتقن جهات الاعراب وابنية الاسماء والافعال . ثم نقل فصلا عن الاصمعي ان اخوف ما اخاف على طالب الحديث اذا لم يعرف اللحن ان يَدْخُلَ في جملة قول النبي ﷺ مَنْ كَذَبَ عَلِيٌّ مَتَعَمِّدًا فَلْيَتَّبِعُوا مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ لانه عليه السلام لم يكن يلحن فمهما رويت عنه ولحنت فقد كذبت . قلت : وهذه اشارة اخرى الى ان هشاما لم يكن يُحْسِنُ من ذلك شيئا يُبْحِثُ انه دخل بمقتضى قوله في الجملة التي تلحن فتكذب فتتبعها من

النار . قلت : وكذلك أشار في موضع آخر الى تضعيفه فقال : ان من المحدثين مَنْ يُكْتَبُ حديثه ولا يَحْتَجُّ به . قلت : هذا صحيح في غير هشام بن عروة . قال بعضُ من تكلم في الرجال : ابو الحصين عبيد الله القَدَّاح ليس بالقويِّ مكِّيَّ ضعيف مولىً لبعض اهلها . وقال ابن ابي حاتم سألت ابي عن عبيد الله القداح فقال ليس بالقوي يُكْتَبُ حديثه . واما هشام بن عروة فمَعَاذَ الله ان يكون من هؤلاء . وهذه نبذة من اخباره وما قيل فيه رضي الله عنه (وذكرها) ثم قال :

فاما قوله وقد انفرد بهذه اللفظة التي لا تُوجد في كلام العرب فباطل قد جاء في حديث آخر ما يشبه هذا ، اخرج الامام ابو الفرج ابن الجوزي رحمه الله في كتابه صَفْوَةُ الصَّفْوَةِ عن أبي سعيد عن مسلم عن ابراهيم عن هشام الدُّشْتُوَانِيِّ عن عطاء بن السَّائِبِ قال لما استُخْلِفَ ابو بكر اصبح غاديا الى السوق وعلى رَقَبَتِهِ اِثْوَابٌ لِيَتَجَرَّ بِهَا فَلَقِيَهُ عُمَرُ وابو عبيدة فقالا له الى اين تريد يا خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قال : السوق ، قالا تصنعُ ماذا وقد وُلِّيتَ أَمْرَ الْمُسْلِمِينَ؟ قال فمن أين يَطْعَمُ عِيَالِي؟ قالا انطلق حتى نفرضَ لك شيئا فانطلق معها ففرضوا له كلَّ يوم شاةً وماكسُوه^١ في الرأس والبطن . وخرَّج ابو داود في كتابه قال : ناموسى^٢ بن اسماعيل قال نا وهب قال نا داود عن عامر عن جابر بن

١ - اى نازعوه فيها . ٢ - اختزال لحدثنا .

سَمُرَة قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : لا يزال هذا الدين عزيزاً الى اثني عشر خليفة . قال فبكى الناس وضجوا ، ثم قال كلمة خفية فقلت لابي ما قال ؟ قال كلهم من قریش . حدثنا ابن نُفَيْل قال نازُهير قال نازياد بن خَيْثَمَة قال حدثني الاسود بن سعيد الهمداني عن جابر بن سَمُرَة بهذا الحديث زاد : فلما رجع الى منزله اتته قریش فقالوا ثم يكون ماذا ؟ قال ثم يكون الهرج . قلتُ فقد اشترك هشام بن عروة مع غيره في رواية هذا النوع من الكلام لا فرق بين أفعلُ ماذا وتصنعُ ماذا و ثم يكونُ ماذا . فليُنظر في هؤلاء الرواة كما نظر في غيرهم وليبحثُ فلعل فيهم ابنُ أمة فيكون الحديث لحناً على مذهبه ، ولعل فيهم مثل عبید الله القدّاح ، اعوذُ بالله من الجهل والضلال . قلت : ثم إن هذا الرجل لما قهرته الأدلة ، ووقف موقف الهوان والذلة ، احتاج الى المطالعة فوقف على كلام ابن طاهر في بيت الجارية كما ذكر ، وعلى كلام غيره واضطر الى التقييد في ذلك . فقال وهو يمشي الضراء^١ ويقف وراء وراء : إنما أنكرت أن يكون ما قبل ماذا عاملاً فيها . قال وقد تبين بما لا خفاء معه ان أفعلُ ماذا ليس على تقدير ماذا أفعلُ ، وان ماذا منقطعة من افعلُ . لكن بقي ذكر المعاني التي يأتي عليها الكلام فأقول : يظهر لي في افعلُ ماذا اذا ورد في كلام العرب انه يكون على سِتَّة أوجه ؛ أحدها أن

تأتي بأفعلٍ لِتُعْلِمَ مخاطبك بالموافقة ثم تقول ماذا أي ماذا تريد. قلت وإذا أردت أن تُخْرِجَ البيتَ على هذا الوجه كأنَّ العاذل قال له إذا عشقتَ يكون كذا ويكون كذا فعُدَّ له ما يطرأ عليه من المَحَن في الهوى فيقول موافقا له : وإذا عشقتُ يكونُ أي يكون ما قلتَ ثم يقول ماذا ؟ أي ماذا يكون عليّ ؟ الوجه الثاني ان تقول افعلْ وتسكت على وجه التذكُّر ثم تقول ماذا ؟ الوجه الثالث أن تقول افعلْ ؟ على جهة الانكار وتمثّل بقول ام حبيبة لرسول الله صلى الله عليه وسلم : إنا لنتحدّثُ انك تريد أن تنكِحَ دُرَّةَ بنت أبي سلمة فقال رسول الله ﷺ بنت أمّ سلمة ؟ الوجه الرابع ان تقول افعلْ وتحذفُ المفعول تعظيماً للامر وتهويلاً . الوجه الخامس ان تقول افعلْ وتحذفُ المفعول لان الذي بعد ذا يبينه . الوجه السادس ان يكون انتقالاً من كلام الى كلام . ثم قال :

وإذا جاء افعلْ ماذا ويفعلْ ماذا ؛ فقد يكون على وجه آخر غير الوجوه المذكورة وهو ان يكون المفعول محذوفاً كما تقول لانسان يقول لك افعلْ معي ما فعل فلان فتقول فعل ! أي أدري انه فعل شيئاً ولكني لا أعينه ثم تسأله عن تعيينه لتنظر في ذلك . ثم قال : وقد يكون على ان تذكر فعل لتحقّق ما يقال . ومثالُ من ذلك ان يقول قائل زيد ضرب فتقول ضرب ! على معنى أقلت ضرب ؟ ثم قال : فإذا تُتْبِعَ كلامُ العرب ومقاصدها في كلامها فيوجد أكثر مما ذكر . قال المملوك : انظر كيف قال أولاً انه يكون على ستة اوجه ثم انه زاد وجهين بعد الحصر في ستة اوجه ثم قال

واذا تتبع كلام العرب ومقاصدها في كلامها فيوجد اكثر مما ذكر، فقد صار المنحصر لا ينحصر. ثم قال بعد ذلك : ويمكن ان تجعل ما بمنزلة الذي وذا خبر لمبتدا محذوف ويكون بمنزلة قوله تعالى « تماماً على الذي أحسن » على قراءة من قرأ أحسن بالرفع ، وذا اشارة والتقدير افعل الذي هو هذا . ثم قال : ويمكن ان تجعل ذا بمنزلة الذي وتكون الصلة محذوفة على حسب قوله :

وَكَفَيْتَ جَانِبَهَا اللَّتْيَا وَالَّتِي^١

قلت : انظر كيف زاد بعد قوله ان الوجوه لا تنحصر وجهين آخرين وهذا كله من قلة التحصيل . ثم انه كرر على بيت الجارية فقال : واذا نظرت الى الوجوه التي ذكرتُ بدالك في بيت الجارية غير ذلك فأخرج بيت الجارية عن الجواز على تلك الوجوه وضعف الوجه الذي ذكره ابن طاهر وقال انه ضعيف ومعنى سخيف لانه خال عن رشاقة ، عار عن لباقة في كلام له مُفَقَّرٌ بارد تركته ثم قال : وأما البيت الذي وقع فيه الكلام، وزلت بسببه الاقدام ، فلا يشبه بيت الجارية لانه قال : وإذا عشقت يكون ماذا ؟ فاذا وقف على يكون وهو قد جعله جوابا لإذا لأنها لا تخلو من الشرط فقد جعل جملة الجواب لا تفيد الا ما افادت جملة الشرط .

١ - أي الخطة الفظيعة التي تقصر عنها العبارة وتحذف الصلة في هذا التعبير حتى في النشر فيقال بعد اللتيا والتي لقصد الابهام والتهويل .

قلت : هذا اعتراض بليد لم يفهم من البيت إلا ما وقع في اذنيه فان
الرجل لا يحسن في الادب شيئاً ولا يحسن اغراض الشعراء ولا ما
جرى عليه عملهم حتى يفهم . هذا قول حبيب :

أَجِبْ أَئِهَا الرَّبْعُ الَّذِي أَنَا سَائِلُهُ

فانه ينظر فلا يرى كلاماً متقدماً ولا يسمع قولاً مخاطباً يكون
هذا جوابه فيظن ان الشاعر مجنون . قلت : وانا بعون الله أبين للمبتدئين
كيف يُخرِّج البيت الذي فيه الكلام عند اهل الصناعة العربية وذلك
ان فيه :

حقٌّ وان جعل النَّصِيحُ يصيحُ انا عاشق ، هذا الحديث صحيح
واذا عشقت يكون ماذا هل له دَيْن علي فيغتدي ويروح ؟

فكأنَّ الناصح عَنَّفَه على العشق وعذَّله ، وقال له انت عاشق وجعل
يصيح وينظر ويسمع فقال حق انا عاشق ، هذا الحديث صحيح ، ثم قال
واذا عشقتُ يكون العشق كما تقول وماذا عليَّ فيه ؟ ويدل على ذلك
بعد هذا :

فيه قضاء ؟ لا ولا كفَّارةُ فَأَرِحْ فُؤَادِي إِنَّ قَوْلَكَ رِيح

فقد تبين المعنى وظهر وجهُ التقرير والاعراب على الطريقة في صناعة
العربية وصار يكون جواباً لإذَا على رغم من انكره فان المنكر بعيد

من فهم الشعر ومن قوله ، على انه قد تَكْتَبُ^١ وتكلف الشعر بالعروض على ما تقف عليه ان شاء الله . فان قيل لي هذا مذهبك في البيت قلت نعم ! ويمكن تخريجه على اكثر الوجوه التي فسرها هذا الرجل ، بعد تحصيل الفهم لما قبل البيت كما ذكرت لك ولا يبعد عندي التقديم والتأخير من غير عمل كما ابيّن للمبتدي ان شاء الله وذلك انك تقول ماذا افعله ؟ ثم تحذف الضمير فتقول ماذا افعل ؟ ثم تقلب فتقول افعل ماذا ؟ ويتبين لك في أن تقول أي شيء افعله ؟ ثم تقول أي شيء افعل ؟ برفع أي ثم تقول افعل أي شيء بالرفع . فكذلك التقدير في يكون ماذا ! والتقديم والتأخير في الكلام كثير ومن ذلك قوله تعالى : « إِنِّي لَكُمَا لَمَنَ النَّاصِحِينَ » على احد القولين . وقد قالوا : أصبحت كيف ؟ علّقه أبو عليّ الفارسي .

وهذا الكلام مقتضب وانما هو تذكير للعالم وتنبيه للنائم والله الموفق
واما حديث النبي صلى الله عليه وسلم اعني حديث ام حبيبة فالتقديم والتأخير عندي فيه هو الصواب لأنّ غير ذلك يبدل معناه ويخرجه عن ظاهره ويطمس حسنه ونور فصاحته . واما سائر ما تقدم فما يستوي فيه النظر .

قال المملوك : ونظير البيت المذكور قول عمر رضي الله عنه
للاعراي الذي انشده :

١ - يعني تعاطى الكتابة .

يا عُمَرَ الْخَيْرِ رُزِقْتَ الْجَنَّةَ أَكْسُ بُنَيَّاتِي وَأُمَمْنَهُ
وَكُنْ لَنَا مِنَ الزَّمَانِ جُنَّةً أَقْسِمُ بِاللَّهِ لَتَفْعَلَنَّهُ

فقال له عمر : فان لم أفعل يكون ماذا ؟ فقال الاعرابي :

إِذْنُ أبا حفص لأَذْهَبَنَّهُ

فقال له عمر : واذا ذهبت يكون ماذا ؟ فقال الاعرابي :

يَكُونُ عَنْ حَالِي لَتُسْأَلَنَّهُ يَوْمَ تَكُونُ الْأَعْطِيَاتُ هِنَهُ
وَمَوْقِفُ السُّؤَالِ يَنْتَهِنُهُ إِمَّا إِلَى نَارٍ وَإِمَّا جَنَّةَ

قال فبكى عمر حتى اخضل لحيتته ودعا بِقَمِيصٍ فدفعه اليه وقال
خذ هذا لأَهْوَالِ ذَلِكَ اليوم لا للشعر . والحكاية رواها ابو علي البغدادي .
والبيت الثاني الذي تقدم وهو :

فَعُدَّكَ قَدْ مَلَكَتِ الْأَرْضَ طَرَا ودان لك العباد فكان ماذا ؟

وقع في حكاية اوردها ائمة الادباء في كتبهم قال جعفر بن القاسم
الامير بالبصرة : إني لفي الجامع الاعظم بالبصرة ومعى جماعة يَعِظُونَنِي
اذ وقف عليّ بعض المجانين فقال :

فَعُدَّكَ قَدْ مَلَكَتِ الْأَرْضَ طَرَا ودان لك العباد فكان ماذا
أَلَسْتُ تَصِيرُ فِي الْحَدِّ وَيَحْوِي تَرَأَيْتَكَ بَعْدُ ، هَذَا ثُمَّ هَذَا

وَيُنْسَبَانِ اَيْضاً لِبَهْلُولٍ يَقُولُهُمَا لِبَعْضِ الْخُلَفَاءِ الْعَبَّاسِيِّينَ وَقَدْ لَقِيَهِ فِي بَعْضِ الطَّرِيقِ . وَيُرْوَى الْبَيْتُ الْآخِرُ :

أَلَسْتَ تَصِيرُ فِي لَحْدٍ وَيَحْتُوُ عَلَيْكَ التُّرْبَ ، هَذَا ثُمَّ هَذَا ؟

وَرَأَيْتُ فِي كِتَابِ ابْنِ ظَفَرٍ أَنَّ هِشَامَ بْنَ الْمَغِيرَةِ كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْعَاصِيِ بْنِ وَائِلٍ نَبُوءَةٌ وَكَانَ أَبُو جَهْلٍ بْنُ هِشَامٍ حَدِيثَ السِّنِّ مُعْجَباً بِنَفْسِهِ حَدِيداً فَرّاً بِالْعَاصِيِ بْنِ وَائِلٍ وَهُوَ فِي نَادِي قَوْمِهِ وَابْنُهُ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِيِ بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُوَ طِفْلٌ فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ كَلَاماً يَتَهَدَّدُهُ بِهِ فَلَمْ يُجِبْهُ الْعَاصِيِ بِشَيْءٍ فَقَالَ عَمْرُو لَابْنِهِ : مَا لَكَ لَا تَجِيبُهُ ؟ قَالَ أَقُولُ مَاذَا ؟ قَالَ تَقُولُ إِذَا كُنْتَ يَوْمَكَ ذَا عَاجِزاً مَهِيناً فَانْتَ غَداً أَعْجَزَ ، وَلَوْ كُنْتَ تَعْقِلُ أَلْهَاكَ عَنْ وَعِيدِكَ ذَا مَا بِهِ تُنَبِّزُ ، فَاسْتَطِيرَ الْعَاصِيِ سُروراً وَقَالَ أَنْتَ ابْنِي حَقّاً وَكَانَ قَبْلَ ذَلِكَ يَفْضُلُ غَيْرَهُ مِنْ وَلَدِهِ عَلَيْهِ .

قلت : والحكايات والاشعار التي وقعت فيها كان ماذا و يكون ماذا ونحو ذلك كثيرة وانما اعود الى ايرادها ، لعلمي انه متمادٍ على انكاره وانما احتاج الى القول بالجواز في تقييده على الوجوه التي ذكر للضرورة ؛ وما زال عن قوله إن ذلك لحن ولا يزول ابداً .

ج- في السِّيَاسَةِ

مناظرة المهدي بن تومرت لعلماء مراکش

بحضرة علي بن يوسف بن تاشفين

دخل المهدي بن تومرت وأصحابه الى مراکش وقد جاهرَ بدعوته واستعلنَ أمره . فذهب الى المسجد الجامع ولقي هناك أمير المسلمين علي بن يوسف فوعظه وأغلظ له القول ، وكان علي جالساً والوزراء واقفون حوله فقال الوزراء لابن تومرت سلم سلام الخلافة على الأمير ، فقال ابن تومرت وأيُّ أمير ؟ انما أرى جوارِي مُنقَبَّات . فلما سمع ذلك علي بن يوسف أزال النقابَ عن وجهه وقال صدق ، فلما رآه ابن تومرت قال له الخلافةُ لله لا لك يا عليّ ، وتمادى في وعظه وارشاده وجادل العلماء الحاضرين جميعاً .

وقيل انه كان سائراً في الطريق فرأى أختَ علي بن يوسف حاسرةً على عادة قومها فوبَّخها توبيخاً وعَنَّفها فدخلتْ على أخيها تذرِفُ الدموعَ مما لحِقَها من اهانةِ ابن تومرت وتقرُّيعه . وأصبح العلماء والعامة لا يتكلمون في مراکش الا بأمره ، فجمع له علي بن يوسف مجلساً من علماء المغرب والأندلس يرأسهم وزيرُه العلامة مالك بن وهيب فلما التأم المجلس للمجادلة تولَّى الكلام قاضي المريّة محمد بن أسود وقال

ما هذه الأقوال التي تُنقل عنك في حق الملك العادل المنقاد الى الحق والمؤثر لطاعة الله على هواه؟ قال ابن تومرت ان ما نُقِلَ عني قد قلته حقاً ولي من ورائه أقوال أخرى ، أما قولك إن ملككم عادل منقاد للحق مؤثر طاعة الله على هواه ؛ فهذه أقوال تقولونها وتنصرونه بها مع علمكم بأن الحجة متوجهة عليه ، فهل بلغك يا قاضي أن الخمر تُباع في هذه الديار جهاراً وأن الخنازير تمشي بين المسلمين وأن أموال اليتامى تُؤْكَلُ ظُلماً وُعدواناً؟ وعدد من ذلك جميع المنكرات التي رآها ، فلما سَمِعَ الملك كلامه ذرَفَتْ عَيْنَاه وأَطْرَقَ حياء فسَكَتَ علماء السوء ولم يتكلم منهم أحد ، فقال مالك بن وهيب وقد فهم نَفْسِيَّةَ ابن تومرت وأدرك غايته ، نصيحتي لك أيها الملك أن تأمر بسجن هذا الرجل وأتباعه وتنفق عليهم كل يوم ديناراً لتكفي شرهم والا أنفقت عليهم كل خزائنك ولا يُجْدِيكَ ذلك نفعاً ، اجعل عليه كَبَلاً قبل أن تسمع له طَبْلاً . فوافقه الملك على ذلك ، لكن الوزير بَيْنَتَان بن عُمر تدارك الأمر وقال يَقْبَحُ بك أيها الملك أن تبكي من موعظة رجل ، ثم تسجنه في مجلس واحد ، فأصغى الملك لرأيه وصرف ابن تومرت وسأله الدعاء .

مناظرة السلطان زيدان بن المنصور الذهبي

للشيخ يحيى بن عبدالله بن سعيد الحاحي

كان للشيخ المذكور دأله على زيدان بن المنصور بسبب أنه أعانه

على حرب الثائر أبي محلي^١ وإنقاذ مراکش من يده فكان بعد ذلك يُراسله وينصحه . وكان زِيدَانُ يتحمّل من ذلك أمراً عظيماً ، ويُداريه أشدَّ المُداراة . وهذه المناظرة تُعطينا صورةً من الصراع العنيف الذي كان يدور بينهما ، وهو صراع بين الأفكار المجردة والواقع السياسي الذي لا يعدم من الحجج ما يُناهض به تلك الأفكار ، ولئن مثّلت المناظرة في شخصية الشيخ المذكور مُعارضةً سياسية جريئة فإنها تُمثّل في شخصية زيدان حكومةً مُتبصرةً عظيمة الثقة بنفسها .

(قال الشيخ) في خطابه لزيدان بعد الافتتاح^٢ .

وبعد فالباعث به اليكم أمور ثلاثة مَدارُها على قوله ﷺ الدين النصيحة . قيلَ لِمَن يارسول الله ؟ قال : لله ولرسوله ولخاصة المسلمين وعامتهم ، الأول بيان سبب الرُّكُون اليكم ، الثاني ذكر الحامل على دفع مُناوِرتكم ، الثالث ملازمة النصيح لكم والضجرُ مما يصدُر من أعوانكم للرّعية ، أما الأمر الأول فله أسباب كثيرة منها مُراعاةُ الجَناب النبوي

١ - هو الفقيه الشيخ احمد بن عبدالله السجلماسي المعروف بأبي محليّ كان أولاً ينتحل طريق التصوف ثم تصدّى للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وثار على السلطة واستولى على سجلماسة وذرة ومراكش ثم ظفّر به زيدان بمعاونة الشيخ يحيى بن عبدالله هذا .

٢ - تصرفنا في هذه المناظرة ببعض الحذف والإيصال من غير اخلال بشكلها ولا مضمونها ، وذلك رغبة في الاختصار والوضوح .

الكريم في أهل بيته. ورَضِيَ الله عن أبي بكر الصديق القائل : أَرْقُبُوا محمداً في أهل بيته ، والقائل : لِقَرَابَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَحَبُّ إِلَيَّ أَنْ أَصِلَ مِنْ قَرَابَتِي .

وأما الأمر الثاني فلما جرى به القَدَرُ من تغلب ذلك الانسان المُسلَّط على الرِّقَابِ والحريم والأموال ، وإدخاله بتأويلاته البعيدة عن الصواب ما ليس في المذهب حتى تعدَّى ضروبَ الوَلَاةِ الى سائر الرعية فاضلها ومفضولها ، ومدَّ مع ذلك يدَ الوعيد المؤكَّد بالآيْمَانِ اليَنافي الأَنفُسِ والأموال .

وأما الأمر الثالث فهو تَمَادُلُ عليه الكتاب والسنة والاجماع . أما الكتاب فسورةُ العصر قائمةُ البرهان في كل أَوَانٍ وعُضُرٍ ، وقد قال تعالى في قضية كَلِيمِهِ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِلْمَجْرَمِينَ ، وقال جلَّ من قائلٍ : وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى ، وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ . وأما السنة فقوله ﷺ مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ فإن لم يقدر فبِلِسَانِهِ فإن لم يقدر فبقلبه وذلك أضعفُ الايمان ، وقد كنا مقتصرين على التغيير باللسان والعلم بكون التغيير العملي اليكم ، حتى جذبتُمونا اليه ودَلَلْتُمُونَا بارتكاب أصعب مَرامٍ عليه ، وقوله مَنْ أَعَانَ عَلَى قَتْلِ مُسْلِمٍ وَلَوْ بِشَطْرِ كَلِمَةٍ جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَكْتُوباً بَيْنَ عَيْنَيْهِ آيسٌ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ . قال العلامة المَوَاقِ : مَنْ أَعَانَ عَلَى عِزْلِ أَمِيرٍ وَتَوَلَّاهُ

غيره ولم يأمن سَفَكَ دم مسلم فهو شريك في دمه إن سَفَكَ ، ثم أتى الحديث المتقدم استعظاماً لذلك الأمر الفظيع ، فإننا لله وإنا اليه راجعون ، على أننا اتخذنا بالله حيثُ كتبتَ لنا مراراً وأمنتَ وعاهدتَ ، وكنتُ أتخوَّف من هذا الواقع بأزمور وأسفي ومراكش والغرب حتى أتاني القائد عبد الصادق بمصحف ذكر أنه لسلطان تلمسان ، في جرم صغير وقال لي أمرني السلطان أن أحلف لك فيه نيابة عنه على بقائه على العهد فيما بينك وبينه ، ومن تأمين كل من أمنتَه ، وامضاء كل ما رأيتَه صلاحاً لأمتِه ﷺ ثم لم أكتفِ بذلك حتى أتاني القاضي وأكَّد كل ما تقدم مُتحملاً عنك بذلك وبعد استقرارك في دارك كتبتَ لي كتاباً بانك باقى على ما تعاهدنا عليه وأنَّ الامور كلها على معيار الشرع - فما راعني الا وقد أخفرتُ في ذِمَّة الله وأماني الذي عقدته للناس فمن مأثورٍ ومُقيدٍ ومطلوبٍ بمالٍ ومطرودٍ عن بلده ، واخبارٍ أخرى تردُّ علينا من جهة السواحل ان الناس تُباع فيها للعدو دَمَره الله ولم نر من اهتبل بذلك ممَّن قلَّدتموه أمورَ الثغور فلم ندرِ هل بلغك خبرُ ذلك فتسقطُ عنا ملامةُ الشرع او لم يبلغك فأعلمنا الله تعالى لتطمئنَّ قلوبنا فاني كاتبك في ذلك فلم أرَ جواباً فقضيتُ والله من الأمر عجباً .

واما الاجماع فلم نر من العلماء من نهى عن نصيحة خاصة المسلمين وتنبيههم على ما يصلح بهم وبالرعية بل عدَّوه من الدين لحديث الدين النصيحة وغيره . وما استشعرناه من امتعاضكم من عدم إلانة القول في

مكاتبنا لكم ، فما خاطبناكم قطُّ رعيّاً لذلك ولو بنصفٍ ما خاطبَ الائمةَ
الأولُ به اهلَ زمانهم اتكالا على مطالعتكم لكتبهم وعلمكم بما لم نعلمه من
ذلك . ويكفيكم نصحُ الفضيل بن عياض وسفيان الثوري وإمامنا مالك
رضي الله عنهم لمعاصريهم من الولاة ، وفيهم من بكى وانتفع ، ومن غشي
عليه وتوجّع ، ومن ندم واسترجع ، الى غير ما ذكر على اختلاف الاعصار
وتنوع الدول ، فبذلك اقتدينا وبما كان عليه اشيائنا واسلافنا لكم
ولأسلافكم كالفقيه شيخ والدنا رحمه الله سيدي عبدالله الهبطي الجددكم
المرحوم بكرم الله تعالى ، فطمعتُ في نُجْحِ النصيح دُنيا وأخرى . فهذا اصلُ
قضيئتنا معكم وهلمَّ جرّاً والذكرى تنفع المؤمنين .

(فاجابه زيدان) :

وبعد ، فقد ورد علينا كتابكم ففضضنا ختامه ووقفنا على سائر فصوله
ثم اننا إن جاوبناكم على ما يقتضيه المقام الخطابي ربّما غيّرَكم ذلك وأدّى
الى المباغضة والمشاخنة . ويحكى عن عثمان رضي الله عنه انه بعثَ لِعليّ
كرّم الله وجهه واحضره عنده والقى اليه ما كان يجدُ من اولاد الصحابة
الذين اعصَوْصَبُوْا بأهل الردّة الذين كان رجوعهم الى الاسلام على يد
الصديق ، وهو في ذلك لا يُجيبه ، فقال له عثمان ما اسكتك ؟ فقال له :
يا امير المؤمنين ان تكلمتُ ما اقول لك الا ما تكره وان سكتَ فليس
لك عندي الا ما تُحب . ولكن لما لم اجد بُدّا من الجواب أرى ان

أقدم لك مقدمة قبل الجواب وذلك ان الحجاج لما ولاه عبد الملك بن مروان العراق وكان من سيرته ما يُغنيّ اشتهاره عن تسطيره هنا فتأول ابنُ الاشعث الخروجَ عليه وتابعه على ذلك جماعة من التابعين كسعيد بن جبّير وامثاله من اولاد الصحابة ولمّا قويَ عزُّهم على ذلك استدعوا الحسنَ البصري رضي الله عنه فقال لا افعل فاني أري ان الحجاج عقوبةٌ من الله تعالى فنَفَزَ الى الدعاء أوّلَى . وقد علمت ما كان من امر عبد الرحمان بن الاشعث وسعيد وامثاله . وقضية أهل الحرّة لما أوقع بهم جندُ يزيد بن معاوية بالحرّم الشريف ما أوقع ، ولمّا بلغه الخبر وهو بالشام انشد :

ليت أخوالي يبدّر شهدوا جزع الخزرج من وقع الأسل

وشاع ذلك عنه وذاع وكان ذلك على عهد أكابر الصحابة واولادهم فما تعرّض احدٌ منهم للنكير عليه ولا تصدّى للقيام بكلام .

ونزّجُ لجواب الكتاب ، فأما ما حكيت عن الصديق رضي الله عنه في اهل البيت والاحاديث الواردة في انه يجب احترامهم وتعظيمهم وتبجيلهم لاجل النبي صلى الله عليه وسلم فان كان يجبُ عليكم تعظيمهم فانه يجبُ عليّ من باب أوّلَى ، عملاً بقوله تعالى : « قل لا أسئلكم عليه

أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى « وَاَجْرَى سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَادَةً حُكْمِهِ مَا تَصَدَّى
 أَحَدٌ لِعَدَاوَةِ أَهْلِ الْبَيْتِ إِلَّا أَكْبَهَ لَوَجْهِهِ . وَأَمَّا مَا أوردتم من إحدائهم
 النصيح فأني والله أحب أن تنصحنى سرًا وعلانيةً مع زيادة شكري عليها
 وأراها منك مودةً وأعدُّها محبةً ، ولكن أفعَلُ من ذلك ما أقدرُ عليه
 لأن الله تعالى يقول : « لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا » وقد كثُر قولهم .
 ولم آلُ جُهدًا في كَذَا ، لأنَّ النفوس الشريفة العلية لا تترك من فعل
 الخير والجِدِّ في اكتسابه إِلَّا ما عَزَّ تناوله وصعب اكتسابه عليها .

وأما ما ذكرتم من أمر أبي محلي وسيرته وما كان تسلط عليه لولا
 ما كان من نُهوِكم إليه ، أمَّا تذكرُ استنهاضنا لكم المرأة بعد المرة وتكررتُ
 في ذلك اليكم الرُّسل حتى اجبت إليه وهو أمرٌ لا تحتاج فيه لإقامة حجة
 غير كونه خرج من الجماعة ، وقوله صلى الله عليه وسلم مَنْ أَرَادَ أَنْ
 يَشُقَّ عَصَاكُمْ فَاقْتُلُوهُ كائِنًا مَنْ كَانَ ، وَإِلَّا فَلَوْ دَخَلَ الْمَلِكُ مِنْ بَابِهِ وَبَايَعَهُ
 أَهْلُ الْحُلِّ وَالْعَقْدِ وَاخَذَ ذَلِكَ بِوَسَائِطٍ مِثْلَ بَيْعَةِ جَدُّنَا الْمَرْحُومِ الَّتِي
 تَضَافَرَتْ عَلَيْهَا عُلَمَاءُ الْمَغْرِبِ وَأَهْلُ الدِّينِ الْمَشَاهِيرِ ، وَلَوْ كَانَ وَصَلَ لَذَلِكَ
 بِمِثْلِ هَذِهِ الْوَسَائِطِ لَمَّا وَجِبَ حَرْبُهُ وَلَا الْقِيَامُ عَلَيْهِ بِمَا ذَكَرْتُمْ لِأَنَّ السُّلْطَانَ
 لَا يَنْعَزِلُ بِالْفُسْقِ وَالْجَوْرِ ، وَإِلَّا فَانِ الصَّحَابَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ فِي زَمَنِ
 يَزِيدَ بْنِ مَعَاوِيَةَ لَا يُحْصَى عَدْدُهُمْ وَمَا تَصَدَّى أَحَدٌ مِنْهُمْ لِلْقِيَامِ عَلَيْهِ وَلَا قَالَ
 بِعِزِّهِ ، وَإِلَّا فَانْهُمْ لَا يُقِيمُونَ عَلَى مِثْلِ ذَلِكَ وَلَوْ نُشِرُوا بِالْمَنَاشِيرِ . وَأَمَّا
 أَبُو مُحَلِّي فَبِمُجَرَّدِ قِيَامِهِ يَجِبُ عَلَيْكَ وَعَلَى غَيْرِكَ اعَانَتُنَا عَلَيْهِ لِأَنَّكَ فِي

يَبْعَتْنَا وَهِيَ لَازِمَةٌ لَكَ فَالطَّاعَةُ وَاجِبَةٌ عَلَيْكَ . وَاعْلَمْ أَنَّ وَالِدَكَ أَفْضَلُ مِنْكَ بِدَلِيلٍ ؛ (أَبَاؤُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أَبْنَائِكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ) وَكَانَ عَمُّنَا عَبْدُ الْمَلِكِ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ وَسَمَحَ لَهُ عَلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ وَاشْتَهَرَ بِهِ اِعْلَانًا . وَكَانَ وَالِدُكَ فِي دَوْلَتِهِ وَبَيْعَتِهِ وَوَفْدِهِ عَلَيْهِ وَلَمْ يَسْتَنْكِفْ مِنْ ذَلِكَ وَلَا ظَهَرَ مِنْهُ مَا يَخَالِفُ السُّلْطَانَةَ وَلَا أَنْكَرَ عَلَيْهِمَا وَلَا تَعَرَّضَ لِمَا يَسُوءُ مَلِكَ الْوَقْتِ وَلَا سَمِعَ ذَلِكَ مِنْهُ ، فَإِنْ كَانَ رَاضِيًا بِفِعْلِهِ فَهُوَ مِثْلُهُ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ رَاضِيًا فَمَا وَجْهُ سَكْوَتِهِ وَالْوَفَادَةِ عَلَيْهِ ؟ وَامَّا مَا ذَكَرْتُمْ مِنْ أَنَّ مَنْ اِعَانَ عَلَى قَتْلِ مُسْلِمٍ وَلَوْ بِشَطْرٍ كَلِمَةٍ جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَكْتُوبًا بَيْنَ عَيْنَيْهِ آيِسٌ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ ؛ فَهَذِهِ حُجَّةٌ عَلَيْكَ لَا عَلَيْنَا لِأَنِّي مَا سَعَيْتُ فِي قَتْلِ أَحَدٍ وَلَا قُتِلَ مَنْ قُتِلَ إِلَّا بِأَمْرِ الْقَضَاةِ وَاهْلِ الْعِلْمِ . وَاعْلَمْ أَنَّهُ إِذَا كَانَ هَذَا وَعِيدًا فِي قَتْلِ الْوَاحِدِ فَمَا بَالُكَ بِمَنْ يُرِيدُ فَتْحَ بَابِ الْفِتْنَةِ حَتَّى لَا يَقِفَ الْقَتْلُ عَلَى الْمِائَةِ وَالْمِائَتَيْنِ وَالْآلَافِ وَالْخَمْسَةِ آلَافِ وَنَهْبِ الْأَمْوَالِ وَكَشْفِ الْحَرِيمِ وَغَيْرِ ذَلِكَ . أَمَّا تَعْلَمُ أَنَّ أَيَّامَ فِتْنَةِ أَبِي مُحَلِي قَدْ هَلَكَ مِنَ النَفُوسِ وَالْأَمْوَالِ بِسَبَبِهَا مَا لَا يُحْصَى عِدَدَهُ حَاسِبٌ . وَلَا يَسْتَوِي فِي نَهَايَتِهِ كَاتِبٌ ، وَكَانَ ذَلِكَ فِي صَحِيفَتِهِ لِأَنَّهُ الْمَتَسَدِّبُ الْأَوَّلُ الْفَاتِحُ أَبْوَابِ الْفِتْنَةِ لِأَنَّهُ كَانَ يَقْتُلُ كُلَّ مَنْ انْتَمَى إِلَيْنَا حَتَّى قُتِلَ بِسَبَبِهِ فِي يَوْمٍ وَاحِدٍ بِمَكَانٍ وَاحِدٍ خَمْسَمِائَةِ قَتِيلٍ وَلَوْ لَا أَبُو مُحَلِي مَا قُتِلُوا .

وَاعْظُمُ فِي حُرْمَةِ النَفُوسِ مِنْ هَذَا قَوْلُهُ تَعَالَى : « مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ ، كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي

الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً» وليس في قول المواق ما يُحتج به على السلطان وإنما تكلم في أصحاب الخطط على الترتيب الذي كان على عهدِه، مثل اصحاب الشرط كصاحب شرطة الشوق الذي يُنفذ عن القاضي وغير ذلك من الولايات . وولاية أبي محلي لا تعدُّ ولايةً حتى يُعدَّ عزله عزلاً . وما عند المواق وغيره وقفنا عليه وعرفناه وتلقيناه من الشيوخ الجلة وعرفنا ما عند الشافعية والحنفية ودرسناه المرة بعد المرة . ولست ممن ينطبق عليه قوله عليه السلام : أشقى الناس عالم لم ينفعه الله بعلمه . ولكن لماذا تجنح بقول المواق لغرضك وتجعله حجة ؟ ولم نُجيبنا نحن فيما كتبنا اليك فيه في يونس اليوسي وقلنا لك قال عليه السلام الحرَّم لا يُعيدُ عاصياً قال : ألاي هذا ممَّا يُحتج به على أهل الزوايا ، فأخبرنا عن الوجه الذي منعه به من الشرع ومتاعنا عنده وإمامُ أهلنا في داره وترتب في ذمته للمسلمين من الأموال والدِّماء ما يجلُّ حصره ، فان كنت تُريد العدل فهلاً عدلت فيه ؟ والناس خرجت على أطوارها واحبوا الفتنة طلباً للراحة فان كنت تُصغي لمقاتلتهم وإسعاف شهواتهم والتعرُّض للسلطان، فهذا نفسُ خراب العالم .

ورأيتُ أن أقدم لك مقدمةً أمامَ هذا ، وإن كانت أدبية ، قيل لابن الرومي ، وهو علي بن العباس ، لمَ لم تقل كعبدالله بن المعتز :

كأنَّ آذريُونَنَا	والشَّمْسُ فيه كَالِيَه
مَدَاهِنُ من ذَهَبٍ	فيها بقايا غَالِيَه

فاجاب بأن قال : هُوَ لا يَقْدِرُ أَنْ يَقُولَ مِثْلَ قَوْلِي فِي وَصْفِ
الرَّقَاقَةِ :

إِنْ أَنَسَ ، لَا أَنَسَ خَبَازًا مَرَرْتُ بِهِ يَدُوحُ الرَّقَاقَةُ وَشَكَ اللَّحْمَ بِالْبَصْرِ
مَا بَيْنَ رُؤُوتَيْهَا فِي كَفِّهِ كُرَّةٌ وَبَيْنَ رُؤُوتَيْهَا قَوْرَاءُ كَالْقَمَرِ
إِلَّا بِمَقْدَارِ مَا تَنَدَّاحُ دَائِرَةُ فِي صَفْحَةِ الْمَاءِ يُرْمَى فِيهِ بِالْحَجَرِ

وقال كلُّ مَنْ يَصِفُ أَوَانِي بَيْتِهِ ، وَرَبُّ الْبَيْتِ أَدْرَى بِمَا فِيهِ ، وَاهْلُ
مَكَّةَ أَدْرَى بِشِعَابِهَا ، وَالصَّيْرِفِيُّ أَعْرَفُ بِنَقْدِ الدِّينَارِ وَقَضِيَةِ الْخَضِرِ
وَالْكَلِيمِ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَى نَبِينَا وَعَلَيْهِمَا السَّلَامُ فِيهَا كِفَايَةٌ لِمَنْ يَعْتَبِرُ ..
فَأَخْبِرْنَا كَيْفَ تُحِبُّ أَنْ نَسْلُكَ مَعَ النَّاسِ فِي الْغَرْبِ ، فَأَنْ كُنْتَ تُحِبُّ أَنْ
نَسْلُكَ فِيهِمْ مَسْلَكَ مَوْلَايَ عَبْدِ اللَّهِ ' فَالزَّمَانُ غَيْرُ الزَّمَانِ وَالْأَسْعَارُ قَدْ
ارْتَفَعَتْ وَبَلَغَتْ النِّهَايَةَ وَاللَّهُ تَعَالَى قَدْ بَعَثَ أَنْبِيََاءَهُ وَأَنْزَلَ كُتُبَهُ بِحَسَبِ مَا
يَقْتَضِيهِ الزَّمَانُ وَهَذَا يَعْرِفُهُ مَنْ خَالَطَ الشَّرَائِعَ وَالْكَتُبَ الْمُنْزَلَةَ وَأَخَذَ
الْعِلْمَ مِنْ أَفْوَاهِ الرِّجَالِ وَأَدَبْتَهُ مَجَالِسُ الْعِلْمِ .

وَنَحْنُ نُلَخِّصُ لَكُمْ الْكَلَامَ عَلَى بَعْضِ مَا أُورِدَ النَّاسُ فِي الْخُرَاجِ .
أَمَّا مَا بَنَوْا عَلَيْهِ فَرَضَهُ فِي صَدْرِ الْإِسْلَامِ وَالِدُولِ الْعِظَامِ فَلَا نُطِيلُ
بذِكْرِهِ لَشَهْرَتِهِ وَأَمَّا فِي الْمَغْرِبِ خُصُوصاً فَأُولُ مَنْ فَرَضَهُ عَبْدُ الْمُؤْمِنِ بْنِ

علي وجعله على إقطاع الأرض بناءً على ان المغرب فُتِحَ عَنْوَةً واليه ذهب بعض العلماء ومنهم من يقول ان السَّهْلُ فُتِحَ عَنْوَةً والجَبَلُ صُلْحًا . فاذا تقررَ هذا علمتَ ان أهل هذا العصر قد بادُوا وانبدَثُوا فيكونُ السَّهْلُ كُلُّهُ لبيت المال وتعيَّن أن يكون الخراجُ فيه على ما يُرضي صاحبَ الأرض وهو السلطان والجبلُ تتعدَّرُ معرفةُ ما كان الصلح عليه ولا سبيلَ الى الوقوف عليه فيرجعُ للاجتهاد . وقد اجتهد سلفنا الكرام رضوان الله عليهم في فرضه لأول الدولة الشريفة على وفقِ أئمة السنة ومشايخ أهل العلم والدين في ذلك العهد فجرى الأمرُ على السَّنَنِ الأقوم الى أن هبَّتْ عواصفُ الفتنة لايام ابن عمنا صاحب الجبل^١ وازالهُ مولانا الامام وِصْنُوهُ المرحوم عن حواضر المغرب وسَهْلِهِ عند الزَّحْفِ بالاتراك ، وامتدت به الفِتْنَةُ في الجبل الى أن هلك^٢ مع النَّصَارَى ، دَمَرُهُم الله في الغزوة الشهيرة وجاءَ الله من مولانا المقدس^٣ بِالْجَبَلِ الْعَاصِمِ للاسلام من طوفانِ الالهوال فَقَدَّرَ رضي الله عنه الاشياءَ حقَّ قدرها ورأى المغربَ غِبًّا تلكَ الفتن قد فَغَرَ الأفواه لانتهابه عَدُوَّان ؛ عدوُّ عظيم من التُّرك ، وعدوُّ الدين الطَّاغِيَّة . فاضْطُرَّ رحمه الله الى الاستكثار

١ - يريد به محمداً المتوكل الذي لجأ الى الجبل عند زحف عمه عبد الملك المعتصم

على فاس بجيش الترك .

٢ - يعني ابن عمه المذكور .

٣ - أي والده المنصور الذهبي .

من الأجناد لمقاومة الأعداء والذب عن الدين وحماية ثغور الاسلام فدعا
تضاعف الأجناد الى تضاعف العطاء وتضاعف العطاء الى تضاعف الخراج
وتضاعف الخراج الى الاجحاف بالرعية، والاجحاف بالرعية امر يستنكف
رضي الله عنه من ارتكابه ولا يرضاه في سيرة عدله طول ايامه؛ فلم يبق له حينئذ
الا أن أمعن النظر في أصل الخراج فوجد بين السَّعْر الذي بُني عليه في
قيمة الزرع والسمن والكَبْش الذي تُعطي الرعية منذ زمان الفرض
بحسبه وبين سعر الوقت أضعافاً. فحينئذ تحرَّى العدل فخير الرعية بين
دفع كل شيء بوجهه أو دفع ما يُساوي سَعْر الوقت فاخترُوا السَّعْرَ
مخافة أن يرتفع الى ما هو أكثر فأسعفهم رضي الله عنه وعرف الناس
الحق فلم يُنكره واحد من أهل الدين ولا من أهل السياسة. وليت
شعري لو طالبنا نحن الناس اليوم بسَعْر الوقت الذي ارتفع الى أضعافٍ
مضاعفةٍ ماذا تقولون وقد انتقدتم علينا ما هو أخف من ذلك؟

وامّا ما تقضيه من العجب لتعطيل أجوبتنا عنك حتى نراجع منك
فان كتابك اكّدت مبناه على قضية أهل أزمور فانفذنا من أخرج الذي
كان به واقصاه عنه وسرّح من كان عنده فتوقف الجواب حتى يرجع
الحديم فحينئذ أجبنّاكم بما وصلكم. وكوّن تعطيل الجواب منشأه ما من
الله به علينا من رجوعنا الى سرير ملكنا واجتماعنا بأبناء أُمنا فأعلم
أن أهل المغرب لما تمالؤوا عليّ وخرجت الى المشرق والتقيت بالترك

والأروام وجالسوني وجالستهم وخاطبوني وخاطبتهم ، منهم مُشافهةً ومنهم مُراسلةً ، كنتُ ايامُ مُقامي بارضهم كمُقامي على سرير ملكي لان كبيرهم وصغيرهم ورئيسهم ومرؤوسهم كان ينتجع فضلي ويمدُّ كف رغبته لنعمتي وواسيتُ الجميع عطاءً مُترَفاً مع قلة الزاد والذخيرة ، وترفعتُ عن مُراسلة الامائل والأكابر من العجم والعرب ولم أُرْكَن لأحد بل تجردتُ بما قدرتُ عليه من الأُخبية حتى جعلتُ محلةً برُمَّتِها وخيلُها فترامى عليَّ العجمُ بالرغبة وبسطوا أكفَّ الضراعة في المُقام عندهم والدخول في جُمْلَتِهم وعرضوا عليَّ الإقطاعاتِ السَّنيةَ والبِلاداتِ الملوكية بلُطفِ مقال وأدبِ خطاب حتى قال القبطانُ مُراد رئيسُ المجاهدين : وما مثلك يكون مع الغرب ، ها نحن نخدمك باموالنا وانفُسنا وبما لنا من السفن حيث اردت واحببت وما انفصلتُ عنهم حتى كتبتُ لهم بخطي اني احملُ أهلي وحاشيتي وارجعُ اليهم الا ان تمكن لي الدخولُ في الملك والغلبةُ على البلاد وقد قفلتُ من عندهم ولم يتعلَّق ثوبُ عفا في بما يَشِدُّه معهم ولا مع العرب ولكن ليس لأحد عليَّ منة ولا نعمة إلا فضلُ الله تعالى « وكان فضلُ الله عليك عظيمًا » .

ثم اني دخلتُ سِجلماسةً على رغم انف أهليها وواليتها ومنها دخلتُ للسوس وجعلتُ وليَّ الله تعالى العارف ابا محمد عبد الله بن مُبارك واسطةً بيني وبين اخي حتى اجتمعتُ بأهلي ومالي وبعثَ إليَّ التُّركُ بأحد

بلكباش اسمه مصطفى صولحي الى السوس راغبين انجاز الوعد فجَنَحْتُ
 للمسير اليهم فرأيتُ الأهلَ والأَتباعَ قد عَظُمَ عليهم الأمر واستكبروا
 الخروج فاسعفتُ رغبتهم في المَقام بالمغرب وشيَّعتُ الرسولَ قافِلاً الى
 قومه من سِجِلْمَاسَة عند الدخول الثاني لها ومُغالَبة اهلها عليها وعزَّزْتُه
 برسول من عندي إليهم بِتُخَفٍ وأموال ورَدَ بها عليهم مع رُسولهم . ثم
 اني اقتحمتُ مراکش مع أهل فاس على كثرة عَدَدِهِم وعُدَدِهِم وقلتي
 ووحدتي وفتحَ اللهُ عليَّ ثم خرجتُ للسوس مرة أخرى وأوقعتُ بولد
 مولاي احمد الشريف وجُمُوعِ مراکش وقد تعصبُوا عليه لانهم شيعةُ
 جدّه ففضَضْتُهُ على رَغْمِهِم ونازلتُه بالسَّهْل والحزن حتى أمكن الله منه
 وحكم بيني وبينه . ثم نجم نجم الغويّ ابني محليّ وغلبتُ على الرأي وقد
 قال مَنْ هو افضلُ مني مولانا علي كرم الله وجهه لا رأيَ لمن لا يُطاع ،
 ودخل هذه البلاد وخرجتُ انا للسوس بينما تجتمع لنا قبائلنا في المكان
 الذي كان اجتماعهم فيه الى ان بلغتهم وقصد إليهم ابو محلي فقاتلوه ورحل
 عنهم بعد أن ائخنُوا فيه بالقتل ثم وافيتهم بالمكان والحرب بيننا سِجَال
 فهل سمعتمُ خلال هذه الأحوال كُلِّها اني احتجتُ لأحد فيما قلَّ أو جَلَّ
 وهذا كله بحيث لا يخفى عليك ، اللهم إلا أن تَعْتَدَّ الوِفَادَةَ التي وفدنا
 عليك من قبيل الاضطرار والاحتياج فلا تَدْرِي .

على اني ما قصدُك لطلب دنيا ، بل لأنني كنتُ أسمعُ ما أنتَ عليه من

متانة الدين والصّلاح والاقبال على طاعة الله والتمسك بسنة رسول الله ﷺ لا غرورَ ومَن كان هذا وصفه جديرٌ بأن يُقصدَ للدعاء والتبرك وإصلاح القلب . ولو علمتُ أن ذلك يُعدُّ ويُظنُّ انه نوع من الاحتياج والله ما كنتُ لأقفَ على أحد ولو انه يملِّكني الدنيا بِحَدَا فيرها لأن الخير والشر بيد الفاعل المختار وهو أولى إليه بالاضطرار .

وأما سِرِّي فما ترَوَّعَ قط حتى يأمن . وأما مَن كان في الدار التي ذكرْتُهم فانما هم أهلي ومَتْرُوكُ أعمامي . وأما ما أخبرَكُم به القاضي فكلُّ ما حمل عني فهو حقّ وقد التزمته الى الآن إلّا ما طرأ علينا فيه النسيان ذكرونا به فإنّا لا نخرُج عنه .

وأما يمين المصحف وأناي كنتُ حلفتُ فيه للقائد عبد الصادق فلا والله ما حلفتُ فيه ولا نخلفُ لأحد الى لقاء الله . أما علمتَ أنّي حضرتُ بيعةَ صاحب المغرب^١ ساعه الله وحضر اولادُ السلطان واستخلفهم له إلّا أنا فانه قال : فلان لا يحلفُ ولا يحتاج اليه فما نأمره به يفعلهُ وعظمُ ذلك على إخوتي وظهرتُ في وجوههم الكراهية لأجله . ولكن

١ - يعني بيعة أخيه المأمون بولاية العهد أيام أبيهما المنصور .

الذي قلتُ لعبد الصادق اُحلف للمرابطة^٢ وأنا أُوفي لك به وما زلتُ على ذلك الى الآن .

واما الامتعاضُ من عدمِ الإلانةِ القولِ وحسنِ الخطابِ كما قال الله تعالى : « وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا » وَأَنَّكَ لَمْ تَبْلُغْ وَلَوْ نِصْفَ مَا خَاطَبَ بِهِ الْأَئِمَّةُ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِمُ أَهْلَ زَمَانِهِمْ اتِّكَالاً عَلَى عِلْمِنَا بِهِ فَحَسْبِيَ نَصْحُ الْفُضَيْلِ بْنِ عِيَاضٍ وَسُفْيَانَ التَّوْرِيِّ وَمَالِكِ بْنِ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ فَهَذِهِ الْمَسْأَلَةُ حَسْبِي فِي الْجَوَابِ عَنْكَ وَالسَّلَامُ .



٢ - المقصود بالمرابط الشيخ يحيى ولفظ المرابط كثيراً ما يطلقونه على السادة والأشياخ .

الرسائل

١- السلطانيات

توقيع يوسف بن تاشفين

على كتاب الفونش

كتب الفونش الى يوسف بن تاشفين لما سمع باستدعاء ملوك الطوائف له وعزيمه على الجواز الى الاندلس ، كتابا يهدده فيه ويُغليظ له القول ليصرفه عن الجواز فوقَّع على ظهر كتابه « الجواب » ما ترى لا ما تسمع ، فعلم الفونش انه بُليّ برجل يفعل ولا يقول .

كتابه بالفتح في واقعة الزلاّقة الى العدوّة

أما بعد حمد الله تعالى المتكفل بنصر أهل دينه الذي ارتضاه ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد أفضل رُسليه وأكرم خلقه وأسراره ، فإنّ العدو الطاغية لعنه الله لما قرُبنا من حماه ، وتوافقنا بازائه لقنّاه الدعوة وخيرناه بين الاسلام والجزية والحرب ، فاختار الحرب فوقَّع الاتفاق بيننا وبينه على الملاقاة في يوم الاثنين الرابع عشر لرجب وقال الجمعة عيد المسلمين والسبت عيد اليهود وفي عسكرنا منهم خلق كثير والأحد عيدنا نحن فتفرقنا على ذلك واضمر اللعين خلاف ما شرطناه

وعلمنا انهم اهل خدع وتقض عهود فأخذنا أئمة الحرب لهم وجعلنا عليهم العيون ليرفعوا الينا أحوالهم فأتتنا الانبياء في سحر يوم الجمعة الحادي عشر من رجب المذكور بان العدو قد قصد بجيوشه نحو المسلمين يرى انه قد اغتم فرصته في ذلك الحين فانتدبت اليه أبطال المسلمين وفرسان المجاهدين فتغشته قبل أن يتغشاها وتغدته قبل أن يتغشاها، وانقضت جيوش المسلمين في جيوشهم انقضاض العقاب على عقيرته، ووثبت عليهم وثوب الأسد على فريسته، وقصدنا برأيتنا السعيدة المنصورة، في سائر المشاهد المشهورة، في جيوش ملتونة نحو الفونش فلما أبصر النصارى رأيتنا المشتهرة المنتشرة ونظروا إلى مراكبنا المنتظمة المظفرة، وغشيتهم بروق الصفاح، وأظلتهم سحاب الرماح، وزلزلت حوافر خيولهم رعود الطبول بذلك الفيّاح، التحم النصارى بطاغيتهم الفونش وحملوا على المسلمين حملة منكرة فتلقاهم المرابطون بنية صادقة خالصة وهمم عالية فعصفت ریح الحرب، ووكفت ديم السيوف والرماح بالطنن والضرب، وطاحت المهج، وأقبل سيل الدماء في هوج، ونزل من سماء الله على أوليائه النصر العزيز والفرج، وولى الفونش مطعوناً في إحدى ركبتيه، طعنة أفقدته إحدى ساقيه، في خمسمائة فارس من مائة وثمانين الف فارس ومائتي الف راجل، قادهم الله إلى المصارع والحتف

العاجل ، وتخلص لعنه الله الى جبل هنالك ونظر التَّهَب والنيران في
مَحَلَّتِهِ من كُلِّ جانب وهو من أعلى الجبل ينظرها شزراً ، لم يجد عنها
صَبْراً ، ولا يستطيع عنها دِفَاعاً ولا لها نَصراً فأخذ يدعو بالشُّبُور
والوَيْل ، ويرجو النجاة في ظلام الليل وأمير المسلمين بِحَمْدِ الله قد ثبت
في وَسْطِ مَرَاكِبِهِ المظفَّرة . تحت ظلال بنوده المنشرة منصور الجهاد ،
موفور الأعداد ، يشكر الله تعالى على ما منحه من نيل السؤال والمراد ،
وقد سرح الغارات في محلاتهم تهدم بناءها وتسلم ذخائرها واسبابها ،
وتريه رأي العين دمارها ونهايتها ، والفونش ينظر اليها نظراً المَغْشِيَّ
عليه ويعض غيظاً وأسفاً على أنامل كفيته ، وحين تمت الهزيمة وتتبع
الفرار ، عاد رؤساء الاندلس المنهزمون نحو بَطْلَيْوُس والغار ،
وتراجعوا حذراً من العار ولم يثبت منهم غير زعيم الرؤساء والقوَّاد ،
أبو القاسم المعتمد بن عباد ، فأتى الى أمير المسلمين وهو مهيبض الجناح ،
مريض عناء وجراح^١ ، فهنأه بالفتح الجميل ، والصنع الجليل ،
وتسلل الفونش تحت الظلام ، فاراً لا يهدأ ولا ينام ، ومات من الحسمائة
فارس الذين كانوا معه بالطريق أربعمائة فلم يدخل طليطلة الا في مائة
فارس والحمد لله على ذلك كثيراً .

١ - أبلى المعتمد في وقعة الزلاقة بلاء حسناً وأصيب فيها بجروح .

ظهير^١ له في تلقيبه بأمير المسلمين وناصر الدين

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً ، من أمير المسلمين وناصر الدين يوسف بن تاشفين ، الى الاشياخ والاعيان والكافة من أهل فلانة^٢ أدام الله كرامتهم بتقواه ووفقهم لما يرضاه . سلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته ، أما بعد حمد الله أهل الحمد والشكر ، مُيسّر النُسر وواهب النُصر ، والصلاة على محمد المبعوث بنور الفرقان والذكر ، فَإِنَّا كَتَبْنَاهُ إِلَيْكُمْ مِنْ حَضَرَتِنَا الْعَلِيَّةِ بِمِرَاكُشِ حَرْسِهَا اللَّهُ فِي نِصْفِ مُحَرَّمٍ سَنَةِ سِتَّةٍ وَسِتِّينَ وَأَرْبَعِمِائَةٍ وَإِنَّا لَمَّا مِنْ اللَّهِ عَلَيْنَا بِالْفَتْحِ الْجَسِيمِ ، وَأَسْبَغَ عَلَيْنَا مِنْ نِعَمِهِ الظَّاهِرَةِ وَالْبَاطِنَةِ وَهَدَانَا إِلَى شَرِيعَةِ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ الْمُصْطَفَى الْكَرِيمِ ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ أَفْضَلَ الصَّلَاةِ وَأَتَمَّ التَّسْلِيمِ ، رَأَيْنَا أَنْ نُخَصِّصَ أَنْفُسَنَا بِهَذَا الْأَسْمِ لِنَمْتَازَ بِهِ عَلَى سَائِرِ أَمْرَاءِ الْقَبَائِلِ وَهُوَ أَمِيرُ الْمُسْلِمِينَ وَنَاصِرُ الدِّينِ فَمَنْ خَطَبَ الْخُطْبَةَ الْعَلِيَّةَ السَّامِيَةَ فَلْيَخْطُبْهَا بِهَذَا الْأَسْمِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى ، وَاللَّهُ وَلِيُّ الْعَدْلِ بِمَنِّهِ وَكَرَمِهِ وَالسَّلَامِ .

١ - الظهير في الاصطلاح المغربي يعني المرسوم الملكي وذلك لان حامله يستظهر به .

٢ - يعني المدينة أو القبيلة .

كتاب عبد المؤمن الى الشيخ محمد بن سعد
المعروف بابن مردنديش صاحب شرق الاندلس

يدعوه الى الدخول في دعوتهم وَيُظَنُّ أَنَّهُ من انشاء الوزير
أبي جعفر بن عَطِيَّة

من امير المؤمنين أتيده الله بنصره ، وأمدّه بمُعُونَتِهِ ، الى الشيخ ابي
عبدالله محمد بن سعد وفقه الله ، ويسره لما يرضاه ، سلام عليكم ورحمة
الله وبركاته . أما بعد فالحمد لله الذي له الاقتدار والاختيار ، ومنه
العون لأوليائه والإقْدَارُ ، وإليه يُرْجَعُ الامرُ كُلُّهُ فلا يَمْنَعُ منه الاستبداد
والاستئثار ، والصلاة والسلامُ على محمد نبيه الذي ابْتَعَثْتُ بمبعثه الاضواء
والأنوار ، وعُمِّرت بدعوته الأنجادُ والأغوار ، وخَصَمَ بدعوته الكُفَرُ
والكفار ، وعلى آله وصحبه الذين هم الكرام الأبرار ، والمهاجرون
والانصار ، والرضا عن الامام المعصوم ، المهدي المعلوم ، القائم بأمر الله
حين غيَّبَتْهُ الأغيار ، وأنْعَدَمَ الامْتِعَاضُ له والانتِصَار . وهذا - كتابنا
كتب الله لكم نظراً يُرِيكُمْ الْمَنْهَجَ وَيُلَقِّيْكُمْ الْأَبْهَجَ فالأبْهَجُ ، وآتاكم
الله من نعمة الايمان ، وعِصْمَةِ الانقياد له والإِذْعَان ، ما تجدون به اليقين
والثلج - من حضرة مراکش حرسها الله تعالى ، ولا استظهار إلا بقُوَّتِهِ
وَحَوْلِهِ ، ولا استكثار إلا من إحسانه وطَوْلِهِ .

ولما جعل الله هذا الأمر العظيم رحمةً لخلقه ومَظِيَّةً لِرُقِيَّتِهِ وقرارةً
لإقامة حقّه ، وحَمَلَ حَمْلَتَهُ الدِّعَاءَ إِلَيْهِ ، والدَّلَالََةَ بِهِ عَلَيْهِ والترغيبَ في

عظيم ما عنده ونعيم ما لديه ، وجعل الإنذار والإعذار من فصوله المستوعبة ،
وأحكامه المرتبة ، ومُنتجاته المُخلصة من الخطوب المُهلكة والاحوال
المُعطية - رأينا ان نخاطبكم بكتابنا هذا أخذاً بأمر الله تعالى لرسوله في المضام
الى سبيله ، والتحريض على اغتنام النجاء وتحصيله ، وإقامة الحجة في تبليغ
القول وتفصيله ، فأجيئوا - رفعكم الله - داعي الله تسيعدوا ، وتمسكوا بأمر
المهدي - رضي الله عنه - في اتباع سبيله تهتدوا ، واصرفوا أعينهم عن الغواية
الى النظر في المآل والتفكر في نواشئ التغير والزوال ، وتدبروا
جرى هذه الأمور وتصرف هذه الاحوال ، واعلموا أنه لا عزة إلا
بإعزاز الله تعالى فهو ذو العزة والجلال ، ولا يغرنكم بالله الغرور ، فالديار
دار الغرور ، وسوق المحال ، وليس لكم في قبول النصيحة ، وابتداء
التوبة الصحيحة ، والعمل بثبوت الايمان في هذه العاجلة الفسيحة ، الا ما
تُحبونه في ذات الله تعالى من الأمانة والدعة ، والكرامة المتسعة والمكاثرة
المرفعة ، والتنعم بنعيم الراحة المتصلة والنفس الممتنعة ، فنحن لا نريد
لكم ولسائر من نرجو إنباته ، ونستدعي قبوله وإجابته ، إلا الصلاح
الأعم ، والنجاح الأتم ، وتأملوا سددكم الله من كان بملك الجزيرة
حرسها الله من أعيانها وزعماء شأنها ، هل تخلص منهم الى ما يودّه ، وفاز
بما يدخره ويُعده ، ألا من تمسك بهذه العروة الوثقى ، واستبقى لنفسه
من هذا الخير الأديم الأبقى وتنعم بما لقي من هذا النعيم المقيم ويلقى ،
وأما من أخلد الى الارض واتبع هواه ، ورغب بنفسه عن هذا الامر

العزیز الی ما سِواه ، فقد عَلِمَ بضرورتی المشاهدة والاستفاضة سوءَ مُنْقَلَبِهِ ، وخسارةَ مذهبه ومطلبه ، وتنقّل منه حادثُ الانتقامِ اخسرَ ما تنقّل به ، وحقّ علیکم - وفّقکم الله وسیرکم لما یرضاه - أن تُحسِنُوا الاختیار ، وتصلُّوا الادِّکار والاعتبار ، وتبتدروا الابتدار ، وما حقٌّ من انقطع الی هذا الأمر الموصول الواصل ، وأزْمَع ما یناله من خیره المحوِّز الحاصل ، ان یناله منکم شاغل يشغله عن مقصوده ، ويحیط به ما یصرِّفه عن محبوبه وموَدُّوده . فقد کان منکم فی أمر أهل بلنسية حین اعلانهم بکلمة التوحید ، وتعلّقهم بهذا الامر السعید ، ما کان ثم کان منکم فی عَقِب ذلك ما اعتمدتموه فی أمر أهل لَوْرَقَة - وفّقهم الله . حین ظهر اختصاؤهم وبأن اخلأصهم ، وليس لذلك وأمثاله عاقبة تُحمَد ، فالخير خیر ما یُقصد ، والنجاة فیما یُنزَح عن الشر ویُبعد ، وانا لَنرجو ان یکفّکم عن ذلك واشباهه نظراً موفق ، وهتاع محقق ، ویجذبکم الی موالاة هذه الطائفة المبارکة جاذبٌ یُسعد وسائقٌ یُرشد ، والله یمُنُّ علیکم بما ینجیکم ویمکن لکم فی طاعته أسباب تأمیلکم وترجّیکم بمنه والسلام علیکم ورحمة الله وبرکاته .

رسالة من عبد المؤمن أيضاً الى أهل تلمسان

وهي من إنشاء الكاتب أبي عقيل بن عطية

من أمير المؤمنين أیده الله بنصره ، وأمده بمعونته ، الی الطلبة الذين بتلمسان وجميع من فیها من الموحدين أدام الله کرامتهم بتقواه ، سلام علیکم ورحمة الله تعالى وبرکاته .

أما بعد فالحمد لله الذي وسَّعت رحمته كلَّ شيء على العموم والاطلاق
وجمعت عصمته أهل الاجتماع على طاعته والاتفاق ، وتمت نعمته تماما على
أبلغ وجوه الانتظام والاتساق ، والصلاة على محمد نبيه المبتعث لتتميم
مكارم الأخلاق ، وعلى آله الطاهرين وصحبه المتوازين أولى البواء الى
مرضاته والاستباق ، والرضى عن الامام المعصوم ، المهدي المعلوم ،
علم الأعلام ، وذخيرة الايمان والاسلام ، وبدر الكمال والتمام ، الطالع
بأشرف مطالع الاشراق ، الفارع عند تطاول الرؤوس والأعناق ، الجامع
أشتات الفضل وأجناسه على الاستيفاء والاستغراق ، وهذا كتابنا اليكم
كتب الله لكم فيما خولكم النماء والزيادة ، ومكن في تمكينكم واصلاح
شؤونكم الإنالة والافادة ، وبسط في أرجائكم ومتعلقات رجائكم
اليمن والسعادة ، من حضرة بجاية حرسها الله عن أحوال ترتب صلاحها
على أفضل وجوده ، وفتوح تتابع افتتاحها في قريب المعمور وبعيده ،
وبشائر ينزه بشرها وسماعها عن الجرنى على معتاد الدأب المألوف
ومعهوده ، وآيات بينات أغنى تجليها واتضاعها عن كل برهان وجوده ،
نسأل الله سبحانه عوناً يعين وينهض ، وعملاً يتخلص بشكر آلائه
الباهرة ويمجض ، وقوة لا تنتكث بالعجز عن أداء حقوقه ولا تنتقض ،

وقد تقدّم اعلامكم واصل الله سروركم ، وضاعف شكوركم
بما كان من صنّع الله تعالى في فتح هذه البلاد التي يسر مرامها بحوله
واقتيداره ، ونور ظلامها بأضواء هذا الأمر السعيد وأنواره ، وصير

أَبَاطِحَهَا وَآكَامَهَا مِنْ مَوَاطِيءِ أَوْلِيَائِهِ وَأَنْصَارِهِ ، وَإِنَّ أَبَا زَكْرِيَاءَ يَحْيَى
 ابْنَ الْعَزِيزِ بِاللَّهِ بْنِ الْمَنْصُورِ^١ وَجَمِيعَ إِخْوَتِهِ وَقَرَابَتِهِ وَخُوُوفِهِ حِينَ
 أَتَاهُمُ الرَّائِدُ الَّذِي لَا يَكْذِبُ أَهْلَهُ ، وَانْتَحَاهُمُ الْقَائِدُ الْمُبِيعُ وَغَرَ الْمُنْتَحَى
 وَسَهْلَهُ ، لَمْ يَكُنْ لَهُمْ بُدٌّ مِنَ التَّوَلَّى عَنْ قَرَارِهِمُ وَالتَّخَلَّى عَنْ أَوْطَانِهِمْ
 وَأَقْطَارِهِمْ ، لِأَمْرِ قَضَى اللَّهُ فِيهِ لِهَذَا الْأَمْرِ الْمُبَارَكِ بِخَيْرِ قَضَائِهِ ، وَشَأْنِ
 طَوَى الْخَيْرَةِ دَرَجَ تَضَمُّنِهِ وَاقْتِضَائِهِ ، فَكَانَ مَأْثَمُهُمُ الَّذِي اعْتَقَدُوا
 مَنَعَتَهُ وَحَصَانَتَهُ ، وَاعْتَمَدُوا ثِقَتَهُ عَلَيْهِمْ وَأَمَانَتَهُ ، بِلَدِ قَسَنْطِينَةِ عَمْرِهِ
 اللَّهُ ، لِكَوْنِهِ بِحَيْثُ لَا يَنَالُ بِقُدْرَةِ مَخْلُوقٍ ، وَأَيْنَ^٢ يَسْتَعْلَى بِامْتِنَاعِهِ عَلَى
 كُلِّ مَلْحُوظٍ بَعِينَ الْمَحَارِبَةِ أَوْ مَرْمُوقٍ ، وَكَانَتْ جُمْلٌ مِنْ عَسَاكِرِ الْمُوَحِّدِينَ
 حِينَ اخْتِلَالِ الْجُمْلَةِ الْمَذْكُورَةِ فِيهِ ، وَاعْتِدَادِهِمْ فِي عِدَادِ مَنْ يَحْيُوهُ وَيُؤْوِيهِ ،
 بِجِهَةِ الْقَلْعَةِ حَرَسَهَا اللَّهُ عَلَى إِثْرِ فَتْحِهَا الْمَيْسَرِ ، وَنَيْلِ أَجْرِهَا عَلَى الْوَجْهِ
 الْمُنْتَخَيَّرِ ، فَأَنْهَضَ مِنْهُمْ بِعَوْنِ اللَّهِ إِلَى تِلْكَ الْجِهَةِ مِنْ رُجِي الْخَيْرِ فِي إِنْهَاضِهِ ،
 وَحُضَّ عَلَى خِدْمَةِ هَذَا الْأَمْرِ وَأَغْرَاضِهِ ، فَحِينَ أَلَمَ النَّاهِضُونَ الْمَذْكُورُونَ
 وَفَقَّهَهُمُ اللَّهُ بِجِهَاتِ قَسَنْطِينَةِ خَرَسَهَا اللَّهُ ، فَتِيحَ لَهُمُ الْفَتْحُ الَّذِي تَقْدَّمُ إِلَيْكُمْ
 بَيَانُ الْقَوْلِ فِيهِ وَاعْرَافُهُ ، وَأُورِدَ عَلَيْكُمْ إِبْدَاعُ الْقَدَرِ فِي تَقْرِيْبِهِ وَاعْرَافِهِ ،
 وَعَلِمْتُمْ كَيْفَ انْهَزِمَتْ لَهُ جُمُوعُ الضَّلَالِ وَأَحْزَابُهُ ، وَحَلَّ الْمُوَحِّدُونَ

١ - يَعْنِي صَاحِبَ مَمْلَكَةِ بِيحَايَةِ الَّتِي اكْتَسَحَهَا عَبْدُ الْمُؤْمِنِ فِي جُمْلَةِ مَا اكْتَسَحَ مِنْ
 بِلَادِ الشِّمَالِ الْإِفْرِيقِيِّ .

٢ - أَيْنَ هَذِهِ ، مَعْطُوفَةٌ عَلَى بَحِثِ قَبْلِهَا .

هناك وفقهم الله بساحة ذلك القطر وثره ، وغشيه منهم ما غشيه وعراه ،
وما ترك القطا به أن يطعم كراه .

وكان التَّخْيِيمُ الْمَلَاصِقُ ، والتَّدْوِيمُ الْمَرَاهِقُ ، والحق يتجلى ، والنصر
يتولى من إظهار الطائفة العزيزة ما يتولى ، الى أن صرف الله الباب
القوم المذكورين الى قبلة الإصابة ، وأراهم أن النجاة في جانب هذه
العصاة ، والحياة في قرارها الذي هو مقرُّ قرار اليمن والمثابة ،
فاتفق رأيهم على انفاذ جماعة منهم فيهم أخو أبي زكرياء وشيوخ صنهاجة
وقسطنطينة معتصمين بهذه العروة الوثقى ، مُسْتَسْلِمِينَ للأمر الذي لا يُقَابَلُ
بعناد ولا يُلَقَى ، سائلين من التأمين والإبقاء ما يدوم خيره للمحق
السائل ويبقى ، ووصلت الجماعة المذكورة الى هذه الحضرة المحروسة يسعى
أملها بين يديها ، ويُعرِّف القصد عما لديها ، وأنهت ما تحملته من المخاطبة ،
وأتمته لها ولمن وراءها من حسن العاقبة ، فمن الله على جميعهم بتيسير
مطلبهم ، واجمال منقلبهم ، وصدروا الى مُرسَلهم تتهلل أسرتهم ، وتتجمل
بخلل العافية والنعمة الصافية كرتهم ، فأتوا قومهم على تطلع الى بشراهم ،
وتمتع بطيب ذكراهم ، وأعلموهم بالصنع الذي عرفهم تعظيم صنعه الله
وأدراهم ، فرأوا أجمعين أن الله سبحانه سنى لهم بفضله غاية ما طلبوا ،
ورزقهم من حيث لم يحتسبوا ، ووهبهم من إيوان الفضل وقبوله فوق ما
استوهبوا ، حين لم يكن لهم منجى إلا الذي نزحوا عنه وهربوا ،
وفتحوا أبواب المدينة المذكورة عند تيقن الأمر وتحقيقه ، وتعرف سنة
هذا الأمر المبارك وعظيم خلقه ، وخرجوا عن آخرهم فرحين بفضل

الله ورحمته الواسعة ، مُسْتَظِلِّينَ بِظِلَالِ هذه الدعوة المُحِيطَةِ الجامعة ، ودَخَلَ
 القُطْرَ من أَمْنَاءِ الموحدين وُغْزَاتِهِمْ ، وَفَقَّهَهُمُ اللهُ من أَمْرِ بَعْمَارَتِهِ ،
 والاستقرار في قَرَارَتِهِ ، واستقبل أبو زكرياء المذكور وَمَنْ مَعَهُ وفقهم
 الله هذه الجهة حرسها الله على أحسنِ حال وأكرم أقبال ، وأَتَمَّ اللهُ
 نعمته بهذا الفتح المحيط ، والصَّنْعَ المبسوط ، اتماماً بَلَّغَ الآمِلَ غَايَةَ مَأْمُولِهِ ،
 أو السَّائِلَ كَافَّةَ مَسْئُولِهِ ، فذلك القُطْرُ هو الطَّرْفُ الأَعْلَى والِرَابِطُ الأَحَقُّ
 لأَوَّلَى ، ورأسُ الجسد الذي استشبع بعضه بعضاً واستتلى ، وبه
 انعقدت روابطُ هذا الإقليم العظيم وقواعده ، وفقدت ضررَ من كان
 ينوي الضرر فَوَاقِدُهُ ، ومعه تَأَتَّى جَمْعُ شَمْلِهِ وَضَمُّهُ ، وامساكْ شَأْنَهُ
 كُلَّهُ وَعِزُّهُ ، وبه خُتِمَ كِتَابُهُ وَكَرَّمَ الْكِتَابَ خَتْمُهُ ، والله نَسْأَلُ
 بِشُكْرِ هذه النعم المتظاهرة عونا ممدودا ، وحولاً بمَعَاقِدِ المَعُونَةِ الرَّبَّانِيَةِ
 مَعْقُوداً وَقُوَّةَ تَلْقَى مِنْ حَمْدِهَا إِلَى كُلِّ جَدِيدٍ مِنْهَا جَدِيداً بِمَنْنِهِ . والسلام
 عليكم ورحمة الله وبركاته .

توقيعه على رسالة أبي جعفر بن عطية

كان عبد المؤمن قد نَقِمَ على وزيره أبي جعفر افشاءه لسراً أفضى
 إليه به فقبض عليه ثم نكبه وقد صدرت من أبي جعفر إليه رسائل
 استعطاف بليغة يتنصّل فيها من الذنب ويعتذر . فوقع عبد المؤمن على
 إحداها : « الآن وقد عصيت قبلُ وكنتَ من المفسدين » .

رسالة أبي حفص الكهنستاني الى عبد المؤمن بالفتح

في ثورة ابن هود ، وهي من انشاء الوزير ابي جعفر بن عطية

كتابنا هذا من وادي مائة بعد ما تجدد من أمر الله الكريم ، ونصره تعالى المعهود القديم ، (وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم) ، ففتح بهر الأنوار اشراقاً وأحرق بنفوس المؤمنين إحداقاً ، ونبه للأمانى النائمة جفونا وأحداقاً . واستغرق غاية الشكر استغراقاً ، فلا تطيق الالسن لِكُنْه وصفه إدراكاً ولا لحاقاً ، جمع اشتات الطلب والأرب ، وتقلب في النعم أكرم مُنْقَلَب ، وملاً دلاء الأمل الى عقد الكرب^١ .

فتفتح أبواب السماء له وتبرز الأرض في اثوابها القشب

وتقدمت بشارتنا به جملة ، حين لم تعطِ الحال بشرحه مُهْلَةً : كان اولئك الضالون قد بطروا عدوانا وظلماً ، واقتطعوا الكفر معنىً وأسماء ، وأملى الله تعالى لهم ليزدادوا إثماً ، وكان مقدّمهم الشقي قد استمال النفوس بخزعبلاته واستهوى النفوس بمهوالاته ، ونصب له الشيطان من حبالاته ، فأتته المخاطبات من بُعدٍ ومن كُثْب ، ونسّلت إليه الرسل من كل حدب ، واعتقدته الخواطر اعجب عجب . وكان الذي قادهم الى

١ - الكرب جبل يصل ما بين الرشاء والدلو فاذا وصل الماء الى عقده فذلك غاية الامتلاء ، وهذا مثل ..

ذلك ، وأوردَهم تلك المِهَالِك ، وصولُ مَنْ كان بتلك السواحل ممن
ارتسم برسم الانقطاع عن الناس فيما سلف من الأعوام ، واشتغل على
زعمه بالقيام والصيام آناء الليل والأيام ، لبسوا الناموس أثوابا ، وتدرَّعوا
الرياء جلبابا ، فلم يفتح الله تعالى لهم للتوفيق بابا .

ومنها في ذكر الناصر المذكور^١

... فصرَّعَ بحمد الله تعالى لحينه ، وبادرتُ إليه بوادِرُ مَنُونِه ، وأَتَتْه
وافِداتُ الخطايا عن يساره ويمينه ، وقد كان يدَّعي انه بُشِّرَ بأن المنية
في هذه الأعوام لا تُصيبه والنوائب لا تنوبه ، ويقول في سواه قولا
كثيرا ويختلقُ على الله إفكاً وزورا ، فلما رأوا هيئة اضطجاعه ، وما
خطَّته الأسنةُ في أعضائه وأضلاعه ، ونفذ فيه من أمر الله تعالى ما لم
يقدرُوا على استرجاعه ، هُزِمَ من كان لهم من الأحزاب ، وتساقطوا على
وجوههم تساقطَ الذُّباب ، واعطوا على بكرة أبيهم صفحات الرِّقاب ،
ولم تقطر كلُّومهم إلا على الأعقاب فامتلات تلك الجهات باجسادهم ،
وآذنت الآجالُ بانقراض آمادهم ، واخذهم الله تعالى بكُفْرِهِم وفسادِهِم ،
فلم يُعَايِنْ منهم إلا من خرَّ صريعا وسقى الأرض نجيعا ولقي من أمر
الهندِيَّات فظيعا ، ودعت الضرورة باقيهم الى الترامي في الوادي . فَمَنْ

١ - لم نر من ذكرها كلها فاقصرنا على ما ذكره منها .

كان يؤملُ الفرار ويرتجيه ، ويسبحُ طامعا في الخروج الى ما يُنجيه ،
 اختطفته الأسيئةُ اختطافا ، واذاقته موتا زُعافاً ، ومَن لجَّ في الترامي
 على لججه ، ورام البقاء في ثبجه ، قضى عليه شرُّقه ، وألوى بذقنيه
 غرقه ، ودخل الموحدون الى البقية الكائنة فيه يتناولون قتلهم طعناً
 وضرباً ، ويُلقونهم بأمر الله تعالى هولاً عظيماً وكرباً ، حتى انبسطت
 مُراقاةُ الدماء ، على صفحاتِ الماء ، وحكت حمرتها على زُرْقته
 نُحْمرةَ الشفق على زُرْقَةِ السماء ، وجرت العبرةُ للمعتبر ، في جري ذلك الدم
 جري الأبحر .

توقيع المنصور الموحي على كتاب الفونش

كان المنصور الموحي حسنَ التوقيع جدا يضرب به المثل في ذلك
 وكتب إليه الفونش حين كان يستعدُّ لغزوة الأرك الشهيرة يتوعدده
 ويهدده ويطلب إليه أن يبعث بقطع من اسطوله ليحوزَ هو الى محاربه
 في عُقر داره ويكفيه مؤونة الحركة فلما وصل كتابه الى المنصور مزَّقه
 وكتب على ظهر قطعة منه « إرْجِعْ إليهم فلنأتينهم بجنود لا قبلَ لهم بها
 ولنُخرِجنهم منها أذلةً وهم صاغِرُن » ثم كتب « الجوابُ ما ترى لا ما
 تسمع » وانشد متمثلاً :

ولا كُتِبَ إِلَّا الْمَشْرِفِيَّةُ وَالْقَنَا ولا رُسُلٌ إِلَّا الْخَمِيسُ الْعَرَمَرَمُ^١

١ — البيت للمتنبي ، والمشرقية السيوف والقنا الرماح والخميس العرمرم الجيش الكثيف

توقيع آخر له

طلب يوماً من قاضيه ان يختار له رُجُلَيْنِ لِعَرْضَيْنِ من تعليم ولد
وَضَبْطِ أمرٍ فَعَرَّفَهُ برُجُلَيْنِ قال في أحدهما : هو بَحْرٌ في عِلْمِهِ وقال في
الآخر : هو بَرٌّ في دِينِهِ . ولَمَّا خَرَجَ المنصور احضرهُما واختبرهُما فقَصَّرا
بين يَدَيْهِ واكذبا الدعوى فوقَّع المنصور على رُقْعَةِ القاضي « اعوذُ بالله
من الشيطان الرَّجِيمِ ، ظَهَرَ الفسادُ في البرِّ والبحرِ »

رسالة للمأمون الموحي من انشائه

في الاعلان بابطال دَعْوَى المهدي وعِصْمَتِهِ

من عيّد الله ادريس أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين
الى الطلبة والاعيان والكافة ، ومَن معهم من المؤمنين والمسلمين ، أَوْزَعَهُم
الله شُكْرَ نِعْمَةِ الجِسام ، ولا أعدَمَهُم طلاقَةَ أَوْجِهِهِ الأيامِ الوَسَامِ ،
وإنَّا كتبناه اليكم كتب الله لكم عَمَلًا مُنْقَادًا ، وسعدًا وَقَادًا ، وخاطرًا سَلِيمًا ،
لا يزال على الطاعة مُقِيمًا ، من مرا كَش كَلَامِها الله تعالى وللحق لسان
ساطع ، وحكم قاطع ، وقضاء لا يُرَدُّ ، وباب لا يُسَدُّ ، وظلال على
الآفاق ، تمحو النفاق ، والذي نوصيكم به تقوى الله والاستعانةُ به ،
والتوكلُ عليه ، ولتعلموا أننا نبذنا الباطل وأظهرنا الحق ، وأن لا مهديّ

إلا عيسى بن مريم ، الناطق بالصدق ، وتلك بدعة قد أزلناها ، والله يُعِينُنَا عَلَى الْقِلَادَةِ الَّتِي تَقَلَّدْنَاهَا ، كَمَا أَزَلْنَا لَفْظَ الْعِصْمَةِ عَمَّنْ لَا تَثْبُتُ لَهُ عِصْمَةٌ ، وَأَسْقَطْنَا عَنْهُ وَصْفَهُ وَرُسْمَهُ ، وَقَدْ كَانَ سَيِّدُنَا الْمَنْصُورُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ^١ هَمٌّ أَنْ يَصْدَعَ بِمَا بِهِ الْآنَ صَدْعُنَا ، وَأَنْ يَرْقَعَ لِلْأُمَّةِ الْخَرْقَ الَّذِي رَقَعْنَا ، فَلَمْ يَسَاعِدْهُ لَذَلِكَ أَمْلُهُ ، وَلَا أَجَلُهُ إِلَيْهِ أَجَلُهُ ، فَقَدِمَ عَلَى رَبِّهِ بِصَدَقِ نِيَّةٍ ، وَخَالِصِ طَوِيَّةٍ ، وَإِذَا كَانَتِ الْعِصْمَةُ لَمْ تَثْبُتْ عِنْدَ الْعُلَمَاءِ لِلصَّحَابَةِ ، فَمَا الظَّنُّ بِمَنْ لَا يَدْرِي بِأَيِّ يَدٍ يَأْخُذُ كِتَابَهُ ، أَفَّ لَهُمْ قَدْ ضَلُّوا وَأَضَلُّوا ، وَسَقَطُوا فِي ذَلِكَ وَزَلُّوا ، اللَّهُمَّ اشْهَدْ أَنَّنَا تَبَرَّأْنَا مِنْهُمْ تَبَرُّاً أَهْلُ الْجَنَّةِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ ، وَنَعُوذُ بِكَ مِنْ أَمْرِهِمُ الرَّئِثِ ، وَفِعْلِهِمُ الْخَبِيثِ ، لِأَنَّهُمْ فِي الْمَعْتَقِدِ كُفَّارٌ ، وَالسَّلَامُ عَلَى مَنْ اتَّبَعَ الْهَدَى وَاسْتَقَامَ .

رسالة أخرى له من انشائه أيضا

في توبيخ أهل أندُوجر^٢ على تخلفهم عن قتال العدو

إلى أهل الجماعة والكافة من فلانة ، وقاهم الله عثراتِ الألسنة ، وأرشدهم إلى نحو السيئة بالحسنة .

أما بعد ، فإنه قد وصل من قبلكم كتاب وجه لكم أسهم الانتقاد ،

١ - يعني والده المنصور الموحيدي .

٢ - مدينة صغيرة بناحية قرطبة .

من جميع الأشهاد ، ورماكم بالدهية الدهياء ، والداء العياء ، أتعذرون
 من المجال بضغف الحال ، وقلة الرجال ، لنلحقكم بربات المجال ، كأننا
 لا نعرف مناحي أقوالكم ، وسوء تقلبكم في أحوالكم ، لا جرم
 أنكم سمعتم بالعدو قصمه الله ، وقصده ذلك الموضع عصمه الله ،
 فطاشت قلوبكم خوراً ، وعاد صفوكم كدرأ وشممتم ريح الموت وردأ
 وصدرا ، وظننتم أنكم أحيط بكم من كل الجوانب ، وأن الفضاء قد
 غصّ بالتفاف القنا ، واصطفاف المقائب ، ورأيتم غير شيء فحسبتموه
 طلائع الكتائب ، تبأ لهممكم المنحطة ، وشيمكم الراضية بأذون
 خطة ، أحين ندبتم الى حماية اخوانكم ، والذب عن كلمة ايمانكم ،
 نسقتم الأقوال وهي مكذوبة ، ولفقتم الأعذار وهي بالباطل مشوبة ،
 لقد آن لكم أن تبدلوا حمل الخرصان ، بمغازل النسوان ، فما لكم
 ولصهوات الخيول وانما على الغانيات جرّ الذبول^١ ، أظهرون العناد
 تصريحاً وتلويحاً وتظنون أنكم اذا تفرقتم لا تجمع لكم شتاتاً ولا ندني
 منكم نزوحاً ، أين المفرّ وأمر الله يدرككم ، وطلبنا الحثيث لا يترككم ،
 فأميطوا هذه النزعة النفاقية عن خواطركم قبل أن نمحو بالسيف أقوالكم

١ - هذا مأخوذ من قول المتنبي :

وضاقت الأرض حتى كان هاربهم اذا رأى غير شيء ظنه رجلاً

٢ - هو من قول عمر بن أبي ربيعة :

كتب القتل والقتال علينا وعلى الغانيات جر الذبول

وأفعالكم ، ونستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم ، ونحن نُقسِمُ
 بالله لو اعتسفتم كلَّ بیداءَ سَمَلَقٍ^١ واعتصمتم بأمنع معقل وأحفل فَيْلَقٍ،
 ما وَنينا عنكم زمانا ، ولا ثَنينا عن استئصالكم عِنانا ، فلا يغرَّكم
 الامهال ، أيها الجهال ، فأدواء الأهواء بالسيف تنحيم ، واذا رأيتم
 نيوبَ الليث بارزةً فلا تظنون أن الليث يبتسم ، فان كفاكم صريرُ الأقلام
 وإلا شفاكم طريرُ الحسام ، والسلام ، على من استقام .

توقيع له

رفعت امرأة اليه رقعةً تشكو فيها بجندي نزل دارها وآذاها فوق
 عليها : « يُخْرِجُ هذا النازل ولا يُعوِّضُ بشيءٍ من المنازل » .

رسالة للأمير سليمان الموحي من انشائه

الى ملك السودان ينكر عليه تعويق التجار

نحن نتجاوز بالإحسان ، وان تخالفنا في الأديان ، وتتفق على السيرة
 المرضية ، ونتألف على الرفق بالرعية . ومعلوم أن العدل من لوازم الملوك
 في حكم السياسة الفاضلة ، والجور لا تُعانيه الا النفوس الشريرة الجاهلة ،
 وقد بلغنا احتباسُ مساكين التجار ومنعهم من التصرف فيما هم بصدده ،

١ - السملق : الأرض المطمئنة المستوية .

وتردّد الجلاّبة الى البلد مفيد لسكانها ومعين على التمكين من استيطانها ،
ولو شئنا لاخْتَبَسْنَا مَنْ فِي جَهْتِنَا من أهل تلك الناحية ، لكنّا لا
نستصوبُ فعله ، ولا ينبغي أن ننهى عن خلق ونأتي مثله ، والسلام .

توقيع له

وقّع الى عاملٍ له كثرت الشكاوى منه « قد كثرت فيك الأقوال ،
وأعضائي عنك رجاءً أن تتيقظ فتتصليح الحال ، وفي مبادرتي الى ظهور
الانكار عليك نسبةً الى شر الاختيار ، وعدم الاختبار . فاحذر فانك
على شفا جُرْفٍ هار » .

كتاب السلطان ابي الحسن المريني الى الملك الناصر محمد بن قلاوون
صاحب مصر ، في شأن ركّب الحاج المغربي والمصحف الذي
خطّه بيده ووقفه على الحرم النبوي الشريف

من عبد الله علي امير المسلمين ، ناصر الدين ، المجاهد في سبيل رب العالمين ،
ملك البرّين ، مالك العدوّتين^١ ، ابن مولانا أمير المسلمين ، المجاهد في
سبيل رب العالمين ، ملك البرّين ، وسلطان العدوّتين ، ابي سعيد ابن
مولانا امير المسلمين ، المجاهد في سبيل رب العالمين ، ملك البرين ،

١ - يعني بالبرين المغرب الأقصى والأدنى وبالعدوتين المغرب والأندلس :

وسلطان العدو تين ابي يوسف يعقوب بن عبد الحق ، منح الله التأييد مقامه ، وفسح لفتح معاقل الكفر وكسر جحافل الصفر ايامه .

الى السلطان الجليل الكبير الشهير العادل الفاضل الكامل الكافل الملك الناصر المجاهد المرباط المؤيد المنصور الأسعد الأصعد الأرقى الأوفى الأمجد الأنجد الأفخم الأضخم الأوحيد الأوفى ناصر الدين عاضد كلمة المسلمين ، نُحْيِي العَدْل في العالمين ، فاتح الامصار ، حائز ملك الاقطار مفيد الاوطار ، مبيد الكفار ، هازم جيوش الأرمن والفرنج والكُرُج والتتار ، خادم الحرمين غيثُ العُفاة غوثُ العُنُاة مُصرِّفُ الكتائب مُشرِّفُ المواكب ، ناصر الاسلام ، ناشر الاعلام ، فخر الانام ، ذخر الايام ، قائد الجنود ، عاقد البنود ، حافظ الثغور ، حائط الجمهور ، حامي كلمة الموحدين ابي المعالي محمد بن السلطان الجليل الكبير الشهير الخطير العادل الفاضل الكافل الكامل الحافظ الحافل المؤيد المكرم المبجل المكبر الموقر المعزَّر المعزَّز المجاهد المرباط المشاغر الأوحيد الأسعد الأصعد الأوفى الأفخم الأضخم المقدس المرحوم الملك المنصور سيف الدنيا والدين ، قَسِيم امير المؤمنين ، ابقى الله مُلكه موصول الصولة والافتدار ، نَحْيِي الحُوْزة حاميا للديار ، حميد المآثر الماثورة والآثار ، عزيز الاولياء في كل موطن والانصار ، سلام كريم ، ذاك عميم ، تشرق إشراقَ النهار صفحاته ، وتعبق عن شذا الروض المعطار نفحاته ، ينخص إخاءكم العلي ، ورحمة الله وبركاته .

اما بعد حمد الله الذي وسع العباد مَنّا جسيما وفضلا جزيلا ، والهمهم
الرشاد بان ابدى لهم من آثار قدرته ، على مقدار وحدته ، برهاننا واضحا
ودليلا ، وألزم أمة الإسلام ، حجج بيته الحرام ، من استطاع إليه
سيلا ، وجعل تعظيم شعائره من تقوى القلوب ، ومَثَابَاتٍ مَحَطَّ
الأوزار والذنوب فما أَجْزَلَ نعمته منيلا ، وأجملَ رحمته ربه مَقِيلا .
والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد المصطفى من افضل العرب
فَصِيلَةٍ ، في اكل بقاع الأرض فضيلة ، واکرمها جُمْلَةً وتفصيلا ، المُجْتَبَى
لختم الرسالة ، وحسب ادواء الضلالة ، فأحسب الله به النبوة تكميما والرسالة
تكميلا ، المخصوص بالحوض المورود ، والمقام المحمود ، يوم يقول
الظالم (يا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ،) المَبُوءُ من دار هجرته ،
ومَقَرَّ نُصْرَتِهِ ، محلا ما بينه وبين منبره فيه روضة من رياض الجنة لم
يَزَلْ بها نَزِيلًا^١ ، والرَضَى عن آله الابرار ، واصحابه الاخيار ، الذين
فَضَّلْتَهُمْ سَابِقَةَ السَّعَادَةِ تَفْضِيلًا ، وأمهلتهم العناية بأمر الدين إلى أن يُوسِعُوا
الاحكام برهاننا ودليلا ، فَإِنَّا نُحِيطُ عِلْمَ الإِخَاءِ الْاعَزَّ مَا كَانَ مِنْ عَزَمِ
مولاتنا الوالدة قدس الله روحها ونور ضريحها ، على اداء فريضة الحج
الواجبة ، وتَوْفِيَّتِهِ مَنَاسِكَهِ اللَّازِمَةِ فَاعْتَرَضَ الْحَمَامُ ، دون ذلك المَرَامِ ،
وعاقَ الْقَدَرُ ، عن بلوغ ذلك الوطر ؛ فَطَوَّيْ كِتَابَهَا ، وَعُجِّلْ إِلَى مَقَرِّ

١ - أحسبه أعطاه فأكثر .

٢ - فيه اشارة الى الحديث : ما بين قبري ومنبري روضة من رياض الجنة .

الرحمة بفضل الله مثأبها ، وعلى الله اجرها ، وعنده يُحتسب ذُخْرُها ،
وان لدينا من نوجبُ اعظاَمها ، ونقيمها بحكم البرِّ مقامها ، وعزُمها الى
ما أملتُه مصروف ، وأملها الى ما كانت أملتُه موقوف ، وهي محلّ والدتنا
المكرّمة المبرورة الأثيرة الموقرة المبجلة المفضلة المعززة المعززة المعظمة
المطهرة أسنى الله مكانتها ، وسنّى من هذا القصد الشريف لبائنتها ، وقد
شيّعناها الى حج بيت الله الحرام ، والمشول بحول الله تعالى ما بين زمزم
والمقام ، والفوز من السلام على ضريح الرسالة ، ومثابة الجلالة ، بنيل
السؤل والمرام ، لتظفر بأملها المرغوب وتنفّر بعد اداء فرضها في
كّرم الوجوب .

وحين شخّص لذكلم الغرض الكريم موكبها ، وخلص إلى قصد
الحرم العظيم مذهبها ، والكرامة تلحفها ، والسلامة ان شاء الله تكنفها ،
اصحبناها من حورِ دولتنا وأحظيائِها ، ووجوه دُعوتنا العلية واوليائها ،
مّن اخترناه لهذه الوجهة الحميدة الاثر ، والرحلة السعيدة الورّد ان شاء
الله تعالى والصدّر ، من أعيان بني مَرين اعزهم الله تعالى والعرب ،
واولاد المشائخ اولى الديانة والتقوى المالمين دلاء القرب ، الى عقد
الكرب ، وكل من له اثر مشهورة ، وشهرة بالمزايا الراجحة والسجايا
الصالحة مأثورة ، وقصدُهم من اداء فرض الحج قصدُها ، وورْدُهم ان شاء
الله تعالى من منهل بركاته الجمّة وردّها ، وهكذا سيرنا من تحف هذه
البلاد اليكم ما تيسر في الوقت تسييره وان تعذّر في كثير مما قصدناه

ولهذا الغرض اردناه تيسيره ، إطول المغيّب عن الحضرة ، والشغل بتمهيد البلاد التي فتحها الله عليها في هذه السفرة ، وعيّننا لايرادها لديكم ، وإيفادها عليكم ابا اسحاق ابن الشيخ ابي زكرياء يحيى بن عثمان السويدي ، وامير الركب الحسن بن عمران وغيرهم ، كتب الله سلامتهم ، ويمّن ظعنهم واقامتهم ، ومقام ذلك الاخاء الكريم ، يُسنّي لهم من اليسرى والتسهيل القصد والسؤل ، ويأمر نواب ماله من الممالك ، وقوّام ما بها من المسالك ، لتكمل العناية بهم في الممرّ والقفول ، ومُعظم قصدنا من هذه الوجهة المباركة إيصال المصحف العزيز الذي خطّطناه بيّدنا ، وجعلناه ذخيرة يومنا لغدنا ، الى مسجّد سيدنا ومولانا ، وعصمة ديننا ودياننا ، محمد رسول الله ﷺ بطيبة زادها الله تشريفا ، وأبقى على الايام فخرها منيفا ، رغبة في الثواب ، وحرصاً على الفوز بحظ من اجر التلاوة فيه يوم المئاب. وقد عيّننا بيد محل الوالدة المذكورة فيه ، كرم الله جبهتها ، ويمّن وجهتها ، من المال ما يشتري به في تملككم البلاد المخطوطة من المستغلات ما يكون وفقاً على القرأة فيه ، مؤبدا عليهم وعلى غيرهم من المالكية فوائده ومجانيه . والاخوان المذكور يتلقّى من الرسل المذكورين ما اليهم في هذه الأغراض ألقيناه ، ويأمر باحضارهم لادائهم بالمشافهة ما لديهم أو عيّنناه ، ويوعز باعانتهم على هذا الغرض المطلوب ،

وَيُسِّرْ لَهُمُ اسْبَابَ التَّوَصُّلِ إِلَى الْأَمَلِ وَالْمَرْغُوبِ ، وَشَأْنَهُ الْعَوْنُ عَلَى الْأَعْمَالِ
الصَّالِحَةِ ، وَلَا سِيَّامَا كَانَ مِنْ أَمْثَالِ هَذَا إِلَى مِثْلِ هَذِهِ السَّبِيلِ الْوَاضِحَةِ ،
وَشَكَرُ بَادِرَاتِكُمْ مُوَطِّدُ الْإِسَاسِ ، مُطَرِّدُ الْقِيَاسِ ، مُتَجَدِّدُ مَعَ اللَّحْظَاتِ
وَالْأَنْفَاسِ ، وَاللَّهُ يُصِلُ لِلْإِخَاءِ الْعَالِيَةِ نَظْرَةَ أَيَّامِهِ ، وَيُوَالِي نُصْرَةَ أَعْلَامِهِ ،
وَيُبْقِي الشُّغُورَ الْقَصِيَّةَ ، وَالسَّبِيلَ السَّرِيَّةَ مَنُوطَةً بِنَقْضِهِ وَإِبْرَامِهِ ، مَحُوطَةً
بِمَعَاذَةِ أَسْيَافِهِ وَأَقْلَامِهِ ، وَالسَّلَامَ الْكَرِيمَ الْعَمِيمَ ، يَخْصُ إِخَاءَكُمْ الْأَعَزَّ
وَرَحْمَةَ اللَّهِ وَبَرَكَاتِهِ .

كتابٌ منه إِلَى الْمَلِكِ الصَّالِحِ أَبِي الْفَدَاءِ إسمَاعِيلَ بْنِ مُحَمَّدَ بْنِ قِلَافُونَ
فِي التَّعْزِيَةِ بِوَالِدِهِ وَأَغْرَاضٍ أُخْرَى

مِنْ عِنْدِ أَمِيرِ الْمُسْلِمِينَ ، الْمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ، الْمَنْصُورِ
بِفَضْلِ الْمَتَوَكِّلِ عَلَيْهِ ، الْمَعْتَمِدِ فِي جَمِيعِ أُمُورِهِ لَدَيْهِ ، سُلْطَانِ الْبَرِّينِ ،
حَامِي الْعُدُوتَيْنِ ، مُوَثِّرِ الْمُرَابِطَةِ وَالْمُشَاغِرَةِ مُؤَازِرِ حِزْبِ الْإِسْلَامِ حَقَّ
الْمُؤَازَرَةِ ، نَاصِرِ الْإِسْلَامِ ، مُظَاهِرِ دِينَ الْمَلِكِ الْعَلَامِ ، ابْنِ أَمِيرِ الْمُسْلِمِينَ ،
الْمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ، فَخْرِ السُّلَاطِينِ ، حَامِي حَوْزَةِ الدِّينِ ،
مَلِكِ الْبَرِّينِ ، إِمَامِ الْعُدُوتَيْنِ ، مَهْدٍ الْبِلَادِ ، مَبْدَدٍ شَمْلِ الْأَعْدَادِ ، مَجْنَّدِ
الْجُنُودِ ، الْمَنْصُورِ الرَّاياتِ وَالْبَنُودِ ، مَحَطِّ الرِّحَالِ ، مُبَلِّغِ الْآمَالِ ، أَبِي
سَعِيدِ ابْنِ أَمِيرِ الْمُسْلِمِينَ ، الْمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ، حَسَنَةِ الْإَيَّامِ ،
نَسَامِ الْإِسْلَامِ ، أَبِي الْأَمْلاكِ ، مُشْجِي أَهْلِ الْعِنَادِ وَالْإِشْرَاكِ ، مَانِعِ الْبِلَادِ ،

رافع علم الجهاد ، مُدوِّخ اقطار الكفار ، مُصرِّخ مَن ناداه للانتصار ،
القائم لله باعلاء دين الحق ، ابي يوسف يعقوب بن عبد الحق ، اخلص
الله لوجهه جهاده ، ويسر في قهر عداة الدين مراده . الى محل ولدنا الذي
طلع في افق العلا بدرأ تماً ، وصدع بانوار الفخار فجلى ظلاماً وظلماً ،
وجمع شمل المملكة الناصرية فأعلى منها علماً واحيى رُشماً ، حائط
الحرمين ، القائم بحفظ القبلتين ، باسط الامان ، قابض كف العدوان ،
الجزيل الثوال ، الكفيل تاميله بجياطة النفوس والاموال ، قطب المجد
وسماكه ، حسب الحمد وملاكه ، السلطان الجليل ، الرفيع الاصيل الحافل
العادل الفاضل الكامل الشهير الخطير الاضخم الافخم المصان المؤزر المؤيد
المظفر الملك الصالح ابي الوليد اسماعيل ابن محل اخينا الشهير علاؤه ،
المستطير في الآفاق ثناؤه ، زين الايام والليال ، كمال عين انسان المجد
وانسان عين الكمال ، وارث الدُّوَل ، النافث بصحيح رأيه في عُقود
أهل المَلَل والنَّحَل ، حامي القبلتين بعدله وحسامه ، النامي في حفظ
الحرمين اجر اضلاله بذلك وقيامه ، هازم أحزاب المعاندين وجيوشها ،
هادم الكنائس والبيع فهي خاوية على عروشها ، السلطان الأجل الهام
الأحفل الأفخم الأضخم الفاضل العادل الشهير الكبير ، الرفيع الخطير ،
المجاهد الم رابط ، المُقسِط عدله في الجائر والقاسط ، المؤيد المظفر ،

المنعم المقدس المطهر ، زين السلاطين - ناصر الدنيا والدين ، ابي المعالي محمد ابن الملك الارضى ، الهمام الامضى ، والد السلاطين الاخيار ، عاقد لواء النصر في قهر الأرمن والفرنج والتتار ، محيي رسوم الجهاد ، مُعْلي كلمة الاسلام في البلاد ، جمال الايام ، ثمال الأعلام ، فاتح الأقالم ، صالح ملوك عصره المتقادم ، الامام ، المؤيد ، المنصور المسدد ، قسيم أمير المؤمنين فيما تقلد ، الملك المنصور ، سيف الدنيا والدين قلاوون ، مكن الله له تمكين اوليائه ، ونمى دولته التي أطلعها السعد شمساً في سمائه ، واحسن إيزاعه للشكر أن جعله وارث آبائه .

سلام كريم يُفادح زهر الرُبى مسراه ، ويُنافح نسيم الصبا مجراه ، يصحبه رضوان يدوم ما دامت تُقلُّ الفلك حرّكاته ، ويتولاه رُوح ورِيحان نُحيّيه به رحمة الله وبركاته . أما بعد حمد الله مالك الملك ، جاعل العاقبة للتقوى صدعاً باليقين ودفعاً للشك ، وخاذل من أسرّ النفاق في النجوى فأصرّ على الدّخن والإفك ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد رسوله الذي محى بانوار الهدى ظلم الشّرك ، ونبيه الذي ختم به الانبياء وهو واسطة ذلك السّلك ودعا به حجة الحق فمادت بالكفرة محمولة الأفلak وماجت بهم حاملة الفلك ، وأرضا عن آله وصحبه الذين سلكوا سبيل هُداة فسلك في قلوبهم أجمل السّلك ، وملكوا أَعنة هواهم فلزموا من محبة الصواب انجح السلك وصابروا في جهاد الاعداء ، فزاد خلوصهم مع الابتلاء والذهبُ يزيدُ خلوصاً على السّبك ، والدعاء

لاولياء الإسلام وحمايته الاعلام ، بنصره لمضائه في العدى أعظم الفتك ،
ويُسِرُّ بقضائه دركُ آمال الظهور وَأَجِلُّ بذلك الدرك ، - فكتبناه اليكم
كتب الله لكم رُسوخَ القدم ، وسُبوغَ النعم ، من حضرتنا مدينة فاس
المحروسة وصُنِعُ الله سبحانه يُعرِّفُ مذاهب الألفاف ، ويُكيِّفُ مواهبَ
تلهجُ الالسية في القصور عن شكرها بالاعتراف ، ويُصرِّفُ من أمره
العظيم ، وقضائه المُتَلَقَّى بالتسليم ، ما يتكوّن بين الثون والكاف ،
ومكانكم العتيدُ سلطانه ، وسلطانكم المجيد مكانه وولاؤكم الصحيح
برهانه ، وعلاؤكم الفسيح في مجال الجلال مبدائه - والى هذا زاد الله
سلطانكم تمكيناً ، وافاد مقامكم تحصيلنا وتحسينا ، وسلك بكم من سنن
من خلفتموه سبيلاً مُبيناً . فلا خفاء بما كانت عقدته أيدي التقوى ،
ومهدته الرسائل التي على الصفاء تطوى بيننا وبين والدكم نعم الله روحه
وقدسه ، وبقربه مع الابرار في عليين أنسه ، من مؤاخاة أحكمت منها
العهود تالية الكتب والفايحة ، وحفظ عليها محكم الاخلاص معوداتها
الحبة والنية الصالحة ، فانعقدت على التقوى والرضوان ، واعتضدت
بتعارف الأرواح عند تنازح الابدان ، حتى استحكمت وُصلة الولاء ،
والتأمت كلحمة النسب لحمة الإخاء فما كان إلا وشيكاً من الزمان ،
ولا عجب قصر زمن الوصلة أن يشكوه الخلان ، وردّ وأردّ أورد رنق
المشارب وحق قول « وَمَنْ يَسْأَلِ الرُّكْبَانَ عَنْ كُلِّ غَائِبٍ »^١ أنبأنا باستئثار

١ - هو شطر بيت للشريف الرضي من قصيدة قالها عند توجهه الحاج ، وتماه
وهو المقصود : فلا بد ان يلقي بشيراً وناعياً .

الله تعالى بنفسه الزكية ، وإكثان دُرَّتِهِ السَّنية ، وانقلابه إلى ما أُعِدَّ له من المنازل الرضوانية بجليـل ما وقر لفقده في الصدور وعظيم ما تأثرت له النفوس لوقوع ذلك المقدور ، حناناً للإسلام بتلك الاقطار ، واشفاقاً من أن يغتور قاصدي بيت الله الحرام من جرّاء الفتن عارض الإضرار، ومساهمة في نصيب الملك الكريم والوصي الحميم .

ثم غميت الأخبار وطويت طي السَّجل الآثار، فلم نر مُخبراً صدقاً ولا مُعلِّماً بمن استقرَّ له ذالكم الملك حقاً ، وفي اثناء ذلك حفزنا للحركة عن حضرتنا استصراخ أهل الاندلس وسلطانها ، وتواتر الأخبار بان النصارى أجمعوا على خراب أوطانها ، ونحن اثناء ذلك الشأن ، نستخير الورد من تلکم البلدان ، عما أجلى عنه ليلُ الفتن بتلکم الاوطان ، فبعد لأي وقعنا منها على الخير وجاءنا بوقاية حرم الله بكم البشير، وتعرفنا أن الملك استقرَّ منكم في نصابه ، وتداركه الله تعالى منكم بفاتح الخير من أبوابه فأطفأ بكم نار الفتنة واخمدّها ، وابرأ من أدواء النفاق ما أعلّ البلاد وافسدّها ، فقام سبيل الحج سائلاً ، وعُبدَ طريقه لمن جاء قاصداً وقافلاً ، ولما احتفت بهذا الخبر القرائن ، وتواترت بنقل الحاضر المعين ، أثار حفظ الاعتقاد البواعث ، والود الصحيح تجرّه حقاً الموارث ، فأصدرنا لكم هذه المخاطبة المتفتنة الأطوار ، الجامعة بين الخبر

والاستخبار ، الملبسة من العزاء والهناء ثوبي الشعار والدثار ، ومثل ذالك
 الملك رضوان الله عليه من تجل المصائب لفقدانه ، وتخل عُرى الاصطبار
 بموته ولات حين أوانه ، لكن الصبر أجل ما ارتداه ذو عقل حصين ،
 والأجر أولى ما اقتناه ذو دين متين ، ومثلكم من لا يخف وقاره ، ولا
 يشف عن ظهور الجزع الحادث اصطباره ، ومن خلفتموه فامات ذكره ،
 ومن قمتم بأمره فما زال بل زاد فخره ، وقد طالت والحمد لله العيشة الراضية
 بالحقب ، وطاب بين مبداه ومحتضره هنيئاً بما من الأجر اكتسب ، وصار
 حميدا الى خير منقلب ، ووفد من كرم الله على أفضل ما منح موقناً ووهاب ،
 فقد ارتضاكم الله بعده لحياطة أرضه المقدسة ، وحماية زوَّار بيته مُقيلة أو
 مُعرّسة ، ونحن بعد بسط هذه التعزية ، نُهنئكم بما خولكم الله أجمل
 التهنئة ، وفي ذات الله الإيراد والإصدار ، وفي مرضاته سبحانه الاضمار
 والإظهار ، فاستقبلوا دولة ألقى العز عليها رواقه ، وعقد الظهور عليها
 نطاقه ، وأعطاه أمان الزمان عهداً وميثاقه ، ونحن على ما عهدنا عليه
 الملك الناصر رضوان الله عليه من عهد موثقة وموالة محققة ، وثنام
 كإيمه عن أذكى من الزهر غب القطر مُفتقة .

ولم يغب عنكم ما كان من بغثنا المصحفين الاكرمين اللذين خطتهما
 منا اليمين وآوت بهما الرغبة من الحرمين الشريفين إلى قرار مكين ، وأنه كان
 لو الدكم الملك الناصر تولاها الله برضوانه ، وأورده موارد إحسانه ، في ذلكم
 من الفعل الجميل والصنع الجليل ، ما ناسب مكانه الرفيع وشاكل فضله

من البرّ الذي لا يضيع ، حتى طبّق فعله الآفاق ذكرا ، وطوّق أعناق
الورّاد والقُصّاد برا ، وكان من أجمل ما به تحفّي واتحف وأعظم ما
يعرفه الملك العلام به في ذلك تعرّف ، إذنه للمتوجهين إذ ذاك في شراء
رباعٍ تُوَقّف على المصحفين ، ورسم المراسم المباركة بتحرير ذلك الوقف
مع اختلاف الجديدين ، فجرت أحوالُ القراءَ فيهما بذلك الخراج
المستفاد ، ريثما يصلّهم من خراج ما وقّفناه عليهم بهذه البلاد ، على ما رسمه
رحمه الله من عناية بهم مُتّصلة ، واحترام في تلك الأوقاف فوائدها به
متوفرة متحصّلة ، وقد أمرنا مُؤدّي هذا لكمكم ومُوفّده على جلالكم
كاتبنا الأسنى الفقيه الأجل الأحظى الأكمل ، أبا المجد ابن كاتبنا الشيخ
الفقيه الأجل الحاج الأتقى الأرضى الأفضّل الأحظى الأكمل المرحوم
أبي عبد الله بن أبي مدين حفظ الله عليه رُتبته ، ويسّر في قصد البيت
الحرام بُغيته ، بأن يتفقد أحوال تلك الاوقاف ، ويتعرّف تصرف
الناظر عليها وما فعله من سداد وإسراف ، وأن يتخيّر لها من يُرّضى
لذلك ، ويُحمد تصرفه فيما هنالك ، وخاطبنا سلطانكم في هذا الشأن ، جريا
على الود الثابت الاركان ، واعلاما بما لوالدكم رحمه الله تعالى في ذلك من
الافعال الحسان ، وكما لكم يقتضي تخليد ذلكم البرّ الجميل ، وتجديد
عمل ذلكم الملك الجليل ، وتشديد ما اشتمل عليه من الثراء الاصيل ،
والاجر الجزيل ، والتقدم بالاذن السلطاني في إعانة هذا الوافد بهذا الكتاب ،
على ما يتوخاه في ذلك الشأن من طرق الصواب ، وثناؤنا عليكم اثناء الذي

يُفَاوِرِحَ زَهَرَ الرَّبِّي ، وَيَطَارِحُ نَعَمَ حَمَامِ الْإِيكَ مُطَرَّبًا .

وَبِحَسَبِ الْمَصَافَاةِ ، وَمَقْتَضَى الْمَوَالَاةِ نَشْرَحُ لَكُمْ الْمَتَزَايِدَاتِ بِهَذِهِ
الْجِهَاتِ ، وَنَذْبِثُكُمْ بِمَوْجِبِ إِطَاءِ انْفَاذِ هَذَا الْخُطَابِ عَلَى ذَلِكَمُ الْجَنَابِ ،
وَذَلِكَ أَنَّهُ لَمَّا وَصَلْنَا مِنَ الْأَنْدَلُسِ الصَّرِيخِ ، وَنَادَى مِنَّا لِلْجِهَادِ عَزْمًا لِمِثْلِ
نِدَائِهِ يُصَيِّخُ ، انْبَأْنَا أَنَّ الْكُفَارَ قَدْ جَمَعُوا أَحْزَابَهُمْ مِنْ كُلِّ صَوْبٍ ،
وَفَرَضَ عَلَيْهِمْ بَابَهُمُ اللَّعِينِ التَّنَاصُرَ مِنْ كُلِّ أَوْبٍ وَأَنْ تَقْصِدَ طَوَائِفُهُمُ الْبِلَادَ
الْإِسْلَامِيَّةَ بِإِيْجَافِهَا ، وَتَنْقُصَ بِالْمَنَازِلَةِ أَرْضَهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ، لِيَمْحُوا كَلِمَةَ
الْإِسْلَامِ مِنْهَا وَيُقْلَصُوا ظِلَ الْإِيْمَانِ عَنْهَا ، فَقَدَّمْنَا مِنْ يَشْتَغِلُ بِالْإِسْطِيلِ
مِنَ الْقَوَادِ ، وَسَرَّعْنَا عَلَى إِثْرِهِمْ إِلَى سَبْتَةِ مُنْتَهَى الْغَرْبِ الْأَقْصَى وَبَابِ الْجِهَادِ ،
فَمَا وَصَلْنَاهَا إِلَّا وَقَدْ أَخَذَ أَخَذَهُ الْعَدُوُّ الْكُفُورَ ، وَسَدَّتْ أَجْفَانُ
الطَّوَاغِيَةِ مَجَازَ الْعُبُورِ ، وَأَتَوْا مِنْ أَجْفَانِهِمْ بِمَا لَا يُحْصَى عَدْدًا ، وَأَرْصَدُوهَا
بِمَجْمَعِ الْبَحْرَيْنِ حَيْثُ الْمَجَازُ إِلَى دَفْعِ الْعَدَا ، وَتَقَلَّصُوا عَنِ الْإِنْبِسَاطِ فِي
الْبِلَادِ ، وَاجْتَمَعُوا إِلَى الْجَزِيرَةِ الْخَضْرَاءِ - أَعَادَهَا اللَّهُ - بِكُلِّ مَنْ جَمَعُوهُ
مِنَ الْأَعَادِ ، لَا كُنَّا مَعَ انْسِدَادِ تِلْكَ السَّيْلِ ، وَعَدَمِ أُمُورِ نَسْتَعِينُ بِهَا
فِي ذَلِكَمُ الْعَمَلِ الْجَلِيلِ ، حَاوَلْنَا إِمدَادَ تِلْكَمُ الْبِلَادِ بِحَسَبِ الْجُهْدِ ،
وَأُصْرَ خَنَاهُمْ بِمَا أَمَكُنْ مِنَ الْجُنْدِ ، وَجَهَّزْنَا أَجْفَانًا مُخْتَلِسِينَ فُرْصَةَ الْإِجَازَةِ ،
تَتَرَدَّدُ عَلَى خُطَرٍ جُهِزَ لِلْجِهَادِ جِهَازُهُ ، وَأَمَرْنَا بِالصَّائِحِبِ الْأَنْدَلُسِيِّ مِنَ الْمَالِ ،
بِمَا يَجْهَزُ بِهِ حُرُوكَتَهُ لِمَدَانَةِ مَحَلَّةِ حَزْبِ الضَّلَالِ ، وَاجْرَيْنَا لَهُ وَلِجَيْشِهِ
الْعَطَاءَ الْجَزْلَ مُشَاهِرَةً ، وَأَرْضَخْنَا لَهُمْ مِنَ النَّوَالِ مَا نَرْجُو بِهِ ثَوَابَ

الآخرة ، وجعلت أجفاننا تتردد في ميناء السواحل وتلج أبواب الخوف العاجل لإحراز الأمن الآجل ، مشحونةً بالعُدَد الموفورة والأبطال المشهورة ، والخيَل المُسوَّمة ، والاقوات المُقومة ، فمن نَاجٍ حارب دونه الآجل ، وشهيدٍ مضى عند الله عز وجل ، وما زالت الأجفانُ تتردد على ذلك الخطر ، حتى تَلِفَ منها سبع وستون قطعةً غزويّةً أجزأها عند الله يُدّخر ، ثم لم نقنع بهذا العمل في الإمداد ، فبعثنا أحدَ أولادنا اسعدهم الله مساهمةً به لأهل تلك البلاد ، فَلَقِيَ من هول البحر وارتجاجه ، والحاح العدو ولجّاجه ، ما به الأمثال تُضرب وبمثله يتحدّث ويُستغرب ، ولما خلص لتلك العُدوة بمن أبقتّه الشدائد ، نزل بازاء الكافر الجاحد ، حتى كان منه بفرسخين أو أدنى . وقد ضرب بعطن يُصاح العدو ويُماسيه بحرب بها يُمنى ، وقد كان من مددنا بالجزيرة جيش شريّة شرارته ، وقويّت في الحرب إرادته ، يُبلون البلاء الاصدق ، ولا يُبالون بالعدو وهم منه كالشامة البيضاء في البعير الأورق ، إلا أن المطاوعة بحصارها في البحر مدة ثلاثة أعوام ونصف ، ومنازلتها في البر نحو عامين معقوداً عليها الصّف بالصف ، أدّى الى فناء الاقوات في البلد ، حتى لم يبق لاهليه قوت شهر مع انقطاع المدد ، وبه من الخلق ما يُربي على عشرة آلاف دون الحرم والوند ، فكتب اليّنا سلطان الأندلس يرغب في الأذن له في عقد الصلح ، ووقع الاتفاق على أنه لاستخلاص المسلمين من وجوه النجح ، فاذننا له فيه الأذن العام ، إذ في إصرّاحه وإصرّاخ من بقطره من المسلمين

تَوَخَّيْنَا ذَلِكَ الْمَرَامَ ، هُنَالِكَ دُعِيَ النَّصَارَى إِلَى السَّلَامِ فَاسْتَجَابُوا ، وَقَدْ كَانُوا
عَلِمُوا فَنَاءَ الْأَقْوَاتِ وَمَا اسْتَرَابُوا ، فَتَمَّ الصَّلْحُ إِلَى عَشْرِ سِنِينَ ، وَخَرَجَ
مَنْ بِهَا مِنْ فَرَسَانٍ وَرِجَالٍ وَأَهْلٍ وَبَنِينَ ، وَلَا رُزْءٌ وَلَا مَالٌ وَلَا عُدَّةٌ ، وَلَا
لَقُوا فِي خُرُوجِهِمْ غَيْرَ النَّزُوحِ عَنْ أَوَّلِ أَرْضِ مَسِّ الْجِلْدِ تُرَابُهَا شِدَّةٌ ،
وَوَصَلُوا إِلَيْنَا فَاجْزَلْنَا لَهُمُ الْعَطَاءَ ، وَاسْلَيْنَاهُمْ عَمَّا جَرَى بِالْحَيَاءِ ، فَمَنْ
خَيْلٍ تَزِيدُ عَلَى الْأَلْفِ عِتَاقُهَا ، وَخَلَعَ تُرْبِي عَلَى عَشْرَةِ آلَافٍ اطْوَأُهَا ،
وَأَمْوَالٍ عَمَّتِ الْغَنَى وَالْفَقِيرَ ، وَرِعَايَةٍ شَمِلَتْ الْجَمِيعَ بِالْعَيْشِ النَّضِيرِ ،
وَكَفَّ اللَّهُ ضُرَّ الطَّوَاغِيتِ عَمَّا عَدَاهَا ، وَمَا انْقَلَبُوا بِغَيْرِ مَدْرَةٍ عَفَا
رِسْمُهَا وَصَمَّ صَدَاهَا .

وَقَدْ كَانَ مِنْ لُطْفِ اللَّهِ حِينَ قَضَى بِأَخْذِ هَذَا الثَّغْرِ ، أَنْ قَدَّرَ لَنَا
فَتْحَ جَبَلِ طَارِقٍ مِنْ أَيْدِي الْكُفْرِ ، وَهُوَ الْمَطْلُ عَلَى هَذِهِ الْمَدْرَةِ ، وَالْفُرْصَةُ
مِنْهُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى مُتَيَّسِرَةٌ ، حَتَّى يُفَرِّقَ عَقْدَ الْكُفَارِ ، وَيُفْرَجَ بِهِذِهِ
الْجَهَةِ مِنْهُمْ مُجَاوِرُوا هَذِهِ الْأَقْطَارِ ، فَلَوْلَا إِجْلَائُهُمْ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ ، وَكَوْنُهُمْ
سَدُّوا مَسْلَكَ الْعُبُورِ بِمَا لَجِمِعُهُمْ مِنَ الْأَجْفَانِ وَالْمَرَائِبِ ، لَمَا بَالَيْنَا بِإِصْفَاقِهِمْ
وَلَحَلْلِنَا بِعَوْنِ اللَّهِ عَقْدَ اتِّفَاقِهِمْ ، وَلَكِنْ لِلْمَوَانِعِ أَحْكَامٌ ، وَلَا رَادَّ لِمَا جَرَتْ
بِهِ الْأَقْلَامُ ، وَقَدْ أَمَرْنَا لَذَلِكَ الثَّغْرَ بِمَا يَزِيدُ بِهِ الْمَدَدَ ، وَتَخَيَّرْنَا لَهُ وَلِسَانًا

تلك البلاد العُدَدَ والعَدَدَ ، وُعِدْنَا لحضرتنا فاس لتستريح الجيوش من وُعْثاء السفر ، ونَرْتَبِطُ الجِيَادَ وَنَنْتَخِبُ العُدَدَ لوقت الظهور المنتظر ، ونَكُونُ على أَهْبَةِ الجِهَادِ ، وعلى مَرْقَبَةِ الْفُرْصَةِ عند تمكّنها في الاعاد ، وعند عودنا من تلك المَحَاوَلَةِ ، نُيسِّرُ الركب الحجازي مُوجِّهاً إِلَى هُنَاكُمْ رَوَاحِلَهُ ، فاصدَرْنَا إِلَيْكُمْ هَذَا الْخُطَابَ ، إِصْدَارَ الْوَدِّ الْخَالِصِ وَالْحُبِّ اللَّبَّابِ ، وَعِنْدَنَا لَكُمْ مَا عِنْدَ أَحْنَى الْآبَاءِ ، وَاعْتِقَادُنَا فِيكُمْ فِي ذَاتِ اللَّهِ لَا يَخْشَى جَدِيدَهُ مِنَ الْبَلَاءِ ، وَمَا لَكُمْ مِنْ غَرَضٍ بِهَذِهِ الْأَنْحَاءِ ، فَمُؤَفِّقِي قَصْدُهُ عَلَى أَكْمَلِ الْأَهْوَاءِ ، مُوَالِيٍّ تَتِمُّيمُهُ عَلَى أَجْمَلِ الْأَرَاءِ ، وَالْبِلَادِ بِاتِّحَادِ الْوَدِّ مُتَّحِدَةٍ ، وَالْقُلُوبِ وَالْأَيْدِي عَلَى مَا فِيهِ مَرْضَاةُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ مُنْعَقِدَةٍ ، جَعَلَ اللَّهُ ذَلِكُمْ خَالِصًا لِرَبِّ الْعِبَادِ ، مَذْخُورًا لِيَوْمِ الثَّنَادِ ، مَسْطُورًا فِي الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ يَوْمَ الْمَعَادِ ، بِمَنِّهِ وَفَضْلِهِ وَهُوَ سَبِّحَانَهُ يَصِلُ إِلَيْكُمْ سَعْدًا تَتَفَاخَرُ بِهِ سُعُودُ الْكُوَاكِبِ ، وَتَتَضَافَرُ عَلَى الْإِنْقِيَادِ لَهُ صُدُورُ الْمَوَاكِبِ ، وَتَتَقَاصِرُ عَنْ نِيلِ نَجْدِهِ مُتَطَاوِلَاتُ الْمَنَاسِكِ وَالسَّلَامِ الْإِتِمُّ يَخْصُكُمْ كَثِيرًا أَثِيرًا وَرَحْمَةً اللَّهُ وَبَرَكَاتُهُ .

كتاب السلطان ابي سعيد المرويني الاصغر الى الملك الناصر فرج بن برقوق

يعلمه باستعداداه لمناصرته على العدو المهاجم

من عبد الله وولّيه عثمان امير المسلمين المجاهد في سبيل رب العالمين ،
سلطان الإسلام والمسلمين ، ناشر بساط العدل في العالمين ، المقتدي بآثار

آبائه الكرام ، الْمُقْتَفِي سُنَّتِهِم الْحَمِيدَة فِي نَصْرَةِ الْإِسْلَام ، الْمُعْمِل نَفْسَهُ
 الْعَزِيزَة فِي التَّهْمَم بِمَا قَلَّدَهُ اللَّهُ مِنْ أُمُور عِبَادِهِ ، وَحَيَاةٍ ثَغُورِهِ وَبِلَادِهِ ،
 سَيْفِ اللَّهِ الْمَسْلُوكِ عَلَى أَعْدَائِهِ ، الْمُنْتَشِرِ عَدْلُهُ عَلَى أَقْطَارِ الْمَعْمُورِ وَأَنْحَايِهِ ،
 ظَلَّ اللَّهُ تَعَالَى فِي أَرْضِهِ ، الْقَائِمِ بِسُنَّتِهِ وَفَرْضِهِ ، عِمَادِ الدُّنْيَا وَالْدِّينِ عِلْمِ
 الْأَيْمَةِ الْمُهْتَدِينَ ، ابْنِ مَوْلَانَا السُّلْطَانِ الْمُظَفَّرِ الْخَلِيفَةِ الْإِمَامِ مَلِكِ الْمُلُوكِ
 الْأَعْلَامِ ، فَاتِحِ الْبُلْدَانِ وَالْأَقْطَارِ ، مَهْدِ الْأَقَالِيمِ وَالْأَمْصَارِ ، جَامِعِ اشْتَاتِ
 الْحَمَامِدِ ، مَلْجَأِ الصَّادِرِ وَالْوَارِدِ ، الْمَلِكِ الْجَوَادِ ، الَّذِي حَلَّتْ مَحَبَّتُهُ فِي
 الصُّدُورِ مَحَلَّ الْأَرْوَاحِ فِي الْأَجْسَادِ ، أَمِيرِ الْمُسْلِمِينَ ، الْمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِ رَبِّ
 الْعَالَمِينَ ، أَبِي الْعَبَّاسِ ابْنِ مَوْلَانَا أَمِيرِ الْمُسْلِمِينَ ، الْمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِ رَبِّ الْعَالَمِينَ
 أَبِي سَالِمِ ابْنِ مَوْلَانَا أَمِيرِ الْمُسْلِمِينَ ، الْمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ، أَبِي الْحَسَنِ
 ابْنِ مَوْلَانَا أَمِيرِ الْمُسْلِمِينَ ، الْمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ، أَبِي سَعِيدِ ابْنِ مَوْلَانَا
 أَمِيرِ الْمُسْلِمِينَ ، الْمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ، أَبِي يُوسُفَ يَعْقُوبَ بْنَ عَبْدِ
 الْحَقِّ ، وَصَلَ اللَّهُ تَعَالَى أَسْبَابَ تَأْيِيدِهِ وَعَضُدِهِ ، وَقَضَى بِاتِّصَالِ عُرْفِ
 تَجْدِيدِ سَعْدِهِ وَأَنَالَهُ مِنْ جَمِيلِ صُنْعِهِ مَا يَتَكْفَلُ بِتَيْسِيرِ أَمْرِهِ وَبِلُغْ قَصْدِهِ .

إِلَى مَحَلِّ اخِينَا الَّذِي نُؤَيِّرُ حَقَّ إِخْوَانِهِ الْكَرِيمِ ، وَنُثْنِي عَلَى سُلْطَانِهِ
 السَّعِيدِ ثَنَاءَ الْوَلِيِّ الْحَمِيمِ ، وَنَشْكُرُ مَا لَهُ فِينَا مِنَ الْحُبِّ السَّلِيمِ ، وَالْوَدِّ
 الثَّابِتِ الْمُقِيمِ ، السُّلْطَانِ الْجَلِيلِ ، الْمَاجِدِ الْأَصِيلِ ، الْأَعَزَّ الْخَطِيرِ الْمُثِيلِ ،
 الشَّهِيرِ الْأَمَجْدِ الْأَرْفَعِ ، الْهَمَامِ الْأَمْنَعِ ، السَّرِيِّ الْأَرْضِيِّ ، الْمُجَاهِدِ الْأَمْضِيِّ
 الْوَاحِدِ الْأَسْنَى ، الْمَلِكِ الْأَحْمَى ، خَدِيمِ الْحَرَمَيْنِ الشَّرِيفَيْنِ ، حَائِزِ

الفخرين المنيفين ، ناصر الدنيا والدين ، محيي العدل في العالمين ، الاجدّ
الأود المكين الأخلص الأفضل الأكمل ابي السعادات فرج ابن السلطان
الجليل ، الاعزّ المشيل ، الخطير الأصيل ، الأرفع الأجد ، الشهير الهمام
الأوحد ، الأسمى الاشرى الارضى ، المجاهد الأمضى ، خديم الحرمين
الشريفين ، حائز الفخرين المنيفين ، الأفضل الأكمل المبرور المقدم المرحوم
ابي سعيد برقوق ابن أنص ، وصل الله لسلطانه المؤيد جدّاً لا يُعجم
عوده وعزّاً لا يميل عموده ، ونصراً يملأ قطره بما يُغصُّ به حسوده ،
وعضدا يأخذ بزمام أمله السني فيسوقه ويقوده .

سلام عليكم ورحمة الله وبركاته :

أما بعد حمد الله على سُبوغ نعمائه ، وترادف لطفه وآلائه ، الذي
عرفنا من ولائه الكريم ما سرّنا من أطراد اعتنائه ، وابهج النفوس
والاسماع من صفاء ولائه ، ومواصلة صفائه ، والصلاة والسلام الأكملين
على سيدنا ومولانا محمد خاتم رسله وانبيائه ، ومُبلِّغ رسالاته وانبيائه ،
صاحب المقام المحمود ، والحوض المورود ، واللواء المعقود ، فأكرم
بمقامه وحوضه ولوائه والرضى عن آله وصحبه وأوليائه ، الذين هم للدين
بُذور اهتدائه ونجوم اقتدائه ، وصلة الدعاء لمقامكم الكريم بدوام
عزه واعتلائه واقتبال النصر المبالغ في احتفاله واحتفائه وحياطة انحائه
وارجائه وتأيد عزّماته وآرائه ،

فانا كتبنا اليكم كتب الله لكم سعدا سافرا ، وعزما ظافرا ، من حضرتنا العلية بالمدينة البيضاء^١ كلاًها الله تعالى وحرسها ونعم الله سبحانه لدينا واكفة السجال ، وولاؤه جل جلاله سابغ الاذيال ، وخلافته التي نرعى بعين البر جوانبها ، ونقتفي في كل منقبة كريمة سيرها الحميدة ومذاهبها ، والى هذا وصل سعدكم ، ووالى عضدكم ، وكتائبنا هذا يُقرّر لكم من ودادنا ما شاع وذاع ، ويؤكد من إخلاصنا اليكم ما تتحدث به السمار فتوعيه جميع الاسماع ، وقد كان انتهى اليها حركة عدو الله وعدو الاسلام ، الباغي بالاجترأ على عباده سبحانه بالبؤس والانتقام الآخذ فيهم بالعيث والفساد ، الساعي بجهده في تهديم الحصون وتخريب البلاد ، وتعرّفنا انه كان يعلق امله الخائب بالوصول الى اطراف بلادكم المصرية ، وانتهاز الفرصة على حين غفلة من خلافتكم العلية ، والحمد لله الذي كفى بفضله شره ، ودفع نقمته وضره ، وانصرف ناكصا على عقبيه ، خائبا من نيل أربه ، ولقد كنا حين سمعنا بسوء رأيه الذي غلبه الله عليه ، وما أضمر لخلق الله من الشر الذي يجد في اخراهِ ظلامه يسعى بين يديه عزمنا على أن نمُدّكم من عساكرنا المظفرة بما يضيق عنه الفضاء ونجهّز لجهتكم من اساطيلنا المنصورة ما يُحمد في امداده المناصرة ويرتضى ، فالحمد لله على ان كفى المؤمنين القتال ، واذهب عنهم الأوجال ، ويسر

لهم الأعمال ، وهياً لخلافتكم السنيّة والمسلمين ، هناءً يتضمّن السلامة لكم ولهم على تعاقب الأعوام والسنين . وبحسب ما لنا فيكم من الود الذي استت المصافاة بنيانه ، والحب الذي أوضح الإخلاص برهانه ، وقع تخيرنا فيمن يتوجه من بابنا الكريم لتفصيل مجملته ، وتقرير ما لدينا فيه على اتم وجه الاعتقاد واكمليه ، على الشيخ الأجل الشريف المبارك الأصيل الأسنى الحظي الأعز الحاج المبرور الأمين الأحفل الأفضّل الأكمل ابي عبدالله محمد ابن الشيخ الأجل الاغرّ الأسنى الأوجه الأنوه الأرفع الأجد الآثر الأزهى الشريف الأصيل المعظم المثيل الأشهر الأخطر الامثل الأجل الأفضّل الاكمل المرضي المقدّس المرحوم ابي عبدالله بن ابي القاسم بن نفيس الحسيني العراقي ، وصل الله سعاداته ، واحمد على حضرتكم السنية وفاداته ، حسب ما يفي بشرح ما حملناه نقله ، ويكمل بايضاحه لديكم يقظته ونبله ، إن شاء الله تعالى وهو سبحانه وتعالى يديم سعادتكم ويحفظ مجادّتكم ، ويُسني من كل خير ارادتكم والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

بيعة صاحب مملكة بُورنُو من أقطار السودان

للمنصور الذهبي . أنشأها له كاتب المنصور

عبد العزيز الفشتالي

الحمد لله الذي أعلى لكلمة الحق منارا يُسامي في مطالعها النجوم ،
وازاح بها عن شمس الهداية المنيرة غياهب الغباوة المدلّهمة وسحاب

الغواية الماركوم ، وحيّ على الفلاح بها داعي التوفيق الذي نشر للنجاح كتابه الموقوت واستنجز للسعادة أجلها المعلوم ، وشرف هذا الوجود ، والعالم الموجود ، بالخلافة النبوية ، والامامة الحسنة العلوية ، التي صرّفت الوجوه الى قبّلتها المشروعة ، واستبان الحق بتبليج الصباح في مبايعتها والانقياد لدعوتها المسموعة ، ونسخ بدولتها الغراء ذوّل الخيف التي هي بسيف النبوة المصلّت مقطوعة وبلسان السنة مدفوعة ، وقوّض بها مباني الادعاء التي هي على غير أساس الشرع الصحيح مرفوعة ، وفرّق بكلماتها المجموعة على التوحيد فرّق التثليث التي هي على مشاقّة الله ورسوله تابعة ومتبوعة ، وخلع بظهورها على اعطاف الحنيفية السمحة رداء العز الفضفاض ، واستل بتأييدها للدين الحمدي سيف الأنفة والامتعاض وشار للأعادي من بأسها المروع بلسان الحية التضناض ، وفجّر للمؤمنين ينبوع رحمتها الجاري على حصى عدلها الرضراض ، ومهد بسيوفها المنتضاة الآفاق والأقطار تمهيدا أزال عن حكمه الاعتراض ، وجلّى بانوارها المتألقة سُدف الجهالة التي ادّلمّ جوّها وخيم ، واسعد الوجود يمينها الذي لبث في أكناف مجدها وخيم ، وقضى لها بتوارث الأرض ومن عليها ان شاء الله الى عيسى ابن مريم .

والصلاة والسلام على مولانا محمد الذي تعاضدت البراهين القاطعة ، على صدق رسالته البارعة ، ونهج للدين القويم طريقة الحق المثلّي ومادته الشارعة ، وسوّغ لمن آمن به مناهل الهدى النيرة الزلال وموارده

العذبة ومشارِعَه ، نبيّ الرحمة ، وشفيع الأمة ، وعلى آله واصحابه
الكرام ائمة الهدى ومصابيح الظلام .

والدعاء لمولانا الأمام ، العلوي الهمام ، أمير المؤمنين ، ابن أمير
المؤمنين ، نجل سيد المرسلين ، وخاتم النبيين ، وسليل الوصيّ والسبطَيْن
الأكرمين .

وبعد فانه لما أذِن الله في ليل الجهالة ان يَنجِب ، وفي شمس الحق
الوّهاجة ان يرتفع عنها الحجاب ، وفي العز الخلقِ الجَلْبَاب ، أن يعود الى
الشباب ، وفي النجاح والاستقامة أن يُفَتَحَ لهما الباب ، وفي الأمانة ان
تُسندَ للسنّة والكتاب وتتعلّق من الشرع بأسباب ، تدارك الله سبحانه
الوجود واعز العالم الموجود واستطارت الأنوار المضيئة للأغوار والنُجود ،
بطلوع شمس الخلافة النبوية ، والامامة الهاشمية العلوية ، ففاضت على
أديم البسيطة انوارها ، وارتفع الى حيث السُّها والفرقَدَيْن منارها ،
وتبلّج بالاصباح نهارها ولاحت في سماء المجد بُدورها واقمارها ، وكادت
تنهبُ نجومَ السماء اتباعها وانصارها ، وانتشرت في الآفاق والاقطار
على البعد والقرب آثارها ، وهزّت عطف الزمان انتشاءً مناقبها واخبارها
وفاض ببركتها على أكناف المعمور يَمُها الزاهر وتيارها ، خلافة ينتمي
إلى النبوة عُنصرها وتُستنبط من رسالة الوحي أسطرها ، ويُناط
بعروتها الوثقى خنصرها ، وامامة عليّ وليّها والله نصيرها والسبط بدرها

الذي حيَّاه مِنبَرُها وسريرُها .

والحمد لله الذي اصطفى من هذه الدَّوْحَةِ النبوية الشَّمَاءَ ، والشجرة الطيبة الهاشمية التي اصلُها ثابت وفرعُها في السماء ، إماماً القى الله له في القلوب حبا جميلا ، وموئلاً جعله الله على مَرْضَاتِهِ سبجانه علامة ودليلا وخليفة استرعاه بحسن الرعي لخلقهِ وعباده كَفِيلاً ، وانتضى من بأسه وبسآلته لحماية حَمَى الشريعة حُساماً صَقِيلاً ، مولانا امير المؤمنين وخليفة الله في الأرضين ، وسليل خاتم النبيين ، ووارث الانبياء والمرسلين ، المفترضة طاعته على الخلق اجمعين ، والممنون بامامته المقدسة على العالمين ، بحر الندى والباس ، وعصمة الله للناس ، أمير المؤمنين ، المنصور بالله مولانا أبا العباس صلواتُ الله عليه وعلى آله الخلفاء الراشدين والائمة الطيبين الطاهرين ، وطيبَ بأنفاس المغفرة لحودهم اجمعين . امام تهتزّ لذكره اعطافُ المنابر ، وتتقلد من شريف دعوته ابهى من نفيس الجواهر ، وتستضيء البلاد بإكليل شرفه الزاهر ، وتسكنُ العباد تحت ظل رحمته الوارف الوافر ، ابقى الله ايامه الغرَّ بقاءً يصحب النصر دوامه ، وخلد له ولأعقابهِ هذا الأمر الكريم الى يوم القيامة .

ولما طلعت ، ايده الله على هذه الاصقاع الزُنْجِيَّة طلائعُ امامته النبوية وخلافته ، ولاحت في سماءها شهبُ مناقبه المنيقة الدالة على فخامة شرفه وإنافته ، وتليت لمجده الآياتُ البينات التي تشهد له بتراث الرسالة ،

وتقتضى له على الإسلام وعلى الانام بحكم الولاء والكفالة ، واوضح الله سبحانه للناس من اعتقاد وجوب طاعته والافتداء بامامته ، والانقياد لدعوته ، وتقليد بيعته ما جاء به كتابه الحكيم ، ووردت سنة نبيه الكريم كما قال عليه السلام : لا تزال الخلافة في قریش ما بقي منهم اثنان ، وكما ورد في صحيح الخبر ان الخلافة في قریش والقضاء في الأنصار وفي الحبشة الأذان ، ويدل على هذا تعاضد الخبر والعيان ، فلا نأكر ان ليس في المعمور على هذا الشرط غيره ايده الله من ثان ، فنهض بدليل الشرع أنه امام الجماعة حقاً المستوفي شروطها ، والوارث للخلافة النبوية والحريص على بيضة الإسلام ان يحوطها ، وإن القائم بهذا الأمر على الإطلاق غيره دعي ، ومحاو له دون اذنه المشروع بدعي ، فتعين لذلك ان الرجوع الى الحق فريضة ، واستبان بما تقرر وعلم ان اماره لا تلاقي في الشروع محلها المشروع منبوذة مرفوضة ، وعروتها لذلك مفصومة ومنقوضة .

فانتدب لهذه الآثار ، وصحيح الأخبار ، وصرف الى رضا الله العناية ووقف من الشرائع المشروعة حيث مركز الراية ، ومنتهى الغاية ، الرئيس ابو العلاء ادريس اكرمه الله انتداب من وقفت به مطية التوفيق ، على حضرة الإخلاص والتصديق ، واخذت بزمامه السعادة الى حيث الفوز برضا الله ورضا رسوله حقيق ، والتأييد صاحب ورفيق ، وروض الآمال أنيق وراح الراحة والاطمئنان عتيق الى تقلد بيعة امام الجماعة أمير المؤمنين ، المنصور بالله زاده الله تقديسا وتشريفا ، التي تؤسس ان شاء الله على تقوى

من الله ورضوان ، وتشهد عقدَها الكريم ملائكةُ الرحمان ، وآثرَ اسعدهُ الله أن يؤدي فرضها المعدود من فروض الاعيان ، وحكمها الذي توجه به خطابُ الشرع العام الى القاصي والدان ، وينشرَ سنتها المشروعة في صقعهِ وما يليه من الأصقاع والبقاع بالسودان ، تقلّداً يستضيء ان شاء الله بانواره ، ويستشرف به العزُّ المكين على مناره ، ويخمد به للجهل جذوة ناره وتنتظم به في اتباع الحق زُمرّةُ انصاره ويحتلي به صورة انسانيته ، ويستوجب من الله عوارف صنعه واحسانه ويُرهف به للعدو على العزّات حدّ سيفه وسنانه ، ويقرّع به لرضا الله بابَ القبول ، ويتضاعف له ببركته العمل المقبول ، ويستنشق بمشهد عقده الكريم نوايسم النبوة ، ويعود له به الزمان للشباب والفتوة ، ويرفع به منارَ الامارة على قواعد الشرع الوثيقة ، ويعدل به في كل الاحوال عن المجاز الى الحقيقة ، وتتسنى له به وهي المقصد الاسنى والخاصة الحسنى الأسوة الحسنة بإمامي بني العباس السفاح والمنصور ، ويحيي سنتها التي نقلها ثقاتُ الاعلام والصُدور ، في مبايعتهما الامام الخليفة المهدي الاكبر سليل سيد المرسلين ، وجدّ مولانا أمير المؤمنين الذي رأى أمام دار الهجرة انه بَراث الخلافة أولى واحقّ ، وفي منصب الامامة على شرطها اعرق ، وبسريرها ومنبرها أليق .

فتأكّد للمنتدب أيده الله بهذه الآثار الشريفة ، والمناقب المنيفة ، العزمُ والقصد ، وأنجز له فيما اراده صادقُ الوعد ، وساعد نيّته الصالحة فيه السعد ، فبايعه أعلى الله يده على الأمن والأمانة ، والعفاف والديانة ، والعدل

الذي يُشَيِّدُ المجد أركانَه ، مبايعةً شايعةً على عقدِها الكريم ، أَكْرَمَهُ اللهُ ،
أَتْبَاعُهُ ، وَجُوعُهُ وَأَشْيَاغُهُ ، بِحُكْمِ الوفاقِ والاتِّفاقِ ، والمواثيقِ الشديدةِ
الوثاقِ ، وبجميعِ الأيمانِ الصادقةِ الإيمانِ ، اعطَوْا بها صَفَقَةَ أيديهم ، ورفعَ
بها العَقِيرَةَ منادِيهم عارفين ان يد الله فيها فَوْقَ أيديهم ، وأمضَوْها على
السمع والطاعة ، والانتظام في سِلْكِ الجماعةِ ، امضَاءً يدينون به في السر
والجهر ، والعسر واليسر ، والرخصاء والشدة ، والأزمان المشتدَّة ،
والتزُموا شروطَها طَوْعاً واستوعَبُوها جنساً ونَوْعاً بِنِيَّاتٍ منهم خالصةٍ
صادقةٍ ، وَعِدَّةٍ من الله بالخير لهم سَابِقَةٍ ، وسعادةٍ بالحسنى لاحقةٍ ، ابرمُوا
عقدَها ، واحكموها وعدَّها وعهدَها ، على حكمِ الكتابِ والسنةِ والجماعةِ ،
والاخذ بسُنَّتِها اعقاباً عن اعقاب ، وأحقاباً اثرَ احقَاب ، الى يومِ
القيامةِ واقترابِ الساعةِ ، لا يلحق عقدَها الكريمَ فَنَسْخٌ ، ولا يعقبه
بحولِ الله نَسْخٌ ، ولا يتطرقُ إليه نقضٌ ولا نكثٌ ولا يشوبُه بشوائبِ
الشبهاتِ بَحْثٌ ، واجمعَ على هذا اسعده الله بالمواثيقِ المستفيضةِ والايانِ
اللازمةِ المُغلَّظةِ هو واتباعه اجماعاً شرعياً ، وحتَّمَوْه على انفسهم حتماً
مَقْضِيّاً واعتقدوه اعتقاداً أبدياً ، وعرضوا على التزامه بمشهدِ عقده المباركِ
أفراداً وازواجاً ، وُحْدَاناً وأفواجاً ، وأشهدوا على الوفاء به بأيمانهم
الصادقةِ البرورِ ، ومواثيقهم المثلجة للصدور ، قائلين بالله الذي لا إله إلا
هو الملك القدوس العليم بالخفِيَّاتِ ، والخبير بالآجالِ الوَفِيَّاتِ ، وبجميعِ
الرسل الكرام والانبِياء ، وملائكة الرحمان في الأرض والسماء ، وعلى

انهم إن حادوا عن هذا السبيل ، وانقادوا لدعاء داعي التغيير والتبديل ، أو انحرفوا عن هذا المنهاج وسنته ، فهم بُرَاءٌ من حول الله وقوته ، ومن دينه وعصمته ، ومستوجبين لعذابه وغضبه وسخطه ونقمته ، وبُعْدًا من رحمته ، ومن شفاعته نبيه الكريم يوم القيامة لأُمتِهِ ، وانهم خَالِعُونَ لربقة الإسلام ، وخارجون عن سنة الرسول عليه السلام ، أعلنوا بهذا إعلانًا تعضدُه النجوى ، وأدَّوهُ بشروطه الجارية على مذاهب الفتوى ، وأحكامه اللازمة لكلمة التقوى ، استرضاءً لله وللخلافة النبوية ، والامامة العلوية ، ورياضةً للنفوس على بيعتها المباركة الميمونة النقية ، واستيفاءً لشروطها واقسامها الواجبة والمستحبة والمندوبة ، مستسلمين الى الله بالقلوب الخاشعة ، ومتضرعين الى بابه الكريم بالأدعية النافعة ، في ان يُعرِّفهم خيرَ هذا العقد الكريم ، والعهد الصميم بدءاً وختاماً ، وان يمنحهم بركته التي تصحبهم حالا ودواما ، لاربّ غيره ولا خير إلا خيره .

اشهد على نفسه بما فيه وعلى رعيته الرئيس ابو العلاء ادريس اسعده الله واكرمه وبتاريخ المحرم الحرام من عام تسعين وتسعمائه من الهجرة النبوية .

كتاب المنصور الذّهبي الى الشيخين البدر القرافي والزّين البكري
في إعلامهما ببعض الفتوح وتشوّفه للاندلس

من عبد ربه المجاهد في سبيله احمد المنصور بالله أمير المؤمنين الحسيني

الى الفاضل الذي اعتجرَ بالتقوى وهو زَيْنُ العابدين ، وتحلَّى بحلمى المعارف الربانية وتلك حلمى العارفين ، والسالك الذي برَّز في الطريقة ، وسلك على المجاز الواضح الى الحقيقة ، ففاتَ شأوَ السابقين ، والعارف الذي تجرد عن رُعونة الاهواء النفسانية فكان سلوكه على التجريد الى حضرة الواصلين الشيخ العالم الحجة الوافي ، السيد بدر الدين القرافي ، والشيخ العارف الواصل ، السريّ الكامل ، سُلالة العلماء ، سِبْط الفضلاء ، ابي عبد الله زين العابدين ابن الشيخ السامي المقام ، قُطب المشائخ الاعلام ، فخر علماء الإسلام ، الشهير البركة في الانام ، ابي عبد الله محمد بن ابي الحسن الصديقي ، ابقا كما الله واروا حكما تتعطرَ برِياحين الأنس ، في حضرة القدس وتشمُ النفحاتِ الهابّة من رياض المشاهدة الى مدارج الأنس ومعارِج النَّفس ، وسلام عليكمما ورحمة الله تعالى وبركاته :

وبعد حمد الله مُفيض أنوار عناية احمد على صاحبه الصديق ، مُظهر كنوز المعارف الربانية جيلاً بعد جيل من بيتٍ عتيق ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الذي اختار لمرافقته صاحبه في الغار والعريش والطريق والرضا عن آله ائمة الخلق ، وسيوف الحق ، واصحابه الذين فاضت انوار هدايتهم على الغرب والشرق ، وبيركتهم انتسق لنا الفتح انتساق الاسلاك ، وبفضلهم يعلو سعدنا على الكفر علو القطب على دائرة الافلاك - فكتبنا هذا اليكم من حضرتنا السعيدة مراکش حاطها الله وُضِعُ الله لها مُفعَمُ السّجال ، وَاِسعُ المجال ، وعزمتُها الماضية تبعثُ ،

الى العِدَى رُسُلَ الاَوْجَال . والايام بعز صولتها ، ويُمن دولتها ،
بهذه المغارب بِاسْمَةِ الشُّغُور ، مُوَذِّنَةٌ بِاتِّصَالِ أَمْرِهَا الْعَزِيزِ بِحَوْلِ اللَّهِ إِلَى
أَنْ تُطَوِّى مُلَامَةً الدَّهْور .

هذا وانه اتصل بعلي مقامنا كتابكما الذي صدحت على افنان
البلاغة سواجعه ، وعذبت في موارد المحبة الصديقية مناهله ومشارعه
ولطفت في كل معنى من المعاني افانينه ومنازعه ، وتألفت على الاجادة في
كل مقصد من المقاصد مواصلة العذبة ومقاطعه ، واينعت بازهار العناية
الربانية اباطحه الفيح وأجارعه ، ومعه المنظومات التي سحت بالحكم ديمها ،
ورسا في البلاغة ، قدمها ، وربا في منبت المواهب الربانية يراعها الفصيح
وقلمها ، وحل من نفوسنا موقعها العجيب محلا من دونه الثريا في مطلعها
والبدر ليلة تمامه اعجابا بها وتنويها بمهديها ، وابتهاجا بالخوارق التي اطلق
الله على لسان مُبديها ، والى هذا فليحط علمكما بان مقامنا تنفق فيه على
الدوام ان شاء الله نفائس بضائعكم ، وتنمو فيه مع الايام سعود مطالعكم ،
وتسمو فيه على كل مقام مقاماتكم ، وتستوضح فيه على المحبة الصميمة
أماراتكم الواضحة وعلاماتكم ، فعلى هذا تنعقد منكم الخناصر ، وتشتد
الأواخي والأواصر ، بعز الله ومنه .

ثم بما نستطرد لكم ذكره على جهة البُشْرى ، واهداء المسرة الكبرى
إعلامكم أن عدو الدين طاغية قشتالة الذي هو اليوم العدو الكبير للإسلام

وعميدُ مِلَلِ التثليث وعبدَة الاصنام لما أنس من تلقاء جانبنا نارَ العزم
تلتهب منا التهابا ، وبجرَ الاحتفال تضطرب امواجه الزاخرة بكل عَدَد
وعُدَّة اضطرابا ، وهمَمنا قد هَمَّت بتجديد الاسطول ، والاستكثار من
المراكب المتكفلة للجهاد ان شاء الله بقضاء كل دَيْن ممطول ، وعَلِم ان
الحديث اليه يُساق ، والى ارضه بالخسف والتدمير بحول الله يهفُو كل لواء
خفاق رام خذله الله مكافاتنا على ذلك ، بما أَمَل أن يَفُتَّ به في عضدنا الأقوى
وعزمننا الذي بعناية الله يزدادُ ويقوى فرمى بمخدول من ابناء اخينا عبدِ
الله كان رُبِّيَ لديه ، وطوّحت به الطوائح منذ ثمانية عشر عاما ، إليه ،
الى مَلِيلِيَّةِ احدى الثغور المصاحبة لغرب ممالكنا الشريفة التي هي الى كفالة
ولدنا وولي عهدنا ، كافل الأمة من بعدنا ، الامير الاجل الأرضى ، صارم
العزم المنتضى ، وحسام الدين الأمضى ، ابي عبد الله محمد الشيخ المأمون
بالله وصل الله لراياته التأييدَ والظهور ، والعزّ الذي يستخدم الايام والدهور ،
فالتفّ عليه من اغترّ بأباطيله الوَاهِيَةِ البناء ، من اوّباش العامة والغوغاء ،
وَمَن قُضي له من اجناد تلك الناحية بالشقاء جموعٌ تُكَاثِرُ الرَّمْلَ ،
وتفوتُ الحصا والنَّمْلَ ، لاح بها للشقي خُلْبٌ بارق اكذبته أمنيته اذ
صدّقته مَنِيَّتُهُ ، فصمّم نحوه ولدنا اعزه الله بجنود الله التي اليه ، وبعبساكر
تلك الممالك التي القينا زمامَ تدبيرها بين يديه فما راع الشقيّ الا انقضاضه
عليه من الجوّ انقضاضَ الأجدال ، وتصميمه اليه بعزائم تدكّ الطودَ
وتفلقُ الصخر والجندل فاستولى عليه بحمد الله للحين ، وعلى جنوده
الاشقياء في يومٍ اغرّ مُحجَّل وساعةٍ انزل الله فيها على الخوارج المارقين ،

العذابَ المعجَّلَ ، فاستأصلتهم الشُّفارَ ، وحصدت هَشِيمَهُم المَصَوِّحَ أَسِنَّةُ النارَ ، وقُبِضَ على الشَّقِي في يوم كان شِفاءً للصدورَ ، ومننزهاً لِحِمْلَةِ السيوفِ وربَّاتِ الخدورَ ، واحرزَ الله تعالى فخرَ هذا الفتحِ العظيمِ ، والمنَّ الجسيمِ ، لوَلدنا اعزه الله عز وجل في خاصَّةِ اجناده ، ونهضَ وحده باعبائه ونحن على سرير ملكنا وادِعون مطمئنون ، واجنادنا في اوطارنا لاهون ومفتَّنون ، فلم يَحْتَجْ الى إنجاده ، من قَبَلنا ولا امداده ، والعاقبةُ للمتقين ، والحمد لله حمداً شاكرين .

وعرَّفناكم لتأخذوا بحظكم من السرور بهـذِهِ البُشْرَى التي سرَّت الاسلام وساءتُ بحمد الله عبدةَ الاوثان والاصنام ، وتعلَّمُوا مع ذلك ما عليه الاحوال اليوم بحول الله لدينا من خفق راياتِ العزم ، وشحذِ آراءِ الحزم ، وإعمالِ عواملِ الجزم ، الى مُجَازاةِ عدو الدين ان شاء الله على فعلته التي عادت عليه أسفاً ولهفاً ، واعادةِ ما كان اسلف من ذلك إن شاء الله بالمكيالِ الاوفى ، وقدمنا اليكم التعريف لتمدوننا إن شاء الله بأدعيتكم الصالحة في اوقات الاجابة ، وتحريضوا على التماسها هنالك وبالحرمين الشريفين من كل ذي خضوع واناة ، أن يؤيدنا الله على عدو الدين بفضله ، ويُنجِزَ لنا وعده الصادق في اظهار دين الحق على الدين كله ، ويسهلَ علينا بفضله ومعونته اسبابَ فتح الاندلس ، وتجديد رؤسوم الدين بها واحياءَ أطلاله الدُّرُس ، حتى ينطلقَ لسانُ الدين في ارضها بكلمة الله التي طالما سكَّت عنها نِداؤُهُ وخَرَسَ ، وشرِقَ بِرِيقِهِ

فَغُصَّ وَخَنَسَ ، فَبَيَّدهُ الحَوْلُ والقُوَّةُ ، وعَنايتُهُ العَنايةَ المَرجوَّةَ .

ثم نُوصِيكم بِحُسْنِ الوَقوفِ مَعَ اصحابنا فيما يُشترى مِنَ الكُتبِ العَلميةِ بِرِسمِ خَزائِننا الكَريمةِ اِماميةِ العَليَّةِ ، ثم اِلتِحابِ بِديوانِ الشَيخِ والدَكمِ التَّماساً لِجَميلِ بَرَكَاتِهِ ، وَتَمَسُّكاً بِما سَبَقَ مِنَ اِلاجازَةِ العامَةِ في سائِرِ مَناظِراتِهِ ومَوضُوعَاتِهِ ومَروِّياتِهِ ، وَهَذا مَوجِبُهُ اليَكم ، وَالسَّلامُ الأَتمُّ مُعَادَ عَلَينَكم وَحَمةُ اللهِ وَبَرَكَاتِهِ .

تَوقيعُهُ عَلى كِتابِ جُؤذَرِ

لَمَّا اِنْتَصَرَ جُؤذَرُ مولى المَنصُورِ الذَهيِّ عَلى اِسحاقِ سُكَيَّةِ صاحِبِ السُودانِ فَرَّ هَذا اِمامُهُ واعتَصَمَ بِبَيلَدِهِ كَأَغُو فَحاصِرُهُ جُؤذَرُ فَطَلَبَ الصَّلحَ عَلى خِراجِ عَظيمٍ يَؤُودِيهِ لِمَنصُورِ كُلِّ سَنَةٍ فَكُتِبَ جُؤذَرُ بِذلِكَ لِمَنصُورِ يَسْتَأْمِرُهُ فِيهِ فَغَضِبَ المَنصُورُ وَوَقَّعَ عَلى كِتابِ جُؤذَرِ « أَتُمدُّونِني بِمالٍ فَمَا آتاني اللهُ خَيرٌ مِمَّا آتاكمُ ، الآيَةُ . » ثم أُرسلَ القَائدَ مَحمُوداً بِاشاً وَعَزالَ بِهِ جُؤذَرا وَكانَ الفَتحُ عَلى يَدِهِ .

كِتابُ السُلطانِ مَولايِ الحَسَنِ العَلَوِيِّ

إلى قُضاةِ مَراكِشَ مِنْ اِنشاءِ الكُتاتِبِ اِدرِيسِ بْنِ مَحمَدِ العَمَمرَوِيِّ

وَبَعدَ فَقَدَ بَلِغنا مِنْ أَخبارِ مُتَعاضِدَةٍ ، وَطُرُقِ عَنِ التَّحاملِ مُتَباعِدَةٍ ،

أن خُطَّةَ القضاء والإفتاء صارت مَلْعَبَةً ومنتجراً ، لا يعرف أصحابها فيها سَامَةً ولا ضَجَرًا ، وأن الرُّشَا فيها تُقْبَضُ سرًّا وعِلَانِيَةً ، والأحكام تصدر بِنِيَّةٍ وبِلَا نِيَّةٍ ، قد عُدِلَ فيها عن منهاج العدل ، من غير اكتراث بتأنيب ولا عَذْل ، والحقوق نَزَلَتْ بِمَعْرِضِ الضِّيَاع ، والمراتب المَعْظَمَةُ بهذه البِقَاع ، صارت كسرَابٍ بِقَاعٍ^١ ، وأن بعض القضاة حمَلَهُ ما حمَلَهُ ، الى التطاوُل للدعاوى البعيدة منه واستجلاب القضايا المصروفة عنه ، وتوَجِيهِه أَعْوَانَهُ لِلاتِّيان بِالْخِصَاءِ مِنَ الْبِلَادِ الَّتِي قُضَاتُهَا لَهُمُ الْإِسْتِقْلَالُ ، ولم يَصْدَهُ عَنِ التَّرَامِي لِذَلِكَ مَا لَا يَسْتَقِلُّ بِهِ مِنَ الْأَثْقَالِ ، مع العلم بأن من صُرِفَتْ عَنْهُ قَضِيَّةٌ ، فَقَدْ صُرِفَتْ عَنْهُ بَلِيَّةٌ ، لو لم يكن الغرض الدنيوي الذي أَغْرَاهُ ، وَالشَّرُّ الذي استحوذ عليه وأَغْوَاهُ ، حتى ظهرت على القضاة أمارات الغنى والرفاهية ، ودهتهم من الميل للزخارف كل داهية ، وتبخثوا في الحلل والتَّهَارِقِ ، وذهلوا عن الأثر المأثور « مَنْ وَلِيَ الْقَضَاءَ وَلَمْ يَفْتَقِرْ فَهُوَ سَارِقٌ » كما بلغنا أن طائفة من العدول أُذِنَ لَهُمْ فِي الشَّهَادَةِ افْتِيَاتًا مِنْ غَيْرِ اعْتِبَارٍ لِلشُّرُوطِ الَّتِي شَرَطْنَاهَا ، وَلَا وَقُوفٍ مَعَ الْخُدُودِ الَّتِي يَبْنَاهَا وَحَدَدْنَاهَا ، وَاتَّخِذَ مِنْهُمْ وَمِنَ الْأَعْوَانِ وَالْوُكَلَاءِ أَشْرَاكَ لِلطَّمَعِ ، وَجُسُورَ بِنَاهَا التَّهْوُرَ وَالْهَلْمَعَ ، يُمِرُّ عَلَيْهَا مَا يُلَمَزُ بِأَجْرَةِ الْخُطَابِ وَحَقِّ الْعِلْمِ^٢ وَتُعَدُّ لِلِاسْتِثْنَاءِ بِهَا حَالَتِي الْحَرْبِ وَالسَّلَامِ ، هَذَا مَعَ أَنَا بِالْغِنَا

١ - القاع الأرض المستوية . ٢ - يعني تصديق القاضي للرسم وعلامته .

في اختياركم لتطهير الصحيفة ، وابعاد ساحة الشريعة عن الأمور الشنيعة
المُخيفة ، واختبرنا وخبرنا وانتقينا وأبقينا ، ولكن صدق الصادق
المصدوق صلى الله عليه وسلم « الناس كإبل مائة لا تكاد تجد فيها راحلة . »

أني لأفتح عيني حين أفتحها على كثير ولكن لا أرى أحدا

فاذا كان أهل العلم تصدر منهم هذه الفِعال ، فأى شيء تركوه للجهال ،
وإذا كان منصب الشريعة تُحاز به البراطيل وتبدو من جانبه الرفيع هذه
الأباطيل ، فأى ملام يتوجه على عامة الناس ، على اختلاف الأنواع
والأجناس .

مَنْ غَصَّ دَاوَى بِشَرْبِ الْمَاءِ غُصَّتَهُ فَكَيْفَ يَصْنَعُ مَنْ قَدْ غَصَّ بِالْمَاءِ

كيف ولم تزل تُتلى عليكم آياتُ كتاب الله ، وأحاديثُ رسول الله ،
أأنتم عنها ساهون أم أنتم عن التذكرة لاهون ، أفلا تتدبرون قولَ الله :
« وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا
فَرِيقًا مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ » وقوله ﷺ لعن الله الراشي
والمرتشي والرائش أي الذي يمشي بينهم ... هذا واسألوا عن سيرة
من تقدم من قضاة هذه الحضرة المراكشية كالفقيه السيّد محمد عاشور ،
والفقيه السيّد الطالب بن حمدون ، فقد كانوا من الدين والخير بمكانة ،

وَأَعْطَوْا الْخُطَّةَ حَظَّهَا مِنَ الْعَفَافِ وَالصِّيَانَةِ ، وَخَرَجُوا مِنْهَا بِيضَ الصَّحَافِ
 حُمْرَ الْوُجُوهِ ، فَأَعْرِفُوا فَضْلَهُمْ ، وَاقْتَفُوا سَبِيلَهُمْ ، وَتَشَبَّهُوا أَنْ لَمْ تَكُونُوا
 مِثْلَهُمْ ، وَاعْلَمُوا أَنَّنا بِحَوْلِ اللَّهِ لَا نَزَالُ نَبْحَثُ عَنْ أَحْوَالِكُمْ بِالتَّنْقِيبِ
 وَالتَّنْقِيرِ ، وَنَعَامِلِكُمْ بِالتَّحْذِيرِ قَبْلَ التَّعْزِيرِ ، وَبِاللِّينِ ثُمَّ الْجِدِّ ، وَبِالصَّفْحِ ثُمَّ
 الْحَدِّ ، لِأَنَّ اللَّهَ كَلَّفَنَا بِكُمْ ، وَسَائِلُنَا عَنْكُمْ وَأُمُورَ الشَّرِيعَةِ عِنْدَنَا أَهْمٌ
 مِنْ كُلِّ مَهْمٍ وَآكَدَ مِنْ كُلِّ أَكِيدَ ، وَمَا عَلَى هَذَا مِنْ مَزِيدٍ ، أَنْ أُرِيدَ إِلَّا
 الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ .

توقيعات له

كَانَ رَحِمَهُ اللَّهُ كَمَا يُحْكِي عَنْ الْمَنْصُورِ الْمُوَحِّدِي حَسَنَ التَّوْقِيعِ . فَمِمَّا
 وَقَّعَ بِهِ عَلَى كِتَابِ قَوْمٍ بِالْغَوَا فِي الشُّكُوفِ إِلَيْهِ بِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ مُوسَى وَهُوَ
 يَمُنُّ أَحْسَنَ إِلَيْهِ أَيَّامَ كَوْنِهِ بِسُوسٍ قَبْلَ وَلايَتِهِ « لَا يَسْتَوِي مَنْ انْفَقَ
 مِنْكُمْ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتِلْ »

وَكُتِبَ إِلَيْهِ الطَّلَبَةُ يَسْتَأْذِنُونَهُ فِي إِقَامَةِ نُزْهَتِهِمْ قَبْلَ الْإِبَانِ وَهُوَ بِفَاسٍ
 عَسَى أَنْ يَخْضُرَهَا فَوْقَ لَهَا « حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ
 وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا »

وَرَفَعَ إِلَيْهِ أَهْلُ فَاسٍ اعْتِذَارَهُمْ عَمَّا كَانَ بَهَا مِنَ الْفِتْنَةِ قَائِلِينَ إِنَّ
 ذَلِكَ مِنْ فِعْلِ السُّفَهَاءِ ، فَوَقَّعَ « السَّفِيهُ إِذَا لَمْ يُبْهَ فَهُوَ مَأْمُورٌ »

وَكَتَبَ إِلَيْهِ بَعْضُ مَشَائِخِ الْقَبَائِلِ وَقَدْ أَوْقَعَ بِهِمْ « أَتُهْلِكُنَا بِمَا
فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا » فَوَقَّعَ لَهُ « وَسَكَتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِي ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ »

(ب) الاخوانيات

رسالة للقاضي عياض الى الفتح ابن خاقان
حمّله فيها تحيةً للرئيس ابي عبد الرحمان بن طاهر

عِمَادِي أَبَا نَصْرٍ ، مُشْتَى الْوِزَارَةِ وَوَحِيدَ الْعَصْرِ ، هَلْ لَكَ فِي مَنَةِ تَقْوَتِ
الْحَضَرِ ، تَخَفٌ مَحْمَلًا وَتُبْلُغٌ أَمَلًا ، وَتُشْكِرُ قَوْلًا وَعَمَلًا ، شُكْرًا تَتَرَنَّمُ
بِهِ الْحُدَاةَ ثَقِيلًا وَرَمَلًا ، إِذَا بَلَغَتِ الْحَضْرَةَ الْعَلِيَّةَ مُسْتَتَمًا ، وَلَقِيتِ
الطَّاهِرَ ابْنَ طَاهِرٍ فَخَرِ الْوِزَارَةَ مُسَلِّمًا ، وَحَلَمْتَ مِنْ فَنَائِهِ الْأَرْحَبَ حَرَمًا ،
وَلَمَسْتَ بِمُصَافَحَتِهِ رُكْنَ الْمَجْدِ يَنْدَى كَرَمًا فَقِفْ شَوْقِي بِعَرَفَاتِ تِلْكَ
الْمَعَارِفِ ، وَانْسِكُ شُكْرِي بِمِشَاعِرِ تِلْكَ الْعَوَارِفِ ، وَأُطْفِئْ إِكْبَارِي
بِكَعْبَةِ ذَاكَ الْجَلَالِ سَبْعًا ، وَبَوِّءْ لِيُودِّي فِي مَقَرِّ ذَلِكَ الْكَمَالِ رُبْعًا ،
وَأُبْلِغْ عَنِي تِلْكَ الْفَضَائِلَ سَلَامًا ، يَلْتَمِمْ بِصَرِيحِ الْحُبِّ التِّثَامَا ، وَيُحَسِّنْ عَنِي
بِظَهْرِ الْغَيْبِ مَقَامًا ، وَيَسِيرَ بِأَرْجِ الْحَمْدِ إِنْجَادًا وَإِثَامًا .

رسالة لابي الحسن بن مروان الرباطي الكاتب
الى ابن الربيب المؤرخ وقد استعار منه نسخةً من تاريخ غريب

يَا أَخِي سَدَّدَ اللَّهُ آرَاءَكَ ، وَجَعَلَ عَقْلَكَ أَمَامَكَ لَا وَرَاءَكَ ، مَا يَلْزُمُنِي

من كونك مُضَيَّعاً ان اكون كذلك ، والنسخةُ التي رُمّت اعارتها هي
مؤنسي إذا أوحشني الناس ، وكاتمُ سرّي إذا خانوني فما أُعيرُها إلا
بشيء أعلمُ انك تتأذّى بفقده اذا فُقد جزء من النسخة وانا الذي أقول :

أنسُ أخي الفضل كتاب انيق أو صاحبٌ يُعنى بُود وثيق
فان تُعِرّه دونَ رهن به تخسره أو تخسرُ ودادَ الصديق
وربّما تخسرُ هذا وذا فاسمع رعاك الله نصح الشفيق

رسالة لابن هانيء السبتي اجاب بها ابا القاسم الشريف
وكان بعث له بقصيدة همزيرة فردّ عليه بقصيدة مثلها وهذا النثر

هذا بُنيّ ، وصل الله سبحانه لي ولك علوّ المقدار ، وأجرى وفّق
أو فوق ارادتك وارادتي لك جاريات الاقدار ، ما سنح به الذهن
الكليل واللسان القليل ، في مراجعة قصيدتك الغراء ، الجالبة السراء
الآخذة بمجامع القلوب ، الموفّية بجوامع المطلوب ، الحسنة المهيّج والاسلوب ،
المتحلّية بالحلمى السنية ، العريقة المنتسب في العلى الحسنية ، الجالية إصدأ
القلوب ران عليها الكسل ، وخانها المُسعدان الشؤل والأمل ، فمتى
حاتم المعاني حوّلها ، ولو اقامت حوّلها ، شكت ويّلها وعوّلها ،

وَحَرِمَتْ من فريضة الفَضِيلَةِ عَوْلَهَا^١، وعَهْدِي بِهَا والزمانُ زمانٌ،
وأحكامها الماضية اِمَانِيٌّ مقضية وأمانٌ، تتوارد آلاؤها، ويجمع اجماؤها
وإخلافها، ويُساعدُها من الألفاظ كلُّ سهلٍ مُمتنعٍ، مفترقٍ مجتمعٍ،
مستأنسٍ غريبٍ، بعيد الغور قريبٍ، فاضح الحلي، واضح العلل، وضاح
الغرّة والجبين، رافع عمود الصبح المبين، أيّد من الفصاحة بأيادٍ، فلم
يُخْفِلْ بصاحِبِي طَيِّبٍ وإيادٍ، وكُسي نَصَاعَةَ البلاغة، فلم يعبأ بهَمَامِ وابن
المراغة، شفاء المحزون، وعِلْمُ السر المحزون، ما بين منشوره والموزون.

والآن لا مُلْهِج ولا مُبْهِج، ولا مُرْشِد ولا مُنْهَـج، عكست
القضايا فلم تُنتِج، فتبدّل القلب الذكي، ولم يرشح القلم الزكي وعمّ
الإفحام، وغمّ الاحجام، وتمكّن الإكداء والإجبال، وكوّرت
الشمس وسيرت الجبال، وعلت سامة، وغلبت ندامة، وارتفعت
ملازمة، وقامت إنوعِي الأدب قِيَامَةً، حتّى إذا ورد ذلك المهرّق،
وفرّع غصنه المورّق، تعنّى به الحمام الأووق، واحاط بعداد عُداته
الغصص والشرق، وأمن من الغصب والسرّاق، وأقبل الأمن وذهب
لاقباله الفرق، نُفِخَ في صور أهل المنظوم والمنثور، بُعثَ ما في القبور،
وحصل ما في الصدور، وتراءتْ لِلأدبِ صورٌ، وعُمّرتْ للبلاغة

١ - العول في الميراث زيادة السهام على الفريضة فيدخل عليها النقصان بحسب
تلك الزيادة.

كُور ، وَهَمَّتْ لِلْبِرَاعَةِ دِرَر ، وَنُظِمَتْ لِلْبِرَاعَةِ دُرَر ، وَعِنْدَهَا تَبَيَّنَ أَنَّكَ
وَاحِدُ حَلْبَةِ الْبَيَان ، وَالسَّابِقُ فِي ذَلِكَ الْمَيْدَانِ يَوْمَ الرَّهَان ، فَكَانَ لَكَ
الْقِدَم ، وَأَقْرَبُ لَكَ مَعَ التَّأَخُّرِ السَّابِقُ الْأَقْدَم ، فَوَحَقَّ فَصَاحَةُ الْفَاطِ
أَجَدَتَهَا حِينَ أوردتها وَأَسْلَتَهَا حِينَ أَرَسَلَتَهَا ، وَأَزَنَتَهَا حِينَ وَزَنَتَهَا ،
وَبَرَاعَةٍ مَعَانٍ سَلَكَتَهَا حِينَ مَلَكَتَهَا ، وَأَرَوَيْتَهَا حِينَ رَوَيْتَهَا ، وَأَوْرَيْتَهَا
وَأَصْلَتَهَا حِينَ فَصَلَّتَهَا ، وَوَصَلَّتَهَا وَنَظَّمَ جَعَلَتْهُ بِجَسَدِ الْبَيَانِ قَلْبًا ، وَلِغَصَمِهِ
قَلْبًا ، وَهَصَرَتْ حَدَانِقَهُ غَلْبًا وَارْتَكَبَتْ رَوِيَّهَ صَعْبًا ، وَنِشَارَ اتَّبَعَتْهُ لَهُ
خَدِيمًا ، وَصَيَّرَتْهُ لِمُدِيرِ كَأْسِهِ نَدِيمًا ، وَلِحِفْظِ ذِمَامِهِ الْمُدَامِي أَوْ مُدَامِهِ
الذِّمَامِي مُدِيمًا ، لَقَدْ فَتَنَنْتَنِي حِينَ أَتَيْتَنِي ، وَسَبَيْتَنِي حِينَ صَبَيْتَنِي ، فَذَهَبَتْ
خِفَّتُهَا بَوَقَارِي ، وَلَمْ يَرُعْهَا بَعْدُ شَيْبُ عِذَارِي ، بَلْ دَعَتْهُ لِلتَّصَابِي فَقُلْتُ
مَرْحَبًا وَحَلَمْتُ لِفَتْنَتِهَا الْحُبَّ ، وَلَمْ أَحْفِلْ بِشَيْبٍ ، وَأَلْفَيْتُ مَا رَدَّ نَصَابِي
نُصَيْبٌ ، وَإِنْ كُنَّا فَرَسِي رِهَانًا ، وَسَابِقِي حَلْبَةِ مَيْدَانٍ ، غَيْرَ أَنَّ الْجِلْدَةَ
بَيْضَاءَ ، وَالْمَرْجُو الْإِعْضَاءُ بَلِ الْإِرْضَاءُ .

بُنِي ، كَيْفَ رَأَيْتَ لِلْبَيَانِ هَذَا الطَّوْعَ ، وَالْخُرُوجَ فِيهِ مِنْ نَوْعٍ إِلَى
نَوْعٍ ، أَيْنَ صَفْوَانُ بْنُ أَدْرِيسَ ، وَمَحَلُّ دَعْوَاهُ بَيْنَ رَحْلَةٍ وَتَغْرِيسٍ ، كَمْ بَيْنَ
ثَغَاءِ بَقَرِ الْفَلَاةِ وَزَيْثِرِ لَيْثِ الْفَرَيْسِ ، كَمَا أَنِّي أَعْلَمُ قَطْعًا وَأَقْطَعُ عِلْمًا ،
وَأَحْكَمُ قَضَاءً وَأَمْضِي حُكْمًا ، إِنَّهُ لَوْ نَظَرَ إِلَى قَصِيدَتِكَ الرَّائِقَةِ ، وَفَرِيدَتِكَ

الحالية^١ الفائقة ، المعارضة بها قصيدته ، المنتسخة بها فريدته ، لذهب
عرضاً وطولاً ، ثم اعتقد لك اليد الطولى ، وافرّ فارتفع النزاع ، وذهبت
له تلك العلامات والأطماع ، ونسي كالمته اللؤلؤية ، ورجع عن دعواه
الأدبية ، واستغفر ربه من الألهمية .

بني ، وهذا من ذلك ، ومن الجري في تلك المسالك ، والتبسّط
في تلك المآخذ والمتارك ، أينزع غيري هذا المنزع أم المرء بنفسه وابنه
مُولع ، حيا الله الأدب وبنيه وأعاد علينا من أيامه وسنيه ، ما أعلى منازعه ،
وأكبر منازعه ، واجلّ مآخذه ، واجهل تاركه واعلم آخذه ، وارق
طباعه ، واحقّ أشياعه وأتباعه ، وأبعد طريقه ، وأسعد فريقه ،
وأقوم نهجه ، واوثق نسجه ، وأفصح عكاظه ، وأصدق معانيه
والفاظه ، وأحمد نظامه ونشازه ، وأغنى شعاره ودثاره ، فعائبه مطرود ،
وعائبه مصفود ، وجاهله محصود ، وعالمه محسود ، غير أن الإحسان
فيه قليل ، ولطريق الإصابة فيه علمٌ ودليل ، من ظفّر بهما وصل ، وعلى
الغاية القصوى منه حصل ، ومن نكب عن الطريق ، لم يُعدّ من ذلك
الفريق ، فليهنك أيها الابن الذكي ، البرّ الزكي ، الحبيب الحفيّ ، الصفيّ
الوفي ، أنك حامل رايته ، وواصل غايته ، ليس أوّلوه وآخروه لك
بمنكرين ، ولا تجد أكثرهم شاكرين ، ولولا أن يطول الكتاب ،

وينحرف الشعراء والكتّاب ، لفاضتُ يَنابيعُ هذا الفضل فيضاً ،
 وخرجتُ الى نوعٍ آخرٍ من البلاغة أيضاً ، قرّت عيونُ أودّائك ،
 ومُلئتُ غيظاً صدورُ أعدائك ، ورقيت درج الآمال ، ووقيت عين
 الكمال ، وحفظ منصبك العالي بفضل ربك الكبير المتعالي ، والسلام
 الاتمّ الانتمّ ، الأكل الاعمّ ، ينصّك به مَنْ طال في مدحه إرقالك
 واغذاك ، وراض روض حمده وابلك وطلّك ورذاك ، وغدت
 مصالحُ سعيه في سعي مصالحك وسينفعك بحول الله وقوته وفضله ومنته
 معاذك ، ووسّمتَ نفسك بتلميذه فسَمَتَ نفسه بانه استاذك ، ابنُ هانيء
 ورحمةُ الله تعالى وبركاته .

رسالة لابي جعفر الجنّان المكناسي بعث بها لابن الخطيب

وقد فاتحه بنظيرتها 'محرّكاً قريحته

يا خارِطَ الآداب مهلاً فقد ردّك عن خطبتها ابنُ الخطيب
 هل غيره في الأرض كفّ لها وشرّطها الكفاة قولٌ مصيب
 أصبح للشرط بها مُعرّساً فاستفت في الفسخ فهل من مُجيب

أيها السيد الذي يُتنافس في لقائه ويُتغالي ، ويصادم بولائه صرفُ
 الزمان ويُعالي ، وتُستنتج نتائجُ الشرف بمقدّماتِ عرفانه ، وتقتنصُ
 شوارِدُ العلوم برواية كلامه فكيف بُمدانة عيانه ، جَلوتَ عليّ من

بنات فكرك عقائِلَ نَوَاهِدَ ، واقمتَ بها على معارفك الجمَّةَ دلائِلَ
وشواهدَ ، واقتنصتَ بشوارد بديهتك من المعالي أو ابداً شوارد ،
وفجَّرتَ من بلاغتك وبراعتك حياضاً عذبة الموارد ، ثم كلَّفتني من اجراء
ظالعي في مَيِّدانَ ظليعيها^١ ، مُقابلةَ الشمس النيرة بالسراج عند طلوعها ،
فأخلدتُ إخلادَ مهيبِ الجناح وفررتُ فرارَ الأعزل عن شاكي السلاح ،
وعلمتُ أنني إن أخذت نفسي بالمقابلة ، وأدليتُ دَلَوَ قريحتي للمُساجلة ،
كنتُ كمن كلَّف الأيامَ رجوعَ أمسها ، أو طلبَ ممَّن علته السماء
مُحاولةَ لمسها ، وإن رَضِيتُ من القريحة بسجيَّتها وأظهرتُ القدرَ الذي
كنتُ امتحتُ من رَكِيَّتِها ، أصبحتُ مَسْخَرَةً للرائين والسامعين ، ونَبَتُ
عن اسمي دواوينهم كما تنبؤ عن الأشيب عيونُ العين ، ثم إن امرَك
يا سيدي ، لا يُحِلُّ وَثِيقُ مُبْرَمِهِ ، ولا يَحِلُّ نَسْخُ مُحْكَمِهِ ، فامتثلتُ
امتثالَ من لم يجدُ في نفسه حرجاً من قضائك ورجوتُ حسنَ تجاوزك
واغضائك ، ابقاك الله قُطْباً ، لِفَلَكَ المكارم والمآثر وفصلاً لِحَاتِمِ المحامد
والمفاخر والسلام .



١ - الظالع الضعيف المشي والضيع القوى الشديد ، ويقال لا يبلغ الظالع
شأوا الضليع .

رسالة للقاضي ابي عبد الله الفشتالي الى ابن الخطيب

جواباً عن مخاطبة مَدْحٍ وثناءٍ بعث بها إليه

وافتُ يَجْرُ الزَّهْوُ فَضْلَةً بُرْدِهَا حسناء قد أضحت نسيجةً وحدها
 لله أيُّ قصيدة أهديتَ لو يَهْدِي المعارضُ نحوَ غايةِ قصديها
 لابن الخطيب بها محاسنُ جمّة يلقي الخطيبُ فهاهنا في عهدّها
 سرّ البلاغة منه أودعَ حافظاً قد صانه حتى فشا من عندها
 في غير ما عقد نفثت بسحرها فلذا أتى سلساً مُنظَّمُ عقدها
 لم ادر ما فيها رقت معنونا من طرُسها أو مُعلّما من بُندها
 حتى دفعتُ بها لأبعد غايةٍ باعاً تقاصر في البلوغ لحدها
 حرّان من نظم ونثر إن من يلقاهما يرجعُ بذلة عبيدها
 أولى يداً بيضاء موليها فما لي قدرة حتى اقوم بحمدها
 ورفضتُ تكذيب المتشيعا لعلّي مرءاهما بصادق وعدها
 فبذلتُ شعري رافعاً من قدرها وهززت عطفني رافلاً في بُردها

خذها اعزّ الله جنابك ، وادال للأنس على الوحشة اغترابك ،
 كنغبة الطائر المتحفّز ، ونهبة السائل المستوفز ، ومقّة اللحظ ، قلقّة

اللفظ ، قد جمعت من التزامها وانقيامها بين بطن فندا ، وُصْلود زندا ،
ونوَّعتُ فعلى إقدامها وإحجامها الى قاصرٍ ومُتَعَدٍّ . وليتني إذ جادت
سحابةُ ذلك الخاطر الماطرِ الودَّيق ، وانجاب العشا عن قريحة فكري
بتقاضي الجواب انجياب الطوق ، أيقنتُ اني قد سُدَّ عليَّ باب القول
وأرتج ، وقلت هذه السالبة الكلية ، لا تُنتج ، فنبذت طاعة الداعية
من تِلْكم الإمرة ، ولم أفه إذا أعوزت الحُلوة بالمرّة . لكنني قلتُ
وُجْدُ المكثّر كجهد المقلّ ، والواجب يكفي الامتثالُ فيه بالأقلّ ،
فبعثتُ بها على علّاتها وابلغتها عذرها في أن كنتُ عن شوقها بلُغاتها ،
وهي لا تعدُّ من سيدي اغضاء كريم وإرضاء مُلِيم ، والله عز وجل
يصلُ بالتانيس الحبْل ، ويرُدُّ الألفة ويجمع الشمل والسلام الكريم يُخصُّ
تلك السيادة ورحمة الله وبركاته .

رسالة لعبد العزيز الفشتالي بعث بها الى المقرري

صاحب نفح الطيب جواباً عن كتاب كتبه له قبيل تشريقه

يا نَسْمَةً عَطَسَتْ بِهَا أَنْفُ الصَّبَا	فتضمّخت بعبيرها قُنْنُ الرُّبَا
هَبِّي عَلَى سَاحَاتِ أَحْمَدِ وَأَشْرَحِي	شوقي الى لُقياه شَرْحاً مُطْنَبَا
وَصِفِي لَهُ بِالْمُنْحَنَى مِنْ اضْلَعِي	قلْباً عَلَى جَمْرِ الْغَضَا مُتَقَلِّبَا

بَانَ الأُحِبَّةُ عَنْهُ ، حَيُّ قَدْ ثَوَى مِنْهُمْ ، وَآخِرُ قَدْ نَأَى وَتَغَيَّبَا
فَعَسَاكَ تُسَعِّدُ يَا زَمَانُ بِقُرْبِهِمْ فَأَقُولُ أَهْلًا بِاللِّقَاءِ وَمَرْحَبَا

السيادة التي سَوَّاهَا اللهُ مِنْ طِينَةِ الشَّرَفِ وَالْحَسَبِ ، وَغَرَسَ دَوْحَتَهَا
الطَّيْبَةَ بِمَعْدِنِ الْعِلْمِ الزَّاكِي الْمَحْتَدِّ وَالنَّسَبِ ، سِيَادَةِ الْعَالَمِ الَّذِي تَمْشِي تَحْتَ
عِلْمِ فَتْيَاهِ الْعُلَمَاءِ الْأَعْلَامِ ، وَتَخْضَعُ لِفَصَاحَتِهِ وَبِلَاغَتِهِ صَيَارِفَةُ النُّثْرِ
وَالنِّظَامِ ، وَحِمْلَةُ الْأَقْلَامِ ، كُلَّمَا خَطَّ أَوْ كَتَبَ . وَإِذَا اسْتَطَارَ بِفِكْرِهِ
الْوَقَادِ سَوَاجِعَ السَّجْعِ انْثَالَتْ عَلَيْهِ مِنْ كُلِّ أَوْكَارِهَا وَنَسَلَتْ مِنْ كُلِّ
حَدَبٍ ، وَحَكَّتْ بِانْسِجَامِهَا السَّيْلَ وَالْقَطْرَ فِي صَبَبٍ ، الْفَقِيهِ الْعَالَمِ الْعِلْمِ ،
وَالْمَحْصَلِ الَّذِي سَاجَلَتْ الْعُلَمَاءُ لِتُدْرِكَ فِي مَجَالِ الْإِدْرَاكِ شَأْوَهُ فَلَمْ ، سَيِّدِنَا
الْفَقِيهِ الْحَافِظِ حَامِلِ لَوَاءِ الْفَتْيَا ، وَمَالِكِ الْمَمْلَكَةِ فِي الْمَنْقُولِ وَالْمَعْقُولِ مِنْ غَيْرِ
شَرْطٍ وَلَا ثُنْيَا ، أَبُو الْعَبَّاسِ أَحْمَدُ بْنُ مُحَمَّدٍ الْمُقْرِي أَبَقَاهُ اللهُ تَعَالَى لِلْعِلْمِ يَفْتَضُّ
أَبْكَارَهُ ، وَيَجْنِي مِنْ رَوْضِهِ الْيَانِعِ ثَمَارَهُ . سَلَامٌ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللهِ تَعَالَى
وَبَرَكَاتُهُ كَتَبَهُ الْحَبِّ الشَّاكِرُ عَنْ وَدِّ رَاسِخِ الْعِمَادِ ، ثَابِتِ الْاَوْتَادِ ، مَزْهُوِّ
الْأَغْوَارِ وَالْأَنْجَادِ ، وَلَا جَدِيدٍ إِلَّا الشُّوقُ الَّذِي تَحْنُ إِلَى لِقْيَاكُمْ رُكَّابِهِ
وَتَرْتِنَاحِ ، وَتَحْوِمُ عَلَى مُوَرِّدِ الْإِنْسِ بِكُمْ حَوْمَ ذَاتِ الْجَنَاحِ عَلَى الْعَذْبِ
الْقَرَّاحِ ، جَمَعَ اللهُ تَعَالَى الْأَرْوَاحَ الْمُتَوَلِّفَةَ عَلَى بَسَاطَةِ السَّرُورِ وَأَسْرَةِ الْهَنَاءِ ،
وَإِتَّاحَ لِلنَّفُوسِ مِنْ حَسَنِ مُحَاضَرَتِكُمْ قَطْفَ الْمُشْتَهَى وَهُوَ غَضُّ الْجَنَى .

وَقَدْ اتَّصَلَ بِالْحَبِّ الْوَدُودِ الرَّقِيمِ الَّذِي رَاقَتْ مِنْ سَوَادِ النَّقْشِ

وبياض الطرس شياتّه ، وأرانا مُعْجِزَ أحمدَ فبهرت آياتّه ، وخبا
سَقَطَ الزُّنْدُ لما أشرقتُ من سماءِ فكرِكم آياتّه ، فاطرَبنا بتغريد طيور همزاته
على أغصان ألفتّه ، وعوَّذنا بالسَّبْعِ المِثْنِيّ بَناناً أجادت نثر زهراته على
صفحاته ، ثم مررنا بتضاعيفه بسوق الرقيق ، فرمنا السلوك على منحاهـا
فعمي علينا الطريق ، وقلنا واهاً على سوقِ ابنِ نباتة وكسادِ رقيقها ،
واستلابِ البهجة عن نفيس دُرِّها وأنيقها ، لا كسوق نفق فيها سوقُ
الغزل ، وعلا كعبُ الراح والأعزل ، وتظافر على سحر النفوس
والالباب هاروتُ الجِدوَماروتُ الكُزْلُ ، وقد القينا السلاح وجنحنا
للسلم وتهمنا للسباحة فوقفنا بساحل اليمّ ، وسأمننا لمن استوت به سفينةُ
البلاغة على الجوديّ ، فأبنا والحمد لله على السلامة بالفهامة والعبيّ ، وقلنا ما
لنا وللانشاء ، فهو فضلُ الله يؤتیه من يشاء .

وعذراً أيها الشيخ عن البيت الذي عطست به أنفُ الصبا فقذفت
به البديهة من الفم ، وشرقت به صدرُ قنّاة القلم ، كما شرقت صدرُ
القناة من الدّم ، وأما ما تحمّل الرسول من كلام ، في صورة ملام لا بل
مُدام ، أترعَ به من سلاف المحبة كأسٌ وجّام ، فلا وربك ما هي إلا
نفحةٌ نفحت ، لا سموم لفحت ، هزّنا به جذعُ ادبكم كي يتساقط علينا
رطباً جنياً ، ويهمي ودّقه على الرّبع المحيل من أفكارنا وسميّا ووليا ،
فجاد وأروى ، وأجاد فيما روى ، وأحيا من القرائح ميثا كان حديثاً
يُروى ، وطرّسا بين أنامل الأيام يُنشر ويُطوى ، أحيا الله تعالى قلوبنا

بمعرفته ونوايسم رحمته ، وعرج بارواحنا عند الممات الى المحل الأخص
بالمؤمن من حضرته .

وأهدي السلام ، المزرّي بمسك الختام ، على الفقيهين الأمجدين ،
الصدرين الأنجدين الفذين التّوأمين ، الفاضلين المجلدين ، فارسى البراعة
والبراعة ، ورئيسي الجماعة في هذه الصناعة ، رَضِيعِي لِبَابِ الأدب
ووَاسِطَتِي عَقْدِهِ ، وَجَبِلِي قَدْحَهُ الْمُعَلَّى وَمُورِي زَنْدَهُ ، الْمُتَمَتِّعِينَ بِشَمِيمِ
عَرَارِهِ وَرَنْدِهِ ، الْكَارِعِينَ بِالْبَحْرِ الْفَيَاضِ مِنْ هَزْلِهِ وَجِدِّهِ ، الْآتِيَيْنِ
بِالْجَنَسِ وَالْفَصْلِ مِنْ رَسْمِهِ وَحَدِّهِ ، الْكَاتِبِ الْبَارِعِ ابِي الْحَسَنِ سَيِّدِي عَلِي
ابن احمد الشامي ، وَالْكَاتِبِ الْبَلِيغِ ابِي عَبْدِ اللَّهِ سَيِّدِي مُحَمَّدَ بْنَ عَلِي الْوَجْدِي ،
وَاقْرَ لَهْمَا الْوَدَّ الْمُسْتَحْكَمَ الْمَعَاقِدَ ، الصَّافِي الْمَنَاهِلَ الْعَذْبَ الْمَوَارِدَ ، وَانِي
قَائِمُ بَوْرَدِ الثَّنَاءِ عَلَيْكُمْ وَعَلَيْهِمَا لَدَى الْمَقَامِ الْعَلِيِّ الْإِمَامِيِّ النَّاضِرِيِّ دَامَ
سُلْطَانُهُ ، وَتَمَهَّدَتْ أَطْوَارُهُ وَأَوْطَانُهُ . وَنَهَى إِلَيْكُمْ أَنْ الْفَقِيهَ الْمَحْبُوبَ الْإِسْتَاذَ
سَيِّدِي مُحَمَّدَ بْنَ يَوْسُفَ طَلَّقُ اللِّسَانَ بِالشُّكْرِ صَادِحٍ عَلَى أَيْكَ الثَّنَاءِ عَنْ
تَلْكَمِ السِّيَادَةِ بِمَا أَوْلَيْتُمُوهُ بِهِ مِنْ جَزِيلِ الْإِحْسَانِ ، وَقَابَلْتُمُوهُ بِهِ عِنْدَ الْوُرُودِ
وَالصَّدْرِ مِنَ الْبَشَرِ وَالْكَرَامَةِ وَجَمِيلِ الْإِمْتِنَانِ ، وَالسَّلَامُ التَّامُّ مَعَاذُ عَلَيْكُمْ
وَرَحْمَةُ اللَّهِ تَعَالَى وَبَرَكَاتُهُ .

رسالةٌ للاديب محمد ابن ابراهيم الفاسي الى الشهاب محمود الخفاجي
جواباً عن كتاب بعثَ به إليه

بعد تقبيل ثريا ذلك الثرى ، الذي عبق في الشام عنبراً ، وقلد جيدَ
الزمان دُرراً ، لا زال منبعّ البيان ، ومنتجع الأعيان ، ولا برحَ جوهرُ
حصبائه يُفضّله العيان على قلائد العقيان ، هذا وصل إليّ وصل الله
إليك أسبابَ العلا ، وألبسك رائقَ الحلّى ، كتابك الخطير في رُقعة من
محاسن لفظك الرائق الجلباب ، المزري بروّ نق ريق الشباب ، وبهجةٍ
من بدائع خطك المستوقف للنّاظر ، المخجل بحُسْنه الوشّى الفاخر ،
والروضَ الناضر فأجنتاني ثمرَ البرّ يانعاً ، وجلا علي وجهَ الود
ابيضَ ناصعاً .

وأراني كيف انقيادُ القوافي في زمام البيان سمعاً وطوعاً
وفتحَ للمُخاطبة باباً طالما كنتُ له هيّاباً ، ورفعَ حجاباً ترك القلبُ
وجّاباً ما زلتُ أغازُ لها أملاً ، فلا أطيّقُ لها عملاً ، وألا حظّها أمداً ،
أذوبُ دونه كمداً .

وفي تعبٍ من يحسُدُ الشمسَ نورَها ويزعمُ ان يأتي لها بضربٍ
لا جرمَ انه اقتضاني خالصَ ودٍ وصحيحَ عهدٍ ، لم يلتفتَ مني الى

مَعْدِرَةٌ وَلَمْ يَكِلْنِي إِلَى مَا فِي الْوُسْعِ مِنَ الْمَقْدَرَةِ ، وَقَدْ يَعُودُ عَلَى عِلْمِكَ بِحَرِّ الْقَرِيحَةِ ثَمَدًا ، وَحَسَامُ الذَّهْنِ مِعْضَدًا ، فَتَكَلَّفْتُهَا بِحُكْمِ هَذَا الْغَرَامِ تَحْتَ حَصَرٍ وَنَازِحِ بَصَرٍ ، فَإِنْ سَمَحْتَ بِالْأَغْضَاءِ ، وَسَاحَتَ فِي الْإِقْتِضَاءِ ، سَأَمْتُ لَكَ الْيَدَ الْبَيْضَاءَ وَظَهَرْتُ لَشُكْرِكَ بِالْفَضَاءِ ، وَأَمَّا الْعَذْرُ الَّذِي تَوَخَّيْتُ وَلَا عَدِمْتُ شَرَحَهُ وَحَمَيْتُ بِقُوَّةِ الْكَلَامِ سَرَحَهُ ، فَإِنِّي غَنِيٌّ عَنْ تَكَلُّفَاتٍ إِيْضَاحِهِ ، وَمَدَّةٍ أَوْضَاحِهِ ، فَالَّذِي يَشُبُّ فِي النَفُوسِ ، مِنَ الْوَدِّ الْمَصُونِ الْمَحْرُوسِ ، لَا يُخْشَى عَلَيْهِ مِنْ تَسَلُّطِ الطُّمُوسِ وَالذُّرُوسِ ، وَلَا أَقُولُ إِنْ وَدِّي لَكَ كَالْتَّبَرِ إِذْ لَا يَصْفُو مَا لَمْ يَشْبُهُ لَهَيْبُ الْجَمْرِ ، وَلَا كَالرَّاحِ ، حَيْثُ يَفْتَقِرُ فِي الرِّقَّةِ إِلَى الْمَسَاءِ وَالصَّبَاحِ ، بَلْ أَقُولُ إِنْ وَدِّي لَكَ أَيْدِيَ اللَّعْنِ ، كَالْفُرَاتِ الْعَذْبِ ، يَشْفِي غَلِيلَ الْقَلْبِ وَيُطْفِئُ لَهَيْبَ الصَّبِّ ، يَحُلُّ بِالْأَرْضِ الْمَيْتَةِ فَيُحْيِيهَا ، وَيَمُرُّ بِالرَّوْضَةِ الذَّابِلَةِ فَيُتَوِّجُهَا بِالْأَزْهَارِ وَيُحَلِّيْهَا ، وَأَنْتَ أَعَزُّكَ اللَّهُ لَا تُثْرِبُ عَلَيْكَ إِذْ كُلُّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ ، وَيَجْرِي فِي أُمُورِهِ عَلَى مَقْتَضَى مَرَاتِبَتِهِ ، فَإِنْ حُنُوَّ السَّيِّدِ ، وَأَنْتَ ذَاكَ ، يُسْتَكْثَرُ قَلِيلُهُ ، وَإِخْلَاصُ الْعَبْدِ ، وَهُوَ أَنَا يُسْتَحَقَّرُ كَمَا عَلِمْتَ جَلِيلُهُ ، وَالْحُبُّ أَغْلَبُ وَمَعْرِفَةُ الْمَرْءِ نَفْسَهُ أَصَوَّبُ .

وَأِنْ تَفَضَّلْتَ بِالِاسْتِفْسَارِ عَنْ أَحْوَالِ الْعَبْدِ فَإِنَّ الْحَالَ فِي خَيْرٍ ، وَالْمَالَ يَعْلَمُهُ اللَّهُ تَعَالَى ، وَبِالْجُمْلَةِ فَسَهْمُ الْمَصِيبَةِ إِنْ سَدَّاهُ الدَّهْرُ ، فَعَلَى مِثْلِهِ وَقَعَ ، وَالتَّأَلُّمُ بِمِثْلِ هَذِهِ الْحَالَةِ قَدْ ارْتَفَعَ :

وَلَمْ أَرَ مِثْلَ الصَّبْرِ ، أَمَّا مَذَاقُهُ فَحُلُوٌّ ، وَأَمَّا وَجْهُهُ فَجَمِيلٌ

وكذلك كلُّ من دعا الصبر لما شاء أجاب ، وأراه من نشره الأفق
المنجاب ، وأقامه بين مَبَرَّات وَأَلْطَاف ، وأعطاه مما أحب جَنِيَّ قَطَاف
ولله در القائل :

يعيشُ المرءُ ما استغنى بخير ويبقى العودُ ما بقي اللحاءُ

وهو الدهر لا يُرَدُّ عن مراده ، ولا يُصدَّر في إصداره وإيراده :

فيومٌ علينا ويومٌ لنا ويومُ نساء ويومُ نسرٍ

على أن طول الغيبة ليس لشيء عليم الله أثرته على لُقياءكم إذ
استبدل له طوعاً لَكَمَّة ارتكابٌ للأخف من الضررين ، واختيار للأهون
من الشرين :

عسى غلطاً يثني الزمانُ عِناهُ بدورُ أمور والأُمورُ تدور
فتدركُ آمالٌ وتُقضَى مآرب وتحدث من بعد الأمور أمور

فلذلك قنعت من البحر الوَشل ، وسرحتُ في رياض المُلتى بين
عسى ولعل ، فقد قيل إذا دارَ الفلكُ ، فعليك أو فلكُ ، والله في خلقه
أمر لا تُدرك العقولُ حكمته « وهو الذي يُنزلُ الغيثَ من بعد ما
قنطوا وينشر رحمته » وما اجتليته في كتابك الخطير وروض خطابك
المطير ، استدعى شيئاً من نظم العبد ونثره ، والتنويه بذلك من خامل
ذكره ، فلا عدمتُ منك مولى على الإحسان مُثابراً ، وحكيماً لكسر

إكسير الخاطر جابراً ، مع تشئت الحال لبُعْد مَزارك ، ونأي داري عن دارك ، وأقسم اني صممتُ على التغافل عن الجواب وهو الأولى بالصواب ، إذ ليس بلبيب من يقيسُ الشبر بالباع والجبان بالشجاع ، وكيف لا وكلُّ من تكلف فوق طاقته افتضح لساعته ، لكن عدمُ الامتثال محذور ، والمُلْجَأُ الى ما لا يُطاق معذور ، فتكلفْتُ ما يُعرضُ عليك من المُسمَّطات سوى القصائد المُشار اليها بذكر بعضها فانها متقدمة على ورود مُشرِّفَتكم ومثلك من سدِّ الخلل وتجاوز عن الزلل ، والله يُبقيك ، ومن كل سوء يقيك والسلام .

(ج) (المتفرقات)

رسالة للقاضي أبي موسى بن عمران

المتوفى سنة ٥٧٨ الى ولد له بفاس قد ناهز الحلم

الى ولدي فلان ، هداه الله وصانه ، وجمله بالعلم والتقوى وزانه ، كتبه اليكم عن اشتياق كثير ، وبمشيئة الله تعالى تتيسر الأمور ، ويتكاثف السرور ، وإذا وجدتم على ما أحبه من أدوات الحفظ والأداء ، ولزام آداب العقلاء ، جازيتكم بما يرضيكم ، وبما يزيد على اقصى تمنىكم ، وقد اجمعت الأئمة على ان الراحة ، لا تُنال بالراحة ، وان العلم ، لا يُنال براحة الجسم ، فادرُس تروُس ، واحفظ تحفظ ، واقرأ ترق ،

ومهما رَكَنْتَ الى الدَّعة ، كُنْتَ في أهل الضَّعة ، وما رَأَيْتَ النَّاسَ
مُجْتَمِعِينَ على حَمْدِهِ فَاجْتَلِبْهُ ، وما رَأَيْتَهُمْ مُجْتَمِعِينَ على ذَمِّهِ فَاجْتَنِبْهُ ، والأَعْدَلُ
الأَقْسَطُ ، ان تَسْلُكَ السَّبِيلَ الأَوْسَطَ :

وما المرءُ إِلَّا حيثُ يجعلُ نفسه ففِي صالحِ الأعمالِ نفسُكُ فاجْعَلْ

رسالة ابي جعفر بن عطية الى عبد المؤمن يستعطفه بها

عطفاً علينا أمـيرَ المؤمنين فقد
قد اغرقتنا ذنوب كلِّها لُججٌ
وصادفتنا سهامُ البَينِ عن عَرَضٍ
هيهاتَ للخطب ان تسطو حوادثه
مَنْ جاءَ عندكم يسعَى على ثقة
فالثوبُ يَطْهَرُ بِدِ الغسلِ من دَرَنٍ
انتم بذلتم حياةَ الخلقِ كلِّهم
ونحن من بعض من احييت مكارمكم
وصبئية كَفَرَاخُ الورقِ من صَغَرٍ
قد أوجدتهم أيادٍ منك سالفه

بانَ العزاءُ لِفَرَطِ الهم والحزن
ورحمة منكم أنجى من السُّفْنِ
وعطفة منكم أوقى من الجُننِ
بِمَن أجارته رُحماكم من المَحَنِ
بِنصره لم يخفْ بَطْشاً من الزمنِ
والطَّرْفُ يَرَهْصُ بعد الرِّكْضِ في سَنَنِ
مِن دُونِ مَنْ بها كَلَّا ولا ضَنَنِ
كلتا الحياتينِ من رُوحٍ و مِن بَدَنِ
لم يَأْلُفُوا التَّوَحَّحَ في فَرْعٍ ولا قَنَنِ
والكلُّ لولاك لم يُوجَد ولم يَكُنْ

تالله لو احاطت بي كلُّ خطيئة ، ولم تنفك نفسي عن الخيرات بطيئة ،

حتى سخرتُ بمن في الوجود وانفتُ لآدم من السجود ، وقلتُ ان الله لم يُوحِ ، في الفلُك الى نُوح ، وأبرمتُ لاحتطاب نار الخليل حبلاً ، وبريتُ لِقَدَارِ ثَمُودَ نَبْلاً^١ ، وحططتُ عن يونس شجرةَ اليقطين ، وأوقدتُ مع هامان على الطين ، وقبضتُ قبضةً من أثر الرسول فنبدتها ، وافتريتُ على العذراء البتول فقدفتُها ، وكتبتُ صحيفة القطيعة بدار الندوة ، وظاهرتُ الأحزاب بالقصوى من العدو ، وابغضتُ كلَّ قرشي ، واحببتُ لأجل وحشي^٢ كلَّ حبشي ، وقلتُ بأن بيعة السقيفة ، لا تُوجبُ إمامة خليفة ، وشحذتُ شفرة غلام المغيرة بن شعبه ، واعتلقتُ من حصار الدار وقتل أشمطها^٣ بشعبة ، وقلتُ تقاتلوا رغبة في الأبيض والأصفر ، وسفكوا الدماء على الثريد الأعفر ، وغادرتُ الوجه من الهامة خضيباً ، وناولتُ من قرع سنَّ الحسين قضييماً ، ثم كنتُ بحفرة المعصوم لا ئذاً ، وبقبر المهدي رضي الله عنه عائداً ، لقد آن لِمَقَالَتِي ان تُسمع ، وأن تُغفر لي هذه الخطيئاتُ أجمع ، مع اني مُعترف وبالذنب مُعترف :

فَعَفُوا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ فَمَنْ لَنَا بِرَدِّ قُلُوبِ هَذِهِ الْخَفَقَانِ

والسلام على المقام الكريم ورحمة الله وبركاته .

١ - قدار هو اسم عاقر ناقة صالح .

٢ - وحشي هو قاتل حمزة عم النبي صلى الله عليه وسلم في غزوة أحد وكان مولى حبشياً لجبير بن مطعم

٣ - يريد به عثمان (ض) ٤ - يشير الى اغتيال علي كرم الله وجهه .

رسالة أبي الخطاب بن دحية

الى والي بجاية يسأله تسريح خديم له أخذ في غزاة البحر
وقد ارتكب فيها غريب اللغة على عادته (*)

الشيخ الفقيه الأديب الجحجاح^١ الهرماس^٢ أبو فلان ، جحَمَظ^٣
الله قعشبان^٤ شَفَرَتَه^٥ .

هذا الغطريس^٦ في اليم^٧ أخذ رجلا لا يملك حذر فوتا^٨ فيرى
الزُّبرقان^٩ فيخاله حواري^{١٠} ويرى الجعل^{١١} فيحسبه زعجبا^{١٢} وله^{١٣} قرحة
أمحشت^{١٤} من الحر ، وتعطل كفرها^{١٥} فابعث الى هذا العثري^{١٦} من
يخضد^{١٧} شوكته والسلام .

(*) أنظر ترجمته وبجث العلوم اللغوية في عصر الموحدين في الجزء الأول .

- ١ - السيد - ٢ - الأسد - ٣ - لف وشد - ٤ - القعشبان الكثير من كل شيء
- ٥ - الشفرة التفرق والتكسر - فالمعنى على الدعاء له يجمع متفرق أمره - ٦ - المتكبر
- الظالم - ٧ - البحر - ٨ - أي شيئا - ٩ - القمر - ١٠ - الحواري الدقيق الأبيض ويراد هنا
- الرغيف المصنوع منه ، ١١ - ضرب من الخنافس معروف - ١٢ - الزعج الزيتون
- ١٣ - الضمير يعود على الرجل ، ١٤ - أحرقت وقشرت - ١٥ - أي سترها وبرؤها
- ١٦ - هو الذي لا هم له في دنيا ولا آخرة - ١٧ - يقطع .

رسالة الى عبد الواحد المراكشي

من صديق له صبي لم يبلغ الاحتلام ، 'يخبِرُهُ ببعض الفتوح

كُتِبَ من منزل سُوس وقد تبلَّج فجرُ الفتح فأسفر ، وقال فريقُ
الضلال وشيعته أين المفر ، وقد ألقى النصر جرَّانه ، وأعزَّ الله حربه
المؤيد وأعوانه ، وشرَّح الحال على غاية الإيجاز ، لأجل الاستعجال في
انتهاء هذه البشائر والانحياز ، أن الناكثين النابذين للعرْوة الوثقى ،
المتمسكين بالسبب الأشقى ، حاصروهم الموحدون أنجدهم الله ، أشدَّ
الحصار وقطعوا عنهم موادَّ المعاش وزرَّافاتِ الأنصار ، ولسانُ التأييد
يتلو علينا بالعشي والإشراق ، (ما ينظر هؤلاء إلا صيحةً واحدةً
مالها من فواق) ولحين ما أخذ الموحدون أنجدهم الله في حَسْمِ دائهم
العضال ، وجرَّدوا لهم من عزَماتهم الصادقة ، ما هو أمضى من النَّصال ،
طأحوا 'مجدِّين بالحضيض ، ومالاً 'جثمانهم الفضاء العريض ، وخيبَ
الله ظنونهم الكاذبة وآمالهم ، وصيَّروهم إلى أمهم الهاوية فكانت أولى لهم ،
ذلك بأنهم اتَّبَعُوا ما أسخط الله وكرُّوا رضوانه فأحبط أعمالهم وأمكن
الله من رأسِ ضلالهم المدعوِّ بأبي قَصبَة ، فقهره الحزب المنصور وغلَّبه ،
وحزَّ الحسام منه قنَّة ورقبة ،

عَقْدُ تَوْبَةِ لَيْمُونِ الْخَطَّائِي^١

يقول العبد الذي اعترف بما اقترف لمولاه ، وأقرّ له بما أضاعه لا
 بما أطاعه على ما منحه من النعم واولاه ، الميمونُ بنُ علي الخطّائي ، جبر
 الله بالتقوى كسره ، وفكّ من حبائل الدنيا أسرّه ، لم ازل مدة أيام بل
 عدّة أعوام ، اخالّل كلُّ مُخلّ بديني ، واستَظَلُّ من إطالة البطالة بكل
 ظلٍّ مُضِلٍّ يُرَدِّني ، واخالف كلَّ صالح مصلح ، واحالف كلَّ طالح
 غير مُفْلِح ، واجرّ اذبال المجنون على ارض الراحة ، وأُطلقُ عنان
 مُهرِ الغفلة في ميدان النسيان فيُطيلُ جمّاحه ومراحه ، راكباً مطايا
 التّسوّيف دون إهمال ، مستوطناً فرش الكسل والانهماك في الشهوات
 والانهمال ، مستوطناً ربّع التصايي بقلة الأعمال وكثرة الآمال ، سالكا
 سبيل الهزل وطريقه ، تاركاً قبيل الجد وفريقه ، لا أثني عَناني ، الى ما
 يَعْنِينِي ، ولا ازال أعاني ، ما يُعْنِينِي ، ولطائفُ الله عزّ وجل التي يضيق
 عن حمل اصغرها الامكنة الفسيحة ، ولا يُطِيقُ بلوغَ شُكْرِها
 اللسنة الفصيحة ، ضاحية الورود ، ضافية البرود وقد طنّبت عليّ قباؤها
 وارواقها ، وخلعت بعنقي ثيابها واطواقها واطردت بماء النعمة مذائبها

١ - ليهلول المجنون حديث يشبه ان يكون هو الأصل لهذا العقد فانظره ان
 شئت في كتاب عقلاء المجانين لابن حبيب النيسابوري .

وانهارها ، وتساوى في القدوم بالكرم ليلها ونهارها ، وأنا مع ذلك لا
 ازيد إلا غفلةً عن القصد السنّي وسهواً ، ولا استزيد الا اشتغالا عن
 المقصود السنّي ولأهوا ، الى أن أجرى الله عادة احسانه وجوده ، وأرادت
 مراداته السائقة السابقة اخراج العبد المذكور من عدم الغفلة الى
 ظهور الإلهام ووجوده ، فسلط رعد الخوف على سحاب سمائه فكشفها
 وجلّلاها ، وحلّ بساحة أرضها سُكْر السلو فسكّرّها من سواه وخلّلاها ،
 وقلّد اجياد فكره بقلائد حمده وشكره وحلّلاها ، وسلّ من سويّـداء
 قلبه محبة غيره فنزّهها عنه وسلّلاها فلاح إصباح النجاح وآذن ليل
 الغفلة بالصباح ، ونادى مُنادي الوصلة بَمَنار العزلة حيّ على الفلاح ،
 وصاح كالِيء صبح النّجح بالسّفر المُعرّسين شُدُّوا المَطِيّ فقد سال نهر
 النهار ، ومال جُرُف الليل وانهار ، وانفجر عمودُ الفجر بنوره الوضّاح ،
 فلاح ، فافاق العبدُ المذكور من نوم الرُّكون ، الى السكّون والكرى ،
 وشمّر للسير ذُيولَه وضمّر للسبق خيولَه إذ سمِعَ عند الصباح يُحمّدُ
 القومُ الشّرى .

ثم كتب العبد المذكور عقدا وعهدا مع المولى الجليل عهدا ، وهو
 على خوف ووجل يسأله ادراك ما أمّله ، والوصول الى ما أمّ له ، ويتبرأ
 من حوّل وقوته اليه ، ويتوكل في جميع اموره عليه ، ويقف بقدم الندم
 بين يديه ، معترفاً بما كان له مقترباً ، وراجياً ان يكون من بحر الاحسان
 لدار الامتنان مُغترباً ، والعقد المذكور :

هذا ما اشترى المولى اللطيف الجليل ، من العبد الضعيف الذليل ، الميمون ابن علي ، اشترى منه في صَفَقَةٍ واحدة دون اسْتِبْقَاء ولا تَبْعِيض ، ولا استثناء بتصریح ولا تعريض ، جميع المنزل المعروف بمنزل القلب والفؤاد ، الذي من سكانه الاخلاصُ والمحبة والوداد ، حدُّه من القبلة قبولُه الأوامر المطاعة ، ومن الشرق لزومُ السمع والطاعة ، ومن الجنوب الاقبالُ على ما عليه أهلُ السنة والجماعة ، ومن الغرب دوامُ المراقبة في كل وقت وساعة ، بكل ما يخصُّ هذا المبيعَ المذكور ويعمُّه ، وينتهي اليه كل حد من حدوده ويضمُّه ، من داخل الحقوق وخارجها ، ومداخل المنافع ومخارجها ، وبكل ما له من الآلات التابعة له في التصرُّف ، والحواس الجارية معه في حاليّ الاضاعة والتشرف ، السالكة مسلكه في التنكر والتعرف ، من يدين ورجلين ، ولسان وشفتين ، وعينين واذنين ، اشتراءً صحيحاً تاماً ، شائعاً في جميع المبيع المذكور وعاماً ، ثبتت قواعده ، وظهرت بالتسليم الصحيح شواهدُه ، بلا شرط ولا ثنيا ولا خيار ، ولا بقاء مع حظ نفس ولا اختيار ، بضمن رتبته العناية الربانية ، ونسخته المشيئةُ الإلاهية ، بين عاجل وآجل ، فالعاجلُ العونُ على كل مندوب ومفترض ، والصونُ عن كل غرض وعرض ، والثناء على النعم الظاهرة والباطنة ، واهداءُ الآلاء المتحركة والساكنة . والآجلُ الفوزُ بالدار القدسية ، والحضرة الأنسية ، التي فيها ما امتدَّ به جناحُ التواتر بالخبر الصادق وانتشر ، ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر

على قلب بشر ، من النعيم السَّرمدي ، والحُبور الدائم الأبدى .

سَلَّمَ العبد المذكور هذا المبيع المذكور تسليماً تبرأً فيه من المَلَكَة ، ورفع به يدَ الاعتراض عما يفعل المولى الجليل فيما مَلَكَه ، وايقن انه المتصرف فيه في سره وجهره ، وعلم ان المَلِك المذكور تحت يد عزته وقهره ، يُجري فيه أحكامه القاهرة ، ويُنفذ فيه قضاياه الباهرة ، ومقتضى قدرته الظاهرة ، وقد احاط المولى الجليل بهذا المبيع المذكور ، احاطةً ظُهور ، ولم يخفَ عليه شيء من قليله وكثيره ، وجليله وحقيقه ، ومبانيه ومساكينه ، ومتحرِّكه وساكنه ، واطلع عليها اطلاع عليم قدير ، « أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللطيفُ الخبير » .

ولما أسلم العبد المذكور المبيع المذكور وامضاه ، واستسلم لمولاه فيما حكم به وقضاه ، تفضَّل عليه مولاه وغمَّره بجوده العميم واولاه ، وجعل له السُّكنى بهذا المنزل المذكور مدةَ حياته ، والاقامة فيه الى حين مماته ، واتيان وفاته ، اذ يستحيل على المولى الجليل الحلولُ في شيء ، أو السكونُ الى شيء ، وهو مُوجد كلِّ شيء وخالق كلِّ مَيت وحيٍّ ، ومُريد كلِّ رُشدٍ ومُقدِّر كلِّ شيء به قيامُ جميع العبيد ، وعن قَدَرِه غناهم وفقْرهم لانه الفَعَّالُ لما يُريد ، وهو مُيسِّرهم للسرى فمنهم شقي وسعيد ، وله الغنى عن كل شيء وهو الغنيُّ الحميد .

وقد أمر المولى الجليل بخدمة هذا المنزل المذكور خدمة التقرب اليه ،
وجعل له التصرف فيه لقبول امره للفوز بما لديه ، وبهذا المنزل المذكور
بساتين تسمى بساتين الاخلاص ، وجنات تعرف بجنات حضرة القلب
المعروف بمحل الاستخلاص ، التزم العبد المذكور تسهيل أرضها من
شوك الشوك والارتياب ، وتذليلها من حجر العجب والاضطراب ، في
حالي الحضور والغياب ، وتنقيتها من أعشاب الحسد والحقد والكبر ،
وزوال ما فيها من عوارض الغش والخديعة والمكر ، وان يقطع منها
كل عود لا منفعة فيه بجديد الفكر ، مثل عود الحرص والطمع ،
ويغرس مكانه شجر الزهد والورع ، ويُقلم اغصان الميل الى الأدران
والاقدار ، وافنان الركون الى الأغيار والاقدار ، وقضبان السكون
الى الشهوات والاطوار ، ويفتح ابواب البذل والايثار ، بمفاتح الجود
الحميد المساعي والآثار ، ويُطلق ينابيع التوكل على مصرف الاقدار ،
وان يخدم ما توعد من سواقي مياهها الإخلاصية وحياتها ، ويمشي
بالمصلحة المصلحة لدوائها وغياضها ، ويفجر بها مياه الصفاء من الأقدار ،
المتصلة بساقية الوفاء في الايراد والإصدار ، والملاصقة لساقية ترك
الجفاء في هذه الدار ، حتى يبدو إن شاء الله صلاحها ، ويكثر
بركة الله إصلاها ، وتهب بقبول القبول أرواحها ، وتثمر بجنى
المنى أدواها ، فتنبت قرنفل التنقل ، وعود التقبل ، وآس الأانس

والسَّوْسان ، وَيَاسْمِينَ اليَاس من كل انْسَان ، وَنُعْمَانَ النعمة التي لا يصفها لسان .

وقد عِلِمَ العبد المذكور أَنَّ بخارج هذا المنزل حَرَسَ الله اِيْمَانَه ، وادام اَمَانَه ، جَيْشاً يُغَيِّرُ عَلَيْهِ فِي مَسَانِه وصباحه ، وينتَهِزُ فِيهِ الْفُرْصَةَ فِي غُدُوّه وَرَوَاحِه ، وَيَقْطَعُ جَادَّةَ السَّبِيلِ بِالْمُرُورِ عَلَيْهَا إِلَى حَضْرَةِ الْمَلِكِ الْجَلِيلِ وَمَلِكِ هَذَا الْجَيْشِ الْمَذْكُورِ النَّفْسُ الْكَثِيرَةُ الْأَعْرَاضُ ، الْمِيَالَةُ إِلَى مَا يَعْزِضُ مِنَ الْأَعْرَاضِ ، الْمُعْتَكِفَةُ عَلَى الْمَشَارِبِ الْمُهْلِكَةِ وَالْإِعْرَاضِ ، وَخَادِمُ الْمَلِكِ الْمَذْكُورِ الشَّهْوَةُ الْمَوْقُوفَةُ عَلَى خِدْمَتِهِ ، الْمَعْدُودَةُ فِي أَعْلَى خَزَنَتِهِ ، وَوَزِيرُهُ الْمَفَاخِرَةُ ، وَزِمَامُهُ الْمُنَافَسَةُ فِي زَهْرَةِ الدُّنْيَا وَحَاجِبُهُ الْمَكَاتِرَةُ ، وَقِيَمُ جَيْشِهِ الْمَقْدَمُ ، وَفَارِسُهُ الْأَقْدَمُ ، شَجَاعُ الْغَضَبِ ، الَّذِي عِنْدَهُ يَتَوَلَّدُ الْهَلَاكُ وَبِهِ يَكُونُ الْغَطْبُ . وَطَلَبَ الْعَبْدُ الْمَذْكُورُ مِنْ مَوْلَاهُ الْأَمْدَادَ بِعَسَاكِرِ الْعَزْمِ ، وَفَوَارِسِ الْحَزْمِ ، وَرَغَبَ مِنْهُ الْإِعَانَةَ بِكِتَابِ السَّدَادِ وَالتَّوْفِيقِ وَمَوَاقِبِ الرُّشْدِ وَالتَّحْقِيقِ ، وَارْسَالَ جُيُوشِ الْأَصْطِبَارِ ، وَفَوَارِسِ الْإِنْتِصَارِ فِي مَيَادِينِ الْإِخْتِبَارِ ، وَالتَّدَرُّعِ بِدُرُوعِ الْأَذْكَارِ ، وَجَوْلَانِ خَيْلِ السَّعَادَةِ فِي مَيَادِينِ الْإِخْتِيَارِ ، وَالْعَوْنُ بِأَعْلَامِ الْعِلْمِ ، وَالسَّكُونُ فِي حِصْنِ الْحِلْمِ ، حَتَّى يُذْهَبَ حَدَّةُ النَّفْسِ وَيُزِيلَ كَيْدُهَا وَتُيْمِتَ فِي الْمَجَاهِدَةِ بِسُيُوفِ الْمَجَادَلَةِ وَيَقْطَعَ قُوَّتُهَا وَأَيْدُهَا ، أَوْ يَدَّ التَّسْلِيمِ بِقَهْرِهَا وَاضْطِرَارِهَا ، وَيَنْطِقَ بِلِسَانِ اعْتِرَافِهَا وَاقْرَارِهَا ، أَنَّهَا اسْقَطَتْ جَمْلَةَ دَعْوَاهَا وَاخْتِيَارِهَا ، وَدَخَلَتْ تَحْتَ امْتِثَالِ الْأَوَامِرِ

الربانية ودخل من باب اللطف في حرم كرم الإلهية ، فر الظهور
بذلك نفسه ، وظهر الحضور أنسه ، حتى تنطهر النفس المذكورة من
الاخلاق العرَضية ، وتترقى عن الأغيار الأرضية ، وتظهر عليها
الشماثل الحميدة والشيم الرَضية ، وتنادى : « يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي
الى ربك راضيةً مرضيةً »

اشهد على إشهد البائع المذكور من أشهده به على نفسه عارفاً
بقدره ، في صحته وطوعه وجواز أمره ، وصلى الله على سيدنا محمد
وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً .

اهداء ابي القاسم الشريف ديوان شعره الى ابن الخطيب

الحمد لله الكبير المتعال ، فهو المسؤول ان يعصمنا من خطي القول
وزلي الاعمال ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم الأرسال ، هذه
أوراق ضمنتها جملة من بنات فكري ، وقطعاً مما يجيش به في بعض
الاحيان صدري ، ولو حزمت لأضربت عن كتبها كل الاضراب ،
ولزمت في دفنها واخفائها دين الأعراب ، ولكني آثرت على المحو
الإثبات ، وتمثلت بقولهم : ان أحسن ما أوتيته العرب الأبيات ، وإذا
هي عرّضت على ذلك المجد ، وسألها كيف نجت من الوأد ، فقد أويتها
من حرّمكم الى ظل ظليل ، وأحللتها من فنائكم الى معرّس ومقيّل ،

وأهديتها علماً بان كرمكم بالاغضاء عن عيوبها كفيل ، فاغتنم قليلاً
الهدية مني ان (جهد المقل) غير قليل ، فحسبها شرفاً ان تبوأ في
جناحك كنفاً وداراً ، وكفاها فخراً ومجداً ان عقدت بينها وبين فكرك
عقداً وجواراً .

كتاب الاستاذ ابن حاكم السلوي الى المقرري الجدة
وكان بعث له بمحرر للبيع فسأله ابداله باحرام تونس

الحمد لله الذي أمر عند كل مسجد باخذ الزينة ، وصلواته الطيبة ،
وبركاته الصيبة ، على من ختم به شريعته واكمل دينه ، وعلى آله واصحابه
الذين اتبعوه والذين يتبعونه ، وبعد فما تعلق به الإعلام ، ان تعوضوا
المحرر باحرام ، لا يخفى على مثلكم جنسه ومجانبه ، ومن كلام العرب :
كل ثوب ولايسه ، وان أربى على ثمن الاول ثمن الثاني ، فلست عن
الزيادة والحمد لله بالواني .

رسالة لابي بكر بن شبرين

الى ابي الحكم بن مسعود وهو شاهد بالمواريث يدا عنه فيها

أطال الله بقاء أخي وسيدي لأهل الفرائض يُحسن الاحتياال في
مداراتهم ، وللمنتقلين الى الدار الآخرة يأمر بالاحتياط في أمواتهم ،

ودامت أقلامه مشروعةً لِصَرْمِ الأجلِ المُنْسَأِ مُعَدَّةً لتحليل هذا الصنف المنشأ ، من الصَّلصال والحمأ ، فَمِنْ مَيَّت يُغْسَل وآخر يُقْبَر ، ومن أَجل يُطَوَّى وكَفَن يُنْشَر ... فكلِّمَا خَرِبَتْ ساحة ، نشأت في الحانوت راحة ، وكلما قامت في شِعْب مَناحة ، اتَّسَعَت للرزق مِساحة ، فَيُبَاكِر سِيدي الحانوت وقد احْتَسَى مرَقته وأَسْبَلَ عَنَفَقَتَهُ ، ... فَيُلْحِظُ هذا برفق ، وينظرُ الى هذا شَزْراً ، ويأمر بشق الجيوب تارةً والبحث عن المنطاطق أخرى ، ثم يأخذ القلم أخذاً رقيقاً ، ويقول وقد خامره السرور : رحم الله فلانا لقد كان لنا صديقاً ، وربما واره بالازعاج الحثيث ، وقال مستريح كما جاء في الحديث ، وتَخْتَلَفُ عند ذلك المراتب وتَتَبَيَّنُ الأصدقاء والأجانب ، فينصرف هذا وحظه التهديد ، والنظر الحديدي ، ثم يغشى دار الميِّت ، ويسألُ عن الكَيْت والكَيْت ، ويقول عليّ بما في البيت ، أين رِعاءُ الثاغية والراغية ، أين عتود الأملاك بالبادية ، وقد كانت لهذا الرُّجل حال وأيُّ حال ، وذُكر في الأسماء الخمسة فقيل ذو مال ، وعيون الأعوان ترنو من خَلَل ، وأعناقهم تشرَّبُ الى ما خلفَ الكِلَل ، وأرجلهم تدبُّ الى الأسفاط دَيبَ الصَّقَر الى الحجل ، والموتى قد وجبت منهم الجنوب ، وحضر الموروث والمكسوب ، وقِيْد المطعوم والمشروب ، وُعِدَّت الصَّحاح ، ووُزِن بالارطال ، وكيل بالأقداح ،

١ - يشير الى حديث مستريح ومستراح منه وقد ورد في موت المؤمن والفاجر .

والشهود يُغْلِظُونَ على الورثة في الأليّة ، وَيُسَيِّئُونَهُم بالسباب في النشأة
الأولية ، والروائحُ حينئذٍ تَفْغَمُ الأرضَ طيباً وتهدى إلى الأرواح
شذى يفعل في الأبدان فعلاً عجيباً ، والدلائلُ يقول هذا مفتاح الباب ،
والسّمسارُ يصيحُ قام النداء فما تنتظرون بالثياب ، والشاهد يصيح فتعلو
صيحته والمُشْرِفُ يشرف فتسقطُ سُبْحَتُهُ ، ... ثم يشرع في تقسيم
القرض ، ولو أكَفَّتْ السماوات على الأرض ويقال لأهل السهام أحسنوا
فإن الإحسان ثالث مراتب الإسلام ، وقد نصّ ابنُ القاسم^١ على أخذ أجرة
القَسَامِ ، وَسَوَّغَهُ أَصْبَغُ^٢ وَسَحْنُونُ^٣ ، ولم يَخْتَلِفْ فِيهِ مُطَرِّفُ^٤ وابنُ
الماجشون^٥ ، ولعل الخروج إلى الانبساط يجرُّ عذراً ، ونسأل الله
حمداً يوجبُ المزيد من نعمائه وشكراً ، والله يَصِلُ عزَّ أخيه ومجده ،
ويهبُ له قوّةً تخصّه بالفوز عنده ، وَيَزِيدُهُ بصيرةً يتبع بها الحقوق إلى
أقصاها ، وبصرأ لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ، ودام يعدُّ
الخراريب^٦ . والفلوس والأطمار^٧ ، ويملاً الطوامير بأقلامه البديعة الصنعة ،
وَيَقْرِنُ الطوُّمارَ بالطومار ،

١ - ابن القاسم والأعلام الأخرى كلها أسماء لفقهاء مالكية معروفون في عالم

القضاء والفتوى ٢ - الخرايب من قبيل الفلوس . ٣ - الطومار الصحيفة .

المقامات

مقامة الافتخار

× بين العشر الجوار
لعبد المهيمن المضرب

برزت يوماً لخارج بلد فاس الأشهر، وانتهيتُ الى واديها
المعروف بوادي الجواهر، فلم يكن غير بعيد، وإذا بمحفل يرتج بالغيد،
وقد دار بينهن عتاب، بالفاظ تعجز عنها السِنَّة الكتاب، بيضاء وسمرا،
في مُفاتنة كبرى، وكاملة وقصيرة في مُعاطاة كثيرة، وسمينة ورقيقة، في
معاتبه حقيقة، وعربية وحضرية، في مُجادلة قوية، وعجوز وصبية، في
مخاصمة بذية، فبينما أنا أنظر في تلك الوجوه المُشرقة والقُدود المروّنة،
واذا بجارية يغلبُ ضياءُ وجهها ضياءَ الشمس، فوقفت بين الصفوف
وسلّمت ببنانها الخمس، ثم تقدمت وقالت :

الحمد لله الذي جعل البياض طراز كل جمال، وشرف أهله
بالحياء والكمال وأعطاهم عزّة لا تبديد، وصير السُّمر لهم عَميد، ألا

× لم نظفر بنسخة صحيحة لهذه المقامة الا نسختين شديديتي التصحيف وقد بذلنا
جهدنا في تصحيحها وسبكها بما يقربها من صنع كاتبها البليغ .

وإنَّ على قلبي جمرة ، من مُعَاتِبَتِكَ يا ذاتَ السُّمُرةِ أَعْنَدَكَ يا سَمراء ما
عندي ، وليس قدُّكَ كقدِّي ولا خدُّكَ كخدي ، جَبِينِي ذو ابتهاج ، وذَوَائِي
كقِطْعِ الزَّاجِ ، ورُشْحُ عَرْفِي كَمِسْكِ اذْفَر ، يرشح من تحتِ البُرْدِ
والمَغْفَر ، وَتَغْرِي أَقْحَوَان ، وديباج وجهي أَرْجَوَان ، واثْ أَسْبَلْتُ
شعري المَضْفُور فظلامُ ليل على بياض كَأْفُور ، ثم أنشدت :

قلْ للذي أُرَى بأهل البياض ما أنتَ إلا باطلُ الاعتراض
فوردُ خدي أبداً زاهرُ في كل فصل فوقَ خدي رياض
يا حاسدي مُت كمداً انما تُجَنِّي المني من الحدود الغضاض

ثم سامتُ بالبنان ، وأمسكت العنان ، فتقدمت السمرَاءُ وحطَّت
اللاثام ، عن وجه شهيِّ الإلتئام ، وأبلغت في السلام ، وأقبلت تواضعا على
رؤوسِ الأقدام ، فوقفَت كالغلام وأفصحتُ في الكلام ، وقالت :

الحمد لله الذي خلق الانسان في أحسن تقويم وجعله أفضل الحيوان ،
وفرَّق بين الصور والالسنة والألوان ، وزَيَّن الأبيض بشعر كالغسق ،
وامتدادِ الحاجبين وسوادِ الحدق ، وأَجَلَّ ما يقف له العاشقون اجلالاً ،
ويرتجلون فيه الأشعار ارتجالاً ، مِسْكَةً الخال ، وعَقْرَبُ الدلال ثم

التفتت الى البيضاء وقالت : يا أشبه شيءٍ بجُبْنِ الرُّومِ ، أَخْرَقَتْ حِجَابَ
الأَشْرُومِ ، ما زال طعامُكِ قليلَ المِلْحِ ، وَجَفْنُكِ كثيرَ الرِّشْحِ ، وَلَبْنُكِ
أَذَى ، وَعَسَلِي أَنَا غِذَا ، وَلَوْني لونُ الخمرِ ، وَطَعْمِي طَعْمُ التَّمْرِ ،
ثم أنشدت :

الحمد لله ليس التَّبَرُّ كالوَرَقِ قد أحسن الله في خلقي وفي خُلُقِي
فالجسم مني نُضارٌ صِغَ مَنْظَرُهُ بِمَسْكَةٍ فَعْدَا طِيباً لِمَنْتَشِقِ
يا مَنْ يَعَيِّرُنَا بِاللَّوْنِ إِنَّ لَكُمْ جهلاً يَقُودُ إِلَى الطُّغْيَانِ وَالْحُمُقِ
كَمْ أَسْمَرَ قَلْبُهُ كَافُورَةً وَلَهُ مِنْ السَّعَادَةِ نَجْمٌ لَاحَ فِي الْأُفُقِ

فلما فرغت من كلامها ، وما أبدعته من حسن نظامها ، تبرقعت
بنقابها ، وسلمت على الصنفين ، وقبّلت أسارى الكفين ، وإذا بجارية
تتخطى الرّقاب ، بعد أن حطّت النقاب عن ديباج صقيل ، ورنّت
بطرف كحيل ، ومالت بقدر قويم ورْدُفٍ ثَقِيلٍ ، فسمعتها تقول : اليكم
يا ذوي العقول ، فلعلكم تحكمون بيني وبين هذه القصيرة ، فانها عمية
البصيرة ، تعيب الكمال ، وهي الطبقةُ الثانية من الجمال ، ثم قالت في
الثناء على ذي الجلال وأجادت في المقال :

الحمد لله فالق الاصباح من بعد الغيوم ، لا اله إلا هو الحي القيوم ،

وصلى الله وسلم على محمد نبيه الذي ارتضاه لنفسه حبيباً وخليلاً ، وأرسله
لجميع خلقه نبياً ورسولاً ، ثم قالت : أين هذه التي تعيبُ ما لا يُعاب ،
وتُدخلُ نفسها في الأمور الصَّعاب ، لا تُحجب عينُ الشمس بالغُرْبال ،
والثعلبُ لا يُقابل بالأشبال ، يا هذه خطأُك إليّ من غير الواجب ،
ألم تسمعي أن العين ولو علَّتْ فوقها الحاجب ، فإلى كم يازرِيعَة يا جوج
وما جوج ، يكون فرسُك معي للشرِّ مَسْرُوج ، ثم صالت وما اعتدت
فأنشدت :

نحن قوم لنا بهاءُ البُؤود ولدينا تفاخرٌ بالقُدود
كلُّ زَيْنٍ أَزِينُهُ بكمالي وجمالي وُغْنِجُ لحظي وجيدي
وإذا ما القِصارُ قُلْدَنَ حلياً صار كالدر في نُحُور القُرود

فلما أتمت كلامها ، وأنهت نظامها ، اذا بالقصيرة قد أقبلت تجرُّ
أذيالها وتواترُ أقوالها ، فولولت وصاحت ، وأعلنت بما في ضميرها
وباحت ، ثم قعدت على أعلى مكان ، وتكلّمت بأفصح لسان ، فقالت
تخاطب الطويلة : يا شقيقة الزرافة ، إلى كم تُطيلين هذه الخرافة ، يا
ناقة العشير^١ ، وقصبة النشِير^٢ ، ويا كاملة الصّاد^٣ ، وقليلة القُصاد ، نحن

١ - العشير الزوج والمقصود تشبيهها بالناقة في الطول .

٢ - لعله يريد القصبة التي يرفع بها حبل الغسيل حين ينشر وبالنشِير يعرف في
لسان العامة .

٣ - الصاد داء يصيب الابل فتسيل انوفها فتسمو برؤوسها .

أهل المعاني الرقاق وفتنة العشاق ، وعلى منظرنا طلاوة ، ورونق
وحلاوة ، فأرى لك من الرأي والتدبير أن تأخذي معي في التقصير ،
فإن الله تعالى خلق الكامل والمتوسط والقصير ، على أن القصر والكمال ، إنما
هو في الأفعال ، ثم قعدت على أعلى مكان ، وتكلمت بأفصح
لسان ، فقالت :

الحمد لله الملك الكبير ، الذي ليس له حاجب ولا وزير ، وصلى
الله وسلم على محمد نبيه وعلى آله ما هب نسيم وفاح عبير . ثم أنشدت :

غزلان الأُنسِ ذَوُو القِصرِ وشفاء النفس مع البصر
فيعيش القلب بمنظرنا وتقر العين من النظر
وإذا ما الروض أتيت فلذ بقصر القد من الشجر
إياك النخل فان لها طولا يهديك إلى الغر

وبينا هما في طويل من الكلام وعريض ، يتنازعان أبيات القريض ،
إذا بضجيج ، كضجيج الناس في الحجيج ، والناس قد تطاولت أعناقهم ،
وشخصت أحداقهم وإذا أنا بقلاع ، يسوق مركبا مؤسوقا بالسلاع ،
فقلت ما هذه السفينة ، فقل لي هذه الجارية السمينة ، فدار المحفل
عليها كالحلقة ، فقلت سبحان من لا يمل من خلقه ، فحطت من القلق رداءها ،
وغاظت بأعكانها حسادها وأعداءها ، وقد تكلل العرق على جبينها

كدُرّ الحباب، وفتنت برّوض خدّها ذوي الألباب ثم قالت :

الحمد لله باسط الرزق وسابغ النعم المنفرد في دَيُّوَمِيَّتِه بِالْقِدَم ،
والصلاة على خَيْرَتِه من خلقه سيّد العرب والعجم ، صلاة تُنجي العبد
يوم المَزْدَحَم ، ثم اعتمدت بكفّها على عِطْفِهَا ، ومالت كالبحر الزاخر ،
فقدّمت المقادم وأخّرت الموابخ وقالت : أين هذه المسفولة الصوت ،
الواقفة بين مَيّدان الحياة ومَيّدان الموت المنفوضة اللحم ، التي حُرِّمَ عليها
كما حُرِّمَ على بني إسرائيل الشَّحْم ، المُنَغَّصَةُ العيش ، الكثيرة الطيش ،
الضعيفة المِخاخ ، الشديدة الفخاخ ، النحيلة من غير عِلَّة ، الهزيلة من غير
قِلة ، كُفِّي يا مَسْقُومة عني هذه الغرارة ، واعلمي أن على جسمي من
الزينة نضارة ، أقتنص بها القلوب من غير حيلة ولا إدارة ، ونهدي
وأعكاني ، يُغْنِيَانِي عن الشّورة^١ في أركاني ، ثم أنشدت :

الحمد لله في سرّ وفي علن	حمداً يخلصني من ظلمة المحن
قدنلت ما أشتهي في الدهر من أرب	في العقل والقلب مني ثم في البدن
ان البهاء يزين الخلق منظره	كما تُزان حلى الأشجار بالدّمّن
أرحت قلبي من همّ ومن سهر	وساعد السعد بالأفراح في زمّني
يا من تعود بالتوبيخ كفّ فما	يُشَبِّه العَجْفُ في الأنعام بالسّمّن

١ - الشّورة زينة العروس وثيابها وحليها وما تصحبه معها من متاع لبّيت الزوج .

وذهبت لتجلس ، فما استقرَّ بها القُعود ، إلاَّ وجارية وقفت كأنها
 كوكب السعود ، تبتهج باللفظ والابتسام ، وتضطرب كما يضطرب الحسام ،
 وتبسمُ عن ثغر كاللئال ، ريقه كالعذب البارد الزُّلال ، ثم قالت : إليَّ إليَّ
 يا معشر العشاق فعلى مثلي تُندبُ الأطلال ويجري الدمُ المُرّاق ، وحمدت
 الله عز وجل بقولها :

الحمد لله الذي أودع الحكمة في النفوس الرِّقاق ، باعث الخلق
 وناشرهم يوم التلاق ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد المخصوص بالحوض
 والشفاعة واللواء والبُرّاق ، ما حدا حادٍ وساق الركب إليه مشتاق ، يا من
 حضر في مجلسنا ، ولاذ بأنسنا ، أسمعتَ مقالةَ هذه العاهة ، وما ظهر منها
 من قلةِ النزاهة ، هذه التي تفتحُ فيها مثلَ التَّمساح ، وتبلغُ القرع وتخرُجها
 صِحاح ، وإن قرُبَ منها الرجل لمقصَدٍ أو سُول ، غرقَ في بحرِ بسُول ،
 قلبها بالعلف هائم ، كما تفعلُ البهائم . ثم أبرقت وأرعدت ، وقالت فانشدت :

يا عاهةً ليس لها من خلاق	هواك قد أنساك يوم التلاق
والحشر والنشر وأهواله	وخجلة العبد وخوف المساق
لو كان للقلب به فكرةٌ	لكان للجسم ضنىً واحتراق
نحن رِقاقُ في النفوس ولا	يرقُ قلبُ الصبِّ إلا وراق

ثم قالت : وما حيلتُك أيتها العاهة إذا جاوزتِ الأربعين ،

وأنتك العِللُ بجيش ظاهر غير كمين ، وقد تدلّتْ منك الحواصل ،
وهجرَكِ الصديق المواصل ، وتكتمّشتْ منك الحلاقم ، وتفرقت على
أعضائك البلاغم ، وتعطّلتْ منك القوائم ، فلا تتحرّكين إلا بعجلة ودعائم
وأنشدت :

إذا رَقَّ الحسام قضى وأمضى وخطَّ بجده جِدَ النِّفاق
وان رَقَّ الزُّجاجُ وراق فيه رَقِيقُ الخمر لذَّ لكل راق
فتبصّره نحيلاً في نحيـل ويعظمُ فعله عند المذاق

ثم اني سمعتُ صوتاً يصيح ، ويقول بلسان فصيح :

مهالاً رؤيداً يا جميع من حضر حتى اقولَ بين بدوٍ وحضر
من هُنَّ ربّاتُ الحدود الناضرة ذاتُ الخيام أو نساء الحاضرة
نحن جوارٍ من بنات البادية ملامحُ الحسن علينا بادية
فان بدتْ منكنّ لي مَكَلِّمة أنا التي أردّها مَكَلِّمة

ثم حطّت اللثام ، عن وجه يشبه البدر ليلة التمام وقالت :

الحمد لله الذي أمره بين الكاف والنون ، الحاضر الناظر القاهر
الذي بيده ملكوت كل شيء واليه تُرجعون ، وصلى الله على النبي الذي
نور الأفئدة فأبصرت البصائر وقرّت العيون ، وأنشدت :

قد مالَ الحُسْنُ الى العَرَبِ نحنُ الأَقْصَارُ بلا كَذِبِ
 فلنَّا أَرْجُحُ ولنَّا غَنَجُ ولنَّا دَعَجُ بالسَّحَرِ حُبِي
 ولنَّا كَرَمُ ولنَّا هِمَمُ ولنَّا ذِمَمُ للمَكْتَسَبِ
 ولَقَا صَدِينَا فِينَا أَرْبُ فيما يَرْجُوهُ مِنَ الأَرْبِ
 قد شَرُفَ تَحْتِدُنَا وَكَفَى أنَ المَخْتَارِ مِنَ العَرَبِ
 صلِّ ما دمتَ عليه تَفُزُ يَوْمَ الأَهْوَالِ مِنَ الكَرْبِ

ثم قالت : نحن ربّات القلوب ، ومنتهى غاية كلّ مطلوب ، جمالنا
 أبدعُ جمال ولساننا أفصح لسان ، فالعربيةُ بهذا البيان قَمَرٌ في شَكْلِ
 انسان . وسكنت فاذا بجارية حضرية ، ذاتِ جمال فائق وهمّة سنية ،
 نادتها : كُفِّي عن الجدال ، ودَعِي هذا الاحتيال ، فان مَن بالمُعاطاة
 يُلُوذ ، كمن يدُخلُ بجهله في زُقّاق غير منفوذ ، إياكِ أن تذكري في هذا
 المحفل نسبا أو قبيل ، وان اردتِ أن تفتحي للحرب باباً فانا على السبيل ،
 واعلمي أن رُعيانَ الجمال ، لا يفتخرون بحسن ولا بجمال ، ثم قالت :

الحمد لله الذي فضّل على البادية الحاضرة ، وأعطانا الراحة في الدنيا
 وأعاننا على طريق الآخرة ، وخصّنا بأحسن الملابس وأيمن المواطن ،
 وأمّن قلوبنا في الظاهر والباطن ، ووسّحنا بالحلى والحلل ، وأسكننا
 في القصور والدور في ظل الحجب والكليل ، واشهد أن لا اله إلا الله
 وحده لا شريك له عُدَّةً للقائه يوم تكون النفوس حاضرة ، والوجوه

الناضرة الى ربّها ناظرة ، وصلى الله على محمد وعلى آله وأصحابه واصهاره ،
وأزواجه وحزبه وأنصاره ، وقالت : ما أُعطيَت الهمة السنية ، إلا للجارية
الحضرية ، خدّي مُورّد ، ونحرّي مُفنّد ، ولا يرى صدري العابدُ
الزاهد إلا تنهّد ، ثم أنشدت :

ألا انما الحسنُ حسنُ الحضر	علينا ومنا وفينا ظهر
فان كنتِ يا هذه نجمةً	بأعلى السماء فاني قمر
بسيحر الجفون وغنج العيون	أسلّ القلوب كسلّ الشعر
ومن ليّل شعري ظلامُ المسا	ومن وجنتيّ الصياحُ الأغر

فلما أتمت الحضرية الأبيات ، وقد أفصحت في المبادئ والغايات ،
إذا بهزة عظيمة في المحفل ، كادَ يرجع أعلاه منها أسفل ، فأنت عجزو قد
اشتبكت مع صبية ، وبينهما مُعاطاة ومجادلة قوية ، والصبية تُنادي وتقول :
كُثر الحمق وقلّت العقول ، يا قوم اعدّلوا بيني وبين هذه العجزو ،
بكلام يتعلّق ويجوز ، فقالت العجزو : يا هذه الزَمِي الوقار ، وكفّي
النّقار ، فأنا أفصحُ منك وأعلم ، وأسبق وأقدّم ، ولا أحقّ بالتعظيم ، مِن
له الحق القديم ، ثم قالت :

الحمد لله راحم الشيب ، وساتر العيب ، وجامع الناس ليومٍ لا
شكّ فيه ولا ريب . أنا من ذواتِ العُهود والمواثق ، اجمعُ بين المعشوق
والعاشق ، وأزوّجُ العرائس ، وأقبل النفائس ، وأشرف المجالس ، ولا

تجري السفينة إلا بمحاولة الرّأس ، ألجم الرجل بالشكيمة ، وأردّه في
الأركان يدور كالبهيمة ، على أنني أقضي له المئارب والأوطار ويجدُ عندي
كلّ سلعة لا توجد عند العطار ، وأرفعُ المُون والوظائف ، ولا أطلبه
بشيء من التّكاليف ، وأقنعُ منه بالزّبيبة ، وأكون له تارةً محدّثة وتارةً
طبيبةً ، فانظري أيتها الصبية مَنْ يكون لك عونٌ ، ولا تمشي على أثري
فتغرقني كما غرق فرعون ، فاني أكثرُ منك بحثاً عن المناسِب ، ولي معرفة
وذهن ثاقب ، وان شئتِ مناظرتي ومناضلي ففكري في العواقب
ثم أنشدت :

أَمِنْتَ الدهر يا بنتَ الزّواني	وصار لك إليها نُصبَ العيان
فكم طفل قضى في خفض عيشٍ	وأخلف ظنّه بعد الأمان
الله العرش عمّري وأبقى	سعودي ثم ساعدني زمانني
جررتُ الذيل في زمن افتخاري	ونزّهتُ الجفون بمهرجان
وأني اليوم من ستين عاما	ولكنني أعدُّ من الحسان
فيومٌ في المجالس باتّعاظ	ويوم في المحافل والمغانني

(قال الكاتب) وكانت العجوز مخضوبةً البنان ، مُسوّكة الفم وليس
لها أسنان ، مصبوغةً الحاجب والسالف ، تندب على ما فاتتها في الزمن
السالف ، ثم أنشدت ، فأجادت فيما قصدت :

إذا جفَّ لَيْنُ التِّينِ يَحْلُو مَذَاقُهُ وأَحْلَى مَذَاقًا فِي الثَّمَارِ الْعَجَائِزُ
عَجَزْتُ وَلَيْسَ الْقَلْبُ مِنِّي عَاجِزًا وَاِنِّي لَمَنْ قَدْ رَامَ حَرْبِي مُبَارِزُ
فَطَعْمِي ذِكْرِي طَيِّبُ النَّشْرِ عَاطِرُ وَاِنْسَانٍ عَيْنِي لِلْمُحِبِّينَ غَامِزُ

ثم قالت : وان أردت يا هذه المجون والرقاعة ، فأنا والله ربّةُ
الصناعة وأستاذةُ الجماعة ، وإذا بالصبيّة قد أتت تدرّج درّجَ القطا على
الأقدام ، وتبدّدت فأقبلت اقبالَ العام ، ووردت ورودَ الغنى على أهل
الإعدام ، وهي تزعم بنفسها كما يزعم البطل المقدام ، إذا ساعدته الأيام ، ترمق
بليحظٍ نائمٍ وتفعل بأشفارها في قلوب العاشقين ما تفعله الصوارم ، ثم
نادت : أيتها العجوز الشّمصا ، يا من كشفت بعيبها عن نفسها الغطا ، أما
قنعت يا عجوز ، يا نشوز ، أما كفّاك ، سدّ الله بالشّوك فاك ، هيهات
هيهات يا عجوز ، يا بنت الدّروز ، أن يكون لك بعد الهرم طلق ،
أو يكون الجديد مثل الخلق ، أما رأيت شعري الفاحم ، وثغري الباسم
وغصني الناعم . ثم حطت النقاب ، فأخرجت الشمس من تحت السّحاب ،
وقد سلمت على القوم فأفصحت ، وقالت فأوضحت :

الحمد لله الذي غرس ريحانة الشباب ، في قلوب ذوي الالباب ، ثم
قالت ، وللعجوز أشارت : ويحك لو كنت تبكين على ما مضى ، لكان
لك أقرب الى الرضى وأنشدت :

نور الشباب له عزّ وسلطان وللسعادة أرجاء وأوطان
وللمحاسن أوصافٌ تقومُ بها وللحقائق آياتٌ وبرهان

روض الشباب تبدت فيه أربعة ورد وزهر ونسرين ورينجان
 من قال ان زمان الشيب يشبهه عهد الشباب فذاك القول بهتان
 يا تي العجوز اندي ما قد مضى أسفاً ترحلت عنك أوقات وأزمان
 وأنتم يا أهيل الحسن كلكم بيني وبينكم في الحرب ميدان

فلما فرغت الصبية من النظام ، أقبلت الجواري والعجوز عليهن من أمام ، فقالت لها : بُوركَ فيك من صبية ، وفي ألفاظك الزكية ، وسأقول بينكن مقالةً انصاف يقتضيها الحقُّ وجميلُ الأوصاف ، أما البيضاء وذاتُ السُّمرة ، فتلك فأنيدة وهذه تَمرة ، وزينة الدنيا ذهبٌ ونقرة ، ثم قالت للكاملة والقصيرة ، مسألتكما عندي يسيرة ، اذا كانت الصورة الحسناء كاملة ، فهي من النعم الشاملة ، وعلى هذا فالقصيرة الذراع ، لا يمتدُّ لها في مجال الفخر باع ، فان القصر مدَّة ، بسبب هذه العلة ، فتأدِّي مع ذات الكمال ، فانها أبهى منك وأمتع للرجال ، ولو كنت بالسوية معها في الجمال ، ثم قالت للسمينة والرقيقة ، تالله لا أخفي عنكما من معاني الحسن حقيقة ، فالسمينة رِياض وجنان ، والرقيقة رَوْحٌ ورينجان ، ثم قالت للبدوية والحضرية ، سأفصل بينكما بحكم الانصاف في هذه القضية ، أما القول الصحيح فكل واحدة منكما في زيِّها أملح مَليح ، فالعربية تصلح للحضر والسفر ، والحضرية لا تصلح إلا للحضر ، وأما أنا والصبية ، فحجَّتْها واضحة وحجتي غيرُ جليَّة ، لأنها أبرعُ مني في الجمال ، وأنفعُ للرجال ، وأما العجوز مثلي فقد هرمت بمضايقة الآجال ، فما لأحد فيها مجال . ثم انصرف القوم ، وارتفع العتاب واللوم .

المقامة الزهرية في مدح المكارم البكرية لمحمد المكلاتي

حدثنا بشر بن سرور ، عن سهل بن ميسور ، عن الضحّاك بسنده
عن بسّام ، قال : تراءت لي من الأمانى الوجوه الوسام ، وأنا من نشاط
الشبيبة وافر الحظوظ والأقسام ، لم يفتني من قواعد اللهو إلا الحجّ ،
فأقمتُ من قول القائل وظائف العجّ والثجّ^١ ،

أُحجّجُ الى الروض لتحظى به وارمِ جمارَ الهمّ مُستنفرا
مَن لم يطف بالروض في زهره من قبل أن يخلق قد قصّرا

فلبيّنتُ داعيه ، ، وأصغيتُ إليه بأذن واعية ، وأزمنتُ المجاز ،
الى المشاعر التي ليس بينها وبين اللذات حجازاً ، وأعملتُ يعمّلات
العزم ، وأدخلتُ على مُعتلّ التواني عوازلَ الجزم ، فتخيرتُ من السمر
أطيب أوقاته ، وأحرمتُ مع حبيج الأنس من ميقاته ، وسرت

١ - العج رفع الصوت بالتلبية والشج اسالة دم الهدى وذلك في الحج .

٢ - فاصل .

والنسيم معتلّ ، وخذُ الثّرى بمدامع الأنداءِ مُبتَلّ ، فأتيت روضاً قد
تولّاه الوَلِيّ ، ووسمه الوَسْمِيّ^١ وأظلتّه راياتُ الصّباح ، وباكرت الصّبا
تقبيل نوره من قبل أن ترشّف شمسُ الضحى ريقَ الغواصي من تُغور
الآقاح ، فأقمت منه

حيثُ الغدير وقد أجادت نقشه	كفّ النسيم ومرّها في جَوْشن
وغصون أدواح الرياض تهزّها	نغمُ القماري بالغناء المحسن
ما بين ثغر للآقاح مُفلّج	وجبين نهر بالنسيم مُغضّن
ووجوه هاتيك الرياض سوافرّ	غيدُ تزان في المياه بأعين
والأرض تُجلى في رياض أخضر	والجوّ يبرُز في قنّاع أدكن

وما زلنا بين تلك المنازل نرْمي جِمارَ الفوايد ، ونردُّ من ذلك
أحلى المصادر وأعذب الموارد ، الى أن ارتقت الشمس درجة العُلى ،
واستوتْ لا إلى هَوْلًا ولا إلى هَوْلًا ، فترامينا على تلك الظلال ،
مستحسنين قول من قال :

وقانا لفحة الرّمضاء وادٍ	وقاهُ مضاعفُ الغيث العميم
يصدُّ الشمس أننى قابلتنا	فيحجبها ويأذن للنسيم

وَأَسْقَانَا عَلَى ظَمًا زُلَالًا أَلَذَّ مِنْ الْمُدَامَةِ لِلنَّدِيمِ
تَرُوعُ حَصَاهُ حَالِيَةِ الْغَوَايِ فَتَلَمَسُ جَانِبَ الْعِقْدِ النَّظِيمِ

فإِذَا لَكَ ذَلِكَ إِذْ بَرَقَ الْجَوْهُ فَسَلَّ عَلَيْنَا نُصُولَهُ الْمَذْهَبَةَ ، وَارْتَفَعَتْ
لِلْغَمَامِ فِيهَا طَيْطُ مَطْنَبَةٍ ، وَجَعَلَ السَّحَابُ يَسُوقُ الْمَوَاكِبَ ، وَأَخَذَ الرَّبَابُ
يُرْتَّبُ الْكِتَابِ ، فَتَصَبَّبَ عَرَقًا ، وَنَادَمَ الرُّوْضُ فَغَنَّى وَسَقَى ، فَمَا أَغْمَدَ
سَيْفَ ذَلِكَ الْبَرَقِ ، وَلَا انْقَشَعَ ذَلِكَ الْوَدْقُ ، إِلَّا وَالْمَسَاءُ قَدْ طَفَلَ ،
وَالرُّوْضُ فِي ثَوْبِ الْأَصِيلِ قَدْ رَفَلَ

وَرَبَّ عَشِيَةِ فِيهَا طَفِقْنَا نَرُودُ الظِّلَّ وَالْمَاءَ الْقَرَارِ
وَقَدْ ضَرَبَ الضَّرِيبُ^٢ بِهَا قَبَابًا عَلَى الْبَطْحَاءِ أَهْبَجَتْ الْبِطَاحَا
وَكَانَ جَنَائِبُهَا الْمَخْضَرُ آسَا فَأَصْبَحَ وَهُوَ مُبْيَضُّ أَقَاحَا
كَأَنَّ الْخَضِرَ^٣ جَرَّبَهَا يَمِينَا وَمَدَّ عَلَيْهَا جَبْرِيلُ جَنَاحَا

فَبِتْنَا حِرَانَ دَوَّلَابٍ يَهْدِلُ ، وَأَغْصَانُ تَنْثَنِي وَتَعْتَدِلُ ، وَبَسْتَرُ
الظَّلَامِ يَسْدُنُ ، فَانْجَلَى الْأَفَقُ عَنْ رَوْضَةٍ غَارَتْ مِنْهَا الرِّيَاضُ ، يَنْسَابُ مِنْ
مَجْرَّتِهَا مَا يَفْعَمُ الْحَيَاضُ ، وَأَنْسَتْنَا مَا طَوَى النَّهَارُ عَنَا مِنَ الْحَاسَنِ ،

١ - السحاب الأبيض . ٢ - الثلج .

٣ - هو بكسر الضاد ويخفف بالسكون نبي معروف روي أنه جلس على ربوة
ببضاء فاهتزت تحته خضراء .

وورَدْنَا من بَقِيَّةِ أنْسِنَا ماءَهَا غيرَ كَدِيرٍ ولا آسِنٍ

تَحْسِبُ النَجْمَ فِي دُجَى اللَّيْلِ زَهْرًا فِي رُبَاهَا وَتَحْسِبُ الزَّهْرَ نَجْمًا

فَمَتَّعْنَا الطَّرْفَ فِي الرُّوضَتَيْنِ ، وَحَصَلْنَا مِنَ الْأَنْسِ عَلَى جَنَّا الْجَنَّتَيْنِ ،
حَتَّى إِذَا عَبَثَ الْإِبْتِسَامَ بِالْوُجُومِ ، وَفَاضَ نَهْرُ الْمَجَرَّةِ عَلَى حُصْبَاءِ النُّجُومِ ،
وَكَادَ جَرْفُ اللَّيْلِ يَنْهَارُ ، سَمِعْنَا مِنْ بَيْنِ جَلْبَةِ الطَّيْرِ وَالْأَزْهَارِ :

هَاتِ الْمُدَامَ إِذَا رَأَيْتَ شَبِيهَهَا فِي الْأَفْقِ يَا فَرْدًا بغيرِ شَبِيهِه
فَالصَّبْحُ قَدْ ذَبَحَ الظَّلَامَ بِنَصْلِهِ فَغَدَبَتْ حَمَائِمُهُ تُخَاصِمُ فِيهِه

قال الراوي: فَأَوْجَسْتُ خِيفَةً فِي نَفْسِي ، وَأَعْتَصَمْتُ الْحَيْفَةَ بِدَلِّ
أَنْسِي ، وَقَمْتُ مَذْعُورًا لِفَرْطِ الدَّهْشِ ، وَالْجَوْشِ بَيْنَ الضِّيَاءِ وَالْغَبْشِ ،
« يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ » ، فَتَرَاءَتْ
لِي وَجُوهُ الرِّيَاضِ تَتَعَبُّ دَمَا ، كَأَنَّمَا اكْتَسَتْ الْآفَاقُ مِنْ حُمْرَتِهِ عُنْدَمَا ،
فَتَوَهَّمَتْهُ مِنْ بَقَايَا الشَّقَقِ أَسْفَرُ عَنْهَا ضَوْءُ الْفَلَقِ ، فَإِذَا هُوَ يُنَادِي بِلِسَانِ
طَلِيقٍ : أَنَا أَخُو الرِّيَاضِ (الشَّقِيقِ) ، كَمْ كَسَوْتُهُ جَمَالًا ، وَكَسَبْتُهُ مِنْ وَرَقِ
وَرَقِي مَالًا ، مِنْ وَجْهِي تُعْرِفُ نَضْرَةَ النِّعَمِ وَمَزَاجَ كَأْسِي مِنْ تَسْنِيمِ ،
فَدَعُ قَوْلَ عِيَاضٍ^١ ، وَوَصَفَهُ إِيَّايَ بَيْنَ الرِّيَاضِ ، وَخَلَّ مِنْ الْأَلْوَانِ

١ - يشير الى بيتي القاضي عياض في الشقيق الآتين بعد .

المُخْضَر ، واسمع ما قيل الحُسْنُ أحمر فالأزاهيرُ عساكِرُ وأنا لها أعلام ،
فحَسْبِي ما قال علماء الشُّعْر الأعلام :

وَكَأَنَّ مُحَمَّرَ الشَّقِيْقِ إِذَا تَصَوَّبَ أَوْ تَصَعَّدَ
أَعْلَامُ يَأْقُوتٍ نُشِرَ نَ عَلَى رِمَاحٍ مِنْ زَبَرَجَدٍ

فصاح به (النَّمَام) ، أقصر فلي بحضرتكما الإمام ، متى جَمَلَتِ
الرياض ، ومتى أَغْنَيْتِ الحياض ، وأننى لوجهك النَّضْرَة ، وقد أبدى
صفحةً ، ليس لها عرف ولا نَفْحة ، أما ذكرت سواد قلبك ، وقضاء
ربك ، وقد جرح القاضي شهادتك ، وردَّ نداءك واشادتك :

انْظُرْ إِلَى الزَّرْعِ وَخَامَاتِهِ تحكي وقد ماست أمام الرياح
كثيْبَةٌ خَضْرَاءَ مَهْزُومَةٍ شقائق النُّعْمَانِ فِيهَا جِرَاح

نعم صَبْغُكَ مستحيل ، وأعلامك مُؤَذِّنَةٌ بِالرَّحِيلِ عَنِ الرَّسْمِ الْمُحِيلِ ،
فما النَّضْرَةُ ، إِلَّا لِلْخَضْرَةِ ، أو ما علمت أن بها يُشَبَّه العذار ، إذا استدار ،
ما أَحْسَنَ الرِّيحَانِ فِي الْجَلْدَانِ فان قلت نَمَامٌ فما نمَّ إِلَّا بِأَمْرِهِ ، ولا باح
إِلَّا بِسِرِّهِ

لَمْ كَرِهَ النَّمَامَ أَهْلُ الْهَوَى أساءَ إخواني وما أحسنوا

ان كان نَمَّامٌ فَمَعْكُوسُهُ من غير تأديب لهم مَأْمَنُ

فناداه (البَّان) ، وقد ظهر عليه وبَّان ، أيها المفتخر بفيه ، المتحلي بما ليس فيه ، تسريقُ السمع بأذني فرس ، فشأنه كله خلَّس ، أما علمت أن النَمَّام في النار أما كفاك هذا العار ، بغيض الذات ، هادم اللذات ، تطيرَ من اسمك الناس وما له في الثقل من ناس ،

أقول وطرفُ النرجس الغض شاخص إليَّ وللنَّمام حـوليَ إمام
أيا ربَّ حتى في الحـدائق أعينُ علينا وحتى في الرياحين نَمَّام

ما الحُسن إلا للقَضيب المشوق ، والقَدُّ المعشوق ، المكتسبي فاخر
الملبس ، الزاهي في الديباج الأطلس ، إليَّ تُنسَبُ القدود الملاح ، وعلى قامتي يَعْذِلُ العاذل ويلحي اللّاح .

تبسّم زهرُ البان عن طيبِ نشره وأقبل في حسن يجِلُّ عن الوصف
هلمّوا اليه بيّن قَصْف ولذّة فان خُصُورَ البان تصلّح للقَصْف

فأجابه (البّهّار) البهّار ، البادي فضله على فضل النهار :

نَفَسُ غصنُ البان أذنا به وَقَاسَ وقتَ الصبح عُجْبًا وفاح
وقال هل في الروض مثلي فقد تُغزَى الى قدّي قدودُ الملاح
فحدّق النرجسُ يَهْزَأ به وقال حقًا قلتَ ذا أم مُزّاح

بل أنت بالطول تحامقت يا مقصود عجب بالدعاوي القباح
فقال غصن البان من تيهه ما هذه الأعين إلا وقاح

أما راقك الياقوت الأصفر ، وسط الدر الأبيض على الزمرد
الأخضر ، يشهد بمنافعي البيئة ، في الفصول والأزمنة ، شموا النرجس
ولو يوماً في السنة ، فأنا غذاء الروح ، لمن يغدو عني ويروح ،
لطيف المزاج ، أصلح للعلاج ، وأزيل من الدماغ مضرّة دُخان
السراج ، وأخف على العشاق ، يوم التلاق .

وإذا قضيت لنا بعين مراقب يا رب فلتك من عيون النرجس
فنهض اليه (البنفسج) وثار ، وتكلم بالسن كأنها أوائل النهار ،
وقال لا يظهر لك أمر ، ولا يسلم لك فخر ، إلا على الورد ، فما
لأمرك عليه من ردّ .

خجلت خدود الورد من تفضيله خجلاً توردها عليه شاهد
للنرجس الفضل المبين وان أبي أب واحد عن الطريقة جاحد
فضل قديم ، يعرفه المدام والنديم ، وأما أنا فبهجة لازوردية ،
ونسمة عنبرية ، ريحانة الجيوب ، المحببة للقلوب

يا مُهدياً لي بنفسجاً أرجأ يرتاح صدري له وينشرح

بَشَّرَنِي تَصْغِيفُهُ عَاجِلًا بِأَنْ ضَيِّقَ الْأَمْرَ يَنْفَسِحُ

فَأَقْبَلَ (الْوَرْدَ) فِي جُنُودِهِ ، نَاشِراً لِرَايَاتِهِ وَبُنُودَهُ ، مُحْمَراً
الْوَجَنَاتِ ، مُنْكَرِراً عَلَى الْبِنْفَسِجِ مَا جَاءَ بِهِ مِنَ التَّرَهَّاتِ .

وَلَقَدْ رَأَيْتُ الْوَرْدَ يُلْطِمُ خَدَّهُ وَيَقُولُ وَهُوَ عَلَى الْبِنْفَسِجِ يَحْتَقُ
لَا تَقْرُبُوهُ وَإِنْ تَضَوَّعَ نَشْرُهُ مِنْ بَيْنِكُمْ فَهُوَ الْعَدُوُّ الْأَزْرَقُ
كَيْفَ يَفْتَخِرُ النَّرْجَسُ مِنْ بَيْنِ الرِّيَاحِينَ ، عَلَى نُحْبَةِ الْمُلُوكِ
وَالسَّلَاطِينِ .

إِنْ كُنْتَ تُنْكَرُ مَا ذَكَرْنَا بَعْدَ مَا وَضَحْتَ عَلَيْكَ دَلَائِلَ وَشَوَاهِدَ
فَانْظُرْ إِلَى الْمُصْفَرِّ لَوْناً مِنْهَا وَافْهَمْ فَمَا يَصْفَرُّ إِلَّا الْحَاسِدُ
أَلَمْ تَسْمَعْ مَا قِيلَ ، مِمَّا سَيُلْقِي عَلَيْكَ الْقَوْلَ الثَّقِيلَ .

مَنْ فَضَّلَ النَّرْجَسَ فَهُوَ الَّذِي يَرْضَى بِحُكْمِ الْوَرْدِ إِذْ يَرَأْسُ
أَمَا تَرَى الْوَرْدَ غَدَاً قَاعِداً وَقَامَ فِي خِدْمَتِهِ النَّرْجَسُ

أَنَا مُشْرِفُ الرِّبِيعِ ، وَمُظْهِرُ مَا لَهُ مِنَ الْبَدِيعِ ، أَنْعَشُ الْأَرْوَاحَ ،
فَأَنَا عَرُوسُ الْأَفْرَاحِ ، نَوَافِحُ ذَكَاةٍ وَرَوَايِحُ شَذِيَّةٍ ، أَبْدِيتُ أَلْوَاناً
لَأَهْلِ الْأَدَبِ ، يَقْضُونَ لَهَا بِالْعَجَبِ ، فَمِثِّي الْأَبْيَضُ وَالْأَسْوَدُ الْحَالِكُ ،
وَمِثِّي وَرَاءَ ذَلِكَ ، أَصْفَرُ فَاقِعَ ، وَمَا نِصْفُهُ قَانِي وَنِصْفُهُ نَاصِعَ ،

وبالهند مني شجرٌ تُخْرِجُ ورداً عليه مكتوبٌ : لا إله إلا الله ، محمد رسول الله ، فأنا للرياحين ملكٌ ملوكها ، ووسط عقودها وسلوكها .

فمن ذا يضيأهيني بوصف فضيلة وفضلي على كل الرياحين ظاهر زماني على الأزمان بي مُتَشَرِّف وفخري لمن يبغى التفاخر قاهر

فرام (المنشور) ، أن يُراجعه بالمنظوم والمنثور ، ويذكر له من ذلك ما هو مأثور ، فأسكتته ، وردّ عليه وبكته ، وتحامل عليه ، ولم يصغ إليه ، فأما الأبيض فاستسلم ، وأبى الدعاء على من ظلم ، وكل من الاصفر والازرق باح بالشكوى ، الى عالم السر والنجوى ، فلم يزل يسيل مدامعه ، ويمدّ الى الله أصابعه ، وعنده تجتمع الخوصوم ، واليه تعالى ينتهي الظالم والمظوم .

حاذرٌ أصابع من ظلمت فانه يدعو بقلب في الدجا مكسور فالورد ما ألقاه في جمر الغضا إلا الدعا بأصابع المنشور

قال الراوي ، فبينما هما في مطارحة وجواب ، ومفاخرة وإعجاب ، إذ أقبلت مطوّقة الرياض ، ولها من الجو انصباب وانقضاء .

ورقاء قد أخذت فنون الشوق عن يعقوب والالحيان عن إسحاق وأنا الذي أملى الهوى من خاطري وهي التي تملّي من الأوراق

فباحت بشجنها ، وتكلمت على فتنها ، وقالت كلُّ يُحاولُ جهده ،
ويقول بما عنده ، إليَّ لا لكم الفخار ، وأنتم لنا أعشاشٌ وأوكر ،
وفروءكم لخطبائنا منابر ، ولقيائنا ستائر ، أليس رؤوسكم لأقدامنا
خاضعة ، ولنا كلما نزلنا ساجدة وراكعة ، وإننا على ما زعمتم بنا من
الجلوى وتباريجِه ، آخذون في ذكر الله وتسبيحِه ، شغلنا ذلك
بالأسحار ، والعشيّ والإبكار ،

قال الراوي : فبينما أعجبُ بما سمعت ، وأهْمُ بتقصيد ما رويت ،
إذ نشأت غمامة تصافح أهدابها الأرض ، وتسُدُّ الآفاق على الطول
والعرض ، يحدوها الرعد ، ويستنجز منها الوعد .

وكأنَّ صوتَ الرعد خلفَ سحابةٍ حادٍ إذا وَّنتِ الركائبُ صاحا
أخفى مسالكها الظلامُ فأوقدت من برقها كي تهدي مضباحا
جادت على التلعاتِ فاكتستِ الرُّبى حلالاً أقام لها الربيع وشاحا

فنشرت الأرض جواهرَ تغارُ منها البحور ، وتزدانُ بها من
أجْياد الأزهار اللَّبَّاتُ والنُّحور ، فاخفت بعد ما تجلَّت ، وألقت على
البِطاح ما فيها وتخلَّت ، ثم قالت يا ذواتِ الأطواق ، البائحاتِ
بالأشواق ، المُفتخرات على الأدواح ، بالغدوِّ والرواح ، بُكاؤُكنَّ
كذب ، ونوْحُكنَّ لعب ،

لو كان حقا ما ادَّعَيْت من الجوى يوماً لما طَرَق الجُفُون كَرَاك
أوْ كَانَ رَوَّعَكَ الفَراقُ إِذَا لَمَّا ضُنْتُ بِمَا جُفَوْنَهَا عَيْنَاكَ

ما الفضلُ إِلَّا لِمَنْ أَحْيَا الأرضَ بعد أن كَادَ زَرَعُهَا يَبْهَجُ ،
فَاهْتَزَّتْ وَرَبَّتْ وَأُنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيْجٍ ، فَقَلَّ نَدُّهَا مُدْبِجَةٌ ،
وَرُوؤُوسُ أَشْجَارِهَا مُتَوَّجَةٌ ، فَلَوْلَايَ لَمْ يَكُنْ لَكُنَّ مَرْعَى وَلَا مَسْرَحُ
فِي الْأَرْضِ وَلَا مَسْعَى . قَالَ الرَّاوِي : فَبَيْنَمَا هِيَ طَلَقُ اللَّسَانِ ، وَتَعُدُّ^١
مَاهِلَهَا مِنَ الْحَسَنِ وَالْإِحْسَانِ ، إِذْ طَلَعَتِ الْغَزَالَةُ ، وَهِيَ فِي
مَشْيِهَا مُخْتَالَةٌ .

مِرَاةٌ تَبْرِ لَمْ تَشْحَ بِصَيَاغَةٍ . كَلَّا وَلَا جُلِيَّتْ بِكَفِّ الصَّيْقَلِ
حَتَّى إِذَا بَلَغَتْ إِلَى حَيْثُ انْتَهَتْ وَقَفَتْ كَوَقْفَةِ سَائِلٍ عَنْ مَنْزِلِ

وَهِيَ قَائِلَةٌ أَعْمَالُ كَسْرَابٍ ، وَعَارِضُ مُنْجَابٍ ، إِذَا طَلَعَتْ عَلَيْهِ
الشَّمْسُ ذَابَ ، أَلَمْ تَسْمَعُوا بِأَنِّي يُوحُ ، أَغْدُو فِي مَصَالِحِ الْعَالَمِ
وَأَرْوَحُ ، فَلَوْلَايَ مَا جَرَّتِ الْإِنْهَارُ ، وَلَا تَفْتَقَّتِ الْأَزْهَارُ ، قَالَ
الرَّاوِي : فَلَمَّا رَأَيْتُ إِفْرَاطَ اللَّجَاجِ ، وَالتَّادِي عَلَى الْحِجَاجِ ، قُلْتُ
الْحَقُّ أَبْلَجُ ، وَالْبُطْلُ لَجَلَجُ ، هَلَّا أُعْطِيتُمُ الْقَوْسَ بَارِيهَا ، وَأَسْكَنْتُمُ

الدارَ بانيهما ، فَمِنْ كَلَامٍ مَنْ يَعْقِلُ . إِذَا فَاضَ نَهْرُ اللَّهِ بَطَلَ نَهْرُ
مَعْقِلٍ ، أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ جَامِعَ هَذِهِ الْفَضَائِلِ وَإِمَامَهَا وَمَالِكَهَا الَّذِي
أَحْكَمَ انْتِظَامَهَا ، عَالِمُ الْمُسْلِمِينَ مُحْيِي سُنَّةِ الْفَضْلِ فِي الْعَالَمِينَ الْمَاجِدِ
الْفَاضِلِ ، السَّحَابِ الْهَاطِلِ ، السَّنِيِّ ، السُّنِّيِّ ، فَخْرِ الْمَغْرِبِ الْأَكْبَرِ ،
مُحَمَّدِ بْنِ أَبِي بَكْرٍ صَاحِبِ الدَّلَاءِ الْكَرِيمِ الْجَوَادِ ، الْكَثِيرِ الرَّمَادِ ،
كَافَى اللَّهِ إِنْْعَامَهُ ، وَجَازَاهُ عَنْ مَقَامِ الدِّينِ الَّذِي أَرَادَ جِدَارُهُ أَنْ
يَنْقُضَ فَأَقَامَهُ ، فَهُوَ الْمَمْدُوحُ بِكُلِّ لِسَانٍ ، وَالْمَاجِدُ الَّذِي لَمْ يَخْتَلِفْ فِي
فَضْلِهِ اثْنَانِ ، وَالسَّخِيُّ الَّذِي إِذَا مَلَأَ الرَّاحَةَ خَفَّ عَلَيْهِ التَّعَبُ ، وَإِذَا
ذَكَرَ الْقَدْرَ الَّذِي ارْتَفَعَ هَانَ عَلَيْهِ الْفِكْرَ الَّذِي انْتَصَبَ ، كَمْ سَاجَلَتْ
جُودَهُ الْغَمَائِمُ ، فَأَمْسَتْ عَلَى افْتِضَاحِهَا ثَنَائَا الْبُرُوقِ وَهِيَ بَوَاسِمُ ، مَتَى
طَرَقَتْ حِمَاهُ وَاللَّيْلُ قَدْ سَجَى ، تَجِدُ حَظَبًا جَزْلاً وَنَاراً تَأْجَجَا .

تَلُوحُ فِي غُرَّةِ الْأَيَّامِ بِهِجَتُهُ كَأَنَّهَا مِلَّةُ الْإِسْلَامِ فِي الْمِلَلِ

فَاعْتَرَفَتِ الْأَزْهَارُ بِأَنَّ شَذَاهَا مِنْ نَسِمَاتِهِ ، وَأَقْرَتِ الشَّمْسُ بِأَنَّهَا
مِنْ قَسِمَاتِهِ ، وَسَلَّمَتِ الْغَمَامُ بِأَنَّهُ مِنْ صَلَاتِهِ ، وَقَالَ الْحَمَامُ لَا أَتَغْنَى إِلَّا
بِمَدَائِحِهِ ، وَلَا أُرِدُّ إِلَّا مَوَارِدَ مَنَائِحِهِ ، قَالَ الرَّائِي : فَلَمَّا وَقَعَ
التَّسْلِيمُ لِمُعْجَزَاتِهِ الْمُحَمَّدِيَّةِ ، وَمَنَاقِبِ أَبِيهِ الْبَكْرِيَّةِ ، قَضَيْتُ الْمُنَاسِكَ ،
وَوَدَّعْتُ الْمَسَالِكَ ، وَطُفْتُ تِلْكَ الْبِقَاعَ طَوَافَ الْوَدَاعِ فَلَمَّا أَرَدْتُ

الخروج ، والرجوع على خُضرة تلك المروج ، نادتني الأزهار من
 كائنها ، والثمار من أغصانها ، سمعاً لهذا الماجد الذي صار إجماعاً ،
 وأحببته أنت عياناً ونحن سماعاً ، ونحن نُقسِمُ عليك بمواهبه التي كثرت
 النجومَ عدّاً ، وطالت البحرَ مدّاً ، إلا ما خدمتَ بهذه الفُكاهة
 جنابه الفسيح ، وأغنيتَ بها المساكينَ الذين يعملون له في كل بحرٍ من
 أشعار المديح ، فقلتُ أجبتُ هذا القسمَ الكريم ، وإنه لقسمٌ لو
 تعلمون عظيم ، فيا له من حجٍّ مبرور ، وعملٍ متقبل مشكور ، فرأيتُ
 الفوائد في سلكه منظومة ، وصحائف لذاته بالمسك محتومة .

مَقَامَةُ الْحَجَّامِ

لابن الطيّب العكبي

أخبرنا بعضُ الظرفاء ، من ذوي المروءة والوفاء ، ممن أَعْتَمِدُ على نقله وروايته ، وأَحْكُمُ بصحة عقله ودرأيته ، قال جلستُ يوماً ما مع جماعة من الاحباب ، على شيء من الشراب ، نتذاكر ما مرَّ في أيام الشباب ، ويديننا شاب حسنُ الصورة ، عليه الملاحاة مقصورة ، واللطائف في شمائله محصورة ، إلا أن شعرَ شاربه قد طال ، واسترسل غاية الاسترسال ، فسألناه عن سبب طولِه ، وعَدِمَ قصَّ طَوِيلِه ، فقال أنا أخبركم بخبر يعجب لذكره الحاضرون ، ويطرب لسماعه المنصتون والناظرون ، كنتُ من شأني أَتَزَخَّرُ في المكاسب ، وأُتَخَيَّرُ منها ما يناسب ، فصليت يوماً صلاةَ الاستخارة فوجدت نفسي مائلةً الى التجارة ، فقصدت مدينةَ سَنَجَار ، وفتحت بها حانوتاً بِسُوق التجار ، ووضعتُ فيه من محاسن القماش ، ما أستعين به على المعاش ، وزينتُ الدكَّانَ ، بحسب الإمكان ، وكسوتُها بالاستار على أربعة أركان ، وعاملتُ أهلَ الاسواق ، بمكارم الاخلاق ، واستعنتُ بالقُرْبَةِ ، عن ليالي الغربة ، فاتفق لي في بعض الأيام ، ضرورةٌ الى دخول

الجمام ، فوجدتُ في طريقي جماعة من النسوان ، بينهن فتاة كأنها
قُضِبُ البان ، فلمحتُ من تحت الإزارِ مِعْصَمَهَا ، وقد سطع صفاؤه ،
وأبصرت من تحت النقابِ جِسْمَهَا ، وقد لمع ضياؤه فوقفتُ وقد
جری من الجفون دَمِي ، وعجزتُ عن نقل قدمي ، ثم تبعتها من بعيد ،
ولاحظتها الى أين تُريد ، فدخلت داراً يدل إتقانُ بابها ، على سعادة أربابها ،
فنظرتُ فإذا بالقرب من ذلك المكان ، خياط يخيّط في دُكان ، وعنده من
الصَّنَاع والأَعْوَان ، ذَوُو أَذْقَان ومُردان ، صُنُوفٌ وغيرُ صُنُوف ،
فقلت في نفسي من هذا الخيّاط أستفهم ، عمّا عليّ أُنهم ، فرجعتُ الى
دُكاني ، ثانياً عِنائي ، وأحضرت عدةً من التفاصيل وجئت بها حانوت
الخيّاط بقصد التفصيل ، فجالسته ، وحاوَرته وآنسْته ، وفصلتُ ذلك
القماش ، وعجلت له من الاجرة ما يحصل به الانتعاش ، ففرح
بحضوري ، واعتنى بأموري ، ووجدت عنده معرفةً بالادب ، وشكراً
لي من ضيق الحال والسَّغْب ، وأنشدني لنفسه من شعره المستعذّب :

أنا الخيّاطُ لي رزق ولكن أرى حالي من الافلاس عبْره
ذراعي فيه من فقري مَقْصَر ورزقي خارج من عينِ إِبْره

فاستحسنّت نظمه ، وحملتُ همّه ، وصارَ يتلقّى كلامي بالقبول ،
ويقف ممثلاً ما أقول ، فسألته عن صُنَاعِ دُكانه ، وديارِ جيرانه ،
فما زال يُشير الى كل دار ويشرح حالها ، ويعرفني تفصيلها وإجمالها ،

حتى أَفْضَى الحديث الى الدار التي أختارُها ، وقصدي أن تتضح لي أخبارُها ، فقال هي دار خطيب البلد ، وهو رجل كثيرُ المال قليل الولد ، مشهور بالتوقرة الزائدة ، ولا له من الأولاد إلا ابنةٌ واحدة ، وهي رَوْحُه التي بين جنبيه ، والسواد الذي فيه نورُ عينيه ، وقد منعها الأزواج ، وخطبها جماعة من البلد ، فلم يسمح لها بالزواج ، فقلتُ والله لقد شوقتني اليها ، وحدثتني نفسي بخطبتها والعمل عليها ، فهل تعرفُ امرأةً تُعرفني باسمها ، وتوصل خطبتي الى أمها ، فدلني على عجوز مشهورة في عقد النكاح ، تُعرف بِيَاقُوتَةِ الملاح ، فلما لقيتها أوضحتُ لها الحال ، ووعدتها ان تَمَّت المسألة تُخَفِّفَ ومال ، فسمعت كلامي ، وضمنت لي بلوغَ مرامي ، وأنشدت :

أنا يَاقُوتَةُ الملاح ورَبِّي في أموري هو الكفيل بقوتِ
ان سلكتُ القِفَارَ جئتُ بوحش أو سلكتُ البحارَ جئتُ بجُوتِ
ويقود الصعابَ لطفُ احتيالي بخيوطٍ تكون من عنكبوتِ
أَلْقِنِي في لَظَى فان غَيَّرْتَنِي فتيقَّنْ أن لستُ بَالِيَاقُوتِ

ثم فارقتني وذهبت ، واشتعلت نار وجدي والتهمت ، ومضى عليَّ شهر لا أدري أمرها ، ولا أعرف مُستقرَّها ، فذرفت العيون ، وسهرت الجفون ، وساءت الظنون ، وقلتُ :

غاب الرسول فلم يعد بجوابه ففهمتُ معنى الحال في تأخيرهِ

فَكَأَنَّهُ لَمْ يَلْقَ أَمْرًا طَائِلًا فَأَرَادَ بِالتَّأخِيرِ سِتْرَ أُمُورِهِ
مَا ضَرَّهُ لَوْ جَاءَنِي بِجَوَابِهِ فَعَلِمْتُ مَا قَدْ كَانَ عِنْدَ حُضُورِهِ
إِنْ كَانَ خَيْرًا نَلْتُ مِنْهُ بَشَارَةً أَوْ غَيْرَهُ فَكَّرْتُ فِي تَدْبِيرِهِ

قال : وبعد ذلك حضرت ، وقد انفطرت كبدي بما انتظرت ،
فلاح من وجهها عدمُ القبول وخيبةُ المأمول ، وقالت : والله لقد
تَحِيلْتُ وتَوَسَّلْتُ ، فَمَا ظَفِرْتُ وَلَا تَوَصَّلْتُ ، لَمْ يُوَافِقْ أَبُوهَا عَلَى
زَوَاجِهَا ، وَلَا سَمَحَتْ نَفْسُهُ بِإِخْرَاجِهَا ، وَلَكِنَّ وَالِدَتَهَا رَثَتْ لِحَالِكَ
وَوَافَقَتْ عَلَى ذَلِكَ ، فَقُلْتُ لَهَا لَقَدْ يَثُتُ مِنْ حَيَاتِي ، وَدَنْتُ وَفَاقِي ،
فَسَاعِدِينِي قَبْلَ فِرَاقِ الدُّنْيَا بِنَظَرَةٍ وَاحِدَةٍ ، وَلِكِ وَلَأْمَهَا ، التَّكْرِمَةُ
الزَّائِدَةُ ، فَلَيْسَ لِي غَرَضٌ غَيْرُ قُبُلَةٍ فِي جَسْمِهَا ، وَأُخْرَى فِي مِعْصَمِهَا :

وبعد ذلك طابَ الموتُ فاغْتَنِمِي اجري ولا تُهْمِلِي أَمْرِي أُمْتُ كَمَدَا
وسَاعِدِينِي عَلَى حَالِ بُلِيَّتُهَا وَعَجِّلِي فَلَعَلِّي لَا أَعِيشُ غَدَا

ثم تَصَعَّدَتْ زَفَرَاتِي ، وَتَجَدَّدَتْ حَسَرَاتِي ، وَتَزَايَدَ شَهِيْقِي ،
وَنَغَصَصْتُ بِدَمْعِي لَا بَرِيقِي ، فَقَالَتْ : أَرْضَى بِذَلِكَ النَّزْرَ الْقَلِيلَ ،
قُلْتُ : نَعَمْ وَاللَّهِ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ، فَاسْتَصْحَبْتُ مِنَ الذَّهَبِ مَا
أَرْضَاهَا ، وَرَكِبْتُ سَفِينَةَ النَّصْحِ ، وَقَالَتْ بِسْمِ اللَّهِ مُجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا ،
وَذَهَبَتْ وَقَدْ دَهَتْ عَيْنَاهَا ، فَغَابَتْ عَنِّي قَلِيلًا ، ثُمَّ عَادَتْ فَرَأَيْتُ

وجها جميلا ، وقالت : لقد رثت لك الوالدة ، وسمحت لك بنظرة واحدة ، بعد ان قلت لها لا بأس بنظرة العين ، ورغبتها في أجر من يجمع بين المحبين ، فأياك ان تنقض عهداً ، او تتعدى حداً ، وتقرر الميعاد يوم الجمعة وقت الصلاه ، ووالدها على المنبر في مُصَلَّاه ، فضُمت ، وتصدقت ، وانتظرت ذلك الوقت ، الى ان دنا الميعاد ، ودخل الوقت أو كاد ، فخرجت من داري ، وقد صفت اكداري ، وحسنتُ هيئتي ، وسرَّحتُ لحيتي ، واستعملتُ ما يناسب من الطيب ، وقصدت دار الخطيب ، فاجتزت بِحَجَّام عنده مرآة ، ومِقَصَّات مُستحسنات ، فناولني المرأة حتى رأيتُ وجهي فيها ، فوجدتُ شعر شاري قد طال ، وتعيَّن ان يُخَفَّفَ ويزال ، فأمرته بِقَصِّهِ ، وان يأخذ منه بِمِقَصِّهِ ، فامتثل أمري ، وقصَّ ما طال من شعري ، فسألته عن اسمِه وأصلِه ، لعلي استدلُّ بذلك على فِعْله ، فقال : اسمي قَتُور ، وأصلي من خَيْبَر ، فقلت : اسم عَتِيث ، وأصلُ خَبِيث ، فقصدت إعطاءه درهما عن أجرته ، فسبقني يدي الى كيس الذهب ، لما طُبِعَ عليه الانسان من عَجَلَتِهِ ، ولما نظر اليه والى ما فيه من الذهب ، طسار عقله وذهب فناولته منه ديناراً ، لأَكْفَى منه عاراً ، فانكب على قَدَمي ، وبالع في الثناء على كرمي ، وقال مثلك من يخدمه الانسان ، وهل جزاء الإحسان ، إلا الإحسان ، والله لقد

اغْنَيْتَنِي مِنْ كَرْمِكَ ، وَلَا أَعُودُ أَمُوتُ إِلَّا تَحْتَ قَدَمِكَ ، فَأَثْنَيْتُ عَلَيْهِ بِالْخَيْرِ ، وَأَسْرَعْتُ عَنْهُ فِي السَّيْرِ ، فَأَسْرَعَ حَتَّى لَقِيَنِي وَلَا زَمَنِي وَلَا صَقَنِي ، وَمَا تَأَخَّرَ عَنِّي وَلَا سَبَقَنِي ، فَقُلْتُ لَهُ انْقَطِعْ عَنِّي ، وَلَا تَتَّبِعْنِي ، وَمَا الَّذِي تَرِيدُ مِنِّي ، فَقَالَ : مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ أَفَارِقَ مِنْ أَحْسَنَ إِلَيَّ ، وَتَفْضُلَ بِهَذَا الدِّينَارِ عَلَيَّ ، وَاللَّهِ مَا أَنَا مِنْ أَوْلَادِ الزَّانِي ، وَلَا مِنْ أَبْنَاءِ الْخَنَاءِ ، هَذَا وَالْعَجُوزُ مُرَاقِبَةٌ وَصُولِي وَمُنْتَظَرَةٌ لِدُخُولِي ، فَأَعْتَرَضَنِي جَمْعٌ مِنَ الْمَسَاكِينِ ، وَقَالُوا تَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنْ اللَّهُ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ ، فَنَاولَتْهُ دِينَارًا آخَرَ وَقُلْتُ صَرَّفْهُ وَفَرَّقْهُ عَلَيْهِمْ ، وَتَوَلَّى إِيصَالَ ذَلِكَ بِيَدِكَ إِلَيْهِمْ ، فَرَمَاهُ إِلَى الْفُقَرَاءِ فِي الْهَوَاءِ ، وَقَالَ اقْتَسِمُوا هَذَا بَيْنَكُمْ عَلَى السَّوَاءِ ، ثُمَّ هَرَوَلْتُ فَأَدْرَكَنِي ، وَدَخَلْتُ مِنَ الْبَابِ ، فَأَرَادَ أَنْ يَمْسِكَنِي وَقَالَ : إِلَى أَيْنَ يَا سَيِّدَاهُ ، وَقَدْ دَخَلَ وَقْتُ الصَّلَاةِ ، فَلَمْ أَرَدْ عَلَيْهِ الْجَوَابَ ، بَلْ أَدَخِلْتُ وَأَغْلَقْتُ دُونَهُ الْبَابَ ، فَمَا لَبِثَ أَنْ طَرَقَ الْبَابُ . وَقَالَ يَا سَيِّدِي فَاتَكَ الصَّوَابُ ، قَدْ أُقِيمَتِ الْجُمُعَةُ ، وَالْأَقْوَامُ إِلَى الصَّلَاةِ مُجْتَمِعَةٌ ، فَقَالَتْ لِي الْمَرْأَةُ : دَعْ غِلَامَكَ يَذْهَبُ ، فَقَدْ تَعَدَّى وَغَلَبَ ، فَقُلْتُ وَاللَّهِ مَا هُوَ لِي بِغُلَامٍ ، وَلَا لِي مَعَهُ كَلَامٌ ، فَاخْرُجِي إِلَيْهِ ، وَالْعَنِي وَالِدَيْهِ ، فَخَرَجْتُ إِلَيْهِ ، وَأَنْكَرْتُ عَلَيْهِ ، فَرَمَى عِمَامَتَهُ وَبَكَى ، وَقَالَ إِلَى اللَّهِ الْمَشْتَكِي سَيِّدِي فِي هَذِهِ الدَّارِ أَدْخُلُوهُ ، وَطَمِعُوا فِي مَالِهِ فَقَتَلُوهُ ، وَزَادَ فِي الْاِسْتِغَاثَةِ وَاجْتَمَعَ عَلَيْهِ النَّاسُ حَلَقَتَانِ

او ثلاثة ، ولم يزل يصرُخ ويستغيث ، ويقول ألا مُنجدُ ألا مُغيث ،
والعجوزُ راجفة ، والبنتُ وَاَجفة ، والأمُّ خائفة ، والطوائف واقفة ،
« أَرِفَتِ الْآزِفَةَ ، ليس لها من دُونِ الله كاشفة » وما زال يصيح
يا سيده ، يا مؤلاه ، خرج الناس من الصلاة ، فأتك الثَّواب ، عِدِمْتَ
الضَّواب ، حَصَلْتَ وراءَ الحِجاب ، ضَرَبَ بيني وبينك بِسُورٍ له
باب ، فخرج الناس من الجمعة ، وعلى الباب طوائف مُجْتَمِعة ، واتَّصل
بالخطيب الخبر ، فبادر إلى داره وحضر ، فرأى الناس مجتمعين ، وإلى
الحجَّام مستمعين ، فلما وقع نظره عليه ، أدناه إليه ، وقال له ما
الحديث ، وإلى كَمْ تصرُخ وتستغيث ، فقال ان سيدي قد دخل الى
هذه الدار ، ومعه كيسٌ فيه ألف دينار ، ثم لما أدخلوه ، طمِعُوا فيه
فقتلوه ، وهو في هذه الدار ، فادخل وعرفني الأخبار .

قال الراوي : هذا ونحن نسمع الكلام ، ونتوقع الحِمَام ،
فوجدت في الدار بُشْراً ، فرميتُ نفسي فيها ، وأمرت النساء يسترونها
بما يُخْفِيها ، فدخل الخطيب الى نسائه ، وعرف من قول الحجَّام ،
وفوقَ اليهن سِهَام المَلَام ، فحلفنَ له بما أرضاه ، وقُلْنَ حاشَ الله ،
فخرج اليه بَغِيْظ شديد وقلبٍ دونه الحديد ، وقال يا غلام ، دع
عنك هذا الكلام ، فما عندي من يُتَّهَمُ بكلامك ، ولا من تَرْمِيهِ
بِسِهَامك ، فصَّرح بأعلى صوتِه وقال : قتلوه وليتني مِتُّ قبل موته ،

ولو كان حيا ما فاتته صلاة الجمعة ، ولكان حاضرا وأنا فيها معه ،
واحزنه والأسفاه واسيّداه وأمّولاه ، غرّوك فأدخلك ، وطمعوا
في مالك فقتلوك ، ائذن لي بالدخول ، فأنا أعرف ما أقول ، فأمره
الخطيب بالدخول الى داره ، ومعه من الحاضرين من بعثه فضوله على
كشف أخباره ، فدخل الدار في جمع كبير . فأوقعته المقادير على
فم البير ، فقال سيدي في هذا المكان ، ولا بد من النزول فيه ولو
كان ما كان ، ثم نظر في نواحي البيت واستدعى بإناء فيه زيت ،
وحلّ عمامته وبلّ طرفها ، وأوقدها لمكيدة عرفها ، وأدّلاها في
ذلك البير ، وأدارها فأنارت أيّ تنوير ، فرآني جالسا بمكاني وقد
حلّ بي من الويل ما كفاني ، فاستغاث كذب المماطل ، وجاء الحق
وزهق الباطل ، سيدي في هذا البير والانسان جار تحت المقادير ،
فأخرجت من ذلك المكان ، على أقبح حال وأسوأ شأن ، فقال لي
الخطيب ان أردت الخلاص فاصدق ، فقلت ما دخلت إلا لأسرق ، فحُملت
على تلك الحال الى الوالي فسجنني وأخذ أموالي ، فبقيت في الحبس
سنة ، في عيشة خشنّة ، ما رأيت فيها لذة بيّنة ، وعلمت أن من
أحسن لكل رديء الأصل ، شقي كما شقيت ، ولقي ما لقيت ،
وكان مما نظمته في حبسي مخاطبا لنفسي :

تجنّب رديء الأصل واحذره واجتهد على طرده فالخير في شرف النفس

وإِيَّاكَ انْ تَغْتَرَّ مِنْهُ بِمَلَمَسٍ يَلِينُ وَجَنَّبَهُ اجْتِنَابَكَ لِلرَّجَسِ
فَانَّ الْإِفَاعِي قَاتِلٌ سَمُّهَا لِمَنْ تَدَانِي إِلَيْهَا وَهِيَ كَيْنَةُ الْمَسِّ
وَيَكْفِيكَ فِي صَدَقِ الْوَصِيَّةِ مَا جَرَى عَلَيَّ وَمَا لُقِيتُ مِنْ ذَلِكَ النَّحْسِ
تَقَصَّدْتَهُ بِالْخَيْرِ كَافِي بَضْدِهِ وَأَوَّلِيَّتَهُ الْمَعْرُوفَ جَازَاهُ بِالْعَكْسِ
وَكَمْ لَيْلَةٍ قَضَيْتُهَا فِي عَسَاكَرِ مِنَ الْبَقِّ وَالنَّأْمُوسِ فِي ذَلِكَ الْحَبْسِ
أَقَاسِي الْأَبْسَى مِنْ ذَلِكَ الْمُدْبِرِ الَّذِي رَأَى قَصْدَهُ نَقْلِي إِلَى ظُلْمَةِ الرَّمَسِ
وَضَيَّعَ أَمْوَالِي وَعَرَضَنِي وَمَقْصَدِي وَلَكِنْ حَمَدْتُ اللَّهَ إِذْ سَلِمَتْ نَفْسِي

وكانت العادةُ جاريةً بعرض المحاييس على السلطان ، في كل شهر رمضان ، فاحضرتُ بعد سنة بين يديه ، وسألني عن الأمر الذي حُبِسْتُ عليه ، فقلتُ : لي قضية اذكرها بين يديك ، وإذا انهيتهُـا فالامر الى الله ثم اليك . فأذَّناني ، واستفهمني عن شأني ، فذكرتُ له الحكاية على الوجه الصحيح ، واوضحتُ له الحال فلم يحتجْ الى تصحيح ، فعَجِبَ من حالي ، وأمرَ بردَّ مالي ، وتبليغ آمالي ، وأمرَ الخطيب ان يزوجني من بنته المذكورة ، وقام بالصدّاق من عنده على احسن صورة ، واحضر ذلك المُدْبِرَ وسلّمه اليّ ، وحكّمني فيه عند وقوفه بين يديّ ، فذهبتُ به الى داري ، وصفتُ بتلك المحبوبة اكداري ، فصلبتهُ على الباب مرّجوما ، وابقيته سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا ، وسمعتُ هاتفا يقول :

قَضَتْ نَجَبًا نَفْسُ هَذَا اللَّعِينِ وَفِي صَلَاحِهِ نِعْمَةٌ مُطْلَقَةٌ

فلا رَحِمَ الله تلك العظام ولا بَرِحَتْ بِلَظَى مُحَرَّقة
وما مرَّ به احدٌ إلا لَعَنَهُ ، واستظَرَّقه على الخشب واستحسنه ،
وانشدت :

نِلْتُ جَبْرِي بكسر قلبي وصَبْرِي ورَقِيبِي رأيتُهُ مشنوقاً
رَامَ نفعا فضرَّ من غير قصد (وَمِنَ البرِّ مَا يَكُونُ عَقْوقاً)
وأقسمتُ لا قصصتُ شعراً شاري ، ولو استرسل الى تراثبي ، فهذا
سبب طولها ، وقد رضيت بتطويلها ، ثم انشد :

ارى الاحسان عند الحرِّ ديناً وعند النذل منقصةً وشيناً
كما النَّيَّسَانِ فِي الْأَصْدَافِ دُرٌّ وفي بطن الافاعي صار شِمْماً

١ - يريد بماء النيسان المطر الذي ينزل في شهر نيسان وهو أبريل ويقولون ان
الأصداف البحرية تتفتح فيه وما وقع منه فيها صار درّاً كما أن الحيات تتعرض له فما
وقع منه في أفواها صار سماً .

المقامة الحسابية

لبعض أدباء فاس

(أخبر الراغب بن عبد الوارث) قال خرجت الى وادي فاس ،
 في إبان ربيع عطر الأنفاس ، يوم خميس مع أنيس ، ينسى الغريص
 بتجبيره للقريض ، فأنخنا بمنزل ، عن الجموع بمعزل ، وإذا شيخ طالع ،
 مع غلام بارع ، فجلسا بمرأى منا ومسمع ، وصرفا وجههما عن المجمع ،
 وتنازعا الحديث ساعة زمانية ، بلغ الشيخ فيها أمانيه ، ثم أخرج الغلام
 لوحا من رذنه ، مصنوعا لعلم الحساب وما كان من فنه ، وجعل يرسم
 في ذلك اللوح ، بإشارة من الشيخ ممتزجة بروح ، فقال لي صاحبي المؤنس ،
 ان امر هذا الشيخ لمئبس ، ولا بد من نقض غزله ، وإبراز جده
 من هزله ، فأنشد بصوت يُسمع الصم ، وتخرُّ له الجبال الشم ، ما قال
 ابنُ جزيّ في مثله ، وقد ابدعَ في قوله :

يا ناصباً علّم الحساب حباله لقنّاص ظنّي ساحر الألباب

(×) هي ثلاث مقامات بخط واحد غير منسوبة توجد بمكتبتنا أثبتنا منها هنا اثنتين وتركنا الثالثة لتلاشي بعض كلماتها ويظهر أنها من القرن الثاني عشر .

ان كنت تُرزق بالحساب وصاله فاللهُ يرزُقنا بغير حساب

فدار الشيخ وانشد ، ورداً بصوت أشدّ :

ما صدّته بل صادني بقسيّه وبعدّ شبكّة صدّغه الكتاب
ووقعت في فخّ له ، ذا غرّة إذ لم يكن صيدُ الطّباء حسابي

ثم اخذته العزّة فتاه ، وأدارَ وجهه الى فتاه ، فانطلق الأيّس ،
يُنشد الفتى ليميس :

يا (مُنيّتي) ومُنْءائي (إرْفَعِ حِجاب) التَّجَنّي
(جمعت) من كل صنف من الجمال وفنّ
ولم يكن في (حسابي) أن تصريف الوجه عني
ثَلَيْتُ قلبي لما (كسرتّه) بتثنّ

فلم يبرح لقوله ، ولم يتزحزح عن محلّه ، فاعاد وشاد ، واحسن
الانشاد :

يا (مُنية) لي لم يكن لي في (حساب) ان سيَسْنَحْ

١ - فيه تورية بالمنية ورفع الحجاب من كتب الحساب وفي الأبيات التي تليه تورية
بالأعمال الحسابية .

(إرفعْ حجابَ) الهجر عن صبَّ الى اللقيبا ترنح
 فاضت (جداولُ) دَمعه (وضربتْ) عنه (بالمجَّح)
 ان كنتَ (جامعَ) زُخرف مَن وشى بالله (فأطرح)

فما كان بأسرع من أن قاده إبليس ، واتى به كما أتى بعرش بلقيس ،
 والشيخُ يتبع التلميذ ، كالذي اخذته النبيذ ، وقد عبس ، وما نبس ،
 ولا فاه ، مما وافاه ، سوى أن قال « ساحرانِ تظاهرا » مُنيتُ منهما
 بما لم يكن في خلدي جرى ، فحين أبرز برَد أسنانه ، وأصلت
 للكلام غضبَ لسانه ، عرفنا انه ابو سلامه ، فاحسناً تحيته وسلامه ،
 وقلنا لندفع لجاحه ، بك ولله الحاحه ، يا ثمرَ غرسنا وعطر غرسنا ،
 قال أبعد ما بي سخرتُما ، ولفتاي سحرْتما ؟ فما زلنا نعالجُ قلقه ، حتى
 فتحنا مُغلقه ، وقال مُبأسطاً للأئيس ، استفزنا بصوتك المغناطيس ،
 فانشده قولَ مَنْ قال ، واحسن في المقال :

وقالت فتاةُ المنحني ذاتَ ليلةٍ وقد سمحت من بعد صدِّ وإعراض
 إذا ما مضى ممَّا تبقى من الدُّجى ثلاثةُ أشباعٍ وتُسعُ من الماضي
 اتيتك لا يدري بذاك رقيبنا أجرُ رداً مرطٍ على الأرض فضفاض

فكان ذهابُ الليل عند مجيئها فكم كان بَاقِيه وَمَاضِيه يا قاض

فطرب طرباً شديداً ، وانبسط انبساطا جديدا ، وقال اتعرفُ مغزاه ،
والى كم ليله جزّاه ، فقال ليس لي به يدان ، ولستُ من فُرسان هذا
الميدان فطوّقنا بفهمه ، ورَتّقنا بعلمه ، قال بشرط أن تكون من الالبّاء ،
وان لا تعود الى التفريق بين الاحبّاء ، فقال وهو مُضمر الخلاف نعم ،
« وما يسرّني بها حُرّ النعم » فقال انه تجزأ دُجَاه وانتشر ، الى خمسمائة
وسِتّة عشر ، اربعمائة واثنان وثلاثون لماضيّه ، واربعة وثمانون لباقِيه ،
تُسع الماضي ثمانية واربعون ، وثلاثة اسبّاع الباقي ، ستة وثلاثون ،
ومجموع هذين هما الباقي ، فان يمضيّا بلغت رُوح الدُّجى التّراقي ، فقال
قد فهمنا ، وبما كَثُرَت هِمْنَا وَإِنَّا لَنَنْظِمَا ، لِوَرُودِهِ نَظْمَا ، فقال اسمعُ
أوتيتَ فهُمَا ، « وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا » :

لقد قَسَمْتُ لِ (سَيْرِهَا) شِبْهَ شَعْرَهَا وَبَاقِيه سُدُسٌ غَيْرِ قِسْمَتِهِ مَاضٍ
ثَلَاثَةُ اسْبَاعٍ لِقَائِلِ (ابلج) و (ماجد) ابدى تُسْعَ مَاضٍ لِمُرْتَاضٍ
وَذَانِ هُمَا الْبَاقِي فَان يَمْضِيَا قَضَى مِ الدُّجَى وَتَجَلَّى الصَّبْحُ بِأَدْيِ إِيْمَاضٍ
لِنَا طَلَعَتْ وَابْنُ الْغَزَالَةِ طَالِعٌ غَزَا لَتُكَ الشَّمَاءُ أَنْتَ بِهَا رَاضٍ

١ - هذا تلخيص للعمل في ذلك بحساب الجمل ، فنقط سيرها ٥١٦ ونقط أبلج ٣٦ ونقط ماجد ٤٨ .

وهلك ما هو اخصر ، وهو للظمئان اقصر :

دجاها (يَسْرُهَا) و (تبكي) لِفَـائِـتٍ

وَبَاقِيهِ (عِيدٌ) فَاَقْضِ مَا ذُو الْحِجَا قَاضٍ^١

ولك ان تقول ، وهو اقرب للعقول ، انه جزأه الى ثلاثة واربعين ،

وجعل الماضي ستة وثلاثين ، وان شئت المنظوم ، فنخذه غير مكظوم :

دُجَاهَا (جَلِيٌّ) مَا مَضَى مِنْهُ (اَبْلَجٌ) وَبَاقِيهِ (بَادٍ) فَاَقْضِ مَا ذُو الْحِجَا قَاضٍ^٢

ثم ادار حديثاً اشهى للنفوس ، من إدارة الشقة للكؤوس ، وقال

هل بقي في السَّفَط ، شيء من ذلك النَّمَط ، فانشده قول القائل ، المشهور
بين الأوائل :

غَزَالَ قَدْ غَزَا قَلْبِي بِالْحَاطِ وَاحِدًا

لَهُ الثَّلَاثَانِ مِنْ قَلْبِي وَثُلَاثًا ثُلُثُهُ الْبَاقِي

وُثُلَاثًا ثُلُثٌ مَا يَبْقَى وَبَاقِي ثُلُثٌ لِنَسَافِي

وَتَبْقَى اَسْهُمٌ يَسْتَلْتَقْسِمُ بَيْنَ عَشَائِي

١ - نقط يسرها بحساب الجمل ٥١٦ ونقط تبكي ٤٣٢ ونقط عيد ٨٤ والعمل

لا يخفى على الحاسب .

٢ - نقط جلي ٤٣ ونقط أبلج ٣٦ ونقط باد ٧ .

فقال وقد ابتسم ، الى كم قلبه اقتسم ، فقال مالي به دراية ، ولم
اسمع فيه رواية ، وان كشفت الغطاء عن المبهم ، فلك اجر من علم
وفهم ، « قال لقد اوتيت سؤالك » ولكن الشرط املك ، فانه قسمه
الى واحد وثلاثين ، كما هو مقرر في دواوين ، وان احبت شقيقه ،
على الحقيقة ، فاسمع مني ، واحفظ عني :

قضيتُ ثلثي ليل هجرِكَ باكيا حتى غدا (المجهول) نارا في جبل
وقضيتُ ثلثي ثلثه في جرعتي حرق الهوى نهلا وتارات علل
وابدتُ ثلثي ما تبقى منه في علي ، لو انه كان تنفعي لعل
وقصرتُ ثلثي ذلك الباقي على نظري لشبهك في السماء وقد كل
والثلثُ وهو الواحد الباقي بدا فيه شقيقك قلت سبحان الأجل

وان اتقنت باب الجبر والمقابلة ، يلح لك وجه الحق في مقابلة ،
ولما آذنت الشمس بالغروب ، مال ابو سلامة للهروب ، فودعناه وفاع
كاره لغيبته ، وانصرف تلميذه معه وهو تمام بغيبته .

المقامة النطوانية

له

(اخبر الراغب بن عبد الوارث) قال : انتظمتُ في تطوان
 برفقاء ، انتظامَ الاخوة الاشقاء « صنوان وغيرِ صنوان » ونزلتُ معهم
 الى البحر ايامَ عيد النحر ، ونحنُ في زِيّ بني مروان ، فوجدنا على
 طرفه ، منطيقاً ملكَ بطرفه ، ولداناً لم يملكهم ذو إيوان ، ذوي قُدود
 أسنة ، وُحدودِ اجنة وُغور تفتُر عن أقحوان ، فاصختُ له أذني استمع
 كلامه ، حتى تحقق عندي انه ابو سلامة ، الذي لم يشتمل على مثله ديوان ،
 ولما انتشر الطعام لدينا وصّفه طاهيه بين يدينا ، بعشنا اليه بخوان ،
 وانتخبنا له ألطف رسول ، وقلنا له قل هل لك سول ، في منادمة هؤلاء
 الاخوان ، فبلغه هديتنا ، وادى إليه وصيتنا ، فقال لستُ لِرُفقاءني
 بخوان ، ولا أترك الرّيحان ، لأُمّ غيلان واختارُ الضّراغم على
 الغزلان ، وابدلُ السّلم بالحرب العوان ، فرجع الرسول خائباً ، بشاب
 معه آتبا ، وقد علا على وجهه هوّان ، فلما اخبرنا بخبره المستطرف
 أيّ استطراف ، قلنا للشاب وكان من الثّخب الظّراف ، ان اتيتنا به
 فلك كذا وكذا حلوّان ، فذهب واسرع ، حتى اتاه يهرع ، وتحنّث عليه

تَخُنْثَ الْغَوَّانَ ، فَمَا لَبِثَ أَنْ وَقَعَ فِي فَخِّهِ ، وَسَقَطَ عَلَى مَخِّهِ ، سُقُوطَ
النَّشْوَانِ ، وَلَمَّا جَاءَ بِالْمَصِيدِ ، قَالَ هَآيَيْتَ الْقَصِيدَ ، لَبَّيْ دَعْوَاتِي دُونَ
أَعْلَى وَلَوَّانٍ^١ ، فَشَكَرْنَا لَهُ الصَّنْعَ ، وَحَبَوْنَاهُ دُونَ مَنَعٍ ، مَا اسْتَوْجِبَ
مِنَ الْحُلُوفِ ، ثُمَّ وَثَبَ وَدَرَجَ ، وَبَقِيَ فِي حَرْجٍ ، فَاَنْشَدَ غَيْرَ مُتَّوَانٍ :

صَادَنِي ظَبِيٌّ بِدَلٍّ وَغَنَجٍ وَبِطَرْفِ ذِي أَحْوَرَّارٍ وَدَعَجٍ
أَنْ خَطَا يَحْسُدُهُ الْخَطِيَّ أَوْ يَتَجَلَّى قَلْتَ مِنْ عَدْنٍ خَرَجٍ
أَنْ رَنَا يَرُنُو لَهُ الْقَلْبُ إِلَى مَا دَعَا لَبَّيْكَ مِنْ دُونَ حَرْجٍ
قَادَنِي نَحْوَ بَلَاءٍ وَرَمَى بِزِمَامِي مِنْ يَدَيْهِ وَدَرَجٍ

قال الراوي : فقلت مستدعياً كلامه ، سُجِرَتْ وَاللَّهِ أَبَا سَلَامَةَ ، وَحِيلَ
بَيْنَ الْعِيرِ وَالنَّزْوَانِ^٢ ، فَقَالَ أَيُّهَا ابْنُ عَبْدِ الْوَارِثِ ، حَتَّى مَتَى تُعِينُ
أَخَاكَ الْحَارِثَ^٣ ، فِي تَبْدِيدِ شَمْلِ السَّلْوَانِ ، فَقُلْتُ لَيْتَ شَعْرِي أَلَمَّا فَرَقْتَ
أَجْمَعَ ، أَنْ دَعَوْتَ الْعُلَمَانَ ، جَاءُوا أَجْمَعَ ، فَقَالَ إِي وَاللَّهِ وَلَا عُذْوَانَ ،
فَدَعُونَاهُمْ لِنَادِينَا ، فَأَجَابُوا مُنَادِينَا ، مِنْ دُونَ تَرَاحٍ وَلَا تَوَانَ ، فَاِمَاطِ
التَّرَحَ ، وَلِبَسِ الْمَرْحَ ، وَاسْتَحَالَ سَخَطُهُ لِرُضْوَانِ ، وَرَأَى شَابَابَ مِنْهُمْ يَجْرُ

١ - هو مخفف من لو أن .

٢ - مثل يضرب لعدم استطاعة الشيء مع الرغبة فيه .

٣ - يعني به الحارث بن همام راوية مقامات الحريري .

رِداءَ مِرْطَه ، ويعضُّ سالفاً له اخرجهُ من قُرْطِه فاستحسنه وقال في
الأَوَان :

قد عضَّ سالفَ شعره من بعد أنْ ابداه من قُرْط تحيّر ناظره
خيْطُ الظلام من الهلال بدا على قَمَر وفي وَسَط الثُّرَيَّا آخِرُهُ
فاستحيى الفتى واطلق دلاله ، فكاد أن يفارق هلاله ، فقال ايضاً وما تَوَان :
وكانَ سالفَ شعره في قُرْطه افعى تُطِلُّ من الهلال بِرأس
ويرُدُّها نشرُ الشعاع بخدّه لما بدا كالشمس والنبراس

ثم قال كأنكم اضمرتم غيبة ، وخالجت قلوبكم ريبة باختياري
الذُّكران على النِّسوان ، كلا والذي حَفَّ الجنةَ بالمكارة والنارَ بالشهوات ،
ما دَنَسَتْ وجهَ علمي بما ليس لي بِمَوَات ، ولكن طبعني على حبِّ الحسَّان
مَنْ سَوَّان ، فما لاح ذُو جمال ، الا استدعاني واستمال ، وكوَّاني وطوان
وقد علقتُ بالنساء والولدان غيرَ ما مرّة ، وذقتُ من الهوى حلوةً ومُرّة ،
ثمراتٍ مختلفات الالوان ، وغايةُ الامر إن ظفرتُ أن اطرب وامرح ،
وفي رياض المحاسن اسرح ولا أغوى للشَّيْطان ان أغوان :

اذا ما ظفرتُ بوصل حبيب وزار على غفلةٍ للرَّقِيب
تعفّفتُ عنه ولا مانع سوى ان ربِّي عليّ رقيب

فقلنا يا مجرّب حبِّ الولدان والنساء (فَهُوَ بِهِ فِي كُلِّ حُكْمٍ ذُو
اتِّسَاء) ايّما افضلُ حبُّ المرد أم الغوان ، فأنشد ، وارشد ، لفضيلة النسوان :

حبُّ النساءِ شاعَ في البهراري كما جرى المثلُ في الاقطار
وَحُسْنُهُنَّ طائلُ الاعمار وغيرُ مُسرِعِ الى توار
والشمسُ أثبتُ من الأقمار في سَيْرِها في الفلكِ الدوار
لا كُنَّهنَّ داعي افتقار بالصَّرفِ للدرهم والدينار
وقلَّما يَسْلَمُن من إكثار

ثم قال ، وما استقال ، ولا تحرَّك منه عُضْوَان :

حبُّ الذكور ذاعَ في الامصار كما فشا الإيمانُ في الأنصار
وَحُسْنُهُم اَوْفقُ للنظَّار وغيرُ مُحْتَاجِ الى انتظار
والبدرُ لا حرجَ فيه جار والشمسُ بالعكسِ لدى الأنظار
لا كُنَّهم اجلبُ لاحتقار الى ذوي الاخطار والاقدار
وقلَّما يسلون عن إكثار

ولما نشر علينا احاديثه الاصمعية المنبئة عمَّاله من الألمعية ، وظاهرُ الامر على باطنه عنوان ، نشرنا عليه من التُّحف والملابس ، ما لم يكن لحاظه مُلابس ، حتى احتاج في طيِّهِ لِعَوَّان ، فقال شكرَ الله احسانكم إليَّ ، وتفضَّل عليكم كما تفضلتم عليَّ ، بتجدُّد النعم تجدد الملوَّان ، وليست الدنيا بفاخرة ، الا اذا كانت مَطِيَّةً لِلآخِرَةِ ، « وانَّ الدارَ لآخِرَةُ لَهيَ الحَيَّوان » وإنَّ من تمام الإكرام ، وليس فيه إبرام ، ان

تَشْكَفُلُوا لِي بِهَذَا الرَّهْوَانِ ، وَاشَارَ إِلَى رَهْوَانٍ صَائِدٍ ، فَأَكْثَرِيْنَاهُ مِنْهُ
بِالزَّائِدِ ، وَقُلْنَا نَحْنُ لَهُ صَوَّانٌ وَحَيْثُ تَهَيَّأَ الْمَسِيرَ ، سَارَ مَعَنَا حَيْثُ نَسِيرُ ،
حَتَّى إِذَا دَخَلْنَا الْمَدِينَةَ فَقَدْنَا الْخَوَّانَ وَلَمْ نَجِدْ مَنْ يُخْبِرُنَا عَنْ مَسَالِكِهِ ،
وَالزَّمْنَا الشَّرْعَ غَرَمَ الرَّهْوَانِ لِمَا لِكِهِ ، وَطَارَتْ فَعَلَتُهُ بَنًا فِي أَرْجَاءِ تَطْوَانِ .

مَقَامَة

للوزيد ابن إدريس

حدثنا الفتحُ بن سلامة ، عن نصر بن كرامة ، قال ألحمني السعدُ
 يُرده ، واتحفي بجلو عيشه وبرده ، وبوأني من حمى الخلافة العلوية
 العلوية ظلالا ، وأعلق كفي من خدمة الحضرة المولوية العبد الرحمانية
 حبالا في دولة علوية اعلى العلاء أعلامها ، وحمى الإلاه جمها ، عقد
 السعود على التناصر عقدها وذمامها واليمن قد وأخاها ، فبلغت بطلعتها
 امنها ومرامها ، وتوصلت لمنها ، وبنى الائمة من قریش مجدها ومقامها ،
 بين الورى وعلاها ، حموا الشريعة بالسيوف واوضحوا اعلامها ، وتنوروا
 بسناها فكنت منتظما في سلك كتابها ، ومعهدا في خدمة اعتبارها
 وصحبت ركاب مولانا العلي العلوي ، وجيشه المنصور المولوي ، في
 احدى قدماته من الحوز ، في سفر اسفر طالعه عن وجه الظفر والفوز :

في عسكر ملاء القلوب مهابةً والارض خيلا بالعوارف يفهق
 للفتح والتمكين فيه دلائلٌ وعليه ألوية السعادة تحفّق

نهض لها أيده الله غرة ذي الحجة مُتِمَّ عام (ناشر) والسعدُ

لمعمود العناية ناشر ، والرعب يقدم جنوده ، والسعد ينشر ألويته
وبُنوده ، والنصر تحت ظلال اعلامه وحفظ الله من خلفه وأمامه :

والدهر معتدل الآناء مُقتبِل والشمس حلت بِبرج السعد والشرف
ومطارف السندس بالآفاق قد نُشرت ، وجيوش النور حشِدت
ألوانها وحشِرت ،

والارض تُجلى عروساً في ملابسها وشت حلاها يدُ الانواء بالزهر
والنسيم قد عطر بنشره الأندية ، وغازل الاغصان فنازعها
المطارف والأردية ، وجرّ ذيل دلاله في الآكام والأودية :

والريح تلطم فيه أرداف الربى مرحاً وتلثم اوّجه الأزهار
ومناير الاغصان قد قامت بها خطباء مُفصحة من الأطياف
وأسن الحال تهدي الى التفكير في مصنوعات الله وترشد ،
وكأنها تتمثل بقول أبي نواس وتُنشد :

تأمل في نبات الأرض وانظرُ بدائع ما بها صنع المليكُ
عيون من لجين شاخصاتُ على أطرافها الذهب السبيكُ
على قضب الزبرجد شاهداتُ بأن الله ليس له شريكُ

والناظرُ الأديب المتأمل ، ينشد قول المجنس الممثل :

ان هذا الربيعَ شيءٌ عجيب
 ذهبُ حيثما ذهبنا ودُرٌّ
 تضحك الأرض من بُكاء السماء
 حيث دُرنا وفِضة في الفضاء

والجيشُ المنصور بحرٌ مُتلاطمُ الامواج ، يسيرُ فيملاً الفضاء
 ويُغصُّ الفجاج ، ويُقيم فيكون هالةً على بَدْرُ سُعود وشرف ، وسورَ حَفْظ
 لَا يُعرَفُ له طرف ، قد رُصّت صفوفُه ، وتعدّدت ألوفُه ، وتنوّعت
 أجناسه وُصُوفه :

من كُلِّ ابيضَ قد تقلّد ابيضاً عضباً واسمرَ قد تقلّد اسمرأ
 والخيّلُ تمرح في أعنتها ، وتمضي في الخيلاء على سُنتها ، قد
 حلّيت من الاسلحة بما راق وراع ، واعجزَ وصفه ألسنَ اللُّسن
 وأسلةَ اليراع !

مُؤَصّلة من ذي العقال وداحسٍ وآلِ الوجيه والنعماء والخيفاء

فمن أشهب لبسَ الثورَ رداءً ، وسابقَ البرقَ عداءً :

فكانه في حليهِ وسلاحه صبحٌ تقلّد حليّةَ الجوزاء

ومن أذهم خلع الليل عليه إهابه ، واثبت بين عينيه شهابه :

فكأنما لطم الصباحُ جبينه فاقتصّ منه فخاضَ في أحشائه

واحمرَ فأما وصفه فطهم عتيق ، وأما لونه فعقيق ، واصفرَ كأنما

صَيْغَ مَنْ ذَهَبَ ، أَوْ خُلِقَ مِنْ لَهَبَ :

أَلْقَى الْأَصِيلُ عَلَيْهِ مِنْ نَضَارَتِهِ غِلَالَةً وَشَتِ الظَّلَامَا حَوَاشِيَهَا

وَمَنْ أَزْرَقَ قَدْ تَسَرَّ بَلَّ حُلَّةِ السَّمَاءِ وَتَحَلَّى بِالنَّجُومِ ، أَوْ رَامَ اسْتِرَاقَ
السَّمْعِ فَرَمْتَهُ بِشُهْبِ الرَّجُومِ :

عَطَايَا أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَبِرِّهِ	بِأَجْنَادِهِ وَالْبِرِّ بِالْجُنْدِ يَحْمَدُ
مَلِيكَ حَلِيفَاهِ التَّوَكُّلِ وَالرِّضَا	وَأَوْضَافُهُ عِلْمٍ وَحِلْمٍ وَسُودَدُ
يَصَاحِبُهُ أَمْنٌ وَبُيْنٌ وَرَحْمَةٌ	وَيَعُضُّدُهُ فَتْحٌ وَنَصْرٌ مَجْدَدُ
فَتَى الْمَجْدِ أَمَّا هُدْيُهُ فَمَوْفَقُ	رَشِيدٍ وَأَمَّا رَأْيُهُ فَمُسَدَّدُ
بِهِ الدِّينُ سَامٍ وَالشَّرِيعَةُ غَضَّةٌ	تَرْوِقُ وَرُكْنُ الْمَجْدِ عَالٍ مَشِيدُ
وَأَن لَّهُ فِي مَقْصَدِ الْحُكْمِ حِكْمَةٌ	يَحُلُّ بِهَا فِي اللَّهِ طَوْرًا وَيَعْقِدُ
فَلَا زَالَ مَحْمُودَ الْمَسَاعِي مُؤَيَّدَا	يَغُورُ ثَنَاهُ فِي الْبِلَادِ وَيُنْجِدُ

فَسَرْنَا تَحْتَ ظِلَالِ الْعَدْلِ وَالْأَمْنِ ، نَسْتَجْلِي كُلَّ حِينٍ مِنْ غُرَّتِهِ
الْمِيمُونَةِ طَالِعَ الْفَتْحِ وَالْيُمْنِ ، وَنَرْفُلُ فِي أَرْدِيَةِ الْمَعَالِي الصَّافِيَةِ ، وَنَكْرَعُ
فِي بَحَارِ الْجُودِ الصَّافِيَةِ ، وَنَتَمَسَّكُ مِنَ النَّجْحِ بِالْعُهُودِ الْوَافِيَةِ ، وَنَرْتَعُ فِي
رَوْضِ الْأَمَانِ وَالْعَافِيَةِ :

وَقَدْ بَدَتْ لَنَا وَجُوهُ الْهُدَى مُسْفِرَةً وَلاَحَ نُورِ الْفَلَاحِ

فلما خيَّمنا بشاطئِ واديِّ العبيد ، قابَلنا بوجهِ الجَبَّارِ العنيد ،
وأبدى مِن مَدَّةِ آيَةِ الإعجاز ، وقال بلسانِ حاله لا مجاز لا مجاز ،
واستعان مِن ثُلجِ الجبالِ بالمذاب ، فارانا بجرأ طاميِّ العُباب :

نهرٌ يُريك السهمَ سُرْعَةً جَرِيَةً والبحرَ عُمُقاً والشفيرَ سَعيراً
فليُسَلِّمِ النفسَ المرِيدُ عبُورَه ان لم يَكُنْ لطفُ الإلهِ ظهيراً

فأحجمَ عن عبُورهِ القوم ، واستبشَّرَ بالزُّبُونِ العارفُ بالسَّباحة
والعوْم ، وبات الناس في الآراء يتردَّدون ، ولقِصَصِ الناجين والغرقى
يُعدَّدون ، وقُصارى أُمْنِيَةٍ كلِّ واحد عبُورُ ذلك الصراط ، والانتظامُ
في سلكِ الناجين والانخراط ، حتَّى أنشد بعضهم واستحسن ، وتمنَّى
ما تمنَّى الحسن :

ألا ليتَ شِعْري هل أبِيتَ ليلَةً بسَهْبِ الشَّيْنِ أو بسَهْبِ بني ورا
وهل تعبرنَ نهرَ العبيد رَكائِي وهل أترُكنَ دَايَا وأدواءَها ورا

فلما تبلَّجَ أذهمُ الليلِ عن أشهبِ الصباح ، وحَيَعَلَ الداعيِ بجيِّ
على الفلاح ، وتولَّتْ نجومُ الليلِ تقفُو إثرَه ، وغدت سيوفُ ذُكَاةٍ
تُخرِقُ سِتْرَه ، وأدَّى الناسُ النفلَ والفرض ، وأشرقتْ بُنُور
رَبِّها الارض :

ولاحت لنا شمسُ الغداة كغادةٍ بدا حاجبٌ منها وضئتُ بحاجب
صدر الأذن المولوي بالعبور ، وقُدِّم له الصَّبُّور فالصبور ،
وجعل فاتحة ذلك نجله الأسعد ، وفرَّعه الأنجب الأصعد ، سيدنا
ومولانا مُحَمَّد ، تفاوُلًا لتستحسن العاقبة وتُحمد ، وكانت قد تقدَّم
الأمر المطاع بإعداد المعادي للاعانة على عبور ذلك العدو العادي ،
فلم يكن إلا أن عبَّر الأولُ مُكْتَفِيًا بِالْمُخْتَصِرِ عن المطوَّل ، وظهر
من لطف الله وسعادة مولانا ما عليه المعوَّل ، وحمدَ الناسُ اللهَ على
ما سهَّل من ذلك وخوَّل ، تتابع العبور على الريح والأعواد ،
مع سلامة الأنفس والأزواد ، وشاهد الناسُ لجيش مولانا المَحْتَمِي ،
شبهَ ما ظهر من الكرامة لعبد الله بن الحضرمي ، ولا غرو أن
يُعطَى التابع حُكْمَ المتبوع ، ويظهر للعيان حقيقة ما هو مروِي
ومسموع ، ولله قومٌ يُسعدُهم ويُسعِدُ بهم ، ويُظهر عنايته على من
تعلَّق بسببهم :

واذا السَّعادةُ لاحظتكَ عيُونُها نَمُ فالْمَخَافُ كُلُّهنَّ أمان
واضطد بها العنقاءُ فهي حباله واقْتَد بها الجوزاءُ فهي عِنان
ولمَّا خيَّمت الجموعُ بالعدوة الأخرى ، ورأوا السلامةَ غنيمَةً

وَذُخْرًا ، وَعَايِنَ النَّاسُ مَا تَعَوَّدُوهُ مَعَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ مِنَ النِّجَاجَةِ
وَالسَّعُودِ ، وَالْفُوزِ الْمَشْهُورِ الْمَشْهُودِ ، وَالتَّيْسِيرِ الْمَعْلُومِ الْمَعْمُودِ ، هَذَا
بِالسَّلَامَةِ بَعْضُهُمْ بَعْضًا ، وَجَعَلُوا ذَلِكَ بَيْنَهُمْ سُنَّةً وَفَرْضًا ، فَلَا تَلْقَى
غَيْرَ حَامِدٍ وَشَاكِرٍ ، وَمُقِرٍّ بِنِعَمِ اللَّهِ ذَاكِرٍ ، وَآتِسَعٍ لَدَيْهِمُ الْمَجَالُ ،
فِي الرَّوِيَّةِ وَالْإِرْتِجَالِ ، فَمَنْ نَازِلٌ وَنَازِلٌ ، وَمُقَصِّرٌ وَمُكَاثِرٌ ،
وَمَنْ قَائِلٌ :

أَرَى نَهْرَ الْعَبِيدِ غَدَا عَنِيدًا يُعَايِلُنَا بِجَوْرِ وَاشْتِطَاطٍ
عَبْرَتَاهُ عَلَى خَطَرٍ وَخَوْفٍ عَلَى غَيْرِ اخْتِيَارٍ وَاحْتِيَاظٍ
وَذَلَّلَهُ الْإِلَهُ لَنَا فِيسِرْنَا مِنَ الرِّيحِ الْمُسَخَّرِ فِي بَسَاطٍ
يَهْنِيءُ بِالْعُبُورِ الْبَعْضُ بَعْضًا كَأَنَّا قَدْ عَبَرْنَا عَلَى الصَّرَاطِ

وَمَنْ مُتَمَثِّلٌ فِي عُبُورِ الْوَادِي ، عَلَى الْمَعَادِي :

لَئِنْ كُنَّا رَكِبْنَاهَا ضَلَالًا فَيَا اللَّهَ إِنَّا تَائِبُونَ
فَأُخْرِجْنَا عَنْ الْمَرْغُوبِ مِنْهَا (فَإِنْ عُذْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ)

وَمَنْ مُنْشِدٌ ، وَإِلَى لُطْفِ اللَّهِ مُرْشِدٌ :

عَبَرْتُ نَهْرَ الْعَبِيدِ قَهْرًا عَلَى بَسَاطٍ مِنَ الْهَوَاءِ

وَلَمَّا حَمِدَ النَّاسُ الْإِيرَادَ وَالْإِصْدَارَ ، وَاسْتَقَرَّتْ بِهِمْ بَعْدَ الْعُبُورِ
الِدَارُ ، شَكَرُوا عَلَى فَضْلِ اللَّهِ إِمَامَهُمْ ، وَجَعَلُوا الْقَبِيلَةَ التَّادِلِيَّةَ أَمَامَهُمْ ،

المحاضرة

خير العلم ما حوضر به
شجاعة ادريس الازهر

حدّث داودُ بنُ القاسم بن عبد الله بن جعفر الأوربي ، قال : شهدتُ مع ادريس بن ادريس بعض غزواته للخوارج الصُفْريّة من البربر ، فلقيناهم وهم ثلاثةُ أضعافنا ، فلما تقارب الجمعان ترّجل ادريس فتوضّأ وصلى ركعتين ودعا الله تعالى ، ثم ركبَ فرسه وتقدم للقتال ، فقاتلناهم قتالاً شديداً ، فكان ادريس يضربُني هذا الجانب مرة ، ثم يكرُّ في الجانب الآخر ، فلم يزل كذلك حتى ارتفع النهار ، فرجع الى رايته فوقف بإزائها والناس يقاتلون بين يديه ، فطفقتُ أنظر اليه وأديم الالتفات نحوه ، وهو تحت ظلال البنود ، يحرض الناس ويشجعهم ، فأعجبني ما رأيت من شجاعته وقوة بأسه ، فالتفتَ نحوي فقال : يا داود مالي أراك تديم النظر إليّ ، قلتُ أيها الامام انه أعجبني منك خِصالٌ لم أرها في غيرك . قال : وما هي يا داود . قلت أولها ما أراه من حسنك وجمالك وثبات قلبك ، ومن طَلّاقة وجهك وما تُخصِصتَ به من البشر عند لقاء عدوك ، قال : ذلك

بركةُ جدنا رسول الله صلى عليه وسلم ودعائه لنا وصلاته علينا وإيراثه أينا عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه وكرّم وجهه . قلت أيها الإمام أراك تبصق بُصاقاً مجتمعاً وأنا أطلب الرّيق في فمي فلا أجده ، قال : يا داود ذلك لاجتماع عقلي وثبات جأشي وعدم الرّيق من فيك لطيش لُبّك وافتراق عقلك ، ولما خامرك من الرّعب . قال : فقلت أيها الإمام وأنا أيضاً أتعجب من كثرة تقلّبك في سرّجك وقلة قرارك في موضعك . قال ذلك مني زعمٌ للقتال وعزمٌ وصرامة وهو احسن في الحرب فلا تظنه رُعباً ، ثم أنشأ يقول :

أليس أبونا هاشمٌ شدّ أزره وأوصى بنيه بالطعان وبالضرب
فلسنا نملّ الحربَ حتى تملّنا ولا نشتكى ممّا يؤول الى التّصب
ولكنّا أهلُ الحفائظ والنهي اذا طارَ أرواحُ الكُماة من الرّعب

الحسن الحجام

كان بين الحسن بن محمد بن القاسم بن ادريس من ملوك الادارسة وبين عمّه احمد بن القاسم حروب شديدة ومنازعات على الحكم ، فحمل الحسن ذات يوم في قتال على فارس من جند عمه ، قطعنه في المحاجم ، ثم فعل ذلك بثن وثالث ، كل ذلك لا يطعنهم إلا في

مَوْضِعَ الْحَاجِمِ . فَقَالَ أَحْمَدُ عُمُّهُ : إِنَّمَا ابْنُ أَخِي حَجَّامٌ ، فَلِزَمَهُ هَذَا
اللقبُ ، وَقَالَ فِيهِ الشَّاعِرُ :

وُسِّمِيتَ حَجَّامًا وَلَسْتَ بِحَاجِمٍ وَلَكِنْ لَطَعْنِ فِي مَكَانِ الْحَاجِمِ

محاسن الزهد والورع

لَمَّا تُوفِّيَ وَالِدُ الشَّيْخِ عَلِيِّ بْنِ حَرْزَمٍ وَرَثَتُهُ هُوَ وَأَخُوهُ أَبُو الْقَاسِمِ
فَاتَّفَقَا عَلَى قَسْمِ التَّرِكَةِ بَيْنَهُمَا بِدُونِ تَدْخُلِ أَحَدٍ مِنَ النَّاسِ . وَقَامَ عَلِيٌّ
إِلَى وَرِدِهِ مِنَ اللَّيْلِ فَجَالَ خَاطِرُهُ فِي التَّرِكَةِ وَجَعَلَ يَفْكُرُ مَا يَأْخُذُهُ
مِنْهَا لِنَفْسِهِ وَمَا يَتْرَكَ لِأَخِيهِ حَتَّى لَمْ يَدِرْ مَا صَلَّى . فَلَمَّا أَصْبَحَ بَعَثَ
لِأَخِيهِ أَبِي الْقَاسِمِ ، وَقَالَ لَهُ : أَحْضِرِ الشُّهُودَ حَتَّى أَتَصَدَّقَ عَلَيْكَ
بِمِيرَاثِي فِي أَبِي ، فَقَالَ لَهُ لَا تَفْعَلْ ، فَقَالَ لَهُ لَئِنْ لَمْ تَقْبَلْ لِأَتَصَدَّقَنَّ بِهِ
عَلَى الْجَذَمَى ، فَلَمَّا رَأَى ذَلِكَ مِنْهُ أَحْضَرَ الْبَيْئَةَ وَقَبِلَهُ .

وَكَانَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَاشٍ فَكِيهًا مُتَوَرِّعًا مِنْ أَهْلِ فَاسَ ، بَاعَ
فُنْدُقًا مِنْ بَعْضِ قَرَابَتِهِ وَتَصَدَّقَ بِشَمْنِهِ ، فَمَاتَ الْمُشْتَرِي فَوَرَّثَهُ مِنْهُ
فَبَاعَهُ وَتَصَدَّقَ بِشَمْنِهِ أَيْضًا ، وَلَمْ يَشَأْ أَنْ يَقْبِضَ عَنْدهُ مَا كَانَ
تَصَدَّقَ بِهِ .

وَوَزَرَ قَدَانًا بِيَابَ عَجِيسَةٍ وَحَصَدَهُ وَدَرَسَهُ ، وَكَانَ الْعَامَ شَدِيدًا

فجاءه الناظر عليه ، فقال اخْرُج الى زرعك حتى تَكْتُمَالَه ، فقال غداً الجمعة لا اقدر على الخروج ، فقال له ان تركته نُهَب ، لأن الناس في حاجة شديدة والموضع قريب تُدْرِك منه الجمعة ، فخرج غُدُوَّةً واشتغل في كَيْلِه ونَقْلِه وأتى المدينة فوجد الناس قد انصرفوا من الصلاة ، فتصدَّق بالطعام الذي وجد في ذلك الفدان وحَبَسَ الفدانَ على المساكين . وكان للشيخ ابي القاسم بن خَنْوُشَة بُسْتَانٌ وأُعْطِيَ في فاكهته سَوِّمًا ، فقال للمشتري : اترُكْني هذه الليلة حتى أرى رأيي ، أما ان أنفَذَ لك البيع او أرُدَّه . فلما كان من الغد جاء من أعطاه في البُسْتَانِ ستين ديناراً او أكثر زيادةً على القيمة الأولى ، فبعث الشيخ أبو القاسم للمشتري الأول ، وقال له أعطيتُ في البُسْتَانِ زيادةً ، فان أردتَ ان تُتْمِكَ بُسْتَانَكَ بالثمن الأول فافْعَل وان أردتَ ان تأخُذَ الزيادة فهي لك لأنني البارحة أنفَذْتُ لك البيع بقلبي بالسَّوْمِ الذي أعطيتني فأخذ المشتري الزيادة التي زاد المشتري الثاني ولم يأخذ الشيخُ إلا الثمنَ الأول .

وكان الشيخ صالح بن حَرْزَمِ فَقِيهًا وَرِعًا وهو عمُّ الشيخ علي ابن حَرْزَمِ ، رجل الى المشرق فانقطع مدة بالشام ، وفي قَرْيَةٍ بِيَّتِ المقدس قُدِّمَ للصلاة فَبَقِيَ هُنَاكَ حتى نَزَلَ عليه يوماً أبو حامد الغزالي مع أصحابه وكان في المسجد عَرِيشٌ عَنَبٌ قد ظهر فيه الحَضْرَمُ ، فقال أصحاب أبي حامد اشْتَهَيْنَا حَضْرَمًا ، فقال لهم سلوا

إمام المسجد على مَنْ حُبِسَ عَنْبُهُ ؟ فسألوا الشيخ صالحاً فقال لا أدري على مَنْ حُبِسَ ولا تعرّضتُ له ولا أكلتُ منه قط ، فأخبروا أبا حامد بما قال ، فقال هذا مغربي له أعوام في هذا المسجد لم يتعرّض له قطّ وانتم من ساعة واحدة لم تملكوا نفوسكم .

ودعا السلطان ابو الحسن المريني فُقهَاءَ الحضرة الفاسية الى وليمّة وما فيهم إلا ذو صلاح ودين ، فمنهم مَنْ قال إني صائم ، ومنهم من أكل وقلّل ، ومنهم من أكل الغلّات فقط ، ومنهم من شمّر للأكل عن ساعدَيْه ، ومنهم من قال : هاتوا من طعام الأمير على وجه البركة ، فَإِنِّي لا أقدر أن آكل الآن ، فسألهم الشيخ أبو ابراهيم الاعرج عن ذلك فقال الاولُ طعامُ شُبّهة تسترّ منه بالصوم وقال الثاني كنتُ آكل بمقدار ما اتصدّق لانه مجهول الأرباب والمباشر كالغاصب وقال الثالث اعتمدتُ القولَ بان الغلّات للغاصب اذ الخراج بالضمان وقال الرابع طعامُ مُستهلك ترتبت القيمة في ذمّة مُستهلكه فحلّ تناوله وقدمكّني منه فحلّ لي وقال الخامس طعامُ مُستحقّ للمساكين قدّرتُ على استخلاصه فاستخلصته واوصلته اليهم ، وكان قد تصدّق بما اخذ .

تخوي القاضي ابن محسود للعدالة

كان أبو محمد بن محسود الهواري من أهل الفضل والدِّين وكان من أهل فاس قاضياً بها فنزل به ضيف فرهن غزل امرأته في سمن يأتدُم به الضيف فاذا ذلك السمن مُرٌّ لا يُطاق أكله فبينما ابن محسود في مجلسه اذ نظر السَّمان مُقبِلاً اليه مع خصمه فقام وأمر من حضر أن يحكم بينهما فلما عاد الى مجلسه اخبرهم بان ذلك السَّمان قد كان اعطاه سمناً مُراً وقال خشيتُ من اجل ذلك ان لا اسمع منه كما أسمعُ من خصمه فكرهتُ الحكم بينهما .

مُلحٌ أهل التصوف

بعث أبو زيد الهزُميري الى أبي عمران الشولي وكان كثير الصلاة إِنَّه لم يبقَ بينك وبين الله حجابٌ الا الرُّكَّيْعَات فَرَجَعَ اليه أن الاتِّصالَ كان منها فلا كان الاتِّصالُ عنها .

ودخل أبو عبدالله المقرئ على عبد الرحمن بن عَفَّان الجزولي وهو يجود بنفسه وكان رآه قبل ذلك مُعافى فسأله عن السبب فأخبره انه خرج الى لقاء السلطان ابي الحسن المربني فسقط عن دابَّته فتضعضعت أركانه فقال ما حملك ان تتكلَّف هذا في ارتفاع سنِّك فقال حبُّ الرِّياسة آخرُ ما يبرُج من قلوب الصديقين . وسئل ابنُ شاطر المراكشي

عن معنى قول ابن الفارض :

فَلَمْ أَلْهُ بِاللَّاهُوتِ عَنْ حُكْمِ مَظْهَرِي وَلَمْ أُنْسَ بِالنَّاسُوتِ مَوْضِعَ حِكْمِي
فَقَالَ : يَقُولُ مَا أَنَا بِالْحَلَّاجِ وَلَا بِلُعَامِ .

وكان ابن شاطر هذا ممن صحب ابا زيد الهزلي ميري وابن البناء
ورزق بمخالطة الاولياء حلاوة القبول فلا تكاد تجد من يستثقله وربما
سئل عن نفسه فيقول ولي مفسود .

وأعطاه السلطان ابو عنان المريني الف دينار ليحج بها فمر على
تلمسان فصار يدفع منها شيئاً فشيئاً للمتفرجين بغدير الوريث شرقي
عباد الى ان نفذت فلما ورد ابو عنان تلمسان لقيه بسوق العطارين من
منشر الجلد فقال له ابو عبد الله خب مبرور فقال له اذا جهلت اصل
المال فانظر مصارفه ويأبى الله الا ان يُنفق الخبيث في مثله فضحك السلطان .

ودخل الأيلي وهو عالم تلمسان على تلميذه ابي القاسم الفخار السلوي
وهو يعجن طين الفخارة فقال له ما علامة قبول هذه المادة اكمل صورة
ترد عليها فقال ان تدفع عن نفسها ما هو من غير جنسها من حجر أو
زبل أو غيره فأدركه وجد عظيم حتى انه صاح وقام وقعد وبقي هنيئاً
مطرقاً برأسه مفكراً ثم قال هكذا هي النفوس البشرية .

وكلُّ ناطقة في الكون تطربني

قيلَ لأبي عليّ الحرّالي المراكشي كيف أصبحتْ فأنشد :

أصبحتُ الطّف من مرّ النسيم إذا

سرى على الرّوض ، كادَ الوهمُ يؤلّمني

من كل معنى لطيف أجتلي قدحاً

وكلُّ ناطقة في الكون تطربني

وكان بعض تلامذته مُولعاً بالشراب فعكف ليلةً على الشرب حتى

سقط على زجاجة فجرح في وجهه فلما أصبح صار إلى الشيخ وأثرُ
الزُّجاجة ظاهرٌ عليه فأنشده :

لا تسفكن دمَ الزُّجاجة بعدها إنَّ الجروحَ كما علّمت قصاصُ

فخجل التلميذُ وكان ذلك سببَ توبته .

وكان أبو عبدالله بن أبي بكر الدلائي يُنصتُ للسّماع في آخر

عمره ويتأثر به فانتهى ذلك لأبي العباس ابنِ القاضي فكتب له :

عهدُك ما تصبو وفيك شيبَةٌ فما لك بعد الشّيب أصبحت صايها

فأجابه :

نعم لاح برقُ الحُسن فاختطف الحشا فلبّيته من بعد ما كنت آيها

هِمَّةُ عَالَمٍ

كان الفقيه ابو العباس الحَبَّاک المكناسي خطيباً بالقرَوَّين فعزَّلَ هو والفقيه القَوْرِي القاضي في يوم واحد ، ثم طُلبَ بعد ذلك لُحْطَبَةُ جامع الأندلس فابى وقال إن كان عَزَلِي بِجُرْحَةٍ فلا يحلُّ لكم تقديمي وان كان عن غير جُرْحَةٍ فقبُولِي من قِلَّةِ الهِمَّةِ .

عالم ابن دَلَالٍ

قال ابو البركات ابن الحاج : كنتُ ببجايةَ وقدمَ علينا رجلٌ من فاس برَّسم الحج ، يُعرف بابن الحدَّاد ، فرَكِبَ الناس في الأخذ عنه والرواية لما يَحْمِلُهُ كلَّ صَعْبٍ وذُلُولٍ مع أنه لم تَكُنْ منزلتهُ هناك في العلم ، فعجبتُ لذلك حتى قلتُ لبعض الطلبة : لقد أخذتموه بكِلْتَا اليدين ولم أَرَكم مع من هو أعلى قدراً منه كذلك ، فقالوا لي لأنه قدم علينا ونحن لا نَعْرِفُهُ في زيِّ حَسَنٍ بخَادِمٍ يخدمه يظُنُّ مَنْ يراه ان أباه من أعيان أهل بلده ، فسألناه أحيُّ أبوه أم لا ؟ قال بل حيٌّ ، قلنا أهو من أهل العلم ؟ قال لا هو دَلَالٌ في سُوقِ الخدم فلذلك آثرناه على من هو فوقه في العلم ، قال : فقلتُ لهم 'حق' له أن ترتفع منزلته ويعلوَ صيته لتخلقه وفضله .

حُسْنُ الْجَوَابِ

حَضَرَ يَحْيَى بْنُ الزَّيْتُونِي يَوْمًا بَيْنَ يَدَيِ الْمُعْتَمِدِ وَعِنْدَهُ ابْنُ زَيْدُونٍ ، فَكَأَنَّ هَذَا اسْتَجْهَلَهُ وَأَرَادَ أَنْ يُخْجِلَهُ ، فَقَالَ لَهُ : أَفَاسٍ أَنْتَ يَا أَبَا زَكَرِيَاءَ ؟ يُوْهِمُ أَنَّهُ يَسْأَلُهُ عَنْ بَلَدِهِ ، وَخَبْرًا لَهُ فِيهَا شَيْئًا ، فَفَهِمَ ابْنُ الزَّيْتُونِي مُرَادَهُ وَأَجَابَهُ سَرِيعًا مَنْسُوبٌ اعْزَلَكَ اللَّهُ فَلَجَّ ابْنُ زَيْدُونٍ فِي أَذَاهُ فَقَالَ نِعَمْ الْفَتَى أَبُو زَكَرِيَاءَ فَفَهِمَ ابْنُ الزَّيْتُونِي أَنَّهُ يَرِيدُ يَعْزِلُ الْفَسِيءُ أَبَا زَكَرِيَاءَ فَصَدَمَهُ بِمِثْلِهِ وَرَمَاهُ بِشَكْلِهِ فَقَالَ لَهُ عَبْدُكَ اعْزَلَكَ اللَّهُ يُرِيدُ عِنْدَكَ أَيَّ يَعْزِلُنِي عِنْدَكَ — لَا عِنْدَ غَيْرِكَ مِنَ الْفُضَلَاءِ وَلَمَّا أَجَابَهُ الْجَوَابَ الْمَذْكُورَ خَجَلَ أَبُو الْوَلِيدِ وَاسْتَخَفَّ الطَّرَبُ جَمِيعَ مَنْ حَضَرَ . وَحَضَرَ الْقَاضِي الْمَلِيلِيُّ وَعَبْدُ الْمُهَيْمَنِ الْحَضْرَمِيُّ صَاحِبُ الْعَلَامَةِ لِلْإِسْلَامِ أَبِي الْحَسَنِ الْمُرِينِي مَجْلِسَ السُّلْطَانِ فَجَرَى ذَكَرُ الْفَقِيهِ ابْنِ عَبْدِ الرَّزَّاقِ فَقَالَ الْمَلِيلِيُّ جَمَعَ مِنَ الْفُنُونِ كَذَا حَتَّى وَضَعَ يَدَهُ عَلَى عَبْدِ الْمُهَيْمَنِ وَقَالَ لِلْإِسْلَامِ مُخَاطِبًا : وَيَكْتُبُ لَكَ أَحْسَنَ مِنْ ذَا فَوْضَعِ عَبْدُ الْمُهَيْمَنِ يَدَهُ عَلَى الْمَلِيلِيِّ وَقَالَ نَعَمْ يَا مَوْلَايَ وَيَقْضِي لَكَ أَحْسَنَ مِنْ ذَا .

وَحَدَّثَ الْمُقَرِّي الْكَبِيرُ قَالَ : نَظَرْتُ يَوْمًا مَعَ إِبْرَاهِيمَ بْنِ حَكَمِ الْكِنَانِيِّ السَّلَوِيِّ فِي تَكْمِلَةِ بَدْرِ الدِّينِ ابْنِ مَالِكٍ لِشَرْحِ التَّسْهِيلِ لِأَبِيهِ فَقَضَّلْتُ عَلَيْهِ كَلَامَ أَبِيهِ وَنَازَعَنِي ابْنُ حَكَمٍ فَقُلْتُ :

عُهودٌ من الآباء توارثها الأبناء فما رأيتُ بأسرعَ من ان قال : بنوا
مجدّها لكن بنوهم لها أبنى ، فبُهِتُ من العجب .

ولما أوقع السلطان مولاي رشيد بأهل الدّلاء كان ابو عبد الله
المُرابط منهم ممن اختصه لنفسه فكان يتردّد اليه مع العلماء على كراهية
منه وفيهم السلطان ذلك منه فانشده في بعض الايام :

وَمِنْ نَكَدِ الدُّنْيَا عَلَى الْحُرِّ أَنْ يَرَى عَدُوًّا لَهُ مَا مِنْ صَدَاقَتِهِ بُدَّ

ففطن المُرابط وقال على البديهة اصلح الله الامير وإنّ من سعاة
المرء ان يكون عدوّه عاقلاً فاستحسن السلطان والحاضرون بديهيته
وحسن جوابه .

بين عبد المؤمن ووزيره

خرج عبد المؤمن يوماً مع وزيره ابي جعفر بن عطية مُتَنَزِّهًا
الى بعض بساتين مراکش فمرّافي طريقه بشارع من شوارع المدينة
فاذا بطاق في دار عليه شُبَّاكُ خَشَبٍ قد قابله منه وجهٌ جارية كأنه الشمس
الضاحية قد بادرت الطاقَ تنظرُ اليه فنظر اليها عبد المؤمن فأعجبه
حسنها وحلّت من قلبه كلّ محل فقال ارتجالاً :

قَدَّتْ فُؤَادِي مِنَ الشَّبَالِ إِذْ نَظَرْتُ

فَقَالَ أَبُو جَعْفَرٍ :

حَوْرَاءُ تُرْنُو إِلَى الْعِشَاقِ بِالْمَقْلِ

فَقَالَ عَبْدُ الْمُؤْمِنِ :

كَأَنَّمَا لَحْظُهَا فِي قَلْبِ عَاشِقِهَا

فَقَالَ أَبُو جَعْفَرٍ :

سَيْفُ الْمُؤَيَّدِ عَبْدُ الْمُؤْمِنِ بْنِ عَلِيٍّ

وَقَالَ أَبُو جَعْفَرٍ : دَخَلْتُ عَلَى عَبْدِ الْمُؤْمِنِ وَهُوَ فِي بَسْتَانٍ لَهُ قَدْ

أَيْنَعَتْ ثِمَارُهُ ، وَتَفَتَّحَتْ أَزْهَارُهُ ، وَتَجَاوَبَتْ عَلَى أَغْصَانِهَا أَطْيَارُهُ ،

وَتَكَامَلَتْ مِنْ كُلِّ جِهَةٍ حُسْنُهُ وَهُوَ قَاعِدٌ فِي قُبَّةٍ مُشْرِفَةٍ عَلَى الْبُسْتَانِ ،

فَسَامَتْ وَجَلَسْتُ وَجَعَلْتُ أَنْظُرَ يَمَنَةً وَيَسْرَةً مُتَعَجِّبًا مِمَّا أَرَى مِنْ حَسَنِ

ذَلِكَ الْبُسْتَانِ فَقَالَ لِي : يَا أَبَا جَعْفَرٍ أَرَاكَ كَثِيرَ النَّظَرِ إِلَى هَذَا الْبُسْتَانِ

قُلْتُ : يُطِيلُ اللَّهُ بَقَاءَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَاللَّهِ إِنْ هَذَا لَمَنْظَرٌ حَسَنٌ فَقَالَ

يَا أَبَا جَعْفَرٍ الْمَنْظَرُ الْحَسَنُ هَذَا ؟ قُلْتُ نَعَمْ فَسَكَتَ عَنِّي فَلَمَّا كَانَ بَعْدَ

يَوْمَيْنِ أَوْ ثَلَاثَةٍ أَمَرَ بِعَرْضِ الْعَسْكَرِ أَخَذِي أَسْلِحَتِهِمْ وَجَلَسَ فِي

مَكَانٍ مُطْلٍ وَجَعَلْتُ الْعَسْكَرَ تَمْرًا عَلَيْهِ قَبِيلَةٌ بَعْدَ قَبِيلَةٍ وَكُتَيْبَةٌ إِثْرَ

كُتَيْبَةٍ لَا تَمْرٌ كُتَيْبَةٌ إِلَّا وَالتِي بَعْدَهَا أَحْسَنُ مِنْهَا جُودَةً سِلَاحٌ وَفَرَاهَةٌ

خَيْلٌ وَظُهُورٌ قُوَّةٌ فَلَمَّا رَأَى ذَلِكَ التَّفْتَ إِلَىَّ وَقَالَ يَا أَبَا جَعْفَرٍ هَذَا هُوَ

الْمَنْظَرُ الْحَسَنُ لَا ثِمَارُكَ وَأَشْجَارُكَ .

اعاقبه بالحلم

حضر ابو العباس الجراوي الشاعر والطبيب سعيد الغماري يوماً
 بباب السلطان يوسف بن عبد المؤمن فقال السلطان لبعض خدّمه انظر
 من بالباب من الأصحاب فخرج الخادم الى الباب ثم عاد اليه فقال
 احمد الجراوي وسعيد الغماري . فقال يوسف من عجائب الدنيا شاعرٌ
 من جروان وطبيبٌ من غمارة فبلغ ذلك الجراوي فقال « وضرب
 لنا مثلاً ونسي خلقه » أعجبُ منها والله خليفةٌ من كوميّة . فيقال ان
 السلطان لما بلغه ذلك قال أعاقبه بالحلم عنه والعفو ففيه تكذيبه .

المنصور الموحدى والفيل

أتى قومُ المنصور الموحدى بفيل من الشودان هديةً فأمر
 لهم بصيلة ولم يقبله منهم وقال نحن لا نريد ان نكون اصحابَ الفيل .

سوءُ الفأل

أهدى يوسفُ بن تاشفين الى المعتمد بن عباد جارية مغنية قد
 نشأت بالعدوة فخرج بها الى قصر الزهراء على نهر اشيلية وقعد على
 الراح ، فغنته الجارية بهذه الأبيات :

حملوا قلوبَ الأسدِ بين ضلوعهم ولووا عمائمهم على الأتقار

وتقلّدوا يوم الوغى هندیّةً أمضى اذا انتضیت من الأقدار
 إن خوؤفوك لقيت كلّ کریهةٍ أو آمنوك حملت دار قرار
 فوقع في نفسه أنها عرّضت بساداتها فلم يملك غضبه ورّمي بها
 في النهر فهلكت .

وكان الكاتب أبو بكر محمد بن نصر الأوسي مختصاً بالوزير
 أبي جعفر بن عطية فقال فيه :

أبا جعفرٍ نلت الذي نال جعفرُ ولا زلت بالعليا تسرُّ وتُحبرُ
 عليك لنا فضلٌ وبرٌّ ونعمة ونحن علينا كلُّ مدحٍ يُحبرُ

وكان أبو جعفر قد احسّ من عبد المؤمن التغيّر الذي افضى الى
 قتله . فلمّا سمع هذا من أبي بكر تغيّر وجهه لأن جعفر بن يحيى
 كان آخر أمره الصّلب فكأنّه نعى اليه نفسه .

وقف على الشعراء

قال ابن حبّوس دخلت مدينة شلب من بلاد الاندلس ولي يوم
 دخلتها ثلاثة أيام لم أطعم فيها شيئاً ، فسألت عن يقصد اليه فيها
 فدلني بعض اهلها على رجل يعرف بابن الملح ، فعمدت الى بعض

الوراقين فسأله سحاة^١ ودواة فاعطانيها فكتبت أبياتاً امتدحه بها وقصدت داره فاذا هو في الدهليز فسلمت عليه فرحب بي ورد علي أحسن رد وتلقاني أحسن تلق وقال أحسبك غريباً ، قلت نعم فقال لي من أي طبقات الناس أنت ؟ فأخبرته أنني من أهل الأدب من الشعراء ثم أنشدته الأبيات التي قلت ، فوقعت منه أحسن موقع ، فأدخلني الى منزله وقدم إلي الطعام وجعل يحدثني فما رأيت أحسن محاضرة منه ، فلما آن الانصراف خرج ثم عاد ومعه عبдан يحملان صندوقاً حتى وضعه بين يدي ، ففتحته فأخرج منه سبعة دنانير مرابطة فدفعها الي وقال هذه لك ثم دفع الي صرة فيها أربعون مثقالاً وقال هذه من عندي فتعجبت من كلامه وأشكل علي جداً وسأله من اين كانت هذه لي فقال لي سأحدثك : اني اوقفت ارضاً من جملة مالي للشعراء غلتها في كل سنة مائة دينار ومنذ سبع سنين لم يأتي احداً لتوالي الفتن التي دهمت البلاد فاجتمع هذا المال حتى سيق لك وأما هذه فن حر مالي يعني الاربعين ديناراً فدخلت عليه جائعاً فقيراً وخرجت عنه شبعان غنياً .

١ - السحاة قصاصة من الورق كالسير في عرض رأس الخنصر تلف على الكتاب بعد طيه ويلصق رأسها .

بين اميرين

كتب الاميرُ سليمانُ الموحدى الى الامير ابي الحسن يومَ الجمعة :

اليومُ يومُ الجمعة يومُ سرور ودّعه
وشملنا مفترق فهل ترى أن نجتمعه

فاجابه بقوله :

اليومُ يومُ الجمعة ورُبنا قد رفعه
والشربُ فيه بدّعه فهل ترى ان ندعه

مناح نحوية

سئل ابنُ البَنَاءِ العددي عن قوله تعالى « ان هذان لساحران »
لَمْ يَكُنْ يَتَعَمَلُ إِنَّ فِي هَذَا فَقَالَ لَمَّا لَمْ يُؤْثَرِ الْقَوْلُ فِي الْمَقُولِ لَمْ يُوْثَرِ الْعَامِلُ
فِي الْمَعْمُولِ فَقِيلَ لَهُ هَذَا لَا يَنْهَضُ جَوَاباً فَانْه لَا يُلْزَمُ مَنْ بَطَلَانَ قَوْلِهِمْ
بَطْلَانُ عَمَلٍ إِنَّ فَقَالَ إِنَّ هَذَا الْجَوَابُ نَوَّارَةٌ لَا تَحْتَمِلُ أَنْ تُنْكَرَ
بَيْنَ الْأَكْفِ .

وحدّث أبو القاسم الشاطبي قال لي الشيخ القاضي أبو القاسم الحسني
يوماً وقد جرى ذكر حتى التي للابتداء وأن معناها التي يَقَعُ بعدها

الكلام سواء كان ذلك متعلقاً بما قبلها لم يتمّ دُونَه أولاً بل لا يكون الأمر إلا كذلك ، قال وحدثني بعضُ الأصحاب أنه سمع رجلاً يصلي أشْفَاعَ رمضان فقرأ من سورة الكهف الى قوله تعالى ثُمَّ اتَّبَعَ سَبِيلاً ، فوقف هناك وركع وسجد قال فظننتُ أنه نسيَ ما بعدُ ، ثُمَّ رَكَعَ وسجدَ حتى يتذكَّرَ بعد ذلك ويُعيد أولَ الكلام ، فلما قام من السجود ابتداءً القراءة بقوله حتى إذا بَلَغَ ، فلما أتمَّ الصلاة قلتُ له في ذلك فقال أليستَ حتى للابتداء ؟ قال القاضي الشريف فيجبُ أن يُفهم أن الاصطلاح في حتى وفي غيرها من حروف الابتداء ما ذُكِرَ .

وجلس العلامة محمد الصَّغِيرُ الْوَرَزَاوِي ذاتَ يوم حين اقامته بمصر مع جماعة من العلماء والأعيان وقُدِّمَ اليهم طعام فأخرج كلُّ واحد منهم مِلْعَقَةً معه وأخذَ يأكلُ بها فأخذ هو يأكلُ بيده وترك المِلْعَقَةَ ، فقالوا له ما هذا يا شَيْخَ الْمَغَارِبَةِ فَأَنشَدَهُمْ مَثَلًا بقول ابن مالك في الألفية :

وَفِي اخْتِيَارٍ لَا يَجِيءُ الْمُنْفَصِلُ إِذَا تَأْتَى أَنْ يَجِيءَ الْمُتَّصِلُ

وقيلَ ان هذه الحكاية وقعتُ لِلْمُرَابِطِ الدَّلَائِي .

وجلس بعضُ الطلبة يوماً بين يَدَيِ الْمَنْصُورِ الذَّهَبِيِّ فَأَنشَدَ هَذَيْنِ الْبَيْتَيْنِ :

زَمَانِنَا كَأَهْلِهِ وَاهْلُهُ كَمَا تَرَى
وَسَيَرُهُمْ كَسَيَرِهِ وَسَيَرُهُ إِلَى وَرَا

وَحَفَظَ زَمَانِنَا عِنْدَ الْإِنشَادِ فَقَالَ لَهُ الْمَنْصُورُ كَيْفَ حَفَظْتَ
الزَّمَانَ ، فَقَالَ الطَّالِبُ وَاللَّهِ لَا أُحْفِظُنَّهُ كَمَا حَفَظَنِي ، فَأَعْجَبَ
ذَلِكَ الْمَنْصُورَ .

وَمَاتَ أَبُو الْعَلَامَةِ الطَّرُّنْبَاطِيُّ النَّحْوِيُّ فَكَانَ فِي الْمَعَزِّينَ لَهُ رَجُلٌ
عَامِيٌّ جَلَسَ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ بَرِّفْ رَسُولَ ، فَقَالَ لَهُ الطَّرُّنْبَاطِيُّ
لَحْنُكَ أَشَدُّ عَلَيَّ مِنْ مَوْتِ أَبِي .

من محاسن التصحيف

قَالَ ابْنُ قَطْرَالِ الْمَرَّاكُشِيُّ كُنْتُ بِالْمَدِينَةِ إِذْ أَقْبَلَ رَافِضِيٌّ بِفَحْمَةٍ
فِي يَدِهِ فَكَتَبَ عَلَى جِدَارِ هُنَاكَ :

مَنْ كَانَ يَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ خَالِقُهُ فَلَا يُحِبُّ أَبَا بَكْرٍ وَلَا عُمرَا

قَالَ فِسْرْتُ إِلَيْهَا وَجَعَلْتُ مَكَانَ يُحِبُّ يَسُبُّ فَرَجَعَ فَوَجَدَهُ كَمَا
أَصْلَحْتُ فَجَعَلَ يَلْتَفِتُ يَمِينًا وَشِمَالًا كَأَنَّهُ يَطْلُبُ مَنْ فَعَلَ ذَلِكَ وَلَمْ
يَتَّهَمْنِي ، فَلَمَّا أَعْيَاهُ الْأَمْرَ أَنْصَرَفَ .

حديث اللطافة *

اصطحب أبو إسحاق التلمساني ومالك بن المرحل في مسير
 فأواهما الليل إلى مشجر فسألا عن صاحبه فذلاً عليه فاستضافاه
 فأضافهما فبسط قتيبة بيضاء ثم عطف عليها بخبز ولبن وقال لهما
 استعميلا من هذه اللطافة حتى يحضر عشاؤكما وانصرف فتحاورا في
 اسم اللطافة لأي شيء هو منها حتى ناما فلم يرع أبا إسحاق إلا مالك
 يؤقظه ويقول قد وجدت اللطافة ، قال كيف ؟ قال ابعدت في طلبها
 بما لم يمر قط على مسمع هذا البدوي فضلا عن ان يراه ثم رجعت
 القهقري حتى وقعت على قول النابغة :

بمخضب رخص البنان كأنه عثم يكاد من اللطافة يعقد

فسمح لبالي أنه وجد اللطافة وعليها مكتوب بالخط الرقيق
 (اللين) فجعل احدى النقطتين للطاء فصارت اللطافة اللين واللين
 اللين وان كان قد صحف عثم بغنم وظن أن يعقد جبن فقد قوي
 عنده الوهم ، فقال أبو إسحاق ما خرجت عن صوبه فلما جاء سألاه
 فأخبر أنها اللين واستشهد بالبيت كما قال مالك .

نجابة الأولاد

أمرَ المأمون الموحدى بقتل أشياخ الموحدين وأشرافهم فقتلوا عن آخرهم ولم يُبقَ منهم على احد ولم يُراعِ والدًا ولا ولدًا حتى أنه أتى بولد أخيه وهو صبي صغير ابن ثلاث عشرة سنة ، وكان قد حفظ القرآن فلما قدّم ليقتل قال له يا أمير المؤمنين أعفُ عني لثلاث قال وما هي ؟ قال صغر سنّي وقُرب رَحِمِي منك وحفظي للكتاب العزيز فأعجبه قوة جاش الغلام وإقدامه على الكلام في مثل ذلك المقام ، ثم نظر الى القاضي المكيدى كالمستشير له ، فقال يا أمير المؤمنين « إِنَّكَ ان تذرهم يُضِلُّوا عبادك » الآية فقتله .

وطلبَ الشيخ أبو اسحق الغافقي لتأديب ولدٍ لبعض رؤساء سبّته فقرأ معه كتاب الجمل للزجاجي حتى اذا وصل لقوله في حروف المضارعة يَجْمَعُها قولك « نَأَيْتُ » قال له ذلك الولدُ يا سيدي ينبغي أن تُقدّمَ الهمزة على النون لما في ذلك من حُسن اللفظ والمناسبة ، أما حُسن اللفظ فنأى معناه بُعد وأنى معناه قُرب والتفاوتُ بالقُرب حُسن ، وأما المناسبةُ فهي أن يكون لكل واحد من هذه الأحرف ضِعْفُ ما قبله ، فان الهمزة لمعنى واحد ؛ لمتكلم وحده ، والنون لِمَعْنَيْنِ للمتكلم ومعه غيره أو المعظم نفسه ؛ فهو ضِعْفُ الهمزة ، والياء لأربع معانٍ للغائب والغائبين والغائبات نحو يقومُ

وَيَقُومَانِ وَيَقُومُونَ وَيَقْمُنُ فِيهِ ضَعْفُ النُّونِ ، وَأَمَّا التَّاءُ فِيهِ ضَعْفُ
 الْيَاءِ لِثَمَانِ مَعَانَ لِلْمَخَاطَبِ وَالْمَخَاطَبَةِ وَالْمَخَاطَبِينَ وَالْمَخَاطَبَتَيْنِ وَالْمَخَاطِبِينَ
 وَالْمَخَاطِبَاتِ نَحْوُ تَقُومُ يَا زَيْدَ وَتَقُومِينَ يَا هِنْدَ وَتَقُومَانِ يَا زَيْدَاتِ
 وَيَا هِنْدَانِ وَتَقُومُونَ يَا زَيْدُونَ وَتَقْمُنُ يَا هِنْدَاتِ وَلِلْغَائِبَةِ وَالْغَائِبَتَيْنِ
 نَحْوُ هِنْدَ تَقُومُ وَالْهِنْدَانِ تَقُومَانِ ، فَلَمَّا سَمِعَ الشَّيْخُ هَذَا مِنْهُ قَالَ لَهُ :
 مِثْلُكَ لَا يَنْبَغِي أَنْ يَشْغَلَ غَيْرَهُ بَلْ غَيْرُهُ هُوَ الَّذِي يَشْغَلُهُ وَلَمْ يُعِدْ
 لِلْقِرَاءَةِ مَعَهُ .

وَكَانَ الْقَاضِي مُحَمَّدُ بْنُ أَبِي الْقَاسِمِ ابْنُ سُودَةَ إِمَامًا بِالْقُرَوِيِّينَ وَكَانَ
 يُؤَخِّرُ صَلَاةَ الصُّبْحِ تَأْخِيرًا مُفْرِطًا رَحْمَةً بِالضَّعْفَاءِ ، فَحَدَّثَ أَنْ سَأَلَ
 بَعْضُ الْمَارَّةِ صَبِيًّا مُبَكِّرًا إِلَى الْكِتَابِ هَلْ يُدْرِكُ صَلَاةَ الصُّبْحِ
 بِالْقُرَوِيِّينَ فَقَالَ وَاللَّهِ لَا يُمِشِّي لَهَا إِلَّا بِالْمِظَلَّةِ ، كُنَايَةً عَنْ أَنَّهَا لَا
 تُصَلِّي إِلَّا بِقُرْبِ طُلُوعِ الشَّمْسِ .

وَقَالَ ابْنُ الطَّيِّبِ الْعَلَمِيُّ كُنْتُ مَرَّةً يَوْمًا فِي جَمَاعَةٍ مِنَ الْأَصْحَابِ
 وَوَافَقَ ذَلِكَ فَصَلَ الشِّتَاءِ فَمَرَرْنَا بَيْنَ الرِّيَاضِ وَالْقُضْبِ عَارِيَةً مِنْ أَوْرَاقِهَا
 فَقُلْتُ لَهُمْ عَلَى سَبِيلِ الْإِخْتِبَارِ أَتَيْكُمْ يُخْبِرُنِي عَنْ الْغُصْنِ لِأَيِّ شَيْءٍ يَتَعَرَّى
 فِي الْبَرْدِ وَيَكْتَسِي فِي الْحَرِّ وَكَانَ الْقِيَاسُ خِلَافَ ذَلِكَ فَانْقَطَعُوا إِلَّا مَا
 كَانَ مِنْ صَاحِبِنَا أَبِي الْعَبَّاسِ سَيِّدِي أَحْمَدَ الشَّرِيفِ فَانْهَكَهُ قَالَ وَهُوَ يَوْمُئِذٍ
 حَدَّثَ صَغِيرُ السِّنِّ جَدًّا إِنَّمَا يَتَعَرَّى فِي الشِّتَاءِ لِأَنَّ النَّاسَ أَحْوَجُ إِلَى

الشمس منهم الى الظل فلو اكتسى لكان حائلاً بينهم وبينها واكتسى
في الصيف لأنهم أحوج الى الظل فلو تعرّى لم يجدوا وقايةً من حر
الشمس فهو يترك حقه في حق الناس ، قال وانت اذا تأملت
قول الشاعر :

سألتُ الغصنَ لمْ تعرّى شتاءً وفي وقتِ المصيفِ أراكِ كاسِ
فقال ليَ الربيعُ على قُدمٍ خلعتُ على البشيرِ بهِ لباسي

عرفتَ فضلَ ما بينَ الجوابينِ وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ،
وقد نظم معنى الشريف الكاتب أبو عبد الله بن سليمان من رجال
الأنيس :

سألتُ قضيبَ البانِ لمْ أنتَ تكتسي مصيفاً وتعرّى في الشتاء من الورقِ
فقال أخلي الشمسُ تسخنُ زائري لاخلع سَهْمَ البردِ منه اذا مرقِ
وألبسُ ثوبي في المصيفِ حنانهً ليأوي الى ظلي ولولاه لاُحترقِ

بديهة الجراوي

حدّث صفوان بن ادريس أن أبا العباس الجراوي كان في حانوت
ورّاق بتونس وهناك فتى يميل اليه فتناول الفتى شوسنة صفراء
وأوماً بها الى خديّه مُشيراً وقال أين الشعراءُ تحريكاً للجراوي فقال
هذا ارتجالاً :

وَعُلُويُّ الْجَمَالِ إِذَا تَبَدَّى أَرَاكَ جَبِينُهُ بِدْرًا أَثَارَا
أَشَارَ بِسَوْسَنٍ يَحْكِيهِ عَرُفَاً وَيَحْكِي لَوْنَ عَاشِقِهِ أَصْفَرَارَا

الأصيلُ في فاس

قال الشَّريشي أَخْبَرَنِي ابْنُ مَنْصُورٍ قَالَ خَرَجْتُ بِخَارِجِ فَاسٍ عَشِيَّةً
مَعَ فَتَى وَرَّاقٍ فَنَظَرُ إِلَى صُفْرَةِ الشَّمْسِ وَاسْتَنْشَقَ بَرْدَ الذَّسِيمِ
وَأَنْشَدَنِي مَرْتَجِلاً :

انْظُرْ إِلَى الشَّمْسِ فِي الْأَصِيلِ كَأَنَّهَا وَجُنَّتَا عَلِيلِ
وَرَقَّ هَذَا الذَّسِيمُ حَتَّى كَأَنَّهَا يَشْتَكِي نُحُولِي

بين ابن عبدوس وابن الجهم

قال ابنُ عَبْدِوَسٍ الْفَاسِي سَرْتُ يَوْمًا إِلَى عَلِيِّ بْنِ الْجَهْمِ فَأَنْشَدَنِي
بَيْتَيْنِ فِي الْعِنَاقِ :

سَقَى اللَّهُ لَيْلًا ضَمَّنِي بَعْدَ هَجْعَةٍ وَأَدْنَى فَوَادِي مِنْ فَوَادٍ مُعَذِّبِي
فَبِئْسَ جَمِيعًا لَوْ تُرَاقُ زَجَاجَةٌ مِنَ الْمَاءِ فِيمَا بَيْنَنَا لَمْ تَسْرَبْ

فَأَقْتَدَحَ زَنْدِي لِإِيرَادِ مِثْلِهِ فَقُلْتُ :

لَا وَالْمَنَازِلِ مِنْ نُجْدٍ وَلِيَلَاتِنَا بُعِيدُ إِذْ جَسَدَانَا يَبْنِي جَسَدُ

كَم رَامَ فِينَا الْكَرَى مَعَ لُطْفِ مَسْلَكِهِ نَوْمًا فَمَا انْفَكَ لَا خَدُّ وَلَا عَضْدُ
مَا أَنْصَفُونِي دَعَوْنِي فَاسْتَجِبْتُ لَهُمْ حَتَّى إِذَا قَرَّبُونِي مِنْهُمْ بَعُدُوا

الوَجْدُ مَعَ الْوُجْدِ

كَانَ رَجُلٌ يَتَعَشَّقُ قَيِّنَةً كَانَتْ وَرِثَتْ مِنْ مَوْلَاهَا مَا لَا تُنْفِقُ عَلَيْهِ
مِنْهُ فَلَمَّا فَرَّغَ الْمَالَ مَلَّهَا فَقَالَ فِيهِ عَقِيلٌ بْنُ عَطِيَّةَ ابْنِ أَخِي الْوَزِيرِ ابْنِ
عَطِيَّةَ :

لَا تُلَحِّه إِنْ مَالَ عَنْ حَبِّهَا فَلَمْ يَكُنْ ذَلِكَ مِنْ وَدِّ
لَمَّا رَأَاهَا قَدْ صَفَا مَالُهَا قَالَ صَفَا الْوَجْدُ مَعَ الْوُجْدِ

حَسَنُ الْإِعْتِذَارِ

صَبَّحَ يَحْيَى بْنُ عَبْدِ الْمَنَّانِ السُّلْطَانَ أَبَا الْعَبَّاسِ الْمُرِينِيَّ عِنْدَ الْمَسَاءِ
فَأَنْكَرَ عَلَيْهِ وَظَنَهُ ثَمَلًا فَقَالَ :

صَبَّحْتُهُ عِنْدَ الْمَسَاءِ فَقَالَ لِي مَاذَا الْكَلَامُ وَظَنُّ ذَاكَ مُزَاحًا
فَأَجَبْتُ إِنَّ ضِيَاءَ وَجْهِكَ غَرَّنِي حَتَّى تَوَهَّمْتُ الْمَسَاءَ صَبَاحًا

حَسَنُ التَّعْلِيلِ

سَأَلَ السُّلْطَانُ أَبُو سَعِيدٍ الْمُرِينِيَّ كَاتِبَهُ عَبْدَ الْمُهَيْمِنِ الْحَضْرَمِيَّ عَنْ

تهادي المُجِبِّين التُّفَّاحَ دُونَ الْخَوْخِ وَكِلَاهُمَا حَسَنُ الْمَنْظَرِ ، طَيِّبُ
 الْمَخْبَرِ شَدِيدُ الشَّبهِ بِأَخِيهِ ، سَدِيدُ تَشْبِيهِ الْوَجَنَاتِ بِهِ لَمَتَوُخِيهِ .
 فَقَالَ مِنْ عِنْدِ مَوْلَانَا ، فَقَالَ أَرَى أَنَّ ذَلِكَ لَاشْتِمَالِ التُّفَّاحِ عَلَى الْحَبِّ
 الَّذِي يُذَكَّرُ بِالْحَبِّ وَالْهُوَى ، وَالْخَوْخِ عَلَى النَّوَى الَّذِي يُذَكَّرُ بِاسْمِهِ
 صُفْرَةَ الْجَوَى .

من اللطائف في التسميت

عَطَسَ السُّلْطَانُ أَبُو الْعَبَّاسِ الْمَرْيَنِيُّ وَكَانَ ابْنُ عَبْدِ الْمُنَافِ
 حَاضِرًا فَقَالَ :

يَرْحَمُكَ الرَّحْمَانُ مِنْ عَاطِسٍ وَلِيَهْنِكَ الْحَمْدُ عَلَى عَطَسَتِكَ
 وَيَغْفِرُ اللَّهُ لَنَا كُلَّنَا وَلِيُسَبِّلَ السَّيْرَ عَلَى وَجَنَتِكَ

وَعَطَسَ السُّلْطَانُ مَوْلَايَ سُلَيْمَانُ وَقَارِيءُ الْحَدِيثِ عِنْدَهُ يَقُولُ
 يَرْحَمُكَ اللَّهُ مِنْ قَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : إِذَا عَطَسَ أَحَدُكُمْ فَلْيَقُلْ الْحَمْدُ
 لِلَّهِ فَإِذَا قَالَ فَلْيَقُلْ لَهُ أُخُوهُ أَوْ صَاحِبُهُ يَرْحَمُكَ اللَّهُ ، فَقَالَ الشَّيْخُ حَمْدُونَ
 ابْنُ الْحَاجِّ وَكَانَ حَاضِرًا :

عَطَسَتْ وَقَارِيءُ الْحَدِيثِ يَقُولُ (يَرْحَمُكَ اللَّهُ) قَوْلَ الرَّسُولِ
 فَكَانَ الرَّسُولُ الْمَشْتَمَتَ إِذْ عَطَسْتَ وَذَلِكَ أَعْظَمُ سُوءٍ

شاعر بليد الطبع !

كان ابنُ عمرو الشَّاوي قديمَ الصَّحبة للمنصور وأخيه المعتصم
واغترب مع الأخير في الجزائر مدةً مديدةً ولما أفضت الخلافة للمنصور
سَوَّغَهُ مَغَارِمَ مَسْفِيوَةٍ بِحَذَا فِيرِهَا مُكَافَأَةً عَلَى الْهَجْرَةِ إِلَّا أَنَّهُ اسْتَشْنَى
مِنْهَا أَعْشَارَ الزَّيْتِ فَكَتَبَ لَهُ ابْنُ عَمْرُو بِأَبْيَاتٍ لِيَشْمَلَهَا الْعَطَاءُ
فَأَعْطَاهَا لَهُ أَيْضاً فَكَانَ يَدْبِيعُ مِنْهَا بِالْآلَافِ مِنَ الْعَيْنِ وَهَذِهِ الْآبِيَاتُ :

أَبْخَرَ النَّدَى خَيْرَ الْمُلُوكِ سَجِيَّةً	وَأَفْضَلَ سُلْطَانَ رَقَى فَوْقَ مِثْبَرٍ
لَقَدْ سَرَّتْ فِي الْإِسْلَامِ أَحْسَنَ سِيرَةٍ	وُخْصِّصَتْ بِالنَّصْرِ الْعَزِيزِ الْمُؤَزَّرِ
أَمْوَلَايَ لَا حِطِّي بِجُودِكَ إِنِّي	فَقِيرُ نَوَالٍ مِنْ لَدُنْكَ مُوَفَّرِ
فَهَذَا زَمَانُ الزَّيْتِ قَدْ جَاءَ مُقْبِلًا	وَلِي رَغْبَةٌ فِيهِ بِغَيْرِ تَنْكُرِ
فَمِنْهَا اشْتَعَالِي فِي الدُّجَا وَتَطْيِيبي	وَدُّهُنَّ طَعَامِي ثُمَّ مِنْهَا تَعْطُرِي
لَأَنِّي بَلِيدُ الطَّبَعِ أَشْتَاقُ رِيحَهَا	فَفِي الزَّيْتِ يَا مَوْلَايَ مَسْكِي وَعَنْبَرِي

المودة في القربى

كَتَبَ الشَّيْخُ التَّوْدِيُّ ابْنُ سُودَةَ لِقَاضِي فَاسِ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ
أَهْوَارِي يَسْتَعِظُفُهُ فِي تَسْرِيحِ شَرِيفَيْنِ مِنَ السَّجْنِ :

أَقَاضِي الْوَرَى رِفْقًا بِآلِ مُحَمَّدٍ وَرَاعَ رِعَاكَ اللَّهُ فِي حَقِّهِمْ جَنْبًا

وَذَا سَابِعُ الْمِيلَادِ فَافْكُكُ وَثَاقَهُمْ وَكُنْ تَالِيًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى
فَاجَابَهُ :

أَيَا عَالِمًا قَدْ طَبَّقَ الشَّرْقَ وَالْغَرْبَا وَأَبْدَى لَنَا مَا يَشْرَحُ الصَّدْرَ وَالْقَلْبَا
وَذَاكَ بَنُصَحَ لِي بِنَظْمٍ مُهَذَّبٍ وَفِي طَيْهِ عَثْبٌ وَأَحْيَبُ بِهِ عَثْبَا
وَهَا أَنَا ذَا فِي الْحَيْنِ لَبَّيْتُ أَمْرَكُمْ وَمَا أَبْتَغِي إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى

إِنَّكَ لَسَبَّحُو

قصد الشاعر أبو بجر بن عبد الصمد مروان بن سمجون الطنجي
زعيم المغرب وشيخه في وقته بقصيدة صنعها فيه جاء فيها :

فَدَى لِلْفَقِيهِ ابْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ رَجَالٌ حُلُومُهُمْ تُسْتَزَلُّ
يُرُومُونَ إِذْ رَأَوْكَ غَايَاتِهِ وَهَيْهَاتَ بِالْقَوْلِ لَا بِالْعَمَلِ
جَرَى وَجَرُوا فِي مِيَادِينِهِ فَجَاءَ بِهَا سَابِقًا فِي مَهَلِ
إِمَامٌ أَقَامَ مَنَارَ الْهُدَى وَعَزَّ عَلَى أَهْلِ تِلْكَ النَّحْلِ
وَبَيْنَ لِلنَّاسِ فُضْلًا فَفَضْلًا غَوَامِضَ أَسْرَارِ تِلْكَ الْمَلَلِ
وَضُمَّ إِلَى الرَّأْيِ مَثَنَ الْحَدِيثِ وَعِلْمَ الْكَلَامِ وَفَهْمَ الْجَدَلِ

فلما أنشده إياها استحسنها واهتز لها طرباً وقال له أبو من ؟
فقال أبو بحر ، فقال إنك لبحر عند اسمك ووصله بصلة سنية .

حليم المنصور الموحي وعلمه

قال ابن الخطيب : حدثني شيخني أبو الحسن بن الجيَّاب عمَّن
حدثه من أسياده ، قال : عرض أبو عبد الله ابن عيَّاش والكتاب
ابن القالي على المنصور كتابين وهو في بعض الغزوات في كلب البرد
وبين يديه كانون جمر وكان ابن عيَّاش بارع الخط وابن القالي
ركبته ويفضله في البلاغة أو العكس ، الشكُّ متي ، فقال المنصور
أيُّ كتاب لو كان بهذا الخط وأيُّ خط لو كان بهذا الكتاب ،
فرَضِي ابن القالي وسخط ابن عيَّاش فانتزع الكتاب من يد المنصور
وطرحه في النار وانصرف فتغيَّر وجه المنصور وابتدر أحدُ الأسياد
فقال : يا أمير المؤمنين طعنتم له في الوسيلة التي عزَّفته ببابكم فعظمت
غيرته لمعرفة بقدر السبب الموصول اليكم فسريَّ عن المنصور وقال
لأحد خدامه : اذهب الى السبئي فاختر أجملَ نسائه الأبقار واثت
ابن عيَّاش فقل له هذه تطفئ من خُلقك ، قال ابن عيَّاش يخاطب
ولده وقد حدثت الحديث هي أمك يا محمد أو فلان ، وقال ابن
خميس : حدثني خالي أبو عبد الله ابن عسكر أن الكاتب أبا عبد الله
ابن عيَّاش كتب يوماً كتاباً ليهودي فكتب فيه ويحمل على البر

والكرامة ، فقال له المنصور : أتقول في كافر يُحمَل على البرِّ والكرامة؟ قال ابنُ عيَّاش ففكرتُ ساعةً وقد علمتُ أن الاعتراض يلزمُني . فقلت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أتاكم كريمُ قوم فأكرموا ، وهذا عامٌّ في الكافر وغيره ، فقال نعم هذه الكرامة والمبرة من أين أخذتها ، قال : فسكتُ ولم أجِد جواباً قال فقراً المنصور : أعودُ بالله من الشيطان الرجيم لا يَنهَاكُمُ اللهُ عن الذين لم يُقاتِلوكُم في الدين ولم يُنْجِرْجوكُم من ديارِكُم أن تَبْرُوهم وتُقْسِطُوا اليهم إنَّ الله يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ فسررتُ بذلك وشكرته .

وروى ابنُ رُشيد الفهرى عن شيخه أبي بكر بن حبيش قال : أخبرني أبو بكر بن مُحَرِّز قال كان شيخنا أبو عبد الله الحَجَرى بقي لم يشهد الجمعة نحو أربعين سنة يمنعه من ذلك عُذرٌ كما منع مالك بن أنس رضي الله عنه وكان الناس يقولون إنما يتركها لِمكان ذَكَرَ المؤحدين فيها ، فكان ذلك يبلغُ أميرَ المؤمنين المنصور فيُعْضِي عنه ويقول لعلَّ له عُذرا .

ويحكى أن الشاعر المجيد أبا بكر بن مُجَبَّر أنشد يوسف بن عبد المؤمن قصيدة يهنئه فيها بفتح منها :

إنَّ خيرَ الفتوح ما جاء عفواً مثلما يخطبُ الخطيبُ ارتجالاً

وكان أبو العباس الجراوي الشاعرُ حاضراً فقطع عليه قوله وقال
يا سيّدنا اهتدم بيتاً وضاح :

خيرُ شرابٍ ما كان عفوّاً كأنّه خطبةٌ ارتجال

فبدر يعقوب المنصور وهو حينئذ وزير أبيه وسنّه قريبُ
العشرين وقال ان كان اهتدمه فقد استحقّه ، لنقله آياه من معنى خسيس
الى معنى شريف فسّر أبوه بجوابه وعجب الحاضرون .

من اكرام أبي العلاء الموحدي للعلماء

قال ابن رُشيد أخبرني شيخنا أبو بكر بن حيش قال أخبرني
سهل بن مالك قال : كان الطلبة يحضرون مجلس أبي العلاء فيتذاكرون
بين يديه ويتكلم أمير المؤمنين فتكلّم يوماً على السّلم الذي هو من
أقسام البيوع فسكن اللام قال سهل فأعدت السّلم وقلت : قال
الفقهاء في السّلم ، والسّلم من حكمه كذا وكرّره مرات مُعْتَنِيّاً
بفتح اللام ، فنظرتُ اليه يُحدّقُ إليّ النّظر كالمُصْغِي لِمَا أقول فلم
يُعدها الى أن انقضى المجلس فلما وصلتُ منزلي أدركني بعضُ ممالكه
ومعه كسوة من ثيابه وُصْرَةٌ فيها خمسمائة دينار ، وآخر بفرسٍ
مُطَهَّم فقال : مولانا يقرأ عليك السلام ويقول لك هذا من ثيابه ومن
رِكابه تُصليّ فيها وتدعو له وهذه برسم النفقة .

هي الشمس

كانت الأميرةُ تَمِيمَةُ بنتُ يوسف بن تاشفين بارِعَةً الحُسن ،
 تَامَّةَ الأدب ، فرآها يوماً كاتبٌ لها وكانت قد أمرتُ بِمُحَاسِنَتِهِ وَبَرَزَتِ
 لذلك ، فَبُهِتَ . ولَمَّا نظرتُ إليه عَرَفْتُ ما دَهاه ، وَفَطِنْتُ لِمَا عَراه ،
 فَأَومَأْتُ إلى نَفْسِها وَأَنشَدته :

هِيَ الشَّمْسُ مَسْكَنُهَا فِي السَّمَاءِ فَعَزَّ الْفُؤَادَ عِزَاءً جَمِيلاً
 فَلَنْ تَسْتَطِيعَ إِلَيْهَا الصُّعُودَ وَلَنْ تَسْتَطِيعَ إِلَيْكَ التَّزُولَا

حيوانات معلّمة

ذكر ابنُ حَمَوِيَّة السَّرَّخْسِي في رحلته أن قومًا قَصَدُوا المنصور
 الموحدِي ومَعَهُم حَيَوَانَاتٌ مُعَلَّمَةٌ ، مِنْهَا أَسَدٌ وَغُرَابٌ ، أَمَّا الْأَسَدُ
 فَيَقْصِدُهُ مِنْ دُونِ أَهْلِ الْمَجْلِسِ وَيَرِيضُ بَيْنَ يَدَيْهِ ، وَرَبَّمَا أَوْمَأَ بِالسُّجُودِ
 وَمَدَّ ذِرَاعَيْهِ ، وَأَمَّا الْغُرَابُ فَكَانَ يَقُولُ : النَّصْرُ وَالتَّمَكِينُ لِسَيِّدِنَا
 أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَفِي ذَلِكَ يَقُولُ بَعْضُ الشُّعْرَاءِ :

أَنَسَ الشَّيْبُلُ ابْتِهَاجًا بِالْأَسَدِ وَرَأَى شِبْهَ أَبِيهِ فَقَصَدَ
 أَنْطَقَ الْخَالِقُ مَخْلُوقَاتِهِ شَهِدُوا وَالْكَلُّ بِالْحَقِّ شَهِدَ
 أَنَّكَ الْخَيْرَةُ مِنْ صَفْوَتِهِ بَعْدَ مَا طَالَ عَلَى النَّاسِ الْأَمَدُ

فأعطاهم وكساهم .

أَحَبُّ سَلاَ

أَسِرُّ مُحَمَّدُ بْنُ سَوَّارِ الْأَشْبُونِي الشَّاعِرَ وَجَرَّتْ عَلَيْهِ مِحْنٌ فِي
الْأَسْرِ فَقَدَاهُ ابْنُ عَشْرَةَ كَرِيمٌ سَلاَ فَمَدَحَهُ بِمَدَائِحٍ كَثِيرَةٍ
وَمِنْهَا قَوْلُهُ :

أَحَبُّ سَلاَ مِنْ أَجْلِ كَوْنِكَ مِنْ سَلاَ فَكُلُّ سَلاَوِيٍّ إِلَيَّ حَبِيبٌ
لَصَيَّرَتَهَا مِصْرًا وَنَيْلُكَ نَيْلُهَا وَكَفَّكَ بَطْحَاها وَأَنْتَ خَصِيبٌ^١

نتيجة العلم

كَانَ فِي غُرْفَةِ الْمَوْقَتِ بِمِثْدَنَةِ الْقَرْوِيِّينَ سَاعَةً غَرِيبَةً ، مِنْ صُنْعِ
الْمَعْدَلِ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ الصَّنَهَاجِيِّ وَقَدْ وَصَفَهَا أَحَدُ الشُّعْرَاءِ بِقَوْلِهِ :

رُوحٌ مِنَ الْمَاءِ فِي جِسْمٍ مِنَ الصُّفْرِ مُوَلَّدٌ بِلَطِيفِ الْحَذَقِ وَالنَّظَرِ
إِذَا بَكَى دَارَ فِي أَحْشَائِهِ فَلَكَ^٢ خَافِي الْمَسِيرِ وَإِنْ لَمْ يَبْكْ لَمْ يَدُرْ
وَفِي أَعَالِيهِ حِسَابٌ^٣ يُفَصِّلُهُ لِلنَّاطِرِينَ بِلَا ذِهْنٍ وَلَا فِكْرٍ
مُتَرْجِمٌ عَنْ مَوَاقِيتٍ يُخَبِّرُنَا بِهَا فَيُوجَدُ فِيهَا صَادِقَ الْخَبَرِ

١ - فيه إشارة إلى الخصيب بن عبد الحميد المرادي أمير مِصْرٍ وممدوح أبي نُوَّاسٍ .

تُقضى به الخمسُ في وقت الوُجوب وانْ غطى على الشمسِ سترُ الغيمِ والمطر
 مُحدّد كلَّ مِيقَاتٍ تَخَيَّرَه ذوُوا التَّأَمُّلِ للأسفارِ والحَضَرِ
 نتيجةُ العِلْمِ والأفكارِ صَوْرَه - يا حَبَّذَا - مُبدِعُ الأفكارِ في الصُّورِ

تظليل صحن القرويين

كان بصحن جامع القرويين بفاس مظلّات من شقق الكتّان
 تُشَرُّ في زمن الصيف لتظليل المصلين يوم الجمعة أحدَثَها القاضي محمد
 ابنُ داود وذلك بأن جعل حبالاً تجري في حلقٍ على جوانب الصحن
 تُرْفَعُ بها المظلّات وقت الحاجة إليها وجعل في مواضع منها فُرْجاً
 يَتَنَسَّمُ الناسُ منها الهواءَ ، وفيه يقول الشاعر مُنَوِّهاً بعمله هذا :

تَفَسَّحَتِ الدُّنْيَا بَعْدُكَ فِي الْوَرَى وَفَسَّحَتَ لَمَّا ضَاقَ لِلخَلْقِ جَامِعَا
 شَكَى صَحْنُهُ شَمْسَ الظَّهِيرَةِ ضَاحِياً فَأَظْلَمَتْهُ ظِلًّا عَلَى الْوَهْجِ دَافِعَا

تحت ثريّا القرويين

جلس الأستاذ المزياتي ومعه محمد بن عبدون ومالك بن المرحّل
 ومحمد بن خلف تحت ثريّا القرويين الكبرى ليلة السابع والعشرين
 من رمضان وهي تتوهجُ نوراً فأنشد فيها ارتجالاً :

انْظُرْ إِلَى ثُرَيَّةٍ نَوْرُهَا يَصْدَعُ بِاللَّأْلَاءِ سَجْفَ الْعَسَقِ

فقال ابنُ عبدون :

كَأَنَّهَا فِي شَكْلِهَا رُبُوبَةٌ انْتَضَمَ النُّورُ بِهَا فَاتَّسَقَ

وقال ابن المرحّل :

أَعِيدُهَا مِنْ شَرِّ مَا يُتَّقَى مِنْ فَجْأَةِ الْعَيْنِ بِرَبِّ الْفَلَقِ

وقال ابنُ خلف :

بَاهَى بِهَا الْإِسْلَامُ مَا أَشْرَقَتْ كَاسَاتُهَا عِنْدَ مَغِيبِ الشَّفَقِ

وذكر الثعالبي قال كنّا نقرأ المَقَامَاتِ الحَرِيرِيَّةَ بَيْنَ الْعِشَاءِ يَنْ
بَعْنَزَةَ جَامِعِ الْقُرَوِيِّينَ فِي زَمَنِ الصَّيْفِ عَلَى الْأُسْتَاذِ مَنْدِيلِ بْنِ أَجْرُومَ
فَجَعَلَ يُقَرِّرُ الاستِعَارَةَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : فَأُصْدِعْ بِهَا تُؤْمَرُ فِجَاءَتِ رِيحٍ
قَوِيَّةٌ فَضْرَبَتْ الْمَصَابِيحَ إِلَى الْجُدُرَانِ فَأُطْرَقَ الْأُسْتَاذُ ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ
فَقَالَ :

وَلَمَّا ضَرَبْنَا فِي بَيَانِ اسْتِعَارَةِ مِثَالاً بِصَدْعِ الْحَقِّ صَدْعُ زُجَاجٍ
أَرْتَنَا عَيَانًا صَدْعَهَا الرِّيحُ إِذْ غَدَتْ تُكْسِرُ فِي الْجُدُرَانِ كُلَّ سِرَاجٍ

قاضي حَضْرَمِي

كَانَ الْقَاضِي أَبُو عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدُ الْحَضْرَمِي وَالِدُ الرَّئِيسِ عَبْدِ الْمُهَيْمِنِ
لِحَضْرَمِي شَدِيدًا فِي بَابِ الْقَبُولِ عَلَى الشُّهَدَاءِ فَيُذَكِّرُ أَنَّ أَحَدَ الظُّلَمَةِ

عَرَضَ لَهُ كِتَابُ رَسْمٍ فِي قَضِيَّةٍ نَزَلَتْ بِهِ فَنَقَدَهُ الْقَاضِي وَمَطَّلَ فِي تَخْلِيصِهِ
فَتَحَيَّلَ عَلَى أَنْ كَتَبَ بِحَائِطِ مَجْلِسِ الْقَاضِي مَا نَصَهُ :

بِسَبَبَةِ قَاضٍ حَضَرَ مِيًّا إِذَا انْتَسَبَ
وَفِي حَضَرَمَوْتَ الشُّؤْمُ وَاللُّؤْمُ فِي النَّسَبِ
فَمِنْ شُؤْمِهِ لَا يَثْبُتُ الْعَقْدُ عِنْدَهُ
وَمِنْ لُؤْمِهِ يَرْمِي أُولَى الْفَضْلِ بِالرَّيْبِ
فَلَمَّا وَقَعَتْ عَيْنُ الْقَاضِي عَلَى الْمَكْتُوبِ وَفَهِمَهُ أَمْرَ بَازَالْتِهِ وَأَمْسَكَ
مِنْ عِغْنَانِهِ .

فَتَحَتَ لِنَجْلِكَ بَابَ الْفُتُوحِ

كَانَ لِلْقَاضِي أَبِي عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ الرَّزَّاقِ الْجَزُولِيِّ وَلَدٌ قَدْ فُتِنَ
بِهِ فَرُبَّمَا تَدَخَّلَ فِي قَضَايَا النَّاسِ بِمَا يُرِيبُ فَلَا يَنْهَاهُ ، فَقَالَ فِيهِ أَبُو
عَبْدِ اللَّهِ الْعِزِّيُّ مُوَرِّياً بَيَّانٍ مِنْ أَبْوَابِ فَاسٍ :

أَقَاضِي فَاسٍ لَقَدْ شَتَّهَا	وَأَحْدَثَ فِيهَا أُمُوراً شَنِيعَةً
ظَلَمْتَ الْعِبَادَ وَرُمْتَ الْعِنَادَ	وَخَادَعْتَ فِي الدِّينِ كُلَّ الْحَدِيدَةِ
فَتَحْتَ لِنَجْلِكَ بَابَ الْفُتُوحِ	وَأَغْلَقْتَ لِلنَّاسِ بَابَ الشَّرِيعَةِ ^١

١ - باب الفتوح وباب الشريعة من أبواب فاس المعروفة والتورية في الفتوح ظاهرة على أنه جمعُ فَتَحَ مَكْنَسَى بِهِ عَنِ الرِّشْوَةِ .

فبادرَ موالي الوَرى فارس^١ بعزلكَ عنها لِسَدُّ الذَّرِيعَةِ

بين ابن المرحّل وابن رَشِيق

كان بين ابن رَشِيق الثعلبي ومالك بن المرحّل خصام أدّى الى
تَهاجِيهِمَا ، فنظم ابن رَشِيق قصيدةً جاء في مطلعها :

لِكِلَابِ سِبْتَةٍ فِي الثُّبَاحِ مَدَارِكُ وَأَشَدُّهَا عِنْدَ التَّهَارُشِ مَالِكُ
شَيْخُ تَفَانِي فِي الْبَطَالَةِ عُمَرُ وَأَجَلُ مُحْكِيهِ الْكَلَامُ الْآفِكُ

وَاتَّخَذَ لَهَا كِنَانَةً كَأَوْعِيَةِ الْكُتُبِ وَكَتَبَ عَلَيْهَا « زِمَامُ مُعْجَلٍ
إِلَى مَالِكِ بْنِ الْمَرْحَلِ » وَعَمِدَ إِلَى كَلْبٍ وَجَعَلَهَا فِي عُنْقِهِ وَأَوْجَعَهُ ضَرْباً
حَتَّى لَا يَأْوِيَ إِلَى أَحَدٍ وَطَرَدَهُ بِالزُّشْقَاقِ ، فَذَهَبَ الْكَلْبُ يَعْوِي وَخَلْفَهُ
مِنَ النَّاسِ أُمَّةٌ ، وَأَخَذَ الْكِتَابُ وَقُرِيءَ فَحُمِلَ إِلَى ابْنِ الْمَرْحَلِ فَلَمْ
يَخْفَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مِنْ عَمَلِ ابْنِ رَشِيقٍ ، فَقَالَ فِي جَوَابِهِ :

كِلَابُ الْمَزَابِلِ أَذَيْنِي بِأَبْوَالِهِنَّ عَلَى بَابِ دَارِي
وَقَدْ كُنْتُ أَوْجَعُهَا بِالْعَصَا وَلَكِنْ عَوَتْ مِنْ وَرَاءِ الْجِدَارِ

١ - يعني به السلطان أما عنان المربني .

زكّانةُ ابنِ البَنَاءِ

قال ابنُ شاطر : كنتُ قاعداً مع ابنِ البناءِ بمراكش في دكانٍ طيبٍ فاذا برجلٍ جاء اليه وقال له يا سيّدي ان والدي تُوفي وكان متّهماً بالمال ولم يترك لي شيئاً وقيل لي أن ماله مدفون بداره ، فأُحبُّ أن تعملَ خاطركَ معي لوجه الله ، ففكر الشيخُ برهةً ثم قال للرجل : صوّر لي صورة الدار في الرمل فصور له الدار من غير أن يدعَ منها شيئاً فأمره أن يُزيل صورتها فأزالها فأمره بإعادتها ثانياً ففعل ، فأمره بإزالتها وإعادتها ثالثاً وقال له : إن مالك في هذا الموضع منها ، فانصرف الرجل وبحثَ في ذلك الموضع فوجد به المال.

شعر الشريف المومنانِي
يُغْنِيهِ ابنُ الطَّراحةِ

كان الشريف أبو الحسَيْن المومنانِي من العلم والجاه بالمكانة التي لا تُجْهَل وكان قد ولى القضاء بمدينة بَجَاية وحضر في مجلسٍ كان فيه المَغْنِي ابراهيم ابن الطَّراحة فاقترح بعضُ الحاضرين على المغني المذكور أن يغني لهم قولَ بشار بن بُرْد :

رَأَيْنَ الْغَوَانِي الشَّيْبَ لَاحَ بِمَفْرِقِي فَأَعْرِضْ عَنِّي بِالْعُيُونِ الْفَوَاتِرِ
وَكُنَّ إِذَا أَبْصَرْنِي أَوْ سَمِعْنَ بِي سَعِينَ يُغْلِقْنَ الْكَرَى بِالْمَحَاجِرِ

وكان من عادة ابن الطراحة ألا يغني من الشعر ما انتهى الى حفظ
 المغني محمد ابن يعقوب وُسْمِعَ منه ، وكان ابنُ يعقوب اذ ذاك في أول
 ظهوره فقال ابن الطراحة لمُقترح ذلك عليه : كَلَامُكُمْ عِنْدِي لَا يُرَدُّ ،
 والأمر ممتثل ، فان شئتم فاقترِحوا على سيدنا أبي الحسين زيادةً على
 البيتين ، فأنشد الشريفُ بديهةً :

فَوَا أَسْفَا وَلِيَ الشَّبَابُ وَقَدْ غَدَا يُنَافِرُنِي مَنْ كَانَ بِالْأُمْسِ زَائِرِي
 فَلَوْلَا مَشِييَ مَا أُضِيعَتْ مَوَدَّتِي وَلَا عَادَ مَحْبُوبِي الْقَرِيبُ مُنَافِرِي
 فغننى ابنُ الطراحة الشعر كما طَلِبَ منه ورَغِبَ هو .

محتسبٌ وشاعر

روى ابنُ عربي الحاتمي في مُحَاضراته قال : أَتَيْتَ مُحْتَسِبَ كَانَ عِنْدَنَا
 بفاس بشاعر جَنَى جَنَائَةً فَأَمَرَ بِضَرْبِهِ فَسَأَلَهُ الْعَفْوَ حَتَّى أَغْضَبَهُ فَصَاحَ
 فِي الضَّرَابِ شِدَّةً عَلَيْهِ فَفِي صِيحْتِهِ تِلْكَ ضَرْطُ ضَرْطَاتٍ فَقَالَ الشَّاعِرُ فِي
 ذَلِكَ وَالسَّيَاطُ تَأْخُذُهُ :

اسْمَعُونِي وَأَعْجَبُوا	ضَرْطُ الْمُحْتَسِبِ
ضَرْطَةُ صَافِيَةٍ	طَارَ مِنْهَا الْعَتَبُ
سَهَلْتُ حَلْقَ سَلَا	وَعَرَّتْ وَادِي سَبُو

سبعة في نسق ب ب ب ب ب ب ب

حلف لا يمشي شاعره لداره إلا على الذهب

كان الشاعر الفيلسوف الموسيقار أبو بكر بن باجة منقطعاً الى الأمير أبي بكر ابن تافلويت المصوفي انصنهاجي صهر علي بن يوسف ،
ومما جرى له معه أنه حضر يوماً بمجلسه فألقى على بعض قيناته
موشحته :

جرر الذيل أيا جر وصل الشكر منك بالشكر

وختمها بقوله :

عقد الله راية النضر للأمير العلا أبي بكر

فلما طرّق الشعر والتلحين سمع ابن تافلويت صاح واطرباه
وشق ثيابه وقال ما أحسن ما بدأت وما ختمت ، وحلف لا يمشي
ابن باجة الى داره إلا على الذهب ، فخاف الشاعر الحكيم سوء
العاقبة فاحتال بأن جعل ذهباً في نعله ومشى عليه .

من حكاياتهم في العفاف

ذكر الأستاذ أبو جعفر بن الزبير قال : أنشدني أبو الخطاب بن

خَلِيلٌ قَالَ أَنَشِدْنِي الْقَاضِي أَبُو حَفْصٍ بْنُ عُمَرَ لِنَفْسِهِ وَقَدْ أَهْدَيْتُ
لَهُ جَارِيَةً فَوَجَدَهَا ابْنَةً سُرِّيَّةً كَانَ قَدْ تَسَرَّاهَا فَرَدَّهَا إِلَى مُهْدِيهَا
وَكَتَبَ لَهُ :

يَا مُهْدِيَّ الرَّشَاءِ الَّذِي أَلْهَاطُهُ تَرَكْتُ فُؤَادِي نُصَبَ تِلْكَ الْأَسْهُمِ
رَيْحَانَةٌ كُلُّ الْمُنَى فِي شَمِّهَا لَوْلَا الْمُهَيَّمُنُ وَاجْتِنَابُ الْمَحْرَمِ
مَا عَن قَلِي صُرِفْتُ إِلَيْكَ وَإِنَّمَا صَيْدُ الْغَزَالَةِ لَمْ يُبَيِّحْ لِلْمُحْرَمِ
إِنَّ الْغَزَالََةَ قَدْ عَلِمْنَا قَبْلَهَا سِرَّ الْمَهَاةِ وَلَيْتَنَّا لَمْ نَعْلَمِ
يَا وَيْحَ عُنْتَرَةَ الَّذِي قَدْ شَفَّهَ مَا شَفَّنِي فُشْدَا وَلَمْ يَتَكَلَّمِ
(يَا شَاةَ مَا قَنَصَ لِمَنْ حَلَّتْ لَهُ حَرُمْتُ عَلَيَّ وَلَيْتَهَا لَمْ تَحْرُمِ)^١

من محاسن الكناية

دَخَلَ الْفَقِيهَ أَبُو الْحَسَنِ بْنُ الصَّبَّاحِ عَلَى الْقَاضِي أَبِي الْقَاسِمِ الشَّرِيفِ
السَّبَّيْتِي يَوْمًا لِأَدَاءِ شَهَادَةٍ عِنْدَهُ فَوَجَدَ بَيْنَ يَدَيْهِ جَمَاعَةً مِنَ الْغَزَاةِ يُودُّونَ
شَهَادَةً فَسَمِعَ الْقَاضِي مِنْهُمْ وَقَالَ لَهُمْ هَلْ تَمَّ مَنْ يَعْرِفُكُمْ ؟ فَقَالُوا نَعَمْ ،
يَعْرِفُنَا عَلِيُّ الصَّبَّاحِ فَقَالَ الْقَاضِي أَتَعْرِفُهُمْ يَا أَبَا الْحَسَنِ ؟ فَقَالَ نَعَمْ
يَا سَيِّدِي مَعْرِفَةَ مُحَمَّدِ بْنِ يَزِيدَ ، فَمَا أَنْكَرَ عَلَيْهِ شَيْئًا بَلْ قَالَ لَهُمْ عَرَفَ

(١) ضمن بيت عنتره والعرب تطلق الشاة على البقرة الوحشية فكفى عنتره بالشاة
على المرأة تشبيها لها بها ويقال انها كانت زوجة لأبيه فبذلك حرمت عليه .

الفقيه أبو الحسن ما عنده فانظروا مَنْ يَعْرِفُ معه رَسَمَ حَالِكُمْ فانصرفوا
راضين ولم يَرْتَبِنُ الشاهد في شيء من حالهم ولا كشف القاضي لهم
سِرَّ القضية وإنما أشار أبو الحسن الصَّبَّاحُ الى قول الشاعر :

أَسْأَلُ عَنْ ثَمَالَةٍ كُلِّ حَيٍّ فكلهم يُجِيبُ وَمَنْ ثَمَالَهُ ؟
فقلتُ محمدُ بنُ يزيدٍ منهم فقالوا : الْآنَ زِدْتَهُمْ جَهَالَهُ

غَرِيبَةٌ رَابِعَةٌ

قال ابنُ رُشِيدٍ في رحلته : ذِكْرُ غَرِيبَةٍ عَنَّتْ لَنَا بِرَابِعٍ وَمَا
عَنَّتْ ، بَلْ أَغَنَّتْ فِي مَعْنَى الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ وَأَقْنَتْ ، وَهِيَ قَوْلُهُ تَعَالَى :
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا (لِيَبْلُوَنَّكُمْ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ
وَرِمَاؤُكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَخَافُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ) . صَحِبَنِي فِي الطَّرِيقِ
مِنَ الْمَدِينَةِ عَلَى سَاكِنِهَا الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ إِلَى الْبَيْتِ الْحَرَامِ أَحَدُ الشُّيُوخِ
مِنَ شُرَفَاءِ الْمَدِينَةِ ، فَلَمَّا وَافَيْنَا رَابِعَ رَأَيْتُ أَمْرًا عَجَبًا مِنْ تَحُلُّلِ
الْوَحْشِ ، الْغَزَالِ وَالْأَرْنَبِ بَيْنَ الْجَمَالِ وَالرَّحَالِ ، بِحَيْثُ يَنَالُهُ النَّاسُ
بَأَيْدِيهِمْ وَالنَّاسُ يُنَادُونَ حَرَامًا ! حَرَامًا ! وَالْجَوَارِحُ قَدْ سُلْسِلَتْ
خِيفَةً تَعْدِيَّيَ جَاهِلٍ ، يَتَعَسَّفُ الْمَجَاهِلُ ، فَقَالَ لِي ذَلِكَ الشَّيْخُ الشَّرِيفُ :
تَأَمَّلْ تَرَى عَجَبًا هَكَذَا جَرَتْ عَادَتُنَا فِي هَذِهِ الطَّرِيقِ إِذَا مَرَرْنَا بِهِ
وَنَحْنُ مُحَرِّمُونَ نَجِدُ بِهِ مِنَ الْوَحْشِ مَا تَرَى إِذَا عُذْنَا مُجِلِّينَ لَمْ نَجِدْ

به شيئاً ، فلما عدنا كان كما قال قبّان لي من معنى الآية ما لم يكن عندي بالمشاهدة .

آخِرُ ما سَمِعَ منهم

لَمَّا احْتَضَرَ أَبُو مُحَمَّدٍ الْأَصِيلِي قَالَ : اللَّهُمَّ انك قد وعدت الجزاءَ على المصيبة ولا مصيبةَ عليّ أعظمُ من نفسي فأحسِنْ جزائي فيها يا أرحمَ الراحمين وكان ذلك آخرَ ما سَمِعَ منه .

ودخل أبو عبد الله المَقْرِيُّ على عبد الرحمن بن عَفَّان الجزولي وهو يَجُودُ بنفسه وكان رآه قبل ذلك مُعافىً ، فسأله عن السبب فأخبره أنه خرج الى لقاء السلطان أبي الحسن المريني فسقط عن دابته فتضعضت أركانه فقال : ما حملك أن تتكلف هذا في ارتفاع سنك فقال : أما علمت أن حبّ الرياسة آخرُ ما يخرج من قلوب العارفين .

وقال ابن الطيّب القادري : دخلتُ على محمد بن قاسم جَسُوس في مرضه الذي تُوِّفِي فيه فسمعتُه يُنشد هذه الأبيات وما فهمتُ ما يقول إلا بمشقة :

سلامٌ على أهلِ الحِمَى حيثما حلُّوا هنيئاً لهم يا حبذا ما به حلُّوا
لهم أظهرَ المولى شُموْسَ بهائِهِ فيا ليتَ خدِّي في الترابِ لهم نعلُ

مَتَى يَا عُرَيْبَ الْحَيِّ يَأْتِي بِشِيرُكُمْ فْتَبْتَهْجُ الدُّنْيَا وَيَجْتَمِعُ الشَّمْلُ
صَلُّوْنِي عَلَى مَا بِي فَإِنِّي لَوْ صَلِّكُمْ وَإِنْ لَمْ أَكُنْ أَهْلًا فَأَنْتُمْ لَهُ أَهْلُ

كَلِمٌ نَوَابِغُ

لِلكَاتِبِ مُحَمَّدِ بْنِ سُلَيْمَانَ مِنْ رِجَالِ الْأَنْبِيَاءِ

إِذَا حَصَلَتِ الْأَلْفَةُ ، سَقَطَتِ الْكُلْفَةُ . بِكَشَمِ الْأَسْرَارِ ، تُسْتَعْبَدُ
الْأَحْرَارُ . تَرَكُ التَّدْبِيرَ ، أَخْرَجَ يُوسُفَ مِنَ الْبَيْرِ . الثَّقِيلُ ، هُوَ
الْبَلَاءُ كَمَا قِيلَ . الْجَاهُ ، لَا يُفْلِحُ مَنْ رَجَاهُ . حُبُّ الْمَالِ يُطِيلُ
الْأَمَالَ ، خَوْفُ الْعِقَابِ ، يَفُكُّ الرِّقَابَ . الذُّلُّ مَمْقُوتٌ ، وَلَوْ جَلَبَ
الْيَأْقُوتُ . رَزُقَكَ مَعَكَ ، حَيْثُمَا سِرْتَ تَبْعَكَ . الْكُرُوبُ ، أَشَدُّ
مِنَ الْحُرُوبِ . مَنْ اغْتَابَكَ ، فَقَدْ أَثَابَكَ . الْعَاقِلُ يَخْتَارُ ، وَإِنْ كَانَ ذَا
إِقْتَارٍ . الْفُرْقَةُ ، هِيَ الْحُرْقَةُ . الشُّرُورُ ، تُمِيتُ الشُّرُورَ . لَا تَرْضَ
بِالسُّوَالِ ، وَلَوْ جَلَبَ اللَّالِ .

المقالات

البلاغة النبوية للقاضي عياض

... وأما فصاحة اللسان وبلاغة القول فقد كان صلى الله عليه وسلم من ذلك بالمحلّ الأفضل والموضع الذي لا يُجْهَل سلاسة طبع وبراعة منزع وإيجاز مقطع ونصاعة لفظ وجزالة قول وصحة معان وقلة تكلف أو تي جوامع الكلم وخصر ببدائع الحكم وعلم السنة العرب يُخاطب كل أمة بلسانها ويُخاورها بلغتها ويُباريها في منزع بلاغتها حتى كان كثير من أصحابه يسألونه في غير موطن عن شرح كلامه وتفسير قوله ، من تأمل حديثه وسيره علم ذلك وتحققه وليس كلامه مع قريش والأنصار وأهل الحجاز وتجدد ككلامه مع ذي المشعار الهمداني وطهفة النّهدي وقطن بن حارثة العلّيمي والأشعث بن قيس ووائل بن حجر الكندي وغيرهم من أقبال حضرموت وملوك اليمن .

وانظر كتابه الى همدان : « إن لكم فراعها^١ ووهاطها وعزازها^٢ »

١ - أي ما علامتها ضد وهاطها والضمير للأرض ٢ - أي ما اشتد منها وصلب

تَأْكُلُونَ عِلَاقَهَا^١ وترعون عَفَاءَهَا^٢ ؛ لَنَا مِنْ دِفْئِهِمْ^٣ وَصِرَامِهِمْ^٤ مَا
 سَأَلُوا بِالْمِشَاقِ وَالْأَمَانَةِ وَلَهُمْ مِنَ الصَّدَقَةِ الثَّلَبُ^٥ وَالتَّابُ^٦ وَالْفَصِيلُ^٧
 وَالْفَارِضُ^٨ وَالدَّاجِنُ^٩ وَالْكَبْشُ^{١٠} الْحَوْرِي^{١١} وَعَلَيْهِمْ فِيهَا الصَّالِغُ^{١٢}
 وَالْقَارِحُ^{١٣} « وَقَوْلُهُ لَنَهْدُ : « اللَّهُمَّ بَارِكْ لَهُمْ فِي مَحْضِهَا وَمَحْضِهَا وَمَذْقِهَا^{١٤}
 وَابْعَثْ رَاعِيَهَا فِي الدَّثَرِ^{١٥} وَافْجُرْ لَهُ الشَّمْدُ^{١٦} وَبَارِكْ لَهُمْ فِي الْمَالِ
 وَالْوَلَدِ ، مَنْ أَقَامَ الصَّلَاةَ كَانَ مُسْلِمًا وَمَنْ آتَى الزَّكَاةَ كَانَ مُحْسِنًا
 وَمَنْ شَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ كَانَ مُخْلِصًا ، لَكُمْ يَا بَنِي نَهْدٍ وَدَائِعُ
 الشَّرْكِ^{١٧} وَوَضَائِعُ الْمَلِكِ^{١٨} ، لَا تُلَطِّطُ^{١٩} فِي الزَّكَاةِ وَلَا تُلْحَدُ فِي
 الْحَيَاةِ وَلَا تَتَشَاقَلَ عَنِ الصَّلَاةِ » وَكَتَبَ لَهُمْ : « فِي الْوِظِيفَةِ الْفَرِيضَةِ^{٢٠}
 وَلَكُمْ الْفَارِضُ^{٢١} وَالْفَرِيشُ^{٢٢} وَذُو الْعِنَاقِ الرَّكْوُ^{٢٣} وَالْفُلُو^{٢٤}
 الضَّبَّيْسُ^{٢٥} لَا يُنْمَعُ سَرْحُكُمْ^{٢٦} وَلَا يُعْضَدُ طَلْحُكُمْ^{٢٧} وَلَا يُحْبَسُ

١ - جمع علف ٢ - مواتها وهو ما لا ملك لأحد عليه ٣ - أي نعمهم ٤ - أي
 نخلهم ٥ - الجمل الهرم والنباب الناقة الهرمة ٦ - ولد الناقة الصغير ٧ - البقرة الهرمة
 ٨ - ما يألف البيوت من الحيوان ٩ - الكبش الكبير الذي يتخذ للضراب والمراد أن
 ما ذكر يحسب في عدد النصاب ولا تؤخذ الزكاة منه أما لنفاسه أو لحسته وإنما تؤخذ
 من الوسط ١٠ - ما كمل من البقر والغنم السنة السادسة ١١ - هو من الخيل ما دخل في
 السنة الخامسة ١٢ - المحض اللبن الخالص والحض ما أخرج زبدته والمذق اللبن
 المخلوط بالماء ١٣ - الأبل الكثيرة ١٤ - الماء القليل ١٥ - عهوده ومواريثه ١٦ -
 ما كان يوضع على الأملاك من المغارم ١٧ - أي تمنع ١٨ - الوظيفة الزكاة والفريضة
 المسنة من النوق ١٩ - المريضة التي عرض لها آفة ٢٠ - القرية العهد بالوضع
 ٢١ - الفرس الذلول ٢٢ - المهر الصغير من الخيل ٢٣ - الصعب الركوب لعدم
 رياضته والمراد أن ذلك كله يحسب في عدد الفريضة ٢٤ أي من الرعي ٢٥ - الطلح
 شجر عظيم الشوك من العضاء وإذا لم يقطع هذا فغيره بالأحرى .

دَرَكُمْ^١ مَا لَمْ تُضْمِرُوا الرِّمَاقَ^٢ وَتَأْكُلُوا الرِّبَاقَ^٣ مَنْ أَقْرَ فَلَهُ الْوَفَاءُ
بِالْعَهْدِ وَالذِّمَّةُ وَمَنْ أَبَى فَعَلَيْهِ الرِّبْوَةُ^٤ وَمِنْ كِتَابِهِ لُؤَائِلُ بْنُ حُجْرٍ :
« إِلَى الْأَقْيَالِ الْعَبَاهِلَةُ^٥ وَالْأَرْوَاعُ^٦ الْمَشَايِبُ^٧ » وَفِيهِ « فِي التَّيْعَةِ^٨ شَاةٌ^٩
لَا مُقَوَّرَةٌ إِلَّا لِطَاطٍ^{١٠} وَلَا ضَنَّاكٍ^{١١} وَأَنْطُوا الشَّجَعَةَ^{١٢} وَفِي السُّيُوبِ^{١٣}
الْحُمْسُ وَمَنْ زَنَامِمٌ^{١٤} بِكُرٍ فَاصْقَعُوهُ مَائَةً وَاسْتَوْفِضُوهُ^{١٥} عَامًا وَمَنْ
زَنَامِمٌ ثَيِّبٌ فَضَرِّجْجُوهُ^{١٦} بِالْأَضَامِيمِ^{١٧} وَلَا تَوْصِيمٍ^{١٨} فِي الدِّينِ وَلَا
غُمَّةَ^{١٩} فِي فَرَائِضِ اللَّهِ وَكُلُّ مُسْكِرٍ حَرَامٌ وَوَائِلُ بْنُ حُجْرٍ يَتَرَقَّلُ^{٢٠}
عَلَى الْأَقْيَالِ » .

أَيْنَ هَذَا مِنْ كِتَابِهِ لِأَنْسَ فِي الصَّدَقَةِ الْمَشْهُورِ لَمَّا كَانَ كَلَامُهُ هَؤُلَاءِ
عَلَى هَذَا الْخَدِّ وَبَلَاغَتُهُمْ عَلَى هَذَا التَّمَطِّ وَأَكْثَرُ اسْتِعْمَالِهِمْ هَذِهِ الْأَلْفَافُ،
اسْتَعْمَلَهَا مَعَهُمْ لِيُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلِيُحَدِّثَ النَّاسَ بِمَا يَعْلَمُونَ،
وَكَقَوْلِهِ فِي حَدِيثِ عَطِيَّةِ السَّعْدِيِّ قَالَ : الْيَدُ الْعُلْيَا هِيَ الْمُنْطِيطَةُ وَالْيَدُ

-
- ١ - يعني الماشية ذات الدر لا تحبس لأجل المصدق الذي يأخذ الزكاة ٢ - أي
النفاق ٣ - جمع ربة أي ما لم تبطنوا الخلاف وتخلعوا الطاعة ٤ - أي الزيادة في
الوظيفة عقوبة له ٥ - أي الملوك الذين أقروا على ملكهم ٦ - جمع رائع
٧ - الزهر اللوات ٨ - أربعون من الغنم ٩ - أي مسترخية الجلد من الهزال
١٠ - كثيرة اللحم سمينة ١١ - أي الوسط ١٢ - الركاز أي الكنز ١٣ - أي من
١٤ - غربوه ١٥ - أي أدموه حتى يموت ١٦ - الحجارة ١٧ - لا عار ١٨ - لا ستره
١٩ - يتأمر ويتأس .

السُّفْلَى هِيَ الْمُنْطَاة ، قَالَ : فَكَلَّمْنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بُلْغَيْنَا . وَقَوْلُهُ فِي حَدِيثِ الْعَامِرِيِّ حِينَ سَأَلَهُ فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : سَلْ عَنْكَ أَيُّ سَلٍ عَمَّا شِئْتَ وَهِيَ لُغَةٌ بَنِي عَامِرٍ .

وَأَمَّا كَلَامُهُ الْمُعْتَادَ وَفَصَاحَتُهُ الْمَعْلُومَةُ وَجَوَامِيعُ كَلِمِهِ وَحِكْمِهِ الْمَأْثُورَةُ فَقَدْ أَتَى النَّاسُ فِيهَا الدَّوَاوِينَ وَجُمِعَتْ فِي الْفَاضِلِ وَمَعَانِيهَا الْكُتُبُ وَمِنْهَا مَا لَا يُوَازِي فَصَاحَةً وَلَا يُبَارِي بِلَاغَةً كَقَوْلِهِ : الْمُسْلِمُونَ تَتَكَافَأُ دِمَاؤُهُمْ وَيَسْعَى بِذِمَّتِهِمْ أَدْنَاهُمْ وَهُمْ يَدُّ عَلَى مَنْ سِوَاهُمْ وَقَوْلِهِ : النَّاسُ كَأَسْنَانِ الْمَشْطِ وَالْمَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ وَلَا خَيْرَ فِي ضُحْبَةٍ مَنْ لَا يَرَى لَكَ مَا تَرَى لَهُ وَالنَّاسُ مَعَادِنُ وَمَا هَلَكَ أَمْرٌ عَرَفَ قَدْرَهُ وَالْمُسْتَشَارُ مُؤْتَمَنٌ وَهُوَ بِالْخِيَارِ مَا لَمْ يَتَكَلَّمْ وَرَحِمَ اللَّهُ عَبْدًا قَالَ خَيْرًا فَغَنِمَ أَوْ سَكَتَ فَسَلَّمَ وَقَوْلُهُ : أَسْلِمَ تَسَلَّمَ وَأَسْلِمَ يُؤْتِكَ اللَّهُ أَجْرَكَ مَرَّتَيْنِ وَإِنْ أَحَبَّكُمْ إِلَيَّ وَأَقْرَبَكُمْ مِنِّي مَجَالِسَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَحَاسِنُكُمْ أَخْلَاقًا الْمُوْطِئُونَ أَكْنَفًا الَّذِينَ يَأْلِفُونَ وَيُؤْلَفُونَ وَقَوْلُهُ لَعَلَّهُ كَانَ يَتَكَلَّمُ بِمَا لَا يَغْنِيهِ وَقَوْلُهُ : ذُو الْوَجْهَيْنِ لَا يَكُونُ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا وَنَهَيْهِ عَنِ الْقِيلِ وَقَالَ وَكَثْرَةِ السُّؤَالِ وَاضَاعَةِ الْمَالِ وَمَنْعِ وَهَاتِ وَعُقُوقِ الْأَمَّهَاتِ وَوَادِرِ الْبَنَاتِ ، وَقَوْلُهُ : اتَّقِ اللَّهَ حَيْثُ

١ - هو حديث أوله أصيب رجل يوم أحد فقالت أمه هنيئًا لك الشهادة فقال : وما يدريك لعله الخ .

كُنْتُ وَأَتَّبِعَ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمَحُّهَا وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ وَخَيْرُ
 الْأُمُورِ أَوْسَاطُهَا وَقَوْلُهُ : أَحَبُّ حَبِيبِكَ هُوَ نَأَى مَا عَسَى أَنْ يَكُونَ
 بَغِيضَكَ يَوْمًا مَا وَقَوْلُهُ : الظُّلُمَ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَقَوْلُهُ فِي بَعْضِ
 دَعَائِهِ : اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِكَ تَهْدِي بَهَا قَلْبِي وَتَجْمَعُ بَهَا
 أَمْرِي وَتَلُمَّ بَهَا شَعَثِي وَتُصْلِحُ بَهَا غَائِبِي وَتَرْفَعُ بَهَا شَاهِدِي وَتُزَكِّي
 بَهَا عَمَلِي وَتُلْهِمُنِي بَهَا رُشْدِي وَتَرْدُّ بَهَا أَلْفَتِي وَتَعْصِمُنِي بَهَا مِنْ كُلِّ سُوءٍ
 اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْفَوْزَ فِي الْقَضَاءِ وَنُزُلَ الشَّهَادَةِ وَعَيْشَ السَّعَادَةِ
 وَالنَّصَرَ عَلَى الْأَعْدَاءِ .

إلى ما رَوته الكَافَّةُ عن الكَافَّةِ مِنْ مَقَامَاتِهِ وَمَحَاضِرَاتِهِ وَخُطْبِهِ
 وَأَدْعِيَّتِهِ وَمُخَاطَبَاتِهِ وَعُهُودِهِ مِمَّا لَا خِلَافَ أَنَّهُ نَزَلَ مِنْ ذَلِكَ مَرَّتَبَةً
 لَا يُقَاسُ بِهَا غَيْرُهُ وَحَازَ فِيهَا سَبْقًا لَا يُقَدَّرُ قَدْرُهُ . وَقَدْ جُمِعَتْ
 مِنْ كَلِمَاتِهِ الَّتِي لَمْ يُسَبِّقْ إِلَيْهَا وَلَا قَدَرٌ أَحَدٌ أَنْ يُفَرِّغَ فِي قَالِبِهِ عَلَيْهَا
 كَقَوْلِهِ حَمِيَّ الْوَيْطِيسِ وَمَاتَ حَتْفَ أَنْفِهِ وَلَا يُلدَغُ الْمُؤْمِنُ مِنْ جُحْرِ
 مَرَّتَيْنِ وَالسَّعِيدُ مِنْ وَعِظَ بَغَيْرِهِ فِي أَخَوَاتِهَا ، مَا يُدْرِكُ النَّازِلَ
 الْعَجَبُ فِي مُضْمَنِهَا وَيَذْهَبُ بِهِ الْفَكْرُ فِي أَدَانِي حِكْمِهَا وَقَدْ قَالَ لَهُ
 أَصْحَابُهُ مَا رَأَيْنَا الَّذِي هُوَ أَفْصَحُ مِنْكَ فَقَالَ : وَمَا يَمْنَعُنِي وَإِنَّمَا أُنْزِلَ
 الْقُرْآنُ بِلِسَانِي لِسَانِ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ . وَقَالَ مَرَّةً أُخْرَى : أَنَا أَفْصَحُ
 الْعَرَبِ بَيِّنَاتِي مِنْ قُرَيْشٍ وَنَشَأْتُ فِي بَنِي سَعْدٍ فَجُمِعَ لَهُ بِذَلِكَ
 صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قُوَّةٌ عَارِضَةُ الْبَادِيَةِ وَجَزَالَتُهَا وَنَصَاعَةُ الْفَاطِ

الحاضرة وروّناقُ كلامها الى التأييد الإلهي الذي مدّهُ الوحيُ الذي لا يُحيطُ بعلمه بشري وقالتُ أمُّ معبد في وصفها له حُلُوُ المنطق فصلٌ لا نَزْرٌ ولا هذر كأنَّ منطِقَه خرزاتٌ نُظْمَنَ وكانَ جَهِيرَ الصَّوتِ حَسَنَ النِّعْمَةِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم .

اللقابُ والنَعُوتُ

لابن الحاج الفاسي

يتعيّن على العالم أن يتحفّظ من هذه البِدعة التي عمّت بها البلوى وقلّ أن يَسلَمَ منها كبير أو صغير وهي ما اصطَلَحُوا عليه من تسميتهم بهذه الأسماء القريبة العهد بالحدوث التي لم تكن لأحد ممّن مضى بل هي مُخالفة للشرع الشريف وهي فلازُ الدين ، والعالمُ أولى من يتحفّظ على نفسه من هذه الأشياء ويذُبُّ عن السّنة في حق نفسه وفي حق غيره . . . ألا ترى أن هذه الاسماء فيها من التّزكّية ما فيها فيقعُ بسببها في المُخالفة بدليل كتاب الله وسُنّة رسوله صلى الله عليه وسلم وأقوال العلماء . أمّا الكتاب فقوله تعالى : « فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ » وقوله تعالى : « أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا » ، أنظر كيف يفترون على الله الكذب وكفى به إثماً مُبيناً » وأمّا السّنة فقولُ رسول الله صلى الله عليه

... فاذا قال مثلاً نُحْيِي الدين أو زَكِيَّ الدين فلا بُدَّ أن يُسألَ عن ذلك يومَ القيامة ويُقالَ له هذا هو الذي أَحْيَى الدِّينَ وهذا هو الذي زَكَّى الدِّينَ الى غير ذلك فكيفَ يكون حاله إذ ذاك حينَ السؤال بل حينَ أخذه صَحيفته فيجدُها مَشْحُونَةً بما تقدم ذِكرُه من التزكية ؟ وقد اختلف علماؤنا رحمةُ الله عليهم في هذه الآية « ما يَلْفِظُ من قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ » هل الملائكةُ الكرامُ يكتبون كلَّ ما يتلفَّظ به الشخصُ المكلفُ كانَ ما كان أو لا يكتبون الا ما تَضَمَّنَه الأمرُ والنَّهي وعلى هذا القول الثاني هي المسألةُ التي نحنُ بسبيلها إذ انها احتوتُ على اَشياءَ مَذْمُومَةٍ في الشرع الشريف وهي

ولو وقف أمرنا على هذا لكان قريباً لأنه اذا تقرر عندنا أن هذا كذبٌ وتزكية يُرجى لأحدنا التَّوبَةُ والاقلاعُ ولكن زدنا على ذلك الامرَ المخوفَ وهو أننا نرى أن ذلك جائزٌ أو مَندُوب اليه بحسب ما سوَّلتُ لنا انفسنا من أن الناس اذا خوطبوا بغير هذه الاسماء تشوشوا من أجل ذلك وتولدت الشَّحناءُ والبغضاءُ فوضعنا لهم التزكيةَ الخالصةَ حتى لا يتشوشوا ولا تتولد البغضاءُ ولا العداوة . لا جرمَ أن العداوة والبغضاء والشحناء قد كُنت عند بعضهم وحصل منها أو فرُ نصيب كلُّ ذلك بسبب هذه البدعة فبقيت البواطن متنافرةً مع الأذهان في الظاهر فأدَّتْ هذه البدعةُ الى الامر المخوف لأنَّ صفةَ المنافق ان يكون باطنه ومعتقدُه خلافَ ظاهره نعوذُ بالله من ذلك .

ولو كانت هذه الاسماءُ تجوزُ لما كان احداً اولى بها من أصحاب رسول الله ﷺ إذ انهم شُموسُ الهدى وأنوارُ الظلم وهم انصارُ الدين حقاً كما نطقَ به القرآنُ والخيرُ كله في الاتباعِ لهم في الاعتقاد والقول والعمل . ألا ترى الى النبي صلى الله عليه وسلم لما أن دخل بزَيْنَبَ أم المؤمنين رضي الله عنها قال لها ما اسمك قالت بَرَّةُ ، فكَرِهَ ذلك الاسمَ وقال لا تُزَكُّوا أنفسكم لما فيه من اشتقاق اسم البرِّ ومعلومٌ بالضرورة انها ما اخْتيرَتْ لِسَيِّدِ الاولين والآخرين ألا وهي من البرِّ بحيث المنتهى لكنَّه عليه الصلاة والسلام كَرِهَ ذلك الاسمَ وان كان حقيقةً لما فيه من التزكية فجَدَّدَ اسمها زينب وكذلك فعله عليه الصلاة والسلام مع جُوَيْرِيَةَ أم

المؤمنين (وكان اسمها بَرَّةً أيضاً) فاذا كره ذلك في حق مَنْ فيه ذلك . حقيقةً ونهى عنه بقوله لا تُزَكُّوا أنفسكم فما بالكم باحوالنا اليوم ؟ ومن هذا الباب ايضاً ما خرَّجه ابو داود في سُنده عن شَرِيح عن ابيه هَبَانِيء رضي الله عنه انه لما وفد على رسول الله ﷺ مع قومه سمعهم يُكثِّونَه بأبي الحكم فدعاه رسول صلى الله عليه وسلم فقال ان الله هو الحكم واليه الحكم فلم تُكِنِّي ابا الحكم فقال ان قومي اذا اختلفوا في شيء أتوني فحكمتُ بينهم فرَضِي كلاً الفريقين بحُكمي فقال رسول الله ﷺ ما احسنَ هذا فما لكِ مِنَ الولد فقال لي شَرِيح ومُسلم وعبدُ الله قال فمن اكبرُهم قال شَرِيح قال فانت ابو شَرِيح .

فان قال قائل انما هذه الاسماء مجازٌ لا عِبَرَةٌ بها وقد صارت ايضاً كاسماءِ الأعلام حتى لا يُعرَف احدٌ الا بها فقد خرَّجتُ عن باب التزكية الى باب اسماءِ الاعلام كالعبَّاس وعلي . فالجوابُ ان هذا يرُدُّه ما نُشاهدُه في الوجود مُباشرةً وهو ان الواحدَ منّا اذا قيلَ له اسمه العلمي الشرعي كالعبَّاس وعلي تشوَّش من ذلك على مَنْ ناداه به ووَجِدَ عليه الخنقَ لكونه تركَ ذلك الاسم وعدلَ عنه الى غيره فهذا يُوضِّح ويُبيِّن أن التزكية باقيةٌ مقصودةٌ في هذه الاسماء وانها لم تَبْرَح ولم تَخْرُج عن موضعها الذي وُضعت له . مع انه لو لم يكن فيها لا كذبٌ ولا تزكيةٌ لكان منهيّاً عنها لان النبي صلى الله عليه وسلم نهى عن التشبُّه بالاعاجم وهذه الأسماء ما ظهرت الا من قبلهم . وقد رأيتُ لبعض الشيوخ ممن

يُقْتَدَى بِهِمْ فِي الْعِلْمِ وَالْفَتْوَى وَالِدِينَ يَقُولُ إِنَّهُ إِدْرِكُ أَبَاهُ وَمَنْ كَانَ فِي سُنَّةِ
لَا يَتَسَمَّوْنَ بِهَذِهِ الْأَسْمَاءِ وَلَا يَعْرِفُونَهَا وَكَانَ سَبُّهَا أَنَّ التُّرْكَ لَمَّا تَغَلَّبُوا عَلَى
الْخِلَافَةِ تَسَمَّوْا أَذْكَ هَذَا شَمْسُ الدَّوْلَةِ وَهَذَا نَاصِرُ الدَّوْلَةِ وَهَذَا نَجْمُ
الدَّوْلَةِ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ فَتَشَوَّفَتْ نَفُوسُ بَعْضِ الْعَوَامِ مِمَّنْ لَيْسَ لَهُ عِلْمٌ إِلَى تِلْكَ
الْأَسْمَاءِ لَمَّا فِيهَا مِنَ التَّعْظِيمِ وَالْفَخْرِ فَلَمْ يَجِدُوا سَبِيلًا إِلَيْهَا لِأَجْلِ عَدَمِ دُخُولِهِمْ
فِي الدَّوْلَةِ فَرَجَعُوا إِلَى أَمْرِ الدِّينِ فَكَانُوا فِي أَوَّلِ مَا حَدَّثَتْ عَنْهُمْ هَذِهِ
الْأَسْمَاءُ إِذَا وَلَدَ لِأَحَدِهِمْ مَوْلُودًا لَا يَقْدِرُ أَنْ يُكْنِيَهُ فَلَانِ الدِّينِ إِلَّا بِأَمْرِ
يُخْرِجُ مِنْ جِهَةِ السُّلْطَانِ فَكَانُوا يُعْطُونَ عَلَى ذَلِكَ الْأَمْوَانَ حَتَّى يُسَمَّى
وَلَدُ أَحَدِهِمْ بِفُلَانِ الدِّينِ فَلَمَّا إِنْ طَالَ الْمَدَى وَصَارَ الْأَمْرُ إِلَى التُّرْكِ فَلَمْ
يَبْقَ لَهُمْ بِالتَّسْمِيَةِ بِالدَّوْلَةِ مَعْنَى إِذْ أَنَّهَا قَدْ حَصَلَتْ لَهُمْ فَانْتَقَلُوا إِلَى الدِّينِ ثُمَّ
فَشَا الْأَمْرُ وَزَادَ حَتَّى رَجَعُوا يُسَمُّونَ أَوْلَادَهُمْ بِغَيْرِ مَالٍ يُعْطَوْنَهُ عَلَى ذَلِكَ
ثُمَّ انْتَقَلَ إِلَيْهِ بَعْضُ مَنْ لَا عِلْمَ عِنْدَهُ وَلَا عَمَلٍ ثُمَّ صَارَ الْأَمْرُ مُتَعَارِفًا
مُتَعَاهِدًا حَتَّى أُنْسَ بِهِ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ فَتَوَاطَعُوا عَلَيْهِ فَأَنَّا لِلَّهِ وَأَنَا إِلَيْهِ
رَاجِعُونَ . كَانَ النَّاسُ يَقْتَدُونَ بِالْعَالَمِ وَيَهْتَدُونَ بِهَدْيِهِ فَصَارَ الْأَمْرُ إِلَى
أَنْ يُحْدِثَ الْإِعَاجِمُ وَمَنْ لَا عِلْمَ عِنْدَهُ شَيْئًا فَيَقْتَدِي الْعَالِمُ بِهِمْ فَلَا حَوْلَ
وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ عَلَى عَكْسِ الْأُمُورِ وَانْقِلَابِ الْحَقَائِقِ . وَلَمْ يَرْضَ الْإِمَامُ
الْحَافِظُ النَّوَوِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ مِنَ الْمَتَأَخِّرِينَ بِهَذَا الْأِسْمِ قَطُّ وَكَانَ يَكْرَهُهُ
كَرَاهَةً شَدِيدَةً عَلَى نُقْلٍ عَنْهُ وَصَحَّ وَقَدْ وَقَعَ فِي بَعْضِ الْكُتُبِ الْمُنْسُوبَةِ
إِلَيْهِ رَحِمَهُ اللَّهُ أَنَّهُ قَالَ إِنِّي لَا أَجْعَلُ أَحَدًا فِي حِلٍّ مِمَّنْ يَسْمِينِي بِمُخْنِي

الدِّينَ وكذلك غَيْرُهُ من العلماء العاملين بعلمهم . وقد رأيتُ بعضَ الفضلاء من الشافعية من أهل الخير والصلاح اذا حكى شيئاً عن النَّوَوِي رحمه الله يقول قال يَحْيَى النَّوَوِي فسألتُه عن ذلك فقال إنا نَكْرَهُ أن نُسميه باسم كان يَكْرَهُه . فعلى هذا فهذه الاسماء انما وُضِعَتْ عليهم تَفْعُلاً وهم بُرءاءُ من ذلك .

النارجيل

لابن بطوطَة

وهو جَوْزُ الهند وهذا الشَّجَرُ من اغْرَب الاشجار شأناً واعجَبَها امراً وشجرُهُ شَبهُ شجر النخل لا فرق بينهما الا ان هذه تُسَمَّى جَوْزاً وتلك تسمى تَمراً وجَوْزُها يُشَبِّه رَأْسَ ابنِ آدَمَ لان فيه شَبهَ العينين والفم وداخلُها شَبهُ الدِّماغِ اذا كانت خضراء وعليها لَيْفٌ شَبهُ الشَّعْرِ وهم يصنَعُونَ منه حَبالاً يَخِيطُونَ بها المَرَاكِبَ عَوْضاً من مَسَامِيرِ الحَدِيدِ ويصنعون منه الحبال للمَرَاكِبِ والجَوْزَةُ منها وخصوصاً التي بجزائر ذِيبة المَهْل ، تكون بمقدار رَأْسِ الآدَمِي ويزْعَمُونَ ان حَكِيماً من حكماء الهند في غابر الزمان كان مُتَّصلاً بملك من الملوك ومُعَظِّماً لديه وكان للملك وزير بينه وبين هذا الحَكِيمِ مُعَادَاة فقال الحَكِيمُ للملك ان رَأْسَ هذا الوزير اذا قُطِعَ ودُفِنَ تَخْرُجَ منه نَخْلَةٌ تُسَمَّى بِشَمر عَظِيمٍ يعودُ نفعه

على أهل الهند وسواهم من أهل الدنيا فقال له الملك فان لم يظهر من رأس الوزير ما ذكرته قال ان لم يظهر فاصنع برأسي كما صنعت برأسه ، فأمر الملك برأس الوزير فقطع واخذه الحكيم وغرس نواة تمر في دماغه وعالجها حتى صارت شجرة واثمرت بهذا الجوز وهذه الحكاية من الاكاذيب ولكن ذكرناها لشهرتها عندهم .

ومن خواص هذا الجوز تقوية البدن واسراع السمن والزيادة في حمرة الوجه واما الاعانة على الباءة ففعله فيها عجيب ، ومن عجائبه انه يكون في ابتداء امره اخضر فمن قطع بالسكين قطعة من قشره وفتح رأس الجوزة شرب منها ماء في النهاية من الحلاوة والبرودة ومزاجه حار معين على الباءة فاذا شرب ذلك الماء اخذ قطعة القشرة وجعلها شبه الملعقة وجرد بها ما في داخل الجوزة من الطعم فيكون طعمه كطعم الجوزة اذا شويت ولم يتم نضجها كل التام ويتغذى به ومنه كان غذائي في ايام اقامتي بجزائر ذيبة المهل مدة من عام ونصف عام ومن عجائبه انه يصنع منه الزيت والحليب والعسل .

فاما كيفية صناعة العسل منه ويسمون فإن خدّام النخل منه الفازانية يصعدون الى النخلة غدوا وعشيا اذا ارادوا اخذ ماؤها الذي يصنعون منه العسل وهم يسمونه الأطواق فيقطعون العذق الذي يخرج منه الثمر ويتركون منه مقدار اصبعين ويربطون عليه قدراً صغيرة فيقطر فيها الماء الذي يسيل من

العِدْقُ فاذا رَبطَها غُدْوَةً صعد اليها عَشِيَّةً ومعه قَدَحَانِ من قَشْرِ الْجَوْزِ المذكورِ احدهما مملوءٌ ماءً فيصبُّ ما اجتمع من ماء العِدْقِ في احدِ القَدَحَيْنِ ويغسلُ به الماءَ الذي في القَدَحِ الآخرِ وينجُرُّ من العِدْقِ قليلاً ويربطُ عليه القَدْرَ ثَانِيَةً ، ثم يفعل غُدْوَةً كفعله عَشِيَّةً فاذا اجتمع له الكثير من ذلك الماءِ طَبَخَهُ كما يُطَبَخُ ماءُ العَنَبِ اذا صُنِعَ منه الرُّبُّ فيصير عَسلاً عظيماً النفع طَبِيباً فَيَشْتَرِيهِ تُجَّارُ الهِنْدِ وَالْيَمَنِ وَالصِّينِ ويَحْمِلُونَهُ الى بلادهم ويصنعون منه الحلواءَ .

وأما كَيْفِيَّةُ صُنْعِ الحَلِيبِ منه فان بكل دَارٍ شِبْهَ الكُرْسِيِّ تَجْلِسُ فوقه المرأةُ ويكون بيدها عَصَى في أحدِ طَرَفَيْهَا حَدِيدَةٌ مُشْرِقَةٌ فيفتَحُونَ في الجَوْزَةِ مِقْدَارَ ما تَدْخُلُ تلكَ الحديدَةُ وَيَجْرُشُونَ ما في باطنِ الجَوْزَةِ ، وكلُّ ما ينزل منها يَجْتَمِعُ في صَحْفَةٍ حتَّى لا يَبْقَى في داخلِ الجَوْزَةِ شيءٌ ثم يُمَرَسُ ذلكُ الجَرِيشُ بالماءِ فيَصِيرُ كَلَوْنِ الحَلِيبِ بِياضاً ويكون طَعْمُهُ كطَعْمِ الحَلِيبِ وَيَأْتَدِمُ به الناسُ .

وأما كَيْفِيَّةُ صُنْعِ الزَّيْتِ فإنهم يأخذون الجَوْزَ بعد نُضِجِهِ وَسُقُوطِهِ عن شَجَرِهِ فيزِيلُون قَشْرَهُ ويقطعونهُ قطعاً ويُجَعَلُ في الشمسِ فاذا ذَبَلَ طَبَخُوهُ في القُدُورِ واستخرجوا زَيْتَهُ وبه يستصيحون وَيَأْتَدِمُونَ به ويجعله النساءُ في شَعُورِهِنَّ وهو عظيمُ النفعِ .

أُصُولُ الطَّرِيقِ للشيخ زُرُوق

أُصُولُ طَرِيقَتِنَا الَّتِي تَنْبَنِي عَلَيْهَا عَشْرَةُ أَشْيَاءَ : خَمْسَةٌ ظَاهِرَةٌ وَخَمْسَةٌ بَاطِنَةٌ . أَمَّا الْخَمْسَةُ الظَّاهِرَةُ فَأَوَّلُهَا مُلَازِمَةُ السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ لِأَمْرَاءِ الْمُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ وَخَاصَّتِهِمْ مِنْ أَهْلِ اللَّهِ ، فَلَا يُخَالِفُ عَلَيْهِمْ بِقَوْلٍ وَلَا بِفِعْلٍ بَلْ إِيمَانٌ وَتَسْلِيمٌ ، الثَّانِي لَزُومُ الْخُمْسِ فِي الْجَمَاعَةِ بِحَسَبِ الْإِمْكَانِ فَإِنْ كَانَ فِي الْجَامِعِ الْأَعْظَمِ فَهُوَ أَوَّلَى وَتَكْفِي الْمَرْأَةَ وَالصَّبِيَّ وَأَيُّ مَنْ كَانَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فِي تَحْصِيلِ فَضْلِهَا ، الثَّالِثُ الْقَنَاعَةُ بِقَلِيلِ الرِّزْقِ وَكَثِيرِهِ بِأَيِّ وَجْهِ تَحَصَّلَ مِنَ الْوُجُوهِ الْمُبَاحَةِ ، الرَّابِعُ إِقَامَةُ الْأَوْرَادِ الشَّرْعِيَّةِ بِحَسَبِ مَا يَكُونُ صَالِحًا بِالْإِنْسَانِ فِي دِينِهِ وَدُنْيَاهُ وَذَلِكَ يَخْتَلِفُ بِاخْتِلَافِ النَّاسِ ، الْخَامِسُ إِشَارَةُ الْخُمُولِ بِتَرْكِ الْفُضُولِ وَعَدَمِ الْمُنَازَعَةِ وَالْعِنَادِ فِي كُلِّ قَوْلٍ وَفِعْلٍ وَفِي ذَلِكَ يَقُولُ الْقَائِلُ :

وَقَائِلَةٌ مَالِي أَرَاكَ مُجَانِبًا أُمُورًا وَفِيهَا لِلتَّجَارَةِ مَرْبَحُ
فَقُلْتُ لَهَا مَالِي بِرَبِّكَ حَاجَةٌ فَتَحَنُّ أَنْاسُ بِالسَّلَامَةِ نَفْرَحُ

وَأَمَّا الْخَمْسَةُ الْبَاطِنِيَّةُ فَأَوَّلُهَا الْإِعْرَاضُ عَمَّا يُرَجَى أَوْ يُخْشَى مِنْ قَبْلِ الْخَلْقِ بَأَن لَا يُرَجَى مِنْهُمْ لَا دَفْعٌ وَلَا جَلْبُ وَلَا يُتَوَجَّهُ إِلَيْهِمْ . الثَّانِي الْإِعْرَاضُ عَنِ الْمَالِ بَأَن لَا تَطْلُبُ رَأْيَكَ ،

قلت أو جلت إلا منه . الثالث إقامة رَسْمِ الشريعة بلزوم الأسباب من غير استناد ولا اعتماد ، بل كما قال ابن عطاء الله : لا بُدَّ من الأسباب وُجوداً والغَيْبة عنها شُهوداً فأثبتها من حيث أثبتها الحق بحكمته ولا تَسْتَنِدُ إليها لِعِلْمِكَ بِأَحَدِيَّتِهِ . الرابع الخروج من الكُلْف بأن تُكَلِّفَ ولا تُتَكَلَّفَ وإن جرى لك شيء من ذلك فلا تُعْذَلْ ودَعِ الخَلْقَ وما دُفِعُوا إليه فمُرَادُ الحق ما هم عليه . الخامس أن لا تعمل عملاً إلا بقصدٍ ونيةٍ فكلُّ عملٍ لا تصحُّبك فيه نيةٌ ولا قصدٌ صَاحِبٌ فلا تقرَّبه فإنه لا فائدة فيه .

وبعد هذه الخمس خمسٌ لا بدَّ لك منها ، مُجَامَلَةُ الخلق ، ومُحَاسَنَتُهُمْ في الأمور والحذرُ منهم في عينِ حُسنِ الظنِّ بهم ، ومُوَافَقَتُهُمْ في كلِّ أمرٍ لا يُخَالِفُ الشرعَ ولا يضرُّ بالدنيا ولا يُنْقِصُ العقلَ ، وإِتِّبَاعُ العِلْمِ في كلِّ ورْدٍ وَصَدَرٍ ، فقد قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم : العِلْمُ إِمَامُ العَمَلِ والعَمَلُ تَابِعُهُ . وقال صلى الله عليه وسلم : لِمَن اسْتَوَصَاهُ اتَّقَى اللَّهَ حَيْثُ كُنْتَ وَأَتْبَعَ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمَحُّهَا وَخَالَقَ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ فَمِنْ ثَمِّ قَالَ الشيوخ : الانسَانُ مُبْتَلَى بِنَفْسِهِ وَالْوُقُوعُ فِي الْمَعْصِيَةِ لَا يَقْضِي بَعْدَ الْاسْتِدْرَاكِ ، فالواجبُ على المرِيدِ أَنْ لَا يَعْزِمَ عَلَى مَحْذُورٍ وَلَا يُفْرِطَ فِي مَأْمُورٍ فَإِنْ وَقَعَ فَلْيُبَادِرِ الْمَعْصِيَةَ بِالتَّوْبَةِ وَالنَّقِيصَةَ بِالْإِنَابَةِ . والفرقُ بين الْمَعْصِيَةِ وَالنَّقِيصَةِ أَنَّ الْمَعْصِيَةَ مَا فِيهِ إِثْمٌ كَالزَّنى وَالنَّقِيصَةُ مَا فِيهِ عَيْبٌ كَالطَّمَعِ .

وقد قال الشيخ أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه : إَجْعَلِ التَّقْوَى
وَطَنَكَ ، ثم لا يضرُّكَ فَرَحُ النَّفْسِ ما لم تَرْضَ بِالْغَيْبِ أو تُتَصَرَّ عَلَى
الذَّنْبِ أو تَسْقُطَ مِنْكَ الْحَشِيَّةُ بِالْغَيْبِ اهـ. وهو مَدَارُ الْأَمْرِ وَجُمْلَتُهُ
وبالله التوفيق .

التَّارِيخُ وَالْأَلْفَاظُ الْمُسْتَعْمَلَةُ فِيهِ لأَحْمَدَ بْنَ عَمْرٍو

اعلم أن الأدباء والكتّاب اختلفوا في التاريخ هل يكون بما مضى
من الشهر أو بما بقي منه أو بهما . فمنهم من يُورِّخ بما مضى كأن
أقلَّ مما بقي أو أكثر أو مُساوياً فيقول لِثَلَاثِ خَلَوْنَ وَلِعَشْرَ خَلَوْنَ
ولا يُورِّخ بما بقي لأنه مجهول لأن الشهر يكون من ثلاثين ومن تسعة
وعشرين كما جاء في الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم وهذا
القول ارتضاه الأكثرون لأنه أسلم من الكذب . . . ومنهم من يُورِّخ
بالأقل سواء كان ماضياً أو باقياً قصداً لاختصار اللفظ وتقريبه فيقول
لثلاثِ بقينَ ولا يقول لسبعِ وعشرين خلتْ ويقول لثلاثِ خلتْ ولا
يقول لسبعِ وعشرين بقيت . ثم اختلف القائلون بهذا إذا استوى
الماضي والباقي فمنهم من يُجَوِّز التاريخ بالماضي وبالباقي أيهما شاء ،

ومنهم من يؤرخ بالماضي فقط ، وبعض المتأخرين أجاز التحرُّز في التاريخ بالباقي فيقول لثلاث بَقِين ؛ إِنَّ بَقِين . والتاريخ بالليالي دون الأيام ، بهذا استمر العمل قديماً حفظاً على الليلة السابقة وإشعاراً بأن الشهر قَمَرِيّ تسبقُ الليلةُ نهارَها في دخوله وجرياً على مَهْتَع العرب في تغليب المؤنث على المذكر في التاريخ .

قال الرُّعَيْنِي عَدِلْ أَهْلُ الْعَصْرِ وَمَنْ قَبْلَهُمْ قَرِيباً إِلَى التَّارِيخِ بِالْأَيَّامِ فَيَكْتُبُونَ فِي الْأَوَّلِ مِنْ كَذَا وَفِي الثَّانِي ثُمَّ يُتْبِعُونَ الْأَيَّامَ يَوْماً بَعْدَ يَوْمٍ إِلَى آخِرِ الشَّهْرِ وَسَقَطَ بِذَلِكَ تَكْلُفُ خَلَّتْ وَخَلَوْنَ وَبَقِيَّتْ وَبَقِين ، وَأَكْثَرُ الْعَمَلِ الْآنَ عَلَيْهِ وَهُوَ أَقْبَلُ مِنَ الْأَوَّلِ ، وَلَيْسَ فِيهِ مَا زَعَمُوا مِنْ إِغْفَالِ اللَّيْلَةِ فَإِنَّ اللَّيْلَةَ وَإِنْ دَلَّتْ عَلَى يَوْمِهَا فَالْيَوْمُ أَقْوَى دَلَالَةً عَلَيْهَا لِتَقَدُّمِهَا عَلَيْهِ قَالَ وَتَحَدُّ الْمَذْكُورُ إِنْ أُرِخَتْ بِالْأَيَّامِ عَلَى الْأَصْلِ مِنْ ثُبُوتِ التَّاءِ فِي الْأَوَّلِ وَتُسْقِطُهَا مِنَ الثَّانِي عَكْسَ الْمُؤَنَّثِ وَلَمْ تَثْبُتِ التَّاءُ فِي الثَّانِي مِنَ الْمَذْكُورِ وَإِنْ كَانَ ذَلِكَ الْأَصْلَ قَبْلَ التَّرْكِيبِ لِمَا تَجْمَعُ بَيْنَ عَلَامَتَيْ تَأْنِيثٍ فِي كَلِمَةٍ ؛ فَإِنَّ الْأَسْمِينَ قَدْ صُيِّرَ اسْمَاً وَاحِداً مِنْ أَحَدِ عَشَرَ إِلَى تِسْعَةِ عَشَرَ .

واعلم أنه ليس شيء من أسماء الشهور يُضاف إليه شهرٌ إلا ثلاثةُ رَمَضَانَ وَرَبِيعَانَ قِيلَ لَأَنَّهَا كُلُّهَا أَعْلَامٌ لِلشُّهُورِ الْمَوْضُوعَةِ عَلَيْهَا أَوْ صِفَاتٌ قَامَتْ مَقَامَ الْأَعْلَامِ إِلَّا الرَّبِيعَيْنِ وَرَمَضَانَ فَإِنَّهَا بَاقِيَةٌ عَلَى الصِّفَةِ الْمُحْضَةِ .

ويقال مُحَرَّم والمُحَرَّم وذو قَعِيدَة وذو القَعِيدَة وذو حِجَة وذو الحِجَة وما سواها من الشهور لا يقال بالآلف واللام لأنها أعلامٌ وتلك يُلحَ فيها الوصف الاصلي .

والشهور كلها مُذَكَّرَة إلا جُمَادَى تقول جُمَادَى الأولى وَجُمَادَى الثانية ويقال جُمَادَى الآخِرَة بِمدِّ الهمزة والأَخِيرَة بقصر الهمزة وياه بعد الحاء ولا يُقال الآخِرَى فإن الآخِرَى تَأْنِيثُ الآخر بفتح الحاء وكذلك الايام تُذَكَّرُ كُلُّهَا إلا الجمعة .

وقال في المنهَج : الألفاظ التي تُستعمل في أول الشهر : مُفْتَتَحٌ ومُهْلٌ وَغُرَّةٌ وَصَدْرٌ وَعُقْبٌ بضم العين وسكون القاف أو ضمهما فيقال وذلك في مُفْتَتَحٍ كذا وفي مُهْلٍ وَغُرَّةٍ وَصَدْرٍ وَعُقْبٍ ، فأما المُفْتَتَحُ فيقال في أول يوم منه خاصة ، وأما الغُرَّةُ فيقال في اليوم الاول والثاني والثالث ، لا خلاف في ذلك ، وأما المهل ففيه خلاف منهم من يجعله كالمُفْتَتَحِ ومنهم من يجعله كالغُرَّةِ ، وأبو علي الفارسي منع أن يقال في أول يوم من الشهر مُسْتَهْلٌ لأن الاستهلال قد انقضى ونصَّ على أن يؤرخ بأول الشهر أو بغُرَّتِهِ أو بليلة خلت منه ، وأما العُقْبُ بالضم فقال بعض النحويين يقع على ما تقع عليه الغُرَّةُ ، ومنهم من قال : يقال جئت في عُقْبِ الشهر اذا جئتَ بعد ما مضى ولم يَحْدَ هذه البَعْدِيَّة بيوم ولا بيومين ولا بثلاثة ، وأما الصدرُ فقيل الذي

يظهر من كلام بعض النحاة واللغويين أنه كالغرة وقيل من أوله الى ثلثه وقيل الثلثان والنصف وكلا القولين مستقرأً من المدونة .

وأما الالفاظ التي تستعمل في وسط الشهر فهي وسط ومنتصف وسواء فيقال : وذلك في وسط شهر كذا وفي منتصفه وسوائه ، وهذه الالفاظ ظاهرة في النصف لا غير ويصح في لفظ الوسط أن يكون للعشر الأوسط لأنها وسط باعتبار أن قبلها عشراً وبعدها عشراً .

وأما الالفاظ التي تستعمل آخر الشهر فهي عقب بفتح العين وكسر القاف أو سكونها ومنسلخ ومنسلخ فيقال وذلك في عقب شهر كذا ومنسلخ شهر كذا ومنسلخه فالعقب للثلاثة الأخيرة منه والمنسلخ والمنسلخ لليوم الاخير منه والصواب أن لا يؤرخ بالعقب لا في أول الشهر ولا في آخره لثلا يصحف أحدهما بالآخر فيقع اللبس .

قال الرعيني وتكتب في العشرة الأولى حملاً على المعنى والأول حملاً على اللفظ ، والوسطى والوسط والآخرة والأواخر ولا تقل الأخرى لثلا يلتبس بالتواني وتمتنع الأوائل والأواسط والأخر لما فيه من وصف المؤنث بالمذكر .

التوشيحُ والوشاحُون للإفرائي

التوشيح لغة مأخوذٌ من الوشاح قال في الانوار والوشاحُ خِرْزٌ تنظمُ بجواهرَ وأحجارَ نفيسةَ نَظْمَيْنِ مختلفين تتقلدُ بهما المرأةُ يلتقيان عند صدرها وبين كتفَيْها كَحَمَلِ السيف ومنه التَّوشيح الذي في الحديث وهو أن يُخَالِفَ الرجلُ بين طَرَفِي الثوبِ آخِذاً لهما من تحتِ إبطَيْه عاقِداً لهما على رَقَبَتِهِ اهـ . ومن هذا التوشيحُ عند أهل البديع ومُخْتَرَعُهُ قُدَامَةُ وهو أن يَكُونُ أولُ الكلامِ دالًّا على لفظٍ ولهذا سَمَّوه توشيحاً فإنه يَتَنَزَّلُ المعنى فيه بمنزلةِ الوشاح ويتنزلُ أولُ الكلامِ وآخِرُهُ منزلةَ العاتق والكشع اللذين يجول عليهما الوشاح .

ومن غريب التوشيح البديعي ما ذَكَرَ أن عَدِيَّ بنَ الرَّقَّاعِ أشدُّ الوليدَ بن عبد الملك بحضرة جرير والفرزدق قصيدته التي أولها :
عَرَفَ الدِّيَارَ تَوْهُمًا فاعْتَادَهَا ، حتى انتهى لقوله : تُزْجِي أَغْنً
كَأَنَّ إبْرَةَ رَوْقِهِ ، ثم شَغِلَ الوليدُ عن الاستماع فقطع عَدِيَّ الانشاد فقال الفرزدق إنه سيقول :

قَلَمَ أَصَابَ مِنَ الدَّوَاةِ مِدَادَهَا ، فَلَمَّا عَادَ الْوَلِيدُ لِلِاسْتِمَاعِ وَعَادَ

للانشاد قال : قلمُ أَصابَ من الدَّواةِ مِدادَها ، فقال الفرزدقُ : واللهِ
لما سمعتُ صدرَ بيتِه رَحِمَتْهُ فلما أنشأ عُجزَه انقلبت الرحمة حسداً
وقال الشريف الغرناطي (أبو القاسم الشريف) في شرح المقصورة لما
أنشد أبيات ابن الزقاق ومنها :

على عاتقي من ساعدٍها حمائلُ وفي خصرِها من ساعدَيَّ وشاحُ
استعمل ابنُ الزقاق الوِشاحَ في معنى النِّطاق وهو ما تُديرُه
المرأةُ على خصرِها والوشاحُ ما تتقلَّدهُ على عاتقِها فيكونُ منها في
مَوْضِعِ حمائلِ السيف من الرُّجل . وقد خُطِّيَ أبو تمام في قوله :
من الهيف لو أن الخلاخلَ صوّرت
لها وشحاً جالت عليه الخلاخلُ

لأنه استعمل الوِشاحَ في الحَقاب ، وإنما وصَفُوا الوِشاحَ بالقلَق
والحرَكَة لأن ذلك يدل على رِقَّة الخَصَرِ وُضُمُورِ البَطن ، وُسْمِي
التوشيحُ توشيحاً أُخذاً من وَشَحَ بمعنى زَيَّنَ ، قال الثعالبي على
قول الحلي :

ما روضةٌ وشَحَ الوَسْمِيُّ بُرَدَتِها ، ما نصه وشَحَ هو من التوشيح
وهو التزيين يقال : وشَّحتُ الشيء إذا زينتَه ومنه الوشاح اهـ .

وأما التوشيحُ عُرفاً فقال ابنُ خلدون ان أهل الأندلس لما كثر

الشعر في قُطْرهم وتهذَّبَت مَنَاحِيه وفُنُونُه وبلغ التَّنْمِيقُ فيه الغاية
استحدث المتأخرون منهم فذاً سَمَّوه بِالْمَوْشَحِ يَنْظِمُونَه اسماً اسماً
وأغصاناً أغصاناً يُكثِرُونَ منها ومن أَعَارِيضِهَا المختلفة ويسمُّون
المتعدِّد منها بيتاً واحداً ويلتزمون غَدَد قَوَافِي تلك الأغصان وأوزانها
مُتتالياً فيما بعدُ الى آخرِ القِطْعَةِ وأكثرُ ما ينتهي عندهم الى سبعة
أبيات ويشتمل كلُّ بيت على أغصان عددها بحسب الأغراض والمذاهب
وينسبُون فيها ويمدُّحون كما يُفَعِّلُ في القصائداه . ولم يلتزموا في أوزانه
بجراً من البحور الخمسة عشر بل صَنَعُوا على كلِّ بحرٍ منها ورَبَّما
استعملوه في الألحان المُولَّدة والطُّبُوع المَخْتَرَعَة والنَّغَمَات المستحدثة
الخارجة عن أوزان العرب رأساً وهذا الاستعمال أغلبُ عليهم ، ثم
قال ابن خلدون :

وأولُّ من اخترع التواشيح بجزيرة الأندلس مُقَدِّمُ بنُ مُعَاوِيَةَ
القبري من شعراء الأمير عبد الله بن محمد المرواني وأخذ عنه ذلك
أبو عبد الله أحمد بن عبد ربه صاحبُ كِتَابِ العِقد ولم يظهر لهما مع
المتأخرين ذكر وكسدت مَوْشَحَاتُهَا ، فكان أول من برع في هذا
الشأن بعدهما عِبَادَةُ الْقَزَّاز شاعرُ الْمُعْتَصِمِ بنِ صَمَّادِجِ صَاحِبِ المِرْيَةِ
وقد ذكر الأَعْلَمُ البَطْلِيُّونسي أنه سَمِعَ أبا بكر بن زهر يقول
الوَّشَّاحون كلُّهم عِيَالٌ على عِبَادَةِ فَمَا اتَّفَقَ لَهُ من قوله :

بَدُرَ تَمَّ شَمْسُ ضَحَى غَضُنْ نَقَا مِسْكَ شَمَّ
 مَا أَتَمَّ مَا أَوْضَحَا مَا أَوْزَقَا مَا أَنْمَّ
 لَا جَرَمُ مَنْ لَمَحَا قَدْ عَشِقَا قَدْ حَرِمُ

وزعموا أنه لم يسبقُ عبادةَ وشاحٍ من مُعاصِريه الذين كانوا
 زَمَنَ الطَّوائِفِ وجاءَ مِنْ بَعْدِهِ جَمَاعَةٌ مِنْهُمْ ابْنُ أَرْفَعَةَ رَأْسُهُ شَاعِرُ
 الْمَأْمُونِ بْنِ ذِي الثُّونِ صَاحِبُ طَلِيظِلَةٍ قَالُوا وَقَدْ أَحْسَنَ فِي ابْتِدَاءِ
 مُوشَّحَتِهِ الَّتِي طَارَتْ لَهُ حَيْثُ يَقُولُ :

الْعُودُ قَدْ تَرَنَّمُ بِأَبْدَعِ تَلْحِينِ وَشَقَّتِ الْمَذَانِبُ رِياضَ الْيَاسَمِينِ
 وَفِي اثْنَائِهَا يَقُولُ :

تَخْطُرُ وَلَمْ تُسَلِّمْ ، عَسَاكَ الْمَأْمُونُ
 مُرَوِّعُ الْكِتَابِ ، يَحْيَى بْنُ ذِي الثُّونِ
 ثُمَّ جَاءَتِ الْحَلْبَةُ الَّتِي كَانَتْ فِي أَيَّامِ الْمُلَثَّمِينَ فَظَهَرَتْ لَهُمُ الْبِدَائِعُ
 فَمِنْ فُرْسَانَ حَلَبَتِهِمُ الْأَعْمَى التُّطِيلِي وَيَحْيَى بْنُ بَقِي ، وَمِنْ مُوشَّحَاتِ
 الْأَعْمَى :

كَيْفَ السَّبِيلُ إِلَى صَبْرِي وَفِي الْمَعَالِمِ ، أَشْجَانُ
 وَالرَّكْبُ وَسَطَ الْفَلَاحِ بِالْخُرْدِ النَّوَاعِمِ ، قَدْ بَانُوا

وذكر غير واحد من المشايخ أن أهل هذا الشأن بالاندلس
يذكرون أن جماعة من الوشاحين اجتمعوا في مجلس من اشبيلية وكان
كل واحد منهم قد صنع موشحة وتأنق فيها فتقدم الاعمى التطيلي
فلما افتتح موشحته المشهورة بقوله :

ضاحكٌ عن جمان ، سافرٌ عن بدرٍ
ضاقَ عنه الزمان ، وحواهُ صدرِي

خرقَ ابنُ بقي موشحته وتبعه الباؤون وذكر الأعلام البطليوسي
أنه سمع ابن زهر يقول ما حسدت قط وشاحاً على قول إلا ابن
بقي حين وقع له :

أما ترى أحمد في مجده العالي لا يلحقُ
أطلعه الغربُ فأرنا مثله يا مشرقُ

وكان في عصرهما من الوشاحين المطبوعين أبو بكر الأبيض
وكان في عصرهما أيضاً الحكيمُ ابنُ باجة صاحبُ التلاحين المعروفة ،
ومن الحكايات التي اشتهرت عنه أنه حضر مجلس مخدومه ابن تيفلويت
صاحب سر قسطة فالتقى على بعض قيناته موشحته :

جرر الذيل أيماً جرّ وصل الشكر منك بالشكر

فطَرِبَ الممدوح حَتَّى خَتَمَهَا بقوله :

عَقَدَ اللهُ رَايَةَ النصر لأمير العَلا أبي بَكر

فلما طرقَ ذلكَ التلحينُ سمِعَ ابنَ تَيْفَلَوَيْتِ صاحَ : واطرباه
وشقَّ ثيابه وقال ما أحسنَ ما بدأتَ به وما ختمتَ وحلفَ بالأيمانِ
المغلَّظة لا يمشي ابنُ باجة الى داره إلا على الذهب فخاف ابنُ باجة
سوءَ العاقبة فاحتال بأن جعلَ ذهباً في نعله ومشى عليه وذكر أبو
الخطاب بن زهراً أنه جرى في مجلس أبي بكر بن زهر ذكرُ أبي
بكر الأبيض الوشاح المتقدم الذكر فغَضَّ منه أحدُ الحاضرين فقال
كيف تغضُّ ممن يقول :

ما لذت لي شربُ راح	على رياض الاقحاح
لولا هضيمُ الوشاح	إذا انشنى في صباح
أو في الاصيل اضحى يقول	ما للشمول لطمت خدِّي
وللشمال هبت فمال	غصنُ اعتدال ضمّه بُردي
بمّا أباد القلوبا يمشي لنا مُستريباً	يا لحظه زِدْ ذُنوباً ويألماهُ الشنّيبا
برّد غليل صبّ غليل	لا يستحيل فيه عن عهد

١ - كذا عند الافراني وفي مقدمة ابن خلدون ونظنُّ ان الصواب ابو الخطاب
ابن مِحية .

ولا يزال في كلِّ حال يرجو الوصال وهو في الصّد

واشتهر بعد هؤلاء في صدر دولة الموحدين محمد بن أبي الفضل ابن
شرف قال الحسن ابن دُوَيْدَة حسدتُ حاتمَ بن سعيد على هذا الافتتاح:

شمسُ قارنتُ بسدراً راحُ ونَيْدِيمُ

وابنُ هُرْدُوس الذي له :

يا كَيْلَةَ الوَصْل والسَّعُودِ بالله عودِي

وابنُ مُوَاهِل الذي له :

ما العِيدُ في حُلَّةٍ وطاق، وشمٌّ طيب وائماً العِيدُ في التَّلَاق ، مع الحبيب

وابو اسحاق الرُّوَيْنِي قال ابن سعيد سمعتُ ابا الحسن سهل ابن
مالك يقول انه دَخَلَ على ابن زهر وقد أُسِنَّ وعليه زِيُّ البادية اذ كان
يسكن بحصن اُسْتَبَّة فلم يعرفه فجلس حيثُ انتهى به المجلس وجرت
المحاضرةُ اَن اُنشَدَ لنفسه مُوشِحَةً وقعَ فيها :

كُحْلُ الدُّجَى يَجْرِي من مُقْلَةِ الفَجْرِ على الصَّبَاحِ

ومِعْصَمُ التَّمَرِ في حُلِّ خَضِرٍ من البِطَاحِ

فَتَحَرَّكَ ابنُ زهر وقال انت تقول هذا قال اخْتَبِرْ قال ومن تكون
فعرَّفَه فقال اَرْتَفِعْ فوالله ما عَرَفْتُكَ قال ابنُ سعيد وسابقُ الحَلْبَةِ التي

ادركت هؤلاء هو أبو بكر بن زهر وقد شرقت موشحاته وغربت . قال
وسمعت أبا الحسن ابن سهل بن مالك يقول قيل لابن زهر لو قيل
لك ما أبدع ما وقع لك في التوشيح قال كنت أقول :

ما للمؤالاه من سُكرِهِ لا يُفِيقُ يَا لَهُ سَكْرَان

قال في نفع الطيب هذا مَطْلَعُ مُوشَّحٍ يَسْتَعْمِلُهُ أَهْلُ الْمَغْرِبِ إِلَى الْآنَ
وَيُرَوَّى أَنَّهُ مِنْ أَحْسَنِ الْمَوْشَّحَاتِ قُلْتُ وَأَبُو بَكْرٍ بْنُ زُهْرٍ هُوَ أَوَّلُ مَنْ
عَصَرَ سُلَاقَةَ التَّوْشِيحِ لِأَهْلِ عَصْرِهِ وَلِذَلِكَ قَالَ فِيهِ تَلْمِيزُهُ أَبُو الْخَطَّابِ
بْنُ دُرْحِيَّةٍ فِي كِتَابِ الْمُطَرِّبِ مِنْ أَشْعَارِ أَهْلِ الْمَغْرِبِ وَالَّذِي أَنْفَرَدَ بِهِ
شَيْخُنَا الْمَوْشَّحَاتِ وَهِيَ زُبْدَةُ الشَّعْرِ وَخِلَاصَتُهُ مِنْ الْفُنُونِ الَّتِي أَغْرَبُ
فِيهَا أَهْلُ الْمَغْرِبِ عَلَى أَهْلِ الْمَشْرِقِ .

... قال ابن خلدون واشتهر بعد ابن زهر ابن حيون والمهز بن
الفرس بغرناطة قال ابن سعيد ولما سمع ابن زهر قوله :

لله ما كان من يوم بهيج بنهر حمص على تلك المروج

ثم انعطفنا على فم الخليج

نفض مسك الختام عن عسجدي المدام

ورداء الاصيل تطويه كف الظلام

قال ابن كُتَّان من هذا الرداء وكان معه في بلده مطرف أخير ابن

سعيد عن والده ان مُطَرِّفًا هذا دخل علي ابن الفرس فقام له وأكرمه
فقال لَا تَفْعَلْ فقال ابنُ الفرس كيف لا أقومُ لمن يقول :

قلوبُ تصابَتْ بِالْحَاظِ تُصِيبُ فَقُلْ كَيْفَ نَبَقَى بِلَا وَجَدِ

وبعد هؤلاء ابن حزمون بمروسة ذكر ابن الرئيس ان يحيى الخزر جي
دخل عليه في مجلس فانشده موشحة لنفسه فقال له ابن حزمون ما
الموشح بموشح حتى يكون عارياً عن التكلف قال مثل ماذا ؟ قال
على مثل قولي :

يا هاجري هل الى الوصال مِنْكَ سَبِيلُ
أَوْ هَلْ يُرَى عَنْ هَوَاكَ سَالِ قَلْبُ الْعَلِيلِ

وابو الحسن بن سهل بن مالك بغرناطة قال ابن سعيد كان والدي
يُعجَبُ بقوله :

إِنَّ سَيْلَ الصَّبَاحِ فِي الشَّرْقِ عَادَ بَحْرًا فِي أَجْمَعِ الْأَنْفُقِ
فَتَدَاعَتْ نَوَادِبُ الْوُرُقِ أَتْرَاهَا خَافَتْ مِنَ الْغُرُقِ
فَبَكَتْ سُحْرَةً عَلَى الْوَرَقِ

واشتهر بأشيلية لذلك العهد ابو الحسن بن الفضل قال ابن سعيد
عن والده سمعتُ سهلَ بن مالك يقول يا ابن الفضل لك على انوشاحين
الفضل في قولك :

فَوَاحِشَرْتَا لِرِزْمَانٍ مَضَى عَشِيَّةً بَانَ الْهَوَى وَانْقَضَى
وَأُفْرِدْتُ بِالرَّغْمِ لَا بِالرِّضَا وَبْتُ عَلَى حَرِّ جَمْرِ الْغَضَا
أُعَانِقُ بِالْفِكْرِ تِلْكَ الطُّلُولَ وَالْثَمُّ بِالْوَهْمِ تِلْكَ الرُّسُومَ

قال وسمعتُ أبا بكر الصَّابُوني يُنشدُ الاستاذ أبا الحسن الدَّبَّاجَ
موشحاته غير ما مرَّة فما سمعته يقول لله درُّه ألا في قوله :

قَسَمًا بِالْهَوَى لَذِي حَجَرٍ مَا لَيْلُ الْمَشُوقِ مِنْ فَجَرٍ
جَمَدُ الصَّبْحِ لَيْسَ يَطْرُدُ مَا لِلَّيْلِ فِيمَا أُظِنُّ غَدُ
صَحَّ يَا لَيْلُ إِنَّكَ الْأَبَدُ

أَوْ فَقَصَّتْ قَوَادِمُ النَّسْرِ فَتُجُومُ السَّمَاءِ لَا تَسْرِي

واشتهر ببرُّ العدوَّة ابنُ خلف الجَزائري صاحبُ الموشحة المشهورة:
يَدُ الصَّبَاحِ قَدْ قَدَحَتْ زِنَادَ الْأَنْوَارِ، فِي مَجَامِرِ الزَّهَرِ

وابن زَجَرِ البِجَائِي وله من موشحة :

تَغَرُّ الزَّمَانُ مُوَافِقَ حَيَّاكَ بِابْتِسَامِ

قال ابنُ خَلْدُونٍ ومن مُحَاسِنِ الموشحات للمتأخرين موشحةُ ابنِ
سهل شاعر اشبيلية وسبته من بعدها فمنا قوله :

هَلْ دَرَى ظَنِّي الْحَمَى أَنْ قَدْ جَمَى قَلْبُ صَبِّ حَلَّهِ عَنْ مَكْنَسِ

فَهَوَ فِي حَرٍّ وَخَفَقَ مِثْلَهَا لَعِبَتْ رِيحُ الصَّبَا بِالْقَبَسِ
 وَاِذَا الْمَشَارِقَةُ فَالتَّكَلُّفُ عِنْدَهُمْ ظَاهِرٌ عَلَى مَا عَانَوْهُ مِنَ الْمَوْشَحَاتِ
 وَمِنْ أَحْسَنَ مَا وَقَعَ لَهُمْ فِي ذَلِكَ مُوشِحَةُ ابْنِ سَنَاءِ الْمَلِكِ الْمِصْرِيِّ اِشْتَهَرَتْ
 شَرْقًا وَغَرْبًا وَآوَلَهَا :

يَا حَبِيبِي اَرْفَعْ حِجَابَ الثُّورِ عَنْ الْعِذَارِ
 تَنْظُرِ الْمُسْكَ عَلَى الْكَافُورِ فِي جُلَّتَارِ
 كُلِّي ، يَا سُحْبُ تَيْجَانِ الرَّبِّي بِالْحَلِّي
 وَاجْعَلِي ، سَوَارَهَا مُنْعَطِفَ الْجَدُولِ

وَمِنْ أَحْسَنَ مَوْشِحَاتِ الْمَشَارِقَةِ مُوشِحَةُ عَبْدِ الْعَزِيزِ بْنِ سَرَايَا
 الْحَلِّي :

شُقَّ جَيْبُ اللَّيْلِ عَنْ نَهْدِ الصَّبَاحِ أَيُّهَا السَّاقُونَ

وَلَهُ :

جَرَّدَ الْأُفُقُ صَارِمَ الْفَجْرِ مِنْ جُفُونِ الْعَسَقِ

تقسيم العلوم
إلى فلسفية ومليّة
وبيان ما تواطأت عليه
المليّة والفلسفة منها
لأبي عليّ اليوسفي

العلوم على الجملة إما قديمة وأما حادثة ، وإن شئت قلت أما
فلسفية وأما مليّة ، أو أما قديمة وأما اسلامية ، وهو أضبط لأن من
القديم ما ليس بفلسفي كعلوم العرب ، غير أن هذه لما لم تكن علوماً
مهمّة صحّ أن لا يُبالى بها في التقسيم بل يُقتصر على ذكر الفلسفية
والاسلامية وما سوى ذلك يُذكر تبعاً فنقول : أما الفلسفية فمنها مقبول
في الملة ومنها مردود ، والمقبول منه مأخوذ ومنه متروك ، ولنبداً
بتقسيم الفلسفيات جرياً مع عباراتهم فيها مع الإمام بما يُقبل وما لا ،
فنقول : العلم إمّا مقصود لذاته أو لغيره ، أما الأول فهو الفلسفة
الأولى المقصود بها تكميل النفس الناطقة والاطلاع على حقائق
الأشياء بقدر الطاقة وهو إما نظريّ وأما عمليّ ، والأول أما مجرد
عن المادة مطلقاً وهو العلم الإلهي أو في الذهن فقط وهو العلم الرياضي
أو مُقيّد بالمادّة وهو العلم الطبيعي ، والثاني أما مُتعلّق بنفس الشخص
من حيث هي ويسمى سياسة النفس وعلم الأخلاق أو بها وبما يحتاج

اليه من شهوات قواها وهو علم تدبير المنزل ، أو بما يُعمّ وهو الملكية والسلطنة ، فان كان الحافظُ لنظامها والقائمُ بأحكامها الظاهرة والباطنة شخصاً دلّت عليه القرّاناتُ الكبار وتميّز عن البشر بما أفيضَ عليه من قوَى المجرّدات فهو النبي وهو دولة النبوة ، وان كان قائماً بتدبير ظواهرها فقط ودلّت عليه القرّاناتُ المتوسطة فهي السلطنة وهو السلطان ، وقد يُعمّ حكمه وقد يخصّ .

قلت أما دَلالاتُ القرّانات الكبار والمتوسطة فلا مانعَ منه ، إذ لا مانع أن يُجريَ الله تعالى عادته بخلق شيء أو إنزال شيء أو تخصيص شيء ما بشيء عند طلوع كوكب أو غروبه أو اجتماعه بكوكب آخر أو يثبوتته عنه أو قرّبه منه أو بُعده ثم يُلهم الله من يشاء من عباده علمَ ذلك فيعلم ويحكم به اتّباعاً لتلك العادة ولا تأثير في شيء من ذلك لشيء ، بل التأثير كله لله تعالى الواحد القهار ، وأما الفيضُ من قوَى المجرّدات فهو وَهم باطل لا حاصل له ، فكلُّ ما يثبتونه من المجرّدات والعقل الفيّاض باطل ، وإنما الله تعالى واحدٌ موجود واجبُ الوجود وكل موجود من هذه العوالم حادثٌ أثرٌ عنه خلقه بقدرته ومشيئته عن عدم ، وهو تعالى المخصّص للنبي بما اختصّ به من النبوة والكرامة ، وهو الممدّد له ولغيره لا إله ولا فاعل ولا مُعطي ولا مانعَ غيره سبحانه .

وأما الثاني أعني المقصودَ لغيره ، فإما للذهن وما يُنَاط به من المعاني وهو المنطق ، وأما لللسان وما يُنَاط به من الألفاظ وهو الأدب ، وهذا مُحدث .

ثم ان الشريعة المطهرة على القِيَم بها أفضلُ الصلاة والسلام جاءت بما يُغني عن العلوم العملية المذكورة فُتَرِكَت ، وذلك أن مدارها اما على حفظ النفس وهو في الشريعة بالقصاص ونحوه ، واما على العقل وهو فيها بتحريم ما يُزِيلُه والحدُّ عليه ، أو المالي وهو فيها بالتَّزْمِيَةِ بالتَّجَارَات وسائر المعاملات وَحَدُّ الْحَرَابَةِ وَالسَّرَقَةِ وتحريم الربا والغش ونحو ذلك ، أو العِرْض وهو فيها بحد القَذْف مثلاً أو النِّسْب وهو فيها بتحليل النكاح وتحريم السَّفَاح وَحَدُّ الزنى ، أو تهذيب النفس بالتَّخْلِيَةِ والتَّحْلِيَةِ ، والقيام بالتَّعْبُد ومعرفة المعبود والاعتراف بالشرع وَمَنْ جَاءَ بِهِ وهو مبسوط فيها على أكمل وجهٍ وكذا سياسةُ الْعِبَاد بالنبوة والخلافة فأسقط المتأخرون هذا القسم من علوم القدماء استغناءً عنه واقتصروا على الأقسام الباقية أعني العلم الالهي والرياضي والطبيعي والمنطقي .

أما العلم الالهي فهو العلم الباحث على الموجود من حيثُ ثبوتُه وما يعرِضُ له أو على المعلوم من حيثُ هو على الخلاف في موضوعه، وَمَنْفَعَتُهُ تَبْيِينُ الْمُعْتَقَدِ الْحَقِّ مِنَ الْبَاطِلِ وَتُسَمَّى إلهياً لأن فيه أحكامَ

الربوبية وهذا العلم هو المقصود بالذات للانسان في كماله وفوزه في الدارين وكل ما سواه من العلوم تبع له فما كان منها دينيا فوسيلة اليه وما كان دنيويا فيمثابة الخديم له ولهذا توفرت رغبات العقلاء على طلبه ثم اختلفت الطرق اليه فمن العقلاء من رام إدراكه بالنظر وهم الحكماء ومنهم من رام إدراكه بالرياضة بالجوع والعزلة والخلة كالنساك وهم الصوفية في ملتنا ومنهم من رآه بالنظر وليس من أهله فأخطأ الحق وضل وأضل كالشيوية والمعطلة وسائر المنكرين للشرائع، ومنهم من عجز ورام التعلق بالمولى تعالى على ما هو شأن العبودية أو غفل فأمدّهم الله تعالى فضلا منه ومنة يبعث الرسل مع التأييد بالعقل الصائب ...

وأما العلم الرياضي فهو العلم الباحث عما تجرد عن المادة في الذهن فقط كما مرّ ، وأنواعه أربعة : علم الهندسة ، وعلم الهيئة ، وعلم العدد ، وعلم الموسيقى وذلك أن نظره في الكمّ وهو اما متصل بأن يفرض بين أجزائه حدّ مشترك تتلاقى عنده وكلاهما أما قارّ الذات بأن يكون مجتمعا الأجزاء في الوجود أولا ، فالأول علم الهندسة وموضوعه الكمّ المتصل القارّ الذات وهو المقدار فهو علم يعرف به أحوال المقادير ولواحقها وأوضاعها وأشكالها ، ومنفعته اكتساب الحدة وارتياض الفكر مع ما يستتبع ذلك من المصالح في الأبنية والمنازل وغير ذلك ويتفرع عنه عشرة علوم ، والثاني علم الهيئة وهو العلم الباحث عن

الأجرام البسيطة فلكية أو عنصرية من حيث الكم والكيف والحركة والسكون وموضوعه الأجرام المذكور من تلك الحيشة فمَرَجِعُ مبحثه الزمان وهو الكم المتصل غير القار ذات ، وهو محتاج الى علم الهندسة لأن مقدمات برأيهينه منها والعلوم المتفرعة عليه خمسة ... والثالث علم العدد وهو العلم الباحث عن العدد من حيث انقسامه الى الزوج والفرد والى الصحيح والكسر وغير ذلك وما يعتريه من الأحوال كالضرب والجمع والقسمة ونحو ذلك وموضوعه العدد من تلك الحيشة وهو الكم المنفصل ومنفعته ارتياضُ الذهن وضبطُ الأموال والمعاملات ويتنوع الى ستة أنواع ... والرابع علم الموسيقى وهو العلم الباحث عن النغم وما يعترىها من الإيقاعات وانتظام اللحن المختلفة وإيجاد الآلات الصالحة لذلك ...

وأما العلم الطبيعي فهو العلم الباحث عن الجسم الطبيعي أي المادي وهو المحسوس من حيث هو مُعَرَّضٌ للتغير والانفعال والثبات في أحواله وموضوعه الجسم من تلك الحيشة وفائدته معرفة أحوال الأجسام البسيطة والمركبة من الأفلاك والعناصر والمولدات والاطلاع على موادها وصورها وعملها وغاياتها وأعراضها اللازمة والمفارقة وسائر خواصها وأسرارها الغريبة ويتفرع منه عشرة علوم ...

وأما المنطق فهو العلم الباحث عن المعلومات التصورية والتصديقية

من حيث التأدي بها الى مجهول تصوّري أو تصديقي ، وموضوعه المعلومات من تلك الحيثية، ومنفعته تقويم الفكر عن الزيغ وحراسته عن الخطأ في المدارك ونَاهِيك بها فهو المعيار على العلوم كلّها ولذا قيل مَنْ لَا مَعْرِفَةَ لَهُ بِهِ لَا يُثَوِّقَ بَعْلَهُ ... وهذا آخر العلوم الفلسفية وقد تواطأ على بعضها الملةُ والفلسفة كالعلم الإلهي والطبّ والعبارة! والتوقيّت فهي موجودة في لسان الشرع ، وأدخلَ منها في الملة ما عَمَّتْ منفعته ، وعظمت فائدته ، مع هذه المذكورة ، كالمنطق والحساب وما يحتاج اليه من علم الهيئة ومن علم الهندسة كالتكسير ، وكثير منها متروك إلا في الخصوص لعدم الحاجة اليه أو لقصور الهمم عنه ، وجملةُ منها دنيوية بقيت في أيدي العامة من الفلاحين والبَنّائين ورؤساء البحر وأهل السحر وخطاط الرمل ونحو هؤلاء ، ولا بأس بجميعها فنحن لا نلتفتُ الى مَنْ يُحَرِّمُ علم شيء منها فان العلم في نفسه هو غذاءُ العقل ونزّهةُ الروح وصفة الكمال ، وإنما تختلف ثمراته في الشرف بحسب الموضوع والغاية ، وتختلفُ الأحكام بحسب النية حتى ان علم السّخر الذي يحرم استعماله باجماع لو تعلّمه أحدٌ ليؤذي به مَعْصُومَ الدّم، كان تعلّمه حراماً كعمله ولو تعلّمه لمجرد أن يعرفه فيُميّز بينه وبين المعجزة مع ما تقدم من القوائد كان تعلّمه جائزاً أو واجباً.

كما مر ، وعلم الأدب الذي هو جائز باجماع لو تعلّمه أحد لقصد أن ينبغ في الشعر فيهجوه من لا يجوز هجوه أو يمدح من لا يجوز مدحه كان تعلمه حراما في حقه ، وإنما الأعمال بالنيات ، والمردود منها إنما هو جمل من العلم الإلهي أو من علم الطب وعلم الهيئة ونحوها .

القلم في اللغة

لأكنسوس

وهو القلم والمزبر بالزاي والمذبر بالذال المعجمة سمي بذلك لأنه يزبر به ويذبر أي يكتب وقد فرق بعض اللغويين بين زبرت وذبرت ، فقال زبرت بالزاي كتبت وذبرت بالذال قرأت وسمي قلماً لأنه قلم أي قطع وسوي كما يقلم الظفر وكل عود يقطع ويحز رأسه ويعلم بعلامة فهو قلم ولذلك قيل للسهم أقلام ، قال الله تعالى : إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم وكانت سهاً مكتوباً عليها أسماءهم . ويقال للذي يقلم به بقلم ولما يرى به مبرى ومبراة وقد برئته أبريه برياً وحضرته حصرمة عن ابن الاعرابي . وقيل لما يسقط عن التقليم القلّامة وعن البري البراية وجمع القلم أقلام وقلام كجبل وجبال . وقيل لاعرابي ما القلم فجعل يفكر ويقلب أصابعه

وينظر فيها فقال لا أدري فقل له توهمه في نفسك فقال عودٌ قلم رأسه وجوانبه كتقليم الظفر .

ويقال لعقده الكعوب واحدها كعب فان كانت فيه عقدة تشينه وتفسده فهي الأبنة ويقال لما بين العقد الأنايب واحدها أنبوب والمقام واحدها مقلم . والأنايب والكعوب تستعمل ايضاً في الرماح وفي كل عود فيه عقد وكذلك الأبن . فان كان في القصبه او العود تأكل قيل فيه قارح وفيه نقد وكذلك في السن . قال جميل :

رمى الله في عيني بُيُوتَةً بالقذى وفي الغر من أنياها بالقوادح
وقال الهذلي :

تيس تيس اذا يُنَاطِحُها يَأْلَمُ قَرْنَا أَرْوَمِهِ نَقْدُ

ويقال لباطنه الشحمة وظاهره الليط فان قشرت منه قشرة قلت ليطت من القلم ليطه أي قشرتها والليط ايضاً اللون قال ابو ذؤيب :

اذا اصفرَّ ليطُ الشمس حان انقلابُها^١ .

ويقال للقصب اليراع وقال قوم الإباء اطرافُ القصب والواحدة يراعة وإبابة قال مُتَمِّم بن نُويرة يذكر فرساً :

١ — الشطر في الاصل غير مستقيم ولم يظهر لنا معناه وهذا عن التاج .

ضَافِي السَّيِّبِ كَأَنَّ غُصْنَ إِبَاءَةٍ رَيَّانٍ يَنْقُضُهُ إِذَا مَا يُقَرَّعُ

ويقال للقطن الذي يُوجَدُ في جُوفِ القَصَبَةِ البَيْلَمِ والقِنْصِفِ
والفَشَغِ واحدها بَيْلَمَةٌ وَفِنْصِفَةٌ وَفَشَغَةٌ فَإِنْ كَانَ فِيهِ عِوَجٌ فَذَلِكَ
الدَّرَّءُ وَكَذَلِكَ الْعُودُ ، قَالَ الشَّيْخُ :

أَقَامَ الثَّقَافُ وَالطَّرِيدَةُ دَرَّءَهَا كَمَا أَخْرَجَتْ ضَغْنُ الشُّمُوسِ الْمَهَامِزَ

وَالطَّرِيدَةُ خَشَبَةٌ صَغِيرَةٌ فِيهَا حَدِيدَةٌ تُسَوَّى بِهَا الرِّمَاحُ وَنَحْوُهَا .
وَيُقَالُ لِعِشَانِهِ الَّذِي عَلَيْهِ الْعِلَافُ وَاللِّحَاءُ وَالْقَشْرُ فَإِذَا نَزَعْتَهُ قَلْتَ قَشْرَتَهُ
وَقَشَوْتَهُ وَقَشَيْتَهُ وَاتَّمَمْتَهُ وَكَشَأْتَهُ وَلَحَوْتَهُ وَلَفَأْتَهُ وَلَحَيْتَهُ وَسَحَفْتَهُ وَسَحَيْتَهُ
وَسَحَوْتَهُ وَحَلَقْتَهُ وَجَلَهْتَهُ وَوَسَفْتَهُ وَنَقَحْتَهُ ، وَيُقَالُ لَطَرَفِيهِ الَّذِينَ
يُكْتَبُ بِهِمَا السَّنَانُ وَاحِدُهُمَا سِنَّ وَالشَّعِيرَتَانِ وَاحِدَتُهُمَا شَعِيرَةٌ فَإِذَا
تَطَعْتَ طَرَفِيهِ وَهَيَأْتَهُ لِلْكِتَابَةِ قَلْتَ قَطَطْتَهُ أَقَطْتَهُ قَطًّا وَقَضِمْتَهُ اقْضَمَهُ
قَضِمًا وَالْمِقَطُّ بِالْكَسْرِ يُقَطُّ عَلَيْهِ وَالْمَقَطُّ بِالْفَتْحِ الْمَوْضِعُ الَّذِي يُقَطُّ
مِنْ رَأْسِهِ ، قَالَ أَبُو النِّجَمِ :

كَأَنَّمَا قُطَّ عَلَى مَقَطٍ .

وَقَالَ الْمُقَنَّنُ الْكِنْدِيُّ يَصِفُ الْقَلَمَ :

يَحْفَى فَيُقَطَّمُ مِنْ شَعِيرَةٍ أَنْفِهِ كَقَلَامَةِ الْأَظْفُورِ فِي تَقْلَامِهِ

فاذا انكسرت سِنَّهُ قِيلَ قَضِمَ يَقْضِمُ قَضَمًا كَحَذَرَ بِحَذَرٍ حَذَرًا
وكذلك كل تكشَّر في سنٍّ أو سيفٍ أو رُمحٍ أو سكَّينٍ فان أخذتَ
من شَحْمَتِهِ بالسكين قلتَ شَحْمَتُهُ أَشَحَمَهُ شَحْمًا فاذا افرطتَ في الأخذ
منها قلتَ بَطَّنتُ القلمَ تَبْطِينًا وحفرته حَفَرًا وقلمُ مُبْطِنٍ ومحفورٍ واسم
موضع الشحمة الحفرة فاذا تركتَ شَحْمَتَهُ ولم تأخذ منها شيئاً قلتَ :
أشَحَمْتُهُ إِشْحَامًا ويقال للشحمة التي تحت بَرِيَّةِ القلم الضرةُ شُبَّهَتْ بضرةِ
الإبهام وهي اللُّحمة التي في أصلها كذا . قال ابنُ قتيبة في آلهِ الكُتَّابِ
وهو المعروف ولكِنَّه خالف في ادبِ الكُتَّابِ فقال الآليَّة اللُّحمة التي
في أصل الإبهام والضرة اللحمة التي تُقَابِلُهَا . فان جعلتَ سِنِّي القلم
الواحدةً اطولَ من الأخرى قلتَ قلمٌ مُحَرَّفٌ وقد حرَّفْتُهُ تحريفًا وان
جعلتَ سِنِّيهِ مُسْتَوْرِيَّتَيْنِ قلتَ قلمٌ مبسوطٌ وقلمٌ جَزْمٌ فان سَمِعَ له
صوت عند الكتابة فذلك الصَّريْفُ والصَّرِيرُ والرَّشَقُ ويقال قلمٌ مُذَنَّبٌ
بفتح النون أي طويل الذنب فاذا كَثُرَ المداد في رأس القلم حتى
يقطر المداد قيل رُعِفَ القلمُ يُرَعَفُ رُعَافًا شَبَّهَ برُعَافِ الأنفِ
ومجَّ يَمْجُجُ مجًّا وأرَعَفَه الكاتبُ إرْعَافًا وأَمْجَجَهُ إِمْجَاجًا ويقال للكاتب
اسْتَمَدِدْ وَلَا تُرَعِفْ وَلَا تَمْجِجْ أي لَا تُكْثِرْ من المداد حتى يقطر
ويقال للخِرْقَةُ التي يَمْسَحُ بها الكاتبُ، الوَقِيعَةُ بالقاف وعن أبي عمرو
الشَّيْبَانِي أنها الوَقِيعَةُ بالفاء .

التبويغ المغربي

في الأدب العربي

تأليف
عبد الله كنون

الجزء الثالث

النبوغ المغربي

في ميزان القيمة

بقلم الأستاذ الكبير حنا فاخوري

الكتاب الذي كان له الأثر الضخم في العالم العربي ، والذي كان فتحاً من الفتوح ، هو كتاب « النبوغ المغربي في الأدب العربي » للعلامة المحقق والبحاث المدقق عبدالله كنون الحسني . كانت دراسات الأدب العربي في ازدهار ورفق ، وكان النقد ينتقل من طور التقليد الى طور التحرري العلمي الصحيح ، وحفلت المكتبة العربية بالكتب تلدها المطابع في خصب عجيب . وفي زحمة هذه الثروة الأدبية لبث المغرب العربي مطوي الصفحات ، مجهول الآثار وكأنه بعيد كل البعد عن الحركة الفكرية والفنية ، وكأنه لا وجود له في التيار العربي الزاخر . فكان لا بد من عبقرية جبارة تتسلح بسلاح الجرأة والإقدام ، وتتصدى للتيار في علم وسلطان ، فتنشر ما طوي فيه من صفحات ، وتتم ما اعتوره من نقص في سلسلة الحلقات ، وتوضح العمل الذي قام به النبوغ المغربي في ميدان الأدب ، والمشاركة التي له في رفع بناء الحضارة العربية . وكانت العبقرية التي هيأها الله تعالى لهذا العمل الفريد متجسمة في ابن المغرب البار وعلاّمته الفذّ عبدالله كنون . وله وحده يعود الفضل في إحياء الآثار المغربية التي لا تقل قيمة عن سواها في سائر الأقطار العربية ، وله وحده يعود الفضل في توجيه الدراسة الأدبية توجيهاً يتناول الكلّ دون الجزء ، والبناء الكامل دون الأقسام المقسمة .

والذي يروقك في كتابة عبدالله كنون تلك الرصانة العلمية التي تتحرى

الحقيقة في غير نزق ، والتي تتسبع أوثق المصادر في غير تحيز ، وتواجه الصعوبات في صبر وهدوء ، وتطلب المستحيل في ثقة العلم الصحيح ، واندفاع الهمة التي لا تنثني . إنه لا يدلي بالرأي إلا بعد الدرس الطويل ، والمقارنات والتعليقات العميقة ، ولا يقدم الحكم إلا بعد الجولات الواسعة في عوالم التاريخ والفلسفة والاجتماع والسياسة ، وبعد التنقيب الواسع في زحمة العوامل والبواعث أياً كان نوعها . ومن ثم تراه يفرض أحكامه فرضاً في غير تبجح ولا تطفل ، لا بل ترى آراءه ذات فعالية وسلطان تواجه العقل في قوّة جذابة وتستولي عليه بما فيها من بلاغة إقناع ونصاعة حقيقة .

ومما لا شكّ فيه ان كتاب « النبوغ المغربي » كنز ثمين من كنوز العلم ، ومصدر من أوثق مصادره ، وموسوعة مغربية لا يقدرها حقّ قدرها إلا من لمس النقص في كتب الأدب وعرف هذا الجهل أو التجاهل الذي صدف بالكتاب عن آثار هذا العالم الغني بعقرباته ، العريق في رقيه وحضاراته ، الجليل الأثر في توجيه الفكر العربيّ منذ أقدم عصوره .

حنا الفاخوري

المنتخبات الأدبية
قسم المنظوم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قسم المنظوم

أَتَيْنَا فِي قِسْمِ الْمَنْشُورِ وَهُوَ الْجُزْءُ الثَّانِي مِنْ هَذَا الْكِتَابِ ،
بِالْآثَارِ وَالْمُنْتَخَبَاتِ النَّثْرِيَّةِ الَّتِي رَأَيْنَا أَنَّهَا تُعْطِي نَظْرَةً صَادِقَةً عَنْ
إِنْتاجِ أَدْبَائِنَا فِي مَيْدَانِ الْكِتَابَةِ الْفَنِّيَّةِ وَالْعِلْمِيَّةِ وَمَا يَتَّصِلُ بِهَا
مِنْ ضُرُوبِ الْقَوْلِ وَأَنْوَاعِ الْخُطَابِ .

وَبَوَّيْنَا تِلْكَ الْآثَارَ وَالْمُنْتَخَبَاتِ بِحَسَبِ الْإِغْرَاضِ الْكَلَامِيَّةِ
الَّتِي تَدْخُلُ فِي مَفْهُومِ الْإِدْبِ عَلَى الْأَصْطِلَاحِ الْقَدِيمِ ؛ وَهُوَ الَّذِي
نُورِّخُهُ فِي هَذَا الْكِتَابِ ، عَلَى أَنَّهَا قَدْ تَنَاوَلْنَا بَعْضَ
الْمَوْضُوعَاتِ الَّتِي لَمْ تَكُنْ تُعَدُّ فِي هَذَا الْأَصْطِلَاحِ مِنْ مَشْمُولِ
الْإِدْبِ ، وَلَا يَزَالُ الْحَرْفِيُّونَ يُبْعِدُونَهَا عَنْ حَظِيرَتِهِ جُمُوداً عَلَى
الْمَسَاطِرِ ، وَذَلِكَ كَمَا مَوْضُوعُ الدُّعَاءِ الَّذِي أَدْرَجْنَاهُ فِي بَابِ التَّحْمِيدِ

والصلاة ، بل إن هذا الباب كله من ذلك القبيل ، وكموضوع
البحوث العلمية والفنية الذي عملنا منه باباً مستقلاً هو باب
المقالات ، ونحن على يقين أن القارئ المتفتح الذهن سيجد في
ذلك متاعاً فكرياً ورؤيياً وحلقة لازمة لضبط الاتصال بين
جوانب الحياة العقلية والوجدانية على اختلاف مناحيها .

ونأتي الآن في قسم المنظوم الذي هو الجزء الثالث من
الكتاب بالآثار والمنتخبات الشعرية كما وعدنا ، مُقسَّمة إلى
الابواب المعروفة من الحماسة والغزل والوصف والمدح وغير
ذلك ، إلا باب الهجاء فإننا غَوَّضناه بباب الملح ، وأدرجنا فيه
نماذج من الهجاء التي أكثر ما تُراد لشكلها لا لمضمونها .

وقد ختمنا بباب خصَّصناه للموشحات والأزجال جمعاً
للنظائر وعناية بهذا النوع من الأدب المنظوم ، إذ كان يُمثِّلُ
حركة التجديد في الأدب العربي عامة على النطاقين الخاصي
والعامي ، فلم نَرِ بُدأً من ترجيع صدى هذه الحركة في هذا
الرَّكن النَّائي من بلاد العروبة ، وفاءً بغاية البحث الذي قدَّمناه
في الموضوع في عصر المؤحدين . وبالله التوفيق .

الحماسة والفخر

لِلْمَوْلَى إِدْرِيسِ الْأَزْهَرِ يُخَاطَبُ بُهْلُولَ بْنَ عَبْدِ الْوَاحِدِ وَقَدْ
مَالَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ ابْنِ الْأَغْلَبِ ؛ عَامِلِ الرَّشِيدِ عَلَى إِفْرِيقِيَّةٍ :

أُبْهَلُولُ قَدْ شَتَّمْتَ^(١) نَفْسَكَ خُطَّةً تَبَدَّلَتْ مِنْهَا عَوْلَةٌ^(٢) بِرَشَادٍ
أَضَلَّكَ إِبْرَاهِيمُ عَنْ بُعْدِ دَارِهِ فَأَصْبَحْتَ مُنْقَادًا بَغَيْرِ قِيَادٍ
كَأَنَّكَ لَمْ تَسْمَعْ بِمَكْرِ ابْنِ الْأَغْلَبِ غَدًا آخِذًا بِالسَّيْفِ كُلِّ بِلَادٍ
وَمِنْ دُونِ مَا مَنَّتْكَ نَفْسُكَ خَالِيًا وَمَنَّكَ إِبْرَاهِيمُ شَوْكُ قَتَادٍ

وَلَوْلَا دِهِ الْقَاسِمُ لَمَّا خَرَجَ عَيْسَى بْنُ إِدْرِيسٍ عَلَى أَخِيهِ مُحَمَّدٍ ،
وَكَتَبَ لَهُ مُحَمَّدٌ يَأْمُرُهُ بِحَرْبِ عَيْسَى فَامْتَنَعَ وَقَالَ مُعْتَذِرًا عَنْ
ذَلِكَ :

١ - أي اطمعت نفسك بخطئة لم تدركها الاثماً .

٢ - أي جوراً وميلاً عن الحق .

سَأَتْرُكُ لِلرَّاعِبِ الْغَرْبَ نَهْبًا وَإِنْ كُنْتُ فِي الْغَرْبِ قَيْلًا^(١) وَنَدْبًا
وَأَسْمُو إِلَى الشَّرْقِ فِي هِمَّةٍ يَعِزُّ بِهَا رُتَبًا مَنِ أَحْبَبَا
وَأَتْرُكُ عَيْسَى عَلَى رَأْيِهِ يُعَالِجُ فِي الْغَرْبِ هَمًّا وَكَرْبًا
وَلَوْ كَانَ قَلْبِي عَلَى قَلْبِهِ لَكُنْتُ لَهُ فِي الْقَرَابَةِ قَلْبًا
وَإِنْ أَحْدَثَ الدَّهْرُ مِنْ رَيْبِهِ شِقَاقًا عَلَيْنَا وَأَحْدَثَ حَرْبًا
فَإِنِّي أَرَى الْبُعْدَ سِتْرًا لَنَا يُجَدِّدُ شَوْقًا لَدَيْنَا وَحُبًّا
وَلَمْ نَجْنِ قِطْعًا لَأَرْحَامِنَا نُلَاقِي بِهِ آخِرَ الدَّهْرِ عَتَبًا
وَتَبَقَى الْعَدَاوَةُ فِي عَقْبِنَا وَأَكْرِمُ بِهِ حِينَ نُعْقِبُ عَقْبًا
وَأَوْفَقُ مِنْ ذَلِكَ جَوْبُ الْفَلَاةِ وَقَطْعُ الْمَخَارِمِ نُقْبًا فَنُقْبًا^(٢)

ولإبراهيم المؤبِّل يشكو الزمان ويفتخر :

لِلْبَيْنِ فِي تَعْدِيْبِ نَفْسِي مَذْهَبُ وَلِنَائِبَاتِ الدَّهْرِ عِنْدِي مَطْلَبُ
أَمَّا دُيُونُ الْحَادِثَاتِ فَإِنَّهَا تَأْتِي لَوْ قَتَّ صَادِقٍ لَا تَكْذِبُ
وَالْبَيْنُ مُغْرَى كَيْدُهُ بِذَوِي النُّهَى طَبْعًا تُطْبَعُ وَالطَّبِيعَةُ أَغْلَبُ

١ - أي رئيساً .

٢ - المخارم رؤوس الجبال والنقب الطريق في الجبل .

أَيَقَنْتُ أَنِّي لِلرَّزَايَا مَطْعَمٌ وَدَمِي لَوَافِدَةِ الْمَكَارِهِ مَشْرَبٌ
فَأَنَا مِنَ الْآفَاتِ عَرَضٌ سَالِمٌ وَجَوَانِحُ تُكْوَى وَعَقْلٌ يَذْهَبُ

وللشريف الادريسي الجغرافي :

إِنَّ عَيْباً عَلَى الْمَشَارِقِ أَنْ أُرْ جَعَّ عَنْهَا إِلَى ذُيُولِ الْمَغَارِبِ
وَعَجِيبٌ يَضِيعُ فِيهَا غَرِيبٌ بَعْدَ مَا جَاءَ فِكْرُهُ بِالْغَرَائِبِ
وَيُقَاسِي الظَّمَأَ خِلَالَ أَنْاسٍ قَسَمُوا بَيْنَهُمْ هَدَايَا السَّحَائِبِ

ولعبد المؤمن بن عليّ يستنفرُ العرب من بني هلال لِلْغَزْوِ

بجزيرة الاندلس :

أَقِمْوْا إِلَى الْعِلْيَاءِ هُوجَ الرَّوَاحِلِ^(١) وَقُودُوا إِلَى الْهَيْجَاءِ جُرْدَ^(٢) الصَّوَاهِلِ
وَقُومُوا لِنَصْرِ الدِّينِ قَوْمَةً ثَائِرَ وَشُدُّوا عَلَى الْأَعْدَاءِ شِدَّةَ صَائِلِ
فَمَا الْعِزُّ إِلَّا ظَهْرُ أَجْرَدٍ سَابِحٍ يَفُوتُ الصَّبَا فِي شِدَّةِ^(٣) الْمُتَوَاصِلِ
وَأَبْيَضُ مَا تُورِ^(٤) كَأَنَّ فِرْنَدَهُ عَلَى الْمَاءِ مَنَسُوجٌ وَلَيْسَ بِسَائِلِ

١ - أي الإبل السريعة .

٢ - الصواهل الخيل وجردها سوابقها .

٣ - أي جريه .

٤ - يعني سيفاً مشهوراً .

بَنِي الْعَمِّ مِنْ عَلِيَا هَلَالِ بْنِ عَامِرٍ وَمَا جَمَعَتْ مِنْ بَاسِلٍ وَابْنِ بَاسِلٍ
تَعَالَوْا فَقَدْ شُدَّتْ إِلَى الْغَزْوِ نِيَّةُ عَوَاقِبُهَا مَنْصُورَةٌ بِالْأَوَائِلِ
هِيَ الْغَزْوَةُ الْغَرَاءُ وَالْمَوْعِدُ الَّذِي تَنْجَزُ مِنْ بَعْدِ الْمَدَى الْمُتَطَاوِلِ
بِهَا تُفْتَحُ الدُّنْيَا بِهَا تُبْلَغُ الْمُنَى بِهَا يُنْصَفُ التَّحْقِيقُ مِنْ كُلِّ بَاطِلٍ
أَهْبْنَا بِكُمْ لِلْخَيْرِ وَاللَّهُ حُسْبُنَا وَحَسْبُكُمْ وَاللَّهُ أَعَدَّ عَادِلٍ
فَمَا هَمُّنَا إِلَّا صَلَاحُ جَمِيعِكُمْ وَتَسْوِيفُكُمْ نُعْمَى تَرْفُ ظِلَالُهَا
وَتَسْوِيفُكُمْ نُعْمَى تَرْفُ ظِلَالُهَا فَلَا تَتَوَانَوْا فَالْبِدَارُ غَنِيمَةٌ
وَالْمُدْنِجُ^(١) السَّارِي صَفَاءُ الْمَنَاهِلِ

وَلَحْفِيدِهِ الْمَنْصُورِ هَذِهِ الْآيَاتُ كُتِبَ بِهَا إِلَى قَبَائِلِ سُلَيْمٍ مِنَ الْعَرَبِ
النَّازِلِينَ بِأَفْرِيقَةِ:

يَا أَثِيهَا الرَّاكِبُ الْمَرْجِي مَطِيَّتَهُ عَلَى عَذَافِرَةٍ^(٢) تَشْقَى بِهَا الْأَكْمُ
بَلِّغْ سُلَيْمًا عَلَى بُعْدِ الدِّيَارِ بِهَا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ الرَّحْمَنُ وَالرَّحِمُ
يَا قَوْمَنَا لَا تَشُبُّوا الْحَرْبَ إِنْ خَمِدَتْ وَأَسْتَمْسِكُوا بِعُرَى الْإِيمَانِ وَاعْتَصِمُوا

١ - الذي يبكر ويسري من آخر الليل .

٢ - جمع عذاقر وهو الشديد من الابل .

كم جَرَّبَ الحَرْبَ مَنْ قَدْ كَانَ قَبْلَكُمْ مِنْ الْقُرُونِ فَبَادَتْ دُونَهَا الْأُمَمُ
 حَاشَا الْأَعَارِبَ أَنْ تَرْضَى بِمَنْقَصَةٍ يَا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ تَرَاهُمْ عَلِمُوا
 يَقُودُهُمْ أَرْمَنِي لَا خَلَقَ لَهُ ^(١) كَأَنَّهُ بَيْنَهُمْ مِنْ جَهْلِهِمْ عِلْمُ
 اللَّهُ يَعْلَمُ أَنِّي مَا دَعَوْتُكُمْ دُعَاءَ ذِي قُوَّةٍ يَوْمًا فَيَنْتَقِمُ
 وَلَا لَجَأْتُ لِأَمْرٍ يُسْتَعَانُ بِهِ مِنَ الْأُمُورِ وَهَذَا الْخَلْقُ قَدْ عَلِمُوا
 لَكِنْ لَا أَجْزِي رَسُولَ اللَّهِ عَنْ نَسَبٍ يُنَمَى إِلَيْهِ وَتُرْعَى بِلَكُمْ الدِّمَمُ
 فَإِنْ أَتَيْتُمْ فَجَبَلُ الْوَصْلِ مُتَّصِلٌ وَإِنْ أَبَيْتُمْ فَعِنْدَ السَّيْفِ نَحْتَكُمْ

وللسيد عبد الله الموحد صاحب فاس :

أَلَسْتُ ابْنَ مَنْ تَخْشَى اللَّيَالِي انْتِقَامَهُمْ وَتَرْجُو نَدَاهُمْ غَادِيَاتُ السَّحَابِ
 يَخْطُونَ بِالْخَطِّ ^(٢) فِي حَوْمَةِ الْوَعَى سُطُورَ الْمَنَائِي فِي نُحُورِ الْمَقَانِبِ ^(٣)
 كِتَابًا بِأَطْرَافِ الْعَوَالِي وَنَقْصُهُ ^(٤) دَمُ الْقَلْبِ مَشْكُولًا بِنَضْحِ التَّرَائِبِ

١ - يعني بالارمني قرقوش مملوك بني ايوب الذي كان ذهب الى بلاد المغرب الادنى واولق نار الحرب من طرابلس الى تونس مع ابن غانية، وارجع الى فصل توحيد المغرب العربي من الجزء الاول .

٢ - اي الرمح ، نُسب الى الخط وهو محل تقوّم فيه الرماح .

٣ - جمع مقنب وهي الجماعة من الخيل تجتمع للغارة .

٤ - النقص المداد .

وما كنتُ أدري قبلهم ان مَعشراً أقاموا كتاباً من نفوسِ الكتائب

ولا بي العباس الجراوي في غزوة الأرك الشهيرة :

هو الفتحُ أعياء وصفه النظم والنثرا وعمت جميع المسلمين به البُشرى
وأنجدَ في الدنيا وغار حديثه فراقت به حسناً وطابت به نشرا
تميز بالأحبال والغُرر التي أقل سناها يبهرُ الشمسَ والبدر
لقد أورد الإذفونشُ شيعته الردى وساقهم جهلاً إلى البطشة الكبرى
حكى فعل إبليس بأصحابه الألى تبرأ منهم حين أوردهم بدراً
أطارته شداتٌ تولى أمامها شريداً وأنسته التعاضم والكفرا
رأى الموت للأبطال حوً ليه ينتقي فطار إلى أقصى مصارعه ذعرا
وقد اوردته الموت طعنة نائر وان لم يفارق من شقاوته العُمرا
ولم يبقَ من أفنى الزمان حُماته وجرعه من فقد أنصاره صبرا
ودارت رحي الهيجا عليهم فأصبحوا هشيماً طحيناً في مهب الصبا مذرى
يطير بأشلاء لهم كلُّ قشعم فما شئت من نسر غدا بطنه فقرا
فكيف رأى المغترُّ عقبى اغتراره وكيف رأى الغدار في غيه الغدرا
وكان يرى أقطاراً أندلس له متى يرم لم يُخطيء بأسهمه قطرا
فسلاه يوم الأربعاء عن المني فما يرتجي مما تملكه شبرا

إذا عزلته الرُّومُ كانت نجاته وقد أحرقتُ جمرُ المنايا به عُذرا
فتعساً له ما دام حيا ولا مُنى وكسراً له ما دام حيا ولا جَبْرا

وله في غزوة طليطلة :

قد أصليتُ نارها العُداة وأنجزتُ فيهمِ العِدات
وعمَّهم بالدمار يومٌ تقصُر عن وصفه الرواة
مُشَهَّر لا تزال تُتلى آياته وهي بينات
فتحُ مفايحُه المواضي والعزَمات المؤيدات
ردَّت حِمَى الفونش مُستباحا ييضُ من الهند مُرهفات
ذلُّوا لأمرِ الاله قسرا وهم أولوا نجدة أباة
وغرقت جمعهم بحارٌ أمواجها الخيلُ والكُماة
رأوا لحزبِ الاله صبرا والموتُ حُفَّت به الجهات
فحاولوا منهم انفلاتاً وليس للخائن انفلات
فلا تسلُّ عن بنات ماءٍ إن صرَّصرتُ حولهم بُزاةُ

ولا بن حَبُوس الفاسي :

رِدِ الطَّرْقَ^(١) حتى تُوافي النَميرا فرُبَّ عَسيرٍ أتاحَ اليَسيرا

وَأَرْسَلُ قَلُوصَكَ طَوْرًا شَمَالًا وَطَوْرًا جَنُوبًا وَطَوْرًا دُبُورًا
وُشِنَ عَلَى غَازِيَاتِ الْبِلَادِ مِنْ النَّقْعِ وَالرَّمْلِ جِيْشًا مُغِيرًا
وَفِرْمَاءٍ وَجْهَكَ حَتَّى تَجِمَّ وَأَطْفِ السَّمُومَ بِهِ وَالْهَجِيرًا
وِطْرُ حَيْثُ أَنْتَ قَوِيُّ الْجَنَّا ح لَا عَذَرَ عِنْدَكَ إِنْ لَا تَطِيرَا
وَلَا تَقَعَنَّ وَأَنْتَ السَّلِيمُ حَيْثُ تَضَاهِي الْمَيْضَ الْكَسِيرَا
فَأَمْ التَّرْحُلُ تَدْعَى وَلُودًا وَأَمْ الْإِقَامَةُ تُدْعَى نَزُورًا
وَذُو الْعَجْزِ يَرْضَعُ ثَدْيًا حَدُورًا^(١) وَذُو الْعِزْمِ يَرْضَعُ ثَدْيًا دَرُورًا
يَعِزُّ عَلَى الثُّبُلِ أَنِي غَدَوْتُ أَكْنَى أَدِيَا وَأُسْمَى فَقِيرَا
وَأَنِّي ثَبْتُ لِكَفِّ الزَّمَانِ يُعْرِقُ عَظْمِي عَرَقًا مُبِيرَا
وَمَا ذَاكَ أَنِي هَيَّابَةٌ أَخَافُ الرَّحِيلَ وَأُشْنَا الْمَسِيرَا
وَلَكِنْ بِحُكْمِ زَمَانٍ غَدَا يَحُطُّ الْجِيَادُ وَيُسَمَّى الْحَمِيرَا

وللقاضي أبي حفص بن عمر :

نَهَانِي حِلْمِي فَلَا أَظْلَمُ وَعَزَّ مَكَانِي فَلَا أَظْلَمُ
وَلَا بَدَّ مِنْ حَاسِدٍ قَلْبُهُ بَنُورِ مَا ثَرْنَا مُظْلَمُ

رَحِمْتُ حُسُودِي عَلَى أَنَّهُ يُقَاسِي الْعَذَابَ وَمَا يَرْحَمُ
هَجَانَا أَفْتِرَاءً وَلَسْنَا كَمَا يَقُولُ وَلَكِنْ كَمَا يَعْلَمُ
وللأمير أبي مالك عبد الواحد المريني :

فَرَّقْتُ فِي الْمَيْدَانِ كُلِّ مَلِكٍ وَجَمَعْتُ بَيْنَ جَرَاءَةٍ وَنُسُوكٍ
وَجَعَلْتُ لِلْإِسْلَامِ حَدًّا مَالِكًا كِي لَا يُعَيِّرَهُ الْعِدَا بِسُلُوكٍ
وللسلطان أبي الحسن المريني :

أَرْضِي اللَّهَ فِي سِرٍّ وَجَهْرٍ وَأُفْحِي الْعِرْضَ عَنْ دَنَسِ ارْتِيَابٍ
وَأُعْطِي الْوَفَرَ مِنْ مَالِي اخْتِيَارًا وَأَضْرِبُ بِالسُّيُوفِ طَلِي الرِّقَابِ

ولمالك ابن المُرَّحِلِ يَسْتَنْفِرُ الْمُجَاهِدِينَ لِقِتَالِ الْعَدُوِّ بِالْأَنْدَلُسِ :

إِسْتَنْصِرِ الدِّينَ بِكُمْ فَاسْتَقْدِمُوا فَإِنَّكُمْ إِنْ تُسَلِّمُوهُ يُسَلِّمَ
لَا تُسَلِّمُوا الْإِسْلَامَ يَا إِخْوَانَنَا وَأَسْرِجُوا لِنَصْرِهِ وَأَلْجُمُوا
لَاذَتْ بِكُمْ أَنْدَلُسُ نَاشِدَةً بِرَحِمِ الدِّينِ وَنِعْمَ الرَّحِمُ
فَاسْتَرْحَمْتُكُمْ فَارْحُمُوهَا إِنَّهُ لَا يَرْحَمُ الرَّحْمَنُ مَنْ لَا يَرْحَمُ
مَا هِيَ إِلَّا قِطْعَةٌ مِنْ أَرْضِكُمْ وَأَهْلُهَا مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مِنْهُمْ
لَكِنَّهَا حُدَّتْ بِكُلِّ كَافِرٍ فَالْبَحْرُ^(١) مِنْ حُدُودِهَا وَالْعَجَمُ

١ - يقال للبحر كافر من الكفر بمعنى الستر لانه يستر ما فيه .

لَهْفًا عَلَى أُنْدُلُسٍ مِنْ جَنَّةِ دَارَتْ بِهَا مِنْ الْعِدَا جَهَنَّمُ
اسْتَخْلَصَ الْكُفَّارُ مِنْهَا مُدْنًا لِكُلِّ ذِي دِينٍ عَلَيْهَا نَدَمُ
قُرْطُبَةُ هِيَ الَّتِي تَبْكِي لَهَا مَكَّةُ حُزْنًا وَالصَّافَا وَزَمَزَمُ
وَحِمْصُ وَهِيَ أُخْتُ بَغْدَادَ وَمَا أَيَّامُهَا إِلَّا الصَّبَا وَالْحَلَمُ
اسْتَخْلَصُوهَا مَوْضِعًا فَمَوْضِعًا وَاقْتَدِرُوا وَاحْتَكَمُوا وَانْتَقَمُوا
وَقَتَلُوا وَمَثَلُوا وَأَسْرُوا وَاحْتَمَلُوا وَأَيَّتَمُوا وَأَيَّمُوا
أَيَّامَ كَانَ الْخَوْفُ مِنْ أَعْوَانِهِمْ وَالْجُوعُ وَالْفِتْنَةُ وَهِيَ أَعْظَمُ
حَتَّى إِذَا لَمْ يَبْقَ مِنْ حَيَاتِهَا إِلَّا ذِمَّةٌ تَدَّعِيهِ الذَّمُّ
دَعُوا^(١) الْعُهُودَ وَأَعْتَدُوا وَمَا دَرَوْا بِأَنَّهَُا بِجَبَلِكُمْ تَعْتَصُمُ
ظَنُّوا وَكَانَ الظَّنُّ مِنْهُمْ كَاذِبًا أَنْ لَيْسَ لِلَّهِ جُنُودٌ تُقَدِّمُ
مَا صَدَّقُوا إِنْ وَرَاءَ الْبَحْرِ مَنْ يَغْضَبُ لِلْإِسْلَامِ حِينَ يُظْلَمُ
وَلَا دَرَوْا أَنَّ لَدَيْكُمْ حُرْمَةً يَحْفَظُهَا شَبَابُكُمْ وَالْهَرَمُ
لَوْ عَرَفُوا قِبَالَ الْعُدُوَّةِ مَا عَدَوْا عَلَى جِيرَانِهِمْ وَاجْتَرَمُوا
الْيَوْمَ يَدْرِي كُلُّ شَيْطَانٍ بِهَا أَنْ قَدْ رَمَتْهُمُ بِالشُّعَاعِ الْأَنْجُمُ
تَقَدَّمَتْ نَحْوَهُمْ طَلِيعَةُ مِنْ نَحْوِكُمْ أَحْظَاهُمْ التَّقَدُّمُ

١ - أي دفعوها ونقضوها .

فانتصفوا للدين من أعدائه واقترعوا عليهم واقتسموا^(١)
وامتلات أيديهم من السبا وأحسبتهم نعم ونعم
يا أهل هذي الأرض ما أحرركم عنهم وانتم في الأمور أحرزم
تسابق الناس إلى مواطن الأجر فيها وافر والمغنم
تعزز الكفار في ديارهم وعزموا أن يهزموا فهزموا
فمن سيوف في رؤوس تنحني ومن رماح في ذرى تحطم
وقامت الحرب على ساق فما زلت لأهل الصدق منهم قدم
باعوا من الله الكريم أنفساً كريمة ففاض منها الحكم
دعاهم الله إلى رحمته وحيثهم بين يديه يُخدم
يضرب بالسيف فيرضي ربه وفي رضى الرب النعيم الأديم
ميتهم قد قر في رحمة اجتمعوا ببابه وازدحموا
أخرجه من بيته إيمانه وحبّه في فعل ما يُقدم
ما همّه إلا قتال أمة يكبر عيسى قولهم ومرّيم
تشارك بالله وتدعو معه خلقاً يصح جسمه ويسقم
وتدعي أن له صاحبة وابناً ولا صاحبة ولا ابناً

لَمْ يَثْنِهِ عَنْ عَزْمِهِ أَهْلٌ وَلَا
كَيْفَ وَعَدْنُ تَحْتَ ظِلِّ سَيْفِهِ
وَاللَّهُ رَاضٍ عَنْهُ وَالْخَلْقُ لَهُ
إِخْوَانُنَا مَاذَا الْقُعُودُ بَعْدَهُمْ
هَلْ هِيَ إِلَّا جَنَّةٌ مَضْمُونَةٌ
حُدُّوا السِّلَاحَ وَانْفِرُوا وَسَارِعُوا
إِنْ أَمَامَ الْبَحْرِ مِنْ إِخْوَانِكُمْ
وَنَحْوَكُمْ عِيُونُهُمْ نَظَرَةٌ
وَالرُّومُ قَدْ هَمَّتْ بِهِمْ وَمَالُهُمْ
كُلُّهُمْ يَنْظُرُ فِي أَطْفَالِهِ
أَيْنَ الْمَفَرُّ لَا مَفَرَّ إِلَّا
يَا رَبِّ وَفَّقْنَا وَأَلْهِمْنَا لِمَا
يَا رَبِّ أَصْلِحْ حَالَنَا وَبَالِنَا
يَا رَبِّ وَانصُرْنَا عَلَى أَعْدَائِنَا
يَا رَبَّنَا مَا دَاوُنَا شَيْءٌ سِوَى

مَالٌ وَلَا خَوْفٌ نَعِيمٌ يُعَدَمُ
وَالْحُورُ عَنْ يَمِينِهِ تُسَلَّمُ
يَدْعُونَ مَهْمَا كَبَرُوا وَأَحْرَمُوا
أَفِي ضَمَانِ اللَّهِ مَا يُتَّهَمُ ؟
أَوْ عَوْدَةٌ صَاحِبُهَا مُكْرَمُ
إِلَى الَّذِي مِنْ رَبِّكُمْ وَعِدْتُمْ
خَلْقًا لَهُمْ تَلَفْتُ إِلَيْكُمْ
لَا تَطْعَمُ النَّوْمَ وَكَيْفَ تَطْعَمُ
سِوَاكُمْ رِدْءٌ فَأَيْنَ الْهِمَمُ
وَدَمْعُهُ مِنَ الْحَذَارِ يَسْجُمُ
هُوَ الْغِيَاثُ أَوْ إِسَارٌ أَوْ دَمُ
فِيهِ لَنَا الْخَيْرُ فَأَنْتَ الْمُلْهِمُ
أَنْتَ بِمَا فِيهِ الصَّلَاحُ اعْلَمُ
يَا رَبِّ وَانْعَصِمْنَا فَأَنْتَ تَعْصِمُ
ذُنُوبَنَا فَارْحَمْنَا فَأَنْتَ تَرْحَمُ

ولعبد العزيز المَلْزُوزِي هذه المَلْحَمَة البارعة في ذكر غزوات
يعقوب المنصور المَرِينِي بالاندلس وغزوات بنيهِ وقبائل بني مَرِين
والعرب .

وَأَبْدَأُ فِي النِّظَامِ بِهِ الْكِتَابَا	بِحَمْدِ اللَّهِ أَفْتَتَحُ الْخُطَابَا
وَيَفْتَحُ بِالسُّرُورِ عَلِيَّ بَابَا	لَعَلَّ اللَّهَ يُبَلِّغُنِي الْأَمَانِي
وَيَرْزُقُنِي مِنَ الْقَوْلِ الصَّوَابَا	وَيُرْشِدُنِي إِلَى نَقْلِ صَحِيحَا
وَصَوَّرَهُمْ وَقَدْ كَانُوا تُرَابَا	هُوَ الْمَلِكُ الَّذِي خَلَقَ الْبَرَايَا
عَلِيمٌ قَادِرٌ بِالْجُودِ حَابِي	إِلَاهٌ وَاحِدٌ حَيٌّ مُرِيدٌ
وَأَنْ يُعْزَى لَهُ الْوَصْفُ اكْتِسَابَا	تَقْدَسَ عَنْ صِفَاتِ الْخَلْقِ طَرَا
طِبَاقُ السَّبْعِ إِنْ دُعِيَ اسْتِجَابَا	يُحِيطُ بِعِلْمٍ مَا تَحْوِي عَلَيْهِ
يُحِيطُ بَعْدَ حَصْبَاهَا حِسَابَا	وَيَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ السَّبْعَ عِلْمَا
وَوَاعَدْنَا عَلَى الْحُسْنَى الْمَثَابَا	وَلَمْ لَا وَهُوَ أَنْشَأَنَا امْتِنَانَا
وَأَلْبَسَهَا بِزِينَتِهَا ثِيَابَا	وَأَنْشَأَ فِي السَّمَاءِ لَنَا بُرُوجَا
وَسَخَّرَ بِالرِّيَّاحِ لَنَا سَحَابَا	وَأَجْرَى الشَّمْسَ ثُمَّ الْبَدْرَ فِيهَا
هَمُولٍ بِالْحَيَاةِ هَمَى وَصَابَا	لِتَسْقِيَ بَلَدَهُ مَيْتًا بَغِيثَا
مُدَقَّقَةً وَأَوْدِيَةً عِذَابَا	وَأَجْرَى فِي بَسِيطَتِهَا عُيُونَا
شَفِيعًا مُصْطَفَى يَتْلُو كِتَابَا	وَارْسَلَ فِي الْوَرَى مِنْهُمْ رَسُولَا

مُحَمَّدًا النَّبِيَّ الْمُجْتَبَى مِنْ سُلَالَةِ هَاشِمٍ فَالْأَصْلُ طَابَا
 وَقَدْ أُسْرِيَ بِهِ مَوْلَاهُ لِيلاً وَجِبْرِيلُ لَهُ اخَذَ الرُّكَّابَا
 دَنَا مِنْ حَضْرَةِ الْعَلِيَّا تَدَلَّى وَحَازَ الْقُرْبَ مِنْهُ فَكَانَ قَابَا
 عَلَيْهِ صَلَاةُ رَبِّ الْعَرْشِ تَتَرَى مَدَى الْإِيَّامِ تُورِثُنَا الشَّوَابَا
 وَمَا سَحَّتْ بِهَاءِ الْمُزْنِ سُحْبٌ فَحَلَّى الزَّهْرُ بِالزَّهْرِ الْهَضَابَا
 هُوَ الْمَبْعُوثُ بَشَّرَنَا بِبُشْرَى مِنْ الْمَوْلَى وَانْذَرَنَا أَلْعِقَابَا
 وَحَرَّضَنَا عَلَى قَتْلِ الْإِعَادِي نُضِيقُ بِهِمْ تِلَالًا أَوْ شِعَابَا
 وَنَبْذُلُ فِي جِهَادِ الْكُفْرِ نَفْسًا وَمَالًا قَدْ جَمَعْنَاهُ اكْتِسَابًا
 فَصَدَّقَهُ أَبُو بَكْرٍ عَتِيقٌ وَثَانِيهِ أَبُو حَفْصٍ اجَابَا
 وَثَالِثُهُمْ أَبُو عَمْرٍو وَوَفَّى أَبُو حَسَنٍ طِعَانًا أَوْ ضِرَابَا
 هُمْ الْخُلَفَاءُ أَرْبَعَةٌ تَهَاجَرُوا عَلَى الْإِسْلَامِ صَوْنًا وَاحْتِجَابَا
 وَبَاقِي الْعَشْرَةِ الْمَرْضِيَّ عَنْهُمْ سَمَوْا وَعَلَا ابْنُ عَوْفٍ هُمُ الشَّهَابَا
 سَعِيدٌ وَابْنُ جِرَّاحٍ وَسَعْدٌ زُبَيْرٌ طَلْحَةُ كَرُمُوا صِحَابَا
 هُمْ قَدْ بَايَعُوا الْمُخْتَارَ حَقًّا عَلَى أَنْ لَا يُضَامَ وَلَا يُصَابَا
 وَأَنْ تَفْنَى نَفُوسُهُمْ احْتِمَاءً لَدَيْنَ اللَّهِ بُعْدًا وَأَقْتِرَابَا
 وَهُمْ قَدْ جَاهَدُوا فِي اللَّهِ حَقًّا وَسَلُّوا فِي عُدَاتِهِمُ الذُّبَابَا

عليهم رحمةُ الرحمان تَمَلًّا بنورٍ من قبورهم الرَّحَابَا
فقد بانوا وبَانَ مَنْ أَقْتَفَاهُمْ خفاً نورٌ بدأ منهم وِغَابَا
وعاد الدينُ بعدهم حَقِيرًا ومُنْسَحِقًا ومُمتَنِّها مُصَابَا
وصار بغربنا الْأَقْصَى غَرِيبًا فيا للدينِ يَغْتَرِبُ اغْتِرَابَا
ولم يُعَلِّمْ جِهَادُ اللَّاعَادِي بهاذي الْأَرْضِ يُحْتَسَبُ احْتِسَابَا
إلى أَنْ فَتَحَ الرَّحْمَانُ فِيهِ ليعقوب بن عبد الحق بَابَا
لمولانا أميرِ الْعَدْلِ مُلْكًا بهِ اِنْسَلَبَتْ يَدُ الْكُفْرِ اِنْسِلَابَا
ولم نَرَ قَبْلَهُ فِي الْعَصْرِ مُلْكًا أَرَانَا فِي الْعِدَا الْعَجَبُ الْعُجَابَا
فَهَنَّا الْإِلَاهُ السَّعْدَ فِيهِ ونيَّةَ صِدْقِهِ بَرًّا أَثَابَا
دَعَا لِلَّهِ دَعْوَةً مُطْمَئِنِّ لمولاه دُعَاءَ مُسْتَجَابَا
فَلَبَّيْ اللَّهَ دَعْوَتَهُ وَسَنَى له الْحُسْنَى وَجَنَّبَهُ الصَّعَابَا
فَجَازَ الْبَحْرَ مُجْتَهِدًا مِرَارًا يقود إلى الْعِدَا الْخَيْلُ الْعِرَابَا
فَأَلْبَسَ مُلْكَهُمْ ذِلًّا وَصَارَتْ بهِ الْأَمْلَاقُ تَرْتِيبُ ارْتِهَابَا
أَبْعَدَ جَوَازِ أَرْضِ الْبِرْتِ ^(١) فَخَرُّ تَزِيدُ بهِ مَنَالًا وَاعْتِجَابَا

١ - أي جبال البريني وكان المنصور قد أوغل في أرض العدو حتى وصل إلى تلك الناحية .

هو القطب الذي دارت عليه نجوم السعد لا تخشى اضطرابا
بنوه نجومه والبدر فيهم ولي العهد من بالفضل حابى
أبو يعقوب مولانا المرّجى لنفع الخطب أن أرسى وثابا
هو الملك الذي أعطى وأقنى وصير طعم عيش مستطابا
وأبناء الإمارة ترّجيه وأحفاد العلاء اعتصبوا اعتصابا
أوفي حقهم فردا فردا كما جعلوا الجهاد لهم نصابا
وأذكر غزو هذا العام حتى أذكر كل شخص ما أصابا
وأنشر من فخار مرين برداً كما احتزبوا لدينهم احتزابا
وأروي مدحهم في الدهر شعرا أدونه وأودعه الكتابا
ليبقى ذكرهم في الأرض يتلى يراه الركب زاداً واحتقابا
فعزّوهم مكين في المعالي وعزّ سواهم أضحى سرابا
سأودع غزوهم في الروم نصّاً نظاماً لا أخاف به اضطرابا
وأذكر من وقائعهم أموراً يصير بهنّ طعم الشرك صابا
فهل من سامع خبراً لباباً يردّ عليّ بالصدق الجوابا
فيصغي سمعه نحوي امتناناً يقول إذا أصبت: لقد أصابا

وذلك ان مولانا أناخت
فجازَ البحرَ في صَفَرٍ خَمِيساً
وحلَّ طَرِيفاً^(٢) المولى بِجَمْعٍ
وفي غَدِ يَوْمِهِ ضُرِبَتْ لَدَيْهِ
زَهَتْ حُسْنًا وَجَمَلَهَا سَنَاها
ولم يُرَ مثَلُها في الحُسْنِ لكن
فحلَّ بها كَأَنَّ الشَّمْسَ لَاحَتْ
فيا لَكَ قُبَّةً يَحْكِي سَنَاها
وخلفَ عامِراً وَأَتَى قَرِيباً
ورامَ نِكايةَ الأعداءِ فِيهِ
ومنه أَتَى شَرِيشاً^(٥) في جُمُوعٍ
عَزَائِمُهُ بَطْنَجَةٍ الرُّكَّابِ
بِخَامِسِ شَهْرِهِ رَكِبَ الْغُرَابِ^(١)
كَسَا شَمَّ المَعَاقِلِ وَالْهَضَابِ
هَنَالِكَ قُبَّةً تُنْسِي الْقَبَابِ
لَهَا اخْتَارُوا مِنَ الْحَبَرِ^(٣) الشَّيَابِ
قَدِ انْتُخِبَتْ بِسَبْتَةٍ انْتِخَابِ
بَطْلَعَتِهِ ازْدِهَاءً واعتَجَابِ
سَنَا الْفَلَكَ الْمُحِيطِ بِهَا انْتِسَابِ
مِنْ أَرْكُشٍ^(٤) ثُمَّ رَامَ بِهِ اجْتِلَابِ
فَأَوْسَعَهُ احْتِرَاقاً وانْتِهَابِ
وَوَافَتَهُ مَحَلَّتُهُ^(٦) إِيَابِ

١ - الغراب نوع من السفن .

٢ - جزيرة طريف التي في اول المجاز .

٣ - جمع حبرة بالكسر وهي بُرْدَ يَمَانِ .

٤ - بلدة من عمل شريش تقع على نهر وادي لكه .

٥ - مدينة شهيرة من مدن الاندلس يقال لها بالاسبانية Jerez

٦ - المحلة في الاصطلاح المغربي الجيش والمعسكر .

فَأَوْسَعَتِ الزُّرُوعَ بِهَا احْتِصَادَا وَأَوْسَعَتِ الْغُرُوسُ بِهَا احْتِطَابَا
 أَذَاقَتْ مِنْ شَلُوقَةٍ^(١) كُلَّ رَبْعٍ وَرَوَّضَتْ مِنْ قَنَاطِرِهَا عَذَابَا
 مَدِينَتَهَا وَقَلَعَتَهَا بُحَيْرٌ أَشَاعُوا فِي نَوَاحِيهَا الْخَرَابَا
 وَجَهَّزَ لِلْعِدَا مَنْصُورَ جَيْشٍ لِيَتْرَكَ دَارَهُمْ قَفْرًا يَبَابَا
 عَلَى أَشْبِيلِيَّةٍ أَجْرَى خِيُولَا فَأَوْسَعَ مَنْ بَسَاحَتِهَا انْتِهَابَا
 سَبَى مِنْهُمْ وَغَادَرَ أَلْفَ عِلْجٍ تُطَارِدُ عَنْهُمْ الطَّيْرُ الذَّنَابَا
 وَأَبَ مُظْفَرًا وَأَبُو عَلِيٍّ أَخُوهُ أَتَى وَقَدْ حَمِدُوا الْإِيَابَا
 وَجَهَّزَ جَيْشَهُ عُمَرُ وَوَأْفَى ذُرَى قَرْمُونَةٍ^(٢) يَحْكِي الْعُقَابَا
 وَلَمْ يَتْرَكَ بِهَا أَحَدًا سِوَى مَنْ بِهَا يَنْكَبُ فِي الْأَرْضِ انْكِبَابَا
 أَتَى بَغَنَائِمٍ مَلَأَتْ عَدِيدًا بَسِيطَ الْأَرْضِ بَلْ غَطَّتْ شِعَابَا
 وَجَيْشُ أَبِي مُعَرِّفٍ الْمُعَلَّى عَلَى أَشْبِيلِيَّةٍ حَطَّ الْقَبَابَا
 أَتَى بَغَنِيمَةٍ فِيهَا سَبَايَا وَأَوْصَلَ مِنْ مَرَاكِبِهِمْ لُبَابَا
 بِذَلِكَ الْيَوْمِ سَارَ أَبُو عَلِيٍّ إِلَى بُرْجٍ فَصَيَّرَهُ خَرَابَا
 وَغَزَوَ مَشْقَرِيطَ^(٣) لَيْسَ تَخْفَى فَضَائِلُهَا لَقَدْ حَسَنْتَ مَثَابَا

١ - مدينة تقع في مقاطعة قادس ويقال لها بالاسبانية (Sanlucar) .

٢ - بلدة حصينة تقع شرق اشبيلية .

٣ - حصن بناحية قادس يسمى بالاسبانية (Majaceite) .

ولا أنسى البروزَ على شريشٍ
فذاك اليومُ أعظمُ يومِ حربٍ
ويومُ وُصولِ مولانا المرَجى
هناكُ بروزُ أهلِ الدينِ رَدَّتْ
ولا أنسى القناطِرَ حينَ دارَتْ
وأهلُ شريشٍ لما ان تراءى
هنالكُ خصَصَ المولى بجيشٍ
بأربعةٍ من الآلافِ خيلاً
وأجرى الخيلَ من كلِّ النواحي
فلم يتركْ بتلكِ الأرضِ خلقاً
فتلكُ غنيمَةٌ ما إن سمعنا
وبعدُ أتى أبو زيَّانَ وافي
بهذا اليومِ جهَّزه بألفٍ
وجاء بزُرْعِها وانحازَ عنها
فأهلُ البرجِ قد ذاقوا العذابا
رأيناه إذا ذكروا الضرابا
أبي يعقوبَ أشرفَ واستطابا
محاسنُه على الدهرِ الشَّبابا
بها الإسلامُ^١ توسَّعها انتهابا
وليَّ العهدِ قد فَرَّقوا ارتعابا
أبا يعقوبَ مولانا وحابي
مُسومةً مظفَّرةً عرابا
على اشبيليةٍ شرفاً وغابا^٢
أسارى أو سبائا أو سلابا
بهذا العامِ أكثرها انجلابا
شريشاً بالبروزِ وما أُسترابا
إلى قرْمُونَةٍ وافي الصَّوابا
إلى اشبيليةٍ ولها أَسْتَنابا

١ - هو على حذف مضاف أي أهل الاسلام .

٢ - الشرف المكان العالي والغاب جمع غاب ويريد بهما جبل اشبيلية وغابتها.

وَقَتْلَ أَهْلِهَا وَسَبَى وَوَلَّى
وَمَوْلَانَا أَبُو يَعْقُوبَ وَافَى
إِلَى كَبْتُورَ^١ أَعْمَلَ حَدَّ عَزَمِ
أَحَاطَ بِرَبْعِهَا بَرًّا وَبَحْرًا
وَخَلَّفَ أَرْضَهَا غَيْرًا وَاضَحَتْ
حَمِيدًا فِي سُورٍ مَنْ أَسْتَطَابَا
شَلُوقَةً ثُمَّ حَرَقَهَا ضِرَابَا
لَوْ أَنَّ الْهِنْدَ مُسَّ بِهِ لَذَابَا
فَدَمَّرَهَا وَصَيَّرَهَا يَبَابَا
حَمَامَةً حُسْنٍ مَغْنَاهَا غُرَابَا

وَلَمَّا دَوَّخَ الْمَوْلَى النَّصَارَى
وَلَمْ يَتْرُكْ بَارِضِهِمْ طَعَامًا
وَأَعْوَزَهُ بِهَا عَلْفٌ وَطَالَتْ
وَقَدْ ظَهَرَتْ لِأَسْطُولِ الْأَعَادِي
فَلَمَّا حَلَّ رُبْعَ طَرِيفٍ وَالَى
فِيَاْمُرَ أَنْ تُجَهَّزَ لِلْعَادِي
فَجَهَّزَهَا وَوَأَفَتْ بِاحْتِفَالٍ
وَالْبَسَهُمْ مِنَ الذُّلِّ الثِّيَابَا
وَلَا عَيْشًا هَنِيئًا مُسْتَطَابَا
بِهَا حَرَكَاتُهُ قَصَدَ الْإِيَابَا
عَلَامَاتُ تَزِيدُ بِهِ أَرْتِيَابَا
إِلَى أَجْنَانِهِ^٢ الْغُرَّ الْكِتَابَا
أَسَاطِلُهُ فَأُسْرَعَتْ الْجَوَابَا
وَبَأْسُ مِنْهُ رَأْسُ الْكُفْرِ شَابَا

١ - قرية من قرى مدينة اشبيلية تقع على الوادي الكبير ويقال لها ايضاً قبتور بالقاف .

٢ - جمع جفن بمعنى السفينة .

هَذَا لَكَ شَنْجَةٌ^١ وَافَى شَرِيشًا
فَوَجَّهَ مِنْهُ أَرْسَالَ النَّصَارَى
يُطَالِبُهُ بِعَقْدِ الصُّلْحِ يُعْطِي
وَلَمْ يَقْبَلْ لَهُمْ قَوْلًا وَآبَتْ
وَلَمْ يَرُدُّهُمْ الْمَوْلَى سِوَى مَنْ
فَغَرَّبَ جَيْشُهُ الْمَنْصُورُ بَحْرًا
فَلَمَّا بَرَزَ الْأَسْطُولُ فَرَّتْ
وَمَا أَلَوْتُ عَلَى مُتَعَذِّرِيهَا
فَجَازَ إِلَى الْجَزِيرَةِ فِي سُرُورٍ
فَوَافَقَتْهُ بِهَا الْأَرْسَالُ تَبْغِي
فَأَسْعَفَهُمْ بِهِ جَازَاهُ رَبِّي
وَيَجْعَلُ فِيهِ لِلْإِسْلَامِ طُرًّا
وَذَلِكَ مِنْ أُمُورٍ قَدْ حَكَاهَا
فَبَادَرَ شَنْجَةً فِي الصُّلْحِ حَتَّى

بَلَّيْلَ ثُمَّ عَايَنَ مَا أَرَابَا
إِلَى الْمَوْلَى لِيُسْعِفَهُ الطَّلَابَا
لَهُ مَاذَا أَرَادَ وَمَا أُسْتَجَابَا
لَهُ الْأَرْسَالُ حَائِرَةً خِيَابَا
حَدِيثِ الْبَحْرِ لَا يَرُبُّو أَرْتِيَابَا
إِلَى الْأَفْرُوطَةِ^٢ الْكُفْرِ أَنْسِيَابَا
جِيُوشِ الْكُفْرِ فِي الْبَحْرِ أَنْسِرَابَا
وَلَوْ سُئِلْتُ لَمَّا رَدَّتْ جَوَابَا
يُجَدِّدُ غَزْوَةً تُبْدي الْعُجَابَا
بِعَظْفَتِهِ مِنَ الصُّلْحِ اقْتِرَابَا
عَلَى آرَائِهِ الْحُسْنَى الصَّوَابَا
مَصَالِحَهَا الَّتِي تَرِدُ الطَّلَابَا
لَنَا الْمَوْلَى وَأَحْصَاهَا حِسَابَا
تَقَرَّبَ مِنْ مَدِينَتِهِ اقْتِرَابَا

١ - يريد شانتو ابن الفونش العاشر ملك قشتالة .

٢ - الأفروطة الأسطول .

وجاء لِغِيْلِهِ الْأَعْلَى وَأَعْطَى هَدِيَّاتٍ لِمَوْلَانَا رَغَابَا
فَكَانَ هُنَاكَ بَيْنَهُمَا أُمُورٌ يُنَسِّينِي السُّرُورُ بِهَا أَلْخَطَابَا
وَأَسْرَعَ شَنْجَةً لِلْعَقْدِ حِرْصَا وَأَظْهَرَ فِيهِ لِلْمَوْلَى أَرْتَغَابَا
فَتَمَّ الصُّلْحُ بَيْنَهُمَا لِعُذْرِ مُبِينٍ وَاصِحٍ وَالسُّرِّ غَابَا
فَهَذِي جُمْلَةً وَالشَّرْحُ عِنْدِي سَأُودِعُهُ بِإِيضَاحٍ كِتَابَا

* * *

هَنِيئًا يَا مَرِينُ لَقَدْ عَلَوْتُمْ بَنِي الْأَمْلَاقِ بِأَسَاءٍ وَأَنْتِجَابَا
وَفَاخَرْتُمْ بِمَوْلَانَا الْبَرَايَا فَأَعْطَوْكُمْ قِيَادًا وَأَنْغِلَابَا
أَبْعَدَ الْفُنْشِ وَأَبْنِ الْفُنْشِ يَبْغِي رِضَاكُمْ لَا يَخَافُ بِهِ الْعِتَابَا
فَحِزْبُ مَرِينٍ حِزْبُ اللَّهِ يَحْمِي حِمَى الْإِسْلَامِ لَا يَخْشَى عِقَابَا
إِذَا سَلُّوا السُّيُوفَ تَرَى الْأَعَادِي وَقَدْ حَلُّوا الرُّبَى مَدَّتْ رِقَابَا
هُمْ أَشْفَارُ عَيْنِ الْمَلِكِ تَذْزِي عَنْ الْمُلْكِ الْقِتَامَ أَوْ النَّرَابَا
وَهُمْ مِثْلُ الْأَنَامِلِ حَيْثُ مَدَّتْ يَدُ الْأَمْرِ الَّتِي تُعْطِي الرِّغَابَا

* * *

مَرِينُ لَقَدْ مَدَحْتَكُمْ فَوْفُوا لِمَادِحِكُمْ بِبُغْيَتِهِ الثَّوَابَا

وقد ورثت دولتكم وصارت حلّ يحدو بها الحادي الرّكّابا
وكلُّ منظم شعراً سيفني ويبقى فيكم مدّحي كتابا

ولاي العباس أحمد بن علي المّلياني المراكشي الكاتب صاحب
علامة السلطان أبي يعقوب النريني :

العزُّ ما ضربت عليه قبّابي والفضل ما أشتملت عليه ثيابي
والزّهر ما أهداه غصن يراعي والمسك ما أبداه نفس كتابي
فالمجد يمنع ان يزاحم موردي والعزم يأبى أن يضام جنّابي
فاذا بلوت صنعة جازيتها بجميل شكري او جزيل ثوابي
واذا عقدت مودة أجريتها مجرى طعامي من دمي وشرابي
واذا طلبت من الفراقد والسها ثأراً فأوشك أن أنال طلاي

وللرئيس عبد المهيمن الحضرمي :

أبت همّتي ان يراني امروء على الدهر يرماً له ذا خضوع
وما ذاك إلا لأنّي اتقيت بعزّ القنّاعة ذلّ الخشوع

ولاي زيّد المكودي :

نحن بنو مكود أهل التّقى والجود

نَكَرُ فِي الْأَعَادِي كَكِرَّةِ الْأُسُودِ

ولداود بن عبد المنعم الدُّغُوغِي يَصِفُ مَعْرَكَةَ وَادِي الْمَخَازِنِ ،
 بَجَنَى النُّصْرَمَائِينَ الظُّبَا وَالْكَنَائِنِ^١ عَلَى سَابِقَاتِ الْمَذَكِيَّاتِ الصَّوَّافِنِ^٢
 فَبَيْنَ الْمَعَالِي وَالْمَآثِرِ^٣ فِي الْوَغَى
 هِيَ السُّورُ مَنْ يَجْتَزُّهُ حَلًّا بِسَاحِهَا
 وَمَنْ لَمْ يَخْضُ بِمَحَرِّ الْحُرُوبِ فَلَا يُرَى
 وَمَنْ لَمْ يَخْضُهَا بِالثَّبَاتِ فَرَأْيُهُ
 وَمَاذَا يُفِيدُ الْجَيْشُ إِنْ كَانَ رَبُّهُ
 يَقُودُ لَهَا مَا يَحْجُبُ الشَّمْسَ نَقْعُهُ
 أَتَى سَادِرًا يَخْتَالُ فِي غُلَوَانِهِ
 يُسَرِّبُ نَحْوَ الْمَغْرَبَيْنِ جُنُودَهُ
 كَسِيدَ بَسْطِيَّانٍ^٤ عِنْدَ وَادِي الْمَخَازِنِ
 مَيَاسِرُهُ لَا تَلْتَقِي بِمَيَانِ
 وَفِي صَدْرِهِ لِلدِّبْنِ غَلِي الضَّغَائِنِ
 كَمِثْلِ الدَّبَابِ عَنْ مَآخِرَاتِ السَّفَائِنِ

١ - الظبا السيوف والكنائن جمع كنانة وهي الجعبة التي تجعل فيها السهام.

٢ - جمع صافن وهو الفرس الذي يقوم على ثلاث قوائم من نشاطه .

٣ - جمع مأثور وهو السيف .

٤ - يخطيء .

٥ - Sebastian هو ملك البرتغال الذي قاد حملة وادي المخازن فكانت الكرة

عليه وراجع الفصل الاول من عصر السعديين الجزء الاول .

٦ - صغار الجراد .

وما قصده إلا انتهاك حريمه
وقود أسارى المسلمين لأرضه
ولهو بأبكار الخدور بناتنا
فذا مكره والله يمكر مكره
فخيم في تلك الجهات وعينه
ولكنه مع حمله بمدافع
تخلف ربط الجاش عنه فردّه
تجمع جند الله من كل وجهة
من الملك المقدم فالعلماء فا
وتلوهم الأجناد والناس كلهم
فشبت لظى الهيجاء ليس وقودها
إذا أرعدت تلك المدافع أبرقت

ودك صياصيه وبعث الدفائن
يقدمهم للصلب مثل القرابين
فيصبحن من خدامه والسوادن^٢
به، إذ حدها نحو تلك الأماكن
لمراكش الحمراء لا لتطاون
وبيض وسمر وأمتلاء الكنائن
على خزيه صفراً ولو من فراسن^٣
وقد غص من مدينه كل دائن
لشيوخ أولي التقوى وأهل البواطن
تضل بهم أبصار كل معاين
سوى أنفس الشجعان وسط الميادين
صقيلات بيض الهند فوق اليمائن^٤

١ - حصونه .

٢ - جمع سادنة وهي الخادمة .

٣ - جمع فرسن وهو خف الشاة والبعير .

٤ - أي السيوف الهندية الصقيلة .

٥ - جمع يمين مراداً بها اليد .

فلولا البروق الخاطفات من الظُّبا لما أبصرت عينٌ خلالَ المداخن
 قد أنقضتُ الفرسانُ منّا عليهم م أنقضاضُ صُقور الجوّ فوق الوراشن^١
 وصابر كلُّ قرّنه فمُجندلُ الثرى وجريحُ ساحبٍ للمصارن
 وهائمهم مثلُ الكُرَيْنِ^٢ وقد غدّت سنابكُ خيلِ الله مثلَ المحاجن^٣
 وسيبسطيانُ كفتته مِيَاهُه هزيمًا ، وماءُ النهر أفضعُ كافن
 فحين قضى البتارُ في الكفر ما قضى وأشلاؤه نثنُ بغيرِ مدافن
 رأيتُ ألوفاً من رؤوسٍ تجمعت ويا ليتها أيضًا جدارُ المآذن
 هنالك نصرُ المؤمنين مُوزَّرُ على كل ذي كفر، تهجم ، ضاغن
 فذلك يومٌ مثلُ بدرٍ وصنوه حنينٍ بأيدي المؤمنين الميامن
 لقد ذاق فيه البردُ قِيزُ من الردى جزاءُ مناحيسٍ خزايا ملاعن
 بغوا فجنوا جني البُعَاة فأصبحوا سِمَادَ ألفيافي لا سِمَادَ ألفَداين
 فَلِلشُّكْلِ ما كانَ الهَزِيمُ لأَرْضِه
 وللصَّقَرِ مَنْ ذاقوا الردى ؛ والشواهن

١ - جمع ورشان وهو نوع من الحمام البري .

٢ - جمع كرة .

٣ - جمع محجن وهو العصا المنعطفية الرأس والمراد المضرب الذي ترمي به الكرة .

٤ - جمع شاهين وهو طائر من الجوارح

فَنَحْمَدُ رَبَّ الْعَرْشِ إِذْ كَانَ دِينُنَا لِأَهْلِ الْوَعْيِ وَالْبَأْسِ خَيْرَ الْمَعَادِنِ

ولأبي حامد الفاسي :

وَمُنْكَرِ فَضْلِي مَا سَاءَ نِي بَلْ سَرَّ نِي مَا نَفْسُهُ أَلْزَمَا
مَنْ أَنْكَرَ الشَّمْسَ بَصَحَوْ ضَحَى أَمْضَى عَلَى عَيْنَيْهِ حُكْمَ الْعَمَى

ولاي عليّ اليوسي يُفَاخِرُ أَهْلَ فَاسٍ وَكَانَتْ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ
مُنَافَسَةٌ :

عَلَى رِسْلِكُمْ يَا أَهْلَ فَاسٍ فَإِنِّي فَتَى لَسْتُ بِالْفَدَمِ الْغَيِّ وَلَا أَلْغَمِرُ
أَنَا الصَّارِمُ الْمَاضِي وَيَارُبَّ نَافِثٍ يَخْلُقُ^١ فِي الْبَحْثِ الْأَدِيمِ وَلَا يَفْرِي

وله ايضاً :

إِنِّي امْرُؤٌ لَا أَنْتَنِي غَبْنًا يَوْمَ الْمِصَاعِ بِصَفْقَةِ الْوَكْسِ^٢
وَإِذَا أَسْتَطَالَ الْبُورُ مِنْ فَرَقٍ^٣ لَا يَنْزَوِي خَلْدِي عَلَى رِجْسِ
وَإِذَا أَلْزَمَانُ أَحَالَ نَائِبُهُ حَالِي عَفَفْتُ فَلَمْ يُحِلْ نَفْسِي

١ - من خلق الأديم اذا قدره قبل القطع وهو ينظر الى قول الشاعر :

ولأنت تفري ما خلقت وبعض القوم يخلق ثم لا يفري

٢ - المصاع بالكسر المجالدة .

٣ - البور الفاسد من كل شيء .

وَإِذَا أُسْتَطَابَ الْهُونَ مُحْتَسِبًا نَذُلُّ فَلَسْتُ تَرَاهُ فِي كَأْسِي
أَرَعَى الْهَبِيدَ عَلَى الْقِنَانِ إِذَا كَانَ الْفُرَاتُ يُشَابُ بِالْكَرْسِ^٢
وَإِذَا أُسْتُسِمْتُ الْخَسْفَ فِي بَلَدٍ يَوْمًا زَمْتُ لِغَيْرِهِ عَنَسِي^٣
كُلُّ الْبِلَادِ لَدِي الْحِجَا وَطَنُ وَالنَّاسُ كُلُّهُمْ بَنُو جِنْسٍ

وللأديب محمد بن أحمد بن الشاذلي الدلائي المتوفى سنة ١١٣٧

مَا إِنْ يَعْيبُكَ فَقَدْ الْحَلِي وَالْحَلَلِ إِنْ أَنْتَ بِالْهَمَمِ الشَّمَاءَ كُنْتَ مَلِي
قَدْ ضَلَّ مَنْ ظَنَّ أَنَّ الْمَالَ يَرْقَعُ مَا أَوْهَى السُّؤَالُ بِعَرَضٍ فِيهِ مُبْتَدَلُ
لَا بَارَكَ اللَّهُ بَعْدَ الْعَرَضِ فِي عَرَضٍ م الدُّنْيَا وَلَا نِلْتُ مَا بِالْعَزِّ لَمْ أُنَلِ
وَرُبَّ جَاهِلَةٍ هَبَّتْ تُعَاتِبُنِي أَنْ كُنْتُ عَنْ غَمْرِ عَيْشٍ مُوْثِرِ الْوَشَلِ
قَالَتْ رَأَيْتُكَ ذَا قَوْلٍ تُحَبِّرُهُ أَزْهَى مِنَ الرُّوضِ غَبَّ الْوَائِ كِفِ الْهَطَلِ
وَفِي الْمُلُوكِ لَهُ كُفُوٌ فَأَمَّهُمْ حَتَّى يُعِيدُوكَ ذَا خَيْلٍ وَذَا خَوَلِ
وَلَسْتُ أَصْغِي وَإِنْ لَجَّتْ لِتَعْدِلَ بِي عَنْ مَنَهِجِ الصَّوْنِ بِالتَّعْتَابِ وَالْعَذَلِ
وَإِنَّ مِنْ كَرَمِي بُخْلِي بِشِعْرِي عَنْ تَقْرِيطِ ذِي كَرَمٍ أَوْ ذِمَّ ذِي بَخَلِ

١ - الهبيد الحنظل .

٢ - الكرّس بالكسر ما تبدد من البول والبعر .

٣ - ناقتي .

فَإِنْ تَرَيْنِي مُذِيلاً مَا حَيَّيتُ لَهُ فِي غَيْرِ ذِكْرِ الْوَعَى وَالْأَعْيُنِ النَّجْلِ
يَا أَبَى إِبَائِي وَآبَائِي وَيَأْنَفُ لِي مَجْدُ أَنْفٍ - وَلَمْ يَقْنَعْ - عَلَى زُحْلِ
نَفْسِ الْكَرِيمِ تَعَاْفُ الْوَرْدَ يَصْحَبُهُ ذُلٌّ عَلَى ظَمًا فِي الْجَوْفِ مُشْتَعِلِ

لَوْ كُنْتُ سَائِلَ غَيْرِ اللَّهِ لَمْ أَسْأَلِ غَيْرَ الْمَذَاكِي^١ وَغَيْرَ الْبَيْضِ وَالْأَسْلِ
مَا شِمْتُ^٢ بَارِقَ عَضْبٍ كُنْتُ شَائِمَهُ إِلَّا أَنْتَجَعْتُ^٣ بِهِ أَحْيَا مِنْ السَّيْلِ
لَا تَرْضُ بِالْعَيْشِ فِي ظِلِّ الْهَوَانِ وَخَضُ لِنَيْلِ عَزٍّ غَمَارَ الْمَوْتِ وَالشَّكْلِ
فَلَيْسَ يُدْرِكُ بِالْجُبْنِ الْبَقَاءَ وَلَا م الْأَقْدَامُ يَقْضِي بِمَا لَمْ يُقْضَ فِي الْأَزْلِ
حَلَبْتُ شَطْرِي صُرُوفِ الدَّهْرِ مِنْ عَدَمٍ

وَمِنْ يَسَارٍ وَمِنْ صَابٍ وَمِنْ عَمَلٍ
فَمَا بَطِرْتُ لِإِثْرَاءٍ وَلَا حَسْبِي بَدْتُ بِهِ خَلَّةَ تَنْتَابٍ مِنْ خَلَلٍ
وَكُنْتُ إِذَا بَدَأَ لِي مِنْ حِلٍّ عَطَلُ أَلْفَيْتُ مِنْ حَلٍّ فَضْلِي غَيْرَ ذِي عَطَلٍ
وَشَيْءٌ مِنْهُ فَوْقَ صَفْحَتِهِ يُغْنِيهِ عَنْ شَيْءٍ الْأَغْمَادِ وَالْحُلَلِ

١ - جمع مذك وهو من الخيل ما تم سنه وكملت قوته .

٢ - شام البرق نظر الى سحابته اين تخطر .

٣ - الانتجاع طلب الكلاء .

٤ - هو من قولهم حلب أشطر الدهر اي جربه وعرفه .

ولأبي حفص الفاسي :

سِ بَابَاءِ سَرَاةٍ :	قُلْ لِمَنْ يَعْلُو عَلَى النَّا
بِعِظَامٍ نَاخِرَاتِ	لَيْسَ مِنْ شَأْنِي فَخَارُ
بُعُومٍ زَاخِرَاتِ	مَا فَخَارُ الْمَرْءِ إِلَّا
وَهَبَاتٍ وَافِرَاتِ	وَسَجَايَا وَمَزَايَا
فِي مَجَالِ الْغَمَرَاتِ	وَنِضَالِ بِنِصَالِ
وَقُدُورِ رَاسِيَاتِ	وَجِفَانِ كَالْجَوَابِ

وللأديب محمد بن الطيّب سُكَيْرِج المتوفى عام ١١٩٤ :

غِيٍّ بَلِيدِ الطَّبْعِ حَلْفِ جُمُودِ	أَلَا قُلْ لِعُمْرٍ جَاهِلٍ وَحَسُودِ
لَهُ فِي مَقَامِ الْمَجْدِ خَيْرُ شُهُودِ	يُنَافِسُ فِي الْعُلَيَاءِ حَبْرًا مُهَذَّبًا
بِلَا سُلَمٍ إِذْ لَمْ تَبُوءْ بِفَرِيدِ	لَعَمْرِي لَقَدْ أَرَقَيْتَ نَفْسَكَ لِلْعُلَا
تَمَنَّعَ عَنْ ذِي مَنَعَةٍ وَعَدِيدِ	وَحَاوَلْتَ أَمْرًا لَسْتَ تَعْلَمُ أَنَّهُ
أَرَاكَ حَذُورًا مِنْ شَدِيدٍ وَعَيْدِي	فَكَمْ ظَلْتُ أَسْعَى فِي رِشَادِكَ عَلَنِي
مَطِيَّةَ فَخْرٍ فِي مَقَامِ شُهُودِ	فَهَا أَنَا ذَا مُسْتَجْمِعِ الْفِكْرِ رَاكِبًا

تَيْقِظُ لِقَوْلِي وَأَسْتَمِعُ كُلَّ حُجَّةٍ
وُحْذِنَ قَرَى الْأَبْطَالِ مَا أَنْتَ طَالِبٌ
وَلَا تَأْسَ إِنْ أَبْصَرْتَ زِلْزَالَ بَارِقٍ
وَإِنَّكَ مَا نَبَّهْتَ مِنِّي نَائِمًا
فَمَا أَكْتَسَابُ الْمَجْدِ مِنْ عَهْدٍ يَغْرُبُ
وَأَمَّا الْعُلَا فَاسْأَلْ تَرَى فَضْلَ أَهْلِنَا
وَأَمَّا رِعَايَاتُ الذَّمِّ مَا فَإِنَّهَا
وَأَمَّا أَلْدَى فَانْظُرْ بَعَيْنُكَ حِينَا
تُخْبِرُكَ إِلَّا نَامُ عَنِّي حَقِيقَةً
ذَوِي الْحَسَبِ الْمَوْفُورِ وَالْحِلْمِ وَالْتَقَى
إِذَا بَرَزْتَ يَوْمًا طَلَانِعُ حِزْبِهِمْ
تَرَاهُمْ لَدَى الْهَيْجَاءِ أَشَدًّا فَوَاتِكًا
أَكْفَهُمْ تَجْرِي عَلَى كُلِّ حَالٍ
وَلِحُرْمَةِ بْنِ عَبْدِ الْجَلِيلِ أَلْعُلُويِ الشَّنْقِيطِيِّ يَفْتَخِرُ بِقَوْمِهِ :
دَمٌ أَهْدَرَتْهُ سَادَةٌ عَلَوِيَّةٌ وَمَا كَانَ فِيهِمْ مِثْلُ ذَلِكَ مِنْكَرًا

وما أَسْتَنْصِرُوا غَيْرَ الصَّوَارِمِ بَاصِرًا وَأَغْنَتْهُمْ عَمَّنْ أَتَى مُتَنَصِّرًا
يُخَوِّضُونَ يَوْمَ الرَّوْعِ فِي لُجَجِ الرَّدَى لَأَنَّ مَنَالَ الْعَزْ فِيهِنَّ ، أَجْجُرَا
يُسَابِقُ عَزْرَائِيلَ وَقَعُ سِيوفِهِمْ إِذَا مَا مُحْيَا الْحَرْبَ أَصْبَحَ مُسْفِرَا
فَكَمْ مَشْهَدٍ فِي الْحَرْبِ يُثْنِي عَلَيْهِمْ وَكَمْ مَعْشَرٍ مِنْ بَأْسِهِمْ كَانَ أَزُورَا
تَرَاهُمْ وَلَيْسَ الدَّهْرُ إِلَّا نَوَائِبًا إِذَا كَبُرَتْ تِلْكَ النَّوَائِبُ ، أَكْبُرَا
سَمَا لِلْعَالِي مَنْ تَقَدَّمَ مِنْهُمْ وَيَسْمُو عَلَى آثَارِهِ مَنْ تَأَخَّرَا
مَا ثَرَّهُمْ حَلِيُّ الزَّمَانِ لَوْ أَنَّهُ عَلَى صُورَةِ الْإِنْسَانِ كَانَ مُصَوَّرَا
فَكَمْ مِنْ فَتَى مِنْهُمْ يَرُوقُكَ عِلْمُهُ وَيَهْزِمُ مِنْ أَنْجَادٍ وَأَدَانٍ عُسْكَرَا^٢
وَيَجْعَلُ فِي إِحْدَى يَدَيْهِ مُهْنَدًا طَرِيرًا وَفِي الْأُخْرَى كِتَابًا مُطَرَّرَا
يُحِبُّ الرَّدَى يَوْمَ الْوَغَى فَكَأَنَّهُ إِذَا مَاتَ فِيهِ لَا يَزَالُ مُعَمَّرَا
بَطْرِفِكَ فَانْظُرْ كَيْ تَرَى بَعْضَ مَجْدِهِمْ إِذَا أَنْتَ عَنْ ادْرَاكِهِ كُنْتَ مُقْصِرَا

وللوزير ابن ادريس العَمْرَاوِي :

شُعْبِي وَشُعْبُ الْغَوَانِي غَيْرُ مِلَّتَيْمِ وَوَضَلُّهُنَّ أَرَى ضَرْبًا مِنَ الْحُلْمِ

١ - أَي نَاصِرًا .

٢ - وَادَان قَبِيلَةٌ كَانَتْ فِي حَرْبٍ مَعَ قَوْمِ الشَّاعِرِ .

كم لي أسائل عن سلمى وجارتها
وكم أكفكف دمعاً في مراحبها
والشيب قد لاح في قوذي وقنّعي
أسرى بليل شبابي فاستنار به
وبصر العين سبل الرشد فانبعثت
نفسي عن الكبراء القدر قد كبرت
ماذا يقول ذووا البغضاء في رجل
والعرب بالباب والخبار سائرة
أصون ماء المحيا عن إراقته
ولا أمدن عيني نحو عارفة
وكم فتى لجناب الملك منتسب
يظلّ يسدي ويهذي في زحارفه

وله أيضاً :

سل الرواة عن نفثات شعري فكم أبرأ من قلب سقيم

وكم أظهرن جوداً من يخيل وكم أولدن من فكري عقيم
فان الشعر في التحقيق سحر كما قد جاء في الأثر الكريم
ولي في نظمته القدح المعلي وأسرار تغيب عن العليم
فأنظم حين أنظم راعات تفوق الدر في العقد النظيم
وارفع بالمديح مقام قوم وان كانوا ذوي أصل لئيم
وأجل بالهجاه منار قوم وان كانوا ذوي قدر عظيم
ولي قلم له بأس شديد يُتلم حده حد الصريم
ويترك صربه الأقران صرعى لدى الميدان بالضرب القويم

ولمحمد بن الشيخ سيدي الشنقيطي :

أزف الرحيل فقرباً أجمالنا ثم أنميأ فوق الجمال رحالنا
إننا إذا بلدنا يوماً بنا حملت لآخر نجبنا أثقالنا
نبداننا أن لا ننيط جبالنا إلا بأجل من يحب وصالنا
نطوي على الشعث المواصل ما طوى صدرأ على أن لا يشد جبالنا

١ - - الصريم كالصارم : السيف

٢ - ارفعا .

سترأ عليه وفي هواه ووصله	نعضي ولو آباءنا عذالنا
واذا رماه الدهر كنا دونه	ترساً ونمنح من رماه نصالنا
ما إن بقي أموالنا مهجاتنا	كلأ ولا مهجاتنا أموالنا
واذا دعا كنا الجواب وإن سعى	كنا حواليه وكان خلالنا
ويصيب من صافى العدو عداونا	وينال من وإلى الولي نوالنا
خلقاً لنا لا صالحين لغيره	خلقاً وليس بصالح إلا لنا

الغزل والشوق والنسيب

قال المولى إدريس الثاني :

لو مَدَّ صَبْرِي بِصَبْرِ النَّاسِ كُلِّهِمْ
بَانَ الْأَحِبَّةُ فَاسْتَبَدَلْتُ بَعْدَهُمْ
كَأَنِّي حِينَ يُجْرِي الْفَكْرُ ذِكْرَهُمْ
وَكَيْفَ يَصْبِرُ مَطْوِيٌّ هَضَائِمُهُ^١
إِذَا الْهَمُومُ تَوَافَتْ بَعْدَ هَجْعَتِهِ
لَوْ فِي رَوْعَتِي أَوْ ضَلَّ فِي جَزَعِي
هَمًّا مُقِيمًا وَشَمْلًا غَيْرَ مُجْتَمِعٍ
عَلَى ضَمِيرِي مَجْبُولٌ عَلَى الْفَزَعِ
عَلَى وَسَاوِسٍ هَمٍّ غَيْرِ مُنْقَطِعٍ
كَرَّتْ عَلَيْهِ بِكَأْسِ مُرَّةِ الْجُرْعِ

وقال ابنُ القَابِلَةِ السبتي :

وَوَجْهَ غَزَالٍ رَاقٍ حَسَنًا أَدِيمُهُ
تَعَرَّضَ لِي عِنْدَ اللَّقَاءِ بِهِ رَشَاءُ^٢
يَرَى الصَّبُّ فِيهِ وَجْهَهُ حِينَ يُبْصَرُ
تَكَادُ الْحُمَيَّا مِنْ نُحْيَاهُ تَقْطُرُ

١ - يعني جوارحه .

٢ - الرشأ ولد الطيبة .

وَلَمْ يَتَعَرَّضْ كِي أَرَاهُ وَإِنَّمَا أَرَادَ يُرِينِي أَنَّ وَجْهِي أَصْفَرُ
وَقَالَ الْكَاتِبُ أَبُو بَكْرٍ بْنُ عَطَاءِ الْمَسْبُتِي مُقَاطِعًا :

سَأَمْنَعُ قَلْبِي أَنْ يَكُونَ لَكُمْ مَهْوًى وَأَسْتَدْفِعُ الْبَلْوَ وَأَسْتَصْرِفُ اللَّهْوَ
وَمَا سَرَّنِي بَعْدَ الرِّضَا إِذْ غَدَرْتُمْ وَغَادَرْتُمْ بَيْنَ الْحَشَا هَضْبَتِي رَضْوًى
وَصِيرْتُمْ الْعُتْبَى عِتَابًا فَكَلِمًا أَبْشِكُمْ شَجْوِي تَزِيدُونِي شَجْوًا
قَضَى اللَّهُ أَنْ أَقْصِي وَأَصْفِيكُمُ الْهَوَى وَغَيْرِي يُسْتَدْنِي وَإِنْ كَانَ لَا يَهْوَى
وَمَا كَانَ ظَنِّي قَبْلَ ذَا أَنْ حَاسِدِي بِمَنْهَلِكُمْ يَرَوِي وَأَنِّي لَا أَرَوِي
وَمَا جَلَّتِ الْبَلْوَ عَلَيَّ وَإِنَّمَا شِمَاتُهُ أَعْدَائِي أَجَلُّ مَنْ الْبَلْوَ

وَقَالَتِ السَّيِّدَةُ أَمَةُ الْعَزِيزِ الْحُسَيْنِيَّةُ :

لِحَاطِكُمْ تَجَرُّحُنَا فِي الْحَشَا وَلَحْظُنَا يَجْرُحُكُمْ فِي الْخُدُودِ
جُرْحٌ بِجُرْحٍ فَاجْعَلُوا ذَا بِيْذَا فَمَا الَّذِي أَوْجَبَ جُرْحَ الصُّدُودِ
وَقَالَ أَبُو الْحَسَنِ بْنُ زَيْنَبَاعَ :

نِزَاعٌ مَا أَرَى بِكَ أَمْ نِزْوَع لَقَدْ شَقِيتُ بِهِ مِنْكَ الضَّوْعُ
يُرْوَعُكَ أَوْ يَرِيعُكَ كُلُّ دَاعٍ أَكَلْتُ مُثَوِّبِ دَاعٍ سَمِيعِ
جَهْلَتَ وَقَدْ عَلَاكَ الشَّيْبُ أَمْرًا يَقُومُ بِعِلَامِهِ الطِّفْلُ الرَضِيعِ
وَلَوْلَا ذَاكَ مَا قَدَّرْتَ أَنِّي أَنْوَأُ بِحِمْلِ مَا لَا أَسْتَطِيعُ

فحسبك أو فحسبي منك دهر يثت بصرفه الشمل الجميع
 وشوق تقتضيه نوى شطون فتقضي عنه واجبها الدموع
 حملت الحب مؤتمناً عليه فكيف يضيع ذلك أو يذيع
 لقد جشمت نفسك متلفات بكل ثنية منها صريع
 وحال الصب تخضبه دموع كحال القرن يخضبه نجيع^١
 وقد تحمي الدروع من العوالي ولا تحمي من الحدق الدروع
 ورب فتى تراعى الأسد منه تقنص قلبه الرشأ المروع

وقال أيضاً : ويحتوي على معان فلسفية رائعة :

لهواك في قلبي كريقك في فمي غيري يقول الحب مر المطعم
 فأدير علي بمقلتيك كوؤسه حتى يدب نخاره في أعظمي
 إن التلدد^٢ في هواك تلذذ لو كان أقتل من زعاف الأرقم
 فأجب بحب لا يُشير ملامه ملئت بموليه عيون النوم
 شغل النواظر والقلوب ولم يدع من لم يسنمه من الأنام بميسم
 ومن العجائب شغل شيء واحد في الحال أمكنة ولم يتقسم^٣

١ - النجيع الدم .

٢ - التلدد : التحير والزعاف السم القاتل والأرقم أخبث الحيات .

٣ - يعني والشيء الواحد لا يخل مكانين في زمن واحد .

وأقامَ أَزْمِنَةً وليس بجَوَّهر^(١) وجرى وليس بمائع مجرى الدم
يا أيها القمرُ الذي إنسانُه يرمي أناساً للعيون بأشهم
لم أبدِ حبِّك غيرَ أن جوانحي فاضت به فيضَ الإناءِ المفعم
لاذنبَ لي عِلمَ الذي أسرَّته نظراً ولم أرْمُزْ ولم اتكَلَّمْ
وأمرتَ بالشكوى اليك وإنما يُنمى الى الانسان ما لم يَعْلَمْ
ولربُّمَّا لم تُشْكِنِي فأَمَاتَنِي يَأْسِي فذَرْنِي تحتَ أمرٍ مُبهم
وتلافني قبل التَّلافِ فإنني من حَمِيرٍ وسيأْخُذونك في دَمِي
الطَّاعِنِينَ بِكُلِّ أَسْمَرٍ مَدُ عَسٍ^٢ والضَّارِبِينَ بِكُلِّ أَيْضٍ مَخْذَمٍ^٣
والوَارِدِينَ الصَّادِرِينَ إِذَا الوَغَى لَقِحتُ بِجَمَرَتِهَا وَجُوهُ الحُومِ
ولعلَّهم تَسْمُو بِهِم هِمَّاتُهُمْ أَنْ يُدْرِكُوا فِي الطَّبِي نَارَ الصَّيْغَمِ

وقال محمد بن عبد الكريم الفندلاوي الفاسي عُرفَ بابن
الكتَّاني :

وما أَبْقَى الهوى والشوقُ مِنِّي سوى نَفْسٍ تَرَدَّدَ فِي خِيَالِ

١ - أي بل عرضا والشأن أن العرض لا يبقى زمانين .

٢ - المدعس الرمح .

٣ - المخدم السيف القاطع .

خَفِيتُ عَنْ الْمَنِيَّةِ أَنْ تَرَانِي كَأَنَّ الرُّوحَ مَنِيٌّ فِي مُحَالٍ
وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ يَظْظَانَ السَّبْئِيُّ :

أَخْوَانَنَا مَا حُلْتُ عَنْ كَرَمِ الْعَهْدِ
فَيَا كَيْتَ شِعْرِي هَلْ تَغَيَّرْتُمْ بَعْدِي
وَكَمْ مِنْ كُوُوسٍ قَدْ أَدْرْتُ بِوَدِّكُمْ
فَهَلْ لِي كَأْسٌ بَيْنَكُمْ دَارًا فِي وَدِّي

وَقَالَ الْقَاضِي عِيَاضُ :

رَأْتُ قَمَرَ السَّمَاءِ فَأَذْكَرْتَنِي لَيْلِي وَصَلِيهَا بِالرَّقْمَتَيْنِ^١
كَلَانَا نَاطِرٌ قَمَرًا وَلَكِنْ رَأَيْتُ بَعَيْنَهَا وَرَأْتُ بَعَيْنِي^٢
وَقَالَ أَيْضًا :

أَقُولُ وَقَدْ جَدَّ ارْتِحَالِي وَغَرَّدَتْ
وَقَدْ غَمِصَتْ مِنْ كَثْرَةِ الدَّمْعِ مُقْلَتِي
وَلَمْ تَبْقَ إِلَّا وَقْفَةٌ يَسْتَحِشُّهَا
حُدَاتِي وَزُمَّتُ لِلْفِرَاقِ رَكَائِي
وَصَارَتْ هَوَاءً مِنْ فَوَادِي تَرَانِي
وَدَاعِي لِلْأَحْبَابِ لَا لِلْحَبَائِبِ

١ - الرقمتين اسم موضع .

٢ - يريد رأيت القمر الحقيقي الذي هو المحبوبة ورأت القمر المجازي الذي هو قمر السماء وهذا على سبيل المبالغة .

رَعَى اللهُ جِرَانًا بِقُرْطَبَةِ الْعُلَا وَسَقَى رُبَاهَا بِالْعِهَادِ السَّوَاكِبِ
وَحَيًّا زَمَانًا بَيْنَهُمْ قَدْ أَلْفَتْهُ طَلِيقَ الْمَحْيَا مُسْتَلَانَ الْجَوَانِبِ
أَخْوَانَنَا بِاللَّهِ فِيهَا تَذَكَّرُوا مَعَاهِدَ جَارٍ أَوْ مَوَدَّةَ صَاحِبِ
غَدَوْتُ بِهِمْ مِنْ بَرِّهِمْ وَاحْتِفَائِهِمْ كَأَنِّي فِي أَهْلِي وَبَيْنَ أَقَارِبِي

وقال الامير ابو الربيع سليمان الموحّد :

أَقُولُ لِرَكْبٍ أَذْجَلُوا بِسَحِيرَةٍ قَفُّوا سَاعَةً حَتَّى أَزُورَ رِكَابَهَا
وَأَمْلَأَ عَيْنِي مِنْ مَحَاسِنِ وَجْهِهَا وَاشْكُو إِلَيْهَا أَنْ أَطَالَتْ عِتَابَهَا
فَإِنْ هِيَ جَادَتْ بِالْوِصَالِ وَأَنْعَمْتُ وَإِلَّا فَحَسْبِي أَنْ رَأَيْتُ قِبَابَهَا
وَقَفْتُ بِهَا أَشْكُو وَأُسْكِبُ عَبْرَةً عَلَى غَيْرِ بَيْنٍ مَا عَرَفْتُ انْسِكَابَهَا
فَأَوْمَتُ بِرُخْصٍ مِنْ بَنَانٍ مُخَضَّبٍ وَخَطَّتْ عَلَى الْبَدْرِ الْمُنِيرِ نِقَابَهَا
وَقَالَتْ أَيْبُكِي الْبَيْنَ مَنْ قَدْ أَرَادَهُ وَيَشْكُو النَّوَى مَنْ قَدْ أَثَارَ غُرَابَهَا
وَلَمَّا تَنَاءَتْ دَارُهَا وَتَبَاعَدَتْ وَعَاقَتْ عَلَى بُعْدِ الْمَزَارِ خِطَابَهَا
كَتَبْتُ إِلَيْهَا أَشْتَكِي أَلَمَ النَّوَى لَعَلِّي أَرَى يَوْمًا إِلَيَّ كِتَابَهَا
وَكُنْتُ أَرَى أَنَّ الْجَوَابَ تَعَلَّلُ وَقَدْ زَادَ مَا بِي إِذْ رَأَيْتُ جَوَابَهَا

وقال أبو حفص ابنُ عمر :

هُمْ نَظَرُوا لَوَاحِظَهَا فَهَامُوا وَتَشَرَّبُوا عَقْلَ شَارِبِهَا الْمَدَامِ

يخاف الناسُ مقلَّتَها سواها أيذْعُرُ قلبَ حامله الحسام
 سما طرُفي إليها وهو بالك وتحت الشمس ينسكب الغمام
 وأذكر قدها فأنوح شوقاً على الاغصان تذبذب الحمام
 وأعقبَ بينها في الصدر غمّاً اذا اغتربت ذكاء أتى الظلام
 وقال :

أغارَ على الصَّبِّ من أنبَه هو الحبُّ من يُطفئه ألبيه
 نأى القلبُ عني وشوقي معي فليله أُمري ما أعبه
 يحنُّ فوادي الى قاتلي كذاك الهوى عند من جرَّبه
 ترقُّ شمائل من ذاقه وتلطف شمائل من هذَّبه
 يجود لمسخطه بالرضا ويطلب راحة من أتعبه
 اذا شَفَّ قلبي غرامُ الهوى دعا بالنعيم لمن عذَّبه
 وقال :

مشت كالغُصْنِ يثنيه النَّسيمُ ويعدّوه النسيمُ فيستقيم
 لها ردْفٌ تعلّق في ضعيف وذاك الرِّدْفُ لي ولها ظلوم

١ - ذكاء الشمس .

٢ - الشمائلُ الريح التي تهب من الشمال والمراد بخفّ روحه .

يُعَذِّبُنِي إِذَا فَكَّرْتُ فِيهِ وَيُتَعِبُنِي إِذَا رَامَتْ تَقُومُ
وَمَا حُبِّي لَهَا إِلَّا عَذَابٌ عَلَيْهِ مِنْ نَضَارَتِهَا نَعِيمٌ

وَقَالَ يُشَبِّبُ بِجَمَالِ الْأَعْرَابِيَّاتِ :

مَهَا الْقَفْرُ لَا دُمَيْةَ الْمَرَمَرِ^١ وَفِي الْعَرَبِ لَا فِي بَنِي الْأَصْفَرِ^٢
بِنَفْسِي يَعْافِيرُ تِلْكَ الْخِيَامِ^٣ وَمَسْرَحُهَا فِي النَّقَا الْأَعْفَرِ^٤
مَلَاعِبُ يَصْبُو إِلَيْهَا الْحَكِيمُ وَيُسَلِّبُ فِيهَا فَوَادَ الْجُرِي
وَفِيهَا الظُّبَاءُ بَنَاتُ الْأَسُودِ غِيَارِي مَتَى بَغَمْتُ تَزَارُ^٥
فَخَيْسُ الْهَزْبِ كِنَاسُ الْغَزَالِ بِهِ الشَّبْلُ نَاشٍ مَعَ الْجُوذَرِ
تُخَالِسُهَا نَظَرًا تَحْتَهُ غَرَامٌ بِهِ الْحَيُّ لَمْ يَشْعُرْ
وَبِاللَّحْظِ يُقَدِّحُ زَنْدُ الْهَوَى فَطَرْفُ غَيْرِ وَفَوَادُ بَرِي^٦

١ - أي هُنَّ شبيهات ببقر الوحش لا بتماثيل الرخام التي تشبهها الحضريات .

٢ - بنو الأصفر الروم ويعني انهن سمر لا بيض كالروميات .

٣ - اليعافير الغزلان .

٤ - النقا الرمل والأعفر الذي له لون العفر وهو التراب .

٥ - البُغَام صوت الغزال والزئير صوت الأسد يعني انهن محروسات بالشجعان

من قومهن .

٦ - يعني أنهن يغرين العشاق بنظراتهن وقلوبهن خاليات من الغرام .

وقال :

هذا فُوَادِي أَقْصَدَتْهُ الْأَسْهُمُ مَنْ ذَا يَرَى تِلْكَ الْجُفُونَ وَيَسْلَمُ
يا غُرَّةَ حَكَمَ الْجَمَالُ لَهَا عَلَى شَمْسِ الضَّحَى وَأَصَابَ فَيْتًا يَحْكُمُ
يُحْكِي الْجَنَادِرَ جِيدُهَا وَلِحَاطُهَا هِيَّاتَ دُونَ الْعَالَمِ الْمُتَعَلَّمِ
وَكَانَ قَامَتَهَا وَنَعْمَةً لَفْظُهَا غُصْنٌ عَلَيْهِ بُلْبُلٌ يَتَرَنَّمُ
يُضْحِي الْخَلِيَّ إِذَا رَأَاهَا عَاشِقًا وَالْعَقْلُ تَوْقِظُهُ اللَّحَاطُ النَّوْمَ

وقال أبو عبدالله ابنُ المَحَلِيِّ السَّبْتِي ، وهو من شعر الإشارة :

أَبُوحُ بِمَا أَلْتَاهُ فَهُوَ مُبَاحُ فَقَبَّلِي أَرْبَابُ الْمَحَبَةِ بَاحُوا
إِذَا بَاحَ مَنْ قَبَّلِي وَلَمْ يَلْقَ بَعْضَ مَا لَقِيتُ فَإِنِّي مَا عَلَيَّ جُنَاحُ
أَأُحِبُّ أَبْنَاءَنَا لَا تَحْسِبُوا الصَّبْرَ بَعْدَكُمْ سَخِيًّا وَلَا إِنْ الدَّمُوعُ شَحَاحُ
وَإِنْ فَنَيْتُ أَجْسَادَنَا وَقَلُوبُنَا فَتِلْكَ الْعُهُودُ السَّالِفَاتُ صَحَاحُ
سَمَحْتُ لَكُمْ بِالنَّفْسِ كِي أَرْبَحَ الرِّضَا عَلَى ثِقَةٍ أَنَّ السَّمَاحَ رَبَّاحُ
فُوَادِي مُنْقَادُ إِلَيْكُمْ مُذَلَّلُ فَمَا لِي إِذَا لَجَّ الْعَذُولُ جَمَاحُ
وَهَلْ مِنْ سَبِيلٍ إِنْ أَطِيرَ إِلَيْكُمْ وَقَدْ حُصِّلِي رِيْشُ وَقْصٍ جَنَاحُ
تَغَيَّرَ وَقَفِّي بَعْدَكُمْ فَكَأَنَّمَا صَبَاحِي مَسَاءُ وَالْمَسَاءُ صَبَاحُ
وَمَا تَفْضُلُ الْإَيَّامُ أُخْرَى بِذَاتِهَا وَلَكِنَّ أَيَّامَ الْمِلَاحِ مِلَاحُ

خَرِسْتُ عَنْ الشَّكْوَى إِلَيْكُمْ مَهَابَةً
تَمْتَعُ لِحَظِي سِنَّةً فِي جَمَالِكُمْ
وَيَا عَجَباً أَنِّي أَسِيرُ وَأَنْنِي
إِذَا هَزَّ أَرْبَابَ السَّمَاعِ تَوَاجُدُ
فَهَا أَنَا عِنْدَ الْبَابِ مُنُونًا أَوْ أَطْرُدُوا
وَأَلْسُنُ حَالِي بِالْغَرَامِ فِصَاحُ
فَإِنْ لَاحِظَ الْأَغْيَارَ فَهُوَ سِفَاحُ
أُنَاشِدُكُمْ أَنْ لَا يُتَاحَ سَرَاحُ
فَحَظِّي مِنْهُ زَفْرَةٌ وَصِيَاحُ
فَمَا لِي عَنْهُ كَيْفَ كَانَ بَرَا حُ

وقال ايضاً :

غَرَامِي دَعَانِي وَالْعَذُولُ نَهَانِي
أَمَّا عَلِمَا أَنِّي عَلَى الشَّحْطِ وَالنَّوِي
يَقُولُونَ لِي مَنْ ذَا دَعَاكَ لِمَا نَرَى
ضَمَانٌ عَلَى قَلْبِي الْأَسَى بَعْدَ بُعْدِهِمْ
أَعْلَلُ نَفْسِي بِالسُّلُوفِ تَعَلُّلاً
إِذَا خَفَقَ الْبَرْقُ الْيَمَانِي بِأُفُقِكُمْ
وَإِنْ هَمَلْتُ مُزْنَ السَّحَابِ بِأَرْضِكُمْ
فَوَجَدْتُ وَعَذَلْتُ كَيْفَ يَجْتَمِعَانِ
مُقِيمٌ وَأَنْنِي وَالْهُوَى أَخَوَاتُ
فَقُلْتُ دَعَانِي حُبُّهُ فَدَعَانِي
إِذَا لَمْ يَكُنْ يَوْمُ اللَّقَا بِضَمَانِ
وَتِلْكَ أَمَانٍ مَا بِهِنِ أَمَانِ
أَقَابِلُ ذَاكَ الْخَفَقَ بِالْخَفَقَاتِ
يُغَالِبُهَا دَمْعِي عَلَى الْهَمَلَانِ

نعى الله جيران العذيب وأهله وان أترعونني من هوى وهوان
م وعدوا بالغور ثم تراوغوا وهم عنفوا بالنعفا من بدلان
صدوا على صدا وبالحيف خوفا وبأنوا بذات البين صوب أبان
بن حجبوا عن ناظري فكأنهم بقلبي يراهم فيه رأي عيان
ان عميت انباؤهم حيث يمموا فسيرى يرعاهم بكل مكان

وقال الخليفة عمر المرتضى الموحدى :

ليل دمع مقلته دليل على ان ألحشا فيها غليل
لم يبأبكم يبغى شفاء لداء البعد فهو له قتل
نيلوني رضا منكم وقرباً وحاشا فضلكم ان لا تنيلوا
لئن قطعت سبيل الوصل عني خطوب شرحها عندي يطول
نشافع ما اقترفت هوان ذلي وأعظم شافع اني ذليل
فحسي انني عبد قطوع وحسبك انك المولى الوصول

وقال عبد العزيز الملزوزي :

أعلمت بعدك زفرتي وأيني وصبايتي يوم النوى وشجونى

أَوْدَعْتَ اذْودَعْتَ وَجَدًا فِي الْحِشَا
وَرَقِيبُ شَوْقِكَ حَاضِرٌ مَرَقَّبٌ
مِنْ بَعْدِ بَعْدِكَ مَا رَكَنْتُ لِرَاحَةٍ
قَدْ كُنْتُ أَبْكِي الدَّمْعَ أَيْضًا نَاصِعًا
قُلْ لِلَّذِينَ قَدِ ادَّعَوْا فَرُطَ الْهَوَى
إِنِّي أَخَذْتُ كَثِيرَهُ عَنْ عُرْوَةٍ
مَا إِنْ تَزَالُ سَهَامَهُ تُصْمِينِي
إِنْ رَمْتُ صَبْرًا بِالْأَسَى يُغْرِينِي
يَوْمًا وَلَا غَاضَتْ عَلَيْكَ شُؤُونِي
فَالْيَوْمَ تَبْكِي بِالدَّمَاءِ جُفُونِي
إِنْ شِئْتُمْوَا عَلِمَ الْهَوَى فِلسُونِي
وَرَوَيْتُ سَائِرَهُ عَنِ الْمَجْنُونِ

وَقَالَ ابْنُ عَبْدِوَنٍ لِمَكْنَسِي:

يَا جِيرَتِي وَمَنْ أَسْتَجَرْتُ بِهِمْ
عَوَّضْتُمُونِي بِالْوِدَادِ قَلِي
وَشَغَلْتُمْ بَالِي بِهَجْرِكُمْ
مَا هَكَذَا فَعِلُ الْكِرَامِ يَمَنْ
عَلَّقْتُ حَبْلَ مَحَبَّتِي بِكُمْ
مَا كَانَ أُنْدَى ظِلِّ عَيْشَتِنَا
إِذْ نَجَّتَنِي ثَمَرَ الْمُنَى ذُلًّا
عُودُوا إِلَى عَادَاتِ وَصْلِكُمْ
حَاشَاكُمْ وَالْفَضْلُ شِيَمَتَكُمْ
مِنْ جَوْرِ عِزِّهِمْ عَلَى ذُلِّي
وَأَبْدَلْتُمْ الْإِنْصَافَ بِالْمَطْلِ
وَوَبَّالَهُ عَنْ كُلِّ شُغْلٍ
مِنْهُمْ تَعَوَّدَ اجْمَلَ الْفِعْلِ
بِحَيَاتِكُمْ لَا تَقْطَعُوا حَبْلِي
إِذْ كَانَتْ مُنْتَظِمًا بِكُمْ شَمْلِي
فِي رَوْضِ أُنْسٍ وَافِرِ الظِّلِ
لَا تَحْرِمُونِي لَذَّةَ الْوَصْلِ
أَنْ تُعَقِّبُوا الْإِخْصَابَ بِالْمَحْلِ

وإذا أَيْتُمْ غيرَ جَوْرِكُمْ فَاَلْجَوْرُ مِنْكُمْ غَايَةُ الْعَذْلِ
إِنْ شِئْتُمْ قَتْلِي فَهَذَاذَا لَا تَحْذَرُوا مِنْ طَالِبِ ذَحْلِي^(١)

وقال مالك بن المُرَّحَل :

تَمَلَّكْتُمْ عَقْلِي وَطَرَفِي وَمَسْمَعِي وروحي وأَحْشَائِي وَكُلِّي بِأَجْمَعِي
وَتَهْتُمُونِي فِي بَدِيعِ جَمَالِكُمْ فلم أَدْرِ فِي بَحْرِ الْهَوَى أَيْنَ مَوْضِعِي
وَأَوْصَيْتُمُونِي لَا أَبُوحُ بِسِرِّكُمْ فَبَاحَ بِمَا أُخْفِي تَفِيضُ أَدْمَعِي
فَلَمَّا فَتَنِي صَبْرِي وَقَلَّ تَجَلُّدِي وفَارَقَنِي نَوْمِي وَحَرَمْتُ مَضْجَعِي
شَكَيْتُ لِقَاضِي الْحُبِّ قَلْتُ أَحِبَّتِي جَفَوْنِي وَقَالُوا انتَ فِي الْحُبِّ مُدَّعٍ
وَعِنْدِي شُهُودٌ بِالضَّبَابَةِ وَالْأَسَى يُرْكَونَ دَعْوَايَ إِذَا جِثْتُ أَدْعِي
سُهَادِي وَشَوْقِي وَأَكْتِنَائِي وَلَوْعَتِي وَوَجْدِي وَسُقْمِي وَأَصْفِرَارِي وَأَدْمَعِي
(وَمِنْ عَجَبِ أَنِّي أَحْنُ إِلَيْهِمْ وَأَسْأَلُ شَوْقًا عَنْهُمْ وَهُمْ دَعِي)
(وَتَبْكِي دَمَاعِي وَهُمْ فِي سَوَادِهَا وَيَشْكُو النَّوَى قَلْبِي وَهُمْ بَيْنَ اضْلَعِي)

وقال في عَرُوض الدُّوْبَيْتِ المَجْزُوءِ وهو من اختراعه :

الصبُّ إلى الجمال مائل والحبُّ لصِدْقِهِ دلائل

والدمع لِسائلي جواب
والحسن على القلوب وآل
لو ساعد مَنْ أَحَبَّ سَعْدُ
يا عاذلي إِلَيْكَ عَنِّي
ذا نازل كمثل ظنبي
ما بين جُفُونِهِ حُسام
والسيف يَبْتُ ثم يَنْبُو
والسهم يُصِيبُ ثم يَخْطِي
مهلاً فَدَمِي لَهُ حلالٌ
إِنْ أَقْصَدَنِي فَذَاكَ قَصْدِي
يا حسن طُلُوعِهِ عَلَيْنَا
ظَمَانٌ مُخَفَّفُ الْأَعَالِي
قد نَمَّ بِهِ شَذَا الْغَوَالِي
وَالطَّيِّبُ مُنْبَهُ عَلَيْهِ
وَالْفَتْحُ مُحَرِّكٌ إِلَيْهِ
وَالسَّحَرُ رُسُولُ مَقْلَتَيْهِ
وَالرُّوضُ يُعِيرُ وَجَنَّتَيْهِ
إِنْ رَوَّجَعَ سَائِلٌ بِسَائِلِ
وَالْقَلْبُ إِلَى الْحَبِيبِ وَائِلِ
ما حال عن الحبيب حائل
لا تَقَرَّبُ سَاحَتِي الْعَوَازِلِ
يَشْقَى بِلَحْظِهِ الْمَنَازِلِ
مَخَارِقُهُ لَهُ حَمَائِلِ
وَاللَّحْظُ يُطَبِّقُ الْمَفَاصِلِ
وَاللَّحْظُ يَمُرُّ فِي الْمَقَاتِلِ
ما أَقْبَلُ فِيهِ قَوْلٌ قَائِلِ
أَوْ جَدَّانِي فَلَا أَجَادِلِ
وَالسُّكْرُ بِمَعْطَفَيْهِ مَائِلِ
رِيَّانٌ مَثْقَلُ الْأَسَافِلِ
إِذْ هَبَّ وَنَمَّتِ الْغَلَائِلِ
مَنْ كَانَ عَنِ الْعِيَانِ غَافِلِ
مَنْ كَانَ مُسَكِّنَ الْبَلَابِلِ
ما أَقْرَبَ عَهْدِهِ بِيَابِلِ
وَرُدًّا كَهَوَايَ غَيْرُ حَائِلِ

واللّين يَهْزَ مَعْطِفِيهِ كالغُصْنِ تَهْزُهُ الشَّمَائِلُ
والكُأْسُ تَلُوحُ فِي يَدَيْهِ كالنَّجْمِ بِأَسْعَدِ الْمَنَازِلِ
يَسْقِيكَ بَرِيقَهُ مُدَاماً مَا أَمْلَحَ سَاقِيّاً مُوَاضِلُ
يَسْبِيكَ بِرَقَّةِ الْحَوَاشِي عِشْقاً وَلَطَافَةِ الشَّمَائِلِ
مَا أَحْسَنَ مَا وَجَدْتُ خِداً إِذْ نَجْمُ صَبَايَ غَيْرُ آفِلِ

وقال محمد بن احمد الشُّبُوكِي النِّفَاسِي :

أَلَا مَبْلِغٌ عَنِّي مَعَانِي شُبُوكَةٍ سَلَاماً كَعَرَفِ الْمُنْدَلِ الرَّطْبِ وَالنَّدَى
دِيَارِهَا قَلْبِي مُقِيمٌ وَإِنْ نَأَتْ بِجِسْمِي عَنْ أَطْلَالِهَا أَتُنْقِ الْبُعْدُ
عَرِدْتُ بِهَا عَهْدَ الْهَوَى لَا يَشُوبُهُ

مِنْ الصَّفْوِ تَكْدِيرٌ مِنَ الْقَمَرِ السَّعْدِ

وقال الامير أبو علي ابن السلطان أبي سعيد المريني

أَغَالِبُ فِيكَ الشَّوْقَ وَالشَّوْقُ أَغْلَبُ

وَأَطْلُبُ مِنْكَ الْوَصْلَ وَالنَّجْمُ أَقْرَبُ

وَيُطِمِعُنِي قَلْبِي بِوَصْلٍ وَإِنِّي سَأَعْلَمُ حَقّاً أَنَّ قَلْبِي يَكْذِبُ
حَيَاتِي وَمَوْتِي فِي يَدَيْكَ وَإِنِّي أَمُوتُ وَأُحْيَا حِينَ تَرْضَى وَتَغْضَبُ

فلا الوصل يُحييني ولا الهجرُ قاتلي ولا منك بُدٌّ ، لا ولا عنك مهرب
وقال ايضاً :

ملُ يا نسيماً على غُصونِ المندل موأنعمُ بتلك المائساتِ المِلل
وإذا مررتَ على الديارِ فسَلْ بِهَا عن راحِلٍ عنها ومن لم يَرَحِلْ
زَمُوا المَطِيَّ وخلفوني بَعْدَهُم تجري دُموعي في رُسومِ المنزلِ

وقال السلطان ابو عنان المريني :

يا رَامِياً بالنِّبالِ مِنْ غَنَجٍ وصائلاً بالنِّصالِ مِنْ دَعَجٍ
وبادِياً كَالْهَلالِ فِي سُحْبٍ وطافحاً مِنْ سُلَاقَةِ الفَلَجِ
وباسِماً عَنْ لَثَالِيءٍ نُسِقَتْ وناسِماً كُلَّ عَاطِرٍ أَرَجِ
رِفْقاً بِقَلْبِي فَإِنَّ فِيهِ هَوًى ولا تُطِلْ فِي المَلالِ والحَرَجِ

وقال ايضاً :

جِسْمِي أَضَرَ بِهِ السَّقَامُ والجَفْنُ قَدْ عَدِمَ المَذَامُ
يا هاجِرِي مِنِّي عَلَى أنوارِ غُرَّتِكَ السَّلَامُ

وقال الوزير عبدُ المهيمن الحضرمي :

نَفْسِي الفِدَاءُ لِعَهْدٍ كُنْتُ اَعْمَدُهُ وطيب عيش تقَضَى كُلُّهُ كَرَمُ

وَجِيرَةٍ كَانَ لِي أُنْسٌ بَوَصْلِهِمْ وَالْأُنْسُ أَفْضَلُ مَا فِي الْوَصْلِ يُغْتَنَمُ
كَانُوا نَعِيمَ فَوَادِي وَالْحَيَاةَ لَهُ فَالآنَ كُلُّ وَجُودٍ بَعْدَهُمْ عَدَمُ
بَانُوا فَعَادَ نَهَارِي كُلُّهُ ظُلَمًا وَكَانَ قُرْبُهُمْ تُمَحَّى بِهِ الظُّلَمُ
وَالْعَيْنُ مَنِّي لَا تَرَقَا مَدَامِعُهَا كَأَنَّهَا سُحْبٌ تَهْمِي وَتَنْسَجُمُ
تَبْكِي عُهْدَ وَصَالٍ مِنْهُمْ سَلَقْتُ كَأَنَّمَا هُنَّ فِي إِنْسَانِهَا حُلُمُ
لَيْنَ ضَحِكْتِ سُرُورًا بِالْوِصَالِ لَقَدْ بَكَيْتُ حُزْنًا عَلَيْهِمُ وَالْذُمُوعُ دَمُ
هُمْ عَلَّمُونِي الْبُكََا مَا كُنْتُ أَعْرِفُهُ يَا لَيْتَهُمْ عَلَّمُونِي كَيْفَ أَبْتَسِمُ

وقال ابو عبد الله المكنودي

رَحِمَاكَ بِي فَلَقَدْ خَلَدْتَ فِي خَلْدِي هَوَى أَكَابِدُ مِنْهُ حُرْقَةُ الْكَبِدِ
حَلَلْتَ عَقْدَ سُلوِيٍّ عَنْ فَوَادِي إِذْ حَلَلْتَ مِنْهُ مَحَلَّ الرُّوحِ مِنْ جَسَدِي
مَرَّآكَ بَدْرِي وَذِكْرَاكَ التِّدَاذُ فَمِي

وَدِينُ حُبِّكَ إِضْمَارِي وَمُعْتَقْدِي

وَمِنْ جَمَالِكَ نُورٌ لَاحَ فِي بَصْرِي وَمِنْ وَدَادِكَ رُوحٌ حَلَّ فِي خَلْدِي
لَا تَحْسِبَنَّ فَوَادِي عَنْكَ مُصْطَبِرًا فَقَبْلَ حُبِّكَ كَانَ الصَّبْرُ طَوْعَ يَدِي
وَهَاكَ جِسْمِي قَدْ أَوْدَى النُّحُولُ بِهِ فَلَوْ طَلَبْتَ وَجُودًا مِنْهُ لَمْ تَجِدْ
بِمَا يَطْرَفُكَ مِنْ غَنْجٍ وَمِنْ حَوَرٍ وَمَا بِشَعْرِكَ مِنْ دُرٍّ وَمِنْ بَرَدٍ
كُنْ بَيْنَ طَرْفِي وَقَلْبِي مُنْصِيفًا فَلَقَدْ حَايَيْتَ بَعْضُهَا فَاغْدِلْ وَلَا تَحِدْ

فقال لي قد جعلت القلب لي وطناً
وكيف تطلب عدلاً والهوى حكم
من لي بأغيد لا يرثي لذي شجن
ما كنت من قبل إذ عاني لسطوته
إن جاء بالوعد لم تصدق مواعده
شكوته علتي منه فقال : ألا
فقلت إن شئت برئي أو شفا ألمي

وقال :

غرامي فيك نجل عن القياس
ولا أنسى هوائك ولو جفاني
ولا أدري لنفسي من كمال

وقال ابو العباس الجزنائي :

أعلمت ما صنع الفراق
ووقفت منهم حيث للذ
سبقت مطاياهم فما
أطلقت حمل صدودهم
غداة جد به الرناق
ظرات والدمع اتساق
أبطا بنفسك في السباق
البين خطب لا يطاق

عن ذاتِ عِرْقٍ^(١) اصْعَدُوا اتَّقُولُ دَارُهُمُ الْعِرَاقُ
 مَا ضَرَّهُمْ وَهُمْ الْمَنَى لَوْ وَاَفَقُوا بَعْضَ الْوِفَاقِ
 وَتَيَّامَنُوا عُسْفَانَ^(٢) اِنْ يَقِفُوا بِمُجْتَمَعِ الرَّفَاقِ
 قَالُوا تَفَرَّقْنَا غَدًا فَشُغِلْتُ عَنْ وَعْدِ التَّلَاقِ
 عَمْدًا رَأَوْا قَتَلَ الْعَمِيدِ فَكَانَ عَيْشُكَ فِي نَفَاقِ
 اَوَّلَى بِجِسْمِكَ اِنْ يَرِقَّ وَدَمَعِ عَيْنِكَ اِنْ يُرَاقِ
 اَمَّا الْفُؤَادُ فَعِنْدَهُمْ دَعَاهُ وَدَعَاىِ الْاَشْتِيَاقِ
 اَعْتَادَ حُبَّ مَحَلِّهِمْ فَرَحِيبُ صَدْرِكَ عَنْهُ ضَاقِ
 وَاِهًا لِسَالِفَةِ الشَّبَابِ مَضَتْ بِأَيَّامِي الرَّقَاقِ
 اُبْقَتْ حَرَارَةُ لَوْعَةٍ بَيْنَ التَّرَائِبِ وَالتَّرَاقِ
 لَا تَنْظِفِي وُورُودَهَا مِنْ اِدْمَعِي كَأْسُ دِهَاقِ

وقال :

يَا مُوحِشِي وَالْبُعْدُ دُونَ لِقَائِهِ اَدْعُوكَ عَنْ شَحْطٍ وَاِنْ لَمْ تَسْمَعْ
 يُدْنِيكَ مِنِّي الشُّوقُ حَتَّى اِنَّنِي لَأَرَاكَ رَأْيَ الْعَيْنِ لَوْ لَا اَدْمَعِي

١ - ذات عرق مكان وهو مهل أهل العراق .

٢ - عسفان قرية على مرحلتين من مكة .

وَأَحْنُ شَوْقًا لِلنَّسِيمِ إِذَا سَرَى بِحَدِيثِكُمْ وَأُصِيخُ كَالْمُسْتَطْلِعِ
كَانَ اللَّقَاءُ فَكَانَ حَظِّي نَاطِرِي وَسَطَالْفِرَاقُ فَصَارَ حَظِّي مَسْمَعِي
فَابْعَثْ خَيَالِكَ تَهْدِهِ نَارُ الْحَشَا إِنْ كَانَ يَجْمَلُ مِنْ مَقَامِي مَوْضِعِي

وقال :

أُجْمَعُ هَذَا الشَّمْلُ بَعْدَ شَتَاتِهِ وَيُوصَلُ هَذَا الْحَبْلُ بَعْدَ انْبِتَاتِهِ
أَمَّا لِلْيَالِي آيَةُ عَيْسَوِيَّةٌ فَتَنْشُرُمَيَّتُ الْأُنْسِ بَعْدَ مَمَاتِهِ
وَيُورِدَ عَيْنِي بَعْدَ مِلْحٍ مَدَامِعِي بِرُؤْيَيْهِ فِي عَذْبِهِ وَفِرَاتِهِ

وقال الرئيس ابو العباس العزافي :

لَكُمْ حِمَى فِي فُؤَادِي غَيْرُ مَقْرُوبٍ فَضَائِعُ فِي هَوَاكُمْ كُلُّ تَأْنِيبٍ
إِنْ كَانَ مَا سَاءَ لِي مِمَّا يَسُرُّكُمْ فَعَذَّبُوا فَقَدْ اسْتَعَذَّبْتُ تَعَذِّيبِي
عُودُوا إِلَى الْوَصْلِ أَوْ عُودُوا عَلَيَّكُمْ وَبَادِرُوا فَرِضَاكُمْ طَبُّ مَطْبُوبٍ^٢
كَمْ أُرْسَلْتُ أَدُمَعِي تَتَرَى بِصِدْقِي فِي دَعْوَى هَوَاكُمْ فَقَابِلْتُمْ بِتَكْذِيبٍ
وَلَاذَ بِالصَّبْرِ قَلْبِي حِينَ غَالَبَنِي شَوْقِي كَمَا لَاذَ غَالِبٌ بِمَغْلُوبٍ
لَوْلَا الْحَبِيبُ الَّذِي يَنْأَى بِنَائِكُمْ مَا كَانَ قُرْبُكُمْ عِنْدِي بِمَحْجُوبٍ

١ - منسوبة الى عيسى عليه السلام وكان من آياته احياء الموتى .

٢ - المطبوب المسحور .

تَشَكَّتْ جِيَادِي مَا أَضَرَّ بِهَا مِنْ طُولِ رَكْضٍ وَإِسَادٍ وَتَأْوِيَبٍ
 مِنْكُمْ رَشَاءً لَوْ لَا لَوَّاحِظُهُ مَا كَانَ قَلْبِي مِنْ صَدْرِي بِمَسْلُوبٍ
 بَدَأَ خَرَّتِ الْإِلْحَاطُ سَاجِدَةً لِنُورٍ وَجْهِ بَتَاجِ الْحُسْنِ مَعْصُوبٍ
 لُ حَبَّةَ قَلْبِي خَالَهْ أَبَدًا يَصْلَى بِجَمْرِ عَلَى خَدَّيْهِ مَشْبُوبٍ
 لَتَ عَقَارِبُ صُدُغَيْهِ وَخَفَّ بِهَا حَيَّاتُ وَخَفٍّ مَعَ الْأَذْيَالِ مَسْحُوبٍ
 نَبِي الْقُلُوبِ فَتَجَنَّبِي وَرَدَّ وَجَنَّتِهِ فَتَنَشَّنِي بَيْنَ مَلْسُوعٍ وَمَلْهُوبٍ
 رِيَاضُ حُسْنٍ رِمَاحُ الْهَدَبِ مُشْرَعَةٌ

لِلذَّبِ عَنْهَا بَطْعُنٌ غَيْرُ تَذْيِيبٍ^٢

هَا مَصَارِعُ لِلْعِشَاقِ دَائِمَةٌ فَكَلِّهِمْ بَيْنَ مَطْعُونٍ وَمَضْرُوبٍ
 وَقَالَ :

لَمَكْتُ رِقِّي بِالْجَمَالِ فَأَجْمِلْ وَحَكَمْتُ قَلْبِي بِاعْتِدَالِكَ فَأَعْدِلْ
 أَنْتَ الْمَلِيكُ عَلَى الْمَلَايحِ وَمَنْ يَجْرُ فِي حُكْمِهِ إِلَّا جُفُونُكَ يُعْزَلْ
 نَقِيلُ أَنْتَ الْبَدْرُ فَالْفَضْلُ الَّذِي لَكَ بِالْكَمَالِ، وَنَقْصُهُ لَمْ يُجْهَلْ
 وَلَا الْحُظُوظُ لَكُنْتَ أَنْتَ مَكَانَهُ وَلَكِنْ دُونَكَ فِي الْحَضِيضِ الْأَسْفَلِ

١ - الوحف الشعر الكثير شبه صفائره بالحيات .

٢ - التذبيب : الدفع .

عَيْنَاكَ نَازَلَتْ الْقُلُوبَ فَكَلَّمَهَا إِمَّا جَرِيحٌ أَوْ مُصَابٌ الْمَقْتَلُ
هَزَّتْ ظُبَاهَا بَعْدَ كَسْرِ جُفُونِهَا فَأَصِيبَ قَلْبِي فِي الرَّعِيلِ الْأَوَّلِ
مَا زِلْتُ أُعْذَلُ فِي هَوَاكَ وَلَمْ يَزَلْ سَمِعِي عَنِ الْعُذَّالِ فِيكَ بِمَعْزَلِ
أَصْبَحْتُ فِي شُغْلٍ بِحَبِّكَ شَاغِلٍ عَنْ أَنْ أُصِيخَ إِلَى كَلَامِ الْعُذَلِ
لَمْ أَهْمِلِ الْكِتْمَانَ لَكِنْ أَدْمَعِي تَهَمَّلْتُ وَلَوْ لَمْ تَعْصِنِي لَمْ تَهْمَلِ
مَا فِي الدُّبُورِ^١ وَلَا الْجَنُوبِ جَوَابُ مَا أَهْدِي إِلَيْكَ مَعَ الصَّبَا وَالشَّمَالِ
حَمَلْتُهَا مِنْ طِيبٍ عَرَفَكَ نَفْحَةً تُحْيِي ذِمَاءَ عَلِيلِكَ الْمُتَعَلِّلِ
إِنْ كُنْتَ بَعْدِي حُلْتَ عَمَّا لَمْ أُحَلْ عَنْهُ وَقَدْ أَهْمَلْتَ مَا لَمْ أَهْمِلِ
أَوْ حَالَتْ الْأَحْوَالُ فَاسْتَبَدَّلْتَ بِي فَأَنَا بِحُجِّي فِيكَ لَمْ أُسْتَبَدَّلِ

وقال :

لِي فِي سَبْتَةٍ سَكَنَ حُبُّهُ فِي الْحَشَا سَكَنَ
فَهُوَ يَزْدَادُ جِدَّةً مَعَ إِبْلَائِهِ الزَّمَنُ
أَصْبَحَ الْقَلْبُ عِنْدَهُ وَبَغْرُ نَاطَةِ الْبَدَنِ
إِنَّ هَارُوتَ^٢ لَوْ رَأَى سِحْرَ الْحَاطِظِ افْتَنَ

١ - الدبور الريح الغربية وباقي أسماء الرياح المذكورة معروفة .

٢ - هاروت هو أحد ملكين كانا ببابل يعلمان الناس السحر واسم الثاني

ماروت .

رَشَاءُ سِحْرٍ بِأَبْلِ بَيْنَ عَيْنَيْهِ قَدْ كَمَنَ
زَارِنِي وَالرَّقِيبُ قَدْ غَابَ وَاللَّيْلُ حِينَ جَنَ
بَعْدَ بُعْدٍ حَتَّى الضُّلُوعِ عَلَى الشَّجْوِ وَالشَّجَنِ
فَشَهَدْنَا عَلَى نِكَاحٍ - ابْنِ مُزْنٍ بَبْنَتِ دَنَ
وَنَعِمْنَا إِلَى الصَّبَاحِ كَرُوحَيْنِ فِي بَدَنِ
وَسَكِرْنَا فَظُنَّ خَيْرًا بَنَا وَاتْرَكَ الظَّنَّ

وقال :

وَعَدْتَنِي أَنْ تَزُورِيَا أُمِّي فَلَمْ أَزَلْ لِلطَّرِيقِ مُرْتَقِبَا
حَتَّى إِذَا الشَّمْسُ لِلْغُرُوبِ دَنَتْ وَصَيَّرَتْ مِنْ لَجِينِهَا ذَهَبَا
أَنْسْتُ بِالْبَدْرِ مِنْهُ حِينَ بَدَا لِأَنَّهُ لَوْ ظَهَرَتْ لَاحْتَجَبَا

وقال :

هَجَرْتُكُمْ مَا لِي عَلَيْهِ جَلَدُ فَأَعِيدُوا إِلَى الرِّضَا أَوْ فَعِيدُوا
مَا قَسَا قَلْبِي مِنْ هَجَرِكُمْ وَلَقَدْ طَالَ عَلَيْهِ الْأَمَدُ

وقال ابن هاني السبتي موريا :

مَا لِلنَّوَى مُدَّتْ لِغَيْرِ ضَرُورَةٍ وَلَطَالَمَا عَهْدِي بِهَا مَقْصُورَةٌ

إِنَّ الْخَلِيلَ وَإِنْ دَعَتْهُ ضَرُورَةٌ لَمْ يَرْضَ ذَاكَ فَكَيْفَ دُونَ ضَرُورَةٍ
وقال ابو القاسم الشَّريف :

زَارَتْ بِأَكْرَمِ لَيْلَةٍ وَفَى بِهَا حَقَّ الزَّيَارَةِ زَائِرٌ وَمَزُورٌ
نَظَارَحَ الشَّكْوَى وَقَدْ شَرَدَ الْكَرَى عَنَّا فَتَنَجِدُ فِي الْهُوَى وَتَغُورُ
ثُمَّ انْجَلَى الْإِصْبَاحُ فَالْتَفَتَتْ كَمَا يَرُونُ غَزَالَ الرَّبِّبِ^(١) الْمَذْهُورِ
حَتَّى إِذَا قَامَتْ تَمُدُّ بِنُورِهَا مُتَبَلِّجَ الْإِصْبَاحِ حِينَ يَنُورُ
طَارَ الْفَوَؤَادُ فَصِرْتُ أَعْجَبُ وَهُوَ فِي شَرَاكِ الْهُوَى قَدْ صِيدَ، كَيْفَ يَطِيرُ

وقال :

ظَفِرْتُ بِلَشْمِهَا فَبَدَا احْمِرَارُ بوجنيتها يزيد القلب وجدا
فَأَغْرَاهَا بِي الْوَأَشْيِ فَظَلَّتْ تَلُومٌ وَلَمْ أَكُنْ مِمَّنْ تَعْدَى
فَمَا كَانَتْ سِوَى قَبَلٍ بِفِيهَا جَنَيْنَ أَقَا حِيَا وَغَرَسَنَ وَرْدَا

وقال :

غَزَالَ أَنْسِ كَمْ اسْتَدْنَيْتُهُ فَنَائِي عَنِّي وَأَعْرَضَ مُزَوَّرًا بِجَانِبِهِ
طَالَتْ عَلَيَّ لَيَالٍ فِي هَوَاهُ كَمَا طَالَتْ عَلَيْهِ لَيَالٍ مِنْ ذَوَائِبِهِ

١ - الربرب : القضيع من بقر الوحش .

وقال أبو بكر بن شبرين :

أَخَذْتُ بِكَظْمِ الرُّوحِ يَا سَاعَةَ النَّوَى

وَأُضْرُمْتُ فِي طَيِّ الْحَشَا لَا عِجَّ الْجَوَى

فَمَنْ مُخْبِرِي يَا لَيْتَ شِعْرِي مَتَى اللَّقَا

وَهَلْ تَحْسُنُ الدُّنْيَا وَهَلْ يَرْجِعُ الْهَوَى ؟

سلا كلُّ مشتاقٍ وأَقْصَرَ وَجْدُهُ وعند اللوى وَجْدِي وفي ساكني اللوى

ولي نِيَّةٌ ما عِشْتُ في حفظ عهدهم إلى يَوْمِ أَلْقَاهُمْ وَلِلْمَرْءِ ما نَوَى

وقال أيضاً :

مَتَى تَسْمَحُ الدُّنْيَا بِقُرْبِكُمْ مَتَى لَقْدَعَاثَ هَذَا الْبَيْنِ ظُلُمًا وَعَدَّتَا

أَلَا قَبَّحَ اللَّهُ الْفِرَاقَ فَانْه لِأَصْعَبُ مَا يَلْقَاهُ مِنْ دَهْرِهِ الْفَتَى

أَفِي كُلِّ يَوْمٍ رِحْلَةً بَعْدَ رِحْلَةٍ لَقَدْ أَتَعَبْتُنَا رِحْلَةَ الصَّيْفِ وَالشِّتَا

وَكُنْتُ أُرَى ذَا قُوَّةٍ وَشَبِيهَةٍ وَلَكِنْ تَوَلَّيْتَنِي اللَّيَالِي فَوَلَّتَا

وكيفَ احْتِمَالِي ذَاكَ وَالرُّكْنَ قَدْ هَوَى

وهذا مَشِيبي بِالْحِمَامِ مُبَكَّتَا

وقال أيضاً :

بَا مِنْ أَعَادِ صِبَاحِي فَقَدْ هَ حَلَا قَتَلْتُ عَبْدَكَ لَكِنْ لَمْ تَخَفْ دِرَا

مُصِيبَتِي مِنْكَ لَيْسَتْ كَالْمَصَائِبِ لَا وَلَا بُكَائِي عَلَيْهَا مِثْلَ كُلِّ بَسَا
فَمَنْ أَطَالِبُ فِي شَرْعِ الْهَوَى بِدَمِي لَحْظِي وَلَحْظُكَ فِي دَمِي قَدْ اشْتَرَا

وقال السلطان ابو العباس بن ابي سالم المريني :

أَمَّا الْهَوَى يَا صَاحِي فَأَلْفَتْهُ وَوَعْدَتْهُ مِنْ عَهْدِ أَيَّامِ الصَّبَا
وَرَأَيْتُهُ قُوَّةَ النُّفُوسِ وَحَلِيَّهَا فَتَخَذَتْهُ دِينًا إِلَيَّ وَمَذْهَبًا
وَلَيْسَتْ دُونَ النَّاسِ مِنْهُ حِلَّةٌ كَانَ الْوَفَاءُ لَهَا طِرَازًا وَمَذْهَبًا
لَكِنْ رَأَيْتُ لَهُ الْفِرَاقَ مُنْغَصًّا لَا مَرْحَبًا بِفِرَاقِنَا لَا مَرْحَبًا

وقال الكاتب محمد بن أبي مدّين :

عَزَّ صَبْرِي وَلَمْ أَكُنْ بِالْجُهُولِ عِنْدَ مَا آدَنِي مَسِيرُ الْحُمُولِ
هَذَا أَنَا فِي الطُّلُولِ أُرْسِلُ دَمْعًا لَيْسَ إِلَّا بِهِ شِفَاءُ الْعَلِيلِ
لَمْ تَكُنْ أَدُمِّعِي بِأَوَّلِ دَمْعٍ طَلَّهَ الْعَاشِقُونَ بَيْنَ الطُّلُولِ
فَدُمُوعِي الْغِزَارُ طُوفَانُ نُوحٍ وَضُلُوعِي الْحِرَارُ نَارُ الْخُلِيلِ
لِجُيُوبِ الشَّمَالِ مِلْتُ ارْتِيَا حَا فَكَأَنِّي شَرِبْتُ كَأْسَ شَمُولِ
وَالْتِزَامُ الرُّبُوعِ صَيَّرَ جِسْمِي مُشَبَّهًا مِنْهُمْ لِكُلِّ نَحِيلِ
أَوْ مِمَّا أَضْرَبِي مِنْ غَرَامٍ وَاشْتِيَاقٍ وَلَوْعَةٍ وَعُغْلِيلِ
سَادَتِي هَلْ إِلَى الْوِصَالِ سَبِيلُ إِنِّي لَمْ أَجِدْ لَهُ مِنْ سَبِيلِ

إِن أُمْتُ فِي الْهُوَى فَعَيْرٌ نَكِيرٌ كَمْ لَهَا فِي ذَوِي الْهُوَى مِنْ قَتِيلٍ
 فَارْحَمُوا مَنْ شَكََا لَغِيرِ رَحِيمٍ بَعْدَكُمْ وَاسْتِنَالَ غَيْرَ مُنِيلٍ
 نَالَ عِزًّا بِكُمْ وَذَلًّا لَدَيْكُمْ فَاعْجَبُوا مِنْهُ لِلْعَزِيزِ الْيَذِيلِ
 وَبِشَوْقِي بَعَثْتُ قَلْبِي رَسُولًا فَارْقُقُوا لَا يَحِلُّ قَتْلُ الرُّسُولِ
 أَنَا عَبْدٌ لَكُمْ عَلَى كُلِّ حَالٍ كُنْتُمْ لَيْسَ لِي بِكُمْ مِنْ بَدِيلِ

وقال يحيى ابن مليل من أهل فاس توفي سنة ٧٥٠ .

عَسَى الْإِيَّامُ أَنْ تُدْنِي نَزُوحًا وَتُبدِلَنَا التَّنَائِيَّ بِالْتَدَانِي
 عَسَاهُ أَنْ يُلِمَّ بِهِ خِيَالٌ يُزِيلُ السُّقْمَ وَالْمَرَضَ الصَّحِيحَا
 فَدَاءُ الْهَجْرِ لَيْسَ لَهُ دَوَاءٌ سِوَى وَضَلِ الْأَحْبَةِ إِنْ أُتِيحَا
 لَقَدْ بَلَغَ الْمَنَى مَنْ وَاصَلُوهُ وَنَالَ الْفُوزَ وَالتَّجَرَ الرَّيْحَا
 فَهَلْ مِنْ مُنْصِفٍ مِنْ حُكْمِ دَهْرٍ غَدَا جَوْرًا بَوْصَلِكُمْ شَحِيحَا
 أَعِدْ يَا صَاحِ ذِكْرُهُمْ وَصِفْ لِي حَدِيثًا عَنْهُمْ كَيْ أُسْتَرِيحَا
 وَقُلْ هَلْ حَافِظُوا عَهْدِي وَرَاعُوا وَدَادًا أَمْ نَسُوا وَدَادَ صَحِيحَا
 فَذِكْرُهُمْ مُنَى قَلْبِي وَإِنِّي إِذَا بَصَرِي رَأَى بَرْقًا لَمُوحَا
 أَحْنُ لِلْأَرْضِهِمْ وَيَزِيدُ شَوْقِي إِذَا مَا شِمْتُ مِنْ نَعْمَانِ رِيحَا
 وَلَوْ أَنِّي شَكَوْتُ إِلَى جَمَادٍ لَحَقَّ لَهُ لِحَالِي أَنْ يَنْوَحَا

أَلَا سَقِيًّا لِأَيَّامٍ تَقَضَّتْ عَذُولِي كَانَ لِي فِيهَا نَصِيحَا
وَكُنَّا لَا نَرَى فِي الْحُبِّ هَجْرًا وَلَمْ نَدْرِ الْبِعَادَ وَلَا النَّزُوحَا
وَلَمْ نَشْكُ النَّوَى حَتَّى رَمَتْنَا بِأَسْهُمِهَا عَلَى قَدَرٍ أُتِيحَا
فَفَنَنْتَ أَنْتِظَامَ الشَّمْلِ مِنَّا وَاصْبِحْ رَبُّهُمْ رَبْعًا طَرُوحَا^(١)
أَيَا مَنْ قَدْ أَذَابَ الْجِسْمَ هَجْرًا تَرَفَّقْ قَدْ أَتَيْتُكَ مُسْتَمِيحَا
وَقَدْ أَقَرَرْتُ مَوْلَائِي فَكُنْ لِي بِمَا عَوَّدْتَنِي مَوْلَى صَفُوحَا
وَدَاوِ بِرَغَمِ حُسَادِي جُفُونًا بَكَتْ بَعْدَ الدَّمُوعِ دَمًا سَفُوحَا
وَلَا زَمْتَ الْبُكَاءَ وَالشُّهْدَ لَمَّا أَبَى شَوْقُ الْأَحِبَّةِ أَنْ يَرُوحَا

وقال القائد عبد الرحمن القبايلي المتوفى سنة ٨٠٢

أَتَسْمَعُ فِي الْهَوَى قَوْلَ اللَّوَا حِي وَقَدْ أَبْصَرْتَ خِشْفَ بَنِي رَبَاحٍ
غَزَالٌ خَلَفَ الصَّبَّ الْمَعْنَى مِنْ الْوَجْدِ الْمُبَرِّحِ غَيْرَ صَاحٍ
وَقَدْ قَتَلْتُ - وَلَا إِثْمَ عَلَيْهَا - مِرَاضُ جُفُونِهِ كُلِّ الصَّاحِ
يَقُولُ وَلَحْظُهُ بِالْقَلْبِ يُزْرِى عَلَامَ تَطِيلُ وَصْفِي وَأُمْتِدَاحِي
فَقُلْتُ فَنُونُ حُسْنِ فَيْكِ رَاقَتْ قَضَتْ لِلْقَلْبِ بِالْعِشْقِ الصُّرَاحِ
جَبِينُكَ وَالْمَقْلَدُ وَالشَّائِيَا صَبَاحٌ فِي صَبَاحٍ فِي صَبَاحٍ

وقال ابنُ جابرِ المكناسي :

تالله بعدَ أَجْبائي الذينَ مَضَوْا وخَلَّفوني رَهينَ البَثِّ والشَّجَنِ
ما أَبْصَرْتُ مُقَلَّتِي منَ بَعْدِهِمَ حَسَنًا ولا نَظَرْتُ إلى شيءٍ فَأَعْجَبَنِي

وقال مُورِيًّا :

إِنْ خِفْتُ منَ فَتْكَ المَهْنَدِ والقَنَا فاذا رَنتُ واذا مَشَتْ لا تَقْرُبْ
في قَلْبٍ بَرْقِعِها مَحاسِنُ أَنْزَلْتُ قَمَرَ السَّما لَنَا بِقَلْبِ العَقْرَبِ^١

وقال كذلك :

حَلَّتْ عَقارِبُ صُدْغِهِ مِنْ خَدِّهِ قَمَرًا فَجَلَّ بِها عَنِ التَّشْبِيهِ
ولقد عَهِدْناهُ يَحُلُّ بِرِجْها فَمِنَ العَجائِبِ كَيْفَ حَلَّتْ فِيهِ

وقال السلطان محمد المتوكل السَّعْدِي :

خَلِيلِي ما يَخْفَى انْحِصاري عَنِ الصِّبَا فَحَلًّا عِقالِي قد أَضَرَّ بي الرِّبْطُ
ولا تَحْفِلْنا مِنْ لَامٍ أَوْ تَتَلَوَّما فَإِنَّ بِحارِ اللَّوْمِ لَيْسَ لَها شَطُّ

١ - في قلب برقعها اي داخله وبقلب العقرب اي بالبرقع اذ هو مقلوب

العقرب كما لا يخفى والتورية في كون العقرب من منازل القمر .

وقال السلطان المنصور الذهبي :

مِنْ عَنَبِ الشَّحْرَ أَوْ مِنْ مِسْكِ دَارِينَ^(١) بَلَى وَمِنْهُ نُسَيْمَاتُ الرِّيَّاحِينَ
مُهْفَهَفٌ إِنْ تَشَنَّى قُلْتَ مُقْتَضَبٌ^(٢) مِنْ قُضْبِ نَعْمَانٍ أَوْ مِنْ كُثْبِ يَرْبِينَ^(٣)
ذَنْبِي إِلَيْهِ - وَلَا ذَنْبٌ - مُحَبَّبُهُ مِنْ أَجْلِهَا بِسَهَامِ اللَّحْظِ يَرْمِينِي

وقال :

أَقَامَ بِقَلْبٍ فِي هَوَاهُ مُقَلَّبٌ وَأَنْنَى لَهُ بَيْنَ الضُّلُوعِ مُقَامٌ
فِيَا شَادِنًا مَرْعَاهُ حَبَّةٌ مُهْجَتِي أَمَّا لِحْشًا أَقَمْتَ فِيهِ ذِمَامٌ

وقال السلطان أبو المعالي زَيْدَانُ بْنُ الْمَنْصُورِ الذَّهَبِيِّ :

فَتَنَّتْنَا سَوَالِفُ وَخُدُودِ وَغُيُونُ مُدَعَّجَاتِ رُقُودِ
وَوُجُوهٌ تَبَارَكَ اللَّهُ فِيهَا وَشُعُورٌ عَلَى الْمَنَاكِبِ سَوْدِ
أَهْلَكْتْنَا الْمَلَاخُ وَهِيَ ظَبَاءُ وَخَضَعْنَا لَهَا وَنَحْنُ أُسُودِ

وقال أيضاً :

مَرَرْتُ بِقَبْرِ هَامِدٍ وَسَطَ رَوْضَةٍ عَلَيْهِ مِنَ النُّوَّارِ مِثْلَ النَّهَارِ
فَقُلْتُ لِمَنْ هَذَا فَقَالُوا بِذِلَّةٍ تَرَحَّمُ عَلَيْهِ إِنَّهُ قَبْرُ عَاشِقِ

١ - اسم فرضة بالبحرين ينسب اليها المسك .

٢ - موضع كثير الرمل .

وقال عبد العزيز الفشتالي :

حينَ أزمَعْتُ عندَ خَوْفِ البِعادِ وَعَدْتُني منَ النِّراقِ العَوادي
قالَ صَحيِّ وقدَ أَطَلْتُ التِّفاتي أَيَّ شَيءٍ تَرَكَتُ قَلْتُ فَوَّادي

وقال أبو عبد الله الوَجدي الكاتب المتوفى ١٠٣٣ هـ

لبسَ الصُّفْرَةَ كيَ يَزُهو بِها شادِنُ منَ جَنَّةِ الخُلدِ نَفَرُ
خَلَّتُهُ منَ حُسْنِهِ لَمَّا بَدَا هالَةَ الأفقِ بوُسْطَها القَمَرُ
ولأبي سالم العيَّاشي :

ولمَ أنسَها يَقْظانَةُ الهمِّ في الحشا مُبْلِلَةَ الأشجانِ وَسِنانَةَ الطَّرْفِ
تَقُولُ وقدَ جَدَّ الرَّحيلُ أَهْكَذا تُحْمِلُني ثِقَلُ الفِراقِ على ضَعْفِي
أَتَرَكَ أَفْراحاً كَزُغْبِ القِطَا وما رَحِمْتَ بَنِيكَ إِذْ سَلَوْتَ عَنِ الإِلفِ
فَقُلْتُ لَهَا كَفَيَّ المَلامَ فَأَعْرَضْتَ

كَخِشْفِ النِّقا تَسْتَعْرِضُ الدَّمْعَ بالكَفِّ

فودَّعْتُها والقلبُ مُنْطَبِقُ على أَساهُ وَدَمْعِي لا يَمَلُّ منَ الوَكْفِ
عَلَيْكَ سَلامٌ لا زِيارَةَ بَيْننا مَعَ البُعْدِ إلاَّ أنْ أَزُورَ مَعَ الطَّيْفِ

وقال احمد بن عبد الواحد الشريف المتوفى ١٠٠٩ هـ

مَنْ مُنْقِذِي منَ شادِنٍ فاتِن يُوثِرُهُ البَدْرُ على نَفْسِهِ
إذا انتَضَى منَ لَحْظِهِ مُرَهَفاً ما أَقْرَبَ الانْسانَ منَ رَمْسِهِ

وقال ابو علي اليوسي مُتَشَوِّقاً إِلَى زاوية الدلاء^(١) :

أَلَا لَيْتَ شَعْرِي هَلْ أَرَى مِنْ ثَنِيَّةٍ عِضَاهَا كَمَصْفُوفِ الْكَتَائِبِ تُشْرِفُ
وَهَلْ أَرَدَنْ مِنْ سَلْسِيلِ مَوَارِدٍ هُنَاكَ لِمَعْسُوقِ الْمَبَايِمِ تَرُشِفُ
وَهَلْ أَرَيْنُ مَعْنَى الدَّلَاءِ عَشِيَّةً كَأَنَّ بَقَايَاهَا بِنَاءُ مُفَوِّفٍ
ذَكَرْتَكُمْ وَهْنًا وَإِنِّي لَمُدْلِحٌ بِأَجْوَاكِ أَقْطَارِ الصَّحَارَى أَطُوفُ
فَقُلْتُ وَقَلْبِي ضَمَنْ شَجْوٍ وَلَوْعَةٍ وَجَفْنِي بَمَنْشُورِ الْجَمَانِ يُكْفُكَفُ
أَدَارًا سَقَيْتِ الْوَبْلَ غَيْرَ مُبَرِّحٍ

وَلَا بَرَحَتْ عَنْكَ الْحَوَادِثُ تُصَرِّفُ
لَقَدْ هَجَّتْ فِي الْقَلْبِ الْعَمِيدَ صَبَابَةً تَكَادُ لَهَا صُمُّ الْجِبَالِ تَقْصَفُ

وقال مُورِيًّا :

وَعَادِلٍ عَنِ الْهَوَى عَادِلٍ يَدْعُو لِأَمْرِ فِي الْهَوَى إِمْرُ
قَالَ أَسْأَلُهُمْ وَاصْبِرْ فُكَمْ ذَائِقٍ أَمْرًا فِي الْهَجْرِ مِنْ الصَّبْرِ
وَزَعُ عِنَانِ الْقَلْبِ عَمَّا جَرَى عَلَيْهِ مِنْ بَلَوَاهُ أَوْ يَجْرِي
فَأَيُّ عُذْرٍ فِي اتِّبَاعِ الصَّبَا قُلْتُ لَهُ إِنَّ الْهَوَى عُذْرِي

وقال الأمير محمد العالم بن السلطان مولاي اسماعيل العلوي
أيام خلافته بسوس يتشوق الى مدينة فاس :

ألا ليت شعري هل أنزه ناظري وللنفس إقبال بوادي الجواهر
أمتع طرفي في رياض أنيقة وأقطف أزهاراً بها كالزواهر
بحيث ترى أسد العرين صريعة وقد فتكت فيها طباء المقاصر
وحيث ترى غلب الحدايق سلسلت

حديثاً صحيحاً عن نسيم الأزاهر

وقد نسجت كف النسيم عشيّة دروع مياه بين تلك النواعر
وأصبحت الأطيّار فوق غصونها فصاحاً تقص فوق خضر المنابر
سقى الله أدواحاً بفاس عيدها تغازل أنواء الغيوث المواطر
ولا برحت عين تراها قريرة وان قذفت بالقلب جمرة حائر
لك الله من إلف بدرعة جسمه وقلب بفاس في قدامة طائر
تراو حه الأشواق في كل ليلة فما بين مزور هواه وزائر
ولو أنه يُعطى على قدر مثله لكان له ما بين يسر^٢ ويأسر

١ - اسم اقليم مغربي معروف .

٢ - يسر اسم ماء لبني يربوع ويأسر جبل في منازل أبي بكر بن كلاب .

وقال أخوه الأمير زِيدَان :

لم أنسَ يومَ زارني قمري فكَمَلَ الأُنسُ به اذْ جلس
قَبَلْتُ منه الخَدَّ مُخْتَلِساً وأنما العِشُّ الشَّهِيُّ خَلَسَ
وَمِلْتُ للشَّعْرِ على غِرَّة مِنْهُ فَمَا أَطْيَبَ ذاكَ اللَّعَسُ
فجَادَ لي بالرِّيقِ حيثُ دَرَى أَنِّي عَلِيلٌ لا أُطِيقُ النَّفْسُ
وَبْتُ نَشْوَانَ بِعَافِيَةٍ أَغْتَنِمُ الْفُرْصَةَ عِنْدَ الْغَلَسِ

وقال ابنُ زَاكُور :

بَارَعَى اللهُ كَيْالٍ قَدْ خَلَتْ وعهوداً سَلَفَتْ لي بِالحِمَى
حيثُ لا هَمٌّ وَلَا غَمٌّ سِوَى رَتَّةِ الْعُودِ وَكَاسَاتٍ تُدَارُ
من عُقَارٍ كُنْضَارٍ أَفْرِغْتَ في أَبَارِيقَ حَكَتْ شُهْبَ الدَّرَارِ
عَلَّلُوا قَلْبَ الشَّجِيِّ مِنْ شُرْبِهَا مَا أُحِيلَ الشَّرْبَ مِنْ تِلْكَ الْعُقَارِ
مَعَ ظِبَاءٍ كَلَفَ الْقَلْبُ بِهِمْ سَمَحُوا بِالْوَصْلِ مِنْ بَعْدِ نِفَارِ
في رِيَاضِ كَزْرَابٍ نُمِّتْ بِشَقِيقٍ كَعَقِيقٍ وَبِهَارِ
أَأْرَى أَحْظَى بَوَصْلٍ بَعْدَ مَا تَمُدَّتْ مِنْ طَاقَتِي تِلْكَ الدِّيَارِ
فَعَلَى آرَامِهَا مِنْ مُدْنِفٍ شَائِقٍ نَشْرُ سَلَامٍ كَالْعَرَارِ

وقال مجنساً :

ذابَ قلبي من الصُّدودِ ولولا ما أُرَجِّي من الوصال قَضَيْتُ
ليتَ شِعْري وهل يَرِقُّ لحالي من هَوَيْتُ فَإِنِّي قد هَوَيْتُ

وقال :

ولَقَدْ ذَكَرْتُكَ بِالرُّبَى مِنْ لَمَطَةٍ ونَسِيمَهَا يُهْدِي إِلَيَّ أَرْجَا
فَاهْتَاجَ رِيحُ الشُّوقِ بَيْنَ أَضَالِعِي يُذَكِّي لَطَى وَجَدِي فَأَجَّ أَجِيجا

وقال :

ذَكَرْتُكَ وَالْبَحْرُ طَلَقُوا الْمُحَيَّا عَلَى مَتْنِهِ رَوْنَقٌ وَابْتِهَاجُ
فَاضَ سَرِيعاً يُحَاكِي فُؤَادِي لِأُمُوجِهِ كَدَدٌ وَانْزِعَاجُ
أَلَا لَيْتَ شِعْري يَجْمَعُنَا بِلَادُ اللَّهِ مِنْ سَنَّاكَ سِرَاجُ

وقال ابن الطيّب العَلَمي :

اشْكُو إِلَى اللَّهِ لَا إِلَى أَحَدٍ غَمَّ الْفِرَاقُ الَّذِي عَلَى كَبْدِي
وَمَا أَكَابِدُ فِيهِ مِنْ تَعَبٍ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ

غَابَ الَّذِي غَبْتُ فِي مُحَاسِنِهِ وَسَارَ مِنْ بَلَدٍ إِلَى بَلَدٍ
 قَطَعْتُ عَنْهُ يَدَ الْوَفَا فَنَاءً يَا لِلْوَرَى يَدَيَّ قَطَعْتُ يَدَيَّ
 بَدْرٌ بِأُفُقِ الْقُلُوبِ مَطْلِعُهُ يَفْتَرُّ عَنْ دُرَرٍ وَعَنْ بَرَدٍ
 رَوَيْتُ عَنْ ثَغْرِهِ النَّظَامَ إِلَى أَنْ شِخْتُ بَيْنَ الرَّوِيِّ وَالْوَتِدِ
 وَلِي لِسَانٌ يَزِينُهُ لَسَنٌ أَكَادُ فِيهِ أَقَاسُ بِالْصَّفْدِي
 ظَلَّتْ دُمُوعِي فِي الْحَدِّ مُطْلَقَةً يَوْمَ الْوَدَاعِ وَالْقَلْبُ فِي صَفْدٍ
 يَقُولُ إِنْ قُلْتُ مَتٍ مِنْ شَغَفٍ مَا إِنْ أَرَى لِلْقَتِيلِ مِنْ قَوْدٍ

وقال :

تَفَتَّحَ وَرْدٌ يَانِعٌ فَوْقَ خَدِهِ أَلَا فَاظْطَرُّوا وَرْدًا تَفَتَّحَ فِي الْحَدِّ
 وَفِي ثَغْرِهِ وَرْدٌ مُنِعْتُ وَرُودَهُ وَمَا ضَرَّهُ لَوْ جَادَ بِالْوَرْدِ وَالْوَرْدُ

وقال :

يَا طَلْعَةَ الْبَدْرِ فِي لَيْلٍ مِنَ الشَّعَرِ يَا فِتْنَةً خُلِقَتْ فِي صُورَةِ الْبَشَرِ
 أَرْحَمُ شَهِيداً لَهُ فِي الْحُبِّ مُعْتَرِكٌ بَيْنَ الْمُبَاسِمِ وَالْإِلْحَاطِ وَالطُّرَرِ

وقال الأديب أبو عبدالله الشرقي صاحبُ الْعَلَمِي :

مَنْ لِي بِهَا تَخْتَالُ فِي حَلِيهَا كَرُوضَةٍ تَخْتَالُ فِي زَهْرِهَا
 فَبِشْرِهَا أَرْحَبُ مِنْ بِشْرِهَا وَنَشْرِهَا أَطْيَبُ مِنْ نَشْرِهَا
 وَخَذُّهَا أَبْهَجُ مِنْ وَرْدِهَا وَنُورُهَا أَلْطَفُ مِنْ نُورِهَا
 وَقَدْهَا أَرْفَعُ مِنْ غُصْنِهَا وَوَجْهَهَا أَيْضُ مِنْ فَجْرِهَا
 الْعَيْشُ وَالْجَنَّةُ فِي وَصْلِهَا وَالْمَوْتُ وَالنَّيْرَانُ فِي هَجْرِهَا
 عَاطِيَتُهَا رَاحاً مُشَعَّشَةً كَمِثْلِ يَاقُوتٍ عَلَى نَخْرِهَا
 رَاحُ أَرَاخِ الْأُنْسِ فِكْرِي بِهَا مِنْ شَارَةِ الدُّنْيَا وَمِنْ شَرِّهَا
 وَهِيَ فِي مَجْلِسِ أَفْرَاحِهَا كَأَنَّهَا الزَّبَاءُ فِي قَصْرِهَا
 لَوْ تَسْعِدُ الدُّنْيَا بِزُورَتِهَا لَا صُطِّلَحَ النَّاسُ عَلَى شُكْرِهَا

وقال :

بَعَثَ الْحَبِيبُ كِتَابَهُ لِيَعُودَ دَنِي وَيَرَى اكْتِسَابِي بَعْدَهُ وَهِيَ أَمِي
 فَكَأَنَّمَا أَمْرُ الْفُؤَادِ بَضَلَةٌ وَالْجَفْنُ أَنْ لَا يَهْتَدِيَ لِمَنَامِ

وقال ، وهو تلخيصٌ بديعٌ لقصة الحب من أولها الى آخرها :

بَدَنُ الْغَرَامِ مُجُونٌ وَبَعْدَ ذَاكَ شُجُونٌ
 وَالْحُبُّ نَفْعٌ وَضَرٌّ وَجَنَّةٌ وَجُذُونٌ
 وَرَاحَةٌ وَبَلَاءٌ وَمُنِيَّةٌ وَمَنُونٌ

فاحفظ فؤادك منه فما هناك أمين
أولاً فمت به وجداً فالموت فيه يهون

وقال الوزير ابن ادريس وارتكب فيها انواعاً من البديع :

سحرتك بالطرف الكحيل الساحر وبحسن قد كالفصيص الزاهر
وبغرة كالفجر تحت ذوائب كدجنة فاعجب لحسن باهر
وبنقطة مسكية في وجنة ورديّة ذات الأريج العاطر
وبريقها المعسول إلا انه يشفي الحشا من كل داء ضائر
ريق أعز علي من نيل المنى والذمن رشف الرحيق لحاطري
ماذا وكم اوقعني في حسرة وجلبت لي من شقوة يا ناظري
ولكم جمحت بتيه ميدان الهوى ما بين جيش قواضب وبواتر
وتركتني في حي ليلى متخناً بظبي ظباء لم أجد من ناصر
يا سعد هل لي في الهوى من مسعد بشفا شفاه اللعس تحت غدائر
ام هل بنجد هواهم من منجد لمتم في حاجر بمجاجر
فتكت عيون العين في أحشائه بشفار الحاظ رمت بخناجر
وسطت عوامل قد هن بقلبه فعدا أسير عوامل ونواظر
أو ثقنه بجبال وعد مخلف وشدن أسر وثاقه بمعاذر
نفسى الفداء لطبيّة فتانة فتاة بشفار شفر فاتر

نَامَتْ نَوَاطِرُهَا وَقَدْ سَلَبَتْ كَرَى
 وَغَدَا الْجَمَالُ بِأُسْرِهِ فِي أُسْرِهَا
 فَإِذَا بَدَتْ سَجْدَ الْعُيُونِ لِحُسْنِهَا
 وَتَرَى الْقُلُوبَ خَوَاشِعًا لجمالِهَا
 شَمْسٌ عَلَى نَحْصٍ تَكُونُ فِي نَقَا
 نَصَبْتُ قِسِيَّ حَوَاجِبِ مَوْتُورَةٍ
 فَكَأَنَّمَا هَارُوتُ عَنْ أَجْفَانِهَا
 وَرَعْتُ رَعَاها اللَّهُ فِي رُبْعِ الْحَشَا
 غَيْدَاءٌ قَدْ وَرِثَتْ مَحَاسِنَ يُوسُفَ
 وَتَوَطَّنتْ بِالْمُنْحَنِ مِنْ أَضْلَعِي
 فَغَدَوْتُ مَا بَيْنَ الْأَنَامِ مُتَيَّا
 وَغَدَا عَذُولِي عَازِرًا فِي حُبِّهَا
 كَمَنْ عَذُولٌ فِي الْهَوَى وَمُكَاشِح
 وَلَكُمْ رَقِيبٌ فِي الْهَوَى أَلْفَتْهُ
 وَلَكُمْ نَظْمٌ سُلُوكُهُ فِي غَادَةٍ
 وَلَكُمْ لَيَالٍ قَدْ خَلَوَتْ فَرِيدَةٍ
 وَمُديرُنَا رَفَعَ الْعَقِيرَةَ مَنشَدًا
 طَرَفِي بِطَرَفِ بَابِلِي سَاحِر
 وَالسَّحَرُ أَيْدِ جُنْدِهِ بَعْسَاكِ
 تَسْبِيحُهَا : سُبْحَانَ رَبِّي الْفَاطِر
 مَكْسُورَةٌ مِنْ كَسْرِ طَرَفِ كَاسِر
 مِنْ تَحْتِ لَيْلِ ذَوَائِبِ وَغَدَائِر
 بِالسَّحَرِ تَرْمِي كُلَّ صَبٍّ نَاطِر
 يَرُوي فَيُسْنِدُ سَاحِرٌ عَنْ سَاحِر
 حَبَّ الْقُلُوبِ وَلَمْ تَخَفْ مِنْ زَاخِر
 نَاهِيكَ مِنْ حُسْنِ بَيْتِي بَاهِر
 وَمُحْصَبَ الْأَحْشَا رَمَتْ مِنْ حَاجِر
 بِجَمَالِهَا وَمُهِمَّاءَ فِي سَائِر
 فَأَعْجَبُ لِعَاذِلِ ذِي غَرَامِ عَاذِر
 غَابَتْ شَوَاهِدُهُ بِوَجْهِ سَافِر
 بِالشَّعْرِ حَتَّى عَادَ عِنْدَ أَوَامِرِي
 فَأَتَتْ قَلَائِدُهُ بِدُرٍّ فَآخِر
 وَالْكَاسُ نَجْمٌ فِي سَمَاءِ أَزَاهِر
 قِطْعًا أَلَذَّ مِنَ الْمَدَامِ الدَائِر

يَشْدُو فَيَبْدُو الدُّرُّ مِنْ أَصْدَافِهِ تَغَرُّ وَشِعْرُهُ مَعَ عَقُودِ جَوَاهِرِ
 سَقِيًّا لِلْأَيَّامِ الْوَصَالِ وَقُرْبِهَا وَزَمَانِ أَنْسٍ بِالْأَوَانِسِ زَاهِرِ
 إِنِّي لِأَذْكُرُهُ فَأَحْسِبُ أَنَّنِي مِنْ كَثْرَةِ الْأَشْوَاقِ بَيْنَ مُحَاضِرِي
 وَأَقُولُ لِلْأَيَّامِ هَلْ مِنْ عَوْدَةٍ لِزَمَانِنَا الْمَاضِي بَوَاصِلِ حَاضِرِ
 فَعَسَاءَ يَظْهَرُ لِي الْمَتَابُ بِعَوْدَةٍ وَيُكْفَرُ الْمَاضِي بِحُسْنِ الْآخِرِ

وقال :

أَلَا خَبَرُوا ذَاتَ الْخَلَاحِلِ وَالْقُرُطِ بِأَنِّي مِلْكٌ لِلْجَمَالِ بِلَا شَرْطِ
 لَقَدْ أَوْدَعْتُ قَلْبِي وَحَقَّقْتُ لَوْعَةً

غَدَاةً غَدَتُ بَيْنَ الْوِشَاحَيْنِ وَالْمِرْطِ

تَمِيسُ كَخُوطِ أَلْبَانٍ غَازَ لَهُ الصَّبَا وَتُسْفِرُ عَنْ بَدْرِ وَتَفْتَرُّ عَنْ سَمَطِ
 رَمْتَنِي بِسَهْمِ الْغُنْجِ عَنْ قَوْسِ حَاجِبِ فَأَصْمَتُ فَوَادَ الْمُسْتَهَامِ وَلَمْ تُخْطِ
 وَمَا كَانَ بَدْءُ الْحُبِّ إِلَّا بِنَظْرَةٍ وَتَبْتَدِيءُ النَّيْرَانُ مِنْ ضَرَمِ السَّقَطِ
 عَجِبْتُ لَهَا مَذْوَراً الْحَسَنُ خَدَّهَا وَزَيْنَهُ كَفُّ الْحَاسِنِ بِالنَّقْطِ
 وَحَلَّتْ بِقَلْبِ الْمُسْتَهَامِ وَأَهْلُهَا بِذَاتِ الْغَضَامَا بَيْنَ نَعْمَانَ وَالشَّطِّ

وقال في سِرْبِ نِسَاءٍ تَعَرَّضَتْ لِلسُّلْطَانِ بِيَلَادِ زَمُورِ :

أَطْبَاءُ زَمُورِ سَلَبْتُمْ مَهْجَتِي بَقْنَا الْقُدُودِ وَصَارِمِ اللَّحَظَاتِ
 وَهَتَكُمُ بِالْقَهْرِ حِصْنٌ تَنْشُكِي بِجِيُوشِ حُسْنِ خَرِيدَةٍ وَمَهَاةِ
 شُنْتُ عَلَيْنَا بِالنَّوَظِرِ غَارَةٌ فَأَخَذْتُمُ الْأَلْبَابَ فِي الثَّارَاتِ

كُفُّوا لِحَاظِكُمُ الْكَحِيلَةَ وَارْذُدُّوا أَسْلَابَ أَلْبَابٍ عَلَى الْمُهْجَاتِ
 أَوْ لَا أَيْبَحُوا لِلشَّفَاهِ شِفَاءَهَا وَلْتَسْتَحِلُّوا لَشَمَ تِي الْوَجَنَاتِ
 قَالَتْ أَفِي شَرْعِ الْغَرَامِ تَحَكُّمُ أَرَأَيْتَ مِنْ حَكَمٍ عَلَى الْفَتَيَاتِ
 نَحْنُ الْمُلُوكُ عَلَى الْمُلُوكِ وَإِنَّمَا أَحْكَامُنَا بِالْقَهْرِ وَالْغَلَبَاتِ
 الْجَوْرُ عَدْلٌ مِنْدَنَا وَالظُّلْمُ حَقٌّ بَيْنَنَا وَالذَّنْبُ كَالْحَسَنَاتِ

وقال القاضي ابو عبدالله بن طاهر الهواري وهو من تَبْدِيلِ
 الْقَلْبِ :

قَدْ سَبَى عَقْلِي مَعْسُورُ اللَّيْمَا بِاللَّيْمَا الْمَعْسُورِ عَقْلِي قَدْ سَبَى
 عَذَّبَ الْقَلْبَ اخْتِيَاراً بِالْهَوَى بِالْهَوَى الْقَلْبَ اخْتِيَاراً عَذْبَا
 قَدْ أَبَى الْوَصْلَ وَلَكِنْ أُرْتَجِي أُرْتَجِي الْوَصْلَ وَلَكِنْ قَدْ أَبَى

وقال في مליح يسبح :

وَجُرَّدٍ قَدْ لَاحَ وَشَطَّ الْمَاءِ مُتَلَأْلَأًا كَالدَّرَةِ الْبِيضَاءِ
 أَبَدَى لَنَا مِنْ رِدْفِهِ دُعَصَ النَّقَا وَالْخَصْرُ أَخْصَرُ مَا يَرَاهُ الرَّائِي
 يَطْفُو وَيُرْسِبُ وَالْحَاسِنُ يُجْتَلَى بِتَخَالُفِ الْأَوْضَاعِ وَالْأَنْحَاءِ
 عَوَّذْتَهُ كَيْ لَا يُصَابَ بِأُسْهُمٍ مِنْ أَعْيُنِ النُّظَّارِ وَالرُّقَبَاءِ

وقال الاديب ابو العباس احمد بن الرّضي بن عثمان المكناسي .

هوى يعلو فأخفّضه اصطبارا	فما يزدادُ بي الا أوّارا
وأضربُ عن حديث الحب صفحا	فتستهويني الذّكرى افتكارا
لبستُ الحب فوق العظم جلدًا	وقيسُ حازه ثوبًا معارا
فإن تعجب ففي أمري عجب	يرى أهلُ الهوى فيه اعتبارا
أليس الدّمع يُبرّدهم غليلا	فما للدّمع لي يزيدُ نارا
ولو كالشمس أو كالبدْر أضحى	مُحيّا من هويت لقلتُ زارا
ولكن فيه عينُ الشمس غايتُ	وأما البدرُ أبصره فحارا
تعالى الله كم أهدى بسهم	من الأهداب للكبد أنفطارا
ولجّ العاذلون فأوسعوني	غداة رأوا لواحظه اعتذارا
أبيتُ وكلُّ من يهوى يبتُ في	ضيوف الحب يقريه الجمارا
أفكرُ في مباسمه التي من	يضلُّ يقول جهلاً واغترارا
ثغورُ ام لآلي الدر تنسدى	اجاد النّسق ناظمها جوارا
جرتُ انهارُ كوثرها رُضابًا	ولو حققتُ قلتُ جرت عُقارا
أغصنا مالَ بالألباب مِنّا	فترجو الوصلَ يُطلّعه ثمارا
أكلفتُ الرّياضَ تذوّبَ نشرًا	فقد أغنى الميامنَ واليسارا
وما أغنى غناءك في كفاء	يسابقُ غصنُ بانك حيث سار

متى أَشْمُمُ عَذَارَاً فِي أَصِيلٍ فَأَفْضَحَ رَنْدَ نَجْدٍ وَالْعَرَارَا
فَتَحْظَى بِالْمُنَى مِنَّا نَفُوسٌ تَرَى إِذْ لَاحَا فِيكَ افْتِخَارَا

وقال محمد بن الشيخ سيدي الأبيري الشنقيطي :

مَا لِلْمُحِبِّينَ مِنْ أَسْرِ الْهَوَى فَادٍ وَلَا مُقِيدٌ لِقَتْلَاهُمْ وَلَا وَادٍ
وَلَا حِمِيمٌ وَلَا مَوَلَى يَرِقُّ لَهُمْ بَلْ هُمْ بِوَادٍ وَكُلِّ النَّاسِ فِي وَادٍ
يَا رَحْمَتِي لَهُمْ مَا كَانَ أَصْبَرَهُمْ عَلَى مُعَانَاةِ جَمْعٍ بَيْنِ أَضْدَادٍ
وَالنَّاسُ إِلْبٌ عَلَيْهِمْ وَاحِدٌ فَلَذَا مَا إِنْ تَرَى مِنْ يُوَاسِيهِمْ بِإِسْعَادٍ
إِمَّا عَذُولٌ وَإِمَّا ذُو مُرَاقَبَةٍ أَوْ زَاِعِمُ النَّصْحِ أَوْ سَاعٍ بِإِفْسَادٍ
إِنْ أَظْهَرُوا مَا بِهِمْ لِيُمُوا وَإِنْ كَتَمُوا

لَا قُوا بِمَا كَانُوا تَصْدِيعُ أَكْبَادٍ

وَهَيْئَ كُلِّ مَا لَا قُوَّةَ عِنْدَهُمْ لَوْ أَنَّ أَحْبَابَهُمْ لِيَسُوا بِضْدَادٍ
يَا عَاذِلِينَ أَقْلُوا اللَّوْمَ وَيَحْكُمُ إِنِّي لِمَنْ رَامَ قَوْدِي غَيْرُ مُنْقَادٍ
وَلَا يُلِينُ قَنَاةَ غَمَزٍ غَاِمَزَهَا وَلَا يُقِيمُ ثِقَافُ الْعَذْلِ مُنْثَادِي
أَحْيَا كُنْتُ أَوْ يَمُتُ مِنْ جَهَةِ أَلْفِي رَقِيْبَا وَلَوْ مَا بِمِرْصَادٍ
مَا اعْتَادَ قَلْبِي الصَّبَا لَكِنْ مِنْ مَلَكْتِ

يَدُ الْغَرَامِ يَعُودُ غَيْرَ مُعْتَادٍ

يَزْدَادُ بِاللَّوْمِ حُبُّ الصَادِقِينَ هَوَىٰ وَاهَاً لِحُبِّ بَطُولِ اللَّوْمِ مُزْدَادٍ

والطَّرْفُ لِلْقَلْبِ مُرْتَادٌ وَلَا عَجَبٌ فِي قَفْوِ مُنْتَجِعِ آثَارِ مُرْتَادٍ
وَالْحُبُّ أَمْرٌ عَزِيزٌ لَيْسَ مَرْتَبِطًا فِي حُكْمِهِ عِنْدَ مَنْ يَدْرِيه بِالْعَادِ

وقال السيد مُحَمَّدُ الْحَرَّاقُ المتوفى سنة ١٢٦١ وهو من شعر

الإشارة :

أَحْبَبْتَنَا إِنْ الْغَرَامَ أَصَابَنِي وَغَيْبَنِي حَتَّى تَحَيَّرْتُ فِيكُمْ
فَإِنْ رُمْتُ نَوْمًا فَارَقَ النَّوْمُ مُقْلَتِي وَإِنْ رُمْتُ بَسْطًا خَفْتُ سُلُوبِي عَنْكُمْ
وَإِنْ كُنْتُ مِنْ أَهْلِي قَرِيبًا أَخَافُ أَنْ تَرَوْا مِنْ مُجِبِّ جَالَةِ الْبُعْدِ مِنْكُمْ
وَإِنْ كُنْتُ نَاءً عَنْكُمْ خِلْتُ أَنَّنِي أَقْصَرُ عَنْ نَهْجِ الْعَيْدِ لَدَيْكُمْ
عَلَى كُلِّ حَالٍ لَيْسَ فِي الْحُبِّ رَاحَةٌ أَمُوتُ شَهِيدًا وَالسَّلَامُ عَلَيْكُمْ

وقال :

أَتَتْ فِي الدُّجَى كَيْ لَا يَرَاهَا رَقِيبُهَا وَيُخْلَصَ مِنْ شَرِّ الْوُشَاةِ حَبِيبُهَا
فَنَمَّ بِهَا إِشْرَاقُ نَوْرِ جَمَالِهَا وَأَخْبَرَ عَنْهَا إِذْ تَضَوَّعَ طَيْبُهَا
فَوَاللَّهِ لَا يَخْلُو بِهَا غَيْرُ عَاشِقٍ رَقِيقُ الْمَعَانِي فِي الْأُمُورِ لَيْبُهَا
فَنِي فَبَدَّتْ فِي مَوْضِعِ الْوَصْلِ وَحْدَهَا وَلَمَّا يَكُنْ شَيْءٌ هُنَاكَ يُرِيبُهَا

وقال مُضْمَنًا قول المجنون في آخره :

أَمَاطَتْ عَنْ مُحَاسِنِهَا الْحِمَارَا	فغادرت العقولَ بها حِيَارَى
وَبَثَّتْ فِي حَمِيمِ الْقَلْبِ شَوْقَا	تَوَقَّدَ مِنْهُ كُلُّ الْجَسَمِ نَارَا
وَأَلْقَتْ فِيهِ سِرًّا ثُمَّ قَالَتْ	أَرَى الْإِفْشَاءَ مِنْكَ الْيَوْمَ عَارَا
وَهَلْ يَسْتَطِيعُ كَتَمَ السَّرِّ صَبًّا	إِذَا ذَكَرَ الْحَبِيبُ لَدَيْهِ طَارَا
بِهِ لَعِبَ الْهَوَى شَيْئًا فَشَيْنًا	فَلَمْ يَشْعُرْ وَقَدْ خَلَعَ الْعِذَارَا
إِلَى أَنْ صَارَ غَيْبًا فِي هَوَاهَا	يُشِيرُ بِغَيْرِهَا وَلَهَا أَشَارَا
يُغَالِطُ فِي هَوَاهَا النَّاسَ طُرَا	وَيُلْقِي فِي عِيُونِهِمُ الْغُبَارَا
وَيَسْأَلُ عَنْ مَعَارِفِهَا التِّذَاذَا	فِيَحْسِبُهُ الْوَرَى أَنْ قَدْ تَمَارَى
وَلَوْ فَهِمُوا دَقَائِقَ حُبِّ لَيْلَى	كَفَاهُمْ فِي صَبَابَتِهِ اخْتِبَارَا
إِذَا يَبْدُو أَمْرًا مِنْ حَيِّ لَيْلَى	يَذِلُّ لَهُ وَيَنْكَسِرُ انْكِسَارَا
وَلَوْ لَاهَا لَمَا أَضْحَى ذَلِيلًا	(يُقْبَلُ ذَا الْجِدَارِ وَذَا الْجِدَارَا
وَمَا حُبُّ الدِّيَارِ شَغَفَنَ قَلْبِي	وَلَكِنْ حُبُّ مَنْ سَكَنَ الدِّيَارَا)

الوصف

للقاضي أبي الحسن بن زُنباع يصف الربيع :

أبدت لنا الأيامُ زهرةً طيبها	وتسرّبت بنضيرها وقشيدها
واهتزّ عطفُ الأرض بعد خشوعها	وبدت بها النعماء بعد شحوبها
وتطلّعت في عُنفوان شبابها	من بعدما بلغت عُتَيّ مشيدها
وقفت عليها الشجْبُ وقفةً راحم	فبكت لها بغيوها وقلوبها
فَعَجِبْتُ للآزهار كيف تضاحكت	بيكائها وتباشرت بقطوبها
وتسرّبت حُللاً تجرُّ ذُيولها	من لَدَمِها فيها وشقَّ جُيوبها
فلقد أجادَ المزنُ في إنجازِها	وأجادَ حرُّ الشمس في ترديدِها
ما أنصفَ الخيريُّ يَمْنَعُ طيبه	لحُضورها ويُديحه لمغيبها
وهي التي قامت عليه بدِفئها	وتعاهدته بدرّها وحليبها

١ - الخيري زهر يعرف بالمشور تذكو رائحته ليلاً ويقول له العامة مسك

الليل .

فكأنَّه فرضٌ عليه مُوقَّتٌ ووُجُوبُهُ متعلقٌ بوُجُوبِهَا^١
وعلى سماءِ الياسمينِ كواكبٌ أبدتْ ذكاءَ العَجَزِ عن تَغْيِيبِهَا
زُهرٌ تَوَقَّتْ لَيْلُهَا ونهارُهَا وتَفَوَّتْ شَأْوُ خُسُوفِهَا وغُرُوبِهَا
فَضَلَّتْ على سِرِّ النجومِ بَأْسِرِهَا وسُرُوبُهَا في الخَلْفَتَيْنِ وَطِيبِهَا
فَتَأَرَّجَتْ اِرْجَاؤُهَا بِهَبُوبِهَا وتَعَانَقَتْ أَزْهَارُهَا بِنُكُوبِهَا
وَتَصَوَّبَتْ فِيهَا فِرْعَوْنُ جَدَاوِلِ تَتَصَاعَدُ الْإِبْصَارُ فِي تَصْوِيبِهَا
تَطْفُو وترُسُبُ في أُصُولِ ثَارِهَا والحَسَنُ بَيْنَ طُفُوءِهَا وَرُسُوبِهَا
فَكَأَنَّمَا هِيَ مُوجِسَاتُ أَسَاوِدِ تَنَسَّابُ مِنْ أُنْقَابِهَا لِلصُّوبِهَا^٢
بَادِرُ كُوُوسِ الْأُنْسِ فِي حَافَاتِهَا واجْعَلْ سَدِيدَ الْقَوْلِ مِنْ مَشْرِوْبِهَا
فَحَدِيثُ إِخْوَانِ الصَّقَاءِ لَذَاذَةٌ تُجْنَى وَيُؤْمَنُ مِنْ جِنَايَةِ حَوْبِهَا
وَارْكَضْ إِلَى اللَّذَاتِ فِي مَيْدَانِهَا وَاسْبِقْ لِسَدِّ ثُغُورِهَا وَدُرُوبِهَا
أُعْرِيَتْ خَيْلُكَ صَيْفَهَا وَخَرِيفَهَا وَشِتَاءَهَا، هَذَا أَوَانُ رُكُوبِهَا
أَوْ مَا تَرَى الْإِزْهَارَ مَا مِنْ زَهْرَةٍ إِلَّا وَقَدْ رَكِبَتْ فَقَارَ قَضِيبِهَا
وَالطَّيْرُ قَدْ خَفَقَتْ عَلَى أَفْنَانِهَا تُلْقِي فُنُونَ الشَّدْوِ فِي أَسْلُوبِهَا
تَشْدُو وَتَهْتَزُّ الْغُصُونُ كَأَنَّمَا حَرَكَاتُهَا رَقْصٌ عَلَى تَطْرِيبِهَا

١ - أي وجوب ذلك الفرض عليه مرتبط بوجوب الشمس يعني غروبها .

٢ - جمع لصب وهو الشق في الجبل ونحوه .

وللقاضي عياض في خامات زرع بينهما شقائق نعمان هبت
عليها ريح :

انظر الى الزرع وخاماته تحكي وقد ماست أمام الرياح
كتيبة خضراء مهزومة شقائق النعمان فيها جراح
ولأبي العباس ابن غازي السبتي يصف ناقة :

حرف كمثل الصاد إلا أنها بعد السرى جاءت كحرف النون
كالقدر قدره الاله مازلاً في الأفق حتى عاد كالعرجون
ولأبي بكر ابن تافلويت في سيف هزه على بن يوسف ابن
تاشفين ارتجالاً :

هزرت حساماً فشبهته غديراً من الماء لكن جمده
فلما بدا لي إفرنده لهيباً من النار لكن خمد
فلولا الجمود ولولا الخمود لساى لدى الهز أو لا تقدر

ولابن عبدون المكناسي يصف نهراً وردته عصاة طير :

قم انظر النهر في انصبابه كأنه الصل في انصبابه
قد انتحت ظمائه طير مقتحات على جنبه

تَنْقَعُ مِنْ مَائِهِ أَوْامًا وَتَلْقُطُ الْحَبَّ مِنْ حَبَابِ
وله في المشيب :

لَمَّا تَرَأَتْ لِلْمَشِيبِ بَمْفِرْقِي شُبُّ أَعْرَنَ عَلَى شَبَابِي الْأَدْمِ
أَبْدَى التَّجَهُمَ مَنْ أَحَبُّ أَمَادَرَى أَنَّ الدِّيَاجِي حُسْنَهَا بِالْأَنْجَمِ

وله في مدينة مكناس :

إِنْ تَفْتَحِرْ فَاسٌ بِهَا فِي طَيْهَا وَبَأْنَهَا فِي زِيَّهَا حَسْنَاءُ
يَكْفِيكَ مِنْ مَكْنَسَةِ أَرْجَاوُهَا وَالْأَطْيَابِ هَوَاوُهَا وَالْمَاءُ

ولابن جابر المكناسي فيها :

لَا تُتَكِرَنَّ الْحَسَنَ مِنْ مَكْنَسَةٍ فَالْحَسَنُ لَمْ يَبْرَحْ بِهَا مَعْرُوفًا
وَلَيْنَ مَحْتُ أَيْدِي الزَّامَانِ رُسُومَهَا فَلَرُبَّمَا أَبَقَتْ هُنَاكَ حُرُوفًا

ولابي العباس العزفي في صفة ليلة :

وَكَمْ لَيْلَةٌ نَلْتُ فِيهَا الْمُنَى وَبَاتَ لِي الْحَبُّ فِيهَا نَجِيًّا
إِذَا ظَلَّ لَحْظِي فِي جُنْحِهَا هَدَتْ وَجْنَتَاهُ الصَّرَاطَ السَّوِيًّا
أَرَاغُ فَاسْأَلُ عَنْ صُبْحِهَا فَيَرْجِعُ لِي جُنْحُهَا نَمَ هَنِيًّا

إلى أن بدا لي سرحانها يُحاولُ للجدي فيها رُقياً^١
 فيا لك من ليلةٍ بئسها أنادِمُ بدرَ دُجَاهِا البَهِيا
 حَكَتْ لَيْلَةُ السَّفْحِ في حُسْنِها
 فأصبحتُ أَحْكِي الشَّرِيفَ الرَضِيّاً^٢

ولمالك بن المرحل يصف قصرَ الليل :

وعَشِيَّةٍ سَبَقَ الصَّبَاحُ عِشَاءَها قِصَراً فَمَا أُمْسَيْتُ حَتَّى أُسْفَرا
 مِسْكِيَّةٍ لِبَسَتْ حُلَى ذَهَبِيَّةٍ وَجَلَا تَبَسُّمُها نِقَاباً احْمَرا
 وَكَأَنَّ شُهْبَ الرَّجَمِ بَعْضُ حُلِيِّها عَثَرَتْ بِهِ مِنْ سُرْعَةٍ فَتَكَسَّرا
 وله في وَصْفِ مَدِينَةِ سَبْتَةِ :

إِنْخَطِرْ عَلَى سَبْتَةٍ وَانْظُرْ إِلَى جَمَالِها تَصُبُّ إِلَى حُسْنِها
 كَأَنَّها عُوْدُ الغِنَاءِ وَقَدْ أُلْقِيَ فِي البَحْرِ عَلَى بَطْنِها

ولأبي القاسم الشَّرِيفِ يَصِفُ دُولَاباً :

وَذَاتِ حَنِينٍ تَسْتَهْلُ دُمُوعُها سِجَماً إِذَا يَخْدُورُ كَأَنَّها الحَادِي

١ - السرحان الفجر ، والجدي نجم الى جنب القطب تعرف به القبلة .

٢ - يشير الى قوله :

يا ليلة السفح هلا عُدتِ ثانيةً سقى زمانك هطالاً من الدَّيَمِ

تعجبتُ أَنْ لَيْسَتْ تَرْيِمُ مَكَانَهَا وَلَمْ تَخْلُ مِنْ تَأْوِيلِ سَيْرٍ وَإِسَادِ
وَأَرْصَدَتْهَا فِي الرُّوضِ أَيْتَةُ عُدَّةٍ فَكَانَتْ لِدَفْعِ الْمَحْلِ عَنْهُ بِمِرْصَادِ
تَخَالَفَ مَاءُ الْمِزْنِ حُكْمًا وَمَاؤُهَا

وَكُلُّ عَلَى رَوْضِ الرَّبِّي رَائِحُ غَادِ
فَيُنْجِدُ هَذَا بَعْدَ مَا كَانَ مُتِمًّا وَذَلِكَ تَرَاهُ مُتِمًّا بَعْدَ إِنْجَادِ^١
لِشْنٍ قَذَفَتْ ذَوْبَ اللَّجَيْنِ عَلَى الشَّرَى
لَقَدْ خَلَصَتْهُ الْقُضْبُ حَلِيًّا لِأَجَادِ

وله يصف رُمحاً :

وَأَحْمَ مَمْطُولِ الْكُعُوبِ إِذَا اقْتَضَى
مَهَجَ الْكُمَاةِ فِدَيْنُهُ لَا يُمِطُّ^٢
مَتَوَقِّدٌ حَتَّى أَقُولَ أَذَابِلُ بِيَدَيَّ مِنْهُ أَمْ ذُبَالٌ مُشْعَلُ
لَوْ لَا التَّهَابُ النَّصْلُ أُنِيعَ عُودُهُ مِمَّا يَعْلُ مِنْ الدِّمَاءِ وَيَنْهَلُ
فَاعْجَبَ لَهُ إِنْ النَّجِيعَ بِطَرَفِهِ رَمَدٌ وَلَا يَخْفَى عَلَيْهِ مَقْتَلُ

١ - نجد ما ارتفع من أرض تهامة الى العراق يقال أنجد وأتهم إذا أتى نجدًا
أو تهامة ومن ثم جاء التشبيه في قول شاعرنا .

٢ - الأحم الأسود ، ومطول الكعوب مقوم العقد .

ولابن الجنان المكناسي ممّا كتبه على دَوْر خَشَبِيٍّ بِدَارِهِ :

انظر الى مَنْزِلٍ مَتَى نَظَرْتُ عَيْنَاكَ يُعْجِبُكَ كُلُّ مَا فِيهِ
يَنْبِيءُ عَنْ رِفْعَةٍ لِمَالِكِهِ وَعَنْ ذِكَاةِ الْحِجَا لِبَنَانِيهِ
يُنَاسِبُ الْوَشْيُ فِي أَسَافِلِهِ مَا يَرْقُمُ النَقْشُ فِي أَعَالِيهِ
كَأَنَّهُ رَوْضَةٌ مُدَبَّجَةٌ جَادَ لَهَا وَابِلٌ بِهَامِيهِ
فَظَاهَرَتْ لِلْعَيُونِ زُخْرُفُهَا وَوَافَقَتْهَا عَلَى تَجَلِّيهِ
فَهُوَ عَلَى بَهْجَةٍ تَلُوحُ بِهِ وَرَوَّتَقِي لِلْجَمَالِ يُبْدِيهِ
يَشْهَدُ لِلسَّاكِنِينَ أَنَّ لَهُمْ مِنْ جَنَّةِ الْخُلْدِ مَا يُحَاكِيه

ولعبد المهيمن الحضرمي يصفُ النخل في سِجْلَمَاسَةِ :

لَقَدْ رَأَيْتُنِي مَرَّأَى سِجْلَمَاسَةَ الَّذِي يُقَرُّ لَهُ فِي حُسْنِهِ كُلُّ مُنْصِفٍ
كَأَنَّ رُؤُوسَ النَّخْلِ فِي عَرَصَاتِهَا فَوَاتِحُ سُورَاتٍ بِأَخْرِ مُصْحَفٍ

وللفقيه المغيلي في مَدِينَةِ فَاسِ :

يَا فَاسُ حَيَّا اللَّهَ أَرْضَكَ مِنْ ثَرَى وَسَقَاكِ مِنْ صَوْبِ الْغَمَامِ الْمُسْبِلِ
يَا جَنَّةَ الدُّنْيَا الَّتِي أَرَبْتُ عَلَى عَدْنٍ بِمَنْظَرِهَا الْبَهِيِّ الْأَجْمَلِ
غُرْفٌ عَلَى غُرْفٍ وَيَجْرِي تَحْتَهَا مَاءٌ أَلَذُّ مِنَ الرَّحِيقِ السَّلْسَلِ
وَبَسَاتِنٌ مِنْ سُندُسٍ قَدْ زُخْرِفَتْ بِجَدَاوِلٍ كَالْأَيْمِ أَوْ كَالْفَيْضِ

وَبِجَامِعِ الْقَرْوِيِّ شَرَّفَ ذِكْرُهُ أَنْسُ بِذِكْرَاهُ يَهِيْجُ تَمْلُكِي
وَبَصَحْنِهِ زَمَنَ الْمَصِيفِ مُحَاسِنُ فَمَعَ الْعَشِيِّ الْغَرْبَ فِيهِ اسْتَقْبَلِ
وَاشْرَبْ بِتِلْكَ الْبَيْلَةِ الْحَسَنَاءِ بِهِ وَاكْرَعَ بِهَا عَنِّي فَدَيْتُكَ وَانْهَلِ

ولالأستاذ منديل ابن أجروم يصف الطبيعة خارج باب
الفتوح بفاس :

أَيُّهَا الْعَارِفُونَ قَدْ الصَّبُوح جَدُّوْا عَهْدَنَا بِبَابِ الْفَتْوحِ
جَدُّوْا ثُمَّ أَنْسَنَا ثُمَّ جَدُّوْا نَسْرَحِ الطَّرْفَ فِي مَجَالِ فُسَيْحِ
حَيْثُ شَابَتْ مَفَارِقُ اللَّوْزِ نَوْرًا وَتَسَاقَطْنَ كَاللُّجَيْنِ الصَّرِيحِ
وَبَدَا مِنْهُ كُلُّ مَا احْمَرَّ يَحْكِي شَفَقًا مَرَّقَتْهُ أَيْدِي الرِّيحِ
وَكَانَ الَّذِي تَسَاقَطَ مِنْهُ نُقْطَ لَحْنٍ مِنْ دَمٍ مَسْفُوحِ
وَإِذَا مَا وَصَلْتُمْ لِلْمُصَلَّى فَلْتَجَلُّوا بِمَوْضِعِ التَّسْبِيحِ
وَبِطَيْفُورِهَا فَطُوفُوا لِكَيْهَا تُبْصِرُوا مِنْ ذُرَاهِ كُلِّ السُّطُوحِ
وَلْتُقِيمُوا هُنَاكَ لِمَحَّةِ طَرْفٍ لِتَرُدُّوْا بِهِ ذَمَاءَ الرُّوُوحِ

١ - البيلة اسم سقاية من الرخام بصحن القرويين والكلمة معربة من pila الإسبانية .

٢ - في مخطوط نثر الجمان مكان هذا العجز : فَلْتَجَلُّوا مَوَاضِعَ التَّسْبِيحِ .
ولعله أنسب للمعنى .

ثُمَّ حَطُّوا رِحَالَكُمْ فَوْقَ نَهْرٍ كَلَّ فِي وَصْفِهِ لِسَانُ الْمَدِيحِ
 فَوْقَ حَافَاتِهِ حَدَائِقُ خَضْرُ لَيْسَ عَنْهَا لِغَاشِقٍ مِنْ نُزُوحِ
 وَكَأَنَّ الطُّيُورَ فِيهَا قِيَانُ هَتَفَتْ بَيْنَ أُعْجَمٍ وَفَصِيحِ
 وَهِيَ تَدْعُوكُمْ إِلَى قُبَّةِ الْجَوْ زَهَلَمُوا إِلَى مَكَانٍ تَلِيحِ
 فِيهِ مَا تَشْتَهُونَ مِنْ كُلِّ نَوْرٍ مُغْلَقٍ فِي الْكِمَامِ أَوْ مَفْتُوحِ
 وَغُصُونٍ تَهِيحُ رُقَصًا إِذَا مَا سَمِعَتْ صَوْتَ كُلِّ طَيْرٍ صَدُوحِ
 فَأَجِيبُوا دُعَاءَهَا أَثْبَاهَا الشَّرْبِ وَخَلُّوا مَقَالَ كُلِّ نَصِيحِ
 وَاجْنَحُوا لِلْمَجْنُونِ فَهُوَ جَدِيرٌ وَخَلِيقٌ مِنْ مِثْلِكُمْ بِالْجَنُوحِ
 وَاخْلَعُوا ثُمَّ لِلتَّصَايِي عِذَارًا إِنَّ خَلَعَ الْعِذَارَ غَيْرُ قَبِيحِ
 وَإِذَا شِئْتُمْ مَكَانًا سَوَاهِ هُوَ أَجَلِي مِنْ ذَالِكُمْ فِي الْوُضُوحِ
 أَجْمَعُوا أَمْرَكُمْ لِنَحْوِ خَلِيجِ جَاءَ كَالصَّلِّ مِنْ فُقَارٍ فَيَحِ
 عَطَّرَتْ جَانِبَيْهِ كَفُّ الْغَوَادِي بِشَذَا عَرَفِ زَهْرَهَا الْمُنُوحِ
 قُلْ لِمَهْيَارٍ إِنْ شِمِمْتَ شَذَاهَا قَوْلَ مُسْتَخْبِرٍ أَخِي تَجْرِيحِ
 أَيْنَ هَذَا الشَّذَا الذِّكِّيَّ مِنَ الْقَيْصُومِ وَالرَّندِ وَالْغَضَا وَالشَّيْحِ
 حَبْدًا ذَلِكَ الْمَهَادُ مِهَادًا بَيْنَ دَانٍ مِنَ الرَّبِّي وَنَزُوحِ
 ثُمَّ مِنْ ذَلِكَ الْمَهَادِ أَفِيضُوا نَحْوَ هَضْبٍ مِنَ الْهُمُومِ مُرِيحِ
 فِيهِ لِلْحُسْنِ دَوْحَةٌ وَرَوَايَا وَانْشِرَاحٌ لِنِي فُؤَادٍ قَرِيحِ

وَحِجَارٌ تُدْعَى حِجَارَ طُبُولٍ غَيْرَ أَنْ التَّطْيِيلَ غَيْرُ صَحِيحٍ
 تَنْشُرُ الشَّمْسُ ثُمَّ كُلَّ غَدُورٍ زَغْفَرَانًا مُبَلَّلًا بِنُضُوحٍ
 وَسَبُّوا مِنْ هُنَاكَ يَسْبِي عُقُولًا وَيُجَلِّي لِحَاطَ طَرْفِ طُمُوحٍ
 وَعُيُونٌ بِهَا تَقِرُّ عُيُونُ وَكَلَاهَا يَأْسُو كُلُّومَ الْجَرِيحِ
 فَرِشَتْ فَوْقَهَا طَنَافِيسُ زَهْرٍ لَيْسَ كَالْعَيْنِ تَسْجُهَا وَالْمُسُوحِ
 كَلَّمَا مَرَّ فَوْقَهُنَّ طَلِيحٌ عَادَ مِنْ حُسْنِهِنَّ غَيْرَ طَلِيحٍ
 فَانْهَضُوا أَثْيَا الْمُحِبُّونَ مِثْلِي لِنَرَى ذَاتَ حُسْنِهَا الْمَلْمُوحِ
 هَكَذَا يُرَبِّحُ الزَّمَانُ وَالْأَلَا كُلُّ عَيْشٍ سِوَاهُ غَيْرُ رَيْحِ

ولابن عبد المنان من قصيدة في مدح أبي عنان المريني يصف

الساعة العجيبة التي نصبها بواجهة مدرسته الشهيرة بفاس :

وَاللهُ لِلْمَوَاقِيتِ اسْتَقْلًا بِهَا صَنَعَ تَفَوْتَ النُّهَى لَطْفًا صَنَائِعُهُ
 أَيْبَاتُهَا عَدُّ أَبْرَاجِ السَّمَاءِ وَلَا قُطْبُ وَلَا فَلَكٌ تُدْرَى مَوَاضِعُهُ
 يَجْرِي الْهَلَالُ عَلَيْهَا جَرِيًّا أَبَدًا عَلَى الْمَنَازِلِ صُنْعُ فَاقَ بَارِعُهُ
 وَفِي الْبُيُوتِ جَوَارٍ كُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمْ خُصَّتْ بِمِيقَاتِ تَطَالِعِهِ
 حَتَّى إِذَا جَدَّ إِسْرَاعًا لَوِجَتِهَا وَحُمَّ مِنْهُ فِرَاقُ حَانَ وَاقِعِهِ

وأذن الطير من أعلى مراقبه بَيْنَهُ مُعَرِّباً عَنْ ذَاكَ قَارِعَهُ
 ثارت هنالك توديعاً له ودنت الى الغناء على دُعر تُشايِعُهُ
 وفي اليمين كتابٌ باسم مَوْقِيتِها الى الإمام وقد أَوَمَّتْ تُبَايِعُهُ
 وشامخ المرتقى آوى لأفْرِخِهِ بالوَكَرِ وهو أمينُ السَّربِ وادِعُهُ
 أتيحَ عَمْداً له مُسْتَشْفِعُ سِبْطِ رُحْبِ الْقَذَالِ صَقِيلِ الطَّرْفِ لَامِعُهُ
 أَحْوَى الْأَدِيمِ يُجَارِي دُونَمَا قَدَمِ هُوجَ الرِّيحِ حَدِيدِ النَّابِ قَاطِعُهُ
 جُمُ الثَّقَلْبِ لَمْ تُؤْمِنْ غَوَائِلُهُ غَدْرًا وَتُحْذِرُ مِنْ خَتْلِ خَدَائِعُهُ
 يَسْعَى لَهُ الْحَيْنَ بَعْدَ الْحَيْنِ يَرْزَاهُ تُكَلَّأُ فِيصْفَرُ خَوْفًا أَوْ يُقَارِعُهُ
 كذلك الليلُ لا ينفكُ مُخْتَلِفًا اليه وَهُوَ عَنِ الْأَفْرَاحِ دَافِعُهُ
 ومثله لِأَخِيهِ يَنْتَحِيهِ وَمَا إِنْ مِنْهَا لَيْلُهُ إِلَّا مُقَارِعُهُ
 كَأَنَّمَا الصَّلُّ أَمْسَى مُسْكَاً فَاذَا مَا سَاعَةٌ ذَهَبَتْ ثَارَتْ مَطَالِعُهُ
 وظنَّهَا آخِرَ السَّاعَاتِ قَدْ أَذِنَتْ بِفَطْرِهِ فَسَمَاَ لِلْفَرْخِ لَاسِعُهُ
 رياضُ حُسْنِ بَدَا لَوْلَا سُعُودُكَ لَمْ تُسْتَجَلْ يَا مَلِكَ الدُّنْيَا بَدَائِعُهُ

وله أيضاً من قصيدة أخرى فيه يصف قتل الأسد بين يديه
 ودخول المحتال في الأكرة المعدة لذلك وهي أكرة مستديرة من
 خشب يحركها رجل في وسطها يطعن الأسد بجديدة فيظفر بها الأسد
 طامعاً في المحتال فتدور به وهو لا يقدر على المحتال بمنع الأكرة

ويصف شبكةَ صيد الأسد في الفلاة نُصِبتْ لأخذه بالقصر والشَّوْرَ
الذي كان من عادته قتلُ الأسود في ذلك الموطن وروض المصاراة والناعورة
المنظوبة فيه :

وَضَبَارِمٌ ^(١) رُحِبَ اللَّبَانُ تُقِلُّهُ
يَفْتَرُّ عَنْ نَابٍ كَأَطْرَافِ الْقَنَا
فَتَكَّتْ بِهِ فِي الْقَصْرِ سُمْرُ رِمَاحِهِ
أَمْسَى صَرِيحاً وَالدِّمَاءُ سُلاَقَةٌ
وَتَنَى عَلَى زَأْرَاتِهِ كَشْحاً وَقَدْ
لَكِنَّ أَلْسِنَةَ الْقَوَاضِبِ أَظْهَرَتْ
وَلَقَدْ رَمَاهُ قَبْلَ مَضْرَعِهِ الرَّدَى
وَمُخَاتَلٍ فِي جَوْفِ دَائِرَةِ طَوْتٍ
يَحْكِي بِهَا رَأً ^(٢) بَيْضَةً سَبَسَبَ
يَمْشِي الْهُوَيْنَا وَسَطَهَا فَتَقِلُّهُ

صَهْبٌ ^(٣) مَتَيْنَ خَلَقَهَا، عَجَلِ الشَّوَى
بَيْضاً وَيَنْضُو مِخْلَباً حَدَّ الشَّيْبَا
بَأَكْفٍ أَسَدٍ دَوَّخَتْ أَسَدَ الشَّرَى
أَتْرَاهُ سُكْرًا مَالٍ مِنْ تِلْكَ الطَّلَا ^(٤)
كَانَتْ يُرَدِّدُهَا فُرَادَى أَوْ ثَنَى
مَا أَضْمَرَتْ جَنْبَاهُ مِنْ سِرِّ الْحَشَى
مِنْ مَعْضِلَاتٍ مُكَايَدِهِ بِهَا رَمَى
أَضْلَاعَهَا مِنْهُ عَلَى شَهْمٍ فَتَى
لَمْ تَنْفَرِجْ عَنْهُ فَأَنْهَدَهَا كُؤَى
عَدُوا وَمَا إِنْ تَشْتَكِي أَلَمَ الْجَوَى

١ - أسد .

٢ - لعله يريد قوائمه .

٣ - الخمر .

٤ - الرأل ولد النعام .

حَسِبَ الْغَضَنَفَرُ مُرْتَقَاهَا كَعَبَةً
وَلَرَجَمًا أَلْقَى عَلَيْهَا لَامِسًا
لَكِنَّهُ خَبِثَتْ سَرَايِرُهُ فَلَمْ
عَجَبًا لَهُ وَلِجَاشِ طِفْلٍ لَمْ يَهَبْ
هَذَا وَلَمْ يُبْصِرْ هُنَاكَ بِمَلْجَأٍ
قَدْ كَانَ طُلَّ دَمٌ لَهُ لَمَّا رَنَا
لَوْ لَمْ تَقُمْ بِالنَّارِ مِنْهُ أَسَاوِدُ^(١)
مِنْهُمْ فَاغِرَةٌ لَهُ أَفْوَاهُهَا
لَمْ تُرَخَّ شَدَّ وَثَاقَهُ حَتَّى تَوَى
وَمُدْرَبُ الرَّوْقَيْنِ^(٢) أَصْفَرَ فَاقَعَ
مَا زَالَ يَدْعُو لِلنَّزَالِ أُسَامَةً
وَلَقَدْ أَرَاهُ مَكَانَ مَضْرَعِهِ وَقَدْ
وَلَقَدْ أَطَالَ وَقُوفَهُ مُسْتَقْبِلًا
وَعَدَا لَهُ وَالظَّنُّ يَقْضِي أَنْ يُرَى

فَدَنَا يُطِيلُ بِهَا الطَّوَافَ وَقَدْ سَعَى
بَأُكْفِهِ وَسِمَا وَقَبْلَ إِذْ سِمَا
يُحَمَّدٌ عَلَى الْإِلْمَامِ مِنْهَا بِالْجِزَا
أَسَدَ الشَّرَى وَقَدْ اسْتَشَاطَ وَقَدْ دَدَا^(٣)
وَاقٍ وَقَدْ تَرَكَوهُ مُنْفَرِدًا سُدى
أَسَدُ الْعَرِينِ لَهُ غَضُوبًا وَأَرْتَمَى
كَانَتْ هُنَاكَ كَلِمَاتٍ لَا تُرَى
بَأُكْفِ كَرْكَبَةٍ وَمِنْهَا مَا التَّوَى
تَأْبُوتَ مَقْبُورٍ وَقَدْ ظَنَّ الشَّوَى
رَاقَ النَّوَظَرَ نَضْرَةً لَمَّا بَدَا
وَلَقَدْ أَشَارَ بِظُلْفِهِ لَمَّا دَعَا
أَوْمَى بِسَاحِ الْقَصْرِ يَنْكُثُ فِي الثَّرَى
حِذَرَ الْهَزْبِ مُبَارِزًا حَتَّى انْبَرَى
وَقَدْ اعْتَلَاهُ فَكَانَ عَكْسًا مَا قَضَى

١ - استشاط ترجع للاسد، ووددا اي لعب، ترجع للطفل .

٢ - يعني حبال الشبكة .

٣ - اي القرنين ويصف الثور .

جالت عليه صدمةٌ من حارثٍ^١ تُنسيك صدمةً حارثٍ يومَ الوغى
أعجبُ بها من صدمةٍ قد عفرت لبدَ الهزبرِ وأوهنت منه القوى
لا تلحِ رَوْقَ الثورِ ان أبصرته عن جانب الليث الطعين وقد نبأ
ما كلٌّ دون كُلاه لكن ساعةً بقيت له ولكل عُمرٍ منتهى
فدعنه في دعةٍ الى أمثالها ولتعدرنَّ الليث يا ملك الهدى
أعدى فريسته عليه قولك : ا بَقَ لذا وقولك للغضنفر لا بقا
عاجلتَ ذا هلكاً فلم يُفْلِتْ وقد أَبْقَيْتَ ذا منا فجانبه المنا^٢
إن الآله قضى بأن يجري القضا طوعاً لما شاء المطيع المُرْتَضَى
وعلاكم ما حارثُ بمقاومٍ لأبيه لولا أن أردت به الردى
ولقد رأت منه الغيونُ عجيبةً رَأَتْ، وقد أبلى النواظر والنهى
فأبجحه جنات المصاراة خالداً فيها فبالجنات يُجزى ذو البلا
أحسنُ بها من روضةٍ غناء قد غنى الحمامُ بها طروباً أو شدا

حاكتُ بها الأنواءَ مطرفُ سندس

أرج وشاه يدُ الرِّيع بما وشى
وبجانب البيضاء منها مُرتقي جبارة الأرجاء سامية الذرى

١ - حارث من أسماء الأسد ويكنى أيضاً أبا الحارث .

٢ - المنا : الموت .

كَرَحَى الصَّيَاقِلَ مَا سَقَتْ لِتُدِيرَهَا رَجُلٌ وَلَا نُسَبَتْ لِإِمْهَاءِ الْمُدَى
أَتَرَى حُسَامَ النَّهْرِ جَلَّلَ مَتْنَهُ حَدًّا فَمَا تَنْفَكُ تَجْلُوهُ جَلَا
فَلَكُ مَضَى فِي الرُّوضِ مَا حَكَمْتُ بِهِ

أَدْوَارُهُ وَالْقُطْبُ مِنْهُ وَمَا اقْتَضَى
فَقَضَى بَرْقَعِ الْمَاءِ إِلَّا أَنَّهُ قَدْ خَفَّضَ الْأَدْوَاخَ عِشَاءً وَالرُّبَى
حَسَنٌ بَدِيعٌ فِي حِمَى مَلِكٍ بِهِ حُسْنُ الزَّمَانِ وَلَا حَافِيَ فِي أَبِي حُلَى
وَالشَّيْخُ إِبْرَاهِيمُ الْفَجِيحِيُّ مِنْ قَصِيدَتِهِ الصَّيْدِيَّةِ الْكَبِيرَةِ يَصِفُ
الصَّيْدَ وَحَيَاةَ الصَّائِدِ وَتَنَقُّلَهُ فِي الْبَرِّيَّةِ وَمَا فِي ذَلِكَ مِنَ الْمَتَاعِ
النَّفْسِيِّ وَالْجَسْمِيِّ .

يَلُومُونَنِي فِي الصَّيْدِ وَالصَّيْدُ جَامِعٌ
فَأَوَّلُهَا كَسْبُ الْحَلَالِ أَتَتْ بِهِ
وَصِحَّةُ جِسْمٍ ثُمَّ صِحَّةُ نَازِلٍ
وَبُعْدٌ عَنِ الرُّذَالِ مَعَ صَوْنِ هِمَّةٍ
وَأَيْضًا لِعَرَضِ الْمَرْءِ فِيهِ سَلَامَةٌ
وَفِيهِ لِأَهْلِ الْفَضْلِ وَالِدِّينِ عِبْرَةٌ
لَأَشْيَاءَ لِلنَّاسِ فِيهَا مَنَافِعُ
تُصَوِّصُ كِتَابَ اللَّهِ وَهِيَ قَوَاطِعُ
وَإِحْكَامُ إِجْرَاءِ السُّوَابِقِ رَابِعُ
وَإِغْلَاقُ بَابِ الْقِيلِ وَالْقَالَ سَابِعُ
وَحِفْظُ لِدِينِهِ وَذَلِكَ تَاسِعُ
وَتَذَكُّرَةُ لَهَا لَدَيْهِمْ مَوَاقِعُ

وَيُورِثُ طِيبَ النَّفْسِ وَالْجُودَ وَالسَّخَا

وَيَأْلَفُ مِنْهُ الصَّبْرَ مَنْ هُوَ جَاذِعٌ

وَيَنْفِي الِهْمُومَ الْمُرِمَاتِ عَنِ الْفَتَى وَيَقْمَعُ وَفْدَ الشَّيْبِ كَيْلًا يُسَارِعُ

وَيُورِثُ عِنْدَ الْإِلْتِحَامِ شَجَاعَةً وَفِيهِ مِنَ السِّرِّ الْخَفِيِّ بَدَائِعُ

كَرْعِي نِظَامٍ وَافْتِقَادِ رَعِيَّةٍ وَحِفْظِ جَنَابٍ مِنْ عَدُوٍّ يُنَازِعُ

وَتَدْبِيرِ أَمْرِ الْحَرْبِ وَالْفَتْكَ بِالْعِدَا

وَصَيْدِ أَسْوَدِ الْإِنْسِ وَالْوَحْشِ تَابِعُ

إِذَا الْحَرْبُ خُدَعَةٌ وَكَيْدٌ فَرُبَّمَا تَحِيلُ بِالْقَنْصِ الدُّهَاءُ التَّبَاعُ

فَأُظْفِرُهُمْ بِكُلِّ عَادٍ مُعَانِدٍ عَلَى غِرَّةٍ فَضَرَجَتْهُ الصَّرَاجِعُ^١

وَيُصْفِي دِمَاعَ الْمَرْءِ وَالْجِسْمَ جُمْلَةً مِنْ أَخْلَاطٍ سُوءٍ أَوْ فُضُولٍ تُصَادِعُ

وَيُغْنِي عَنِ الطَّبِّ الصَّعِيبِ عِلَاجُهُ وَمَا مِثْلُهُ لِلْحُزْنِ وَالسُّقْمِ دَافِعُ

وَقَدْ جَاءَ سَافِرُوا وَتَصِحُّوا وَتَغْنَمُوا وَذَلِكَ مِنْ قَوْلِ النَّبُوءَةِ شَائِعُ

وَمَا رِيءَ مَفْلُوجًا مُرِيغٌ طَرِيدَةً

حَكَى عَنْ ذَوِي التَّجْرِبِ قَوْمٌ بَلَاتِعُ^٢

وَأَيْضًا يَزِيدُ فِي الذِّكَاةِ وَفِي الدَّهَا وَذَلِكَ كُلُّهُ إِلَى الْعَقْلِ رَاجِعُ

١ - جمع ضرجع وهو النمس .

٢ - جمع بلتع وهو الحاذق بكل شيء .

وفيه حظوظ النفس من كل بُغْيَةٍ وكلُّ سرور بالمباح فوَاسِع
كَقَنْصِ ظِبَاءِ الْإِنْسِ فِي حِلِّ صَيْدِهَا
وَقَنْصِ ظِبَاءِ الْوَحْشِ أَوْ مَا يُضَارِعُ

بِنَفْسِي عَفِيفاً مُتَرَفّاً ذَا نَزَاهَةٍ لَهُ فِي سَمَاءِ الْمَجْدِ وَالسَّعْدِ طَالِع
عَلَى هَيْكَلٍ نَهْدٍ وَفَوْقَ شِمَالِهِ وَقُورٌ مِنَ الصُّقُورِ أَبْيَضُ نَاصِع
تَصَامَمَ عَنْ لَوْمِ اللَّثَامِ عَلَى السُّرَى وَمَا زَالَ مَشْغُوفاً بِهِ وَهُوَ يَافِع
وَغَابَ غَدَاةَ الْقَنْصِ عَنْ كُلِّ غَيْبَةٍ وَعَنْ كُلِّ مَا تُصَانُ مِنْهُ الْمَسَامِعُ
فَأَصْبَحَ سِلْماً لِلورى يَطَأُ الثَّرَى وَتَنْظُرُهُ فَوْقَ الثَّرْيَا الْقَنَابِعُ
فَلَا خُلْطَةٌ تُرْدِي وَلَا سُوءٌ عِشْرَةٌ وَلَا هَتَكٌ هَيْبَةٍ وَلَا مَنْ يُصَانِعُ
أَخَا الْعَدْلِ لَكِنْ فِي سِوَى كُلِّ طَائِرٍ
وَجَارٍ أَمَامَ الْمُرْسَلَاتِ يُسَارِعُ

أَخِي هَلْ تَرَى الْأَيَّامَ تَجْمَعُ شَمْلَنَا وَنَحْنُ عَلَى جُرْدٍ سِرَاعٍ تُطَاوِعُ

١ - جمع قنبع وهو القصير .

لَدَى كُلِّ رَبْوَةٍ وَأَجْرُسُ طَيْرِنَا
فَنَقْضِي مِنَ السُّلُوَانِ بَعْضَ غَرَامِنَا
وَنَجْعَلُ ذَاتَ الْجَرِّ جَاراً لِعَهْدِنَا
وَنَرُقُبُ فِي رَبْيِ الْغَمِيمِ وَنَحْلَةَ^(١)
طَوِيلِ ثَلَاثٍ لَا كَطُولِ بُغَاثِهَا^(٢)
قَصِيرُ ثَلَاثٍ مِنْ زِمَكِّي^(٣) وَرِيشِهَا
رَحِيبُ ثَلَاثٍ وَهِيَ مَا هِيَ كَفُّهُ
عَظِيمُ ثَلَاثٍ رَأْسُهُ ثُمَّ فَخْذُهُ
عَلَيْهِ سِمَاتُ الْفَتَكِ إِمَّا نَظَرْتَهُ
طُمُوحُ كَثِيرُ الْإِلْتِفَاتِ مُسَلَّطُ
ثَقِيلُ مَتَى يُحْمَلُ خَفِيفُ طُلُوعِهِ
ظُلُومُ غَشُومٍ مِنْ حُصُورِ شِمَارِخِ
لَهَا زَجَلٌ مِنْ فَوْقِنَا وَقَعَا قَع
وَنَجْنِي جَنَى اللَّذَاتِ وَالْدَّهْرِ خَاضِع
فَمِنَّا لِلْإِقْتِنَاصِ مَاضٍ وَرَاجِع
بِكُلِّ صَيُودٍ خَاضِبِ الْكَفِّ دَارِعُ
جَنَاحُ وَغُنْقُ ثُمَّ طَالَتْ أَصَابِعُ
وَسَاقُ تَقْوَى الرَّضْعِ إِنْ هُوَ رَاصِعُ^(٤)
وَمَا بَيْنَ مَنْكَبَيْهِ وَالصَّدْرُ وَاسِع
وَمَنْسِرُهُ مِجْزَارٌ مَا هُوَ صَارِع
أَطْلَتْ حَوَاجِبُ وَغَارَتْ مَدَامِعُ
لِأَمِّ السُّلَاحِ^(٥) الدَّهْرَ مِنْهُ فَجَائِعُ
كَأَسْرَعَ مَا فِي السَّهْمِ إِنْ هُوَ وَاقِعُ
لِحَزَانِهَا^(٦) وَالطَّيْرُ مِنْهُ تَوَادُّعُ

١ - الغميم ونحلة موضعان ببلد الشاعر .

٢ - البغاث شرار الطير .

٣ - الزمكي ذنب الطائر .

٤ - الرضع الضرب والطعن .

٥ - هي الحبارى سميت بذلك لئلازمتها لها حتى قيل سلاحها سلاحها .

٦ - جمع خزر وهو ذكر الارنب .

له عُدةٌ من نفسه في مَخَالِبٍ شديداً سوادها حِدادٌ كَوَاسِعٍ
يَفِرُّ إلى اليَحْبُورِ^١ مِلِينَ بُكْرَةً وَأَكْثَرَ بِالْأَصِيلِ إِنْ هُوَ جَائِعٌ
بِئْمَنَاهُ بَارِقٌ^٢ مُحِيطٌ بِزَنْدِهِ مِنْ الْفِضَّةِ الْبَيْضَاءِ كَالسَّيْفِ لَامِعٌ
كَذَلِكَ فِي يُسْرَاهُ ثَانٍ وَجُلُجُلٌ تَلَوَّنَ بِالْإِبْرِيزِ أَصْفَرُ فَاقِعٌ
إِذَا انْقَضَتْ خَلَّتِ الْبَرْقُ وَالرَّيْحُ عَاصِفاً وَرَعْداً بِهِ زَجْرٌ عَلَى الطَّيْرِ وَاقِعٌ
دَوِيٌّ جَلَا جَلٍ وَلَمَعٌ خَلَا خَلٍ وَحَفَقُ جَنَاحٍ كُلُّ ذَلِكَ فَاجِعٌ
إِلَى قَهْرٍ غَالِبٍ وَصَوْلَةٍ سَالِبٍ وَهَتَكَ مَخَالِبٍ إِذَا هُوَ سَادِعٌ^٣
هُنَالِكَ يُلْقَى الْحَرْبُ خَوْفاً سَلَا حَهُ وَيَلْجَأُ لَا تَ حِينَ يَأْوِيهِ مَلْجَأٌ
وَتُبْصِرُهُ يَحْكِي أُسِيرَ فَوَارِسٍ يُسَاقُ بِهَا لِلْمَوْتِ وَهُوَ يُوَادِعُ
وَتَنْدُبُهُ حُبَارِيَاتٌ أَلْفَنَهُ وَيَحْشُرُهُنَّ الْخَوْفُ وَالْخَوْفُ رَادِعٌ

١ - فرخ الحبارى .

٢ - أي خلخال بارق .

٣ - أي ذابح .

٤ - الحرب محركا وسكنه ضرورة ذكر الحبارى وسلاحه نجوه يلقيه على

الجراح فينتف ريشه .

أَلَا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ تَعُودُ لَنَا الْمُنَى وَتُسَعِفُنَا الْآيَامُ وَالسَّعْدُ رَاجٍ
 وَتَكْنُفُنِي وَالصَّحْبَ صَحْرَاءُ بُخْتَرَى وَيَجْمَعُنَا بِجَبَلٍ شَتْوَانٌ جَامِعٌ
 وَنُرْسِلُ فِي شَرِيَاظَةِ الْجَرِّ طَيْرَنَا وَفِي دَارَةِ الْأَرْجَامِ وَالْحَيُّ نَاجِعٌ
 وَنُحْيِي دَوَارِسَ الرُّبُوعِ الَّتِي عَفَتْ مَشَاتٍ لِقَنْصِهَا بِهَا وَمَرَابٍ
 وَنَنْزِلُ مِنْ مَخْرُوفِهَا^٣ كُلَّ مَخْبَرٍ مَخَزٍّ تَقُوتُ الْحَصْرَ فِيهِ الْفَعَايِعُ
 عَفَاءٍ^٧ غَرِيرٍ^٨ الصَّيْدَ مَا سَارَ قَانِصٌ بِهِ حِقْبَةٌ وَلَمْ يُرْعَ فِيهِ رَائٍ
 كَسَتْهُ سَحِيقَةٌ^٩ مِنَ الْجُودِ دِيمَةٌ بُرُودًا كَوَشِي لَوْنَتَهُ الصَّوَانِعُ
 وَنَشْهَدُ حُسْنَ الصُّنْعِ فِيمَا نُرِيغُهُ مِنْ الْوَحْشِ أَوْ نَرْوُغُهُ وَهُوَ هَاجِعٌ
 وَنَسْمَعُ تَغْرِيدَ الطُّيُورِ إِذَا غَدَتْ لِمُخْتَلِفِ الْأَصْوَاتِ صُبْحًا تَرَايِعُ
 عَلَى كُلِّ مَيَّادٍ يُرْتَّحُ الْهُوَى وَتُطْرِبُهُ الْأَلْحَانُ وَالْغُصْنُ يَانِعُ

-
- ١ - بختري وشتوان موضعان .
 - ٢ - شرياطة الجر ودارة الارجام موضعان ايضاً .
 - ٣ - اي الممطور بمطر الخريف .
 - ٤ - المحبر الارض التي يكثر فيها الجبارى .
 - ٥ - المخز الارض التي يكثر فيها الخرز .
 - ٦ - جمع ففعع وهو الصغير من الغزلان .
 - ٧ - العفاء الارض التي لم توطأ .
 - ٨ - من الغرة يعني انه غير منتبه للصائد .
 - ٩ - سحابة ذات سحق وهول من الرعد والبرق .

فِيهِتَزُّ شَوْقًا إِنْ تُغْنَى بَلَابِلُ
وَنَقْطُفُ نَوْرِ الزَّهْرِ مِنْ كُلِّ رَوْضَةٍ
يَعَالِيلُ^١ فِي قَلْتِ^٢ يُصَفِّقُهَا الصَّبَا
يُنَافِخُنَا بِالطَّيِّبِ نَبْتُ شَوَاهِقِ
فَمَنْ لَمْ يُحَرِّ كُهُ الرَّبِيعِ وَزَهْرُهُ
وَلَمْ يَتَأَثَّرْ بِالسَّمَاعِ وَنَحْوِهِ
وَلَمْ تَسْتَفِزْهُ الظُّبَاءُ وَلَا الْمَهَا
وَلَا اهْتَزَّ إِذْ رَأَى الْحَبَارَى بَدَتْ لَهُ
فَتَرَقَّصُ طَوْرًا ثُمَّ تُبْدِي ذَوَائِبًا
وَلَمْ يَدْرِ قَطُّ مَا الْغَرَامُ وَمَا الْهُوَى
فَذَلِكَ مُخْتَلٌ الْمِزَاجِ حَقِيقَةً

وَأَنْ رَنْتِ الْوَرَقَاءُ فَهُوَ يُطَاوِعُ
وَتَقْتَحِمُ الْغُدْرَانُ وَهِيَ نَوَاقِعُ
فَمُعْتَرِفٌ بِالْكَفِّ مِنْهَا وَكَارِعُ
وَتَنْصَعُ مِنْ نَبْتِ الْخِزَامَى دَوَافِعُ
وَلَا الْعُودُ حِينَ تَعْتَرِيهِ الْأَصَابِعُ
وَلَمْ يَشْتَمِلْهُ الصَّقَرُ إِنْ هُوَ دَافِعُ
إِذَا اعْتَرَضَتْ وَأَلْجَأَتْهَا الْهَجَارِعُ^٣
تَمِيسُ وَفَوْقَهَا الْبُزَاةُ طَوَالِعُ
وَتُومِي بِكُمِّيَّهَا وَطَوْرًا تُبَايِعُ
وَلَا مُوجِعَاتِ الْقَلْبِ إِذْ يَتَوَاجَعُ
وَلَا شَكَّ لِلْحِمَارِ فِيهِ طِبَائِعُ

أَلَا يَا حَسُودُ مَتَّ بَغِيْظِكَ حَسْرَةً
أَبِ الْحَسَدِ الْمَذْمُومِ تَطْمَعُ فِي الْعُلَا
عَلَى قَلْبِكَ الْمُسَوَّدِّ لَا سُدَّتْ طَائِعُ
وَلَا غَيْرَ إِلَّا الْغِلُّ وَالشُّحُّ هَالِعُ

١ - نفاخات تكون فوق الماء .

٢ - والقلت النقرة في صخرة ونحوها يجتمع فيها الماء .

٣ - الكلاب السلوقية .

أَمِ الْمَجْدَ تَبْتَغِي وتَأْمَلِ نَيْلَهُ وَلَا وَصَفَ إِلَّا الْعَجْزُ وَالْجُبْنُ خَالِعِ
 إِذَا لَمْ تَسُدْ بِالْعِلْمِ وَالْحِلْمِ وَالتَّقَى وَبِالْجُودِ وَالْإِقْدَامِ إِنَّكَ رَاضِعٌ
 كَأَنِّي لَمْ أَرْقُبْ مَسَاءَ بِشْدَنْقٍ^٢ عَلَى طَلَلٍ وَالْغَيْثُ طَلٌّ وَهَامِعِ
 وَلَمْ أَتَخَيَّرْ عَنْ بَسَاطِي وَنُمرُوقِ بِسَاطِ نَقِيِّ الرَّمْلِ وَالْفَجِّ وَاسِعِ
 بِذَاتِ الْعَلَنْدَى أَوْ بِذَاتِ الْهَبْورَى^٣

عَطَّاشُ الْفَيْسَانِي حَيْثُ لَا مَنْ يُطَالَعِ
 وَأَرْضُ نَحَارُ فِي مَجَاهِلِهَا الْقَطَا وَلَا تَهْتَدِي تَسِيرُ فِيهَا الطَّلَاعِ
 نَزُوحُ وَنَعْدُو فِي نَعِيمِ تَوْدِهِ وَتَتْرُكُ مُلْكَهَا الْمُلُوكُ التَّبَاعِ
 وَنَحْنُ عَلَى سَلَامَةٍ مِنْ طَوَائِقِ عَلَى جِيفَةِ الدُّنْيَا سُدَى تَتَقَاطِعِ
 فَلَا طَارِقُ يَغْشَاكَ إِلَّا نَقَانِقُ وَإِلَّا وَحُوشٌ حَوْلَ بَيْتِي رَوَاتِعِ
 وَلَا رَاكِبٌ بَغْلًا لَهُ عَقْلٌ بَغْلِهِ وَلَا سُوقَةٌ تَضِيقُ مِنْهَا الشُّوَارِعِ
 وَلَا مَلِكٌ فَظٌّ وَلَا ذُو تَجْبُرٍ وَلَا حَاكِمٌ بِالْجُورِ تَدْعُو الْأَقَارِعِ
 وَلَا عَائِبٌ أَمْرًا رَأَيْتَ صَوَابَهُ وَلَا حَاسِدٌ فَضْلًا بِفَضْلِ يُتَابِعِ
 وَلَا جَارٌ سُوءٍ لَيْسَ يَأْمَنُ جَارُهُ بَوَائِقَهُ إِنْ غَابَ أَوْ هُوَ هَاجِعِ

١ - لثيم .

٢ - الشدناق صنف من البزاة .

٣ - ذات العلندی أي أرض ذات شجر اسمه العلندی وكذا ذات الهبوري.

وَلَا مَا كَرُّ يُرِيكَ شُهْدًا وَيَنْثَنِي
 وَلَا مُتَلَصِّصٌ يُرَاقِبُ عَوْرَةً
 وَلَا سَارِقٌ لِلسَّمْعِ اللَّقِيلِ لَا قِطُّ
 وَلَا مُتَعَرِّضٌ لِلْأَعْرَاضِ مُوَلِّعٌ
 وَلَا أَهْلُ فِتْنَةٍ حَرَامٌ جَوَارُهُمْ
 فَمَا إِنْ تَرَى لِلْحَمِّ الْإِنْسَانَ آكِلًا
 وَخَيْلِي حَلِيبُ الشَّوْلِ صِرْفًا شَرَابَهَا
 فَسَيْقِيكَ أَذْهَى السُّمِّ لَيْسَ يُضَارِعُ
 وَيُبْدِي سِمَاتِ النَّسْكِ وَهُوَ يُخَادِعُ
 وَلَا فَاسِقٌ يَرْمِي بِمَا هُوَ صَانِعُ
 بِتَمْزِيْقِهَا تَأْتِيكَ مِنْهُ الْفَظَائِعُ
 عَلَى مَا ذَوُّو الْفُتْيَا عَلَيْهِ تَتَابَعُوا
 وَلَا كِنَّ لَحْمَ الصَّيْدِ مَا مِنْهُ مَانِعُ

وَمَا فِي النَّصِيِّ رَعِيَهَا لَا الْمَزَارِعُ

وَتَعْلِفُ أَيْضَ الشَّعِيرِ وَأَنْتَقِي
 وَفِي جِرَّةٍ إِخْوَانٌ صَدَقَ أَجَلُهُ
 وَفِي لَذَّةِ الدُّنْيَا وَأَرْغَدَ عَيْشُهَا
 وَدَاعِي الرَّحِيلِ كُلَّ يَوْمٍ يَرُوعُنِي
 لَطَابَ السُّرُورِ وَأُطْمَأْنِنْتُ نَفْسُنَا
 فَلَا عَيْشَ إِلَّا عَيْشُ أُخْرَى يُلْبَتَغُ
 لَهَا مِنْ نَبَاتِ الْأَرْضِ مَا هُوَ نَافِعُ
 كِرَامِ السَّجَايَا وَالْمَعَالِي طَبَائِعُ
 فَلَوْلَا سُيُوفٌ لِلصُّرُوفِ قَوَاطِعُ
 وَهَوْلٌ وَعَوْلٌ فِي الْفَرِيضَةِ وَاقِعُ
 وَلَا كِنَّهَا دُنْيَا سَرِيعًا تُقَاطِعُ
 نَعِيمًا مُقِيمًا دَائِمًا لَا يُوَادِعُ

١ - النصي نبت من أطيب المرعى وفي قوله لا المزارع تعريض بأصحاب

ولعبد العزيز الفشتالي يصفُ القُبَّةَ الحُمَسيَّةَ من مَباني المنصور
الذهبي على لسانها :

سَمَوْتُ فخرَ البدرِ دُونِي وانحطاً
وأصبحَ قرصُ الشَّمسِ في أذني قرطاً
وَصُغْتُ من الإِكليلِ تاجاً لِمَفرقي وَنَيطَيتُ بيَ الجوزاءِ في عُنقي سِمْطاً
وَلَا حَتْ بِأَطوَاقِي الثُّرَيَّا كَأَنَّهَا نَشِيرُ جُمانٍ قد تَتَبَّعَتْهُ لَقُطَا
وَعَدَّيْتُ عن زُهرِ النُّجومِ لَأَنَّنِي جَعَلْتُ على كَيوانِ رَحْلي مَنحَطاً
وَأَجَرَيْتُ من فيضِ السَّاحةِ والنَّدي
خَلِيجاً على نَهرِ المَجَرَّةِ قَد غَطَّى
عَقَدْتُ عليه الجِسْرَ لِلْفَخْرِ فارْتَمَتْ
تَنْضُنْضُ ما بَيْنَ الغُروسِ كَأَنَّهُ
حَوَّالِيهِ من دَوْحِ الرِّياضِ خَرائِدُ
اِذَا أَرَسَلْتُ لَدُنَ الْفُرُوعِ وَفَتَّحْتُ
يُرْتُجِّهَا مَرُّ النِّسيمِ اِذَا سَرَى
يَشُقُّ رِياضاً جادَها الجودُ والنَّدى
اليه وفودُ البَحرِ تَصْرِفُ ما أَعْطَى
وقد رَقَرَتْ حَصابُوه حَيَّةٌ رَفُطَا
وَعِيدُ تَجَرُّ من خِمالِها مِرْطَا
جَنَى الزَّهْرِ لَاحَ في ذَوَا بُدَا وَخُطَا
كَمَا مَالَ نَشوانُ تَشْرَبَ إِسْفَنْطاً
سَوَاءَ لَدَيْهَا الغَيْثُ أَسْكَبَ أَمْ أَخُطَا

وَسَالَتْ بِسُلْسَالِ اللَّجَيْنِ حَيَاضَهُ بِحَاراً غَدَا عَرَضُ الْبَسِيطِ لَهَا شَطَا
تَطْلُعُ مِنْهَا وَسْطَ وَسْطَاهُ دُمِيَّةٌ

هِيَ الشَّمْسُ لَا تَخْشَى كُسُوفًا وَلَا غَمَطًا

حَكَتْ وَحَبَابُ الْمَاءِ فِي جَنَابَاتِهَا سَنَا الْبَدْرُ حَلَّ مِنْ نُجُومِ السَّمَاءِ وَسْطَا
إِذَا غَاظَلَتْهَا الشَّمْسُ أَلْقَى شُعَائَهَا عَلَى جِسْمِهَا الْفِضِّي نَهْرًا بِهَا لُطَا
تَوَسَّطَتْ فِيهَا مِنْ صَفَاءِ أَدِيمِهَا نُقُوشًا كَأَنَّ الْمِسْكَ يَنْقُطُهَا نَقْطَا
إِذَا اتَّسَقَتْ بِيَضِ الْقِيَابِ قِلَادَةً فَأَيُّ بِهَا فِي الْحَسَنِ دُرَّتُهَا الْوُسْطَى
تَكْتَفِنِي بِيَضُ الدُّمَى فَكَأَنَّهَا

عَذَارَى نَضَّتْ عَنْهَا الْقِلَادُ وَالرَّيْطَا

قَدُودٌ وَلَكِنْ زَادَهَا الْحَسَنُ عَرِيًّا وَاجْمَلٌ فِي تَنْعِيمِهَا النَّحْتُ وَالْخَرْطَا
نَمَتْ صَعْدًا تَبْجَانُهَا فَتَكَسَّرَتْ قَوَارِيرُ أَفْلَاكِ السَّمَاحِ بِهَا ضَغْطَا
فِيَا لَكَ شَأَوًا بِالسَّعَادَةِ آهَلًا بَأَكْنَاهُ رَحْلُ الْعُلَا وَالْهَدَى حُطَّا
وَكَعْبَةٌ مَجْدُ شَادَهَا الْعِزُّ فَانْبَرَتْ تَطُوفُ بِمَغْنَاهَا أَمَا نِي الْوَرَى شَوْطَا

وَمَسْرُوحَ غَزْلَانِ الصَّرِيمِ كِنَاسَهَا

حَنَايَا قِيَابٍ لَا الْكَيْبَ وَلَا السَّقْطَا

فَلَكُنْ بِهِ مَا طَابَ لَا الْأَثْلَ وَالْخُمُطَا

وَوَسَدُنْ فِيهِ الْوَشْيَ لَا السُّدْرَ وَالْأَرْطَى

ثَرَاهُ مِنَ الْمِسْكِ الْفَتِيَّتِ مُدَبِّرٌ إِذَا مَا زَجَّتْهُ السُّحُبُ عَادَ بِهَا خِلْطًا
وَأَنْ بَاكَرَتْهُ نَسْمَةُ كَسْرَى بِهَا إِلَى كُلِّ أَنْفٍ عَرَفُ عَنْبَرٍ قُسْطًا
أَقَرَّتْ لَهُ الزَّهْرَاءُ بِالْخُلْدِ وَانْتَقَتْ .

أَوَاهِينَ كِسْرَى الْفُرْسِ تَغْبِطُهُ غَبْطًا
جَنَابُ رِوَاقِ الْمَجْدِ فِيهِ مُطَنَّبٌ
عَلَى خَيْرٍ مَنْ يُعْزَى لِخَيْرِ الْوَرَى سِبْطًا .

وَلَهُ مِمَّا كُتِبَ بِيَهْوَاهَا بِمَرَمَرٍ أَسْوَدَ فِي أَبْيَضٍ :

لِلَّهِ يَهْوُ عَزَّ مِنْهُ نَظِيرٌ لَمَّا زَهَى كَالرَّوْضِ وَهُوَ نَضِيرٌ
رُصِفَتْ نَقُوشُ عِلَالِهِ رُصْفَ قَلَائِدٍ قَدْ نَضَّدَتْهَا فِي النُّحُورِ الْحُورِ
فَكَأَنَّهَا وَالتَّبَرُّ سَالَ خِلَالَهَا وَشِيْ وَفِضَّةُ تُرْبِهَا كَافُورِ
وَكَأَنَّ أَرْضَ قَرَارِهِ دِيْبَاجَةٌ قَدْ زَانَ حُسْنَ طَارِزِهَا تَشْجِيرِ
وَإِذَا تَصَاعَدَ نَدَاهُ نَوَاءً فَفِي أَنْمَاطِهِ نَوْرٌ بِهِ مَمْطُورِ
شَاوُ الْقُصُورِ قُصُورُهَا عَنْ وَصْفِهِ سَيَّانٌ فِيهِ خَوْرٌ نَقْ وَسَدِيرِ
فَإِذَا أَجَلَّتْ اللَّحْظَ فِي جَنَابَتِهِ يَرْتَدُّ وَهُوَ بِحُسْنِهِ مُحْسُورِ
وَكَأَنَّ مَوْجَ الْبِرْكَتَيْنِ أَمَامَهُ حَرَكَاتُ سَجْفٍ حَرَكَتَهُ دُبُورِ
صُفَّتْ بِضَفَّتَيْهَا تَمَائِلُ فِضَّةٍ مَلَكَ النُّفُوسِ بِحُسْنِهَا تَصْوِيرِ
فَتَدِيرُ مِنْ صَفْوِ الزُّلَالِ مُعْتَقًا يَسْرِي إِلَى الْأَرْوَاحِ مِنْهُ سُورِ

ما يَبْنِ آسَادٍ يَهِيْجُ زَيْرُهَا وَأَسَاوِدٍ يُسْلِي لَهْنٌ صَفِيرُ
 وَدَحَتْ مِنَ الْإِنِّهَارِ أَرْضَ زُجَاجَةٍ وَأَظْلَمَ فَلَكَ يُضِيءُ مُنِيرُ
 رَاقَتْ فَمِنْ حَصْبَانِهَا وَفَوَاقِعِ تَطْفُو عَلَيْهَا اللُّؤْلُؤُ الْمُنْثُورُ
 يَا حُسْنَهُ مِنْ مَصْنَعِ فَبَهَاوُهُ بَاهَى نُجُومَ الْأَفْقِ وَهِيَ تَنْوُرُ
 وَكَأَنَّهَا زَهْرُ الرِّيَاضِ بِجَنِّهِ حَيْثُ التَّفَتُّ كَوَاكِبُ وَبُدُورُ
 وَلِدَسْتِهِ الْأَسْمَى نَحْيَرَ رَصْفَهُ فَخَرُّ الْوَرَى وَإِمَامُهَا الْمَنْصُورُ

ولأبي الحسن الشَّامي في النُّعلِ النبويَّةِ الكريمةِ وأشارَ الى
 كِتَابِ الْمُقَرِّي أَزْهَارِ الرِّيَاضِ بِأَخْبَارِ عِيَاضٍ وَقَدْ رُسِمَ فِيهِ مِثَالُ
 النُّعْلِ الشَّرِيفِ بِمَاءِ الذَّهَبِ وَاللَّازُورُودِ :

دُعُوا شِفَةَ الْمُشْتَاقِ مِنْ سُقْمِهَا تُشْفَى

وَتَرُشَفُ مِنْ أَسَارِ تَرْبِ الْهُدَى رَشْفَا

وَتَلْتُمُ نَعْلًا لِلنَّبِيِّ كَرِيمَةٍ بِهَا الدَّهْرُ يُسْتَسْقَى الْغَمَامُ وَيُسْتَشْفَى
 وَلَا تَصْرِفُوهَا عَنْ هَوَاهَا وَسُوءِهَا بَعْدَ لَكُمْ فَالْعَدْلُ يَمْنَعُهَا الصَّرْفَا
 وَلَا تَعْتَبُوهَا فَالْعِتَابُ يَزِيدُهَا هَيَامًا وَيَسْقِيهَا مُدَامَ الْهَوَى صِرْفَا
 جَفَّتْهَا بِكُتْمِ الدَّمْعِ بُخْلًا جُفُونُهَا فَمَنْ لَامَهَا فِي اللَّثَمِ فَهَوَّ لَهَا أَجْفَى
 لَيْنٌ حُجِبَتْ بِالْبُعْدِ عَنْهُمْ فَهَذِهِ مَكَارِمُهُمْ لَمْ تُبْقِ سِتْرًا وَلَا سَجْفَا

وان كَانَ ذَاكَ الْخَيْفُ مَلْفَى وَصَالِهِمْ
فَهَا نَفْحَةُ الْإِفْضَالِ قَرَّبَتْ الْمَلْفَى
فَحَرَّكَتِ الْأَشْوَاقَ مِنَّا لِرَوْضَةٍ أَبَاحَ لَنَا الْإِسْعَادُ مِنْ زَهْرِهَا قَطْفًا
زَمَانًا بِهِ مَوْصُولْنَا نَالَ عَائِدًا
وَأَكَّدَ نَعْتُ الْوَصْلِ مِنْ نَحْوِهِمْ عَطْفًا
تَوَلَّى كَمِثْلَ الطَّيْفِ إِنْ زَارَ فِي الْكَمْرِ
وِإِلَّا كَمِثْلَ الْبَرْقِ إِنْ سَارَعَ الْخَطْفَا
كَأَنَّا وَمَا كُنَّا نَجُوبُ مَنَازِلًا يَوْدُ بِهَا الْمَشْتَاقُ لَوْ رَأَاهُ الْخُتْفَا
وَلَمْ تُبْصِرِ الْأَبْصَارُ مِنْهَا حَاسِنًا وَلَمْ تَسْمَعْ الْأَذَانُ مِنْ ذِكْرِهَا هَتْفَا
كَذَاكَ اللَّيَالِي لَمْ تَحُلْ عَنْ طِبَاعِهَا
مَتَى وَاصَلَتْ يَوْمًا تَصِلُ قَطْعَهَا أَلْفَا
فَلَا عَيْشَ لِي أَرْجُوهُ مِنْ بَعْدِ بُعْدِهِمْ
وَهَيْهَاتَ يَرْجُو الْعَيْشَ مَنْ فَارَقَ الْإِلْفَا

أَيَا مَنْ نَأَتْ عَنْهُ دِيَارُ أَحِبَّةٍ
فَمِنْ بَعْدِهِمْ مِثْلِي عَلَى الْهَلْكِ قَدْ أَشْقَى
لَيْسَ فَاتَنَا وَصْلٌ بِمَنْزِلِ خَيْفِهِمْ فَهَا نَفْحَةُ مَنْ عَرَفِهِمْ لِلْحَشَا أَشْفَى

وَهَازِيكَ أَنْفَاسُ الرِّيَاضِ تَنْفَسْتُ بِرِّيَاهُمْ فَاسْتَشْفَيْنَ بِهَا تُشْفَى
وَقُلْ لِلَّائِي هَامُوا اشْتِيَاقًا لِبَانِهِمْ هَلُمُّوا لَعَرَفِ الْبَانِ نَسْتَشِيقُ الْعَرَفَا
فَصَفْحَةُ هَذَا الطَّرْسِ ابْدَتْ نِعَالَهُمْ وَصَارَتْ لَهُ ظَرْفًا فَيَا حُسْنَهُ ظَرْفَا
تَعَالُوا نَغَالِي فِي مَدِيحِ عِلَائِهَا فَرُبَّ غُلُوٍّ لَمْ يُعَبَّ رَبُّهُ عُرْفَا
وَاللَّهِ قَوْمٌ فِي هَوَاهَا تَنَافَسُوا وَقَدْ غَرَفُوا مِنْ بَحْرِ أَمْدِهَا غُرْفَا
وَإِنَّا وَإِنْ كُنَّا عَلَى الْكُلِّ لَمْ نُنْطِقْ

نُحَاوِلُ بَعْضَ الْبَعْضِ مِنْ بَعْضِ مَا يُلْفَى
لَيْنَ قَبَلُوا أَلْفًا نَزِدْ نَحْنُ بَعْدَهُمْ
عَلَى الْأَلْفِ مَا يَسْتَغْرِقُ الْفَرْدَ وَالْأَلْفَا
وَإِنْ وَصَفُوا وَاسْتَغْرَقُوا الْوَصْفَ حَسْبُنَا

نُحِيلُ بِرَوْضِ الْحُسْنِ مِنْ وَصْفِهِمْ طَرْفَا
وَنَقِيسُ مِنْ آثَارِهِمْ قَدْرَ وَسْعِنَا وَنَزْكُضُ فِي مِضْمَارِ آثَارِهِمْ طَرْفَا

أُنَادِيكَ يَا خَيْرَ الْبَرِيَّةِ كُلِّهَا نِدَاءُ عُبَيْدٍ يَرْتَجِي الْعَفْوَ وَاللُّطْفَا
وَإِنِّي مُحِقٌّ فِي هَوَى حُبِّكَ الَّذِي يَفْلُ جُيُوشِ الْهَمِّ إِنْ أَقْبَلَتْ زَحْفَا
وَمَا أَنَا فِيهِ بِالَّذِي قَالَ هَازِلًا^١ (أَلَيْلَتَنَا إِذْ أَرْسَلَتْ وَارِدًا وَحَفَا)

٥ . وللاديب أبي عبدالله المكناني في كتاب أزهار الرياض مورياً:

أتى رياض في عياض وردّها مظالم كانت قبل مُعضلة الداء
وفاضت بنيل العلم منه أصابع ومن عجب قبض الأصابع بالماء
خليلي هذي معجزات لأحمد فلا تنكراً إن ردّ عيننا الى الرءاء

ولمحمد ابن ابراهيم الفاسي في رقعة أنفذهما الى الشهاب
الحنفاجي وهو بمصر :

أسقيط طلّ في حديقة آس أم ذا حباب دار فوق الكاس
أم درّ ثغر الأقحوانة باسم أم دمع طرف النرجس النعاس
أم جنة جنّ النسيم بحسنها أغصانها من ذاك في وسواس
أم هذه زهر النجوم تزينت منها النجوم هداية للناس
أم ذا هو السحر الحلال حلا أم العذب الزلال وكل عضو حاس

١ - هذه الأبيات لا كفاء لها في الحسن وقد اشتملت على توريثات بديعة
تنبىء عن براعة صاحبها في صناعة البيان على أن فكرتها مستوحاة من قول علي
بن هارون الملقب :

ظلموا عياضا وهو يحلم عنهم	والظلم بين العالمين قديم
جعلوا مكان الرءاء عيناً في اسمه	كي يكتموه وأمره معلوم
لولاه ما فاحت أباطح سبتة	والروض حول فنائها معدوم

أَمْ رُقْعَةً رَفَعْتَ لَوَاءَ بَيَانِهَا . فَأَتَى الْبَدِيعُ لَهَا ذَلِيلَ الرَّاسِ
 نَطَقَتْ بِكُلِّ فَضِيلَةٍ ظَلَّتْ لَهَا . الْأَحْدَاقُ بَيْنَ مُحَقِّقٍ أَوْ خَاسِ
 الشَّعْرِ فَأَخْرَجَ أَنْجَمَ الشَّعْرِى بِهَا . وَالْجَوْزُ قَالَ : الْفَضْلُ لِلْقِرْطَاسِ
 مَنْ ذَا يُطَاوِلُهَا وَمَطْلَعُ نُورِهَا . أَفُقُ الشَّهَابِ وَظُلْمَةُ الْأَنْقَاسِ
 وَافَتْ فَمَا وَفَّيْتُ بَعْضَ حُقُوقِهَا . إِلَّا بِيَذْلِ النَّفْسِ وَالْأَنْفَاسِ
 طَارَ الْفُؤَادُ لَهَا فَقَالَ وَقَارُهَا . (مَا فِي وَقُوفِكَ سَاعَةً مِنْ بَاسٍ)^٢
 جَاءَتْ تُحَدِّثُ عَنْ مُحَاسِنِكَ الَّتِي . شَدَّتْ إِلَى حُسْنِ الشَّنَاءِ بِمِرَاسِ
 أَمَّا الْفَصَاحَةُ صَحَّ أَنَّكَ قَسَمُهَا . بِالرَّغْمِ مِنْ غُمَرٍ حَسُودٍ قَاسِ
 اللَّهُ دَرُ عَقِيلَةٍ أُبْرِزْتُهَا . عَقَلْتُ بِيَهْجَتِهَا عُقُولَ النَّاسِ
 مِنْ كُلِّ بَيْتٍ كَادَ يُشْبِهُ لَفْظُهُ . مَعْنَاهُ كُلُّ دَقٍّ عَنْ إِحْسَاسِ
 شَرَحْتُ لِي الْوُدَّ الْقَدِيمَ وَذَكَرْتُ . قَلْبًا فَدَيْتُكَ لَمْ يَكُنْ بِالنَّاسِ
 مَا أَخْطَأْتُ رُشْدًا وَإِنْ تَكُ أَبْطَأْتُ . خَيْرُ اللَّقَا مَا كَانَ بَعْدَ الْيَاسِ
 فَالْحُبُّ أَنْ أَرْضَى بِمَا تَرْضَى وَهَا . حُبِّي وَحَقِّكَ رَاسِخًا بِأَسَاسِ

ولعبد السلام بن سوسن من رجال الريحانة في القمر
 ونسبت لغيره :

دَعُ ذَا وَقْلٍ لِلنَّاسِ مَا طَارِقٌ . يَطْرُقُهُمْ جَهْرًا وَلَا يَتَّقِي

١ - هذا مطلع قصيدة لأبي تمام في المعتم.

ليس له رُوحٌ على انه
 شيخٌ رأى آدَمَ في عصرِه
 وهوَ بوسْطِ البحرِ معَ قومه
 هذا ويمشي الأرضَ في لَيْلَةٍ
 فتارةً ينزلُ تحتَ الثرى
 وتارةً يُبصرُ في مغرب
 وتارةً تُبصرُه ساجحاً
 وتارةً تحسبه وهوَ في
 ذُبَابَةٍ من صارمٍ مرهفٍ
 يدنو إلى عرسٍ بها حسنُها
 حتى إذا جامعَها يرتدي
 وهوَ على عادته دائماً
 ثم يجوبُ القفرَ من أجلها
 حتى إذا قابلَها ثانياً
 وبعدَ ذا تلبسه خِلعةً
 فجسمُها من ذهبٍ جامد
 ثم يرى في حالِ إتمامه
 يركبُ ظهرَ الأدهمِ الأبلق
 وهوَ إلى الآن بخدّ نقي
 لا ينثني عن نهجه الضيق
 أعجب به من موثقٍ مُطلق
 وتارةً وسطَ السّما يرتقي
 وتارةً يُبصرُ في مشرق
 يجري بِشاطِئِ البحرِ كالزّورق
 ضيّعته والبعضُ منه بقي
 بارِزةً من جفنه المطبق
 يختطفُ الابصارَ بالروْنَق
 بحلّةٍ سوداءٍ كالْمُحْرَق
 يُجامعُ الأنثى ولا يلتقي
 مُشتملاً في مُطرفِ أزرق
 تشكّه بالرّمح في المَفرق
 يا حُسْنُها في لونها المونق
 وجلده صيغَ من الزُّبُق
 مثلُ مِجَنِّ المِحرَبِ الملتقي

وَهُوَ إِذَا أَبْصَرَتْهُ هَكَذَا أَحْسَنُ مِنْ صَاحِبَةِ الْمَفْرُقِ

ولأحمد بن يحيى الشَّفْشَاوِيُّ المتوفى ١٠٠١ في رَوْضِ ابْنِ رِضْوَانَ
الكاتب بفاس :

أَجَنَّةُ الْخُلْدِ هَذِي يَا ابْنَ رِضْوَانَ أَمْ حُسْنُ رَوْضِكَ فِيهِ حَارُ تَبْيَانِي
أَمَّا تَرَى الطَّيْرَ بِالْأَدْوَاكِ سَاجِدَةً أَدُمْتُ أَنَامِلَهَا أَوْتَارُ عِيدَانِ
تَحْكِي مَزَامِيرَ مَنْ لَانَ الْحَدِيدُ لَهُ تَشْدُو بِالْأَجْزَالِ فِي رَّصْدِ وَزَيْدَانِ^١
تَنْفِي عَنِ الصَّبِّ مَا بِالْقَلْبِ مِنْ كُرْبٍ بَلْ تَتْرُكُ الصَّبَّ فِي تِيهِ الْهَوَى عَانَ
فَالْبَّانُ يَرْقُصُ مِنْ تَرْجِيْعِهَا طَرَبًا وَالزَّهْرُ يَفْتَرُّ عَنْ أَثْغَارِ مَرْجَانِ
وَالْمَاءُ مُنْسَكِبٌ وَالظَّلُّ مُنْسَجِبٌ وَلِلنَّسِيمِ هُبُوبٌ يُنْعِشُ الْفَانِي

ولأبي عيسى المهدي الغزالي من رجال الانيس في مُغْنِيَةٍ :

غَنَّتْ فَأَغْنَتْ عَنْ سَمَاعِ الْعُودِ غَيْدَاءُ صَالَتْ بِاللَّحَاطِ السُّودِ
وَرُقُّ الْحَمَامِ تَعَلَّمَتْ أَلْحَانَهَا فَلِذَاكَ تُلْفِي عَذْبَةَ التَّغْرِيدِ

ولابن الزبير النحوي المتوفى سنة ١٠٣٥ في الحُمْرَةِ :

إِرْكَبْ جَوَادَ اللَّهِ وَاشْرَبْ عَلَى وَرَدِ الْخُدُودِ تَحْتَ ظِلِّ الشَّعَرِ

١ - الرصد والزيدان نغمتان موسيقيتان .

والكَاسُ فِي يُمْنِي مُدِيرِهَا نَجْمُ الثُّرَيَّا فِي يَمِينِ الْقَمَرِ
ولابن الطَّيِّبِ الْعَلَمِيِّ فِيهَا :

تَفَتَّحَتْ أَزْهَارُ رَوْضِ السُّعُودِ وَغَنَّتِ الْأَطْيَارُ فِي كُلِّ عُودِ
فَبَاكِرِ اللَّذَاتِ فِي رَوْضَةٍ مَا بَيْنَ مَزْمَارٍ وَدَفٍّ وَعُودِ
رُقْمٍ إِلَى الرَّاحِ وَرِدْ ظَرْفُهَا فَطَلَمَا أَمَلْتَ مِنْهَا الْوُرُودِ
صَهْبَاءُ يَعْلُوهُ الْحَبَابُ كَمَا تَعْلُو عَلَى نَحْرِ الْغَوَانِي الْعُقُودِ
فِي كَاسِهَا مَاءٌ وَلَكِنَّهُ فِي الْقَلْبِ مِثْلُ النَّارِ ذَاتِ الْوُقُودِ
وَلَا تَمِلْ عَنْ شُرْبِهَا أَبَدًا مِنْ بَأْسٍ وَآشٍ خِفَّتَهُ أَوْ شُهُودِ
فَكَمْ زَنْتُ بِكُرًّا مَعَ ابْنِ سَمَا وَلَمْ تَجِبْ يَوْمًا عَلَيْهِ الْحُدُودِ
شَمْسٌ إِذَا غَابَتْ بِجَوْفِ امْرِئٍ أَشْرَقَ فِي خَدَّيْهِ بَدْرُ السُّعُودِ
فَهَايَهَا مِنْ كَفٍّ حُلُوِّ اللَّيْلِ لَكِنَّهُ لِلصَّبِّ مُرٌّ الصَّدُودِ
كَأَنَّهَا حُمْرَاءُ فِي كَفِّهِ مَعْصُورَةٌ مِنْ وَرْدِ ذَاتِ الْحُدُودِ
سَاقِ أَطَارِ النَّوْمِ عَنْ مُقْلَتِي وَكَمْ سَبَانِي بِالْعَيْنِ الرَّقُودِ
أَطْلَقَ دَمْعِي مِنْ أَلِيمِ الْجَفَا وَالْقَلْبُ قَدْ أَوْثَقَهُ فِي قُبُودِ
أَدْخَلَ ذَاكَ الْخَضِرَ فِي عَدَمٍ وَرَدَّفَهُ أَخْرَجَهُ لِلْوُجُودِ
فَذَاكَ مِنْ ضَعْفٍ يَقُومُ وَذَا مِنْ ثِقَلٍ مَا زَالَ يَبْغِي الْقُعُودِ

وله فيها :

أَقُولُ لِلْمَحْبُوبِ فِي رَوْضَةٍ وَالطَّلُّ يَسْقِي وَالثَّرَى يَشْرَبُ
زَوْجُ بِنْتِ الْكَرَمِ ابْنِ السَّمَاءِ فَالطَّيْرُ فِي مَنَبَرِهِ يَخْطُبُ

ولصاحبه ابي عبدالله الشرقي فيها :

أُذِنَ مِنَ الدَّنِّ فَكَمْ تَهَرَّبُ إِنَّ ذَهَابَ الْعَقْلَ لِي مَذْهَبُ
وَأَشْرَبُ بِكَأْسِ صَيْغٍ مِنْ فِضَّةٍ لَكِنْ بَتَسْكَابِ الطَّلَا مَذْهَبُ

وله في مُبَاكَرَةِ الصَّبُوحِ :

يَا صَاحَ صَحِّ اللّهُ وَالطَّيْرُ صَاحُ وَأَنْذَرَ الدَّاعِيَ بِقُرْبِ الصَّبَاحِ
قُمْ بِأَكْرِ الرِّوْضِ بِبِكْرِ الطَّلَا وَأَشْرَبُ عَلَى زَهْوِ الْخُدُودِ الْمِلَاحِ

وله في صِفَةِ رَوْضٍ :

يَا حُسْنَ رَوْضٍ فِي الْجَنَانِ أَرِيضُ لِبَرْقِهِ فِي شَرْقِ قَلْبِي وَمِيضُ
جَمْعِ أَشْتَاتِ الْهَوَى عِنْدَهُ نَهْرُ صَحِيحٍ وَنَسِيمُ مَرِيضُ
هَذَا لَهُ الْأَزْهَارُ بِاسْمَةِ وَأَدْمَعُ الطَّلَّ لِذَاكَ تَفِيضُ

ولابن زاكور يصف روضاً :

مَدَّ لِلْسُلُوفِ أَشْرَاكَ النَّظَرِ فِي ابْتِهَاجِ الرِّوْضِ مَنْ وَجَدَ الْمَطَرِ

وتَلَقَّ الأُنْسَ عن آسِ الرُّبَى واروِ طَيَّ النَّورِ عن نَشْرِ السَّحَرِ
 وارْتَشِفْ ثَغْرَ أَقْحاحِ بِاسِمَاءَ واضْطَبِّحْ بِالطَّلِّ من كَأْسِ الزَّهْرِ
 والتَّشِمْ وَجْهَ المُنَى مُسْتَبْشِرًا حَيْثُ رَامَ الغُصْنُ تَقْبِيلَ النَّهْرِ
 وجلا الْوَرْدُ خَدُودًا أُشْرِبَتْ خَمْرَةَ الْعِقيانِ من فَرْطِ الْحَفْرِ
 وانْبَرَى النَّسْرَيْنِ يُهْدِي ذَهَبًا في صِحَافٍ مُفْرَغَاتٍ من دُرَرِ
 وَحَبًّا الْخَيْرِيُّ أَنْفَاسَ الصَّبَا نَفَحَاتٍ أَنْشَرَتْ مِيتَ الْفِكْرِ
 وانتَشَى البُسْتَانُ من خَمْرِ الْحَيَا فاستَقَاءَ النَّورَ من ذاك السَّكْرِ
 نَظَّمَتْ في جِيدِهِ أُنْدَاوُهُ عَقَدَ دُرَّ كَلَمًا مَاسَ انْتِثَرِ
 قَيَّدَ الْأَلْحَاطَ في بَهْجَتِهِ واجْلُ غَيْمِ الْغَمِّ عن شَمْسِ الْعَبْرِ
 واعتَبَرِ بِالنُّورِ يَذْوِي بَيْنَهَا هو مَعْشُوقٌ لِشَمِّ وَبَصَرِ
 واشْكُرْ اللهَ على آلائِهِ انما يَنْجَحُ سَعِيًّا مَن شَكَرَ
 وله أَيْضًا :

حَدَّثَ عَرَفُ الصَّبَا عن نَفْحَةِ الزَّهْرِ عن الغُصُونِ عن السُّقْيَا عن المَطَرِ
 قَالُوا جَمِيعًا شَرُّودُ الأُنْسِ مَقْتَنَصُ بَيْنَ الرُّبَى بِشِيبَاكَ الشَّمِّ والنَّظَرِ

وله في هَيْجَانِ الْبَحْرِ ، وكان أَرَادَ السَّفَرَ إلى الْجَزَائِرِ :

يَا أَيُّهَا الْبَحْرُ مَهْلًا فَقَدْ دَهَانَا اهْتِئَاجُكَ

إِنَّا هَمَمْنَا بِأَمْرٍ مَنَعَ مِنْهُ انْزِعَاؤُكَ
لَوْ كُنْتُ تَدْرِي لَأَبْدَى سِيما السُّرُورِ ابْتِهَاجُكَ
يَا لَيْتَ شِعْرِي إِلَى كَمٍ يَحْكِي فُؤَادِي ارْتِجَاجُكَ

وقال في مَدِينَةِ تَطْوَانَ :

تَطْوَانُ مَا أَدْرَاكَ مَا تَطْوَانُ سَأَلْتُ بِهَا الْأَنْهَارُ وَالْخُلُجَانُ
قُلْ إِنْ لَحَاكَ مُكَايَرٌ فِي حُبِّهَا هِيَ جَنَّةٌ فِرْدَوْسُهَا الْكِتَانُ^١

ولأبي علي اليوسي في علاقة الزَّهَرِ بِالْمَطَرِ :

إِنَّ بَيْنَ الْغَمَامِ وَالزَّهَرِ الْغَضُّ لَرَحِمًا قَدِيمَةً وَإِخَاءَ
بَانَ إِلْفٌ عَنْ إِلْفِهِ فَتَوَارَى فِي الثَّرَى ذَا وَذَاكَ حَلَّ السَّمَاءِ
فَإِذَا مَا الْغَمَامُ زَارَتْ جَنَابًا آذَنْتُ فِيهِ بِالْحَبِيبِ اللَّقَاءِ
ذَكَرْتُ عَهْدَهُ الْقَدِيمَ فَحَنَنْتُ عِنْدَ لُقْيَاهُ فَاسْتَهَلْتُ بُكَاءَ
فَفَتَرَى الزَّهَرَ بَارِزًا مِنْ خَبَايَا هُوَ يُحْيِي الْوُفُودَ وَالْأَصْدِقَاءَ
بَادِيِ الْبُشْرِ وَالْبَشَاشَةِ جَذْلًا نَ لَبُوسًا مِنْ كُلِّ لَوْنٍ رِذَاءَ
ثَمَلًا مِنْ شَمُولِ شَمْسِ الضُّحَى وَهُوَ عَلَى بُسْطٍ سُندُسٍ خَضِرَاءَ
رَاقِصًا وَالصَّبَا تُهْنِيهِ وَالْوُرُ قُ ، غَوَانِي الْقِيَانِ ، تَشْدُو غِنَاءَ

١ - كِيتَانُ مَتْنَزُهُ بَدِيعٌ فِي تَطْوَانَ .

وله يصف أيام الشباب :

وَطَنٌ عَهْدْتُ بِهِ الشَّبِيْبَةَ وَالصَّبَا
وَرَفَلْتُ فِي أَثْوَابِ عَيْشٍ بِاسِقٍ
وَقَطَفْتُ مِنْ زَهْرِ السَّرُورِ نَوَاضِرَا
أَيَّامَ كُنْتُ رَاحِيًّا بِأَلٍ فِي ذَرَى
أَلْهُوَ أَحْدَاثُ الزَّمَانِ مُرَاجِمًا
مُرَاحِي الْعَيْنَانَ بِرَوْضِ كُلِّ لُبَانَةٍ
لَا أَخْتَشِي ظُفْرًا وَلَا نَابًا وَلَا
وَالدَّهْرَ سِلْمٌ وَالْخُطُوبَ غَوَافِلُ
مَا دَوْحَةٌ فِينَانَةٌ أَوْ رَوْضَةٌ
سَحَبَتْ عَلَيْهِ ذُبُولَهَا مُزْنُ الْحَيَا
إِلْفَيْنِ لَيْسَ أَخُوهُمَا بِمُنْكَدٍ
عَذَابُهُ أَنْقَى الْمَحْيَا أَرْغَدٍ
وَهَصَرْتُ مِنْهُ بِالْغُصُونِ الْمَيْدِ
حَدِيبٍ عَلَيَّ مُوسِّنٍ^١ وَمُوسَّدٍ
لَا نُوفَهَا عَبَثَ الْوَلِيدِ الْمُسْتَدِي^٢
سَرَحًا بِهَا سَرَحَ الْفُلُوكِ الْمُنْخَضِ^٣
أَشْجَى لِبَيْنِ مُغُورٍ أَوْ مُنْجِدٍ
وَالْعَيْشَ غَضُّهُ وَالْأَمَانِي حُفْدِي^٤
بِخِمِيلَةٍ أَوْ فِي يَفَاعٍ أَنْجَدٍ
وَسَخَتْ عَلَيْهِ بِكَفِّ وَاكِفِهَا النَّدِي

١ - الذرى الجانب والساحة والحدب العاطف المشفق والموسن المنوم من السنة وهي أول النوم .

٢ - المستدي اللاعب بالجوز يقال سدى الصبي بالجوز واستدى إذا رمى بها لاعبا .

٣ - الفلوك المهر والمخض الذي يجاذب المزود من النشاط والمرح .

٤ - أي خدامي ، جمع حافد وهو الخادم .

يُسْقَى مِنَ الْوَسْمِيِّ مُتَرَع كَأَيْهِ وَيُصَانُ مِنْ نَسْجِ الْوَلِيِّ بِبُرْجِدٍ^١
مِنْ كُلِّ سَابِغَةِ الذُّيُولِ كَأَنَّهَا عَكَرُ تُسَامٍ عَلَى الرَّبِيِّ بِالْمُرْعِدِ^٢
نَشَرَ الْجَنُوبُ جُجَانَهَا^٣ فَتَقَلَّدَتْ لَبَبُ الرِّيَاضِ بِحَلِيهِهَا الْمَتَبَدِّدِ
فَتَدَفَّقَتْ أَنْهَارُهَا وَتَفَتَّقَتْ أَزْهَارُهَا فِي رَوْضِهَا الْمُسْتَأْسِدِ
وَتَسَاجَلَتْ أَطْيَارُهَا وَتَمَايَلَتْ أَشْجَارُهَا كَالْمُثَلِّ كَالْمُتَمَيِّدِ
وَحَرَى لَطِيفُ نَسِيمِهَا بِرِيَاضِهَا جَرَى الزُّلَالُ بِغُصْنِهَا الْمَتَاوُدِ
مَا شَتَّ مِنْ ثَمَرٍ لَذٌّ وَمَنْظَرُ أَنْقَى وَصُوتٍ فِي الْغُصُونِ نُجَسَّدِ^٤
وَحِبَابِ جَرِيَالٍ يُخَاخِلُ سَاقَ أَثْمَلُودٍ بِهَا فَحْمِ الدَّوَائِبِ ثُمَّ أَدِ
أَوْ أَمْنٌ ذِي فَرْقٍ خَاصِعٍ لِبِهِ أَوْ غَفْوَةٌ الْإِصْبَاحِ لِلْمَتَهَجِّدِ
أَوْ عَذْبُ شَارِعَةِ الْفُرَاتِ نَلْمًا أَوْ وَضْلُ حَبٍّ بَعْدَ هَجْرٍ مُبْعَدِ

١ - الوسمي مطر الربيع الأول والولي الذي يليه والبرجد الكساء المخطط .

٢ - هذا وصف للسحاب والعكر الابل الكثيرة والمرعد صوت الراعي شبهه بالرعد .

٣ - يعني الريح الجنوبية والمراد يجمانها قطرات المطر على التشبيه .

٤ - الملتف النبات .

٥ - المجسد المحسن على أنواع .

٦ - فحم الدوائب أسودها ومأد بمال .

بَالَدَّ مِنْ تِلْكَ اللَّيَالِي لَوْ مَحَا مَا خَطَّه الدِّبْرَانُ سَعْدَ الْأَسْعَدَا

وللوزير ابن ادريس :

نَادَى السُّرُورُ بِسَعْدِكُمْ فَتَنَزَّهُوا فَالرَّوْضُ قَدْ أَهْدَى حُلَاهُ وَخَزَّهْ
بَسَطَ الرَّيِّعُ بِهِ بَسَاطَ زَبَرْجَدٍ قَدْ أَحْسَنَتْ أَيْدِي السَّحَائِبِ طَرْزَهْ
قَدْ كَانَ كَنْزاً فِي التُّرَابِ مُطْلَسِماً فَتَحَتْ رُقَى كَنْزِ الْغَمَائِمِ كَنْزَهْ
أَبَدَتْ خَبَايَا الْأَرْضِ مِنْ بَرَكَاتِهِ مَا أَوْضَحَتْ لُسُنُ الْكَمَائِمِ رَمَزَهْ
طَلَعَتْ طَلَائِعُهُ بِكُلِّ ثَنِيَّةٍ تُهْدِي بَدَائِعَهُ وَتَنْشُرُ بَزَهْ
وُجِيوْشُهُ النُّوَّارُ تَظْهَرُ فِي الرَّبِّي أَعْلَامُهُ تُبْدِي عُلاَهُ وَعِزَّهْ
مَلِكُ الْفُصُولِ لَهُ التَّقَدُّمُ بَيْنَهَا مَنْ رَامَ شَأْوَ سَنَاهُ مِنْهَا عِزَّهْ
فَخَرَّ الزَّمَانُ بِصَيْفِهِ وَخَرِيفِهِ وَشَتَائِهِ يَوْمَ الْفَخَارِ وَبَزَهْ
مُتَصَرِّفٌ فِي الْأَرْضِ عِنْدَ وَرُودِهِ فَأَشْبَّ نَرْجِسَهُ وَشَيَّبَ لَوْزَهْ
تَتَنَفَّسُ الْجَنَّاتُ فِيهِ أَمَا تَرَى أَرْجَاءَ سَرَى أَحْيَا الْفُؤَادَ وَهَزَهْ

وله في عَرِيشِ عَنَبٍ .

عَرِيسُ الرَّوْضِ تَزْهُو فِي عَرَائِشِهَا
لَهَا خَدُورٌ لِصَوْنِ الْحُسْنِ وَالْحَسْبِ

١ - الدبران وسعد الأسعد من منازل القمر وهذا من قول الشاعر :
إذا دبرانا منك يوماً لقيته أو مل أن ألقاك غدوا بأسعد

قد رُبِّيتُ فِي مِهَادٍ مَا يُحَرِّكُهُ إِلَّا النَّسِيمُ إِذَا يَهْفُو عَلَى كَثَبِ
وَأَرْضَعْتُهَا ثُدَيَّ الشُّحْبِ دِرَّتِيَا فِي كُلِّ حِينٍ وَلَمْ تَبْرُزْ مِنَ الْحُجْبِ
فَأَصْبَحَتْ بَعْدَ مَا تَمَّتْ رِضَاعَتُهَا

تُعْزَى إِلَى الْكَرْمِ لَا تُعْزَى إِلَى الشُّحْبِ
تَكَادُ تَسْقُطُ سَكْرًا فِي أَرِيكِتِيَا لَوْ لَمْ تَقُمْ بِسَرِيرِ الْعُودِ وَالْقَصَبِ
فِيهَا لِأَهْلِ التَّقَى شُكْرٌ، وَمُهِمَلَةٌ^١ وَزُرَّ لِأَهْلِ الْهَوَى وَذَا مِنَ الْعَجَبِ

الآدابُ والوصايا والحكم

للشيخ يعلى أبي جبَل دفين باب يَصْلِيَتَن من فاس المتوفى ٥٠٣
في الحث على السفر .

سافرْ لِتَكسب في الاسفار فائدةً فَرُبَّ فائدةٍ تُلْفَى مع السفر
ولا تُقِم بِمَكَان لا تُصِيب به نُصْحاً ولو كنتَ بين الظل والشجر
فان موسى كليمَ الله أَعوزَه عِلْمٌ تَكسِبُه في صحبة الخضر
وللقاضي عياض في ضده :

تَقَعَّدُ عن الأسفار ان كنتَ طالبا نَجاةً ففي الاسفار سبعُ عوائق
تشوقُ إخوان وفقدُ أحيّة وأَعْظَمُها يا صاحِ سُكْنى الفنادق
وكثرةُ إيجاش وقلةُ مؤنس وتبذيرُ اموالٍ وخيفةُ سارق
فان قيل في الأسفار كسبُ مَعيشة وعِلْمٌ وآداب وصحبة واثق
فقد كان ذا دهرًا تقادمَ عهده وأعقبه دهرٌ شديد المضايق.

فهذا مقالِي والسلامُ كما بدا وجربَ فففي التجريب علمُ الحقائق
وله وجنَّسه :

اذ ما نَشَرْتَ بِساطَ انبساط فعنه فديتك فاطور المِزاحا
فان المِزاح كما قد حكى أولو العلم قبلي عن العلم زاحا
وللمهدي بن تومرت :

أخذت بأعضادِهِم اذ نَأَوْا وخلفك القوم اذ ودَّعوا
فكم أنت تنهى ولا تنتهي وتسمع وعظاً ولا تسمع
فيا حجر السن حتى متى تسن الحديد ولا تقطع
وللقاضي أبي حفص ابن عمر :

بتلبك يا غا فلا فانظر وعينيك غمضها تبصر
إذا أرسل الطرف هام الفؤاد وبعض المرائي عمى المبصر
وآفة قلب الفتى عينه فإن ترع قلبك لا تنظر
وله أيضاً :

العلم يكسو الحلل الفاخره والعلم يُحي الأَظم الناخره
كم ذنب أصبح رأساً به ومذنب أبخره زاخره

مَا شَرَفُ النَّسَبَةِ إِلَّا التَّقَى أَيْنَ تَيْمٍ لَا نَفْسَ الْفَاخِرَةِ
مَنْ يَطْلُبُ الْعِزَّ بَغَيْرِ التَّقَى تَرْجِعُ عَنْهُ نَفْسُهُ دَاخِرَهُ
أَعْرِضْ عَنِ الدُّنْيَا تَكُنْ سَيِّدًا بَلْ مَا لَكَ فِيهَا وَفِي الْآخِرَةِ

وللاستاذ أبي القاسم ابن الشَّاطِ وَجَنَسُهُ :

إِنِّي سَلَكَتُ مِنْ انْقِبَاضِي مَنَهْجًا وَنَهَجْتُ مِنْ صَمْتِي عَلَى مِنْهَاجٍ
وَتَرَكْتُ أَقْوَالَ الْبَرِيَّةِ كُلِّهَا كَيْ لَا أُمَيِّزَ مَا دَحَا مِنْ هَاجٍ

ولابن البناء العددي :

قَصَدْتُ إِلَى الْوَجَازَةِ فِي كَلَامِي لِعَلَّمِي بِالصَّوَابِ فِي الْإِخْتِصَارِ
وَلَمْ أَحْذَرْ فُهُومًا دُونَ فَهْمِي وَلَكِنْ خِفْتُ إِزْرَاءَ الْكِبَارِ
فَشَأْنُ فُحُولَةِ الْعَمَاءِ شَأْنِي وَشَأْنُ الْبَسْطِ تَعْلِيمُ الصِّغَارِ

ولابن عبد الملك المراكشي :

مَنْ لَمْ يَصُنْ فِي أَمَلٍ وَجْهَهُ عَنْكَ فَصُنْ وَجْهَكَ عَنْ رَدِّهِ
وَاعْرِفْ لَهُ الْفَضْلَ وَعَرِّفْ لَهُ حَيْثُ أَحَلَّ النَّفْسَ مِنْ قَصْدِهِ

ولمالك بن المرحَّل وقد التَزَمَ افْتِتَاحَهُ بِمَا خَتَمَ بِهِ :

بِأَيِّ دَوَاءٍ أَمْ نَأْيٍ أَيْدِي بُدَاوِي عِذْرٍ مِنْ بَاضِرٍ مَشِيدٍ

بَيَاضٌ كَمَا لاحتُ كواكبُ سُحرةٍ تُرِيكَ طُلوعاً مُؤذِناً بِغُرُوبِ
 بَشيراً نَذيراً لآحَ كالْفَجْرِ صادِقاً على كاذِبٍ حُلُو اللِّسانِ خُلُوبِ
 بُنَيَّ ابْنِكَ لي ان البُكايِبِ عَثُ البُكا وليس جَوَّابِي مِنْكَ غيرَ وَجيبِ
 بِحاراً رَكبناها بِغيرِ سَفائنِ غُروراً فَإِنْ نَهَلِكَ فَغَيْرُ عَجيبِ
 بَرْتَنِي يَوْمَ آيَةٍ في بَرَاءَةٍ فان ضَحِكَتُ سِنِيَّ فَضِحْكَ مُريبِ
 بَنَيْتُ لَهَا قَلْبِي على كُرَّةِ الأَسَى فلم تَتَغَيَّرَ لاختلافِ خُطُوبِ
 بَكَى صاحِبِي حتَّى إِذا مالَ في الثَّرَى وسالَتْ مآقيهِ كَمِثْلِ غُرُوبِ
 بَسَطْتُ لَهُ كَفِّي وَقَبَّلْتُ كَفَّهُ وقلتُ لَهُ هَذَا مَقَامُ كَيْبِ
 بِحَقِّكَ لا تَبْرَحْ أَطَارِحُكَ لَوْ عَتِي على نَعَمٍ مِنْ أَنِّي وَنَحِيبِ
 بِداراً الى هاذي الدُمُوعِ فَرَبَّما غَسَلْتَ ذُنُوباً جَمَّةً بِذُنُوبِ
 بِدَايَةِ حَالٍ ان تَدُمُ فَلَعَلَّما ورُبَّ طُلُوعٍ كانَ بَعْدَ مَغِيبِ
 بَنِي الدَّهْرِ أَمَّا الدَّهْرُ فَهُوَ عَدُوُّكُمْ وان لآحَ يَوْمًا في ثِيابِ حَبِيبِ
 بَوَارِقُهُ لا رِيَّ فيها لَعاطِشٍ ولا خِصْبٍ في أنْوَائِهِ لَجَدِيبِ
 بَلَاكُمْ وَأَبْلَاكُمْ تَقْلُبُ صَرْفَهُ فَيَا وَيَحْها مِنْ أَنْفُسٍ وَقُلُوبِ
 بِصائِرُها في الرُّشْدِ غيرُ ثَواقِبِ وأَبْصارُها في الغيِّ ذَاتُ ثُقُوبِ
 بَعِيدٌ مِنَ التَّوْفِيقِ مَن باتَ ساهِراً رَجاءَ بَعِيدٍ لا مَخافَ قَرِيبِ
 بَطِيٍّ لَعَمْرِي مِنْ سَرَى اللَّيْلِ كَلَّهَ وأَصْبَحَ حَوْلَ الحَيِّ بَعْدَ لُغُوبِ

بَخِيلٌ لِعَمْرِي مَنْ دَعَاهُ حَبِيبُهُ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَهُوَ غَيْرُ مُجِيبٍ
وَقَالَ عَلِيٌّ مِنْوَالَهُ :

جَدِيرٌ بِأَنْ يَبْكِيَ عَلَى نَفْسِهِ أَسَى فَتَى كَلَّمَا تُرْجَى لَهُ تَوْبَةٌ تُرْجَا
جَبَانٌ عَنِ التَّقْوَى جَرِيٌّ عَلَى الْهَوَى قَرِيبٌ مِنَ الْمَهْوَى بَعِيدٌ مِنَ الْمَلْجَا
جَرَى فِي بَحَالِ اللَّهِوِ مِلَّةً عَنَانَهُ إِلَى الْآنَ مَا أَلْقَى لِحَامًا وَلَا سَرَجًا
جَنَى مَا جَنَى وَاسْتَسْهَلَ الْأَمْرَ فِي الصَّبَا فَلَمَّا نَهَاهُ الشَّيْبُ عَنْ فِعْلِهِ لَجَا
وَلَا بَنَ جَابِرُ الْمَكْنَسِيِّ :

أَيَا مَنْ أَرَادَ التَّخْلُصَ مِنْ دُنَاهُ لِيَخْوَفَ إِذَا يَأْتَهَا
إِذَا شَتَّ تَسَلَّمَ مِنْ شَرِّهَا فَسَلَّمَ لَهُمْ فِي حَوَائِجَاتِهَا
وَلَا بَنَ رُشَيْدُ الرَّحَالِ :

تَغَرَّبُ وَلَا تَحْفِلُ بِفُرْقَةِ مَوْطِنٍ تَفْزُ بِالْمُنَى فِي كُلِّ مَا شَتَّ مِنْ حَاجٍ
فَلَوْلَا اغْتِرَابُ الْمِسْكِ مَا حَلَّ مَفْرِقًا وَلَوْلَا اغْتِرَابُ الدَّرِّ لَمْ يَحْظَ بِالتَّاجِ

وللسلطان ابي عنان المريني :

واذا تصدر للرياسة حاملٌ جرت الامور على الطريق الأعوج

وللعامة المكودي من مقصورتِه في السيرة النبوية :

أرقتني بَارِقُ نَجْدٍ إِذْ سَرَى	يَوْمِضُ مَا بَيْنَ فُرَادَى وَثْنَى
أَهْبَنِي إِذْ هَبَّ مِنْهُ مَوْهِنًا ^١	مَا سَدَّ مَا بَيْنَ الثَّرِيَا وَالثَرَى
شَمِيتُ مِنْ أَرْجَائِهِ إِذْ شِثَّتْهُ	رِيحَ صَبَاً أَضْوَعَ مِنْ رِيحِ الْكِبَا ^٢
فِيَالَهُ مِنْ بَارِقِ ذِكْرِنِي	مِنْ الْهَوَى مَا كُنْتُ عَنْهُ فِي غِنَى
أَثَارَ شَوْقَا مَا بَنَى كَامِنًا	بَيْنَ ضُلُوعِ طَالَمَا فِيهَا ثَوَى
فَكَانَ قَلْبِي الْمُجْتَوَى إِذَا هَاجَهُ	كَالزَّيْنِدِ إِذَا أَوْرَاهُ مُورٍ فَوْرَى
وَسَحَّ بُسْحَبُ مُقْلَتِي فَمَا بَقِيَ	نَوْعٌ مِنَ الدَّمْعِ بِهَا الْأَهْمَى
مَا كُنْتُ أَدْرِي قَبْلَ أَنْ أَنْفَدَهُ	أَنَّ الْبُكْيَ يَمْنَعُنِي مِنَ الْبُكْيِ
وَلَيْلَةَ سَبَحْتُ فِي ظُلُمَاتِهَا	إِذَا سَحَبْتُ فُضُولَ أَذْيَالِ الدُّجَى
أَلِفْتُ فِيهَا كُلَّ مَا أَفَيْتُهُ	يُوْهِى الْقُوَى إِلَّا التَّسْلِيَّ وَالْكَرَى
طَالَتْ وَمَا أَطَّلَ نَائِي صُبْحَهَا	إِلَّا بِأَغْيَا ^٣ مَا لَدَيْهَا مِنْ تَوَى

١ - الموهن كالوهن نحو منتصف الليل .

٢ - عود البخور .

٣ - أي بغاية .

قد وقفتُ نجومُها في أفقها وقفةَ حيرانٍ طويلٍ المشتكى
 جُبتُ بها وحدي قفراً سبباً ليس به الا النعَامُ والمها
 نائي الزيازي والفلا داني الصفا خالي الفيافي والذرى خافي الصوى
 قطعتُه بيازِلٍ ذي مِرَّةٍ يُنوعُ السيزُ بأنواعِ المشى
 فتارةً يُعملُ فيها الحيزَلِ وتارةً يَعدُو عليها الهيدبى
 كأنَّ رَحلي اذ علوتُ ظَهْرَه فوقَ مَتْنِ المَتْنِ وَجَرِيَّ القُوى
 مِن وَحشٍ مَهْمِهٍ بعيدٍ غورُه ذي أكرُعٍ أصْلَبَ من صُمِّ الصفا
 يقذفُ بي من فدْفدٍ لفدْفدٍ وينتهي بي من فلا الى فلا
 حتى اذا انتضى الصباحُ نصله وقدَّ جِلْبَابَ الدِّياجي فانفرى
 كأنه كتابٌ قد نُشِرتْ راياتها على الأكامِ والرُبى
 أحسَّتِ الشَّهْبُ بها فأجفلتُ وأمت الغربَ وجدَّتْ في السرى
 إذا أنا ببُقْعَةٍ غِيطَانِها جرى بها سلسالُ نَهْرٍ وانحنى
 كأنه معصمُ خُودٍ غادةٍ على رِداءٍ قد وشَّاه من وشى
 وظلَّ رَوْضٍ راضه صوبُ الحيا فاعتمَّ من نورِ حُلاه واكتسى
 باكره وشمِيشه فانفتحتْ كِأَمِه عن زَهْر طيِّب الشِّدا

١ - منسوب الى وجرة مكان كثير الوحش .

وهزَّ أيدي الرِّيح منه قُضْباً غنى بها الطيرُ الاغنُّ وشداً
ونشَرتْ شمسُ الغداة أَيْدَعاً^١ فيه وقد بلَّه قطرُ الندى
أَحْسِنُ به رَوْضاً ذِكِيّاً عرْفُه مُعْطِراً دَانِي القطوف والجنى
وقفتُ طرْفِي بِإِزَاءِ دَوْحِه أَسْرَحَ طَرْفِي فِي مَبَانِيهِ الْعُلَى^٢
واشْكِي دَهراً دِهَانِي صَرْفُه لَمَّا قَضَى بِالْبَيْنِ فِيمَا قَدْ قَضَى
مَنَازِلُ كَانَتْ بِنَا أَوَاهِلًا نَلْنَا بِهَا حِينًا أَسَالِيبَ الْمُنَى
كَمْ بَتُّ فِي أَفْيَئِثْهَا أَجْرِي إِلَى غَايَاتِهَا بِطَرْفٍ جَدٍّ مَا كَبَا
وَكَمْ سَحَبْتُ إِذْ صَحَبْتُ غَيْدَهَا بِرَوْضِهَا ذَيْلَ السُّرُورِ وَالْهِنَا
وَكَمْ مَدَدْتُ مِنْ سُرَادِقٍ عَلَى ضَفَّةِ نَهْرٍ أَرْجَ رَحْبِ الذُّرَى
وَكَمْ سَعِدْتُ إِذْ صَعِدْتُ صَهْوَةً لِمَنْزَلِهِ ذِي نُزْهِ لَمَنِ رَتَا
وَكَمْ هَمَّصْتُ فِيهِ مِنْ غُصْنٍ نَقَاً مِنْ قَدْ ظَنَنْتُ أَهْيَفَ طَاوِي الْحِشَا
وَكَمْ لَثَمْتُ زَهْرَ ثَغْرِ أَشْنَبٍ مِنْ شَادِنٍ عَذْبِ الثَّنَايَا وَاللَّمَى
وَكَمْ رَشَفْتُ مِنْ رُضَابٍ سَلْسَلٍ يَفْعَلُ بِالْأَلْبَابِ أَفْعَالِ الطَّلَا
أَيَّامَ أَزْهَارِ الْمُنَى مُوْنَقَةً وَالْدَهْرِ ذُو وَجْهِ مُنِيرٍ مُجْتَلَى
تُزَفُّ لِي مِنَ الْأَمَانِي آمِنًا عَرَائِسُ ذَوَاتُ حَلِي وَحَلَى

١ - أي زعفراناً والكلام على التشبيه .

٢ - الطرف بالكسر الكريم من الخيل وبالفتح العين الباصرة .

أَنْتَى أَرْجِي لِفُؤَادِي سَلْوَةً مِنْ بَعْدُ بَعْدُ الْمَوْنَقَاتِ الْمُجْتَلَى
يَا لَيْتَ شِعْرِي وَالْأَمَانِي خُدَّعَ هَلْ يُرْجِعُ الدَّهْرُ لَنَا عَهْدًا مَضَى
وَهَلْ لَنَا مِنْ عَوْدَةٍ لِمَعْهَدٍ صَبَوْتُ فِيهِ جُلًّا أَيَّامَ الصَّبَا
إِذْ لَا مَشِيدَ فَوْقَ فَوْدِي يُرَعْوَى مِنْ شَيْنِهِ وَلَا رَقِيبَ يُخْتَشَى
أَيَّامُ أَنْسٍ أَسْرَعَتْ فِي خَطْوِهَا كَذَا اللَّذَازَاتِ سَرِيعَاتِ الْخُطَا

* * *

يَا قَلْبُ لَا تَجْزَعِ فَإِنَّ قَلْبُ وَأَنْتَ عِنْدِي ذُو دَهَاءٍ وَحِجَا
فَلَا يَهْوُ لَكَ صَرْفُ الدَّهْرِ فِي مَا قَدْ جَنَى عَلَيْكَ مِنْ خَطْبِ النَّوَى
فَكُلُّهُ وَصْلٍ يَنْتَهِي لِفُرْقَةٍ تَقْرِي الْعُرَى مِنْهُ وَإِنْ طَالَ الْمَدَى
وَالدَّهْرُ فِي صُرُوفِهِ ذُو عَجَبٍ يُدْنِي بِهَا كُلَّ جَدِيدٍ لِلْبَلَى
يُبْكِي إِذَا أَضْحَكَ يَوْمًا أَهْلَهُ وَيُعَقِّبُ الْكَرْبَ إِذَا الْعَيْشُ صَفَا
كَمْ مَلِكٍ فِي نَجْدَةٍ مِنْ مُلْكِهِ يَضِيقُ عَنْ جُنُودِهِ رَحْبُ الْفَضَا
قَدْ مَلَكَ الْأَرْضَ وَرَاضَ صَعْبَهَا وَشَيَّدَ الْقُصُورَ فِيهَا وَالْبُنَى
أَخْنَى عَلَيْهِ دَهْرُهُ وَعَاقَهُ عَنْ كُلِّ مَا شَيَّدَهُ وَمَا بَنَى
أَيْنَ الْأُلَى سَادُوا وَسَاسُوا مُلْكَهُمْ كَيْثُلَ سَاسَانٍ وَعَادٍ وَسَبَا^١

١. — ساسان أبو الملوك الساسانية من ملوك الفرس، وعاد وسبأ من العرب البائدة.

دارت على أذؤرهم^١ دوائر^٢ وجرعوا كأس المنايا والردي
 وأين باني إرم^٣ وجيشه وملك كسرى حين تم أيده
 ولم تقصر عن ملوك قيصر ولم تدع من ملك غسان فتى
 وكم ملوك قهروا بملكهم حتى أبادتهم وطأوا في البرى^٤
 ساهى المعالي في ذراها فسمى أسد الشرى صاروا حديثاً في الدنيا

هاذي هي الدنيا فلا يغرك ما فأنقض يدك من عراها وارمها
 وظن بالإخوان شراً واخشهم وان جهلت حالهم فاخبر فما
 وسرك اكنمه عن الخلق ولا واقنع على عز بما يكفي ولا
 وسائر الناس على أخلاقهم تراه فيها من سرور وهنا
 وادراً بها ان كنت من اهل النهى وصير الأحاب منهم كالعدا
 ينخب قوماً احداً إلا قلي تطلع عليه احداً من الورى
 تحرص فان الحرص ذل للفتى وساعد المسعد واحمل من جفا

١ - جمع دار .

٢ - مدينة هائلة بناها شداد بن عاد .

٣ - البرى : التراب .

وصافهم وان أساءوا نيةً فإنما لكل مرء ما نوى
 كم من صديق مظهرٍ لوُدّه لكن له قلبٌ على الجحد انطوى
 يَبشُّ في وجهك ان لاقيته وان تغب يغتبك في كل ملا
 يذيع ما يراه من قُبح وان رأى جميلاً منك أخفى ما رأى
 فاترك إخا من هذه شيمته واهجره في الله ودعه والعَمى
 ولا تهابن ذوي الجهل وان راقك منهم مُنتدى ومُنتمى
 كم من أناس كالأناسي منظرًا فهم اذا أشبه شيء بالذمى
 وكم أناس في الدنا ليس لهم من العلا الا الأسامي والكنى
 يروُن أن المجد والعُلىاء في ما يُغتنى من أُبّهات وكُسى
 ليس العلا والمجد الا لامريء رنا الى أفق المعالي وارْتقى
 وصمّم العزم على ترك الهوى وجدّ في طلاب ما يُجدي الشنا
 وانتعل الشهب الدّاري رفعة وامتهد البدر المنير واعتلى
 وما المعالي غير علم رائق يُصيرُ المرء على أعلى الشها
 طوبى لمن برّز في ميدانه وابتدر السبق لديه وجرى
 وجدّ فيه وحماه جدّه حتى ارتقى منه بأسمى مرتقى
 ودان بالدين القويم والعلى وازدان بالخلق الجميل والتقى

لِلَّهِ قَوْمٌ قَمَعُوا أَنْفُسَهُمْ عَنْ الْهَوَى إِذْ قَرَعُوا بَابَ الرِّضَى
عَابُوا نَفِيسَ الدُّرِّ وَالْعَقِيَّانِ إِذْ بَاعُوا نَفُوسَهُمْ بِأَنْفُسِ عُلَا
وَأَنْتَ يَا نَفْسُ شُغِلْتَ بِالْهَوَى حَتَّى هَوَيْتَ مِنْهُ فِي قَعْرِ هَوَى^١
فَرَطْتَ إِذْ أَفْرَطْتَ فِي اكْتِسَابِ مَا يُرِيدِي وَلَمْ أَسْلُكْ سَبِيلَ مَنْ نَجَا
كَمْ خَضْتُ فِي بَحْرِ الْمَعَاصِي جَاغِحًا لَا أَرَعُوي نَصْحًا لِلَّحْيِ مِنْ لَحَا
وَكَمْ تَعَبْتُ إِذْ تَبِعْتُ أَمَلًا قَدْ انْقَضَتْ لَذَاتُهُ وَمَا انْقَضَى
وَاحْشَرْنَا قَدْ مَرَّ عُمْرِي ضَائِعًا بَيْنَ خُزَعِبَلَاتٍ لَهْوٍ هَوَى
هَلَكْتُ فِي الْهَلَاكِ لَوْلَا أَنِّي ذَخَرْتُ ذُخْرًا أُرْتَجِي بِهِ الْهُدَى
وَلَيْسَ ذُخْرِي غَيْرَ مَدْحِ أَحْمَدٍ سَيِّدِ أَهْلِ الْأَرْضِ طَرًّا وَالسَّمَا

ويقول في آخرها مُنَكِّتًا عَلَى ابْنِ دُرَيْدٍ وَحَازِمٍ فِي مَدْحِهِمَا
غَيْرَ الذَّاتِ الْمُصْطَفَوِيَّةِ :

مَقْصُورَةٌ لَكِنَّهَا مَقْصُورَةٌ عَلَى امْتِدَاحِ الْمُصْطَفَى خَيْرِ الْوَرَى
فَقْتُ عِلَاءِ كُلِّ ذِي مَقْصُورَةٍ وَإِنْ هُمْ نَالُوا الْأَيَادِي وَاللُّهَا
فَحَازِمٌ قَدْ عُدَّ غَيْرَ حَازِمٍ وَابْنُ دُرَيْدٍ لَمْ يُفَيْدِهِ مَا دَرَى

ما شَبَّتها بِمَدْحِ خَلْقٍ غَيْرِهِ لِرُتَبَةٍ أَحْظَى بِهَا وَلَا جَدَا

وللشيخ ابراهيم التازي دفين وهران :

أَمَّا آنَ ارِعَاوُوكَ عَنْ شَنَارِ كَفَى بِالشَّيْبِ زَجْرًا عَنْ عُوارِ
أَبْعَدَ الْأَرْبَعِينَ تَرْوُمَ هَزْلًا وَهَلْ بَعْدَ الْعَشِيَةِ مِنْ عَرَارِ
فَخَلَّ حُظُوظَ نَفْسِكَ وَالْهَ عَنْهَا وَعَنْ ذِكْرِ الْمَنَازِلِ وَالْدِيَارِ
وَعَدُّ عَنْ الرَّبَابِ وَعَنْ سُعَادِ وَزَيْنَبَ وَالْمَعَارِفِ وَالْعُقَارِ
فَمَا الدُّنْيَا وَزُخْرُفُهَا بِشَيْءٍ وَمَا أَيُّهَا الْا عَوَارِ

وله ايضاً :

يَا صَاحِبَ مِنْ رُزْقِ التَّقَى وَقَلَا الدُّنَا نَالَ الْكَرَامَةَ وَالسَّعَادَةَ وَالْهَنَا
فَاصْرِفْ هَوْنِي دُنْيَاكَ وَاصْرِمْ حَبْلَهَا دَارُ الْبَلَايَا وَالرِّزَايَا وَالْعَنَا
وَوَدَّادُهَا رَأْسُ الْخَطَايَا كُلِّهَا مَلْعُونَةٌ طُوبَى لِمَنْ عَنْهَا اثْنَى
لَا تَغْتَرِرْ بِغُرُورِهَا فَمَتَاعُهَا عَرَضٌ مُعَدٌّ لِلزَّوَالِ وَلِلْفَنَاءِ
لَعِبٌ وَلَهُوَ زِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ لَا تَخْدَعُكَ جَنَانُهَا مُرُّ الْجَنَنِ
خَدَاعَةٌ غَدَّارَةٌ مَكَّارَةٌ مَا بَلَغَتْ لِحْلِيلَهَا قَطُّ الْمُنَى

اليومَ عندك جاهها وخطامها وغداً تراه بكفّ غيرك مُقتنى
 فأقبل نصيحةً مُخلصٍ وأعمل بها يُدنيك من رِضوان ربك ذي الغنى
 ولابن غازي :

عجبتُ لمبتاع الضلالة بالهدى وللمُشتري دُنياه بالدين أعجبُ
 وأعجبُ من هذين من باع دينه بدُنيا سواه فهو اخزى وأخيبُ
 وللشيخ رضوان الجنوي :

لا تركننَّ الى اهل الإمارة في امرٍ تُحاولُ واقطعْ دُونهم أُملاً
 وان أرادوك يوماً ممّا على عمل « كلِّ التراب ولا تعملْ لهم عملاً »
 وللإمام القصّار :

تسعُ أبى منها أولو الأحلام والهيم السنية
 إلا بحال ضرورة تدعو لها معُ حُسن نية
 وهي الشهادة والوسا طة والحكومة في القضية
 وكذا الإمامة والود يعة والتعرّض للوصية
 ثم الاجابة للطعا م وللوائم والهدية
 فسد الزمان واهله إلا القليل من البرية

ولابي زيد البوعقيلي وجنسه :

تَجَبَّرَ بَعْضُ النَّاسِ كِبَرًا وَنَخْوَةً وَعَمَّ جَمِيعَ النَّاسِ مِنْهُ فُسَادُ
فِيَا أَسْفِي إِنْ الْفَاضِلَ قَدْ مَضَوْا فَقَامَ عَلَيْنَا الْارْذُلُونَ فَسَادُوا

وللشيخ عبد السلام جَسُوس :

إِذَا مَا تُخَصَّ بِالْأَمْوَالِ نَاسٌ وَخَصَّ اللَّهُ قَلْبَكَ بِالْعُلُومِ
فَلَا زِمَ شُكْرَ رَبِّكَ كُلَّ حِينٍ إِذَا مَا كُنْتَ مِنْ أَهْلِ الْفُهُومِ
وَسَافِرٌ عَنْهُمْ بِالْقَلْبِ سَافِرٌ وَحُطَّ الرَّحْلَ فِي بَابِ الْكَرِيمِ
وَلَهُ أَيْضًا :

إِذَا مَا اعْتَزَّ ذُو جَهْلٍ بِمَالٍ وَعُظِّمَ فِي نَفُوسِ الْجَاهِلِينَ
فَاهِلُ الْعِلْمِ أَعْلَى النَّاسِ قَدْرًا وَأَعْظَمُ عِنْدَ رَبِّ الْعَالَمِينَ
وللشيخ عبد الله العياشي :

قَامَتْ قِيَامَةٌ مَنْ شَابَتْ نَوَاصِيهِ
فَلْيَتَّقِ اللَّهَ وَلْيَتْرِكْ مَعَاصِيهِ

وله :

فَوَضِيَ الْأَمْرَ إِلَى مَنْ حُكِمَ نَافِذٌ فِي كُلِّ وَرْدٍ وَصَدَر

واذا نازَعَكَ الوهم فقل كلُّ شيء بقضاء وقدر

ولابي العباس الهلالي من نصيحته :

يا أيها الانسان هُبَّ من كراك	واضح من الشكر الذي قد اعتراك
إن الرحيل يا أخي قريب	وكلُّنا مسافر غريب
والموت لا يفوته عريب ^١	فكيف لا يزود الأريب
فيا له من سفرٍ ما أطوله	ويا له من هائل ما أهوله
كفى الحمام واعظاً لمن عقل	فانظر فكم من قاطن قد انتقل
يا عجباً لغافل بطّال	مثلي ، حليف لهو المطال
لو ظلّ يخشى ضرب صاحب امير	كدير عيشه وغصّ بالنمير
ولم يكن عن حزنه بلاه	ولا بمصغي الأذن للملاهي
وكيف يلهو وهو كلّ حال	منتظر الموت والارتحال
وفتنة القبر وهوله الشديد	وموقف الحشر وكرهه المديد
وكلّ هول بعده مما تذوب	له الصفا الصم فكيف بالقلوب
وكيف ينسى سكرات الموت	وهوله وحسرات الفسوت
وكيف يلهو ويلذّ مطعماً	مع علم ذاك إنّ ذا من العمى

١ - أي أحد وهو من الأسماء اللازمة للنفي .

فَأَعِدِدَنَّ لِلرَّحِيلِ الزَّادَا وَافْتَقِدِ الْمَزُودَ وَالْمَزَادَا
وَالزَّمْ طِلَابَ الْعِلْمِ بِالْإِخْلَاصِ لَكِي تَرَى مِنْهَا هَجَ الْخِلَاصِ
فَالْعِلْمُ نُورٌ وَالْجَهَالَةُ حُلَاكٌ وَمَنْ سَرَى فِي ظِلْمَةِ الْجَهْلِ هَلَاكٌ
وَالْعِلْمُ مَا أَكْسَبَ خَشْيَةَ الْعَلِيمِ فَمَنْ خَلَا عَنْهَا فَجَاهِلٌ مُلِيمٌ
لأنه ميراثُ الأنبياءِ فلم يُحِزْهُ غَيْرُ الْإِتْقِيَاءِ
لِذَاكَ قِيلَ الْعِلْمُ يَدْعُو الْعَمَلَا إِنْ يُلْفِهِ قَرٌّ وَالْإِرْتَحَلَا
فَاعْمَلْ بِمَا عَلِمْتَ تُورَثْ عِلْمَ مَا لَمْ تَكُ تَعْلَمْ وَتَرْبَحْ مَغْنَمَا
وَاعْلَمْ بِأَنْ كَدَرَ الذُّنُوبِ يَكْسِفُ نُورَ الْعِلْمِ فِي الْقُلُوبِ
أَلَا تَرَى الذُّبَالَ فِي الْمَصْبَاحِ إِذَا صَفَا أَرْضَاكَ فِي اصْطِبَاحِ
وَإِنْ يَكُنْ بَوَسَخٌ مُلَطَّخَا كُسِفَ نُورُهُ لِذَاكَ وَطَخَا^١
فاحذرْ عَلَى النُّورِ الَّذِي وَهَبْتَا وَإِنْ تُضَيِّعْ نُورَ الْإِلَهِ خَبْتَا
وَزَيْنَ الْعِلْمِ بِزِينَةِ الْوَرَعِ وَاقْنَعْ فَخِذُ الْحَرَصِ فِي الذَّلْكَرَعِ
إِنْ الْقِنَاعَةَ أَعَزُّ مُلْكُ وَحِرْفَةُ^٢ الْقُنُوعِ شَرُّ هُلْكَ
وَاطْلُبْ شِفَاءَ قَلْبِكَ الْمَرِيضِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُغْصَّ بِالْجَرِيضِ^٣

١ - أي أظلم .

٢ - أي السؤال فهو ضد القناعة .

٣ - أي الموت .

ولا تَظُنَّ البرءَ من دَوَاكِ^١ الا بَفَطْمِ النفسِ عن هَوَاكِ
فاجتهدْ أَخِيَّ واجتهدْ وَجَاهِدْ عسى بفضلِ الله أن تُشَاهِدْ
واستنجِدْ مَوْلَاكَ في جَمِيعِ مَا تَرُومُهُ فَلَنْ يَزَالَ مُنْعِمًا
فَمَا بِهِ تَطْلُبُهُ تَيْسَّرًا وما بِنَفْسِكَ فَقَدْ تَعَسَّرًا

* * *

بِوَاحْتِلٍ عَلَى نَفْسِكَ بِالتَّدرِيجِ فَانْهَ أَذْهَبُ^٢ لِلتَّخْرِيجِ
وَخَالِفْنَهَا وَلَا تُطْعِمَهَا وَارْزَعْ الْوَدَائِعِ وَلَا تُضِغَهَا
وَهِيَ الْجَوَارِحُ الَّتِي بِهَا اكْتِسَابُ لِلْخَيْرِ وَالشَّرِّ وَخَفَ يَوْمَ الْحِسَابِ
فَإِنَّهَا مُسْتَوَلَةٌ فِي الْآجِلِ شَاهِدَةٌ بِمَا بَجَنَتْ فِي الْعَاجِلِ
فَمَنْ عَصَى بِوَاحِدٍ مِنْهَا فَقَدْ فَتَحَ بَابًا لِلْجَحِيمِ قَدْ وَقَدْ
وَأَصْلُهَا الْقَلْبُ فَعَالِجُ دَاءِهِ وَاحْشُ بِمَرَّتِهِمُ التَّقَى سَوْدَاءَهُ
صَلَاحُهُ صَلَاحُهَا لِمَنْ خَبَرَ وَالضُّدُّ بِالضُّدِّ كَمَا جَاءَ فِي الْخَبَرِ
وَأَصْلُ دَاءِ الْقَلْبِ حُبُّ الْعَاجِلَةِ فَانْبِذْهُ وَاحْتَفِلْ بِأَمْرِ الْآجِلَةِ
وَلَا يَكُنْ هُمُّكَ فِي الطَّعَامِ وَالشُّرْبِ تِلْكَ شَيْئَةُ الطَّغَامِ^٣
هَا مَلَأَ الْمَرْءَ وَعَاءُ شَرًّا مِنْ بَطْنِهِ فَاجْذَرِ وَقِيَتَ الشَّرِّ

١ - هو مصدر ذَوِيَ كَجَوِيَّ يَعْنِي بَرَضَ وَسُلَّ .

٢ - أَي رُدَالِ النَّاسِ .

ولا زِمَ السَّنةَ واهْجُرَ الْبِدْعَ فالطَّرِيقُ قَدْ سُدَّتْ عَلَى مَنْ ابْتَدَعَ
ولا زِمَ الصَّمْتَ الْحَمِيدَ الْا عَنْ ذِكْرِ مَوْلَاكَ الْكَرِيمِ جَلًّا
أَوْ مَا جَرَى مَجْرَاهُ مَا تَنْتَفِعَ بِهِ لِيَوْمِ هَائِلٍ وَتَرْتَفِعَ
فَكُلُّ مَا يَحْصِيهِ اللِّسَانُ بِجِدِّهِ يَوْمَ الْجَزَاءِ الْإِنْسَانُ
وَلَتَكُ مَعْنِيًّا بِحُسْنِ الْخُلُقِ تَحْزُنُ رِضَا الْحَقِّ بِهِ وَالْخُلُقِ
وَاحْرِصْ عَلَى الْعُرْزَةِ مَا اسْتَطَعْتَ وَإِنْ تَسِرَ مِنْ دُونِهَا انْقَطَعَتْ
فَخُلُطَةُ النَّاسِ أَخِي عِقَالُ وَالْقِيلُ لَازِمٌ لَهُمْ وَالْقَالَ
فَدَعْنَهُمْ تَرْحِمَهُمْ وَتَسْتَرْحِ فَقُلْ مَنْ خَالَطَهُمْ ثُمَّ رَبِحَ
وَاقْطَعْ إِذَا رُمْتَ الْعُلَا الْعَلَاتِقُ وَادْفَعْ بِجَنَّةِ الثَّقَى الْعَوَاتِقُ

ولابي علي اليوسي :

إِنَّا نَاسٌ لَسْتَ تُبْصِرُنَا تَتَحَيَّنُ الطُّعْمُ^١ الَّتِي تُزْرِي
يَعْرِى الْفَتَى وَيَجُوعُ وَهُوَ يُزِي مُتَجَمِّلًا بِالصَّبْرِ وَالْبِشْرِ
وَالْحَرَّةُ الشَّمَاءُ رُبَّمَا جَاءَتْ وَلَمْ تُرْضَعْ عَلَى أَجْرِ
وَالْمُورِدُ الْعَذْبُ الْفُرَاتِ إِذَا رَأَتْهُ^٢ حُمْرٌ سِيمَ بِالْهَجْرِ

١ - جمع طعمة وهي المأكلة والمكسب .

٢ - هو من باب الحذف والإيصال مثل قولهم في المثل أحشك وتروثني .

وإذا ترى طيراً بمزيلة فاطر غير الباز والصقر
 وإذا رأيت المرء مُحْتَسِياً كأسَ الهوان فليس بالحر
 والحر ليس حياته بيوى عزّ الجناب ورفعته القدر
 لا بالطعام ولا الشراب ولا استلقائه بأرائك وثر
 وإذا ترايلك الحياة فما من عيشة تبقى ولا عمر
 وسؤالُ ذي لومٍ وذي بخلي ورجاؤه لنوائب تجري
 أنكى لقلب أخى المروءة من نقل الجبال وتحمل الصخر
 وأضرّ من كل المصائب أن عظمت عليك وكُلّما شر
 وتقلدُ للمَنّ من يده غلٌّ على هاديك^١ في الأشر
 بل وخزّة في القلب ناكّة بل طعنة في لبة النحر
 وغناك عنه بالقناعة في حالك من عُسر ومن يُسه
 أجدى من الملك الذي جمعت أبناء دهرٍ غابر الدهر
 وألذُّ من سنة الشباب على جدّة ومن وثر على وثر^٢
 وليأسُ صونك عن تملّقه أبهى من الاستبرق الخضر
 وحلّ الوقار عليك أجل من أن تحتلي بقلائد النضر

١ - الهادي : العنق .

٢ - هو من قول بعض العرب : اعجب الأشياء وثر بالفتح على وثر بالكسر أي وقاع على فراش وثير .

وَصَبَابَةٌ مِنْ مَاءٍ وَجْهَكَ أَنْ
فَإِذَا عَمَرْتَكَ الْحَادِثَاتُ فَنُتِقْ
وَاصْبِرْ لِرَوْحِ اللَّهِ مُرْتَجِيًا
إِنْ أَصْطَبَارُ الْمَرْءِ مُفْتَتِحٌ
وَمُنْفَسٌ عَنْهُ الْكُرُوبُ إِذَا
كَمْ مِنْ حَزِينٍ بَاتَ مُكْتَتِبًا
لَا يَرْتَجِي خِلَابَ لَيْلَتِهِ
فَأَتَتْهُ الطَّافُ مُنْفَسَةٌ
وَلَكُمْ بُعِيدَ الصِّيقِ مِنْ سَعَةِ
هَلْ بَعْدَ مُعْتَرِكَ الظَّلَامِ سَوَى
وَإِذَا تُحَاوِلُ تَنِيلٌ مَكْرُمَةٌ
وَارْكَبْ جَوَادَ الْجِدِّ مُكْتَفِيًا
وَاعْلَمْ أَنَّ الْغَوْصَ فِي الْجَنِّجِ
وَلَدَى الرَّبَّاحِ الْكَثْرُ يُحْمَدُ مَا
وَلَدَى الصَّبَّاحِ يَكُونُ مُغْتَبَطًا
فَسُ مِنْ رَحِيقِ سَلْسَلِ غَمْرِ
بِمَلِكِهَا ذِي الْخَلْقِ وَالْأَمْرِ
فَلْتَحْمَدَنَّ عَوَاقِبَ الصَّبْرِ
مُتَغَلَّقَ الْبُأْسَاءِ وَالْعُسرِ
ضَاقَتْ بَيْنَ جَوَانِحِ الصَّدْرِ
مُسَعَّرَ الْأَحْشَاءِ ذَا زَفْرِ
أَنْ يَنْتَهِي طَرْفَاهُ بِالسَّفْرِ
لِقَوَادِهِ مِنْ حَيْثُ لَا يَنْزِي
وَلَكُمْ بُعِيدَ الْعُسْرِ مِنْ يُسْرِ
بَلَجِ الصَّبَّاحِ وَطَلْعَةِ إِيْتَجْرِ
فَانْهَضْ إِلَيْهَا نَهْضَةُ الشَّبْرِ
ذَيْلَ الْمَلَالَةِ مِنْكَ وَاللَّهْزِ
خَضِرَ يَحْقُوقُ لِحَالِ الدَّرِ
جَابَ الْمَفَاوِزِ صَاحِبُ التَّجْرِ
وَيُنَالُ بُغْيَتَهُ الذَّنْبِي يَسْرِي

وَتَسْنَمَنَّ ذُرَى الْأُمُورِ وَلَا تُخْلِدَ إِلَى سَفْسَافِهَا الْجَنْزُرِ
 وَاعْلَمْ بِأَنَّكَ مَا اسْتَطَعْتَ تَجَنَّى وَالْكَرَمُ يُجِدِّي الْمُجْتَنِّي عِنَبًا
 وَلَكُم تَرَى مَرْعَى وَلَسْتَ تَرَى الْكَرَّاعِيَةَ السَّعْدَانِ وَالشَّغَرِ ٢
 وَالنَّاسُ كَالْعَوْنِغَاءِ هَائِمَةٌ وَالْمَرْءُ كُلُّ الْمَرْءِ بَيْنَهُمْ
 لَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْوَفَاءِ وَلَا يَنْتَوَحَّخُونَ فِي النَّاسِ الْوَفَى إِذَا
 وَاسْبُرْهُمْ قَبْلَ الْإِخَاءِ وَلَا تَغْتَرَّ فِي الْإِخْوَانِ بِالسَّبْرِ
 كَمَ مِنْ أَخٍ مَدِيقٍ الْوَدَادِ عَلَى مَا فِيهِ مِنْ إِحْنٍ ٣
 إِنْ تَلَقَّاهُ فَالشَّهْدُ مَقُولُهُ وَإِذَا تَغَيَّبُ يَكُونُ كَالصَّبْرِ
 وَإِذَا تُصَادِفُ ذَا الْإِضْغَاءِ فَكُنْ مِنْهُ وَلَوْ صَافَاكَ دَا جِذْرُ
 وَأَيْسَمُ سَوَائِمَ سَرْحِهِ طُرًّا مَطْرُوقَةً مِنْ مَسْرُوحِ السَّرِّ
 وَضَنْ السَّرَارَةِ ٤ وَاللُّبَابِ وَلَا تَبْذُلْ لَهُ مِنْهَا سِوَى الْقَشْرِ

١ - الطعن والوخز .

٢ - السعدان والشجر من أفضل المرعى .

٣ - السبر بالكسر العداوة .

٤ - سرارة الشيء اطيبه وخالصه .

فَلَرُبَّمَا يُلَوِّي الزَّمَانَ بِهِ فَيَكُونُ أَبْصَرَ فَيْكَ بِالضَّرِّ
 وَإِذَا تُصَاحِبُ أَوْ تُجَالِسَ أَوْ تَسْتَبُّ فَالْتِمِسْنُ ذَوِي الْقَدْرِ
 فَصَدَاقَةُ النَّبِيَاءِ مَفْخَرَةٌ وَكَذَا نِوَاؤُهُمْ^١ مِنْ الْفَخْرِ
 وَصَدَاقَةُ اللُّرَمَاءِ مُعَقِّبَةٌ لَوْ مَا كَمِثْلُ حِكَاكَ ذِي الْغُرِّ
 وَالسَّاقِطُ الْوَانِي ، مُشَاتِرُهُ كَالْبَانِعِ الْعَقِيَانِ بِالصُّفْرِ
 وَالْحِظُّ وَالْمَقْدَارُ مَا حُصِرَا فِي ذِي الذِّكَا يَبِيتُ يَسْتَمْرِي
 بَلْ مِثْلُ مَنَحَةٍ أَزَلَّتْ نَشَأَتْ يَدَيُّ مَدْبَرَهَا عَلَى قَدْرِ
 وَإِذَا نَظَرْتَ وَجَدْتَ فِي قَرْنٍ غَمْرُ الْغِنَى وَجَهَالَةُ الْغُمْرِ
 وَتَرَى اللَّيْبَ يَبِيتُ فِي ضَفَفٍ^٢ يَهْمُومُهُ مُتَقَسِّمُ الْفِكْرِ
 لِيَكُونَ فَضْلُ حِجَابِ الْفَتَى عَوَضًا عَنِ فَضْلِ مَالِ الْأَنْوَكِ الْكَثْرِ
 وَتَكُونُ أَجْكَامُ الْإِلَهِ جَرَتْ فِي الْخَلْقِ عَنْ غَلَبِ وَعَنْ قَسْرِ
 وَالْمَرْءُ مَمْدُودٌ لَهُ أَجَلٌ قَشْحُ مَدَاهُ نَصَائِبِ الْغُبْرِ^٣
 فَأَعِدَّ لِلْيَوْمِ الَّذِي خَضَعْتَ فِيهِ الطُّلَا لِرَوَاجِبِ الذُّعْرِ
 وَتَحَوَّلَتْ فِيهِ الذِّينُ هُمْ قُنُنُ الذُّرَى شَمَمًا إِلَى الذَّرِّ

١ - أي عداوتهم .

٢ - الضفف قلة المال مع كثرة العيال .

٣ - جمع أغبار وهي بقايا الشيء .

٤ - الطلا الأعناق .

وتدوسهم أقدام طائفة
وازمهم ركابك للرحيل غداً
وتسل عن ليلى فقد أرفت
واعلم بأن الوجه ذو شحط
فتزودن وخير زادك من
واذا ارتحلت فلا تشد ويسر
وحذار رحلك يقتفي سبلاً^١
وارع البطاح اذا مرعن ولا
واذا ظمئت ففي الاصيل فرد
واذا رأيت سفينة خروبت^٢
واذا تكون نزيل ذي كرم
لا يعدم العافي نداءه ولا
فأرح فوادك أن يكون به
وحذار أن يلقاك مرتجياً
وكن الخليل وأنت ضائفه

كانت لديهم موقع السخر
إن الخليل غدوا على ظهر
عنها النوى ومضاضة الهجر
ومخاوف ومجاهل غير
تقوى المهين سامع الأمر
وسط الخليل ومغظم السفر
عن نهجهم فيفضل في القفر
تترقين بحالقي وعمر
فرداً عن الضوضاء والكدر
فتأن لا تعجل الى التكر^٣
رحب الدرى متفضل غير
يعتل عن ذهل رعن فقر
ثم إلى زاد على ذكر
ما يجتنيه سواه من خبر
عار النزيل على الذي يتري

١ - أي القصد والنية في السفر والمقصود سفر الآخرة .

٢ - أي يتبع بينات الطريق ويترك النهج القويم ، والمضى مقتبس من قوله تعالى : « وإن هذا صراطي مستقيماً ، الآية » .

٣ - تلميح الى قصة موسى مع الخضر في خرق السفينة .

والعلامة المرغيشي :

مَنْ لَمْ يَكُنْ يَرْضَى بِمَا قَدْ قَسِمَ فَهُوَ ظَلُومٌ ظَنَّ أَنْ قَدْ ظَلِمَ
يَسْخَطُ حَيْثُ السُّخْطُ لَا يَقْتَضِي نَفْعاً وَلَكِنْ ضُرُّهُ قَدْ عُلِمَ

ولأبي عبدالله الحمسي المتوفى بدمشق ١١٥٨ .

خُبِزُ شَعِيرٍ وَمَاءٌ بِسِيرٍ يَكُونُ قُوِّيَ مَعَ السَّلَامَةِ
أَفْضَلُ عِنْدِي مِنْ خَفْضِ عَيْشٍ تَكُونُ عَقْبَاهُ لِلنَّدَامَةِ
ولأبي عبدالله الشرقي :

كُلُّ أَمْرٍ يَصْبُو إِلَى مِثْلِهِ وَظَائِرٌ يَأْوِي إِلَى شَكْلِهِ
مَنْ لَا يَكُونُ الْخَيْرُ فِي فَرْعِهِ فَكَيْفَ كَانَ الْخَيْرُ فِي أَصْلِهِ
مَنْ أَجْمَعَ النَّاسُ عَلَى لَوْمِهِ خَابَ الَّذِي يَطْمَعُ فِي فَضْلِهِ
مَنْ جَارَ فِي الْحُكْمِ بِلا قُدْرَةٍ لَمْ تَأْتِهِ الْقُدْرَةُ فِي عَبْدِهِ
وَمَنْ أَشَانَ النَّاسَ ظُلْماً لَهُمْ دَلَّتْهُ دُيَاهُ عَلَى ذُلِّهِ

وله في شكوى الزمان وغدر الاخوان :

بِوَمَا فِي الدَّهْرِ غَيْرُ آخِرِ خَوْثُونَ لَوَرَدَ الظُّلْمُ يُسْرِعُ كَالظَّلِيمِ^١

وَلَمْ أَرْ مُنْصِيفًا إِلَّا قَلِيلًا بِصِدْقِ الْوَدِّ وَالْقَلْبِ السَّلِيمِ
وَلَمْ أَتُكْرِمْ مِنَ الْإَيَّامِ عَيْبًا سِوَى رَفْعِ اللَّثِيمِ عَلَى الْكَرِيمِ
وَلَا بِي حِفْصِ الْفَاسِي مِنْ قَصِيدَةٍ عَلَى مَنَوَالِ لَامِيَةِ الْعَجَمِ؛

لَا تَعْتَبِنَّ عَلَى دَهْرٍ تُسَاءُ بِهِ فَمَا عَلَى الدَّهْرِ مِنْ عَثَبٍ وَمِنْ عَذَلٍ
وَأَسْتَغْنِ بِاللَّهِ لَا يُغْنِيكَ مَا جَمَعْتَ أَيْدِي الْأَنَامِ وَغَيْرَ اللَّهِ لَا تَسْلُ
وَكَيْفَ تَسْأَلُ عَبْدًا لَا غَنَاءَ لَهُ أَمْ كَيْفَ تَسْأَلُ ذَا فَقْرٍ وَذَا بَخْلٍ

مَا اعْتَصَمْتَ عَنْ بَذْلِ مَاءِ الْوَجْهِ مِنْ عِيَاضٍ

يَوْمًا وَلَوْ نَلْتَ مَا تَرْجُوهُ مِنْ أَفْئِلٍ
وَالْمَالُ يُبْذَلُ فِي الْأَعْرَاضِ تَالِثُهُ قَلَّا تَنَلُهُ بَعْرُضٍ فِيهِ مُبْتَدَلُ
وَالْمَاجِدُ الْفَخْمُ لَا يَنْفَكُ مُعْتَقِلًا رُمَحَ الْإِبَابَةِ مِنْ سُوءٍ وَمِنْ خَطَلُ
يَحْمِي الدَّمَارَ وَيُصْمِي مِنْ يُحَارِبُهُ وَيَسْتَقِيلُ فَلَا يَلْوِي عَلَى رَجُلُ
وَلَيْسَ يُلْقَى عَلَى الْإِثْرَاءِ ذَا بَطَرٍ وَلَا مِنْ الْفَضْلِ فِي الْإِفْلَاسِ ذَا عَطَلُ
تَأْتِي لَهُ الْهَمَّةُ الشَّيْءُ مُجْجَمَةٌ عَنْ مَوْقِفِ الذَّاءِ إِنْ يَرْتَعَى مَعَ الْهَمَلُ
وَيَسْمَخِرُ بِأَنْفِ الْعِزِّ مَنْقَبُضًا عَنْ رُتْبَةِ نَالِهَا الْأَوْغَادِ بِالْحِلَلُ
وَمُورِثُ الْعِزِّ رَبُّ الْعِزِّ أَجْمَعِهِ فَالْعِزُّ بِاللَّهِ لَا بِالْمَالِ وَالْخَوَلُ
وَالْإِنْسُ بِاللَّهِ لَا بِالنَّاسِ قَاطِبَةٌ وَالنَّصْرُ بِاللَّهِ لَا بِالْبَيْضِ وَالْأَسَلُ
وَالْحَرْ يُسْتَفُّ تُرْبُ الْأَرْضِ مُحْتَمِلًا وَلَيْسَ لِلْمَنْ مِنْ كَعْبٍ بِمُحْتَمِلُ

ويهجر المنهل العذب البرود اذا
 ملك القناعة لا تنفك امرته
 فتم به غير مزوود^٢ ولا وجل
 وان سيئت أو استوخمت منزله
 فالسلسل العذب في الانهار مطرد
 وحض لنيل العلا بجر المكاره لا
 وان ظفرت بغمر العيش في دعه

فاذكرك رقيقك إذ أصبحت ذا وثل^٣
 ما أيسر المرء والاتباع معيرة
 ولن ترى لعريق الجعد من سمة
 ماضر بدر الدجى في الافق تنبؤه
 واصبر على مضض الحساد متيذاً
 أما يسرك أن القوم قد ضعفت
 يا ويحكم كلما زاد الفتى شرفاً
 ولا اعتلى قدره والأهل في نهل
 كشيمة الحلم والإغضاء والرسل^٤
 سود الكلاب وقد أسرى على مهل
 فالصبر يريك ما لولاه لم تنل
 صدورهم أعظم الأدواء والعلل
 زادوا به أسفاً يدني من الاجل

١ - عن تعب وعطش .

٢ - مذعور .

٣ - مال .

٤ - عطش .

٥ - السهولة واللين .

أُولَى لَهُمْ سَخَطُوا صُنَعَ الْحَكِيمِ فَمَا
وَلِلْأَعَادِي أَيْادٍ جَلَّ مَوْقِعُهَا
وَكَمْ تَجَشَّمْتُ طُرُقَ الْجَدِّ مُعْتَجِزًا
وَكَمْ لَبِثْتُ دُرُوعَ الْحَزْمِ مُمْتَطِيًا
وَكَمْ تَسَنَّمْتُ أَعْلَى دِرْوَةِ فُغَدَتِ
فَقُلْ لِمَنْ لَاحَظَ الْعِلْيَاءَ نَظَرُهُ
أَبَالَتِ كَاسِلُ تَبَغْيِي نَيْلَ مَأْثَرَةٍ
عَنْ سَاقِ جِدِّكَ شَمْرُ ذَيْلِ مُحْتَزِمٍ
وَقُلْ لِمَنْ يَبْتَغِي صَفْوًا بَلَا كَدَرٍ
وَدُونَ شُهِدِ الْمُنَى مِنْ تَحْلِهِ إِبْرُ
وَسَامِحِ الْخَلِّ إِنْ زَلَّتْ بِهِ قَدَمُ
وَإِنْ تَضَعُضِعَ رَكْنُ الْوُدِّ مِنْهُ فَلَا
فَاشْدُدْ قُوَاهُ وَحَازِرْ أَنْ تُعَنِّفَهُ
أَيَّ فَالْسِينَةِ التَّجْرِبِ قَائِلَةٌ
وَإِنَّمَا الْخَلُّ مِنْ يُوَلِّيكِ نَائِلَةٌ

أُولَاهُمْ بِعَظِيمِ الْخِزْيِ وَالْفَشَلِ
عِنْدِي فَكَمْ جَنَّبُونِي مَوْقِعَ الزَّلَلِ
ثَوْبَ الصِّيَانَةِ عَنْ عَجْزٍ وَعَنْ كَسَلِ
سَوَابِقِ الْعَزْمِ لَمْ أُنْكَلْ وَلَمْ أَهْلِ
مَنَازِلِي بِهِمْ تُرْبِي عَلَى زُحَلِ
فَصَارَ يَنْهَضُ نَهْضَ الشَّارِبِ الشَّمْلِ
هِيَاتَ كَمْ بَيْنَ ذِي عِزٍّ وَذِي وَهْلِ
ذِي قُوَّةٍ غَيْرِ هَيَّابٍ وَلَا وَكَلِ
لَا بُدَّ فِي الْعَيْثِ مَنْ صَابَ وَمَنْ عَسَلَ
فَاصْبِرْ لَهَا إِنْ أَرَدْتَ الْفَوْزَ بِالنَّحْلِ
فَلَسْتَ تُبْصِرُ خِلَا غَيْرِ ذِي زَلَلِ
تَعْجَلْ وَقَدْ خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلِ
فَرُبَّ نَفْسٍ أَمْرِيءٍ تَغْتَاطُ بِالْعَذَلِ
تَوَهُمُ الْخَلِّ فِي الدُّنْيَا مِنَ الْخَلَلِ
دَابًّا وَيُنْجِدُ عِنْدَ الْخَادِثِ الْجَلَلِ

وَيَكْتُمُ السِّرَّ إِنْ افْشَاهُ ذُو سَفَهٍ
وَيَحْفَظُ الْوَدَّ فِي سِرٍّ وَفِي عَلَنٍ
وَيَصْحَبُ الصَّدَقَ فِي جَدٍّ وَفِي هَزَلٍ
فَمُبَرَّمٌ الْعَهْدَ مِنْهُ غَيْرُ مُنْفَصِمٍ
وَآيَةُ الصَّدَقِ فِي دَعْوَاهُ بَيِّنَةٌ
فَرُضَ عَلَى الْيَأْسِ مِنْهُ نَفْسٌ ذِي كَرَمٍ
فَإِنَّهَا عَقَبَاتُ الْمَجْدِ يُوشِكُ أَنْ
وَدُونَكَ الْعِلْمَ لَا تَبْغِي بِهِ بَدَلًا
فَالْعِلْمُ نُورٌ مُبِينٌ يُسْتَضَاءُ بِهِ
فَأَمَلًا جِرَابَكَ مِنْهُ غَيْرَ مُكَتَرَبٍ
وَرَوْضَ النَّفْسِ وَاسْتَكْمِلَ فَضَائِلَهَا

تَجَنَّبِي ثَمَارَ الْمُنَى مِنْ رَوْضِهَا الْخَضِيلِ
وَتَجَنَّبِي أَنْجَمًا زُهْرًا وَآوِيَّةً
تِلْكَ السَّعَادَةُ لَا تَجَاهُ وَمَيْسَرَةٌ
فَالْمَرْءُ بِالنَّفْسِ لَا بِالْجِسْمِ مُرْتَفِعٌ
وَالنَّفْسُ أَنْفَسُ مَا يُعْنَى اللَّيْبُ بِهِ
وَالْجَأُ إِلَى اللَّهِ فِي أَمْرِ يُحَاوَلُهُ
بُدُورَ تَمِّ وَأُخْرَى الشَّمْسِ لَمْ تَزَلْ
وَلَا التَّرَفُّهُ وَالْإِرْفَاهُ فِي الْحَلَلِ
وَالنَّسِيفُ بِالنَّصْلِ لَا بِالْغَمْدِ وَالْحِلَالِ
فَارَبَّأُ بِنَفْسِكَ أَنْ تُعْنَى بِمُنْسَقِلِ
وَإِبْرَأُ إِلَى اللَّهِ مِنْ حَوْلٍ وَمِنْ حِيلِ

وَكِلْ إِلَى اللَّهِ كُلَّ الْأَمْرِ وَأَغْنِ بِهِ عَمَّنْ سِوَاهُ فَإِنَّ اللَّهَ خَيْرُ وَلِيٍّ
وَلابن الوَثَّانِ من قصيدته الشَّمْعَمَقِيَّةِ التي مدَح فيها السُّلْطَانَ مُحَمَّدَ بْنَ
عَبْدِ اللَّهِ وَقَدْ أَلْغَيْنَا هَذِهِ الصِّفَةَ الْعَرَضِيَّةَ وَاعْتَبَرْنَاهَا كَمَا هِيَ قَصِيدَةٌ أَدَبِيَّةٌ
وَلَمْ نَطَوِّلْ بِشَرْحِ غَرِيبِهَا وَتَفْسِيرِ إِشَارَاتِهَا إِلَّا مَا خَفَّ اعْتِمَادًا عَلَى قُرْبِ
ذَلِكَ مِنْ مُتَنَاوَلِ الْقَارِئِ بِسَبَبِ الرَّجُوعِ إِلَى شُرُوحِهَا الْعَدِيدَةِ * :

مَهْلًا عَلَى رِسْلِكَ حَادِي الْأَيْتُقِ	رَلَا تُكَلِّفَهَا بِمَا لَمْ تُطِيقْ
فَطَالَمَا كَلَّفَتَهَا وَشَقَّتَهَا	سَوْقَ فَتَى مِنْ حَالِهَا لَمْ يُشْفِقْ
وَلَمْ تَزَلْ تَرْمِي بِهَا يَدُ النُّوَى	بِكُلِّ فَجٍّ وَفَلَاةٍ تَمْلُقْ
وَمَا أَتَلْتَ تَذَرَعُ كُلَّ فُذْفُذٍ	أَذْرَعَهَا وَكُلَّ قَاعٍ قَرِقْ
وَكُلَّ أَبْطَحَ وَأَجْرَعَ وَجَزَعَ	وَصَرِيْمَةً وَكُلَّ أَثَرِقْ
بِجَاهِلٍ تَحَارُّ فَيَهِنُ الْقَطَا	لَا دِمْنَةً لَا رَسْمٌ دَارٍ قَدْ بَنِي
وَلَمْ تَزَلْ تَقْطَعُ جِلْبَابَ الدُّجَى	بِحِلْمِ الْيَدِ ١ وَسَيْفِ الْعُنُقِ
فَمَا اسْتَرَأَتْ مِنْ عُبُورِ جَعْفَرٍ ٢	وَمِنْ صُعُودِ بَصْعِيدِ زَلَقِ
إِلَّا وَفِي خَضْخَضٍ دُمِعَ عَيْنُهَا	خَاضَتْ وَغَابَتْ بِسَرَابٍ مُطِيقِ

* - ولنا عليها شرح مختصر طبع مراراً .

١ - أي بأيديها الشبيهة بالجلم وهو المقرض .

٢ - أي نهر .

كأنها رُقْرُقاه بحرٌ طمى والنوقُ أمواجٌ عليه ترتقي
 وكلُّ هودَجٍ على أفتابها مثلُ سفينٍ ماخِرٍ أو زورق
 مرّت بها هوجُ الرياحِ فهيَ في تفرّقُ حيناً وحيناً تلتقي
 وكم بسوطِ البغي سُقتَ سُوقها سوقَ المعنّبِ الذي لم يتق
 حتى غدتُ خوصاً عجافاً ضمراً أعناقها تشكو طويلَ العنق^١
 مرثومةً الأيدي شكتَ فرطَ الوجا لكنها تشكو لغير مُشفق
 من بعد ما كانت هنيئةً غدتُ أكثرَ من ذودٍ وذوونَ شنق^٢
 وإن تماديتَ على إتعابها ولم تكن متعباً عن رهق
 فسوف تعرّوكِ على إتلافها ندامةً العُكبيّ والفرزدق
 وكنتَ قد عوّضتَ عن أخفافها خفيّ حنينٍ ظافراً بالآنق
 لأنّك أظلمُ من ابنِ ظالمٍ إن كنتَ من بعدُ بها لم ترفق
 رفقاً بها قد بلغَ السيلُ الزبى واتّسعَ الخرقُ على المرتق
 وهبُ لأيديهنَّ أيداً ولها متناً متيناً ما خلا عن مصدق
 فما لظعنٍ حملتُ من مرةٍ بظعنٍ أودى بها في الغسق^٣

١ - العنق نوع من السير فسيح .

٢ - الهنيئة مائة من الابل والدود ما بين ثلاث وعشر، والشنق ما بين عشر الى عشرين .

٣ - الظعن جمع ظعينة وهي المرأة الطاعنة والظعن بالفتح السفر .

اسأتَ للغيد وللنوق ولي إساءةً بَسْوَبةً لم تُمَحَقْ
 لو لم يكن بحبٍ حِلْمٌ أَحْنَفِ والمِنْقَرِي قَلْبِي ذا تَعَلَّقْ
 حملتُ رأسك على شبا القنا مُروِّعاً به حُداةَ الأَيْتِقْ
 فسُقِ فلا نَعِمَ عَوْفُكَ ولا أَمِنَ خَوْفُكَ ولا تَدْرُفُفِقْ
 ودَعِ يسوقُ بعضُها بعضاً فقد دنا وُلُوجُها بوغَرِ ضَيِّقْ
 ولتَسْخِذْنِي رائداً فاني ذو خِبرةٍ بِمُبْهَمَاتِ الطُّرُقْ
 إِنْ غَرِثْتُ عَافَتْهَا ولو يا جَمَعْتُهُ مِنْ ذَهَبٍ وَوَرِقْ
 أو صَدِيتُ أوردتها من أدمعي نَهَرَ الأَبْلَقُ وَنَهَرَ جِلْقْ

رِفْقاً بها شَفِيعُها هَوادِجُ غدت سماءُ كُلِّ بَدْرٍ مُشْرِقْ
 من كل غِيْداءٍ عَرُوبٌ بَصَّةٌ رُغْبُوبَةٌ عَيْطَاءُ ذَاتِ رَوْنِقْ
 خَرِيدَةٌ مَمْسُودَةٌ رُقْرَاقَةٌ وَهْنَانَةٌ بَهْنَانَةٌ الْمُعْتَنِقْ
 وَقُلْ لِرَبَّاتِ الهَوادِجِ أَنْجَلِينَ آمِنَاتٍ فَسَزَعٍ وَفَرَقْ
 فَإِنِّي أَشْجَعُ مِنْ رَبِيعَةٍ حَامِي الطَّعِينَةِ لَدَى وَقْتِ اللَّقْيِ
 فَرِيًّا يَبْدُو إِذَا بَرَزَتْ لِي رِيمٌ إِلَيْهِ طَارَ بِي تَشَوُّقِي
 لُبْنَى وَمَا أُدْرَاكَ مَا لُبْنَى بِهَا عُرِفْتُ صَبًّا مُغْرَمًا ذَا قَلْقْ

تسبي بشعر أشنب ومرشف
قد ارتوى من قرقف معتق
وناعم مهيك كل وفاحم
مرجل وحاجب مرقق
وعقب محجل ومغصم
مسور وعنق مطوق
ومقلة ترمي بقوس حاجب
لاحظا بسهمها المفوق
تمنح مس جسمها لشوبها
ثلاثة مثل الأثافي في الرقي
حقان من عاج وقعب فضة
من ظاهر وباطن كالشفق
وزاد يسك الخال ورد خدها
حسنأ وقد عم بطيب عيق
وقبلت أقدامها دوايب
سود كقلب العاشق المحترق
كم أودعت في مقلي من سهر
ولا يزال في رياض حسنها
ولا تسل عما أثبت من جوى
وأضربت في مهجتي من حرق
يوم اشتكى كل بما في قلبه
يسرح فكري ويجول رمقي
ما عذر من شكوا الجوى لمن جفا
وما ترى من دموع حدقي
آه على ذكر ليال سلفت
لحبه بطرفه بما لقي
في معهد كنا به كنخلتي
وهو لدمع عينه لم يرق
لي معها كالبارق الموثلق
حلوان آ في وصل بلا تفرق

١ - المعهد المكان لا يزال القوم يتعاهدونه .

٢ - هما نخلتان كانتا بقرب مدينة حلوان يضرب بهما المثل في طول الصلبة .

نَلْنَا بِهِ مَا نَشْتَهِي مِنْ لَذَّةٍ وَدَعَا فِي ظِلِّ عَيْشٍ دَغْفَقَ
 اِزْمَانٌ كَانَ السَّعْدُ لِي مُسَاعِدَا وَمُقَلَّةٌ الرَّقِيبُ ذَاتُ بَخَقٍ^١
 وَالْيَوْمَ قَدْ صَارَ سَلَامٌ عَزَّةً يُقْنِصُ مِنْ لُبْنَى إِذَا لَمْ نَلْتَقِ

وَاللَّهِ لَوْ حَلَّتْ دِيَارُ قَوْمِهَا وَاحْتَجَبَتْ عَنِي يَابُ مُغَلَّقِ
 لَزُرْتُمَا وَاللَّيْلُ جَوْنٌ حَالِكٌ وَجَفْنُهَا لَمْ يَكْتَحِلْ بَأَرْقِ
 مَعَ ثَلَاثَةِ تَقِي صَاحِبِهَا مَا لَمْ تَكُنْ نُونُ الْوَقَايَةِ تَقِي
 سَيْفٌ كَصِمَامَةٍ عَمُرُو بَاتِرٌ لَا يُتَّقَى يَيْلَسُ وَدَرَقِ
 وَبَيْنَ جَنْبَيَّ فَوَاذُ ابْنِ أَبِي صُفْرَةٍ قَارِطِعَ قَرَأَ ابْنُ الْأَزْرَقِ
 وَفَرَسٌ كَدَاحِسٍ أَوْ لِاحِقِ يَوْمَ الرَّهَانِ شَاوَهُ لَمْ يُلْحَقِ
 تَقْدِيرُ نِيرَانِ الْحُبَابِ هَرَا فَرُّهُ عِنْدَ خَبَبٍ وَطَلَقِ
 كَالرِّيحِ فِي مُهْوِيهِ وَالسَّمْعِ^٢ فِي وَثُوبِهِ وَكَأَلَمِهَا فِي فَشَقِ^٣
 بِهِ أَجُوسُ فِي خِلَالِ دَارِهَا وَأَنْشَى كَالْبَارِقِ الْمُؤْتَلِقِ
 فَإِنْ تَكُ الزَّبَا دَخَلْتُ قَصْرَهَا وَكَقْصِيرٍ سُقْتُهَا لِلتَّفَقِ

١ - أي عور .

٢ - هو ولد الذئب مع الضبع .

٣ - أي نشاط ومرح .

وَمَنْ حَمَاهَا كَكُلَيْبٍ فَلَهُ جَسَّاسُ رُمَحٍ رَايِدٌ بِالطَّرْقِ
 لَا بَدَّ لِي مِنْهَا وَإِنْ تَحَصَّنْتُ بِالْأَبْلَقِ الْفَرْدِ وَبِالْحَوَرِ نَقِ
 لَا بَدَّ لِي مِنْهَا وَإِنْ عَثَرْتُ فِي ذَيْلِ الْحُسَامِ وَالسَّنَانِ الْأَزْرَقِ
 فَإِنْ ظَفِرْتُ بِالْمُنَى مِنْ وَصْلِهَا بَالَعْتُ فِي صِيَانَةِ الْعِرْضِ النَّقِيِّ
 وَإِنْ بَقِيتُ مِثْلَ مَا كُنْتُ فَلَا زِلْتُ بَغِيضَ مَضْجَعِي وَتُحْرَقِي
 أَشْنُ كُلِّ غَارَةٍ شَعْوَا عَلَى مَنْ يَحْمِيهَا فِي مِقْنَبٍ أَوْ قَيْلَقِ
 وَفِي خَيْسٍ مِنْ خِيَارٍ يَغْرُبُ ذَوِي رِمَاحٍ وَخِيُولٍ سُبُقِ
 مِنْ أُسْرَتِي بَنِي مُلُوكٍ فَهَمْ أَطْوَعُ لِي مِنْ سَاعِدِي وَمَرْفَقِي
 يَسِلُ ابْنُ خَلْدُونَ عَلَيْنَا فَلَنَا يَمْنُ مَاثِرٌ لَمْ تُمَحِّقْ
 وَبَلَ سُلَيْمَانَ الْكَوَلَا عِيَا كَمْ لَنَا مِنْ خَيْرٍ بِخَيْرٍ وَخَنْدَقِ
 وَيَوْمَ بَدْرٍ وَجُنَيْنٍ وَتَبُو لِكَ وَالسَّبْيِيقِ وَبَنِي الْمُصْطَلِقِ
 بِهِمْ فَخَرْتُ ثُمَّ رَادَ مَفْخَرِي بِأَدَبِي الْغَضِّ وَحُسْنِ مَنْطَقِي
 وَزَانَ عِلْمِي أَدَبِي فَلَنْ تَرَى مَن شَعْرُهُ كَشِعْرِي الْمُتَمَّقِ
 فَإِنْ مَدَحْتُ فَمَدِيحِي يُشْتَفَى بِهِ كَيْثِلُ الْعَسَلِ الْمُرَوَّقِ
 رَانَ هَجَوْتُ فِهْجَائِي كَالشَّجِي يَقِفُ فِي الْحَلْقِ وَمِثْلُ الشَّرْقِ
 فَبَشَّرَنُ ذَاكَ الْجَسُودَ أَنَّهُ يَظْفَرُ فِي بَحْرِ الْهَجَا بِالْغَرَقِ

وَقُلْ لَهُ إِذَا اشْتَكَى مِنْ دَسٍّ أَنْتَ الَّذِي سَلَكْتَ نَهْجَ الزَّلَقِ
 وَفَقْتَ فِي الْجُرْأَةِ خَاصِي أَسَدٍ فَمَتَّ بِغَيْظِكَ وَبِالرِّيقِ أَشْرَقِ
 وَمَا الَّذِي دَعَاكَ يَا خَبُّ إِلَى ذَا الْأَفْعُوَانِ ذِي اللِّسَانِ الْفَرَقِ^١
 نَطَقْتَ بِالْبُزُورِ أَمَا كُنْتَ تَعِي أَنْ الْبَلَا مُوَكَّلٌ بِالْمَنْطِقِ
 وَلَمْ تَخَفْ مِنْ شَاعِرٍ مِثْلِهَا أَنْتَضَى سَيْفَ الْهَجَا فَرَى حِبَالَ الْعَنْقِ
 فَلْتَقِ نَفْسَكَ بِكَفِّكَ وَلَا تَسْمُ فَصِيحَ النُّطْقِ بِالتَّمَشُّدِ
 فَذَاكَ خَيْرٌ لَكَ وَاسْتَمِعْ إِلَى نُصْحِ الْحَكِيمِ الْمَاهِرِ الْمَدْقِ
 فَكُنْ مُهَذَّبَ الطَّبَاعِ حَافِظًا لِحُكْمِ وَأَدَبِ مُفْتَرِقِ
 وَعَاشِرِ النَّاسِ يَخْلُقُ حَسَنًا تُحَمَّدُ عَلَيْهِ زَمَنَ التَّفْرِقِ
 وَلَا تُصَاحِبْ مَنْ يَرَى لِنَفْسِهِ فَضْلًا بَلَا فَمِيلَ وَغَيْرَ الْمُتَّقِي
 وَكُلُّ مَنْ لَيْسَ لَهُ عَلَيْكَ مِنْ فَضْلٍ فَلَا تُطِيعُهُ بِالتَّمْلُقِ
 وَفَوْقَنْ سَهْمَ النُّمَيْرِيِّ لِقَنْ لَطَرَقَ الْعُلَامِ لَمْ يُوقِقِ
 وَافْعَلْ بِمَنْ تَرْتَابُ مِنْهُ مِثْلَ رَفْعِ لِ الْمُتَلَمَّسِ اللَّيِّبِ الْحَذِيقِ
 الْقَى الصَّحِيفَةَ بِنَهْرٍ حَيْرَةٍ^٢ وَقَالَ يَا بَنَ هَنْدٍ أَرْعَدِ وَأُبْرِقِ
 وَلَا تَعِدْ بِوَعْدِ عُرْقُوبٍ أَخَا وَفَةٍ وَفَاءِ سَمَوَالٍ^٣ بِالْأَبْلَقِ

١ - أي الم فروق والفرق في لسان الحيات معروف .

٢ - الحيرة بآل واسقطها الشاعر ضرورة ، مدينة .

٣ - السموأل بآل واسقطها الشاعر ضرورة ايضاً .

شَحَّ بِاذْرُعِ امْرِئِ الْقَيْسِ وَقَدْ تَرَكَ نَجْلَهُ غَسِيلَ الْعَلَقِ
 وَمِثْلَ تَجَارٍ لَا بِي دُوَادَ لَا تَطْمَعُ بِهِ إِنْ لَمْ تَكُنْ بِالْأَحَقِ
 وَاتَّخَذَ جَلِيساً لَا تَخَافُ شَرَهُ وَكَابَنَ شَوْرٍ لَنْ تَرَى مِنْ مُطْرِقِ
 وَنَمْ كَنُومَ الْفَهْدِ أَوْ عَبُودَ عَنْ عَيْبِ الْوَرَى وَالظَّنَّ لَا تُحَقِّقِ
 وَلَيْتَكَ ابْصَرَ مِنَ الْهَذْهِدِ وَالزَّرِّ قَا بَعِيبِ نَفْسِكَ الْمُحَقِّقِ
 وَكُنْ كَمِثْلٍ وَاسْطِيْ غَفْلَةً عَنْ شَتْمِ ضَارِعٍ وَعُتْبِ سُقُقٍ^١
 وَاعْدُ عَلَى رِجْلَيْ سُلَيْكَ هَارِباً مِنْ قُرْبِ كُلِّ خُنْبُقٍ وَسَهْوَقٍ^٢
 وَكُنْ نَدِيمَ الْفَرَقْدَيْنِ تَنْجُ مِنْ مُنْقَصٍ وَمِنْ طُرُوقِ الرَنْقِ
 وَكُنْ كَعَقْرَبٍ وَضَبٍّ مَعَ مَنْ عَلَيْكَ قَلْبُهُ امْتِثَلًا بِالْحَقِّ
 تُثَبِّتَ لَا تَعْجَلْ وَكُنْ أَبْطَأَ مِنْ غُرَابِ نُوحٍ أَوْ كَفِنْدِ الْمَوْسِقِيِّ
 مَضَى لِنَارِ طَالِباً بَعْدَ عَامٍ جَاءَ بِهَيْسَبٍ فَرَطَ الْقَلْقِ
 وَخُذْ بَشَارِكَ وَكُنْ كَمَنْ أَتَى بِالْجَيْشِ خَلْفَ شَجَرٍ ذِي وَرَقِ
 وَانْتَمِزِ الْفُرْصَةَ مِثْلَ بَيْهَسٍ وَبِالْمَدَى لَحْمَ الْعِدَاةِ شَوْقِ
 وَكَابَنِ قَيْسٍ بِهِمْ كُنْ مُوَلِّاً وَلَيْمَةً شَهِيرَةً كَالْقَانَقِ

١ - الضارع الذليل والسقق المغتاب .

٢ - الخنبيق البخيل والسهوق الكذاب .

يوم مِلاكِهِ بِأُمِّ فَرَوَةٍ عَرَقَبَ كُلَّ ذَاتِ أَرْبَعٍ لَقِي
 وَلَا تَدْعُ وَإِنْ قَدَرْتَ حِيلَةَ فِيهِ أَجَلُ عَسْكَرٍ مُدْهِدٍ
 إِنْ كَانَ فِي سَفْكَ دَمِ الْعِدَا الشِّفَا سَفَكَ دَمَ الْبَرِيِّ غَيْرُ أَلِيقٍ
 وَلَا تُحَارِبُ سَاقِطَ الْقَدْرِ فَكَمْ مِنْ شَاهِدَةٍ قَدْ غُلِبَتْ بِبَيْذَقٍ
 وَكَمْ حُبَارَى أَمَّهَا صَقْرٌ فَلَمْ يَظْفِرْ بِغَيْرِ حَتْفِهِ بِالذَّرَقِ
 وَكَمْ عَيُونٍ لِأَسْوَدٍ دَمِيَتْ بِالْعَضِّ مِنْ بُعُوضِهَا الْمَلْتَصِقِ
 وَالْخُلْدُ قَدْ مَزَّقَ أَقْوَامَ سَبَا وَهَدَّ سُدَّاءَ مُحْكَمِ التَّائِقِ
 وَلَا تُنْقِصُ أَحَدًا فَكُلُّنَا مِنْ رَجُلٍ وَأَصْلُنَا مِنْ عِلْقٍ
 لَا تُلْزِمِ الْمَرْءَ عَيُوبَ أَصْلِهِ فَالْمَسْكُ أَصْلُهُ دَمٌ فِي الْعُنُقِ
 وَالْحَمْرُ مِمَّا طَهَّرَتْ فِيهَا وَبَيْنَ أَصْلِهَا بِحُكْمِ فَرْقٍ
 وَلَا تُؤَيِّسُ طَامِعًا فِي رَتَبَةٍ لِمِثْلِهَا نَظِيرُهُ لَمْ يَلْحَقْ
 فَالزَّرْدُ يَوْمَ الْغَارِ لَمْ يَثْبُتْ لَهُ فَضْلُهُ وَكَانَ الْفَضْلُ لِلْخَدْرَنْقِ ١
 وَقَوْسُ حَاجِبٍ بَرَهْنِهَا لَدَى كَسْرِي أَطْمَأَنَّ قَلْبُهُ مِمَّا لَقِي
 لَا تَغْشَى دَارَ الظُّلْمِ وَاعْلَمْ أَنَّهَا أَخْرَبُ مِنْ جَوْفِ حِمَارٍ خَلَقَ
 وَلَا تَبِعْ عِرْضَكَ بَيْعَةَ أَبِي غُبْشَانَ يَبِعُ الْعَبْنَ وَالتَّبْلُصُقَ ٢

١ - اي العنكبوب .

٢ - اي الخديعة .

باع السّدانة قُصيًا آخذاً عَوْضاً نَحِيّاً مِنْ أُمِّ زُنَيْقٍ^١
 وَلَا تَكُنْ كَأَشْعَبٍ فَرَبِماً تَلْحَقُ يَوْمًا وَافِدَ الْمُحَرَّقِ
 وَلَا تَكُنْ كَوَاوِ عَمْرُو زَائِداً فِي الْقَوْمِ أَوْ كَمِثْلِ نُونٍ مُلْحَقِ
 لَا تَرْجُونَ صَفْوَاً بَغَيْرِ كَدَرٍ فَذَا لَعَمْرُ اللَّهِ لَمْ يَتَّفِقِ
 لَا تَكْتُمِ الْحَقَّ وَقُلْهُ مُعَلِناً فَهُوَ جَمَالُ صَوْتِكَ الصَّهْصَلِيقِ
 وَصَحْ بِهِ شِبْهَ شَيْبٍ وَأَبِي عُرْوَةَ وَالْعَبَّاسِ عِنْدَ الزَّعَقِ
 لَا تَأْمَنِ الدَّهْرَ فَإِنْ خَطَبَهُ أَرَشَقُ نَبْلاً مِنْ رُمَاءِ الْحَدَقِ
 لَا تَنْسَ مِنْ دُنْيَاكَ حَظًّا وَالِي كَالطَّلَقَانِي^٢ وَالْخَصِيبِ انْطَلِقِ
 وَاعْضُلْ كَهْمًا بَنَاتِ فِكْرَةٍ صَنَّا بِهَا عَنْ غَيْرِ فَحْلِ مُغْرِقِ
 كِي لَا تَقُولَ بِلِسَانِ حَالِهَا مَقَالَ هِنْدٍ أَلْقَى مَنْ لَمْ يَلِيقِ
 وَسَلْ مُهُورَ كِنْدَةٍ إِنْ تُهْدَاهَا لِذِي نَدَى كَالْبَحْرِ فِي تَدْفِقِ
 لَا تَهْجُ مَنْ لَمْ يُعْطِ وَاهْجُ مَنْ أَتَى إِلَى السَّرَابِ بِالْذُّلَاءِ يَسْتَقِي
 وَعُدْ لِمَا عُوِّدَتْ مِنْ بَذْلِ اللَّهِ فَالْعُودُ أَحْمَدُ لِكُلِّ مُنْطَلِقِ
 وَلَا تَعُدْ لِحَرْبٍ مَنْ مَنْ وَلَوْ مَنْ^٣ فَمَا غَلَّ يَدَا كَمُطَلِقِ

١ - من كنى الخمر .

٢ - هو الصاحب بن عباد .

٣ - أي الذي أعطى ولو اتبع العطاء بالئن .

والْعَوْدُ يُخْتَارُ عَلَى مَنْ كَانَ كَالْمُخْتَارِ أَوْ مَنْ كَانَ ذَا تَزُنْدُقٍ
 وَالصَّمْتُ حَصْنٌ لِلْفَتَى مِنَ الرَّدَى وَقُلٌّ مِّنْ شَرِّ لِّسَانِهِ وَوَقِي
 وَإِنْ وَجَدْتَ لِلْكَلَامِ مَوْضِعًا فَكُنْ عَرَارًا فِيهِ أَوْ كَالْأَشْدَقِ
 لَا تَبْخُلْنِ بَرْدٌ مَا اسْتَعْرَتْهُ كَضَائِبِيءُ فَالْبُخْلُ شَرُّ مُوَبِقِ
 شَحٌّ بَرْدٍ كَلْبٌ صَيْدٍ وَهَجَا أَرْبَابَهُ ظَلَمًا فَلَمْ يُصَدَّقِ
 وَمَاتَ فِي سِجْنِ ابْنِ عَفَّانٍ كَمَا قَضَى الْإِلَهُ مِيتَةَ الْمُحْزَرَقِ
 وَنَجَلُهُ مِنْ أَجَلِهِ أَجَلُهُ مِنْ سَطْوَةِ الْحِجَّاجِ لَمْ يَكُنْ وَوَقِي
 وَاسْتُرْ عَنْ الْحَسَادِ كُلَّ نِعْمَةٍ كَمْ فَاضِلٌ بِكَأْسِ مَكْرِهِمْ سُقِي
 فَصَاعِدٌ عَلَى مَدِيحِ وَرْدَةٍ أَصْبَحَ مُنْحَطًا بِقَوْلِ سَهْوَقِ
 وَافْخَرْ كَفَخْرَ خَالِدٍ بِالْعِيرِ وَالنَّ فِيرَ لَا بِحُلَّةٍ مِنْ سَرَقِ
 وَاتَّخِذِ الصَّبْرَ دِلَاصًا سَابِغًا وَبِمِجَنٍّ عُمَرُ لَا تَتَّقِ
 وَإِنْ حَمَلْتَ رَايَةَ الْأَمْرِ فَكُنْ كَجَعْفَرٍ أَوْدَعُ وَلَا تَسْتَبِقِ
 قَدْ قُطِعَتْ يَدَاهُ يَوْمَ مُوتِهِ وَلَمْ يَدْعُهَا لِكَمِّي سَوْحَقِ^٢
 لَكِنَّهُ احْتَضَنَهَا لِحُبِّهَا فَيَا لَهُ مِنْ سَيِّدٍ مُّوَفَّقِ
 وَكَانَ إِذَا اسْتَنْجَدْتَ مِثْلَ مَنْ غَزَا أَرْضَ الْعَدَا بِكُلِّ طَرَفٍ أَبْلَقِ^٣

١ - هو المحبوس المضيق عليه .

٢ - السوَّحَق : الطويل .

٣ - يشير الى غزو المعتصم لأرض الروم بالخيال البلق وفتحها لعمورية .

وَسُمِّ عَدُوَّ الدِّينِ بِالْخَسْفِ وَكُنْ مِثْلَ أَبِي يُوسُفَ ذِي التَّخَبُّقِ^١
 رَدَّ كِتَابَ مَنْ دَعَاهُ لِلْوَغَى مِنْهُمْ مُمَزَّقًا لِفَرْطِ الْخَنَقِ
 وَقَالَ إِنِّي لَا أُجِيبُ بِسُوءِ جَيْشِ عَرْمَرَمَ وَخَيْلِ دُلُقِ
 وَضَرَبَ الْفُسْطَاطَ فِي الْحَيْنِ وَقَدْ أَحَاطَ جَيْشُهُ بِهِمْ كَالشَّوْذَقِ
 وَكَانَ مَا قَدْ أَبْصَرُوا مِنْ بَأْسِهِ أَبْلَغَ مِنْ جَوَابِهِ الْمُشْبَرِّقِ
 يَا صَاحِبَ وَاشْغُلْ فُسْحَةَ الْعُمُرِ بِمَا يَعْنِي وَزُرْ غَبَا رُسُومِ الْعَيْقِ^٢
 وَابْكِ عَلَى ذَنْبٍ وَقَلْبٌ قَدْ قَسَا كَالصَّخْرِ مِنْ هَوَاهُ لَمْ يَسْتَفِقِ
 بِمُقَلَّةٍ كَمُقَلَّةِ الْخُنَسَاءِ إِذْ بَكَتْ عَلَى صَخْرٍ بَلَا تَرْفُقُ
 أَوْ كَبُكَاءَ فَارِعَةَ عَلَى الْوَلِيِّ دُوبُكَاءَ خَنْدِيفٍ وَخَرْنِقِ
 أَوْ كُنْ مُتَمِّمًا بُكَاءَ مُتَمِّمٍ عَلَى الذُّنُوبِ وَارْجُ عَفْوَ مُعْتِقِ
 وَكُنْ خَمِصَ الْبَطْنِ مِنْ زَادِ الرَّبِّاءِ وَخَمْرَةَ التَّقْوَى اصْطَبِحْ وَاعْتَبِقِ
 وَحَصِّلِ الْعِلْمَ وَزِنَهُ بِالتَّقَى وَسَائِرِ الْأَوْقَاتِ فِيهِ اسْتَغْرِقِ
 وَلِيكَ قَلْبُكَ لَهُ افْرَغْ مِنْ حَجَّامِ سَابَاطٍ وَمَنْ لَمْ يَعْشُقِ
 وَلَا تَكُنْ مِنْ قَوْمِ مُوسَى وَاصْطَبِرْ لَكَدِّهِ وَلِلْمَلَالِ طَلِّقِ
 فَالْعِلْمُ فِي الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَى لَهُ فَضْلٌ فَبَشِّرْ حِزْبَهُ شَرًّا وَوَقِي
 وَاعْنِ بِقَوْلِ الشَّعْرِ فَالشَّعْرُ كَمَا لُ لِلْفَتَى إِنْ بِهِ لَمْ يَرْتَزِقِ

١ - أي الترفع ويريد به يعقوب المنصور الموحيدي .

٢ - أي اللهو .

والشعرُ للمجدِ نِجادُ سيفِهِ وللعلا كالعِقدِ فوقَ العنقِ

ولمحمد بن الطالب اليعقوبي الشنقيطي من ميميته التي عارض بها
ميمية حميد بن ثور الهلالي :

أرانا لصرف الدهر صرعين^١ مُقْعَصاً

فمُضْمِيٍّ وَمُنْمِيٍّ إِنْ تَخَطَّاهُ أَهْرَمًا

وما مات مَنْ أبقى ثناءً مخلّداً	وما عاش مَنْ قد عاش عيشاً مُذَمَّماً
وما المجدُ الا الصبر في كل موطن	وَأَنْ تَجْشُمَ الهولَ العظيمَ تَكْرُماً
وما اللّومُ الا أَنْ يُرى المرءُ غابِطاً	لَيْسَ مَالٌ فِي يَدَيْهِ إِنْ ائْتَمَّ
فذاك الذي كالموت في الناس عيشه	وَمَنْ عَدَّ مَالاً مَالَهُ كَانَ أَلَمًا
وما الدهر الا بينَ لينٍ وشِدَّةٍ	فَمَنْ سُرَّ مَسِيئاً فِيهِ أَصْبَحَ مُرَغَمًا
وما الحزم الا مِرَّةُ النَّفْسِ تُقْتَنَى	لشِدَّتِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَتَحَكَّمَا
وما العجز الا أَنْ تَلِينَ لِمَسِّهَا	فَتَضْجَرُ مِنْ قَبْلِ الرِّخَاءِ وَتَسَامَا
وليس الغنى الا اعتزازُ قناعة	تُجِلُّ أَخَاهَا أَنْ يُذَلَّ وَيُشْتَمَا
وما الفقر الا أَنْ يُرى المرءُ ضارِعاً	لنَكْبَةِ دَهْرٍ قَدْ أَلَمَّ فَيَقْهَمَا
وخيرُ الرجالِ المُجْتَدِي سَيْبُ كَفِّهِ	وَأَجْرُهُمْ عِنْدَ الْكَرِيهِ مَقْدَمَا

١ - اي ذوى حالين : اما مصاب مقتول واما موثر مبقى .

وشر الرجال كل خبّ مُرامقٍ
 تجنّب صحاب السوء ما عشت انهم
 وراعِ حدودَ الله لا تتعدّها
 وراعِ حقوقَ الضيف والجارِ إنّهُ
 وان جَهِلَ الجَهِالُ فاحلُم وربما
 وبالحسن اذفع سيئاً فاذا الذي
 ولا تقربن الظلمَ والبغي فاطرحْ
 وما اليمن الا البرُّ والعدل والتقى
 اذا ما دعا الداعي لأمر تلغثما
 لك الجرب يُغدين الصّحيح المسلما
 وصغرُ وعظمُ ما أهان وعظما
 لعمرُك أوصى أن يُبرّ ويكرما
 يكون عليك العارُ أن تتحلما
 يُعاديكَ كالمولى الأحم وأرحما
 فغيّبها قد كان أردى وأشأما
 وما الشؤم الا أن تخون وتأنثما

المدحُ والتهنئة والاستعطاف

لابن الزيتوني من قصيدة في المعتضد بن عباد يستنجزه :

سفينة الوعد في بحر الرجا وقفت فامنن بريح من الإنجاز تجريها

وللقاضي ابي الحسن بن زنباع يخاطب الفتح بن خاقان :

هوَى مُنْجِدٌ يَلْقَى به اللَّيْلَ مُتَمِّمٌ يُصْرِّحُ عَنْهُ الدَّمْعُ وَهُوَ يُجْمِجُ
يَبِيتُ يُدَارِي أَوْ يُدَارِي مَا به وَيَغْلِيهِ أَمْرُ الْهُوَى فَيُسَلِّمُ
لَأَجْفَانِهِ مِنْ كُلِّ شَوْقٍ مُورِّقٌ وَمِنْ أَيْنَ لِلْمُشْتَاقِ شَيْءٌ يُنَوِّمُ
وليس الهوى ما الرأيُ عنه مُزْحَزِحٌ

ولكنه ما الرأيُ فيه مُقَحِّمٌ
وَأَعْذَرُ أَهْلَ الْحُبِّ كُلُّ مُدَلِّهِ يَرَى أَنَّ مَنْ يُهْدِي لَهُ النَّصْحَ أَلْوَمُ
وَأَجَلْدُ ابْنَاءِ الزَّمَانِ مَرَزَأُ يُقَاسِي خُطُوبَ الدَّهْرِ وَهُوَ مُثِمُّ
وَيَصْعُبُ حَمْلُ الْهَمِّ وَالْهَمُّ مَفْرَدٌ فَكَيْفَ تَرَى فِي حَمْلِهِ وَهُوَ تَوَّامُ
وَلَوْلَا أَبُو نَضْرٍ وَلَذَاتُ أَنْسِهِ تَقَضَّتْ حَيَاتِي كُلُّهَا وَهِيَ عَلَقَمُ

فتى فتح الله المعارف بأسمه
تأخر في لفظ الزمان وإنه
أتوا بالمعاني وهي ذر منظم
وما يستوي في الحكم راق وغائص
إليك أبا نصر بديهة خاطر
أهبت به للقول وهو لما به
وكم مصقع لا يرهب القول فعله
ولولم يكن إلا وداعك وحده
فما يصنع الإنسان وهو يفهمه
وقد كنت تشكينني من الدهر دانيا
عليك سلام تسحب الريح ذيله
وان لم يكن إلا وداع وفرقة

ومن دونها باب من الجهل مبهم
بمعناه في أعبائه متقدم
وجاء بها من أفقها وهي أنجم
لقد نال أسنى الرتبة المتسّم
توالى عليه الثقل وهو مقسم
فلبى ولم يسعده نطق ولا قم
ثلثه خطوب ما انثنت وهو مفحم
لأشفق منه يذبل ويلملم
يحس بأشتات الأمور ويفهم
فقد صرت أشكو منك ما أنت تعلم
فيعقب منه كل ما يتنسم
فان فوادي قبلك المتقدم

ولا بن حبوس يمدح عبد المؤمن وقد حلّ بالرباط :

ألا أيها البحر جاورك البحر
وجاش على أمواهك العقل والحجا
وسال عليك البر خيلاً كماتها
لعلك يطعيك اشتراك سمته

وخيم في أرجائك النفع والضر
وفاض على أعطافك النهي والأمر
إذا حاولت غزواً فقد وجب النصر
فذلك بحر لا يشاكله بحر

فَأَنْتَ خَدِيمُ الشَّمْسِ وَالْبَدْرِ غُذْوَةً وَتَخْدُمُهُ فِي أَمْرِ الشَّمْسِ وَالْبَدْرِ
وَيُخَوِّيكَ شَطْرُ الْأَرْضِ تَعْمُرُ بَعْضَهُ وَفِي صَدْرِهِ الْأَفْلَاكُ وَالْبَحْرُ وَالْبَرُّ
وَقَدْ وَسَّعَ الْأَيَّامَ جُوداً وَنَجْدَةً وَلَيْسَ لِمَا تَأْتِي بِهِ عِنْدَهُ قَدْرُ
وَمَا لَكَ مِنْ مَعْنَى تُشَارِكُهُ بِهِ سِوَى خُدْعٍ فِي النُّطْقِ زُخْرٍ فِي الشَّعْرِ
وَمَا لَكَ مِنْ شَيْءٍ يُشِيرُ إِلَى الَّتِي تَفُوهُ بِهَا إِلَّا السَّلَاطَةُ وَالْهَذْرُ
وَلَيْسَ اشْتِرَاكُ اللَّفْظِ يُوجِبُ مَدْحَةً

وَلَكِنَّهُ إِنْ وَافَقَ الْخَبَرَ الْخَبْرُ

وله فيه لما فتح مدينة بجاية وهي الناصرية :

مَنْ الْقَوْمُ بِالْغَرْبِ تُصْغِي إِلَى حَدِيثِهِمْ أَذُنُ الْمَشْرِقِ
جَرَوْا وَالْمَنَايَا إِلَى غَايَةٍ فَلَمْ يَسْبِقُوهَا وَلَمْ تَسْبِقِ
بِأَيْدِيهِمُ النَّارُ مَشْبُوبَةٌ فَمَهْمَا تُصِيبُ بَاطِلًا تُحْرَقُ
يَقُودُهُمْ مَلِكٌ أَرْوَعُ تَفَرَّدَ بِالسُّودَدِ الْمُطْلَقِ
تَخَيَّرَهُ اللَّهُ مِنْ آدَمَ فَمَا زَالَ مُنْحَدِرًا يَرْتَقِي
إِلَى النَّاصِرِيَةِ سِرْنَا مَعًا وَلَمَّا تَفْتُنَا وَلَمْ تُلْحَقْ
إِلَى بَرْزَةِ فِي ذُرَى أَرْعَنِ تَجِلُّ عَنِ السُّورِ وَالْخُنْدَقِ
يَعُودُونَ مِنَّا بِمَوْلَاهُمْ وَمَوْلَاهُمْ عَادَ بِالزَّوْرَقِ

وَأَكْسَبَهُ خَوْفَهُ رِقَّةً فَلَوْ خَاضَ فِي الْبَحْرِ لَمْ يَغْرُقْ

ولأبي العباس الجراوي يهنيء يوسف بن عبد المؤمن بفتح :

عن أمرِكُم يتصرَّفُ الثَّقَلانُ وبما يسوءُ عدوَّكُم ويسرُّكُم
وتحرَّكُ الأفلاكُ في الدَّورانِ وجاهدتم في الله حقَّ جهاده
ونَهَضْتُم بِحِمَايَةِ الْإِيمَانِ وتركتُم أرضَ العدا وقلوبهم
في غَايَةِ الرَّجَفَاتِ وَالْخَفَقَانِ وغزاهم الدينُ الحنيفيُّ الذي
كُتِبَ الْظُّهُورُ لَهُ عَلَى الْأَدْيَانِ كتب الإلهُ لكم فتوحاً في العدا
هَذَا مَقَامُ الْمُصْطَفَى يَا فَوْزَ مَنْ هذا مقامُ المصطفى يا فوزَ من
مَنْ يَعْرِفُ الرَّحْمَنَ حَقًّا يَعْتَرِفُ كُتِبَ الْإِلَهُ لَكُمْ فَتُوحًا فِي الْعِدَا

وله يهنيه بإبلاله من مرض :

سَتَمْلِكُ أَرْضَ مِصْرَ وَالْعِرَاقَا وتجري نحوكَ الأُممُ استيقا
إِذَا لَمْ يَتَّفِقْ رَأْيٌ وَرَأْيٌ أفادا في محبتك اتفاقا
صَفَا لَكَ كُلُّ قَلْبٍ غَيْرُ صَافٍ وزحزح عن ضائره النفاقا
وَحَقُّكُمْ ، وَحَقُّكُمْ عَظِيمٌ لقد حُسِّنَ الزَّمانُ بِكُمْ وراقا
وَقَدْ بَلَغَ الْوُجُودُ بِكُمْ مُنَاهُ وقد أمنت عصا الدين أنشيقا

أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ عَلَيْهِ سَنَا الْإِسْلَامِ يَأْتَلِقُ اثْتِلَاقًا
وَيَا مُلْكًا أَحَسَّتْ كُلُّ أَرْضٍ إِلَى أَرْضٍ أَقَامَ بِهَا اشْتِيَاقًا
يَحْنُ إِلَيْكَ يَوْمٌ غَيْرُ آتٍ وَيَشْكُو الذَّاهِبُ الْمَاضِي الْفِرَاقًا
شَكْوَتَ فَأَيُّ قَلْبٍ غَيْرُ شَاكٍ وَأَيُّ عَيْشٍ لَمْ يَمُرَّرْ مَذَاقًا
وَلَوْلَا عَطْفَةُ الْإِبْلَالِ كُنَّا بِنَارِ الْوَجْدِ نَحْتَرِقُ احْتِرَاقًا

وله يهنئه بالعيد :

شَمِلَتْ بِبِقَائِكُمُ النِّعَمُ وَسَمَتْ بِرَجَائِكُمُ الْهِمَمُ
وَهَمَّتْ دَيْمٌ مِنْ رَاحَتِكُمْ هِيَّاتَ تُسَاجِلُهَا الدَّيْمُ
وَعَنْتَ لِعَزَائِمِكُمْ عَرَبٌ تَشْقَى بِصَوَارِمِهَا الْعَجَمُ
أُسْدٌ تَنْقُضُ الْأُسْدُ لَهَا بِهِمْ تَنْقَاضُ لَهَا الْبُهِمُ
حُمِدَتْ شَيْمُ الْأَيَّامِ بِكُمْ وَلَكُمْ ذُمَّتْ مِنْهَا الشَّيْمُ
بَهَرَتْ أَنْوَارُ خِلَافَتِكُمْ وَسَمَاءُ الْعِلْمِ بِهَا عِلْمُ
فَرَأَى مَنْ لَيْسَ لَهُ بَصَرٌ وَوَعَى مَنْ كَانَ بِهِ صَمَمُ
وَأَنَافُ الْمَجْدِ عَلَى زُحُلٍ وَأَتَى بِغَرَائِبِهِ الْكَرَمُ
أَعْيَى الْبُلْغَاءِ مَقَامَكُمْ وَلَوْ أَنَّ مَقَالَهُمُ حِكْمُ

أَلْعِيدُ أَحَقُّ بِتَهْنِئَةٍ فَلَهُ بِكُمْ فَخْرٌ عَمَمٌ
دَمْتُمْ وَالْكَلُّ يَلُوذُ بِكُمْ مِنْ صَرْفِ الدَّهْرِ وَيَعْتَصِمُ

وله في يعقوب المنصور عند تقبُّضِهِ على الثَّائِرِ الْجَزِيرِيِّ :

قَضَى لَكَ اللَّهُ بِالتَّأْيِيدِ وَالظَّفَرِ	وبالسَّعادة في وَرْدٍ وفي صَدَرٍ
آثَرَتْ فِي نُصْرَةِ الدِّينِ الْمَسِيرِ عَلَى	طِيبِ الْمَقَامِ وَبِغْتِ النَّوْمِ بِالسَّهْرِ
مُظْفَرٌ مَا لِمَعْرُورٍ يُطَالِبُهُ	فِي الْأَرْضِ مِنْ مَلْجَأٍ عَنْهُ وَلَا وَزَرَ
جَدَّ الْجَزِيرِيِّ فِي إِتْلَافِ مُهْجَتِهِ	حَتَّى تَوَرَّطَ فِي أُحْبُولَةِ الْقَدَرِ
نَارٌ مِنَ الْفِتْنَةِ الْعَمِيَاءِ أَطْفَأَهَا	سَعْدُ الْإِمَامِ وَحَدَّ الصَّارِمِ الذِّكْرِ
مَا زَالَ إِبْلِيسُ فِي الْأَقْطَارِ يُوقِظُهَا	وَتَرْتَمَى مِنْ شِرَارِ الْخَلْقِ بِالشَّرَرِ
زَادَ الشَّقِيُّ عَلَى الْخَفَافِ مُشْبِهَهُ	ضَعْفَ الْبَصِيرَةِ إِذْ سَاوَاهُ فِي الْبَصَرِ
جَارَى إِلَى سَقَرٍ أَصْحَابَهُ فَهَوَّوْا	فِيهَا سِرَاعاً وَوَأَفَاهُمْ عَلَى الْأَثَرِ
إِنَّ الَّذِي اتَّخَذَ الْأَهْوَاءَ آلِهَةً	عَلَى الضَّلَالِ مُصِرُّ غَيْرِ مُزْدَجَرِ
وَالْوَعْظُ فِي النَّاسِ مَقْبُولٌ وَمُطَّارَحٌ	كَالْخَطِّ فِي الْمَاءِ أَوْ كَالنَّقْشِ فِي الْحَجَرِ

وله فيه عند إِيَابِهِ مِنْ غَزْوَتِهِ الْأُولَى لِلْأَنْدَلُسِ :

إِيَابُ الْإِمَامِ حَيَاةُ الْأُمَمِ	تَوَالَى الشُّرُورُ بِهِ وَانْتَضَمَ
وَجَادَ بِهِ الْأَرْضَ صَوْبَ الْحَيَاةِ	وَجَلَّى الظَّلَامَ بِهِ بِدَرُ تَمِّ

فَشُكْرًا لِحَيْلِ وَفُلْكَ دَنْتُ	بِمُسْتَأْجِلِ الظُّلَمِ مَاجِي الظُّلَمِ
إِذَا حَلَّ فِي بَلَدَةٍ أَمْرَعْتُ	فَطَابَ جَنَاهَا وَفَاحَ الْمَشَمُّ
وَقَامَ بِأَقْطَارِهَا عَدُّهُ	وَصَوَّبُ نَدَاهُ مَقَامَ الدَّيَمِ
إِذَا الْخَطْبُ جُيِّشَ نَحْوَ الْوَرَى	تَصَدَّى لَهُ عَزْمُهُ فَانْهَزَمَ
سَلَّ الدَّهْرَ عَنْ بَطْشِهِ بِالْعِدَا	تُجِبُ مِنْ وَرَاءِ الدُّرُوبِ الْعَجَمِ
فَتُوحُ عِظَامِ جَنَاهَا الزَّمَانِ	لِذِي هِمَمٍ دُونَهُنَّ الْهِمَمِ
نَصِيحَتُكُمْ يَا مُلُوكَ الْوَرَى	نَصِيحَةٌ مَنْ لَيْسَ بِالْمُتَمِّمِ
أُنِيبُوا إِلَيْهِ وَلَوْ ذُوقُوا بِهِ	تَفُوزُوا وَأَلْقُوا إِلَيْهِ السَّلَمَ

وله فيه بمناسبة استقلاله من مرض :

بُرْءُ الْإِمَامِ حَيَاةُ الْخَلْقِ كُلِّهِمْ	عَمَّ السُّرُورُ بِهِ وَانْثَالَتْ النِّعَمُ
شَكَا فَلَاقِلَةً إِلَّا أَضْرَّ بِهَا	سُقْمٌ وَلَا قَلْبَ إِلَّا شَفَهُ أَلَمُ
تَجَهَّمَ الدَّهْرُ لَمَّا أَنْ شَكَا وَبَدَا	يُبْرِئُهُ وَهُوَ طَلَقَ الْوَجْهَ مُبْتَسِمُ
صَحَّتْ بِصَحَّتِهِ الْآمَالُ وَانْتَعَشَتْ	وَزَاوَحَتْ زُحَلًا فِي أَفْقِهِ الْهِمَمُ
أَفَاضَ عَدْلًا عَلَى الدُّنْيَا وَالْبَسَا	نُورًا فَلَمْ يَبْقَ لَا ظُلْمٌ وَلَا ظُلَمُ
وَبَثَّ فِي كُلِّ إِقْلِيمٍ هُدًى وَنَدَى	فَلَيْسَ يَوْجِدُ لَا جَهْلٌ وَلَا عَدَمُ

أولا سياسته ما كان مُلتصِّماً شعث ولا كانت الأسبابُ تنتظم
واللهُ يختصُّ أقواماً بِرَحْمَتِهِ تجري بحكمته الأرزاقُ والقِسَمُ
حاطَ الإلهُ لنصر الدين مُهجته وعُوفيتْ لَكُمْ الأخلاقُ والشِّيمُ
والامير سليمان الموحدي يُخاطب المنصور عند وفود العرب والغزَّ
من بلاد المشرق عليه وكان هو بحال هَجْر فرضي عنه وقرَّبه :

يا كعبةَ الجود التي حَبَّتْ لها عَرَبُ الشَّامِ وَغَزُّهَا وَالدَّيْلَمُ
طُوبَى لِمَنْ أَمْسَى يَطُوفُ بِهَا غَدًا وَيُخَلِّ بِالْبَيْتِ الْحَرَامِ وَيُحْرِمُ
وَمِنَ الْعَجَائِبِ أَنْ يَفُوزَ بِنَظَرَةٍ مَنْ بِالشَّامِ وَمَنْ بِمَكَّةَ يُحْرَمُ
وليمون الخطَّابي في مدح سيد الوجود :

حَقِيقُ عَلَيْنَا أَنْ نُجِيبَ الْمَعَالِيَا لِنُفْنِيَّ فِي مَدْحِ الْحَبِيبِ الْمَعَانِيَا
وَنَجْمَعُ أَشْتَاتَ الْأَعَارِضِ حِسْبَةً^١

وَنُحْشِرُ فِي ذَاتِ الْإِلَهِ الْقَوَافِيَا
وَنَقْتَدَّ^٢ لِلْأَشْعَارِ كُلِّ كَتِيبَةٍ لِنَضْرُ الْهُدَى وَالَّذِينَ تُرْدِي الْأَعَادِيَا
فَأَلْسَنُ أَرْبَابِ الْبَيَانِ صَوَارِمُ مَضَارِبُهَا تُنْسِي السُّيُوفَ الْمَوَاضِيَا

١ - اي احتساباً و اخلاصاً لله .

٢ - اي نقود .

لِنُطْلِعَ مِنْ أَمْدَاجِ أَحْمَدَ أَنْجُمًا تَلُوحُ فَتَجْلُو مِنْ سَنَاهِ الدِّيَاجِيَا
كَوَاكِبَ إِيمَانٍ تَلُوحُ فِيهِتَدِي بِأَنْوَارِهَا مَنْ بَاتَ يُدْلِجُ سَارِيَا
سَهَوْتُ بِمَدْحِ الْخَلْقِ دَهْرًا وَهَذِهِ سُجُودُ الْجَبْرِ كُلِّ مَا كُنْتُ سَاهِيَا
فَلَا مَدْحَ إِلَّا لِلَّذِي بِمَدِيحِهِ تُطِيعُ إِذَا مَا كُنْتُ بِالْمَدْحِ عَاصِيَا

رُسُولُ بَرَاهُ اللَّهِ مِنْ صَفْوِ نُورِهِ وَالْبَسَهُ بُرْدًا مِنْ النُّورِ ضَافِيَا
وَمَا زَالَ ذَاكَ النُّورُ مِنْ عَهْدِ آدَمِ يُنِيرُ بِهِ اللَّهُ الْعُصُورَ الْخَوَالِيَا
ثَوَى فِي ظُهُورِ الطَّيِّبِينَ يَصُونُهُ وَدِيعَةً سِرًّا صَارَ بِالْبَعْثِ فَاشِيَا
وَخَصَّ بَطُونَ الطَّيِّبَاتِ لِحْمَلِهِ لِيَحْمِلَ فَرْعًا لِلْسِّيَادَةِ زَاكِيًا
بِهِ وَزَنَ اللَّهُ الْخَلَائِقَ كُلَّهُمْ فَأَلْفَاهُ فِيهِمْ رَاجِحَ الْوِزْنِ وَافِيَا
وَأَنْقَذَنَا مِنْ نَارِهِ بِظُهُورِهِ وَلَوْلَاهُ كَانَ الْكُلُّ بِالْكَفْرِ صَالِيَا
وَآدَمُ لَمَّا خَافَ يُزْرِي بِذَنْبِهِ تَوَسَّلَ بِالْمُخْتَارِ لِلَّهِ دَاعِيَا
فَتَابَ عَلَيْهِ اللَّهُ لَمَّا دَعَا بِهِ وَأَدْنَاهُ مِنْهُ بَعْدَ مَا كَانَ نَائِيَا
وَقَدِ يَهْجُرُ الْمَحْبُوبُ فِي حَالَةِ الرِّضَا وَيَأْبَى الْهَوَى أَنْ لَا يُصَدِّقَ وَاشِيَا
(وَعَيْنُ الرِّضَا عَنْ كُلِّ عَيْبٍ كَلِيلَةٌ وَلَكِنَّ عَيْنَ السُّخْطِ تُبْذِرُ الْمَسَاوِيَا)
وَأَدْرَكَ نُوحًا فِي السَّفِينَةِ رَعِيَهُ فَخَلَّصَهُ إِذْ كَانَ فِي الْمَوْجِ جَارِيَا
وَمَا زَالَ سَامٌ وَهُوَ ثَاوٍ بِظُهُورِهِ عَلَى أَخَوَيْهِ بِالْفَضَائِلِ سَامِيَا

فَنُصِّصَ حَتَّى بِالْمَكَانِ كَرَامَةً
فَأُنْزِلَ حَامٍ بِالْجَنُوبِ مُجَانِبَا
وَأُنْزِلَ سَامٍ لِلْفُضِيلَةِ وَحَدَهُ
وَبَادِرَ جَبْرِيلُ الْخَلِيلَ لِأَجَلِهِ
وَيَخْبُرُ فِي وَقْتِ الْبَلَاءِ يَقِينَهُ
فَقَالَ لَهُ هَلْ تَسْأَلُنَّ كِفَايَةً
فَكَانَتْ عَلَيْهِ النَّارُ بَرْدًا كَمَا أَتَى
وَجَازَاهُ فِي الْإِسْرَاءِ عَنْهَا نَيْسُنَا
فَلَمَّا انْتَهَى جَبْرِيلُ عِنْدَ مَقَامِهِ
أَشَارَ عَلَى الْمُخْتَارِ أَنْ يَسِرْ فَإِنَّهُ
فَنَادَاهُ يَا جَبْرِيلُ هَلْ لَكَ حَاجَةٌ
فَقَالَ لَهُ سَلْهُ لِأَبْسُطِ رَغْبَةٍ
فَدُلِّي فِي أَفْقِ الْمَهَابَةِ رَفْرَفُ
وَمَنْ أَجَلُهُ خَصَّ الذَّبِيحُ فِدَاءَهُ
فَدَاهُ بِذَبْحِ عَظَمِ اللَّهِ شَأْنَهُ
وَتَنَّى بَعْدَ اللَّهِ حَامِلَ فَضْلِهِ
لِذَلِكَ مَا قَالَ الرَّسُولُ مُنَبِّهَا

وَأُسْكِنَ فِي أَعْلَى الْبِلَادِ مَرَاقِيَا
وَيَافِثُ فِي أَقْصَى الشَّامِ مُوَارِيَا
بِأَوْسَطِ مَعْمُورِ الْبِلَادِ الْأَعَالِيَا
لِيَحْمِيَهُ إِذَا أَبْصَرَ الْجَمْرَ حَامِيَا
فَصَادَفَ وَرَدَ الْخَلَّةَ الْعَذْبَ صَافِيَا
فَجَاوَبَهُ حُسْبِي بِرَبِّي كَافِيَا
بِهِ وَسَلَامًا وَهُيَ نَارُ كَمَا هِيََا
وَأَلْهَمَهَا فَوْقَ السَّمَاوَاتِ سَارِيَا
بِحَيْثُ يَرَى نُورًا وَحُجُبًا عَوَالِيَا
مَقَامِي فَلَا أَعْدُوهُ مَا دُمْتُ بَاقِيَا
إِلَى اللَّهِ فَأَسْأَلُهَا لِيُعْطِيَ الْإِمَانِيَا
عَلَى النَّارِ مَنَى لِلْعَصَاةِ جَنَاحِيَا
وَزُجَّ بَرَّاقُ الْعِزِّ فِي النَّوْرِ رَاقِيَا
وَفِي ظَهْرِهِ الْمُخْتَارُ أَصْبَحَ ثَاوِيَا
لَأَنَّكَ كَانُ دَهْرًا فِي الْفَرَادِيسِ رَاعِيَا
فَكَانَ بِذَلِكَ الْفَرْعُ لِلْأَصْلِ وَاقِيَا
أَنَا ابْنُ ذَيْبِحَتِهَا يَعْدُ الْمَعَالِيَا

وعفَّ أبوه اذ دعتُه لِنَفْسِهَا
مَضَى وَلِذَاكَ النُّورُ بَيْنَ جَبِينِهِ
فَأَعْرَضَ عَنْهَا ثُمَّ سَارَ لِشَأْنِهِ
وَعَادَ وَقَدْ أَدَّى أَمَانَةَ رَبِّهِ
وَمَرَّ عَلَى حَيِّ الْفَتَاةِ فَنُودِيَتْ
فَقَالَتْ لَهُمْ قَدْ كَانَ ذَلِكَ مُدَّةً
أَرَدْتُ بَانَ أُعْطِيَ سَنَاهُ وَقَدْ مَضَى
وَكَمْ طَالِبٍ مَا لَا يُنَالُ وَقَاعِدٍ

فَتَاةٌ رَأَتْ نُورَ النَّبُوَّةِ صَاحِبَا
شِعَاعُ سَنَاءٍ يُعْشِي الْعُيُونَ الرَّوَانِيَا
وَكَانَ لَهُ الرَّحْمَانُ بِالْحِفْظِ وَاقِيَا
لَأُمَّتِهِ وَعُدَاً مِنْ اللَّهِ مَاضِيَا
هَامِي تَصَادِفُ لَوْعَةِ الْحُبِّ رَاقِيَا
لَأَمْرِ عَصِينَا فِي هَوَاهِ النَّوَاهِيَا
لَعَمْرِي بِهِ مَنْ كَانَ بِالْحَقِّ قَاضِيَا
سَعَادَتُهُ تُبْدِي لَهُ السُّؤْلُ دَانِيَا

وَكَمْ شَاهَدْتُ مِنْ آيَةِ أُمِّهِ بِهِ
رَأْتُ فِي مَعَالِيهِ مَرَائِي جَمَّةً
وَقِيلَ لَهَا بُشْرَاكِ فُزْتُ بِخَيْرٍ مِنْ
وَحَفَّتْ بِهِ الْأَمْلاَكُ فِي حِينٍ وَضَعَهُ
وَبُشِّرَ رِضْوَانُ الْجَنَانِ بِخَلْقِهِ
وَنَادَى مُنَادِي الْعِزِّ طُوفُوا بِأَحْمَدٍ
بَدَا وَاضِعاً كَفِّهِ بِالْأَرْضِ رَافِعاً
وَأَعْوَلَ ابْلِيسُ اللَّعِينُ وَقَالَ قَدْ

يَصِيرُ بِهَا جِيدُ الدِّيَانَةِ حَالِيَا
وَصَدَّقَتْ الْآثَارُ مِنْهُ الْمَرَائِيَا
يُرَى فَوْقَ أَكْنَافِ الْبَسِيطَةِ مَاشِيَا
بَلِيلَةُ إِفْضَالٍ تَزِينُ اللَّيَالِيَا
فَفَتَّحَ جَنَاتِ النِّعَمِ الثَّمَانِيَا
جِهَاتِ الدَّنَاطِرِ وَأَوْعَمُوا النَّوَاحِيَا
لِعَيْنَيْهِ نَحْوَ الْأَتْقِ بِالْطَّرَفِ سَامِيَا
يَنْسَتْ وَقَدْ مَا كُنْتُ لِلْكَفْرِ رَاجِيَا

وسار الى صنعاء شَيْبَةً جَدُّهُ
وحياً بَعْمَدَانَ ابْنَ ذِي يَزَنٍ بِهَا
فَقَرَّبَهُ دُونَ الْوُفُودِ وَخَصَّهُ
وَقَالَ لَهُ أَنَا وَجَدْنَا بِكُتُبِنَا
يَمُوتُ أَبُوهُ ثُمَّ تَهْلِكُ أُمُّهُ
وَقَالَ لَهُ وَالْبَيْتِ ذِي الْحُجُبِ زَارَهُ
لَأَنْتَ عَلَى مَا يَقْتَضِي الْوَعْدُ جَدُّهُ
وَقَالَ لَهُ احْفَظْ مَا أَقُولُ فَإِنَّهُ
وَقَوْلُ هِرْقَلٍ إِذَا أَظْلًا زَمَانُهُ
وَطَالَعُ فِيهِ مُصْحَفَ الْأُفُقِ نَظَرًا
فَلَمْ تَنْقُضِ الْأَيَّامُ حَتَّى أَتَى لَهُ
فَبَاخَثَ عَنْهُ أَهْلَ مَكَّةَ سَائِلًا
وَلَبَّى الْهُدَى لَمَّا دَعَاهُ جَمَاهُ
وَوَرَدُ الرُّضَى لَا يَهْتَدِي لِسَبِيلِهِ
وَإِيوَانُ كِسْرَى اهْتَزَّ لَيْلَةً وَضَعَهُ
وَزَادَ بِرُؤْيَا الْمُوْبَذَانَ^١ ارْتِيَاعَهُ

فَحَلَّ مُحَلًّا لِلْوَفَادَةِ تَاصِيَا
وَهَنَّاهُ بِالْمُلْكِ إِذْ عَادَ وَالِيَا
لِيَسْمَعَ قَوْلًا فِي الرِّسَالَةِ شَافِيَا
نَبِيًّا يُرَى فِي نَحْوِ أَرْضِكَ دَانِيَا
وَيَكْفُلُهُ بَعْضُ الْعُمُومَةِ كَافِيَا
وُفُودُ الْوَرَى جَابُوا إِلَيْهِ الْفِيَا فِيَا
فَشِيدُّهُ بِهِ لِلْمَجْدِ مَا كُنْتَ بَانِيَا
سَيَمْلِكُ أَرْضِي إِذَا أَرَى الْمُلْكَ وَاهِيَا
يَقُولُ أَرَى مُلْكَ الْحِثَّانِ مُوَافِيَا
كَمَا زَعَمُوهُ يَسْتَشِيرُ الدَّرَارِيَا
كَتَابُ رَسُولِ اللَّهِ لِلْحَقِّ دَاعِيَا
وَكَانَ بِأَوْصَافِ الثُّبُوءَةِ دَارِيَا
وَهَامَ قَلِيلًا ثُمَّ أُلْفِيَ سَالِيَا
فَيَرُوى بِهِ مَنْ كَانَ فِي الْبَدَنِ صَادِيَا
وَبَاتَ عَلَيْهِ قَصْرُهُ مُتَدَاعِيَا
فَأَذْهَلَهُ أَنْ يَسْتَبِينَ الْمَسَاعِيَا

١ - الموبذان عند الفرس هو القاضي الكبير ورؤياه مذكورة في كتب السيرة.

وفسرها شق^١ وشق غباره
فنصر على إرسال أحمد مثبتاً
وأخذت النيران نيران فارس
وكانت تلظى الف عام تواليها
سطيح بسجع قص ما كان رائياً
لدين الهدى بالرغم للكفر ماحياً

* * *

وحمل ذلك الحلم حجر حليمة
أبى حمله النسوان لليثم وانبرت
فحازت به السبق الأتان^٢ كرامة
وشارفها^٣ إذ لا تبض بقطرة
وفي حيها وافاه جبريل قاصداً
فشقاً به صدر النبي لشرحه
ورده في الحين التثاماً فما ترى
وجاءا بمنديل وطست ليغسلاً
وعاد أخوه^٤ فازعاً مخبراً بما
لترضعه در الفضائل صافياً
له فرأت من حينها الرزق نامياً
وأخصب مرعاها ففاق المراعي
فصارت به ثجاً تروى الصوادي
وأقبل ميكائيل بالأمر تالياً
فكان لما يلقي له الله واعياً
يسوى أثر ما زال للشرح باقياً
بماء الرضا قلباً عن الله راضياً
جرى من خوف كان للأمر جارياً

١ - شق وسطيح من كهات العرب ، وقد فسرا رؤيا الموبدان بظهور

النبي العربي .

٢ - يعني أتان حليمة .

٣ - الشارف الناقة المسنة .

٤ - يعني من الرضاعة .

فسارت به من حينه نحو أمه
وما زال محروساً أميناً مؤمناً
حيّاً وفيّاً خاشعاً متواضعاً
وفي سيره للشام شام بقره
أكب عليه في طريق مسيره
ولما رأى تلك العلامة لم يزل
وكانت به من علة الشوق غلة
وقصته في ذا المجاز وعمه
فأهوى ولا ماء إلى الأرض راكضاً
وكم بان من يسر لميسرة^٢ به
فكان إذا اشتدّ الهجير أظله
وأخبره نسطور بصرى^٣ ببعته

* * *

وبغضت الاصنام للمصطفى فلم
يزل هاجراً ففعل الضلالة قالياً

١ - هو راهب نصراني رأى النبي ﷺ في رحلته الأولى إلى الشام فعرفه بعلامة النبوة .

٢ - هو غلام خديجة وكان صحبه (ص) في سفره بتجارته إلى الشام .

٣ - هو راهب نصراني آخر ، رأى النبي (ص) في سفره الثاني للشام فبشر

ميسرة ببعته^٤

وكان يرى ضوءاً يلوح لعينه
ويأتي حراءً للتحنث قاصداً
ويخرج من بين البيوت لعله
وكان رآه الله أكرم خلقه
وأسرى به ليلاً الى حضرة العلا
وسار على ظهر البراق كرامةً
ولما أتاه الوحي وارتاع قلبه
فسارت به عمداً خديجةً زوجة
وكان امراً قد مارس الكتب قارئاً
فبشره أن سوف يطلع صبحه
وقال له يا ليتني كنت حاضراً
ووقتك إن يدرك زمني يومه
ويسمع تسليماً عليه محاذياً
محباً لأسباب الوصال مراعيّاً
يحدث عنه النفس في السر خالياً
فأرسله بالحق للحق هادياً
فما زال فيها للحبيب مناجياً
له ركباً اذ سار جبريل ماشياً
لشدة ما قد كان منه ملاقياً
لتسأل حبراً بالزمانة فانياً
وبات لضيفان المعارف قارياً
فيكشف من ليل الغواية داجياً
بها جذعاً أوليك نفسي ومالياً
ومن لي به أنصرك نصراً مؤالياً

وآيته في الغار اذ نزل به
وقد أرسل الله الحمام وشيدت
فدافع عن صديقه ورؤوله
وكم آية خصت سراقه اذ مشى
وكان له الصديق بالصدق ثانياً
من النسخ أيدي العنكبوت مبانياً
بأضعف أسباب الوجود مقاوماً
على أثر المختار للغار قافياً

فشاهد آثاراً من الحسْف كاد أن
ولما دعا بالهاشمي أجاره
وأصحبته منه ظميراً مكرماً
وأخبره أن سوف يفتح أمره
ويجعل في كفيه من بعد فتحها
فأخرها الفاروق في حين فتحها
وآيته في خيمتي أم معبد
وفي الذيب ألقى وأخبر مفصلاً
وفي الضب لما أن دعاه أجابه
وآيته إذ فارق الجذع فضله
وإن أنشيق البدر أعظم آية
وفي الجمل الآتي بخضرة صحبه
وقصته في المحل لما دعا لهم
وسال به وادي قناة لأجله
وفي قصة الزوراء للخلق آية
دعا بإناء ليس ينقع ماؤه
ففاض نَميرُ الماء بين بنائه
يكون لقارون السِّفاه مواخيا
فأبصره في الحين من ذاك ناجيا
بنطّ أبي بكر يُخيف الدّواھيا
مدائن كسرى والبلاد الأفاصيا
سواراه ممّا يُحرز الدّين ساميا
له عِدّة بالصدق فيها مباحيا
وفي الشاة اذ لم تبق تصحب راعيا
عن المصطفى والذيب ما زال عاويا
وقال له لبيك لبيك داعيا
فحنّ اليه الجذع بالحال شاكيا
تدلّ على من كان للدين راويا
ليشكو تكليف المشقة راغيا
فأبصرت سحبا كالجبال هواميا
ثلاثين يوماً لم يزل متواليا
وذكرى لعبد كان للذكر ناسيا
لقلته بالري من كان صاديا
وكان وضوءاً للكتيبة كافيا

ورَكَوْتهُ يَوْمَ الْحَدِيثِ التي أَفَاضَ بِهَا اللهُ الْبَنَانَ سَوَاقِيَا
وَأَشْبَاعَهُ الْجَمَّ الْغَفِيرَ بَقْبُضَةٍ مِنْ التَّمْرِ حَتَّى شَاهَدُوا التَّمَرَ بَاقِيَا
وَأَخْبَارُهُ بِالشَّيْءِ مِنْ قَبْلِ كَوْنِهِ فَيَأْتِي عَلَى النَّصِّ الَّذِي قَالَ حَاكِيًا
فَأَخْبَرَ دَا النُّورَيْنِ أَنَّ سَيُصِيبُهُ عَلَى الْأَمْرِ بَلَوِي تُعَقِّبُ الْأَمْرَ وَاهِيَا
وَأَخْبَرَ عَمَّارًا بِأَنْ حَيَاتِهِ سَيَقْطَعُهَا بِالْقَتْلِ مَنْ كَانَ بَاغِيَا
وَقَالَ لِذِي السُّبُطَيْنِ أَشَقَى الْوَرَى الَّذِي

سَيَخْضِبُهَا مِنْ هَامَةِ الرَّأْسِ دَامِيَا
يُصَادِفُ نَوْرَ الشَّيْبِ أَيْضًا نَاصِعَا فَيَسْقِيهِ صِرْفُ الْحَتَفِ احْمَرَّ قَانِيَا
وَنَصَّ عَلَى السُّبُطِ الشَّهِيدِ بِكَرْبَلَا فَقَامَ لَهُ الدِّينُ الْحَنِيفِيُّ نَاعِيَا
وَفِي الْحَسَنِ الزَّاكِيِ أَبَانَ بِأَنَّهُ سَيُصْلِحُ بَيْنَ النَّاسِ لِلْأَجْرِنَاوِيَا
وَقَالَ لِقَوْمٍ^١ إِنْ آخَرَ كُمْ بِهَا مِمَّا تَأْتِي سَيُصَلِّي فَاحِمَ الْجَمْرِ حَامِيَا
وَقَالَ إِذَا مَا مَاتَ كَسْرَى فَمَا تَرَى سَمِيًّا لَهُ أُخْرَى اللَّيَالِي مُسَامِيَا
وَأَخْبَرَ عَنْ مَوْتِ النَّجَاشِيِّ حِينَهُ وَبَيْنَهُمَا مَوْجٌ مِنَ الْبَحْرِ طَامِيَا
وَقَالَ عَلَى قُرْبِ الْحَمَامِ لِبَنْتِهِ تَمُوتِينَ بَعْدِي فَافْرَحِي بِلِقَائِيَا
وَأَيْتُهُ جَلَّتْ عَنِ الْعَدِّ كَثْرَةً فَمَا تَبْلُغُ الْأَقْوَالُ مِنْهَا تَنَاهِيَا

١ - يعني من الصحابة : آخركم موتاً في النار ، فكان بعضهم يسأل عن بعض وكان سمرّة بن جندب آخرهم موتاً ، اصطلح بالنار فاحترق .

وأعظمها الوحي الذي خصّه به فبلغ عنه أمراً فيه ناهيا
تحدّى به أهل البيان بأسرهم فكلّهم ألفاه بالعجز وانيا
وجاء به وحيّاً صريحاً يزيدُه مرورُ الليالي جدّةً وتعاليا
تضمّن أحكامَ الوجود بأسرّها وعمّ القضايا مُشْتَباً فيه نافيا
وأخبر عما كان أو هو كائنٌ يرى ما ضيأ أو ما يرى بعدُ آتيا
ووافق أخبارَ النبيّين كلّهم وتّمّ بالغايات منها المباديا
وما كتبتُ يُمنّاه قطُّ صحيفةً ولا رِيء يوماً للصّحائف تاليا
عليه سلامُ الله لا زال رانحاً عليه مَدَى الأيام حقّاً وغاديا

ولمّا لك بن المرحل يهنئ المنصورَ المريني بفتح مراکش :

فتحُ تَبَشَّمَتِ الاكوانُ عنه فَمَا رأيتَ أملج منه مَبْسِماً وفَمَا
فتح كما فتح البستانُ زهرته ورَجَّع الطيرُ في أفنانه نغما
فتح كما انشقَّ صبحٌ في قميص دُجى
وطرّفَ البرقُ في أرْدَانِه علما
اضحتْ له جنةُ الرضوان قد فُتِحت أبوابها وفؤادُ الدين قد نِعِما
الحمدُ لله هذا ما وُعدتَ به يا خيرَ مَنْ وَلِي الدُنيا وَمَنْ حَكَمَا
لن يُخلفَ الله وعداً كانَ واعدَه
فاشكُرْ يضاعفُ لك الحُظُّ الذي قُسمَا

بفتح مرّ أكش عمّ السرورُ فما يكابدُ الغمّ الا قلبُ من ظلما
 حبا بها الله مولانا الاميرَ كما حبا أباه فأسنى فتحها لهما
 فلم يزل سعدده المألوفُ متصلا بسعد والده المنصورِ مُنتظما
 فدولةُ الدين والدنيا قد اختلفتْ في الفتح والنصر والتأييد بينهما
 أفاقَت الارضُ من نوم بها وصحتْ

وأصبحت وهي تلجّي الشكرَ والحلما
 لما رأت رايةَ السلطان قد رفعتْ في أفقها قرعتْ اسنانها ندما
 فاستقطفت منه قولاً من سجيته أن يحقرَ الذنب والعوار إن عظمأ
 من سنة الله ان يُحيى خليقته على يدك وأن يكفيها النقا
 وأن يُقيم بك الاسلامَ من أودٍ وأن يُديم بك الاحسانَ والنعما
 وأن يُقرّرَ عيوبَ المسلمين وأن

يشفي الصدورَ وان يُبري بك السقما
 بُشراك يا مالك الدنيا وحافظها فأنت أفضلُ من آوى ومن رحما
 إننا نسخنا معاليك التي رآفت فلم نر البأس فيها بُزّ للكرما
 كما نظرنا الى يُمناك من كُتب فلم ترَ السيفَ فيها يُسلم القلما
 لله منك مليكٌ لا نظيرَ له لولاك كان وجود الدين قد عُدما
 ملكٌ بصيرٌ بأدواء الامور له رأيٌ نجيح وطبٌ يذهبُ الألما
 عدلُ الحكومة ما ضي العزم معتدل كالريح يُمضي بعدلٌ كلما عزما

سيفٌ وسَيْبٌ وعدلٌ بعد مقدرةٍ وبطشةٌ وأناةٌ تجمع الحكما
ان غابَ عنك فان الأذن شاهدةٌ

وان تُشاهد به لم ينطق وقد فهما

الله أعطاه علماً من لدنه فلم
وَمَنْ تَخَيَّرَهُ لِلدِّينِ خَالِقَهُ
سُبْحَانَ مَنْ يَجْمَعُ الْفَضْلَ أَفْرَدَهُ
فَلْيُورَى أَنْ يَقُولُوا عِنْدَ رُؤُوسِهِ
مَوْلَايَ يَهْدِيكَ مَا أُعْطِيتَ مِنْ ظَفَرٍ
وَعَنْ قَرِيبٍ إِلَى يُمْنِكَ مَرَجِعُهُمْ
أَيْنَ الْمَفْرُوقِ وَخَيْلُ اللَّهِ تَطْلُبُهُمْ
كَمْ مِنْ مُصِرٍّ يُلَاقِي مَا جَنَّتْ يَدُهُ
أَنْتَ الْإِمَامُ لِبَعْضِ السُّهُوِ تَحْمِلُهُ
وَقَدْ كَفَى اللَّهَ كَفَ الْخَائِنِينَ وَقَدْ
يَا بِنْتَ فِكْرِي ضَعِيَ عَنْكَ النَّقَابُ إِذَا

بَلَغَتْ حَضْرَتَهُ ثُمَّ انْشَرِي النَّظْمَا
وَذَكِّرِيهِ فَإِنَّ الذِّكْرَ مَنْفَعَةٌ
وَذَاكَ فِي مُحْكَمِ التَّنْزِيلِ قَدْ رُسِمَا
مِنْ عَبْدِهِ مَالِكٍ مَمْلُوكٍ دَوْلَتُهُ
عَلَى الْقَدِيمِ وَيُرْعَى السَّيِّدُ الْقَدَمَا

ولابي جعفر الجنان المكناسي يُهني نَقِيهاً من مرض :

إِلْبَسِ الصِّحَّةَ بُرْداً قَشِيّاً وارْشِفِ النِّعْمَةَ ثَغْراً شَنِيباً
واقْطِفِ الآمالَ زَهْراً نَضِيراً واعْطِفِ الإِقْبَالَ غُصْناً رَطِيباً
إِنْ يَكُنْ ساءَكَ وَءَكَ تَقْضَى تَجِدِ الأَجَرَ عَظِيماً رَحِيباً
فانْتَعِشْ دَهْرَكَ ذَا فِي سُورٍ يُصْبِحِ الحاسِدُ مِنْكَ كَثِيباً

وللعلاّمة ابن هانئ السبّتي مُراجِعاً أبا القاسم الشريف عن شعر بعثه
إليه من نفس الوزن والروي :

لولا مَشِيبٌ بُفَوْدِي لِلْفُؤَادِ عَصَى أُنْضِيتُ فِي مَهْمَةِ التَّشْيِيبِ قُلُصَا
واستوقفتُ عِبرَاتِي وَهِيَ جاريةُ وكَفَاءُ تَدْهَمُ رُبْعاً لِلْحَبِيبِ قُصَا
مُسائِلاً عَنْ لِيَالِيهِ الَّتِي انْتَهَزَتْ أَيْدِي الأَمَانِي بِهَا مَا شِئْتَهُ فُرْصَا
وَكُنْتُ جَارِيتُ فِيهِ مِنْ جَرَى طَلَقاً مِنْ الإِجَادَةِ لَمْ يَجْمَعْ وَلَا نَكْصَا
أَصَابَ شَاكِلَةَ المَرْمِيِّ حِينَ رَمَى مِنْ الشَّوَارِدِ مَا لَوْلَاهُما اقْتِنِصَا
وَمَنْ أَعَدَّ مَكَانَ النِّبْلِ نَبْلَ حَجِي لَمْ يَرْضَ الا بِأَبْكَارِ النُّهَى قَنْصَا
ثُمَّ انْتَنَى ثَانِياً عِطْفَ النِّسِيبِ إِلَى مَدْحٍ بِهِ قَدْ غَلَا مَا كَانَ قَدْ رُخْصَا
فَظَلْتُ أَرْفُلُ فِيهَا لِبَسَةً شَرُفْتُ ذَاتاً وَمُنْتَسِباً أُعْزِزُ بِهَا قُمْصَا
يَقُولُ فِيهَا وَقَدْ خُوِّلْتُ مِنْحَتَهَا وَجُرْعَ الكاشِحِ المُغْرِى بِهَا غُصْصَا

هذي عقائلُ وافتُ منك ذا شرفٍ لولا أياديهِ بيعَ الحمدُ مُرتخصاً
فقلتُ هلاً عكستَ القولَ منك له ولم يكن قابلاً في مدحه الرخصاً
وقلتُ ذني بكَرُ فكَرٍ من أخي شرفٍ

يُردي ويرضي بها الحسادُ والخلصا

لها حلّى حسيّاتٍ على حلٍ حُسنِيّةٍ تستبي من حلٍّ أو شخصاً
خولتها وقد اعتزّت ملابسها بالبحث ينقاد للانسان ما عوصاً
خذها أبا قاسمٍ مني نتيجةً ذي ودّ اذا شيبَ ودّ للورى خلصاً
جاءت تجاوبُ عما قد بعثت به ان كنت تأخذ من دُرّ النحور حصي

ولا بن عبد المنان في أبي عنان المريني حين ظفّره بالثائر أبي مهدي :

مُحْيَاكُ أبهى لا الهلالُ ولا البدر وريقك أشهى لا الزُّلالُ ولا الخمر
ولحظك أنكى لا البواترُ تنتضي وعرفك أذكى لا الأزاهرُ تفتّر
أيا ملك القلب الذي جار في الهوى عليه ترفق ربّها وهنّ الصبر
ويا باخلاً حتى بطيف خياله نشدتك هل في الطيف تبعثه وزر
أعندك أني منذ أضمرت هجرةً

هجرت الكرى شهد أسوى سنّة تغرّو

ولم يُبق مني السقمُ الا صباةً بحكم الهوى العذري عند الهوى عذر

أَلِفْتُ الْهُوَى حَتَّى اسْتَلَنْتُ صَعَابَهُ
وَقَالَ وَشَاةُ الْحَبِّ سِحْرُ أَصَابِهِ
لَكَ الْخَيْرُ هَذَا نَعْتٌ حَالِي جَمَلَةٌ
بِنَفْسِي نَشْوَانُ الْمَعَاطِفِ عَاطِفُ
لَهُ الْوُدُّ مِنِّي وَالْخُلُوصُ وَعِنْدَهُ
أَلَا إِنَّ إِنْعَامَ الْخَلِيفَةِ فَارِسِ
مَلِيكَ مَمْلُوكِ الْأَرْضِ أَوْحَدُهَا الَّذِي
غَمَامُ النَّدَى الْهَطَالِ وَالْجَوُّ أَغْبَرُ
إِذَا مَا تَرَاءَى الْبَدْرُ يَوْمًا وَوَجْهُهُ
تَأَخَّرَ عَصْرًا فِي الْمَمْلُوكِ وَإِنَّهُ
إِمَامُ الْهَدَى شُكْرًا عَلَى النِّعَمِ الَّتِي
لَكَ الْجُودُ تُرَدِّي الْمَارِقِينَ جُنُودَهُ
وَعَاوِي رَنَا فِي هُوَّةِ الْمَلِكِ قَازِفًا
أَغَارَ عَلَى الدِّينِ الْحَنِيفِ يَهْدُ مِنْ
وَرَامَ مَرَامًا دُونَهُ النِّجْمُ سَارِيًا
وَحَتَّى تَسَاوَى عِنْدِي الْخُلُوفُ وَالْمُرُ
فَهَلْ عَلِمُوا مِنْ لَحْظٍ مِنْ ذَلِكَ السَّحَرِ
وَشَرَّ حَافِلٍ لِلْعَطْفِ مِنْ بَعْدِهِ ذِكْرُ
كَغُضْنِ النَّقَا كَالظُّبِيِّ خَامِرِهِ ذُعْرُ
تَجَنُّ كَمَا تَهْوَى الْمَلَا حَةَ أَوْ هَجْرُ
لَنَا الْصَفْوُ مِنْ قِيَاضِهِ وَلَهُ الشُّكْرُ
بِهِ عَلَتْ الْعَلِيَاءُ وَافْتَخَرَ الْفَخْرُ
وَلَيْثُ الْفِدَا وَالْبَيْضُ قَانِيَةُ خُمْرِ
تَحَيَّرَتْ الْأَبْصَارُ أَثَمَهَا الْبَدْرُ
إِذَا عُدَّ أَمْلَاكُ الزَّمَانِ لَهُ الصَّدْرُ
يَضِيقُ إِذَا عَدَّدَتْهَا الْعَدُوُّ وَالْحَصْرُ
بِاقْطَارِهِمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْرَحَ الشُّقْرُ
بِهِ الْبَغْيُ وَالرَّأْيُ الْمُضِلُّ وَالْغَدْرُ
قَوَاعِدُهُ مَا شَادَهُ الْقَادَةُ الْغُرُ
وَلَمْ يَدْرِ جَهْلًا أَنَّهُ الْمُرْتَقَى الْوَعْرُ

وهيهات يأبى الله ذلك والعلی
 جنی ثمر الايمان بالبغی واعتدی
 فیا عجیباً بعد السعادة ناله
 سعی راشداً شطراً (من العمر) وافرأ
 عصی الله فی الشطر الأقل سفاهة
 ورام غنی بالصفیر أو سدّ خلة
 وأمل فی أعدادهم کتم نفسه
 لعلک عیسی رمت باسمک برهم
 دعوتهم للغدر لما تخذته
 فكان النصارى منك أوفی بدمّة
 لئن رمت دنیا أنت قاره بها الذي

له الحرثُ ، والأنعام والخیل والتبرُّ
 وان كنت للأخرى جنحت ولم یکن-

أعدّ نظراً ان شئت ما هكذا الامر
 فأدرکک الطوفان وهو الظبا البئر
 وأوتیت الى تلك الرّبا غیر صالح
 وجردُ كأمثال الروایي سوانح
 وغلبُ كأشد الغاب یقدمها النصر
 وسعدُ إمام یخدم الدهرُ سعده
 وتجري بما یومی به الأتجم الزهر

أَلَا يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِي اهْتَدَى
أَطَعْتَ مَلِيكَ النَّاسِ رَبَّكَ فَاعْتَدَى
وَأَنْتَ الَّذِي جَدَّدْتَ بَعْدَ دُرُوسِهَا
مَنْحَتَ فَاوَسَّعْتَ الْبِلَادَ رَغَائِبًا
تَدَاعَتْ لَكَ الْأَمْلاكَ دُونَكَ رَغْبَةً
كَأَنِّي بِأَقْطَارِ الْبِلَادِ مُنِيبُهَا
وَأَنْسَ أَرْجَا تُونِسٍ أَمْرُكَ الَّذِي

هُوَ الْعَدْلُ يُرِضِي مَنْ لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ
وَجَاشَتْ بِبَطْحَاهَا الْجِيُوشُ وَأَصْبَحَتْ

تَقُولُ بَنُو الْعَبَّاسِ قَدْ فُتِحَتْ مِصْرُ^١
لَعَمْرِي لَقَدْ زُنْتَ الْخِلَافَةَ فَاعْتَدْتَ
وَرَأَيْتُكَ بِكَ الدُّنْيَا جَمَالًا وَبِهَجَّةً
وَأَنْجَمُهَا حَلِيٌّ وَنَجْوَى نَسِيمِهَا
وَدُونُكَهَا عِزٌّ أَجْلُو عَرُوسِهَا
لَهَا تَسْبُ فِي السَّحْرِ تَعْرِفُهُ النَّهَا
وَهُنَيْتُ عِيدَ النَّحْرِ وَالْفَتْحَ إِنَّهُ

يُقَصِّرُ عَنْ أَوْصَافِهَا النِّظْمُ وَالنَّثْرُ
فَإِظْلَامُهَا صُبْحٌ وَإِصْبَاحُهَا بَشْرُ
ثَنَاءٌ بِمَا تُؤَلِّي وَإِيمَاضُهَا تَغْرُ
عَلَيْكَ وَمَرْجُوُّ الْقَبُولِ لَهَا مَهْرُ
وَأَنْ قَالَتِ الْأَسْمَاعُ وَالذُّهَى الشُّعْرُ
لَكَ الْعِيدُ مِنْهُ وَالْعِدَا لَهَا النَّحْرُ

١ - هو تلميح لقول ابن هانئ :

تَقُولُ بَنُو الْعَبَّاسِ قَدْ فُتِحَتْ مِصْرُ

فَقُلْ لِبَنِي الْعَبَّاسِ قَدْ قَضِيَ الْأَمْرُ

بقيتَ لدين الله رِداءً وعِصمةً فما غيرُ عليّك الزمانُ له ذُخْرُ

وللقاضي أبي عبدالله الفشتالي في أبي عَنان أيضاً :

أيا إماماً ندَى كَفَّيْهِ قد وَكفا حَسْبِي اعتصامي بجبلٍ منكم وكَفَى
وكيف أَصْرِفُ وَجْهَ القصدِ عن مَلِكٍ

ما صدَّ عني سَناءُ بَشَرٍ ولا صَرَفَا
ما إنْ شَكَوتُ بما أَضْنَى تَطَلُّبُهُ
ولا وَقَفْتُ عَلَيْهِ مُنْتَهَى أَمَلِي
الْأَوْجَدْتُ بِهِ لي من ضَنائي شِفَا
في كلِّ يومٍ له تجديدُ عارِقَةٍ
الاقْضَى وطراً منه وما وَقفا
وليس مَن يَرى أنْ لا يُتِيحَ يدَا
مِها انْقَضَتْ هذه لهذه ائْتَنَفَا
حتى يُقامَ له بِشُكْرِ ما سَلَفَا

ولمحمد بن أحمد الشُّبُوكي الفاسي يمدح أبا فارس المريني ويحرضه
على الشيخ عامر بن محمد الهنتاتي صاحب جبل هنتاة لما خرج عليه
بأبن أخيه الملقب بالمُعتمد :

أَبان في حَبِّهِ ما قال عاذِلُهُ
دَمَعُ جَرى فوق صَفْحِ الخَدِّ هَامِلُهُ
غِبات من وُطْأَةِ التَّفْرِيقِ ذا وَجَلِ
يَسْتَنْجِدُ الصبرَ عَوْناً وهو خاذِلُهُ
صَبٌّ إذا ما بدا بالرَّقْمَتَيْنِ له
وَمِضُّ بَرَقِ الحِمى هاجت بلائِلُهُ
يَبْكِي لِمَنْزِلِ أنسٍ بانَ آهِلُهُ
وظاعِنٍ عنه قد شَطَّتْ مَنازِلُهُ
يا حُسْنَ عَضْرِ بَهِمِ قَضِيَّتُهُ زَمَنًا
رَقَّتْ حواشيه اذ راقَتِ أَصائِلُهُ

كَأَنَّ صَوْبَ دَمَوْعِي بَعْدَ بُعْدِهِمْ سَيَّبُ الْمَلِيكَ إِذَا وَافَاهُ سَائِلُهُ
عَبْدُ الْعَزِيزِ الَّذِي عَزَّتْ بَدَوْلَتُهُ مَهَايِعُ الْحَقِّ وَانْجَابَتْ دَلَائِلُهُ
وَأَصْبَحَ الْمَلِكُ فِي أَمْنٍ وَفِي دَعَاةٍ مِنْ بَعْدِ مَا كَانَ غَالَتُهُ غَوَائِلُهُ
عَادَتُهُ بَعْدَ عَنَا مِنْهُ نَضَارَتُهُ فِعَادَ يَانِعُهُ وَاشْتَدَّ كَاهِلُهُ
كَالرَّوْضِ بَاكَرِهِ طَلٌّ عَلَى ظَلْمٍ وَجَادَهُ بَعْدَ ذَلِكَ الطَّلُّ وَآبِلُهُ
هُوَ الْإِمَامُ الَّذِي مَنْ أَمَّ سَاحَتَهُ جَادَتْ عَلَيْهِ بِجَدُّوَاهَا أَنْامِلُهُ
وَمَنْ تَخَلَّفَ جِهلاً عَنْ إِيَابَتِهِ سَارَتْ إِلَيْهِ عَلَى عِلْمٍ صَوَاهِلُهُ
قُلُوبٌ لِلَّذِي عَنْهُ أَقْصَتْهُ جَرَائِمُهُ وَعَقَلَتْهُ عَنِ الْعُلْيَا مَعَاqِلُهُ
زُرْ حَضْرَةَ الْمَلِكِ الْمَيْمُونِ طَالِعُهُ تَحْطِي بِمَا أَنْتَ فِي دُنْيَاكَ آمِلُهُ
فَطَبَعَهُ الصَّفْحُ وَالْمَعْرُوفُ شَيْمَتُهُ وَالْحِلْمُ وَالصَّوْنُ وَالتَّقْوَى شِمَائِلُهُ
وَأَبْلِغْ جَمِيعَ الْعِدَا أَنْ سَوْفَ يَشْمَلُهُمْ

مِنْ الطُّبَا كُلِّ مَاضِي الْحَدِّ فَاصِلُهُ
هَذَا الْمَلِكُ أَتَاهُمْ فِي كِتَابِهِ
بِكُلِّ خَرْقٍ^(١) طَوِيلِ الْبَاعِ مُتَّيْدٍ
لِنَسْخِ آجَالِهِمْ تُنْضِي رَوَاحِلَهُ
وَجَحْفَلٍ فِيهِ سُمْرُ الْخَطِّ مُشْرَعَةٌ
مُقَصِّرٍ عُمَرٍ مَنْ تَلْقَى مَنَاصِلَهُ
سَيَعْلَمُ الْعُمَرُ عُقْبَى مَا جَنَاهُ إِذَا
قَدْ حَجَبَتْ أَنْجَمُ الشَّعْرِى قَسَاطِلُهُ^(٢)
كَلَّتْ مَوَاضِيهِ وَأَنْقَضَتْ كَلَالُ كُلِّهِ

١ - الخرق : الكريم السخي .

٢ - جمع قسطل ، وهو الغبار الساطع في الحرب .

فَانْهَضُ إِلَيْهِمْ أَمِيرَ الْمُسْلِمِينَ فَقَدْ أُعْطِيَ كُلُّ الْمُتَمَنَّى فِيهَا تَحَاوِلَهُ
مَنْ ذَا يَنْزِلُ جَيْشاً أَنْتَ قَائِدُهُ يَوْمَ الْكُرْبِيَّةِ أَوْ مَنْ ذَا يُنَاضِلُهُ
أَلَا تَرَى الْمَائِقَ الرَّعْدِيدَ حِينَ عَتَا

وَأَضْمَرَ الْمَكْرَ صَادَتْهُ حَبَائِلُهُ

ظَنَّ الظَّانِينَ بِأَنْ يَسْمُو وَيَعْلُو فِي دُنْيَا سَمَتْ وَعَلَتْ فِيهَا بِوَاطِلِهِ
فَغَادَرَتْهُ الصَّعَادُ الزُّرْقُ مُنْجِدِلاً فَوْقَ الصَّعِيدِ تُنَاجِيهِ جَنَادِلُهُ
دُنْيَاهُ تَضْحَكُ مِنْ أَحْوَالِهِ عَجَباً بِهِ وَفِي الْحَيِّ تَبْكِيهِ أَرَامُهُ
فَلَيْسَ دِينَ الْهُدَى مِنْ بَعْدِ صَدْمَتِهِ أَنْ أَنْتَ يَا ذَا الْمُحْيَا الطَّلُقَ كَافِلُهُ
لَمْ يَنْتَصِبْ قَطُّ فِي الدُّنْيَا لَوَاءٌ عَلَى الْأَوْ مِنْ آلِ عَبْدِ الْحَقِّ حَامِلُهُ
مَوْلَايَ مَوْلَايَ دُمُ مَا عَشْتُ مَصْطَحِباً عَلِيٍّ وَفَخْراً وَعِزّاً لَا تُزَايِلُهُ
إِنْ سَارَ جَيْشُكَ فَالتَّائِيْدُ يَقْدَمُهُ وَالنَّصْرُ عَاجِلُهُ يَقْفُوهُ آجِلُهُ

ولسعيد بن علي الجزولي الحامدي في محمد الشيخ القائم السعدي

يذكر انتصاره على العدو بالسواحل الجنوبية .

لِللَّهِ مَا غَضِبَهُ هَاجَتْ فَمَا تَرَكْتُ لِلْمُسْلِمِينَ بِأَرْضِ الشَّرْكِ مِنْ وَطَرٍ
فَعَالُ مُنْتَقِمِ اللَّهِ مُلْتَزِمِ رُوحِ الْخِلَافَةِ قُطْبُ تَسْتَدِيرُ بِهِ
فِي اللَّهِ مُعْتَصِمِ بِاللَّهِ مُقْتَدِرِ زَانَ الزَّمَانِ بِأَخْلَاقٍ لَهُ شَهْدَتُ
رَحَى الْمَكَارِمِ بَيْنَ الْبَدْوِ وَالْحَضَرِ نَاهِيكَ مِنْ شَرَفٍ يُنْمَى إِلَى حَسْبٍ
بِأَنَّ أَيَّامَهُ لِلدَّهْرِ كَالْغُرَرِ عُدُولُهُ بَيْنَاتُ الْوَحْيِ وَالشُّورِ

يا بَهْجَةَ الدِّينِ والدُّنْيَا الَّتِي بَلَغَتْ بِهِ الْعِنَايَةُ شَأْوَ السَّبْعَةِ الزُّهْرِ
جَمَعَتْ شَمْلَ الْمُعَالِي بَعْدَ فُرْقَتِهَا فَبَاتَ تَغْرُ الْفَخَارَ غَيْرَ مُنْشَغِرِ

وَقَالَ النَّابِغَةُ الْهُوزَالِي فِي إِبْلَالِ الْمَنْصُورِ الذَّهَبِيِّ مِنْ مَرَجِنِهِ :

تَرَدَّى اذَى مِنْ سُقْمِكَ الْبَرُّ وَالْبَحْرُ

وَضَجَّتْ لَشَكْوَى جِسْمِكَ الشَّمْسُ وَالْبَدْرُ

وَبَاتَ الْهَدَى خَوْفًا عَلَيْكَ مُسَهَّدًا وَأَصْبَحَ مَذْعُورًا الْفُؤَادُ النَّدَى الْغَمْرُ

فَلَمَّا أَعَادَ اللَّهُ صَحَّتَكَ الَّتِي أَفَاقَ بِهَا مِنْ غَمِّهِ الْبَدْوُ وَالْحَضْرُ

تَرَاءَتْ لَنَا الدُّنْيَا بِزِينَةِ حُسْنِهَا وَعَادَ إِلَى إِبَانِهِ ذَلِكَ الْبِشْرُ

وَصَارَ بِكَ الْإِسْلَامُ فِي كُلِّ بَلَدَةٍ يَهْنَأُ وَيَدْعُو أَنْ يَطُولَ لَكَ الْعَمْرُ

وَصَحَّتْ لَنَا الْأَمَالُ بَعْدَ اعْتِلَالِهَا وَعَادَتْ إِلَى الْإِنْعَادِ غَصَانُهَا الْخُضْرُ

وَلَا غَرُّوْا أَنْ خَافْتُ عَلَى عَيْلِمِ النَّدَى

إِذَا انْغَبَرَّ وَجْهُ الْأَرْضِ وَاحْتَبَسَ الْقَطَرُ

لِسَيْبِ أَبِي الْعَبَّاسِ أَنْضَتْ عِجَافَهَا قَدِيمًا فَخَافَتْ أَنْ يَعَاوِدَهَا الضَّرُّ

لَئِنْ صَدَيْتَ بَيْضَ الْمُعَالِي لَقَدْ غَدَتِ

نَشَاوَى الْكَمَامَةِ الْبَيْضِ وَاللُّدُنُ السُّمْرِ

بَقِيَتْ لِهَذَا الدِّينِ تَحْمِي ذِمَارِهِ وَيَحْمِيكَ رَبُّ الْعَرْشِ مَا بَقِيَ الدَّهْرُ

وَلَهُ يَهْنِئُهُ بِفَتْحِ السُّودَانِ وَدُخُولِهِ فِي طَاعَتِهِ :

أَلَمْتُ وَقَدْ أَلَوَى عَلَى وَضْلِهَا الْهَجْرُ كَمَا افْتَرَّ إِثْرَ اللَّيْلِ عَنْ تَغْرِهِ الْفَجْرُ

وَجَلَّى وَقَدْ لَاحَتْ دُجَى اللَّيْلِ وَجْهَهَا

كَمَا نَضَّرَ سَجَفَ اللَّيْلِ مِنْ وَجْهِهِ الْبَدْرُ .

تُسَاقِطُ لِي دُرًّا لَقَطْتُ فَرِيدَهُ بَأْنَمُلٍ سَمِعَ فِيهِ عَيْنَ غَيْرِهِ وَقَرَّ
تُحَدِّثُ عَنْ مَسْرَى سَوَارٍ رَمَتْ بِهَا مَرَامَ تَضِلُّ النَّهْجَ فِي فَيْحِهَا الزُّهْرُ
تَحَامِي هَوَاهَا الطَّيْرُ مِنْ خَشْيَةِ الرَّدَى قَدِيمًا وَأَعْيَا الرِّيحَ مَسْلُكُهَا الْوَعْرُ
وَجَشَمَهَا الْمَنْصُورُ خُرْسَ كَتَائِبِ تُحْمَلُ مَا يَرُوي فِي حِمْلِهِ الصَّبْرُ
تُقَادُ نَوَاصِيهَا بِكُلِّ مُتَوَجِّجٍ نَمَتْهُ إِلَى عَدْنَانَ آبَاؤِهِ الْغَرَّ
عَلَى كُلِّ مَحْبُوكِ السَّرَاقَةِ إِذَا جَرَى مَعَ الرِّيحِ فَاتِ الرِّيحِ مِنْ عَدُوِّهِ حَضَرَ
صَوَافِنُ يَنْمُوها وَجِيهٌ وَلَا حَقُّ مُطَهَّمَةٌ دُهِمٌ وَمَقْوَرَةٌ شُقْرُ (١)
بُمرْهَفَةٍ مَأْثُورَةٍ مَشْرِيقَةٍ تَوُمُّ غَرَارِيهَا رَدَّيْنَةَ سُمُرٍ
غَدَتِ تَحْمِلُ الْمَوْتَ الزُّوَامُ يَحُوطُهَا وَيَكْنُفُهَا يُمْنٌ يُشِيَعُهُ نَصْرُ
فَحَلَّتْ بَارِضَ السُّودِ لَمْ يَثْنِ عِزُّهَا مَهَالِكُ صَدٍّ عَنْ مَسَالِكِهَا الذُّعْرُ
وَرَامَتْ بَنُو حَامٍ لِجَهْلِ بِقَدْرِهَا دِفَاعًا فَبَاتَتْ فَوْقَ آنَافِهَا الْعَفْرُ
هَمَى فَوْقَهَا وَطَفُ الْمَنَايَا بِحَاصِبِ ظَوَامِي عِبَالِ النَّبْلِ مِنْ فَيْضِهِ جَمْرُ
لَقَدْ ذَكَرَ الْحُبْشَانُ مِنْ وَقَعِهَا بِهِمْ وَقِيَعَةً يَوْمَ الْفِيلِ لَوْ يَنْفَعُ الذِّكْرُ
هَنِيئًا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ فَقَدْ قَضَى عَلَى كُلِّ مَنْ نَاوَاكَ أُسَيْافُكَ الْبُتْرُ
لَئِنْ أَسْلَمْتَ أَرْضَ الْجَنُوبِ مَقَادَهَا فَعَنْ كَثَبٍ تُلْقِي مَقَالِيدَهَا مِصْرُ

وَتَزَوَّرُ زَوْرَاءُ الْعِرَاقِ فَتَهْتَدِي إِلَيْكُمْ وَأَعْنَاقُ الْعِدَا تُخَضَّعُ صُغَرُ
وَتَخْفُقُ بِالْوَادِي الْمَقْدَسِ رَايَةُ عَلَيْكَ وَتَهْوِي فِيهِ أَلْوِيَةُ حُمْرِ
فَدُمُ لِفُتُوحٍ يُسْتَحْتُ لِنَيْلِهَا إِلَى كُلِّ قُطْرٍ مِنْكَ ذُو لَجَبٍ مَجْرُ

ولعبد العزيز الفشتالي يمدحه ويهنئه بالمولد الشريف :

هُمْ سَلَبُونِي الصَّبْرَ وَالصَّبْرُ مِنْ شَانِي وَهُمْ حَرَمُوا مِنْ لَذَّةِ الْغَمَضِ أَجْفَانِي
وَهُمْ أَخْفَرُوا فِي مَهْجَتِي ذِمَمَ الْهَوَى فَلَمْ يَنْثَنِهِمْ عَنْ سَفْكِهَا حُبِّي الْجَانِي
لَيْنٍ أَتَرَعُوا مِنْ قَهْوَةِ الْبَيْنِ أَكُوْسِي فَشَوْقُهُمْ أَضْحَى سَمِيرِي وَنَدْمَانِي
وَأَنْ غَادَرْتَنِي بِالْعَرَاءِ حُمُولُهُمْ كَفَى أَنْ قَلْبِي جَاهِدُ إِثْرَ أَطْعَانِي
قَفِ الْعَيْسَ وَأَسْأَلُ رَبَّعَهُمْ آيَةً مَضَوَا أَلِلْجِرْعَ سَارُوا مُدْجِلِينَ أَمِ الْبَانِ
وَهَلْ بَاكِرُوا بِالسَّفْعِ مِنْ جَانِبِ اللَّوَى مَلَاعِبَ آرَامٍ هُنَاكَ وَغَزْلَانِ
وَأَيْنَ اسْتَقَلُّوا هَلْ بِهِضْبٍ تَهَامَةٍ أَنَاخُوا الْمَطَايَا أَمِ عَلَى كُثْبٍ نَعْمَانِ
وَهَلْ سَالَ فِي بَطْنِ الْمَسِيلِ تَشَوُّقًا نَفُوسٌ تَرَامَتْ لِلْعَلَا قَبْلَ جُثْمَانِ
وَإِذْ زَجَرُوهَا بِالْعَشِيِّ فَهَلْ ثَنَى أَزِمَّتَهَا الْحَادِي إِلَى شَعْبِ بَوَّانِ
وَهَلْ عَرَّسُوا فِي دَيْرٍ عَبْدُونَ أَمْ سَرَوْا يَوْمٌ بِهِمْ رُهْبَانُهُمْ دَيْرُ نَجْرَانَ
سَرَوْا وَالْدُّجَى صَبَغُ الْمَطَارِفِ فَانْتَنَى

بِأَحْدَاثِهِمْ شَتَّى صَفَاتٍ وَأَلْوَانِ
وَأَذْلَجَ فِي الْأَسْحَارِ بَيْضُ قَبَائِبِهِمْ فَلَحْنُ نُجُومًا فِي مَعَارِجِ كُشْبَانِ

لَكَ اللَّهُ مِنْ رَكْبٍ يَرَى الْأَرْضَ خُطْوَةً

إِذَا زَمَّهَا بُدْنًا نَوَاعِمَ أَبْدَانِ

أَرْحَهَا مَطَايَا قَدْ تَمَشَّى بِهَا الْهَوَى
وَيَمُّمُ بِهَا الْوَادِي الْمُقَدَّسَ بِالْحَمَى
وَأَهْدِ حُلُولَ الْحَجَرِ مِنْهُ تَحِيَّةً
لَقَدْ نَفَحْتُ مِنْ شَيْخٍ يَثْرِبُ نَفْحَةً
وَفَتَّتْ مِنْهَا الشَّرْقُ فِي الْغَرْبِ مَسْكَةً
وَأَذْكُرُنِي نَجْدًا وَطَيْبَ عَرَارِهِ
أَحْنُ إِلَى تِلْكَ الْمَعَاهِدِ إِنَّهَا
وَأَهْفُو مَعَ الْأَشْوَاقِ لِلْوَطَنِ الَّذِي
وَأَصْبُو إِلَى أَعْلَامِ مَكَّةَ شَانِقًا
أَهِيلَ الْحِمَى دَيْنِي عَلَى الدَّهْرِ زَوْرَةً
مَتَى يَشْتَفِي جَفْنِي الْقَرِيحُ بِنَظَرَةٍ
وَمَنْ لِي بَأْنُ يَدُنُورِ ضَاكُمِ تَعَطُّفًا
سَقَى عَهْدَهُمُ بِالْخَيْفِ عَهْدٌ^(١) تَمُدُّهُ
وَأَنْعَمَ فِي شَطِّ الْعَقِيقِ أَرَاكَةَ
وَحِيًّا رُبُوعًا بَيْنَ مَرْوَةٍ وَالصَّفَا

تَمَشَّى الْحَمِيًّا فِي مَفَاصِلِ أَبْدَانِ
بِهِ الْمَاءُ صَدًّا أَوَّالِ الْكَلَالَةِ نَبْتُ سَعْدَانِ
تَقَاوَحُ عُرْفًا ذَا كَيْي الرَّنْدِ وَالْبَانِ
فَهَا جَتُّ مَعَ الْأَسْحَارِ شَوْقِي وَأَشْجَانِي
سَحَبْتُ بِهَا فِي أَرْضِ دَارِينَ أَرْدَانِي
نَسِيمُ الصَّبَا مِنْ نَحْوِ طَيْبَةِ حَيَّانِي
مَعَاهِدُ رَاحَاتِي وَرَوْحِي وَرَيْحَانِي
بِهِ صَحَّ لِي أَنْسِي الْهَنِيئُ وَسُلْوَانِي
إِذَا لَاحَ بَرْقٌ مِنْ شَمَامٍ وَثَلَّانِ
أُحِثُّ بِهَا شَوْقًا لَكُمْ عَزْمِي الْوَانِي
يُزَجُّ بِهَا فِي نُورِكُمْ عَيْنُ إِنْسَانِي
وَدَهْرِي عَنِّي دَائِمًا عِطْفُهُ ثَانِ
سَوَافِحُ دَمْعٍ مِنْ شَوْوَنِي هَتَّانِ
بِأَفْيَائِهَا ظِلُّ الْمُنَى وَالْهَوَى دَانِ
تَحِيَّةٌ مُشْتَاقٌ لَهَا الدَّهْرُ حَيْرَانِ

ربوعاً بها تتلو الملائكة العلا
 وأول ارضٍ باكرت عرصاتها
 وعرس فيها للنبوة موكب
 وأدى بها الروح الأمين رسالة
 هنالك فض ختمها أشرف ألورى
 محمد خير العالمين بأسرها
 ومن بشرت بالبعث من قبل كونه
 وحكمة هذا الكون لولاه ماسمت
 ولا زخرقت من جنة الخلد أربع
 ولا طلعت شمس الهدى غب دجية
 ولا لحقت بالمدنبيين شفاعة
 له معجزات أخرست كل جاحد
 له انشق قرص البدر شقين وارتوى

بماء همى من كفه كل ظمئات
 وأنطقت الأوثان نطقاً تبرأت
 دعاسرحة عجماً فلبت وأقبلت
 تجر ذبول الزهر ما بين أفنان
 وضاعت قصور الشام من نوره الذي
 علا كل قطر نازح القطر أو دان

وقد بهج الأنواء بدعوته التي كست أوجه الغبراء بهجة نيسان

وإن كتاب الله أعظم آية
وعدي على شاور البليغ بيانه
نبي الهدى من اطلع الحق أنجماً
بعزتها ذل الأكرسة الألى
وأحرز للدين الحنفي بالظبا
ونقع من سمر القنا السم قيضراً
وأضحت ربوع الكفر والشرك بلقعاً

يُنَاغِي الصِّدَا فِيهِنَّ هَاتِفُ شَيْطَانِ
وَأَصْبَحَتِ السَّمَاءُ تَرُوقُ نَضَارَةً
وَوَجْهُ الْهَدَى بَادِي الصَّبَاحَةِ لِلرَّانِي
أَيَاخِرُ أَهْلِ الْأَرْضِ بَيْتًا وَمَحْتَدًا
وَأَكْرَمُ كُلِّ الْخَلْقِ عَجْمًا وَعُرْبَانِ
فَمَنْ لِلْقَوَافِي أَنْ تُحِيطَ بِوَصْفِكُمْ
لَوْ سَجَلْتُ سَبْقًا مَدَائِحَ حَسَّانِ
لِتُسْقَى بِمُزْنٍ مِنْ أَيْدِيكَ هَتَّانِ
إِلَيْكَ بَعَثْنَاهَا أَمَانِي أَجْدَبْتُ
وَأَثَقَلْتُ الْأَوْزَارُ كَفَّةَ مِيزَانِي
أَجْرُنِي إِذَا أَبْدَى الْحِسَابُ جِرَائِمِي
لَمَّا فُتِحَتْ أَبْوَابُ عَفْوٍ وَغُفْرَانِ
وَمَاسَتْ عَلَى كُتُبَانَا مُلْكُ قَضْبَانِ
عَلَيْكَ سَلَامُ اللَّهِ مَا هَبَّتِ الصَّبَا

وَحَمَلٌ فِي جَيْبِ الْجَنُوبِ تَحِيَّةٌ
إِلَى الْعُمَرَيْنِ صَاحِبَيْكَ كَلِمَتُهَا
وَحِيًّا عَلِيًّا عَرَفُهَا وَأَرِيحُهَا
إِلَيْكَ رَسُولَ اللَّهِ صَمَّمْتُ عَزَمَةً
وَوَخَّطْتُ مَنِيَّ الْقَلْبِ وَهُوَ مُقَلَّبٌ
فِيهَا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ أَزُمُّ قَلَائِصِي
وَأُطْوِي أَدِيمَ الْأَرْضِ نَحْوَكِ رَاحِلًا
يُرْنَحُهَا فَرَطُ الْحَنِينِ إِلَى الْحِمَى
وَهَلْ تَمَحَوْنُ عَنِّي خَطَايَا اقْتَرَفْتُهَا
وَمَاذَا عَسَى يَثْنِي عَنَّا نِي وَإِنِّي لِي
إِذَا صَدَّ عَنْ زُورَارِكَ الْبَاسُ وَالْغِنَى
عِمَادِي الَّذِي أَوْطَا السَّمَاءَ كَيْنَ أَخْجِصِي

وَأَوْفَى عَلَى السَّبْعِ الطَّبَاقِ فَأَذْنَانِي
أَحَلَّ سُيُوفًا فِي مَعَاقِدِ تَيْجَانِ
إِذَا اضْطَرَبَ الْخَطِيُّ مِنْ فَوْقِ جُدْرَانِ
تَضَاءَلُ فِي أَخْيَاسِهَا أُسْدُ خَفَّانِ
مُتَوَجِّحَ أَمْلَاكِ الزَّمَانِ وَإِنْ سَطَا
وَقَارِي أَسْوَدِ الْغَابِ بِالصَّيْدِ مِثْلُهَا
هَزَبُورٌ إِذَا زَارَ الْبِلَادَ زَيْبُورُهُ

١ - جمع تراب .

٢ - جمع كور وهو الرحل .

وان أطلعت غيم القتام جيوشه
صبتن على أرض العداة صواعقا
كتائب لو يعلون رضوى لصدعت
عديد الحصى من كل أروع معلم
إذا جنَّ ليل الحرب عنهم طلى العدا
من اللاء جرعن العدا غصص الردى
وفتحن أقطار البلاد فاصبحت
إمام البرايا من علي نجاره
دعائهم إيمان وأركان سودد
هم العلويون الذين وجوهم
وهم أهل بيت سيد الله ملكه
وفيهم أتى الذكر الحكيم وصرحت

بفضلهم آيات ذكر وقرآن
فروغ ابن عم المصطفى ووصيه
ودوحة مجد معشب الروض بالعلا
بمجدهم الأعلى الصريح تشرفت
فناهيك من فخرين قربى وقربان
يبدأ بأموال الرسالة ريان
معد على العرباء عاد وقحطان

اولائك فخرى ان فخرتُ على الورى

ونافسَ بيّتي في ألولا يثتَ سلمان^١

اذا اقتسم المدّاحُ فضل فخارهم وقسّمي بالمنصور ظاهرُ رُجحان
امامٌ له في جبهة الدهر ميسمٌ ومن عزّه في مفرق الملك تاجان
سما فوق هابات النجوم بهمة يحومُ بها فوق السموات نسران
وأطلع في أفق المعالي خلافةً عليها وشاحٌ من علاه ويسمطان
اذا ما احتبى فوق الأسيرة وارتدى على كبرياء الملك نخوة سلطان
توسمتَ لقمان الحجا وهو ناطقٌ

وشاهدتَ كسرى العدل في صدر إيوان
وان هزه حرّ الشاء تدفقت أنامله عرفاً تدفق خلجان
أيا ناظر الاسلام شمس بارق المنى وباكر لروض في ذرا المجد فينان
قضى الله في عليك ان تملك الدنيا وتفتحها ما بين سوس وسودان
وأنت تطوي الارض غير مدافع فمن أرض سودان إلى أرض بغداد
وتملأها عدلاً يرفُ لواءه على الهرمين او على رأس غمدان
كم منأت أرض العراق بك العلأ وزفت بك البشرى لأطراف عمان
فلو شارفت شرق البلاد سيوفكم أذاك استلابا تاج كسرى وخاقان

١ - يعني به بيت لسان الدين ابن الخطيب الساماني وقد مر في ترجمته ان
مدوحه المنصور كان يباري به لسان الدين .

ولو نشر الاملاك دهرُك أصبحت
وشايعك السفاح يقتاد طائعا
فما المجد إلا ما رفعت سماكه
وهايك ابكار القوافي جدوتها
أتتك أمير المؤمنين كأنها
تعاطمن حسنا أن يقال شبيها
فلازلت للدنيا تحوط جهاتها
ولا زلت بالنصر العزيز مؤزرا
عِيالاً على عليك ابناء مروان
برأيته السوداء اهل خراسان
على عمد السمر الطوال ومران
تغازلن الحور في دار رِضوان
لطائم مسك أو خمائل بستان
فرائد درر أو قلائد عقيان
وللدين تحميه بملك سليمان
تقاد لك الاملاك في زي عبдан

وللاديب أبي عبد الله محمد بن عبد الله الجزولي يمدح السلطان
مولاي اسمعيل العلوي ، وهي أمثل ما قيل فيه :

مولاي إسمعيل يا شمس الورى
ما انت الا سيف حق منتضى
من لا يرى لك طاعة فالله قد
يا من جميع الكائنات فدى له
الله من دون البرية سله
اعماه عن طرق الهدى وأضله

وللشيخ عبد الواحد بن محمد الشريف البوعناني يهنيه بفتح
العراش :

ألا أبشیر فهذا أفتح نور
وطير السعد نادى حيث غنى
قد انتظمت بعزكم الامور
قد انشروحت بفتحكم الصدور

وقد وافقكم الخيرات طرّاً
 حميتكم بيضة الاسلام لماً
 وجاهدتم وقاتلتم فأنتم
 واطلعتهم صوارمكم نجوماً
 فأنت البدر يوم السلم حسناً
 وفي ثغر العرائش قد تبدى
 لقد كان الملوك فساوموها
 فلما جئتها انقادت وقالت
 ملكت قياد عزتها بذل
 قهرتهم بأبطال ضخام
 فكم رأس^(١) من الكفار امسى
 وكم نحر قلاذته رماح
 وكم أسرى وكم قتلى بأرض
 تمر بها الطيور فتنتقيها
 وأضحى كلهم نشاوى
 فبشراكم بهذا الفتح بشرى
 وطاب العيش واتصل السرور
 بعين الحق قد حُرست ثغور
 لدين الله أقماراً تنير
 لدى هيجاء صاحبها كفور
 وفي يوم ألوى أسد هصور
 لقدركم على الشعري الظهور
 وراموها فبان لها نفور
 اليك بحق مولانا المصير
 فما أغنى الحصار ولا العبور
 على الهيجاء كلهم جسور
 قطع الرأس مجروراً يخور
 وسن الرمح مركزه النحور
 وكم جرّحى دماؤهم تفور
 وبات الذئب وهو لها شكور
 على طرب وما شربت خمر
 وبشراكم بما من الغفور

١ - يعني رئيساً كبيراً بمثابة الرأس فيهم .

به زادت مَا ثِرُكُمْ عَلَوْاً
 ألا يا معشر الكفار هذا
 ألا يا أهل سبتة قد آتاكم
 اذا ما جاء سبتة في عشي
 ووهران تنادي كل يوم
 متى يأتي ويفتحها سريعاً
 فيهمزهم ويقتلهم ويسبي
 ايا مولاي قم وأنقض وثمر
 وجاهدكم وحرابهم وفرق
 ولا يمنع بفضل الله منها
 لسان الحال ينشد كل يوم
 بقرطبة تنال المجد طراً
 وذلكم بعون الله سهل
 ايا مولاي اسمعيل هذا
 يناديكم بناديكم ويدعو
 فيا رب البرية يا الهي
 أثب هذا الامير بكل خير
 وأبق الملك فيه وفي بنيه
 وقد عظمت به لكم الأجور
 يُبددكم وليس له فتور
 بسيف الله سلطان وقور
 تُزف له اذا كان البكور
 متى يأتي الامام متى يزور
 ويلحق أهلها منهم ثبور
 وسيف الحق في يده ينور
 لاندلس فانت لها الامير
 جموعهم فرُبكم النصير
 كما قد قيل بر أو مجور
 ومعنى الحال تفهمه الصدور
 ويأتي العز والملك الكبير
 ومن بركاتكم امر يسير
 عبديكم الضعيف المستجير
 دعاء لا تُعييه الدهور
 ويا رحمان يا نعم المجير
 ولا تجعل تجارتَه ثبور
 ولو كرهت زيود أو عمور

ونحن رعية نرجو هناءً وبالسُّلطان تنتظمُ الامور
عليكم من عبيدكم سلامٌ مَدَى الدنْيا يُضَمُّهُ العَبير
يَعُمُّ جَنابَكُمْ ما قال صبَّ الا أَبْشِرْ فهذا الفَتْحُ نور

ولعبد الله العَلَوِي الشَّنْقِيطِي يمدح الأميرَ مُحَمَّدَ العالم ابن
السُّلطان مولاي اسماعيل :

دَعِ العِيسَ والبَيْداءَ تذرْ عَما شَطَحَها وَسُما بِحُورِ الآلِ تَسبِّحُها سَبِّحَها
ولا تُرْعِها الا الذَّمِيلَ فطالما

رَعَتْ ناضِرَ القَيْصُومِ وَالشَّيْخِ وَالطَّلْحَا
ولا تُصْغِرِ لِلناهِينِ فِما نَوَيْتَه

وَحَفْ حَيْثُ يُخْفِي العِشَّ مَنْ يُظْهِرُ النُّصْحَا
فَكُنْ قَمراً يَفْري الدُّجَا كُلَّ لَيْلَة

ولا تَكُ كالقُمْرِيَّ يَسْتَعْذِبُ الصِّدْحا
وقارِضُ هُمومِ النفسِ بالسَّيرِ والسُّرى

على ثِقَة بالله في نَيْلِكَ الرِّبْحَا
وأُمَّ بِسَاطِ ابنِ الشَّرِيفِ مُحَمَّد

مُبِيدِ العِدا ذَكْرا ومُبِيدِ الهُدَى صُبْحَا
فَتى يَسَعُ الدنْيا كما هي صَدْرُه فَأَمْسَى به صَدْرُ الدِّيانَةِ مُنْذَحَا
ومن هُدِيه ساوَى النِّهارِ وَلِيْلَه فَأَمْسَى يُنِيرُ الخافِقينَ كما أَضْحى

وَمَنْ هُوَ غَيْثٌ أَخْضَلَ الْأَرْضَ رَوْضُهُ
 وَلَيْثٌ يُبْحَقُّ اللَّهُ لَمْ يُبْقِ رُعبُهُ
 أَمِيرٌ مُلُوكُ الْكُفْرِ أَضْحُوا لِسَيْفِهِ
 تَزِيدُ عَلَى الْفَاقَاتِ فَيَضَاتُ كَفَّهُ
 فَلَا تَرْمِ التَّشْبِيهِ فِيهِ فَقَدْ جَرَى
 سَعَى وَسَعَوْا لِلْمَكْرُمَاتِ فَأَقْصَرُوا
 وَفَلَقَ فِيهِمْ بَيْضَةَ الْمَجْدِ قَاسِمٌ
 فَتَى يَسْتَقِيلُ الْبَحْرَ جَوْدُ بِنَانِهِ
 مَسَاعِيهِ فِي الْخُطْبِ الْجَلِيلِ يَرُومُهُ
 صِفَاتُ كَدْرٍ الْبَحْرَ صَفَوَا وَلُجَّةُ
 وَآيَاتُ عِلْمٍ أَغْمَدَ الْجَهْلَ نَوْرُهَا
 وَرَأَى يُرِيهِ الْيَوْمَ مَا فِي حَشَا غَدٍ
 وَبَشَرٌ مُحْيَا عِلْمَ الصَّبْحِ مَا السَّنَا
 وَتَأْلَيْفُهُ أَشْتَاتَ كُلِّ فُضَيْلَةٍ
 كَفَانَا اتِّخَاذَ الْفَالِ فِي الْقَصْدِ يُمْنُهُ
 مَهِيْبٌ نَحْوُفٌ بَطْشُهُ تَحْتَ حِلْمِهِ
 فَاقْدَمَ حَتَّى فَارَقَ الْجَبْنَ صَافِرٌ^(٢)

فَلَا يَظْمَأُ الْآوِي إِلَيْهِ وَلَا يَضْحَى
 عُوَاءٌ لِكَلْبِ التَّرَّهَاتِ وَلَا نَبْحَا
 كَمَا تَبْغَى الذَّبْحَ فِي عِيدِهَا الْأَضْحَى
 فَيَغْرَقُ فِي التِّيَّارِ مَنْ يَأْمَلُ النَّضْحَا
 مَعَ الظَّاهِرِ الْمُدْنِي إِلَى السُّكْرِ الْمُلْحَا
 وَلَمْ يَرْضَ حَتَّى اسْتَكْمَلَ الْكَرْمَ الْقُحَا
 فَنَاولَهُمْ قَيْضًا^(١) وَنَاولَهُ الْمُحَا
 عَلَى حَالَةٍ اسْتِكْثَارِ حَاتِمِ الرَّشْحَا
 كَأَمَالِ مَنْ يَرُجُوهُ تَسْتَصْحِبُ النُّجْحَا
 حَسَابًا فَمَنْ يَأْتِي عَلَى مَائِهِ نَزْحَا
 وَغَايَاتُ جِدٍّ لَيْسَ تَطْلُبُهَا مَزْحَا
 وَيَكْشِفُ عَنْهُ مِنْ دُجَا لَيْلِهِ جُنْحَا
 وَقَبْضُ أَرَى النَّارَ التَّائِجِ وَاللَّفْحَا
 وَهَكَرُمَةٍ غَرَاءَ تُعْجِزُنَا شَرْحَا
 فَلَسْنَا نَخْطُ الرَّمْلَ أَوْ نَضْرِبُ الْقِدْحَا
 عَفْوٌ يَرَى إِلَّا عَنِ الْبَاطِلِ الصَّفْحَا
 وَجَادَ إِلَى أَنْ عَافَ مَادِرُ^(٣) الشُّحَا

١ - القَيْضُ قَشْرُ الْبَيْضِ .

٢ - صَافِرٌ وَمَادِرٌ مَثَلَانِ يَضْرِبَانِ فِي الْجَبْنِ وَالْبَخْلِ .

ولم تُذعن الأعداءَ مُحضَ مودَّةٍ إليه ولكن إنما كَرِهوا الْقَرَحَا
رأوا ضيغماً يُعطي الحروبَ حقوقها

وإن تَضَع الأوزارَ يُبْرِمُ لها صُلحا
ويستغرقُ الأوقات في الجِدِّ كلها
ولا يَهْبُ التَّلْعَابُ ما يَسَعُ اللَّمحا
مُواصلَةً حبل الجهاد جِيادُه
ووقَّف على غزو العدا عدوُّها ضَبحا
مُعاديه معطى بالحياة مَنِيَّة
وبالجنة الأخرى وبالسُّنْدُسِ المِسحا
ايا ابنَ أمير المؤمنين وسيُفقه
وصَمَّامُه إن يرفع الضربَ والنَّطحا
تُشابهه خَلْقاً وخلقاً فسَامِه
الى أَلَمِكَ الأعلى فانَّكَ لا تُلجى
تَهْدَسْتِ العُلُيا فاحرَزْتِ جِسْمَها
لإِحرازِك النُّقْطاتِ والخطَّ والسَّطحا
فكم من حديث كان يُسند للندى
ولكنه لولا نَوألك ما صحَّ
فأَعْطَيْتَنِي الأَعْيانَ وَالْعَيْنَ وَالْكُسا

وبيضَ الظُّبا والنُّوقَ والخَيْلَ والظُّلحا
فلا زلت للاسلام عيدا مُفَضَّلاً
تنغصُّ حُسْناءُ السَّعائِنِ والفِصْحَا
أَبوكَ لِحُكْمِ الشَّرْعِ ولأَكْ عَهْدِه
فلم تُلَقْ كَدًّا للسُّؤالِ ولا كَدْحَا
وأَعْطاكَه اذ ليس غَيْرُكَ أَهْلُه
وللعقل نورٌ مَيِّزُ الحُسْنِ والقُبْحَا
كفى درّه فخراً تجلِّيك سِمْطَه
ومَنَعَكَ تلكَ المعرَّةَ وأَقْدِحَا

١ - السعائين والفصح من أعياد النصارى ويقال في اولها الشعائين بالشين .

فأهدى إليك الدهرُ بَلْقَيْسَ مُلْكِهِ
 وأبدى لك الكُرْسِيَّ والعَرْشَ والصرحَا
 وولّاك ربُّ العَرْشِ مُلْكَ بَقَاعِهَا
 وأصحبك التمكنين والنصر والفتحا
 إليك بها يا كَعْبَةَ المجد كاعباً
 من الشَّعْر لا تُسطاع أَرْكَانُهَا مَسْحَا
 إذا شَهِدَتْ زَكَى الأَعَادِي حُدُوثَهَا
 وإن ائْتَحَنَتْ عَنَّا قُلُوبُهُمْ جَرْحَا
 أَكَلَفُهَا فَرَضَ المَحَالِ أَدَاءُهَا
 لِشُكْرِ نَدَى لَا يَنْتَهِي مُزْنُهُ سَحَا
 فخذُهَا ابنةَ الحَاءِ التي الحمدُ مُبْتَدَا
 لها وبها خَلَّاقُهَا كَمَلُ المَدْحَا

ولأبي عَلِيٍّ اليُوسُيِّ في الشَّيْخِ ابنِ نَاصِرٍ من دَالِيَتِهِ الكُبْرَى :
 كَمْ سُنَّةٍ أَحْيَيْتَ بَعْدَ إِمَاتِهِ
 وَضَلَالَةٍ أَخْمَدْتَ بَعْدَ تَوَقُّدِ
 وَافَيْتَ وَالبَدْعُ الحَوَادِثُ قَدِ دَجَتْ
 ظِلْمَاتُهَا وَالجَهْلُ وَآرِي الأَزُنْدِ
 والدينُ مَطْمُوسُ المَعَالِمِ وَالهْدَى
 بِيضُ الأَنُوقِ وَلَقُطَةُ لَمْ تُنْشَدِ
 والسُّنَّةُ الغَرَاءُ قَفَرٌ مُوَحِّشُ
 مَا فِيهِ مِنْ هَادٍ وَلَا مِنْ مُهْتَدِ
 نَشَبَتْ بِضُبُعَيْهَا مَخَالِبُ ضِيْغَمِ
 مِنْ مَأْلَفِ العَادَاتِ عَادٍ مُحْرَدِ^١
 وَمَحَا المَحَاقُ بُدُورَهَا فَتَكَنَّفَتْ
 مُقَلَّ النَّهْيِ ظِلْمَاءُ لَيْلٍ سَرْمَدِ
 وَعَفَتْ أَعَاصِيرُ الهَوَى آثَارَهَا
 فَاسْتَبَهَمَتْ عَنْ نَاشِدٍ أَوْ مُنْشِدِ
 وَاسْتَوْتَقَتْ أَيْدِي الغَوَايَةِ وَالهَوَى
 بِأَزِمَّةِ الأَلْبَابِ ، شَلَّتْ مِنْ يَدِ^٢

١ - أي معتدٍ غاضبٍ من الحرد وهو الغضب .

٢ - جمع يد كعصا وعصي يدعو عليها بالشلل .

وَالْعِلْمُ ضَاحٍ ظِلُّهُ^١ وَصَدَى الثُّقَى
قَدْ صَمَّ^٢ وَالْغَى اعْتَلَى مُجَنَّدٌ^٣
فَكَشَفَتْ جِلْبَابَ الْجَهَالَةِ عَنْ سَنَا
بَذَرٍ لِسَائِمَةِ الضَّلَالِ مُبَدَّدٌ
بَلْ ضَوْءٌ صُبْحَ بَلْ نَهَارٍ نَاسِخٍ
آيَاتُهُ لَيْلَ الشُّكُوكِ الزُّرْدُ^٤

ولابن زاكور يمدح الشيخ علي بركة :

إِلَى مَ فُؤَادِي يَذُوبُ زَفِيرًا
لَقَدْ كِدْتُ أَقْضِي مُعْنَى حَسِيرًا
عَرَانِي مِنَ الْوَجْدِ مَا قَدْ نَفَى
كَرَائِي وَأَذْكِي حَشَايَ سَعِيرًا
فَمِنْ رِقَّةٍ قَدْ حَكَيْتُ نَسِيمًا
وَمِنْ دَنَفٍ قَدْ حَكَيْتُ نَقِيرًا
وَشَيْئَنِي وَالشَّبَابُ نَضِيرٌ
صُدُودُ الْأَلَى أَوْدُعُونِي زَفِيرًا
وَمَنْ لَسَعَتْهُ أَفَاعِي الصُّدُودِ
فَأَجْدِرُ بِهِ أَنْ يَشِيدَ صَغِيرًا
فَمَاذَا عَلَيَّ وَدَّهَمَ لَوْ دَنَا
وَمَاذَا عَلَيَّ عَاذِلِي لَوْ غَدَا
فَمَاذَا عَلَيَّ لَا تَكُنْ عَاذِرِي
عَزِيرًا لِمَنْ كَانَ مِثْلِي أُسِيرًا
وَيَا هَاجِرِي لَا تَكُنْ وَاصِلِي
وَلَسْتُ أَوْمَلُ مِنْكَ عَذِيرًا
فَمُذْ شَمْتُ بَرِّقَ الْعُلَا وَالْهُوَى
إِلَى أَنْ تُوَازِي الْحَصَاةَ ثَبِيرًا
لَدَى بَرَكَاتِ الْعُلَا مُسْتَطِيرًا

١ - اي ذاهب .

٢ - اي انعدم .

٣ - اي يجيش مجند .

٤ - اي الخائقة .

سَلَوْتُكَ فَأُنْجَابَ لَيْلٍ الْأَسَى
فَلَا مُقْلَتِي تَسْتَهْلُ دَمًا
وَمَنْ شَامَ بَرْقَ الْعَلَا مُسْتَطِيرًا
وَهَانَ عَلَيَّ الَّذِي قَدْ لَقِيتُ
وَأَنْقَذَنِي مِنْ ظَلَامِ الْهَوَى
إِمَامٌ تَسْرُبِلُ بِالْمَكْرُمَاتِ
وَطَاوَلَ بَدْرَ السَّمَاءِ مُنِيرًا
وَأَضْحَى لِكَأْسِ الْمَعَالِي مُدِيرًا
تَوَاضَعَ حِلْمًا فَزَادَ ارْتِقَاءً
وَمَنْ رَامَ إِخْفَاءَ بَدْرِ الدِّيَاجِي
تَنَاهَتْ مَذَاهِبُهُ فِي الْعَلَا
فَطَوَّرًا تَرَاهُ لِقَوْمٍ بَشِيرًا
وَكَاثِنٌ تَرَاهُ يَفُكُّ الْمَعَمَّى
إِلَى رَقَّةٍ لَوْ حَوَاهَا النَّسِيمُ
وَتَظْمٍ يُنْسِيكَ شِعْرَ جَرِيرٍ
وَوَجْهَ جَلَى الْبَشْرِ عَنْهُ الْوَجُومُ
تُضِيءُ الدِّيَاجِيرَ غُرَّتُهُ
أَلَا هَلْ أَتَى مَعْشَرِي أَنِّي

وَأَسْفَرَ صُبْحُ الشُّرُورِ بَشِيرًا
وَلَا كَبِيدِي تَتَدَاعَى فُطُورًا
فَلَا يَعْدَمَنَّ دِيًّا وَحُبُورًا
لَمَّا سَقَانِي نَدَاهُ نَمِيرًا
وَكَانَ لِقَلْبِي الْمَعْنَى مُجِيرًا
وَأَرْخَى إِزَارَ الْعَفَافِ كَبِيرًا
وَسَاجَلَ قَطْرَ الْغَمَامِ غَزِيرًا
وَأَمْسَى لِرَوْضِ الْعُلُومِ سَمِيرًا
وَرَامَ خَفَاءَ فَزَادَ ظُهُورًا
بِجُنْحِ دُجَى زَادَ نُورًا كَثِيرًا
فَلَيْسَ يُرَى لِسَوَاهَا ظَهِيرًا
وَطَوَّرًا تَرَاهُ لِقَوْمٍ نَذِيرًا
وَيُوضِحُ مَا كَانَ صَعْبًا عَسِيرًا
لَمَّا قَصَفَ الدَّهْرُ غُصْنًا نَضِيرًا
إِذَا أَنْتَ عَايَنْتَ مِنْهُ سُطُورًا
فَلَيْسَ يُرَى أَبَدًا قَمْطَرِيرًا
فَتَحْسِبُهَا قَبَسًا مُسْتَنِيرًا
عَلِقْتُ بِتَطْوَانٍ عِلْقًا خَطِيرًا

وَأَوَيْتُ مِنْهَا إِلَى جَنَّةٍ فَلَا شَمْسَ فِيهَا وَلَا زَمْهَرِيرًا
لَدَى عَالِمٍ قَدْ حَوَى عَالَمًا وَحَبْرٌ تَضَمَّنَ خَلْقًا كَثِيرًا
وَالْحَفْهَاءُ مِنْ مَحَاسِنِهِ بِرُودًا حَكَتْ سُندُسًا وَحَرِيرًا
وَأَسْرَجَهَا بِسَرَّاجِ الْهُدَى وَكَمْ مَكَّثَتْ قَبْلَ تَحْكِي قُبُورًا
فَلَا نَجْدَ إِلَّا اسْتَطَارَ سَنًا وَلَا غُورَ إِلَّا تَلَأْلَأَ نُورًا
وَلَا غُصْنَ إِلَّا تَشَنَّى ارْتِيَا حَا وَلَا طَيْرَ إِلَّا تَغْنَى سُورًا
وَضَاءَ سَنَاها وَضَاعَ شَذَاهَا فَشِمْتُ سَنًا وَشِمْتُ عَيْرًا
إِمَامَ الْوَرَى بِشَفِيعِ الْوَرَى أَصْحَ لِنِظَامِي وَكُنْ لِي عَذِيرًا
وَأُسْبِلَ عَلَيْهِ بُرُودَ الْقَبُولِ فَلَسْتُ حَبِيبًا وَلَسْتُ جَرِيرًا
وَهَبْنِي كَذَاكَ فَمَنْ لِي بِمَا أَحْلَى بِهِ مَجْدَكَ الْمُسْتَنِيرَا
وَمَنْ أَرْهَقَتْهُ خُطُوبُ الدُّنَا فَكَيْفَ يَحُوكُ الْقَرِيبُ الضُّعُفَا
فَعُذْرًا لِمَنْ خَانَهُ دَهْرُهُ وَأَخْنَى عَلَيْهِ الزَّمَانُ مُغِيرَا
وَدُونِكَ مِنِّي سَلَامٌ كَرِيمٌ يُفَاوِحُ عَرْفَهُ رَوْضًا مَطِيرَا

وللقاضي ابن طاهر الهواري يمدح ابا حفص ألفاسي :

طَابَتْ بِطِيبِ حَيَاتِكَ الْأَعْمَارُ وَجَرَتْ بِرِفْعَةِ قَدْرِكَ الْأَقْدَارُ
وَعَلَا عَلَى الْجَوَازِ الْأَخْصُكُ الَّذِي تَصْبُو إِلَى تَقْيِيلِهِ الْأَحْزَارُ
وَسَمَتْ بِكَ الْعُلِيَاءُ فَوْقَ مَنَازِلِ مِنْ دُونِهَا الْإِفْلَاكُ وَالْأَدْوَارُ
وَجَلَوْتَ فِي أَفْقِ السِّيَادَةِ غُرَّةً تَعْنُو لِجَهَّةِ حُسْنِهَا الْأَقْمَارُ

وَأَتَتْ بِكَ الْإِيَّامُ عِلْقًا طَالَمَا ضَنْتَ بِهِ فِيمَا مَضَى الْأَعْصَارُ
سَعِدَتْ بِكَ الْإِيَّامُ وَابْتَهَجَ الْوَرَى وَرَقَتْ بَغْرَةً وَجْهَكَ الْأَمْصَارُ
وَقَضَى لَكَ الرَّحْمَنُ أَنَّكَ مُخْمِلٌ بِجَمِيلِ ذِكْرِكَ مَنْ إِلَيْهِ يُشَارُ
حَلَّكَ بِالْعِلْمِ الشَّرِيفِ فَأُشْرَقَتْ بِحُلِيِّكَ الْآفَاقُ وَالْأَقْطَارُ
أُحْيِيَتْ رَوْضُ فُنُونِهِنَّ بُعِيدًا عَفَتْ الْمَعَالِمُ مِنْهُ وَالْآثَارُ
وَجَلُوتَ مِنْهُ عَرَائِسَ الْفِكْرِ الَّتِي تَخْتَالُ مِنْهَا الْعُيُونُ وَالْأَبْكَارُ
وَسَرَتْ بِهَمَّتِكَ الْمَعَارِفُ فِي الْوَرَى وَجَلَّتْ بِنُورِ فَهْمِكَ الْأَسْرَارُ
وَبَدَتْ بِحُسْنِ بَيَانِكَ الْحُكْمَ الَّتِي نَطَقْتَ بِهَا مِنْ قَبْلِكَ الْأَحْبَارُ
لَكُمْ التَّقْدِيمُ فِي الْوَرَى سِوَاكُمْ يُعْزَى لَهُ التَّقْصِيرُ وَالْإِقْصَارُ
هَمِيَّاتِ سِرِّ اللَّهِ أُوْدِعَ فِيكُمْ وَاللَّهُ يَفْعَلُ كُلَّ مَا يَخْتَارُ
فَلَمَّا تَلَوْتَ السَّابِقِينَ فَإِنَّمَا أَنْتَ الَّذِي تَخْتَارُهُ الْأَنْظَارُ
أَنْشَأْتُ إِنْخِبَارِي بِوَصْفِكَ مَا دِحَا فَزَهَا بِكَ الْإِنْشَاءُ وَالْإِنْخِبَارُ
مَنْ لِي بِإِحْصَاءِ الثَّنَاءِ عَلَى أَمْرِي شَرَفْتُ لِحُسْنِ مَدِيحِهِ الْأَشْعَارُ
أَنْنَى لِمِثْلِي أَنْ يُحِيطَ بِوَصْفِهِ وَلَوْ أَنَّه فِي مَدْحِهِ مِكَثَارُ
خُذْهَا أَبَا حَفْصٍ إِلَيْكَ مَدِيحَةً مِنْ صَفْوِ وَدِّ لَمْ يَشِبْهِ غِيَارُ
وَاللَّهُ جَلَّ ثَنَاؤُهُ يُؤَلِّيكَ مِنْ عِزِّ الْمَلَكَاةِ فَوْقَ مَا تَخْتَارُ
وَعَلَيْكَ يَا عَلَمَ الْهُدَاةِ تَحِيَّةُ تَخْكِي ذِكْرِي نَسِيمِهَا الْأَزْهَارُ
مَا رَنَحْتَ أَيْدِي الْعَصَبِ اقْضِ الرُّبَا وَتَرَنَّمْتَ فِي أَيْكِهَا الْأَطْيَارُ

وللعامة الطيّب بن صالح الغماري الرّزيني في السلطان مولاي
سليمان العلوي :

كَمْ بِالصَّرِيَّةِ^(١) مِنْ جُذَيْلٍ^(٢) عَبَقَرِي
قَذَفْتُ بِهِ قَذْفُ النَّوَى قَلْبَ الْفَلَا
فَرْدًا كَسِيفَ بِلِ كَسَنِهِمْ قَدْ هَفَا
يُضْجِي مَعَ الْكُذْرِي وَيُمْسِي تَارَةً
فِي اللَّيْلَةِ الظَّامَاءِ يَعْتَسِفُ الْفَضَا
يَرْمِي بِهِمَّتَهُ مَخَاطِرَ دُونَهَا
كَلِيَوْمَ مَوْلَانَا سَلِيَانِ الَّذِي
هُوَ فِي مَلُوكِ الْأَرْضِ غَيْرَ مُدَافِعِ
عِلْمًا وَحِلْمًا فِي مَقَامِ تَحْكُمِ
مَا إِنْ يُرَى إِلَّا بَصْهَوَةً سَابِحِ
لَمْ يَخْلُ مِنْ ضَرْبِ الْجِيُوشِ بِيَعِضِهَا
وَإِذَا أَسْتَرَا حَ النَّاسُ فِي دَعَةٍ لَهُمْ
يَفْرِي فَلَا يُلَوِي عَلَى مُتَعَذِّرِ
مُتَعَجِّرًا^(٣) ثَوْبَ الظَّلَامِ الْأَعْجَرِ
رِيشُ الزَّمَاعِ بِهِ إِلَى مُسْتَنْفَرِ
ضَيْفًا لِسِرْحَانِ الْفَيَا فِي الْمُقْفَرِ
وَكَاَنَّمَا يَمْشِي بَلِيلُ مُقْمِرِ
هِمَمُ الزَّمَانِ لِغَيْرِهِ لَمْ تَخْطُرِ
قَالَ السَّاحُ عَلَيْهِ أَثْنِي خَنْصِرِي
فِيهِمْ بِمَنْزِلِ مُقَلَّةٍ مِنْ مُحْجَرِ
وَشَاهِدًا تَزْكُو بِطِيبِ الْعُنْصُرِ
يَمْشِي الْعَرَضَنَةِ^(٤) أَوْ بَصْهَوَةٍ مِنْبَرِ
إِلَّا لِدَقَّةٍ مُصْحَفٍ أَوْ دَفْتَرِ
لَمْ يَخْلُ مِنْهُمْ فِي الْجِهَادِ الْأَكْبَرِ

١ - اسم مكان .

٢ - من قولهم هو جذيلها المحكك اي الملتجأ اليه في الامور .

٣ - اي مشتعل .

٤ - هي مشية فيها نشاط .

وَتَرَاهُ يَسْتَقْصِي وَكَانَ وَظِيفُ مَنْ
 مَا زَالَ يَعْتَدُّ الْعَتَادُ مُشْمَرًا
 تَلْقَاهُ يَوْمَ الرَّوْعِ فَوْقَ مُطَهَّمٍ
 مُتَقَلِّدًا سَيْفَ الْحِمَاسَةِ سَافِرًا
 وَالْحَظُّ قَدْ طَافَتْ بِهِ خُرْصَانُهَا
 وَالْحَيْلُ تَمْرَحُ فِي الْأَعْنَةِ شُرَبًا
 حَتَّى إِذَا أَعْتَجَرَ الْعَوَالِي وَالظُّبَا
 وَأَسِنَّةُ الْمُرَّانِ فِي أَرْجَائِهِ
 وَبَدَأَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ بِمِقْنَبٍ
 عَازَتْ رِعِيَّتَهُ بِهِ وَتَأَنَّقَتْ
 مَا كَادَ سِرْحَانُ الْفَلَاحِ مِنْ عَدْلِهِ
 أَلْقَوْا بِأَقْلِيدِ الْأُمُورِ وَأَصْبَحُوا
 يُهْدُونَ مِنْ نَشْرِ الثَّنَاءِ لَهُ شَذَا
 نَذْرِيهِ بَيْنَ مُقَصِّرٍ أَوْ مُقَصِّرٍ
 مِنْ حَزْمِهِ لِلْحَادِثِ الْمُتَمَرِّ
 يَخْتَالُ بَيْنَ أَهِنَّةٍ وَسَنُورٍ^(١)
 لَكِنَّهُ مِنْ بَأْسِهِ فِي مِغْفَرٍ
 مِنْ كُلِّ أَسْمَرٍ ذَابِلٍ مُتَأَطِّرٍ
 يَعُثْرُنُ فِي قِصْدٍ^(٢) أَلْقَانَا الْمُتَكَسِّرِ
 وَالشَّمْسُ جَلَّلَهَا دُخَانُ الْعِشِيرِ^(٣)
 كَالشُّهْبِ تَلْمَعُ فِي خِلَالِ كَنْهَوْرٍ^(٤)
 زَجَلٍ كَلَيْثٍ فِي الْهِيَاجِ غَضَنْفَرٍ
 مِنْ عَدْلِهِ فِي ظِلِّ عَيْشٍ أَخْضَرَ
 يَعْدُو بِظَبْيٍ بِالصَّرِيمَةِ أَغْفَرٍ
 يَرْدُونَ مَاءَ الْأَمْنِ غَيْرَ مُكَدَّرٍ
 وَكَأَنَّمَا فَتَقُوا لَطَائِمَ^(٥) عَنَبِرٍ

١ - أي سلاح .

٢ - جمع قصدة وهي القطعة .

٣ - أي العجاج .

٤ - الكنهور: السحاب المتراكم .

٥ - جمع لطيمة وهي نفيجة المسك

ولأبي عبد الله أكنسوس في تهنئة السلطان مولاي عبد الرحمن
العلوي بالمولد الشريف :

عَهْدِي بِكُمْ جِيرَةَ الْبَطْحَاءِ مَوْضُول
أَشِيمُ بَرَقًا سَرَى مِنْ نَحْوِ رَبِّكُمْ
فِيْلِهَبُ الشَّقْوَ أَحْشَاءُ مُرَوَّعةً
يَالَيْتَ شَعْرِي وَالْأَيَّامُ شِيَمَتُهَا
هَلْ مِنْ وَفَاءٍ بَوَّعْدٍ مِنْ أَحَبَّتْنَا
وَهَلْ تَرَى مُقْلَتِي دَارًا عَهْدَتْ بِهَا
سُبْقِيَتْ حُبِّهِمْ قَدَمًا عَلَى ظَمَائِ
يَا حَبَّذَا فِي هَوَاهُمْ مَا غَدَوْتُ بِهِ
لَا أَجْتَلِي أَحَدًا إِلَّا تَمَثَّلَ لِي
وِذَاكَ أَنْ قَدْ سَرَى فِي الْكُونِ سِرُّهُمْ
خَوَالِذِي سَجَدْتُ فِي شَطْرِ كَعْبَتِهِ
لَقَدْ سَرَى سَرِيَانُ الرُّوحِ فِي جَسَدِي
يَا لَأَيْمِي إِنَّ فَرَطَ الْحُبِّ مَعَذَرَتِي
فَكَيْفَ أَصْغِي إِلَى اللَّاحِينَ إِنْ عَذَلُوا

فَعَاذِلِي الْمُبْتَلَى بِالْحُبِّ مَعَذُول
شَعَمَ فَلْيِ كَبِدُ تَهْتَاكِ لَوْعَتِهَا
إِذَا دَنَا مِنْ رَيْعِ الثُّورِ تَجْلِيلِ

شهرٌ تشرف بالإسلام حَقَّ له بين أُمَواِسَمِ تَعْظِمْ وتَجْجِلْ
 شهرٌ تَعْظَمُ مَجْدًا أَنْ يُمَانِلَهُ عَيْدٌ وَلَا زَمَنٌ بِالْفَضْلِ مَشْمُولْ
 شهرٌ غدا غُرَّةً فِي كُلِّ مَكْرُمَةٍ وَأَيْنَ مِنْ غُرَّةٍ فِي الْفَخْرِ تَحْجِلْ
 فِيهِ تَكُونُ كَوْنُ الْفَضْلِ وَانْفَتَحَتْ أَبَوَاهُ وَأَنَا الْعِزُّ وَالسُّوْلْ
 فِيهِ تَفْجَرُ كُلُّ الْخَيْرِ مُنْبَجِسًا عَلَى الْخَلَائِقِ طَرًّا فَهُوَ مَبْذُولْ
 فِيهِ الْبَشَائِرُ قَدْ لَاحَتْ أَشْعَتْهَا فِيهِ تَعَيَّنَ لِلْخَيْرَاتِ تَسْهِيلْ
 وَزُخْرِفَتْ لِعِبَادِ اللَّهِ جَنَّتُهُ وَأَسْتَبْشِرِ الْمَلَأُ الْأَعْلَى وَجَبْرِيلْ
 فِي لَيْلَةِ الْمَوْلِدِ الْأَسْمَى وَسُحْرَتِهِ يَا أُمَّةً سَعِدَتْ بِالْمُصْطَفَى قُولُوا
 قُولُوا وَتَسْهُوا عَلَى الْأَكْوَانِ وَافْتَحِرُوا

فَقُولُوا لَكُمْ لِمَكَانِ الصَّدَقِ مَقْبُولِ

أَهْلًا بِمَوْلِدِ خَيْرِ الْمُرْسَلِينَ وَمَنْ لَهُ عَلَى الْكُلِّ تَسْيِيدٌ وَتَمْوِيلٌ
 بِمَوْلِدِ الصَّفْوَةِ الْأَعْلَى الرَّسُولِ إِلَى كُلِّ الْوُجُودِ وَمَا لِلْحَقِّ تَبْدِيلٌ
 سِرِّ الْعَوَالِمِ وَالْأَرْوَاحِ غُنْصُهَا مَنْ ذِكْرُهُ فِي قَدِيمِ الذِّكْرِ مَنْقُولٌ
 أَلْوَا حُ مُوسَى بْنِ عِمْرَانَ مُبَشِّرَةٌ بَيْعَتُهُ وَبِقُرْبِ الْبَعْثِ إِنْجِيلٌ
 يَا مَنْ بَدَأَ رُوحَهُ لِلْخَلْقِ مَبْتَدَأًا وَجِسْمَهُ لِمَنَاطِ الْوَحْيِ تَكْمِيلٌ
 يَا دَوْحَةَ الْحَقِّ يَا تَجَلَّى الْحَامِدِ يَا مَنْ نُطْقُهُ كُلُّهُ وَحْيٌ وَتَنْزِيلٌ
 لَكَ اللَّوَاءُ لَوَاءُ الْحَمْدِ يَشْمَلُنَا مِنْ ظِلِّهِ عِنْدَ هَوْلِ الْعَرْشِ تَظْلِيلٌ

لك الشفاعةُ والحوضُ المَعْدُّ لنا
 لك المَقَامُ الذي قد عَزَّ مَدْرَكُهُ
 إن لم يُطَقْ حَمَلُهَا موسى الكليمُ فقد
 لك الوسيلةُ والجاهُ الْعَظِيمُ إذا
 يا من يُخَلِّصُ مَنْ أَضْحَى لِمَدْحَتِهِ
 هذِي مَدَائِحُ رَاجٍ أَنْ يَكُونَ لَهُ
 صَلَّى عَلَيْكَ مُفِيضُ الْجُودِ مِنْكَ عَلَى
 وَالْآلِ وَالصَّحْبِ مَا زَمَّتْ عَلَى مَرَحٍ
 يَا حَاشِرَ الْخَلْقِ يَا مَاحِيَ الضَّلَالِ وَيَا
 يَا وَاضِعَ الْإِصْرِ عَنَّا فِي شَرِيعَتِهِ
 تَرَكْتَنَا وَسَبِيلُ الْحَقِّ وَاضِحَةٌ
 بِآلِ بَيْتِكَ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ لَنَا
 هَذَا حَفِيدُكَ سُلْطَانُ الْمُلُوكِ أَبُو
 سِبْطِ الْخَلَائِقِ بَابِي الْعِزِّ فِي شَرَفٍ
 قَرْمٌ تَدَارَكَتِ الْعُلْيَا سَعَادَتُهُ
 مَا زَالَ مُجْتَهِدًا فِي اللَّهِ مُنْتَصِرًا
 حَتَّى اسْتَنَارَتْ نَجُومٌ لِلْهُدَى فَلَهَا
 فَهُوَ الْمُؤَمَّلُ لِلسَّمْحَا يُجَدِّدُهَا

لك الْجَنَانُ جِنَانُ الْخُلْدِ تَنْفِيلُ
 بَرُوءِيَةِ مَا لَهَا فِي الصِّدْقِ تَأْوِيلُ
 عَايَنْتَ رَبَّكَ وَالتَّقْدِيسَ مَسْدُولُ
 مَا أَنْتَ فَوْقَ نِطَاقِ الْعَرْشِ مَحْمُولُ
 عَلَى جَنَابٍ كَرِيمٍ مِنْهُ تَطْفِيلُ
 مِنَ الرُّسُولِ بِإِذْنِ اللَّهِ تَنْزِيلُ
 كُلِّ الْخَلَائِقِ وَالتَّعْمِيمِ تَسْجِيلُ
 إِلَى زِيَارَتِكَ الْعَيْسُ الْمَرَايِيلُ
 مَنْ مَدَحَهُ لِرُضَى الرَّحْمَنِ تَوْسِيلُ
 فَضْلًا وَمَنْ قَبَّلَنَا بِالْإِصْرِ مَغْلُولُ
 أَعْلَامُهَا وَنُحْيَا الدِّينَ مَغْسُولُ
 كُلِّ اعْتِصَامٍ إِذَا مَا اغْتَالَتْ الْغُولُ
 زَيْدُ أَمَامٍ بِنَصْرِ الدِّينِ مَشْغُولُ
 عَالٍ عَلَى مَجْدِهِ لِلنَّاسِ تَعْوِيلُ
 لَمَّا غَدَا وَإِلَيْهِ الْأَمْرُ مَوْكُولُ
 بِاللَّهِ وَالسَّيْفُ فِي يَمِينِهِ مَسْلُوكُ
 وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَقْوِيمُ وَتَعْدِيلُ
 مِنْ بَعْدِ مَا عَزَّ لِلتَّجْدِيدِ تَأْهِيلُ

وَهُوَ الَّذِي سُنَّةُ الْمُخْتَارِ قَدْ حَيَّتْ
 وَهُوَ الْمُؤَيَّدُ بِالْإِسْعَادِ هِمَّتُهُ
 فَفَضْلُهُ رَوْضَةٌ غَنَاءٌ دَانِيَةٌ
 وَبَأْسُهُ فِي دِيَارِ الْكَفْرِ صَاعِقَةٌ
 يَا خِزْيَ مَنْ حَادَ عَنْ مَنَاجِ طَاعَتِهِ
 إِنْ سَارَ يَوْمًا إِلَى الْهَيْجَاءِ تَتَّبِعُهُ
 مِنْ كُلِّ أُرْوَعٍ فِي إِقْدَامِهِ بَطْرُ
 يَجْرُهَا كَعْدِيدِ الطَّيْسِ عَابِسَةٌ
 يُعْنَى بِهِ النَّصْرُ لَا يَنْفَكُ يَلْزِمُهُ
 وَعِزُّهُ نَاقِذٌ لَا شَيْءَ يَحْجُبُهُ
 وَتِلْكَ سُنَّةُ رَبِّي فِي عَزَائِمِهِ
 وَلِلْسَعَادَةِ أَسْبَابٌ مَقْدَرَةٌ
 مِنْ أَسْرَةِ زَيْنِ الْأَقْطَارِ مُلْكُهُمْ
 بَنُو عَلِيٍّ أَدَامَ اللَّهُ عِزَّهُمْ
 يَا أَيُّهَا الْمَلِكُ الْأَتَقَى الْحَيْطُ بِهِ
 بَقِيَتْ لِلْمَوْلِدِ الْمَبْرُورِ تَشْهَدُهُ
 بِهِ وَقَدْ سَامَهَا وَهْنٌ وَتَعْطِيلُ
 لِبْنِيَةِ الْعِزِّ تَشِيدُ وَتَطْوِيلُ
 قُطُوفُهَا ، وَجَنَى كَفِّهِ مَعْسُولُ
 فِيهَا لِحْزَبِ ذَوِي الْأَهْوَاءِ تَنْكِيلُ
 وَيُلْمُهُ إِنَّهُ وَاللَّهِ مُشْكُولُ
 أَجْنَادُ جُرْدِ أَبَايِلُ أَبَايِلُ
 وَسَيْفُهُ مِنْ قِرَاعِ الْهَامِ مَفْلُولُ
 وَمَا لَهُ غَيْرُ وَجْهِ اللَّهِ مَأْمُولُ
 كَأَنَّهُ عِلَّةٌ وَالنَّصْرُ مَعْلُولُ
 فَكُلُّ مَا يَبْتَغِي فِي الْحَيْنِ مَفْعُولُ
 وَمَا لِسُنَّةِ رَبِّ النَّاسِ تَحْوِيلُ
 فِي سَابِقِ الْعِلْمِ لَا كَسْبٌ وَتَحْصِيلُ
 كَأَنَّ مُلْكَهُمْ تَاجٌ وَإِكْلِيلُ
 فَهُمْ لِمَغْرِبِنَا عِزٌّ وَتَفْضِيلُ
 مِنَ الْجَلَالَةِ إِجْمَالُ وَتَفْصِيلُ
 وَعِزُّهُ بِجَلَالٍ مِنْكَ مَكْفُولُ

الملح والطرف

قال سعيد بن هشام المصمودي يهجو برّ غواطة ومُتَنَّبَهُم
القائم بدِيَانَتِهِم :

قَفِي قَبْلَ التَّفَرُّقِ فَأَخْبِرِنَا بِقَوْلٍ صَادِقٍ لَا تَكْذِبِنَا
بِأَمْرِ بَرَابِرٍ خَسِرُوا وَضَلُّوا وَخَابُوا لَا سُقُومَاءَ مَعِنَا
يَقُولُونَ النَّبِيُّ أَبُو عَفِيرٍ فَأَخْزَى اللَّهُ أُمَّ الْكَافِرِينَ
أَلَمْ تَسْمَعْ وَلَمْ تَرَ يَوْمَ بَيْتٍ^١ عَلَى آثَارِ خَيْلِهِمْ رَيْنَا
رَنِينَ الْبَاكِاتِ بِهِمْ تُكَالِي وَعَاوِيَةً وَمُسْقَطَةً جَنِينَا
سَيَعْلَمُ أَهْلُ تَامَسْنَا إِذَا مَا أَتَوْا يَوْمَ الْقِيَامَةِ مُفْطَعِينَا
هُنَالِكَ يُونسُ وَبَنُو أَبِيهِ يَقُودُونَ الْبَرَابِرَ حَائِرِينَا

وقال عبد الله الكفيف الطنجي يهجو حاميم الغماري الذي
ادعى النبوة في قبيلته غُمَارَةٌ وَظَفِيرَ بِهِ النَّاصِرُ الْمُرَوَانِي :

١ - اسم لمكان وقعت فيه معركة بين ابي عفير والقبائل التي لم تدن له بالطاعة .

وقالوا أفتراء إن حاميم مرسَل إليهم بدين واضح الحق باهر
فلقت كذبتهم بدد الله شملكم فما هو إلا عائر وابن عائر
فان كان حاميم رسولا فإني بإرسال حاميم لا أول كافر
روى عن عجوز ذات إفك كهينة تقارن في أسحارها كل ساحر
أحاديث زور حاك إبليس نسجها فسيرها ديناً وبيل السرائر
وقال ابن حبوس يأمر بمعاملة الناس على مذهب أبي زيد
السروجي :

أعدّ لناجيك عصا وأقضم ما ضغيك حصى
وشعشع للوى شرقا مع الساعات أو غصصا
وكن ورداً خبعتة^١ يراوغ منهم قنصا
وعامل بالخديعة من لقيت وبادر الفرصا
وغمض عينك النجلا ء حتى تنعت الخوصا
وهز لمعر سيفاً وهز لاخرين عصا
وكاثر من يدب لك الضرا^٢ واخرص كما خرصا
ولا تغيب عليه فلو ظفرت به لما خلاصا
وسو ظنا بكل أخ يقاسمك الشنا حصصا

١ - الورد والخبعتة من اسماء الأسد.

٢ - أي من يختلك وهو مثل ، واخرص أي اكذب .

ولا تحفل بامعة يخال الشحمة البرصا
 ولا تحرص فرُب فتى مضاع عندما حرصا
 وحرص الطائر الواقع صير جوه قفصا
 لقد رخص الإخاء وأهون الأغلاق ما رخصا
 وقد ذهب الوفاء فلا يقول مغالط نقصا
 فلا تلزم مكان الظل إن وافيته قلصا
 وغنّ لذا الزمان اذا انتشى وازمر اذا رقصا
 ومن شهد الخطوب وعاش مثلي يشرح القصصا

وقال الجراوي يهجو قومه بني غفجوم متذرعاً بذلك الى هجو
 أهل فاس وخاصة بني الملجوم منهم :

يا ابن السبيل اذا مررت بتاد لا تنزلن على بني غفجوم
 أرض أغاربها العدو فلن ترى ألا مجاورة الصدى لليوم
 قوم طووا ذكر الساحة بينهم لكنهم نشروا لواء اللوم
 لا حظ في أموالهم ونوالهم للسائل العاني ولا المحروم
 لا يملكون إذا استبيح حريمهم إلا الصراخ بدعوة المظلوم
 يا ليتني من غيرهم ولو أنني من أهل فاس من بني الملجوم

وقال في هجاء أهل فاس أيضاً :

مشى اللوم في الدنيا طريداً مشرداً يجوب بلاد الله شرقاً ومغرباً

فلما أتى فاساً تلقاه أهله وقالوا له أهلاً وسهلاً ومرحباً

وقال يهجو الاستاذ ابن الياسمين :

إِسْتُ الْحَبَارَى وَرَأْسُ النَّسْرِ بَيْنَهَا لَوْ نُ الْغُرَابِ وَأَنْفَاسُ مِنْ الْجُمَلِ
خَذْهَا إِلَيْكَ بِحُكْمِ الْوَزْنِ أَرْبَعَةً كَالنَّعْتِ وَالْعَطْفِ وَالتَّوَكِيدِ وَالْبَدَلِ

فأجابه ابنُ الياسمين بقوله :

يَا أَعْرَقِ النَّاسَ فِي نَسْلِ الْيَهُودِ^(١) وَمَنْ تَأْبَى شَمَائِلُهُ التَّفْصِيلَ لِلْجُمَلِ
خَذْهَا بِحُكْمِ اجْتِمَاعِ الذَّمِّ وَاحِدَةً تُغْنِي عَنِ الْعَطْفِ وَالتَّوَكِيدِ وَالْبَدَلِ

وقال شاعرٌ مُتَحَامِقٌ مَرَاكَشِيٌّ يُعْرِفُ بَابْنَ تَلِّيسٍ يَهْجُو الْجُرَاوِيَّ
وَكَانَ يَجَالِسُ قَوْمًا يَعْرِفُونَ بَنِي الشَّحَمَاتِ :

بَنُو الشَّحَمَاتِ أَنْتُمْ خَيْرُ آلٍ وَأَكْرَمُ مَنْ تَسَامَى بِالْجُدُودِ
أَرَى نَجْلَ الْجُرَاوِيِّ لَكُمْ جَلِيسًا وَحُرِّمْتَ الشُّحُومَ عَلَى الْيَهُودِ^(١)

وقال أبو الحجاج ابن نموى في الاستاذ ابن الياسمين وكان قد
استقبح صورته واستحسن كلامه :

أَيُّهَا اللَّابِسُ لَوْ لَيْلَ ثَوْبًا حِينَ أَظْلَمَ

١ - نسبه الى اليهود لان جراوة قبيلته كانت تدين باليهودية قبل الاسلام
على ما قيل .

والذي يُضْمِرُ داءً منه يوماً ما تَأَلَّمَ
 أَنْتَ مَنْ أَقْبَحَ خَلْقِ اللَّهِ مَا لَمْ تَتَكَلَّمْ
 بِشَذُورٍ بِأَهْرَاتٍ سَافِرَاتٍ لَوْ تُجَسِّمُ
 أَصْبَحْتَ فِي كُلِّ جِدٍّ حَسَنٍ عَقْدًا مَنْظُمٌ

فلما بلغ ذلك ابنَ ألياسمين قال :

أَيُّهَا الْفَاسِي أَتَى رِيحُكَ قَبْلَ النَّجْوِ يَفْغَمُ
 فِي قَرِيضٍ حَسَنٍ الصُّورَةَ بِالْهَجْوِ مُجْدَمُ
 فَقَبِلْنَاهُ وَقَدْ جَاءَ لَنَا بِالْمَدْحِ مُعَلَّمُ
 ثُمَّ قَلْنَا بِمِزَاحٍ مِنْكَ يَوْمًا لَيْسَ يُعَدَّمُ
 إِنَّمَا الشَّأْنُ فَقِيهٌ عَالِمٌ لَيْسَ يُعَلَّمُ
 لَا تَرَاهُ الدَّهْرَ إِلَّا بَغْرِيمَ الْكَأْسِ مُغْرَمُ
 وَإِذَا صَلَّى رِيَاءٌ كَانَ فِيهَا مِثْلُ آبِكُمْ
 فِي ثِيَابٍ كَرَبِيعٍ قَدْ سَرَى فِيهَا الْمُحَرَّمُ
 ذَا جَوَائِي وَهُوَ ظَلَمٌ لَكَ وَالْأَبَادِيُّ أَظْلَمُ

وقال الامير سليمان الموحيدي ملغزاً في القلم والدواة :

وَمَيِّتٍ بِرِمْسٍ طَعْمُهُ عِنْدَ رَأْسِهِ إِذَا ذَاقَ مِنْ ذَاكَ الطَّعَامِ تَكَلَّمَا
 يَقُومُ فَيَمْشِي صَامِتًا مُتَكَلَّمًا وَيَرْجِعُ لِلْقَبْرِ الَّذِي مِنْهُ قَوْمًا

فلا هو حيّ يستحق كرامةً ولا هو ميت يستحق ترحمًا
وقال في العين :

وطائرة تطير بلا جناح تقوت الطائرين وما تطير
إذا ما مسها الحجر اطمأنت وتألم أن يلامسها الحرير
وقال في جارية اسمها ألوف :

خليليّ قولاً أين قلبي ومن به وكيف بقاء المرء من بعد قلبه
ولو شئتُما إسم الذي قد هويته لصحفتُما أمري لكم بعد قلبه
وقال ميمون الخطّابي في ادعاء ابن تومرت للمهدوية :

وجد النبوءة حلة مطوية لا يستطيع الخلق نسج مثالها
فأسرّ حسوا في أرّ تغاء^(١) يبتغي بمحاله نسجاً على منوالها
وقال عبد العزيز الملزوزي وقد مرض بالحمى في مراکش :

لمراكش فضل على كل بلدة وما أبصرت عين لها من مشابه
وما هي إلا جنة قد تزخرفت ولكنها حفت لنا بالملكاه
وقال مالك ابن المرحّل يخاطب نفسه حين بلغ ثمانين سنة :

يا أيها الشيخ الذي عمره قد زادَ عشرًا بعد سبعينا

١ - هو مثل يقال للرجل يظهر انه يشرب الرغوة وهو في ذلك ينال من اللبن

سَكِرْتُ مِنْ أَكْوَاسِ خَمْرِ الصَّبَا فَحَدَّكَ الدَّهْرُ ثَمَانِينَا
 وقال في المعنى الذي لأجله يَفْتَتِحُ الشعراءُ قصائدهم بالتشبيب :
 ضَلَّ المحبُّونَ إِلَّا شَاعِرًا غَزَلَا يُطَارِحُ المدحَ بالتَّشْبِيبِ أَوْ طَارَا
 لَا يَشْتَكِي الحُبَّ إِلَّا فِي مَدَائِحِهِ دَعَوَى لِيُصْغِيَ أَسْمَاعًا وَأَبْصَارَا
 كضاربِ الْعُودِ وَشَى فِيهِ تَوْشِيَةٌ وَبَعْدَ ذَلِكَ غَنَى فِيهِ أَشْعَارَا
 وقال في خضاب الشيب :

مَرَرْتُ عَلَيْهَا وَالْخُضَابُ لِمَائِهِ وَيَصُورُ وريحُ المسكِ قد كَادَ يَسْطَعُ
 فَقَالَتْ مَلِيحٌ مَا أَرَى غَيْرَ أَنَّهُ (سَحَابَةٌ صَيْفٌ عَنْ قَلِيلٍ تَقَشَّعُ)

وقال وملح في ذكر ساقٍ حُرٍّ وهو ذكر القماري :

رُبَّ رُبْعٍ وَقَفْتُ فِيهِ وَعَهْدٌ لَمْ أَجَاوِزْهُ وَالرَّكَّابُ تَسْرِي
 أَسْأَلُ الدَّارَ وَهِيَ قَفَرٌ خَلَاءٌ عَنْ حَبِيبٍ قَدْ حَلَّهَا مِنْذُ دَهْرٍ
 حَيْثُ لَا مُسْعِدٌ عَلَى الْوَجْدِ إِلَّا عَيْنُ حُرٍّ تَجُودُ أَوْ سَاقُ حُرٍّ

وقال في رجلٍ أَشْهَبَ انتحل شعره :

خَالَفَنِي أَشْهَبُ فِي مَذْهَبِي وَمَالِكُ وَافَقَهُ أَشْهَبُ
 فَمَذْهَبِي مُخْتَرَعٌ نَادِرٌ وَسَرَقَ الشَّعْرَ لَهُ مَذْهَبُ

وقال على هذا المنوال مُورِيًّا :

مَذْهَبِي تَقْبِيلُ خَدِّ مُذْهَبِ سَيِّدِي مَاذَا تَرَى فِي مَذْهَبِي

لا تُخَافُ مالِكاً في رأيهِ فيه يأخُذُ أهلُ المغربِ

وقان في امرأة شوهاة تزوجها على سبيل المجانة:

اللهُ أَكْبَرُ في مَنارِ الجامع من سَبَّتَ تَأْذِينَ عَبْدٍ خَاشِعٍ
اللهُ أَكْبَرُ للصلاة أَقِيمُها بين الصُّفوفِ مِنَ البَلَّاطِ الواسِعِ
اللهُ أَكْبَرُ مُحَرِّمًا وَمُوجِّهاً وَجَّهِي إِلَى رَبِّي بِقَلْبٍ خَاشِعِ
الحمدُ لله السَّلامُ عَلَيْكُمْ آمِينَ لا تَفْتَحْ لِكُلِّ مُخَادِعِ
إِنَّ النِّسَاءَ خَدَعْنِي وَمَكَّرْنَ بِي وَمَلَأْنَ مِنْ ذِكْرِ النِّسَاءِ مَسامِعِي
حَتَّى وَقَعْتُ وَمَا وَقَعْتُ لِجَانِبِ لَكِنْ عَلَى رَأْسِي لِأَمْرِ وَاقِعِ
وَاللهِ مَا كَانَتْ إِلَيْهِ ضَرُورَةٌ لَكِنَّ أَمَرَ اللهَ دُونَ مُدَافِعِ
فَخَطْبَنِي لِي فِي بَيْتِ حُسْنِ قَلْنِي لِي وَكَذَّبَنِي بَلْ هُوَ بَيْتُ قُبْحِ شَائِعِ
بِكُراً زَعَمْنَ صَغِيرَةً فِي سِنِهَا حَسَنَاءُ تُسْفِرُ عَنْ جِمالِ بَارِعِ
خَوْدُهَا شَعَرٌ أَثِثٌ حَالِكٌ كَاللَّيْلِ يَجْلُو عَنْ صَبَاحِ ساطِعِ
حوراءُ يَرْتاعُ الْغِزالُ إِذَا رَنَتْ يَجْفُونَ يَخْشَفُ فِي الْخِثَالِ راتِعِ
تَتَلَوُ الْكِتَابَ بَغْنَةً وَفِصاحَةً فَيَمِيلُ نَحْوَ الذِّكْرِ قَلْبُ السَّامِعِ
بَسَامَةً عَنْ لَوْلُوءٍ مُتَناسِقِ مِنْ ثَغَرِهَا فِي نَظْمِهِ الْمُتَتَابِعِ
أَنْفَاسُهَا كَالرَّاحِ فَضٌّ خِتَامُهَا مِنْ بَعْدِ مَا خُتِمَتْ بِمِسْكِ رَائِعِ
غَيْدَاءُ كَالْغُصْنِ الرُّطِيبِ إِذَا مَشَتْ نَأَتْ بِرَدْفٍ لِلتَّعَجُّلِ مانِعِ
تَخْطُو عَلَى رِجْلَيْ حَمَامَةٍ أَيْكَةٍ مَحْضُوبَةٍ تُصْنِي فَوَادِ الْخَاشِعِ

وَوَصَّفَنِي لِي مِنْ حُسْنِهَا وَجَمَاهَا
 فَذَنُوتُ وَاسْتَأَمَنْتُ بَعْدَ تَوْحُشٍ
 فَحَمَلْنِي نَحْوَ الْوَلِيِّ وَجِئْتَنِي
 وَبَعْرَفَةً مِنْ نَافِعٍ ^(١) لِتَفَاوُلٍ
 فَشَرَطَنَ أَشْرَاطًا عَلَيَّ كَثِيرَةً
 ثُمَّ انْفَصَلْتُ وَقَدْ عَلِمْتُ بِأَنِّي
 وَتَرَكْنِي يَوْمًا وَعُدُنْ وَقَلْنِي لِي
 رَاضِعًا لَهَا عُرْسًا وَلَا تُخَوِّجْ إِلَى
 فَقَرِعْتُ سِنِّي عِنْدَ ذَلِكَ نَدَامَةً
 وَلَزِمْنِي حَتَّى انْفَصَلْتُ بِمَوْعِدٍ
 فَلَوْ أَنِّي طَلَقْتُ كُنْتُ مُوَفَّقًا
 لَكِنْ طَمِعْتُ بِأَن أَرَى الْحُسْنَ الَّذِي
 فَظَنَرْتُ فِي أَمْرِ الْبِنَاءِ مُعْجَلًا
 وَطَمِعْتُ أَنْ تُجَلِّي وَأَبْصُرَ وَجْهَهَا
 فَذَكَرَنِي أَن لَيْسَ عَادَةُ أَهْلِهَا
 وَظَنَنْتُ ذَلِكَ كَمَا ذَكَرْنِي وَلَمْ يَكُنْ
 وَحَمَلْنِي لَيْلًا إِلَى دَارِ لَهَا

مَا الْبَعْضُ مِنْهُ يُقِيمُ عُذْرَ الْخَالِعِ
 وَأَطَاعَ قَلْبُ لَمْ يَكُنْ بِمُطَاوِعِ
 بِالشَّاهِدَيْنِ وَجِلْدُ كَبِشٍ وَاسِعٍ ^(١)
 وَاللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ لَيْسَ بِنَافِعِ
 مَا كُنْتُ فِي حَمْلِي لَهَا بِالطَّائِعِ
 أَوْثَقْتُ فِي عُنْقِي لَهَا بِجَوَامِعِ
 خُذْ فِي الْبِنَاءِ وَلَا تَكُنْ بِمَدَافِعِ
 قَاضٍ عَلَيْكَ وَلَا وَكِيلٍ رَافِعِ
 مَا كُنْتُ لَوْلَا أَن تُخْدِعْتُ بِقَارِعِ
 بَعْدَ الْيَمِينِ إِلَى النَّهَارِ الرَّابِعِ
 وَنَفَضْتُ مِنْ ذَلِكَ النِّكَاحِ أَصَابِعِي
 زَوَّرْنِي لِي فَذَمُّتُ سُوءَ مَطَامِعِي
 وَصَنَعْتُ عُرْسًا يَالَهَا مِنْ صَانِعِ
 وَتَقَرَّرَ عَيْنِي بِالْهَلَالِ الطَّالِعِ
 جَلَّوْا الْعُرُوسَ وَتِلْكَ تُخْدَعَةُ خَادِعِ
 وَحَصَلْتُ مِنْهُ فِي مَقَامِ الْفَازِعِ
 فِي مَوْضِعٍ عَنْ كُلِّ خَيْرٍ شَاسِعِ

١ - لعل ذلك كان عادة الطبقات الشعبية في سبتة والنافع هو الرازيانج.

دار خراب في مكانٍ مُوحش ما بين آثار هناك بلاقع
 ففعدتُ في بيت صغير مظلم لا شيء فيه سوى حصير الجامع
 فسمعت حسّاعن شمالي مُنكراً وتنحنحاً يحكي نقيق ضفادع
 فأردتُ أن أنجو بنفسي هارباً ووئبتُ عند الباب وثبة جازع
 فلقيتهن وقد أتيتن بجذوة فرددني وحبسنني بمجامع
 ودخلن بي للبيت واستجلسنني فجلستُ كالمقروور يوم زعازع
 وأشرن لي نحو السماء وقلن لي هذي زوئيعه وبنت زوابع
 هذي خليلتك التي زوّجتها فاجلس هنا معها ليوم السابع
 وتنهأ الشعى التي خوّلتها فلقد حصلت على رياض يانع^(١)
 فنظرتُ نحو خليلتي متأملاً فوجدتها محجوبةً ببراقع
 وأتيتها وأردتُ نزع خمارها فعدتُ تدافعني بجذّ وازع
 فوجأتها في صدرها ونزعته وكشفتُ هامتها بغيط صارع
 فوجدتها قرعاء تحسب أنها مقروعة في رأسها بمقارع
 حولاء تنظر قرنّها في ساقها فتخاها مبهوتة في الشارع
 فطساء تحجو أن روثه أنفها قطعت فلا شلت يمين القاطع

١ - فيه وصف الرياض وهو جمع بالمفرد وذلك من مجازاة الاصطلاح

صَّمَاءُ تُدْعَى بِالْبَرِّيحِ ^(١) وَتَارَةً
 بِكَمَاءٍ إِنْ رَامَتْ كَلَاماً صَوَّتَتْ
 عَرُجَاءَ إِنْ قَامَتْ تُعَالِجُ مَشْيَهَا
 فَلَقَيْتُهَا وَجَعَلَتْ أَبْصُقُ نَحْوَهَا
 حَيْرَانَ أَعْدُو فِي الزُّقَاقِ كَأَنِّي
 حَتَّى إِذَا لَاحَ الصَّبَاحُ وَفَتَحُوا
 وَاللَّهِ مَا لِي بَعْدَ ذَلِكَ بِأَمْرِهَا
 وَقَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ الْمَكُودِي ، وَبَعَثَ لَهُ بَعْضُ إِخْوَانِهِ بِشَرَابٍ

مَذِيق :

بَعَثَ بِخَمْرٍ فِيهِ مَاءٌ وَإِنَّمَا
 فَقُلَّ عَلَيْهِ الشُّكْرُ إِذْ قَلَّ سُكْرُنَا
 بَعَثَ بِمَاءٍ فِيهِ رَائِحَةُ الْخَمْرِ
 فَحَنَّا بِلَا سُكْرٍ وَأَنْتَ بِلَا شُكْرٍ

وَقَالَ أَبُو الْقَاسِمِ الشَّرِيفُ فِي طُفَيْلِي :

قَالُوا أَبُو بَكْرٍ مَتَى مَا حَضَرَ الْأَكْلَ طَلَعَ
 وَإِنْ تَكُنْ وَلِيمَةً يَخُبُّ فِيهَا وَيَضَعُ
 مَا أَعْجَبَ السَّعْدَ الَّذِي سَاعَدَ ذَلِكَ اللَّكْعَ
 فَقُلْتُ حَقًّا قُلْتُمْ لَكِنَّهُ سَعَدَ بَلَعُ

وقال العلامة ابن غازي في تلاميذه الجاحدين :

أَقَمْتُ بِمَكْنَأَسَةٍ مُدَّةً أَعْلَمُ أَبْنَاءَهَا مَا أَلْكَامُ
فَلَمَّا تَوَهَّمَهُ بَعْضُهُمْ عَلِيَ بِهِ بَخِلُوا وَالسَّلَامُ

وقال رابع بن عبد الصمد المديوني الفشتالي (من أهل القرن العاشر) في أبي الفضل الشريف المكي :

أَكُلُّ هَجِينٍ أَبْعَدَتْهُ يَدُ النَّوَى يُلَوِّذُ بِأَبْوَابِ الْوَرَى يَتَكَفَّفُ
وَكُلُّ زَنِيمٍ جَاهِلٍ قَدَرَ نَفْسِهِ يُزَاحِمُ أَهْلَ الْبَيْتِ كِي يَتَشَرَّفُ
وله في أسود :

وَأَسْوَدُ يَفْتَتُ الدُّجَى مِنْ جَبِينِهِ تَشَاءَمْتُ مِنْ رُؤْيَاهُ عِنْدَ الْمَلَأَقَةِ
لَهُ نِعْمَةٌ لَيْسَتْ تَلِيْقُ بِمِثْلِهِ مِنَ النِّعْمَةِ الْمَغْبُوطَةِ الْحَسَنَاتِ

ولابن الخطيب الزرُّوبلي المتوفى ٩٩٣ هـ هجو مدينة مراکش ؛

مَا كَانَ ظَنِّي وَحَقَّ اللَّهُ فُرْقَتَكُمْ لَوْ أَنَّ مَرَاكُشًا كَانَتْ تُوَاتِنِي
أَظَلُّ فِي نَصَبٍ مِمَّا أَكَابِدُ مِنْ نَفْضِ الْغُبَارِ وَمِنْ طَرْدِ الذَّبَابِ
وَطُولِ لَيْلِي فِي كَدٍّ وَفِي تَعَبٍ مَا بَيْنَ بَقٍّ وَنَامُوسٍ يُنَاعِنِي
أَبَيْتُ أَحْرَسَ فَرُشِي مِنْ عَقَارِبِهَا وَالْقَلْبُ فِي فِكْرٍ مِنْهَا وَتُخْمِنِي
إِذَا رَأَيْتُ سَوَادًا مَرَّ بِي وَأَتَى ظَنَنْتُهَا عَقْرَبًا ذَبَّتْ لِتُودِنِي

لم يبقَ في الفمِ ضرُسُ أُسْتَعِدُّ به أَفْنَاهُ مَضْغُ الْحَصَى مِنَ الطَّوَّاحِينِ
 مُنُونًا عَلَيَّ بِإِطْلَاقِي بِفَضْلِكُمْ هَذَا الْعَجَاجُ بِهَا قَدْ كَادَ يُعْمِينِي
 لم يبقَ في الكيسِ فلسٌ استعين به أَفْنَيْتُ مَالِي فِي غَسِيلٍ وَتَصْبِينِ

وله في القصر الكبير :

إِرْحَلْ مِنَ الْقَصْرِ وَاسْمَعْ قَوْلَ ذِي ثِقَةٍ إِنَّ الْمَقَامَ بِهِ ضَرْبٌ مِنَ الْحُمُقِ
 إِنَّ لَمْ تَمُتْ فِي أَوَانِ الْحَرِّ مُحْتَرِقًا لَمْ تَنْجُ فِيهِ زَمَانَ الْبَرْدِ مِنْ غَرَقِ

ولابن عمرو الشاوي في العدول الجبال :

إِنَّ الْعُدُولَ الْأَلَى جَادَ الزَّمَانُ بِهِمْ عَنِ الْعَدَالَةِ وَالتَّوْفِيقِ قَدْ عَدَلُوا
 أَحْدَاثُ سَنٍّ وَأَلْبَابُ كَسْنِهِمْ تَاللَّهِ لَوْ شَهِدُوا فِي الْكَلْبِ مَا قَبِلُوا

وقال عبد الملك التَّجْمُوعِي يهجو البربر :

هَمْ الْبَرَابِرُ لَا تَرْجُوا نَوَا لَهْمُ وَسَلْ مِنْ اللَّهِ تَعْجِيلَ النَّوَى لَهُمْ
 لَا بَلَّغَ اللَّهُ قَلْبًا مِنْهُمْ أَمَلًا وَبَلَّغَ اللَّهُ قَلْبِي مَا نَوَى لَهُمْ

وقال ايضاً فيهم :

فَلَوْ كُنْتُ فِي الْفَرْدَوْسِ جَارًا لِرَبِّ لَحَوَّلْتُ رَحْلِي مِنْ نَعِيمٍ إِلَى سَقَرٍ
 يَقُولُونَ لِلرَّحْمَنِ بَابًا يَجْهَلُهُمْ وَمَنْ قَالَ لِلرَّحْمَنِ بَابًا فَقَدْ كَفَرَ

وأجابه العلامة اليوسي بقوله :

كفّي بك جهلاً أن تجنّ إلى سقرٍ بديلاً من الفردوس في غير مُستقرٍّ
وتجهل معنىً مُستبيناً مجازهُ لدى كل ذي فهم سليم وذي نظر
فإن أبا الانسان يدعوه انه كفيلاً وقيوم رحيم به وبرّ
ومن قال للرحمن باباً فقد عنى به ذلك المعنى المجاز وما كفر
وقد قال عيسى إني ذاهب الى أبي وأبيكم جاء ذلك في الأثر

وقال اليوسي : أنفذه في رُقعة مع طعام لبعض ضيفانه :

كلّوا واعذروني في التخلّف إني رأيتُ أتباع الظرف ليس من الظرف^١
وأحسنْ ظرْفِي تركُ ضيفي كما يشا
وليس ارتقاب الضيف من شيم الظرف^٢

وقال الطبيب عبد القادر بن شقرون معيّاً في التمر المجهول^٣ :

ما أحرّ اللونُ حلوُ الطعمِ مغسول يُعزى لذاتِ عقاصٍ زانها طول
قد شاع معروفها بين الوري كرمًا فاعجبْ لمعروف أم وهو مجهول

١ - الظرف الأول بمعنى الاناء والثاني اللطافة والأدب .

٢ - الظرف بالفتح والكسر الفتى الكريم .

٣ - يطلق التمر المجهول في المغرب على اجود انواع التمر واضخمه .

وقال كذلك في اللَّفْتِ البلدي وهو السَّلْجَم :

مَا أَيْضُ فِي خَدِّهِ حُمْرَةٌ يِرْفَلُ فِي ثَوْبٍ مِنَ السُّنْدُسِ
قَدْ بَيْعَ فِي السُّوقِ عَلَى حُسْنِهِ مَظْلَمَةً بِالثَّمَنِ الْأَبْخَسِ
أَلْفَتْ فِي أَوْصَافِهِ جُمْلًا مُعْجِبَةً لِلْحَاقِقِ الْأَكْيَسِ

وقال محمد بن الشيخ سيدي الشنقيطي في رجل أكل اسمه : نحن
وكان يدّعي الشرف :

مَا هَزَّ عِظْفِي كَمِيَّ يَوْمَ هِيَجَاءَ بَيْنَ الْأَوَانِي كَذِي الثُّونَيْنِ وَالْحَاءِ
فَرْدٌ يَقُومُ مَقَامَ الْجَمْعِ وَهُوَ لِذَا يُدْعَى بِمَضْمَرٍ جَمَعَ بَيْنَ أَسْمَاءِ
يَسْطُو بِأَسْلِحَةٍ لِلْأَكْلِ أَرْبَعَةٌ يَدٍ وَفَمٍّ وَبَلْعُومٍ وَأَمْعَاءِ
تُخَالُ لُقَمَاتِهِ الْعُظْمَى بِرَاحَتِهِ كَرَائِرَ الْإِبِلِ أَوْ جَمَاجِمِ الشَّاءِ
مَا بَيْنَ طَلَعَتِهَا فِيهَا وَغَيْبَتِهَا فِي فِيهِ إِلَّا كَالْمَحِ الطَّرْفِ لِلرَّائِي
فَتَنْهَوِي كَدْلِيَّ خَانَ مَا تَحَهَا أَشْطَانُهَا فَتَرَامَتْ بَيْنَ أَرْحَاءِ
فَبَانَ أَنَّ الَّذِي يَحْوِيهِ مِنْ شَرَفٍ قَدْ صَحَّ لَكِنَّهُ بِالْهَاءِ لَا الْفَاءِ

وقال الأديب عبد السلام الزموري المتوفى ١٢٧٩ في شراب الشاي :

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَعَّمَنَا بِكُلِّ مَظْعُومٍ بِهِ أَطْعَمَنَا
وَكُلِّ مَشْرُوبٍ لَذِيذٍ طَيِّبٍ حُلُوِّ حَلَالٍ كَالْغَنَامِ الصَّيِّبِ

مثل الآتاي (اللندريزي) مذهبه على صفا صينية ملتتهبه
تطائر الهم لديه وانشرح صدر الذي يشربه من الفرح
فان يكن معنبراً^١ فذاك في مذهبنا المعروف خير ما اصطفي
وذا الى ثلاثة او أربعاً من الأحبة وما زاد ادفعاً
ما لم يكن مغنياً او مطرباً او ذا ملاحه يرى محبوباً
فهو الذي يقيمه ويحسبه وكلنا من يده نستحسبه
وان يكن منغذعاً فذاك لا وحقكم يصلح الا للملا
او للذي أولع بالحنأوى^٢ او اشتكى ضراً فملتداوى
خذه فذتك النفس من قبل الطعام او بعده فما عليك من ملام
إلا اذا كان الطعام كسكسا فكل من آخره فقد أسا
ووقته وقت سرور وانبساط وحيثما دعا لشربه النشاط
وقت الصباح عندهم مستحسن ولكنه بعد العشاء أحسن
اذ وقته وقت فراغ البال وراحة القلب من الاشغال
والأمن من كل ثقل يدخل او خبر على النفوس يثقل
مع اتساع الوقت المنادمة ولنة الجلوس والمكالمه
وذاك في الصباح لا يتفق وهو من بعد العشاء محقق

١ - يضيف بعض الناس العنبر الى الشاي فهو المعنبر .

٢ - اي النوع الرديء نسبة الى الحناء على غير قياس .

أَكْرَمُ بِذَاكَ الْوَقْتِ وَقْتَ الْكُرْمَا وَأَتَمَّا اللَّيْلُ نَهَارُ النُّدْمَا
يُومِنُ فِيهِ مَعَ غَلْقِ الْبَابِ وَسَدْلُ مَا يَسْتُرُ مِنْ حِجَابِ
وَاخْتَرَهُ لَهُ مِنَ الشُّمُوعِ الْأَبْيَضَا كَاللِّسَنِ الْأَفْعَى إِذَا تَفَضَّنَا
عَلَى دُخَانِ الْعُودِ إِذَا يَحْتَرِقُ وَمَاءِ وَرْدٍ عِطْرُهُ يَنْتَشِقُ
وَلَا أَرَى الْآتَايَ بِالْقَنْدِيلِ وَالزَّيْتِ وَالْمِنْخَاسِ وَالْمَنْدِيلِ
إِذَا كُلُّ أَمْرِهِ عَلَى النَّظَافَةِ قَدْ أَنْبَنَى وَشَرُطَهُ اللَّطَافَةِ
لَا سِوَا السَّاقِي الَّذِي يُنَاوِلُهُ كَذَلِكَ الْكَأْسِ الَّذِي تَسْتَعْمِلُهُ
وَشَرْبُهُ عَلَى خِلَاءِ الْمَعِدَةِ جَازَ عَلَى شَرْطِ حُضُورِ الْمَائِدَةِ
تَاخِذُ مِنْهَا لَقْمَةً أَوْ لُقْمَتَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَشْرَبَ مِنْهُ حَلَقَتَيْنِ
وَأَخْرَنَهُ مَطْلَقًا حَيْثُ تَلَا مَا كَانَ مَالِحًا يُرَى مَحَلَّلًا
وَشَرْبُهُ عَلَى الشَّوَاءِ وَالْكَبَابِ يَفْتَحُ لِلصَّحَةِ مِنْهُ أَلْفَ بَابِ

الرثاء وذكر الموت

لأبي الحسن المُسَفَّر في المَوْتِ وفلسفَتِهِ ، ويُقال إنها وُجِدَتْ
تحت وِسَادَتِهِ بعد وفاته :

قُلْ لِإِخْوَانٍ رَأَوْني مِيتًا	فَبِكُونِي وَرَثُونِي حَزَنًا
أَعْلَى الْغَائِبِ مِنِّي حَزَنُكُمْ	أُمَ عَلَى الْحَاضِرِ مَعَكُمْ هَاهُنَا
أَتُظَنُّونَ بِأَنِّي مِيتُكُمْ	لَيْسَ ذَاكَ الْمِيتَ وَاللَّهِ أَنَا
أَنَا فِي الصُّورِ وَهَذَا جَسَدِي	كَانَ لِبَسِي وَقَمِيصِي زَمَنًا
أَنَا كَنْزٌ وَحَجَّابِي طَلَسَمُ	مِنْ تُرَابٍ قَدْ تَهَيَّأَ لِلْفَنَاءِ
أَنَا دُرٌّ قَدْ حَوَّانِي صَدَفُ	طَرْتُ عَنْهُ فَتَخَلَّى رَهْنًا
أَنَا عُصْفُورٌ وَهَذَا قَفْصِي	كَانَ سِجْنِي فَأَلِفْتُ أَلْسَجَنًا
أَشْكُرُ اللَّهَ الَّذِي خَلَصَنِي	وَبَنَى لِي فِي الْمَعَالِي رُكْنًا
كَنتُ قَبْلَ الْيَوْمِ مِيتًا بَيْنَكُمْ	فَحَيِّتُ وَخَلَعْتُ الْكَفَنًا
فَأَنَا الْيَوْمَ أَنَا جِي مَلَأُ	وَأَرَى اللَّهَ جِهَارًا عَلَنًا
عَاكِفٌ فِي اللُّوحِ أَقْرَأُ وَأَرَى	كُلَّ مَا كَانَ وَيَأْتِي وَدَنًا

وطعامي وشرابي واحدٌ
 ليس خمراً سائغاً أو عسلاً
 هو مشروب رسول الله إذ
 فافهموا السرَّ ففيه نبأٌ
 فاهدُموا بيتي ورَضُوا قفصي
 وقميصي مزقوه رمياً
 قد ترحلتُ وخلفتكم
 حيُّ ذي الدار نوومٌ مغرقٌ
 لا تظنُّوا الموت موتاً إنَّه
 لا ترُعكم هجْمة الموت فما
 فاخلعوا الأجسادَ عن أنفسكم
 وخذُوا في الزادِ جهداً لا تنوُا
 حسنوا الظنَّ برَبِّ راحمٍ
 ما أرى نفسيَ إلا أنتمُ
 عنصُرُ الأنفُسِ منّا واحدٌ
 فتى ما كان خيراً فلنا
 فارحموني ترحموا أنفسكم
 أسألُ اللهَ لنفسي رحمةً

هو رمزٌ فافهموه حسناً
 لا ، ولا ماءً ولكن لبناً
 كان يسري فطره مع فطرننا
 أيُّ معنى تحت لفظ كُنَّا
 وذروا الطلسمَ بعدي وثنا
 ودعوا الكلَّ دفيناً بيننا
 لست أرضى داركم لي وطننا
 فاذا مات أطار الوسنا
 حياة هي غاياتُ المنى
 هي إلا نُقْلَةٌ من هاهنا
 تبصروا الحقَّ عياناً بيننا
 ليس بالعاقل منّا مَنْ ونى
 تشكروا السَّعي وتأتوا أمنا
 واعتقادي أنكم أنتم أننا
 وكذا الجسمُ جميعاً عمنا
 ومتى ما كان شرٌّ فبنا
 واعلموا أنكم في إثرنا
 رحمَ الله صديقاً أمنا

وعليكم من سلامي صيَّبُ وسلامُ الله بدأ وثني
أبدَ الدهر الى يومَ يرى بعضنا بعضاً لرحبٍ وهنا

ولأبي جعفر بن عطية يبكي نفسه حيث نكبه عبد المومن :

أنوحُ على نفسي أم انتظرُ الصِّفحا فقد آن أن تُنسى الذُّنوب وان تُمحي
وها أنا في ليلٍ سن السُّخط حائرٍ ولا أهُتدي حتى أرى للرضا صُبْحا

ولمؤمن الخطابي يرثي عبد الله بن ابي بكر ابن الجد ويعزي أباه

وهو يومئذ وزير اشيلية وعظيمها وكانت حاضرة الاندلس :

أرجة الصَّعق يوم النْفخ في الصور أم دكة الطُّور يوم الصَّعق في الطُّور
أم هدة الارض اظهاراً لما زجرتُ به الخليفة من إيقاع مخذور
أم الكواكب في آفاقها انتثرت وباتت الشمس في طي وتكوير
ما للنهار تعرَّى من ثياب سنا وشابه الليل في أثواب ديجور
قد كان للصُّبح طرفُ زانه بَلَقُ مُقسَّم الخلق بين الدَّجن والنور
فما المِلْم الذي غشى بدْهَمته أديمه عنبراً من بعد كافور
أصخ لتسمع من أنبائها نبأ يطوي من الأُنس فيها كل منشور
وانظر فان بني عدنان ما حُشروا الالرزء عظيم القدر مشهور
وافى مع العيد لا عادت مضاخته فشاب سلساله الاصفى بتكدير
واعتام داراً لها في السبق جمرة من المفاخر أزرَّت بالجماهير

رَمَى قُرَيْشاً فَأَصَمَى سَهْمُ حَادِثِهِ
 فخانها الجدُّ في ابن الجدِّ يومَ قَضَى
 لله والمجدِّ ما أبقاه من أثر
 نوَّارةً عند ما راقَتْ بدوَحَتِها
 جَارَ الذبولُ عليها عندما ملأتْ
 وسيفُ بأسٍ لكسر الخطبِ أغمده
 قضى فراقَ شهرِ الصومِ مُرتحلاً
 واختاره خاطِبُ الخطبِ الملمَّ به
 فسار للحينِ مسروراً وخلفنـا
 ناديتُ يا حاديَ الأحزانِ يومَ حَدا
 فالوجدُ والدُّمْعُ من حُزنٍ قد اقتسما
 فالقلبُ بالغَيْظِ في تصعيدِ مُستعرٍ
 وسائقُ الخطبِ يشدُّ الحاملين له
 وللملائك في آفاقها زَجَلُ
 ثنى المصابِ على شيخ الجزيرة في
 ذاقَ الرزايا على مقدار مَنْصبه
 إن كان فرقَ شملَ الأنس منه فكم
 يادهرُ حَمَلَتَه. وَقَعَ الخطوب ولم

أنباءَ فِهرٍ بتوفيق المقادير
 وأثر الخطبِ فيها أيَّ تأثير
 أخرى الليالي بطيب الذكر ما ثور
 أهوتُ إلى التُّرب من بين النواوير
 معاطسَ الدهر من طيبٍ وتعطير
 صرفُ الحوادث فيها بعد تكسير
 ووافقَ الشهرَ في فضلٍ وتطهير
 للصَّبرِ كفواً فأَمْضى العَقْدُ للحوار
 للحُزنِ فأعجبَ لمحزونٍ بمسرور
 أظعانِ قلبي رِفْقاً بالقوارير
 قلبي وجفني بمنظومٍ ومنثور
 والجفنُ بالقيض في تصويبٍ ممطور
 يسوقهم سوقَ حادي العير للعير
 قد شَفَعْتَهُ بتَهْلِيلٍ وتكبير
 عَقْدٌ وحلٌّ وتقديم وتأخير
 والابتلاءُ على قدر المقادير
 أولاهُ للجدِّ من جمعٍ وتوفير
 تزلُّ تنفَّذَ عنه كلَّ ما مور

أردت بالصبر منه أن تُقيمَ لنا
يا عامرَ التُّربِ كم خَلَفْتَ من كَبِدٍ
لو كنت تُحمي وتُفدى للعُلا ابتدرت
وانما الموتُ حكمٌ ليس يدُخله
يقضي على الأسد في الآجام حاكمه
ويمطي الشَّهبَ في شُمِّ الجبال كما
أعظمَ بآيته من آية عظمت
فسلم الامرَ فالأقدارُ قد نفذتْ
ما فقرُ ذي الفقر عن جَهْلٍ وعن كَسَلٍ
ولا الحمامُ بِنَقْصٍ في المزاج ولا
فكم صحيح قضى فيها بلا مَرَضٍ
برهانَ تقديمه للخير والخير
ومن فؤادٍ بشاوي الحزن مغمور
آلافها بالقنْي أو بالقناطير^(١)
نسخُ لخلق وعدلٌ دون تجوير
وفي الكِناس على البيضِ العافير
في الوكرِ يعتامُ أفراخُ العصافير
فليس تُدرِك في حالٍ بتفسير
وكلُّ شيء بتدبير وتقدير
ولا غنى المرء عن كَيْسٍ وتشمير
ضعف الطبيعة عن أسباب تدبير
وكم مريضٍ أقامته لتغمير

فاسمعْ بقلبك فالأشياءُ ناطقةٌ
مُقدِّماتُ الليالي طالما فضحتْ
جمعُ السَّلامة معدومُ الوجودِ بها
والسُّنُ الحالُ تُغني كلَّ تحرير
نتائجُ الغدْرِ منها كلَّ مغرور
فكم بها للردى من جمع تكسير

(١) القنا جمع قناة وهي الرمح والقناطير المال الكبير جمع قنطار .

والكون طرس وهذا الخلق أحرفه والحرف ما بين ممحوظ ومبثور
والدهر يعرب والأفعال يظهرها طوعاً ويعجب منها كل مسطور
وانما الخلق أسماء تعاورها إعرابه بين مرُفوع ومُجَرور
وكلهم في مدى الأعمار تحسبهم كحاليها بين ممدود ومقصود
والموت مثل عروضي يقطع من أبياتهم كل موزون ومكسور
يا من يؤمل أن يبقى وقد نفضت أيدي المقادير من إبرام تقدير
هذي الحقيقة لا ما حدثت بك به آمال نفسك عن دنياك من زور
لا تخذ عنك الليالي إن فتنتها كادت فكادت تريناً كل محذور
كم باكرت بعبوس الخطب من ملك قد كان بالبشر وضاح الأساير
سائل بكسرى ملك الفرس هل تركت له المنايا جناحاً غير مكسور
وانزل بصنعاء في قصر ابن ذي يزن تلمم بقصر على الأغيار مقصور
واعبر على حيرة النعمان معتبراً تعبر بأطلال نعمى ذات تغير
وأين من كان سجن الجن في يده والإنس والجن في قهر وتسخير
وأين مخترق الدنيا بعزمته يطوي البلاد معاً طي الطوامير^(١)
بادوا فليس بها باد يحس به منهم وأفنائهم ريب الدهارير

(١) جمع طومار وهي الصحيفة .

هو القضاء أبا بكر أضبت به فاصبر وسلم له تسليم مأجور
والله يحرس علياكم ويرفع عن سامي معاليك أنواع المحاذير
ولا بي العباس الجزائي يرثي جاريته صبحاً :

يا صاحب القبر الذي أعلامه درست ولكن حبه لم يدرس
ما اليأس منك على التصبر حامي لما ذهبت بكل حسن أصبحت
يا صبح أيامي ليال كلها لا تنجلي عن صبحك المتنفس
وله يخاطب قبرها :

يا قبر صبح حل فيك لمهجي أسنى الأمانى
وغدوت بعد عيانها أشهى البقاع الى العيان
أخشى المنية إنها تنشي مكانك عن مكاني
كم بين مقبور بفاس وقابر بالقيروان

وللعلامة ابي بكر بن شبرين السبتي يرثي بليديه العلامة ابن هانيء :

قد كان ما قال البريد فاصبر فحزنك لا يفيد
أودى ابن هانيء الرضى فاعتادني للشكل عيد
بحر العلوم وصدورها وعميدها إذ لا عميد
قد كان زيناً للوجود ففيه قد جمع الوجود

العلمُ والتحقيقُ والتو فيقُ والحسبُ التليدُ
 تندي خلايقه فقل فيها هي الروضُ المجودُ
 مغضٍ عن الإخوان لا جهمُ اللقاء ولا كنودُ
 أودى شهيداً باذلاً نجوذه نعم الشهيد
 لم أنسه حين المعارفُ باسمه فينا تشيدُ
 وله صُبوب في طـلا ب العلم يتلوه صُعودُ
 لله وقتٌ كان ينظـمنا كما نظم الفريدُ
 أيامَ نغدو أو نروح وسعينا السعي الحميدُ
 وإذ المشيخةُ جثمُ هضباتِ حلم لا تميدُ
 ومرادنا جمُ النبات وعشنا خضر برودُ
 لهفي على الإخوان والأ تراب كلهم فقيدُ
 لو جئت أوطاني لأنكر في التهايم والشجود
 ولراع نفسي شيبُ من غادرتُه وهو الوليدُ
 ولطفتُ ما بين اللُحود وقد تكاثرت اللُحودُ
 سرعان ما عاث الحمام ونحن أيقاظُ هجودُ
 كم رمتُ إعمال المسير فقيدتُ عزمي قيودُ
 والآن أخلفت الوعود وأخلقت تلسك البرودُ
 ما للفتى ما يبتغي فالله يفعل ما يريدُ

أَعْلَى الْقَدِيمِ الْمَلِكُ يَا وَيْلَاهُ يَعْتَرِضُ الْعَبِيدُ؟
يَا بَيْنُ قَدْ طَالَ الْمَدَى أَبْرِقْ وَأَرْعِدْ يَا يَزِيدُ^(١)
وَلِكُلِّ شَيْءٍ غَايَةٌ وَلَرُبَّمَا لَانَ الْحَدِيدُ

إِيَّاهُ أَبَا عَبْدِ الْإِلَهِ وَبَيْنَنَا مَرْمَى بَعِيدِ
أَيْنَ الرِّسَائِلُ مِنْكَ تَأْتِينَا كَمَا نَسْقِي الْعُقُودِ
أَيْنَ الرُّسُومِ الصَّالِحَاتُ تَصَرَّمْتُ أَيْنَ الْعُهُودِ
أَنْعِمُ مَسَاءً لَا تُخْطِئِكَ الْبَشَائِرُ وَالسُّعُودِ
وَأَقْدَمَ عَلَى دَارِ الرِّضَا حَيْثُ الْإِقَامَةُ وَالْخُلُودِ
وَأَلْقَى الْأَحِبَّةَ حَيْثُ دَارُ الْمَلِكِ وَالْقَصْرِ الْمَشِيدِ
حَتَّى الشَّهَادَةِ لَمْ تَفُتْكَ فَجَنَّمُكَ النِّجْمُ السَّعِيدِ
لَا تَبْعِدَنَّ وَعْدُ لَوْ أَنَّ الْبَدْءَ فِي الدُّنْيَا يَعُودِ
فَلَيْنَ بَلَيْتَ فَإِنَّ ذِكْرَكَ فِي الدُّنْيَا غَضٌّ جَدِيدِ
تَاللَّهِ لَا تَنْسَاكَ أَنْدِيَّةُ الْعُلَا مَا أَخْضَرَ عُودِ
وَإِذَا تُسَوِّحَ فِي الْحَقُوقِ فَحَقُّكَ الْحَقُّ الْأَكِيدِ

(١) تلميح لقول الكميت : أبرق وأرعد يا يزيد فما وعيدك لي بضائر .

جَادَتْ صَدَاكَ غَمَامَةٌ يُرْمَى بِهَا ذَاكَ الصَّعِيدُ
وَتَعَهَّدْتُكَ مِنَ الْمُهَيَّمِنِ رَحْمَةً أَبَدًا وَجُودُ

وله يرثي مَلِكَ غرناطة المَغْتَالِ مُحَمَّدَ بْنَ إِسْمَاعِيلَ بْنِ الْأَحْمَرِ :

عَيْنُ بَكِّي لِمِتْ غَادَرُوهُ فِي ثَرَاهُ مُلْقَى وَقَدْ غَدَرُوهُ
دَفَنُوهُ وَلَمْ يُصَلِّ عَلَيْهِ أَحَدٌ مِنْهُمْ وَلَا غَسَلُوهُ
إِنَّمَا مَاتَ حِينَ مَاتَ شَهِيدًا فَأَقَامُوا رَسْمًا وَلَمْ يَقْصِدُوهُ^(١)

ولابن عبد المنان يرثي الحاجب أبا عبد الله التَّمِيمِي وفيه
جناس وتورية :

مَنْ كَانَ يَبْكِي مَا جَدًّا فَلْيَجِدْ بِالْمَدْمَعِ السَّكْبَ عَلَى الْحَاجِبِ
يَمَّ وَجْهَ الْمَجْدِ فَأَغْتَالَهُ صَرَفُ الرَّدَى لَمْ يَخْشَ مِنْ حَاجِبِ
عَيْنُ أَصَابَتِهِ وَيَا قُرْبَ مَا فِي الْوَجْهِ بَيْنَ الْعَيْنِ وَالْحَاجِبِ

وللشيخ القَصَّار على ما نسبته إليه غير واحدٍ من الأَثْبَاتِ بِخُطُوطِهِمْ
وَالْبَيْتُ الْأَوَّلُ رَأَيْنَاهُ فِي كُتُبِ الْقَدَمَاءِ فَهُوَ مُضْمَنٌ :^(٢)

(١) يعني دفنه دون غسل ولا صلاة كما يدفن الشهداء وذلك للهرج والفتنة

(٢) من غريب امر هذه الابيات اننا رأيناها في كتاب (منتخبات

ادبية) للاب بشير إحياء اليسوعي مج ٢ ص ٣١ تحت عنوان (وصيتي) منسوبة
لحمّد الدكدجي ؛ فيما لأدبيات المغرب اليتيمة من الامل !

(زُرْ وَالِدَيْكَ وَقِفْ عَلَى قَبْرِيهَا
لو كُنْتَ حَيْثُ هُمَا وَكَانَا بِالْبَقَا
أَنْسَيْتَ عَهْدَهُمَا عَشِيَّةَ أَشْكِنَا
مَا كَانَتْ ذَنْبُهُمَا إِلَيْكَ وَإِنَّمَا
كَانَا إِذَا مَا أَبْصَرَا بِكَ عِلَّةً
كَانَا إِذَا سَمِعَا أَيْنِكَ أَسْبَلَا
وَتَمَنَّا لَوْ صَادَفَا لَكَ رَاحَةً
فَلْتَلْحَقْنَاهُ غَدَاً أَوْ بَعْدَهُ
وَلْتَقْدَمَنَّ عَلَى فِعَالِكَ مِثْلَ مَا
بُشْرَاكَ إِنْ قَدَّمْتَ فِعْلاً صَالِحاً
وَقَرَأْتَ مِنْ آيِ الْكِتَابِ بِقَدْرِ مَا
فَاحْفَظْ بُنْيَ وَصِيَّتِي وَاعْمَلْ بِهَا
وَلِلشَيْخِ رِضْوَانِ الْجَنُوي :

إِذَا شِئْتَ أَنْ تَبْكِي فَقِيداً مِنَ الْوَرَى
فَلَا تَبْكِينَ إِلَّا عَلَى فَقْدِ عَالَمٍ
وَفَقْدِ إِمَامٍ عَادِلٍ قَامَ مُلْكُهُ
وَفَقْدِ شُجَاعٍ صَادِقٍ فِي جِهَادِهِ
وَتَسْدُ بِهِ بَعْدَ النَّبِيِّ الْمَكْرَمِ
يُبَادِرُ بِالتَّفْهِيمِ لِلْمُتَعَلِّمِ
بِأَنْوَارِ حُكْمِ الْعَدْلِ لَا بِالتَّحَكُّمِ
وَقَدْ كُسِرَتْ رَايَاتُهُ فِي التَّقْدَمِ

وَفَقْدِ سَخِيٍّ لَا يَمِلُّ مِنَ الْعَطَا لِيُطْفِئَ بؤْسَ الْفَقْرِ عَنْ كُلِّ مَعْدَمٍ
وَفَقْدِ تَقِيٍّ زَاهِدٍ مُتَوَرِّعٍ مُطِيعٍ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ مُعْظَمٍ
فَهُمْ خَمْسَةٌ يُبْكِي عَلَيْهِمْ وَغَيْرُهُمْ إِلَى حَيْثُ أَلَقْتَ رَحْلَهُمَا مُقْشَعَمٍ^(١)
وللشيخ ابي عثمان سعيد بن علي الجزولي الحامدي يرثي المولى
محمد الحرّان ابن محمد الشيخ المهدي السّعدي وقد توفي سنة ٩٥٥ وكان
يُذَكَّرُ بالشجاعة والحِلْم والعِلْم :

أَتَرَوِي الْأَمَانِي وَالْأَمَانِي سَرَابٌ وَتُغْنِي الْمَغَانِي وَالْمَغَانِي خَرَابٌ
إِلَى مَ التَّعَامِي وَالتَّعَلُّ بِالْمُنَى وَقَدْ قُرَّبْتُ لِلظَّاعِنِينَ رِكَابٌ
خَلِيلِي مِنْ سُودِ اللَّيَالِي أَسَاوِدُ تَعْصُ بِصَرْفٍ وَالْمَنَايَا لُعَابٌ
فَمَنْ تَكُنِ الْإَيَّامُ يَوْمًا سَرَرْنَاهُ فَإِنِّي بِأَيَّامِ الزَّمَانِ مُصَابٌ
نَعِيٍّ أَتَانِي وَالنَّعِيُّ مُحَمَّدٌ^(٢) رَدَدْتُ عَلَيْهِ وَالدَّمُوعُ جَوَابٌ
بُكَاءٍ لِمَنْ شَدَّتْ عُرَى الْمَلِكِ كَفُّهُ وَمَنْ رَأَيْتُهُ فِي الْمُعْضَلَاتِ شِهَابٌ
مَهِيئًا تُلَاقِيهِ الْقِبَائِلُ وَالْقَنَاقِنَا فَتُعْضِي وَأَعْمَارُ الْكُهُمَا نِهَابٌ
كَرِيمٍ غَذَّتْهُ الْمَكْرُمَاتُ وَسَيِّدٍ نَمَتْهُ كِرَامُ النَّاسِ طَابَ وَطَابُوا
أَتَتْهُ الْمَنَايَا خِلْسَةً حَيْثُ أَيْقَنْتُ بَأْنَ اخْتِلَاسَا فِي الْقُلُوبِ غِلَابٌ
فَتَى نَيْطَ حُبِّ الْمَأْثُرَاتِ بَلَحْمِهِ فَمَنْ خَلَاهُ وَالْمَدِيحُ ثِيَابٌ
فِيَالَيْتَ مَنْ نَادَى صَدَاهُ يُجِيبُهُ كَمَا كَانَ مَنْ نَادَاهُ فَهُوَ يُجَابُ

(١) الداهية والمنية . (٢) يرد النعي بمعنى الناعي والمنعي .

وإنَّ طلابَ الناسِ لِلْعُرْفِ بَعْدَهُ وقد غَيَّبُوهُ فِي الثَّرَى لِعُجَابِ
لَقَدْ بَثَّ بَثَّ الْحُزْنِ فِي الْأَرْضِ هُلُكُهُ فكلُّ عَمِيدٍ فِي الْبِلَادِ مُصَابِ
نَعْتُهُ الْقَوَافِي لِلْعَوَافِي فَأَعْوَلْتُ بَنَاتُ الْفِيَا فِي أَنْشُرٍ وَذَنَابِ
أُظُنُّ ضُرُوفَ الدَّهْرِ تَحْدُثُ بَعْدَهُ سَتَحُلُّوْا وَإِنَّ الْحَادِثَاتِ لَصَابِ
كَمَا حَالَ حَالَ الطَّيِّبَاتِ لَفَقْدَهُ ^(١) عَنِ الْعَمْدِ حَوْلًا فَالْعِذَابُ عَذَابُ ^(٢)
عَظِيمٌ أَلَمٌ فِي عَظِيمٍ بِمِثْلِهِ وَبَيْنَ الشُّكُوفِ فِي الْقِيَاسِ نِسَابِ
فِيَا طَيِّبًا طَابَ الثَّرَى بِعِظَامِهِ قُضِيَتْ وَلَمْ يُلِمَّ بِسَاحِكِ عَابِ
سَلَامٌ وَرِضْوَانٌ عَلَيْكَ وَرَحْمَةٌ يُوَافِيكَ مِنْهَا فِي الضَّرِيحِ رِغَابِ
عَلَيْكَ أَبَا الْحَرَّانِ صَبْرًا فَذُقْ بِهِ دَوَاءً لَا دَوَاءَ الزَّمَانِ يُشَابِ
رُزِئْتَ جَلِيلًا فَاحْتَسِبْهُ فَإِنَّهُ وَإِنْ جَلَّ خَطْبُ الْعَزَاءِ عَصَابِ ^(٣)
لَعَلَّ مَسَاسَ الرُّزْءِ يَقْدَحُ مَا بِهِ تَهْدُ صِلَادُ أَوْ تَفْتُ صِلَابِ
فَكُنْ هَضْبَةً نَأْوِي إِلَيْهَا فَإِنَّمَا الْخُطُوبُ سِيُولُ وَالْمُلُوكُ هِضَابُ
عَلَى أَنَّهُ التَّمَحِيصُ وَالْمِيزُ حَاكِمُ بِإِنَّكَ تَبْرُ وَالْمَسْلُوكُ تُرَابِ
فَإِنْ غَاضَ مِنْهُ جَعْفَرُ الْبَاسِ وَالنَّدَى فَقِي الْبَحْرُ وَالْخُلُجُ الْعِظَامُ حِسَابِ
وَمَا ضَاعَ مَجْدٌ قَطُّ حَفَّ بِقُبَّةِ فَكَيْفَ وَقَدْ حَفَّ الْقِيَابُ قِيَابِ
رَعَى اللَّهُ لِلْإِسْلَامِ فِيهَا بُدُورَهُ وَأَخْصَبَ مِنْهَا لِلْإِنَامِ جَنَابِ

(١) حال يحول حولاً: تبدل. (٢) بكسر العين في الاول وفتحها في الثاني..

(٣) ما عصب به .

وللاديب عليّ بن احمد مصباح يرثي الشهيد أبا الفضل جَسُوس :
حلّ بالدين يا لقومِ بلاءٍ أحجمتُ دونَ وصفِه الشعراء
قَتَلَ اليومَ أعلمُ الارضَ ظُلمًا فَبِه في الاسلامِ يُحقّ العزاء
قَتَلُوهُ مِنْ أَجْلِ أَنْ كَانَ أُسْتَا ذَا أَعَزَّتْهُ السُّنَّةُ السُّمْحَاء
قَتَلُوهُ مِنْ أَجْلِ أَنْ كَانَ عَنْ سُبُلِ الْهَوَى فِيهِ نُفْرَةٌ وَإِبَاء
قَتَلُوهُ أَنْ كَانَ لِلشَّرْعِ شِمْسًا لَيْسَ تُخْفِي ضِيَاءَهَا الظَّالَمَاء
قَتَلُوهُ أَنْ كَانَ حِصْنًا بِهِ تُمْنَعُ عَمَّا تُرِيدُهُ الْأَشْقِيَاء
قَتَلُوهُ مِنْ أَجْلِ أَنْ كَانَ لِلشَّرِّ عِ حُسَامًا تَهَابَهُ الْأَمْرَاء
قَتَلُوهُ أَنْ كَانَ لِلْحَقِّ قَوًّا لَا وَمَا إِنْ تُضِلُّهُ الْأَهْوَاء
فَانْظُرُوا الدِّينَ أَنْ قَضَى نَجْبَهُ عَبْدُ السَّلَامِ أَوْدَتَ بِهِ الْغُرَبَاء
وَإِذَا تُؤَدِّي الْعِبَادُ لِيَوْمِ الْفَصْلِ جَاءُوا وَهُمْ لَهُ شُهَدَاء
وَهُنَاكَ الْإِلَاحُ وَالْخَلْقُ وَالْأَمَلُكَ طَرَأَ عَنْ قَتْلِهِ خُصَمَاء
مَا يَكُونُ الْجَوَابُ مِنْهُمْ إِذَا مَا سُجِبُوا فِي لُظَى وَيَسَّ الْجَزَاء
لَهْفَ نَفْسِي عَلَيْهِ هُدَّتْ بِهِ الْيَوْمَ مَ مِنْ الدِّينِ هَضْبَةٌ قَعَسَاء
لَهْفَ نَفْسِي عَلَيْهِ مَا لَشُمُوسِ الْعِلْمِ حَيْثُ اخْتَفَتْ عَلَيْهِ أَنْجِلَاء
عَذَّبُوهُ حَيًّا وَقَدْ كَانَ سَيِّئًا نِ لَدَيْهِ السَّرَّاءُ وَالضَّرَّاءُ
وَاجْتَنَوْا مَالَهُ الَّذِي سَوْفَ يُجْنَى بُؤْسُهُمْ حِينَ لَا يَقِيمُهُمْ نَجَاء
فَغَدَا عَائِلًا وَأَوْلَادُهُ وَالْأَهْلُ طَرَأَ جَمِيعُهُمْ فَقَرَاءُ

غَيْرَ أَنَّهُمْ لَمَّا رَأَوْهُ مِنَ اللَّهِ وَانْ أَمَلَقُوا فُهُمْ أَغْنِيَاءُ
صَبَرُوا لِلْقَضَاءِ وَاحْتَسَبُوا الْإِجْرَ وَمَا غَيْرَتُهُمُ الْبِأَسَاءُ
ثُمَّ طَافُوا بِهِ عَلَى النَّاسِ فِي الْأَسْوَاقِ كَمَا يَكُونُ مِنْهُمْ عَطَاءُ
فَعَدَا الْمَسَامُونَ يُلْقُونَ أَمْوَالَهُمْ لَاحِظِينَ عَلَيْهِ رِجَالَهُمْ وَالنِّسَاءُ
مَا حَبَوْهَا إِلَّا لِنَظَرِهِمْ أَنْتَ سَوْفَ يَأْتِي لَكَ مِنْ الْفِدَاءِ
ثُمَّ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَقَوَهُ الْمَنَائِيحَ لَيْسَ وَاللَّهِ بَعْدَ هَذَا بَلَاءُ
يَا لَهَا مِنْ مُصِيبَةٍ سَارَتْ فِي الْأَرْوَاحِ وَفَوْقَ السَّمَاءِ بِهَا الْإِنْبَاءُ
عَمَّتِ الْمَسَامِينَ رُزْءًا فَأَضْحَتْ كُلُّ عَيْنٍ مِنْهُمْ عَرَاهَا الْبُكَاءُ
يَا بَنَ جَسُوسٍ إِنْ تَكُنْ حَبَسْتَ لِلْخَوْفِ عَنْكُمْ لِسَانُهَا الْأُدْبَاءُ
فَأَنَا الْيَوْمَ مُنْصَحٌ بِرِثَاكِهِمْ مِثْلَمَا صَخَّرَهَا رِثَتْ خَنَسَاءُ
فَلْيَقُلْ مَنْ يَشَاءُ مَا شَاءَ وَلْيَفْعَلْ فَبِي مِنْ بَلَوَاكُمْ بُرْخَاءُ
فَعَسَى إِنْ لَقِيتُكُمْ يَوْمَ حَشَرٍ تَشْفَعُنَّ لِي فَإِنَّكُمْ شُفَعَاءُ
وَاللَّيْثُ أَبُو عَلِيٍّ الْيُوسُفِيُّ يَرِثُنِي زَاوِيَةَ الدَّلَاءِ لَمَّا أَوْقَعَ بِهَا

السلطان مولاي رشيد العلوي سنة ١٠٧٨ :

أَكَلَفُ جَفْنِ الْعَيْنِ أَنْ يَنْثُرَ الدَّرَّاءَ فَيَأْبَى وَيَعْتَاضُ الْعَقِيقَ بِهَا حُمْرًا
وَأَسْأَلُهُ أَنْ يَكْتُمَ الْوَجْدَ سَاعَةً فَيُفْشِي وَإِنَّ اللَّوْمَ آوَتْهُ أَغْرَى
وَقَدْ كُنْتُ أَسْتَصْحِيهِ حَتَّى تَوَقَّدْتُ * جُذَا الْوَجْدِ فَاسْتَسْقَيْتُهُ يُطْفِئُ الْجَمْرًا
عَلَى أَنْ دَمَعَ الْعَيْنُ فَضْلُ حُشَاشَةٍ تَذَابُ فَمَاذَا يَنْفَعُ الدَّمْعُ أَنْ يُجْرَى

وكانت سُروحُ الهم عني عَوَازِباً وبعد النوى أضحت مرا تَعُها الصِّدْرا
وكانت عيرونُ الحادثات غَوَافِلاً زماناً وخطبُ الدهر كان بنا غِراً
ليالي كان البينُ عن جيرة الحمى صدوداً ونظمُ الشمل لم يَسْتَجِلْ نثراً
وكانت مُداماتُ الوصال مُدَامَةً على القومِ صرفاً لا مَزِيحاً ولا نَزْراً
تَجاذبُ أخدانُ الصفاء كُوُوسَهَا فلا تَحْتَشِي منها خماراً ولا سُكْراً
فبينما ليالي الوصل بيضُ وروضه بفيض النِّدا كانت مرا بَعه خُضْراً
عدتُ غُدوةً أيدي الحوادث فَاخْتَلَمْتُ * خَلاها^(١) فَعَادَتْ بعدَ نَظَرِها غُبراً
وأبدلنَ ما نوسَ الديار وأهلها بوَحْشٍ وحوْلنَ الأهيلَ بها قَفْراً
وبيننا جموعُ الحيِّ كالرَّاحِ شَبْتَهَا بماءٍ فما تَحْشَى جَفَاءً ولا نَعْراً
وكالفرقدين الطالعين تألفاً وصاحبي الملك الذي نادى الشُّعْرى^(٢)
أصابَتْهم عينُ الكمال فغادرتُ أكَفَّهمُ من كلِّ ما جمعتُ صِفْراً
ورَدَّتْهم مثلَ الثُّرَيَّا إذا رأتُ سُهَيْلاً بِشَخطِ البينِ أو واصلٍ والرَّأ^(٣)
فأصْبَحَ في أرجائها البومُ مُنْشِداً يُرَدِّدُ مما قال من قد خلا شِعْراً :
(كأن لم يكن بين الحجون إلى الصِّفا أنيسٌ) بلى لكن هوى جدُّهم عَثْراً

(١) الخلا النبات الرطب الرقيق واختلاؤه قطعه . (٢) هو جذيمة بن الأبرش ونديماء الفرقدان . (٣) كناية عن البعد والفراق فان الثريا نجم شامي وسهيلة نجم يماني وأما واصل فهو ابن عطاء شيخ المعتزلة كان يلثغ بالراء فيبيدها غيناً ولاقتداره على الكلام يتجنبها فلا تقع في كلامه .

فلا جفنَ إلا وهو مُغضٍ على القذا ولا عين إلا من نجيع الشجا حمرا
ولا وجد إلا وهو مُرخٍ سدوله ولا هم إلا وهو يكتنفُ الفكر
صبرتُ فؤادي للخطوب فلم يزل به رشقها حتى تقضى فلا صبرا
وأزمتُ نهرَ الدمع عني تعزياً فلما جرى كالنهر لم أملك النهر
ووجهتُ نحو الحي أعرب عن هوى ضميري فلا ألفتُ زيدا ولا عمرا
وأحسب ما قد كنتُ أحسب دائماً فخطتُ بنانُ البين في راحتي صفرا

ألا قل لأرواح الصبا لا تغادنا فإننا بأرواح الجنوب لنا ذكرى
وقل لبروق الشرق تغمد سيوفها فإن بروق الجوف صيرناها بُترا
بلاد إذا ذقنا رضاب معينها فما لرضاب العين نلتمس الثغرا
وان نحن رُحنا بالشذا من رياضها ربحنا فما نرجو على العنبر التجرا
رياض إذا أبصرتها ونشقتها فلا تذكرن نجدأولا تذكرن شحرا
وأزر على من كان حن صباة إليها قديماً إذ على مثلها يزرى
فمن لي بواديها إذا فاح رنده ومن لي بمرعاها إذا أطلع المشرا^٣

١ - أي زجره وهو بهذا المعنى في قافية البيت .

٢ - أي الشمال .

٣ - المشر : النبات الأخضر .

وَمَنْ لِي بِرَوْضَاتٍ يَفُوقُ ضِياوُها
 على الشَّمْسِ حُسْنًا كُلِّها ابْتَهَجَتْ زَهرا
 وَهَيْهَاتَ وادٍ يُنْبِتُ الرِّندَ أَيْكُه

وَهَيْهَاتَ رَوْضٌ يُطْلِعُ الشَّمْسَ والبَدْرَا

وَعَذْبُ فُرَاتٍ تَسْتَقِيهِ وَقَايَه
 فَهَلْ نَفْحَةٌ تَكْفِينِي الْمَسْكَ فَايَحَا
 وَهَلْ طَلْعَةٌ تَكْفِينِي الْبَدْرَ طَالعا
 وَهَلْ وَقْفَةٌ بَيْنَ الطُّلُولِ الَّتِي قَضَتْ
 هُنَالِكَ إِخْوَانُ الْفَوَّادِ وَفَيْتَه
 نَزَائِلُهُمْ لَا عَنْ هَوَى لِنَوَاهُمُ
 وَنَنَائِي عِجَالًا عَنْهُمْ مِثْلَمَا نَأَى
 فَمِنَّا إِلَيْهِمْ صَبُوءُ ابْنِ مُلَوِّحٍ^٢
 فَمَا أَنْزَرَ الصَّبْرَ الْجَمِيلَ عَلَى النَّوَى
 فَلَوْلَا هَوَى نَجْدٍ وَطِيبُ نَسِيمِها
 وَعَذْبُ فُرَاتٍ سَلْسَبِيلٌ سَخَتْ بِهِ
 وَمَشْمُولَةٌ صَهْبَاءُ مَا قَطُّ شَابِها
 بِهَا هَامَتِ الْأَرْوَاحُ مِنْ قَبْلِ خَلْقِنا
 وَمَنْ لِي بِرَوْضَاتٍ يَفُوقُ ضِياوُها
 على الشَّمْسِ حُسْنًا كُلِّها ابْتَهَجَتْ زَهرا
 وَهَيْهَاتَ وادٍ يُنْبِتُ الرِّندَ أَيْكُه
 وَهَيْهَاتَ رَوْضٌ يُطْلِعُ الشَّمْسَ والبَدْرَا
 وَعَذْبُ فُرَاتٍ تَسْتَقِيهِ وَقَايَه
 فَهَلْ نَفْحَةٌ تَكْفِينِي الْمَسْكَ فَايَحَا
 وَهَلْ طَلْعَةٌ تَكْفِينِي الْبَدْرَ طَالعا
 وَهَلْ وَقْفَةٌ بَيْنَ الطُّلُولِ الَّتِي قَضَتْ
 هُنَالِكَ إِخْوَانُ الْفَوَّادِ وَفَيْتَه
 نَزَائِلُهُمْ لَا عَنْ هَوَى لِنَوَاهُمُ
 وَنَنَائِي عِجَالًا عَنْهُمْ مِثْلَمَا نَأَى
 فَمِنَّا إِلَيْهِمْ صَبُوءُ ابْنِ مُلَوِّحٍ^٢
 فَمَا أَنْزَرَ الصَّبْرَ الْجَمِيلَ عَلَى النَّوَى
 فَلَوْلَا هَوَى نَجْدٍ وَطِيبُ نَسِيمِها
 وَعَذْبُ فُرَاتٍ سَلْسَبِيلٌ سَخَتْ بِهِ
 وَمَشْمُولَةٌ صَهْبَاءُ مَا قَطُّ شَابِها
 بِهَا هَامَتِ الْأَرْوَاحُ مِنْ قَبْلِ خَلْقِنا

فَكَمْ وَلَّهْتُ فِكْرَ ابْنِ عِيسَى وَمَالِكٍ

وَكَمْ أَطْرَبْتُ سَهْلًا وَكَمْ اشْغَلْتُ بِشْرًا^١

إِذَا مَا تَحَسَّاهَا الْفَتَى لَمْ يَخَفْ بِهَا جُنَاحًا وَلَكِنْ يَرْتَجِي عِنْدَهَا أَجْرًا

تُحْمَلُهُ الْأَوْزَارَ غَيْرَ مُذَمَّمٍ بِأَعْبَائِهَا الْعُظْمَى وَلَمْ يَكْسِبِ الْوِزْرَ

وَتُبْرَدُ غُلَّاتِ الْحَشَا وَتَشْبُهَا أَوَارًا وَتُعْطِي الرُّشْدَ وَالسَّفَةَ الْحِجْرَ

وَتُورِثُهُ قَبْضًا وَبَسْطًا وَفُرْقَةً وَجَمْعًا وَنِسْيَانًا وَتُورِثُهُ شِعْرًا

فَلَوْلَا رَجَاءُ الْفَوْزِ مِنْهَا بِشَرِّبَةٍ

تُدَاوِي عَقَابِيلَ الْهَوَى وَالْجَوَى الْمُضْرَى

لَكَانَتْ أَكْفُ الْبَيْنِ تَصْدَعُ بِالْجَوَى

زُجَاجَةً أَحْشَائِي فَلَا أَمْلِكُ الْجَبْرَ

عَلَى أَنَّ هَذَا الدَّهْرَ لَيْسَ بِضَارِعٍ لَهُ غَيْرُ مَنْ أَمْسَى بِأَحْدَاثِهِ غُمْرًا

هُوَ الدَّهْرُ لَا يُبْقِي عَلَى مُتَخَشِّعٍ ذَلِيلٍ وَلَا ذِي نَخْوَةٍ مُزْدَهٍ كِبْرًا

حُسَامٌ إِذَا مَا صَمَّمَ الدَّهْرُ فِي أَمْرٍ غَدَا دَمُهُ بَيْنَ الْوَرَى خَضِرًا مَضْرًا^٢

وَسِيلٌ إِذَا مَا يَمَّمُ الْإَرْضَ أَصْبَحَتْ أَخَادِيدَ وَانْفَلَّتْ كَرَادِيسُهَا كَسْرًا

١ - أحمد بن عيسى الخراز ومالك بن دينار وسهيل بن عبد الله التستري

وبشر الحافي من كبار الصوفية .

٢ - غذا: سال ، وخضرًا مضرًا: هدرًا .

وليثُ هَـصُور ما تَغَشَّى حَظِيرَةً
 غُشُومٌ فما يَرْتاع من بأسِ خادِرٍ
 فليس عَجيباً ما أتى من عَجائب
 وليس بَنَزُر ما أَبادَ وما بدا
 فكم من عَظِيم يَغْتَلِي فَوْقَ باذِخٍ
 وكم من مَلِيك كان يُزْهِى بِشَروَةٍ
 تَغَشَّاهُ بِالارِزاءِ حَتَّى كَأَنَّمَا
 وَأَفْرَطَ فِي اسْتِنْفادِ ما قَدْ أَعدَّهُ
 أَدَارَ على داراً صَرِيفَ ضَروِفِهِ
 فَأَوْدَعَ ذاكَ التُّرْبَ بَعْدَ أُسْرَةٍ
 وَناوَى بَنِي سَاسانَ في غُلُوائِها
 وَغادَرَ في تِلْكَ المَدائِنِ أَعْيُنًا
 تُحَلِّي نُحُورًا بِالْمَدامِيعِ حَسْرَةً
 وَصَيَّرَها مَقْصُورَةً بَعْدَ بَسْطَةٍ
 وَمَدَّ إلى تِلْكَ المَقاصِيرِ كَفًّا

فَيَسْطُورَ إِلَّا أَنْعَمَ الْعَضُّ وَالْعَقْرُ
 كَمِيٍّ وَلَا مِنْ حُسْنٍ سَاكِنَةٍ خَدْرًا
 وَلَوْ أَطْلَعَ الْغَبْرَاءُ وَاسْتَنْزَلَ الْخَضْرَا
 وَلَا بَغْرِبٍ ما أَعْلَى وما أَهْرًا
 مِنَ المَجْدِ أَرْدَتْهُ صَوَارِمُهُ حَدْرًا^١
 وَعَزَّ وَلَا يَأْلُو اِعْتِلَاءً وَلَا فَخْرًا
 لَهُ تِرَّةٌ مِنْهُ فَلَمْ يَأْلِهِ دَفْرًا^٢
 وَمَا عَدَّ حَتَّى ما اسْتَطالَ وَمَا أَثْرَى
 وَأَتْبَعَهُ غِلَّابُهُ الْمَلِكَ الْحَبْرَا
 وَأَوْدَعَ هَذَا بَعْدَ بَسْطَتِهِ تَبْرًا^٣
 وَعِزَّتِها الْعُظْمَى فَذَلَّلَها قَسْرًا
 لِعَيْنِ غَدَتٍ مِنْ رَيْبِ أَحْدائِهِ خَزْرًا
 وَكَانَتْ تَعَالَى أَنْ تُحَلِّيَها شَذْرًا
 وَمَجْدٌ على نَشْرِ بَيْطُنِ التَّرَى قَضْرًا
 فَلَمْ يَدْعِ الْبَيْضَاءُ فِيها وَلَا الصَّفْرَا

١ - نزولاً وهبوطاً

٢ - ذلاً .

٣ - ملاكاً .

وأشَرَّتِ الأَرْجاءُ مِنْهَا بِشِيعَةِ
وَجَرَّ عَلَى أَوْلَادِ جَفْنَةٍ ذِيْلَهُ
فَكَانُوا لِآفَاتِ الزَّمَانِ جَزَائِرًا
وَأَنْحَى عَلَى لَحْمٍ فَعَفَى رَبَّاعِيًا
وَأَذْرَكَ أَوْتَارًا بِسَيْفٍ وَبِيَهْسٍ
وَوَظَّمَ عَلَى مَرَوَّانَ إِذْ تَلَّ عَرْشَهَا
وَعَادَ عَلَى بَغْدَادَ فَاجْتَثَّ مُلْكَهَا
وَرَامَ ابْنَ عَبَّادٍ بِخَسْفٍ فَنَالَهُ
أَسِيرًا بِأَغْمَاتٍ كَأَنَّ قَدْ فُدي بِهِ
وَلَمْ يَرْتِ إِذْ يَبْكِيهِ فِيهَا سَرِيرُهُ
فَهَلْ تَمْتَرِي فِي صَوْلَةِ الدَّهْرِ بَعْدَمَا
وَكُفُّوا مِنْ مُحِبِّ صَادِقِ الْحُبِّ رَوْضَةَ
إِذَا رَامَ وَصَلَ الْحَبِّ أَلْفَاهُ فِي الْهَوَى

يُسَارِعُ لَا هَجْرًا يَخَافُ وَلَا غَدْرًا
عَلَى أَلْفَةٍ وَالْعَيْشُ دَانٍ قُطُوفُهُ
فَلَمْ يَنْشَبِ الدَّهْرُ الْمُشْتَتُّ أَنْ فَرَى
وَأَوَّلَاهُمَا بِالْقُرْبِ يَبْنِئَانِ وَالْهَوَى
وَأَبْدَلَ ذَاكَ الْأَنْسَ وَحْشًا وَغُمَةً
كَأَنَّهَا الْفَرَّخَانُ قَدْ أَلْفَا أَلْوَكْرًا
مَنْ أَلْوَصَلَ مَا قَدْ أَبْرَمَاهُ وَمَا زَرًّا
جَفَاءً وَبِالْوَصْلِ الْقَطِيعَةِ وَالْهَجْرَا
وَذَاكَ اللَّذِيذَ الْغَضِّ مُسْتَوْبِلًا مَرًّا

فلا تَهْتَبِلْ بِالْحَادِثَاتِ وَلَا تَتَّقْ
مُقَرَّبَهَا مُقَصِّى وَمَرْفُوعَهَا لَقَى
وَلَا تَرَكِنْ لِلدَّهْرِ إِنَّ نَعِيمَهُ
فَبَيْنَا تَرَاهَا قَدْ كَسَتْكَ بِيْرُودُهَا
مَلُولٌ فَمَا بَاقٍ عَلَى عَهْدِ خُلَّةٍ
فَإِنْ سَرَّ فَلْتَظْفَرِ وَإِنْ سَاءَ فَاصْطَبِرِ
عَشِيرٌ مَتَى يُحْسِنُ فَقَدْ بَرَّ عَشْرَةً
وَإِنْ كَانَ يَمْضِي الْخَطْبُ وَالْحَرْلُ يَنْزِلُ
وَإِنْ سَبَقَتْكَ الْحَادِثَاتُ بِفَائِتٍ
أَلَمْ تَرَ أَنَّ الدَّهْرَ حُبْلَى أَنِتَّةُ^١
فَمِنْ مَنَحَ تُسْلِي وَمِنْ مَحَنَ تُسِي

فَمَا وَهَبَتْ يَوْمًا فَمَوْهَبَهَا مُعْرِى
وَمُنْهَلَهَا مُظْمًا وَمَكْسُودَهَا مُعْرِى
ظِلَالُ سَحَابٍ يَمْسَحُ السَّهْلَ وَالْوَعْرَا
تَجَافَتْ بِأُمِّيَالٍ فَلَبَسَتْ الْحَرََّا
وَلَا مُسْتَدِيمٌ فَيْكَ يُسْرًا وَلَا عُسْرَا
لِعَوْدَتِهِ فَالدَّهْرُ مَا يَأْلَفُ الصَّبْرَا
وَإِلَّا فَكُنْ بِالْبَرِّ فِي حُكْمِهِ الْبَرََّا
جُحَا حَا وَلَا عَارًا بِهِ فَكُنْ الْحَرََّا
فَسَوْفَ يُرِيهِ الدَّهْرُ فَاتَنْظِرِ الدَّهْرَا
وَلَا دُتْهَا يَوْمًا وَإِنْ لَمْ تَكُنْ تُدْرِى
نَتَائِجُهَا صُغْرِى عَلَى الْمَرْءِ أَوْ كُبْرَى

لَا تَأْمَنْ أُنْبَاءَهُ إِنْ تَحَبَّبُوا
وَكُلُّ بَنِي دَهْرٍ فَأَشْبَاهُ دَهْرِهِمْ
مَتَى مَا ارْتَجَوْا رَغْبَاءَ مِنْكَ تَقَرَّبُوا
وَأَخْفَوْا ذَمِيمًا كَانَ فَيْكَ وَأَظْهَرُوا

إِلَيْكَ فَمَنْ يُشْبِهَ أَبَاهُ فَقَدْ بَرََّا
عَلَى مَا قَضَى اللَّهُ الْكَرِيمُ وَمَا أَجْرَى
إِلَيْكَ وَأَبْدُوا خَالِصَ الْوُدِّ وَالْبَرََّا
جَمِيلًا وَقَالُوا ذُو مَحَاسِنٍ لَا تُعْرِى^٢

١ - اى مدركة توشك ان تضع حملها .

٢ - لا تججد .

فذلك أحرى أن يجلّوا ويُنصتوا
وإن لم يرجوا منك خيراً رأيتهم
وينشون عنك المنديات وإن رأوا
فلا تصغ سمعاً للذي ذمّ منهم
فإن بني الدنيا عبيد هواهم
وإن هواهم حيث ترّقب الغنى
إذا مارأوا إذا الوفر لا ذوا بذيله
وإن بصروا بالمملق اهتزأوا به
وقالوا بغيض إن نأى ومتى دنا
فإن غاب لم يفقدوا إن علّ لم يعد

إليك رشاداً كان قولك أو تبرأ
جفاء وإعراضاً يولونك الظهراً
جَمِلاً أعاروه الغشاوة والوقراً
ولا للذي أبدى الجميل وإن أطرى
على مركز الأهوال دورتهم طراً
وليس هواهم حيث ترّقب الفقراً
وإن لم ينالوا من سحائبه قطراً
ومدّوا إليه طرفهم نظراً شزراً
يقولوا ثَقِيلٌ مُبْرَمٌ أذبر الفقراً
وإن مات لم يشهدوا إن ضا لم يُقرى

وفي الله للمرء اللبيب كفاية
فكن رابئاً بالنفس عنهم ومغضياً
ولا تجعلن في غير مولاك همّة
وإن شئت ودّاً فيهم وتوفراً
فشاركهم فيما بكفك واكفهم
وخالٍ ولا تكلم وجامل ولا ترم
وواصل ولا تصرم ولكن خذ الحذرا

عن الناس والمحروم من حرم الأجر
بعين الحشا عما تكنفت الغبرا
فمنه ترى لو تعلم النفع والضرراً
لعرضك أو شئت النباهة والذكرا
مؤونك واستبقي التجميل والسترا

وَلَا تَقْتَحِمُ عَيْنَاكَ ذَا سَمَلٍ وَلَا
 فَإِنَّ أَلْفَتِي بِالنَّفْسِ لَا اللَّبْسِ مَجْدُهُ
 وَمَا ذَا عَلَى الْعَضْبِ الَّذِي رَثَّ جَفْنُهُ
 وَإِنَّكَ تُلْفِي النَّاسَ كَالنَّبْتِ ذَابِلُ
 وَقَدْ مَا يَكُونُ التَّبْرِ فِي التُّرْبِ تَخْتَفِي
 وَإِنْ كُنْتَ لَا نَعْتَدُ إِلَّا بِمَلْبَسِ
 وَإِنْ أَلْغَيْتَ مَا أَوْرَثَ الْمَرْءُ فِي الْوَرَى
 وَكَمْ مُتَرَفٍ لَمْ يَرَأْمُ الضَّيْفُ سَاحَهُ
 فَلَا خَيْرَ فِيمَنْ لَا يُعَاشُ بِظِلِّهِ
 وَلَا مَالٍ فِي الدُّنْيَا لِمَنْ لَيْسَ رَاشِحاً
 وَلَا مَجْدَ لِلْمُسَيِّكِ يَوْمًا وَلَوْ حَوَى
 فَأَغْرِقْ عَلَى الْعَوْرَاتِ مِنْكَ بِسَابِغِ
 وَإِنْ تُعَوِّزِ النُّعْمَى فَجِدْ بِبَشَاشَةٍ
 تَرِ الْمَرْءَ مَزْهُوًّا فَتُعْظِمَهُ قَدْرًا
 فَمَا شَانَ ذُرًّا كَوْنُ أَصْدَافِهِ كُدْرًا
 إِذَا كَانَ فِي الْهَيْجَاءِ يُنْعِمُكَ الْبَتْرَا
 لَذِيذُ وَغَضٍّ كُلَّمَا ذُقْتَهُ مَرًّا
 مَكَانَتُهُ حَتَّى تُخْلَصَهُ سَبْرًا
 فَسَيَّانٍ مَنْ يُكْسَى الْعِمَامَ وَالْحُمُرَا
 تَحَامِدُ فِي الدُّنْيَا وَعَلِيَاءُ فِي الْآخِرَى
 وَكَمْ تَرِبٍ طَابَتْ مُحَامِدُهُ نَشْرَا
 وَلَوْ فَاقَ تَحْلِيْقًا بِجَوِّ أَلْعَى النَّشْرَا
 بِفَضْلٍ عَلَى الْعَانِي وَلَوْ جَمَعَ الْوَفْرَا
 وَأَثَلَ مَا قَدْ كَانَ أَثَلَهُ كِسْرَى
 مِنْ الْعُرْفِ تَغْفِرُ مَا تُسَاءِبُهُ غَفْرَا
 فَخَيْرُ الْقِرَى أَنَّهُ تَبَذَّلَ الرَّحْبَ وَالْبِشْرَا

وعاصِ الهوى إن الهوانَ معَ الهوى

وفي الصَّبْرِ عِزٌّ فَاسْتَسِغْهُ وَلَوْ صَبْرَا

فَمَنْ لِلْهَوَى أَلْقَى الْقِيَادَ فَقَدْ هَوَى
 وَكُنْ بِالذِّبَى آتَاكَهُ اللَّهُ مِنْ جَدَى
 وَمَنْ لَمْ يَكُنْ مُسْتَعْنِيًّا بِقَنَاعَةٍ
 وَلَوْ أَنَّهُ فِي الْمَجْدِ قَدْ وَطِئَ النَّسْرَا
 قَنُوعًا رَضُوا تَبْلُغَ الْأَنْجَمِ الزُّهْرَا
 فَلَيْسَ بِمُنْفَكٍّ عَنِ النَّاسِ مُعْتَرَا

وَمَنْ لَمْ يَكُنْ يَسْتَرْغِدُ الْعَيْشَ بِالرِّضَى
وَمَنْ لَمْ يَكُنْ بِالْحَزْمِ مُحْتَزِمًا فَقَدْ
وَمَنْ لَمْ يُبَادِرْ صَيْدَهُ وَهُوَ مُعْرِضٌ
وَمَنْ يَشْرِبُ بَخْسًا نُوقَهُ وَهِيَ شَوْلٌ
وَمَنْ يَصْطَنِعُ عُرفًا إِلَى غَيْرِ أَهْلِهِ
وَمَنْ يَحْتَسِبُ يَهْمِلُ كَمَا الْغَيْثُ وَابِلًا
وَمَنْ لَا يُثَقِّفُ مَتْنَهُ الدِّينُ وَالْحِجَابُ
وَمَنْ لَا يُجَنِّبُ قَوْلَهُ دَنَسَ الْحَنَاءُ
وَمَنْ يَبْغِ بَذْلًا بِالسَّبَابِ وَبِالنَّوَى
وَمَنْ يَصْحَبُ الْأَمْجَادَ تَنْظُفُ ثِيَابَهُ
وَمَنْ لَا يَجَالِسُ مِنْ يُجَانِسُ لَمْ يَدُمُ
وَمَنْ لَمْ يُجَاوِزْ بِالصَّدِيقِ وَيَلْحَظْ
وَمَنْ يَرْمِ بِالْبُغْضِ الْوَدُودَ مُعْتَفًا
وَمَنْ لَمْ يَكُنْ يُبْدِي سَجَايَاهُ يُبْدِيهَا
وَمَنْ يَطْلُبُ الْعُلِيَاءَ يُلَفِّ مَذَاقَهَا
وَمَنْ يَسْرِ فِي دَرْكِ الْمَعَالِي بِهَيْمَةٍ
وَمَنْ لَا يَزِلُّ كَلًّا يُمَلِّ وَتَحْتَمِلُ

بِقِسْمَتِهِ لَمْ يَبْرَحِ الدَّهْرَ مُضْطَرًّا
فَرَى حَبْلَهُ عَنْ نَجْوَاهُ قَبْلَ أَنْ يُفْرَى
لِيَرْمِيَهُ كَانَ الْعَنَاءُ لَهُ قَصْرًا
عِجَافًا تَمَنَّاها لَدَى غَيْرِهِ شَكْرَى
فَلَيْسَ بِبَلَّاقٍ مِنْ جَزَاءٍ وَلَا شُكْرًا
فَلَا الْعَقْلُ يُجْفُو بِالْعِبَادِ وَلَا الصَّبْرُ
وَيَرْمِ الْوَزَى يَلْقَى الْمُتَقَفَّةَ السُّمْرًا
فَلَا يَتَمَتَّعُ يَوْمًا إِذَا سَمِعَ الْهَجْرًا
يَكُنْ بِنُضَارٍ جَيِّدٍ يَشْتَرِي الصُّفْرًا
وَمَنْ يَصْحَبُ الْأَرْدَالَ يُكْسِي بِهَا الْعُرَا
لَهُ أَحَدٌ فَالْأَسَدُ مَا تَرَامُ الْحُمْرَا
يَجِدُ لُبَّهُ نَغْلًا إِذَا نَزَعَ الْقَشْرَا
لِيَصْفُو يُوْرِثُ قَلْبَهُ الْبُغْضُ وَالْغَمْرَا
إِذَا مَا ارْتَجَى الرَّغْبَاءُ وَأَنْسَ الذُّعْرَا
هَبِيدًا ١ لَذُوْعًا لِلْحَنَاجِرِ لَا يُمْرَى
لُجُوجٍ رَمُوقٍ لِلْعُلَا يَحْمَدِ السَّيْرَا
بِهِ الْأَرْضُ أَنِّي سَارَ مِنْ ثِقَلِهِ وَقَرَا

ومن لا يَكُنْ يُرْجَى لَخَطْبٍ فلا يَكُنْ

فَتَى في نَدِيٍّ وليكن ناهداً بكرا
ومن لم يُخَلِّ النَّفْسَ ثم يُحَلِّها
وَمَنْ يَدْخِرُ تَقْوَى الإله وذِكْرَه
على كُلِّ حال يَحْمَدِ السَّعْيِ والدُّخْرَه
وَمَنْ يَغْنَى بالمولى فلن يَعمَدَ الغنى
إذا لم يَجِدْ يوماً لَجِيناً ولا نَضْرَه

ولعبد الله بن محمد العلوي الشنقيطي يرثي عمر التروزي :

هو الموت عَضْبٌ لا تَخُونُ مَضَارِبُه
وحوض زُعاف كلُّ من عاش شاربه
وما الناس إلاَّ وارِدُوهُ فسابق
اليه ومَسْبُوق تَحْبٌ نَجَائِبُه
يُحِبُّ الفَتَى ادراك ما هو راغب
ويُدركه لا بُدَّ ما هو راغبه
فكم لا بسِ ثوبَ الحياة فجاءه
على فجأة عادٍ من الموت سالبه
ولسنا نسبُ الدهرَ فيما يُصِيننا
فلا الدهرُ جالِيه ولا هو جالِيه
مضى مُشرق الأيام حتى اذا انقضت
ليالي أُنَى حَفْصٍ تَوالت غِيَاهُه
نَقِيبٌ نَسِينا كُلَّ شيءٍ لِرُزْنِه
تُذَكِّرُنَاهُ كُلَّ آنٍ مَنَاقِبُه
أَناعِيه أُرسلتَ عزلاء مُهْجتي
فها دُمها حِمْلَاقُ جَفْنِي ساكِبه
طوى نَعِيه وعِيِي فيها أنا غائبُ
عن الحسِّ فيه ذاهِلُ العَقْلُ ذاهِبُه
تَمَكَّنَ من نَفْسِي بِنَفْسِ سَماعِه
جوى فيه كُلِّي ذاب قَلْبِي وَقالِبُه
أَهاذي السحابُ الغُرُّ وهي مُلْتَه
بَواكِه أَم تلك الرعودُ نوادِبُه
لقد صَحَّ موتُ المَكْرُماتِ بموته
وصرَّح ناعِيه وَلَوَّح ناعِبُه

دعاهُ السميعُ المستجابُ وطالما
هو السيدُ الممتدُّ في الناس ذكره
يُلاينُ مُرتاضاً أريباً وينبري
فتى يهبُ الآلافَ عفواً وتنكفي
تنوعُ فيه الناسُون فكلُّهم
فللاًبجرُ الرّاوون أخبارُ جوده
والأسدُ الواعون شدةَ بأسه
يجدُ فيفني من يُناوي مهابةً
علايةً يأتتهُ الجمُّ واردةً
يُناجي بما في نفس عافيه قلبه
فلم يُغنه المجد الذي هو حائز
على حزمه من طبعه مُتَعَقِّب
معاطفه ما ضقنَ ذرعاً بحادث
إمامٌ ندئى في جامع المجد راتبٌ

دعا الأَجْفَلَى^١ وَالْعَامُ أَشْهَبُ آدِبُهُ
وفي البوس كَفَّاهُ وفي البأس قاضيه
هزبراً أبا أَجْرٍ^٢ على مَنْ يُغاضيه
تخافته الآلافُ حين تُحاربه
الى كل جنس كامل الوصف ناسبه
وللقمر الراوون كيف مناصبه
وما دفعت في كل حرب مناكبه
ويُجدي فتُغني من يُوالي مواهبه
فيضربه^٣ أو ماردةً فيضاربه
فيُتَحِفُّ ما فيه نيطة مآربه
تراثاً عن المجد الذي هو كاسبه
يُباعدُه الأمرُ المَلُومَ مُقارِبُه
جليلٍ وان كانت تُخاف مَعاطفُه
تُحِيلُ القضايا أن تُنال مراتبه

١ - هي كالجفلى الدعوة العامة للطعام .

٢ - أي أشبال جمع جرو .

٣ - أي يعطيه .

مُنَوَّرُ مِرَاةِ الْفَوَادِ مُوَفَّقُ تَرَأَى لَهُ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ عَوَاقِبُهُ
 تُفَرِّقُ مَا يَكْفِي الْبَرِيَّةَ كَفَّهُ وَتَجْمَعُ مِنْ فَوْقِ التَّرَابِ تَرَائِبُهُ
 عَلَى يَدِهِ الطُّولَى تَقْمَصُ مِطْرَفًا مِنْ الْعِزِّ وَالْإِثْرَاءِ هَا أَنَا سَاحِبُهُ
 إِلَى بَابِهِ فِي كُلِّ تَنْهَاءٍ مِنْهَجٍ يُؤَدِّي إِلَيْهِ طَالِبَ الْعُرْفِ لَاحِبُهُ
 سَقَى اللَّهُ قَبْرًا ضَمَّهُ وَبَلَّ رَحْمَةً مِنْ الرُّوحِ وَالرَّيْحَانِ تَهْمِي سَحَابُهُ
 وَأَوْفَضَ فِي وَحْشِ التَّرَابِ بَرُوحَهُ إِلَى حَيْثُ أَتْرَابُ الْجَنَانِ تُلَاعِبُهُ

وللاديب الطيب بن مسعود المريني المتوفى ١١٤٥ :

أَتَيْتُ الْقُبُورَ أَدَاوِي بِهَا قَسَاوَةَ قَلْبِي الَّتِي أَجِدُ
 وَقَمْتُ اسْأَلُ عَنْ أَهْلِهَا وَهَيْهَاتَ لَا خَيْرَ يُوجَدُ
 رَأَيْتُ مَصَارِعَهُمْ عِبْرَةً تُذِيبُ حُشَّاشَةً مِنْ يَشْهَدُ
 أَقَامُوا قَلِيلًا وَقَدْ رَحَلُوا وَغَابُوا وَبِالْعُودِ مَا وَعَدُوا
 كَأَنَّ حَيَاتَهُمْ حُلْمٌ أَفَاقُوا بِهِ بَعْدَ مَا رَقَدُوا
 دَعَاهُمْ عَلَى الرِّغْمِ دَاعِيَ الرَّدَى فَلَبَّوهُ حِينَ انْقَضَى الْأَمَدُ
 وَقَدْ هَدَمَ الْمَوْتُ لَذَاتَهُمْ وَغَيَّرَ عَيْشَهُمْ الْارْغَدُ
 وَحَلُّوا بِطُوبِ الثَّرَى تَحْتَهُمْ تُرَابٌ وَفَوْقَهُمْ جُلُودُ
 وَقَدْ أَنْكَرَتْهُمْ مَعَارِفُهُمْ وَخَانَهُمُ الْأَهْلُ وَالْوَلَدُ
 تَسَاوَوْا بِأَجْمَعِهِمْ تَحْتَهَا فَسَيَّانُ الْأَحْمَرِ وَالْأَسْوَدُ

على كل ما قَدَّمُوا قَدِّمُوا وما زَرَعَتْ يَدُهُمْ حَصَدُوا

ولابن الطيب العلمي يرثي ابنَ زاكور :

قَضَى أَخُو النِّظَمِ والنَّثْرِ ابنَ زاكور فجادَ دَمْعِي بمنظُومٍ ومنشورٍ
وامتدَّ شَوْقِي بمَقْصُورِ الحَيَاةِ له ما حِيلَتِي بينَ ممدُودٍ ومَقْصُورٍ

ولابن زاكور يرثي امرأةً من قَرابَتِهِ :

سَقَى الرَّحْمَانُ قَبْرَ أَضْمَ شَخْصاً تَسَرُّبَلَ بِالْمَكَارِمِ وارتداها
وَنَضَّرَ هَضْبَ جَعَا لِفَتَاةٍ صَدَقَ حَوَى غُرَرَ الْفَضَائِلِ إِذْ حَوَاها
لَقَدْ كَانَتْ تَحْضُ عَلَى الْمَعَالِي وَتَنْدُبُ لِلْمَكَارِمِ مَنْ أَبَاها
وَقَدْ كَانَتْ بِأُفْقِ الْفَضْلِ شَمْساً فَحَطَّتْهَا الْمَنِيَّةُ عَنْ ذُرَاها
وَأَلْبَسَهَا الْمَنُونُ حُلِي كُسُوفٍ فَهَلَّا فَضْلُهَا الْوَافِي حَمَاها
فَكَمْ أَحْيَتْ مُوَاهِبُهَا كَيْباً أَحَلَّتْهُ النَّوَائِبُ فِي حِمَاها
وَكَمْ رَبَّتْ بِأَنْعُمِهَا يَتِيماً قَلَّتْهُ أُمُّهُ حَتَّى سَلَاها
لَنْ مَاتَتْ فَمَا مَاتَتْ حُلَاها وَإِنْ أَوَدَتْ فَمَا أَوَدَى عُلاها
فَقَدْ أَبَقَتْ مَآثِرَ مُشْرِقَاتٍ تُخْبِرُ عَنْ عُلاها فِي نَوَاها

وللوزير ابن ادريس يرثي السلطان مولاي سليمان العلوي :

نَبَأُ عَرَا أَوْهَى عُرى الْإِيْمَانِ وَأَبَانَ حُسْنَ الصَّبْرِ عَنْ إِمْكَانِ
شَقَّتْ لِمَوْقِعِهِ الْقُلُوبُ وَزُلْزِلَتْ أَرْضُ النُّفُوسِ وَرُجَّ كُلُّ مَكَانِ

فَقَدْ الْإِمَامُ أَبِي الرَّبِيعِ الْمُرْتَضَى
وَبَكَتْ عَيْنُ الدِّينِ مَلَأَتْ جَفُونَهَا
لَمَّا نَعَى النَّاعُونَ خَيْرَ خَلِيفَةٍ
مَزَّقَتْ ثَوْبَ تَجْلُدِي مِنْ فَقْدِهِ
عَجَبًا لِمَوْتِ غَالِهِ إِذْ لَمْ يَخَفْ
وَسَمَّا لِنَصْبِهِ الْمُنِيفِ وَلَمْ يَهَبْ
لَوْ كَانَ يُنَمِّعُ خَاضَ فُرْسَانُ الْوَعَى
وَحَمَوَهُ بِالنَّفْسِ النَفِيسَةِ إِنَّمَا
لَا كُنْ قِضَاءُ اللَّهِ حُمَّ فَلَا يُرَى
وَالْمَوْتُ مُورِدٌ كُلِّ حَيٍّ كَأَسِهِ
إِنْ غَابَ عَنَّا شَخْصُهُ فَلَقَدْ ثَوَى
وَمَنَاقِبُ وَمَفَاخِرُ وَمَاثِرُ
وَمَعَارِفُ وَعَوَارِفُ وَرَسَائِلُ
وَبِدُورُ أَوْلَادٍ وَآلٍ قَدْ قَفَّوْا
تَخَذُوا الدِّيَانَةَ وَالصِّيَانَةَ شِرْعَةً
اخْلَاقَهُمْ وَوُجُوهُهُمْ وَاصْفَهُمْ
إِنْ حَارَبُوا أَبَدُوا شَجَاعَةً جَدَّهُمْ
مِنْ كُلِّ مَنْ جَعَلَ الْقُرْآنَ سَمِيرَةً

جَزَعَتْ لِعُظْمِ مُصَابِهِ الثَّقَلَانِ
وَجَدَّ عَلَى كُلِّ ذِي إِيمَانٍ
وَعَرَى الْفَوَادِ طَوَارِقُ الْأَحْزَانِ
وَنَثَرَتْ دَرَّ الدَّمْعِ مِنْ أَجْفَانِي
فَتَكَ الْمُلُوكُ وَسَطُورَةَ السُّلْطَانِ
غَضَبَ الْجَنُودِ وَغَيْرَةَ الْأَعْوَانِ
حِرْصًا عَلَيْهِ مَوَاقِدَ النَّيِّرَانِ
يَحْمُونَ رُوحَ الْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ
لِلْمَرْءِ فِي دَفْعِ الْقِضَاءِ يَدَانِ
وَسَوَى الْمَيِّمِنِ فِي الْحَقِيقَةِ فَانَ
فِينَا الثَّنَاءُ لَهُ بِكُلِّ لِسَانٍ
شَاعَتْ لَهُ فِي سَائِرِ الْأَوْطَانِ
وَمَسَائِلُ قَدْ أُوضِحَتْ وَمَعَانِ
آثَارُهُ فِي الْعِلْمِ وَالْعُرْفَانِ
وَتَقَلَّدُوا بِصَوَارِمِ الْإِيقَانِ
كَالزُّهْرِ وَالْأَزْهَارِ وَالْأَمْزَانِ
أَوْ خَاطَبُوا أَزْرَوْا عَلَى سَحْبَانِ
وَسَمَّا يَوْصَفُ الْعِلْمَ وَالَّتِيانِ

كم آيةٍ ظهرت له وكرامةٍ دامت دلائلها مدى الأزمان
 قد كان أوحدَ دهره وزمانه في العلم والتحقيق والإتقان
 قد كان فرداً في البلاغة ان جرت أقلامه بهرت بسحر بيان
 من للعلا من بعده من للنهي من للتقى وتلاوة القرآن
 يا رُمسَه ماذا حوت من العلى وطويت من علم ومن عرفان
 يا رُمسُ كم وارت من كرم ومن جود ومن فضل ومن إحسان
 يا رُمسُ كيف حجت عنا شمسُه وضيأوها في سائر البلدان
 فلو استطعت جعلت في قلبي قبره حباً وأحشائي من الأكفان
 ولو أن عمري في يدي لو هبته وفديته بالأهل وال الإخوان
 لاكن يُخففُ بعض أثقال الأسي علمي به في جنة الرضوان

الموشحات والأزجال

لَا بِنِ غُرْلَةٍ مُوشَّحٍ غَزَلِي :

يَا مَنْ حَكَمِي خَدُّهُ الشَّقَاتِقُ وَمَا لَهُ فِي أَلْبَهَا شَقِيقُ
تَرَكَتَنِي بِالْذَمِّوعِ شَارِقُ لَمَّا بَدَا خَدُّكَ الشَّرِيقُ

سَلَّلْتَ مِنْ نَاطِرَيْكَ صَارِمُ لِلْفَتَى يَا شَادِنَ الصَّرِيمِ^(١)
وَسِرْتَ يَوْمَ الْفِرَاقِ سَالِمُ وَقَدْ تَرَكَتَ الْحِشَا سَلِيمِ^(٢)
مَتَى أَرَاكَ الْغَدَاةَ قَادِمُ يَا مَنْ حَدِيثِي بِهِ قَدِيمُ
شَيَّبْتَ مِنْ أَجْلِكَ الْمَفَارِقُ وَسِرْتَ مَعْ جُمْلَةَ الْفَرِيقِ
مَا بَيْنَ حَادٍ حَدَا وَسَائِقُ قَلْبِي بِمَنْ سَاقَهُ وَسِيقُ

لِسَائِلِ الدَّمِّعِ صَرْتَ نَاهِرُ مُذْ سَالَ فِي وَجْنَتِي نَهْرُ

١ - الصريم : الرمل ، ويعني غزال الصحراء .

٢ - اي ملسوع .

وَسِرْتُ وَالْقَدُّ مِنْكَ خَاطِرُ وَالْقَلْبُ مِنِّي عَلَى خَطَرُ
لَسْتُ عَلَى ذَا الْجَفَا بِقَادِرُ لَكِنْ بِهَذَا جَرَى الْقَدَرُ
سَهْمُ النَّوَى مِنْ يَدَيْكَ مَارِقُ وَقَدْ غَدَا لِلدَّما مُرِيقُ
فَأَسْمَحْ بَوَعْدٍ يَكُونُ صَادِقُ وَلَا تَكُنْ تَهْجُرُ الصَّدِيقُ

قَلْبِي غَدَا لِلْجَعِيمِ صَالٍ يَا مَنْ بِسَيْفِ الْجُفُونِ صَالٍ
وَعَمْرُ مَغْنَاكَ مَا حَلَالِي فَلِمَ تَرَى قَتَلْتِي حَالٍ
يَا نَاحِلَ الْخَضِرِ كَالْخِلَالِ (١) يَا كَامِلَ الْوَصْفِ وَالْخِلَالِ
سَاعَاتُ عُمْرِي غَدَتْ دَقَائِقُ لَمَّا بَدَا خَضْرُكَ الدَّقِيقُ
تَنْطِقُ عَنْ إِذْنِهِ الْمَنَاطِقُ تَقُولُ بِالرُّذْفِ مَا نُطِيقُ

يَا حَادِيَّ الْعَيْسَ مَعَكَ أُحْوَى رِقِّي بِإِحْسَانِهِ حَوَى
رَيْمٌ لَهُ الْقَلْبُ صَارَ يَهُوَى نَجْمِي بِهِ فِي الْهُوَى هَوَى
لَكِنَّهُ بَعْدَ ذَاكَ أَلْوَى دَيْنِي وَلِلْعِشْقِ مَا لَوَى
قَدْ سَرَّحَ النَّوْمَ فَهُوَ طَالِقُ عَنْ مُقْلَةٍ دَمْعُهَا طَلِيقُ
وَأَنْكَرَ الْعَهْدَ وَالْمَوَاقِقُ وَعَهْدُ وَدِّي بِهِ وَثِيقُ

جَبِينُهُ يُخْجِلُ الدَّرَارِي وَتَغْرُهُ يَفْضَحُ الدُّرَرُ
وَالْحَدُّ أَزْهَى مِنَ النَّضَارِ نَزَّهَتْ فِي حُسْنِهِ النَّظَرُ
عَلَيْهِ سَطَرٌ مِنَ الْعِدَارِ كَمْ عَاذِلٍ فِيهِ قَدْ عَذَرَ
جَمَالَهُ يَفْتِنُ الْعَوَاتِقُ وَخَمْرُ أَرْيَاقِهِ عَتِيقُ
وَطَرُفِهِ بِالنَّبَالِ رَاشِقُ وَقَدُّهُ كَالْقَنَا رَشِيقُ

يَا مَنْ سَقَمَ الْجُفُونَ أَعْدَى جِسْمِي وَبِي أَشْمَتَ الْعِدَا
أَجْرَيْتَ دَمْعِي فَصَارَ مَدًّا وَطَالَ مَا بَيْنَنَا الْمَدَى
مُضْنَاكَ بِالْهَجْرِ مَاتَ صَدًّا وَمَا جَلَا قَلْبَهُ الصَّدَا
يَا مَنْ حَوَى الْحُسْنَ فَهَوَّافَتُ مِنْ سَكْرَتِي فِيهِ لَا أُفِيقُ
فَارْسِلِ الطَّرْفَ مِنْكَ طَارِقُ وَأَقْطَعْ عَلَى سَلَوَتِي الطَّرِيقُ

قَدْ سَاعَدَ الْوَقْتُ يَا نَدِيمُ فَقُمْ بِنَا لِلْهَوَى نَدِيمُ
وَاسْتَجْلِيهَا مَعَ رَشَا كَرِيمُ يَرُنُو بِالْحَاظِلِهِ كَرِيمُ^(١)
كَأَنَّهُ قَلْبِي الْكَلِيمُ وَكَأُسُهُ جَذْوَةُ الْكَلِيمِ^(٢)
بِكُرْ عَدَّتْ فِي الدَّنَانِ عَاتِقُ مَا الْحُرُّ مِنْ رِقِّهَا عَتِيقُ

١ - اي كظبي ابيض .

٢ - يعني موسى عليه الكلام .

تُذِيرُ فِي الْكَأْسِ شِبْهَ بَارِقٍ إِنْ مَزَجْتَ صِرْفَهَا بِرِيقٍ
وله أيضا هذه الموشحة وتُعرفُ بالعَرُوسُ :

مَنْ يَصِيدُ صَيْدَا فَلْيَكُنْ كَمَا صَيْدِي
صَيْدِي الْغَزَالَةُ مِنْ مَرَاتِعِ الْأُسْدِ

كَيْفَ لَا أَصُولُ وَاقْتَنَصْتُ وَحْشِيَّةً
طَبِيعَةً تَجُولُ فِي رِداً ^(١) سُوسِيَّةً
صَاغَهَا الْجَلِيلُ فِيهِ شِبْهُ حُورِيَّةٍ
تَنْشِي رُوَيْدَا إِذْ تَمِيسُ فِي الْبُرْدِ
تَعْجِنُ الْغِلَالَةَ وَالرِّدَا مَعَ النَّهْدِ

رُبَّ ذَاتِ لَيْلَةٍ زُرْتُهَا وَقَدْ نَامَتْ
وَالرَّقِيبُ فِي غَفْلَةٍ وَالنَّجُومُ قَدْ مَالَتْ
رُمْتُ مِنْهَا قُبْلَةً عِنْدَ ضَمِّهَا قَالَتْ
قَرَّ قَرَّ وَأَهْدَا لَا تَكُنْ مُتَعَدِّي

تَكْسِرُ النَّبَالَ^(١) وَتَفْرِطُ الْعَقْدِ^(٢)

•

خَدُّهَا الْأَسِيلُ بَدَتْ مِنْهُ أَنْوَارُ
طَرَفُهَا الْكَحِيلُ سُلَّ مِنْهُ بَتَّارُ
هَا أَنَا الْقَتِيلُ فَهَلْ يُؤْخَذُ الثَّارُ
قَدْ أُسِرْتُ عَبْدًا وَلَمْ أَكُنْ بِالْعَبْدِ
مُتُّ لَا مَحَالَهُ فَاطْلُبُوا دَمِي بَعْدِي

ولسعيد بن إبراهيم السدراقي هذا الموشح في مدح الامير
إسماعيل بن الاحمر :

نُشِرَتْ فِيكُمْ بَنِي نَصْرٍ لِأَيِّ الصَّدْقِ رَايَةُ النَّصْرِ
أَيُّ شَهْمٍ وَأَيُّ صَنْدِيدٍ حَازَ إِرْثَ السَّمَاحِ وَالْجُودِ
شَيْدَ الْمَجْدِ أَيَّ تَشْيِيدِ
لَمْ تُخَادِعْهُ أَلْسُنُ الشُّكْرِ فَهَوَ فِي الدَّهْرِ طَيْبُ الذِّكْرِ
ثَاقِبُ الذِّهْنِ وَافِرُ الْعَقْلِ عَالِمٌ بِالْعُلُومِ وَالثَّقَلِ
جُعِلَ النَّصْرُ مِنْهُ فِي النَّصْلِ

١ - النبالة ويقال النبائل في الدارجة المغربية: الاسورة الرقيقة .

٢ - بالكسر وهذا اللحن هو التزيم الذي غيب على ابن غرلة ، راجع
ص ١٣١ من الجزء الاول .

ضَيْقُ الْحَزْمِ وَاسِعُ الصَّدْرِ بَارِعُ الْحُسْنِ بِاسْمِ الثَّغْرِ
 أَيُّ بَدْرِ بِطَالِعِ السَّعْدِ سَعِدَتْ مِنْهُ رُبَّةُ الْمَجْدِ
 لَمْ تَحِدْ رَاحَتَاهُ عَنْ رِفْدِ

صَادِقُ الْوَعْدِ سَابِقُ الْفَخْرِ جَالِبُ النِّفَعِ دَافِعُ الضَّرِّ
 رَافِعُ الْحَقِّ بَاسِطُ الْعَدْلِ قَاهِرُ الظُّلْمِ قَاتِلُ الْمَحِلِّ
 مَا نِعُ الْبَغْيِ مَا نِحُ الْبَذْلِ

مُذْهِبُ الضَّيْمِ عَاجِلُ الْبِرِّ نَاجِحُ الْفِعْلِ ذَاهِبُ الْعُسْرِ
 يَا أَبَا الصَّدْقِ أَنْتَ مَوْلَانَا كَمْ نَوَالٍ بَذَلْتَ أَغْنَانَا
 رُقْتَ حُسْنًا وَفُقْتَ إِحْسَانًا

لَكَ جُودٌ كَوَائِلِ الْقَطْرِ وَمَقَامٌ أَرْبَى عَلَى النَّشْرِ
 وَلَتَمَنُصُورَ الْمَذْهَبِي هَذَا الْمَوْشَحَ الْغَزْلِي :

رَيَّانُ مِنْ مَاءِ الصَّبَا أَهْيَفُ مُتَمَلِّي الْبُرْدِ

كَالْغُصْنِ هَزَّتْهُ الصَّبَا فَوْقَ الرَّبِّي الشَّهْبِ
 قَدْ قَلْتُ ، لَمَّا أَنْ سَبَا بِحُسْنِهِ ، لُبِّي
 مِنْ عَيْنِهِ سَلَّ طُبَا وَأَعْمَدَهَا فِي قَلْبِي

أَسْرَنِي مَاضِي الشَّبَا أَوْطَفُ مُرَنِّحَ الْقَدِّ

يَا فَاضِحَ الرَّوْضِ سَنَا وَخُجِّلَ الْبَدْرِ
وَقَاطِعِي ظُلُمًا عَنَا وَمَنْ مَقَرُّهُ صَدْرِي
إِنْ لَمْ تَكُنْ تَشْمَسُ دُنَا فَإِنَّهَا تَجْرِي

عَلِقَتْهُ مِنْ الظُّبَا خَشْفًا يَسْطُو عَلَى الْأَسَدِ

قُلْتُ لَهُ وَقَدْ نَهَدَ وَجَدَّ فِي حَرْبِي
وَعَلَبَ الظُّبَى الْأَسَدُ وَفَازَ بِالْغُلْبِ
الشَّمْسُ بُرْجَهَا الْأَسَدُ فَاسْعَ إِلَى قَلْبِي

وللسيد العربي المَنَالِي مَوْشَحٌ إشاري :

الْطَّرْفُ دَافِقُ وَالْقَلْبُ خَافِقُ
فَكَيْفَ أَخْفِي وَالْحَالُ نَاطِقُ

حَالِي يُنَادِي عَلَى فَوَادِي
مَسْكِينُ هَذَا لَا شَكَّ عَاشِقُ

قد كَانَ قُرْبِي عَوْنًا لِقَلْبِي
على اسْتِتَارِي من الحُلَاثِقِ

فَانْظُرْ حَبِيبِي الى الذي يِي
إِنْ كَانَ يُرْضِيكَ أَنَا مُوَافِقُ

قَالَتْ لِي رُوحِي يِي عَيْنُ مَلِيحِ
مُتٌ فِي غَرَامِهِ إِنْ كُنْتَ عَاشِقُ

وَالِهْ تَجَرَّدْ عَنْ كُلِّ مَقْصَدِ
فَمَهْرُ وَصْلِهِ قَطْعُ الْعَلَاثِقِ

مَوْلَايَ لَبَّيْكَ لَبَّيْكَ لَبَّيْكَ
فَلَيْسَ لِلْعَبْدِ عَنْكَ عَائِقُ

بِحَقِّكَ ارْحَمْ مَنْ أَنْتَ أَعْلَمُ
بِهِ وَوَاصِلْ وَلَا تُفَارِقْ

ولابن زَاكُور هذا المَوْشَح في وَصْفِ الطَّبِيعَةِ وَالْحَثِّ عَلَى
الْغَبُوقِ :

جَاءَ الْأَصِيلُ مُحْيٍ قَتِيلِ النَّائِبَاتِ
قُمْ يَا حَمِيمِ نُبْرِدِ حَمِيمِ الْحَسَرَاتِ
قَدْكَ مِنَ الْأَشْجَانِ يَا مَنْ لَهُ قَلْبٌ رَقِيقُ
أَصْغِرْ إِلَى الْحَنَانِ وَرُقِ تَنَادِي مِنْ سَحِيقِ
قَدْ أُيْنِعَ الْبُسْتَانُ فَهَاتِهَا مِثْلَ الْعَقِيقِ
تُشْفِي غَلِيلَ صَبٍّ عَلِيلُ ذِي زَفَرَاتِ
هَبَّ النَّسِيمِ يَهْدِي شَمِيمِ الزَّهَرَاتِ
وَالشَّمْسُ بِالْوَرْسِ تَرْقُمُ بِالرَّقْصِ مُلَا
تَفْعَلُ بِالنَّفْسِ فِعْلَ الْخَلِيعِ بِالطَّلَا
حَيَّ عَلَى الْأَنْسِ يَا ذَا الْأَسَى وَانْظُرْ إِلَى
غُصْنٍ يَمِيلُ بِصَبٍّ بَلِيلِ ذِي نَسَابِ
مَنْ لَا يَهِيمُ بِشَذَا النَّسِيمِ أَقْسَى الْقُسَاةِ

وله آخر من معناه :

أَرْسِلْ جِيَادَ النَّظَرِ وَاعْتَبِرْ وَأَشْرَبْ طَلَا السُّلُوفَانِ
وَوَذْدُ شَرُودَ الْغَيْرِ وَلَتَشْكُرْ مَنْ طَرَزَ الْبُسْتَانَ

حَلَّاهُ غِبَّ الْمَطَرِ بِالزَّهْرِ مُكَلَّلَ التَّيْجَانِ
وَطَائِرُ الْبَشْرِ صَدَحَ لِأَنَّ قَدَحَ زَنْدِ الْمُنَى السَّعْدِ
بَاكِرُ مَعَاهِدِ الْفَرَحِ فَقَدْ شَرَحَ جَمَاهَا الْوَرْدُ

وَأَعْتَنَقَتْ هَيْفُ الْغُصُونِ يَسْتَنْشِرُونَ جَوَاهِرَ الْأَطْوَاقِ
كَأَنَّهُمْ مُدَلَّهُونَ مُتَيَّمُونَ سَمَتْ لَهُمْ أَشْوَاقُ
وَالْبَنَفْسُ عِيُونَ لَا يَنْعَسُونَ تَبْكِي مِنَ الْإِيْرَاقِ
وَالنَّجَسُ الْغَضُّ نَفَحَ لَمَّا اضْطَبَحَ مِنْ نَشْرِهِ نَدُّ
فَارْكُضْ سِوَابِقَ الْفَرَحِ فَقَدْ جَرَحَ خُدُودَهُ الْوَرْدُ

وَزَانَ وَجَنَاتِ الشَّقِيقِ نَدَى رَقِيقٍ رُوَاوُهُ يَبْرَرُ
كَأَنَّمَا عَلَى الْعَقِيقِ دُرٌّ أُنِيقُ مِنْ أَنْفَسِ الْجَوْهَرِ
أَوْ دَمْعُ مَنْ ضَمَّ الْعَشِيقُ يَشْكُو الْحَرِيقَ بِخَدِّهِ الْأَحْمَرِ
يَسْلُو بِهِ مَنْ انْتَزَحَ مِنَ الْمَرَحِ مِنَ اللَّوَى مَدُّوا^(١)
لَبَّ مُنَادِي الْفَرَحِ فَقَدْ جَرَحَ خُدُودَهُ الْوَرْدُ
وَلَهُ أَيْضًا فِي الرَّبِيعِ :

جَلَّ صَنِيعَ الْبَدِيعِ الْفَاعِلِ الْمُخْتَارِ

حَلَّى الرَّبِيعَ الرَّفِيعَ بِجِلْيَةِ النُّوَارِ
 سِرَّ بَدِيعَ لِي مُذِيعَ سَرَائِرِ الْأَزْهَارِ
 الرُّوضُ رَاضٍ وَهُوَ رَاضٍ غُصُونُ أَشْجَارِهِ
 شَفَا الْمَرَضُ فِي مَرَضٍ جُفُونُ أَنْوَارِهِ

❦

صَحَّ الْعَلِيلُ مِنْ غَلِيلٍ نَسِيمُهُ الْمِعْطَارِ
 إِذْ فِي مَمِيلٍ النَّخِيلُ مِنْ غُصْنِهِ أَسْرَارِ
 وَفِي مَسِيلٍ^(١) سَلَسِيلِ مِيَاهِهِ اسْتِعْبَارِ
 فِعْلُهُ مَاضٍ عِنْدَ قَاضٍ أَفْكَارِ زُؤَارِهِ
 إِذْ لَا اعْتِرَاضُ فِي اقْتِرَاضٍ نَقُودِ أَزْهَارِهِ

❦

وَلَا جُنَاحُ فِي مُبَاحٍ أَلْحَانِ وَرُشَانِهِ
 وَهَلْ يُتَاحُ ارْتِيَاحُ الْبَرِّيْحَانِهِ
 تَرُوي الرِّيحُ عَنِ صَحَّاحٍ آثَارَ نَيْسَانِهِ
 مَنْ فِي الرِّيَاضِ وَالْحِيَاضِ أَجَلُ أَوْطَارِهِ
 فِيهِ تُرَاضُ عَنْ تَرَاضٍ بَنَاتُ أَفْكَارِهِ

وله مُوشح غزلي على وزن ليل الهوى يَقْظَانُ^١ :

مَنْ عَلَّمَ	الْغِزْلَانُ	الْفَتْكَ بِاللَيْثِ الْجَرِي
وَسَلَّطَ	الْعَيْنَانِ ^٢	عَلَى قُلُوبِ الْبَشَرِ
يَا ضَرَّةَ	الشَّمْسِ	اللَّهِ فِي الصَّبِّ الْكَيْبِ
يَا مُنِيَّةَ	النَّفْسِ	هَجْرُكَ لِلنَّفْسِ مُذِيبِ
حَدَّثَنِي	حَدِيثِي	أَنَّكَ لَلْبِّ سَلِيبِ

بِأَسْهُمِ	الْأَجْفَانِ	ذَاتِ الْعَذَابِ الْكَبِيرِ
مُصْمِيَّةِ	الْوَلْهَانِ	بِالدَّعْجِ وَالْحَوْرِ
مَا ضَرَّ	يَا مُحْبُوبُ	يَا هَاجِرِي بِلَا ذُنُوبُ
لَوْ تُنْعِشُ	الْمَطْلُوبُ	بِلَفْظِكَ الْعَذْبِ الْخُلُوبُ
بِغَايَةِ	الْمَرْغُوبُ	مِنْ وَصْلِكَ الْمُخِي الْقُلُوبُ
تَذَكَّرَ	يَا وَسَّانَ	يَا ذَا الرُّوَاءِ الْأَنْضَرِ
لَيْلِي	الْبُسْتَانِ	تَحْتَ الْعَرِيشِ الْأَخْضَرِ
وَأَنَا فِي	نَشْوَةِ	مِنْ خَمَرٍ تُغْرِكُ النَّهْيِ

١ - هو موشح مشهور لابن سهل الاسرائيلي .

٢ - رفعه على لغة من يلزم المثني الالف في الاحوال كلها .

مُهَيِّجُ الصَّبْوَةِ لِكُلِّ مَنْ لَمْ يَعْشَقِ
لَمْ تَعْرِضْنا جَفْوَةَ تُثِيرُ نارَ حُرْقِي

ما بَيْنَنا نَدَمًا إِلَّا أَرِيجُ الزَّهْرِ
أَوْ نَعْمَةُ الْوَرِشَانِ عَلَى غُصُونِ الشَّجَرِ
وَالْبَدْرُ مِنْ بُعْدِهِ يَرْقُبُنَا بِكُلِّ عَيْنِ
أَرْسَلَ مِنْ وَجْدِهِ عَيْنًا عَلَيْنَا الْفَرْقَدَيْنِ
فَغَابَ فِي قَصْدِهِ وَخَيْبَةُ الرُّقْبَانِ شَيْنِ

وَالْوُرُقُ فِي الْأَغْصَانِ فَاقَتْ حَيْنِ الْوَتْرِ
بُطْرِبِ الْأَلْحَانِ عِنْدَ الصَّبَّاحِ الْمُسْفِرِ
تُثِيرُ أَشْوَاقِي بِصَوْتِهَا الْمُبْرِي السَّقَمِ
قَامَتْ عَلَى سَاقٍ إِذْ عَنَبَرُ اللَّيْلِ بَسَمِ
عَنْ ثَغْرِ أَشْوَاقٍ تَشْدُو بِطِيبِ النَّعْمِ :

مَقَالَ ذِي أَشْجَانِ حَلْفِ أَسَى وَضَرَرِ
« لَيْلُ الْهَوَى يَقْظَانِ وَالْحُبُّ تُرْبُ السَّهْرِ »

وله توشيح من وزن « شُقَّ جَيْبُ اللَّيْلِ عَنْ نَحْرِ الصَّبَاحِ »^١
تَخْلَصُ فِيهِ لَهُدِيح :

عَلَّلَانِي فَلَقَدْ جَاءَ الصَّبَاحُ بِسُلَافِ الرَّاحِ
وَأَمَزَجَاهَا بِلَمَى غَيْدِ صَبَاحٍ وَأُمْلِ الْأَقْدَاحِ
وَأَسْقِيَانِي فَلَقَدْ غَنَّى وَصَاحُ طَائِرُ الْإِصْبَاحِ
إِنَّ فِي الْكَاسَاتِ مِنْ خَمْرِ الدَّانِ سَاوَةَ الْمَحْزُونِ
فَأَشْرَبْنَاهَا فَلَقَدْ آتَى وَحَانُ زَمَنُ مَيِّمُونِ

مَذْ بَدَتْ تَطْلُعُ أَقْمَارُ الْمَدَامِ فِي سَنَا الْفِكْرِ
قَوْضُ الْأَشْجَانِ مِنْ بَعْدِ الْتِيَامِ رَائِدُ الْبِشْرِ
مِثْلَهَا قَوْضُ غِرْبَانِ الظَّلَامِ أَجْدَلُ الْفَجْرِ
يَا لَهَا مِنْ خُمْرَةٍ رَقَّتْ مَعَانِ مِنْ بِهَا مَلْبُونِ^٢
حَاكَتِ الْأَقْمَارَ فِي أَيْدِي الْقِيَانِ فِي اللَّيَالِي الْجُونِ

مَزَجَتْهَا رَاحَةُ الْإِسْكَندَرِ بَشْرَى سِرْنَدِيبِ
فَلَذَا أَزْرَتْ بِطْعَمِ السُّكَّرِ وَأَرِيحِ الطَّيِّبِ
وَأَشَبَّتْ بِسَنَاهَا الْإِبْهَرِ أُمْنِيَّاتِ الشَّيْبِ
فَأَسْقِنِيهَا قَهْوَةً تَكْسُو الْبَنَانَ عِنْدَمَ الْمَطْعُونِ -

١ - هو موشح مشهور لصفي الدين الحلي .

٢ - الملبون من به مثل الكسر من شرب اللبن والمراد من سقى بها .

مَكَشَتْ فِي الدَّنِّ دَهْرًا مُذْ زَمَانِ صَانَهَا أَفْرِيدُونَ

بِنْتُ كَرَمٍ حُبِيتْ كَرَمْتُهَا لَأَبِي بَلْقَيْسُ
وَسَقَاهَا فَبَدَتْ نَضْرَتُهَا أَرْسَاطًا لَيْسَ
خَلَّتْهَا لَمَّا غَشَتْ سَوْرَتُهَا فِي حِشَا الْبَنِيْسِ^١
زَجَلَ الرُّهْبَانُ يَوْمَ الْمَهْرَجَانِ فِي حِمَى عَبْدُونَ
أَوْ فُؤَادِي إِذْ عَلَاهُ الْخَفَقَانُ فَهُوَ كَالْمَجْنُونِ

هَاجَهُ ذِكْرُ عُثُودٍ بِاللَّوَى فِي ظِلَالِ الْبَانِ
وَبِرُوحِي يَا عَذُولِي فِي الْهَوَى شَادِنٌ فَتَّانُ
وَجْهِهِ وَالْبَدْرُ فِي الْحُسْنِ سَوَا فَمَهَا مِثْلَانُ
يَا لَهُ مِنْ أَجُورِ الْجَفْنِ بَرَّانُ لِحْظُهُ الْمَسْنُونُ
وَجَفَا عَيْنِي الْكَرَى لَمَّا جَفَّانُ وَصَلُهُ الْمَمْنُونُ

لَيْتَ إِذْ مَزَّقَ صَبْرِي بِالْجَفَا وَسَبَا لُبِّي
وَكَسَا جِسْمِي الضَّنَا وَالْدَّنْفَا وَبَرَى قَلْبِي
يَتَّقِي الرَّحْمَنَ فَيَمَنُ أَتْلَفَا دُونَ مَا ذَنْبُ
فَلَقَدْ أَوْدَى بِرُوحِي الْهَيْمَانُ وَكَسَانِي الْهُونُ
وَحَكَّى لَوْني مِمَّا قَدْ عَرَّانُ صُفْرَةَ الْعُرْجُونِ

١ - البنيس مثل الدن للخمر .

يا حياة الرُّوحِ صلِ ذا المُبتلى بالهوى قهراً
لا تظنَّ القلبَ منه قد سلا أو نوى غدراً
لا ومن فضله الله على خلقه طراً
الرَّسولُ المصطفى الثَّبتُ الجنان ذي السَّمتِ الميْمُونِ
من حبَّاه الله بالآي الحسن والنبا المكنون
ولابن الطيب العَلَمي توشيح في وزن « يا ليلة الوصل وكأس
العقار » ١ :

يا ليلة السكر ويوم الخمار بين الصغار علمتهما لاكواس رمي الجمار
باتَ يُحيينا نسيمُ الرِّياضِ
حتى اكتسى الليلُ قميصَ البياضِ
كأنما يَمَلأُ الطَّلا من حياضِ
مُهَفَّفٌ يَنْسِيكَ ذاتَ الخمارِ غِبَّ المزارِ يُديرُ باليمنى لناو اليَسارِ
فاشربْ فما في شربها من جناح
هذا غرابُ الليلِ ضمَّ الجناح
وقهقه الإبريقُ والطَّيرُ ناح
وفاح كالغبرِ نشرُ العرارِ بين الثَّمارِ وأنشدَ القُمْريُّ حيَّ الديارِ
واستنطق الاوتارَ تحت الورقِ
ظنِّي صفا منه الجبينُ ورقَ

نامَ وأهدى للغيوث الأرق
 عارِضه فوق الحدود استدار ثم استنار وألبس الحمرة ثوباً أخضرار
 بدرٌ على جيش الملاح ظهر^(١)
 يعبقُ ريحُ المسك مهماً ظهرُ
 فهل رأيت الغصنَ لما زهرُ
 مُستأنسٌ أصبحَ يبغى التفرار فما يُزارُ ووجهه الجنةُ حُفَّت بنارُ
 لما استحلَّ الوصلَ لي واستباح
 في ليلةٍ تنسي الليالي الصباح
 قلتُ وقد أسفرَ وجهُ الصباح
 «يا ليلة الوصلِ وكأس العقارِ ذونَ استتارِ عاظمُني كيف خلعَ العذار»
 وللقاضي محمد بن طاهر الهواري هذا الموشح في مליح شريف :

شاذنٌ بالغرامُ	يستفزُّ الغريمُ
وَصَلُّهُ لَا يُرامُ	والهوى لَا يَرِيمُ

أَعِيدُ لَا يَقِيلُ	مُهَجَّتِي بِالْمَقِيلُ
وبطرفٍ كحيل	حلَّ فيه الكحلُ
وبخدٍ أَسِيلُ	فوقَ غصنِ الأَسْلُ

بُخِّلَهُ بِالسَّلَامِ أَضْنَى قَلْبِي السَّلِيمُ
لَيْتَهُ بِالْكَلَامِ أَحْيَى صَبًّا كَلِيمُ

وَحْشَةُ الْهَاشِمِي صَيَّرْتَنِي هَشِيمُ
مَنْ غَدَا لَأَمِّي فِي هَوَاهُ لَيْمُ
أَيُّهَا الْفَاطِمِي صَلِّ مُجِبًّا فَطِيمُ
لَحْظُهُ كَالْحُسَامِ لِفُؤَادِي حَسِيمُ
مُظْهَرُ بَابِتْسَامِ دُرٌّ ثَغَرِ بَسِيمُ

وللشيخ محمد الحرقاق هذا الموشح الإشاري:

زَالَ عَنِ قَلْبِي تَوَلُّهُ^(١) الْفَنَاءُ وَصَفَا أَمْرِي
إِذْ غَدَا لِي كُلُّ رُبْعٍ وَطَنًا وَانْتَفَى نَكْرِي

كُلُّ مَاءٍ قَدْ حَوَّثَهُ شَرْبِي فَأَنَا رَيَّانُ
لَسْتُ يَوْمًا أَحْتَسِي مِنْ خَمْرِي وَأَنَا نَشْوَانُ
مَنْ رَأَى ثَابِتًا فِي حَيْرِي ظَنَّنِي وَسْنَانُ
لَمْ أَزَلْ بَيْنَ هُنَاكَ وَهُنَا دَائِمًا أُسْرِي

(١) دخله الكف وهو في الرَّمَلِ صالح .

وَأَزُجُّ الْفَقْرَ فِي عَيْنِ الْغِنَى إِذْ هُمَا سِرِّي



مِنْ جُيُوبِي كُلُّ طِيبٍ عَبَقَا عِنْدَ إِيقَانِي
عَجَبًا كَيْفَ يُنَافِينِي الْبَقَا فَأَرَى فَانِي
وَوُجُودِي كُلَّ شَيْءٍ سَبَقَا لَيْسَ لِي ثَانِي
شَارِبًا أُلْفَى وَمَشْرُوبًا أَنَا وَأَنَا غَيْرِي
وَإِذَا غَيْرِي بَدَا فَهُوَ أَنَا لِلَّذِي يَدْرِي



إِذْ بَطُونِي يَقْتَضِي لِي سَاتِرَا فِي مَقَامِ الْبَيْنِ
وُظْهُورِي يَبْتَغِي لِي مُبْصِرَا فِي ضِيَاءِ الْعَيْنِ
فَأَنَا فِي الْبَيْنِ وَالْعَيْنُ أَرَى وَاحِدًا فِي اثْنَيْنِ
ظَاهِرٌ مِنِّي مَا قَدْ بَطْنَا فَأَعْرِفُوا قَدْرِي
مَنْ رَأَى يَحْتَجِّي زَهْرَ الْمُنَى مُدَّةَ الْعُمُرِ

وهذا زجلٌ في النقد الاجتماعي لابن شجاع من أهل تازة :

المالُ زينةُ الدنيا وعزُّ النفوس يُبْهِي وجوهاً ليست هي بأهيا^(١)

١- تقوم الف الاطلاق في العامية مقام التاء المربوطة ويلاحظ هذا في كل ما يأتي من ذلك .

فَإِذَا كُلُّ مَنْ هُوَ كَثِيرُ الْفُلُوسِ وَلَوْهُ الْكَلَامِ وَالرُّتْبَةِ الْعَالِيَا

يَكْبُرُ مَنْ كَثُرَ مَالُو^(١) وَلَوْ كَانَ صَغِيرَ
مِنْ ذَا يُنْطَبِقُ صَدْرِي وَمَنْ ذَا يُصِيرُ
حَتَّى يَلْتَجِي مَنْ هُوَ فِي قَوْمٍ كَبِيرِ
لِذَا يَنْبَغِي يُحْزَنُ عَلَى ذِي الْعُكُوسِ
الَّتِي صَارَتْ الْأَذْنَابُ أَمَامَ الرُّوُوسِ
وَيَصْغُرُ عَزِيزُ الْقَوْمِ إِذَا يَفْتَقِرُ
يَكْبَدُ يَنْفَقِعُ لَوْ لَا الرُّجُوعَ لِلْقَدَرِ
لِمَنْ لَا أَصْلَ عِنْدُو وَلَا لَوْ خَطَرَ
وَيَصْبَغُ عَلَيْهِ ثَوْبُ فَرَّاشٍ صَافِيَا
وَصَارَ يَسْتَمِدُّ الْوَادُ مِنَ السَّاقِيَا

ضَعُفَ النَّاسِ عَلَى ذَا وَفْسَدَ الزَّمَانُ مَا يُدْرُو أَعْلَى مَنْ يَكْثُرُوا ذَا الْعُتَابِ
الَّتِي صَارَ فُلَانٌ يَصِيحُ بِأَبُو فُلَانٍ وَلَوْ رَأَيْتَ كَيْفَ يُرَدُّ الْجَوَابِ
عَشْنَا وَالسَّلَامَ حَتَّى رَأَيْنَا عِيَانِ أَنْفَاسَ السَّلَاطِينِ فِي جُلُودِ الْكَلَابِ
كِبَارِ النُّفُوسِ جَدًّا ضَعُفَ الْأُسُوسِ هُمْ نَاحِيَا وَالْمَجْدُ فِي نَاحِيَا
يَرَوْنَ أَنَّ هُمُ النَّاسَ وَيَرَوْنَهُمْ تُيُوسِ وَجُوهَ الْبِلَادِ وَالْعُمْدَةَ الرَّأْسِيَا

وله زجل غرامي :

تَعَبُ مَنْ تَبَعَ قَلْبُو مَلَا حَذَا الزَّمَانِ أَهْمَلِ يَا فُلَانُ لَا يَلْعَبُ الْحُسْنَ فِيكَ

١- يقوم الواو المتولد عن اشباع الحركة قبله مقام الضمير هنا وفيما هو مثله
مما يأتي في هذه الأزجال .

ما منهم مُلِيحٌ عَاهِدٌ إِلَّا وَخَانٌ قَلِيلٌ مِّنْ عَلَيْهِ تَحْبُسُ وَيَحْبُسُ عَلَيْكَ

يَتِيهِوا عَلَى الْعِشَّاقِ وَيَتَمَنُّعُوا يَتَعَمَّدُوا تَقْطِيعَ قُلُوبِ الرِّجَالِ
وَأَن وَاصِلُوا مِنْ حِينِهِمْ يَقْطَعُوا وَأَن عَاهِدُوا خَانُوا عَلَى كُلِّ حَالٍ
مُّلِيحٌ كَانَ هَوَيْتُ قَلْبِي وَنَسْتُ مَعُو وَصِيرْتُ مِنْ خَدِّي لَقْدَامُو نَعَالٍ
وَمَهَّدْتُ لُو مِنْ وَسْطِ قَلْبِي مَكَانَ وَقُلْتُ لِقَلْبِي أَكْرَمَ لِمَن حَلَّ فِيكَ
وَهُوَ شَنْ عَلَيْكَ مَا يَغْتَرِيكَ مِنْ هَوَانٍ فَلَا بَدَ مِنْ هَوْلِ الْهَوَى يَغْتَرِيكَ

حَكَمْتُو عَلِيَّ وَرَضِيَتْ بِهِ أَمِيرٌ فَلَوْ كَانَ يَرَى حَالِي إِذَا يُبْصَرُو
يَرْجِعُ مِثْلَ دَرِّ حَوْلي بَوَاجِهِ الْقَدِيرِ مَرْدِيهِ وَيَتَعَطَّسُ بُحَالِ انْخَرُو
وَتَعَلَّمْتُ مِنْ سَاعَا سَبَقِ الضَّمِيرِ هُ يُفْهَمُ مَرَادُو قَبْلَ أَن يَذْكُرُو
وَيَحْتَلُّ فِي مَطْلُوبُو وَلَوْ أَن كَانَ عَصْرِي الرِّبِيعِ أَوْ فِي اللَّيَالِي يُرِيكَ
يُؤَمِّشِي يَسُوقُو وَلَوْ كَانَ بِأَصْبَهَانَ هُ إِيشُ مَا يَقُولُ يَحْتَاجُ يَقُولُو يُجِيكَ

وَمَنْ زَجَلَ سِيَاسِي لِلْكَفِيفِ الزَّرْهَوْنِي يَذْكُرُ فِيهِ هَزِيمَةَ أَبِي الْحَسَنِ
الْمُرِينِي بِأَفْرِيقِيَّةٍ وَانْقِطَاعِ خَبْرِهِ عَنْ رَعِيَّتِهِ :

سُبْحَانَ مَا لَكَ خَوَاطِرُ الْأُمَرَا وَنَوَاصِيهَا فِي كُلِّ حِينٍ وَزَمَانِ

إِنْ طَعَّمْنَا عَطْفَهُمْ لَنَا قَسْرًا وَإِنْ عُصَيْنَاهُ عَاقِبَ بِكُلِّ هَوَانٍ

كُنْ مَرْعِي قُلْ وَلَا تَكُنْ رَاعِي فَالِرَّاعِي عَنْ رَعِيَّتِهِ مَسْئُولٌ
وَاسْتَفْتَحْ بِالصَّلَاةِ عَلَى الدَّاعِي لِلْإِسْلَامِ وَالرَّضَا السَّنِي الْمَكْمُولُ
عَلَى الْخُلَفَا الرَّاشِدِينَ وَالْإِتْبَاعِ وَاذْكُرْ بَعْدَهُمْ إِذَا تَجَبَّ وَقَوْلُ
أُحْجَّاجًا تَحْلِلُوا الصَّحْرَا وَدَّوَا سَرَحَ الْبِلَادِ مَعَ السَّكَّانِ
عَسْكَرَ فَاسِ الْمَنِيرَةِ الْغَرَا وَيَنْ سَارَتْ بِهِ عَزَائِمُ السُّلْطَانِ

أُحْجَّاجًا بِالنَّبِيِّ الَّذِي زُرْتُمْ وَقُطِعْتُمْ لَوْ كَلَّاكُلِ الْبَيْدَا
عَنْ جَيْشِ الْغَرْبِ حِينَ يَسْأَلُكُمْ الْمَتْلُوفِ فِي أَفْرِيْقِيَا السُّودَا
وَمَنْ كَانَ بِالْعَطَايَا يَزُودُكُمْ وَيَدْعُ بَرِّيَّةَ الْحِجَازِ رَغْدَا
قَامَ قُلْ لِلْسَدِّ صَادِفِ الْجُزْرَا وَيَعْجِزُ شَوْطَ بَعْدِ مَا يُخْفَانِ
وَيَزِفُّ كَرْدُومَ وَتَهَبُ فِي الْغُبْرَا أَيُّ مَا زَادَ غَزَا لَهُمْ سَبْحَانِ

لَوْ كَانَ مَا بَيْنَ تُونِسَ الْغَرْبَا وَبِلَادِ الْغَرْبِ سَدًّا اسْكَنْدَرُ
مَبْنِي مِنْ شَرْقِهَا إِلَى غَرْبَا^(١) طَبَقَةً مُجْدِيدَ وَثَانِيَا بَصْفَرُ

١- يعني غربها فالهاء فيه مختلصة .

لا بُدَّ لِلطَّيْرِ انْ تُجِيبَ نَبَاً او يَأْتِي الرِّيحَ عَنْهُمْ بِفَرْدٍ نَبَرٍ
 ما اعْوَضَهَا مِنْ امُورٍ وَمَا شَرًّا لو تَقَرَّأَ كُلَّ يَوْمٍ عَلَى الدِّيَوَانِ
 لَجَرَتْ بِالدَّمِّ وَانْصَدَعَ حَجْرًا وَهُوتَ الْخَرَابَ وَخَافَتِ الْغَزْلَانِ

أَذِرْ لِي بِعَقْلِكَ الْفَحَّاصَ وَتَفَكَّرْ لِي بِخَاطِرِكَ جَمْعًا
 انْ كَانَ تَعْلَمَ حَمَامٌ وَلَا رَقَّاصَ عَنْ السُّلْطَانِ شَهْرَ وَقْبَلِهِ سَبْعًا
 تَظْهَرُ عِنْدَ الْمُهَيْمِنِ الْقَصَاصَ وَعَلَامَاتُ تُنْشَرُ عَلَى الصَّمْعَا^(١)
 إِلَّا قَوْمٌ عَارِيَيْنِ بِلَا سِتْرَا مَجْهُولِينَ لَا مَكَانَ وَلَا إِمْكَانَ
 مَا يَدْرُونَ كَيْفَ يَصُورُوا^(٢) كُسْرَا وَكَيْفَ دَخَلُوا مَدِينَةَ الْقَيْرَوَانِ

امولاي ابو الحسن خطيننا الباب قَضِيَّةَ سِيرْنَا إِلَى ثُونُسِ^(٣)
 فُقْنَا كَثًّا عَلَى الْجُرَيْدِ وَالزَّائِبِ وَأَشْكَى فِي أَعْرَابِ أَفْرِيقِيَا الْقُوْبُسِ
 مَا بَلَغَكَ مِنْ عُمَرٍ فَتَى الْخَطَّابِ الْفَارُوقِ فَاتِحِ الْقُرَى الْمُؤَلْسِ
 مُلْكُ الشَّامِ وَالْحِجَازِ وَتَاجُ كِسْرَى وَفَتْحُ مِنْ أَفْرِيقِيَا وَكَانَ

١- يريد الصومعة .

٢- اي يكسبون كسرة .

٣- راجع فصل الوجهة السياسية من العصر المريني في الجزء الاول .

رَدَّ وَلَدَتْ لَوْ كَرَّةً ذَكَرَى وَنَقَلَ فِيهَا تَفَرَّقَ الْأَخْوَانَ

•

هَذَا الْفَارُوقُ مُرَدِّي الْأَعْوَانِ صَرَّحَ فِي أَفْرِيقِيَا بِذَا التَّصْرِيحِ
وَبَقِيَ حَمَى إِلَى زَمَانِ عُثْمَانَ وَفَتَحَهَا ابْنُ الزُّبَيْرِ عَنْ تَصْحِيحِ
لَمَّا دَخَلَتْ غَنَائِمُ الدِّيَّانِ مَاتَ عُثْمَانُ وَانْقَلَبَتْ عَلَيْنَا الرِّيحُ
وَأَفْتَرَقَ النَّاسَ عَلَى ثَلَاثَةِ أَمْرَا وَبَقِيَ مَا هُوَ لِلسَّكُوتِ عُنوان
إِذَا كَانَ ذَا مِنْ مَدَّةِ الْبَرَا أَشْ نَعْمَلُ فِي أَوَاخِرِ الْأَزْمَانِ
وَمَنْ زَجَلَ لَابْنُ دَاوُدَ يَتَضَمَّنُ قِصَّةَ الْجَوَارِي الْعِشْرِ الَّتِي صَاغَهَا عَبْدُ
الْمُهَيْمَنِ الْحَضْرَمِيِّ فِي شَكْلِ مَقَامَةٍ ذَكَرْنَاهَا فِي الْجُزْءِ الثَّانِي :

أَنَا نَدُورُ فِي فَاَسَ بَيْنَ زُنَاقِي وَدُرُوبِ بِالطَّبْعِ وَالتَّأْدُبِ
حَتَّى سَمِعْتُ هَوْلًا فِي وَاحِدِ الزُّنَاقِ^(١) بَيْنَ الرِّيَّامِ دَعَقًا^(٢)
لَمَّا سَمِعْتُ ذَا الْعِيَاطِ يَا حَضْرَا أَوْقَعْتُ رِدْتُ خَبْرَا
وَانْظُرْتُ فِي الرِّيَّامِ وَجَدْتُهُمْ عَشْرَا بَيْضَا وَلَوْنُ حَمْرَا
وَرَقِيقَةً غَزَالَ فِي بِلَادِ الصَّحْرَا وَآخَرَى ثَمَلَاتِ عَبْرَا
وَآخَرَى شَطًّا مِثْلَ غَضْنِ الْبَنَانِ وَقَصِيرَةٍ وَرَدَةٍ فِي كُمِّ مَلِكِ

١- الزقاق .

٢- خصومة .

والبلدية بزينة الفتان وعربية كستها باللك^١
وعجوزة متهدمة الأسنان وصبيّة بشفّارها تهلك
من بعد ما هدّوا حضروا هناك أجواد
وقفوا وقد ردّوا وتأدّبوا الاغِيَاد^٢
والضدّ مع ضدّوا يتعائروا الجهاد
بيننا مع الحميرا وشطّا مع القصيرا وعجوزة والصغيرا
والساكننا البلاد بانوجه المحجوب وعربية بغنّوب^٣
والليّ ملات بالشحم في عرقا والليّ تنلّات برقا

نطقت وقالت البيضا حسني هاج لوّني أبيض كما العاج
بدني كما الغصن يُبدّين نسّاج وانت كذاك التمسّاح
بين البياض وبين السّواد ذراخ مثل النّهار والدّاخ
النّشري * واللّوز والازهار والسّوسان والياسمين لوّني
وكواكب والشمس والاقمار من وجّهي والصّبح من حسني

١ - بالحمرة التي هي لون اللّك .

٢ - يريد جمع غيداء .

٣ - يعني بوجهها المكشوف .

٤ - كذا في الأصل ، فهل يدخل الأكفاء الزجل ؟

• - أي النسرين .

وَأَنْتِ لَوْنُكَ يَحْكِي لِلْقَارِ وَذُنَيْتِي يَا سَوْدَا تَعَانِدُنِي
 أَوْعَايَ مَعَ عَمَلِكَ أَوْ أَصْمَتِ وَبَاعِدُنِي
 وَانْظُرِي إِلَى لَوْنِكَ وَانْظُرِي إِلَى لَوْنِي
 عِنْدِي أَحْسَنُ مِنْكَ فِي الدَّارِ تَخْدُمُنِي
 لَوْنُ الْبَيَاضِ زَهْوَا لِهَ الْعِبَادِ تَهْوَى نَصْفُ الْجَمَالِ هُوَا
 انْظُرِي بِفِكْرَتِكَ فِي الثَّوْبِ الْمَجْلُوبِ صَاحِبُ الْبَيَاضِ مَحْبُوبِ
 وَمَا السَّوَادُ مَنْ رَادٍ يَتَنَقَّى بَاطِلٌ كَذَاكَ يَشْقَى

نَطَقَتْ وَقَالَتْ السَّمْرَا بِالزَّعَاجِ^٢ لَوْنِي بَدِيعٌ وَهَّاجٌ
 يَشْرِقُ كَمَا الْخَمْرُ فِي قِطْعَانِ الزَّاجِ نَسْمَةٌ وَطِيبَةٌ وَعُلَاجٌ
 وَبِمَا الذَّهَبُ كَيْتُ كَتَبِ التَّاجِ وَنَقَشَ الْقَبَاقِبِ الْعَاجِ
 مَا رِيتُ فِي الْبَيَاضِ سِوَى خَمْسَا مَعْرُوفِينَ بِالثَّقْلِ وَالْبَرَادِ
 مَلْحٌ وَجِيرٌ وَثُلُجٌ بِهِ تُكْسَا وَرِخَامٌ وَعَاجٌ فِي الْبَيَاضِ قَدَادِ
 مَنجُوسِينَ وَقَلَمَهَا بَخْسَا^٣ تَحْتَ الْأَقْدَامِ يَجْرُعُوا النَّكَادِ
 وَرِفْعَةُ الْأَسْوَامِ تُعْرِفُ لِلْأَشْمَرِ
 شَهْدُ الْعَسَلِ وَمَدَامِ وَالْمِسْكُ وَالْعَنْبَرُ

١ - أي من البلاء ان تكوني انت منافسة لي.

٢ - يريد بانزعاج .

٣ - أي وما ابخسها .

والتبر حين يَغْنَم والبرهان الاحمر
 والتمر في اوانو والزهر في أغصانو والعود في مكانو
 الاحمر بديع في الماكول والمشروب ما فيه شيء معيوب^١
 وللعذر اوي زجل^٢ يُعرف بالصُّبُوحِي :

الصُّبْحُ كَشْرِيفٍ أَرْخَى ذَيْلَ إِزَارُو ولبس من الديباج غَفَارَا
 والليل كغلام أسود شاب غَدَارُو وشعل من البياض مُنَارَا

الصُّبْحُ كَنَسْرٍ يَتَعَلَّى والليل سالد مع غُرَابُو
 والضوء في سماه تَوَلَّى وارسل على الظلام عُقَابُو
 انظر ترَّ حَمَامِ الْقِبْلَا مثل الامام في مُحْرَابُو
 الفلك كيف دار بصنعة دَوَّارُو وخفا كواكبُ السَّيَّارَا
 هبَّ النسيم بين الداعي ونهارُو شوش دواحننا المَسْرَارَا

الأشجار بارزة في حليها تُجلى على سواقي البُستان
 ومياه خلخلت رجليها والزهر دار لها تيجان

١ - نشرنا هذا الزجل بتمامه مع بحث قارئنا فيه بينه وبين مقامة الحضرمي

في مجلة تطوان عدد ٥

مدّت من الكمام يديها تطلب من الكريم الغفران
الأنغان كل واحد يغرم دينارو يعطي على الصباح بشارا
والطير كالخطيب طلع في منبارو وعظ والأنغان سكارى

أقبلت محاسن الغدوياً للوالعين وللي تأبو
والروض في ثياب نقياً يعيق على طراف جنابو
والمرج كسها ذهيباً يرمي على الرقيب شهابو
صب تشوف يا ساقى من بلار اسع وطف بالخمّارا
وأعطف على شمس مقامك واقمار وكمل على وجوه الدّارا

أغنم مع المليح صباحك أما ترى الزمان في غفلا
وأشعل من الهنا مصباحك من لا يفوز ما يسلا
إذا انجرت بك رياحك جفئك يعم فوق الحملا
خلّ عدوك يتقلب فوق جمارو وادّ من الشرور إمّارا
من جاذ لو زمانو يقطف نوّارو الايام صاحبا مطّارا

وللشيخ الحراق زجل غرامي :

جاذ الزمان واستبشر قلب الهائم ونحلى بالسعد حين صاب مناه
نكى الحسود وظفر بالعزّ الدائم واصبح يتبختر في ثياب مناه

طاب السرور

مَعَ الْبُدُورِ
 بِيَضِ الدُّجُورِ
 فَأَغْنِمِ كَأْسَ الرَّاحِ هَا حَبِيْبِكَ زَارُ
 أَشَقِ وَدُورِ
 وَأَنْفِ الشُّرُورِ
 طُولِ الدُّهُورِ

سَاعَةَ السُّلُوفِ فَائِدَةَ الْأَعْمَارِ
 آتِ الْمَلِيحَ وَاعْصِي بِاللُّؤْمِ اللَّائِمِ وَأَعْمَلْ فِي أَيَّامِكَ مَا تَهْوَاهِ
 وَانْشُدْ مِنْ أَشْعَارِكَ فِي الْحُسْنِ الْقَائِمِ نَجْمَكَ صَاحِرِ صَارُ فِي صُغُودِ نَمَاهِ
 صَلِّ الشَّرَّابِ
 فَالْكَادِ غَابِ
 وَالْخَيْرِ صَابِ
 وَسُرُجُ الْفُرَجَاتِ شَعْشَعَتِ الْأَنْوَارِ
 رَشَفَ الْأَكْوَابِ
 مَعَ الْأَحْبَابِ
 عَيْنِ الصَّوَابِ

فَا زَهْمِي فِي زَمَانِكَ لَوْ تَعِيشُ نَهَارِ
 نَظْرَةً فِي الْحَبِيبِ تَحِي كُلَّ نَجْرَائِمِ وَالرَّحْمَنُ كَرِيمِ يَا لَلِّي يَرْجَاهِ

إِذَا مَا رَضَى مَا تَنْفَعُ عُزَايِمُ لَوْ بِأَعْمَالِ الْخَيْرِ كُلِّهَا تَلْقَاهُ
وَلَهُ أَيْضاً :

زَارُ حَبِيبِي بَعْدَ مَا جُفَا وَتُبَدَّدَ كَرْبِي ..
وَتَيَقَّنْتُ بِخَاطِرُو ضَفَا حِينَ بَغَى قُرْبِي
وَأَجْذُبُنِي بِالصَّدْقِ وَالْوَفَا وَأَقْلَعَ عَنْ حَجْبِي
وَأُظْهِرْ لِي سِرَّ مَا خَفَا عَنِّي فِي جَذْبِي
نَارُ غَرَامُو مَا تُنْطَفَا عُمرِي مِنْ قَلْبِي
مَا مِنِّي لِلَّوْ مُخَالَفَا يَقْتُلُ أَوْ يَسْبِي
لَا مُؤْنِي فِي هَوَاهُ مَا كَفَى وَاتَّقُوا عُجْبِي
وَأَنَا حَالِي مَا يُنْتَفَى رَائِخٌ فِي شُرْبِي
نَلْتُ ، وَضَالُو بِالْمَسَاعِفَا مَا هُوَ مِنْ كَسْبِي
غَيْرُ تَلَاقِيَتُو مُصَادِفَا سَائِقَةٌ مِنْ رَبِّي
وَلَهُ كَذَلِكَ :

جَادُ عَلِيٍّ بَرَضَاهُ
الْحَبِيبُ اللَّيِّ حَبِيتُ زَارُنِي وَانْعَمْ لِي بِالْوُصَالِ
حِينَ أَشْرَقَ نُورُ بَهَاهُ
كُلُّ شَيْءٍ بِالْقَهْرِ نُسِيتُ يَا أَهْلِي عَقْلِي إِذَا شَفْتُوهُ زَالَ
مَا بِي غَيْرُ هَوَاهُ

بَانَ فِي بَعْدِ مَا خَفِيتُ والغَرَامُ إِذَا هُوَ تَقَوَّى وَصَالَ
 مَا يَقْدِرُ مَنْ يَلْقَاهُ
 شُوفَ حَالِي حِينَ لَقِيتُ حَاطُ بِي وَأَقْهَرَنِي بِالنِّصَالِ
 كُلِّي فِي الْحَقِّ مَنَاهُ
 قَالَ لِي غَيْرُكَ مَا رَيْتُ يَا لَوَالِهِ زَوَّلَ شَكَّ الْخِيَالِ
 مَا تَمَّ غَيْرَ اللَّهِ

وللسيد عبد القادر العَلَمِي المتوفى سنة ١٢٦٦ زجل غزلي :
 الْخَالُ غَلَامٌ عَسَّاسٌ فِي رَوْضَةٍ مَنَعْمَا
 كَيْنُو ضَرِغَامٌ^١ فِي يَمِينُو حَرْبَةٍ لِي أَوْ مَا
 مِنْ حَاذَاءِ يَتْرُكُو رَمِيمِ
 صُنِعَ الْعَلَامُ نُقْطَةً فِي صُفْحَةٍ مَكْرَمَا
 مَا نَزَلْتُ بِأَقْلَامِ حَكُمْتُ رَبِّي رَافِعَ السَّمَاءِ
 كَوْنُ اللَّهِ الدَّائِمِ الْقَدِيمِ

وَجَعَابِ ارْؤَامِ^٢ وَكُؤَابِسِ^٣ لِلضَّرْبِ رَايَا
 مَا تَقْبَلُ تَذَمَّامِ فِي مَكَاتِبِ كُفَّارِ ظَالِمَا

١ - يعني كانه .

٢ - أي جعاب بنادق رومية وهو يريد الحواجب والعيون .

٣ - جمع كابوس وهو في العامية المغربية المسدس .

مَوْلُوعَةٌ بِالْقَتْلِ وَالْهَجِيمِ
 وَالْجِذْرَامُ قُدَّامُ نَجِيلٍ وَهَائِيَا
 شَرَادَاتُ الْوَهَامِ عَلَى الْعَفَّةِ وَالطَّيِّبِ قَائِيَا
 مَا تَقْرَأُ أَمَانَ مَا تُقِيمُ
 زَيْنُ الْأَعْجَامِ الْعَيْنُ الشَّهْلَا النَّائِيَا
 وَالْبَيَاضُ تَمَامُ وَحُرُوفِ الزَّيْنِ الْمُسَقَّمَا
 وَصَفُ الزَّيْنِ فِي صِنْعَةِ حَكِيمِ
 قَامَةُ الْأَعْلَامِ جُبَيْنِ وَغُرَّةٍ مُبَسَّمَا
 حُسْنُ بَغْيَرٍ وَشَامِ وَخُدُودِ كَوْرَدَةٍ نَاسِمَا
 صُنِعَ اللَّهُ الْمَلِكُ الْعَظِيمُ
 وَلَهُ أَيْضًا :

رَاحَ الْوَقْتُ وَلَا بَقَا إِلَّا وَقْتُ الْمَعَانِقَا
 كُبَّ وَرَا^٢ وَارْخِي رَوَاقِ
 وَالْأَشْجَارُ الْبَاسِقَا وَالْأَطْيَارُ النَّاطِقَا
 عَمَّرتُ بُلْغَاهَا اسْوَاقِ

١ - أي جمال عجمي غير عربي فهو كالبيت المشهور :
 الله اكبر ليس الحسن في العرب كم تحت لمة ذا التركي من عجب
 ٢ - أي املا الكأس وناولها .

كُبَّ الصَّهْبَا الخَارِقَا فِي كَيْسَانٍ بُنَادِقَا^١
 مِنْ زَاغٍ بِلَادِ الْعِرَاقِ
 تَظْهَرُ خَمْرٌ بَارِقَا فِي الْاَوَايِ شَارِقَا
 كَلُونِ سُحَيْقِ الرَّهَاقِ^٢

وله من زَجَلٍ فِي مَدْحِ الْمَوْلَى اَدْرِيسَ الْاَكْبَرِ :

بُوجُودُكَ يَا سُرَاجَ مَحْفَلِ اَهْلِ الْيَقِينِ
 سَعَدَ الْغَرْبُ بَعْدَ كَانٍ فِي بُرْجِ نُحَيْسٍ
 اَنْتَصَرْتَ مِلَّةَ النَّبِيِّ وَتَشَهَّرَ الدِّينُ
 وَالْحَقَّ اسْتَقَامَ مِنْهَجُوكَ بَعْدَ التَّشْكِيكِسِ
 وَقُطِعَ سَيْفُ الْهُدَى رُقَابَ الْمُرْتَدِّينِ
 بَاقِيَرٌ وَلَا بَقِيَّ رَهِيْبٌ وَلَا قَسِيْسٌ
 نَبَنَاتُ مُسَاجِدِ الْعِبَادَةِ لِلْمُبِينِ
 وَفُنُونُ الْعِلْمِ بِالتَّلَاوَةِ وَالتَّدْرِيسِ
 بُوجُودُكَ يَا سَيِّدَنَا مَوْلَايَ اَدْرِيسِ

١ - يعني من صنع البندقية .

٢ - يريد به الزعفران .

مصادر الكتاب

لهذا الكتاب مصادر عامة وخاصة ، أما العامة فهي التي تتناول موضوع المغرب مع غيره من الموضوعات كالتواريخ الكبرى ودوائر المعارف وكتب التراجم الجامعة ، وما الى ذلك ، وأما الخاصة فهي التي لا تتناول الا المباحث المغربية فقط ، من تاريخ وتراجم وأدب وهذه كلها من المصادر المظان ، أما غير المظان ككتب الفقه والحديث والتفسير والعربية وبقية العلوم الأخرى ، والشروح والخواشي والرسائل الموضوعية في مختلف المسائل والمجاميع الأدبية والصحف والمجلات فضلاً عن السماعيات والوجدات الموثوق بها كل الوثوق فانها تكاد تكون أكثر مصادرنا ولا سيما في الجزأين الثاني والثالث المشتملين على الآثار والمنتخبات الأدبية ، ويعسر علينا تعداد هذه المصادر التي لا تنضب فنقتصر هنا على ذكر المصادر المظان عامة وخاصة .

المصادر العامة

ابن الأبار

تكملة الصلة - ط . مدريد ١٨٨٦ .

معجم أصحاب أبي علي الصديقي - ط . مدريد ١٨٨٥ .

الحلة السيرة
اعتاب الكتاب
تحفة القادم

مُصَوَّر مخطوط الاسكوريال .

ابن الأثير

الكامل في التاريخ - ط مصر ١٣٠١ - ١٣٠٢ .

أحمد بابا السوداني

نيل الابتهاج بتكميل الديباج - ط . مصر ١٣٥١ .

أحمد توفيق المدني

تقويم المنصور - ط. الجزائر ١٣٤٨ .

ابن الأحمر (اسماعيل)

نشير الجمان فيمن ضمني وإياه الزمان ، مخطوط خاص .

الادريسي (الشريف)

نزهة المشتاق في اختراق الآفاق - القسم الخاص بالمغرب والسودان ط. ليدن ١٨٦٦ .

ادوارد فنديك

اكتفاء القنوع بما هو مطبوع ط. مصر ١٣١٣ .

اسماعيل باشا البغدادي

اظهار المكنون في الذيل على كشف الظنون - ط. استنبول ١٣٦٤ .

هدية العارفين في أسماء المؤلفين وأثار المصنفين - ط. استنبول ١٩٥١ .

ابن أبي أصيبعة

عيون الأنباء في طبقات الأطباء - ط. بيروت ١٣٧٦ .

الافراني (محمد الصغير)

المسلك السهل في شرح توشيح ابن سهل - ط. فاس ١٣٢٤ .

ابن بسّام

الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، القسم الأول والجزء الأول من القسم الرابع ط.

مصر ١٣٥٨ - ١٣٦٤ .

ابن بشكوال

الصلة - ط. مدريد ١٨٨٢ .

ابن بطوطة

الرحلة المسماة بتحفة النظار - ط. مصر ١٣٢٢ .

البكري (أبو عبيد)

المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب ، طرف من كتابه المسالك والممالك ط .
الجزائر ١٩١١ .

بلا فويج (أحمد)

الأدب الأندلسي ، بالاشتراك مع عبد الجليل خليفة ط . تطوان ١٣٦٠ .

البلغيشي (احمد)

الابتهاج بنور السراج - ط . مصر ١٣١٩ .

بيل (الفريد)

برنامج المخطوطات العربية الموجودة بخزانة القرويين - ط . فاس ١٩١٨ .

التمجروتي (محمد)

النفحة المسكية في السفارة التركية - ط . باريز (بدون تاريخ) .

التمنارتي

الفوائد الجمّة في اسناد علوم الأمة - مخطوط خاص .

ابن توموت (المهدي)

أعز ما يطلب وما معه - ط . الجزائر ١٣٢١ .

الجرأوي (أبو العباس)

الحماسة المغربية - مصوّر مخطوط استنبول .

جوزيف ماكيب

مدينة العرب في الأندلس ، ترجمة الدكتور تقي الدين الهيلالي ط . بغداد ١٣٦٩ .

حاجي خليفة

كشف الظنون عن أسماء الكتب والفنون ط . استنبول ١٣٦٠ .

ابن حجر العسقلاني

الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة ط . حيدر أباد ١٩٤٥ - ١٩٥٠ .

الحجوي (محمد)

الفكر السامي في تاريخ الفقه الاسلامي - ط. الرباط وتونس وفاس ١٣٤٠ - ١٣٤٩

ابن حماد

أخبار ملوك بني عميد وسيرتهم - ط. الجزائر ١٣٤٦ .

المحيدي

جذوة المقتبس في ذكر ولاية الأندلس تحقيق محمد بن تاويت الطنجي ط . مصر . ١٣٧٢ .

ابن خاقان (الفتاح)

قلائد العقيان - ط . مصر ١٣٢٠ .

مطمح الأنفس - ط . مصر ١٣٢٥ .

ابن الخطيب (لسان الدين) .

الاحاطة في تاريخ غرناطة الجزء الأول والثاني - ط . مصر ١٣١٩ ومُصَوَّر

مخطوط الاسكوريال رقم الحلل في نظم الدول - ط . تونس ١٣١٦ .

اعمال الأعلام ، القسم الثاني الخاص بالأندلس ط . الرباط ١٣٥٣ .

اللمحة البدرية في تاريخ الدولة النصرية - ط . مصر ١٣٤٧ .

معيار الاختيار المعروف بمقامات البلدان - ط . فاس ١٣٢٥ .

الكتيبة الكامنة في شعراء المائة الثامنة - مخطوط خاص .

ريحانة الكتاب - مُصَوَّر مخطوط مكتبة الاسكوريال

الخفاجي (الشهاب)

ريحانة الالباء - ط . مصر ١٣٠٦ .

طراز المجالس - ط . مصر (بدون تاريخ) .

ابن خلدون (عبد الرحمن)

تاريخ العبر وديوان المبتدأ والخبر - ط . مصر ١٢٨٤ .

التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً تحقيق محمد بن تاويت الطنجي ط .

مصر ١٣٧٠ .

ابن خلدون (يحيى)

بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد - ط . الجزائر ١٣٢٩ .

ابن خلكان

وفيات الأعيان - ط . مصر ١٣١٠ .

ابن خير

معجم ما رواه عن شيوخه - ط . سراقوسة ١٨٩٣ .

خير الدين الزركلي

الأعلام الطبعة الجديدة - مصر ١٣٧٣ - ١٣٧٨ .

الدباغ (عبد الرحمن)

معالم الايمان في معرفة أهل القبر وان وذيله لابن ناجي - ط . تونس ١٣٢٠ .

ابن دحية (ابو الخطاب)

المطرب من أشعار أهل المغرب تحقيق ابراهيم اليباري وآخرين - ط . مصر ١٩٥٤ .

دوزي (رينهاريت)

ملوك الطوائف ترجمة كامل كيلاني - ط . مصر ١٣٥١ .

دي سلان (البارون)

فهرس المخطوطات العربية بمكتبة باريز الوطنية - ط . باريز ١٨٨٣ .

الرجاجي (عبد الله)

فهرس المخطوطات العربية للخزانة العامة ، بالاشتراك مع س . علوش - ط . باريز ١٩٥٤ .

ابن رحمون (التهامي)

شذور الذهب في خير النسب - مخطوط خاص .

الانجم الزاهرة في الذرية الطاهرة - مخطوط خاص .

ابن رشيد الفهري

رحلة ملء العيبة فيما جمع بطول الغيبة في الوجهتين الكريميتين الى مكة وطيبة -
مخطوط الاسكوريال .

ابن ريسون (محمد بن الصادق)

فتح العلم الحبير في تهذيب النسب العَلَمِي بأمر الأمير - مخطوط خاص .

ابن زاكور

رحلة نشر أزاهر البستان فيمن أجازني بالجزائر وتطوان - ط. الجزائر ١٣١٩ .
ديوان الروض الأريض في بديع التوشيح ومنتقى القريض - مخطوط خاص .

ابن الزبير (أبو جعفر)

صلة الصلة ، القسم الأخير منه - ط. الرباط ١٩٣٧ .

ابن الزيات (أبو يعقوب)

التشؤف الى رجال التصؤف - مخطوط خاص .

الزياني (أبو القاسم)

رحلة الترجمانة الكبرى التي جمعت أمصار المعمور كله برأ وبحراً - مخطوط خاص .

الساحلي

بغية السالك في أشرف المسالك - مخطوط خاص .

السائح (محمد)

المنتخبات العبقريه لطلاب المدارس الثانوية - ط. الرباط ١٩٢٠ .

سر كيس (يوسف)

معجم المطبوعات العربية والمعربة - ط. مصر ١٣٤٦ .

ابن سعيد المغربي

المغرب في حلي المغرب تحقيق الدكتور شوقي ضيف - ط. مصر ١٩٥٣ .

الغصون اليناعة في محاسن شعراء المائة السابعة تحقيق ابراهيم الابياري - ط .
مصر ١٩٤٥ .

عنوان المرقصات المطربات ، نشر محمد عبد القادر ، الجزائر ١٩٤٩ .
رايات المبرزين وغايات المميزين ، نشر غرسية كوميذ - مدريد ١٩٤٢ .

السيوطي (جلال الدين)

حسن المحاضرة في تاريخ مصر القاهرة - ط . (بدون تاريخ) .
بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة - ط . مصر ١٣٢٦ .

ابن شاكر الكتي

فوات الوفيات - ط . مصر ١٣٩٩ .

الشريسي (ابو العباس)

شرح المقالات الحربية - ط . مصر ١٣٠٦ .

شكيب أرسلان (الأمير)

الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية ، ٣ مجلدات - ط . مصر ١٣٥٥ -
١٣٥٨ .

الشام

تاريخ الدولة الحفصية - ط تونس .

الصفدي (صلاح الدين)

الغيث المسجّم في شرح لامية العجم - ط . مصر ١٣٠٥ .
الوافي بالوفيات ، الجزء الأول - ط . استنبول ١٩٣١ .

صفوان بن ادريس

زاد المسافرين وغرة محيا الأدب السافر نشر عبد القادر محداد - بيروت ١٣٥٨ .

الطبري (ابن جرير)

تاريخ الأمم والملوك - ط . مصر ١٣٢٦ .

ابن ظافر الأزدي

بدائع البدائ - ط . مصر ١٣١٦ .

ابن عبد الحكم المصري

فتوح افريقيا والاندلس - ط . الجزائر ١٩٤٢ .

ابن عبد الملك المراكشي

الذيل والتكملة ، الأجزاء الثلاثة المصورة بالخزانة العامة بالرباط ، ومصور جزء الاسكوريال .

ابن عبد المنعم الحميري

صفة جزيرة الاندلس ، انتخبها من كتابه الروض المعطار ليفي بروفينسال - ط . مصر ١٩٣٧ .

ابن عذاري

البيان المغرب في اخبار المغرب ، الاول والثاني ط . بيروت ١٩٥٠ الثالث ط . باريز ١٩٣٠ الرابع ط . تطوان ١٩٥٨ .

ابو العرب (محمد بن تميم)

طبقات علماء افريقية وما معه - ط . الجزائر ١٣٣٢ .

ابن عربي الحاتمي

محاضرة الأبرار ومسامرة الاخيار - ط . مصر ١٣٠٥ .
رسالة القدس - ط . ١٩٣٩ .

ابن عمار

نحلة اللبيب بأخبار الرحلة الى الحبيب - ط . الجزائر ١٣٢٢ .

العباشي (أبو سالم)

رحلته المسماة ماء الموائد - ط . فاس .

عياض (القاضي)

ترتيب المدارك وتقريب المسالك الى معرفة أعلام مذهب مالك - مخطوط الاستاذ محمد بن أبي بكر التطواني .
فهرسته المسماة بالغنية - مخطوط خاص .

ابن غازي (محمد)

الروض الهتون في أخبار مكناسة الزيتون - ط. فاس ١٣٣١ .

الغبريني (أبو العباس)

عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية - نشر ابن أبي شنب - الجزائر ١٣٢٨ .

غريط (محمد)

فواصل الجمان في أنباء وزراء وكتاب الزمان - ط. فاس ١٣٤٧ .

الغزال (أحمد بن المهدي)

رحلة نتيجة الاجتهاد في المبادئ والجهاد ، نشر فريد البستاني العرائش - العرائش ١٩٤١ .

الغزيري

فهرس المخطوطات العربية بمكتبة الاسكوريال - ط. مدريد ١٧٦٠ - ١٧٧٠ .

الغساني

رحلة الوزير في افتكالك الأسير - ط. العرائش ١٩٤٠ .

ابن غلبون

تاريخ طرابلس المسمى بالتذكار - ط. مصر ١٣٣٩ .

فؤاد السيد

فهرس المخطوطات المصورة بمعهد احياء المخطوطات العربية بالاشتراك مع الدكتور لطفي عبد البديع - ط. مصر ١٩٥٤ - ١٩٥٦ .

ابن فرحون

الديباج المذهب في معرفة علماء المذهب - ط. مصر ١٣٥١ .

ابن الفرضي

تاريخ علماء الأندلس - ط. مدريد ١٣٩١ .

فريد وجدي (محمد)

دائرة معارف القرن العشرين - ط. مصر ١٩١٠ .

الفشتالي (محمد بن علي)

نظم الوفيات لابن قنفذ والزيادة عليها - مخطوط خاص .

أبو القاسم الشريف

رفع الحجب المستورة في محاسن المقصورة - ط. مصر ١٣٤٤ .

ابن القاضي (أحمد)

درة الحجل في غرة أسماء الرجال - ط. الرباط ١٩٣٤ .

لقط الفرائد من حقائق الفوائد - مخطوط خاص .

قدري حافظ طوقان

تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك - ط. مصر ١٩٤١ .

القراfi (بدر الدين)

توشيح الديباج - مخطوط خاص .

النفطي

اخبار العلماء بأخبار الحكماء - ط. مصر ١٣٢٦ .

القلقشندي

صبح الأعشى - ط. مصر ١٩١٣ - ١٩١٨ .

ابن قنفذ (ابن الخطيب القسنطيني)

وفياته المسماة شرف الطالب في أسنى المطالب نشر هنري بريس -- مصر
أنس الفقير وعز الحقيير -- مخطوط خاص .

الكتاني (عبد الحي)

فهرس الفهارس -- ط. فاس ١٣٤٦ - ١٣٤٧ .

الكعالك (عثمان)

موجز التاريخ العام للجزائر -- ط. تونس ١٣٤٤ .

كنون (عبد الله)

التعاشيب -- ط. تطوان ١٣٤٢ .

واحة الفكر -- ط. تطوان ١٣٤٨ .

خل وبقل -- ط. تطوان ١٣٧٨ .

شرح مقصورة المكودي -- ط. مصر ١٣٥٦ .

شرح الشمقمقية -- ط. مصر ١٣٥٤ .

المنتخب من شعر ابن زاكور -- ط. العرائش ١٣٦١ .

الكوهن (الحسن)

طبقات الشاذلية الكبرى -- ط. مصر ١٣٤٧ .

كين روير

فهرس المخطوطات العربية بمكتبة مدريد الوطنية ط. مدريد ١٨٨٩ .

المالكي (أبو بكر)

رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وافريقية الجزء الأول نشر الدكتور

حسين مؤنس -- مصر ١٩٥١ .

مبارك الملي

تاريخ الجزائر في القديم والحديث -- ط. الجزائر ١٩٣٢ .

المحي

خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر - ط. مصر ١٢٨٤ .

ابن مخلوف التونسي

شجرة النور الزكية في طبقات المالكية - ط. مصر ١٣٤٩ .

المرادي (محمد خليل)

سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر - ط. مصر ١٢٩١ .

المراكشي (عبد الواحد)

المعجب في تلخيص أخبار المغرب - ط. مصر ١٩٤٩ .

ابن أبي مريم

البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان - ط. الجزائر ١٣٢٦ .

ابن معصوم

سلافة العصر في محاسن الشعراء بكل مصر - ط. مصر ١٣٢٤ .

المقري (أحمد)

نفح الطيب - ط. مصر ١٣٠٢ .

أزهار الرياض في أخبار عياض ، تحقيق مصطفى السقا وآخرين - مصر ١٣٥٢ .

فتح المتعال في مدح النعال - ط. حيدر آباد ١٣٣٤ .

ابن ناصر (أحمد)

رحلته الحجازية - ط. فاس ١٣٢٠ .

الناصرى (أحمد بن خالد)

زهر الأفنان من حديقة ابن الونان - ط. فاس ١٣١٤ .

طلعة المشتري في النسب الجعفري - ط. فاس (بدون تاريخ) .

النباهي (أبو الحسن)

المراقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا - ط. مصر ١٩٤٨ .

الونشريسي (أحمد)

المعيار المغرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل افريقية والأندلس والمغرب - ط .
فاس ١٣١٥ .

ياقوت الحموي

معجم البلدان - ط . مصر ١٣٢٤ .
معجم الأدباء المسمى ارشاد الأريب طبعة الدكتور فريد رفاعي مصر ١٣٥٧ .

يوسف أشباخ

تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين ترجمة محمد عبدالله عنان - ط .
مصر ١٣٧٧ .

اليوسي (الحسن)

المحاضرات - ط . فاس ١٣١٧ .
القانون في ابتداء العلوم - ط . فاس ١٣١٠ .
مناهج الخلاص من كلمة الاخلاص - ط . فاس ١٣٢٧ .
ديوان شعره - ط . فاس .

المصادر الخاصة

ابن ابراهيم (عباس)

الاعلام بن حل مراكش وأغمات من الأعلام - ط . فاس ١٣٥٥ - ١٣٥٨ .

الافراني (محمد الصغير)

نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي - ط . فاس (بدون تاريخ)
صفوة ما انتشر من أخبار صلحاء القرن الحادي عشر - ط . فاس (بدون تاريخ)

أكنسوس (محمد)

الجيش العرمرم الخماسي في دولة أولاد مولانا علي السجلماسي - ط . فاس ١٣٣٦ .

ابن أبي محمد صالح (أحمد بن ابراهيم)

المنهاج الواضح في تحقيق كرامات أبي محمد صالح - ط. مصر ١٣٥٢ .

الأنصاري (محمد بن القاسم)

اختصار الأخبار عما كان بشعر سبقة من سني الآثار - ط. باريس ١٣٥٠ .

بروفينسال (ليفي)

مجموعة رسائل موحديّة - ط. الرباط ١٩٤١ .

البندق (أبو بكر الصنهاجي)

أخبار المهدي بن تومرت وابتداء أمر الموحدين - ط. باريس ١٩٢٨ .

الجزنائي (أبو الحسن)

زهرة الآس في بناء مدينة فاس - ط. الجزائر ١٣٤٠ .

أبو جندر (محمد)

مقدمة الفتح من تاريخ رباط الفتح - ط. الرباط ١٣٤٥ .

الحضرمي (محمد)

بلغة الأمانة ومقصد اللبيب فيمن كان بسبقة من مدرس وأستاذ وطبيب ، قطعة منه - مخطوط خاص .

الحلي (أحمد بن عبد الحلي)

الدر النفيس في مناقب الامام ادريس بن ادريس - ط. فاس ١٢٩٩ .

داود (محمد)

تاريخ تطوان الجزء الأول - ط. تطوان ١٩٥٩ .

مختصر تاريخ تطوان - ط. تطوان ١٣٧٥ .

ابن أبي زرع

الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس - ط. فاس ١٣٠٣ .

الزباني (أبو القاسم)

- الترجمان المغرب عن دول المشرق والمغرب ، قطعة منه نشرها هوداس ١٣٠٣ .
الحادي المطرب في رفع نسب شرفاء المغرب - مخطوط خاص .

ابن زيدان (عبد الرحمن)

- اتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس - ط . الرباط ١٣٤٧-١٣٥٢ .
الدرر الفاخرة بآثار الملوك العلويين بفاس الزاهرة - ط . الرباط ١٩٣٧ .

ابن سودة (عبد السلام)

- دليل مؤرخ المغرب - ط . تطوان ١٣٦٩ .

السوسي (محمد المختار)

- سوس العالمة - ط . فضالة ١٣٨٠ .
المعسول ، الجزء الأول - ط . الدار البيضاء ١٣٨٠ .

ابن عثمان (محمد)

- الجامعة اليوسفية في تسعمائة سنة - ط . الرباط ١٩٣٧ .

ابن عَسْنَكُوْر (محمد)

- دوحة الناشر لمحاسن من كان بالمغرب من مشائخ القرن العاشر - ط . فاس ١٣٠٩

العامي (محمد بن الطيب)

- الأنيس المطرب فيمن لقيته من أدباء المغرب - ط . فاس ١٣١٥ .

القاسمي (المهدي)

- ممتع الأسماع في ذكر الجزولي والتبّاع - ط . فاس ١٩٠٥ .

الفشتالي (عبد العزيز)

- مناهل الصفا في أخبار دولة الملوك الشرفاء ، الجزء الثاني - مخطوط خاص .

القادري (عبد السلام)

- الدر السني في بعض من بفاس من أهل النسب الحسني - ط . فاس ١٣٠٨ .

القادري ، محمد بن الطيب (

نشر المتاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني - ط . فاس ١٣١٠ .

ابن القاضي (أحمد)

جذوة الاقتباس فيمن حل من الأعلام بفاس - ط . فاس .

الكتاني (جعفر)

الشرب بالمختصر والسر المنتظر من معين بعض أهل القرن الثالث عشر - ط .

فاس ١٣٠٩ .

الكتاني (محمد بن جعفر)

سلوة الأنفاس ومحادثة الأكياس فيمن أقبر من العلماء والصلحاء بمدينة فاس . ط .

فاس ١٣١٦ .

الأزهار العاطرة الأنفاس بذكر بعض محاسن قطب المغرب وتاج مدينة فاس

- ط . فاس ١٣٠٧ .

كنون (عبدالله)

مدخل الى تاريخ المغرب - الطبعة الثالثة تطوان ١٣٧٩ .

أمرأنا الشعراء - ط . تطوان ١٣٦١ .

ذكريات مشاهير رجال المغرب ٢٥ حلقة ط . تطوان .

رسائل سعدية - ط . تطوان ١٣٧٣ .

مؤلفون مجهولون

الخلل الموسمية في ذكر الأخبار المراكشية - ط . تونس ١٣٢٩ .

مفاخر البربر - ط . الرباط ١٣٣٤ .

الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية نشر ابن أبي شنب - الجزائر ١٩٢٠ .

ملين (محمد الرشيد)

عصر المنصور الموحدي - ط . الرباط ١٩٤٦ .

المنوني (محمد)

العلوم والآداب والفنون على عهد الموحدين - ط . تطوان ١٩٥٠ .

ابن الموقت (محمد)

السعادة الأبدية في التعريف بمشاهير الحضرة المراكشية - ط . فاس ١٣٣٦ .

تعطير الأنفاس في التعريف بالشيخ أبي العباس - ط . فاس ١٣٣٦ .

الناصري (محمد المكي)

الدرر المرصعة في أخبار صلحاء درعة - مخطوط خاص .

الناصري (أحمد بن خالد)

الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى - ط . مصر ١٣١٢ .

المنيشي (أحمد)

تاريخ الشعر والشعراء بفاس - ط . فاس ١٣٤٣ .

مصادر أجنبية

لم نستعمل من المصادر الأجنبية الا القليل لأن موضوع كتابنا قلما تناوله الباحثون الأجانب ولكننا على كل حال استعنا في بعض المواضع بالمصادر التالية :

C. Brockelmann

تاريخ الأدب العربي

Geschichte der Arabischen Literatur - Leyde 1943 - 1949.

Angel Gonzalez Palencia

تاريخ الأدب الإسباني

Historia de La Literatura Arabigo - Espanola - madrid 1928.

تاريخ إسبانيا الإسلامية

Historia de La España musulmana - madrid 1922.

Encyclopédie de L'Islam.

دائرة المعارف الإسلامية

ed. française - Leyde 1908 - 1938.

E. Lévi Provençal

مؤرخو الشرفاء

Les Historiens des Chorf - Paris 1922.

محتويات الكتاب

فهرس الكتاب

الجزء الأول

- الدراسة -

صفحة	صفحة
يوسف والمعتمد ٦٢	مقدمة الطبعة الثانية
الحياة الفكرية في هذا العصر ٦٥	هذا الكتاب ٧
رعاية المرابطين للأدب وأهله ٧٨	عرض وتحليل ١٧
تراجم بعض الشخصيات من هذا العصر ٨٦	أول تقرّظ ٢٧
تسمية بعض الكتب المؤلفة في هذا العصر ٩٤	مقدمة الطبعة الأولى
عصر الموحدين	فاتحة الكتاب ٣١
انقلاب ٩٩	عصر الفتوح
توحيد المغرب العربي ١٠٤	الفاتحون الحقيقيون ٣٧
الدولة والثقافة العربية ١١٠	كيف انتشر الإسلام في المغرب ٣٩
الحركة العلمية ١١٨	استعراب المغاربة ٤١
الهيئة العلمية وآثارها ١٤٦	الصراع بين العرب والمغاربة ٤٣
الحياة الأدبية ١٦٣	الوسط الفكري في هذا العصر ٤٥
عصر المرينيين	عصر المرابطين
الوجهة السياسية ١٧٥	سياسة الجامعة الإسلامية ٥٧

صفحة	صفحة
٢٤٦ الهيئة العلمية وآثارها	١٨٣ .. في دائرة العروبة والإسلام الصحيح
٢٦٠ الحياة الأدبية	١٨٨ الحركة العلمية
..... عصر العلويين	٢٠٤ الهيئة العلمية وآثارها
٢٦٩ الدولة الشريفة	٢٢٢ الحياة الأدبية
٢٧٤ الحركة العلمية	عصر السعديين
٢٨٣ الهيئة العلمية وآثارها	٢٣٣ سياسة الدولة
٣١١ الحياة الأدبية	٢٣٩ الحركة العلمية

الجزء الثاني

- المختارات النثرية -

صفحة	الموضوع
٣٢١	رسالة من المستشرق بروكلمان إلى المؤلف
٣٢٥	المنتخبات الأدبية : قسم المنشور
٣٢٧	التحميد والصلاة
	تحميد للقاضي عياض - تسبيح للمهدي بن تومرت - دعاء ومناجاة لأبي العباس
	السبتي - صلاة لعبد السلام بن مشيش - الحزب الكبير لأبي الحسن الشاذلي - صلاة
	لمحمد بن سليمان الجزولي - صلاة لإبراهيم التازي - تحميد لمحمد ميارة - صلاة
	لمحمد بن ناصر - صلاة للمعطي ابن الصالح - تحميد لخالد العمري - صلاة
	للمختار الكنتي
٣٤٧	الخطب
	خطبة لطارق بن زياد - خطبة لادريس الأزهر - خطبة أخرى له - خطبة لعبد الله بن
	ياسين - خطبة للقاضي عياض - خطبة لمهدي بن تومرت - خطبة للقاضي أبي
	حفص بن عمر - خطبة للمنصور المريني - خطبة لابن رشيد - خطبة وعظية لأبي
	مدين الفاسي - خطبة في التذكير والترغيب لأبي عبد الله الرهوني - خطبة للسلطان
	مولاي سليمان العلوي - خطبة وعظية للعربي الزرهوني .

الموضوع	صفحة
المنظرات	٣٦٦.....
(أ) في الدين	٣٦٦.....
- مناظرة أبي عمران الفاسي - مناظرة الخروبي واليسيثي والهبطي .	
(ب) في الأدب	٣٧٣.....
- مناظرة مالك بن المرحل .	
(ج) في السياسة	٣٩٠.....
- مناظرة المهدي بن تومرت - مناظرة السلطان زيدان بن المنصور الذهبي	
الرسائل	
(أ) السلطانيات	٤٠٧.....
- توقيع يوسف بن تاشفين كتابة بالفتح - ظهير له - كتاب عبد المؤمن - رسالة من عبد المؤمن إلى أهل تلمسان - توقيع له - رسالة أبي حفص الهنتاني - توقيع المنصور الموحيدي - توقيع آخر له - رسالة للمأمون الموحيدي - رسالة أخرى له - توقيع له - رسالة للأمير سليمان الموحيدي - توقيع له - كتاب السلطان أبي الحسن المريني إلى الملك الناصر قلاوون - كتاب منه إلى الملك الصالح أبي الفدا - كتاب السلطان أبي سعيد المريني الأصغر - بيعة صاحب مملكة برنو - كتاب المنصور الذهبي إلى الشيخين البدر القرافي والزين البكري - توقيع على كتاب جوذر - كتاب للسلطان مولاي الحسن العلوي - توقيع له .	
(ب) الإخوانيات	٤٦٠.....
- رسالة للقاضي عياض - رسالة لأبي الحسن بن مروان - رسالة لابن هاني السبتي - رسالة لأبي جعفر الجنان - رسالة للقاضي أبي عبد الله الفشتالي - رسالة للأديب محمد بن إبراهيم الفاسي .	
(ج) المتفرقات	٤٧٥.....
- رسالة للقاضي أبي موسى ابن عمران - رسالة أبي جعفر ابن عطية إلى عبد المؤمن - رسالة أبي الخطاب بن دحية - رسالة إلى عبد الواحد المراكشي - عقد توبة لميمون الخطابي - اهداء أبي القاسم الشريف ديوان شعره - كتاب الأستاذ ابن حكم السلوي - رسالة لأبي بكر بن شبرين .	

صفحة

الموضوع

المقامات ٤٩١

مقامة الافتخار بين العشر والجوار - المقامة الزهرية في مدح المكارم البكرية - مقامة
الحجام لابن الطيب العلمي - المقامة الحسائية - المقامة التطوانية - مقامة للوزير ابن
ادريس .

المحاضرات ٥٤٧

شجاعة ادريس الأزهر - الحسن الحجام - محاسن الزهد والورع - تحري القاضي ابن
محسود - ملح أهل التصوف - وكل ناطقة في الكون تطربني - همة عالم - عالم ابن دلال
- حسن الجواب - بين عبد المؤمن ووزيره - أعاقبه بالحلم - المنصور الموحي والفيل
- سوء الفال - وقف على الشعراء - بين أميرين - ملح نحوية - من محاسن التصحيف
- حديث اللطافة - نجابة الأولاد - بديهة الجرواي - الأصيل في فاس - بين ابن
عبدوس وابن الجهم - الوجد مع الوجد - حسن الاعتذار - حسن التعلل - من
اللطائف في التشميت - شاعر بليد الطبع - المودة في القربى - إنك لبحر - حلم
المنصور الموحي وعلمه - من اكرام أبي العلاء الموحي للعلماء - هي الشمس
- حيوانات معلمة - أحب سلا - نتيجة العلم - تظليل صحن القرويين - تحت ثريا
القرويين - قاض حضرمي - فتحت لنجلك باب الفتوح - بين ابن المرحل وابن
رشيق - زكاته ابن البناء - شعر للشريف المومنامي - محتسب وشاعر - حلف لا يمشي
شاعره إلا على الذهب - من حكاياتهم في العفاف - من محاسن الكناية - غريبة رابع
- آخر ما سمع منهم - كلم نوابغ .

المقالات ٥٩١

البلاغة النبوية للقاضي عياض - النعوت والألقاب لابن الحاج الفاسي - النارجيل
لابن بطوطة - أصول الطريق لأحمد زورق - التأريخ والألفاظ المستعملة فيه لأحمد بن
عرضون - التوشيح والوشاحون للافرائي - تقسيم العلوم إلى فلسفية ومالية لأبي علي
اليوسي - القلم في اللغة لاكنسوس .

الجزء الثالث

- المختارات الشعرية -

صفحة	صفحة
بيتان لأبي علي اليوسي	النوع في ميزان القيمة بقلم الأستاذ
قطعة له	الكبير حنفا خوري ٦٣٣
قصيدة لمحمد الدلائي ٦٦٦	المنتخبات الأدبية
قطعة لأبي حفص الفاسي ٦٦٨	قسم المنظوم ٦٣٧
قصيدة لمحمد سكيرج	الحماسة والفخر
قصيدة لحرمة العلوي ٦٦٩	أبيات للمولى ادريس الأزهر ٦٣٩
قصيدة للوزير ابن ادريس ٦٧٠	قطعة لولده القاسم
قصيدة أخرى له	أبيات لإبراهيم المؤبل ٦٤٠
قطعة لمحمد بن الشيخ سيدي الشنقيطي ٦٧٢	أبيات للشريف الادريسي
الغزل والشوق والنسيب	قصيدة لعبد المؤمن بن علي
أبيات للمولى ادريس ٦٧٥	قصيدة للمنصور الموحدى ٦٤٢
قطعة لابن القابلة السبتي	أبيات للسيد عبد الله الموحد
قطعة لابن عطاء السبتي	قصيدة لأبي العباس الجراوي ٦٤٤
بيتان للسيدة أمة العزيز	قطعة له
قصيدة لأبي الحسن ابن زنباع ٦٧٨	قصيدة لابن حبوس ٦٤٥
أخرى له	أبيات لأبي حفص بن عمر
بيتان لابن الكتاني ٦٧٨	بيتان للأمرأى مالك المريني ٦٤٧
بيتان لعلي بن يقطان	بيتان لأبي الحسن المريني
آخران للقاضي عياض	قصيدة لمالك بن المرحل
قطعة له	قصيدة عبد العزيز الملزوزي ٦٥١
بيتان له	قطعة لأبي العباس الملياني ٦٦١
قطعة للأميرأى الربيع ٦٨٠	بيتان لعبد المهيمن الحضرمي
قطعة لأبي حفص بن عمر	بيتان لأبي زيد المكودي
قطعة أخرى له ٦٨١	قصيدة لداود بن عبد المنعم ٦٦٢
أبيات له	بيتان لأبي حامد الفاسي ٦٦٥

صفحة	صفحة
قطعة له	قطعة له
أبيات له	أخرى له
أبيات للسلطان أبي العباس	قصيدة لابن المحلى ٦٨٣
المريني ٧٠٠	أخرى له
قصيدة لمحمد بن أبي مدين	قطعة للمرتضى الموحدى ٦٨٥
قصيدة ليحيى بن مليل ٧٠١	قطعة للملزونى
قطعة لعبد الرحمن القبائلى ٧٠٢	قصيدة لابن عبدون المكناسى ٦٨٦
بيتان لابن جابر المكناسى ٧٠٣	قطعة لمالك بن المرحل ٦٨٧
بيتان له	قصيدة له
آخران له	أبيات لمحمد الشبوكي ٦٨٩
بيتان للمتوكل السعدي	أبيات للأمرأى على المريني
أبيات للمنصور الذهبي ٧٠٤	أبيات أخرى له
بيتان له	أبيات لأبي عنان ٦٩٠
أبيات لزيدان بن المنصور	بيتان له
بيتان له	قطعة لعبد المهيمن الحضرمي
بيتان لعبد العزيز الفشتالى	قصيدة لأبي عبد الله المكودي ٦٩١
بيتان لأبي عبد الله الوجدي	أبيات له
قطعة لأبي سالم العياشي	قصيدة لأبي العباس الجزنائي ٦٩٢
بيتان لأحمد الشريف	قطعة له ٦٩٣
قطعة لأبي علي اليوسي ٧٠٦	أبيات له
قطعة أخرى له	قصيدة لأبي العباس العزفي ٦٩٤
قطعة للأمير محمد العالم ٧٠٧	قصيدة أخرى له ٦٩٥
قطعة للأمير زيدان	قطعة له
قطعة لابن زاكور ٧٠٨	أبيات له
بيتان له	بيتان لابن هانيء السبتي ٦٩٧
آخران له	قطعة لأبي قاسم الشريف ٦٩٨
أبيات له	أبيات له
قطعة لابن الطيب العلمي ٧٠٩	بيتان له
بيتان له	أبيات لأبي بكر بن شبرين ٦٩٩

صفحة	صفحة
٧٢٧ قطعة لابن الجنان	آخران له
بيتان لعبد المهيمن الحضرمي	٧١١ قطعة لأبي عبد الله الشرقي
قصيدة للمغيلي	بيتان له
٧٢٨ قصيدة لمنديل ابن أجروم	قطعة أخرى له
٧٣٠ قصيدة لابن عبد المنان	٧١٢ قصيدة للوزير ابن ادريس
٧٣٢ أخرى له	٧١٤ قطعة له
٧٣٥ قطعة لإبراهيم الفجيجي	أخرى له
٧٤٤ قطعة لعبد العزيز الفشتالي	أبيات لابن طاهر الهواري
٧٤٦ أخرى له	أخرى له
٧٤٧ قصيدة لأبي الحسن الشامي	٧١٦ قصيدة لابن عثمان المكناسي
أبيات للمكلاقي	٧١٧ قصيدة لمحمد بن الشيخ سيدي الشنقيطي
٧٥٠ قصيدة لمحمد بن إبراهيم الفاسي	٧١٨ قطعة لمحمد الحراق
٧٥١ قصيدة لابن سوسن	أخرى له
٧٥٣ أبيات للشفشاوني	٧١٩ قصيدة له
بيتان للغزال	
آخران لابن الزبير	الوصف
٧٥٤ قصيدة لابن الطيب العلمي	٧٢١ قصيدة لأبي الحسن بن زنباع
بيتان له	٧٢١ بيتان للقاضي عياض
٧٥٥ بيتان لأبي عبد الله الشرقي	بيتان لأبي العباس بن غازي
بيتان له	أبيات لأبي بكر بن تافلويت
أبيات له	أبيات لابن عبدون المكناسي
٧٥٥ قصيدة لابن زاكور	بيتان له
بيتان له	آخران له
أبيات له	بيتان لابن جابر المكناسي
بيتان له	٧٢٤ قطعة لأبي العباس العزفي
٧٥٧ قطعة لأبي علي اليوسي	أبيات لمالك بن المرحل
٧٥٨ قصيدة له	بيتان له
٧٦٠ قصيدة للوزير ابن ادريس	٧٢٥ قطعة لأبي القاسم الشريف
أخرى له	أبيات له

صفحة	صفحة
قطعة لأبي عبد الله الشرقي	الآداب والوصايا والحكم
أبيات له	أبيات للشيخ يعلى ٧٦٣
قصيدة لأبي حفص الفاسي ٧٨٨	بيتان له
الشمقمقية ٧٩٢	أبيات للمهدي بن تومرت ٧٦٤
قصيدة لابن الطالب اليعقوبي ٨٠٤	أبيات لأبي حفص بن عمر
	أخرى له
المدح والتهنئة والاستعطاف	بيتان لابن الشاط ٧٦٥
بيت لابن الزيتوني ٨٠٧	أبيات لابن البناء
قصيدة لابن زنباع	بيتان لابن عبد الملك المراكشي
قصيدة لابن حبوس ٨٠٨	قصيدة لمالك بن المرحل ٧٦٦
أخرى له ٨٠٩	أبيات له
قطعة للجراوي ٨١٠	بيتان لابن جابر المكناسي ٧٦٧
قصيدة له	بيتان لابن رشيد
أخرى له ٨١١	بيت لأبي عنان
أخرى له ٨١٣	مقصورة المكودي ٧٦٨
أخرى له	أبيات لإبراهيم التازي ٧٧٥
أخرى له ٨١٤	قطعة له
أبيات للأمير سليمان الموحي	بيتان لابن غازي ٧٧٦
قصيدة لميمون الخطابي ٨١٥	بيتان لرضوان الجنوي
قصيدة لمالك بن المرحل ٨٢٤	قطعة للقصار
أبيات لأبي جعفر الجنان ٨٢٧	بيتان للبو عقيلي ٧٧٧
قصيدة لابن هانيء السبتي	أبيات لعبد السلام جسوس
قصيدة لابن عبد المنان ٨٢٨	بيتان له
قطعة لأبي عبد الله الفشتالي ٨٣٢	بيتان للعباشي
قصيدة لمحمد الشبوكي	آخران له
قطعة لسعيد بن علي الحامدي ٨٣٤	نصيحة الهلالي ٧٧٨
قصيدة للنابغة الهوازي ٨٣٥	قصيدة لأبي علي اليوسي ٧٨١
أخرى له	بيتان للمرغشي ٧٨٧
	بيتان للخمسي

صفحة	صفحة
أبيات له	قصيدة لعبد العزيز الفشتالي ٨٣٧
آخران له	أبيات لمحمد بن عبد الله الجزولي . . . ٨٤٤
قصيدة له ٨٦٨	قصيدة للشريف البوعناني
بيتان لأبي عبد الله المكودي ٨٧١	قصيدة لعبد الله العلوي الشنقيطي . ٨٤٧
أبيات لأبي القاسم الشريف	قصيدة لأبي علي اليويس ٨٥٠
بيتان لابن غازي ٨٧٢	قصيدة لابن زاكور ٨٥١
بيتان لرابع بن عبد الصمد	قصيدة لابن طاهر الهواري ٨٥٣
بيتان آخران له	قصيدة للطيب بن صالح الرزيني . . ٨٥٥
قطعة لابن الخطيب الزوريلي	قصيدة لأكنسوس ٨٥٧
بيتان له ٨٧٣	
بيتان لابن عمرو والشاوي	الملح والطرف
آخران لعبد الملك التجموعي	قطعة لسعيد بن هشام المصمودي . . . ٨٦١
آخران له	أبيات لعبد الله الكفيف
أبيات لليوسي ٨٧٤	قصيدة لابن حبوس ٨٦٢
بيتان له	قطعة للجرأوي ٨٦٣
بيتان لعبد القادر بن شقرون	بيتان له
أبيات له ٨٧٥	آخران له ٨٦٤
قطعة لمحمد بن الشيخ سيدي	بيتان لابن الياسمين
رجزية لعبد السلام الزموري	بيتان لابن تليس
	أبيات لابن نموي
الثناء وذكر الموت	قطعة لابن الياسمين ٨٦٥
قطعة لأبي الحسن المسفر ٨٧٩	أبيات لسليمان الموحيدي
بيتان لأبي جعفر بن عطية ٨٨٠	بيتان له ٨٦٦
قصيدة لميمون الخطابي	آخران له
أبيات لأبي العباس الجزنائي ٨٨٥	بيتان لميمون الخطابي
أخرى له	بيتان للملزوذي
قصيدة لابن شبرين	أبيات مالك بن المرحل
أبيات له ٨٨٨	أبيات له ٨٦٧
أبيات لابن عبد المنان	بيتان له

صفحة	صفحة
٩٢٠ وله أيضاً	قصيدة للقصار
٩٢٢ وله كذلك	٨٨٩ قطعة للجنوي
٩٢٤ وله	٨٩٠ قصيدة لأبي عثمان الحامدي
٩٢٦ ولابن الطيب العلمي	٨٩٢ قصيدة لعلي مصباح
٩٢٧ ولابن طاهر الهواري	٨٩٣ قصيدة لليوسي
٩٢٨ وللشيخ الحراق	٩٠٤ قصيدة لعبد الله العلوي الشنقيطي
٩٢٩ زجل لابن شجاع	٩٠٦ قطعة للطيب بن مسعود المريني
٩٣٠ آخره	٩٠٧ بيتان لابن الطيب العلمي
٩٣١ آخر للكفيف الزرهوني	قطعة لابن زاكور
٩٣٤ آخر لابن دواد	قطعة لابن ادريس
٩٣٧ آخر للعدراوي	الموشحات والأزجال
٩٣٨ آخر للشيخ الحراق	٩١١ موشح لابن غرلة
٩٤٠ آخره	٩١٤ آخره
آخره	٩١٥ آخر لسعيد بن إبراهيم السدراي
٩٤١ آخر للسيد عبد القادر العلمي	٩١٦ آخر للمنصور الذهبي
٩٤٣ آخره	٩١٧ آخر للعربي المنالي
٩٤٥ المصادر والمراجع	٩١٩ آخر لابن زاكور
٩٦٣ فهرس عام للدارسة والمختارات	وله آخر

السيرة المغربية في بلاد العرب

طبعة جديدة تأليف الأستاذ عبد الله كنون
قرأه وعلمته عليه الأستاذ عبد السلام السراي

العلمي الرصين ، ومما راده تلك المناعة قوة هو المجهود العظيم الذي بذل في طبعته الثانية مما أبرزه ككتاب جديد في أسلوب رائع .

والنبوغ المغربي عمل أدبي ووطني كتبه الأستاذ السيد عبد الله كنون بدافع التأثر والشعور بفراغ ميدان الأدب العربي من الإنتاج الأدبي المغربي وجهل العرب - وحتى المغاربة - بالتراث المغربي في هذا الميدان .

وهناك عامل قوي كان يحمل أمثال الأستاذ عبد الله كنون على إبراز الحضارة المغربية والكشف عن عظمة الغرب وتاريخه - وهو التهجئات الاستعمارية على المغرب في الميدان الثقافي والعلمي والديني والافتراء والتزييف والباطيل التي كان يرميه بها ويخترعها للحط من قدره ، فكان لابد أذن من المقاومة الفكرية والنضال ، ولا يقدر هذا ((الرد الفع)) إلا الذين عانوه أشد معاناة ، ولقد رأينا إحدى صور هذا الشعور في محاضرة الأستاذ محمد الحمداوي في مهرجان تطوان الثقافي التي كان عنوانها ((الحضارة المغربية بين الأصالة والاعتباس)) .

ولهذا فإن كتاب النبوغ المغربي يعتبر ثمرة للشعور بالخطر الاستعماري على تاريخ الأدب المغربي وهو ضرورة رائمة ارد فعل عنيف في المجال العلمي ، ولم يكن هذا الرد تلقائيا ساذجا وإنما كان مركزا ودرية قائمة إذ استطاع أن يكشف للعالم أجمع عن نبوغ المغرب وعبقريته في المجال الأدبي .

للاستاذ الكبير السيد عبد الله كنون فضل كبير على المغرب في رفع مستوى الثقافة وفي اكتشاف الأدب المغربي وتسمده في الآفاق ، وهو من الطليعة المغربية التي لمي لها دور عظيم في النهضة المغربية التي اعتسدت - في أول أمرها - على السلفية واعتنقت آراء جمال الدين والكواكبي ومحمد عبده وتأثرت بأساليبهم وتفاعلت مع النهضة الأدبية في الشرق وتأثرت بما يجري هناك من معارك أدبية ، ولعقيدتها الإسلامية كان جها يميل لمصطفى صادق الرافعي ، ولهذه الطليعة في نفس خاصة تقدير عظيم لاني تربيت في أجواء علمهم وثقافتهم وقد تأثرت بهم تأثرا كبيرا ، وكنا نقرا ونحن تلاميذ في الابتدائي كل ما يكتبون ونحفظ كل ما يقولون ، وكان النبوغ المغربي من الكتب التي قرأناها وشعرنا اذك بأننا أمام عمل ضخم ومجهود جبار، إلا أن الإنسان قد يتغير رايه في كثير من الأشياء والأشخاص عندما يودع مراحل الطفولة والتلمذة وخلال تطور عقليته ودراسته ، فيبدو له الشارع الكبير زقاقا ضيقا ، والساحة الواسعة الأرجاء فحة محدودة والصخرة العالية حجرة متوسطة ، والخطيب المصقع مصنعا تافها ، والكتاب التدير سطعيا شيق الانق إلا أن هناك أشياء وأمثالا وأخامات تحفظ دائما بمنعة ضد هذه النسبية وتظل أبدا منطوية على القمة الموضوعية رغم التطورات والاحداث ، بل قد يحدث أحيانا أن تكون لها نسبة إيجابية صاعدة .

والنبوغ المغربي من الكتب التي ضمنت لنفسها المناعة والخلود ويبدو الآن عملا ضخما ومجهدا كبيرا كما كان في أول عهده لأنه لم يعتمد في ثيل قيمته على بساطة القراء أو انخفاض المستوى الثقافي والعلمي وإنما حدد مستواه حسب ما تقتضيه طبيعة البحث

وإذا كان المرحوم الأمير شكيب أرسلان يقول في الطبعة الأولى لهذا الكتاب : « ... أن من لم يقرأ كتاب النبوغ المغربي في الأدب العربي فليس على طائل من تاريخ المغرب العلمي والأدبي والسياسي ... بل أنه أولى بهذا الوصف من نفع الطيب لأنه خلاصة منقولة وزيدة ممخوضة ... »

وإذا اعترف كارل بروكلمان بأنه استفاد كثيرا من كتاب الأستاذ عبد الله كتون الذي قات بحثه في الأدب العربي - إذا كانت هانان الشخسيتان العظيمتان تدليان بما للنبوغ المغربي من قيمة جليلة فما عساي أن أقول .. وبالأخص في الطبعة الجديدة التي تعد بحق ازودع من الطبعة الأولى .

وبين يدي مجلد ضخم يبلغ حوالي ألف صفحة بورق صفيق وطباعة ابيقة وقد طبع هذه المرة في لبنان ، ولست إدري ماذا كان يمنع مطابعنا المغربية أن تشترك بطبع هذا الكتاب القيم ، أن دور النشر في بلادنا أصبحت كثيرة ولكنها ما تزال تجري من وراء الريح السريع ، ولذلك تكثر من طبع الكتب المدرسية ولكنها لن تقوم برسالتها الحققة إلا إذا تحملت مسؤولية نشر التراث المغربي والانماج الجديد في هذا الوطن . وقد لاحظت أن الأستاذ الجليل أعاد سيانته كثير

من العبارات ، وبعبارة ألفها من جديد كما أدخل تعديلات على بعض الأفكار والتعليقات ، وقد أعيدت كتابة بعض الفصول كالوسط الفكري في عصر الفتوح وقد خفف هنا من حملته العنيفة السابقة على البربر وعقليتهم « التي تسجت من الجهل والغبابة ولم يكن عندهم استعداد لقبول ما جاء به العرب من مدينة وعرفان ... » ولكن الأستاذ في الطبعة الجديدة غير الفصل وأن أبقى على بعض الأفكار الأخرى ، وقد ترجم في هذا الباب لمن فاته في الطبعة الأولى مثل دراس بن إسماعيل وأبو جيدة والأصيلي وابن العجوز كما ذكر أسماء شخصيات علمية وأدبية جديدة .

وفي هذه الطبعة أعطى الأستاذ المؤلف للدواة المرابطية حقها بعد أن لم تزل من الطبعة الأولى الأثر اليسير ، وقد أفرد لها فصلا خاصا بها استهله بقوله : « قد آن للبحث العلمي أن ينصف دولة المرابطين ويقول فيها كلمة عادلة لا تتأثر بعصبية بلدانية ولا بحمية دينية » .

والواقع أن الأغراض الشخصية والعواطف الجارفة والروح المسيحية المتعصبة كان لها الحظ الأوفر في تشويه سمعة المرابطين وتصويرهم بصورة الوحشية والغلظة والبعد عن المدنية ، وما خلت أمة

من طبقة المتفعين من الفساد ، الذين تهيب لهم الأجواء الفاسدة والتدهور السياسي والأخلاقي في الأمة شروط حياتهم وسعادتهم ، وإنما ان للاتجاهات الصالحة مناهلين يسترخصون أنفسهم وأموالهم في سبيل نصرة المثل العليا فكذلك للباطل والانحطاط والاتجاهات المتعفنة مناضلون ومخلصون وماذا كان ينتظر من عصاة من الماجنين والمتفعين من التعففات ، يقضون لبيالهم في اللهو والعث وفي الدس والمكر والاستغلال ، ويعيثون فسادا ، وينخرون جسم الأمة الإسلامية في الاندلس - ماذا كان ينتظر منهم إذ قام رجل صالح يردعهم عن منكرهم ، ويبحث فسادهم ، ويحرمهم لذائذهم ، وينقص عليهم انحلالهم وانحرافهم ، أنهم لا شك - كما وقع بالفعل - مفجرون أحقادهم ومرسلون لسانهم في السب والنسم في هذا الرجل ودوائه وتنهزا زوالها كما نرى في مواقف كثير من الأحزاب أزاء بعضها وبالأخص في الدول المتخلفة ، كذلك كانت قصة المرابطين مع الاندلسيين أو بعبارة أصح مع الطبقة الفاسدة والحاكمة منهم والذين أضاعوا كثيرا من الأجزاء الاندلسية وأوشكوا أن يسلبوا ما تبقى منها إلى النصارى كما وقع بالفعل بعد أن ضعف المغرب عن الدفاع عن الاندلس .

وقد كثف الأستاذ المؤلف عن أسباب الظلم في المرابطين ودافع عنهم دفاعا حارا بمنطق رزين واسلوب رائع وروح علمية ، وإبرز أن المرابطين كانوا كرماء ، حلماء مع أعدائهم واستشهد لذلك بشواهد عدة ، كما أنهم اكرموا المعتمد اكراما بالغا عندما أنزلوه طنجة وأغمات المدينة العظيمة المزدهرة ، وتركوا له الحرية التامة ، وكان الشعراء يقدون عليه ويتصلون به اتصالا حرا ..

وقال المؤلف عن رعاية المرابطين للأدب والعلوم : « ليس هناك من ينكر أن الأزدهار الذي عرفته الاندلس أيام المرابطين والموحدين بعدهم يكاد يفوق ما كان لها من قبل .. والصياة العلمية والأدبية التي ازدهرت أيام الموحدين ليست الا غرس ورعاية المرابطين » . والحق ما قاله المؤلف الكريم لأن الحياة العلمية ليست أمرا تلقائيا مفاجئا فلا بد من غراس وتغارس واجواء ملائمة سابقة ولولا المرابطين الذين أعطوا للمغرب الإسلامي بما فيه الاندلس أول قوة عظيمة يرهبها الأعداء ، وأشاعوا الأمن والرخاء واتاحوا الفرض للاتصال لما كانت تلك النتائج الاجتماعية والعلمية والأدبية التي شهدناها أوائل الموحدين وبعدهم .. ويقول المؤلف : « وما وقع من اضطهاد لبعض الأفكار

والعلماء في عهد المرابطين والموحدين وقع مثله في
الاندلس من قبل . ولعل هذه النزعة اندلسية ..
ويؤيد الاستاذ رايه بدلائل ، وبين ان احراق كتاب
الاحياء تولى كبرها ابو عبد الله بن حمد بن قاضي
قرطبة . وقد اسهب المؤلف في الدفاع عن المرابطين
من الناحية السياسية والروح العلمية وبين انه كان
للمرابطين ذوق ادبي وقدره على الحكم الفني ، وضرب
لذلك امثلة كما وجه امثلة اخرى كانت تفهم على
غير حقيقتها ، وقد كان اختيار المرابطين لكتابهم دليلا
على ذلك الذوق والتقدير لمثله الكتاب .. ويستازون
بالتجاوز عن الادباء الاعداء الذين كانوا يضرون لهم
السوء كموقفهم مع ابي محمد بن ابي الخصال وكان
هذا يحقد عليهم - وهو نعم في ظلمهم - وبهتبل الفرص
لنفت حقه وبث عواطفه الصريحة ، وقد تظن امير
المسلمين لمقامه ، بقول المؤلف : « ولا ندع هذه الحادثة
تمر دون ان نقيمها حجة على من ينهم المرابطين بعدم
الدوق الادبي وكثافة الاحساس الفني .. فكيف فطن
علي بن يوسف لمقام ابن ابي الخصال وتورياته التي
ظن انها تخفى على مخدومه ان لم يكن متقيا ... »
(ص 80 ج 1) .

وقد ترجم في باب الموحدين - شخصيات
جديدة لم تذكر في الطبعة الاولى مثل ابي الفاسم
الجزيري وابي محمد صالح وعبد الجليل القسري
- من القصر الكبير - وابن فرتون وابي حفص عمر ،
وقد فعل مثل ذلك في الكتاب كله .

واذا انتقلنا لقسم النصوص وجدنا انفسنا
امام نصوص جديدة لم تذكر في الطبعة الاولى وتصحيح
نبة بعضها كما قال في المقدمة ، ويقول المؤلف في
المقدمة : « ويقوى الداعي الى هذا التصحيح اننا
راينا الذين كتبوا في موضوع الادب المغربي بقدرتنا في
تلك الاغلاط .. » وباختصار فان الطبعة الجديدة
للتبوع تحمل معنى الجدة في الشكل والمضمون معا
يدل على الجهود الجبر الذي بذله المؤلف في سبيل
أمة ووطنه ، وبذلك سيظل اسم الاستاذ عبد الله
يكون دائما مقترنا بالادب المغربي باعتباره البطل الاول
والمرز في هذا الميدان فجزاه الله عن امته خير الجزاء .

وبعد فاننا نرجو ان يقدم لنا الاستاذ الجليل
دراسة وافية عن المراجع في الادب المغربي وعن قيمتها
وعن اماكن وجودها .

كما نطالبه ان يؤولف لنا كتابا خاصا بالنصوص
للالادب المغربي خلال عصوره الاسلامية بما فيها العث
والسمين .

واخيرا اعتذر اذا انا لم اف التعليق حقه لان
ذلك الامر شاق بالنسبة لضيق الوقت وارجو ان اوفق
للكتابة عنه بكل تفصيل عندما تتاح لي الظروف .

وقد تكلم الاستاذ المؤلف عن ولوع الاسرة
الرابطية الحاكمة بالادب والشعر ولم يقتصر ذلك
على الرجال بل شاركت النساء بنصيبهن في ذلك كالاميرة
بنت يوسف بن تاشفين وزينب بنت ابراهيم ، وقد
ترجم الاستاذ لبعض علماء وادباء هذا العصر ..

وقد راينا في الطبعة الجديدة فقرات رائعة عن
مدى تقدم انقارية في ظل الموحدين في ميدان الطبخ
والحلوى حيث كان لدى الموحدين اكثر من خمسمائة
اون من الوان الطعام والشراب والحلوى مما يدل على
الحضارة والرفي ، كما نحدث عن العلامات ومشاركة
المرأة في النهضة العلمية .